برنارد لويس   ب. م. هولت

مؤرخو العرب والإسلام

حتّى العصر الحديث

نقله إلى العربيّة وقدّم له

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار





- الكتاب : مؤرخو العرب والإسلام حتى العصر الحديث
- المؤلف : برنار لويس - ب. م. هولت
- المترجم : أ.د. سهيل زكار



2008



للتأليف والترجمة والنشر

دمشق - حلبوني - الجادة الرئيسية

تلفاكس 2236468 جوال 0944 330989

WWW.ATTAKWIN.COM
INFO@ATTAKWIN.COM
taakwen@yahoo. com
ص . ب : 11418

برنار لويس
ب. م. هولت



نقله إلى العربيّة وقدّم له

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار



تقديم

على رأس القضايا التي اهتم بها المفكرون العرب في العقود الخمسة الماضية ، وما زالوا قضية كتابة التاريخ العربي ، أو ما أطلق عليه تجاوزا اسم «اعادة كتابة التاريخ» ، وبعضهم جادل أنه لم يكتب بعد حتى يعاد ، وقال آخرون : الاعادة هي اعادة التصنيع والتاريخ يعتمد على الرؤى التي يعالج بها ، واستنفدت مسألة الرؤى والمعالجة جهداً كبيراً ، وتألفت لجان هنا وهناك إنما دون التوصل إلى نتائج مجدية .

ولا أنكر مكانة النقاش حول طرائق المعالجة والرؤى ، لكن أرى أن هذا كله يأتي في مرحلة لاحقة ، فالمرحلة الأولى لكل باحث في التاريخ تأمين مواده الأولية من مختلف المصادر والموارد والمراجع ، ومن ثم امتلاك الدربة والمعرفة للتعامل مع هذه المواد غربلة وتصنيفاً وتدبراً ، وبعد هذا كله قد تأتي مرحلة المعالجة والكتابة .

وكانت الجهود التي صرفت حتى الآن في هذا المنحى متواضعة جداً ، فعلى الرغم من نشاط حركة النشر العربية وازدياد الاقبال على شراء المصادر ، ما زال ما لم ينشر أو يعرف من المصادر أضعاف مضاعفة ما نشر حتى الآن ، والذي نشر حتى الآن لايحتوي إلا على بعض حقيقة أخبار ما حدث .

قد لا أتهم بالغلو إذا قلت: إن محتويات المكتبة العربية قد تجاوزت في يوم من الأيام العشرة ملايين كتاب ، فقد روي أنه في مناسبة واحدة أحرق أحد الكرادلة في غرناطة مايزيد على مليوني مخطوطة عربية ، وقبله بقرون تغير لون ماء الدجلة نتيجة ما ألقي فيها من مخطوطات من قبل المغول ، ومنذ ذلك الحين ما يزال هذا النهر العظيم متوشحاً بالسواد حزناً على ما آلت إليه الثقافة والمعارف العربية في حاضرة المنصور التي أرادها دار سلام فحولها الآن سفاح تكريت الى دار مقت وطغيان .

ومع هذا تحتوي المكتبات العامة والخاصة في الوطن العربي والعالم الاسلامي وخارجهما مئات الألوف من المخطوطات العربية في مختلف العلوم ، ولعل عدد الموجود يتجاوز المليون ، وقدرها أحدهم بأربعة ملايين .

ومن المقرر أن كل مخطوط هو مصدر بحد ذاته ، فكيف على هذا يمكن لأي فرد أو جماعة كتابة التاريخ العربي بدون الرجوع إلى المصادر جميعاً ، أو إلى الغالبية العظمى منها؟!

لا بد من وضع الخطط القابلة للتنفيذ لجمع كل الموجود من الكتب العربية بشكل مباشر أو بالتصوير ، ومن ثم اصدار الفهارس والكشافات ووسائل التعريف بهذه الكتب وإثر ذلك تدريب أعداد كبيرة جداً على تحقيق - أو لنقل : الشروع بتحقيق - ونشر جميع ما تم حصره ، وتسهيل وصول المنشور الى الباحث المختص والقارىء .

ومثل هذا المطلب ليس من باب الشطط أو الخيال ، فالمال متوفر لدى العرب ، والجامعات ومراكز البحث كثيرة ، والعصر عصر الحاسوب والوسائل والأدوات المتطورة .

ومن منطلق التعرف على المصادر ومعالجة موادها أقدمت على ترجمة الكتاب الذي أقدم له الآن ، وقد مضى على صدوره سنوات طويلة ، ومع هذا لم يتغير الحال كثيراً خلال هذه السنوات ، صدر الكتاب في لندن ، وجاء محصلة لمؤتمر أو أكثر عقد حول هذه المشكلة في معهد الدراسات الشرقية والافريقية في جامعة لندن ، والذين أسهموا في أبحاثه بعضهم عرب وأكثريتهم من غير العرب والمسلمين ، وجل هؤلاء ليسوا من أصدقاء التاريخ العربي الاسلامي .

وكنت منذ أمد قريب تمنيت في ندوة تلفزيونية ، عالجت بعض مشاكل الاستشراق ، أن ندفن جميع نتاج الاستشراق ونبني فوقه جسراً نعاود العبور عليه إلى تراثنا وإلى طرائق السلف الصالح في التفكير العلمي والمعالجة الاسلامية .

ولكن الباحث في التاريخ يتعامل مع ما حدث ، ومن المؤسف أنه لامكان للأماني في التاريخ ، والاقرار بهذا الواقع المرير فيه مسوغ لترجمة هذا الكتاب وتقديمة للقارىء العربي .

في أبحاث هذا الكتاب أعداد كبيرة من الافكار والطروحات أنا غير موافق عليها ، ولهذا عقبت على بعضها ، وميزت بين حواشي الباحثين وتعقيباتي بنجمة أو أكثر ، أي بعد استخدام الترقيم .

وفي هذا الكتاب بعض الأبحاث التي هي على درجة عالية جداً من الأهمية ، خاصة ما جاء حول الاستشراق وبعض المستشرقين ، وفيه أبحاث لمؤرخين عرب تدل عموماً على نضجهم وعلو امكاناتهم ولا يعكر هذا ظهور بعض المداهنة والرياء للغرب لدى باحث سوري أو أكثر .

أنا على يقين أن القارىء العربي سيحصل على فوائد كبيرة من هذا الكتاب وأن ترجمته جاءت بالتوقيت الصحيح ليدرك كل مواطن عربي أن دراسة التاريخ العربي والاسلامي ليست فرصة لتمجيد الماضي والعيش في ظلال هذا المجد ، بل ادراك خطورة سلاح التاريخ ، خاصة وأن كل مواطن منا صُنع في الماضي وبوده العيش في المستقبل وله ، وصورة الذات العربية قد تكونت في الماضي ، هذه الصورة التي كادت تتلاشى في هذا القرن لتحل محلها صور صنعت إما في الغرب الرأسمالي أو في الشرق الماركسي أو في بعض أقبية التآمر الصهيونية .

وعلى هذا إن فكرة الشعوب العربية مرفوضة كبديل لفكرة الأمة العربية الواحدة ، ومرفوض معها فكرة حضارة البحر المتوسط كبديل للحضارة العربية ، ولنتذكر أنه مهما فعل علماء الغرب في تمجيد الحضارتين الاغريقية والرومانية لايمكن الحديث عن هاتين الحضارتين بدون تبيان الموارد الخلاقة لهما من الشرق العربي ، ولئن ادعت الفاتيكان أنها وريثة روما فالمتربع على عرش اللاتيران وريث المسيح الذي كان فلسطينيا بكل ما تعنيه هذه الكلمة من أصالة عربية تاريخية .

والنكران الغربي لهذه الحقيقة قائم على الحسد المميت ومنبعث من الغرور والادعاء الأجوف وهو يذكرنا باسطورة الرجل الأبيض أو بشكل أوضح بقصة ابليس بعد ما خلق الله جل وعلا آدم عليه السلام .

نحن الآن كعرب وكمسلمين نعاني من أزمات خانقة جلها من صنع الغرب ، فالغرب هو الذي مزق العرب ، وسلب ثرواتهم ، وهو الذي أوجد اسرائيل ، إنما هناك الآن فرصة نادرة أمام العرب والمسلمين عليهم التمسك بها وعدم التفريط ، متذكرين أننا نملك طريق الخلاص لنا ولغيرنا في عقيدة التوحيد وبما حواه القرآن الكريم ، كلام الله المنزل وشريعته السرمدية .

مما لاشك فيه أننا الآن نعيش واقع الهزيمة ، إنما علينا أن نتذكر أن المعركة ماتزال قائمة وهكذا لن نلقي السلاح ولن نعلن عن استسلامنا .

لقد حقق الاسلام للمرة الأولى في تاريخ البشرية فكرة الثقافة الجماعية وأزال الفوارق ، فما أن يدخل الانسان بالاسلام حتى يجب ماضيه ويكسب هوية جديدة ، ولهذا مرفوض ما حوته بعض أبحاث هذا الكتاب من تعليل لقضية انتشار التشيع وعدم انتشاره ، فالمسألة ليست مسألة صراع بين الشعوب السامية والشعوب الآرية ، ذلك ان الحديث عن شعوب سامية هو حديث خرافة ، والتشيع ظهر أولاً بين العرب وما زال منتشراً ، ولقد اعتنقه الايرانيون لأسباب كثيرة ليس للسبب الآري بينها مكان ، وإذا أخذنا بالتفسير الآري كيف لنا أن نعلل مسألة قيام الخلافة الفاطمية في المغرب ثم انتقالها الى مصر ؟

والمستعرض لجل الأبحاث الاستشراقية يلفت انتباهه اهتمامها بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم ، وصحيح أن الذي أثار هذا الاهتمام هو الكراهية الكبيرة لشخصه الكريم ، إنما يمكن أن نستخلص من ذلك ادراكاً عظيماً لأهمية الدور الذي شغله النبي عليه الصلاة والسلام ولأهمية الدين كعامل فعال في حياة الشعوب .

لقد كان من جملة أهداف الاستشراق تشويه صورة الاسلام والتشكيك بأخبار السيرة النبوية ، ولقد آن الأوان أن نعاود قراءة كتب السيرة وفق المعايير الاسلامية التي وضعها علماء الحديث والفقهاء مع المؤرخين لا من خلال لامنس ،

ولا حتى من خلال مونتغمري وات ، فالاطلاع على آراء الأعداء والأصدقاء ووجهات نظرهم أمر والالتزام بالعقيدة والتراث أمر آخر ، رجال الاستشراق يشككون بالصحيح لدينا ويلتزمون بالواهي والمتناقض مما ورثوه كما فعل اليسوعي لامنس وسواه ، وهم كتبوا حتى يدمرونا من الداخل وبات من الواجب ان نكتب حتى نرمم ثم نشهق بالبنيان .

وسألفت هنا الانتباه الى مسألة سيلاحظها القارىء الكريم في مطلع كتابنا هذا تتعلق بابن اسحق وبكتاب السيرة ، فلقد تعمق الباحثون في تبيان ملامح شخصية ابن اسحق واهتموا اهتماما كبيراً بموارد كتابه في السيرة ، ولا شك أن بعض مواد ابن اسحق قد لا تصمد أمام النقد العلمي للوثيقة ، وهذا ليس بجديد فقد وقف عليه المحدثون وأهل الجرح والتعديل ، لكن القضية ليست قضية التوثيق انها الصورة الموحدة لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه وعصره ، هي مسألة المثل الأعلى الذي اتخذه كل مسلم وارتضاه لنفسه في مشارق الأرض ومغاربها ، وحين اتفق المسلمون على صورة المثل الأعلى لديهم جميعا توحدوا واقعياً وعملوا في سبيل صنع مجتمع واحد وحضارة واحدة وأخلاق متفق على أسسها ، إنما حين نقدم الآن طائعين أو مقلدين على توجيه النقد لبعض أخبار هذا المثل الأعلى نكون مسهمين بشكل خطير في تمزيق صفوف المسلمين وتشتيتهم وهذا ما نشهده اليوم .

إن المطلوب هو تهذيب هذه الصورة بشكل هادف وبنّاء ، وإزالة الشوائب منها وتحديثها ، لكن ليس تشويهها باسم النقد التاريخي أو النقد العلمي ، وهذا المطلب كان الدافع لابن هشام ولغيره ممن كتب في السيرة بعد ابن اسحق وهو ما نشعر به جلياً لدى ابن سيد الناس في مطلع كتابه عيون الأثر .

وخلاصة القول: إنه لا بد من التعرف إلى محتويات المكتبة العربية والمكتبات الاسلامية ، ومن ثم ايجاد طرائق لمعالجة التاريخ الاسلامي وتفسيره على اساس وحدة الأمة وتفاعل أحداثها ، وأن الذين صنعوا أحداث التاريخ العربي والاسلامي كانوا من البشر لكل منهم ظروفه وامكاناته واجتهاداته ومعطياته ، وبهذا قد نتخلى عن فكرة المؤامرة (سبأية أو أموية) وندع الاتكالية والخيال ونعتمد الواقع ونتعامل مع الحقائق .

ولا بد أيضاً مع مذاهب المعالجة من الاعتماد على طرائق جديدة للعرض والتصنيف ، ففي مخطط وضعته لكتاب أنوي - بعون الله وتوفيقه - تأليفه عن تاريخ العرب والاسلام سياسياً وحضارياً ، قسمت المواضيع على عدد كبير من الأبواب ، في كل باب عدة فصول ، فباب مثلاً للفتوحات وأعمال التوسع الخارجي ، وباب آخر للفتن الداخلية والمشاكل ، وباب للتطور الاداري ، وآخر للقضاء ، وهكذا حتى يستطيع القارىء التمييز بين مختلف الصور وحتى يزول الاختلاط والتداخل .

من الله تعالى أستلهم الرشد واستمد العون وله جل وعلا دوما الحمد والشكر والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه اجمعين .

سهيل زكار

توطئة

نظمت بين عامي ١٩٥٦ و١٩٥٨ مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن سلسلة من المؤتمرات الدراسية لمسح وتقويم مسار وخصائص الكتابات التاريخية حول شعوب آسية ، وليمكن معالجة هذا الموضوع الواسع تمت تجزئته ، ومن ثم جرى تبني طريقة التحليل لكل منطقة ، وهكذا فحصت مناطق جنوبي آسيا وجنوبي شرقي آسيا ، والشرق الأدنى ، والأوسط والأقصى ، كل بدورها ، وامتد المسح في العمق التاريخي من فترة الامبراطوريات الأولى والآداب عبر عصر الهيمنة الغربية ، وحركات التحرر إلى اليوم الحالي ،وتم تحليل الكتابات في كل من الأدبيات الغربية والآسيوية : وجمعت المؤتمرات أوائل العلماء الاختصاصيين المعترف بهم في هذه الدراسات من آسيا والغرب ، وكان لها تأثير جعلهم أكثر وعيا ليس فقط بالافتراضات المستبطنة والنزاعات والأحكام المسبقة بالتحيز للكتاب السالفين ، بل أيضاً بوجهات نظرهم كمؤرخين ، وهذه الأبحاث في طبيعة الموضوعية التاريخية هي الأكثر قيمة وتأثيراً ، لأنها تحدث في الوقت الذي ينشد فيه المؤرخون إعادة كتابة التاريخ الآسيوي ، وتعمل فيه شعوب آسية والغرب على تنظيم علاقاتها ، وفي التحضير لكل مؤتمر كانت الطرق نفسها تستخدم : تشكيل مجموعات دراسية تضم توازناً حكيماً بين العلماء الناضجين والمؤرخين من الشباب المتدربين من البلدان الاسيوية والغربية ، للقيام بتحليل

تفصيلي للأبحاث التي تم تحضيرها وفق خطة شاملة مقررة من قبل أعضاء بعيدي النظر متطلعين الى المؤتمر الوشيك ، وعلى هذا لم يقتصر عمل المؤتمرات على قراءة الأبحاث ، بل حاول حل المشكلات التي طرحها الباحثون .

واعتقاداً بأن هذه المؤتمرات قد أسهمت في رخاء الجنس البشري أريد أن أؤكد التقدير العميق لمؤسسة روكفلر التي وفرت القسم الأعظم من التكاليف المالية ، وأيضاً لبعد النظر والدعم من عناصرها الذين اسهموا بقدر كبير لصالح فعالية الأعمال المنجزة ، ومن منطلق أن الأبحاث المقدمة للمؤتمرات لها قيمة جوهرية متساوية عالية ، قدمت مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بسخاء الأموال لنشرها وترجمتها وإخراجها بالشكل المناسب وسوف تظهر بأسماء المحررين التالي بيانهم :

الاستاذ و.غ بيزلي Beasley والبروفسور : ى.غ . بوليبلانك E . G .Pulley blenk – الصين واليابان .

الاستاذ : د.غ.ى : هول D . G . E . Hall جنوبي شرقي آسية .

الاستاذ : ب . لويس B.lewis والدكتور ب . م . هولت B . M . Holt: الشرق الأدنى والأوسط .

الاستاذ : س . هـ . فيلبس : C . H . Phileps : الهند ، باكستان ، سيلان .

مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية

س . هـ . فيلبس

مدخل

استعمل مصطلح الشرق الأوسط للمرة الأولى في سنة /١٩٠٢/ من قبل المؤرخ الأمريكي البحري الفريد تايرماهان Alfred - Thayer - Mahan في مقال في الناشيونال ريڤيو نشر في لندن ، وقد اقترح هذا التعبير الجديد للتعريف بالمنطقة الممتدة بين الهند وشبه جزيرة العرب ، جاعلاً مركزها الخليج العربي ، وأخذ المصطلح الجديد ، واستعمل في صحيفة التايمز من قبل مراسلها في طهران فالانتاين شيرول – Valentine - chirol واستعمل فيما بعد في مجلس اللوردات من قبل اللورد كرزون Lord - curzon – وانتشر استعماله في الخارج بسرعة وحل – إلى أبعد الحدود – في الاستخدام البريطاني محل مصطلح «الشرق الأدنى» الأقدم بعض الشيء ، وذلك على الرغم من عدم الاستعمال الأمريكي له ، ومهما يكن من أمر فقد بقي يستخدم معه ، ويتعايش بشكل منعدم التحديد ، وكلا من المصطلحين هو حديث النشأة ، فالشرق الأدنى من نتاج دبلوماسية القرن التاسع عشر ، والشرق الأوسط من استراتيجية القرن العشرين ، وكلاهما مستمد بشكل واضح من عالم كانت فيه أوروبا الغربية مركزاً له ، وكانت المناطق الأخرى فيه ذات اهمية كما تراها أوروبا الغربية فقط ، وعلى الرغم من أصلهما الحديث ومظهرهما المحدود نوعا ما ، وانعكاسهما الكوني القسري ، فان هذين المصطلحين وخاصة /الشرق الاوسط/ قد اكتسبا قبولاً عالمياً واسعاً ، وهما يستعملان الآن

ليدلا على تلك البلاد ، حتى في المناطق التي تقع بالنسبة لها في الواقع إلى الشمال أو الغرب أو الجنوب ، وما هو أكثر إثارة ولفتاً للانتباه رواج المصطلح في الشرق الأوسط نفسه ، وقد يعجب المرء كثيراً من أن هذه المصطلحات الحديثة ، والتي هي بالأحرى اصطلاحات جغرافية لا لون لها قد أصبحت تطبق على منطقة مجمع على أنها أقدم مناطق الحضارة في العالم ، ذات تاريخ طويل شهير ، ولها شخصية مميزة معروفة ، وربما يمكن التماس السبب بدقة في حقيقة ان هذه المنطقة كانت لزمان طويل جداً : الشرق - الشرق القديم تقليدياً - الذي كان المجاور ، وكثيراً ما كان المنافس لأوروبا والغرب منذ الأيام التي عدت فيها الجيوش الغازية للملك الفارسي العظيم للمرة الأولى إلى اليونان ، وحتى الإجراء التعويضي الأخير للإمبراطورية العثمانية ، وفي وقت متأخر يعود إلى القرن التاسع عشر كانت ما تزال بكل بساطة بلاد جنوبي غربي آسيا ، وشمالي شرقي أفريقيا هي الشرق دون مزيد من التحديد ، وكانت مشكلة توزيعها ومستقبلها هي المسألة الشرقية ، وفقط في فترات قريبة نسبيا عندما اصبحت أوروبا متورطة في شؤون مناطق نائية من الشرق ، أصبح من الضروري البحث عن مصطلح أكثر قربا من المصطلح القديم المألوف ، وأطلق الاغريق في القديم للمرة الأولى اسم آسية على الأراضي الواقعة على الشواطىء الإيجية الشرقية ثم غيروه الى آسية الصغرى عندما لاح في آفاقهم أن آسية أكثر اتساعا من فارس والامبراطوريات نصف الأسطورية لكل من الهند والصين . وبالطريقة نفسها بدأت أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بتحديد الشرق بأدنى وأوسط ، معارضة للشرق الأقصى الواقع وراءه ، وعلى الرغم من هذا التغيير الحديث في التسميات ، والغموض المستمر بالنسبة لتحديده الجغرافي الدقيق فإن الشرقين الأدنى والأوسط على كل حال منطقة لها خصائص واضحة ، وسمات تاريخية محددة ، إنها أرض الحضارات القديمة أرض مجتمعات أنهار بلاد الرافدين ومصر ، وامبراطوريات هضبة الأناضول وإيران التي نمت وتمازجت وتلاحمت مع بعضها في امبراطورية الاسكندر ، وممالك الديادوشي : Diadochi ، وهي المنطقة التي شهدت ميلاد ثلاثة من الأديان العظيمة للبشرية : اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام .

وقد غدت منذ القرن السابع بشكل بارز ، ارض الإسلام ، فيها ولدت العقيدة الإسلامية ، وتشكلت الحضارة الإسلامية العتيدة ، فيها عاش خلفاء الدول الإسلامية العظمى وسلاطينها وحكموا ، وماتوا، وهناك ازدهرت الحضارات الاسلامية الأولى : حضارة العرب ، ثم حضارة الفرس فحضارة الترك ، ومع أن هذه الحضارات قد بادت جميعاً ، إلا انها ما تزال حية في الذاكرة المشتركة للمسلمين بمثابة ماض ديني مثالي لأمتهم الإسلامية ، ووجدت أيضاً شعوب أخرى ، ولغات وممالك في الإسلام بعد الدول العظمى في آسيا وفي أفريقيا ، وحتى في أوروبا ، ولكنها جميعا عدت ثانوية متقطعة ، وبمعنى آخر تابعة مرتبطة بقلب الإسلام في الشرق الأوسط ، كما هو حال الامريكيتين بالنسبة لأوروبا ، وترعرعت المدنيات الاسلامية الرفيعة التي تطورت فيها الانماط الإسلامية الأساسية ، والتقاليد الموروثة في الشرق الأوسط في الاراضي التي حكمها الخلفاء والسلاطين ، وهي أراض يسود فيها بشكل ساحق اللسان العربي والفارسي والتركي ويشمل هذا بعض التعقيد في التعريف السياسي الجاري في المنطقة ، فحسبما هو مستعمل في الوقت الراهن فإن مصطلح الشرق الأوسط يشمل كل من: تركيا وإيران ، وربما افغانستان ، والهلال الخصيب والجزيرة العربية وشمالي شرقي أفريقيا ، مع إمتداد غامض بعض الشيء باتجاه الجنوب والغرب ، ومن مصر نحو أفريقيا الناطقة بالعربية ، وبالماضي التاريخي الواسع يجب أن تكون ممتدة نحو الغرب إلى المغرب ، ولفترة من الزمن إلى إسبانيا ، وفي اتجاه الشمال إلى ما وراء الحدود التركية والإيرانية ، إلى أجزاء من شرقي أوروبا ووسط آسيا ، التي كانت حتى القرن التاسع عشر ما تزال جزءاً من الشرق الأوسط ، وهي بلاد يسكنها المسلمون الناطقون بالتركية أو الفارسية ، وهم متوائمون إلى درجة كبيرة في مواريثهم الدينية ، والثقافية ، والسياسية مع الأراضي التي ندعوها الآن «الشرق الأوسط» ، إنها بلاد شكلت في وقت ما جزءاً من دول الإسلام العظمى ، التي كانت فيها مدن مثل: غزنة وسمرقند وبخارى تشكل قسماً جوهرياً ، مثل دمشق وبغداد والقاهرة - إن الإسلام ديانة ذات إحساس تاريخي قوي ، والله ذاته - حسبما أورد السخاوي ، المؤرخ المصري للقرن الخامس عشر في دفاعه عن التاريخ - روى قصص الشعوب الماضية ،[٣] والقرآن نفسه في الواقع مليء بالعبر من دروس

التاريخ مثل قوله تعالى : ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾[4] ، ولقد كان محمد ﷺ مدركاً بعمق لمكانته في التتابع التاريخي للوحي المتدرج والمتوالي ، وقد وضع الإنسان في التصميم المناسب والواسع منذ بدء الخليقة إلى يوم الحساب ، وكانت بعثته حدثاً تاريخياً حفظت غاياته ومعانيه ، وتثبتت بالحفظ والتدوين ، وأعقب هذا تبني مبدأ الإجماع الذي بمقتضاه تم انتقال التوجيه الإلهي من النبي بعد موته إلى الأمة الإسلامية كلها ، مما اعطى أهمية مستمرة لأعمال تلك الأمة وتجاربها ، التي يمكن أن تتجلى في تاريخها أسرار المقاصد الإلهية على الأرض ، وعلى المستوى الأدنى إن الثقة المطلقة والهيبة المرتبطتين بصحابة النبي صلى الله عليه وسلم وأعوانه قد وفرت الحافز المتكرر للمتحدرين من الأبطال الأوائل ، والتابعين للعصبة القديمة ، لإعادة كشف الحقائق المتعلقة بالشخصيات والأحداث المرتبطة بظهور الإسلام وتأكيدها وتصحيحها ، وكانت المجتمعات الإسلامية منذ أزمنة قديمة مدركة تمام الإدراك لمكانتها في التاريخ ، ومعنية بتدوينه ليترك للعصور التالية ، واهتم الحكام المسلمون باخبار اعمال اسلافهم ، وتلهفوا لتدوين أخبار أعمالهم لتروى لخلفائهم ، ويبدأ التأريخ في الاسلام بسيرة النبي ﷺ ، وأخبار مآثر القبائل العربية ، ومن ثم بات لكل اسرة إسلامية حاكمة تقريباً حوليات أو تواريخ من نوع ما ، ويبدأ التاريخ في كثير من البلدان بشكل جدي بملوك الإسلام : وكان الهدف الرئيس لمؤتمر البحوث التاريخية المتعلقة بالشرقين الأدنى والأوسط الذي عقد في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن في عام ١٩٥٨ البحث في اتجاهات التاريخ ومفاهيمه ، ويثير طرح هذه القضية مسألة فيما إذا كان من المتوجب لدى البحث في المصادر الأساسية الإهتمام بأعمال الكتاب الغربيين أو تبيان الأكثر حداثة من الكتابات التاريخية العربية المتأثرة بالغرب ، وكذلك الفارسية والتركية ، وقد جرت بعض الأبحاث لكشف وجهات النظر والأفكار المسبقة للكتاب التقليديين ولأولئك الذين اتبعوا طرائقهم حتى القرن التاسع عشر ، مع أنه ما يزال ها هنا مجال لتحليل اكثر صقلاً ، وأكثر تعاطفا ، وبالمقابل لقي تطور الكتابات التاريخية الغربية عن الشعوب الإسلامية اهتماماً قليلاً ولم يقتصر تأثير هذا القصور على الدوائر الأكاديمية وحدها .

وبشكل أساسي إن الأفكار حول العالم الإسلامي التي يحملها غير المختصين في الغرب مستمدة من بحوث تاريخية أوربية عتيقة ، وهي مسؤولة عن الأحكام القاصرة والخاطئة . والموضوع الثالث لتحرياتنا هو ان أعمال التاريخ الحديثة ، من الشرقين الأدنى والأوسط نادراً ما تم دراستها مع أنها قد تأثرت بعمق بزخم الغرب ، فلقد تم على أعلى المستويات الإفادة من تقنيات المؤرخين الغربيين ، وهذا قصور آخر في معارفنا له أهمية تطبيقية كبيرة : إن صورة الماضي سواء الحديث منه أو البعيد حقيقة فعالة في وجهات نظر الشعوب المسلمة التي ينزع الغرب إلى الاستخفاف بها ، وتنعكس هذه الصورة في الكتابات التاريخية والإسلامية ، وتظهر فيها بوضوح ، وبكلمة موجزة إنها تحتاج لإيجاد مفتاح لوجهات النظر لدى الشعوب المسلمة الحديثة ، وإلى معرفة الكثير الكثير حول ما يعتقدونه عن تاريخهم ، حول قواه العاطفية المحركة بالنسبة لهم ، وموقفهم منه ، كعاكس لوعيهم الجماعي الراهن وهناك هدف أبعد ، وان كان عرضياً ، بالنسبة للمؤتمر ، وهو إلقاء الضوء على الحالة الراهنة في كشف المادة التاريخية واستخدامها الايحاء بمناح لمزيد من البحث :

وتشترك الأبحاث التالية في موضوع البحث التاريخي حول الشرق الأوسط منذ عصر قيام الإسلام ، وليست هناك بالطبع نية لمحاولة القيام بتغطية كاملة للموضوع ، إن هدفنا بالأحرى ان نجمع معاً عدداً من الدراسات عن موضوعات وظواهر مختلفة عن بعض المسائل العامة الكبيرة ، وبعض المشكلات المتميزة في الزمان والمكان والأصل، لا بل حتى عن كتّاب منفردين ، وفي إطار المجال المحدد بهذا الشكل ، إن المواضيع المعدة للدراسة قد صنفت في ثلاث مجموعات رئيسة :

(١) البحوث التاريخية في الشرق الأوسط المسلم قبل زخم التأثير الغربي ، أي وفق التقاليد الإسلامية الموروثة للتأريخ ، ويتكون هذا بشكل رئيس من أنماط مختلفة من الكتابات التاريخية بالعربية والفارسية ، والتركية ، مع بعض الإهتمام بأعمال التاريخ لدى الأقليات الدينية والعرقية .

(٢) البحوث التاريخية الأوروبية ، بما فيها الروسية حول الشرق الأوسط منذ العصور الوسطى حتى يومنا الراهن .

(٣) البحوث التاريخية في الشرق الأوسط في الفترة الحديثة التي تظهر زخم تأثير الأفكار الأوروبية وردود الفعل تجاهها .

وكان المؤتمر قد بدأ أعماله بشكل مناسب ببحث عن السيرة النبوية ، وعن العرض التاريخي المقدم من قبل الكتاب المسلمين لسلسلة الأحداث التي بدأ بها التاريخ الإسلامي وشكلت السيرة ، منذ أن عرفت للمرة الأولى في الثقافة الغربية عن طريق غوستاف ڤيل - - weil - gustav ١٨٤٣ [٦]، موضوعا للتحري المفصل لدى سلسلة من العلماء ، وقد تبنى الجيل الأول من المستشرقين الغربيين الذين اشتغلوا بالسيرة إجمالاً موقفاً ايجابياً ، وكانوا بعد استبعاد الفقرات الأسطورية الواضحة مستعدين لقبول معظم المتبقي كسجل دقيق لحياة محمد (ص) واعماله ومع ذلك أخذت معارفنا – منذ ذلك الحين – عن حياة النبي تتناقص أكثر فأكثر نتيجة لتطور الأبحاث العلمية التي شككت بالروايات الاسلامية الواحدة تلو الأخرى ، وقد أخضع كل من الفيلسوف الوضعي ليون كايتاني – واليسوعي هنري لامنس – من وجهتي تفضيل مختلفين الروايات لتحليل تاريخي ونفي دقيق ، ومغرض أحياناً ، في حين أن العمل الاكاديمي المدقق لتور اندري - - Tor - Andrae كان قادراً على بيان الدوافع والمؤثرات التي أدت بالمسلمين الأوائل إلى إعطاء شكل جديد ولون للصورة التي حملوها في قلوبهم لآخر الأنبياء وأعظمهم ، ومضى لامنس بعيداً إلى حدٍ رفض فيه كامل السيرة على أنها ليست أكثر من تأويل حدسي متميز لبعض فقرات من المحتوى الروائي في القرآن صيغ وفصل من قبل أجيال متأخرة من المؤرخين ، وفي حين يتمسك علماء آخرون بالموقف النقدي كان لهم رد فعل ضد هذه الصياغة المتطرفة وكان بيكر – Becker بشكل خاص مع رفضه لكثير من حجج لامنس ، كان مستعداً لقبول عناصر من الروايات طالما أنها غير مفندة ، وتبدو معقولة تاريخياً ،ونجد مؤخراً كثيراً جداً أن دراسات الأستاذ شاخت حول المواريث الشرعية قد ألقت شكاً على كثير من المادة المتعلقة بالسيرة ، وكان مما قاله : ان قسماً كبيراً من السيرة المعتمدة للنبي في المدينة كما ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني بعد الهجرة ، كانت من أصول حديثة جداً ، فهي تبعاً لذلك بدون قيمة تاريخية مستقلة [٧] – وأعاد الأستاذ مونتغمري وات في بحثه

فحص هذه المشكلة الجوهرية للتأريخ الإسلامي وقد تبنى موقفاً اكثر قرباً من التقاليد الإسلامية من ذلك النقد الحديث الأكثر تطرفاً .

وقد شدت مسألة العناصر اليهودية والمسيحية في الإسلام طويلاً اهتمام الباحثين ، وقد تولى الأستاذ روزنتال في بحثه التعرف إلى المدى الذي وصل إليه التأثير التوراتي في التاريخ الإسلامي ، مبتدئاً بزخم تأثير الفكرة التوراتية للتاريخ على النبي ﷺ نفسه ، ومتفحصا كلاً من دور المفاهيم التوراتية ، ومكان الموضوعات التوراتية في البحوث الإسلامية التاريخية(*) ، ولم يكن تجمع روايات الحديث الدينية أو الشرعية المصدر الوحيد للكتابات الإسلامية التاريخية القديمة ، بل كانت هناك ايضا المآثر العربية ، فقد عاش عرب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وفي عهود الإسلام الأولى ، وأنشدوا شعراً من النمط البطولي - القبلي ، البدوي ، شبه الحربي الذي تستحوذ عليه المعارك والثارات ، والشرف ، والغنائم ، والموت ، والقضاء والقدر ، والفخر الشخصي والعائلي والقبلي ، وكانت اشعارهم وأساطيرهم تعكس المفاهيم والاهتمامات لعصر البطولات والملاحم ، ولم يكن محمد ﷺ وهو أعظمهم جميعاً نبيا فحسب، لقد كان ايضاً بطلاً عربياً ، وقبل مضي وقت طويل ظهرت الكتابات لتحتفل بالمآثر وانتصارات النبي وصحابته في حروبهم ضد الكفار ، وهذه الأعمال مع أنها قد تكون أقرب للتاريخ في خصائصها وأهدافها من الروايات ، فإنها ما تزال بعيدة عن أن تكون تأريخية بالمعنى الصحيح ، إنها عرضية ذاتية تمثل سلسلة من الصور البطولية والأحداث دون اهتمام بالتقسيم الزمني ، والتواريخ الدقيقة للأحداث حسب تسلسلها الزمني وتتابعها أو اتساقها ، وبكلمة واحدة إنها قصص بطولات أكثر من كونها تاريخاً وأسهمت هذه العناصر من القصص الملحمية بعض الإسهام في توسيع

★ ـ ولكن فيها مع ذلك مواد غنية جداً يمكن استخدامها من قبل الباحثين ففي كتاب السيرة لابن هشام وغيره مجموعة من أشعار حسان بن ثابت ، كعب بن مالك وغيرها من المسلمين وبالمقابل هناك أشعار عبد الله بن الزبعري مع ما نظمه رجالات قريش ، وقد خضع جميع ما روى للنقد والتدقيق ، نقد الإسناد ونقد المضمون ، ثم إنه ما من تناقض بين الروايات الشفوية وما ورد في الشعر ، ونمتلك الآن روايات دونت بعد وفاة النبي ﷺ بجيل واحد ، مثل مغازي الزهري .

السيرة ، والأكثر أهمية مع ذلك كان دورها في تطوير مدرسة أخرى للتأريخ ، تم تفحصها في بحث الاستاذ الدوري وذلك خلافا للتقاليد المتعلقة بالسيرة التي صقلت في المدينة في المقام الأول فإن المؤرخين القبليين ازدهروا في العراق ، ولا سيما في المدن المنظمة على أساس عسكري كالكوفة والبصرة والمراكز الرئيسة للأستقراطية القبلية الفاتحة ، ويبين الأستاذ الدوري في بحثه كيف أن استحواذ الشرف القبلي المؤسس على الأعمال المجيدة لأسلافهم قد قاد إلى اهتمام جديد بحكايات الماضي ، وكيف أن هذا تطور وتنامى تحت زخم تأثير التنافس السياسي ، والديني ، والاجتماعي ، والاقليمي لقرون الإسلام الأولى ، ونتيجة لولاءات المجموعة الجديدة التي أرتبطوا بها (٨) ، ولم تكن أولى الروايات العربية ، روايات متصلة للأحداث ، بل مجموعات من القصص المنفصلة ، كل منها مؤيد بسلسلة من الأسانيد الموثقة ، يفترض أنها تعود إلى شاهد عيان ، أو مشارك ، وكانت تلك القصص القديمة تعتمد إلى حد ما على سلسلة من الأحداث مع المشاركين فيها ، وهي ترتبط في النهاية بالذاكرة الجماعية للمجتمع ، وربما تكون مؤيدة ببعض الصور من التدوين الكتابي ، ومن تلك القصص القديمة تطورت صور أخرى أكثر تعقيداً من التاريخ ، تطورت في وقت ما إلى حوليات للأسر الحاكمة ، والملكيات ، وتواريخ عامة ، ومجموعات من الأعمال ذات موضوعات أكثر تحديداً من مختلف الأنواع .

ويعالج البحث التالي ، المقدم من الأستاذ السير هاملتون جب واحداً من الأصول الجديدة وهو الأكثر أهمية ورواجاً ، إنه كتب الطبقات ، ومعاجم التراجم ، فهذه المعاجم كما بين الأستاذ جب هي أعمال إبداعية جديدة ، وهي وقف على الأمة الإسلامية ، تختلف تماماً في كل من المفهوم والتنفيذ عن مثلها من المشاريع الأقدم ، مثل فقرات التراجم الواردة في تواريخ اسر الحكم الصينية ، أو تراجم الشهداء المسيحيين في الكتابات السريانية، وقد تطورت معاجم التراجم العربية كجزء من أعمال التأريخ الرئيسة ، ووصلت في الوقت المناسب إلى مستوى مدهش وتنوع هائل ، وقد اوقف بعضها على فئات متنوعة من الأفراد ، مثل صحابة الرسول ، وقراء القرآن الكريم ، ورواة الحديث ، ورجاله ، والشعراء ، ورجال الأدب ، والأطباء ، والقضاة والصوفية ، وتعالج أخرى تراجم أشخاص

ارتبطوا بمدينة ما ، أو منطقة من المناطق ويندرجون في التاريخ المحلي ، وأخرى مجدداً هي من ذات النمط الأكثر تحليلاً ، وهي في الواقع مجموعات من أخبار وفيات ، مرتبة حسل التسلسل الزمني ، ويحدد الأستاذ جب في بحثه تطور تلك المجموعات المختلفة ومصادرها وقيمتها ويقدم بعض الاقتراحات حول المواقف والبواعث لدى الأمة الإسلامية ، التي أدت إلى إفرازها .

لقد كانت الفترة بين القرنين العاشر والثالث عشر فترة أزمة عميقة وتغيير ، وذلك عندما حارب الاسلام وانتصر في صراع جبار ضد ثلاثة اعداء متتابعين : ضد الهرطقة ، والنصرانية ، والوثنية ، فقد تم قهر الشيعة والبويهيين والفاطميين والإثني عشرية ، والإسماعيلة وتوقف هؤلاء عن الحاق التهديد بكل من الشرعية السياسية أو الإسلام السني ، وأوقف الصليبيون واقتلعوا أوطردوا، وأهم من كل ذلك أعمال الاجتياح والهجرة التي تولتها شعوب السهوب الوثنية القادمة من الشرق ، والتي تحولت فيما بعد بالهداية الدينية إلى مصدر جديد للحياة والقوة ، وفي مجرى هذه النزاعات والبعث السني الكبير الذي صحبها تحولت الدولة الإسلامية والمجتمع والحضارة ، وبدأت الحياة والثقافة في الأراضي الإسلامية بالتدفق في قنوات جديدة ، وقد انعكست هذه القنوات تماماً في الأدب التاريخي لذلك الزمان ، فقد حل محل أنماط الكتابة التاريخية التي كانت قائمة في عصر الخلفاء ، والتي اعتمدت على طرائق المحدثين مدرسة جديدة أكثر صقلاً للتاريخ ، كتبها رجال الإدارة للإدارة، وقد استندت على المعلومات الرسمية بدلاً من الروايات الشفوية ، وحدث في ظل الأسر التركية الحاكمة المزيد من التغيير ، وكان التاريخ ما يزال بلا شك جزءاً أساسياً من تعليم الموظف المدني ، وكان إلى حد ما مكتوباً بتلك النظرة ، بيد ان خريج المدرسة الدينية التي تولت تدريبه وظيفياً لعصور ما بعد السلاجقة كان شخصاً يختلف تماماً عن الكاتب الحكيم الدنيوي ، والأنيق في أيام العباسيين ، والذي يصفه الأستاذ روزنتال بقوله : كان عليه أن يكون على معرفة بمعارف وتواريخ الأمم: الثلاثة: الفرس ، والبيزنطيين والمسلمين ، وأن يكون على علم بمحتويات كتب الحكمة الفارسية مثل كتاب كليلة ودمنة ، وعهد اردشير ورسائل انوشروان ، وكان عليه أن يكون أيضا على اطلاع ومعرفة بسير الخلفاء وفترات خلافتهم إلى جانب مغازي الإسلام الأولى وكل هذا كان يؤهله

لأن يكون كاتباً مثالياً للدولة ، وقد أغنى رسائله ووثائقه كثيراً بإدخال الأمثلة المستمدة من مجموعة كبيرة من النوادر التاريخية ، ومن اجل صالحه الخاص توجب عليه أن يكون عارفاً بتواريخ الوزراء [٩] ، وهكذا نجد أن أبا شامة قد كتب بروح مختلفة جداً لقد كتب التاريخ كمذكّر بالفناء ، وتحضير للسرمدية [١٠] ، وهكذا ليس من باب المصادفة ان عدداً كبيراً من المؤرخين العرب الكبار للعصور الإسلامية المتأخرة - مثل ابن الجوزي والسخاوي ، وابن حجر - كانت اهتماماتهم الرئيسة وسمعتهم بين معاصريهم تكمن في مجالات اخرى غير التاريخ ، تكمن في العادة في العلوم الدينية ، ومع أنه ، كما يشير الأستاذ روزنتال لم يكن التاريخ في الواقع جزءا من منهج المدرسة ، فان المؤرخ أصبح رجل المدرسة ، وكان هذا تبديلا ليس ذا أهمية قليلة .

وتعالج الأبحاث التالية موضوعات وثيقة الصلة ، وتصور حركة التاريخ في الأراضي المركزية خلال تلك الفترة ، ويهتم بحث الأستاذ كاهن بحركة التاريخ للفترة السلجوقية مركزاً بشكل رئيس على الأعمال التي كتبت في العراق وإيران ، ويعالج الأستاذ محمد حلمي أحمد موضوع مؤرخي سورية ومصر في الفترة نفسها تقريبا ، ويعالج الأستاذ غابرييلي كل من الموضوعين ولكن بالنسبة لعلاقتهما لناحية واحدة هي الحروب الصليبية .

وكان من أهم فروع التاريخ الإسلامي فرع التاريخ المحلي الذي بدأ في وقت مبكر تماماً مع تأليف الأعمال التاريخية المتعلقة بالتراجم والطبقات ، والخطط المتعلقة بمختلف المدن ، والأقاليم في الدولة الإسلامية الكبرى ، وقد ازدهر هذا النمط من الكتابة بشكل خاص في الشرق ، حيث صنفت تواريخ خراسان وما وراء النهر إلى جانب تاريخ سمرقند ، وبخارى ، ومرو ، وبلخ ونيسابور ، وقم ، والمدن والمناطق الأخرى في إيران .

وجاء تطور التاريخ المحلي في المناطق الناطقة بالعربية ، قرب العواصم الكبيرة للخلافة التي كانت تهيمن عليها مجتمعات وديان الأنهر في العراق ومصر متأخراً نوعاً ما ، وعلى خطوط مختلفة بعض الشيء ، وإنما انتجت هناك أعمال هامة ، وأحياناً أعمال عملاقة ، وجرت هنا دراسة بلاد الشام والأندلس فقط ، في بحثين قدمهما كل من الاستاذ سامي الدهان ، والأستاذ شار بيلا ، ولقد تمتعت

بلاد الشام - التي غالباً ما كانت موضع نزاع بين حكام العراق ومصر - بفترات من الاستقلال النسبي عن كليهما ، وأدت تجزئة ريفها بوساطة الجبال والوديان إلى تنامي مناطق ذات حكم ذاتي قوي وولاءات ، وهذا منعكس في التواريخ الشامية المحلية حيث نكتشف أحياناً بعض الذكريات العزيزة المتبقية حول فترة قصيرة فاصلة وقديمة من تاريخ الدولة العظمى ، في ظل حكم خلفاء بني أمية ، أما في أقصى الغرب الإسلامي فسرعان ما نبذت الأندلس حتى السلطان الاسمي للخلفاء الشرقيين ، وتابعت تطوير استقلالها السياسي الخاص ، وبناء عليه فإنه لمن المثير أن يظهر الاستاذ بيلا أن الكتابات التاريخية فيها لابد وأنها كانت وثيقة الصلة بالتقاليد الشرقية ، ومتأثرة إلى أبعد الحدود بطرائق المشارقة .

وكانت المصنفات التي كتبت في القرون الإسلامية الأولى قد دونت باللغة العربية حصراً حتى أعمال المؤلفين الفرس حول موضوعات فارسية مثل تواريخ عدد من مدن ايران ، وأخذ منذ القرن الحادي عشر استخدام اللغة العربية للأعمال التاريخية يقتصر تدريجياً على البلدان الناطقة بالعربية ، من العراق إلى الاندلس ، وبدأ أدب تاريخي جديد في التطور باللغة الفارسية التي غدت الوسيط الأدبي المهيمن ليس فقط في فارس بل أيضا ، ـ لكن لبعض الوقت ـ في تركيا ، وآسية الوسطى ، والهند الإسلامية ، وجاء إثر ذلك اربع مقالات حول نواح من أعمال التاريخ الفارسي أو بالأحرى حول أعمال التاريخ باللغة الفارسية ، حيث أن كثيراً من مصنفات التاريخ المتقدمة باللغة العربية كانت قد كتبت من قبل كتاب فرس ، بما فيهم مؤرخون في منزلة البلاذري واليعقوبي والطبري .

وكان الاعتقاد لدى بعض العلماء أن التاريخ العربي كان متأثراً بعمق بالأعمال التاريخية الفارسية لما قبل الإسلام ، والتي فقدت ، ومضى بعضهم الى حد نسبة البدايات الأولى للتاريخ العربي إلى الاستلهام من النماذج الفارسية ، ويرفض البروفسور شبولر في مقالة شاملة حول تطور التاريخ الفارسي هذه الفكرة ، وعلى العكس فإنه يتمسك بأنه ليس هناك دليل على وجود أية بحوث تاريخية مكتوبة في فارس في زمن الفتح العربي ، يمكن ان تكون قد أثرت في الكتابة التاريخية الإسلامية ، وعندما كتب فارسي مسلم مثل الطبري التاريخ اتبع طرائق العرب

لأنه لم يكن يعرف غيرها ، وبالطريقة نفسها عندما بدأ الفرس بكتابة المصنفات التاريخية بلغتهم اتبعوا أنماط التأريخ العربي وطرائقه ، وإذا كان لفكرة فارسية مميزة أن تلتمس فإنها يجب أن توجد في الملاحم بدلا من الأعمال التاريخية ، التي سواء كانت مكتوبة بالعربية أو الفارسية ، فإنها تبقى معبرة عن فكرة التاريخ العربي الإسلامي ، ولم يكن قبل مضي فترة معتبرة قد بدأ ظهور النمط الفارسي للتأريخ ، وبحلول هذا الوقت باتت كتابة التاريخ الفارسي حصراً بالفارسية ، وتعالج المقالة التالية للدكتور ج . أ . بويل Dr . J . A - Boyle - أمر المؤرخين الفارسيين الرئيسين لفترة المغول وتناقش أعمالهما وتتفحص بالتفصيل المصادر التي استمدا منها ، ثم عرضهما المتعارض للأحداث نفسها ، وقد تناول الاستاذ مينوى Minovi - مؤرخا فرداً متميزاً آخر ، وذلك في بحثه حول البيهقي الذي كان كاتبا فارسياً في فترة ما قبل المغول ، له طراز واضح الاختلاف عن نمط المؤرخين الذين كتبوا بالعربية، وتناولت في المقالة المتبقية في هذا القسم الأستاذة لامبتون موضوعاً من الواضح أنه قد درس من قبل بالنسبة للتاريخ العربي وذلك من قبل الأستاذ جب الذي تفحص أدب التراجم الفارسي مع تبيان بعض سماته المميزة ، واجمالاً فإن التراجم الفارسية تتطابق مع نظرة الإستاذ جب في أن هذا الأدب يعبر عن إيمان بأهمية إسهام الأفراد في بناء الإسلام ، ومن الملاحظ بالنسبة للكتابات الفارسية أن العلماء هم الذين يشكلون أغلبية الموضوعات المهيمنة من التراجم ، وقد أعطيت أهمية صغيرة للفئات الحاكمة والرسمية ، وهذا يوحي حسب رأي الأستاذة لامبتون بأنه في الوقت الذي جمعت فيه تلك المادة الفارسية كان المجتمع والدولة قد تناميا مبتعدين ومتفارقين ، واحتلت اللغة التركية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر مكانها كلغة ثالثة في ترتيب الظهور في الشرق الأوسط المسلم وفي تركيا كما في فارس بدأت أعمال التاريخ بلغة عربية ، انما عربية صحيحة وكتبت الأعمال التاريخية الأولى للدولة العثمانية بالفارسية ، وسرعان ما بدأ ظهور أعمال بالتركية ، كانت في البداية ذات خصائص بدائية نوعا ما وتطورت مع الأيام إلى أدب تاريخي تركي غني ، وقد قدمت خمس مقالات في هذا القسم ، الأوليان من قبل الاستاذ ايناجك والسيد ميناج وعالج كل منهما ولكن بطرق مختلفة ،

المشكلة الصعبة التي نوقشت مطولا حول اصول أعمال التاريخ العثماني ، وبذلك أدخلا نمطاً جديداً للتأليف التاريخي لم يصادف من قبل ، وهو التقاويم التاريخية .

وتعالج المقالات الثلاث الباقية موضوعات خاصة : حيث عالج الأستاذ ـ لويس ـ استخدام المسلمين ولا سيما العثمانيين لمصادر تاريخية غير مسلمة،وعالج الدكتور . غ . ل . لويس الدور الذي شغله المؤرخ كرجل إعلام ، وكموظف علاقات عامة ، كما يتمثل في منشورات النصر العثماني ، والكتابات المشابهة ، وعالج الدكتور والش وعرض الكتابات العثمانية التاريخية والفارسية حول الصراع العثماني الصفوي الكبير في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتحتوي المقالة الأخيرة أيضاً على عدد من التعليقات الواسعة ، والنقد للتصنيف التاريخي العثماني ، لا بل في الحقيقة الإسلامي بشكل عام ، وكان الموضوع الأخير الذي درس في هذا القسم الأول أعمال التاريخ للأقليات الطائفية التي عاشت داخل الدول الإسلامية الكبرى .

مع أن هذه الكتابات هي من وجوه عديدة أفقر وأضعف من الكتابات التاريخية الإسلامية فإنها يمكن أن تفيد من وجوه عديدة في رفدها وضبطها ، وقد بين دي غويه وفلهاوزن في دراستهما للفتوحات العربية لبلاد الشام كيف أن الكتابات المسيحية يمكن أن تستخدم كضابط للترتيب الزمني للمصادر العربية ، ويمكن أحياناً أن تساعد في التوصل إلى قرار حول ترجيح روايات التراجم المتضاربة ، وقد بين كاهن بطريقة مختلفة كيف أن الروايات الرسمية حول الضرائب والإدارة يمكنها ـ مع الحذر الواجب ـ أن تتضخم بفعل ردود الفعل غير الرسمية لمن خضعوا للضريبة والإدارة[١١] ، ولم تقم كل الأقليات بإنتاج أدب تاريخي ، فبعض الطوائف ذات التعليم العالي مثل يهود الشرق الأوسط مثلاً ، مع أنهم تركوا كثيراً من الوثائق التاريخية ، نجدهم قد أنتجوا النذر اليسير من الأعمال التاريخية الأصيلة بين الفترتين الرومانية والعثمانية ، في حين نجد فيه أن تأثير النهضة الأوروبية يمكن اكتشافه في أدبهم[١٢] ، ويبدو أنه لابد من التذكير ونحن بصدد الحديث عن تطور تقاليد الكتابة في التاريخ أنه لم يكن لدى بعض الدويلات ، أو البلدان أو الكنائس أو الطوائف ، مثل اليهود ، التي كانت بدون كيانات سياسية ما يمكن أن يشكل أعمال أدب تاريخي من النوع المعروف في الشرق

الأوسط في العصور الإسلامية ، وقد يساعد هذا العامل نفسه على تفسير الفقر النسبي في الأدب التاريخي لدى طوائف الأقليات الإسلامية مثل الشيعة والخوارج[١٣] ، وإن نقص الاهتمام بالتاريخ بين الاسماعيلية يمضي حتى وقت أبكر في أدب الخلافة الفاطمية المحفوظ لدى اسماعيلية اليمن والهند ، والذي اكتشف حديثاً ، وهو يحوي القليل من المواد التاريخية المباشرة ، وربما يمكن أن نلتمس السبب لهذا في مفاهيم فلسفية مختلفة تقول حتى إنه مع نهاية الإمامة الحقة ، وإقامة ما كان بالنسبة للإسماعيلية خلافة مغتصبة أخذ التاريخ منعطفاً خاطئاً ، وتوقف عن أن يكون ذا قيمة أو أهمية .

وقدمت أربع مقالات في هذا القسم تعالج الأولى والثانية منهما الكتابات التاريخية العربية للبنان ، إنما من وجهات نظر مختلفة ، وكان موضوع د . صليبي أعمال التاريخ للكنيسة المارونية والإهتمامات اللاهوتية والطائفية لمؤرخيها . وكان السيد حوراني معنياً بالكتابات التاريخية في لبنان كما رآها وتعقبها عبر المراحل المتتابعة التالية : الكنيسة المارونية والأمة ، لبنان الإقطاعي ، كتاب لبنان المسيحي في القرن التاسع عشر ، ولبنان متعدد الطوائف في اليوم الحالي ، وتعالج المقالتان الباقيتان الأدبين التاريخيين الرئيسين في لغات غير إسلامية : الحوليات ـ السريانية وذلك من قبل الأستاذ سيغال Segal والحوليات الأرمنية من قبل الدكتور دوست Dr . Dowsett . وقدم كلا الكاتبين صورة مختصرة للخصائص العامة لتلك الأدبيات ومدى فائدتها لمؤرخي الإسلام .

ولقد صدرت الكتابات الأوربية التاريخية حول الشرق الأوسط المسلم عن التحدي الذي قدمه الإسلام للنصرانية ، وتم الإحساس بذلك على مستويين : كان هناك أولاً تحدي الإسلام كدين تال للمسيحية في الظهور ، ويحمل شبهاً للعقيدة الأقدم في نطاقه الديني ، ومع ذلك فإنه يدعى لنفسه وحياً أسمى ونهائياً ، ولم يكوّن التوحيد المشترك ، والميراث اليهودي المسيحي للإسلام تاريخياً أساساً مشتركاً للإتفاق بين الديانتين ، ورأت الغالبية العظمى من المسيحيين المحافظين : في الإسلام ، في أحسن الأحوال هرطقةً وضلالاً ، وغالباً ما نسبت الصورة المسيحية للإسلام ، المستمدة إلى أبعد الحدود من مصادر غير كافية ومشوهة إلى العقيدة الإسلامية انحرافاً خبيثاً بل شيطانياً ، ولقد كان تحدي الإسلام للمسيحية

على المستوى اللاهوتي عاملاً فعالاً ومؤثراً في العلاقات بين الجماعتين المسلمة والمسيحية لما يزيد على ثلاثة عشر قرناً ، وقد تأججت في فترات معينة بتحديات على المستوى السياسي في أوقات الصراع بين الدول الإسلامية والمسيحية ، وفي مثل هذه الأزمنة لم يعد الإسلام مجرد نظام منافس للاهوت ، بل موضوعاً لاهتمام سياسي شديد شائع ، وكان أكثر هذه التحديات السياسية خطورة ما تمثل في توسع القوة العثمانية من إمارة صغيرة في الأناضول إلى إمبراطورية عظيمة لا تحكم فقط الأراضي الإسلامية القديمة ، بل تحكم أيضاً الأراضي التي كانت لزمان طويل مسيحية في وسط وجنوبي شرقي أوروبا ، وشعرت النصرانية بزخم تأثير التوسع العثماني في البداية لدى البيزنطيين الذين خبروا بالفعل الفتوحات العربية والسلجوقية ، وجرى وصف اهتمام المؤرخين البيزنطيين بالعثمانيين باعتبارهم في المقام الأول خصوماً سياسيين يهددون أمن الامبراطورية في مقالة السير ستيفن رانسيمان التي ألح فيها على أهمية الكتابات البيزنطية للقرنين الرابع عشر والخامس عشر كمادة مصدرية للتاريخ العثماني القديم .

ومع التوسع المستمر للقوة العثمانية ، بعد الاستيلاء على الأرض البيزنطية اتسع مجال الكتابة الأوربية التاريخية حول هذا الموضوع ، وتعطي مقالة السيد باري بياناً عن مختلف أنماط المواد التي تتعلق بالامبراطورية العثمانية ، وذلك مما وصل إلينا من القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وقد اختار من أجل الدراسة المفصلة كتاب باولو جيوفو Paolo Jiovio (١٤٨٣ ـ ١٥٢٢) الذي كان مؤرخاً من مؤرخي عصر النهضة ، وكان بشكل خاص واسع الإطلاع على الشؤون التركية التي عاصرها .

وفي الوقت نفسه استمرت الكتابات حول الإسلام كدين جنباً إلى جنب مع مناقشة المشكلة العثمانية المعاصرة ، ويمكن بشكل عام تمييز طريقتين رئيسيتين للمعالجة : الأولى ، وكانت تلك التي عادت إلى الجدليين الدينيين الذين استمروا في القرنين السادس عشر والسابع عشر يحملون مفهوماً عن النبي والإسلام ، كان ما يزال مستمداً بقدر كبير من ركام المعتقدات الغربية للعصور الوسطى ، ويظهر استعمال تبعي للإسلام في الجدل في كتابات رجال مثل بريدو Prideaux ، وڤولتير ، وجيبون ، حيث كان هدف الكاتب ليس تحويل المسلمين أو إفحامهم بل

إرباك المسيحيين الآخرين ، أو بالتلفظ بتعابير ذات مظهر تاريخي فيها إغاظة ومقاومة لرجال اللاهوت لتدخلهم في الشؤون العامة ، وذلك حسب طرائق العلماء والفلاسفة المتنورين .

وكانت الطريقة الثانية للفهم في تلك الفترة ، هي طريقة العلماء الذين اهتموا أولاً وقبل كل شيء بالحصول على المعلومات عن الإسلام ومن ثم استخدامها ، وكذلك بجمع النصوص ونشرها من قبل المستشرقين الرواد مثل أربينوس Erpenius ، وبوكوك Pococke في القرن السابع عشر الأمر الذي أرسى الأسس لفهم مبني على إطلاع متفهم للحضارة الإسلامية ، ومع أن أولئك العلماء القدماء قد أظهروا اهتماماً ملحوظاً بالكتابات العربية التاريخية ، وبالنصوص التاريخية ، (مع القرآن) التي كانت أول ما طبع في أوروبا فإنهم كانوا في معظمهم من غير المؤرخين ، ويمكن أن يرى أوائل تأثيرهم في التلطيف التدريجي للصورة الغربية التقليدية للإسلام ، وقد ترافق هذا مع بداية اهتمام الجدليين الدينيين بالمعلومات الأكثر جدارة بالتصديق التي قدمها المستشرقون ، زد على هذا أنه حتى عصر متأخر مثل القرن الثامن عشر كان ما يزال متعذراً رسم خط سريع وواضح بين الجدلين الدينيين وبين العلماء ، ومع ذلك كان هناك تحول مميز في المواقف تجاه الإسلام في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهذا ما تم إيضاحه في مقالة الدكتور هولت حول بريدو ، وأوكلي OCKLEY وسيل Sale[١٦] .

وقبل القرن التاسع عشر لم يظهر التاريخ الإسلامي كنظام مستقل ، فقد كان تابعاً لدراسات لغوية وأدبية (وهي نفسها كانت ملحقة بعلوم العبرية والعهد القديم) أو كان يعدّ ـ على سبيل المثال ـ من قبل جيبون كملحق بتاريخ العالم الكلاسيكي ، وظهر بحثان تاريخيان رائدان وهامان في وقت مبكر من القرن الثامن عشر هما «تاريخ المسلمين العرب» لأكلي (١٧٠٨ ـ ١٧١٨) و «حياة محمد (ص) » لغاغنير Gagnier (١٧٣٢) وبات علينا أن ننتظر ليس أقل من مائة سنة تالية حتى نصل إلى بداية التدفق الحديث للكتابات حول مختلف فترات ونواحي التاريخ الإسلامي ، وكان التأثير المهيمن على الدارسين الأوربيين للإسلام في القرن التاسع عشر ، أو أوائل القرن العشرين هو مفهوم التاريخ العلمي ، وبقيت على أي حال المواقف الأقدم في الانتقاص من النبي (ص) ومن مظاهر معينة من الدين التي تقود

إلى موضوعات من القرون الوسطى ، وفي المقارنة والمعارضة التفضيلية بين الإسلام والمسيحية ، وفي التقاليد المعادية لرجال اللاهوت لتدخلهم في شؤون الحياة وذلك من قبل حركة التنوير الفلسفية ، وحققت أوروبا أيضاً خلال القرن التاسع عشر تفوقاً عسكرياً وسياسياً ومادياً على الشرق المسلم ، ولكن هذه الهيمنة غير الوطيدة سرعان ما تزعزعت بحروب وثورات القرن العشرين وانعكست ثقة الفترة المبكرة السالفة ، واضطراب النفوس بعد الحرب العالمية الأولى على موقف الكتاب الأوربيين تجاه الإسلام ، وقد عالج الأستاذ فوك Fuck تلك الموضوعات في مقالته حول الإسلام كمشكلة تاريخية في أعمال التأريخ الأوربي منذ (١٨٠٠)[١٧] وكان ما رسمه فوك لمخطط التطور قد أردف بأربعة أبحاث حول مجالات أكثر تحديداً . وقد اتخذ الدكتور دنلوب موضوعاً لنفسه هو البحث في أول الأبحاث التاريخية العلمية في القرن التاسع عشر من قبل غوستاف ڤيل Gustav Weil الذي لم يكن كتابه «تاريخ الخلفاء» مهماً فقط في ذاته كتاريخ مختصر تأسس في حينه على مادة غير منشورة في معظمها ، بل لأنه كان أيضاً مصدراً كبيراً لكتاب السير وليم موير William Muir «تاريخ الخلافة» . وتولى الأستاذ صليبي معالجة شخصية مثيرة للجدل هي شخصية هنري لامنس الذي جمع في كتاباته عن النبي (ص) وتاريخ الإسلام المبكر بين تقنية البحث العلمي في التاريخ ، والموقف غير المتعاطف لا بل أحياناً المعادي لقضية موضوعه : إنه مزيج من العلم والتحامل يذكرنا بمراكسي Marracci في أواخر القرن السابع عشر . واعتنت مقالتا الدكتور ياب والسيد هيل Hill بالمؤرخين غير الأكاديميين ، وبيّن الدكتور ياب كيف أن صور التاريخ الفارسي المقدمة من قبل مالكولم Malcolm وسايكس Sykes كل على حدة قد تأثرت بخلفيتهما البريطانية ، وبطبيعة عملهما في إيران ، أما مقالة السيد هيل فهي بقدر كبير دراسة للأبحاث التاريخية المتباينة بشأن المواقف تجاه التاريخ السوداني الحديث الذي تبناه الكتاب الذين تأثروا بقوة بمقاومة الرق ، أو الذين دافعوا عن ، أو عارضوا مطالب المصريين بالحكم السوداني .

ومنذ الثورة الشيوعية لعام ١٩١٧ وقفت الكتابات التاريخية الروسية بمعزل عن الجسم الرئيس للثقافة الأوربية ، وقد تم تفحص طبيعة الأعمال التاريخية السوفييتية بالنسبة لعلاقتها بمجالين خاصين من قبل الأستاذ فراي Frye والعقيد

ويلر Wheeler ، والأستاذ فراي معني بشكل رئيس بالكتابة السوفييتية حول آسيا الوسطى في القرنين التاسع والعاشر . ، وهو يلح على أهمية البحث المفصل في الفن ، والآثار الحضارية ، وعلم النميات ، ودراسة النقوش ، والتحرر النسبي لمثل هذه الأعمال من الهيمنة العقدية الماركسية ، ويظهر تضاد ملحوظ ـ طبقاً لرواية العقيد ويلر في المعالجة السوفييتية للتاريخ الفارسي من ١٩٠٦ إلى ١٩٤٦ ، فهنا نجد أن عرض الأحداث وتفسيرها محكوم باعتبارات عقدية وسياسية[١٨] . وفي حين أن هذه الفترة من التاريخ الفارسي كان ينظر إليها بشكل ثابت على أنها حركة سياسية للتحرر الوطني ، كان هناك تحولات كبيرة من الموقف على سبيل المثال بالنسبة للسياسة القيصرية ، وبدأت في القرنين التاسع عشر ، والعشرين حقبة جديدة في أعمال التاريخ للشرق الأوسط دشنها الزخم المؤثر على مؤرخي الشرق الأوسط الذي جاء من أدبيات التاريخ في الغرب ، وقد أثرت ترجمة البحوث الغربية إلى اللغات الشرق أوسطية ، لا بل بدرجة أكبر المعرفة المتزايدة للشرق أوسطيين باللغات الغربية والأدب بعمق في أعمال المؤرخين الذين بدؤوا يحصلون على مفاهيم جديدة ، وطرائق جديدة ، وأهداف جديدة لأعمالهم ولم تتوقف بالطبع أعمال التأريخ التقليدية ، بل إنها على العكس استمرت ، وكثيراً ما كان ذلك في صورة متدنية ومتدهورة نوعاً ما في اللغات الثلاث للمنطقة ، وانساحت أحياناً على اللغات الغربية ، وذلك في أعمال مختلفة عن أصول وأشكال البحث العلمي المعاصر ، وهي تكشف اهتماماً بالإنجاز بدلاً من التطور ، وتفضيلاً للجمع بدلاً من التحليل .

وأكثر الكتابات أهمية على أي حال تلك التي تبدي بعض الإستجابة للإثارة الغربية ، وبعض المحاولة لتبني الطرق الغربية وتطبيقها ، ومع نمو الأدب الجديد واتساعه بدت تغييرات كبيرة ظاهرة : الأولى توسع حقل الاهتمام بالزمان والمكان ، والمحتوى على السواء ، فقد أصبح المؤرخ مهتماً بالأزمان السالفة لظهور الإسلام ، وبالأراضي التي كانت تقع خلف حدوده ، وأخذ في الوقت نفسه يسعى للتوغل تحت الحركة السطحية للأحداث إلى المستويات الأعمق للتاريخ الإداري والاجتماعي والاقتصادي ، وهكذا نجد في القرن التاسع عشر رفاعة رافع الطهطاوي بمصر يكتب أول بحث عربي جدي عن الفراعنة ، في حين أعطى

سليمان باشا في تركيا القراء الأتراك أول عرض تاريخي بالتركية عن ماضيهم قبل الاسلام [١٩] .

وتزايد في الوقت نفسه الاهتمام بتاريخ أوروبا ، وقد تركز في البداية على الأبطال والبطلات ، وهكذا فإن أول التراجم المنشورة كانت كتابات عن نابليون والامبراطورة الروسية كاترين ، وقد أنتجت في مصر ، ولكن باللغة التركية عامي (١٨٢٩ و١٨٣٢)[٢٠] وظهر كتاب بطرس الأكبر لفولتير بالفارسية (١٨٤٦) وباللغة العربية (١٩٤٩) في حين أثار كتابه شارل الثاني عشر اهتماماً واسع النطاق[٢١] وقد أعقب هذا تراجم لأعمال أكثر عمومية في التاريخ الأوروبي ثم أعمال أصلية حول الموضوع نفسه ، وأخيراً بدأت هذه المعرفة الجديدة بالتاريخ الغربي ، ومناهج البحث التاريخي تؤثر في كتابات تاريخ الشرق الأوسط أيضاً ، وتتضح أولى مراحل التغيير بصورة جيدة في عملين تاريخيين كبيرين للقرن التاسع عشر وهما تاريخا العثمانيين لأحمد جودت باشا (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) ولمصطفى نوري باشا (١٨٢٤ ـ ١٨٨٩) فقد كان كلاهما أصولياً وتقليدياً في مظهره ، ولكن كليهما أبدى تجديدات هامة ، وفي حين أن جودت لم يمض بعيداً جداً عن منهج التاريخ التقليدي نراه يوسع بشكل كبير الإطار الذي يقدم ضمنه تاريخه ، حيث عالج ببعض الإطالة حوادث من التاريخ الأوروبي ، منها الثورة الفرنسية ونابليون ، لا بل عالج الثورة الأمريكية ، وبذلك أبدى نوعاً جديداً من الوعي التاريخي ، وأدرك أنه حتى تاريخ الدولة الإسلامية الكبرى يمكن أن يكون مفهوماً فقط في إطار حقل أوسع كثيراً من البحث التاريخي ، ونجد في عمل نوري باشا أن توسع الإطار المرجعي هو نوع مختلف ، وذلك على الرغم من صورته التقليدية وطريقته ، فكتابه يكشف وعياً واضحاً بأن تغيرات كبيرة قد حدثت ، وأن المؤلف يصف عالماً ومجموعة من الأعراف والقوانين والمؤسسات الاجتماعية التي لم تعد موجودة ، وهي بناء عل ذلك بحاجة إلى شرح وتفسير ، وهكذا كان هناك توسع في البعد الزمني لدى نوري كما حصل في البعد المكاني لدى جودت ، ويمكن ملاحظة هذين الأمرين في أعمال المؤرخين المتأخرين إلى جانب تطور أكبر في مجال الكتابة التاريخية ومضمونها حيث أصبح المبدأ والمثل المحتذى في البحث العلمي الأوروبي معروفاً بشكل أفضل فيما بعد ، ولم يكن أقل أهمية تأثير أولئك من

المستشرقين الذين شغلوا أنفسهم بتاريخ الشرق الأوسط ، الذين قدمت أعمالهم لقراء الشرق الأوسط وطلابه سلسلة من الأفكار الجديدة حول الكيفية التي يجب أن يدرس بها تاريخهم ويُعرض ، وجاء مع تلك الموضوعات الجديدة طرائق ومواد جديدة تمثلت في دراسة التاريخ القديم في مصر وفي أماكن أخرى قامت بدرجة كبيرة على علم الآثار ، وكان لا بد لعلماء الشرق الأوسط أن يتأثروا بأعمال الكشف الهائلة الجارية من حولهم ولقد عمل رجال مثل محمود باشا الفلكي (١٨٠٥ ـ ١٨٦٨) وأحمد باشا كمال (١٨٥١ ـ ١٩٢٣) وعلي بهجت (١٨٥٩ ـ ١٩٢٤) الكثير ليضيفوا إلى المعرفة الجديدة ما هو أهم بعد أن يجلبوها إلى مواطنيهم ، وفتحت علوم النميات طرقاً جديدة حتى لمؤرخي الإسلام ، من ذلك العمل الرائد للعالم التركي عبد اللطيف صبحي المنشور في ١٨٦٢ الذي تبعه آخرون كثر[٢٢] ، وعلى وجه الإجمال ، ومهما يكن من أمر فقد أحدثت هذه العلوم التاريخية المساعدة زخماً تأثيره أقل من الأعمال العلمية في دراسة النصوص ، وفقه اللغة في الغرب والتي تتماشى بقرب أكبر مع التقاليد الوطنية المكتوبة ، وقد أحدثت استجابة واسعة النطاق في كشف وتحقيق ، ـ لكن بدرجات متفاوتة الكفاءة ـ لنصوص ووثائق مفقودة أو منسية ، وقد ارتبط بهذه التغيرات بشكل وثيق في المجال وفي تقنيات الكتابة التاريخية تطور ثالث بالغ الأهمية في وحدة العرض التاريخي وكيانه ، ففي مصر القرن التاسع عشر كان تعبير الوطن الذي كان يعني حتى الآن المنزل أو الإقامة يحرز للمرة الأولى المفهوم السياسي للأرض الأم ، وجرت المحاولات الأولى لكتابة تاريخ مصر ، وليس تاريخ أسرة حاكمة ، أو طائفة دينية ، أو اقليم أو مدينة ، أو امبراطورية شاملة بل أرض مصر ، وطن المصريين ، وجاء هذا نتيجة مباشرة لاستيراد الفكرة الغربية الأوربية للأرض الأم الدنيوية ، وللعلاقات العميقة والدائمة بين الأرض وهؤلاء الذين يسكنونها ، وأدت بالتالي إلى تأكيد الوحدة مع الحضارات المحلية الأقدم أو التي تقدمت في الوجود ، وللمرة الأولى بدأ مسلمو الشرق الأوسط بالعودة بنظرهم إلى جذور هويتهم التاريخية المشتركة ليس فقط إلى الدول الإسلامية العظمى المعروفة ، بل أيضاً إلى ما رسى وراءها ، إلى الحضارات المنسية في القدم ، والماضي الغابر لما قبل الإسلام ، وشغل في تلك الحركة التي تربط مسلمي الشرق الأوسط ليس فقط مع

أسلافهم الوثنيين بل أيضاً مع جيرانهم المسيحيين ، وأعضاء الأقليات المسيحية دوراً هاماً ، وشروعاً من مصر انتشرت الحركة إلى بلاد أخرى وأفرزت سلسلة من مدارس التاريخ الوطني المعني بتاريخ لبنان والفينيقيين ، وبتاريخ العراق والآشوريين ، وبتاريخ تركيا والحثيين ، وبتاريخ إيران ، والامبراطوريات القديمة للأخمينين والساسانين ، وكان كل هذا يعتمد بالضرورة على البحث الغربي ، وعلى الطرائق الجديدة ، والمواد التي تستعملها ، ولم تكن الفكرة الغربية الأوربية عن الوطن الأم التجديد الوحيد ، فقد جاءت من الامبراطوريات المتعددة اللغات في وسط وشرق أوروبا حيث يوجد ولاء أكثر خيالاً ووهماً وحيث تسود القومية بدلاً من الوطنية ، جاءت فكرة الأمة بمعنى القوم أو العرق ، ومعها تاريخ جديد ، ليس لتركيا بل للأتراك ، وليس لمصر أو سورية أو العراق بل للعرب ، وعالجت أول مقالة في هذا القسم والمقدمة من الأستاذ أيالون سيرة المؤرخ المصري الجبرتي الذي كان آخر أعظم مؤرخي المدرسة التقليدية ، ومن بعض الجوانب الأول من المدرسة الجديدة ، وسلف أن نشرت هذه المقالة بصورة موسعة في مكان آخر ، وعليه فإنها تقدم هنا بإيجاز[٢٣] ، وتأتي بعد ذلك ثلاث مقالات كلها تعالج بطرق مختلفة زخم تأثير العرب على الكتابة التاريخية للشرق الأوسط ، وموضوع الأستاذ الشيال موضوع واسع إنه حول حركة التاريخ في مصر في القرن التاسع عشر[٢٤] ، كما أن الدكتور كوران مهتم بشكل مماثل تقريباً بحركة التاريخ التركي في الفترة من ١٨٣٩ إلى ١٩٠٨ ، وعالج الدكتور كاظم زاده بشكل أكثر تخصيصاً مسألة النفوذ الغربي في الفترة المتأخرة نوعاً ما فهو قد اهتم بأواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

وتؤكد المقارنة بين هذه المقالات الحاجة إلى ترابط وثيق بين دراسات العرب والأتراك وإلى حد أقل الإيرانيين للتاريخ في القرن التاسع عشر ، وبشكل خاص للتطور الفكري في المناطق الثلاث ، فحتى فترة متأخرة جداً كانت نسبة كبيرة من الفئات المتعلمة في البلاد العربية في آسيا تعرف التركية ، في حين كانت تلك التي في تركيا تقرأ كلاً من العربية والفارسية ، وتلقى كثير من النخبة العربية المتعلمة ولاسيما في سوريا والعراق تعليمه ليس بدرجة كبيرة من المدارس الفرنسية والأمريكية والكليات التي ربما بولغ في التأكيد على أهميتها[٢٥] ، وذلك بقدر ما تلقته

في المؤسسات التعليمية التي أنشئت في المراحل المتعاقبة من الإصلاح العثماني ، وبالتالي إن التطورات يمكن فقط أن تقدر تماماً في هذا المحيط الأوسع ، فحركة الترجمة على سبيل المثال تظهر مثل هذا التناظر والتماثل ، حتى إنها لا يمكن بأية حال أن تنبذ على أنها مصادفة محضة(٢٦) ، هذا وأشار الأستاذ الشيال إلى افتتاح معهد مصر في الاسكندرية ١٨٥٩ ، وجمعية المعارف ١٨٦٨ وبالتأكيد يجب أن يكون هناك ارتباط بين هذه وكل من الأنجوميني دانيش التركية المقامة في استانبول في ١٨٥١ والجمعية العلمية المؤسسة في ١٨٦٠ وذلك أن اسم جمعية المعارف وأنجوميني ـ دانيش يعني الشيء نفسه ، وقد تولت الجمعيتان العمل نفسه إلى أبعد الحدود(٢٧) . وساعد إدخال طرق ومواد جديدة ، ورد الفعل والاستجابة لصورة الغرب عن الماضي ، على ظهور أعمال تاريخية وطنية جديدة في بلدان الشرق الأوسط ، مع صورة ذاتية وطنية جديدة ، وتتفحص مقالة الأستاذ فارس معالجة موضوع واحد هو النزاع بين علي ومعاوية ، في أعمال التاريخ العربية الحديثة حيث بين كيف أن المشكلات الجديدة والمفاهيم قد غيرت التفهم والعرض حتى بالنسبة للماضي الإسلامي التقليدي . إن الشرق الأوسط أرض الأساطير ، وحتى اليوم إن قدرة خلق الأساطير ما زالت تعمل بين الذين يسكنون هناك والذين يمرون ، وقد ظهرت أساطير جديدة بنمط حديث ، ظهرت وتطورت لتشرح الحقائق غير القابلة للشرح للطبيعة والتاريخ ، ولا ترتكز الصورة المعاصرة للماضي في العالم الإسلامي على الكتابات التاريخية الرسمية فقط ، فهي تدين بالكثير أيضاً للأعمال الشعبية من مختلف الأنواع : كالروايات ، والمسرحيات ، والسينما ، والراديو والآن التلفزيون ، وتعالج مقالة الأستاذ ريزيتانو أبحاث مؤلف درامي عربي ، وتقدم كشفاً هاماً لبعض المواقف السياسية والاقتصادية التي تؤثر في وصف الأحداث الماضية .

وتشكل مشكلات الصورة الذاتية والتاريخية والوعي المشترك موضوع المقالتين النهائيتين للأستاذ فون غرونباوم والأستاذ كانتويل سميث ، وفي حين أن الأول عُني بصورة الإنسان والتاريخ في عقول المؤرخين حاول الثاني أن يوضح مفهوم تعبير الإسلام كما كان يستعمل في فترات مختلفة من قبل المسلمين ، وقد افتتحت مناقشة الاثنين من قبل السيد حوراني ببيان تمهيدي نقل من تقرير

المناقشة ، وهو موجود ضمن هذا المجلد ، ومن الواضح أن مسح الكتابات التاريخية الذي تشتمل عليه هذه المقالات الإحدى والأربعون يظهر أنها بعيدة عن أن تكون تامة ، كما أن عدداً من الموضوعات الرئيسة لم تمس مطلقاً ، من ذلك على سبيل المثال : التاريخ الرسمي العربي التقليدي للقرنين التاسع والعاشر ، ومؤرخو مصر في عصور الأسر الحاكمة المستقلة من الطولونيين إلى المماليك ، والأدب التاريخي للنهضة الثقافية والسياسية في إيران ، والترتيب الزمني للأحداث في السلطة العثمانية في فترة القوة ، والأدب التاريخي باللغة العبرية من القرن السادس عشر إلى اليوم الحالي ، والتواريخ المحلية لشمال أفريقيا ، والجزيرة العربية ، والعراق ، والأناضول وكثير من الأماكن الأخرى .

ولا تحتوي دراسات الكتابة التاريخية الأوربية أية رواية عن الشرق الأدنى والأوسط في المصادر الغربية المسيحية في العصور الوسطى ، ولا أية معالجة كاملة لمحاولات الفهم الاختصاصية الجديدة لمؤرخي القرن العشرين ، ودراسة المنطقة وحضارتها من الزوايا الاجتماعية وأصل الإنسان ، وفي مجموعة مسح من هذا النوع هناك بعض التراكب الذي لا مفر منه أيضاً ، وبشكل بارز في أبحاث الأستاذ صليبي والسيد حوراني ، وتلك الخاصة بالأستاذ كاهن والدهان وحلمي أحمد ، وأبحاث الأستاذ إينالجك والدكتور ميناج ، وهنا نجد أن الخلاف في المعالجة والفهم للكتّاب المختلفين يجعل من المرغوب فيه الاحتفاظ بأبحاثهم كما هي ، وقد أعطي كل المؤلفين الفرصة لمراجعة إسهاماتهم في ضوء المناقشة في المؤتمر .

وقدمت في الجلسة النهائية للمؤتمر اقتراحات عديدة من أجل جهود تعاونية ، قدر كما كان الشعور أنها ستكون ذات قيمة لتقدم موضوعنا ، وكانت هذه هي :

(١) إخراج طبعة منقحة للأقسام التاريخية من كتاب تاريخ الأدب العربي لبروكلمان .

(٢) مسح مع ثبت بأسماء مصادر الكتب التي ترجمت إلى لغات الشرق الأوسط من اللغات الغربية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

(٣) تقويم للمدونات والوثائق الأخرى العائدة للأقليات في الشرق الأوسط .

(٤) بذل الجهد لاستخلاص النشرات الروسية حول المواضيع الإسلامية .

(٥) معجم لاستعمال الاصطلاحات السياسية والاجتماعية والثقافية في العالم الإسلامي وتطورها في الأزمنة الحديثة ، وهذا قد يتضمن كلمات مثل (أمة) (وطن أم) وما شابه ، التي تغير استعمالها كثيراً جداً منذ بدايات التغريب ، وما يزال يختلف بدرجة كبيرة من بلد إلى بلد ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، وهذا مثل الاقتراح الثاني ، سيكون بالغ القيمة من أجل فهم الشرق الأوسط الحديث والمعاصر(*) ، وقد شعر المساهمون في المؤتمر في ختام اجتماعاتهم ، أنه قد أسهم في تمهيد الطريق لكتابة تاريخية أكثر موضوعية ، في كل من الشرقين الأدنى والأوسط ،وشد الانتباه لكل من العلماء والجمهور الأوسع ، والمشكلات المعنية التي شغلت دوراً في فهم مشترك متبادل(٢٩) .

هوامش البحث:

١ ـ ماهان Mahan«الخليج العربي والعلاقات الدولية» ناشيونال ريڤيو ، ايلول ١٩٠٢ (أعيد طبعه كما هو في التأمل والأمل Retrospect and Prospect، لندن ١٩٠٣) ف . شيرول V.chirol، مسألة الشرق الأسط (لندن ، ١٩٠٣) ومن أجل اشارة كرزون في مجلس اللوردات أنظر هانسارد ، Hansard السلسلة الثالثة مجلد ٧ عمود ٥٧٦ ويعود شكرنا للاستاذ ج . س هيوروتر J.C.Hurewitzلهذه المعلومات ، وكانت المادة أعلاه قد كتبت بالفعل عندما كان كتاب ب . هـ داڤيدسون «اين الشرق الاوسط ؟» يناقش المشكلة التي ظهرت في الشؤون الخارجية .

٢ ـ في روسيا على سبيل المثال ان تعبير بليزي فوستوك وسردني فوسلوك الشرق الأدنى والأوسط ، شائع الاستعمال . وقد بذلت محاولة في الهند لاستبدال هذه المصطلحات باستعمال تعبير غرب آسيا الذي مع ذلك له عيب باستبعاد مصر ومناطق افريقية اخرى من الشرق

★ ـ صدرت عدة معاجم من هذا القبيل منها «معجم العلوم الاجتماعية» بإشراف الدكتور إبراهيم مدكور ـ ط القاهرة ١٩٧٠ .

الأوسط ، ولابد من ملاحظة أنه في كتاب حديث لمؤلف هندي يعود التعبير الغربي للظهور :
ج . ك بانرجي : J.K.Banarji «الشرق الأوسط في السياسة العالمية» (كلكتا ١٩٦٠) .

٣ ـ روزنتال F - rosenthal ـ علم التاريخ عند المسلمين عام (١٩٥٢) ص ٢١٩ .

٤ ـ سورة هود ـ الآية : ١٢٠ .

٥ ـ ستفرض السجلات التاريخية المتنوعة الواسعة حول فترة ما قبل الاسلام توسعاً غير ممكن لموضوعنا وهي علاوة على ذلك ـ قد عولجت بتوسع في أماكن أخرى ، أبرزها مجموعة الأراء التي حررها ـ ر ـ س ـ دانتان ـ R-C-Dentan في كتابه فكرة التاريخ في الشرق الأدنى القديم (بيل ١٩٥٥) .

٦ ـ في كتابه «محمد النبي» وتم تحقيق النص العربي من قبل وستنفيد ١٨٥٨ ـ ١٨٦٠ المنشورة في الترجمة الألمانية من قبل فيل في ١٩٦٤ وبالانكليزية من قبل أ ـ غوليوم Guillaune ١٩٥٥ .
صلى الله عليه وسلم عن وصيه وسبطيه السير والمغازي لابن اسحق ـ ط بيروت ١٩٧٦ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

٧ ـ ج . شاخت «اعادة تقويم الأثار الاسلامية «جملة الجمعية الملكية الآسيوية (١٩٤٩) ص ١٤٣ ـ ١٥٤ ، وقد تطورت هذه النقطة مفصلاً في كتاب المؤلف حول مغازي موسى بن عقبة (١٩٥٣) ص ٢٨٨ ـ ٣٠٠ . ومن أجل المناقشة العامة لمؤلفات السيرة انظر غ . ليفي ديلافيد في مادة «سيرة» الموسوعة الاسلامية ـ ط . أولى وأيضاً «مع تاريخ الديانات الشرقية والسامية» (روما ١٢٤) ص ١١١ ـ ١٣٧ .
ـ بلاشير «مسألة محمد» (باريس ١٩٥٢) ص ١ . ومن وجهة نظر اسلامية ـ محمد حميد الله «نبي الاسلام» (باريس ١٩٥٩) .

٨ ـ لقد طور الاستاذ الدوري تلك النقاط أكثر في بحثه عن الزهري في دورية مهد الدراسات الشرقية والافريقية (١٥٧) : ١٩/١ ـ ١٢ ، وفي كتابه «بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب» (بيروت ـ ١٩٦٠) .

٩ ـ تاريخ ـ روزنتال ص ٤٦ ـ ٧ .

١٠ ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع (القاهرة ١٩٤٧) ص ٥ قارن صفحة ٩٣ أدناه ـ

١١ ـ على سبيل المثال : في مقالة «النزاعات الاجتماعية حول الضرائب والمزايا في أعالي بلاد الرافدين في زمن العباسيين نقلاً عن دانبوس التلمحري» . أرابيكا (١٩٥٤) : ١/١٣٦ ـ ١٥٢ .

١٢ ـ حول التاريخ التوراتي أنظر كتاب ميللر بروز (اسرائيل القديمة) في ر . س . دنتان R.C.Dentan «فكرة التاريخ» . . . . ص ٩٩ ـ ١٣٢ ، وحول أدب ما بعد التوراة م . استنشيندر «تاريخ اليهود» (فرانكفورت ١٩٠٥) (بالعبرية فقط) .

١٣ ـ إن التاريخ الرسمي للخوارج له بعض الأهمية من أجل تاريخ الصدامات الكبيرة الأولى التي خرج منها الخوارج ، ومن أجل روايات مثل هذه المصادر انظر مقالات ر . وبنياكس في AION ، ١٩٤٩ ص ٤٣١ ـ ٤٣٨ . ١٩٥٢ ، ص ٩٥ ـ ١١٠ ، فيكسيافا غيري ، المصدر نفسه ، ١٩٥٢ ص ١ ـ ٩٤ ، ١٩٥٣ . ص١ ـ ٩٨ ، م . كفافي في مجلة كلية الآداب ، القاهرة ١٩٥٢ ص ٢٩ ـ ٤٨ . ومن أجل دراسات أخرى حول أدب الطوائف ، انظر ج . ر . بيرسون الفهرس الإسلامي (كمبردج ١٩٥٨) ص ٩٦ .

١٤ ـ حيث تطور باطالة أكبر في كتابه «المؤرخون الموارنة للبنان العصور الوسطى» بيروت ١٩٥٩ .

١٥ ـ إن تشكل النظرة المسيحية للإسلام حتى القرن ١٩ وصفها ألدوبراندينو مالفيزي Aldobrandino Malvezzi (فلورينا ١٩٥٦) وهناك دراسة أكثر تفصيلاً ترتبط بشكل خاص بالفترة ١١٠٠ ـ ١٣٥٠ ظهرت مؤخراً في كتاب نورمان دانيال Daniel Norman «الإسلام والغرب» تشكل تصور (أدنبره ١٩٦٠) .

١٦ ـ نوقشت بعض مظاهر الدراسات التاريخية الإسلامية المتطورة في القسم المبكر من القرن السابع عشر من قبل ب . م . هولت «دراسة حول مؤرخي العربية في انكلترا في القرن السابع عشر : خلفية ادوارد بوكوك Edward Pococke وعمله» دورية معهد الدراسات الشرقية والأفريقية (١٩٥٧) ١٩/٣/٤٢٤ ـ ٤٥٥ .

١٧ ـ تعقب التطور العام في الدراسات العربية بما فيها التاريخ الأستاذ فوك في بحثه «الدراسات العربية في أوربا في مطلع القرن العشرين» لايبزغ (١٩٥٥) .

١٨ ـ قدم بول . ب هنز Paul B.Henze دراسة هامة عن صياغة الخط الرسمي السوفييتي ومراجعته لمشكلة تاريخية هي «مشكلة شامل» في طبعة ولترز لاكير لكتاب «الشرق الأوسط في مرحلة تحول» (لندن ١٩٥٨) ص ٤١٥ ـ ٤٤٣ ومن أجل الأعمال التاريخية السوفييتية عن الإسلام أنظر أيضاً «تحليل مفصل لمخطط تاريخ الدراسات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي» تأليف ن . أ . سميرنوف ، مركز بحوث آسية الوسطى (١٩٥٦) .

١٩ ـ رفاعة رافع الطهطاوي «أنوار توفيق الجليل (بولاق ١٢٩٥/١٨٧٨) : سليمان باشا «تاريخ العالم» (استانبول ١٢٩٣/١٨٧٦) وكلاهما مؤسس كلياً على مصادر غربية .

٢٠ ـ انظر ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ مما سيلي .

٢١ ـ انظر ص ٢٨٨ و٦١٧ مما سيلي .

٢٢ ـ من أجل صبحي أنظر ف . بابنغر ـ F . Babinger «تاريخ العثمانيين» (لايبزغ ١٩٢٧) ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ .

ل . أ ـ ماير ـ L – Mayer «مصادر النميات الإسلامية» (لندن ١٩٥٤) موضوعات ١٧٣٤ ـ ١٧٣٦ . انظر ما يلي ص

٢٣ ـ دواود إيالون «الجبرتي المؤرخ وخلفيته» دورية مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (١٩٦٠) : ٢٣/٢١٧ ـ ٢٤٩ .

٢٤ ـ نشر الأستاذ الشيال مقالته إلى جانب مادة إضافية غزيرة في كتابه بالعربية «التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر» (القاهرة ١٩٥٨) .

٢٥ ـ بشكل بارز في رائعة جورج انطونيوس «يقظة العرب» نشر للمرة الأولى في لندن ١٩٣٨ ـ وفي جميع نتاج المدرسة التاريخية المناصرة المستمدة منه .

٢٦ ـ هكذا على سبيل المثال ظهر تيلماك بالتركية في ١٨٦٢ وبالعربية في ١٨٦٧ وبول وفرجيني بالعربية في ١٨٧٢ وبالتركية في ١٨٧٣ ، ومونت كريستو بالعربية في ١٨٧١ والتركية في ١٨٧١ ـ ١٨٧٣ والترجمة التركية لروبنسون كروزو المنشورة في ١٨٦٤ ترجمت عن العربية ، وليس عن الانكليزية .

٢٧ ـ أنظر أدناه ص حول أنجومين دانش أنظر أيضاً : ب ـ لويس ، مادة «أندجومان» في الموسوعة الإسلامية الطبعة الثانية .

٢٨ ـ عقدت في سنة ١٩٥٩ حلقة دراسية في الجامعة الأمريكية في بيروت حول أعمال التاريخ العربي في المئة سنة الأخيرة تعلقت بالتاريخ العربي في العصور الإسلامية ونشرت الأبحاث في صحيفة الأبحاث في حزيران وأيلول «١٩٥٩» .

٢٩ ـ وقد صدق ذلك بنشرات عديدة تالية قد سلفت الإشارة إليها .

القسم الاول

أعمال التأريخ العربية والفارسية والتركية
حتى القرن الثاني عشر والتاسع عشرم

١ ـ المواد التي استخدمها ابن اسحق
و . مونتغمري وات . أستاذ للعربية في جامعة أدنبره

١ ـ وضع المشكلة :

مع أن قدراً كبيراً من البحث قد تم حول حياة محمد (ص) خلال نصف القر ن الأخير ، ليس هناك مسح شامل للمصادر حول هذا الموضوع ، واستمر بعضهم في تبني مايمكن أن يسمى بموقف لامنس ـ بيكر في حين تبنى آخرون مثل الكاتب الحالي وضعاً مختلفاً حقاً ، لكن بدون محاجة شديدة حوله[1] ، وقد تبدأ دراسة مصادر السيرة بناء على ذلك بشكل كاف مع رواية س . هـ بيكر حول موقف هنري لامنس .

إن السيرة في روايتها المفصلة هي دائماً مسهبة وليست مصدراً تاريخياً مستقلاً ، إنها مجرد مادة حديث صنفت في ترتيب كتاب ترجمة ، والأحاديث الفردية مع ذلك هي إما تفسير مفصل للإشارات والمضامين القرآنية ، أو تفسيرات متأخرة ذات نزاعات عقدية تشريعية ، والاهتمام التفسيري والعقدي أقدم من التاريخي ، وقد قام الاهتمام التاريخي فقط عندما تمت مواجهة المصادر التاريخية المسيحية التي تتحدث عن الشخصية الإعجازية للمسيح ، وتؤمن بألوهيته ، هنا توفرت الرغبة في إيجاد مواد تاريخية مماثلة لمؤسس الإسلام أيضاً ، وكانت المادة التاريخية الفعلية

قليلة للغاية(*) ولهذا أخذت إشارات القرآن ووسعت ، فلقد تم أولاً في المقام الأول جمع الحديث الموجود بالفعل ، العقدي منه والتشريعي وترتيبه حسب تسلسله الزمني(٢) ـ ويمضي بيكر قائلاً إنه يتفق مع لامنس حول تلك النقاط العامة «وإن كان يخالفه بقدر كبير في تطبيقها بالتفصيل» ويختتم بتصور فيه التفسير والحديث وكأنهما نموذجي المادة التي نشأت منها السيرة .

وعندما ينظر المرء في صفحات ابن إسحق من السهل أن يجد أقساماً وفقرات صغيرة من الواضح أنها عائدة للتفسير ، وفي نهاية روايته لمعركة بدر ، مثلاً هناك قسم(٣) حول سورة الأنفال يعطى إشارة دقيقة إلى تنظيم الأحداث المختلفة في المعركة ، ولكن ما الذي يأخذه الإنسان في أيامنا هذه من الحديث ؟ فمنذ كتب بيكر ، كان هناك العمل الهام لجوزيف شاخت حول حديث الفقه ، وفي هذا الحقل الخاص الذي ألزم نفسه به بدقة ، (مع أن نظريته قد يكون لها أصداء في حقول أخرى) ، يعتقد الأستاذ شاخت أنه لم يكن حتى زمن الشافعي (ت : ٨٢٠) قد تم الالتزام بصورة منتظمة بضرورة تسويغ القواعد الشرعية وتعليلها بحديث قاله النبي (ﷺ) أو فعل أو اقرار للنبي محمد (ﷺ) عبر سلسلة متواصلة من النقلة أو الرواة فإذا كانت هذه النظرية صحيحة أو أنها قريبة من الصحيح فإن الحديث كما وجد في المجموعات الفقهية لم يكن موجوداً في زمن ابن إسحاق (المتوفى ٧٦٨) وهكذا فإن موقف لامنس ـ بيكر مرتكز على افتراضات

★ ـ هذا تفسير مرفوض لأنه أولاً ناشيء عن حقد دفين وكراهية وانعدام للحياد وتناقض ، وفيه تجاهل متعمد لموقف الإسلام من ألوهية المسيح وتقديسه أضف إلى ذلك أن بواكير أعمال جمع أخبار السيرة ارتبطت بجمع الحديث ، وجمع الحديث بواعثه إسلامية محضة ، وعمليات الجمع جرت أولاً في الحجاز حيث انعدمت المؤثرات الكتابية ، هذا ولا يقيم المسلمون وزنا لما أضيف لبعض مقدمات كتب السيرة من علامات وبشائر ، فالسيرة بدأت مع الوحي ، ويمكن أن نرى هذه القاعدة في مغازي الزهري وفي أبواب المغازي في كتب الصحاح .

تدحضها وتنازعها مجموعات هامة من آراء يومنا هذا(*) . وسواء تبنى المرء موقف لامنس ـ بيكر أو أي موقف آخر فإنه يبدو أن الخطوة التالية المتوجبة هي النظر مرة أخرى إلى المواد التي في السيرة ، ولا سيما تلك التي من الواضح أنها ليست من التفسير ، ومحاولة تقرير ماهيتها بالضبط ، وفي الوقت نفسه يجب إيلاء الاهتمام ببواعث الذين حفظوها أو عدلوها ، أو صنعوها ، ومثل هذا البرنامج قد يتطلب كتاباً ، والمقالة الحالية ليست أكثر من عرض مبدئي .

٢ ـ تفسير القرآن :

هناك مفهوم معين لمحمد (ﷺ) في القرآن نفسه ، فهو يُعَدّ فيه واحداً من خط طويل من الأنبياء ، كلهم رسل من عند الله لشعوب معينة ، برسالة كانت في جوهرها متماثلة ، ومهمة محمد (ﷺ) الخاصة كان يظن في البداية أنها إيصال دين الله الحق إلى العرب ، وفي وقت متأخر كانت أيضاً استعادة لنقاء الدين الحقيقي ، بعد أن أفسده اليهود والمسيحيون ، وهذا الدين النقي كما أقامه محمد (ﷺ) قيل إنه مستمر حتى اليوم الآخر ، مع أنه يبدو أحياناً كواحد فقط من عدة أديان ، وفي مرات أخرى قيل إن محمداً قد أرسل للناس كافة[٤] وأنه خاتم الأنبياء[٥] مع أن هذه العبارة ، ربما لم يكن لها بالأصل المضمون الذي أعطى لها فيها بعد(**) .

★ ـ باتت آراء شاخت حول الحديث مرفوضة بعد كشف عدد كبير من الأصول المبكرة جداً مثل صحيفة همام بن منبه المروية مباشرة عن أبي هريرة ، وخير من تصدى لمعالجة هذا الموضوع الدكتور محمد عجاج الخطيب في كتابه «السنة قبل التدوين» ط . دمشق ١٩٧١ ج انظر أيضاً صحيفة همام بن منبه للدكتور رفعت فوزي عبد المطلب ـ ط . القاهرة ١٩٨٥ .

★★ ـ هذا افتراض مدحوض حيث أنه واضح تمام الوضوح في القرآن الكريم أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل للناس كافة ، وأنه خاتم الأنبياء وليس بعد رسالته من رسالة ، فها قد مضى على ظهور الإسلام قرون طوال . لم يظهر فيها ـ ولن يظهر ـ من استطاع اثبات أنه نبي مرسل .

وهناك ادعاء مماثل بأن مجيء محمد (ﷺ) قد تم التنبؤ به في الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية(*) ، والتصور في سيرة ابن إسحق لحياة محمد كنبي ورسول يمضي إلى أبعد مما ورد في القرآن في نواحٍ مختلفة ، ففي حين أصر القرآن على أنه على الرغم من كونه نذيراً وبشيراً وهادياً ، هو مجرد إنسان فانٍ ، عزت السيرة إليه قوى خارقة للطبيعة فهو على علم بالمستقبل ، وهو قادر على صنع المعجزات(**) ، ويفترض أن مجيئه لم يكن مجرد ذكر مختصر في التوراة بل إنه كان معروفاً على نطاق واسع بين علماء الدين ، ويعتقد أن دينه دين نهائي قابل للتطبيق على الناس قاطبة ، وهذه النقطة الأخيرة يستشهد عليها بحقيقة أن رجالاً مهمين منعتهم مناصبهم الرسمية من أن يصبحوا مسلمين علناً قد أقروا سراً بأنهم يؤمنون بمحمد ، وهذا التطور الديني في المفاهيم المتعلقة بمحمد قد يعزى إلى اهتمامات دينية عامة ، ويؤثر في أنماط عدة من المادة ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر إنه بلا شك يعود كما جادل بيكر إلى محاولة لمواجهة الهجوم العنيف للمسيحيين المعادين للإسلام ، وبشكل خاص لحججهم بأن محمداً لا يمكن أن يكون نبياً طالما أن مجيئه لم يكن قد تم التنبؤ به ، وأن رسالته لم تصدق بالمعجزات ، وبدون إنكار أن الحاجة لإيجاد بعض الردود على المسيحيين كانت باعثاً قوياً ، يجب أن يلاحظ أن تطوراً دينياً مشابهاً ربما قام وانبعث من رغبة في مواءمة محمد مع مفهوم الزعيم الديني الذي شاع في قلب الدولة الإسلامية ، والناس الذين آمنوا أن أي زعيم ديني كبير لا بد أن تكون له قوى خارقة لا بد أنهم بحثوا عن ذلك لدى محمد (ﷺ) ومالوا بغير قصد إلى رؤيتها حيث هي غير موجودة فعلاً(***) وهناك نمطان

★ ـ الأبحاث حول ورود ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب المقدسة كثيرة اهم ما نقل منها إلى اللغة العربية كتاب «محمد في الكتاب المقدس» لعبد الأحد داود ـ ط . قطر ١٩٨٥ وكتاب «عيسى يبشر بالإسلام» لمحمد عطاء الرحيم ـ ط . دمشق ١٩٩٠ .

★★ ـ كل ذلك بإذن الله وبوحيه إليه صلى الله عليه وسلم ، وهذا من شروط النبوة وتميزها ودلائلها .

★★★ ـ آمن المسلمون دوماً بأن معجزة النبوة الحقيقية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم وسيرته كنبي إنسان .

من المادة يمكن أن يقعا تحت عنوان «تفسير» ويتعلقان بالسيرة : الأول تفسير الإشارات القرآنية إلى الأنبياء القدامى ، وهذا قائم بشكل رئيسي على الكتاب المقدس (العهد القديم) وعلى الأعمال الخارجة عن نطاق الشريعة في التقاليد الانجيلية وعن أنبياء عاد وثمود ومع ذلك كان من الضروري الإتجاه إلى الأساطير العربية أو الإختلاق ، في حين أن القصص التي تربط إبراهيم واسماعيل بمكة قد لا يكون لها أسس أخرى سوى الإشارات القرآنية ، والنمط الثاني من المادة هو ما يعرف باسم أسباب النزول ، ولا تعطي هذه المادة التي لا بد أنها استمدت من الذاكرة الشخصية أو الإختلاق معلومات حول أزمنة ما قبل الإسلام ، لكن حول حياة محمد نفسه ، إن مسألة صدق تلك المادة أو زيفها مختلف تماماً عما في النمط الأول ، وهناك تعارض فيها ، وذلك عندما قيل إن آية ما نفسها قد أوحي بها في مناسبتين مختلفتين ، ومن جانب آخر هناك حالات كثيرة حيث ليس هناك من سبب للشك في الرواية التقليدية للظروف التي أوحت بها الآية ، وهذا مرتبط عادة بالفقرات المعنية بالأحداث الرئيسة للفترة المدنية ، وأحياناً يكون من الصعب التأكد إلى أي مدى تكون الرواية التقليدية حقيقية ، مثلاً يقال إن بداية سورة عبس عادة تشير إلى ابن أم مكتوم وربما كان هذا صحيحاً ، ولكن كون الناس الذين كان محمد (ﷺ) يتحدث إليهم كانوا أبا جهل وعقبة بن ربيعة قد لا يتعدى أكثر من تخمين ذكي لبعض الرواة المتأخرين[٧] .

وكان كل من نمطي مادة التفسير من نتاج اهتمام ديني أصيل ، ولا بد أن الإشارات القرآنية قد فصلت في قصص كاملة ، وأدخلت الخلفية إذا كان للأفكار الرئيسة أن تؤثر على عقول البسطاء من الناس ، وكانت الجماعات المسؤولة في المقام الأول عن ذلك هي «القصاص» الذين كانوا في الواقع نوعاً من الوعاظ شغلوا دوراً هاماً في نشر الأفكار القرآنية بين جمهور المسلمين[٨] ، ولا بد أن باعثهم الرئيس كان توسيع المنطقة الإسلامية ، ولكنهم في مجرى نشاطهم كانوا بلا شك متأثرين بالرغبة في تمثل مفهوم محمد (ﷺ) بين المفاهيم الجارية حول ما يجب أن يكون عليه الزعيم الديني ، ولا يرى الأثر المشوه لهذه البواعث الثانوية كثيراً في أسباب النزول كما في الحكايات الدينية التي ستتم دراستها تحت عنوان لاحق والتي كان القصاص مسؤولين عنها جزئياً .

٣ ـ علوم الأنساب والأحداث المتقدمة على ظهور الإسلام :

لقد كانت دراسة الأنساب فرعاً خاصاً من المعرفة بين عرب ما قبل الإسلام ، (كما كانت في الواقع بين العرب المتأخرين أيضاً) وإلى جانب الشعر ، الذي كان يرتبط بها ، كانت واحدة من إنجازاتهم الثقافية الرئيسة ، وكان الفخر القبلي أو الحماس والغيرة على شرف القبيلة أعمق شعور في حياتهم ، وكان هذا الشرف والنبالة أحد الموضوعات الرئيسة لأشعارهم ، ومع ذلك كان الشرف أو النبالة يعتمد بقدر كبير على النسب ، وعليه كان من الضروري معرفة من هم أسلاف المرء ، والأعمال النبيلة التي قاموا بها ، وإلى جانب دراسة الأنساب بمعناها الدقيق ـ بناء على ذلك ـ كانت هناك المعرفة بالأيام ، أي بالمعارك العربية .

وقد استمرت هذه المعرفة في ظل الإسلام ، وتطورت في الواقع من بعض النواحي ، وكان أبو بكر مبرزاً كعالم بالأنساب ، وقد أسهمت معرفته بلا شك في نجاح محمد (ﷺ) السياسي ، وورد ذكر عدة آخرين في أوائل زمن الأمويين خاصة ، منهم عَبِيد بن شريه الذي كان في بلاط معاوية[٩] ، وكان الباعث نفسه ، أي الفخر بالقبيلة مايزال قائماً ، ولا سيما عندما وضعت الفتوحات القبائل في تماس أكثر بكثير مع بعضها بعضاً ، ويبدو حقيقياً أنه في عهد الأمويين أصبحت العصبيات مرتبطة بتجمعات أكبر ، كان من النادر الحديث عنها من قبل ، وخاصة عرب الشمال (عدنان) أو معد ، والجنوب (قحطان أو اليمن) وقد جادل غولد زيهر في أن التنافس بين الشمال والجنوب نبع من التنافس بين الأنصار ـ الذين كانوا جنوبيين ـ وبين القرشيين الذين كانوا شماليين[١٠] ـ وحتى إذا أسهمت عوامل أخرى في الاهتمام به فإن هذا التنافس بين الشمال والجنوب قد أثر بالتأكيد في دراسة الأنساب ، وأدى إلى «تشكيل متحيز» للأساطير الأقدم ، والأجزاء المتعلقة بعلم الأنساب ،وفي حين يجب أن يتقدم الدارس الحديث بدقة متناهية وحذر حيث يتوفر الشك في وجود هذا التشكيل المتحيز ـ كان الاهتمام الواسع الانتشار بعلم الأنساب ضمانة لدرجة عالية من الدقة في التفصيلات المتعلقة بالنسب التي توفرت لدى المسلمين ، والمتعلقة بجيل أو جيلين أيضاً قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) .

٤ ـ الأحداث الرئيسة في المغازي :

هناك مجموعة هامة من المواد التي وجه إليها اهتمام قليل جداً من قبل العلماء الغربيين ، وهي تلك التي ربما تدعى اختصاراً بمادة المغازي ، وتعني المعلومات حول قائمة الحملات ، وهدف كل منها ، والنتائج العظيمة ، والقائد ، والعدد ، وإلى حد ما ، ماهو معروف من أسماء المشاركين ، والتاريخ التقريبي ، والترتيب الزمني النسبي ، وتعطي المعلومات بشكل عام بلا إسناد من قبل كل من ابن إسحق والواقدي ، وهي بشكل عام متميزة عن الحكايات المرتبطة بالحملات المختلفة ، فالأخيرة جزء من رواية الحملات كما نعرفها ، ولكنها تهتم بالتفاصيل الأصغر ، وتمتلك بالعادة سلسلة أسانيد حتى وإن لم تكن كاملة ، أما في حالة بعض الحملات الكبيرة مثل بدر وأحد فإن مادة المغازي تشمل تفاصيل لجميع وقائع المعركة ، وقليل من هذه المادة يمكن استخراجه من القرآن ، حيث أن معظم الحملات غير مذكورة وعلى هذا لا بد أن أخبارها جاءت محصلة لعمل سلسلة من العلماء المهتمين بالمغازي الذين استجوبوا أعداداً كبيرة من الأشخاص ، وغربلوا المعلومات التي حصلوا عليها ورتبوها . وعلاوة على ذلك إن هذه العملية لم تنته عند ابن إسحق ، فنحن نعرف العديد من الحملات[١١] التي يبدو أنه كان غير قادر على تأريخها أو ترتيبها زمنياً ، ويبدو أن الواقدي قد توفرت له الوسائل للحصول على مزيد من المعلومات التي تمكنه من ذلك ، وكثيراً ما نجد ابن هشام قادراً على الإضافة إلى رواية ابن إسحق اسم الرجل الذي ترك ليتولى أمر المدينة في غياب محمد (ﷺ) ويمكن أيضاً أن يلحظ أن هؤلاء الكتاب كانوا يعالجون هذا النمط من المعلومات كحقيقة مؤكدة ، وأنها كانت مقبولة بشكل عام بحد ذاتها من قبل المسلمين ككل ، ومن المفترض أن مركز ابن إسحق الموثوق يعود إلى حقيقة أنه لم يكن هناك عملياً في سيرته شيء لا يمكن للجماعة عدم قبوله ، (مع أن العلماء الحديثين مثل كايتاني يعتقدون أن الواقدي قد صحح له الترتيب الزمني لبعض التفاصيل الصغيرة) .

وفي حين أن ترتيب هذه المواد وتصنيفها لا بد أنه كان من عمل العلماء ، فإن حفظها إلى أن جمعها العلماء ، لا بد أنه كان من عمل المسلمين بشكل عام أو

بعضهم على الأقل ، فما هي بواعثهم ؟ أولاً وفي المقام الأول ، لابد أنه الفخر بالانجازات التي حققتها الجماعة الإسلامية ولا بد أن هذا الشعور كان تجسيداً لفخر البداة قبل الإسلام بإنجازات قبائلهم ، ولا شك أن أوائل جامعي مادة المغازي قد تأثروا بمثل هذا الفخر ، إلى جانب الاهتمامات العلمية ، وحيث أن الحديث المعتمد لم يكن قد وجد بعد ، لا يمكن القول إن هدفهم كان توفير الإطار لذلك ، ولا بد أن بعض المادة حُفظ لا من أجل ذاته بل لأنه كان ضمن مادة ما ، أمكن تذكرها من قبل عائلة خاصة أو عشيرة ، لأنها تعزز تفاخرها ، وتنعكس عليها[١٢] ، ومن الممكن أن قوائم الرجال والمواد المشابهة ، وخاصة قوائم الذين كانوا في بدر كانت هامة جداً لدى رجال الإدارة في الدولة الإسلامية ، حيث أن الأسبقية في الإسلام كانت تؤثر في العطاء المستحق .

وتظهر هذه الاعتبارات والبواعث أساساً ضعيفاً للشك في صحة الأحداث الرئيسة للمغازي ، والعلماء ، والمندوبون للإدارة ككل أياً كانت الحالة مع الأفراد ، لم يكن لديهم سبب قوي لتشويه الحقائق ، وكثيراً ما كانت الحكايات الأسروية تبالغ في تضخيم أهمية عضو الأسرة المحكي عنه ، ولكن مثل هذه المبالغة كثيراً ما تم التغاضي عنها ، وربما كثيراً ما تغاضى عنها أناس مثل ابن إسحق ، وعلى أية حال إن المبالغات في أية حكاية يحتمل أنها لم تؤثر في معلوماتها المتضمنة فيها حول الأحداث الرئيسة ، وهكذا فإن مادة المغازي (بالمعنى الخاص للإطار الرئيس للأحداث وبحذف كل الحكايات) على الرغم من كثرة تجاهلها بصمت من قبل العلماء الغربيين ، هي أساس جوهري لسيرة محمد (ﷺ) وتاريخ أيامه ، وبدون هذه المادة يكون القرآن عديم الجدوى كمصدر تاريخي ، وعندما تقبل هذه المادة كأساس ، فإنه من الممكن على أية حال إعطاء رواية متماسكة ومتينة .

والنظير لمادة المغازي ويدخل بشكل أفضل تحت العنوان نفسه ، هو كمية صغيرة من المادة حول الترتيب الزمني للأحداث قبل الهجرة .

٥ - الشعر :

لا حاجة لقول الكثير عن الشعر طالما أنه ، وحتى إذا كان كله صحيحاً ، لا يضيف إلا القليل لمعارفنا التاريخية ، والمعلومات التي يعطيها هي بشكل رئيس تتعلق بمواقف القبائل والعشائر بعضها من بعض وجاء هذا بصورة المديح أو الهجاء ، ويشير فقط إلى الحوادث إلماعاً في كثير من الحالات ، وإن لم يكن فيها جميعاً ، وإن هناك تبدلاً قليلاً في هذه المواقف في القرن الأول أو نحوه من الإسلام ، وفي تلك الحالات فإن حقيقة أن لا يكون الشعر من نظم الشخص الذي ينسب إليه ، بل من قبل عضو ما لاحق من العشيرة نفسها لا يؤثر في قيمة المعلومات طالما أن الكاتب الفعلي له المواقف نفسها ويمكن التوصل إلى معرفة القبيلة صاحبة الروايات ، وحيث يوجد تبدل في المواقف مثل العداء المتزايد من الأنصار ضد قريش فإن قيمة النسبة الخاطئة للشعر تختلف ، ولكن المسألة لا يمكن مناقشتها بفائدة دون مزيد من الدراسة بتفصيل أكثر مما هو ممكن هنا ، ويجب أيضاً أن يبقى في الذهن أن الأبيات المزيفة ربما تكون قد اندست في الشعر الأصلي وأقحمت .

٦ - المادة الوثائقية :

لا يوجد كثير من المادة الوثائقية لدى ابن إسحق ، وأهم وثيقة هي دستور المدينة ، ومن الممكن أيضاً أن قائمته بمسلمي بدر ربما تكون قد جاءت من وثيقة رسمية ، إما مباشرة أو من خلال علماء متقدمين ، ومن أجل اهداف الدراسة الراهنة ليس من الضروري القيام بأكثر من ذكر هذا النوع من المادة (هناك مزيد من الوثائق واضحة التصديق عند ابن سعد ١/٢) .

٧ - الروايات :

وكل المادة المتبقية في سيرة أبي اسحق قد تندرج معاً تحت عنوان الحكايات طالما أنها على صورة قصص حول أحداث معينة ، وهناك في الحقيقة بعض الروايات المركبة ، حيث دمج ابن اسحق روايتين أو ثلاثة ، وتقف هذه في

منتصف الطريق بين الروايات وبين مادة المغازي ، ومن السهل مع ذلك أن يطبق عليها ما يتعلق بها من الملاحظات تحت العنوانين ، وفي هذه المناقشة للمصادر فإن عنوان الروايات هو المفضل على اصطلاح الحديث طالما أنه لم توجد بعد كتلة متماسكة من المادة المحفوظة من قبل مجموعة معينة من الناس ، وبدلاً من ذلك يوجد حشد متنوع من المادة التي حافظت عليها مجموعات مختلفة من الناس لأسباب مختلفة ، والتمييز البالغ الأهمية يمكن وضعه بين الروايات التي حورت أو حرفت حسب مصالح الأطراف السياسية أو الدينية أو الشرعية (بما في ذلك الروايات التي هي إختراع واضح) والروايات التي لم تتأثر بمصالح من هذا النوع وبين هذا النوع الأخير الروايات التي حفظت بسبب اهتمام عام بإنجاز الجماعة الإسلامية ، وتلك التي حفظت بسبب الفخر بإنجازات أسرة واحدة أو عشيرة ، وكما سلفت الملاحظة إن هذه المجموعة الأخيرة مما يمكن تسميته بالروايات العائلية قابل لتضخيم أهمية الأسرة أو العشيرة ، ولكن بصرف النظر عن ذلك إنه ما لم يوجد باعث آخر لا يوجد تحريف ، وبين الروايات المحرفة أو المتحيزة هناك بعض منها واضح أنه اختراع بيّن ، ومن أمثال ذلك القصة التي استمدها ابن اسحق من أبيه حول النور الذي رأته امرأة على جبين (عبدالله) قبيل إنجابه لمحمد (ﷺ) والذي اختفى بعد ذلك ، ومن الواضح أن هذا كان يرمي بوضوح للإسهام في مفهوم أن محمداً ذو موهبة خارقة للطبيعة(*) ، ويبدو أن اختراعات من هذا القبيل كانت موجودة بشكل رئيس حيث تعلق الأمر بالمصالح الدينية ولا سيما في تطوير المفهوم القرآني عن محمد (ﷺ) (كما وصف في الفقرة ٢) ، وهذه الإختراعات كانت تأخذ شكل حكايات حول العرافين والمتنبئين ، والرهبان والحكماء الذين عرفوا بمجيئة من قبل ، والحكايات حول مولده وطفولته وحياته الأولى ، وهناك أيضاً حكايات حول معجزات قام بها في فترة نضجه ، وتسوغ الخصائص الخارقة للطبيعة المفردة لمحمد (ﷺ) في تلك القصص رفضها التام ، طالما أن القرآن يصر

★ ـ كان ابن اسحق صاحب ميول واضحة تجاه الشيعة، الذين آمنوا بأن الإمامة ورثت النبوة وأن النبوة والإمامة نور انتقل من الأصلاب ، أي من آدم حتى النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده إلى الأئمة من أبناء الحسين بن علي .

على أن محمداً (ﷺ) ليس إلّا بشراً ، ومع ذلك فإن هذه القصص ليست بلا أهمية ، لأنها تظهر الاتجاهات التي كانت تتطور فيها المفاهيم حول محمد (ﷺ) ، وإن أغلبية الروايات المتميزة ، مع ذلك ليست اختراعاً صرفاً ، بل تحويراً إلى مدى متفاوت لقصص حقيقية ، والحادثة الأصلية كثيراً ما تكون شيئاً عادياً ، وفي كثير من الحالات يكون لدينا نسخ مختلفة من قصة ، ونستطيع أن نراها تنمو كما حدث بالفعل ، من ذلك ما يمكن أن نراه في الرواية التي حكت أنه عندما جاء الجريح سعد بن معاذ ليحكم في بني قريظة قال محمد (ﷺ) : «قوموا لسيدكم» ، وهذه الملاحظة في حد ذاتها عادية وليست لها أهمية تاريخية ، ولكن طرفاً واحداً قال إنها تتضمن أن الأنصار كانوا صالحين للحكم على قريش ، وأعطى آخر للقصة انحرافاً صغيراً لنفي هذا المضمون وهكذا[١٣] .

وحكاية قزمان قد تؤخذ كمثال آخر حول كيف يمكن أن تشكل قصة بشكل متحيز ، وتعزى رواية ابن اسحق إلى عاصم بن عمر وهو عالم حصل منه على كثير من المعلومات ، ويفترض أن رواية الواقدي هي عن المصدر نفسه ، مع أنه لا يقول ذلك ، حيث ذكر فيها جد عاصم قتادة (ولكنه لم يذكر هنا من قبل ابن اسحق) وطبقاً لرواية الواقدي[١٤] . وهي الأكثر بدائية ، وصل قزمان متأخراً إلى معركة أحد ، ولكنه قاتل بشجاعة حتى جرح جرحاً مميتاً ، وبعد زمن ،ولكونه لم يعد يتحمل الألم الذي سببته جراحه ، قطع وريده بسهم وتوفي ، وعندئذ علق محمد (ﷺ) أنه من أهل النار ، ولكن الله يسخر الأشرار ليعزز دينه ، وربما كانت القصة صحيحة ، إنها غير مهمة تاريخياً ، ورواية ابن اسحق مماثلة فيما عدا أنه قبل أحد ، كان يقال إن محمداً قد اعتاد القول «إنه من أهل النار»[١٥] . وبدلاً من أن تكون هذه الملاحظة في حينه حكماً على الانتحار فإنها تصبح مثلاً على علم محمد (ﷺ) المسبق ، وليس هناك ما يوحي أنها مجرد قراءته لشخصيته[*] ، وهذه النقطة يتم تأكيدها مع ختام القصة في أثر الطبري المنقح ، وليس في أثر ابن هشام ، وهذا ليس نهاية الأمر على أية حال ففي مجرى المناقشات الدينية حول القضاء ،

★ ـ لأن ابن اسحق كان ممن يقول بالقدر .

والقدر لاحظ أحدهم أن الرواية التي أعطت مثلاً على علم (محمد) المسبق قد تضمنت أيضاً أن مصير الإنسان مقدر ، وبناء عليه فإن الحكاية تظهر في المجموعة الفقهية للحديث بين تلك المتعلقة بالقدر المحتوم(١٦) .

وتختلف الرواية الفقهية للحكاية مع ذلك عن الروايات الأخرى في التفاصيل التاريخية ، فاسم الرجل (والحملة) قد حذفا ، وفي حين أن العكس يمكن فهمه ، فإنه من المؤكد تقريباً أن الروايات التاريخية هي الأصلية ، وأن الرواية الفقهية مستمدة منها ، وقلة اهتمام علماء الدين بالتفاصيل التاريخية يميل إلى تأكيد فكرة أن السيرة لم توضع من أجل تقديم الإطار للآثار الدينية والسياسية والتشريعية ، لقد بذل علماء المسلمين في الفترات الأولى إهتماماً قليلاً بنوع الأدلة الداخلية التي يمكن أن يوفرها ذلك ، وبين الانتقادات التي وجهت إلى ابن اسحق في زمانه وبعده بوقت قصير ، كانت الاتهامات بأنه (شيعي وقدري) والدليل الأكبر الذي ذكر حول التهمة الأخيرة أن له حكايتين قد رويتا على عهدة الإمام المعتزلي القديم عمرو بن عبيد(*) ، وربما أدى التعاطف الشيعي بابن اسحق إلى تضمين قصص حول ميلاد محمد (ﷺ) الخارق للطبيعة ، واستبعاد الحكايات (الموجودة في الطبري) التي تجعل أبا بكر وزيد بن حارثة أول مسلم ذكر(**) ، ومن جانب آخر ففي الآثار المنقحة التي لدينا لا أثر هناك للحكايات التي تدعم أفكار الشيعة المتطرفة مثل حديث خم ، وهذه نقطة مناسبة للإشارة إلى الشجار بين مالك بن أنس وابن اسحق ، فقد أدعى ابن اسحق أنه كان قادراً على تصحيح أحاديث مالك ، وربما كان الأمر كذلك ؛ والفترة هنا هي أن مالكاً كان أكثر اهتماماً بسلامة التشريع في الأحاديث (والاستدلال منها) أكثر منه بدقتها التاريخية مع أن طريقة الإسناد كما استكملت فيما بعد من قبل الشافعي لم تكن رائجة بعد ، ولا بد أن مالكاً قد فضل مذهباً يقوم على آراء العلماء الراسخين على واحا تمّ الوصول إليه

★ ـ الأوضح من هذا موقف الإمام مالك منه وتعزيزه وإخراجه من المدينة .

★★ ـ أوضح من هذا ما رواه في سيرته ـ القطعة التي حققتها ـ عن سؤال سلمان الفارسي للرسول صلى الله عليه وسلم عن وصيه وسبطيه السير والمغازي لابن اسحق ـ ط بيروت ١٩٧٦ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

بطرق مؤرخ كان مستعداً لقبول دليل من أناس غير مقبولين مثل اليهود والمسيحيين ، وتؤكد حقيقة هذا الشجار أكثر ، استقلال الاهتمام التاريخي عن الاهتمامات الدينية والفقهية ، ولم يكن المؤرخ متحرراً تماماً من الاهتمامات السياسية على أية حال ، حيث قيل إن ابن اسحق قد كتب مغازيه للخليفة المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥)[١٨] ، فالروايات على هذا كانت حشداً عظيماً من المادة قد حفظتها جماعات مختلفة من الناس ، وهي ذات قيم مختلفة وبعضها اختلاق وبعضها الآخر تفصيل متميز لحادث عرضي أو ملاحظة ، وسواء أكانت هذه الملاحظة حقيقية أم لا (مثل ملاحظة محمد ـ (ﷺ) ـ عقب وفاة قزمان) فإن هذا عديم الأهمية تاريخياً ، ولأن هناك الكثير من الروايات من هذا النوع فإنه لا مسوغ للدارس في رفض جميع الروايات الموجودة في السيرة، وعلى العكس هناك الكثير مما هو صحيح كلياً أو بقدر كبير، وهذا عادة أيضاً ذو أهمية تاريخية أعظم من تلك التي فصلت بتحيز ، وهذا يسوغ القاعدة العملية : إن الروايات تقبل عندما لا تتعارض مع مادة أخرى ، وحيث لا يوجد تفصيل متحيز ، وستوجد أحياناً صعوبات في إتباع هذه القاعدة ، على سبيل المثال عند تقرير إلى أية زمرة تنتمي إحدى هذه المواد ، ولكن المبدأ العام واضح .

٨ ـ بنية السيرة

إن الأنماط المختلفة للمادة قد عددت الآن ، والمادة مع ذلك ليست مجرد جمع ، بل يجب أيضاً أن ترتب ، وهذه المادة أيضاً جديرة بالتأمل والدراسة ، وفي حين أنه يمكننا دراسة بنية سيرة ابن اسحق بدقة مقبولة يجب التذكير بأن هذه البنية لا يمكن أن تنسب إليه فقط ، حيث أن النتف غير الكافية من أعمال أسلافه تبين أنهم قد رتبوا المادة من قبل بطريقة مشابهة كثيراً لما فعله ابن اسحق[١٩] .

ومن أجل أهداف هذه الدراسة يمكن تمييز ثلاثة أجزاء من السيرة ، مع أن هذه التقسيمات تتوافق تماماً مع الأقسام الفرعية المعروفة لدى العلماء العرب ، وهذه الأجزاء الثلاثة هي :

(١) رواية تقوم بشكل رئيس على العهد القديم للأحداث منذ خلق العالم إلى زمن إسماعيل .

(٢) الأحداث في شبه الجزيرة العربية من إسماعيل إلى دعوة محمد (ﷺ) وهي تقوم على المادة العربية المتعلقة ، بالأنساب والأساطير .
(٣) الأحداث من دعوة محمد حتى وفاته(*) .

وكل من هذه الأجزاء له إطار محدد أو ناظم للترتيب ، ومن أجل القسم الأول إن الأنساب موجودة في سفر التكوين ، ومن أجل الثاني إنها بشكل رئيس نسب محمد (ﷺ) نفسه ، ومن أجل الثالث ، إنه ذلك الذي كان يعرف بمادة المغازي (بما فيها الكمية الضئيلة من المادة المشابهة التي تعالج الفترة من الدعوة إلى الهجرة) .

وهكذا توفر الإطار ، وقد أضاف ابن اسحق الأنواع الأخرى من المادة إلى المكان المناسب ، وبعد رواية أحداث الهجرة وعرض المادة المتعلقة بالظروف التي وجدها محمد (ﷺ) في المدينة عند وصوله وإجراءاته الأولى : على سبيل المثال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ومواقف مختلف اليهود ، وجاء ذكر دستور المدينة هنا لأن ابن اسحق أعتقد أن هذا مكان مناسب ، وعليه لم يجد من الضرورة تأريخ الوثيقة فوراً بعد الهجرة ، ولتصوير كيف تم إدخال المواد إلى داخل الإطار فإن معالجة ابن اسحق لمعركة بدر يمكن أن تحلل على أنها مقسمة كما يلي : (الترقيم لصفحات طبعة وستنفيلد)

٤٢٧ ، مدخل ـ مادة مغازى .
٤٢٨ ـ ٤٧٥ ـ روايات أدخلت على مادة المغازى .
٤٧٦ ـ ٤٨٥ ـ القرآن والتفسير .
٤٨٥ ـ ٥١٥ ـ قوائم (مادة مغازى)
٥١٦ ـ ٥٣٩ ـ الشعر
٥٣٤ ـ عبارة الختام (مادة مغازى)

★ ـ صدر هذا التصور عن بنية السيرة كما جاءت عن ابن هشام ، بيد أن وصول قطع من كتاب ابن اسحق إلينا ومقارنة موادها مع رواية ابن هشام تبرهن غير ذلك ، وابن هشام هو الذي أعاد ترتيب المواد المتناثرة في سيرة ابن اسحق وهو المسؤول عن بنية السيرة وشكلها كما وصلتنا .

إن ترتيب الواقدي مماثل .

وكمثال على غزوة صغيرة يمكن تفحص رواية الحملة إلى ذات الرقاع بتفصيل أكبر[٢١] وهي تتكون من :

ـ ١ ـ ملخص أحداث الغزوة (مادة مغازى)

ـ ٢ ـ حكاية حول صلاة الخوف (تفسير جزئي وهذا موجود في الطبري : ١ / ١٤٥٤) ولكنه حذف من قبل ابن هشام الذي أضاف بدلاً من ذلك ثلاث روايات أخرى أكثر قانونية ، ليس عن ابن اسحق ، رواية حول تعرض ثقة محمد (ﷺ) للخطر (هناك نقص في التفسير ولكن يبدو أنه إضافة متأخرة) رواية حول مساعدة محمد (ﷺ) لجابر وتلطفه معه (مع تفصيل واحد يمكن أن يعتبر كمعجزة) .

رواية الرجل الذي انتهى من تلاوة سورة مع أنه كان جريحاً ، عبارة ختامية (مادة مغازى) .

وإنه مما يفيد عملياً أن نقارن هذه الرواية مع رواية الواقدي عن الحملة نفسها ، ولا يمكن إجراء ذلك بشكل مفصل هنا ، ولكن النقاط التالية يمكن ملاحظتها : يقدم الواقدي معظم مادته مع إسناد ، وتميل الأسانيد إلى الاكتمال أكثر ، وهذا يزيد من الصعوبة مع ذلك في التمييز بين مادة المغازي والحكايات أكثر مما في عمل ابن اسحق ، ولدى الواقدي تفصيل أشمل للأسماء ، وفي حين يحتفظ بمعظم روايات ابن اسحق (مع أن ذلك كثيراً ما كان بصور مختلفة مما دل على مصادر مختلفة) إنه يضيف عدداً من الروايات الجديدة التي تصور قوى محمد (ﷺ) الخارقة للطبيعة ، أو التي لها مضامين دينية أو تشريعية ، ويحتاج ما ذكرناه من القسم الأول من سيرة ابن اسحق إلى أن يتعامل مع القصص الواردة في سفر التكوين ببعض التوسع ، ويشمل هذا كتاب (المبتدأ) أو «المبدأ» الذي يذكره ابن النديم وياقوت وآخرون كجزء من السيرة ، ومع أنه قد أهمل من قبل ابن هشام نجد الطبري كثيراً ما يقتبس منه في تاريخية [٢٢]، ويمكن أن يلاحظ أيضاً أن سيرة ابن سعد تبدأ برواية عن الأنبياء الذين تحدر منهم محمد (ﷺ) أي من آدم إلى اسماعيل ، وقد تبع ابن اسحق سفر التكوين بدقة أكبر من الطبري[٢٣] ، مع أن لديه بعض المواد الإضافية ويعكس نقد الطبري لابن اسحق[٢٤] بأنه أخذ مواد من

اليهود والنصارى ، الموقف التالي من الشك تجاه مثل هذه المصادر والميل إلى تجنبها (على الأقل نظرياً)[٢٥] ، وهكذا قدم ابن سعد لروايته وهكذا فإن ابن سعد يستهل رواياته عن شخصيات العهد القديم بملاحظات من محمد (ص) حول سلسلة نسبه ، تكلم فيها عن اختيار الله العرب[٢٦] وفي حين أن الطبري يقبل حديث أن أول شيء خلقه الله كان القلم ، يرفض الرواية المبنية على سفر التكوين التي جاء بها ابن إسحق على أساس أنه ليس لها سند ، وأن موضوعاً من هذا النوع يتطلب خبراً من عند الله أو الرسول[٢٧] وبشكل مماثل يوافق ابن سعد على الرأي القائل إنه من الخطأ تتبع النسب إلى أبعد من معدّ (مع أنه هو نفسه يتتبعه حتى آدم) ويسوغ ذلك بقوله إن الأسماء الأقدم لا يمكن تذكرها ، ولكنها أخذت من أهل الكتاب[٢٨] . ولا ريب في أن الشك بمعلومات اليهود والمسيحيين ، إلى جانب الإعتماد على طريقة الإسناد إلى محمد (ص) ، أدت إلى اختفاء المادة التوراتية من السيرة ، على الرغم من محافظة مؤرخين مثل الطبري والمسعودي وابن الأثير عليها .

ومع ذلك يعزر حذف المادة التوراتية أهمية مادة المغازي ، ويوحي بأن المهمة الرئيسة المباشرة للعلماء في هذا الحقل هي النظر بدقة أكثر في مادة المغازي ، ودراسة علاقتها بالمجموعات المختلفة من الروايات .

هوامش البحث

١ ـ انظر مبدأ العمل الذي تمت صياغته في بحثي محمد (ص) في مكة ص ١٤ .

٢ ـ بيكر «حياة محمد وعظمته» في دراسات إسلامية ، /لايبزغ ١٩٢٤) : ١/ ٥٢٠ . (أعيد طبعه في مجلة الإسلام) (١٩١٣) ص ٤٧٦ ـ ٤٨٥ .

٣ ـ ص ٤٧٦ ـ ٤٨٥ من ط . وستنفيلد .

٤ ـ ١٥٨/٧ ، ١٥٧/٣٤ ، ٢٨/٢٧ . انظر ١٠٧/٢١ «رحمة للعالمين» .

٥ ـ ٤٥/٣٣ .

٦ ـ المناقشات الدينية الإسلامية المسيحية ZA (١٩١١) ١٧٥/٢٦ ـ ١٩٥ (دراسات إسلامية : ٤٣٢/١ ـ ٤٤٩) .

٧ ـ تفسير الطبري ـ حيث ذكر ابن إسحق أنه كان الوليد .
٨ ـ غولدزيهر ـ دراسات إسلامية : ٢/١٦١ ـ ١٦٣ . تفسير القرآن : ٥٨ .
٩ ـ الفهرس ـ ط . القاهرة ١٣٤٨ ص ١٣٢ ، الفصل الثالث . انظر غولدزيهر ـ دراسات إسلامية ـ الفهارس ـ مادة عبيد .
١٠ ـ نولد زيهر ـ المرجع نفسه : ١/٨٩ ـ ٩٨ .
١١ ـ الواقدي : ٩٧٣ ـ ٩٩٩ .
١٢ ـ كانت فكرة شاخت هي أن الإسناد العائلي لحديث شرعي يعتبر افتراضاً زائفاً ، على أساس أن انتقال لحكايات ضمن العائلة كان إجراءً شائعاً .
١٣ ـ انظر مونتغمري ـ وات إدانة يهود نبي قريظة . العالم الإسلامي ١٩٥٢ (٢١ ـ ١٦٠) واستنتاجات هذه المادة يجب أن تعدل في ضوء تمييز هذه المقالة بين المغازي والحكايات .
١٤ ـ فلهاوزن ص ١٠٩ .
١٥ ـ وست ص ٥٧٨ قارن غليوم «حياة محمد» (ص) ص ٣٨٣ .
١٦ ـ البخاري، قدر (٨٢) ص ٥ .
١٧ ـ انظر التراجم في وستنفيلد : ٢/٢/٣٣ . أيضاً ياقوت إرشاد : ٦/٤٠٠ .
١٨ ـ ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٤٧ .
١٩ ـ غليوم ـ «حياة محمد» (ص) : ١٤ ـ ١٩ .
٢٠ ـ وهذا يختتم بقائمة بأسماء المكيين الذين قدموا الجمال لإطعام الجيش (ليس مثل غليوم والحجاج ـ انظر الواقدي ـ فلهاوزن ص ٨٠) .
٢١ ـ وستنفيلد : ٦٦١ ـ ٦٦٥ .
٢٢ ـ انظر المحتوى «المادة نفسها»
٢٣ ـ مثل مولد اينوس بن شيث (١/١٦٤)
٢٤ ـ ياقوت ، إرشاد : ٦/٤٠١ .
٢٥ ـ انظر مونتغمري وات ـ التطور الكبير لموقف المسلمين من العهد القديم ـ محاضر جلسات الجمعية الشرقية جامعة غلاسكو : ٢٦/٥٠ ـ ٦٢ .
٢٦ ـ ١/١ ـ ٢
٢٧ ـ ١/٣٢
٢٨ ـ ١/٢٩ يعود ارتباط الأنساب العربية بالعهد القديم على الأقل إلى عبيد بن شريه (المسعودي مروج : ٤/٨٩ انظر ص ١١٢ عدم ذهابه أبعد من معد) والثغرة يجب أن تملأ إما بمطابقة الأسماء العربية مع العهد القديم (انظر الطبري : ١/١٤٧ ، مناقشة ما إذا كان جيومرث الفارسي هو جامير بن يافث بن نوح) أو بالإختراع .

٢ ـ تأثير التقاليد الكتابية على أعمال التأريخ الاسلامية
فرانز روزنتال
أستاذ اللغات السامية بجامعة بيل

المعني هنا بالكتابية هو الثقافة الدينية (اليهودية ـ المسيحية) مقصورة على إطار استخدامها في مجالات الاستعمالات التاريخية ، وهذا يجعل من الممكن أن نستبعد من تفكيرنا موضوعات مثل الكتابات التاريخية الإغريقية والبيزنطية المتأخرة ، وتأثيرها المحتمل على الكتابة التاريخية الإسلامية .

والمواضيع التي ستجري مناقشتها في هذه المقالة هي :

(١) تأثير الفكرة الكتابية للتاريخ على النبي (ص)(*) .

(٢) الفائدة التي حققها العلماء المسلمون من فكرة النبي عن التاريخ في كتابة التاريخ ، وفي هذه العلاقة ، قد لا يكون فضولاً تاماً ذكر الحقيقة الواضحة في أن امتلاك فكرة تاريخية عن العالم ، وانتاج أعمال تاريخية أمران مختلفان ، ولا تقود الفكرة التاريخية المعمقة ، وغالباً لم تقد ، إلى إيجاد أدب تاريخي .

★ ـ هذه الفقرة مرفوضة أصلاً ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينطق عن الهوى وتلقى كل معلوماته وأفكاره عن طريق الوحي ، ولم يتأثر مطلقاً بمحتويات الكتاب المقدس ، فهو لم يطلع على هذه المحتويات قبل الوحي ولا بعده ، حتى عندما كان أحبار يهود المدينة يسألونه كان لا يتعجل الجواب حتى يأتيه من عند الله ، وخير مثال على هذا مسألة ذي القرنين بسورة الكهف .

(٣) إغناء محتويات التواريخ الإسلامية من خلال مواد مستمدة من المواريث الكتابية ، ومن فضول الكلام القول إن هذا يغطي حقلاً واسعاً جداً ، وأنه من أجل دراسة مفصلة للموضوع لا بد من مناقشة عدد كبير من الأعمال التاريخية الإسلامية ، وحيث أن هذا لا يمكن إجراؤه هنا ، فإن مجرد تحديد لبعض المشكلات والمواد المتعلقة لا بد أن يكون كافياً .

(٤) التشابه في صورة العرض التاريخي بين التاريخ الكتابي وبين التاريخ الإسلامي طالما أن الأصل المشترك ، أو التطور المتوازي ، هو البيان الذي يحتمل أنه يزيل الخلاف هنا حول استبعاد التأثير ، والاستقلال ، فإننا ربما نلزم أنفسنا بمجرد مس هذا الموضوع .

(١) تأثير الفكرة الكتابية للتاريخ على النبي (ص)

ترتبط الانعكاسات التاريخية التي ألمح ، أو صرح بها القرآن كلها عملياً بشخصيات وأحداث كتابية . وفضلاً عن ذلك فهي تعود إلى المادة الدينية لرسالة محمد (ﷺ) ولكل النواحي ، وهي أيضاً لا نظير لها في الفكر العربي الوثني ، وهكذا فإن أصلها اليهودي ـ المسيحي في النهاية مؤكد(*) . ومع ذلك ، عندما يصل الأمر إلى مناقشة نقاط معينة ، فإننا نقوم ضد الجدار المصمت من جهلنا بالتفاصيل بالقدر الذي يعنيه التفكير اليهودي المسيحي في المحيط العربي المركزي ، جهل لا يعوض عنه ما نعرفه عن الأدب اليهودي المسيحي المعاصر ، أو القريب من المعاصر في أجزاء أخرى من العالم ، وعليه فإن مدى إسهام النبي الخاص في الاستجابة للمثيرات التي تلقاها من الخارج تبقى مادة للتفكير والتأمل ، وعندما نحاول أن نكون أكثر تخصيصاً ، ونحاول تشريح التأثير الكتابي حسب مضامينه

★ ـ هذا واه وفيه مغالطة ، لأن المعلومات الواردة في الكتاب المقدس مضطربة لحقها الزيف ؛ هي بالأصل في كثير من الجوانب مسروقة من تراث المشرق العربي القديم في حين أن المعلومات الواردة في القرآن صحيحة مختصرة ، تكشف الزيف لأن مصدرها الوحي ، ولذلك تختلف عما جاء في الكتاب المقدس .

اليهودية والمسيحية ـ مع بقاء احتمال الوساطة الغنطوسية ـ فإن جدلنا عرضة لأن يضيع في صخب الأفكار المتصورة سلفاً .

إن الوصف المبسط نوعاً ما لفهم محمد (ﷺ) للعملية التاريخية ، والذي اعتقد إجمالاً أنه وصف دقيق ، مستمد من القرآن ، وبصرف النظر عن التطورات في تفكير محمد (ﷺ) ، قد سار على النحو التالي :

إن للعالم بداية محددة ، وهو يسير نحو غاية محددة ، وكل شيء فيه : النجوم ، والأرض ، والمحيطات ، والجبال والنباتات والحيوانات وجدت لتحقق غاية محددة في كشف التاريخ الذي تشارك فيه دون أن تتعرض هي نفسها إلى أي تبدلات إلا أثناء يوم القيامة الأخير ، إن الله قد خلقها وقدر لها قدرها بهذه الطريقة ، وكل شيء هو به عليم ، وعليه رقيب ، ويتحرك وفق مشيئته وتقديره ، والإطار الزمني ، السنة اثنا عشر شهراً (سورة التوبة الآية ٣٦) موجودة أيضاً منذ بداية الخلق ، وعليها أن تستمر حتى النهاية الأخيرة ، وهكذا يتكشف التاريخ ضمن هذا الترتيب الثابت غير المقبول .

وقد أريد للإنسان أن يكون المنتفع من جميع هذه التحضيرات الإلهية ، وبهذا يصبح الخليفة الوحيد في التاريخ بقدر ما هو في هذا العالم ، وهو وحده (بالتأكيد مع الكائنات الخارقة للطبيعة كالجن والشياطين) لديه معيار معين من الحرية في العمل ، وكيف تتواءم هذه الحرية مع قدرة الله التامة ، وتخطيطه وعلمه المسبق غير واضح بأية حال ، ووجودها مقبول كحقيقة أثبتها التاريخ ، (هناك عنصر للتعليل دوار : إن حرية العمل تنتج التاريخ ، والتاريخ يثبت حرية العمل ، وهذه هي النتيجة التي لا مفر منها لنقص الوضوح المتعلق بمفهوم حرية العمل) . وإن أعمال الإنسان تحرضها وتوجهها الأهواء ، وتميل أهواء الإنسان به نحو الشر ونحو ما لا يرضاه الله ، وكلما كانت الأعمال الإنسانية خيرة فإنها تعكس الإيمان الحق بالله ، والنعيم سيكون جزاءً لها ، وإذا كانت سيئة وأفعالاً دالة على الكفر ، فإن العقاب والدمار آتيان ، وقد يكون الثواب والعقاب في هذا العالم ، أو في الحياة الآخرة ، وحقيقة الثواب والعقاب الدنيوي يمكن تصورها من التاريخ ، ومعرفتها من التجربة .

وليس هناك من شك ، أيا كان نوعه حقيقة ، حول حتمية قيام جزاء في العالم الآخر ، ويتألف التاريخ من بقاء هذه الرابطة السببية بين الخير والثواب من جانب ، والشر والعقاب من جانب آخر ، عاملة بين جماعات الناس وليس فقط بين الأفراد .

والعبر من الماضي كثيرة ، لا سيما بالنسبة للناحية السلبية ، وحاول في أزمنة ومواقع مختلفة في الماضي (من أجل بيان الصلاحية الشاملة للتجربة التاريخية) حاول رجال ملهمون تصحيح السلوك الآثم لمعاصريهم ، وإرشادهم للحياة الخيرة ، إنهم لم يحققوا نجاحاً دائماً ، ولم يخفقوا تماماً مع نتائج رهيبة أقل لأنفسهم مما هي للجماعات التي أثمت وعانت من الدمار .

وقد مهد التحول من الماضي إلى الحاضر والمستقبل ، وإنشغال محمد (ﷺ) المبكر بنهاية العالم ، واعتقاده الواضح بأنها وشيكة ـ يسبق زمنياً من جانب واسع الأفكار التاريخية المذكورة حتى الآن ـ مهد الطريق بسرعة إلى موقف أكثر مواءمة له .

وكانت الظواهر النفسية الأساسية للنبي (ﷺ) تنطوي على ثقة متفوقة ، وتفاؤل غير قابل للهدم ، ويكفي أن نذكر مثلاً أنه لم يظهر حرارة ، مثل تلك التي تصدر عن الإحباط حول تجربة طفولته كيتيم ، حتى إن هجمات أعدائه كانت تقابل بتحد نضالي ، وأعطيت مباهج الجنة مكاناً أكثر بروزاً في القرآن من التعذيب في الجحيم ، والآن وقد رأى محمد (ﷺ) نفسه واحداً من المنذرين الدوريين والأنبياء المرسلين إلى الجنس البشري ، لم يثنه النحس الدائم لأسلافه التاريخيين ، وقد اعتبر نفسه كجالب لشعبه فرصة فريدة للخلاص ، وأصبح مقتنعاً أكثر فأكثر بأنه سينجح حيث أخفق الآخرون جميعاً ، إنه آخر الأنبياء (إذا كانت النهاية هي الفكرة الرئيسة التي ألمح إليها التعبير المتنازع عليه «خاتم النبيين» في سورة الأحزاب الآية ٤٠) والطريق إلى مستقبل أفضل ممهد أمامه مع أنه ما يزال هناك وسيكون دائماً كثيرون ممن لا يرون النور .

إن الأيام الأخيرة للدنيا ستأتي في أعقاب كل الأحداث العظيمة المتنبأ بها للنهاية ، ولكن متى يكون ذلك هذا ما أصبح أقل تأكيداً .

وإذا أخذنا المخطط الموجز السالف لتمثيل فكرة محمد (ص) عن الدنيا قد نسأل أنفسنا: كيف نقارن ذلك بمفاهيم التاريخ التي تهيمن على التقاليد اليهودية المسيحية ، فقد قيل إنه من أجل الوصول إلى فهم مناسب للكتب المقدسة ، من الضروري تحقيق العمل الفذ المستحيل وهو نسيان كل تقاليد التفسير والتأويل ، ـ وهنا ينطبق العكس ـ ، لكي يكون هناك أساس مناسب للمقارنة ، من الضروري نسيان كل الجهود النقدية للعلماء الحديثين ، ومحاولة رؤية الفكرة الكتابية للتاريخ ـ الفكرة الكتابية الوحيدة للتاريخ ـ بعيون اليهود والمسيحيين لأواخر العصور القديمة .

إن الترتيب المادي غير المتبدل للتاريخ ، ومجيء التحرر النهائي من الوهم ، كان مقبولاً كحقائق صادقة ، وكان لفكرة تفوق الإنسان في الخلق أساسها الكتابي الثابت ، ولقد كان التاريخ خطة الرب لتخليص البشرية ، وأدى عناد الإنسان وميله للإثم إلى التكرار المستمر للعملية نفسها ، وقد قدمت فرص الخلاص من قبل رجال ملهمين ، ولكن تلك الفرص رفضت ، وكان هناك كنتيجة معاناة متجددة ، ومن أجل المسيحيين كانت الفرصة الوحيدة لإنهاء تلك العملية المفجعة ، وقد حدثت بمجيء المسيح ، واستمرت الفرصة في البقاء بالمعنى الروحي ، ولكن في هذا العالم بقي الإثم ، وبقيت المعاناة المصاحبة له ، وبالنسبة لليهود لم يتوقف مطلقاً تاريخ الفرص المرفوضة والمعاناة ، منذ أن ظهر الإنسان في الدنيا ، ولكن الفرصة توقفت عن أن تكون حقيقة في هذه الدنيا . وأصبحت الأمل المقدر منذ البداية للحالمين بين حين وآخر ، في حين أن المعاناة كانت المصير الدائم تقريباً لكل اليهود ، وكانت النهاية متوقعة المجيء وتتبع مسارها المقدر ، وكان هذا مؤكداً مثله مثل تفسير الإلماعات الكتابية نفسها ، إلا أن الزمن الحقيقي لحلولها كان غير مؤكد .

وتواؤم هذه النظرة التاريخية مع نظرة محمد (ﷺ) واضح وبشكل أساسي ، كانت هي نفسها أيضاً بين كل من المسيحيين واليهود ، ونشير إلى فكرة أن المشهد الكئيب للتاريخ كان مقدراً أن ينتهي هنا ، والآن من قبل مخلص ، إلى إلهام

مسيحي ، لهذا العنصر الهام في فكر محمد (ﷺ) طالما أنه ليس هناك دليل راسخ للمعتقدات اليهودية حول المسيح المنتظر في محيطه(*) .

ويكمن الفرق الوحيد ذو المعنى بين الفكرة الكتابية وفكرة النبي في حقيقة أنه أيما كانت السوابق فإن الموقف اليهودي المسيحي قد أصبح بصورة مستمرة تشاؤمياً عميقاً ، ويبدو أن الظروف الفعلية كانت بشكل رئيس مسؤولة عن هذا التطور ، وفي التجربة التاريخية للأقلية اليهودية خلال القرون التي سلفت قبل قيام الإسلام ، لم يكن هناك يقيناً شيء يمكن أن يميل باليهود عن اليأس ، وكان لدى المسيحية الشرقية ، حتى في الفترة الفاصلة القصيرة بين الاضطهاد الوثني والهيمنة الإسلامية ، فرصة ضئيلة لتذوق التأثير المبهج للنجاح الدنيوي ، ونسيان ازدرائها لهذه الدنيا ، وبالمقابل إن الثقة التي كانت لمحمد (ص) في نفسه ، وقضيته التي ثبت تسويغها بالنجاح السياسي الهائل للإسلام ، قد جعل هذا من الممكن لتفاؤله المبهج أن ينتصر على نظرية التاريخ الكئيبة بالذنب والجزاء . وأن تبقى بارزة جلية جداً في الأزمنة التالية عندما كتب التاريخ ، وللتأكيد ، إن فكرة الثواب والعقاب تجد تعبيراً لها في الأعمال التاريخية ، وتظهر حتى في أماكن بارزة ، وعن بداية تاريخية يقول الطبري[1] «فلنقل الآن في أول من أعطاه الله ملكاً ، وأنعم عليه فكفر نعمته ، وجحد ربوبيته ، وعتا على ربه واستكبر ، فسلبه الله نعمته ، وأخزاه وأذله ، ثم نتبعه ذكر من استن في ذلك سنته ، واقتفى فيه أثره ، فأحل الله به نقمته ، وجعله من شيعته ، وألحقه به في الخزي والذل ، ونذكر من كان بإزائه أو بعده من الملوك المطيعة ربها المحمودة آثارها ، ثم ومن الرسل والأنبياء ، إن شاء الله عز وجل» .

★ ـ إذا قبلنا هذا التأويل لا بد لنا من أن نسأل ؟ ومن أين جاء التأثير المسيحي ؟ مع التأكيد أن الكاتب لو كان يهودياً لأصر على وجود تأثير يهودي . المشكلة هنا أن جميع المستشرقين لم يتحرروا من خلفياتهم الدينية ، ومن مواريث «عقدة الرجل الأبيض ـ وكون الحضارة الغربية هي أصل الحضارات ومصدر الهامها» مع أن الشرق كما ثبت هو أرض الحضارات والعقائد الكتابية وغير الكتابية .

إن هذه النظرة الكتابية والإسلامية للحياة التي يتضمنها مقال الطبري ، كان المفترض أنه قد اشترك فيها أغلب المؤرخين المسلمين ، ولكن كان لها تأثير ضئيل على عرضهم التاريخي ، وهي بالتأكيد لم تحثهم على التماس بواعث الإثم والجزاء في كل مرحلة من التاريخ الإسلامي (*)

(٢) فكرة النبي عن التاريخ وأعمال التأريخ الإسلامية

لا يمكن أن يكون هناك شك في أن اهتمام محمد [ص] بالتأريخ ، والطريقة التي وجد فيها هذا الاهتمام تعبيراً عن عمله ، قد وفرت سبباً مثيراً قوياً لإيجاد حركة تأريخ إسلامية ، وقد يبدو مثيراً للشك ، فيما إذا كان لنظرته الخاصة تأثير حاسم على خصائص حركة التاريخ الإسلامية ، أو كان لها تأثير مفيد ومستمر ومنتج معاً على التفكير التاريخي الإسلامي ؟ إن هناك دلالة كبيرة تجبرنا على الإجابة على كلا السؤالين ، أو بأي حال على السؤال الثاني بمعنى سلبي .

وكما سلف وذكرنا ، إن خيبة الأمل اليهودية والمسيحية من التاريخ لم تصبح عاملاً فعالاً في حركة التأريخ الإسلامية ، زد على هذا إن المؤرخين المسلمين كثيراً ما اتبعوا غاياتهم المنفعية القصيرة المدى ، والتي تركت مجالاً ضيقاً للتأملات بعيدة المنال والتي تعود أيضاً إلى مستوى مختلف من النشاط التاريخي .

ومن الجانب الآخر من القنطرة هناك دلالات واضحة على التأثير الذي أحدثته فكرة محمد (ﷺ) على التاريخ ، إن معظم المؤرخين المسلمين (مع استثناءات معينة سنلمح إليها فوراً على الصفحة التالية) رأوا انقطاعاً واضحاً في التاريخ بمجيء محمد والأحداث التي وقعت في زمانه ؛ ويمكن تقسيم التاريخ إلى فترتين عظيمتين : الأولى قبل محمد ، والأخرى بعد مجيئه ، ونظمت الأعمال التاريخية طبقاً لهذه النظرية ، وهناك نقطة صغيرة وهي إحتواء التاريخ للمستقبل (بمعنى ، نهاية العالم) بين الموضوعات التي ستعالج بالتفصيل ، وفي هذا المجال ، استمد المؤرخون المسلمون إلهامهم من فقه التاريخ لدى النبي [ص] ، وفعلوا

★ ـ لنتذكر أن عنوان البحث ومضمونه عن أثر مزعوم على النبي صلى الله عليه وسلم فإذا بنا نقفز إلى الطبري ومنهجه ونظرته إلى التاريخ .

ذلك بصورة متزايدة حتى في تاريخ متأخر نوعاً ما ، وفوق كل شيء حيثما فكروا على طول الخطوط التاريخية للعالم ، فإن الغالبية الكبيرة للمؤرخين المسلمين تمسكوا بإحكام بالأفكار التي استمدها محمد (ﷺ) من التقاليد الكتابية ، وجعلوها جزءاً لا يتجزأ من التفكير الإسلامي(*) وبالكاد يمكن أن تقدر تلك العوامل وأن تضفي أهمية أكبر على جانب ضد الآخر . وعلى أية حال تحملنا آخر النقاط المذكورة إلى ناحية فكرة محمد (ﷺ) عن التأريخ التي كانت بلا ريب مؤثرة على التفكير التاريخي في الإسلام .

لقد كانت فكرته عن التاريخ مترابطة منطقياً وشاملة تماماً ، وقد أصبحت جزءاً مكملاً لديانة معظم المسلمين ، ويمكن بصعوبة توفيقها مع الأفكار التاريخية الأخرى ، وليس حتى مع مثل النظريات البدائية واسعة الانتشار ، مثل الخاصة الدورانية للتاريخ ، أو نظرية العصر الذهبي للتدهور التدريجي .

وبالتالي لعلها لم تشجع على صياغة نظريات مختلفة من قبل المؤرخين المسلمين ، وإجمالاً لقد كانت ناجحة بدرجة هائلة في هذا المجال ، لكن من حين لآخر اقترحت بحذر نظريات تاريخية بديلة ، لكن حيثما كان هذا يجري ، وبصرف النظر عن الكيفية التدريجية التي تم ذلك بها والمسحة اليسيرة ـ على الأقل ـ من عدم التطابق ، كان غير الأصوليين هم المرتبطين بهذه الجهود ، والمثال الجيد هو المؤرخ مسكويه وكتابه (تجارب الأمم) وقد استبعد مسكوية تماماً الرب من التاريخ بذريعة بسيطة هي أن إعلان أعمال الأنبياء ـ وعمل حياة محمد (ﷺ) ـ شيء خارج الخبرة البشرية،أي خارج التاريخ ، وعليه فإنه لا يستحق اهتمام المؤرخين ، وفي حين كان فيه مسكويه كما يفترض ، يدفعه عدم رضى مستقر في الأعماق عن الافتراضات الأساسية للإسلام ، نجد أن الولاء المخلص للإسلام التقليدي لمؤرخ متأخر هو ابن خلدون بعيد عن الشك ، ومع ذلك فإنه مثل مسكويه كان عليه أن يفصل بين

★ ـ لم يستمد النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من التقاليد الكتابية ، واقتصر ما استمده على الوحي ، وبحكم كونه خاتم الأنبياء هناك بعض التشابه بين ما هو موجود في الكتاب المقدس والقرآن الكريم لكن التشابه ببعض الجوانب شيء والتطابق شيء آخر ، ولا يمكن الحديث عن تطابق بين الصحيح والمزيف .

النظرة التقليدية وبصيرته الداخلية التاريخية ، بافتراض مستويين مختلفين للوجود : الخارق للطبيعة أو الإلهي ؛ والبشري ، وكلا المستويين حسبما أكد منفصلان طبيعياً ، فالتاريخ البشري يتحرك في دوائر تحددها الاحتياجات البشرية المادية ، والمواقف النفسية ، وهذه آنية جداً ، وتضطرب بصورة غير منتظمة بسبب بعض المداخلات الحتمية ، إذا كانت من القوى الخارقة للطبيعة المؤثرة ، وطبق ابن خلدون هذه النظرية التي تطورت في المقدمة بمهارة ، ومرة أخرى بحذر ، على العرض التاريخي لمواد كتابه العبر ، وقد دمج بطريقة غير واضحة ، التاريخ الكتابي في مشروعه العالمي النطاق للتجمعات العرقية والمجتمعات ، واستبعد فترة محمد (ﷺ) باعتبارها ، انقطاعاً مؤقتاً ـ من المؤكد مجيداً ويوحي بالرهبة ـ كانت العصبية خلالها غير نشطة أو فعالة ، ويبين هذان المثلان بوضوح مدى الخطر الذي أصبحت عليه الأرضية بالنسبة لمؤرخ أغرته بصيرته التاريخية بالتخلي عن التقاليد الكتابية ، لقد كانت الإغراءات كثيرة : التاريخ الفارسي ، والفلسفة اليونانية ، والنظريات الشيعية ، وكثيراً ما ظهرت النقاط الزلقة للمخاطر أو المحتملة ، للنظرة التقليدية ، في التواريخ الإسلامية وهي تدفعنا للتساؤل عما يمكن أن يكون مؤلفوهم قد فكروا فيه.

لكن سواء عن وعي أو عن غير وعي ، إن التخلي عن التقاليد الكتابية بشكل واضح كما فسرها محمد (ﷺ) هي حوادث استثنائية ، وحسبما يمكن لإدراكنا أن يساعدنا على الرؤية ، إن حدوثها يمكن بصعوبة توقعه .

(٣) المادة الكتابية في التواريخ الإسلامية :

اكتسبت المادة التاريخية الزائفة التي تتمحور حول الأحداث التوراتية وشخصياتها حق الدخول في الإسلام من خلال القرآن وتفسيره ، وعدت هذه المادة عموماً نواة الكتابة التاريخية الإسلامية القديمة جداً ، وقد تضخمت بسرعة في الحجم وأصبحت غزيرة جداً ، في الوقت الذي بدأت فيه الأعمال التاريخية التي أصبحنا نعرفها تكتب ، وقد وفر الأدب الديني موطناً لقدر كبير منها ، وإلى المدى الذي يتعلق بالكتابة التاريخية فإن القصص الكتابية دخلت إلى تواريخ العالم وإلى

أنماط مختلفة من التواريخ المحلية ، مثل تلك التي تتعامل مع جنوبي شبه الجزيرة العربية أو مصر ، وظهرت أيضاً في صورة حكايات .

ونحن محظوظون بحصولنا على مناقشة حديثة جداً للمشكلات المطروحة في المراحل الأولى للتأريخ الإسلامي في ما نشرته ن . أبوت N.ABBOT بشكل رائع بعنوان «دراسات في أوراق البردى العربية» : نصوص تاريخية (شيكاغو ١٩٥٧) . والمشكلات هنا عديدة وصعبة ، وحلها لا يكاد حتى هذه اللحظة يلوح للنظر ، ولا تسهم أوراق البردي التسع المنشورة من قبل الآنسة أبوت . على الرغم من أهميتها الواضحة ، لا تسهم بحد ذاتها بمعلومات كثيرة الأهمية فيما يتعلق بتاريخ الجهود التاريخية المبكرة للعلماء المسلمين ، إذ أنها آتية من فترة متأخرة إلى حد كبير . ومع ذلك فقد استخدمت الآنسة أبوت أوراق البردي من أجل فحص شامل لقسم واسع من المادة المتوفرة لدراسة بدايات أعمال التاريخ الإسلامية . وتنسب ثلاث من أوراق البردي التسع ، لأعمال تاريخية تعالج المادة التوراتية ، وربما يكون هناك بعض الشك بشأن الخصائص التاريخية ربما حول الأعمال التي تعود إليها بالأصل الأوراق موضوع البحث ، وعلى العموم ، إن النسبة الكبيرة من المادة (التوراتية) تبدو عديمة الأهمية .

وتمتد تحريات الآنسة أبوت أيضاً إلى مناقشة الفترة التي تمت فيها الترجمة العربية لكتابات مثل القصص المسيحية الأبوغرافية (غير المعترف بقداستها) عن آدم وحواء ، وكهف الكنوز ، إضافة إلى الترجمة العربية لأجزاء ـ على الأقل ـ من الكتاب المقدس ، يفترض أنها جرت فيها ، وتعتبر تواريخ أوائل القرن الثامن محتملة(*) .

والسمات الأكثر أهمية بالنسبة لدراسة الآنسة أبوت هي دفاعها الحاذق عن كون الوجود التاريخي الصحيح للمحدثين الأوائل مثل كعب الأحبار ووهب بن

★ ـ يستفاد من خبر أورده أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه غريب الحديث (ج٤ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ ط حيدر أباد ١٩٦٧) أن عبدالله بن عمرو بن العاص كان قد وقعت له يوم اليرموك أجزاء من الكتاب المقدس ومنها سفر التثنية ، وأنه قرأها إما مباشرة أو ترجمت له ، وأبدى رأيه فيها .

منبه من أجل الإسرائيليات. وعبيد بن شريه من أجل المادة المتعلقة بجنوب شبه الجزيرة العربية ، وتؤكد المؤلفة أيضاً أن المادة التاريخية نقلت كتابة ونشرت تجارياً في تاريخ مبكر ، افتراضاً ، الفترات الأموية المبكرة ، وإلى الحد الذي يتعلق بالموضوع قيد المناقشة هنا ، فإن عمل الآنسة أبوت بلا شك يساعد ، فهو من ناحية يميل إلى التوافق مع الدور المبكر والهام الذي شغلته الإسرائيليات في حركة التأريخ الإسلامية البدائية .

وإضافة إلى مشكلة الترتيب الزمني للأحداث ، تثير مادة الإسرائيليات في التواريخ الإسلامية مشكلات أخرى يمكن صياغتها ، باختصار كما يلي : من أين جاءت قصص الإسرائيليات ، بمعنى هل هي قصص مستمدة من اليهود والمسيحيين ، أو قصص من مصدر مختلف معزو إلى شخصيات كتابية ، أو قصص مستمدة من يهود ومسيحيين ولكنها تبدلت بدرجة كبيرة ؟ ثانياً : أي جزء يشغله النص الأصلي في الكتاب المقدس في العرض التاريخي للمؤرخين المسلمين ؟ وأخيراً هل استخدمت المادة التوراتية سواء في صورتها الأصلية أو المعدلة بتغيرات بارعة قليلاً أو كثيراً للدفاع ولتطوير أفكار إسلامية معينة ، إلى أفكار ذات خصائص تاريخية ـ أو ما هو أكثر احتمالاً ـ دينية ؟(*) إن الأجوبة على هذه الأسئلة يحتمل أن تعطى بقدر كبير من التأكيد لو أن لدينا عدداً كافياً من الدراسات المفصلة التي تتعامل مع شخصيات كتابية فردية ، وتفسر المعالجة التي تلقتها من الأدب الإسلامي المتوفر ؛ وحيث أن الحالة ليست كذلك وعلينا أن نعتمد على أعمال قليلة نسبياً نشرها العلماء الحديثون ، وهي إما موسعة جداً ، أو معنية بنقطة واحدة ، أو بأخرى من التفصيلات ، تبقى الإجابة غير مؤكدة بدرجة كبيرة . وربما كان النص الأصلي من الكتاب المقدس أمراً لا يعني الكثير بالنسبة للمؤرخين الأقدمين ، ليس لأن الوصول إليه ربما كان صعباً إلى حد ما ، بل لأنهم كانوا أقل اهتماماً بالدقة

★ ـ تجاهل الباحثون الذين اهتموا بالإسرائيليات التراث العملاق الذي كان متوفراً لدى صابئة الجزيرة والعراق ، فهذا التراث قديم جداً ، وكان مصدراً عظيم التأثير على الكتاب المقدس في فترة السبي البابلي وبعدها ، وقد عرفه المسلمون منذ وقت مبكر ، وأخذه بعين الاعتبار سيغير معظم الفرضيات التي قام عليها هذا البحث وغيره .

التاريخية ، أكثر من اهتمامهم ببناء كتلة كاملة متماسكة من القصص القرآني المجزأ ، بأي وسيلة يمكنهم أن يضعوا أيديهم عليها ، ومع ذلك فإن المعلومات المستمدة من الكتب اليهودية والمسيحية المقدسة قد دخلت إلى الأعمال التأريخية الإسلامية في تاريخ مبكر وبقيت فيه عبر القرون ، ومع ذلك تطلبت العودة إلى المصادر الأصلية امتلاك روح علمية جدية إضافة إلى كمية هائلة من الشجاعة نظراً للصراعات التي ربما تظهر بين الكتاب المقدس ونص القرآن .

وكانت الروح العلمية متوفرة في الواقع ، لدى العلماء الكبار الذين شغلوا أنفسهم بالترتيب الزمني للأحداث ، مثل حمزة الأصفهاني والبيروني ، لقد بذلوا جهداً هائلاً للعثور على الأشخاص القادرين على قراءة الكتاب المقدس أو الأعمال التاريخية اليهودية المسيحية المتعلقة به ، واستشارتهم وطلب شرح محتوياتها لهما ، وبين المؤرخين كان هناك في القرن التاسع رجال مثل ابن قتيبة ، وقد عارض في كتابه المعارف المعلومات التقليدية لوهب بن منبه بنص من التوراة اقتبسه حرفياً ، وهناك أيضاً بعض المعلومات الدقيقة مأخوذة من الأصل واضحة في تاريخ اليعقوبي[1] مع أنه يقبل كثيراً من المادة التقليدية دون تمحيص في صحتها ، ولسوء الحظ ، فإن الروح العلمية الجريئة في تلك الأزمنة سرعان ما كان عليها أن تناضل وليس فقط ضد الركود الطبيعي للفكر الإنساني ، بل أيضاً في الحقل التاريخي ضد النفوذ الهائل والقبول للطبري العظيم ، لقد كان لدى الطبري قدر معين من المعلومات الكتابية الدقيقة ، ولكنه اعتمد بدون تردد أو تفكير على المادة الإسلامية التقليدية ، وليس من المستبعد أن يكون بنفوذه الواسع قد رجح الكفة لصالح تلك المادة ، وضد احترام أعظم للمصادر الأصلية ـ من معظم المؤرخين المتأخرين ، إن الإشارة من آن لآخر إلى التوراة والإنجيل زائفة كانت أو حقيقية ، كانت رائجة في كل الأزمنة ـ حتى إن كاتباً متأخراً مثل ابن كثير ، الذي كان يعتمد كثيراً على الحديث نجده يقول : «والذي رأيته في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة[2] ، وقد حاول ابن خلدون بفضوله العقلي الذي كان عليه ، أن يكسب الوصول إلى مصادر يمكن الاعتماد عليها ، على الأقل في مراحل معينة من التاريخ اليهودي المسيحي[3] ، وكان هناك لزمان طويل شعور قوي من الكراهية للتكاثر الكبير والمنمق لقصص الاسرائيليات الخرافية وانتشارها بين

العلماء ، ولكن على الرغم من تلك الجهود النقدية المتفرقة ، فإن الرغبة الحقيقية للمعرفة بالمصادر الأصلية ، التي كان من الممكن إرضاؤها في كثير من الأحوال بسهولة ، من الواضح أنها مفقودة في الأغلبية الكبيرة من الأعمال التاريخية التي تتعامل مع المادة التوراتية .

إن كون مصدر كبير من هذه المواد هو المدراش والهاغادة العائدان لليهود والمسيحيين أمر مقبول بشكل عام من قبل العلماء المحدثين ، وللتأكد ، فإن العلماء الذين درسوا مسألة الأصل كانوا عاكفين على إيجاد الموازي اليهودي ـ المسيحي مع المصادر ، وأبدوا اهتماماً قليلاً أو لم يبالوا إطلاقاً ، بالكتلة الهائلة من المادة التي لا مثيل لها بهذه الكيفية ، بيد أنَّ هناك كمية هامة من العلاقة الثابتة بين المادة الإسلامية والأدب اليهودي المسيحي ، وبالطبع فإن حقيقة أنه لا يتوفر نص أو مصدر مواز لا يمكن مطلقاً أن تشكل حجة مقنعة ضد المصادر اليهودية المسيحية ، وهكذا فإنه ما لم يبرهن أن قصة من المرويات قد جاءت إلى المسلمين من مصادر يهودية أو مسيحية ، تبقى على الرغم من ذلك التقليد اليهودية ـ المسيحية أكثر المصادر احتمالاً للأصل ، وبشكل خاص بالنسبة لكل المادة القديمة(*) . إن قدراً كبيراً من التحوير الإسلامي والاختلاق يمكن التعرف عليه بوضوح ، كما نتوقع ، ويمكن استخراج فئات واسعة معينة ، واحدة منها تشمل قصصاً تكشف رغبة مصممة جداً في شرح بيانات من القرآن لا سيما الحالات التي تتوفر فيها قصص عديدة للشرح ، أو حيثما تواجه بنمو واضح وتعاظم في التفاصيل ، كتعداد أو سرد الأسماء التي علمها الله لآدم ، وعلى الأقل فإن التفاصيل هي إضافات واضحة ، وحتى ما هو أكثر وضوحاً كالحالات التي استبدلت فيها التقاليد أو عدلت بالإشارة إلى حالات عربية أو بيانات قرآنية على سبيل المثال ، عندما اعتبرت لغة البشر الأولى التي نطق بها آدم عربية بدلاً من أن تكون عبرية أو آرامية ، ويبدو محتملاً أن التبديل عائد إلى المسلمين ، وافتراض أنها قد صدرت عن يهود أو مسيحيين عرب يتطلب إثباتاً قاطعاً ، وهناك رواية تقول إن آدم قد اختار الإقامة في الهند أو سيلان

★ ـ يدحض هذا ما سلف تبيانه عن مصادر الصابئة وغيرهم .

عندما طرد من الجنة . ويخبرنا الطبري أن «ذلك مما لا يدفع صحته علماء الإسلام وأهل التوراة والإنجيل»[٤] ، ولكن يشك برواية أخرى تضع حواء في جده وإبليس في ميسان ، وقد لا يكون في تعيين موقع الشيطان في جنوبي ما بين النهرين إشارة معادية إلى الشيطانية المزعومة للناس ومناخ المنطقة ، ولكنه بالأحرى يعكس التقاليد الغنطوسية لبلاد ما بين النهرين[٥] ، وعلى أية حال إن إدخال جدة مستمد من الرغبة لإيجاد رابطة عربية منطقية لقصة آدم ، ومرة أخرى فإن أصلاً على ما يبدو أكثر احتمالاً من افتراض أن اليهود والمسيحيين العرب كانوا مسؤولين عن إيجاد الأسطورة وبشكل خاص ، طالما أن الإشارة إلى إبليس يبدو أنها تدل على ارتباطات ببلاد ما بين النهرين ، وهناك مشكلة أصعب تقدمها مثل هذه الحالات كقصة أن يوسف امتلك تسعة أعشار كل جمال العالم ، وهي بلا شك مرتبطة بالرواية التلمودية التي تقول امتلكت القدس تسعة أعشار جميع الجمال الموجود[٦] ، ولكن كيف حدث أن تحولت الفكرة من القدس إلى يوسف أمر يصعب تفسيره ، ويمكن على أي حال أن نذكر أنه في فقرة أخرى ، فسر جمال يوسف بحقيقة قرآنية ، بسارة التي كانت ذات جمال باهر[٧] ، وهكذا من الواضح أن جمال يوسف ، والحاجة إلى إيجاد تفسير له يمكن أن يدفع بالبحث العلمي حول مثل هذا التفسير ، في اتجاهات عديدة ، وهناك زمرة أخرى من القصص يبدو أصلها الإسلامي مبطناً ، وهي تتكون فعلياً من جميع القضايا التي تتعلق بالشعر العربي ، وأخيراً نجد أن المؤلفات التي تعالج قصص الأنبياء ، تنجح في تقديم تاريخ الأنبياء في قالب قصصي متماسك تقريباً ، وهنا يقوم بالضرورة شك بالنسبة للقصص التي تعمل على تهيئة الاستمرار الدرامي ، وهكذا يوجد عدد كبير من القصص التوراتية التي تدين بأصلها أو صورتها للاختراعات الإسلامية ، ولقد كان اليهود والمسيحيون من ذوي المستويات العقلية المختلفة منشغلين لزمان طويل بتفصيل الأحداث المتعلقة بتاريخهم المقدس ، ولم يكن هناك بالتأكيد شيء يمنع المسلمين من اتباع مثلهم ، وكان استخدام التقاليد التوراتية لأغراض غير ترسيخ الحقائق الصحيحة أو المزعومة دائماً أمراً لا يمكن تفاديه تقريباً ؛ وفي هذا الصدد قد نشير إلى التبدل الذي ، طبقاً لنظرية علمية مقبولة على نطاق واسع ، خضعت له

صورة إبراهيم على يدي النبي نفسه(*) ، وكان هناك تطور آخر بهذا المعنى في تكييف تاريخ الأنبياء طبقاً لمتطلبات آراء الشيعة ، وسلف أن أوضحنا مسألة النزوع إلى التعريب ، وقد دخلت أيضاً أفكار معينة في عرض المادة التوراتية من قبل المؤرخين عن طريق تفسير القرآن والفروع الأخرى لعلم الدين .

وعلى أساس القرآن (سورة الأعراف ـ الآيتان : ١٧١ ـ ١٧٢) أصبحت على سبيل المثال مشكلة القضاء والقدر جزءاً من تاريخ آدم(٨) ، وربما كان الاستعمال المتعمد لمثل هذه المادة لأغراض محددة لدى الأجيال الأولى من المؤرخين شائعاً نوعاً ما ، ويبدو أنه حجب في فترات تالية بالحشو الكبير من المعلومات التاريخية الصافية .

(٤) التقاليد الكتابية وصور الكتابة التاريخية الإسلامية :

إن الصور الأدبية التي توجد في كل من العهد القديم ، والكتابة التاريخية العربية هي ميراث مشترك من الألف الثانية ق . م ، عندما كوّن الناطقون باللغات المعروفة بالعبرية(**)، والآرامية والعربية كياناً لغوياً واجتماعياً وثيق الارتباط ، وتكفي محافظة المجموعة العربية في شبه الجزيرة العربية ، وخاصة في عالم اللغة والأدب (حتى لو أن الفكرة التي اعتنقها العلماء في الماضي حول تلك المحافظة يجب أن تراجع بالتفصيل) لتفسير بقاء الصور التي نبذتها جماعات أخرى لأسباب مختلفة ، وتدخل أنماط مميزة للكتابة التاريخية في القصص المكونة حول بعض أبيات الشعر التي أعطت بريقاً للأحداث التي يحتفلون بها والتي تفيد القصص (في تفسيرها) ، وتظهر الصورة الأدبية بشكل متناثر في الكتاب المقدس ، وفي شبه جزيرة العرب قبل الإسلام ، وكانت أداة النقل الرئيسة لحفظ المعلومات

★ ـ أبدت الاكتشافات الأثرية والأبحاث العلمية في مجالات التاريخ القديم أن إبراهيم عليه السلام كان عربياً ، وأن اليهود تعرفوا على أخباره بعد قدومهم إلى فلسطين فتبنوه مثلما تبنوا غير ذلك من عبادات وعادات أهل فلسطين وهذا مصداق قوله تعالى «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً» سورة آل عمران الآية ٦٧ .

★★ـ تخلى اليهود بعد هجرتهم إلى فلسطين عن لغتهم ـ أو لغاتهم ـ وتبنوا احدى لهجات فلسطين التي باتت تحمل اسم العبرية .

التاريخية ، وكانت من وجهة النظر الفنية بعيدة التأثير ، ووضعت نفسها بين أيدي المؤرخين المسلمين ، الذين تابعوا استخدام هذه الصورة ، مع بعض التحوير على نطاق واسع ، وهكذا أصبح التقديم الحدثي للتاريخ يهيمن على قطاع واسع من الكتابة التاريخية .

إن الاهتمام الملحوظ بعلم الأنساب في كل مكان من العهد القديم ، وفي شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام هو أبلغ شهادة على وجود درجة معينة من الوعي التاريخي ، وثبت أن هذه السمة المشتركة قليلة الأهمية في تطور صور الكتابة التاريخية ، والتي بالنسبة لها يشكل علم النسب في حد ذاته الإطار الأكثر ظهوراً ، وعندما تم تبني المعرفة بالنسب من قبل المؤرخين المسلمين لأغراض تاريخية ، كانوا يختارون صوراً من التعابير الأدبية التي فرضها التطور العام للأدب التاريخي العربي .

إن ترتيب المعلومات التاريخية حسب الأسر الحاكمة وعهود الأفراد من الحكام موجود في الكتاب المقدس ، إضافة إلى وجوده في الأعمال التاريخية الإسلامية ، وهو مبدأ واضح في التنظيم ، معروف عملياً في كل أنحاء العالم ، وفي الإسلام يمكن أن يفترض أنه قد عدل وفق بعض السوابق الأقرب في الزمن من الفترة البعيدة للشرق الأدنى القديم(*) .

لقد بينت الصفحات السالفة ، كما اعتقد ، أن تقاليد الكتاب المقدس تشغل مكاناً خاصاً في تأريخ حركة التاريخ الإسلامية ، فلقد زودت الكتابة التاريخية الإسلامية ببعض أكثر عناصرها أهمية ،إنها ربما فعلت هذا،ولكنا حرمتها من فرصة تجربة التطورات العظيمة في الفكر التاريخي ، وكثيراً ما تكون المشكلات المرتبطة بالتقاليد الكتابية مختلفة عن تلك التي تواجه تلاميذ نواحٍ أخرى من الكتابات التاريخية الإسلامية ، وكثير منها يقفز في الظلام الذي يحيط بأقدم فترات الفكر الإسلامي والأدب التاريخي ، وقد حجب آخرون بوساطة حشد كبير من

★ـ قد يكون هذا صحيحاً لكن مع نفي الإيحاء المتضمن والمعني به تراث الاسرائيليات ، لأن هذا التراث لم يكن أبداً الأهم بين تراث البلدان العربية والإسلامية المفتوحة .

المادة المثبتة باتساع ، وهي على ما يبدو متفاوتة ، وما من أحد يبدو أنه مستعص عن حل نهائي .

هوامش البحث

١ - التاريخ : ١/٧٨ .
٢ - البداية : ١/٩٥ .
٣ - انظر و . ج فيشل - ذكرى غولدزيهر (القدس ١٩٥٦) ج٢ ص ١٤٧ - ١٧١ .
٤ - الطبري : ١/١٢١
٥ - انظر الجنيزا المندعية . ترجمة م . ليدزبارسكي . ص ٢٨١ (كوتنجن - لايبزغ ١٩٢٥) وطبقاً لها (إن عوالم ، الظلام متوضعة في الأراضي المنخفضة في الجنوب) .
٦ - انظر م . ليدزبارسكي «قصص الأنبياء في الأساطير العربية» (لايبزغ ١٨٩٣) ص ٥٠ . .
٧ - المسعودي (؟) أخبار الزمان (القاهرة ١٣٥٧/١٩٥٨) ص ٢٠٠ .
٨ - قارن لدى الطبري ١/١٣٥ ما قد يتعارض مع ابن كثير في البداية ١/٨٧ .

٣ـ مدرسة التاريخ العراقية إلى القرن التاسع
عرض مختصر

عبد العزيز الدوري
أستاذ التاريخ الاسلامي في جامعة بغداد

إن حركة التأريخ الإسلامي جزء من الثقافة الإسلامية ، ويمكن فقط أن تفهم عندما تدرس مع الإشارة إلى الأنشطة الثقافية الأخرى والتطورات ، وتؤدي دراستها لوحدها فقط إلى فكرة جزئية وغامضة عن أصولها وتطورها .

لقد بدأت حركة التاريخ الإسلامية بعد قيام الإسلام ، وتدل الأنشطة التي سبقت قيام الإسلام ـ قصص الأيام وعلم النسب ـ على منحى الاهتمام ، وبدايات تقنيات الرواية ، ولكن بدون فكرة عن التاريخ .

واتبعت بدايات الدراسات التاريخية تقريباً خطين متميزين عن بعضهما بعضاً هما : خط الحديث وخط القبائل الذي هو من بعض الجوانب استمرار للأنشطة التي سبقت قيام الإسلام .

ويعكس هذان الخطان التيارين الكبيرين في المجتمع الإسلامي القديم : الإسلامي والقبلي اللذان أثراً في كل نواحي الحياة ، وقد تم اتباع كل خط بشكل واسع في مركز واحد ، الحديث في المقام الأول في المدينة مهد الإسلام ، والقبلي في المقام الأول في الكوفة والبصرة وهما المدينتان العسكريتان الجديدتان ، ومركزا التقاليد القبلية ، وكانت المدينة والكوفة والبصرة مراكز العلم في الإسلام القديم .

إن الخط الإسلامي ليس محل اهتمامنا هنا ، ويكفي القول إنه قد بدأ بعلماء محدثين بذلوا اهتماماً خاصاً بسيرة النبي (ص) (بدءاً بعروة بن الزبير) ، ثم الذين

مضوا إلى دراسة التاريخ الإسلامي القديم ، وشكلوا مدرسة علماء المغازي ، وبالإضافة لذلك رويت قصص وأحاديث عن النبي (ص) والفتوحات وتم تناقلها ، ولم يبادر هؤلاء إلى تأسيس أي خط للتاريخ ، علماً بأنهم زودوا فيما بعد ، خاصة ابن اسحق ببعض البيانات التي كان ينظر إليها بشك من قبل العلماء الجادين ، ويبدو التفهم النقدي لتلك المدرسة في تأكيدها على التوثيق والدقة وعلى إمعان النظر في الرواة ، ومع نهاية القرن الهجري الأول ، أرسيت خطوط السيرة ، وجمعت كتلة المادة الأساسية ، وتسللت إليها قصص كثيرة بعد ذلك مع جيل من البيانات البسيطة والواقعية نحو التمجيد البادي الملامح ، وقد بدأ تسجيل الروايات ـ في وقت مبكر نوعاً ما ، ومع نهاية القرن الهجري الأول تم ترسيخه من قبل الزهري وآنذاك وفيما بعد كانت المصادر شفهية وكتابية ، وتبع النمط القبلي للتاريخ من اهتمام بالأنشطة القبلية والشؤون ، وفي المفهوم والطراز كان استمراراً مباشراً لأخبار الأيام ، وروايات النسب الموجهة بشكل رئيس إلى أيام المعارك الجديدة والفتوحات في الإسلام .

لقد كانت الثقافة العربية شفهية في الأساس ، وكان الشعر دليلها الوثائقي ، وأفضل الوسائل للمحافظة على التقاليد ، والاستثناء هنا هو العودة إلى مدونات ووثائق ملوك الحيرة واليمن (الحميريون) وإلى السجلات والأنساب المحفوظة من قبل بعض العائلات في اليمن التي تم الاستفادة منها فيما بعد[١] ، وقد رويت الحكايات في المقام الأول في المجالس ، وكانت بشكل عام ملكية مشتركة للأسرة ، أو القبيلة وأصبح بعض الأفراد مثل رواة الشعر أو شيوخ القبائل ، الرواة الرئيسين ، ولم يكن لمثل هذه الروايات والأخبار سلاسل من الإسناد . وقد بقيت جزءاً من الثقافة العامة ، واهتماماً مشتركاً ، استمرت مثل هذه التقاليد الشفهية مع كثير من الشعر في الإسلام القديم كما كان من قبل[٢] . وحيث أن الكوفة والبصرة كانتا المركزين القبليين الرئيسين ، وكانتا في تماس مستمر ومباشر مع الصحراء فقد جعلهما هذا تشغلان دوراً هاماً في هذا التداول .

وقد جمع الإسلام واستيطان القبائل في المدن القبائل معاً في تعايش أوثق ، مما نمى اهتمامات جديدة ، وأدى إلى انتشار القراءة والكتابة ، وهناك أدلة وفيرة تشهد باللجوء إلى الكتابة .

ـ لمساعدة الذاكرة أو لحفظ الأحاديث قبل نهاية القرن الأول ، وخلال النصف الأول من القرن الثاني[3] ، كما وبدأت أيضاً عملية امتلاك الروايات الكتابية والشفهية أيضاً .

ونسمع في وقت مبكر من القرن الثاني الهجري عن أفراد (أشياخ ،رواة) كانوا مضطلعين في الأنساب وفي أخبار قبائلهم ، وعن روايات قبلية (كتب) ربما حوت أنساباً وشعراً وأخباراً عن بعض القبائل .

ويحتمل كثيراً أنها جمعت من قبل راو ، وظلت تعدّ ملكية مشتركة لتلك القبيلة ، ويقتبس الشاعر ذو الرمة (المتوفى ١٠٥/٧٢٣) من كتاب تميم ، في حين كان لحماد الراوية (نحو ١٢٦ هجرية) كتب عن قريش وثقيف[4] . ولقد وفرت هذه الروايات مع الرواة المواد للمؤرخين المتأخرين .

وقد ازداد اهتمام الرواة اتساعاً في الوقت المناسب ، وكان للعصبية المحلية المرتبطة بالأمصار ، ولمعيشة كثير من القبائل في مدنية ما وللسياسة الحزبية زخمها المؤثر ، أضف إلى هذا أن إقامة دولة عظمى ، والشعور بدور تاريخي ، كل ذلك رعى ، وعزز وعياً جديداً ، ويساعد هذا كله على تفسير عملية الانتقال من الرواة البسطاء إلى المؤرخين الأوائل ، ونلتقي بحلول منتصف القرن الثاني الهجري بالرواة العلماء ، والإخباريين ، وعلماء النسب ، وعلماء فقه اللغة الذين خلفوا كتابات تاريخية ، وثروة من القصص التاريخي ، وكان هذا عصر العلماء الرواد في مختلف الحقول ، من الذين بدأوا بجمع الشعر ، والأخبار ، والحديث ، فقد جمع أبو عمرو بن العلاء المتوفى (١٥٤/٧٧١) وحماد الراوية (١٥٦/٧٧٢) الشعر ، والأخبار والأنساب عن عرب ما قبل الإسلام في المقام الأول من رواة القبائل ، والأخبار القبلية ، ولجأ إلى الكتابة لحفظ بعض أعمالهما[5]، ونمتلك من تلك الفترة أيضاً المجموعات الأولى للحديث التي جمعت من مختلف الأقاليم ، وأول الأعمال المتوفرة عن السيرة ، وكل هذا يدل على مرحلة عامة من التطور الثقافي ، التي شاركت فيها الدراسات التاريخية ، وعلى هذا فإن الأخباريين والعلماء الرواة هم مؤرخونا الأوائل . وتماماً كما في أدب السيرة كان عندنا سلف لابن اسحق ، مثل الزهري الذي اعتمد عليه بقدر كبير ، ونجد أيضاً الأخباريين قد أخذوا بقدر كبير من رواة معينين ، وهكذا من بين ما يزيد على ستين من الرواة الذين استمد منهم

سيف بن عمر (كما هو مقتبس من الطبري) نجد أنه يعتمد كثيراً على اثنين هما طلحة بن الأعلم ، ومحمد بن عبدالله ، اللذان أخذ من كل منهما ما يزيد على مائة رواية(٦)، وكان هؤلاء الرواة مهتمين بالأحداث أو الشؤون العامة ، وليس بمجرد المعلومات المتعلقة بالقبيلة ، ويأتي من هذه الجماعة علماء النسب الذين مضوا إلى أبعد من حدود قبيلة واحدة ، ومع ذلك بقي معهم الرواة القبليون .

وهكذا كان الأخباريون أول المؤرخين في الخط القبلي ، وهم يختلفون عن رواة الآثار المحلية في ممارستهم جمع الأحاديث المتعلقة بحدث أو بموضوع ، ووضعها في كتاب متماسك، وكان بين أولئك الأخباريين أبو مخنف (توفي في ١٥٧/٧٧٤) وعوانة بن الحكم (توفي ١٤٧/٧٦٤) وسيف بن عمر (توفي ١٨٠/٧٩٦) ومنهم أخيراً ممثلهم الرئيسي المدائني (توفى ٢٢٥/٨٣٩) ، ويظهر هؤلاء الإخباريون اهتماماً بشؤون الأمة مع أنهم يعطون اهتماماً خاصاً بشؤون العراق ، والاهتمام بمفهوم الوحدة واستمرار تجربة الأمة ملحوظ ، إلى جانب أنه يمكن الشعور باستمرار التاريخ العربي ، فقط ربط سيف بين الردة والفتوحات ، وعالج عوانة التاريخ الإسلامي خلال القرن الأول ـ الخلفاء الراشدون . والردة والفتوحات ، والحرب الأهلية وشؤون العراق وبلاد الشام حتى عبد الملك ـ وعالج أبو مخنف التاريخ الإسلامي المبكر حتى صفين ، ثم تابع مع شؤون العراق حتى نهاية العصر الأموي ، وجال المدائني خلال ميدان التاريخ العربي كله سياسياً وأدبياً واجتماعياً ، مبتدئاً بالجاهلية ، وماضياً إلى بداية القرن الهجري الثالث ، وهكذا فإن الأمة ، وليست القبيلة هي محط الاهتمام ، ويمكن رؤية أفكار أخرى في أعمالهم حيث نلحظ الصراع بين فكرة القضاء والقدر في الشؤون العامة ، كما كثرت بين الأمويين ، وفكرة الإرادة الحرة والمسؤولية البشرية حسبما عبرت عنها الأطراف المعارضة ، ويصور عوانة المسار الأموي : يزيد ينسب قوة الأمويين إلى الله(٧) ، وعثمان يتوقع أن السلطة ستنتقل إلى عبد الملك وأبنائه(٨) ، وهذا مضاد لخط أبي مخنف لا سيما عندما نأخذ بعين الاعتبار رواياته عن ثورة الحسين وحركة التوابين وينعكس مفهوم الدولة ، مع التأكيد على حقوق الإمام ، (من الزاوية الأموية) ومطالبته بالولاء والطاعة ، في مقابل الموقف القبلي أو المشايع الذي يضع

المصالح الأخرى (الاقليمية والقبلية) فوق الدولة ، في أعمالهم ، ولا تدان الثورات ضد الأمويين ، إن لم تمدح ، حتى عندما ينتقد موقف معاوية ضد علي (كما حدث من قبل نصر بن مزاحم) : وقد تم ذلك على أسس حزبية ، بدلاً من أن يكون حسب مفهوم الدولة[٩] ، ومع ذلك فإن الأجزاء المحفوظة تظهر اعتدالاً كبيراً ، ولم يسقط هؤلاء المؤرخون إلى مستوى الانحياز الصريح ، ولم يكونوا ممثلين لوجهة نظر واحدة فقط ، ويحتمل أن عملية الاختيار من هذه الأعمال (خاصة في الطبري والبلاذري) قد استبعدت بعض الروايات المتطرفة ، ولكن ربما نجد التفسير في الأهمية المرتبطة بالرواية ضد الرأي والنظام المفروض بالحكم العلمي .

وكان للحزب والاقليم والقبيلة تأثيرها وعند أبي مخنف نلاحظ ميولاً شيعية[١٠] . وتعاطفاً عراقياً[١١] . وبعض التمجيد القبلي ، وهكذا نجد في روايته حول صفين ، الأمجاد القبلية مؤكدة بوضوح ، ويشرح سيف دور القبائل في فتوحات العراق ويؤكد دور تميم[١٢] . ويعدّ عوانة عثمانياً في ميوله ، وهو يغطي بوضوح الروايات الأموية ، ومن آن لآخر يتناول قصصاً داخلية[١٣] . ومع ذلك فإن بعض الروايات مضادة ـ للأمويين بعض الشيء[١٤] .

وكان على الأخباريين أن يتابعوا البحث الواسع عن الروايات ، وهكذا استخدموا الروايات الأسروية ، والأحاديث القبلية في إقليمهم ، وعدداً كبيراً من الروايات المفردة ، وكان عليهم أن يردفوا هذه الآثار بآثار الأقاليم الأخرى التي ارتبطت بها الأحداث ، وهكذا جلبوا إليهم روايات بلاد الشام ، والمدينة ، وشبه الجزيرة العربية ، وقد استخدم أبو مخنف روايات مشايخ القبائل من الأزد ، ونمير ، ومحارب ، وتميم ، إضافة إلى الروايات الأسروية[١٥] . ونقل روايات المساهمين في الأحداث وعدداً من الروايات الفردية[١٦] ، وكانت مصادره عن صفين وحادث مسلم بن عقيل وكربلاء ، بالأساس كوفية ، ولكنها مدعمة ومردفة بروايات علوية ، وشامية ، ومدنية[١٧] . ويعتمد سيف بن عمر ولا سيما من أجل الفتوحات ، على الآثار الكوفية مدعمة ببعض الآثار المدنية والشامية ، من أجل الردة يعتمد على روايات من الكوفة ، وشبه جزيرة العرب ، والمدينة ، ومن بين رواته هشام بن عروة ، وموسى بن عقبة ، ويعود كثير من الآثار إلى مساهمين في الأحداث[١٨] ، ويستخدم عوانة الروايات الأسروية والكلبية ، وروايات قبيلة

أخرى ، وأحاديث مفردة كثيرة ، مع كثير من الآثار الشامية والأموية[١٩] ، وإلى جانب ذلك استخدم الاخباريون الوثائق الرسمية (رسائل ومعاهدات) ويحتمل أن ذلك جاء من الدواوين الرسمية ، أو من الناس الذين كانوا يملكونها[٢٠] .

ويمكن للأخباري أن يعتمد بدرجة كبيرة على آثار من اقليمه (أبو مخنف مثلاً) أو قبيلته (مثل سيف) ولكن لا يمكنه أن يغفل الآثار المعارضة الأخرى[٢١] ، وبحلول هذا الوقت كانت طريقة الأحاديث منتشرة انتشاراً واسعاً مقبولاً ، وكانت متأثرة بالأخباريين ، وهكذا فإن طريقتهم النافذة كانت مستخدمة من إمعان النظر في الرواة وفي نقدهم ، وفي تقويم جدارة الروايات ، وعلى سبيل المثال يذكر سيف أن «هذه القصة في أمر الأبلة وفتحها خلاف ما يعرفه أهل السير ، وخلال ما جاءت به الآثار الصحاح»[٢٢] ، ويقول أبو مخنف في إشارة إلى مسألة حول كربلاء «وأما ما حدثنا به المجالد بن سعيد والصقعب بن زهير الأزدي وغيرهما من المحدثين ، فهو ما عليه جماعة المحدثين قالوا»[٢٣] .

ومع ذلك فإن قصص المجالس ، والشعر المتعلق بها وجد مكاناً في رواياتهم وهذه في المقام الأول الحالة مع نصر بن مزاحم الذي يقتبس كثيراً من الشعر المزيف ، ويتبع بوضوح (في كتابه وقعة صفين) خطوط حكايات المجالس ، وهي استمرار لحكايات الأيام[٢٤] ويمكن رؤية الآثار لدى الآخرين مثل سيف بن عمر ، وأبي مخنف[٢٥] ، وعوانة ، ولقد كتب هؤلاء الأخباريون في نثر بسيط مباشر يعطي من حين لآخر رواية تصويرية حية للأحداث ، وفي التعامل مع المعارك يستعمل الشعر ، والخطابة ، والحوار ، والأقصوصة بالعادة مستمرة ، ونكهة نمط الأيام ممكن الشعور بها من آن لآخر .

ومع ذلك فإن الأخباريين ـ يمثلون مرحلة انتقال من الإهمال القديم للأحاديث المسندة إلى الدقة في السرد حسب طرائق المحدثين ، لأنهم كانوا يظهرون حرية كبيرة ، وأحياناً رخاوة في سلاسل الإسناد ، وهكذا نمر بسلاسل مقطوعة ، أو بحالات حيث يكون الإسم الأول فقط للراوي هو الذي يذكر ، أو بأقوال مثل (رُوي) ، يقول المشايخ . . . «الذين يعرفون الرواية» ، «أخبرني رجل . . .» ، وتعطى خلال القرن الثاني رواية واحدة عادة حول كل نقطة ، ثم تردف الروايات بعضها بعضاً للمضي في القصة ، ومع المدائني يتم تقديم أكثر من

رواية حول النقطة نفسها مع عرض حي ، وأكثر توازناً وحيادية ، وكانت معظم المصادر روايات شفهية ، ولكن بعضها يحتمل أنه كان مكتوباً ، كما يتضح من تعبيرات مثل «قال ، وحدثني» مشيراً إلى الراوي نفسه .

ومن الموائم هنا ملاحظة أن علماء فقه اللغة ساعدوا في تطوير فهم أكثر حساً بدراساتهم للشعر ، ومحاولاتهم لفصل الشعر الحقيقي عن الزائف ، وساعدوا أيضاً في جمع وغربلة الروايات التاريخية ، وهكذا أدخلوا طريقة للنقد الداخلي جنباً إلى جنب مع النقد الخارجي للإسناد ، وكان خطهم في الكتابة مع ذلك شبيهاً بخط الاخباريين ، في تجميع رواياتهم حول موضوع أو نقطة ، وكتابة الكتب .

وقد أسهم علماء النسب في الدراسات التاريخية بإعطاء الأنساب مع بعض المواد المتعلقة بالترجمة ، وهذا صحيح بشكل خاص لدى الزبيري ، وهنا نجد أن الاهتمامات الاجتماعية ، والنزعات ، والسياسات القبلية قد أعطت القوة الدافعة ، وقد أعدت هذه الدراسات لأشراف القبائل ـ بصورة محدودة ـ ما فعلته كتب الطبقات لرجال الحديث وأعطى جدل الشعوبية ، وزخم تأثير الموالي قوة دافعة إضافية لدراسات علماء النسب ، وفقهاء اللغة ، وأدى إلى التأكيد على استمرار التاريخ الثقافي العربي ، وكان الشعر من مصادر علماء الأنساب ، وفقهاء اللغة في المقام الأول إلى جانب الروايات القبلية المرتبطة بالشعر أو الموثقة به ، وهكذا تراكمت دراساتهم ، وارتبطت مع الدراسات التاريخية ، وكانت دراساتهم المتعلقة بالأنساب مقصورة في البداية على قبيلة واحدة ، ومرة أخرى خلال القرن الثاني ظهر علماء اختصوا بالأنساب ، فجمعوا الآثار القبلية من النسابين من مختلف القبائل ، ومن قصائد الشعر ، لا سيما تلك المتعلقة بالنقائض[٢٦] ، وخلال الفترة نفسها جمع علماء الأنساب والنحويون الشعر العربي من الكتب القبلية ، ومن الرواة الأفراد ، وابتداءً من اهتمام محدود بالنسب أو النحو ، انتقل اهتمام بعض علماء النسب وفقهاء اللغة إلى حقل التاريخ العربي[٢٧] . وهنا أيضاً كانت الحركة من اللا إسناد إلى محاولة لذكر بعض الأسانيد ، ومن ثم إلى تطور كامل وتمسك بالإسناد ، ويروي هشام بن الكلبي عن بعض محدثي (أهل الكتاب) ، وعن رجل اسمه ابن أبي صالح روايات كتابية توراتية وعن بعض المترجمات

مدونات وثائق الحيرة ، وحكايات حول العرب والفرس ، وبشكل رئيس عن بعض مشايخ الكوفة وعن أبي مخنف ، وعوانة ما تعلق بالتاريخ الإسلامي ، وينقل أبو عبيدة في كتابه عن شيوخه : أبي عمرو بن العلاء ، والأخفش ، وعيسى بن عمر الثقفي ، ويونس بن حبيب ، وعن هشام بن عروة ووكيع ومجموعة من فصحاء البدو[٢٨] .

وظهرت بعض المفاهيم التاريخية المتعلقة بالاستمرار الثقافي للتاريخ العربي ، واعتماده على المسائل المعاصرة ، ولا سيما إدعاءات أشراف العرب ، وعلاقة قريش بالقبائل الأخرى ، وموقف العرب من الموالي ، ومسائل اللغة والميراث الأدبي ، ووسعت هذه المسائل الشاسعة من تطلعات علماء النسب ، وفقهاء اللغة إلى تاريخ الأمم الأخرى قبل الإسلام .

وقد عاد هشام بن الكلبي إلى التاريخ التوراتي ، وإلى التاريخ الفارسي المرتبط بالتاريخ العربي ، في حين عاد أبو عبيدة إلى التقاليد الفارسية ، وكان بين كتبه : أخبار الفرس ، وكتاب الموالي وقد انعكست فيهما قضايا سياسية إلى حد ما ، وهكذا أظهر هشام بن الكلبي بعض التعاطف نحو العلويين ، ويكشف أبو عبيدة ، كما شوهد في النقائض ، اهتماماً بكشف المثالب والنقائض عند العرب (التي لا يمكن أن تفسر بكونه خارجياً) بل تتبع الخط الشعوبي[٢٩] .

ومع بداية القرن الثالث وصلت الدراسات التاريخية إلى مرحلة أدت إلى ظهور المؤرخين الكبار من ذلك القرن ، ووضع الإخباريون ، وفقهاء اللغة ، وعلماء الأنساب في كتبهم أهداف الدراسات التاريخية ، وتجولوا في كامل حقلها ، ورسخ هذا مفهوم وحدة التاريخ الإسلامي ، الذي ربما يكون قد أعطي ترتيباً وتوالياً زمنياً دقيقاً في مصنف الهيثم بن عدي «كتاب التاريخ على السنين» ، وطوروا خط النسب إلى خط تاريخي كما في (نسب قريش) للزبيري (٢٣٣ ـ ٨٤٤/٦ ـ ٥٠) وبوضوح أكثر في هدف «تاريخ الأشراف الكبير» وخطته للهيثم بن عدي ، وقد عبروا عن فكرة التاريخ العالمي الشامل (مثل هشام بن الكلبي) وهم يطوفون حول التاريخ الكتابي وحول عرب ما قبل الإسلام ـ الشماليين والجنوبيين ـ وحول التاريخ الإسلامي ، وفي المنهج أعطي اهتمام متزايد للإسناد ،

وتم تبني فكرة رواية الأحاديث المختلفة من قبل المدائني وأبي عبيدة ، إلى جانب أننا نلحظ لدى المدائني ، وأبي عبيدة وهشام ابن الكلبي الميل لاستخدام المادة المكتوبة إضافة إلى الروايات الشفهية ، وقد استخدم هؤلاء الناس أبحاث جيل أبي مخنف ، وعوانة ومحمد بن السائب الكلبي ، وأبي عمرو بن العلاء كمصادر لمصنفاتهم ، وشهد القرن الثالث مرحلة جديدة من التطور الثقافي ، وكان هناك حشد كبير من الآثار المروية أو المدونة في مختلف الأقاليم ، وكانت هذه هي أيام الرحلة من أجل العلم التي افتتحت بعلماء الحديث لجمع هذه الآثار وربطها. وأدى التماس الناجم إلى تأثيرات متبادلة في الطرق والفهم ، وقد أصبح الإسناد الآن يستخدم على نطاق واسع ، وتطبق قواعده بدقة ، وعلاوة على ذلك بدأ الرأي العلمي يتشكل حول قيمة البحوث السالفة ، وجدارة مؤلفيها بالثقة ، وهو أمر جعل الجمع والنقد أكثر تداولاً .

وكتب مؤرخو القرن الثالث : البلاذري (المتوفى ٢٧٩/٨٩٢) واليعقوبي (المتوفى ٢٨٤/٨٩٧) والدنيوري (المتوفى ٢٨٢/٨٩٥) وابن قتيبة (المتوفى ٢٧٠/٨٨٣) والطبري (المتوفى ٣١٠/٩٢٣) تواريخ متصلة ، وليس بحوثاً أو رسائل ، وكانت أفكارهم الأساسية وحدة تجربة الأمة ، والتاريخ العالمي الشامل ، ويمثل البلاذري الفكرة الأولى ويمثل الباقون الفكرة الثانية ، واختلفت دوافعهم للكتابة ، فقد كتب البلاذري تاريخاً محاكاً حول أشراف العرب مبيناً بذلك أين يقع الاهتمام ، ومعطياً كل التأكيد لفكرة اجتماعية عربية ، ويعبر كتابه (الفتوح) عن مهمة مركزية للإسلام ، ويلبي حاجة إدارية وتشريعية ، وكتب اليعقوبي تاريخاً شاملاً مع لمسة شيعية (جعفرية) ، وأعطى تاريخ ما قبل الإسلام أهمية دينية وثقافية . وفكر ابن قتيبة في الكتّاب ، وحاجتهم إلى دستور تاريخي شامل يقدم تركيبة من أنماط الأيام والتاريخ العام ، والاحتياجات التشريعية والقضائية . وأراد الدنيوري أن يبين دور العراق وفارس في تاريخه الشامل ، ووجد مسوغاته في أزمنة الساسانيين والعباسيين ، وأراد الطبري من التاريخ أن يفسر إرادة الله ، ويصور وحيه .

وتم تطبيق التفهم الناقد لطرائق المحدثين ، فالطبري نفسه كان محدثاً ضابطاً ودقيقاً في التفهم ، وكما هو واضح من تأكيده على سلاسل الإسناد

وامتناعه عن نقدالمضمون ،وأما ابن قتيبة فهو ناقد لمصادره إلى حد اللجوء إلى العهد القديم لمراجعة روايات وهب بن منبه ، وتدقيقها ، وهو يأخذ ما هو راسخ جداً في مصادره ، واليعقوبي أيضاً ناقد لمصادره ، ولا سيما بالنسبة لما قبل الإسلام ، وهو يتفحص الإسناد للفترة الإسلامية ، ولكنه رضي بالإشارة إليهم في خطبة الكتاب بأن سلاسل إسنادهم معروفة ، ويتبع البلاذري مساراً متوسطاً وينقل عن المؤرخين المتقدمين بالاسم ،ولكنه لايسقط إسنادهم إلا عند الضرورة ، ويعطي كل من الطبري والبلاذري روايات مختلفة ترتكز على النقطة نفسها ، وهناك القليل بينهم وبين الآخرين ـ حتى اليعقوبي ـ من هو منحاز وغير حيادي ، وقد ساعد ربط الأسانيد السالفة كثيراً وبدرجة معتبرة على إعطاء فكرة متوازنة .

لقد أضاف هؤلاء المؤرخون بحوثهم الواسعة ـ التاريخية والجغرافية والأدبية ـ إلى بحوث الإخباريين ، واستخدموا المادة الشفهية والمكتوبة (بعد قراءتها على بعض الشيوخ) ، واستخدموا في بعض الأحيان ، الوثائق والمدونات ، وقد تماشوا مع طرائق النسابين ، والإخباريين ، وفقهاء اللغة ، واستفادوا بدرجة كبيرة من مدرسة المدينة ، وقد تفوقوا على الإخباريين ، ووضعوا بكل تأكيد خطوط حركة التأريخ الإسلامية .

هوامش البحث

١ ـ انظر الطبري (القاهرة ١٢٣/٢١) ابن هشام (القاهرة) ٣٨١/١ الهمداني ، اكليل : ٥/١ ١٠/٣٠ ـ ٣١ ، ١١٢/٣ .

٢ ـ انظر السيوطي ، المزهر ٢٤٨/١ ـ ٢٤٩ ، ٣٥٥/٢ الجاحظ ، البيان : ٣٦٦/٣

٣ ـ النديم : ٩ ـ ١٠ ، ١٣٢ الأغاني : ٢٥٣/٤ . تهذيب التهذيب: ٦٧/٢ . ابن سعد : ٣٩٥/٤ ، ٢/٧ ، ١٧ ، ٦ ، ٦٣ ، ٢١٦/٥ .

٤ ـ أنظر الأغاني : ٩٤/٦ ، ٢٥٧/٤ ، ابن عبد البر ، القصد : ٤٣

٥ ـ أنظر ابن سلام ، الطبقات : ٤٠ ، السيوطي المزهر : ٣٠٤/٢ ، ابن سعد : ٢/٧ ، ٤٢ . ومختارات ابن الشجري : ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٦ . الأغاني: ٣٢٢/٣ .

٦ ـ أمثلة أخرى ، ابن أبي صالح حول التاريخ الكتابي ، في ابن الكلبي ، أبو الذيال والمفضل الضبي من أجل خراسان في المدائني .

٧ ـ الطبري : ٣٧٨/٢
٨ ـ البلاذري ـ أنساب ٢٤٠/٥
٩ ـ انظر الطبري : ٣/٢ ـ ٤ حيث يفضل إمام غير عادل على عدم وجود إمام
١٠ ـ انظر الطبري : ١٨٢/٢ ، ١٨٦ ، ٢٢٣٧/١ ، ٣٢٧٦ ، ٣٠٧/٢ ـ ٣٠٨ .
١١ ـ انظر الطبري : ٣٢٩١/١ ـ ٣٢٩٢ ، وخاصة : ١٤٥/٢ عندما نقل عن أحد الرواة قوله : «أدركت الناس وهم يقولون : إن أول ذل دخل الكوفة»
١٢ ـ أنظر الطبري : ٢٠٦٨/١ ودور القعقاع التميمي .
١٣ ـ انظر البلاذري ـ الأنساب : ٣١/١/٤ . الطبري : ١٣/٢
١٤ ـ الطبري : ١٨٣٧/١ . البلاذري ـ أنساب : ٣٦٩/٥ .
١٥ ـ الطبري : ٣٢٦١/١ ، ٣٣٠٢ ، ٣٣٠٩ .
١٦ ـ أنظر الطبري : ٣٢٠٢/٢ ـ ٣٢٠٣ .
١٧ ـ انظر الطبري : ٢٧٩/٢ ، ٤١٠ ـ ٤١٤ ، ٣٧٦ ، ٤٧٩ .
١٨ ـ أنظر الطبري : ١٣٨٦/١ ، ١٧٩٧ ، ١٩٣١ ـ ١٩٣٦ ، ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ .
١٩ ـ أنظر الطبري : ٧٨٥/٢ ، ٧٩١ ـ ٧٩٥ . البلاذري ـ أنساب ٣٢/٥ ـ ٣٥ ، ١٤٠/٥ .
٢٠ ـ أنظر الطبري : ٢٠/١ ، ٢٨ .
٢١ ـ أنظر الطبري : ١٨٢/٢ ، ٢٠٢ ، ٣٢٣ من أجل أبي مخنف. البلاذري ـ أنساب ١/٤ ، ٣ ، ٣٦٩/٥ والطبري ١٨٣٣/١ من أجل عوانة .
٢٢ ـ أنظر الطبري : ٢٠٢٥/١ (الصحيح أن صاحب هذا الرأي هو الطبري الذي قال بعدما فرغ من رواية سيف ، قال أبو جعفر: وهذه القصة في أمر الأبلة . . .)
٢٣ ـ أنظر الطبري : ٣١٤/٢ (جاء بالأصل : ٣٧٨/٢ فقوم وجاء أيضاً : وأما ما حدثنا به مجاهد والصقعب وغيرهما من المحدثين .
٢٤ ـ انظر الخطيب : ٤٨٢/١٣ ـ ٤٨٣ . الطوسي ـ الفهرس : ١٧١ .
٢٥ ـ الطبري : ٢٠٧١/١ ـ ٢٠٧٣ ، ٢٠٥٨ ، ٢١٠٢ : ٣/٢ ، ٨ ـ ٥٠ .
٢٦ ـ مثل محمد بن السائب الكلبي (توفي في ٧٦٣/١٤٦) وأبو اليقظان (توفي في ٨٠٤/١٩٠) .
٢٧ ـ أنظر أعمال هشام بن محمد الكلبي وأبي عبيدة .
٢٨ ـ السيوطي ، المزهر : ٤٠١/٢ ـ ٤٠٢ ، الخطيب : ٢٥٢/١٣ ، ابن خلكان : ٨٢٠/١ النقائض) ٣٠ ، ٤٨٧ ، مجاز القرآن : ٤٠٠/١ .
٢٩ ـ انظر الغناوي ـ نقائض : ١٤٦ .

٤ ـ ادب التراجم الاسلامي
السير هاملتون جب
أستاذ جامعي ، واستاذ فخري للعربية
في جامعة هارڤارد

يحتمل أنها حقيقة بدهية أن كل نوع من أنواع الإنتاج الأدبي الذي يترعرع في مجتمع ما ، يعبر عن عنصر ثابت في الدوافع الواعية ، أو في التوجه اللا واعي ، للمجتمع ككل أو في أسسه العامة ، على هذا لا يمكن لدراسة أدب التراجم الإسلامي أن تقتصر على تعداد بسيط ، وجدولة ، وتحليل للبحوث الباقية من هذا النوع ، ولكنه يجب أن يبدأ بأسئلة حول الدوافع وراء هذا الأدب ، والأدلة التي يقدمها أو يدل بها ، على تغيير أو إبقاء للمواقف والميول الاجتماعية والفكرية ، والسؤال هنا أي نوع من المواد يتوقع أن يجد المؤرخ في هذه البحوث ؟ وأي جهاز ناقد يجب أن يختاره لهذه الدراسة أو يستخدمه ؟

(١) الدوافع

لتفهم هذه المسألة ، وضعت نقطة انطلاق مزودة بحقيقتين جديرتين بالملاحظة ، إحداهما هي أن معجم التراجم هو عمل داخلي تماماً ، وأصيل بالنسبة للجماعة الإسلامية ، والإنتاج المشابه الوحيد هو الأقسام المتعلقة بالتراجم في تواريخ الأسر الصينية الحاكمة ، ولكن هذه كما سيظهر فيما بعد ، تحكمها مبادىء مختلفة تماماً ، وكل احتمال للاستعارة مستبعد ، ومثل ذلك لا تقدم سجلات الشهداء السريانية نظيراً أو سابقة ، والحقيقة الثانية هي أن تأليف معاجم التراجم

العربية تطور متزامناً وضمن ارتباط وثيق مع التركيب التاريخي ، ولا تعطي المعاجم القديمة نفسها سبباً لتأليفها ، بل إنها تنغمس مباشرة في موضوعاتها ، وفوق ذلك فإن هذه الموضوعات نفسها ليست بأية حال قاصرة على الشخصيات السياسية ، ولا هي صور سياسية وأحداث أعطيت أهمية خاصة .

وعلى العكس (وهنا في تضاد ملحوظ مع التقاليد الصينية) فإن التاريخ السياسي عرضي تماماً وطارىء على التركيب الرئيسي لهذه الأعمال ، وهكذا فإنه من الواضح أن المفهوم الذي يكمن تحت معاجم التراجم الأقدم هو أن تاريخ الأمة الإسلامية هو في الأساس إسهام من رجال ونساء .أفراد في بناء ثقافتهم النوعية ونقلها ، أي أن هؤلاء الأشخاص (وليس الحكام السياسيين) هم الذين يمثلون ، أو يعكسون القوى الفاعلة في المجتمع الإسلامي في عوالمهم الخاصة ، وإن إسهامهم الفردي جدير بأن يسجل من أجل الأجيال المقبلة .

وهكذا يهدف المعجم الأقدم الباقي وهو لابن سعد في المقام الأول لتخليد ذكرى كل صحابة محمد (ﷺ) ـ أياً كان الغموض في نواح أخرى ـ ممن اشتركوا في معركة بدر ، ثم المهاجرين فيما بعد ، وأخيراً التابعين الذين أرسوا قواعد التعليم الإسلامي والمجتمع في شبه الجزيرة العربية ، والأقاليم الجديدة ، وبإلهام مماثل كانت أعمال التراجم القديمة الأخرى (فقدت جميعها تقريباً الآن) ولا سيما تلك التي صنفت حول قضاة المدن الرئيسة ، ومع أن مفهوم التراجم قد اتسع فيما بعد ، والدور الفئوي الاجتماعي (بدلا من السياسي) أو الآتي يبقى العامل المسيطر في انتقاء الشخصيات والتعامل معها ، وقد تم إخراج ذلك بشكل مدهش من قبل واحد من أكثر كتاب التراجم المتأخرين شهرة ، وأعني به السخاوي (القرن ٩/١٥) حيث قال التاريخ : «في الاصطلاح التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ، ووفاة ، وصحة وعقل وبدن ، ورحلة وحج ، وحفظ وضبط ، وتوثيق وتجريح ، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور . . وتجديد فرض ، وخليفة ووزير ، وغزوة وملحمة وحرب»[1] وهكذا . .

(٢) أسس الاختيار

ويتبع بناء على ذلك أن المؤهل الأساسي للانضواء تحت التيار العام لمعاجم التراجم الإسهام الفردي في التقاليد الثقافية للجماعة الإسلامية ، في واحدة أو أخرى من مظاهرها ، وإن اختيار كاتب الترجمة يتحدد بالنواحي الخاصة ، أو ناحية الثقافة الإسلامية التي يتجه اليها اهتمامه ، وتحدد الأخيرة بدورها كأساس بفعل تدريباته أو اهتماماته ، وحيث أن أقدم التدريبات المنظمة في الإسلام كانت الأنظمة القانونية (الفقهية ـ القضائية) والدينية لدراسة الحديث ، فإن أقدم الأعمال المتعلقة بالتراجم قد وجهت نحو تلبية متطلباتها سواء في البحوث العامة أو في (تواريخ) مدن خاصة وأقاليم ، ومع التوسع في ممارسة كتابة التراجم استمر الالتزام بالتعريف المفصل بها ، وفي حين استمر علماء الدين في حصر اهتماماتهم بالمحدثين والفقهاء والفئات الدينية الأخرى ، جمع رجال الأدب معاجم للشعراء ، وجمع الكتاب والموظفون الإداريون معاجم للوزراء والكتاب والعلماء ، وجمع الفلاسفة معاجم خاصة بهم ، وكان أول معاجم التراجم ذات المجال الأكثر عمومية ، كما يظهر ، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي القرن (١١/٥) مع أن الاهتمام بالمحدثين كان ما يزال المهيمن في هذا العمل ، ولم تقم محاولة لاحتواء مجموعة شاملة من الشخصيات البارزة في جميع حقول النشاط في كل أجزاء العالم الاسلامي حتى قام ابن خلكان في القرن السابع هـ/الثالث عشر م ، بتصنيف كتابه فاحتواها إنما على نطاق ضيق نسبياً [٢] .

وكان الأساس لذلك على أي حال قد أرسي في وقت أبكر من قبل لطراز جديد من الترتيب الزمني لعرض الأحداث ، وقد أدخله على ما يبدو ابن الجوزي ، والذي كان كتابه يتكون في أساسه من معجم للتراجم مرتبة ترتيباً زمنياً ، وكانت الوفيات في كل سنة تشغل عدة أضعاف المكان المخصص للأحداث السياسية [*] ، ومن ذلك الحين فما بعد فإن معظم الحوليات أو كلها

★ـ هذه السابقة نجدها في الحقيقة في تاريخ خليفة بن خياط ، انظر ط . دمشق ١٩٦٧ بتحقيقي .

تقريباً تبنت التطبيق نفسه مع اهتمام كثير أو قليل بالأحداث أو الشخصيات السياسية ، وهكذا غدا التاريخ الشامل في الوقت نفسه ، معجماً شاملاً للتراجم وقد وصل هذا التطور أوجه بتاريخ الاسلام الكبير للذهبي (القرن ٨/١٤) الذي جمعت فيه الأحداث والتراجم في طبقات ، كل طبقة منها فيها تراجم وفيات عشر سنوات .

ومع أن العمل ـ على هذا ـ بتصنيف معاجم فئات خاصة (كتاب ، نحويون ، فقهاء أطباء ، قضاة . . الخ) قد توبع ، شهدت ميادين كتب التراجم الآن تطوراً اتجه نحو إحياء شامل لذكرى جميع المشاهير في كل الحقول ، وأصبح هذا المنهج بعد الذهبي ممارسة منتظمة في جميع التراجم حسب قرون الوفيات ، وبدأ ذلك ابن حجر للقرن الثامن هـ/الرابع عشر م ، وأكمل العمل حسب القرون متتابعة من قبل السخاوي ، والغزي ، والمحبي ، والمرادي ، ومن قبل مصنفين اقليميين آخرين ، وقد هيمنت تراجم رجال الدين ، بلا شك ، عددياً في هذه الأعمال لكن فقط إلى جانب نخبة شاملة من الشخصيات السياسية ، (سلاطين ، وزراء ، موظفون رسميون ، رجال أدب وشعراء وتجار وأطباء ونساء بارزات) ، وحتى ـ من آن لآخر ـ أشخاص عرفوا بموهبة خاصة ، كمعلمين في المدارس ولاعبي شطرنج ، ومع ذلك هناك حقيقة جديرة بالملاحظة ، وتدعو للتفسير وهي أن هذا النمط من النشاط المتعلق بالتراجم كان مقصوراً إلى أبعد الحدود على الأقاليم العربية للإسلام ، وإلى القرن التاسع عشر نجد قليلاً من المعاجم المتعلقة بالتراجم قد صنفت سواء في المناطق التركية وايران أو الهند ولا شيء يتشابه مع سلسلة القرون العربية .

٣ ـ البنية المتعلقة بالتراجم :

تحدد الفقرة المقتبسة أعلاه من السخاوي النقاط الأساسية في مواد الترجمة واهتماماتها ، فهي تسأل لدى الحديث عن علماء الحديث : من ، متى ، وأين ، تكمن شهرته وإمكاناته العلمية ؟ وقد ضمنت حقائق خلقية (ملامح صفات) لكن لأنها فقط متعلقة بما تقدم ، ويندر ذكرها في مكان آخر .

وفي الإبقاء على هذه الصيغة ، ليس في أغلبية المواد المتعلقة بالترجمة أكثر أو أقل من الخطوط العامة لحياة صاحب الترجمة المروية ، (بما في ذلك تفاصيل عن أعماله مع المناصب التي شغلها) مع ذكر أسماء شيوخه وطلابه ، والأحاديث المروية أو الكتب المصنفة مع عموميات جاهزة نوعاً ما حول أخلاقه مع قليل من الاهتمام بشخصيته بحد ذاتها ، وفي الواقع تختصر كثير من الأعمال المبكرة الصيغة أكثر ، وتحذف التواريخ والأحداث الشخصية وبعد بيان يسير عن الهوية تدرج أسماء الكتابات فقط (كما في تاريخ الحكماء للبيهقي) أو الأقوال ـ الجديرة بالملاحظة ـ المنسوبة اليه .

وعلى كل حال لم تتضمن هذه الخطوط العامة المنظمة في أية فترة جميع الروايات والمواد حول المترجم له ، فكل ما تحتويه جميع معاجم التراجم من ابن سعد إلى المرادي (حتى البيهقي) مواد تصل الى ٢٠ أو ٣٠ أو حتى ٥٠ صفحة . وهنا تفصيل واضح للمخطط الأساس ، ولكن ليس بمعنى التطوير في البنية أو المنهج ، أو تقنية محسنة للتحليل أو لتصوير الخصائص ، وفي كثير من الحالات نجد أن هدف المواد الأكثر تطويلاً هو ببساطة نقل كل المعلومات التي تمكن الكاتب من جمعها عن أصحاب التراجم ، وهذا واضح بشكل خاص لدى ابن سعد وفي الأغاني وعند الخطيب البغدادي والمواد المتعلقة بالأولياء كما في حلية الأولياء لأبي نعيم ، وليس هناك دليل على أية محاولة لإيجاد تنظيم أدبي أو حتى تاريخي لتلك المواد ، ويبقى العرض في كل مكان واقعياً قاسياً ، وإلى هذا الحد ليس هناك أكثر من مجرد مواد مجمعة ، وأقصى ما يمكن قوله هو أن المواد المزيدة كثيراً ما تضيف بمضامينها عمقاً نفسياً بصورة غير مباشرة ، ومرد هذا لأن الحشو يتركب بشكل رئيس من حكايات ترتبط بالفرد وتقدمه في ظروف متنوعة ومواقف ، وفي الأعمال المتأخرة بالتراجم ، ربما يمكن حقاً التخمين في أنها موجهة عمداً لهذه الغاية دون أن يتورط الكاتب في أحكام شخصية ، ويتفوق ابن حجر بشكل خاص في مقدرته على تصوير الفرد بملاحظات موجزة حول شخصية قصصية (مثل قاض في حلب) : قوله : «وكان كلامه أكثر من علمه . . . وكانت عنده حدة خلق في البحث وصياح» [٣] وقال عن معلم : «وكان كثير الاحتمال ولا سيما من جفاء الطلبة من المغاربة وأهل الريف» [٤] .

٤ ـ مصادر المواد المتعلقة بالتراجم :

من الواضح أن المواد القديمة المتعلقة بالتراجم قد تجمعت من الروايات الشفوية وفي القسم الأعظم منها تقدم بهذه الصورة مع سلاسل الأسانيد ، وقد استمرت التقنيات نفسها في قرون تالية (مثلا من قبل الأصفهاني ، الخطيب البغدادي) مع أن المصادر المكتوبة تتزايد تدريجياً والتجميع التالي (مثل الذهبي) يعيد بوضوح إخراج مواد من أعمال أقدم ، باعتراف أو دون اعتراف ، وتبقى مشكلة التحليل النقدي عادة ، واحدة ذات مصاعب بعض الشيء ونادراً ما تمت محاولتها حتى الآن ، وفي المعاجم القرنية المتأخرة هناك بعض الأدلة على أن كاتب الترجمة جمع جزءاً من مادته بالمراسلة ، وذلك بالإضافة إلى ما جمعه من المعارف الشخصية لمعاصرين ، ولكن المصادر غير المكتوبة لا يشار اليها إلاّ نادراً .

٥ ـ قيمة الأعمال المتعلقة بالتراجم للدراسات التاريخية :

من الواضح انه بالنسبة لمؤرخي الحضارة الإسلامية بمظاهرها الواسعة تعد المعاجم ذات أهمية كبيرة ، لكن مع تحديد معين ، ويلاحظ أن الزراعة والفنون الصناعية ممثلة بحجم هو من الضآلة بمكان مثلما نراه في كتاب من «هو ، هو» ، مع أن التجارة والنشاطات الاقتصادية ليست مهملة بأية حال في المعاجم المملوكية والمعاجم المتأخرة ، ومع احتلال الاهتمامات الدينية والأدبية للأغلبية الكبيرة من محتويات كتاب التراجم ، فمن الواضح أنها بذلك تقدم أشمل التفاصيل وأكثرها اكتمالاً عن الحياة الدينية والفكرية للأمة الإسلامية طوال تاريخها ، بما في ذلك (تراجم الحكماء) الأنشطة التعليمية والعلمية .

وفي الواقع انه بدون هذه الأعمال ما كان ممكنا أن تكون هناك دراسة مفصلة للثقافة الإسلامية ، ومع الاستثناءات المذكورة أعلاه ، تقدم أيضاً بيانات قيمة من أجل التاريخ الاجتماعي والمؤسسات ولكن بطريقة قصصية ومتقطعة غالباً ما ينبغي أن تضم الى مواد من مصادر أخرى لتصبح مفهومة تماماً ، وفي هذا المجال إن الأعمال الشاملة (ابن سعد ،الاغاني ، تاريخ بغداد وربما أيضاً ابن عساكر) ذات قيمة خاصة ، سواء بسبب حقول الاختيار الواسعة فيها ، ولاتزانها أو بسبب

الندرة النسبية للمواد الأخرى الباقية ، وتقدم معاجم التراجم تقريباً المادة الوحيدة للنشاطات الاجتماعية ومنزلة النساء في المجتمعات الاسلامية، أما بالنسبة للتاريخ السياسي ، فان قيمة هذه الأعمال تكمن في تنوعها الواسع ، وحيث تكون المصادر الأخرى ضحلة ومتفرقة ، فإنها تساعد في ملء الثغرات ، وحيث تكون السالفة وافرة إنها تفيد في إضافة التفصيل والدقة ، أو من أجل الدراسة النقدية، ولكن بما أن الروايات ذات الاهتمام السياسي هي في القسم الأعظم قصصية ومرتبطة بالأحداث الفردية ، فإن مسألة المصادر والمصداقية في هذا الحقل حادة بشكل خاص ، وإنه بكلمات أخرى من غير المأمون استخراج النتائج من الحكايات الواردة في الأعمال المتعلقة بالتراجم مالم يمكن تدعيمها بأدلة أخرى . ومن جانب آخر اذا لم يتم الكشف عن انحياز ، أو شك بوجوده ، فإن الأحكام العامة التي يصدرها كتّاب التراجم على الأمراء الأفراد والحكام والموظفين ، يمكن أن تكون مقبولة بشكل عام .(*)

★ـ نادراً ما أصدر مصنفو التراجم أحكاماً على المترجم لهم ، أما بالنسبة لحيادهم أو انحيازهم فهو موضوع لا يجوز طرقه بشكل عام لأن المصنف جمع المواد على عهدة أصحابها ، وليس على عهدته ، وكل مادة بدورها تعبر عن موقف مصدرها ، كما لا يمكن الحديث عن عمليات اختيار لنوعية موجهة من المواد ، إذ غالباً ما أودع المصنف كل ما وصل إليه من مواد كتابية أو شفوية ، فالجهد انصب على الجمع ، والجمع فقط .

هوامش البحث

١ ـ الاعلان : ٣٨٥ تحقيق ف . روزنتال ضمن كتابه «علم التأريخ عند المسلمين» ، وقارن قول الكافيجي : «وأما علم التاريخ فهو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله وعن أحوال مايتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته» . أنظر أيضاً روزنتال : ٣٢٧ .

٢ ـ مجموع التراجم ٨٢٦ ترجمة وزعت كما يلي (بعضها مكرر) : خلفاء ، ملوك ، حكام ، فاتحون ، ١٤٥ ، وزراء ٤١ ، قضاة ٣٢٢ ، فقهاء ١٦١ ، محدثون ٨٧ ، مفسرون للقرآن ٢١ ، نحويون ٩٥ ، كتاب نثر ومؤرخون ٩٤ ، شعراء ١٤٧ ، وعاظ ونساك ٤٢ ، علماء دين ١٧ فلاسفة وأطباء ١٩ ، موسيقيون ٣ ، (ويجب تذكر أن الكاتب قد حذف عمداً الجيل الأول من المسلمين) .

٣ ـ ٣٤٣/٢

٤ ـ ٣١٣/٢

٥ ـ اعمال التأريخ للعصر السلجوقي
كلود كاهن
استاذ تاريخ المشرق الاسلامي
في جامعة باريس

ما زال تاريخ السلاجقة على الرغم من الدراسات الجزئية المفيدة ينتظر المؤرخ واسع الإدراك الذي يبدو أن دورهم في التاريخ الإسلامي يستحقه ، وكان التقويم المبدئي الذي لا مفر منه للمصادر في حد ذاته حتى الآن موضوعاً لسبر غير كامل [١] . ولافتقار معلوماتنا الى الاكتمال ، فإن التقرير الراهن يرمي على الأقل الى المساعدة في تثبيت بعض المعلومات مع اتجاهات للتحري .

لا تشكل بداية الحكم السلجوقي ولا نهايته انقطاعاً حقيقياً في تطور الأدب التاريخي الإسلامي . وبناء على هذا فان استخراج صورة محددة عن أعمال التاريخ للعصر السلجوقي لا مسوغ لها . وما نقترح بشكل خاص أن نفعله هنا ، هو تبيان ما لا يستغني عنه المؤرخ مما لم يتم بحثه ، وهو الفحص التصنيفي للمصادر ، والقيمة الوثائقية للأعمال التي يجب أن يقيم عليها المؤرخ الحديث أبحاثه ،ولهذا السبب بدا أنه من الأفضل ـ مع مخاطرة ترك بعض الثغرات المؤقتة ـ أن نركز على الميدان الحقيقي للسلاجقة ، بمعنى الأراضي العراقية ـ الايرانية من أواسط القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، وبالنسبة للمدى الجغرافي تركنا جانباً الكتابات التاريخية المحض لبلاد الشام والجزيرة من جانب وآسيا الصغرى (حتى عهد السلاجقة) من جانب آخر ، وفيما يتعلق بالزمن تركنا أيضاً التاريخ السالف للسلاجقة [٢] ، إضافة إلى فروعه الناجمة عنه في خوارزم .

وكما يتوقع من المؤلفين الذين صنفوا بحوثهم خلال أوج الخلافة العباسية ، أو على الأقل عندما كانت ذكرى هذا الأوج ووحدة المسلمين ما تزال حية ، فإن أول الآثار العظيمة للتأريخ الإسلامي تضم على الأغلب ، وبقدر الإمكان كل المقاطعات الاسلامية ، وبغداد بشكل خاص ، ومع أن المؤرخين الذين عاشوا هناك كان لهم ميل لإبرازها ، وهو أمر مفهوم ، يجعلها رمزا لهذا المفهوم الوحدوي الإسلامي في الفكر التأريخي ، وهي لم تتوقف عن أن تبقى كذلك حتى عندما جعل البويهيون من الخليفة ألعوبة بين أيديهم ، وحولوا العراق في الواقع إلى ولاية منفصلة ، وصدرت الأعمال الكبيرة لثابت بن سنان ، وهلال الصابىء ، ومسكويه ، صدرت في الواقع وأرخت مشروعا من الفترة البويهية ، وعلى أية حال نجد في المناطق التي عاشت حياة منفصلة قليلاً أو كثيراً ولدت فكرة الحوليات المنفصلة في مصر والمغرب واليمن الخ . . وعلاوة على ذلك نجد أنه في القرن العاشر ، أو حتى في وقت أبكر كما في الحالة الأصلية لمكة ، أنجب تطور الفخر المدني أو الاستقلال في أماكن معينة تواريخ المدن (*) ، وإن فكرة التواريخ التي تركزت على الأسر الحاكمة يمكن أن توجد فقط عندما وحيثما تمت مواجهة الأسر الحاكمة ـ التي كانت موهوبة بشخصياتها المستقلة ـ بالبلاد التي سيطروا عليها ، وحتى البويهيون أنفسهم بالكاد كان لهم مؤرخون ، وفيما بعد أفرزت السمات الدينية بعضاً من الكتابات لزيديي اليمن وللفاطميين ، وحظي الطولونيون ـ إذا جاز التعبير ـ بحصة شخصية معقولة ، ولكن فقط لوقت قصير ، لأن حكمهم كان قصير الأمد ، وإذا تركنا الغرب جانباً ، كان التاريخ الحقيقي في الشرق للأسر الحاكمة الذي يمكن للتقاليد أن تعبر منه إلى الفترة السلجوقية قد ظهر في عهد الغزنويين ، سواء بالعربية (العتبي) أو الفارسية (البيهقي) وعلى هذا إنه في اللحظة التي ظهر فيها السلاجقة على المسرح كان هناك ثلاثة أنماط من الكتابة

★ـ لا يمكن الإقرار بالصحة المطلقة لهذه الفكرة ، وينبغي مراجعتها على ضوء ما اكتشف من تواريخ مبكرة لبعض المدن مثل تاريخ المدينة لابن أبي شبة ، فأهمية المدينة ومكانتها وتوفر المواد التاريخية فيها مع الباحثين دفعت للتأريخ لها ، ويحتاج البحث بتواريخ المدن إلى وقفة متأنية ، وعدم التسرع في إصدار التصورات والفرضيات .

التاريخية : إسلامي شامل ، وإقليمي ، وأسروي ، وكان في الأراضي التي استقروا فيها هناك لغتان : عربية وفارسية ، وكانتا مزدهرتين ، والآن ليس ضرورياً الكلام عن أعمال معينة أخرى ، أكثر خصوصية أو هامشية .

ومن الغريب حقاً أن السلاجقة العظام كما يبدو لم يفرزوا مؤرخين خلال فترة حياتهم ، وسنناقش فيما بعد المصادر التي ربما جمع منها مؤلفو تواريخ الأسر الحاكمة التي ألفت بعدهم بقرن إجمالاً معلومات ضئيلة عنهم ، وعلى أية حال، إن المصادر الأساسية بالنسبة لنا حول تاريخ طغرل بك وألب أرسلان ، وملك شاه ، موجودة في الكتابات التاريخية البغدادية ذات السمات العامة والتي تابعت بدون تغيير كبير سمات تاريخ الفترة البويهية .

وإن المشروع الكبير الذي يرتبط به أغلب الآخرين هو تاريخ هلال الصابىء[٣] ، الذي وصلنا منه قطعة تغطي تقريباً السنوات الثلاث /٩٨٩ ـ ٩٩٢/ (وهي هنا لا تعنينا) ويفترض أنه كتبت أولاً تاريخ الفترة التي تمتد من نهاية تاريخ ثابت بن سنان إلى زمانه ، وتابعها بالتالي حتى دخول طغرل بك إلى بغداد في ١٠٥٥/٤٤٧ . وأهمية العمل معروفة جيداً على الرغم من حقيقة أنه لم يلح دائماً عليها بدرجة كافية ، حيث أنها بالنسبة للقرن الذي تغطيه عملياً هي المصدر الوحيد لجميع التواريخ البغدادية التالية ، وإن يكن بصورة غير مباشرة ، ويروي لنا سبط ابن الجوزي على أية حال للخمس عشرة سنة الأخيرة (٤٣٣ ـ ٤٤٧) أنه كان غير قادر على أن يجد مخطوطاً منه في بلاد الشام [٤] وإنما الحقيقة أن المصنفات التاريخية العامة عن تلك الفترة ضئيلة نوعاً ما ، وابن الأثير الذي اهتمت رواياته بنشاط التركمان ، ثم بالسلاجقة في غرب ايران وكردستان والجزيرة ، هو الاستثناء الوحيد ، وليس مستحيلاً أن يكون السبب بكل بساطة أنه خلافاً للآخرين كان بإمكانه الوصول الى مخطوط لهلال وليس مشهوراً أن هلالاً كان له ابن هو غرس النعمة محمد ، الذي أكمل عمل أبيه بالروح نفسها حتى (١٠٨٦/٤٧٩) ، وأن تاريخه ليس أقل أهمية لزمانه من تاريخ هلال للقرن السالف ، وإنه لصحيح أنه هذه المرة لا شيء مطلقاً قد وصل إلينا من تاريخه مباشرة ، حتى إنه ليبدو أن مؤرخي ما بين النهرين لم يكن بين أيديهم شيء منه لزمان طويل ، وبشكل خاص من غير المحتمل أن يكون ابن الأثير قد عرفه على الرغم من وفرة مواده ، وقد

حفظ لنا مؤلف شامي من القرن الثالث عشر هو سبط ابن الجوزي في كتابه (مرآة الزمان) الذي ما يزال غير منشور لهذه الفترة على الرغم من الأهمية الكبيرة التي تضفى عليه باستعمال هذا المصدر ، وهو غير معروف حتى الآن ، وربما كان هذا المخطوط لغرس النعمة فريداً، قد وجد طريقه الى العاصمة الشامية ، وتاريخ غرس النعمة محمد ، كما يظهر من خلال المرآة (والذي يشكل تقريباً بالنسبة لتلك السنوات ـ بصرف النظر عن الوفيات ـ المصدر الوحيد) يتألف أولاً من يوميات دقيقة وذكية عن أحداث بغداد السياسية ، ثم ذخيرة من المعلومات كثيرة لا نجد لها نظيراً في أي مكان آخر ، فيما يتعلق ببقية العالم الإسلامي من مصر إلى إيران ، مروراً أحيانا حتى عبر آسيا الصغرى ، وتقوم هذه المعلومات على خبرة المؤلف الشخصية ، وعلى روايات أشخاص من معارفه ، وعلى الوثائق ، وهو كوريث لثروة كبيرة [٥] ، ربما لم يمارس مهنة ، لكنه كان دائماً موضع تقدير كبير من المحيطين بالخليفة القائم ، وبالنسبة لتاريخه المعنون (عيون التواريخ) كان لدي لوقت طويل نية نشر نسخة سبط ابن الجوزي المعدلة ، مكملة بالاقتباسات القليلة الأخرى القابلة للكشف [٦] ، ولكن هناك صعوبة في حقيقة أن المرآة نفسها ، لتلك الفترة قد وصلت إلينا من نسختين مختلفتين جداً ، ويجب أن يجري بالطبع مقارنة بينهما ، [٧] وتظهر المقارنة بين الأعمال اللاحقة لأعمال غرس النعمة وعمله الخاص علاقة لا تنكر ، ولكن كما ذكرنا من قبل لا يتبع هذا أن الافادة منه جاءت بلا أخطاء ، لا بل جاءت في جميع الأحوال بأخطاء مباشرة عموماً ، ويبدو أن المؤلفين المتأخرين قد أرضوا نفوسهم سواء لضرورة أو لا ، بخلاصات تتضمن مادة إضافية ، أو بأعمال مبنية على معلومات موازية ، والمؤرخ الرئيسي الذي يجب أخذه بالاعتبار في هذا المجال يحتمل أن يكون محمد بن عبد الملك الهمذاني المتوفى (٥١٥/١١٢١) [٨] . وليس دائماً من السهل من خلال المعلومات المبعثرة والاقتباسات إعادة البناء بالضبط لما كان عليه كتابه ، ومرة أخرى فإن هذا العمل

★ـ حقق قسم غرس النعمة كرسالة للماجستير تحت إشرافي في كلية الآداب بجامعة دمشق وأنا على نية إعادة نشره ضمن جزء كبير من مرآة الزمان يبدأ بحوادث سنة ٣٠٠ هـ وينتهي بنهاية الكتاب .

قد فقد بالكامل تقريباً ، ويبدو أنه كان قد شكل إلى الحد الذي يعنيه التاريخ ذيلاً مفصلاً لتاريخ الطبري ، وقد بقيت قطعة منه عن القرن العاشر (من التناقض الواضح في مخطوط مغربي)[٩] ، ثم تاريخاً عاماً أكثر اختصاصاً (فقط إلا من الاقتباسات) بعنوان (عنوان السير) وأخيراً تاريخ الوزراء استكمالاً لتاريخ هلال الصابىء[١٠] ، ولكن خلال حياة مؤرخنا الهمذاني ، كان هناك همذانيون آخرون كانوا مؤرخين تقريباً ، ومن المحتمل أن أعمالهم قد اختلطت ، لا سيما عند حاجي خليفة[١١] . وليس مستحيلاً أن يعثر على مخطوطه من «عنوان السير» يوماً ما لا سيما في سورية طالما انه في القرن الخامس عشر كان العيني (ما يزال غير منشور) يقتبس منه بطريقة تصنيفية ، والأمل بالنسبة للأعمال التالية ليس طيباً جداً ، وقد اقتبس مؤلفون متأخرون قليلاً منها ولكنهم في الواقع يشيرون إلى العراقيات بشكل شامل ، ربما بسبب ان الفروق بين الأعمال المختلفة المستمدة من المصادر نفسها كانت طفيفة ، وأنا لست في وضع يسمح لي بالتأكيد بأن محمد بن عبد الملك قد استفاد من غرس النعمة ، الذي لم يُعد إخراجه بأية حال بشكل يتسم بالمحاكاة ، ولكن معلوماته مستمدة من المصدر نفسه ، وبالنسبة للقرن العاشر يقتبس من الصابىء بالاسم وأيا كان ذلك يبدو أن محمد بن عبد الملك الهمذاني هو الذي ينهي سلسلة مؤرخي بغداد الكبار الذين أرخوا للإسلام والمسلمين قاطبة ، وإنه لصحيح انه كان ما يزال هناك في القرن السادس/الثاني عشر كتّاب عرضوا موادهم وفق التقاليد نفسها من هؤلاء الذين نقل عنهم الزويني مثل الرغوني حتى سنة ١١٣٢/٥٢٧ ، وابن الحداد حتى عشية موته في سنة ١١٧٤/٥٧٠ . إن أعمال هؤلاء ما تزال غير موجودة ، ويبدو أنها من المرتبة الثانية وهي محصورة بشكل خاص بالعراق والمناطق المرتبطة به مباشرة ، وهذه من الآن فصاعداً هي الحالة مع كل الكتابات التاريخية البغدادية التي شهدت بصدق إحياء الخلافة ، أما وقد أصبحت الخلافة الآن ولاية إقليمية ، أكثر منها مؤسسة إسلامية جامعة ، والعمل الوحيد الذي يهمنا هنا هو كتاب المنتظم للطبيب الحنبلي الشهير ابن الجوزي[١٢] فهذا التاريخ الذي يدعى أنه شامل هو في الواقع وفوق كل شيء بغدادي ، إنه يتابع حوليات القرنين الخامس والسادس/الحادي عشر والثاني عشر التي عددناها لتونا وذلك بعد الاستفادة منها ، ورفدها بالرواة من الحنابلة حتى سنة

١١٧٧/٥٧٥ ، وقد حظي المنتظم ـ دون شك ـ بسمعة مبالغ فيها قليلاً ، وقد استعمل باستمرار من قبل الكتاب المتأخرين ، ولكن مهما بلغت أهميته بالنسبة لتاريخ بغداد لا يمكن عده تاريخاً عاماً ، وحتى في التاريخ الاقليمي ليس له عرض ثابت ، وهو الأمر المدهش ، وهو أمر ربما يعود إلى عجلة المؤلف المعتادة ، فهو أساساً كان مهتماً فقط بنشر تراجم العلماء ، ويبدو أنه هو الذي أبدع العادة التي أصبحت عامة بعده ، وهي اتباع رواية الأحداث لكل سنة بوفيات مفصلة قليلاً أو كثيراً ، وهكذا وزع بنظام زمني متعاقب المادة التي توجد في ترتيب ألفبائي في معاجم التراجم . وقبل ابن الجوزي لا حاجة لشد الاهتمام لأي شيء أبعد من القسم التاريخي ، الذي يبدو أنه غير منشور من تذكرة ابن حمدون ، وقد انتهى هذا القسم في ١١٥٨/٥٥٣ [١٤] ، وقد جمع بكل دقة المعلومات المتعلقة بمختلف البلدان الإسلامية الشرقية ، وبعد ابن الجوزي إن أهمية معينة يحتمل أنها ترتبط بعمل آخر مفقود هو ذيل على مختصر الطبري تم تأليفه حول نهاية القرن السادس/الثاني عشر من قبل مهاجر عراقي في بلاد الشام ، وهناك نقول واسعة قام بها أبو غالب بن الحسين الشيباني ، وهي مبعثرة في بغية ابن العديم في المواد والروايات المتعلقة ببعض القرن الخامس/الحادي عشر ، وبعضه الآخر/الثاني عشر وإنها مركزة على سورية ، تظهر أنه كان وافر المعرفة حول النشاط العام للسلطان ألب أرسلان [١٥] ، ومن نوع آخر كتاب تاريخ الخلفاء حسب سني حكمهم ، وكان قد تم تأليفه بعد التذكرة ببضع سنوات ، وربما المعتمد عليها جزئياً وهو من تأليف منفي عراقي آخر هو محمد العمراني [١٦] ، ومن غير الممكن الإطالة هنا في تفحص أعمال ستضطرنا للمضي بعيدا خارج السلطان السلجوقي [١٧] ، وعملياً إن معرفتنا بالكتابات التاريخية العراقية ـ الإيرانية في القرن السادس/الثاني عشر مستمدة بدرجة كبيرة من (الكامل) المتأخر نوعاً ما لابن الأثير ، والذي بصرف النظر عن المصادر السلجوقية المحددة والتي سنتعامل معها فيما يلي ، فإن ابن الجوزي الذي اقتبس منه مرة واحدة بالاسم [١٨] ، ليس مصدره الوحيد الذي يزوده بالوثائق العراقية ، ومن المحتمل أنه استخدم مباشرة (الذيل) لأبي غالب ونقل أيضاً عن ابن الحداد كما كان تلميذه ابن خلكان يفعل من حين لآخر بعده [١٩] .

وقد أشار مرات عديدة إلى العراقيين ، في معارضة للمؤرخين من المناطق الأخرى ، مما يثبت أنه على أية حـال قد اتبع عدداً منهم ، ولكن في هذه الوهلة يجب أن نعترف بعجزنا عن أن نكون أكثر دقة . ومن وجهة نظر (الكامل) نفسها هناك عملاً سرياني بعنوان (مترجم إلى العربية من قبل المؤلف نفسه)(*) «تاريخ الزمان» صنفه غريغوري أبو الفرج ابن العبري[٢٠] ، يجب استثناءً أخذه بعين الاعتبار ، واعتمد ابن العبري مثله مثل أسلافه السريان على المؤرخين الفرس والعرب ، وحتى إن ابن الاثير متفوق عليه وأعلى منه ، ولكن من أجل تاريخ السلاجقة العظام لديه معلومات إضافية مع أنه بالتأكيد قد استمد قسمها الأعظم من المصادر البغدادية ، لا سيما من الأسرة نفسها كما فعل من قبل سبط ابن الجوزي[٢١] ، وتمت في إيران كتابة عدة تواريخ شبه عامة إضافية ، وتشغل إيران في هذه الكتب بشكل عام مكاناً أكبر ، وقد كتب كاتب أو اثنان سلفاً تواريخ للعالم الإسلامي من مفهوم تعاقب الأسر الحاكمة[٢٢] ، وكتب في ١١٢٦/٥٢٠ مؤلف مجهول من المحتمل أنه كان يكتب من بلاد أمراء الكاكو في يزد بفارس ، وأنهى عملاً من هذا النوع بالفارسية سماه «مجمل التواريخ» وقد بدأه بالملوك القدامى لفارس ، وأوقف صفحاته الأخيرة على تاريخ السلاجقة حتى هذا التاريخ ، ويحتمل أن مادته هذه مستقاة من المصادر العراقية ، وربما من عبد الملك الهمذاني ومن أجل فترة أبكر فإنه أتى على ذكر هلال الصابىء[٢٣] .

ويبدو أن الكتاب الأكثر أهمية بالنسبة للفترة السلجوقية في إيران كان كتاب (مشارب التجارب) للخراساني علي بن زيد البيهقي المعروف بابن فندق ، الذي علينا مرة أخرى أن نأسف لفقدانه بالكامل ، ومن الواضح أن العنوان يوحي بأنه ذيل لتجارب الأمم لمسكويه (الذي هو نفسه منقول عن حوليات ثابت بن سنان

★ ـ المترجم إلى العربية من قبل المؤلف هو خلاصة لكتابه الكبير «تاريخ الزمان» . وكان القسم المتعلق بتاريخ الإسلام منه قد ترجمه اسحق أرمله وصدر تباعاً في مجلة المشرق (١٩٤٩ ـ ١٩٥٦) ثم أعيدت طباعته في بيروت سنة ١٩٨٦ وهذه الترجمة سقيمة محشوة بالأخطاء والتصحيفات ، وأهم من ابن العبري ميخائيل السوري وأنا بصدد اخراجه بالعربية مع ما حواه تاريخ ابن العبري من زيادات لمدة قرن .

وهلال بن الصابىء) وعندما يخبرنا ابن فندق في كتاب أنه[٢٤] قد أخذ التكملة من العتبي كاتب الغزنويين الذي توقف في ٤١٠/١٠١٩ ، فإن هذا لا يعني أنه قد بدأ بهذا التاريخ لأن اقتباساً لدينا أقدم من المشارب[٢٥] ، والمثير هو أن ابن فندق صنف هذا العمل بالعربية في بلد كان يتخلى عن هذه اللغة ، ولعل سبب هذا الاستثناء انه افتقر إلى التوثيق والمعلومات حول البلدان العربية ، مما يعطي بعض الضمانات لبقاء المشارب لو أن محتوياتها أرضتهم ، وهذا بلا شك يفسر اختفاءها ومع ذلك يحتمل أن المرء كان ما يزال بإمكانه معرفة هذا الكتاب في بداية فترة المغول إذا صح أن النقول لدى الجويني[٢٦] . جاءت منه مباشرة ، زد على هذا من المحتمل أن مخطوطاً منه قد وصل إلى البلاد العربية في القرن السابع/الثالث عشر لأنه من المقرر أن ليس ياقوت[٢٧] فقط هو الذي سافر إلى إيران ، بل أيضاً وفوق كل شيء ابن **الأثير**[٢٨] قد سافر واستخدمه .

والاقتباسات التي قام بها هذان المؤلفان إضافة إلى التلميحات في أعمال أخرى (هذه المرة محفوظة) إلى ابن فندق هو كل ما يمكننا أن نستخدمه في محاولة لتأكيد طبيعة المشارب ، ولا يمكننا كشف فيما إذا كان بالفعل تاريخاً عاماً ، أم أنه كان في الحقيقة إقليمياً ، هذا وإن التاريخ الذي اكتمل فيه غامض ، وتألف في صورته الأولى من أربع مجلدات منها استخرج ياقوت ترجمة ابن فندق لنفسه ، وحفظها لنا ، وهي تتوقف عند سنة ٥٤٩/١١٥٤[٢٩] ، لكن هذه الترجمة الذاتية ، ونقولاً أخرى وإشارات إلى ترجمته الذاتية وردت في كتبه الأخرى خاصة فيما جمعه من تراجم في كتابه (تتمة صيوان الحكمة) ، ونراه يشير الآن في هذا الكتاب الأخير إلى المجلد الثامن من مشاربه[٣٠] ، وهكذا لا بد أن العملين مضيا جنباً إلى جنب ، ويبدو أن ابن الأثير قد مضى مسافة أبعد فعزا إلى ابن فندق رواية عن تاريخ خوارزم ذكرها في حوادث سنة ٥٦٨/١١٧٢ ، ثم تابع حديثه حتى حوادث سنة ٥٩٥/١١٩٩ ، لكن هذا التاريخ مستحيل عملياً حيث أن ابن فندق ولد حسبما روى هو نفسه في سنة ٤٩٩/١١٠٥ ، وفي الحقيقة حدد ياقوت طبقاً لمصدر غير معروف تاريخ وفاته بسنة ٥٦٥/١١٦٩[٣١] ، والتاريخ الأخير في كتاب تاريخ بيهق ـ وهو عمل آخر باق لابن فندق لم يظهر في قائمة ياقوت ـ هو ٥٦٢/١١٦٦ ، والسؤال هنا هل يمكن أن يكون ابن الأثير قد عرف (المشارب

فقط) من خلال وسيط أخفق حقاً في تحديد الاقتباس عنه (الأمر الذي يمكن أن يعالج حتى الحقائق المتقدمة على تاريخ ٥٦٨/١١٧٢ إذا وجدها في رواية عامة عن بدايات أسرة خوارزم) أم أنه سمح لمواده أن تصبح غير مرتبة ؟ إننا سنصادف هذا السؤال مرة أخرى عندما سنسعى في النهاية لتحديد مكان المشارب ـ بشكل عام أكثر ـ بين مصادر الكامل ، ولكن من الممكن أن يكون المشارب نفسه قد وصل متأخراً جداً إلى ابن الأثير حيث لم يكن قادراً على إعطاء نقد مباشر حول موضوع السلاجقة الأول ، وهكذا نواجه بمشكلة حول مصادره ، وإن التواريخ الأولى ذات الطبيعة العامة التي يلمع إليها ابن فندق في مكان آخر هي استمرار لسيرة العتبي لمحمود الغزنوي تصنيف أبي الحسن محمد بن سليمان ، والتاريخ الواسع والشهير لأبي الفضل محمد بن الحسين البيهقي الذي كان ما يزال قادراً على الرجوع إلى مجلداته المبعثرة بين سرخس ونيسابور ، والذي أعيد اكتشافه جزئياً فقط[٣٢] ، ومنذ منتصف القرن الخامس/الحادي عشر يبدو من المؤكد أنه بصرف النظر عن المواد المبعثرة في التواريخ المحلية نجد ابن فندق لم تعد لدية أو تحت تصرفه كتابات أسلافه ، وكان عليه أن يبذل جهداً لجمع المادة بنفسه ، وكان من الممكن تسهيل هذا الجهد أثناء إقامته الطويلة في نيسابور ، ومعرفته بالشخصيات ذات المناصب العالية في بلاد السلطان سنجر .

إن العمل الوحيد الباقي الذي يمكن أن تكون (المشارب) مصدره الوحيد على نطاق واسع هو (الكامل لابن الأثير) ولا بد أن يتوفر لدينا اهتمام كبير بهذا المؤرخ المتميز ، إذ بقدر ما قد نعجب من جانب بسعة أبحاثه الموثقة لا شيء من جانب آخر يدل على أنه كان يعرف الفارسية ، وهكذا لا بد أنه قد لقي عقبات كبيرة في الحقل الإيراني مالم يكن لديه نصوص عربية تحت تصرفه ، إن معلوماته عن شرق إيران يمكن أن تعود جميعها إلى مثل مصادره الأخرى كما نعرف (انظر أيضاً أدناه) وتلك المعلومات وافرة بشكل خاص من أجل منتصف القرن السادس/الثاني عشر ، وتتضاءل فجأة حوالي سنة ٥٦٠/٧٦٤ ، وهذا ـ بشكل خاص ـ تاريخ مقبول لنهاية المشارب ، ومع أن الخاصية المحلية وسمة التبعثر في رواية الأحداث من تاريخ بيهق لابن فندق تحول دون أية مقارنة محددة ، فإن خلفية التاريخ العام على الأقل هي نفسها ، وتواجهنا من جانب آخر الإشارة

الواضحة الوحيدة (للمشارب) في الكامل كما رأينا بشبه استحالة ، وحتى وسط القرن السادس/الثاني عشر إن الأحداث في شرق إيران ، عندما لا ترتبط بتلك التي في غرب إيران ، نجدها قد عولجت من قبل ابن الأثير بطراز مختصر نسبياً ، وإنه لحق أن ياقوت فيما يتعلق بالوزير الكندري وعلاقاته بالشاعر الباخرزي ، يقتبس من مواد (المشارب) التي هي بلا شك تشكل مصدر الرواية المماثلة لدى ابن الأثير ، ولكن المقارنة ليست حاسمة تماماً لأن هذه الروايات موجودة أيضاً في الشروح والتعليقات على (دمية القصر) للباخرزي ، وأيضاً في (الزبدة) التي سنتكلم عنها عما قريب[٣٣] ، وربما يكون ابن الأثير عرف (المشارب) كاملة أو بعضاً من مجلداتها فقط من خلال وسيط ، يجب تحديده وتقرير صحته ، وهناك أيضاً من أجل أحداث نحو ٥٦٨ ـ ١١٩٣/٩٠ فيما يخص تكش خوارزمشاه توازٍ بين ابن الأثير والجويني ، وقد قلنا إن الجويني ربما كان مطلعاً على المشارب ، ولكن الاقتباس السريع الذي يقوم به منها في مستهل تاريخه عن خورازمشاه يتعلق بالأصول البعيدة للأسرة الحاكمة ، وربما أنه عرفها أيضاً من خلال وسيط ، ويحتمل أنه كان لدى مؤلفينا وسيط مشترك يفترض أنه كان بالعربية ، وبين عدد كبير من المصادر لعله تاريخ المأموني لخراسان الذي كان فيما بعد معروفاً من قبل ابن خلكان،لكنه توقف عند ١١٧٤/٦٧٠[٣٤]،وعلى أية حال إننا نصل مع مشارب التجارب إلى الفترة التي تم فيها تصنيف ثلاثة تواريخ الواحد منها بعد الآخر كلها عظيمة الأهمية وهي مختصة بالأسرة السلجوقية ، وليس بالطبع خارجاً تماماً عن الموضوع أن واحداً منها قد صنف من قَبْل في بداية القرن من قبل أبي طاهر الخاتوني ، وكان رجلاً مشهوراً في الأدب وموظفاً عالي المنصب لدى السلاجقة في نهاية القرن الخامس/الحادي عشر وبداية القرن السادس/الثاني عشر ، ونجد الإشارة الوحيدة في هذا المقصد لدى دولتشاه[٣٥] . الذي كتب في نهاية القرن التاسع/الخامس عشر ، وتتألف كل النقول التي أخذها عنه من مقطوعات من شعر الشعراء شبيهة بتلك التي استعارها من مختارات المؤلف نفسه ، ويشهد عماد الدين وظهير الدين (انظر أدناه) أيضاً بنشاط أبي طاهر الشعري ، وهم ينسبان إليه حكايات عديدة أو أهاجي ترافق قصائده ، ولكنهما لا يتكلمان بصورة عادية أو مباشرة عن تصنيفه لكتاب في التاريخ[٣٦] ، وقد يؤكد المرء إنه إما كان كتاباً جرى

إغفاله ، أو أنه كتاب غير موجود ، أو أنه على الأقل بقي غير معروف ، طالما أن المعلومات لدى الكتاب المتأخرين حول زمن السلاجقة العظام على العموم ضئيلة بدرجة غريبة (باستثناء استعارات عماد الدين من المصادر العراقية ، انظر أدناه) . ويحتمل أن أبا طاهر قد صنف حكايات توضيحية شكلت المواد للذكريات حول مختاراته من الشعر أو مختارات معاصريه ، ولكن هذا التخمين هو أقصى ما يمكن فعله ، وهو بلا مسوغ مقنع ، وبالمقابل هناك تذكرة (مذكرات) فقدت أصولها الفارسية ، ومع ذلك ما تزال محفوظة بشكل جوهري في زي عربي أعطاه لها عماد الدين الأصفهاني[٣٧] . وهي تلك المتعلقة بالوزير أنو شروان . وهي كما تبدو لم تكن مذكرات شخصية حصراً ، وليست أيضاً حولية حقيقية كاملة ، ولكنها شيء ما بينها ـ تذكرة تسهم في فهم تاريخ عصرهم ـ ومن المؤسف أن الشؤون الشخصية ، والتنافس في أوساط الوزراء وزملائهم تحتل الجزء الأكبر والأساسي بدلاً من الحديث عن أعمالهم الحكومية ، ولدى الحديث عن حكم ملكشاه ، ولم تكن تذكرة أنو شروان قد انتهت بعد ، قام عماد الدين بذكر أنو شروان ، ثم سماه للمرة الأخيرة في ١١٢٨/٥٥٢ ، على الرغم من أنه قال في مكان آخر إن العمل قد مضى حتى سنة ١١٣٣/٥٢٨[٣٨] ويبدو أن تذكرة أنو شروان لم تكن معروفة من قبل أي مؤلف فارسي أو عربي آخر غير عماد الدين ، وكل شيء ، يدل على أن عماد الدين الذي يتبع الإطار نفسه كان بين يديه مخطوط واحد ، توقف عن أن يكون مفيداً واختفى بسبب الترجمة العربية التي قام بها هو نفسه في بلد عربي .

وأعلن كاتب تاريخ سلجوقي صغير من الفترة المغولية اسمه علي بن حسين ، في خطبة الكتاب أنه لم يجد سلفاً له سوى مؤلف يتوقف عند حكم محمود[٣٩] ، وحيث أنه ليس هناك تساؤل عن اعتماد علي ، على ظهير الدين أو الراوندي (انظر أدناه) في عمله كله فقد اتهم بالزيف الواضح[٤٠] ، ولعل هذا الحكم جاء متعجلاً قليلاً . حيث أنه من المدهش أن نجد فيما يتعلق بحكم محمود أن مواد هؤلاء المؤلفين الثلاثة مقتضبة بشكل غريب ، ومن غير المحتمل أن تكون الإشارة إلى كتاب (مجمل التواريخ) مع ان علياً يبدو وكأنه يقول إن الكتاب شمل حكم محمود ، لأن هذا الحكم بالذات اجمالاً هو الذي وصف في المجمل بزيادة استثنائية

في التفصيل ، وللسبب نفسه لا يمكن أخذ تذكرة أنو شروان بالاعتبار ، ثم إن كتب أبي طاهر إن وجدت لا تبدو من جانب آخر أنها كانت قادرة على أن تضم حكم محمود ، وفي جميع الأحوال إن الكتاب موضوع البحث لا يمكن أن يكون هنا كتاباً له أهمية كبيرة .

وأقدم تواريخ السلاجقة الهامة التي وصلت إلينا ، والذي كان على ما يبدو الأول فيما تم تأليفه هو كتاب عماد الدين الأصفهاني[٤١] ، وإنه لحق أنه طبقاً لشهادته[٤٢] لم يضعه في صورته النهائية حتى سنة ١١٨٣/٥٧٩ أي بعد ما مضى على وجوده في بلاد الشام سبع عشرة سنة ، بيد أن التاريخ المفصل يتوقف عملياً مع اللحظة التي كان على المؤلف أن يترك فيها العراق ، ويذكر هو نفسه[٤٣] أن بعده عن العراق منعه من أين يقدم المزيد ، فقد حرمه هذا من فرصة الكشف عن حوليات ومدونات تتعلق بالماضي ، غير أنه من الصعب الاعتقاد أن ذاكرته وحدها ، أو الحوليات المتوفرة آنذاك في بلاد الشام كانت كافية لتزويده بجميع المواد المطلوبة من أجل الروايات المفصلة التي يمكن بوساطتها أن يستمر في تكملة تذكرة أنو شروان التي ترجمها ، وبناء عليه لا بد من الافتراض أنه قد رعى مشروع تاريخه وجمع المواد من أجل تصنيفه ، أو حصل على مخطوط أنو شروان قبل عام ١١٦٦/٥٦٢ ، و «نصرة الفترة» كما عنون هذا التاريخ مثله مثل كل شيء آخر صدر عن قلم عماد الدين أسلوبه شديد الأناقة اللغوية ، غلبت عليه الصنعة والسجع ، مما يفسر لماذا أن مواطنه البغدادي ، وهو مثله مهاجر إلى بلاد الشام أخرج في سنة ١٢٢٦/٦٢٣ نسخة مهذبة له جاءت أبسط في الأسلوب مع محافظة دقيقة على صحة المادة[٤٤] ، ولكن بالفعل كان كتاب العماد قد حقق نجاحاً مؤكداً من قبل ، طالما أنه كان معروفاً من قبل ابن أبي طيء[٤٥] ، ومن قبل صاحب كتاب الأخبار الذي سنتكلم عنه بعد قليل ، وكان أيضاً معروفاً لدى ابن الأثير ، وذلك في الفترة نفسها التي كان البنداري يعمل بها فيه .

إن مصادر عماد الدين معقدة حقاً ، ونواة الكتاب مشكلة من تذكرة انو شروان ولكن كما يقول هو نفسه ، عن الفترة بالذات التي يترجم عنها ، إنه أكمل مواد التذكرة وصححها عند الضرورة ، ومن جانب آخر من الواضح أنه

ليس أنو شروان هو الذي زوده بتاريخ السلاجقة اللاحق لتذكرته ، ولا بأخبار أوائل شخصيات السلاجقة ورجالاتهم ، وبالنسبة لهؤلاء الأخيرين ربما كانت المواد التي حصل عليها عماد الدين من خلال مشاركاته وخبرته ، وخبرة أقاربه الذين كانوا جميعاً شخصيات هامة تحت النظام قد شكلت قائمة كاملة لمصادر معلومات «النصرة» ، ومن أجل القرن الخامس/الحادي عشر مع نصوص أي من المصادر المحتملة، ولكن كقاعدة عامة إن طبيعة إضافاته لأنو شروان حول حكم ملكشاه ومحتويات نصه عن السلطانين السلجوقيين اللذان حكما قبله ، تجعلنا نميل إلى الافتراض الحذر(٤٦) ، بأنه عاد إلى المصادر التاريخية البغدادية ، التي لا يمكن طمس أو نكران سياقها العام ، وهو لم يقرأ بالضرورة تاريخ غرس النعمة ، ولكن من شبه المؤكد أنه قرأ كتاب الهمذاني .

إن تاريخ عماد الدين قريب جداً من أن يكون المصدر الوحيد للسنوات ٤٨٥/١٠٢٩ ـ ٥٤٧/١١٥٢ لعمل مستقل من نواحٍ أخرى عنه ، وصل إلينا في صورة مخطوط وحيد مع العنوان المزدوج الغريب حقاً وهو زبدة التواريخ ، أخبار (دون أن يكون مسبوقاً بكلمة في) الأمراء والملوك السلجوقية(٤٧) . ونهاية النص كما هو بين أيدينا قد تمت كتابته في ٦٢٢/١١٢٥ ، ولكن السرد الفعلي للأخبار يتوقف عند ٥٩٠/١١٩٣ تاريخ وفاة آخر سلاجقة إيران ، طغرل الذي عرف الكاتب واحداً(٤٨) من حاشيته وعلى هذا من المحتمل أن الكتاب قد تم تأليفه في نهاية القرن السادس/الثاني عشر (وسنرى تأكيداً لذلك قريباً) ، وإن الإشارات إلى ٦٢٢/١٢٢٥ مردها إلى ناسخ متأخر أو محرر ، ويبدأ العمل بنسبته (على الأقل العبارات الأولى) إلى شخص موثوق هو السيد صدر الدين علي بن ناصر ، الذي في ـ الحقيقة ـ سماه الجويني(٤٩) ، وكمال الدين بن العديم(٥٠) . كمؤلف لزبدة التواريخ الموقوف على تاريخ السلاجقة ، ومع ذلك إن المؤلف في النص الذي بين أيدينا يعبر عن نفسه بلغة المتكلم ، قابل خلال سفره إلى خوارزم تاجراً كان شيوخه ممن شارك في معركة منازكرد (٤٦٣/١٠٧١)(٥١) ، ومن الواضح أن هذا يستبعد مؤلفاً من عام ٦٢٢/١٢٢٥ ، ويجعل من غير المحتمل حقاً أن يكون مؤلفاً من القرن السادس/الثاني عشر ، علاوة على هذا إن المؤلف النهائي من الواضح أنه ينتسب إلى شمالي ـ غربي إيران (أنظر أدناه) حيث يمكن للمرء أن يرى في مسافر

شرقي إلى خوارزم رجلاً مسؤولاً عن معلومات هامة عن خراسان في القرن الخامس / الحادي عشر ، ولكن إذا كان هناك مؤلفان فأي منهما هو علي بن ناصر ؟ وقد اقترح سوسهايم[٥٢] مرة مطابقته بسيد بهذا الاسم وجده مذكوراً في كتاب عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ، وهو لا بد أنه كان حياً في منتصف القرن السادس / الثاني عشر ، ولكن الجويني ما برح ينسب الكتاب وبوضوح ودقة إلى علي بن ناصر[٥٣] ، ومن الواضح أن فقرة متأخرة قليلاً أتمت حكم ارسلان حوالي ١١٦٤/٥٦٠ هي التي تضع مؤلفنا في شمالي ـ غربي إيران ، وهناك بعض الفقرات ، على سبيل المثال الفقرة التي تتحدث عن حشرجة روح سنجر ، يبدو أنها ألفت بعد موت الأخير بفترة قصيرة[٥٤] ، وما يمكن اضافته هو أن المخطوط يحمل عنوان «أخبار» . . وفقط العبارة الأولى من النص هي التي تقدم (علي) على أنه مؤلف الزبدة ، ولعل هذه العبارة ضوعفت من قبل الناسخ مع «الأخبار» الأمر الذي ربما يعني أن مؤلف (الأخبار) يحيلنا على علي بن ناصر[٥٥] مؤلف الزبدة ، وما تزال مسألة تأليف كتاب «الأخبار» الذي لدينا مع ذلك أكثر تعقيداً ، فمن وفاة ملك شاه (لا بل بشكل متقطع من وقت أبكر) إلى ١١٥٢/٥٤٧ نجده مكتوباً في الواقع بكامله تقريباً من استعارات (معترف بها) من كتاب عماد الدين الأصفهاني نصرة الفترة الذي أكمل كما رأينا ، في ١١٨٣/٥٧٩ ، وبناء عليه لدينا الآن فرضيتان : إما أن مؤلف «أخبارنا» كان على معرفة بنصرة الفترة ، واستخدمه في تصنيف كتاب الزبدة ، أو أن الزبدة كانت عملاً متميزاً ، ثم جاء مؤلف متأخر فجمعهما في كتاب واحد ، وربما كان ابن القفطي ، وابن ظافر بفضل كونهما مصريين ـ سوريين قد تعرفا على كتاب عماد الدين ، فقد ألف كل واحد منهما في مطلع القرن السابع / الثالث عشر ، حسبما ذكر صديقهما ومعاصرهما ياقوت[٥٦] ، تاريخاً سلجوقياً من الصعب أن يكون أصيلاً في المنطقة التي عاش فيها ، وعن الأول لا شيء معروف[٥٧] ، ولكن الثاني كما يبدو يكمن خلف رواية النويري في النهاية ، ولاحظ سوسهايم[٥٨] وجود نص نقله النويري عن وفاة سنجر[٥٩] ، يتطابق في نهايته كلمة كلمة مع عبارات كتاب الأخبار ، ومهما يك من أمر فأنا لا أعتقد أن كتاب الأخبار هذا من تصنيف ابن ظافر ، وعلى أية حال إن الكتاب الذي يدعوه مؤلفون متأخرون «الزبدة» والذي ينسب بكل دقة ووضوح من قبل ابن العديم والجويني إلى

(علي) في حين أنه لا ابن العديم ولا ابن خلكان الذي نجده من جهة أولى يستخدم كتابات ابن ظافر الأخرى ، ومن جهة ثانية يستخدم الزبدة[60] ، لم يقم أدنى رابطة بينهما ، إلى جانب هذا إن تفحصاً للنويري يبدو أنه يوحي بأن التاريخ السلجوقي لابن ظافر قد رتب حسب الخطة نفسها التي اتبعها في تأريخه للأسر الحاكمة الأخرى ، والمحفوظة في كتابه الدول المنقطعة ، وهذه ليست الحالة مع الأخبار ، ولكن لشرح التطابق الذي أشار إليه سوسهايم يجب الإقرار بأن ابن ظافر ربما استخدم مع النصرة نسخة من الزبدة ، التي كانت بناء عليه موجودة قبل ١٢١٦/٦٦٣ وهو تاريخ وفاته ، ولكنها لم تتضمن بالضرورة القصص المتعلقة بغربي إيران في النصف الثاني من القرن السادس/الثاني عشر ، والتي لقيت أصداء ضعيفة لدى النويري .

وعلاوة على ذلك إن نص «أخبارنا» يوحي بأنه يتألف من أصل أو أصول[61] ، وأن هذه الخلاصة هي الأخبار وليست الزبدة ، ويتأكد هذا بحقيقة أن الاقتباس الموجود في الجويني لا يظهر في أخبارنا (لعل الذي تولى التلخيص نفسه الذي أدرج النصرة) وفي الواقع تبدو الحقائق التالية واضحة من المقارنة ، ونلاحظ من الجانب الأول أنه في حين أن التوافق كثير وواضح بالنسبة للقرن الخامس/الحادي عشر فإنه منعدم بالنسبة للقسم المتعلق بالقرن السادس/الثاني عشر ، وهو النصف الثاني الذي لا يتكون من مختصر عماد الدين ، وصحيح أنه من أجل تلك الفترة كان لدى ابن الأثير مصادر معلومات أخرى جيدة تحت تصرفه ، ولكن ليس إلى حد تجعل من الزبدة ـ لو أنه عرفها ـ عديمة الجدوى تماماً ،وهكذا يتكون لدى المرء انطباع بأنه كان على معرفة بالزبدة ، التي من أجل غايته ، لم تكن لتمضي في فائدتها إلى أبعد من منتصف القرن السادس/الثاني عشر ، ومع ذلك ظلت لبعض السنوات تعطي معلومات مختلفة مثل الاقتباس غير المؤرخ في الجويني .

ومن جانب آخر نسأل : مم يتكون التوافق بين ابن الأثير ، و«زبدتنا» بالنسبة للقرن الخامس/الحادي عشر ؟ نجد أولاً في نصوص مأخوذة في «ملكنامة» عن أصل السلاجقة حتى معركة دندانقان (١٠٤٠/٤٣٢) ، ان ابن الأثير لم يستخدم هذه الملكنامة مباشرة وهذا واضح ليس فقط في حقيقة أنه كان على

ما يبدو يجهل الفارسية ، ولكن أيضاً بفقرة أشرت إليها في مكان آخر[٦٢] . حيث أن التفسير الذي يعطيه لها مماثل لذلك المتعلق بالزبدة ومعاكس للمتعلق بملكنامة الذي أشار مباشرة إلى الأصل ، وعلى أي حال ، وعلى الرغم من مصاعب المقارنة النابعة من حقيقة أن ابن الأثير جمع بين مصادر مختلفة ، فإنه من الصعب أن لا نفكر في أن نص (زبدتنا) ليس فيه التفاصيل الموجودة في «الكامل» والتي لايمكن فصلها عن «الملكنامة» والانطباع أوضح حتى بالنسبة للفترة التالية وخاصة حول حكم ألب أرسلان ، فهناك تماثل ملحوظ في الصورة والمادة ولكن حتى هنا ، هناك إضافات مختلفة في واحد أو آخر (لكن خاصة في ابن الأثير) التي من الصعب افتراض أنها مستمدة من مصادر أخرى .

وبالطبع من أجل القرن الخامس/الحادي عشر لا بد أن مؤلف «الزبدة» الأصلية بدوره قد استخدم مصادر أقدم (من أجل النصف الأول من القرن السادس/الثاني عشر لابد أن تكون المعلومات ضئيلة طالما أن النصرة قد استبدلت بها) . وأولاً هناك الملكنامة التي تنقطع عند (دندانقان) ومن أجل توالي الأحداث ، يعطي مؤلف الزبدة اهتماماً قليلاً بالحقائق خارج إيران ، ويجهل تماماً نشاط طغرل بك قبل دخوله إلى بغداد (وفيها يشبه المؤرخ السلجوقي الفارسي الآخر الذي سنتكلم عنه قريباً) هذا من جانب ومن جانب آخر نجده عالماً بأخبار جغري بك أو بدقة أكثر بأخبار (ألب أرسلان) من الوقت الذي كان ما يزال فيه في خراسان تحت حكم جغري بك، ومع أن المرء قد يُغرى بافتراض أن المعلومات القيمة في كتاب الأخبار عن الحروب ضد الجورجيين لا بد أنها نتيجة الروايات الأذربيجانية التي جمعها المؤلف الثاني ، يبدو أكثر احتمالاً أنها تشكل جزءاً من مجموعة قديمة من المواد عن (ألب أرسلان)، ويعطي الفصل عن العلاقات بين جغري بك والغزنويين مع ذلك الانطباع بأنها مستمدة من تاريخ غزنوي ، فهل يجب أن نفترض تقديم المشارب كما بينت من قبل في الفقرة[٦٣] حول «الكندري» و «الباخرزي» حيث يبدو أنها تدعونا ؟ لكن ليس بالضرورة للأسباب نفسها الواردة من أجل الكامل ، وعلى كل الأحوال ، بالنسبة للكامل يبدو أن استخدام (المشارب) كلها خارج عن الموضوع ، إذا أراد المرء أن يأخذ بعين الاعتبار أيضاً الأماكن التي يبدي فيها مؤلف الزبدة نقصاً في المعلومات (قياساً على الأخبار)، هذا

وتجعل المكانة التي شغلها عميد خراسان محمد بن منصور النسوي ، وكان شخصية مشهورة في الأخبار تجعل المرء يميل ، ربما لأن يبحث عن مصدر المعلومات لاسيما حول «ألب أرسلان» بين حاشيته ، وحول «نظام الملك» يسمي المصنف كتاباً خاصاً مجهول المؤلف عن فضائله ألفه تابع للوزير ، ويحتمل انه استخدم من قبل كتاب متأخرين[٦٤] .

وكاستنتاج غير دقيق جداً ومؤقت يمكن افتراض أنه حوالي سنة ٥٦٠/١١٦٤ كان هناك كتاب (زبدة التواريخ) لعلي بن ناصر الذي كان هو نفسه قائماً على مزيج من مصادر القرن الخامس/الحادي عشر المنحازة وقليلة الاطلاع ، إذا استمر إلى القرن السادس/الثاني عشر ، وفي نحو سنة ٦٠٠/١٢٠٣ ، وسّعه إيراني من الشمال الغربي يحتمل أن لا يكون (علياً) بإضافة تاريخ سلطنتي (أرسلان) و (طغرل) وأتابكة أذربيجان : ولا بد حالته الخاصة قد جعلته مستقلاً عن أي مصدر أدبي ، وهو نفسه أو شخص ثالث ، ربما ، من باب التصور قد يكون ابن ظافر أدرج «النصرة» في عمل أصلي ، ولكنه مختصر في الوقت نفسه ، ولعل عام ٥٤٧/٥٢ الذي بدأ فيه الانقطاع عن الاستعارة من النصرة قد يكون التاريخ الذي بدأ فيه المؤلف الثاني عمله ، ولكن ذلك ربما يكون أيضاً ناتجاً لمؤلف ثالث محتمل ، وهكذا فإن الأخبار كما هي لدينا ، ليست على أي حال مصدراً أصلياً إلا بالنسبة للنصف الثاني من القرن السادس/الثاني عشر ، ولكن بالنسبة للقرن الخامس/الحادي عشر يقدم لنا ، إلى جانب ابن الأثير ، خلاصة من مصادر متقدمة ، فقدت بالنسبة لنا .

لقد عدنا أدراجنا مرة بعد أخرى إلى ابن الأثير ، فالطريقة الذكية التي يعيد بها صياغة مصادره ، والتي نادراً ما يسميها ، تجعل من الصعب تقدير القيمة الدقيقة لمعلوماته ، ولكن بما أن أي مؤلف لم يجمع مثل هذا التوثيق الواسع فإنه من الملح جداً محاولة إجراء دراسة عامة نقدية (للكامل) على الأقل للقرنين الخامس والسادس/الحادي عشر والثاني عشر وربما يجب أن يخرج هذا كطبعة جديدة .

وعلى أي حال إن هناك أسرة من البحوث تبقى مميزة عن كل تلك التي درسناها حتى الآن : تلك التي تقوم على السلجوقنامة لظهير الدين نيشابوري ،

والتواريخ التي درسناها حتى الآن كانت عربية ، أو معتمدة ـ مثل المجمل ـ على موارد عربية ، أو جاءت إلينا مثل (أنو شروان) من خلال الترجمة إلى العربية . لقد كان ظهير الدين فارسياً يكتب بالفارسية ، ولم يعرف سوى المؤلفين الفرس ، وكان هو نفسه معروفاً فقط من قبل المؤلفين الفرس ، وكان خلال حكم أرسلان نفسه الذي يحتمل أن علي بن ناصر كان يعمل في زمانه ، أن بدأ أيضاً ، ظهير الدين نيشابوري الذي كان معلماً للسلطان ، في تأليف كتابه السلجوقنامة ولم يتمكن من إتمامه إلا بعيد ارتقاء (طغرل) خليفة (أرسلان) وآخر سلاجقة إيران[٦٥] . وقد ظن طويلاً أن نص السلجوقنامة الأصلية قد فقد بالكامل ، وأنه كان بالتالي مضطراً أن يجد لنفسه ملجأ موائماً داخل النسخة المعدلة المشحونة حتى التخمة بالمدسوسات والتحريضات الأدبية ، التي جرت عليه بالضبط في مطلع القرن السابع/الثالث عشر من قبل الراوندي ـ وهو شخصية أخرى بارزة من الوسط نفسه ـ في كتابه راحة الصدور[٦٦] .

وبسبب غياب السلاجقة الإيرانيين ، كان على الراوندي أن يقدم عمله ، ما أن انتهى منه إلى كيخسرو الأول ملك سلاجقة الروم ، ولكن منذ بعض الوقت أظهر اسماعيل خان أفشار[٦٧] ، أن نص ظهير الدين بدا أكثر أمانة فحفظه كجزء من المجموعة البسيطة التواريخ التي تضمها زبدة التواريخ للقاشاني (بدءاً من القرن ١٤/٨) وقد نشر النص مؤخراً[٦٨] .

وليس هناك شك في أن هذا المنشور مع أنه مهمل في ذاته[٦٩] ، يعيد لنا أصل ظهير الدين الذي هو أفضل بكثير من الراوندي ، إلى حد أنه من حينه فصاعداً ، بات الراوندي مهم بالنسبة لنا فقط كضابط لسنوات حكم طغرل فيما عدا السنوات الأخيرة التي أعقبت موته مباشرة ، وهذا إسهام مباشر وأصيل من الراوندي نفسه ، ويثبت النمط المربك في التعبير ، والتفاصيل كثيرة الدقة بالمقارنة مع الحوليات الفارسية المختلفة التي ذكر أنها قامت على ظهير الدين ، وفي الواقع اننا نتعامل بتأكيد شبه كامل مع نسخة صحيحة مطابقة للأصل ، ثم على الأقل مع نسخة منقحة هي بشكل عام قريبة جداً منه ، ويعود التحفظ الطفيف الذي أبديته على أي حال إلى حقيقة أن هنا وهناك بيانات مفصلة لدى الراوندي

تبدو وكأنها جزء من رواية استمدت من واحد من المصادر الأخرى التي توفرت لديه[٧٠] ، وكأمر مسلم به لم يعرف أي مصادر خارج عدد محدود من المصادر الشفوية[٧١] ، ومن جانب آخر ـ دون ذكر الصفحات الأولى (الأصول السلجوقية) حيث ربما تجاوز الراوندي كلمات معينة وجدها صعبة الفهم ، في رواية معركة منازكرد نجد أن تفاصيل ظهير الدين ، أكثر بكثير من تفاصيل الراوندي ، وقد يسأل المرء لماذا حذف الراوندي بعض أخبار مثل هذا الحدث الشهير ، مما يثير بعض الشبهات[٧٢] ، التي يمكن إلصاقها بالكتابات التاريخية الفارسية المتأخرة ، وبالتالي قد يتساءل الإنسان هل هذه المحذوفات كانت في مخطوط القاشاني ، وهو الذي تخلى عنها أم حذفت من قبل واحد من أسلافه ؟ إن الجواب غير مؤكد ، ولكن السؤال يمكن أن يطرح[٧٣] ، وقبل الراوندي أضاف رجل اسمه عبد الحميد كرماني ملحقاً لكتاب ظهير الدين ، تابع التأريخ فيه حتى سقوط طغرل ، ونشر المحقق هذا النص الذي حفظه رشيد الدين ولم يستعمله الراوندي في نهاية ظهير الدين ، وبتنا من الآن فصاعداً نعرف ظهير الدين ، بدرجة كافية بالتأكيد بشكل عام لدراسة كتابه في حد ذاته ، ونسأل أولاً : ترى ماهي مصادر معلوماته ؟ من المؤكد أنه كان تحت تصرفه مصادر فقيرة نسبياً حول السلاجقة قبل زمان حياته ، لاسيما إذا قارنا على سبيل المثال الانطباع الذي خلفه في عقول الناس واحد مثل ملكشاه بالفصل الفقير المبعثر المعلومات الذي خصصه للحديث عنه ، أو إذا أخذنا بعين الإعتبار الفراغ الكامل تقريباً ، في روايته عن حكم محمود في مطلع القرن السادس/الثاني عشر ، والذي كان على أي حال مليئاً بالتعقيدات ، وهذا يثبت ، بهذه المناسبة جهله بأنوشروان ، لعله كان يرغب عامداً في أن يركز عمله على السلاطين الذين كانوا سادته المباشرين ، ولكن من الصعب تفادي الانطباع بأنه كان يفتقر لمصادر جيدة ، ومع ذلك ، وأياً كانت مواطن الضعف التي وجدت لديه ، يبدو أنه بشكل عام ، كان لديه بعضٌ منها بالنسبة للقرن الخامس/الحادي عشر ، والسلاجقة العظام ، ومن المثير للدهشة أن هذا الرجل الذي كان يرتبط شخصياً بأرسلان ، ليس لديه أدنى معرفة بوجود الملكنامة الأمر الذي يعني كما ـ أشرنا من قبل ـ أن نسخة من هذا الكتاب لم تكن موجودة في بلاطه ، وعملياً لقد عرف تاريخ السلاجقة قبل الامبراطورية ، عندما كان جزءاً من التاريخ

الغزنوي ، ولا شك أن هذه المعرفة جاءت إليه من خلال مصدر غزنوي ، أما بالنسبة للراوندي ، أو النقلة المعروفين عنه ، يمكن للمرء أن يسأل عما إذا كان المكان الهام الذي شغله في هذه الرواية كل من اسرائيل وقطلمش أسلاف سلاجقة الروم لم يكن إلا إضافة من قبل الراوندي مراعاة لراعيه(٧٤) . ولكن الرواية تعود إلى ظهير الدين وهذا يمكن أن نفسره بحقيقة أنها توضعت في أراضي الغزنويين الأمر الذي لم يكن نفسه بالنسبة للروايات التي تتعامل مع السلاجقة الآخرين في الفترة نفسها(٧٥) . وبالنسبة لتحديد المصدر الغزنوي المستعمل ، يمكنني أن أذكر بالتحديد فقط ، أنه ، كما يبدو ، لا يتوافق مع المصادر التي استخدمها الإيرانيون الذين استعلموا المصادر العربية ، والذين درسوا من قبل (مع أنه من الصعب الاعتقاد بأن الكتّاب الذين يستعملون لغة أو أخرى في إيران لم يعرف أحدهم الآخر ، تماماً كما استخدم مؤلف الزبدة الملكنامة) وبتعميم أكثر، مع أننا رأينا حتى نحو منتصف القرن السادس/الثاني عشر مؤلفين إيرانيين يستفيدون من الأعمال المؤلفة بالعربية من قبل الأسلاف ، الذين كتبوا باللغتين ، ومع أنه حتى فترة المغول ، كانت الترجمات الفارسية للأعمال العربية القديمة ، حول التاريخ الإيراني ، تجري إلى المدى الذي يعنيه التاريخ السلجوقي ، فإن لدينا انطباعاً مؤداه أن ظهير الدين وأمثاله لم يعرفوا شيئاً عن المجموعة العربية للمصادر حتى الإيرانية منها ، وبكلمة موجزة كان هناك أسرتان من المؤرخين جهلت واحدة منهما الأخرى ، وفصل بينهما صدع من اللغة ، علاوة على ذلك ، يبدو أنه مما لا ريب فيه ليس هناك أي كتاب هام عن السلاجقة أو عن تاريخ إيران الشرقي فيما بين نهاية تاريخ البيهقي والفترة المغولية ، وللاقتناع بهذا ليس على المرء إلا أن يفكر في الجهد الذي كان مؤلف طبقات ناصري أن يبذله ، وفي النتيجة الهزيلة التي كانت ، لقد كان كل ما هناك مجموعات من الحكايات ، مثل تلك التي حصلنا عليها من نظامي - عروضي ، والعوفي ومبارك شاه الذين ، هم أنفسهم ، أعلنوا أنهم لم ينقلوا من أي كتاب تاريخي باستثناء ما ذكروه من أسماء مؤرخين تقدموا(٧٦) ، وليست مهمتنا هنا دراسة أعمال المؤرخين المسلمين المشارقة ممن لم يؤرخ للسلاجقة ، ولكن هذا الانطباع الهام يجب أن يعطى . وفي عودة إلى ظهير الدين النيشابوري نجد أن عمله إذا ما قورن بأعمال المؤرخين الإيرانيين المتأخرين

كان يتميز بالاقتصاد والاتزان والدقة ، وكان هو والراوندي بشكل مباشر أو غير مباشر المصدر الأساس ، وكثيراً ما كان الوحيد ، لكل الكتّاب بالفارسية الذين كتبوا في ظل المغول أو التيموريين ، شروعاً من رشيد الدين ومستوفي قزويني الذي ضمن كتابه التاريخ الشامل فصلاً عن السلاجقة ، وحتى في آسيا الصغرى حيث أهديت راحة الصدور إلى كيخسرو ويبدو أنها لم تحظ بالاهتمام ، ولم تلفت الانتباه ، وتحمل مقدمة أق سراي لتاريخه عن سلاجقة الروم (بداية القرن الثاني/الرابع عشر)[٧٧] علاقة بينه بظهير الدين ، وعلى العكس يبدو أن السلجوقنامة[٧٨] ، المجهولة المؤلف والتي تم تصنيفها في الوقت نفسه تقريباً كان صاحبها على معرفة مباشرة أو غير مباشرة بالمصادر البغدادية ، وأن نقوم بدراسة حركة التأريخ المتأخرة هذه سيكون موضوعاً آخر ، ويجب أن نضيف إلى التواريخ العامة للسلاجقة ، التاريخ الخاص عن سلاجقة كرمان وقد وجد هؤلاء السلاجقة الذين استقلوا بحكمهم مؤرخاً لهم هو أفضل الدين كرماني ، وكان موظفاً كبيراً لدى آخر أعضاء هذه الأسرة ، ثم لدى خلفائهم المباشرين ، ولم يصلنا بشكل مباشرة ولكن ثبت إمكانية إعادة بنائه من خلال مقارنة نص آخر ، يمكن للمرء أن يطمئن إلى أنه موافق للأصل[٧٩] ، والنص المقارن هو تاريخ كرمان تأليف (محمد بن ابراهيم) قرن عاشر/سادس عشر حيث[٨٠] تولى نسخه ونسخ كتب أخرى ، والرئيس فيها هو جامع التواريخ من تأليف حسن يزدي (قرن سابع/ثالث عشر) والذي فكر أحد العلماء مؤخراً في استخدامه لهذا الغرض ، ويبدو أن المؤلف ، كتب في البداية مصنفاً بعنوان «عقد العلا» عن حكم (مالك دينار) الذي ورث السلاجقة (٥٨٣ ـ ٦٠٢)[٨١] ، وقد صدره فيما بعد بتاريخ عن السلاجقة ، وأخرجه تحت عنوان (بدائع الأزمان في وقائع كرمان) ،ويبدو أنه تابع بنفسه العمل كله حتى ١٢١٥/٦١٢ وعرف ذلك من خلال رسالة أعيد اكتشافها مؤخراً في مجموعة رسائل عربية فارسية في الفاتيكان[٨٢] ، وكتب فيما بعد كاتب آخر تاريخاً بعنوان (سمط العلا) أرخ فيه لأسرة (القراخطاي) التي أحرزت السيطرة على البلاد بعد ذلك بوقت قصير ، واحتفظت بها تابعة للمغول[٨٣] . و «بدائع الأزمان» لا يبدو أنه لقي أية مساعدة من المصنفات التاريخية المتقدمة من بغدادية أو غزنوية أو غيرها

وهو من أجل القرن الخامس/الحادي عشر ، ضئيل الفائدة مع أنه مفيد وموثق لتلك الفترة ، ولكنه يصبح مهماً حقاً بالنسبة للقرن السادس/الثاني عشر .

ونفتتح بتاريخ كرمان الحديث عن زمرة التواريخ الاقليمية والمحلية التي لا يمكننا دراستها هنا لأن لكل منها مشكلاته الخاصة التي تمتد عموماً وراء فترة السلاجقة ، ولكن بعضاً منها تم تأليفه في الفترة السلجوقية ، وله أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخها ، نذكر منها فقط مؤلفات : اسفنديار عن أقاليم جنوبي بحر قزوين بداية القرن السابع/الثالث عشر[٨٤] ، وابن فندق (تقدم ذكره) عن مدينة بيهق[٨٥] ، ومؤلف مجهول كتب عن سجستان في حوالي بداية القرن السادس/الثاني عشر ثم ذيل عليه في الفترة المغولية[٨٦] ، وهناك أيضاً تاريخ كثير في فارسنامة ، وهو كتاب جغرافي بشكل رئيس كتبه ابن البلخي (بداية القرن السادس/الثاني عشر)[٨٧] . وجرى اختصار هذا الكتاب ، ومن ثم أردف في القرن السابع/الثالث عشر بكتاب شيرازنامة لابن زركوب[٨٨] . وقد تبين مؤخراً أن تاريخ باب الأبواب الذي صنف في حوالي سنة ١١٠٦/٥٠٠ وكان معروفاً من قبل منجم باشي في القرن الحادي عشر/السابع عشر لا بد أنه بالغ الأهمية[٨٩] ، ويصعب الحكم من الاقتباسات الضئيلة على ما تألف منه (تاريخ خراسان) الذي كتبه المأموني في ١١٧٤/٥٧٠ لتكش خوارزمشاه[٩٠] . أو تاريخ خوارزم وهو كتاب تراجم في أغلب الظن تم تأليفه في نهاية القرن نفسه من قبل أبي محمود بن محمد بن أرسلان[٩١] ، ومعروف جيداً أن كلمة تاريخ نفسها قد استعملت في الواقع لمعاجم التراجم ، لاسيما بالنسبة للمدن ، التي لا يمكن إغفال تاريخها العام على الرغم من أهميته المحدودة نوعاً ما، ولكن لا يمكننا دراسته هنا ، ويبدو أن مؤرخي الفترة السلجوقية قد استفادوا بشكل خاص من ذيلي السمعاني وابن النجار على تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ومن كتاب تاريخ نيسابور[٩٢] ، ويجب أن نذكر هنا ببساطة بعض الأعمال الأخرى من أنواع نصف أو شبه تاريخية من ذلك قطعة الرحلة التي قام بها في القرن السادس/الثاني عشر البغدادي أبو علي بن البناء[٩٣] ، ورواية مسعود بن نامدار الحاوية لرسائل شعرية متنوعة ، ووثائق حول مصائبه في البيلقان نحو نهاية القرن نفسه[٩٤] ، وسياسة نامة لنظام الملك ، وبالطبع تواريخ[٩٥] الوزراء سواء الفرس[٩٦] أو العرب[٩٧] ، وقد استعمل كل المؤرخين دواوين الشعراء

التي تحوي أحياناً بلا شك معلومات نافعة في شروحها ، ولاداعي لأن أشغل نفسي بوثائق (الانشاء) التي نملكها لحسن الحظ من الفترة السلجوقية ، وبشكل خاص ما تعلق بمملكة سنجر ، زد على ما تقدم لقد أخذت بعين الإعتبار فقط الحوليات الإسلامية في هذا المجال ، ومن أجل تاريخ الأنشطة الغربية للسلاجقة إن الحوليات الأرمنية والسريانية واليونانية يجب بالطبع أن تضاف إليها ، وقد تكلمت من قبل عن ابن العبري الذي ربما بسبب مصادره السريانية والعربية والفارسية يمكن أن نشبهه جزئياً بالمؤلفين المسلمين ، فقد كان على معرفة بالملكنامة والمصادر البغدادية التي تربطع جزئياً بسبط ابن الجوزي ، (وربما تربطه تبعاً لذلك بغرس النعمة) من أجل أخبار السلاجقة العظام ، أما بالنسبة للأحداث التالية بما أن عمله غير مستمد من ميخائيل السوري يبدو أنه جاء من ابن الأثير ، وعلى كل الأحوال لقد كان مؤلفاً للفترة المغولية يمكنه فقط أن يعمل جامعاً ، وهو ليس مثل ميخائيل السوري ، ولا حتى الرهاوي أو آنا كومنينا الكتاب المسيحيين الثلاثة الواسعي الشهرة ، والذي انتمى كل منهم لإحدى العقائد المسيحية ، وكتب هؤلاء جميعاً خارج الولايات الخاصة بالسلاجقة العراقيين ـ الايرانيين ، وهناك على أي حال حولية نسطورية لبغداد ، وهي حولية ماري التي أتمها عمر بن صليبا الذي انتمى إلى هذه الولاية(٩٨) والتي ألفت إليها الانتباه هنا لأنها بالكاد قد استعملت بعد ، وهي وإن لم تكن على درجة عالية من الأهمية فإنها تحوي بعض النقاط المفصلة حول فترة السلاجقة العظام بشكل خاص .

ولا يمكن بالطبع عدّ العرض السالف ، إسهاماً في تحليل الخصائص العامة للعمل التاريخي للفترة السلجوقية ، ولكن بات واضحاً أنه يضم مقدمة أساسية له ، وأنه بسبب نقص الوقت لفعل كل شيء حتى البحث غير التام من هذا النوع الذي ما يزال بالغالب مهملاً في نظامنا ، كان أفضل مجهود أمكنني بذله في مجال مؤتمرنا وهو بالطبع يتطلب معالجة مرة أخرى واستكمالاً ، ولكنني سأكون سعيداً لو أنه ساعد بالنسبة للولايات السلجوقية أو غيرها على انتشار فكرة عدم التوقف واستمرار البحث . وهي فكرة أساسية وفي تولي هذه المهمة يوجد تحت تصرفنا مساعدة هامة في كتاب علم التاريخ عند المسلمين لزميلنا الدكتور روزنتال ولكن المؤرخين (بالمعنى الحقيقي) يأملون أن يستكمل وأن يعمق في الاتجاه الذي تم

بيانه ، ويعرف كل مشترك في دراسة فرع من فروع الأدب العربي الخدمات الأولية التي قدمها بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي ، ويعرف أيضاً كيف أنها سببت تضليله فيما بعد ، ولعل رأينا الأخير لم يكن في أي مكان أكثر صحة منه فيما يتعلق بعلم التاريخ ، وربما كان خارجاً عن قدرة أي رجل بمفرده أن يفعل ما هو أفضل ، وهكذا فإن الحاجة قائمة لإخراج طبعة جديدة منقحة منه ، ولكن قلة من المؤرخين هم الذين قد يستطيعون الإسهام بجهودهم لتجميع قائمة أتم وأقل أخطاء وتناقضاً لنتاج التأريخ العربي ، ويمكن توجيه لوم أقل لستوري من أجل عمله في ميدان التاريخ الفارسي ، ومع ذلك إنه قد أخذ بعين الاعتبار الكتابات المتبقية فقط ، وعمل من هذا القبيل يجب أن يردف في هذا المجال لا سيما وأن الحدود بين الأدبين ليست دوماً مغلقة ، وعند ذلك يستحق المشروعان أن يدمجا فيما بينهما .

هوامش البحث

١ ـ لا سيما ف . أ . حمداني في بحث غير منشور (قارن اقتباسات من بحوث جامعة اكسفورد ١٩٣٩) .

٢ ـ الذين تكلمت عنهم في ملك نامه الخ ، ١٩٤٩ Oriensii

٣ ـ هـ . ف ـ أمدروز «بقايا تاريخ هلال بن الصابىء» ليدن ١٩٠٤ وأعيدت طباعته ملحقاً بما طبع من تجارب مسكويه بعناية أمدروز ومرغليوث .

٤ ـ هـ . ف أمدروز «تاريخ دمشق لابن القلانسي» ص ١ حاشية . ومن المفيد تبيانه أنني (سهيل زكار) أعدت تحقيق كتاب ابن القلانسي ونشرته بدمشق عام ١٩٨٣ .

٥ ـ ترجمته عند أمدروز في بقية تاريخ هلال وعند سبط ابن الجوزي بعد قليل من شروعه بنقل تاريخه . أضف البنداري باريس ـ المكتبة الوطنية ـ عربي ٦١٥٢ ـ ٩٥و .

٦ ـ خاصة في بغية ابن العديم (نشرت هذا الكتاب في ١١ جزءاً في دمشق ١٩٨٨) وانظر أيضاً القفطي ص ٢١١ وأولى غ . مقدسي الاهتمام بالمرآة ووافق على المشاركة في تحقيقها .

٧ ـ دورية الدراسات الإسلامية : ٤(١٩٣٦) ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

٨ ـ من أجل آخر هو السمناني انظر سورية الشمالية (باريس ١٩٤٠) ص ٧٢ حاشية ١ وقد نقل عند سبط ابن الجوزي حتى نهاية حكم ملكشاه . ابن بابا القاشي (رأس مال النديم) وابن

البناء في ص ٧٧ من INFRA (حققت رأس مال النديم وهو قيد الطباعة في بيروت) .
٩ ـ المكتبة الوطنية باريس ـ عربي ١٤٦٩ ، وقد حقق من قبل كنعاني في المشرق ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨ .
١٠ ـ هناك نقول كبيرة من التاريخ الكبير . ابن خلكان (دي سلان) ١/٤٦٤ ومن العنوان في أجزاء كثيرة من كتاب البغية وأكثر العيني من النقل منه ، ونقل عنه ابن خلكان : ٣/٢٣١ ـ ٢٣٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، وياقوت ـ ارشاد ٥/٦٩ ـ ٧٢ وسبط ابن الجوزي في ترجمته لملك شاه ونظام الملك .
١١ ـ خاصة أبو شجاع شيرويه بن شيرويه الهمذاني ـ انظر وستنفيلد التاريخ عند العرب ص ٢٢٥ وينقل عنه ياقوت في ارشاد : ١/٩٤ والسخاوي عند روزنتال ـ علم التاريخ عند المسلمين ـ انظر الفهرس تحت اسم الهمذانيين .
١٢ ـ مختصر ابن القفطي ـ النص نقله دي سلان ـ ابن خلكان ١/٢٩٠ وأيضا عند روزنتال ص ٧٣ .
١٣ ـ طبعة كرنكو ـ حيدر أباد ج ٥ والفهرس ١٣٥٧ ـ ١٣٦٠/١٩٣٨ ـ ١٩٤١ .
١٤ ـ ERI (١٩٣٦) ص ٣٣٧ طبعة مؤسسة الخانجي في القاهرة قطعة من التذكرة في ١٣٤٥/١٩٢٧ ولكني لم أكن قادرا على التحقق من المحتويات (نشر منذ سنوات د . احسان عباس الجزء الأول من التذكرة ولم يتابع عمله) .
١٥ ـ سورية الشمالية ص ٥٣ ، أنظر أيضا ابن الدهان المصدر نفسه ص ٥٤ .
١٦ ـ نسخة من المخطوط في استانبول (غير معروفة المؤلف في الفهرس) موجودة في المكتبة الوطنية ـ عربي ٢٨٤٢ .
١٧ ـ اسمح لنفسي بالإشارة الى كتابي سورية ص ٤٨ ـ ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٤ ، ٧١ ، ٧٢ .
١٨ ـ **فقط مرتبط بوفاته** ، انه صحيح (١٢/١١٢) ولكن التشابه النصي عديد .
١٩ ـ دي سلان : ٢/١٣٨ .
٢٠ ـ حقق وترجم من قبل بدج Budge (١٩٣٢) في مجلدين .
٢١ ـ انظر مثلاً مقالي عن معركة منازكرد في مجلة بيزنطيوم (١٩٣٤) خاصة الصفحة الأخيرة .
٢٢ ـ أعلن ابن بابا القاشي في كتابه رأس مال النديم عن تصنيف كتاب عن السلاجقة ، يبدو أنه لم ير النور (قمت بتحقيق هذا الكتاب اعتماداً على مخطوطتين ، وهو قيد الطباعة الآن في بيروت) .
٢٣ ـ تحقيق بهار (طهران ١٩٣٦) ويلاحظ أنه لا يحوي الفصل المتعلق بالغزنويين الموجود في مخطوطة باريس .
٢٤ ـ تاريخ بيهق تحقيق أحمد بهمنيار ص ٢٥ مع تقديم محمد القزويني .

٢٥ ـ ياقوت ـ ارشاد : ٣١٤/٢ ـ مايتعلق بابن عباد الوزير البويهي .
٢٦ ـ تاريخ جهانكشاي : ١/٢ (ترجم هذا الكتاب إلى العربية من قبل د . محمد التونجي وطبع بدمشق عام ١٩٨٥) .
٢٧ ـ ياقوت ـ إرشاد نفسه و ١٢٤/٥ ـ ١٢٦ (ما تعلق بالوزير السلجوقي الكُنْدُري) .
٢٨ ـ الكامل طبعه تورنبيرغ : ٢٤٩/١١ .
٢٩ ـ ارشاد : ٢٠٨/٥ ـ ٢١٢ .
٣٠ ـ تتمة تحقيق محمد شفي (لاهور ١٩٣٥) ص ١٦٦ .
٣١ ـ الترجمة رقم ٢٤ .
٣٢ ـ تاريخ بيهق : ١٩ ، ١٧٥ .
٣٣ ـ ارشاد : ١٢٤/٥ ـ ١٢٧ . الكامل : ٢٠/١٠ ـ ٢١ . خصص صاحب الدمية في مقتطفات من الشعر قسماً خاصاً للكندري ، الذي كان راعي الشاعر ، وكان هو نفسه شاعراً أحياناً .
٣٤ ـ عاد إلى الفترة البويهية . ابن خلكان (دي سلان) : ٣٣٤/٢ ويقتبس المؤلف نفسه منه فيما يتعلق بموت دبيس الذي لعله تكلم عنه لدى عرضه لأخبار حكم سنجر (٥٠٦/١) وعن حياة ألب أرسلان الثالث وفي الفارسية انظر الفصل التاريخي في جوامع العلوم ، لفخر الدين الرازي .
٣٥ ـ تحقيق ا . غ . براون ص ٦٤ ـ ٧٦ .
٣٦ ـ بصرف النظر عن أبيات من الشعر هنا وهناك (مما لا يتوافق مع أبياته عن دولتشاه) يقتبس عماد الدين من أبي طاهر كشاعر هجاء ضد أحد الوزراء في نهاية القرن ١١/٥ . بنداري (ط . هوتسما) ص ٨٨ وظهير الدين ص ٣٢ (الراوندي ص ١٣١) والادعاءات برؤيته رواية حول ملكشاه مكتوبة بيد أبي طاهر نفسه ، الأمر الذي كما يبدو يستبعد إمكانية أنه قد استعمل مزيداً من الأعمال العامة أكثر منها .
٣٧ ـ مخطوطة المكتبة الوطنية ـ عربي ٢١٤٥ .
٣٨ ـ البنداري ص ١٥٠ ومقدمة هوتسما ص ٣٠ .
٣٩ ـ العراضة تحقيق سوشيم ص ١٥ .
٤٠ ـ محمد القزويني في مقدمة طبعته عن كتاب الجويني تاريخ جهانشكاي ص ٧٥ ، أعيد إخراجه من قبل محمد اقبال في طبعته لكتاب راحة الصدور للراوندي ص٣٤ .
٤١ ـ انظر الحاشية ٣٧ .
٤٢ ـ البنداري ص ١٣٦ .
٤٣ ـ البنداري ص ٩٠٤ .

٤٤ ـ تحقيق هوتسما (مجموعة نصوص راشيل : ٢) لقد قمت مرة بعقد مقارنة دقيقة بين البنداري والأصل من أجل الرواية المطولة عن معركة منازكرد (انظر حاشية ٢١) وفقرات أخرى اتضح منها أن البنداري حفظ مع التدقيق كل الحقائق الصعبة .

٤٥ ـ كل شيء حول الشرق مقتبس من قبل ابن الفرات عن ابن أبي طيء هو معادل لما عند عماد الدين دون إضافة .

٤٦ ـ ومع استبعاد الاستعارات الشعرية من أبي طاهر والآخرين .

٤٧ ـ تحقيق محمد اقبال ـ لاهور ١٩٣٣ .

٤٨ ـ ص ١٩١ .

٤٩ ـ تاريخ جهانشكاري : ٤٤/٢ .

٥٠ ـ بقية مخطوطة المكتبة الوطنية ٢١٣٨ : ١٨٩و . نص منقول يتوافق مع مطلع ص ٣١ من طبعة محمد اقبال .

٥١ ـ ص ٥١ .

٥٢ ـ مشكلة مؤلف تاريخ السلاجقة . . . لايبزغ ١٩١١ : ٢٢ .

٥٣ ـ انظر حاشية ٤٩ وقارن ابن الاثير : ٢١٠/١١ و١٢/١٠٠ من أجل تحديد التاريخ المحتمل .

٥٤ ـ ص ٦٤ ـ ٦٥ وانظر أيضاً نهاية ص ٢٦ .

٥٥ ـ وقد اشرت دون إصرار في اوريانز (المادة نفسها حاشية ٢ ص٣٤) إلى أن لباب الألباب للعوفي تحقيق إ .غ براون ١٤٢/٢ ـ ١٤٣ يمتدح تاريخاً لخوارزم . تأليف مجهول هو ملك الأسياد الصدر الأجل يسابوري الذي كان أسلوبه ارفع من أسلوب العتبي يمدح تاريخاً (لعله كتب بالعربية ؟) ويبدو أنه قد ألف في فترة مبكرة جداً .

٥٦ ـ إرشاد : ٢٢٨/٥ ، ٤٨٤ .

٥٧ ـ ربما وجد في قازان مخطوط يحمل اسمه .

٥٨ ـ المصدر نفسه حاشية ٥٢ ، ٢٢ .

٥٩ ـ مخطوطة ليدن ورقة ١٦ = ص ١٢٤ من طبعة اقبال .

٦٠ ـ هذا في البغية (أنظر الحاشية ٥٠) وفي ابن خلكان (دي سلان) خاصه : ١٥١/١ ، ٦١٢ وج٣ (حياة الب ارسلان) .

٦١ ـ ص ١٠٠ .

٦٢ ـ المشرق ـ المادة نفسها حاشية ٢ ص٤٢ الحاشية ٢٩ .

٦٣ ـ انظر الحاشية رقم ٢٧ ثم الحاشية رقم ٣٣ .

٦٤ ـ أنظر حاشية ٩٤ وحاشية ٩٥ وكتاب الأخبار ص ٧٠ ، إن التماثل لقليل بين العملين الذي بينه ك . سوسهايم يحتمل أنه يعود الى استخدام مثل هذا المصدر أيضاً من قبل الهمذاني .

٦٥ ـ انظر مقدمة محمد إقبال لطبعته لكتاب راحة الصدور .

٦٦ ـ حققه محمد اقبال ونشر في سلسلة ذكرى جب .

٦٧ ـ في تاريخ مهري ١٩٣٤/١٣٢٣ .

٦٨ ـ من قبل جلالة خاور طهران ١٩٥٣/١٣٣٢ .

٦٩ ـ فيه فهرس مفيد في ضبط الأسماء والتعريف بها .

٧٠ ـ مثلاً ، اسم جوهر ـ عن ص ١١٩ كسيد للعبد الذي أسر رومانوس دايوجينس قارن ظهير ص ٢٥ في عهد ملكشاه يعطي الراوندي وحده اسم سليمان كاسم للخان الذي هزمه السلطان في حملته الشرقية الثانية ويثبت الرقم ٤٦,٠٠٠ كعدد لجند السلاجقة ويدوره ناسح ظهير إلى ٥٠,٠٠٠ ، وشعر أبي طاهر الذي نقله في آخر الحكم هو مختلف ، كما لو أن هناك اختياران تما من أصل حواهما معاً .

٧١ ـ انظر على سبيل المثال ص ٩٨ ، ١٠٢ .

٧٢ ـ إن السؤال الأكثر دقة هو التعداد الذي أخذ بحرية مرة أخرى فيما بعد من قبل مؤرخي الفرس عن سلسلة من زعماء التركمان في معركة منازكرد مثل : سلتق ، منجك ، دانشمند ، جاولي ، جاولدر ، وباستثناء الاسم الأخير ، ورد ذكر هؤلاء مرة ثانية أثناء الحديث عن أعمال التوسع في آسية الصغرى ، وبسهولة يمكن فهم أن أبناء هذه الأسر نالت بعض القوة والمكانة فرغبت أن تجعل أجدادها ممن شاركوا في معركة منازكرد ، ولكن الأدب العام غافل عنهم ، ولا يعرف معظمهم ولا حتى عشرين إن لم نقل ثلاثين أو أربعين سنة تالية ، وإذا كان صحيحاً أنه في زمن القاشاني كانت سلالة أرتق فقط ما تزال موجودة ، وإذا كان للمرء أن يفترض عند الحاجة أن الراوندي قد حذف قائمة الزعماء الذين كان لبعضهم سلالات تحكم في زمانه لأنهم كانوا قليلاً أو كثيراً مزاحمين لسلاجقة الروم الذين أوقف عليهم عمله ، ومع ذلك فإن اسم جاولي مجهول في آسيا الصغرى في أيام التوسع ، في حين أن اسم جاولدر يرتبط في حكايات الدانشمند باسم زعيم تاريخي هو جاكا ، وهذا أيضاً اسم قبيلة ، لم تذكر عنها النصوص شيئاً في حينه ، في حين أن تنامي النفوذ التركماني في الفترة المغولية سبب تجميع هذه الأسماء بدقة .

٧٣ ـ لا بد من أن نبين بشكل معاكس للتحفظ المتقدم ، أن الخطاي ورد ذكرهم في روايات عصر سنجر على أنهم ما زالوا سادة بلاد ما وراء النهر أيام المؤلف ، الأمر الذي لا يشير لا إلى عصر المغول ولا إلى عصر الراوندي .

٧٤ ـ الذي أخطأت فيه أثناء إعدادي لمادة أرسلان بن سلجوق ، في النشرة الثانية من الموسوعة الإسلامية حيث لم يكن لدي كتاب ظهير الدين .

٧٥ ـ علاوة على أن المؤلف ، مثل مؤلف الزبدة (ولكن ليس عماد الدين ولا البغداديين) يريد أن يصور سليمان بن قطلمش على أنه قد استثمر بانتظام من قبل ملكشاه ، وهو أمر غير محتمل إطلاقاً ، ولسبب معاكس فإن هذا التأكيد قد أخذ مرة أخرى من مؤرخي عصر سلاجقة الروم والمؤرخين الذين جاؤوا بعدهم .

٧٦ ـ قارن بشكل خاص محمد نظام الدين ، مدخل إلى جامع الحكايات . لمحمد عوفي (لندن ١٩٢٩) .

٧٧ ـ حققه عثمان نوران (أنقرة ١٩٤٣) .

٧٨ ـ حققه فريدون حافظ أوزلك (أنقرة ١٩٥٢) .

٧٩ ـ حققه مهدي بياني (طهران ١٣٢٦/١٩٤٧) وقد برهن المحقق أن أفضل الدين قد استخدم بصورة مختصرة أيضاً مع آخرين من قبل القاشاني .

٨٠ ـ حققه هوتسما ، نصوص راشيل : ١ .

٨١ ـ نشر في (طهران ١٣١١/١٩٣٢) .

٨٢ ـ حققه عباس إقبال (طهران ١٣٣١/١٩٥٢) الذي أعطى في مقدمته عرضاً رائعاً للمسائل المتعلقة بأفضل الدين .

٨٣ ـ ناصر الدين كرماني تحقيق عباس إقبال (طهران ١٩٢٨/١٩٤٩) .

٨٤ ـ طبعة طهران ١٩٥٢ ، وترجمة مشذبة من قبل ب . غ براون ١٩١٥ .

٨٥ ـ انظر حاشية : ٢٤ .

٨٦ ـ تاريخ سجستان تحقيق بهار (طهران ١٩٣٦) .

٨٧ ـ انظر لاسترانج ونيكلسون GMS ١٩٢١ .

٨٨ ـ تحقيق بهمان كريمي (طهران ١٩٣٢) .

٨٩ ـ ف مينورسكي دراسات في تاريخ القوقاز ١٩٥٢ .

٩٠ ـ انظر ما تقدم حاشية ٣٤ .

٩١ ـ اقتبس بغزارة من كل المؤلفين لمعاجم التراجم .

٩٢ ـ انظر ريتر في المشرق (١٩٥٠) .

٩٣ ـ تحقيق وترجمة غ . مقدسي في دورية معهد الدراسات الآسيوية والافريقية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٧) .

٩٤ ـ تحليل كلود كاهن و ، ف مينورسكي في المجلة الآسيوية (١٩٤٩) .

٩٥ ـ التي يجب أن يضاف إليها التصنيف المتأخر ، الذي ربما يحتفظ ببعض المواد القديمة الأصلية . (انظر حاشية ٦٤) المسماة وصايا نظام الملك حيث يبدو أن «زبدة» علي بن ناصر قد استخدمت وحولها قارن هـ ،باون في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية (١٩٣١) .

٩٦ ـ من أجل الفترة السلجوقية ، يبدو أن هذه الأعمال تقوم أساساً على نصرة ، عماد الدين من جانب وعلى نسائم الاشعار المجهولة المؤلف من جانب آخر (حمداني في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية (١٩٣٨) ص ٥٦٣) عن مطلع القرن الثامن/الرابع عشر . والمعلومات في هذه الأخيرة لا يبدو أنها مستمدة كلية من تلك التي في حولياتنا ويعرف تاريخ آخر متأخر للوزراء اسمه آثار الوزراء (رقم ١٩٤٧) في مكتبة البودليان بالإضافة إلى ذلك الرسالة ـ أو رسالة ـ عن فضائل الملك (ص ٧٢ Supra) .

٩٧ ـ دعونا نذكر إلى جانب التاريخ السالف ذكره للوزراء تأليف الهمذاني من أجل نهاية فترتنا كتاب القادسي (في مكان آخر هو ذيل ابن الجوزي) الذي صنفه في مطلع القرن السابع/الثالث عشر وقد عرف ابن خلكان هذا العمل .

٩٨ ـ تحقيق غسموندي (روما ١٨٩٦) .

٦ـ بعض الملاحظات حول أعمال التأريخ العربية خلال الفترتين الزنكية والأيوبية (٥٢١ هـ/١١٢٧ م ـ ٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م)

محمد حلمي محمد أحمد
استاذ التاريخ، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة

١ ـ تحديد الفترة :

كان توسع النفوذ السلجوقي ومدّ سلطانه إلى بلاد الشام والجزيرة، نقطة تحول في تاريخ هذه المنطقة سواء في علاقاتاتها الداخلية أو في علاقاتها بمصر، لقد تجزأت بلاد الشام والجزيرة إلى إمارات، وخضعت لأمراء وحكام طامحين، تورطوا في غياب سلطة عليا في صراعات لا تنتهي، كانت عسكرية أحياناً، ضد خصومهم. وكان الفاطميون في مصر ما يزالون يحتفظون ببعض المدن في فلسطين، في حين أن القوات البيزنطية كانت تكسب الثغور التي كانت من قبل تحت الإدارة الإسلامية، وكان السلاجقة لا سيما من عهد تُتُش (٤٧١ ـ ٨٨/١٠٧٩ ـ ٩٥)، هم الذين حاولوا جمع هذه الإمارات المشتتة تحت سلطة واحدة، وبعد مقتل تُتُش، استكمل العمل الذي بدأه، إنما بنشاط أدنى، ونجاح أقل[1]، ولم يحدث قبل الأتابك عماد الدين زنكي وتعيينه حاكماً للموصل في ظل السلطنة السلجوقية، أن شرعت بلاد الشام والجزيرة بالدخول في مرحلة حقيقية من التوحيد انتهت بإلحاق مصر في أيام نور الدين. ويمكن رؤية أهمية هذه المحاولات للتوحيد، التي انتهت بنجاح كما يلي :

أ ـ إنها وضعت مصر ، وبلاد الشام والجزيرة أخيراً تحت سيطرة سنيّة واحدة ، في وقت كانت فيه القوة السلجوقية الرئيسة في العراق وفارس في انحدار ، وتحت رحمة النزاعات الأسروية .

ب ـ إنها أدخلت نظام الإقطاع السلجوقي ـ وهو نظام بقي خلال الفترتين الزنكية والأيوبية ، ورست في ظل هذا النظام الإدارة الحكومية بشكل رئيسي في أيدي قادة الجيوش .

جـ ـ كان هذا النظام كما طبق في تلك المنطقة الواسعة ، بحاجة للدعم الشعبي ، وقد تم الحصول على ذلك من خلال العلماء ، وباتباع سياسة نظام الملك ، وزير السلاجقة (المتوفى في ٤٨٥/١٠٩٢) الذي أنشأ المدرسة النظامية ، وهكذا أوجد طبقة من العلماء الذين دعموا النظام السلجوقي ، وكانت المدرسة النظامية نموذجاً يُحتذى على نطاق واسع في بلاد الشام ومصر ، لاسيما في أيام نور الدين وصلاح الدين[٢] .

د ـ أصبح القادة مالكو الإقطاعيات ، والعلماء الدعامتين للحكومات الزنكية والأيوبية . واستغل العلماء بشكل خاص منزلتهم في الحكومة والبلاط ، ليعبروا عن رأي الشعب بقوة ونجاح ، وكان لهم كلمتهم أيضاً في الأنشطة العسكرية ضد الصليبيين والمستوطنات الفرنجية[٣] .

هـ ـ لقد انتقل مركز الأنشطة السياسية والفكرية من العراق وفارس (بشكل عام) إلى الموصل ، ودمشق ، وحلب ، والقاهرة ، المدن الكبرى في القوى المتحدة الجديدة .

وهكذا يبدو واضحاً ومنطقياً أن فترتي الزنكين والأيوبيين يجب أن تؤخذا كحقبة واحدة وستعاملان هكذا في هذه المقالة .

٢ ـ حالة حركة التأريخ في هذه الفترة :

انجذب مركز حركة التأريخ العربي إلى مراكز العلم الجديدة (دمشق ، حلب ، الموصل ، القاهرة) كنتيجة للتبدلات الجذرية السياسية والاجتماعية والثقافية . ومن المهم تبيانه على أي حال ، أن دراسة التاريخ في حد ذاته لم تكن ضمن المنهاج في المدارس العديدة التي أنشئت في ظل هذا النظام ، وقد يفسر هذا

جيداً إذا تذكرنا أن المدرسة كانت معهداً سنياً . وكان قيامها واحداً من ردات الفعل المضاد للشيعة في بلاد الشام والجزيرة ، ومصر ، لاسيما بعد سقوط الأسرة الفاطيمة ، وكان ردّ الفعل هذا عاملاً أسهم في ازدهار العلم وفي ازدياد عدد المدارس ، وهو تطور لم يكن ملحوظاً بهذا الشكل في الشرق (فارس) مع أن المدرسة نشأت هناك ، وكان هذا يعني إحياء الطرق الأصولية القديمة للدراسات الإسلامية ، وكان يعني العودة إلى القرآن والحديث باعتبارهما القاعدة الأساسية للمعرفة والتعليم ، ولم يكن الاجتهاد مشجعاً على نطاق واسع في تلك المدارس ، إذ ربما يؤدي بالطلاب إلى الضلال ، وكانت الفلسفة محظورة رسمياً لأنها بالنسبة لوجهة نظر السنة ، كانت أداة يستخدمها الإسماعيلية ، لزعزعة الإسلام .

وكانت الموضوعات الأخرى مثل الفقه ، والنحو العربي والشعر تعتمد إما على القرآن والحديث أو تستخدم لتسهيل دراستها ، واختلفت دراسة الفقه تبعاً للمذاهب الشرعية السنية الأربعة ، ولكن المذهب الحنبلي كان يحظى بأقل تشجيع[٤] ، ولكن أين كان موقع التاريخ بين هذه المواد الدينية ؟ في الإجابة على هذا السؤال يذكر ابن الأثير أن بعض الشخصيات القيادية بين العلماء في أيامه كان «يحتقر التواريخ ويزدريها ويعرض عنها ، ويلغيها ، ظناً منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار ، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار» وقد وجد من الضروري الدفاع عن الدراسات التاريخية بالإشارة إلى منافع تلك الدراسات في «الدنيوية والأخروية» وكان بين نقاطه :

«أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ، ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس فيرويها خلف عن سلف ، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر ، وقبيح الأحدوثة ، وخراب البلاد ، وذهاب الأموال ، وفساد الأحوال ، استقبحوها ، وأعرضوا عنها وأطرحوها ، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن بلادهم وممالكهم عمرت ، وأموالهم درت ، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه ، وثابروا عليه ، وتركوا ما ينافيه ، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء ، وخلصوا بها من المهالك ، واستصانوا نفائس المدن وعظيم الممالك . . . . ومنها ما يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل من ذكر

شيء من معارفها ، ونقل طريفة من طرائفها ، فترى الأسماع مصغية إليه ، والوجوه مقبلة عليه ، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره ، مستحسنة ما يذكره . . . . ومنها التخلق بالصبر والتأسي وهما من محاسن الأخلاق ، فإن العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مكرم ولا ملك معظم ، بل ولا أحد من البشر علم أنه يصيبه ما أصابهم ، وينوبه ما نابهم» . ويقر أبو شامة وهو مؤرخ بارز آخر لهذه الفترة بأنه اقتنع بأهمية الدراسات التاريخية بعدما صرف جل عمره ومعظم فكره في «اقتباس الفوائد الشرعية ، واقتناص الفوائد الأدبية» هدف إلى إتمام تعليمه ، فكان أن عنّ له ، صرف بعض وقته إلى علم التاريخ ليحوز «بذلك سنة العلم وفرضه» ، وفهمه للتاريخ على هذا كان أيضاً ذا طبيعة دينية اسمعه يقول : «فقلّ إمام من الأئمة إلا ويحكى عنه من أخبار من سلف فوائد جمة منهم إمامنا أبو عبد الله الشافعي رضي الله عنه ، قال مصعب الزبيري : ما رأيت أحداً أعلم بأيام الناس من الشافعي ، ويروى عنه أنه أقام على تعلم أيام الناس والأدب عشرين سنة ، وقال : ما أردت بذلك إلا الاستعانة على الفقه» وهكذا وجد أبو شامة نفسه مضطراً لتسويغ اهتمامه بالتاريخ من خلال أمثلة وضعت من قبل كثير من أسلافه في دوائر العلم ، وأيضاً من خلال آيات من القرآن وروح الحديث[٥] .

وأشار ياقوت أيضاً إلى أن بعض العلماء اعتقدوا أنه كان من الأفضل له لو أنه أعار اهتمامه للدراسات الدينية بدلاً من وقف جهوده لتصنيف كتابه (الارشاد) وقد وافق إلى مدى معين على وجهة النظر هذه ، ومع ذلك لاحظ أن اهتمامات الناس تختلف من رجل لآخر ، وإذا حصر كل الناس دراساتهم في موضوع واحد ، فإن الموضوعات الأخرى ستقل ، ثم أضاف أن كتابه يحوي تراجم أناس معينين كانوا مصدراً لكل دراسات القرآن والحديث ومن خلال معرفتهم ، أمكن للسلطنات والوزارات أن تجد الإرشادات لتحقيق الرخاء للناس .

هذه كانت الحالة الرسمية المنسجمة مع التاريخ ، بين موضوعات أخرى سواء في المدارس أو بين علماء تلك الفترة ، ومع ذلك فقد ازدهر التأريخ على نطاق واسع ، متخذاً صوراً عديدة ، وأسباب هذا قد نوجد في حقيقة أن بعض الشخصيات القيادية من المحدثين والفقهاء قد بذلت اهتماماً خاصاً بكتابة

التاريخ ، ويمكن ذكر ابن عساكر ، وابن الأثير ، وأبي شامة ، وابن خلكان كأمثلة بارزة ، مع أن أغلبية هؤلاء المؤرخين قد اشتهروا أولاً وبشكل رئيسي خلال فترة حياتهم ، وفيما بعد بموضوعات أخرى غير التاريخ كانت على الأغلب الفقه أو الحديث هذا من جانب ، ومن جانب آخر أسهم بعض العلماء الذين شغلوا وظائف رسمية في الفترة الزنكية أو الأيوبية في كتابة التاريخ بمصنفاتهم أو بالوثائق التي أعدوها في المناسبات الرسمية ، ويحتاج المرء فقط لذكر القاضي الفاضل ، وابن شداد ، وكمال الدين ، وابن خلكان . وبهذه الطريقة فإن إسهامهم كان ذا أهمية ملحوظة بالنسبة إلى الكتابات التاريخية ، وهكذا يمكن التأكيد بأن التأريخ قد تمتع بدعم شبه رسمي وغير مباشر من خلال هذه الطائفة من العلماء الرسميين ، ومن خلال رعاية سلاطين معينين أو أمراء وأشخاص آخرين من ذوي السلطة[٦] .

٣ ـ أنماط الكتابات التاريخية :

اتخذ العمل في التاريخ في الفترة موضوع البحث ست صور تقريباً :

١) الأعمال التاريخية الشاملة التي تبدأ بالخليقة : والأمثلة الرئيسة على ذلك النوع كانت الكامل لابن الأثير ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي .

٢) التاريخ المحلي[٧] وكان هذا النمط المفضل من قبل أكثر مؤرخي هذه الفترة ، وتفسير هذا الميل هو أنه لفترة طويلة تماماً كان في بلاد الشام والجزيرة نظم لأمراء مستقلين كانت مراكز للصراع ، إذ كثيراً ما كان على كل إمارة أن تحمي نفسها ضد الاعتداءات من الجوار الأمر الذي طور فيها نوعاً من أنواع الوعي الاقليمي[*]،ولم تثبط نظم الحكم الزنكية والأيوبية للحكومة التي كانت تعتمد بقدر

★ ـ يقلل من صحة هذا التفسير أن ابن عساكر شرع العمل في تاريخه لدمشق بدون مبادرة سلطوية في عصر سيطرت فيه الوحدة بين الشام ومصر واليمن والجزيرة ، وأنه حين اهتم بدمشق تأثر بالخطيب البغدادي وهذا الأمر نفسه يصح بالنسبة لابن العديم حين شرع بكتابة تاريخ حلب ، ولنتذكر أن مكانة حلب ودمشق في بلاد الشام وجدت قبل الأيوبيين وبعدهم ، والأهم من هذا كله محتويات هذه التواريخ ، فهي نادراً ما اهتمت برجال=

كبير على نظام الإقطاع هذا الإحساس الاقليمي ، وعلى العكس خلال الفترة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ، انتعشت هذه النظم تحت ضغط الصراع بين الأمراء الأيوبيين[٨] وأخذت التواريخ المحلية أيضاً صوراً عدة :

أ ـ أعمال مرتبة ترتيباً زمنياً مثل (ذيل تاريخ دمشق) لابن القلانسي ، و (الروضتين) لأبي شامة .

ب ـ أعمال تراجم مثل (تاريخ دمشق لابن عساكر) و(بغية الطلب) لكمال الدين .

جـ ـ الجمع بين التراجم والتاريخ الحقيقي مثل (الذيل على الروضتين) الذي ألفه أبو شامة في ترتيب حولي للأحداث .

٣ ـ والصورة الثالثة هي الأعمال المتعلقة بالتراجم سواء كانت ذات طبيعة عامة مثل (ارشاد الأريب) لياقوت ، و (الوفيات) لابن خلكان ، أو لفئات معينة من الناس ، مثل (أسد الغابة) وهو معجم للمحدثين (من الصحابة) جمعه ابن الأثير ، و(عيون الأنباء) عن الأطباء لابن أبي أصيبعة .

(٤) سير حول حياة أفراد ، مثل (النوادر) لابن شداد عن صلاح الدين ، أو عن أسر حاكمة معينة ، مثل (المفرج) لابن واصل عن الأيوبيين ، و (الباهر) لابن الأثير عن أتابكة الموصل .

(٥) السير الذاتية (الاعتبار) كتاب أسامة بن منقذ الشهير ، والنكت العصرية ، لعمارة اليمني ، وكلها أمثلة جيدة .

(٦) كتيب إداري ، جمعه ابن مماتي بعنوان قوانين الدواوين .

(٤) ـ المواد التي استعملها المؤرخون :

كما بين مرغوليوث بالنسبة لنا إن القاعدة الطبيعية للكتاب هي بعض المادة مثل الورق ، وقد ترتبط أو لا ترتبط بالذاكرة ، وبالنسبة للعرب إن القاعدة الطبيعية للكتاب هي الذاكرة ، وقد ترتبط أو لا ترتبط بالكتابة[٩] وكانت قاعدة

= الخاصة ، واهتمت فقط برجالات العامة من علماء ومحدثين وقضاة وشعراء وغيرهم ، وفي هذا تعبير للمجتمع العربي عن نفسه في وجه الخاصة المستبدة من غير العرب .

السماع ما تزال إلى حد ما مستعملة خلال الفترتين الزنكية والأيوبية ، وهكذا فإن المصادر الشفوية بقيت واحدة من المصادر الرئيسة لكتابة التاريخ خلال هذه الفترة . ويذكر ابن الأثير مثلاً في تاريخه عن الأتابكة ، أنه قد استمد معظم المادة لكتابه من أدلة مسموعة ، ولا سيما من أبيه ، مع أنه كما يقول : قد جمعها بعد وفاة أبيه ببعض الوقت .

وكانت عادة طالب التأريخ ، أو أي موضوع آخر أن يكتب نسخة من العمل التاريخي الذي كان يهتم به ، ثم يقرأ نسخته على شيخ من الشيوخ ممن كانوا يعدون اختصاصيين في هذا العمل بالذات ، وكان يحضر مثل هذه المحاضرات عدد من العلماء ، الذين كانت موافقتهم على المحتويات ، كما وردت في المحاضرات تؤخذ كعلامة على صلاحية العمل ودقته[١٠] .

وكانت مثل هذه الإجراءات بلا شك راجعة إلى النفوذ المهيمن لدراسة الحديث الذي كان مبدأ الإسناد فيه بالغ التقدير ، وقد نصح ابن عساكر طلابه مراراً بمراقبة الدقة في المخطوطات من خلال طريقة السماع ، وهكذا عندما كتب ابن شداد سيرة صلاح الدين (النوادر) جعل واضحاً من البداية أن القسم الأول من كتابه أعني حتى عام ٥٨٤ هـ ، قد جمع بشكل رئيس من الروايات التي سمعها في المقام الأول من أشخاص ثقات ، وكان القسم الثاني نتيجة لخبراته الشخصية التي كسبها من خلال احتكاكه بصلاح الدين .

وكان المصدر الهام الآخر للمادة الوثائق الرسمية ، وكانت هذه تستعمل بطريقتين ، ولا بد أن ابن القلانسي قد استفاد منها في حوليته عن دمشق ، إذ أنه شغل مرتين منصب رئيس في المدينة ، ومع ذلك فإنه نادراً ما يقتبس من الوثائق ، ولا بد أن ابن الأثير أيضاً كان في متناول يده وثائق من اعداد العماد الكاتب ، كاتب صلاح الدين طالما أنه استعمل كتاباته ، ومع ذلك فإنه نادراً ما يقتبس من هذه الوثائق ، وتمثلت الطريقة الأخرى لاستخدام الوثائق في الاقتباس الحرفي منها ، فالعماد الكاتب يقتبس من الوثائق الرسمية التي أعدها هو بنفسه في كتابيه «الفتح» و«البرق»[١١] ، كما نقل ابن أبي طي الحلبي من وثائق كل من العماد والقاضي الفاضل ، وهو كاتب آخر لصلاح الدين . ويقتبس أبو شامة من الوثائق

التي كتبها هذان الكاتبان إضافة إلى وثائق موظفين آخرين ، وفي الروضتين وهو كتاب أبي شامة الرئيس هناك أكثر من مائتي وثيقة وهو أكبر عدد وجد في كتاب واحد حول هذه الفترة[١٢] . وفي حالة واحدة نلتقي ببيان لأحد المؤرخين فحواه أنه عزف عامداً عن استعمال الوثائق الرسمية ، مع أنها كانت في متناول يده وذلك في «قوانين الدواوين» لابن مماتي ، عند تسجيل النواحي المختلفة للدخل في البلدان والقرى في مصر خلال الفترة الأيوبية وكان السبب الذي أعطاه هو السرية الرسمية[١٣] .

وهكذا يبدو أنه كان هناك ميل عام بين المؤرخين الرئيسيين لتلك الفترة للرجوع إلى الوثائق الحقيقية حيثما وجدت ، وتقديمها كمادة دقيقة وهامة لتأليفهم التاريخي .

(٥) ملاحظات حول أعمال معينة من الكتابات التاريخية :

(١) ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (توفي ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م) مؤلف ذيل تاريخ دمشق ، حولية عن دمشق تغطي فترة مئة وسبع سنوات ، ٤٤٨/١٠٥٦ ـ ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م . إن العمل على أي حال يبدأ أبكر بخمس وثمانين سنة في ٣٦٣/٩٧٣ ، بخلاصات من تاريخ هلال الصابىء التي كتب لها ابن القلانسي ذيله[*] وهذه الخلاصات تعنى بشكل رئيس بدمشق ، إلا في مناسبات قليلة عندما يتم تسجيل موت خليفة ، أو هجوم من قبل القوات البيزنطية ، وفي اقتباس هذه الخلاصات لا يلتزم ابن القلانسي بدقة بالترتيب الزمني للأحداث ، ولكنه يجمّع الأحداث تحت تسعة عشر عنواناً وهو عدد الحكام الذين حكموا في دمشق خلال تلك الخمس والثمانين سنة المتقدمة ، ومع ابتداء تاريخه بأخبار سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م ، يتقيد بدقة بالترتيب الزمني ، باستثناء سنة ٤٧٣/١٠٨٠ التي حذفها تماماً ، ووحدة هذه الحولية هي السنة ،

★ ـ ينبغي مراجعة هذه المعلومات على ضوء مقدمتي لتاريخ ابن القلانسي ، وما كتبته في كتابي الجامع في أخبار القرامطة ـ ط . دمشق ١٩٨٧ م ج١ ص ١٥٩ ـ ١٦٢ .

ولكن تحت عنوان كل سنة يتعامل ابن القلانسي مع الأحداث شيئاً فشيئاً وفق تاريخ حدوثها ، وهكذا نجد أخبار أحداث معينة تقطعها أخبار أحداث أخرى[44] ، ويلاحظ أنه منذ عام ٤٩٧ بدأت روايات ابن القلانسي تزداد طولاً ، ففي هذه السنة استولى طغتكين الأتابك على مقاليد السلطة العليا في دمشق ، وأحد الأسباب لذلك واضح أنه كان في حينه قادراً على تسجيل حقائق يعتمد عليها تدوّن لأول مرة .

وقد ذكرنا من قبل أن ابن القلانسي نادراً ما اقتبس من وثائق رسمية ، مع أنه شغل منصب رئيس في دمشق في مناسبتين ، كانت الأخيرة في ١١٥٣/٥٤٨ ، قبل وفاته بسبع سنوات ، ومع ذلك يمكن أن يفترض بطمأنية أن سجلاته لا بد أنها قامت على محفوظات الديوان من المواد طالما أنها كانت في متناول يده ، على الأقل خلال فترة ولايته المنصب ، إضافة إلى أنه كان شاهد عيان لمعظم الأحداث المسجلة في كتابه ، وهذا ما أعطى رواياته القيمة الوثائقية .

(٢) القاضي الفاضل ، عبد الرحيم بن علي البيساني (توفي ١١٩٩/٥٩٦) وهو ذو أهمية عظيمة كصاحب نفوذ في حياة صلاح الدين ، وقد شقّ القاضي الفاضل طريقه في الوظائف الإدارية منذ السنوات الأخيرة للفاطميين في مصر ، وخدم الأيوبيين أيضاً قبل تأسيس أسرتهم الحاكمة ، وأصبح اليد اليمنى لصلاح الدين وزيراً ، وحتى نائباً له في مصر في السنوات ١١٨٩/٥٨٥ - ١١٩٢/٥٨٨ ، وقدمت الوثائق التي جمعها والتي عرفت «بالرسائل» مادة غنية لمؤرخي تلك الفترة ، وبينهم كان معاصره ، العماد الكاتب ، وهو كاتب آخر لصلاح الدين . واستخدم العماد هذه الوثائق في عمله «البرق الشامي» كما اعتمد ابن أبي طي ، وفيما بعد أبو شامة على تلك الوثائق عند تصنيف كتبهما ، وإضافة إلى هذه الوثائق أخذ القاضي الفاضل ، يشير إلى كتابات إدارية تاريخية أخرى عرفت باسم (المتجددات ، والمياومات) ، ويقول ابن خلكان عن هذا الكتاب أن أحد الثقات أخبره بأن الفاضل ترك بعض الكتب التي صنفها وهي تتألف في مجملها من أكثر من مائة مجلد ، وأضاف ابن قاضي شهبا فيما بعد : لقد حوت هذه المجلدات كتابات القاضي الفاضل ككاتب لصلاح الدين ، وعرضت مواد هذه المدونات على صورة أخبار يومية ، حسبما ذكر حاجي خليفة ، وفي خطط المقريزي هناك عدد من

النقول من كتابات القاضي الفاضل عرفت باسم (المتجددات) ، والمياومات أو المجلدات ، وأشار أبو شامة إلى المجلدات على أنه كتاب يحتوي على رسائل القاضي الفاضل ، ويقترح بيكر[١٥] : بأن رسائل القاضي الفاضل لا بد وأن تتميز عن كتاب آخر يدعى (التعليقات) وتقوم هذه النظرية على عبارة كررها المقريزي ولكن بيكر لم يتابع الأمر بتفحص هذه النقول إلى جانب نقول أخرى أيضاً لدى المقريزي حيث يبدو أنها تدعم رأيه[*] .

وتختلف مادة موضوع المتجددات ، كما هي ممثلة في نقول الخطط عن مادة الرسائل ، ذلك أن الرسائل كما هي في نقول العماد ، وابن أبي طي ، وأبي شامة ، والمخطوطات ، تتعامل مع مسائل عرضية : تحركات سياسية ، بعثات للخلفاء ، وصف للمعارك ، وغالباً ما تكون مواد مواضيعها غير ذات علاقات متبادلة ، إنها مجموعات ذات موضوعات مستقلة ، أما المتجددات فتتعامل مع مسائل ليست ذات طبيعة عارضة .

ثانياً : يبدأ القاضي الفاضل في المتجددات باليوم وبتسمية الأسبوع والتاريخ وعلى سبيل المثال يقول : في يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجب . . . ولكنه يعطي في كل واحدة من رسائله عدداً من التواريخ ، وذلك لأنه كان يتعامل مع حدث محدد وتطوراته ، ونجده في بعض الرسائل لا يأتي على ذكر أي تاريخ .

ثالثاً : يظهر مخطوط المتحف البريطاني أن كل واحدة من الرسائل يمكن أن تقف بمثابة وحدة مستقلة ، ولكن هذه المتجددات تأخذ شكل صحيفة مستمرة .

علاوة على هذا إن الكلمات : متجددات ، تعليقات ، مياومات لم تظهر مطلقاً في (الروضتين) لأبي شامة ، حيث أكثر من استعمال كلمة رسائل ، وسبب هذا أن أبا شامة كان مهتماً بالرسائل التي تؤيد رواياته ، ذلك لأنها ذات طبيعة رسمية .

★ ـ وقفت أثناء عملي في كتاب بغية الطلب على نقول أخذها ابن العديم من تاريخ للقاضي الفاضل صنفه على شكل يوميات ، ويمكن الربط بين اليوميات وكتابة التقاويم التي وجدت في المشرق لدى الغزنويين والتي تطورت كثيراً في العصر العثماني كما سيمر معنا في هذا الكتاب .

ويمكن استنتاج أن (المتجددات) و(المياومات) اسمان أطلقا على مصنف تاريخي واحد عرضت أخباره على شكل يوميات كتبها القاضي الفاضل ، وينبغي تمييز هذا الكتاب عن الرسائل التي استخدمها بكثرة العماد ، وابن أبي طي ، وأبو شامة[١٦] .

(٣) العماد الكاتب ، محمد بن محمد الأصفهاني (ت ١٢٠١/٥٩٧م) كتب العماد كتابين حول تاريخ بلاد الشام ، وعن صلاح الدين ، الأول هو (البرق الشامي) ، ويعالج أحداث سنوات ١١٦٦/٥٦٢ ـ ١١٩٣/٥٨٩ وهي تغطي الفترة التي قضاها في ظل حكم نور الدين ، وصلاح الدين ، ويعطي هذا الكتاب قيمة سجل تاريخي لأحداث رويت من قبل شاهد عيان ، والثاني (الفتح القسي في الفتح القدسي)[*] ويغطي السنوات ١١٨٧/٥٨٣ ـ ١١٩٣/٥٨٩ ، أعني من السنة التي تم فيها فتح القدس على يدي صلاح الدين ، وحتى وفاته ، وانضم العماد إلى خدمة صلاح الدين في عام ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م ، ومع ذلك فقد بدأ الفتح بسنة ١١٨٧/٥٨٣ ، وهكذا يفسر لماذا اختار هذا التاريخ ، اختاره لأنه تاريخ الهجرة الثانية «وهذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى البيت المقدس . . . وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسّق . . . وهذه الهجرة هي هجرة الهجرتين ، وهذه الكرة بقوة الله أبقى الكرتين» .

والفتح أيضاً سجل جديد ومباشر للفترة الأكثر خطورة ، وحرجاً في حكم صلاح الدين ، وتضيف الوثائق المحفوظة في هذين الكتابين كثيراً إلى قيمتها كمصدرين لمادة تاريخية راسخة ودقيقة ، وذلك على الرغم من الأسلوب الذي طغت عليه الصناعة والسجع ، وهذه سمة فيها إتعاب وإعاقة ، وقد أفاد «ابن الأثير و«ابن أبي طي» و«أبو شامة» و«ابن واصل» كثيراً من هذين الكتابين إلى حد أن قارىء التاريخ قد يهمل تماماً الكتابين الأصليين ، مالم يكن لديه اهتمام خاص بلغتهما الأدبية النابضة بالحياة ، ويتبع كل من (البرق) و(الفتح) في التعامل مع الأحداث النظام الحولي بعرض الأخبار سنة تلو أخرى ، وقد بذل العماد اهتماماً يسيراً لتسجيل المرثيات ، اللّهم إلاّ في حالة أمير أو أحد الإداريين أو عالم بارز .

★ ـ لعل العنوان الصحيح «الفيح القيسي في الفتح القدسي» .

وقد ألف العماد كتاباً آخر في تاريخ السلاجقة من سلاطين ، ووزراء وإداريين ، ومرة أخرى إن النمط المنمق الطنان قد خفف من قيمته في أيامه كمصدر تاريخي ، وقد تم وضع تهذيب له من قبل الفتح بن علي البنداري(١٧) ، الذي هذب أيضاً البرق الشامي(*).

(٤) ابن شداد ، القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع (توفي ١٢٣٤/٦٣٢) مؤلف النوادر السلطانية وهو كتاب سيرة لصلاح الدين ، وكان ابن شداد خبيراً هاماً ومصدراً ثقة عن حياة صلاح الدين ، مع أنه رافقه فقط مدة خمس سنوات (١١٨٨/٥٨٤ - ١١٩٩/٥٨٩) ، و«النوادر» كتاب صغير إذا ما قورن بكتب «العماد الكاتب» ولكن اللغة البسيطة الواضحة تجعله اسهاماً قيماً يتعامل مع الحقائق المجردة ، وقد جاء في قسمين : رسم الأول صورة حياة صلاح الدين وفضائله (مثل العدل ، والكرم ، ومراعاة الشريعة وتأدية الفرائض الدينية) ، وقد أوقف على كل فضيلة فصلاً خاصاً افتتح بآية من القرآن أو حديث(١٨) .

ويشكل القسم الثاني الجسم الرئيس للكتاب ، ويسجل مجرى الأحداث التي وقعت منذ زمن حملات شيركوه في مصر ، حتى وفاة صلاح الدين في ١١٩٣/٥٨٩ .

ومنذ الوقت الذي التحق فيه ابن شداد بخدمة صلاح الدين في ١١٨٨/٥٨٤ ، صحب سيده في كل مكان في أسفاره ، وحتى في أرض المعركة في الخطوط الأمامية ، وعن هذه الفترة كان قادراً على إعطاء رواية تامة ودقيقة لشاهد عيان ، أما بالنسبة للسنوات التي لا يمكنه أن يقدم عنها معلومات من الدرجة الأولى نجده يدعي أنه استمد مادته من المصادر الأكثر أهلاً للثقة والاعتماد ، ومع ذلك فإنه يميل أحياناً إلى رفع مسؤولية الروايات عن عاتقه بقوله : أخبرني بذلك بعض الناس لأني لم أكن حاضراً عندما حدث هذا .

وجاءت روايات ابن شداد عن السنوات الأولى من حياة صلاح الدين في بعض الأحيان غير دقيقة وقد تمكن المؤرخون مثل أبي شامة ، وابن خلكان من

★ - أطلق عليه اسم سنا البرق الشامي ، وطبع جزء منه أولاً في بيروت ثم طبع كله في القاهرة .

تصحيح رواياته ، باعتماد روايات أخرى أكثر صحة[١٩] ، ولدى استعراض مجمل مواد الكتاب يجد المرء أن ابن شداد لا ينقل ـ باستثناء أربع مرات ـ من الوثائق ، وربما يفسر هذا بحقيقة أنه لم يشغل أي منصب إداري ، وذلك خلافاً للقاضي الفاضل والعماد ، اللذين كان عملهما الرئيس في بلاط صلاح الدين (المراسلات) ، فهو لم يكن لديه مسؤولية تتعلق بالمراسلات الرسمية .

(٥) ابن الأثير ، علي بن محمد ، عز الدين ، أبو الحسن ، توفي (١٢٣٣/٦٣٠) مؤلف «الكامل في التاريخ» ، وتتحدث تراجم حياته عن إسهامه في الدراسات الإسلامية ، حيث أشير فيها إلى كتابيه «أسد الغابة» ، و «اللباب» وقد صنف كلاهما كمعجمين لتراجم صحابة النبي (ﷺ) والمحدثين ، ولم يتمتع كتاباه التاريخيان (الكامل) و (الباهر) بالمكانة نفسها التي تمتع بها معجماه مع أنهما قد حظيا بسمعة جيدة .

واعتمد ابن الأثير في أسد الغابة كلية على كتب قديمة درسها بشمول ، ثم أعاد إخراجها في كتاب واحد بعد حذف التكرار وسلاسل الإسناد الطويلة ، ومع ذلك فقد خصص فصلاً لخص فيه هذه السلاسل مبيناً أنه فعل ذلك من أجل تجنب التكرار ، وقد عرض التراجم بدقة وفق ترتيب أبجدي ، وكان هدف هذا الكتاب أن يجمع في كتاب واحد كبير المواد التي كانت موجودة في كتب مختلفة .

واللباب هو تهذيب للكتاب الكبير الذي صنفه السمعاني (توفي ١١٦٧/٥٦٢) المسمى كتاب الأنساب ، وكان السمعاني يحظى باحترام كبير بين علماء الحديث ، ولهذا بذل ابن الأثير عناية كبيرة عند مراجعة نصه ، وذكر أنه حافظ على آراء السمعاني حتى في المواضيع التي كان واثقاً من أن السمعاني كان فيها على خطأ ، ومع ذلك نجده في بعض الحالات يقدم بعد تردد طويل على تصحيح ما دونه السمعاني ، وجاء تردده خشية أن يتهم بالرغبة في زعزعة عمل هذا المؤلف العظيم ، ويستقر إسهام ابن الأثير مرة أخرى في حذف التكرار واختصار الإسناد إلى أقصر حد ، وكان السمعاني قد كرر بعض التراجم ، وهي حقيقة عزاها ابن الأثير إلى الفوضى التي أخرج فيها هذا الكتاب ، وفي بعض الحالات إلى عدم الانتباه من جانب المؤلف[٢٠] .

وكان المؤلَّفان اللذان أكسبا ابن الأثير شهرته كمؤرخ هما تاريخه الشامل المسمى «الكامل» ، وتاريخه المحلي ، الباهر في تاريخ أتابكة الموصل .

وذكر ابن الأثير في خطبة كتابه «الكامل» أنه لاحظ أن الكتب التاريخية لأسلافه كانت بشكل عام غير وافية ، «بعضها يتعامل مع الشرق ، والآخر مع الغرب» ، وكانت الحقائق تختنق في كثير منها من خلال تكرارها ، ومن خلال النمط المنمق ، أو من خلال السلاسل الطويلة من الإسناد التي يجب أن تذكر : وهكذا فإن كثيراً من الأحداث الهامة «كان يتم إغفالها عمداً أو تحذف من خلال الهوى والتحامل»(★) .

وبناء عليه صمم على إخراج «عمل شامل يتجنب العيوب التي كانت حتى الآن متأصلة في مثل هذه التواريخ»(★★). وعلى هذا صمم «الكامل» ليحوي قدراً كبيراً من المعلومات التاريخية ، التي تعنى بكل المحليات ، بترتيب زمني ، ووحدة هذا السجل الزمني في التوقيت هي السنة ، والأحداث الواقعة ضمن حدود سنة واحدة مصنفة ومعالجة بالتسلسل ، وهكذا تعالج كتوال مستمر كثيراً ما يشكل فصلاً واحداً ، وفي هذه السجلات يستمد المؤلف من تواريخ متقدمة ، ويحتل الطبري موقعاً أثيراً في القرون الثلاثة الأولى.

ومن أجل الفترة ٤٧٧/١٠٨٤ ـ ٦٠٧/١٢١٠ يعطينا ابن الأثير سجلين الأول في «الكامل» وهو استكمال للعمل الشامل ، والثاني في تاريخه عن الأتابكة ،

★ ـ لم يلتزم الباحث في نقوله المتقدمة ، ولا هنا ، بقواعد الاقتباس ، وتصرف بالنصوص حسب هواه ولم يكتف بهذا بل وضع كلامه ضمن علامات التنصيص ، ويعد هذا العمل نوعاً من أنواع التدليس ، فما جاء أعلاه ليس كلام ابن الأثير ، يقول ابن الأثير : «فمن بين مطول قد استقصى الطرق والروايات ، ومختصر قد أخل بكثير مما هو آت ، ومع ذلك فقد ترك كلهم العظيم من الحادثات ، والمشهور من الكائنات . . . والشرقي منهم قد أخل بذكر أخبار الغرب ، والغربي قد أهمل أحوال الشرق ، فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخاً احتاج إلى مجلدات كثيرة ، وكتب متعددة مع ما فيها من الإخلال والإملال» .

★★ ـ كذا والذي قاله ابن الأثير : «فلما رأيت الأمر شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب ، وما بينهما ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان . . .» .

الذي يغطي فقط تلك المائة والثلاثين سنة ، وهناك تشابه كبير في تسجيل هذه الفترة في الكتابين ، وفي بعض الأحداث ، ومع ذلك يجد المرء فروقاً ملحوظة في توقيت الأحداث ، في النص الفعلي أو في الأجزاء المضافة إلى أحد الكتابين في تسجيل حادثة معينة ، وقد تم وضع «الكامل» قبل «الباهر» ، مع ذلك فإن ابن الأثير لم ينشره إلا بعد سنة ١٢٢٢/٦١٩ م ، أعني بعد نحو إحدى عشرة سنة ، على الأقل مضت على نشر الباهر[٢١] والسبب كما فهم من ابن الأثير أن «الكامل» ، كان عملاً كبيراً ، وعليه فإن قد تطلب زمناً للمراجعة قبل النشر ، قد نحاه جانباً لفترة طويلة ، مع أنه طولب من قبل الأصدقاء والطلاب بالمحاضرة فيه ، وهذا ما فعله لفترة قصيرة ، ثم تلقى أمراً ممن «طاعته فرض واجب» بنشر الكتاب في صورته النهائية ، ولقد كان الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ هو الذي طلب النشر[٢٢] وهكذا دفع مؤرخنا إلى الأمام لتتمة النسخة النهائية .

وتمتد كامل فترة «الباهر» ، والقسم الموازي من الكامل على مدى مائة وثلاثين عاماً ، وكان ابن الأثير شاهد عيان لربعها فقط ، مع أنه عاش خلال اثنتين وخمسين سنة من تلك الفترة[٢٣] وكان بالطبع في موقع مكنه من الاطلاع مباشرة على معلومات تاريخية ممتازة عن تاريخ المنطقة في ذلك الوقت ، لاسيما وأنه رحل بين مختلف المدن ، ولكن ماذا كانت مصادره للفترة السالفة ؟ إن الوحيد الذي يشير إليه بصورة متكررة لاسيما في «الباهر» هو والده الذي يقول عنه إنه عرفه بأغلب الحقائق . وهو يذكر في عبارات مثل : أخبرني والدي . . . أو هكذا أخبرني أبي ، ومن حين لآخر يضيف : ولقد وجدت هذا أيضاً مكتوباً في كتب التاريخ ، ومع ذلك لا يسمي هذه الكتب ، ومن المهم أيضاً هنا أن نذكر أنه قال : إنه لا يستطيع أن يسرد كل ما قاله أبوه نظراً لحقيقة أنه كتب من الذاكرة بعد وفاة والده ، حتى ليبدو أن ابن الأثير قام عن قصد بعدم ذكر المصادر في كتبه ، وهذه محصلة يمكن أن تستمد من كل من الكامل والباهر لأنه أحياناً يكتب : إن أكثر نسابي زماني كفاءة أخبروني ، أو إن شخصاً أهلاً للثقة قد أخبرني . . . أو أخبرت من قبل رجل مطلع في تاريخ الأنساب ، وهو واحد ممن لديهم أعظم معرفة بها ، أن . . . دون أن يسمي هذه المصادر التي نهل منها والتي لا بد ،

حسب مثل هذه الأقوال ، أن تكون عظيمة القيمة ، ويمكن تفهم موقف ابن الأثير هذا تجاه مصادره ، إذا تمعن المرء في موقفه من السلاسل الطويلة الإسناد ، التي حذفها عمداً عند تصنيفه لكتابيه «أسد الغابة» و «اللباب» ولقد اتخذ عادة له أن يقرأ المصادر ، ويقارنها ، ويرتب الأحداث بترتيب مختلف ، ثم يعيد إخراجها ، ويمكن اعتبار ذلك محاولة من جانبه لتحرير نفسه من طرائق علماء الحديث ، التي اتبعها مؤرخه المفضل ، الطبري ، ومعاصره ابن عساكر ، ولكن عند مقارنة رواياته مع روايات مصادره يمكن أن يتبين أنه قام في بعض المناسبات ، بتحريف الروايات عند إخراجها ، وهذه بالتأكيد هي الحالة عند استعماله لأعمال العماد الكاتب حول حياة صلاح الدين ، وهذا بالتأكيد لأن ابن الأثير لم يكن متعاطفاً مع الأيوبيين بشكل عام ، ونجده في مناسبة واحدة على الأقل منحازاً لنور الدين ، ويرفض مؤرخ تال كان لديه أيضاً إعجاب خاص بنور الدين رواية ابن الأثير ، مقيماً رفضه على وثيقة لا بد أنها كانت تحت تصرف ابن الأثير[٢٤] .

إن هذا الموقف من ابن الأثير جعل أبا شامة يحجم عن استعمال هذين الكتابين بكثرة عندما كان يسجل وقائع حياة صلاح الدين .

(٦) يحيى بن أبي طي (توفي نحو ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م) ، وهو شيعي من حلب، ومصدر هام للمعلومات التاريخية، حسبما يمكن تحصيله من النقول الكثيرة من كتبه من قبل المؤرخين المتأخرين ، لاسيما أبي شامة ، وابن الفرات ، وهناك تشابه بينه وبين القاضي الفاضل في أن تواريخ كل منهما قد فقدت وكلاهما معروف من خلال مؤرخين آخرين .

وقد تلقى ابن أبي طي تعليمه في حلب تحت إشراف والده الذي كان نجاراً وشيعياً بارزاً[٢٥] ، ويذكر ياقوت حسب نص نقله عنه الصفدي أن يحيى لم يتبع مهنة والده وأنه احترف الكتابة كوسيلة لكسب معيشته ، وقد كتب كتباً عدة في النحو وفقه اللغة ، وتفسير القرآن ، والإدارة الحكومية ، وعلم البلاغة والبيان ، والتراجم ، والتاريخ وحتى في علم النبات ، وكان عدد كتبه التاريخية طبقاً لياقوت عشرة وهي : تاريخ النبي وصحابته ، وتاريخ حلب المعنون (معادن الذهب) ، وألحق بهذا التاريخ عن حلب ذيلاً أرخ به لملوك حلب ، وتاريخ الشام ، وتاريخ

صلاح الدين ، وتاريخ الظاهر بن صلاح الدين ، وتاريخ مصر ، وتاريخ مختصر عن تاريخ المغرب ، وتاريخ شامل يدعى «حوادث الزمان»[٢٦] . وكتب أيضاً معجمين للتراجم : تاريخ العلماء ، وطبقات الإمامية ، ومصدر معلومات ابن طي هو أبوه ، الذي يبدو أنه كان شاهد عيان لبعض الأحداث ، لاسيما خلال فترة نور الدين ، وكتابات القاضي ابن شداد ، والعماد الكاتب ، وقد اقتبس أيضاً من وثائق القاضي الفاضل والعماد ، وحقيقة أنه يعترف بقيمة الوثائق في كتابة التاريخ ، وأهمية الاعتماد على روايات شهود العيان تخوله أن يعد مؤرخاً يمكن الاعتماد عليه ، ولا سيما عندما تمت الإفادة كثيراً من أعماله من قبل مؤرخين متأخرين لا سيما كل من «أبي شامة» و«ابن خلكان» و«ابن الفرات»[٢٧] .

(٧) سبط ابن الجوزي ، يوسف بن قز أوغلي ، شمس الدين ، أبو المظفر (توفي ٦٥٤ هـ/١٢٥٧ م) ، كان أبوه عبداً لابن هبيرة ، وزير بغداد ، الذي حرره ، ورتب لتزويجه من ابنة العالم الشيخ ابن الجوزي ، ومن هنا كانت شهرته باسم سبط (بمعنى حفيد) ابن الجوزي ، وقد شق طريقه في بلاط الأيوبيين حتى أصبح العالم الأثير في بلاط المعظم عيسى في دمشق (توفي ٦٢٤ هـ/١٢٢٦ م) وخلال ذلك هجر سبط ابن الجوزي اعتقاده الحنبلي ، واعتنق المذهب الحنفي ، المذهب الذي كان المعظم يؤيده بقوة ، وقد أدين عمل سبط ابن الجوزي هذا من قبل علماء زمانه ، ولم يكن قادراً على رده ، ومع ذلك يجد المرء إشارات عدة في «مرآة الزمان» التي كتبها ، للاحترام الذي لقيه من قبل طلابه ومن الدمشقيين الذين حضروا محاضراته الدينية .

إن الكتاب الرئيس لسبط ابن الجوزي هو «مرآة الزمان» وهو تاريخ شامل ، يبدأ بالخليقة وينتهي في ٦٥٤ هـ/١٢٥٧ م ، سنة وفاته ، ويعتمد القسم الذي يعالج فترتي الزنكيين والأيوبيين بدرجة كبيرة على معلومات مباشرة مستمدة من المعاصرين وأغلبهم قد تقدم ذكره ، مثل ابن القلانسي ، والعماد ، وابن شداد ، ومصدر هام آخر هو جده أبو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ/ ١١٨٥ م فإنه كان قادراً على أن يعطي معلومات مباشرة حول الأحداث التي شهدها ، أولاً في العراق حيث درس ، وفيما بعد في بلاد الشام ، خاصة بعد أن قوى علاقاته مع

«المعظم» في دمشق ، وهكذا أصبح مصدراً للمادة «لأبي شامة» الذي استخدمها إلى حد ما ، في ذيل الروضتين ، حتى سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م .

ولا يستخدم سبط ابن الجوزي الوثائق على نطاق واسع ، مع أنه اعتمد على كتابات العماد وكان اهتمامه الرئيس ، على أي حال بتراجم العلماء أكثر منه بالتاريخ السياسي في حد ذاته . وهكذا فإن كتابه يتكون من مزيج من روايات تتعلق بالتراجم مع روايات تاريخية صرف ، وفي هذا يتبع مثال جده وطريقته .

(٨) أبو شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (توفي ٦٦٥ هـ/١٢٦٨ م) ، محدث ، وفقيه ، ونحوي ، ومؤرخ ، ولم يكن مع ذلك بشكل خاص متميزاً كمؤرخ ، ولا يعطي كتاب التراجم أهمية كبيرة لكتاباته التاريخية ، وكان مثله مثل عدد كبير جداً من معاصريه كتب كتباً عدة حول مواضيع متنوعة ، بينها سبعة تتعلق بالتاريخ ، وهذه الكتب هي : «الروضتين» وهو تاريخ لعصري نور الدين ، وصلاح الدين ، و«العيون» وهو تهذيب للروضتين ، وملحق للروضتين بعنوان «المذيل على الروضتين» ، و«ملخصان لتاريخ ابن عساكر» ، واحد في خمسة عشر جزءاً ، والآخر في خمسة ، وكتاب «كشف حال بني عبيد» وهو تفنيد لادعاءات الأسرة الفاطمية ، و«السيرة العلائية» ، وهي سيرة علاء الدين خوارزم شاه(*) . ومن كل هذه الكتب ثلاثة باقية فقط هي : «الروضتين» ، و«العيون» و«المذيل» ، وهناك جزء واحد من المختصر من تاريخ ابن عساكر في مخطوط محفوظ في برلين ، وطبقاً لأبي شامة فإن كتابين آخرين كان قد بدأ فيهما ، ولكنهما لم يكونا قد اكتملا عندما كتب سيرته لنفسه في ٦٥٩ هـ/ ١٢٦٠ م وهذان الكتابان هما ملخص «تاريخ بغداد» و«تاريخ مكة ، والمدينة والقدس» .

وعندما قرر أبو شامة للمرة الأولى كتابة التاريخ اختار تاريخ ابن عساكر ، وهو العمل الكبير المكتوب حسب طرائق المحدثين ، فاختصره ، وصححه ،

★ ـ كذا والصحيح أن اسمه نزهة المقلتين في أخبار الدولتين العلائية والجلالية ، وهو مختصر لسيرة جلال الدين منكبرتي للنسوي ، أرخ فيه للجبهة الإسلامية ضد المغول ـ وأمتلك نسخة مصورة عنه .

مضيفاً إليه مادة مفيدة من كتب أخرى . وقد أثرت هذه الطريقة فيه عند كتابة الروضتين ، واتخذها قاعدة في أن يذكر اسم المؤلف الذي ينقل عنه ، وكان هذا الأخذ بطرائق المحدثين أيضاً هو الذي جعله ينقل حرفياً ، وهكذا قدم النمط المتكلف للعماد ، بعد تهذيبه بعض الشيء فقط في الحجم إلى الحد الأدنى دون حذف أو تحريف أية حقيقة ، وبالطبع لم يخص أبو شامة نفسه برواية واحدة فقط ، بل نراه يدعمها ، ويوسعها أو يفسرها بإيراد نقول من المصادر الأخرى ذات العلاقة ، والمتوفرة له .

وتختلف أهدافه من كتابة التاريخ من كتاب لآخر ، ففي البداية رغب في حث الملوك على اتباع المسلك الذي يؤدي إلى رخاء الشعب ، وليس إلى تحقيق طموحهم الخاص ، ولاحظ فيما بعد أن الملوك استمروا في نزاعهم مع نتيجة الحاق المضار بشعبهم وإطالة معاناته ، لهذا هجر هدفه الثاني وهو حفظ الجسد الإسلامي السياسي ، وكتب التاريخ بعد ذلك ليذكر نفسه بأقاربه ، وأصدقائه ، ومعارفه الذين كانوا يموتون بأعداد كبيرة ، ولتحضير روحه لمصيرها الذي لا يمكن تجنبه ، والأكثر أهمية في مؤلفات أبي شامة التاريخية هو تاريخ نور الدين وصلاح الدين المعنون «الروضتين» ، وبدأ هذا العمل بعرض قصير حول أتابكة الموصل ، أسلاف نور الدين ، معطياً أهمية خاصة لنشاطات عماد الدين زنكي ، والد نور الدين ، وعرض هذه المادة في فصول قصيرة حتى في عام ٥٤١ هـ/١١٤٦ م عندما اغتيل زنكي وخلفه ابناه : غازي في الموصل ، ونور الدين في حلب ، وسجل أبو شامة تاريخ نور الدين ، وبعد وفاته في ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م ، عرض تاريخ صلاح الدين في ترتيب زمني للأحداث ، مبتدئاً بعام ٥٤٢ هـ ومنتهياً بوفاة صلاح الدين في ٥٨٩ هـ/١١٩٣ م .

وقد أقام أبو شامة انتقاءه للمصادر على مبدأين : المعاصرة ، والموقع المحلي ، وأول هذه المصادر كان ابن القلانسي الذي توفي في ١١٦٠/٥٥٥ م ، في حين أن الأخير كان القاضي ابن شداد الذي عاش حتى ١٢٣٤/٦٣٢ ، وبالنسبة لمصادره عن المحليات ، كان ابن الأثير مواطناً في الموصل ، وهكذا فإن تاريخه عن الأتابكة هو المصدر الأكثر قابلية للاعتماد عليه من أجل تلك المنطقة . وتنطبق

الحالة نفسها على ابن أبي طي الحلبي ، وابن القلانسي الدمشقي ، وكان بإمكانه النقل من القاضي الفاضل ، والعماد وابن شداد من أجل المحليات المختلفة ، طالما أنهم في معظم الحالات قد صحبوا صلاح الدين ، ككتاب له ، ونظراً لدقته المتناهية في اختيار مصادره ، فإنه لم يحاول التعليق عليها أو تقويم دقتها ، وهذا بالتأكيد يمكن السماح به لأنه ربما يكون قد شعر أن التمييز هو فوق طاقته ، طالما أنه لم يشهد الأحداث ، ولا انشغل شخصياً في الأمور التي يرويها(٢٨) ونجده في المذيل ، الذي يغطي السنوات ٥٩٠/١١٩٣ ـ ٦٦٣/١٢٦٦ التي كان معاصراً لها ، لكونه ولد في ٥٩٩ هـ/١٢٠٣ م ، يعتمد على سبط ابن الجوزي ، إضافة إلى بعض شيوخه وأصدقائه وعلى مشاهداته الخاصة ، والمذيل مع ذلك هو جمع بين الروايات السياسية وتلك المتعلقة بالتراجم ، وأغلبها يتركز في دمشق وحولها .

ويظهر فحص كتاب أبي شامة الرئيسي أنه قد بني على مؤلفات ومصادر هامة اختارها وقبل بدقتها ، وتسهم هذه المصادر مجتمعة مع أنها محلية ومحدودة الفترة في فهم تاريخ هذه الفترة . وإسهام أبي شامة الآن بالغ الأهمية لأنه درس هذه المصنفات وأخرجها في مصنف دقيق موجز ، يمكن الاعتماد عليه ، ويحتاج المرء للرجوع إلى مصادر أبي شامة عندما يبحث عن روايات خاصة مفصلة حول أمور محلية معينة ليست داخلة في موضوع «الروضتين» . ولكن بالنسبة إلى الأمور التي تدخل ضمن هذا الموضوع ينصح دائماً بالعودة إلى «الروضتين» . لأن المؤلف زودها بروايات عديدة يمكن الاعتماد عليها ، بعضها يندر وجوده في مكان آخر ، مثل روايات القاضي الفاضل ، والعدد الكبير من الوثائق الرسمية التي قام أبو شامة ، باختيارها وتفصيلها جديرة بالقبول .

(٩) ابن واصل جمال الدين ، محمد بن سالم (توفي ٦٩٧/١٢٩٨) ، مؤلف مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، وهو تاريخ للأيوبيين ، ومثله مثل أبي شامة ، بدأ ابن واصل كتابه برواية قصيرة عن تاريخ الأتابكة ، وعن عماد الدين زنكي خاصة ، وتبين هذه الطريقة الخاصة في عرض تاريخ الأيوبيين ، كم كان ابن واصل متأثراً بأبي شامة ، ومع ذلك يمكن إيجاد فروق معينة بين «الروضتين ، والمفرج» في التعامل مع هذا الجزء التمهيدي ، ويميل «الروضتين» إلى إعطاء روايات أكثر تفصيلاً وطولاً مما يفعل (المفرج) ، ومعظم الشعر الموجود في الروضتين محذوف في

«المفرج» . وهذا مفهوم بسهولة عندما يدرك المرء أن الروضتين صمم كتاريخ لشخصيتين فقط كان نور الدين الأتابك واحداً منهما ، بينما كان «المفرج» من جانب آخر تاريخ الأسرة الأيوبية ، التي لم تكن أسرة أتابكة .

والمصادر المعتمدة والمذكورة من قبل ابن واصل في الجزء الأول من الكتاب أعني حتى وفاة صلاح الدين ، هي أيضاً المصادر الخاصة بأبي شامة ، ويمكن بوضوح ملاحظة أن هذا الجزء من «المفرج» يتبع قاعدة «الروضتين» حتى في صياغة الروايات ، وبالفحص يمكن أن يظهر أن ابن واصل كان يعتمد إلى حد كبير على أبي شامة في كثير من رواياته . وعلى سبيل المثال ، الروايات المعطاة في «المفرج» حول إعادة الاستيلاء على الرها من قبل نور الدين في ١١٤٦/٥٤١ ، من الواضح أنها مأخوذة من «الروضتين» ، ففي هذه الروايات كان أبو شامة قد حذف أجزاء معينة عند نقله عن ابن الأثير ، و حذث ابن واصل الأجزاء نفسها[٢٩] ، وعند تسجيل أحداث سنة ١١٦٨/٥٦٤ نقل أبو شامة عن ابن الأثير وابن شداد ما جاء حول عدم رغبة صلاح الدين في الاشتراك في الحملة التي أرسلت إلى مصر ، حتى أمره نور الدين بذلك ، وهكذا نقل ابن واصل الروايتين بالترتيب الذي وردا فيه في الروضتين وبالطريقة نفسها ، وعندما أصبح أبو شامة أقل اعتماداً على ابن الأثير ، واعتمد على ابن شداد ، والعماد ، أظهر ابن واصل اعتماداً كبيراً على أبي شامة ، فنقل منه مراراً ، ومن المؤكد أن ابن واصل قد استخدم ابن الأثير كثيراً وبشكل مباشر ، ولكن حتى في هذه الحالة يمكن بشكل رئيس ملاحظة أنه يعالج النقاط التي عولجت سالفاً من قبل أبي شامة ، وفي غالبية الأمثلة عالجها بالترتيب نفسه ، ويمكن اعتبار سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ م ، التي توفي فيها الصالح اسماعيل في حلب ، نقطة تحول في موقف ابن واصل من مصادره ، فحتى تلك السنة استخدم في كثير من الحالات مصادر أبي شامة ، وخاصة ابن الأثير . ولكن بعد تلك السنة أظهر بوضوح الاعتماد كلياً على «أبي شامة» .

وبالنسبة للقسم الأخير من المفرج ، أعني بعد وفاة صلاح الدين في ١١٩٣/٥٨٩ ، استمد ابن واصل مادته من مصادر أخرى ومن المشاهدة الشخصية والمشاركة ، لكونه ولد مع بداية القرن في ١٢٠٧/٥٠٤ م وكان قادراً

على السفر كثيراً بين مختلف المناطق الخاضعة للأيوبيين . وهكذا فإن هذا الجزء يغطي معظم الفترة التى لم يرغب أبو شامة في التعامل معها بتوسع مع أنه كان أيضاً شاهد عيان .

(١٠) ابن مماتي ، الأسعد بن المهذب (توفي في ١٢٠٩/٦٠٦ م) ، وكان رئيساً لديواني الجند والمالية الأيوبية لصلاح الدين وابنه العزيز ، وقد انحدر من عائلة قبطية في مصر العليا ، وشغل عدد من أسلافه مناصب مشابهة لدى الفاطميين في مصر ، وعند تولي شيركوه أمور البلاد ، كوزير لآخر الخلفاء الفاطميين ، اعتنق المهذب الإسلام ، هو وأبناؤه، وهكذا احتفظ بمنصبه كرئيس لديوان الجند[٣٠] .

وعلى هذا كان أفراد عائلة مماتي خبراء في الشؤون المالية والإدارية في مصر لأنهم ظلوا يتولون هذه الأمور منذ أن اغتصب بدر الجمالي السلطة في ١٠٧٣/٤٦٦ كوزير للمستنصر ، الخليفة الفاطمي ، حتى اضطر ابن مماتي للهرب إلى حلب ، بعد وفاة العزيز الأيوبي في مصر في سنة ١١٩٨/٥٩٥ ، وقد بلغت هذه الخدمة نحو مائة وأربعين سنة متوالية ، وهكذا منذ أن صنف الأسعد كتابة قوانين الدواوين ـ وهو تاريخ إداري ، ومسح لمصر ، خلال فترة ولايته ـ يمكن القول بالتأكيد إنه جاء بأفضل كتاب في بابه يمكن الاعتماد عليه ، وتتأكد إمكانية الاعتماد على هذا العمل أيضاً بموقف المؤلف تجاه ما يدعوه أسرار الدولة ، فهذه كما يقول لا يمكن أن تنشر ، وهي بناء على ذلك استبعدت من الاعتبار[٣١] .

وفي هذا السياق يجب أن يؤخذ في الاعتبار أنه قد كتب كتابه لسلطانه ، (العزيز عثمان) ليتخذ دليلاً لموظفي الدولة ، وفي الحقيقة ، إنه أعطى سببين لتأليف الكتاب : الأول أن الموظف المخلص لدولته يجب أن يسعى أثناء حياته لخدمة سلاطينه ، وأن لا يحجب منافع تجربته ومعرفته ، بل عليه أن يجعل هذه التجربة مفيدة للدولة بتسجيلها ، والثاني أن يسهل مهمة الكتاب ، أعني موظفي الحكومة بتوضيح التفاصيل الضرورية للواجبات الإدارية ونشرها ، وشرح قواعد هذه الإدارة خاصة في الأمور المتعلقة بالإقطاع ، والدخل ، والنظام الضريبي ، والانتاج الزراعي وهلم جرا .

وقد قسم ابن مماتي عمله إلى خمسة عشر قسماً ، كل منها يقسم إلى أقسام فرعية ، وهي تغطي أربع نواحٍ رئيسة : أولاً : وصف مفصل للمناطق والتضاريس في مصر (كالقرى ، الممتلكات ، والقنوات) ، ثانياً : دواوين الدولة وأنشطتها العديدة ، وواجبات بعض الموظفين المعينيين ، وثالثاً : مسح الأراضي الزراعية وتصنيفها حسب الخصوبة ، والري ، والانتاج ، والمواسم ، والبستنة وهلم جرا ،وتعامل أخيراً ولحسن الحظ مع السنة الزراعية كما هي مرتبة في التقويم القبطي ، مضيفاً المشكلات الهندسية والحسابية وطرق مسح الأراضي .

وطبقاً للمقريزي ، وكما شرح الأستاذ عزيز سوريال عطية كان الكتاب أصلاً في أربع مجلدات كبيرة فقدت جميعها والنسخة المحفوظة في المخطوطات المختلفة والتي نشرت أخيراً هي فقط ملخص للكتاب الكبير ، تتعامل مع عشرة من الفصول الخمس عشرة الأصلية .

وتكمن أهمية الكتاب ، كما ذكر من قبل ، أنه جاء نتيجة خبرة عائلية دامت مائة وأربعين عاماً في التعامل مع أمور إدارية ومالية صرف ، وفي حقيقة أن المؤلف كان عضواً في أسرة قبطية مصرية صرف ، فهذا قد زاد من قيمة العمل .

وفي الختام يجب أن تذكر النقاط التالية :

١ ـ لم تتلق الدراسات التاريخية تشجيعاً إيجابياً من هيئة التعليم في المدرسة ، حيث أن مناهجها واهتماماتها كانت مركزة على الدراسات القرآنية ودراسة الحديث وأيضاً إنه مع ذلك ازدهرت حركة التدوين التاريخي حيث أن علماء معينين وجدوا تسويغاً دينياً لاهتمامهم الشخصي بالتاريخ ، زد على هذا أن بعض العلماء القياديين قد شغلوا مناصب حكومية رسمية ، وهكذا أصبحوا منشغلين بشؤون سياسية وعسكرية ، وقد أسهم مثل هؤلاء الأشخاص كثيراً في كتابة التاريخ بطريقتين ، أولاً من خلال الوثائق التي جمعوها خلال فترة توليهم المناصب ، وثانياً بالمادة الوثائقية التي خلفوها في مؤلفاتهم التاريخية الفعلية .

٢ ـ أصبح التأريخ خلال هذا التشجيع نصف الرسمي ، وبسبب الظروف السائدة آنذاك مثمراً ونابضاً بالحياة . وقد لقيت كتابة الحوليات العامة ، والتواريخ المحلية ، والسير ، والتراجم الذاتية ، وتراجم الآخرين اهتماماً كبيراً خلال تلك

الفترة ، التي شهدت وجود موكب أصلي من المؤرخين غطاها بالكامل وقدم معلومات تاريخية مباشرة من خلال شهود عيان معاصرين بدءاً من ابن القلانسي وانتهاءً بابن واصل ، أما الجانب الإداري للتاريخ فلدينا هذا الكتاب الهام (لابن مماتي) الذي أمكن عدّه الأول من نوعه حول مصر المسلمة ، ومع أنه يتعامل مع مصر وحدها ، فإنه يمكن أن يساعد في تكوين فكرة مشابهة عن بلاد الشام طالما أن كلاً من مصر وبلاد الشام كانتا ولايتين أيوبيتين ، ولأن الكتاب قد وضع بعد وفاة صلاح الدين بوقت قصير .

٣ ـ لقد اعترف المؤرخون خلال هذه الفترة بقيمة الوثائق ، وهكذا استخدمها عدد منهم في دعم بعض الروايات بعينها ، وفي إعطاء مزيد من التفاصيل ، وفي التصحيح ، وحتى لتقديم معلومات جديدة .

٤ ـ واستخدم حتى الشعر من حين لآخر من قبل بعض المؤرخين كمادة وثائقية حيث أنه أعطى تواريخ وتفاصيل أحداث معينة ، ويمكن أن يعثر على أمثلة من هذا القبيل في الروضتين لأبي شامة .

٥ ـ حاول بعض المؤرخين خلال هذه الفترة أن يحرروا أنفسهم من طرائق الحديث (مثل ابن الأثير الذي تعمد التخلي عن طريقة الإسناد ، ومثل سبط ابن الجوزي الذي جمع بين روايات مختلفة للعماد ، وابن شداد في مدونات موجزة) .

٦ ـ حاول بعض المؤرخين بنجاح اتباع الفهم التصنيفي المنهجي بانتخاب المصادر التي لها قيمة محلية ومعاصرة عند الكتابة عن الأحداث التي لم يشهدوها بأنفسهم .

هوامش البحث

١ ـ كان خلال تلك الفترة من عدم الاستقرار أن نجح الصليبيون في إقامة إمارتهم اللاتينية وحاول طغتكين مؤسس حكم الأسرة البورية في دمشق (٤٩٧/١١٠٤ م) أيضاً توحيد المجموعات ، ومضى إلى حد التحالف مع الفاطميين في مصر ، في ٥٠١ و ٥٠٦ هجرية ، ضد الفرنجة من أجل ردعهم ومنعهم من كسب مواضع أخرى .

٢ ـ أسست أول مدرسة في دمشق بعد ٤٩٧ هـ/١١٠٢ م خلال أيام طغتكين وأقيمت الأولى في حلب في ٥١٧ هـ/١١٢٣ م ، وذكر ابن جبير (توفي في ٦١٤ هـ/١٢١٧) في كتابه (الرحلة) أنه رأى نحو عشرين مدرسة في دمشق ، وخمس في حلب ، ومؤخراً سمى ابن الشحنة ٥٤ مدرسة في حلب وحدها ، كلها أنشئت فيها بين ١١٢٢/٥١٦ و ١٢٦٦/٦٦٥ ، وقد زار ابن شداد مؤلف الأعلاق دمشق في ٦٣١ هـ/١٢٣٣ م ، وذكر أنه وجد هناك ٦٦٠ مسجداً و٩٣ مدرسة .

٣ ـ عندما كان جيش نور الدين في مصر على وشك الانشقاق بعد موت شيركوه ، كان القاضي عيسى الهكاري هو الذي ناضل للمحافظة عليه ، فوحده تحت قيادة صلاح الدين ، وبشكل مشابه ، كلما كان صلاح الدين يجد تمرداً في جيشه أو من أقاربه الذين في السلطة ، كان القاضي الفاضل بشكل عام يتولى استعادة الولاء ، وأخيراً عندما أخفق ملك مصر الكامل في الحصول على تأييد من أخيه الأشرف ، في الجزيرة ضد الصليبيين ، والمعظم في دمشق ، وهو أخ آخر للكامل كان أيضاً غير ناجح في المناسبة نفسها ، كان سبط ابن الجوزي هو الذي جاء بالأشرف على رأس جيش كبير إلى مصر للتعاون في الدفاع عنها ، والأمثلة على نفوذ العلماء خلال تلك الفترة عديدة .

٤ ـ كان نور الدين يشجع المدرسة الحنفية ، في حين أصبحت الشافعية مهيمنة في زمن الأيوبيين ، والمثل المهم لمقارنة الحنبلية هو عندما أنشأ زكي الدين بن رواحة (ت ٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م) مدرستين في دمشق وحلب كان أحد شروطه في الوقف أن لا يسمح لأي مسيحي أو يهودي أو حنبلي بدخول هاتين المدرستين .

٥ ـ ومما يستحق الذكر أن المقريزي قال في مطلع كتابه الخطط مبيناً أن موضوعه «من علم الأخبار ، وبها عرفت شرائع الله تعالى التي شرعها وحفظت سنن أنبيائه ورسله» .

٦ ـ على سبيل المثال بدأ ابن عساكر تاريخه لدمشق ، ونحاه فيها بعد جانباً ، وبعد بعض الوقت علم أن نور الدين كان يعتزم أن يرى الكتاب ، وهذا شجعه على أن يكمله ، وأخرج ابن الأثير نسخة الكامل المعروفة لدينا بعد تلقي الأوامر من بدر الدين لؤلؤ من الموصل .

٧ ـ بالرغم من ميله لأن يكون نوعاً من التأريخ الاقليمي ، فإن محتوياته كانت وراء مناطق محددة .

٨ ـ لقد حفزت هذه الصراعات أبا شامة على كتابة (الروضتين) مسجلاً الأعمال الجيدة لنور الدين ، وصلاح الدين ، من أجل أن يجد أمراء ذلك الزمان في هذين السلطانين عبرة نموذجية للحاكم الصالح .

٩ ـ محاضرات حول المؤرخين العرب (كلكتا ١٩٠٢) ص ٣ .

١٠ ـ أعطى ابن الأثير محاضرات عدة حول كتابه الكامل ، قبل نشره في صورته النهائية ، وأعطى أبو شامة أيضاً محاضرات حول «الروضتين» وذكر أن الشخصيات القيادية بين العلماء كانت موجودة .

١١ ـ هناك ٥٤ وثيقة في الفتح .

١٢ ـ ان برق العماد ليس مشمولاً بهذا التعميم لأن المتوفر لدينا هو جزءان فقط ، وقد فقدت الأجزاء الخمسة الأخرى (★ نشر هذان الجزءان في عمان مؤخراً ولدي مخطوطة منه فيها عدة أجزاء إضافية) .

١٣ ـ قوانين الدواوين تحقيق عزيز سوريال عطية (القاهرة ١٩٤٣) ص ٨٤ .

١٤ ـ هكذا كانت في معظم الحوليات التي تقدمت حوليات ابن الأثير .

١٥ ـ تاريخ مصر في ظل الإسلام (ستراسبورغ ١٩٠٢) ص ٢٤ ـ ٢٥) .

١٦ ـ عن الرسائل هناك مخطوطات في المتحف البريطاني ومكتبة جامعة كمبردج وليدن ، وفي قونية في مكتبة يوسف آغا .

١٧ ـ بدأ البنداري بهذا الموجز المعنون (زبدة النصرة) في ١٢٢٦/٦٢٣ للمعظم عيسى ، في دمشق . وكان عنوان الأصل (نصرة الفترة) .

١٨ ـ كان ابن شداد حافظاً ، وقد جمع الأحاديث التي تتعلق بالجهاد في كتاب خاص لصلاح الدين ، واعتاد أيضاً أن يحاضر على صلاح الدين في أرض المعارك في الحديث .

١٩ ـ على سبيل المثال قارن بيانات ابن شداد ، وأبي شامة ، وابن خلكان حول تاريخ حملة شيركوه الأولى في مصر .

٢٠ ـ تظهر دراسة السمعاني أن المؤلف لم ينقح عمله ، وأنه قد اعتاد أن يزيد عليه من وقت لآخر .

٢١ ـ يقول ابن الأثير أيضاً في الباهر إنه كانت لديه فكرة وضع تاريخ لمدينته الأصلية ، اعترافاً بالطيبة التي أبداها الأتابكة تجاه عائلته ونحوه ، وحفزه ارتقاء القاهر مسعود الأصغر في ٦٠٧ هـ/ ١٢١٠ م على كتابة هذا التاريخ حتى يطلع الأتابك الجديد على تاريخ نسبه ويحذو حذو المثل الذي قدمه له في الإدارة الطيبة والسياسة الراسخة .

٢٢ ـ لم يأخذ لؤلؤ لقب الملك الرحيم حتى ٦١٩ هـ/١٢٢٢ م ، عندما أعلن أتابكاً للموصل .

٢٣ ـ ولد في ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م .

٢٤ ـ عند تسجيل بعض الأوقاف الدينية التي أنشأها نور الدين ، يذكر ابن الأثير بيمارستان دمشق قائلاً : إن نور الدين لم يحدد استعمال هذا البيمارستان للفقراء ، بل أعطى الحق في الانتفاع منه للمسلمين ، الأغنياء والفقراء على السواء ، ويرفض أبو شامة هذه الرواية قائلاً : لقد قرأت الوثيقة المتعلقة بهذا الوقف ولم أجد إشارة لذلك ، ولكن هذا ما يقوله فقط عامة الناس . . . وهو (أعني نور الدين) سمح أن تعطى الأدوية النادرة لكل من يحتاج إليها غنياً كان أم فقيراً ، وهكذا فإن هذه النية يجب أن لا يساء تفسيرها .

٢٥ ـ نفي الأب مرّة من حلب في سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م في زمن نور الدين على أساس نشاطاته الشيعية .

٢٦ ـ يسمي حاجي خليفة ستة منها فقط : معادن الذهب ، وكنز الموحدين في سيرة صلاح الدين ، وعقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر ، وحوادث الزمان ، ومختصر تاريخ المغرب ، وتاريخ مصر .

٢٧ ـ عن ابن أبي طي أنظر كلود كاهن مؤرخ شيعي في دورية أكاديمية النصوص والآداب الجميلة (١٩٣٥) ص ٢٥٨ ـ ٢٦٩ .

٢٨ ـ باستثناء بعض المناسبات القليلة عندما كان يعلق على روايات مختلفة معتمداً في ذلك على وثيقة أو على روايات أخرى دقيقة .

٢٩ ـ استخدم أبو شامة ابن الأثير وابن القلانسي من أجل هذه الروايات ، في حين اقتنع ابن واصل بروايات ابن الأثير كما جاءت في الروضتين .

٣٠ ـ وقد اعتنق الإسلام كذريعة ، حيث أن بعض الحاسدين من زملائه سعوا إلى التأثير على شيركوه ضده ، ويقال أيضاً إن وزير مصر في حينه كان صلاح الدين لأن شيركوه كان قد مات .

٣١ ـ قوانين الدواوين ص ٨٤ .

٧ـ أعمال التأريخ العربية للحروب الصليبية.

فرانسيسكو غابريللي

استاذ اللغة العربية وآدابها في جامعة روما

إن مفهوم الحملات الصليبية كظاهرة تاريخية في حد ذاتها مع سماتها الخاصة ، التي قد تعالج منفصلة ، سواء في بحث مفرد أو ضمن الإطار العام لفترات التاريخ ، غريب على حركة التأريخ الإسلامية .

فالأحداث التي وقعت في سورية ومصر ، والجزيرة ، بين نهاية القرن الحادي عشر ونهاية الثالث عشر ، مع حقيقة الغزو الفرنجي والمقاومة الإسلامية ، لم تكن أبداً هدفاً لبحث خاص وشامل في الوقت نفسه من جانب الدوريات والمؤرخين المسلمين ، إلا في أمثلة قليلة ، (كما في الفتح القسي لعماد الدين) حيث لم يجر الاهتمام بكتلة الأحداث نفسها بل تركز على شخصية بطل الإسلام التي أراد المؤلف أن يروي أخبارها ، وكانت الحروب ضد الصليبيين بشكل عام بالنسبة للمؤرخين المسلمين عنصراً واحداً من بين عناصر أخرى عديدة ، وخيطاً في نسيج تاريخهم ، مع أن هذا الخيط بالطبع كانت له في أزمان معينة أهمية خاصة جداً وتطور ولم يصل المسلمون مطلقاً إلى النقطة التي يمكن للمرء أن يقول فيها إن الهجوم المسيحي من الغرب كان شيئاً مختلفاً بشكل جوهري عن الحروب الأخرى ضد الكفار ، سواء كانوا الفرنجة أو البيزنطيين : وفي بلاد الشام نفسها في مجرى القرن العاشر وما قبله ، وفي الأندلس خلال حرب الاستغلاب الاسبانية ، وفي صقلية ضد النورمان ، وحتى الفقرة الشهيرة التي كتبها ابن الأثير ، حين قارن

الحملة الصليبية الأولى بالهجمة المسيحية العدوانية في الأندلس وصقلية ، مع أنها تبين اتساع أفق رؤية هذا المؤرخ الجزري ، يثبت لنا أنه لم يدرك ما الذي ميز الحروب الصليبية عن الحروب الأخرى بين المسيحيين والمسلمين في العصور الوسطى ، ولم يميز الخصائص الخاصة للاستيطان اللاتيني في المشرق .

وسبب هذا الخطأ من جانب الإسلام ، في تقويم ظاهرة تاريخية كان أولاً ضحيتها ، ثم عدوها المرير ، وأخيراً المنتصر عليها ، يمكن أن توجد في رأينا في اللامبالاة ، التي سببها شعور التفوق والازدراء اللذان أظهرهما المسلمون دائماً ـ إلا في مناسبات قليلة ـ للعالم الغربي ، وتاريخه ، وثقافته ، خلال العصور الوسطى ، وذلك في تضاد مع الاهتمام العميق الذي أبدوه بالحضارات القديمة والمدنيات الشرقية[1] ، ويبرز هذا التضامن في المواقف جيداً فيما إذا قورن التأريخ العربي للحملات الصليبية بالتأريخ الإسلامي بشكل عام (وفي هذا المثال خاصة الفارسي) للمغول ، الذي بمجيئهم من الطرف الآخر من العالم غمروا دار الإسلام في القرن نفسه فبينما ، فيما يتعلق بالمغول ، (الذين أكد ابن الأثير نفسه لدى الحديث عن غزوتهم الأولى ، في فقرته المشهورة ، أكد بوضوح الطبيعة الاستثنائية المروعة لها) . حاول المؤرخون المسلمون بسرعة أن يحصلوا على معرفة وشرح للأصول ، والعادات ، والتقاليد ، والمؤسسات مهما كانت بعيدة عن مدنيتهم الخاصة ، لا يوجد شيء بالمقارنة بالنسبة للفرنجة الذين أقاموا قرنين على التراب الإسلامي ، ولا يمكننا بالكاد أن نجمع أي تفاصيل عنهم حتى من كاتب فهم وفضولي مثل أسامة الذي تكلم عنهم (كأشياء ترى) دون تعليق أي أهمية عليهم أو بذل أي مجهود في البحث التصنيفي المنهجي عنهم ، وبالنسبة للبقية ففي الوقت الذي لا ننسى فيه حجم المحن ، والتضحيات ، والدم المطلوب من الإسلام في نضاله ضد الصليبيين إنه لمغرٍ أن يقارن الموقف الإسلامي نحوهم بموقف جمل الصحراء تجاه قراءة تعلقت بجانبه ـ وكانت تصعد وتنزلق ـ كما يقول الشاعر ـ على طول السطح الناعم لتسقط أخيراً بعد ما سببت كثيراً من المضايقة لمضيفها المكره وذلك دون تنازل منه لإظهار أي اهتمام يزيد على هزة من ذيله . وعلى هذا لا يمكن بالطبع العثور على تاريخ للحروب الصليبية حتى من وجهة النظر المعاكسة ، أي لدى المؤرخين المسلمين (وأغلبهم من العرب) لهذه الفترة ، لكن هناك ـ فقط ـ

أجزاء من هذا التاريخ متطورة بعض الشيء ومتابعة ، أدخلت في كتابات أخرى أو جرت مواءمتها وتكييفها كأن نقول في مشاريع أخرى من أنماط الكتابات التاريخية الأصلية للثقافة الإسلامية في العصور الوسطى ، التي كانت مكتفية ذاتياً بنفسها ، وتزدري المغامرة في ما وراء ذلك(★)، وكانت بالطبع مهمة ، الحوليات إعلامنا ـ بين مختلف الأحداث التي كانت تحصيها في مدينة ما، أو قطاع من العالم الإسلامي ـ بالحوادث ، حول مجيء الفرنج إلى هناك ، والتاريخ حيناً ذو وتيرة واحدة ورتابة ، ودرامي حيناً آخر نتيجة للأحداث التي تلت أعمال الحصار ، والمعارك ، والسلب ، والقتل ، والهدن ، والالتزام بها قليلاً أو كثيراً وأعمال الفداء والرهائن ، ولكن من كان أولئك الفرنجة ، وما الذي دفعهم ، ومن أين جاؤوا ، وكيف يختلفون عن البيزنطيين الذي كانوا الغزاة الوحيدين الذين عرفتهم بلاد الشام حتى ذلك الحين؟ بشكل عام إن هناك صمتاً كاملاً تقريباً حول هذه النقطة : لقد حل الفرنجة كما تحل المجاعة ، والهزات الأرضية أو الوباء ، وجرى تقبلها كبلاء من الرب وعقاب ، وحاول الشاميون بذل غاية جهدهم في معالجة هذه النوازل بالسلاح والدهاء ، ولنختر مثالاً عن بداية تاريخ الحروب الصليبية لدى أقدم المؤرخين المسلمين ممن يتعامل معها ، أعني المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي أو غيره من مؤرخي القرن الثاني عشر الذين كانوا حتى أكثر إيجازاً . لقد بقي على هذا دخول الفرنجة إلى مشهد الأحداث لدى هؤلاء خارج الموضوع ، حتى لو كان إطار الحوليات والإقليمية موسعاً إلى التواريخ الكبيرة الشاملة التي فيها القرنان الثالث عشر والرابع عشر ، غنياً جداً ، لقد ظلت مسألة الحرب مع الفرنجة ، موضوعاً غارقاً في خضم الأحداث التي يحصيها المؤلف على المسارح المختلفة للتاريخ ضمن إطار الترتيب الحولي، ولقد سلف أن لاحظنا كاستثناء مشرف الصورة التي رسمها ابن الأثير في مطلع الحملة الصليبية الأولى ، هذا وتمت معالجة الموضوع بصورة أوفى مباشرة في تواريخ الأسر الحاكمة والتراجم حيث عرضت أخبارالأسر الأميرية، والأفراد الذين أوقفواحياتهم على الجهاد ضدالكفار

★ ـ هناك استثناء لهذه الفرضية تجلت في كتاب «الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين» ، لعلي بن أحمد الحريري وقد نشرته في دمشق عام ١٩٨١ .

الغزاة ، ومثلما قلنا من قبل ، كانت أعمال صلاح الدين ، كما كتبها عماد الدين ، وابن شداد ، أو كتاب الروضتين لأبي شامة ، أو أحداث عصر المماليك ، كما جاءت في تواريخ ابن واصل وابن عبد الظاهر لم يفكر أحد من هؤلاء المؤرخين في النظر بدقة في العلاقات مع الفرنجة من أجل الخطوط التوجيهية لعرضه ، وتفسيره ، حتى نستطيع أن نعيد بناء تاريخ إسلامي للحروب الصليبية من نتف المواد الموجودة ، ومما لا شك فيه أن المواد المتعلقة بالأدب التاريخي بالعربية جليلة في كميتها وأحياناً رائعة في نوعيتها ، وكتاب روزنتال العلمي حول علم التأريخ عند المسلمين ، الذي يعالج فوق كل شيء رموزه الأدبية مخيب حقاً ، وما تزال الصورة التي رسمها كلود كاهن بعد جهد كبير منذ عشرين سنة مضت ، حول الحروب الصليبية من الجانب العربي هي الأفضل ، وجاء ذلك في كتابه العظيم عن شمالي سورية وإمارة انطاكية[٢] ، ويبدو لنا أن الحرب والأزمنة المضطربة التي تلت نشر الكتاب لم تغير بدرجة كبيرة الحكم ، اللهم إلا بقدر ما يعينه إيجاد نصوص جديدة أو نشر ما لم ينشر منها ، وتكفي الإشارة هنا إلى النشر الجاري «لمفرج الكروب» لابن واصل[٣] وهو أحد أكثر أمنيات كاهن إلحاحاً و «زبدة الحلب» لابن العديم[٤] ، والطبعة المصرية «للنجوم» لابن تغري بردي التي تضم فترة أخذ عكا من قبل الأشرف مما هو غير موجود في طبعات جنبول ماتس Juynboll – Mathes وبوبر Popper[٥] ، وعلى افتراض أن طبعات ابن واصل ، وابن العديم لن تتوقف ما دامت قد بدأت ، أعتقد أن المؤلف غير المنشور في حاجة أكثر إلحاحاً للنشر هو كتاب ابن عبد الظاهر المصري عن «حياة قلاوون» ، الذي قال كاهن إنه الكتاب المجهول المؤلف ، الحامل لعنوان «تشريف الأيام والعصور»[*]،وكتابه عن الأشرف الذي نشر قطعة منه موبرغ[٦] وصحيح أن مواد كثيرة من كتاب ابن عبد الظاهر متوفرة في الحوليات المتأخرة لمؤرخين مثل المقريزي ، وابن الفرات ، وابن تغري بردي ، ولكن طبعته للنص الأصلي ليست أقل جاذبية من طبعة «البرق الشامي» لعماد الدين (جزء منه محفوظ في اكسفورد ، وقد لفت جب الإنتباه إليه) ، مع أن

★ ـ نشر كتاب ابن عبد الظاهر عن بيبرس في بيروت ١٩٧٦ ، وكتابه عن قلاوون في القاهرة ١٩٦١ .

هذا المصدر قد استعمل من قبل كل من ابن الأثير ، وأبي شامة ، وواضح أنه سيكون مرغوباً فيه أيضاً أن يكون لدينا طبعات جيدة جديدة لمؤلفين عديدين معروفين حتى الآن في طبعات عتيقة الطراز بدءاً من ابن الأثير نفسه الذي باتت طبعة تورنبرغ بعيدة عن أن تكون مرضية ، لكن لا يمكن إغفال وجودها ، ومع قليل من الاستثناءات ، إنه أكثر النصوص أهمية مما هو متوفر الآن للمستشرقين المهتمين بالتاريخ وبإلقاء الضوء من الجانب الآخر على أخبار الحروب الصليبية ، ويجب على المؤرخين الآن أن يقيموا بحوثهم على أعمال المحققين المتضلعين باللغة ، عند التعامل مع النسخ الشرقية ، عن الحروب الصليبية ، ليس من قبيل الفضول ، بل وسيلة لتحليل المصادر الغربية واستخدامها بشكل حاسم لتقديم الصورة الأكثر اكتمالاً بقدر الإمكان للأحداث ، والإسهام في إلقاء الضوء على المشكلات التي ما تزال قابلة للنقاش .

ولم يتوان غروسيه ورنسيمان ، وهما صاحبا آخري كتابين عامّين عن تاريخ الحروب الصليبية ، عن استخدام المصادر الشرقية بقدر ما استطاعا ، عندما توفرت ترجمات لها ، خاصة ما حوته مجموعة راشيل من نصوص عن تواريخ الحروب الصليبية ، ولا يوجد هنا مجال لمناقشة مزايا ومعايب هذين العملين الكبيرين اللذين عانى كلاهما على أي حال من هذا الاحتكاك غير المباشر مع الكتابات التاريخية الإسلامية ، ومن العيوب المعروفة للوسيط (مجموعة راشيل هي بقدر كبير عمل باربير دي مينارد Barbier de Meynard)[٧] الذي من خلاله أمكنهم الوصول إلى هذه الكتابات التاريخية ، ولم تكن الوظيفة السياسية لغروسيه ولا موالاة رنسيمان للبيزنطيين بأفضل الوسائل للحصول على أكبر كسب ممكن من استخدام المصادر الإسلامية ، التي يبدو أنهما قد تعاملا معها على أنها أداة خفية صرف للتحقيق ، دون الوصول إلى تبصر أعمق في نفوس مؤلفيها ، وفي الرؤية الإسلامية وتفسيرها للأحداث . والتفهم الفني إضافة إلى الإحساس بهذه المصادر الشرقية ، يمكن فقط للمؤرخين الذين هم أيضاً مستشرقون ، يمكنهم أن يقرؤوا أصل النصوص وليس فقط مراجعة الحقائق ، بل أيضاً إعادة التقويم والحكم على الأفكار والمشاعر التي ولدت هذه الحقائق أو لونتها ، والتي تتطور ـ بكلمة واحدة ـ

بالاستماع إلى المسلمين ، وإلى الروح المسلمة التي أضيفت شهادتها إلى ملف الأدلة التي جمعها وعي مؤرخهم الحديث .

إن الإسهام المباشر للمستشرقين في الدراسات التاريخية الحديثة للحروب الصليبية هو أحد مزايا المشروع الأخير العظيم في هذا الحقل ، وأعني به تاريخ فيلادلفيا للحروب الصليبية ، الذي أوقف على قدميه من قبل المرحوم لامونت Lamonte ، وقام بتحريره الآن ستون[٨] Setton ، والمجلد الأول منه (الوحيد الذي ظهر حتى الآن)[*]، هو الذي يؤخذ في الاعتبار ، وكان بين المساهمين فيه اختصاصيون مثل هـ . أ . ر . جب ، ومع عدم الرضى عن تقسيم مادة الموضوع بين عدة مؤلفين ، إنه يعطينا أخيراً تحليلاً مباشراً للتاريخ الشرقي مجموعاً من الخبرة المباشرة المطلوبة لعدد من العلماء مثل جب وتلميذه وزميله الإنكليزي برنارد لويس ، وكذلك كاهن في فرنسا ، فلهؤلاء يعود فضل الدراسات المتخصصة والشاملة جداً في المصادر العربية للحروب الصليبية مع مصادر أحداث كثيرة في هذا التاريخ في العقود الماضية ، وذلك من خلال بحث جب «ملاحظات حول المواد العربية لتاريخ الحروب الصليبية المبكرة» ، الذي أوحى به الجزء الأول من كتاب غروسيه ، ثم تحليله الأكثر حداثة للمصادر العربية حول حياة صلاح الدين ، وبشكل خاص حول كتاب «عماد الدين» وصولاً إلى بحوث «لويس» حول مصادر تاريخ «الحشيشية» في بلاد الشام[٩] .

آخذين هذه الدراسات في الحسبان سوف نتفحص بسرعة كبيرة جداً بعض الشخصيات الأكثر بروزاً في حركة التأريخ العربية للحروب الصليبية ، في محاولة لتحديد صفاتها الظاهرة كما تبدو لنا ، في الأدب النقدي المتعلق ، وبالفحص المباشر لكتبهم لمحاولة إجراء تقويم عام في النهاية لقيمة هذه الحركة وحدودها التاريخية ، التي يمكن أن نذكر هنا الممثلين الأكثر أهمية فقط .

★ ـ ظهر حتى الآن منه ثلاثة مجلدات .

يعد ابن القلانسي الذي لم يكن معروفاً في القرن التاسع عشر حتى الآن المصدر العربي الأقدم لتاريخ الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية والتوغل الفرنجي في بلاد الشام[١٠] وقد مدّ هذا الدمشقي الرفيع المنزلة ، الذي لم يعط لحوليته اسماً غير (ذيل) ، اهتماماته إلى ما وراء مدينته ، واحتضن الأحداث التي تمس الشام الأعلى والجزيرة والأراضي المجاورة حتى بغداد من جانب ، ومصر من الجانب الآخر . وتشكل الحروب الصليبية ، كما قلنا ، عنصراً من عناصر الأخبار فقط ، مع أنه عنصر له الأهمية الأولى ، وإن حركة المقاومة الإسلامية التي يتعامل معها هي المتعلقة بأتابك دمشق ، طغتكين وبأسرته البورية التي التصق بالحكام الضعفاء منها وبقي مخلصاً ، وجعله ولاؤه لمدينته ينظر بعدم رضى وبعين رافضة لسلوك زنكي والزنكيين ، الذين رآهم في النهاية يهيمنون على دمشق ، والنقطة البارزة في عدم رضاه هي أن تحالف ١١٤٠ بين الدمشقيين والفرنجة ضد زنكي قد روي بوضوح من قبل ابن القلانسي والسمة الملفتة للنظر في تاريخه هي عدم استقرار الأسلوب ، وهو عادة بسيط وغير معقد ، ولكنه يرقى إلى الإيقاع السجعي الموزون عندما يتطلب نبل مادة الموضوع ذلك ، ومما يسعدنا ، أن الحال لم يكن كذلك بالنسبة لأحداث دمشق نفسها التي كان ابن القلانسي شاهد عيان فيها ، وتبقى روايته حول حصار دمشق عام ١١٤٨ من قبل الحملة الصليبية الثانية وثيقة أصيلة ثمينة لهذا الحدث لم تفسدها المحسنات البديعية ، وخلاصة القول : إن ابن القلانسي ، هو المصدر العربي الأوفر معرفة وقابلية للاعتماد عليه من أجل كامل الفترة الأقدم من تاريخ الحروب الصليبية[*] .

وقبل نشر هذا النص كان المصدر الرئيس لهذه الفترة وكذلك لعصر «صلاح الدين» التالي ، وبشكل عام للتاريخ الشرقي حتى نحو ١٢٣٠ ، هو كتاب (الكامل) لابن الأثير الذي لاقى تقديراً كبيراً ، وكانت لديه ميزة معرفية من قبل المستشرقين الأوروبيين منذ زمان مبكر في الطبعة المتوسطة الجودة لتورنبرغ (ليدن ١٨٥٣ ـ ١٨٦٤) . ولا محل للسؤال هنا عن التقويم العام لهذا العمل العظيم بين الكتابات التاريخية ، ولكن بالنسبة لما يهم الفترة المتوسطة من تاريخ الحروب الصليبية ، إن قيمة ابن الأثير قد خفت بشكل كبير بدراسات جب ، لصالح ابن القلانسي وذلك بالنسبة للنصف الأول من القرن الثاني عشر ، وصالح عماد الدين

★ ـ أعدت تحقيق الكتاب وضبطه ، دمشق ١٩٨٣ .

بالنسبة للنصف الثاني ، وكان المؤرخ الجزري بكل وضوح ، مشايعاً متحمساً لأسرة زنكي أتابكة الموصل ، الذي كان الدمشقي ابن القلانسي معادياً لها ، وينعكس هذا الانحياز باستمرار ابن الأثير في عدائه لصلاح الدين حتى أن كل الانجازات الرائعة لهذا البطل الإسلامي العظيم لم تتمكن من التغلب على هذا العداء . ولكن إلى جانب هذا ، الذي يجعل من ابن الأثير محامي الادعاء في كل ما يخص الأيوبي العظيم (غالباً ضد ولكن أحياناً لصالح الحقيقة التاريخية) إن تحليل جب قد أظهر الاستعمال غير المخلص أحياناً لمصادره ، وعدم تطبيق الخبرة نفسها التي اعتادها في أماكن أخرى ، كما أظهر أنه أخطأ في الترتيب الزمني للأحداث ، وتصرف بالنصوص الأمر الذي أوصله إلى استنتاج أن الحذر الكبير يجب أن يظهر في استخدام «ابن الأثير» كمصدر لتاريخ الحروب الصليبية ، وأن المؤلفين الذين تقدم ذكرهم وغيرهم أيضاً ، يفضلون عليه بدرجة كبيرة ، ومن جانبنا بينما نؤيد حكم المؤرخ الإنكليزي البارز للإسلام على كل المسائل المفصلة يجب أن نلاحظ مباشرة أن العيوب نفسها التي تجعل من «ابن الأثير» مؤرخاً سيئاً للأحداث ، تؤكد قيمته وطبيعته كمؤرخ لم يقصر نفسه على سرد أخبار الحوادث بل طمح لشرحها ، فبحث عن الأسباب المباشرة والبعيدة (مع أنه أمر قابل لخداع النفس في هذا البحث) ووضع في تاريخه ـ رغم تحيزه ـ أحكامه ، التي ، مع أنها قابلة للنقاش ، ليست مما لا يؤخذ في الاعتبار في الأدب التاريخي الذي كثيراً ما تشوه بنقص كامل من الروح النقدية ، فوحده بين أسلافه ومعاصريه ، حاول ابن الأثير أن يدمج ظاهرة الحروب الصليبية بالصراع الكبير بين المسيحية والإسلام (ليس مهماً أن بعض الخصائص المحددة لأعمال اللاتين وراء البحار قد نجت من ملاحظته) فقد عرف كيف يدخلها في مكانها في تاريخه الشامل ، الذي أثبت فيه مرة أخرى شعوره بالتناسق ، وقدرته على التركيب (برغم إعاقته بمعالجته التحليلية ، لكنه عرف على الأقل في مناسبة واحدة كيف يبتعد عنه في روايته عن الحملة الصليبية الخامسة) وأخيراً وليس آخراً ، براعته ، وذوقه الجميل ، وتفوقه ككاتب . وبعد بحوث جب لم يعد كامل ابن الأثير يعدّ مصدراً رئيساً من أجل التاريخ المبكر للحروب الصليبية ، ولا حتى لعصر «صلاح الدين» ، نظراً لانجرافه أو تعارضه أمام مصادر أخرى مثل «بهاء الدين» ، و «عماد الدين» ومع

ذلك سيبقى ابن الأثير مؤرخاً حقيقياً ، وربما المؤرخ الحقيقي الوحيد للإسلام في العصور الوسطى المبكرة ، ولا يوجد بين من ينظر إلى الشخصيات الكبرى من مؤرخي الحروب الصليبية من يمكن أن يتجاهله .

ولا حاجة للتأكيد هنا على قيمة ابن شداد ككاتب واع وأمين لسيرة ، صلاح الدين ، ومؤرخ لمآثره من ١١٨٨ ، طالما أن ناقداً بشدة جب قد سلف له الاعتراف بها، وإذا كان لنا أن نبدي ملاحظة أدبية واحدة هنا نيابية عنه فهي أن نقول : إن (نوادره السلطانية) إلى جانب أهميتها للحوادث المروية ، تتحفنا بعينة من السير الملكية (سيادة مثالية لا تنكر ، لكن الأصل ساعده لتقديم النموذج) ، تقوم على دراسة للشخصية وليس على مجموعة القصص فقط ، وليس لها نظير في الأدب التاريخي للإسلام القديم[١١] ، وينقص شيء من العظمة البشرية بالتأكيد في سيرة «بهاء الدين» ، وتبقى صورته عن صلاح الدين غير براقة بعض الشيء بالنسبة لتذوقنا بسبب الجزء المخصص للورع الديني ، ولكن ليس للمرء أن يسأل قاض مسلم من القرن الثاني عشر أن يكون ليتون استراشي[*] Lytton Strachey ، وإجمالاً إن الصورة التي يعطيها عن صلاح الدين وهي مشربة بمثل دينية عليا ، متوافقة بالضبط مع حكم أكثر المؤرخين حداثة ، وهو جب نفسه الذي سلف ذكره .

وفي الوقت الذي خفض فيه العالم الإنكليزي من مكانة (ابن الأثير) أعاد الاعتبار لمكانة مصدر آخر كان مهملاً عملياً حتى الآن ، وهي مكانة الكاتب عماد الدين الأصفهاني . الذي يتكون نتاجه التاريخي من الفتح[١٢] و (البرق) غير المنشور ، الذي نفر منه الغرب (وأحياناً المشارقة أنفسهم كالمثال الذي ذكره أبو شامة) لغلبة الصنعة على أسلوبه إلى حد لا يمكن تحمله ، وقد بين جب أنه تحت هذا الغطاء البلاغي المزركش يختفي مصدر أصلي رائع ، شاهد أمين ، ذكي ومطلع على نجاحات صلاح الدين وسلبياته ، متحرر من التحيز وكذلك من المداهنة ، وإنه إلى مثل هذا الحد حكم جب على نتاج عماد الدين حيث عدّه أفضل

★ ـ مؤرخ تراجم انكليزي (١٨٨٠ ـ ١٩٣٢) .

مصدر لسيرة السلطان الأيوبي ، وهذا يجعل مهمة استغلال كتاب الفتح بكامله ما تزال إلى حد كبير بانتظار التنفيذ ، وهوكتاب لم يوجد بعد إنسان ملك الجرأة الكافية لترجمته وتحليله إلا جزئياً[١٣] ، وأبرز جب في دراسة له عن القسم المتبقي من البرق أهميته بالنسبة للفترة التي جاءت قبل سنة ١١٨٧ ، سنة انتصار صلاح الدين ، ومع ذلك فإن الغموض والإغراق في الصنعة في أسلوبه يجعل استخدام هذا المصدر صعباً ويمكن للحقائق التاريخية التي يضمها الفتح (الكتاب الوحيد من نتاج الكاتب الذي أنا على معرفة به) أن تكون في خمس هذا الكتاب إذ نبذ هذا الخليط من الكلمات والتلاعب بالألفاظ ، وهذا بالضبط ما استهدفه أبو شامة لدى تصنيفه لكتاب الروضتين[١٤] مازجاً خلاصات من عماد الدين ، مجردة من حشو الكلام ، مع تلك العائدة لبهاء الدين ، وابن الأثير ، وابن أبي طي المؤرخ الشيعي المفقود لصلاح الدين ، وإن هذا لا يمكننا من فرزها ومقارنتها بالأصول عندما نحصل عليها لأن كثيراً من التفاصيل الهامة قد فقدت في عملية التجميع .

إن صلاح الدين وزمانه قد شهدا حتى الآن أقصى الاهتمام ، مع البحث العلمي في حقل تاريخ الحملات الصليبية ، ومنذ بداية القرن الثالث عشر ، ينقصنا تحليل المصادر والدراسات المفصلة التي يمكننا استخدامها للفترة السالفة ، وهكذا علينا أن نتدبر الأمر بإعادة التشكيل الحديث الذي يقوم على مبادىء انتقائية بدلاً من أن تكون انتقادية ، ولم يكن أي من المؤرخين العرب في القرن الثالث عشر مثل «سبط ابن الجوزي أو ابن واصل» موضوعاً لدراسات أو تقويم تصنيفي ، مع أنه بات من الثابت أن هذين المؤلفين هما مصدران على درجة عالية من الأهمية بالنسبة للأيوبيين والمماليك (مضيفاً إلى الأخير ابن عبد الظاهر) ، لقد ترك لنا سبط ابن الجوزي ، وابن واصل حتى الآن أكثر التفاصيل أهمية حول العلاقات بين الأيوبيين والهوهنستوفن Hohenstaufen ، حول الحملة الصليبية الدبلوماسية لفريدريك الثاني ، والتخلي له عن القدس من قبل الكامل ، وهذا من أهم الأحداث المفردة عولج بشكل سيء وما يزال ينتظر إعادة الفحص بين حوادث تلك الفترة[١٥] ثم يعلمنا ابن واصل (المعروف حتى الآن من خلال مؤلفات تالية استخدمته) بأخبار الحملة الصليبية الخامسة ـ التي تنهي روايتها العمل الكبير لابن الأثير ـ في بعض المذكرات الشخصية الثمينة بعلاقات المماليك الأوائل في مصر

بآخر الأمراء السوابيين في جنوب ايطاليا[16] . ولكن كما لاحظنا إن هذا المصدر ، قد جرى بالكاد الإفادة منه ، ثم أخيراً هناك ابن عبد الظاهر ، مؤرخ المماليك العظام الأوائل ، الذي لم تنتشر كتبه بعد ، علماً بأنها اعتمدت من قبل مؤرخي القرن الخامس عشر (ابن الفرات والمقريزي : نقل الأول منهما بعض الروايات عن ابن أبي طي ، وأكثر الثاني في نقوله عن ابن واصل) فهي تُعدّ فوق كل شيء مصدراً ثميناً من أجل نص الوثائق الدبلوماسية والمحفوظات القضائية (الرسائل والمعاهدات) ، التي نقلها إلينا ، وما تزال آخر محن الولايات اللاتينية فيما وراء البحار حتى الآن لم تدرس بشكل شامل بمساعدة هذه المصادر الإسلامية ، اللهم إلا باستثناء دراسة كاهن عن إمارة انطاكية ، وحتى المشهد الدموي الأخير من هذه الدراما ، وأعني به سقوط عكا ، التي اجتاحها السلطان الأشرف خليل سنة ١٢٩١/٦٩٠ بهجوم صاعق (كان أبو الفداء شاهد عيان له ، وعرض عنه أبو المحاسن مصدراً قديماً) ، لم يثر بعد ، حسب معرفتي ، دراسة مقارنة بين المصادر الغربية والشرقية التي تضعه مع المسائل المتعلقة بالترتيب الزمني للأحداث التي يثيرها[*] .

إن القدر الصحيح الذي يدين به هؤلاء المؤرخين المصريين المتأخرين لأسلافهم حول أحداث القرن الثالث عشر وتقويم دور كل منهم من أجل معرفتنا بالفترة النهائية من تاريخ الحروب الصليبية هو إحدى المهام الأكثر الحاحاً بين ما يتطلبه البحث التاريخي الغربي من المستعربين ، ومع أن الكتابات التاريخية الإسلامية هذه عن الحروب الصليبية عرضية فقط فمن الممكن محاولة ترسيخ قيمتها وحدودها فيما يتعلق بالفترة والموضوع الذي نناقشه ، وإنها لحقيقة أساسية وأمر لا جدل حوله أنها تزدونا بالرؤية الشرقية ـ للجانب الآخر من هضبة الاحداث التي نعرفها بشكل عام من مصادر لاتينية ورومانسية ـ مع التقويم المعاكس الذي يستتبعه ذلك ، ومن الجدير بالملاحظة أن هذا التعاكس يقوم أكثر ما يقوم على فهم الحقائق بدلاً من الحقائق نفسها . وأن التحريف المبرمج للحقائق التي

★ ـ درست موضوع تصفية الوجود الصليبي في فلسطين في كتاب أعددته عن فلسطين في العصر المملوكي ، نشرته الموسوعة الفلسطينية .

عرفناها ، لسوء الحظ في الحروب الدينية لزماننا لم تمارس من قبل المؤرخين القدامى ، ومعيار مستوى الصدق لهذه المصادر الشرقية ، هو في رأينا ، مرتفع تماماً ، آخذين بعين الاعتبار الحماس الديني والعصبية ، وروح المديح والتأييد التي استوحاها بعض المؤلفين ، وقد رأينا من قبل أن أعظم بطل للإسلام أعني (صلاح الدين) كان له أعداء مستترون قليلاً أو كثيراً ، بين مؤرخي عصره ، وفي دائرته الخاصة ، كان كتاب التراجم يحبونه بإعجاب . ولكنهم كانوا خلوا من الإطراء بعبودية ، وهذا وإن لم يشكل القاعدة ، كان حقيقة في الكتابات التاريخية للبلاط الإسلامي ، وهكذا لم يخف مؤرخو أحداث الفترة الأولى من تاريخ الحروب الصليبية ، من جانبهم ، لا عن أنفسهم ، ولم يتستروا على أخبار الضعف الإسلامي والخلافات التي سمحت للفرنجة بدخول بلاد الشام (حتى إن هناك تعليقاً مخلصاً لابن العديم على الموقف المحطم للقلب للأمراء المحليين الذين رحبوا بنجاح الفرنجة بسبب تنافسهم ومصالحهم الخاصة) ولم يتردد صلاح الدين نفسه (أو القاضي الفاضل باسمه) في إحدى دعواته إلى حمل السلاح في تأكيد التماسك وروح التضحية ، وما يجب أن نسميه مثالية العدو ، ويبدو أن هذه الموضوعية ، ورحابة الصدر قد اختفيا لدى مؤرخي الحقبة المتأخرة ممن كتب في ظل المماليك غير المتحضرين والمستبدين ، ولكن بحلول هذا الوقت كان الميزان قد رجح بالفعل لصالح المسلمين ، وتواءمت محتويات رسائل النصر السلطانية مع الحقيقة تماماً ، والأهم من تدني القيمة ، وما لا يمكن نكرانه ، إنما نادراً ماانتهى بعقيدة فاسدة ، هو حدود اهتمامات حركة التأريخ الشرقية هذه في أيام الحروب الصليبية ، وهي حقيقة تبدو لنا عامة بالنسبة لحركة التأريخ الإسلامية (ربما ليست الإسلامية فقط) للعصور الوسطى ، فقد انحصر الاهتمام حصراً بالتأريخ الواقعي ، وتاريخ الأسر الحاكمة مع عناية قليلة بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية ، وكان هناك سرعة في تناول النواحي الخارجية للظاهرة بدلاً من القاء الضوء على أصلها وتطورها ، ومن ثم جاء الميل المشهور لهؤلاء المؤلفين إلى التفاصيل والحكايات التي كثيراً ما كانت تزين صفحاتهم إلى حد الاضرار بالقيمة التاريخية الحقيقية ، وبالمقابل غياب ما اهتموا به لأنفسهم ، لكن تجاهلوه بالنسبة لعدوهم ، فأغفلوا ما كان لديه من معاهد ومؤسسات وعادات ، وقانون

واقتصاد ، ونادراً ما يجد المرء ، مبعثراً هنا وهناك وبالمصادفة ، لدى المؤلفين المسلمين ، تلميحات ، إلى البنى التشريعية والاجتماعية وإلى الحياة الدينية والثقافية للكفار ، إلا لدى الاستشهاد بمثال خضعوا فيه للمدنية المتفوقة للمسلمين بتعلمهم للغتهم والانشغال بثقافتهم ، ويضاف هذا كله إلى شعور التفوق ، وازدراء الغريب الذي سلف وأشرنا إليه ، بين المسلمين ، والذي ، بعد الاحتكاك العاصف بالصليبيين ، أمكن فقط أن يتصلب ويتطور حتى الأزمنة الحديثة ، وإن مثال وليم الصوري(*)، الذي تعلم العربية ، وكتب من مصادر عربية تاريخه المفقود عن الشرق ، يبقى بلا نظير من الجانب الآخر ، لقد انطوى الإسلام على نفسه ، وحصد جميع النتائج الثقيلة من ذلك ، ولكن القسم الغني والهام من كتاباته التاريخية التي أوقفها على أحداث قرني الحروب الصليبية تبدو لحكم غير منحاز ذات قيمة لاتقل عن أفضل مصنف تاريخي غربي لتلك الفترة ، وأحياناً أفضل منها بشكل واضح .

★ ـ أعظم مؤرخي الفرنجة أرسى قواعد الأدب اللاتيني للتأريخ للحروب الصليبية ، توفي عام ١١٨٥ م وآخر ما شغله من وظائف رئاسة أساقفة صور ، وكتب وليم تاريخاً للحروب الصليبية هو الأفضل في بابه ، وقد ترجمته إلى العربية ونشرته في بيروت ١٩٩٠ م .

هوامش البحث

١ ـ انظر برنارد لويس «الكشف الإسلامي لأوروبا» . دورية معهد الدراسات الشرقية والأفريقية (١٩٥٧) ٢٠/٤٠٩ ـ ٤١٦ .

٢ ـ كلود كاهن «سوريا الشمالية في فترة العصور الصليبية والإمارة الفرنجية في إنطاكية» (باريس ١٩٤٠) .

٣ ـ حقق محمد جمال الدين الشيال ثلاثة أجزاء منه الأول القاهرة ١٩٥٣ (إلى وفاة نور الدين) ، والثاني القاهرة ١٩٥١ (عصر صلاح الدين) ، والثالث ـ القاهرة ١٩٦١ (الأيوبيون) (وحقق عبد الفتاح عاشور ثم حسنين ربيع بقية الكتاب) .

٤ ـ تحقيق سامي الدهان الأول والثاني (دمشق ١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) والثالث (دمشق ١٩٦٨) .

٥ ـ طبعة القاهرة ، دار الكتب المصرية ج٨ ، ١٩٣٩ .

٦ ـ جزء من حياة بيبرس لابن عبد الظاهر ، نشره ، ف صادق ، بعنوان : بيبرس الأول صاحب مصر (دكا ، اكسفورد ١٩٥٦) وهناك نشرة للنص الكامل أعدت من قبل الدكتور عبد العزيز خويطر (بحث للدكتوراه ، لندن ١٩٦٠) ، ومعد للنشر .

٧ ـ راشيل تاريخ الحروب الصليبية (المصادر الشرقية) باريس ١٨٧٢ ـ ١٩٠٦ ، وهناك مقتطفات أدبية صغيرة جمعها المؤلف الحالي بعنوان «المصادر العربية لتأريخ الحروب الصليبية» (تورين ١٩٥٧) .

٨ ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ المائة سنة الأولى (فيلادلفيا ١٩٥٧) .

٩ ـ هـ .أ.ر. جب (ملاحظات حول المواد العربية لتاريخ الحروب الصليبية المبكرة) ، دورية معهد الدراسات الشرقية والأفريقية (١٩٣٥) ٨/٧٣٩ ـ ٧٥٤ . المصادر العربية لحياة صلاح الدين مجلة أصداء (١٩٥٠) ٢٥/٥٨ ـ ٧٢ . نجاحات صلاح الدين ، دورية مكتبة جون ريلاند (١٩٥٢) ٣٥/٤٤ ـ ٦٠ . البرق الشامي لعماد الدين الأصفهاني W ZK M (١٩٥٣) ٥٢/٩٣ ـ ١١٥ . برنارد لويس مصادر تاريخ حشيشية الشام . مجلة أصداء (١٩٥٢) ٢٧/٤٧٥ ـ ٤٨٩ . صلاح الدين والحشيشية. دورية معهد الدراسات الشرقية والأفريقية (١٩٥٣) ١٥/٢٣٩ ـ ٢٤٥ . ثلاث تراجم من كمال الدين مجلة فؤاد كوبرلو (استنابول ١٩٥٢) ص ٣٢٥ ـ ٣٤٤ .

١٠ ـ حققه أمدروز (ليدن ١٩٠٨) ترجمة جزئية قام بها جب بعنوان «مؤرخ دمشق للحروب الصليبية» (لندن ١٩٣٢) و ر . لاتورنتو ـ دمشق ١٠٧٥ ـ ١١٥٤ (دمشق ١٩٥٢ .

١١ ـ النص والترجمة في راشيل ـ مؤرخو الحروب الصليبية : ٣ .

١٢ ـ حققه لاندبيرغ (ليدن ١٨٨٨) .

١٣ ـ ج ـ كريمر ـ فتح القدس حسب رواية عماد الدين الأصفهاني (فايسبادن ١٩٥٢!) وأعلن هنري ماسه اعداده لترجمة كاملة لكتاب الفتح .

١٤ ـ طبعة القاهرة ١٢٨٧/١٨٧٠ ، طبعة جديدة لمحمد حلمي (ج١ ـ القاهرة ١٩٥٧ ـ ★ نشر بعده جزء آخر ثم توقف) .

١٥ ـ طبعة مصورة طبق الأصل لمرآة الزمان لسبط عن هذه الفترة ، نشره ، جويت Jewett (شيكاغو ١٩٠٧) . وطبع النص نفسه في حيدر أباد في مجلدين (١٩٥١ ـ ٢) حول فريدريك الثاني والكامل ، هـ . ل . غوتشوك H . L . Gottschalk . الامبراطور . دار السلام (١٩٥٧) ٣٢/٣٠ ـ ٣٦ ، والملك الكامل ملك مصر (فاديسبا دن ١٩٥٨) .

١٦ ـ انظر ف . غابرييلي La ambascerie di Baibars a Manfredi in Saggi orientali (Cattanisetta, 1960), pp. 99 – 106, H . L .Gottschalk Der untergang des Hohenstaufen WZKM 1957,1ii, 267 – 82.

٨ ـ أعمال التاريخ المحلية في بلاد الشام ـ أصلها وتطورها

سامي الدهان
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

تعلق العرب بشدة منذ أيام الفتح العربي لبلاد الشام في القرن السابع الميلادي ، بالمنطقة الجديدة التي أصبحت قاعدتهم ونقطة انطلاقهم إلى العالمين الآسيوي والأفريقي ، ولديهم أحاديث تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم تبين أن بلاد الشام هي جنة الإسلام ، والمركز الذي سينتشر منه الدين الجديد ، وقد تلقت كل مدينة في بلاد الشام نصيبها من هذا الشعور بالقدسية ، وهكذا تشجع سكان كل منها على اعتبار مدينتهم أفضل مدن الإسلام ، وفي الحقيقة لم يكن هذا خاصاً ببلاد الشام بل انطبق على كل المدن الإسلامية . ولكنه كان ملحوظاً بشكل خاص في بلاد الشام ، وكان تمجيد دمشق وحلب ، دون إغفال فلسطين واسعاً جداً ، ومعترفاً به وممارساً ، وأضاف وجود صحابة النبي صلى الله عليه وسلم الذين عاشوا وماتوا في بلاد الشام إلى الإحساس بالقدسية المرتبط بها . واختلط الحماس الوطني بالمشاعر الدينية العميقة لزيادة معزّة المدن الشامية على سكانها ، وكان المؤرخون أول من عكس هذه المشاعر ، وما أن توطد الإسلام هناك ، حتى بدأوا في تعداد الأحاديث حول بلاد الشام ، وأخذوا يعددون قبور الصحابة التي كانت مبعثرة في كل أنحاء البلاد ، وهكذا ولد التاريخ المحلي ، وشجع كما ذكر بفعل المشاعر الدينية والإحساس بالنصر في المعارك ، وربما بالانتصارات على غير المؤمنين مثل البيزنطيين (الروم) .

وبهذه الطريقة اتجه المؤرخون العرب إلى وصف الآثار في بلاد الشام ، ونسبة السمات الإسلامية إليها ، مما جعلها مقدسة ومبجلة ، فالقلاع والجدران ، والآبار ، والصدوع والطرقات ، وحتى المنازل القديمة أحرزت جميعها سمات دينية تدرأ عنها الشر ، وبالتالي انه من السهل فهم لماذا تحول التاريخ المحلي بفعل الاعتبارات الدينية التي دفعته إلى الأمام ، إلى تاريخ محلي لأماكن اكتسبت السمة الإسلامية والهوية ، وعندما ظهرت المساجد على المسرح شغلت مكاناً هاماً لدى المؤرخين وقد بين الوصف الواضح لكل منها الموقع الصحيح لجوانبها الأربعة ، ومثّل العلماء في المساجد الشريعة الإسلامية ، وعرضت شخصياتهم في هيئة رجال مسلمين كبار ، ووعاظ ومرشدين للمسلمين ، وسنرى في هذه المنطقة أن التاريخ المحلي بات معنياً بتذكر المشاعر الدينية ، وذكر عظماء الرجال من خلفاء وملوك ممن دافعوا عن الإسلام وحموه ، وسنمعن النظر في هذه التواريخ المحلية وندرسها قرناً بعد قرن .

وتروي المصادر العربية أن معاوية ، الخليفة الأموي الأول ، كان أول من عني بهذه المشاعر الشعبية ، فدعا العلماء اليمانيين إلى تعداد الأمجاد القديمة للعرب . وكان عبيد بن شريه الجرهمي (المتوفي في ٧٠ هـ) من بين العلماء الذين دعاهم للقدوم إلى الشام لكتابة تاريخ عام ، ونال كتابه المعنون (كتاب الملوك وأخبار الماضين) شعبية كبيرة ، وسمعة حسنة ، ولكنه لم يعد باقياً(*)، ولقد كان الخليفة معاوية هو الذي بذر البذور الأولى لكتابة التاريخ العربي في بلاد الشام ، ولكن هذا التاريخ العربي كما رأينا تاريخاً عاماً للعرب ، أما بالنسبة للتاريخ المحلي فإنه لم يظهر قبل القرن الثاني .

التاريخ المحلي :

وفي عهد يزيد الأول ابن معاوية تابع العلماء هذا التقليد وعملوا على الاستمرار في دروسهم الشفهية في المساجد الشامية ، من أجل تعليم مستمعيهم

★ ـ طبع في حيدر أباد ـ الدكن كتاب حمل عنوان (أخبار عبيد) قيل : هو الذي صنفه لمعاوية والمسحة الأسطورية هي المسيطرة على مواد الكتاب .

أخبار الماضي المجيد للعرب في بلاد الشام ، وكانت بعض البحوث حول مثل هذه الأحداث التاريخية من فتح وحروب في بلاد الشام ، في الحقيقة ، مكتوبة ، ولكننا لا نعرف عنها الكثير ، ويقال إن الأوزاعي (المتوفي في ١٥٧ هـ) قد كتب كتاباً عن تاريخ بلاد الشام ، ولكننا لا نعرف شيئاً عنه ، وطبقاً للذهبي (مؤرخ دمشق في القرن السابع الهجري) ، كتب الوليد بن مسلم ، ـ وهو نفسه أموي ـ عدة كتب تاريخية لم يبق منها شيء ، وخلال الفترة نفسها يقال : إن التواريخ الفارسية قد ترجمت للخليفة هشام بن عبد الملك لإظهار التأثير الفارسي على بدايات التاريخ العربي في بلاد الشام ، ولتتخذ أنموذجاً من قبل المؤرخين العرب .

وكان على المؤرخين الشاميين في نهاية القرن الإسلامي الأول(*) أن يتركوا بلدهم ويتحولوا للعيش في كنف البلاط الجديد في العاصمة الجديدة بغداد ، ولقد غادروا جميعاً مع العلماء ورجال الأدب ليستوطنوا ويكسبوا معيشتهم هناك ، وخلال القرن الثاني/الثامن لم يعد يعرف اسم مؤرخ واحد في بلاد الشام كان يعمل في تاريخ بلاده ، ولم تقم بلاد الشام بمعاودة انتاج مؤرخين حتى حلول القرن الثالث/التاسع ، مثل محمد بن عائذ ، الذي كتب كتاباً حول فتوحات بلاد الشام ، واشتغل أبو مشير بن عبد الأعلى في أنساب الشاميين ، وكتب أبو زرعة الدمشقي (المتوفي في ٢٨١ هـ/٨٩٤ م) تاريخاً حول تراجم مشاهير الرجال في بلاد الشام ، وهو كتاب ثبت نفعه ، والحاجة إليه من قبل عدد كبير من المؤرخين الذين احتاجوا للحديث عن هذا البلد ، مثل الخطيب البغدادي ، وياقوت الرومي ، والذهبي ، وفي مكتبة الفاتح في استانبول نسخة محفوظة من كتابه برقم (٤٢١٠) روى فيها حياة الخلفاء والقضاة والعلماء الشاميين(**)، وكتب أحمد بن المعلى (المتوفي في ٨٩٩ م) تاريخاً لدمشق ، أعيد إخراجه بشكل موسع من قبل ابن عساكر ، وابن جبير ، وكتب القشيري الحراني تاريخ الرقة المدينة الشامية ، وهناك

★ ـ كذا وهو وهم القول «النصف الثاني من القرن الثاني» أو «نهاية القرن الثاني» وهذا مرتبط بتاريخ سقوط الخلافة الأموية وبعد هذا تأسيس مدينة بغداد من قبل المنصور العباسي [١٣٦ ـ ١٥٨ هـ/٧٥٤ ـ ٧٧٥ م] .

★★ ـ نشر في دمشق عام ١٩٨٠ ، والعودة إلى محتوياته ميدة من أجل وصف أدق له .

نسخة محفوظة من هذا الكتاب ، وقد سمي فيه صحابة النبي صلى الله عليه وسلم المدفونين هناك (*) ، وفي القرن الرابع / العاشر أوقف عدد من المؤرخين الشاميين أنفسهم على التأريخ لبلدهم كان منهم البطريرك دانيوس اليعقوبي(**) ، (أو مؤلف الكتاب المنسوب إليه) ، ومحبوب بن قسطنطين المنبجي ، كما وقدم المؤرخ والجغرافي (المقدسي) مخزوناً غنياً من المعلومات حول التاريخ المحلي لبلاد الشام .

ومن الجوهري أن نوضح عند هذه النقطة أن غالبية المؤرخين الشاميين لهذه الحقبة نزعوا إلى الكتابة عن المدن الشامية ، ولا سيما المدينتين الكبيرتين حلب ودمشق ، وكانوا بالطبع مستلهمين بحب هذه المدن الواقعة على ضفاف الأنهار والمحاطة بالحدائق ، والتي كانت موطناً لأسلافهم ، كما وكان هناك أيضاً من الملهمات مواقعها الجغرافية الهامة عند تقاطع الطرق المتجهة إلى فارس ، وبيزنطة والبحر المتوسط ، وهكذا جمع المؤرخون الذين كتبوا عن المدن الشامية منذ القرن التاسع فصاعداً بين التاريخ والجغرافيا إلى درجة يصعب معها فصلهما أو التمييز بينهما ، ونجد إلى جانب الحقائق التاريخية حول الفتوحات والحروب في بلاد الشام ، أوصافاً للآثار والأوابد مع التواريخ العائدة لها، وقد أوضح السير هاملتون جب بشكل صحيح تماماً أنه منذ منتصف القرن الرابع ، بات على كل حال أمر التمييز بين التاريخ العام والإقليمي صعب التأكيد ، لأن المؤرخين لم يجمعوا فقط بين التاريخ والجغرافيا ، بل إنهم نقلوا أيضاً من الحوليات حول كل بلاد الإسلام ، ولكنهم ما برحوا يقدمون معلومات هامة عن بلاد الشام ، وكتب في القرن الخامس/الحادي عشر عدد من المؤرخين عن المدن والمناطق الشامية كتباً أنشئت كحوليات أو طبقات أو أوصاف للآثار والأوابد .

★ ـ نشر بحماة في عام ١٩٥٩ ، ومن المفيد العودة إلى محتوياته من أجل وصف أدق لمادته ولمنهج مؤلفه .

★★ ـ حفظ لنا المؤرخ السرياني ميخائيل الكبير تاريخ دانيوس التلمحري ، وأنا بصدد أخراج تاريخ ميخائيل الكبير بالتعاون مع د . الياس بيطار . أما كتاب المنبجي فقد طبع منذ فترة مديدة ثم طبع حديثاً في طرابلس الشام .

وبذل المؤرخون الشاميون في القرن السادس/الثاني عشر جهوداً عظيمة لمعالجة التاريخ المحلي لبلدهم ، وكان هذا بالطبع قرن الحروب الصليبية ، وهو بناء عليه قرن شغلت فيه الأراضي العربية دوراً واضحاً . وقد ألح الأستاذ كاهن على أهمية ذلك في كتابة حول هذه الفترة ، حيث يقول : «وكانت المؤلفات التاريخية العربية أقل حصراً من مثيلاتها من الكتابات الفرنجية ، وكانت أوسع انتشاراً وأكثر وفرة ، وهذا صحيح بشكل خاص بالنسبة لبلاد الشام» . ويمضي في قوله موضحاً : «لكن التواريخ كثيراً ما تكون بكل بساطة من نسخ مؤلفات سالفة تضخمت بالإضافات الصغيرة ، وهناك تناسب يسير جداً بين إجمالي الإسهام العربي للمادة الأصلية وإجمالي كمية الحبر الموضوع على الورق» .

ومع ذلك فإن مؤرخي هذه الحقبة كانوا بالنسبة للقسم الأعظم شهود عيان للحروب الصليبية ، وخلفوا لنا المعلومات والروايات التي تكمل معارفنا حول الغزوات الأوروبية .

وبناء على ذلك سوف نتوسع نوعاً ما في البحث عن مؤلفي هذه الفترة ، وكتبهم القيمة اليتي يمكن تقسيمها إلى ثلاث زمر وفق ما يلي :

(١) طبقاً للمناطق .
(٢) طبقاً لفئات الناس وتصنيفهم .
(٣) التواريخ العامة .

وسآتي هنا على ذكر المؤرخين فقط حسب المناطق ، أولاً حلب ثم دمشق ، حيث أنه كما سلف القول ، رأى مؤرخو هاتين المدينتين مؤلفاتهم أداء لواجب وطني أو قومي في أطراء بلدهم ومدحه من خلال الإسلام ، وحتى يعيدوا ذكريات ماضي بلادهم المجيد عادوا نحو تدوين أخبار قرون الفخار ، عندما دفع العرب بأعدائهم أمامهم ، فكانوا لذلك مضطرين لدراسة المصادر الأقدم وتلخيصها وفحصها ومقارنتها ، وكان هذا العمل من التصنيف ناجحاً ببعض المعايير ، لاحتضانه للوثائق والمصادر المفقودة .

تواريخ حلب المحلية :

فقدت التواريخ الحلبية أو بالأحرى المتعلقة بشمالي بلاد الشام مما أرخ للقرنين الحادي عشر والثاني عشر ، ويندر أن نجد أي أثر مباشر لها اليوم ، لكنها معروفة من خلال مؤلفات تاريخية تالية ، استمدت منها قدراً جيداً من موادها ، وهاكم بعض الإشارات الموجزة المتعلقة بهذه التواريخ : ابن زريق التنوخي المعري (ولد في المعرة في ٤٤٢/١٠٥١) وكتب حولية عن الغزو التركماني والاجتياح الفرنجي ، فقد فقد كتابه، لكن أعيد إخراجه في أماكن عدة من قبل ابن العديم وآخرين ، وكان ابن أبي جرادة ، مؤلفاً لكتاب عن ملوك حلب ، وجدت فقرات منه في أعمال تالية ، وكتب الأثاربي الحلبي رسالة عن تاريخ الغزو الفرنجي ، نقلت محتويات صفحات منها من قبل ابن العديم ، ولروايات الأثاربي أهمية خاصة لأنه عاش على مقربة من اللورد النورماندي لمنطقة الأثارب ، وقد توفي (في ٥٤٢/١١٤٧ م) ، وأما العظيمي ، فهو معلم مدرسة ولد في حلب في (٤٨٣/١٠٩٠) وتولى كتابة تاريخ حلب ، وتاريخ عام آخر ، وهذا الثاني فقط هو الموجود ، وهو يحتوي على معلومات قيمة في نهايته(*).

والجدير بالذكر والدراسة بدقة أكبر (كمال الدين بن العديم) لأنه أهم مؤرخي منطقته ، وبشكل أكثر خصوصية مسقط رأسه ، الذي كتب عنه تاريخاً محلياً ضخماً . وكان جده من عائلة كبيرة من أصل عراقي ، استوطن البصرة حيث أصبح أول عضو في إحدى أسر الأشراف ، وجاء أحد أسلاف ابن العديم إلى بلاد الشام واستوطن فيها في عام (٢٠٠/٨١٥) هرباً من الطاعون الذي أصاب العراق ، وتمكن أبناؤه الأثرياء من بعده من شراء قرية لا تبعد كثيراً عن حلب ، ثم عاشوا في حلب نفسها فيما بعد حيث أصبح عدد منهم كتاباً ، وقضاة وشعراء

★ ـ هذا العرض فقير ومتسرع وخير منه وأوفى ما أودعته في مدخل كتابي إمارة حلب ط . دمشق ١٩٨٧ ص ١٥ ـ ٣١ اضف إلى هذا نشر كتاب العظيمي أولاً كرسالة ماجستير أعدت تحت إشرافي في كلية الآداب جامعة دمشق ، ومن ثم طبع للمرة الأولى في دمشق ١٩٨٥ وهو قيد الطباعة للمرة الثانية في بيروت .

ورجال حاشية في خدمة الأسرة المرداسية وبعد ذلك بفترة طويلة النورية والأيوبية ، وكانوا معروفين في ذلك الوقت ، وكان والد المؤرخ قاضياً كبيراً في أيام نور الدين ، وعز الدين ، وعماد الدين ، ثم صلاح الدين ، وولد ابنه عمر في حلب (في ٥٨٨ هـ/١١٩٢ م) وتلقى تعليماً شاملاً ، ومنذ طفولته المبكرة سافر في البلاد العربية ، القدس ، دمشق ، العراق والحجاز ومن هنا جاء حبه للسفر والتاريخ ، وعندما بلغ الثامنة والعشرين انضم إلى كوكبة المعلمين الكبار في مدارس حلب ، ودخل فيما بعد في خدمة الأيوبيين ، الملك (العزيز) والملك (الناصر) كوزير وبهذه الصفة تمكن من القيام بعدد من الأسفار الرسمية إلى مصر والعراق كسفير للملوكه ،وكان باستطاعته أن يقابل العلماء الكبار في تلك الأيام وقد اقتبس المؤرخون المعاصرون من أسفاره ، وامتدحوه كثيراً ، ومن الواضح أن هذه البعثات قد أثرت في المؤلف بمنحه فرصة رؤية العالم الإسلامي بنفسه كما وصفه فيما بعد ، وعندما هاجم المغول بلاد الشام في (٦٥٨هـ/١٢٥٠ م) ونهبوا مسقط رأسه ، هرب مع (الملك الناصر) إلى برزة قرب دمشق ، ودعاه هولاكو للبقاء في سورية وعرض عليه منصب كبير القضاة ، ولكنه فضل الارتحال إلى غزة ومنها إلى مصر ، ولم يمكث طويلاً في مصر وعاد إلى وطنه حين غادره الغزاة ، وعندما رأى مدينته مدمرة عاد إلى القاهرة وتوفي فيها في (١٢٦٢/٦٦٠) ودفن عند سفح المقطم .

وتتحدث المصادر التاريخية عن ابن العديم كشاعر عظيم وكاتب ، مؤكدة على معارفه الواسعة في كل فروع العلوم التاريخية والشرعية، وما يعنينا هنا هو كتابه التاريخي حول حلب : لقد وضع تاريخاً واسعاً لمسقط رأسه في صورة معجم تاريخي للتراجم عنوانه (بغية الطلب في تاريخ حلب) وقد تصوره في أوسع خطوطه : ذكر كل مشاهير الرجال في حلب ، وكل من ولد هناك ، وكل من كانوا ولو لبضع ساعات ، وطبيعي أن مثل هذا العمل الطموح قد جاء في عشرات من المجلدات ، ومن المحتمل أن بنية المعجم قامت وفق قاعدة تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، أو تاريخ ابن عساكر الدمشقي ، ويبدأ معجم ابن العديم بالحديث

عن خطط حلب وما يحيط بها ، وهكذا كل شمالي بلاد الشام(*)، ثم تأتي التراجم في ترتيب أبجدي وبأطوال مختلفة حسب المصادر التي كانت تحت تصرفه ، ومصادره في معظمها لم تعد في متناول أيدينا لأنه استخدم مخطوطات ووثائق فقدت منذ ذلك الحين ، إضافة إلى كلمات نقلت مباشرة من شفاه مشاهير الرجال الذين عرفهم بحكم منصبه الرفيع ، واتصالاته الهامة في الأماكن التي زارها ، وكان قادراً على قراءة النقوش التي على الأوابد ، وقد أشار إلى النقود ، ونادراً ما نقل من تقرير ، أو كشف أو مصدر ، دون أن يعين الزمان ، ومجموعة الكتب أو المخطوطات أو الشفاه التي أخذ عنها ، وكثيراً ما يكرر : سمعت ، رأيت ، قرأت ، فكان حاضراً ، أي كما يفعل المؤرخ في زماننا وهكذا بقي معجمه وثيقة تاريخية عن حلب ، بالغة القيمة ، وقد اقتبس منه المؤرخون كمستند أول وتباهوا بقراءته .

ولسوء الحظ لا توجد لدينا مجلداته كاملة ، ووصف مؤرخ واحد في القرن العاشر/السادس عشر (السخاوي) (توفي ٩٠٢ هـ) عدد المجلدات التي رآها شخصياً ، وأورد في كتابه الأعلام أنه رأى نسخة مخطوطة في ٩ مجلدات في بيت صديقة (ابن السابق الحموي) وهذه النسخة نفسها باقية إلى اليوم تماماً كما وصفها (السخاوي) ، في مكتبات استنابول . وقد رجع إليها علماء أوروبيون عديدون هناك ، بما فيهم زميلنا السابق جان سوفاجيه والأستاذ كلود كاهن والأستاذ برنارد لويس للاستشهاد الأكثر حداثة ، ومن جانبي من أجل دراسة هذا المنجم الذي لا ينفد من المعلومات أمكنني أثناء وجودي في استنابول أن أقوم بتصويره بكامله ، وهو يشغل ثماني مجلدات كل منها ٣٠٠ صفحة ، وهو يتوقف عند الحرف (ز) ولكن هذه النسخة هي مسودة المؤلف وتحوي مساحات فارغة في عدد من

★ ـ هذا وصف مبتور لمحتويات الجزء الأول من كتاب ابن العديم ، فهو بعد الحديث عن الخطط والجغرافيا أورد الآثار المتعلقة بفضائل الشام مع الملاحم ، ووصف ما حوته حلب وديارها من عجائب وآثار ، ثم عدد أنهارها وبحيراتها وأفرد فصلاً لقبائلها ، وكان آخر ما تناوله أخبار فتوحها ، وقد حققت الموجود من بغية الطلب ، وتقوم إحدى طالباتي بإعداد دراسة دكتوراه عن موارد هذا الكتاب العظيم .

الأماكن ، وكان المؤلف ينتظر اللحظة المناسبة لملئها أو إتمامها ولكن هذا الوقت لم يأت أبداً(*).

وقام منذ القرن السابع/الثالث عشر مؤرخو حلب بالتذييل على هذا المعجم ، وعلى المرء أن يذكر ما يلي : تحدث ابن شداد (ت ٦٨٤ هـ) في كتابه الأعلاق عن آثار حلب وما دون عليها من أخبار ، وكتب ابن خطيب الناصرية (ت ٨٤٣/ ١٤٣٩) كتابه المعنون (الدر المنتخب) حول مشاهير رجال حلب حيث ترجم لهؤلاء حتى عصره ، واتبع سبط ابن العجمي (توفي في ٨٨٤ هـ) منهج ابن العديم في كتابه كنوز الذهب وألحق بكتابه تراجم حتى عصره ، ولخص (ابن الشحنة(* *)) (توفي ٨٩٠/ ١٤٨٥) المؤلفات السالفة الذكر وأسهم في المادة اللازمة لتاريخ حلب ، وقد ترجم جزء كبير من كتابه والكتاب الذي تقدمه أيضاً جان سوڤاجيه (منشورات المعهد الفرنسي في دمشق) . وجدد ابن الحنبلي (المتوفي في ٩٧١ هـ) التراجم أيضاً حتى عصره ، وتولى ابن ميرو ، وكتاب آخرون محدثون مثل الطباخ والغزي متابعة كتب التراجم وإتمامها ، وقد استخدم ابن العديم نفسه معجمه لكتابة حولية عن حلب تدعى «زبدة الحلب» وهي عرض حولي للأحداث لمادة جمعت من أجل المعجم ، وتنتهي الحولية في العام ٦٤١/١٢٤٣ ، عندما كان ابن العديم وسط بعثاته الدبلوماسية حيث لم يعد لديه الوقت للعمل فيها ، ولهذه الحولية فضل جمع كل المصادر معاً ، مسجلة مختلف الآراء حول الأحداث التاريخية لوضعها أمامنا في ترتيب زمني أو تبعاً للأحداث السياسية ، واحتوى هذا الكتاب على عرض تأريخي ذكي للسياسات وحروب الدول العربية التي حكمت في شمال الشام ، وقد كتب بأسلوب واضح دقيق ، وهو يحتوي عل معلومات مفصلة يندر وجودها في أي مكان آخر ، وقد جرت معالجة تواريخ الدول المهمة مثل : الدولة المرداسية في حلب بشكل كامل في هذا الكتاب ، وقد تمكنت من

★ ـ الذي وجدته في استانبول عشر مجلدات ثمان منها في مكتبة أحمد الثالث ، وبالنسبة للفراغات تركها المؤلف في آخر كل عشر أوراق ليضيف معلومات قد يحصل عليها وهذه قاعدة اعتمدها العلماء .

★★ ـ أعيدت طباعة كتاب ابن الشحنة بالتصوير في دمشق وحقق مؤخراً وطبع باليابان .

تحقيق ثلثي هذا الكتاب في مجلدين في دمشق ،ويروي القسم الثالث(*) الحقائق التي كان المؤلف شاهد عيان لها ، وابن العديم هو المؤرخ الأهم للحروب الصليبية لأنه في التعامل معها يرتقي إلى قمة العلم التاريخي ، بسبب حياده ، وتوثيقه الغني ، وهو يقدم رواية حقيقية لهذه الفترة الهامة ، عندما ترك الاحتكاك والاتصال الآثار التي ما تزال باقية معنا اليوم .

تواريخ دمشق المحلية :

لقد شدّت مدينة دمشق أيضاً انتباه عدد من المؤرخين الذين كتبوا تواريخ محلية ذات أهمية كبيرة حول الموضوع ، وبدأوا بتأليف المصنفات في مدح المدينة المقدسة ، لأنها كما ذكر من قبل كانت جنة المؤمنين وستكون ملجأ للمسيحيين بعد المجيء الثاني للمسيح .

ومن الممكن إضافة المصنفات التالية حول الأهمية الدينية لدمشق إلى تلك التي ذكرت في وقت سالف : كتب الربعي (توفي في ١٠٥٢/٤٤٤) كتاباً عن فضائل المدينة وقدسيتها ، وتفوقها على المدن الأخرى ، وعالج أبو الفتح الكاتب (توفي في ١٠٦٧/٤٠٠) الموضوع نفسه وأضاف مادة شعرية وأدبية أكدت الصورة الجمالية للمدينة وسحر بقاعها الرائعة ، وكتب الأرمنازي(ت ٥٢٩/ ١١١٥)(من أرمناز قرب حلب) تاريخاً لدمشق وآخر لصور ، وقد فقدت أعماله ولكن(ياقوت) أعاد إخراجها ،وألف الخولاني قاضي دمشق(توفي ٣٦٥/ ٩٧٥) تاريخاً لداريا(**) ، وهي قرية قرب دمشق ، ذكر فيه أسماء صحابة النبي صلى الله عليه وسلم الذين عاشوا ودفنوا هناك ، وكتب (الأكفاني) الدمشقي (ت ٥٤٢/ ١١٣٠) تتمة لتاريخ داريا للخولاني ، وكتب ابن القلانسي الدمشقي (توفي ٥٥٥ هـ/١١٨٤) تاريخاً يغطي السنوات (٤٤٤ ـ ٥٥٥ هـ) وهي مرتبة في حوليات تعرض الحقائق التاريخية التي وقعت في عصر الفاطميين ، والسلاجقة ، وهي تعطي صورة واضحة ودقيقة للحياة في دمشق ، ومجتمعها وحروبها مع مصر ، وثوراتها وانقلاباتها ، وقد تم

★ ـ نشره المرحوم الدهان في دمشق سنة ١٩٦٨ .

★★ ـ طبع محققاً بدمشق عام ١٩٥٠ .

تحقيقه (في ١٩٠٨) من قبل هـ . ف . أمدروز عن مخطوط اكسفورد ، وترجم جزئياً إلى الانكليزية من قبل (هـ . ا . ر . جب) لندن ١٩٣٢ وترجم في حينه جزء منه إلى الفرنسية من قبل (ر. لوترنو) (دمشق ١٩٥٢) ، وهو الحولية المفصلة الباقية حول الفترة من الغزو التركماني حتى صلاح الدين وهي تتبع النمط نفسه لتاريخ ابن الأثير ، ولكن المؤلف منح كتابه سمة شخصية بإشاراته إلى الوثائق التي رجع إليها ، وكان قد ولد حوالي (٤٦٥/١٠٧٣) وهو ابن عائلة دمشقية كبيرة ، وبعد دراسات في علوم الدين والأدب مارس مهنة إدارية وأصبح رئيساً للمدينة .

ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن ، ولد في دمشق في (٤٩٩/١١٠٥) ودرس دراسة واسعة في كل أنحاء العالم الإسلامي ، في بغداد ، وفارس ثم أصبح معلماً في مدينة دمشق مسقط رأسه ، في المدرسة النورية ، وتوفي في دمشق (٥٧١/١١٧٥) وعمله الرئيس هو تاريخ دمشق في٨٠ مجلداً،وقد استهله بالحديث عن خطط المدينة ، ثم تابع عمله بتقديم كتاب من أنواع معاجم التراجم لأعلام أهل دمشق(*)وجاء منهج هذا الكتاب مطابقاً لمنهج الخطيب البغدادي الذي اعتمده في كتابه تاريخ بغداد، وقد هذبه أبو شامة (المتوفي في ٦٦٥/١٢٦٦) في خمس عشرة مجلدة جميعها بحكم المفقود ، إن هذا الكتاب العملاق هو أفضل مصدر لتاريخ دمشق من العصور المبكرة ، فيه تفاصيل غزيرة عن حياتها الفكرية والتجارية والتاريخية ، وفيه عرض لمراحل تاريخ المدينة وتراجم مشاهير الرجال من جميع أنحاء بلاد الشام ، لأنه يحتوي على تراجم زوار دمشق من الملوك والأمراء ، والعلماء في كل فروع المعرفة المعروفة في ذلك الوقت ؛ وقدنشر القليل فقط من مجلدات هذا التاريخ المحلي العظيم لدمشق ، وكتب نجل ابن عساكر القاسم بن عساكر (ت ٦٠٠/١٢٠٣) ذيلاً لتاريخ أبيه معظمه الآن مفقود(**).

★ ـ هذا الوصف لتاريخ دمشق وخاصة لمحتويات المجلدة الأولى منه من الاختصار المخل ، ذلك أن وصف خطط دمشق ورد في المجلدة الثانية ، وحوت المجلدة الأولى عدة أنواع من المواد كلها هام يتصدرها ما جمعه ابن عساكر عن فتوح الشام .

★★ ـ المعروف أن القاسم أعاد إخراج تاريخ أبيه بصورته النهائية مضيفاً بعض المواد التي لم يتمكن أبوه من إضافتها ، لكنه لم يذيل عليه .

وألف المقدسي الضياء محمد الحنبلي (توفي في ١٢٤٥/٦٤٣ م) تاريخاً لدمشق ذكر فيه فضائل المدينة وقدسيتها ، ولم يبق منه سوى المجلد الثاني في المكتبة الظاهرية بدمشق ، وهناك مقدسي آخر هو ابن عبد الدائم وهو عالم دمشقي عظيم (توفي في ١٢٦٩/٦٦٨) انتخب فصولاً معينة من تاريخ دمشق لابن عساكر ، وهو ما يزال محفوظاً حتى هذا اليوم ، وألف الإربلي الحسن بن أحمد بن ظفر (توفي في ١٣٢٦/٧٢٦) ـ وكان أصلاً من إربل في العراق ـ استوطن في دمشق ـ تاريخاً لها يحوي أوصافاً للمدارس والمساجد ، والحمامات وما زال جزء من هذا الكتاب موجوداً في الظاهرية في دمشق ، وكتب محمد بن شاكر الكتبي (توفي ١٣٣٦/٧٦٤) مدخلاً تاريخياً لمدينة دمشق ، ويحتوي كتاب البداية والنهاية لاسماعيل بن كثير القرشي ـ ولد في البصرة قرب دمشق ، ودرس في دمشق وتوفي فيها سنة ١٣٣٣/٧٧٤ ـ معلومات بالغة الفائدة عن المدينة ، وكتب عبد الرحمن بن رجب الدمشقي (عالم حنبلي ، توفي في ١٣٩٢/٧٩٥) حول فضائل مدينة دمشق ، أما أحمد بن الحجي الذي ولد في جوار دمشق وأتم دراسات متقدمة في الفقه ، حتى أصبح قاضياً لدمشق وتوفي في (١٤١٣/٨١٦) ، فبحثه عن مدارس دمشق معروف لدينا من خلال كتاب تالين ، وكان قد تحدث عن المعلمين ، ومؤسسي أوقاف تلك المدارس ، وكتب يوسف بن عبد الهادي وهو عالم حنبلي (توفي في دمشق في ١٥٠٣/٩٠٩) عدة كتب حول دمشق ومساجدها وخاناتها وحماماتها ، وأسواقها ، كما كتب أيضاً عن تاريخ خطط الصالحية وهي ضاحية هامة لدمشق ، وجميع بحوثه ذات الأطوال المختلفة كلها بالغة الأهمية بالنسبة لتاريخ المدينة ، أما عبد القادر النعيمي وهو عالم شافعي ومؤرخ دمشقي ـ توفي في مسقط رأسه ١٥٢١/٩٢٧ ـ فقد كتب كتاباً كبيراً حول مدارس دمشق ، ضمنه تراجم لجميع مشاهير الرجال الذين علموا هناك ، وقد أرخ للمساجد والأديرة ، ولجزء كبير من خطط المدينة . وهناك عدة مؤلفات بقلمه حول القضاة ومشاهير الرجال في العاصمة الشامية ، ويعد محمد بن طولون الصالحي الدمشقي (توفي في دمشق سنة ١٥٤٦/٩٥٣) مؤرخاً عظيماً لمدينته ، أسهم في تصنيف عدة كتب عن دمشق وأحوازها مثل المزة ، والغوطة ، وقلعة دمشق ، والصالحية ، إضافة إلى تراجم مشاهير الرجال من هذه الأجزاء .

تواريخ الجزيرة المحلية : كانت الجزيرة جزءاً من المسرح الشامي ، حيث دارت الحروب فوقه بين المسلمين والفرنجة لفترة طويلة جداً ، وكما سلف الذكر ، كان شمال بلاد الشام هو الذي شغل دوراً هاماً خلال الحروب الصليبية ، في حين أن جنوب سورية بصرف النظر عن فلسطين ، قد خربته الحروب ضد المصريين وكثيراً ما أخضع لحكمهم .

ولم يكن هناك مؤرخون كثيرون من الجزيرة ، والمعروفون لدينا من خلال المصادر كانوا قلة جداً منهم ابن الأزرق (أحمد بن يوسف الفارقي ولد في ١١١٦/٥١٠) من أسرة فارقية كبيرة ، وانهمك في شبابه في التجارة ، وأرسل في مهام نيابة عن أميره تمرتاش الأرتقي ، وأصبح فيها بعد مديراً للأوقاف في إقليم ميافارقين ، وقد سافر عدة مرات خلال الجزيرة ، والعراق وجورجيا وبلاد الشام ، (ت ١١٧٦/٥٧٢ م) وألف حولية بالغة الأهمية حول مسقط رأسه، اعتمد فيها على الوثائق والروايات الشفوية التي سمعها شخصياً ، وتحتوي التاريخ المحلي لديار بكر وميافارقين مع روايات وحقائق ذات أهمية عالية تتعلق ببلاد الشام والجزيرة في ذلك الوقت .

ابن شداد (محمد بن ابراهيم) ولد في حلب في ١٢١٦/٦١٣ ، ودرس هناك وأوقف نفسه على التاريخ والكتابة ، وقد قربته ثقافته ومعارفه من أمراء زمانه ، فعمل سفيراً في بعثات دبلوماسية مختلفة إلى حران عندما كان في السابعة والعشرين من عمره ، وإلى هولاكو في سنة (١٢٥٨/٦٥٦) ، وصحب الحكام في أسفارهم ، وعندما أصبح الغزو المغولي على وشك اجتياح حلب ، ذهب إلى القاهرة حيث أصبح موضع احترام وتقدير حتى وفاته في ١٢٨٥/٦٨٤ م ، وتكمن أهميته في الإطار الراهن في مؤلفه عن الجزيرة وهو أفضل المصادر العربية القديمة عن المنطقة(*).

★ ـ اسم كتاب ابن شداد «الأعلاق الخطيرة بذكر أمراء الشام والجزيرة» وقد طبع بكامله في دمشق على مدى عدة سنوات ، أما القسم الثاني فطبع من قبل المعهد الفرنسي ، وأما قسم الجزيرة فتولت نشره وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

هكذا كان المؤرخون المحليون في بلاد الشام يبدعون ويتطورون على مرّ القرون إلى أن تهيأ لنا تمثل الثقافة الأوروبية في طرائقنا ونظمنا لكتابة التاريخ .

خاتمة : كان هدف هذا العرض السريع غير الكامل لبعض التواريخ المحلية الشامية المقصور هنا على دمشق وحلب والجزيرة ، تقديم أفضل مادة لدراسة مفصلة للموضوع ، فهذه المادة ذات أهمية كبيرة وقيمة هائلة . ولم يتم تنفيذ دراسة شاملة لأغلبية هذه المصادر ، والقسم الأكبر من هذه التواريخ ما زال غير مستثمر ، وما زال ينتظر محققاً مصححاً صبوراً لينتج طبعات نقدية لها ، لأنها يمكن أن تستخدم كنقطة انطلاق لدراسات شاملة لهذه المناطق ، وستساعد على رسم خرائط تاريخية وجغرافية لكل المناطق المبينة قرناً قرناً ، ونقر بأن هذه المهمة ستكون شاقة ، ولكنها ستتم يوماً ما ، وإذا كان لنا أن نتعقب تطور المدن السورية عبر القرون ، كما فعل المرحوم (جان سوفاجيه) بحلب في أطروحته للدكتوراه : حلب ، وهي أطروحة تدرس تطور المدينة السورية العظيمة ، الأصل والوسط في القرن التاسع عشر (باريس ١٩٤١م)(*).

وتستحق مدن بلاد الشام اهتماماً خاصاً بسبب روابطها مع الغرب ، لا سيما خلال الحروب الصليبية ، ويجب أن نتم معارفنا عن هذه الحروب على التربة السورية بالرجوع إلى المصادر العربية المحلية ، التي لم تستخدم بكاملها بعد ، أو لم تعتمد بعد ، وقد ضرب الأستاذ كلود كاهن مثلاً جيداً لمثل هذه الدراسة في كتابه عن شمالي سورية في زمن الحروب الصليبية ، وقدم الأستاذ موريس كنار إنموذجاً للعلماء في بحثه حول تاريخ الأسرة الحمدانية في الجزيرة وبلاد الشام مستمداً من المادة الأدبية والسياسية والتاريخية المحلية الشامية ، ولكنهما ركزا بحثهما على فترة محددة .

والمتبقي هو إكمال البحث والدراسة بفحص المصادر والوثائق حول كل الفترات العربية ومقارنتها من أجل تشكيل بعض الأحكام الشاملة حول مدن بلاد

★ ـ ترجم المرحوم محمد أسعد طلس أطروحة سوفاجيه وعليها بنى كتاباً جديداً كبيراً نشره في دمشق عام ١٩٥٦ بعنوان الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب .

الشام عبر القرون ، وذلك أن المدن نفسها تستحق من اهتمامنا ما لا يقل عن الوثائق ، لأن كثيراً من آثارها ما تزال معنا ، ويمكن أن تكمل المصادر المكتوبة حول المناطق التي ذكرناها .

وكان من الواضح دون شك أن هذا العرض السريع لم يتعامل مع التواريخ بل مع المؤرخين ، وقد رسم الخطوط العامة لحياتهم وليس لعدد الصفحات أو الملخصات لمحتويات كتبهم ، فقد نحتاج إلى صفحات كاملة لدراسة كتاب واحد بهذه الطريقة ، ولم يكن هدفنا التعامل حصراً مع كتاب واحد ، وأخيراً يجب الإشارة إلى أن هؤلاء المؤرخين كانوا هواة ولم يكونوا محترفين . ولم يكشفوا عن ميولهم الدينية أو السياسية ، بل عن نوعية أفكارهم وثقافتهم ، ومن هنا كانت قيمتهم وأهميتهم ، وليس هناك من شك في أن المؤرخين العرب الشاميين قد أسهموا في التاريخ المجيد لبلادهم ، وحققوا المهمة العلمية والمقدسة التي تقع على المؤرخين الكبار في العالم ، وهم بناء على ذلك جديرون باهتمام العلماء الأوروبيين الكبار ، ويمكنهم أن يتوقعوا صدور دراسات واسعة وطبعات محققة بصورة نقدية لكتبهم في المستقبل القريب ، جزاء لجهودهم التي كانت بعيدة عن أن تكون غير مثمرة .

٩ ـ أعمال التأريخ في الأندلس. أصلها وتطورها

شـــارل بيــلا
أستاذ اللغة العربية والحضارة في جامعة باريس

من الفحص الشامل للإنجازات التاريخية الكبيرة للعرب ، يمكن القول إنه بعد فترة أولية من التجربة والخطأ وصلت إلى قمتها الأولى مع الطبري ، الذي كتب لعمله الخالد أن يكون قاعدة للتواريخ التي كانت تدعى تقليدياً ـ وخطأً ـ شاملة ، وأخذ المؤرخون التالون الذي كان عليهم أن يبلغوا قمماً أخرى جميع مواد الطبري فلخصوها ، وأكملوها في نقاط معينة حتى زمانهم ، أوأنهم كتبوا تواريخ محدودة الزمن (تاريخ الأسر الحاكمة مثلاً) ، أو المكان (تاريخ مدينة أو منطقة) ، أو حسب مادة الموضوع (تاريخ سياسي أو عسكري ، أو تاريخ أدبي وعلمي ، أو تاريخ أعيان الناس وأشرافهم) ، أو استخدموا طرقاً مختلفة للعرض (ترتيب زمني للأحداث أو أبجدي) . ولن يكون صعباً أن نضع هذه الفئات ضمن مصطلحات في داخل إطار عام توضع فيه الأعمال الموائمة لمؤرخي كل منطقة من العالم الإسلامي وكل قطاع عريض من التاريخ ، وما أن ينجز هذا حتى يصبح ممكناً أن نمسك على الفور وبصورة تصنيفية بالخصائص الرئيسة والنزعات المتحكمة بالكتابات التاريخية المحلية ، على أن نضع في الذهن أن مفهوم الكتابات التاريخية بالعربية وتنفيذها إجمالاً متجانس إلى أبعد الحدود ، ويظهر ـ فقط ـ أبسط الفروق ، ولن تحاول هذه المقالة إعادة إخراج نوع من أنواع تصور لحركة التأريخ العربية في الأندلس مرسوماً طبقاً للطريقة المبينة أعلاه ، ومع ذلك ، ومن أجل الوضوح سيتم تقديم مخطط يعتمد بدرجة كبيرة على أطروحة بونز بويغس Pons

Poygues حول المصدر التي على الرغم من قـدمها ما زالت بالغة الفائدة ، وستبقى قاعدة إنطلاق للبحث في التاريخ الأندلسي .

وبالتعامل مع منطقة من العالم الإسلامي تم فتحها بعد قرن من بزوغ الإسلام ، وتقع أيضاً على مسافة من المراكز العظيمة للنشاط الفكري ، لا يمكن للمرء أن يتوقع أن يجد في الأندلس انعكاساً حياً للمسائل التي شغلت العلماء المشارقة القدماء ، ومع ذلك وعلى الرغم من المسافة ، فإن أسفاراً عديدة ورحلات متكررة مكنت الأندلسيين من مواكبة الزمن بالنسبة لنتائج النشاط المشرقي ، وأن يجلبوا إلى بلادهم ثمرة الدروس التي تعلموها ، ومع ذلك بقي مخزونهم من المعلومات فتاتاً وأجزاء من مذاهب جديدة ، وأنماط أدبية وصلت إلى الأندلس ، وبالكاد أحدثت بعض التأثير بعد انتظار طويل ، ولم يصبح لدى الأندلسيين آدابهم إلا بعد أن أضافوا نكهة شخصية ، وملامح محلية على ما جلبوه من الشرق ، ومن الواضح أن هذه الاعتبارات العامة تنطبق على حركة التأريخ .

وكان أقدم (مؤرخ) أندلسي أمكننا التعرف عليه فقيهٌ مشهور اسمه عبد الملك بن حبيب ، (توفي في ٢٣٨/٨٥٢) ، أصبح بعد زيارة للشرق داعياً للمذهب المالكي في الأندلس ، وإذا لم يكن هناك ما يدهش في إقدامه على كتابة سيرة للنبي ، وتاريخ لقريش ، فإنه لغريب حقاً أنه أعطانا شطراً من تاريخ العالم ، سرد فيه أخبار الأحداث منذ خلق الدنيا حتى العصر الأموي ، والمثير في هذا الجزء حديثه عن فتح الأندلس ، حيث كان نسيجاً هشاً من القصص الخرافية الملفقة ، وبناء على ذلك يبدو أنه في بداية القرن الثالث/التاسع لم تكن الظروف المؤاتية لولادة العمل بالتاريخ الحقيقي قد وجدت بعد ، وفي الواقع يحتمل أنه مع الرازي أحمد بن محمد بن موسى (المتوفى في ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م) وابنه عيسى بن أحمد ظهرت أولى الأعمال التاريخية الجديرة بهذا الاسم ، ويشير الأخير من هذين الاثنين ، من نص موجود ، في مقتبس ابن حيان إلى أن التاريخ لم يكن فرعاً من فروع المعرفة ، التي يرعاها الأندليسون ، وقام والده أحمد فجمع روايات من الشيوخ ، ونقلة الأخبار ، وتفحصها ، ومن ثم صنفها وأخرجها في كتاب للتاريخ ، وعلى هذا كان أول من وضع قواعد التأليف التاريخي الأندلسي ، وقد قربه عمله من الأمير وأكسبه وابنه قدراً عظيماً من العناية ، وقد منح هذا الرجلان

الأندلسيين علماً لم يكونوا قد مارسوه حتى في حينه بنجاح[1] ، كان عيسى بن أحمد نفسه الذي أعطانا هذه المعلومات القيمة حول بدايات حركة التأريخ مؤرخاً رسمياً للحكم الثاني (٣٥٠ ـ ٣٦٦/٩٦١ ـ ٩٧٦) ، واعتبر ليفي بروفنسال حوليات الأخبار للقرنين الثالث والرابع/التاسع والعاشر ، كما هي معروضة لدى ابن حيان ، تاريخاً مثّل وجهة نظر البلاط ، فتمحور حول شخص الأمير ، وهو على هذا بالأساس شخصي ، يترك عن عمد أي شيء يمكن أن يزعزع سمعة الأسرة الحاكمة[2] .

وعلى هذا بدأ التاريخ رسمياً ، وتمحور حول الأسرة الأموية مع أن تواريخ محدودة أكثر في الزمان والمكان قد كتبت خلال الفترة نفسها ، كما أوضح ابن حزم في رسالته المشهورة[3] ، واتسع التأريخ العربي في الأندلس وأحرز استقلالاً أكبر منذالقرن الخامس/الحادي عشر،ولكن كما كان متوقعاًفي مثل هذه المنطقة العالية التفرد بين بلدان العالم الإسلامي ، احتفظ التاريخ بسماته المحلية ، لأنه كان فوق كل شيء ، تاريخاً لبلاد الأندلس المسلمة . وهذا لا يعني أن أياً من العلماء الأندلسيين لم يبد أي اهتمام بالشرق أو بالمناطق الأخرى في الدولة الإسلامية ، دون ذكر عدد المصنفات التي تركها الأندلسيون الذين تركوا مواطنهم مؤقتاً أو بصورة دائمة مثل تاريخ إفريقية لمحمد بن يوسف الوراق (توفي في ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م) ونجد في الأندلس نفسها أعمالاً من الواضح أنها تنتمي للتقاليد الشرقية في الكتابة التاريخية ، عدة كتب في السيرة النبوية ربما أكثرها تلك التي كتبها العالم الشهير أبو عمر بن عبد البر (توفي ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م) وقد عدّ ابن حزم كتابه الآخر في التراجم أعني كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، على الرغم من ضالة الروايات التي يعطيها أنه يفوق أي مؤلف آخر من النوعية نفسها ، وهناك معلومات عن شبه جزيرة العرب التاريخية في بعض المؤلفات الأدبية مثل «العقد» لابن عبد ربه (ت : ٣٢٨/٩٤٠) وفي التواريخ العامة ، وحتى ابن سعيد (المتوفى ٦٧٣/١٢٧٤) أوقف كتاباً على هذا الموضوع* ، وتاريخ مختلف البلاد الإسلامية في الشرق هو موضوع بضع عشرات من الكتب بشكل رئيس من

---

* ـ هو نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب نشر في جزأين عمان سنة ١٩٨٢ .

تأليف ابن سعيد ، وابن حيان (ت : ٤٦٩/١٠٧٠) ، ولسان الدين بن الخطيب (ت : ٧٧٦/١٣٧٤) ولم يكن بإمكان المؤلفات الرئيسة عن الأنساب بالطبع أن تغفل الشرق : لقد صنف ابن حزم كتاب الجمهرة ، وهو كتاب يتمتع بأهمية استثنائية في هذا الحقل .

وكانت هذه الكتب بالطبع مصنفات كمنت قيمتها الوحيدة في كتلة المعلومات من الدرجة الثانية التي أعطتها ، وقد اعتمدت على المهارة في العرض ، وهي مع ذلك لاقت منافسة من الكتب المشرقية التي أمكنها أن ترضي فضول كثير من الأندلسيين ، الذين لم يميلوا كثيراً للاهتمام بأي شيء ، لا يعنيهم بشكل مباشر ، وتنطبق الملاحظة نفسها على تاريخ عام اعتمد مباشرة على الطبري ، فقد قام عريب بن سعيد (ت : ٣٧٠/٩٨٠) باختصاره والتذييل عليه حتى أيامه محتفظاً بالمعالجة الكاملة للأندلس ، وجرى تقليد عمل عريب من قبل عدد من الكتاب ، ويحتمل أن هذا الطراز قد اتبع فيما لا يقل عن ستة كتب ، بما فيها كتاب محمد بن أحمد الشاطبي (ت : ٨٥٠/١٤٤٦) الذي ، بلا شك ، قد تنبأ باقتراب نهاية السيادة العربية في الأندلس ، فأكمل بذلك نوعاً من أنواع التقويم أو التثمين التاريخي . ولكن ، ضمن هذا المحيط ، يستحق صاعد الطليطلي الأندلسي (ت : ٤٦٢/١٠٦٩) عناية خاصة ، وكتابه (جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم) مفقود الآن ، ولكن كتاب «طبقات الأمم» يضم خلاصة وافية من التاريخ العام ، حيث قسمت الأمم إلى زمرتين تبعاً لاهتمام كل أمة بالعلوم أو عدم اهتمامها بها ، وتضم الزمرة الأولى الهنود والفرس ، والكلدانيين واليونان ، والروم ، والمصريين والعرب ، واليهود ، وشكل كل من هؤلاء موضوعَ فصل ، بيّن فيه حالة المعرفة العربية بتلك الشعوب في القرن (الخامس/الحادي عشر)(*).
ونحن نجد بالطبع عدداً جيداً من المصنفات وسط الإنتاج الغني من الكتابات التاريخية عن الأندلس ، وطبعاً في هذه يمكن أن نجد أفضل فرصة لنا لاكتشاف السمات الأصلية ، بيد أن النتيجة الواضحة هي ، على أي حال ، غير ممكنة طالما

★ ـ طبع كتاب طبقات الأمم أكثر من مرة ، اعتمدت هنا على طبعة القاهرة (محمود علي صبيح) .

أننا كثيراً ما نواجه بعناوين من المحتمل أن تعجز جميعها بدرجة متساوية عن الوفاء بما تعد به ، أو تخفي الاهتمامات المبدعة ، وبناء عليه بات من الأفضل ضمن إطار تاريخ الأندلس محاولة تمييز فئات عريضة بما يكفي للحد من هامش الخطأ الناجم عن فقدان غالبية النصوص .

(١) **التواريخ العامة للأندلس** : بصرف النظر عن كتاب التواريخ العامة هناك عشرة مؤلفين عملوا في هذا الميدان ، وقد كتب بعد الرازي ابن القوطيه (ت : ٩٧٧/٣٦٧) كتاباً باسم «تاريخ فتح الأندلس» مضى فيه من الفتح إلى حكم عبد الرحمن الثالث ، ومع أن هذا الكتاب لا يمكن حقاً وصفه بأنه كان تاريخاً رسمياً ، فهو لم يعان من عدم رضى الأمويين ، وفي القرن التالي أزيلت هذه العقبة من وجه حرية المؤرخ بسقوط الأمويين ، وتبنى المؤلفون موقفاً أكثر نقداً للماضي ، مع الميل نحو صدق أعظم ، ورياء أقل ، وكتب ابن المعافري القيسي (ت : بعد ١٠٣٩/٤٣٠) تاريخاً للأندلس ، يمكن أن يكون «تاريخ مجهول المؤلف عن عبد الرحمن الثالث»[1] جزءاً منه ، وكان قسماً من كتابه «المقتبس» قد حفظ ، وقد علق ليفي بروفنسال أكبر أهمية على هذا التاريخ معتبراً ابن حيان مؤرخاً متمكناً ، ويتميز كتابه المقتبس الذي دون وفق خطة محكمة بذكره أسماء الأشخاص المهمين ، وتفاصيل أحداث الحكم بدقة تاريخية أكبر(*)، وبعده يأتي عدد من الأسماء الأقل أهمية ، حتى نصل إلى لسان الدين بن الخطيب (ت : ١٣٧٤/٧٧٦) الذي يفصل المعلومات التي كان يعطيها مع إنتاجه المدهش يهيمن على مجمل حركة التاريخ الأندلسية والأدب خلال القسم الأخير من السيادة العربية .

(٢) **تاريخ الأسر الحاكمة** : لقد قدر للمصير التاريخي لاسبانيا المسلمة التي خضعت أولاً للأمويين ثم تجزأت إلى حشد من الإمارات التي لم يتمكن المرابطون

★ ـ عثر على قرابة نصف المجلدات العشر التي تكون منها هذا الكتاب . ونشرت جميعاً فيما عدا الجزء المتعلق بعصر عبد الرحمن الداخل الذي تمتلك أرملة بروفنسال نسخة منه . لم يتمكن العلماء من نشرها .

ولا الموحدون من إعادة توحيدها بشكل دائم ، أن تخرج تاريخاً مزدهراً للأسر الحاكمة الذي غالباً ما يندمج في تاريخ المدن الرئيسة . وكانت غالبية التواريخ المقتبسة حتى الآن مع أنها مبنية ضمن إطار أوسع ـ مركزة على الأمويين ، ويمكن أن تعدّ تابعة لتاريخ الأسر الحاكمة ، ويمكن أن ندخل فيها مؤلفات معاوية بن هشام (القرن ٤/١٠) التي استخدمها ابن حيان وتلك العائدة لابن حزم (ت ٤٥٦/١٠٦٣) ومن قبل كان العامريون وراء كتابة ثلاثة تواريخ (واحد من قبل ابن حيان) وفي ظل نظم ملوك الطوائف كان كل حاكم متلهفاً على تسجيل تاريخ أسرته ، ولدينا نزر يسير من محتويات هذه الكتب جاء بمثابة نقول في المصنفات المتأخرة (مذكرات الأمير عبد الله سيأتي ذكرها فيما بعد) وبالنسبة للفترة التالية كان ج بوش فيلا J.Bosch Vila في تاريخه حول المرابطين قادراً فقط على أن يحصّل بضع خلاصات من ابن الصيرفي (ت ٥٧٠/١١٧٤) ، المؤرخ الأندلسي الذي أرخ للمرابطين ، ومثله عندما شرع (أ . هويسي ميراندا A. Huici Miranda) بكتابة تاريخ الموحدين وجد تحت تصرفه مجلداً واحداً فقط من كتاب «المن بالإمامة» «لابن صاحب الصلاة» ، المؤرخ الأندلسي الذي عاصر الموحدين وأرخ لهم(*)، وكانت جميع مصادرهم الأخرى مغربية ، وكذلك معظم الأعمال المفصلة التي ما تزال لدينا حول الأمويين والفترات الأخرى في التاريخ الأندلسي (عبد الواحد المراكشي ، وابن عذاري ، وابن خلدون ، والمقري ، إلخ)[٥] ، ومن جانب آخر ، لقد توفرت لنا معلومات أفضل حول مملكة غرناطة ، ولا شك أن شخصية لسان الدين بن الخطيب القوية قد أسهمت في المحافظة جزئياً على كتابه التاريخي ، وإن ضياع نصوص عديدة حول تواريخ مدن معينة : تاريخ بطليوس للأعلم البطلوسي (ت : ٦٤٦/١٢٤٨) وتاريخ مالقة لابن عسكر (ت : ٦٣٦/١٢٣٨) وتاريخ المرية لابن الحاج (ت : ٧٧٤/١٣٧٢) ولابن خاتمة (ت : ٧٧٠/١٣٦٩) وتاريخ اشبيلية لابن الشاة (ت : ٧٢٣/١٣٢٣) . . إلخ حرمنا من أن يصار للتقويم ، وتركنا عاجزين عن تحديد الطريقة التي اعتمدها مؤلفوها ، ولكن من المحتمل جداً أنها كانت مجموعات من التراجم لأناس مهمين

★ ـحققه عبد الهادي التازي وطبع في بيروت أولاً ثم طبع ثانية في بغداد عام ١٩٧٩ .

في المدن موضوع البحث ، ويمكن بناء عليه ، من أجل القسم الأعظم أن يدخل في الزمرة التالية مباشرة .

(٣) مصنفات التراجم : من الضروري لكتابة تاريخ عام أو متعلق بأسرة حاكمة حتى على شكل حوليات أن يكون لديك إحساس تاريخي معين . وهو الفهم التركيبي ، الذي ، كما هو معروف ، غالباً ما كان مفقوداً لدى العرب(*)، الذين وجدوا بحكم حبهم للتفاصيل مجالاً واسعاً بلا حدود في مادة تطلبت التصنيف فقط ، في ترتيب حولي للأحداث أو حتى ببساطة أكثر حسب النظام الأبجدي حيث تتبع نمطاً معيارياً جاهزاً ، وتقدم معلومات مأخوذة من كتابات أقدم أو مجموعة بصورة شخصية ، وكانت صورة التراجم هذه هي المرعية على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وكانت بشكل خاص هي الطراز الرائج الأندلسي حيث لحسن الحظ اكتشف الكثير من مثل هذه المجموعات ، ونشر .

ومع أنه في كتابة التراجم يرى التاريخ فقط من خلال الأشخاص الذين صنعوه . فإن توالي الزمن كان يحترم بشكل عام طالما أن طريقة الترتيب الزمني للطبقات كانت معتمدة ، وكانت هذه الحالة في الأندلس مع طبقات العلماء والدارسين (الخشني ت : ٩٧٠/٣٦٠) (وابن الدباغ ت : ١١٥١/٥٤٩) ، والنحويين (الزبيدي ت : ٩٨٩/٣٧٩) وابن الخزرج (ت : ١٠٨٥/٤٧٨) ، والقرا (أبو عمرو الداني ت : ١٠٥٢/٤٤٤) ، والشعراء (عثمان بن ربيعة ت : ٩٢٢/٣١٠) والكتّاب (أقشتين ت : ٩١٩/٣٠٧) ، (وسكن بن سعيد ت : ١٠٦٦/٤٥٧) والأطباء (ابن جلجل ، ت بعد ٩٩٤/٣٨٤) وأيضاً عن طبقات الأطباء القدامى وأطباء المشرق، إلخ، وبالحكم فقط من عناوين الكتب، يبدو أن هذا النمط من المجموعات المتعلقة بالتراجم قد هجر بسرعة لصالح التصنيف الأبجدي ، والشيء نفسه ينطبق - إذا لم أخطىء - على تواريخ التراجم ،

★ - هذا حكم مرفوض ومتسرع جل ما مضى من أبحاث يدحضه .

التي تحترم توالي الزمن ، والمثال الأندلسي النموذجي لها هو تاريخ القضاة للخشني .

ولكون الطريقة الأبجدية أسهل في التطبيق ، فصلت كتابة التراجم نوعاً ما عن التاريخ بالمعنى الصحيح ، وكانت على أي حال مستعملة على نطاق واسع في الأندلس ، كما كانت في الشرق ، وما هو مثير للدهشة أكثر ، عند فحص هذا النوع الأدبي في الأندلس ، الاستمرارية الكبيرة لكتاب التراجم ، الذين تابعوا وهم يصنفون في معاجمهم أناساً من كل نوع ، أندلسيين وأجانب (طالما أنهم جاؤوا إلى الأندلس) أو صححوا وأكملوا بعضهم بعضاً ، وعلى سبيل المثال «جذوة المقتبس» الذي ألفه الحميدي (ت : ١٠٩٥/٤٨٨) في بغداد من مادة غير وافية تمت متابعتها من قبل الضبي (ت : ١٢٠٢/٥٩٩) ، والمثل الأفضل هو كتاب تاريخ علماء الأندلس (لابن الفرضي ت : ١٠١٣/٤٠٣) الذي ، على الرغم مما تقدمه ، يمكن أن يعد موجد هذا النوع ، الذي أدى إلى خروج كتاب الصلة ، لابن بشكوال (ت : ١١٩٢/٥٨٧) الذي أكمله كاتبان أو ثلاثة من معاصريه ، وخاصة ابن الأبار (ت : ١٢٦٠/٦٥٨) في مصنفه تكملة لكتاب الصلة (الذي يحوي ثبتاً بأسماء مصادره العديدة) ، ثم ابن الزبير (ت : ١٣٠٨/٧٠٨) في كتابه «صلة الصلة» ، الذي أكمله بدوره ابن الخطيب .

وإلى جانب هذه المجموعات العامة يجب أن لا يغفل المرء حشداً من كتب التراجم التي ترجمت أحياناً للعلماء أو للناس المهمين في مدينة ما : ابن عبد البر (ت : ٩٤٩/٣٣٨) عن قرطبة ، وقاسم بن سعدان (ت : ٩٥٨/٣٤٧) عن رية ، وأبو اسحق الباجي (ت : ٩٦١/٣٥٠) حول (باجه) وابن الخطيب عن غرناطة ، إلخ ، وترجمت في أوقات أخرى لمجموعات من الأفراد كانوا يتبعون المهنة نفسها ، وهذه الزمرة الثانية التي سلف ذكرها ، مرتبطة مع المجموعات المقسمة إلى طبقات ، ويجعل نقص المواد الكافية بالنسبة لهذا النمط من الكتابة من المتعذر تعداد الكتب الأخرى ، لأننا لا نعرف طريقة العرض التي اتبعت ، ويمكن ببساطة أن نلاحظ أن هناك مجموعات قليلة من كتب التراجم هذه ، وعلى حد معرفتي ، وجد اثنان فقط ، مؤلفاهما هما ابن الطيلسان (ت : ١٢٤٤/٦٤٢) وابن الحاج (ت : ١٣٧٢/٧٧٤) . وبنوع من الفضول يمكن أن نذكر أيضاً سير

شهيرات النساء لسليمان بن نجاح (ت : ٤٩٦/١٠٠١) ويمكن إضافة كتب تراجم عديدة لأفراد مستقلين ، ولكن بالنسبة للحاضر سنلفت الانتباه فقط إلى مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين الزيري (ت : حوالي ٤٨٣/١٠٩٠) وهي ليست مهمة لقيمتها التاريخية فحسب بل لأنها تمثل أيضاً نوعاً ندر وجوده في الأدب العربي .

وهناك نوع آخر ذو طبيعة خاصة حقاً ، وكان رائجاً بالدرجة نفسها في المغرب هو الفهرس (أو البرنامج)[1] الذي هو عبارة عن قائمة بأسماء الشيوخ والكتب التي درست تحت إشرافهم ، وقد حرص معظم العلماء حرصاً شديداً على تركها للأجيال التالية ، وقد قدمت هذه الفهارس المادة التي استمد منها كتاب التراجم بوفرة ، ومن خلال استعمالها كان السرد الرتيب لشيوخ الموضوع يجد طريقه إلى التراجم الفردية ، ويعود أقدم الفهارس إلى القرن الخامس/الحادي عشر ، ويحتمل وجود ما هو أقدم ، ولكن الأكثر أهمية بين الذي بقي محفوظاً هو كتاب ابن خير الاشبيلي (ت : ٥٧٥/١١٧٩) الذي قدم تفاصيل خاصة عن الكتب التي كانت معروفة بالأندلس في أيامه .

(٤) **التواريخ المنظومة شعراً** : كان من مزايا حركة التأريخ في الأندلس وفرة التواريخ المنظومة شعراً أو الأراجيز التاريخية ، وفي حالات كثيرة جداً يبدو أننا لا نتعامل مع شعر تعليمي نزاع للوعظ ، أو مع نظم الرواية من الحافظة ، بل على العكس من ذلك فإننا نتعامل مع شعر أصيل أقرب إلى الشعر التأريخي منه إلى الملاحم ، وقد مارس عشرة أو نحوهم من الشعراء هذا الشكل ، من الغزال (ت : ٢٥٠/٨٦٤) نزولاً إلى ابن الخطيب (ت : ٧٧٦/١٣٧٤) وبينهم ابن عبد ربه (ت : ٣٢٨/٩٤٠) وابن زيدون (ت : ٤٦٣/١٠٧٠) وابن عبدون (ت : ٥٢٩/١١٣٤) وآخرون أقل أهمية .

لقد كان التأريخ العربي بالأندلس كما يمكن رؤيته من هذا العرض الموجز وفوق كل شيء ، خلال ثبت بونز بويغس Pons Boygues الحاوي لما يزيد عن ثلاثمائة مؤلف من نوعيات واسعة الاختلاف ، كان وافراً غنياً ومتنوعاً ، وكل الأنواع التي خبرها العرب لها وجود فيه لأسباب مختلفة ، ولكن فوق كل شيء ،

ما يهم المؤرخين بحق تماماً هو تاريخ الأندلس ، إنه معروض في تواريخ عامة أو تواريخ أسر حاكمة ، أو في مجموعات التراجم تلك ، التي تشكل بالنسبة لكثير من العلماء تاريخاً(٧) . وكانت الأندلس حتى القرن الرابع/العاشر ما تزال ثقافياً معتمدة على الشرق ، ولم تخرج عملاً أصيلاً ، وإذا افترضنا أن التقاليد التاريخية المرتبطة بشكل خاص بالفتح ، قد سجلت في وقت متقدم تماماً ، وتم الأخذ عنها من قبل مؤرخين متأخرين ، فإنه يجب مع ذلك أن ننتظر الكشف عن مؤلفات محجوبة عنا في الوقت الراهن لتقدير مجال ذلك النشاط ، وأصبح الأندلسيون مع قيام الخلافة الأموية (٣١٦/٩٢٩) يشعرون تدريجياً بتميزهم ، لكن دون قطع لروابطهم التي وصلتهم بالشرق ، وأعلنوا عن فخارهم ، وتفوقهم ، وظهر هذا الشعور في الدفاع عن الأندلس وفي تمجيدها بشكل موضوعي لدى ابن حزم ، وبشكل أكثر موضوعية لدى الشقندي ، (ت : ٦٢٩/١٢٣١) في رسالته الشهيرة ، وليس هناك ما يدهش من تلهف الأندلسيين على ترك سجل مكتوب عن تاريخ بلادهم ، وقد شجعهم على هذا الإتجاه سادتهم العظام في تلك الأيام ، وما أن أرسى الرازي القاعدة ، وضرب المثل حتى بدأوا بحماس بتجميع كل المادة المتوفرة ، والإستفادة منها .

ومع أني لم أتول كتابة بحث خاص عن الخلفية الاجتماعية ، والتكوين الفكري للمؤرخين فإنه يمكن القول بأنهم جميعاً كانت لديهم ثقافة إسلامية أساسية ، وكان كثير من كتاب التراجم فقهاء ، أو قضاة . بينما بدا أن مؤرخي الأحداث كانوا بشكل عام أكثر ميلاً نحو ثقافة أدبية أوسع ، وكان عدد منهم ، بين القدامى على الأقل ، مؤرخين رسميين ، وإذا كان خلفهم قد تمتعوا بحرية أعظم ، وفي بعض الحالات ، عندما كانوا بعيدين عن الأندلس ، كتبوا تاريخ أسرة حاكمة لم تعاملهم حسب ما يستحقونه ، مع ذلك بقي الشخص أو عائلة الأمير الحاكم الموضوع المفضل لكثير من مؤرخي الأحداث ـ ليس على أي حال ، لأنهم كانوا عاجزين عن أن يكونوا موضوعيين تماماً بل لأنهم كانوا يريدون أن يبقوا صامتين بشأن مؤثرات البلاط ، والفضائح الصغرى .

وتظهر فنون التأليف درجة من التماثل ، فقد صنفت الوقائع في بعض التواريخ حسب الحكام ، ولكن طريقة الحوليات تكرر استعمالها كثيراً ، فسجلت

الأحداث عاماً عاماً ، وشهراً شهراً . ويذكر المؤلف في كتب التراجم تاريخ مولد المترجم له ووفاته وقائمة بأسماء شيوخه ، ورحلاته في طلب العلم ، والكتب التي صنفها ، والمناصب التي شغلها ، وغالباً ما نقلت الأشعار والأخبار والحكايا المتعلقة .

ولئن كان من الممكن الاعتماد على عدد كبير جداً من المصنفات التاريخية ، وكون بعض المؤلفين قد أظهر أدلة على المقدرة النقدية ، فإن أسباب الحوادث التاريخية نادراً ما تم البحث عنها ، وكثيراً ما أعوز الحس التاريخي الكتاب الذين على هذا تقدم مؤلفاتهم فـائدة وثائقية فقط ، وما أن ترسخت التقاليد حتى بقيت واحتذمت بحرص ودقة (كما رأينا من التراجم) ، ولم يحلم أحد مطلقاً بالتخلي عنها : لقد كانت الأندلس هي الشغل الشاغل ، ولكن الأندلس المسلمة[8] فقط هي التي كانت موضوع بحوث العلماء ، وكان للعناصر الإسلامية وحدها الحق في اعتبارها جزءاً من التاريخ ، لكن من انتمى منها إلى الجند أو الارستقراطية الفكرية فقط ، وأما بقية السكان فكانت لا تهم ، وكان المسيحيون الذين استحقوا الذكر فقط أولئك الذين تمت مواجهتهم في ميدان المعركة[9] . ولم نُذّكر قبل مجيء ابن حزم إلى المسرح بوجود المسيحيين واليهود على تراب الأندلس تحت السيادة المسلمة ، وجاء ذكرهم آنذاك في تاريخ عام للأفكار[*] الدينية التي كان عليها أن تبقى جزءاً معزولاً في الأدب العربي .

★ ـ في هذا إشارة إلى كتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزم .

هوامش البحث

(١) ليفي بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الإسلامية : ٥٠٤/٣ .

(٢) المرجع نفسه : ٥٠٥/٣ .

(٣) ترجمها شارل بيلا في الأندلس (١٩٤٥/١) ، وقد فقدت هذه التواريخ الآن ، وهي تتعامل بشكل رئيس مع الثوار ضد السلطة الأموية ، كما نقلت مباشرة عن أحمد الرازي ـ وينسبها بروكلمان خطأً (ذيل : ٢٣١/١) إلى هذا المؤلف .

(٤) ترجمه وحققه ليفي بروفنسال وغراسيا غومز مدريد ـ غرناطة ١٩٥٠ .

(٥) لم يؤخذ خلال هذه المقالة بالاعتبار سوى المؤلفات التاريخية للأندلسيين ، ويجب أن يكون المرء مع ذلك دقيقاً ، في عدم فصلها بحدة كبيرة عن بقية المؤلفات التاريخية المغربية ، أو نسيان أن تاريخ الأندلس لم يكتب في شبه الجزيرة الايبيرية فقط .

(٦) حول هذه الفئة من المصنفات انظر عبد العزيز الأهواني في مجلة معهد المخطوطات العربية (١٩٥٥)١/١/٩١ - ١٢٠ .

(٧) انظر إ . ليفي برفنسال «أجل من التاريخ تراجم الكبار» مؤرخو الأشراف ص ٤٥ .

(٨) عولجت فترة ما قبل الإسلام من تاريخ الأندلس ، لكن بإيجاز وبطريقة تقليدية ، دون أن تثير على مايبدو أية دراسات أصيلة .

(٩) يبدو أن الاهتمام بالنصرانية كان ملحوظاً أكثر عند الجغرافيين أكثر منه بين أوساط المؤرخين الحقيقيين .

١٠- تطور أعمال التأريخ الفارسية

برترلد شبولر
أستاذ الدراسات الاسلامية في جامعة هامبورغ

يجب أن لا تؤخذ الملاحظات التالية حول تطور أعمال التأريخ الفارسي في الاعتبار كتاريخ ، بل بالأحرى كمخطط لبعض الأفكار المبنية على افتراض أن أسماء المؤلفين والحقائق الرئيسة معروفة ، إنها حقيقة مشهورة لدى كل المختصين في أعمال التأريخ الفارسية أن أي عمل مكتوب بالفارسية يعالج تاريخ فارس حتى فترة المغول (القرن الثالث عشر) نادراً ما وجد ، والأعمال حول القرون الأولى لفارس الداخلة في الإسلام ، أي الفترة مابين نحو ٦٤٢ و ١٢٥٥ يجب أن تقوم على مصادر باللغات الأجنبية والعربية في المقام الأول .

وعندما نحاول شرح هذه الحقيقة يجب في رأيي أخذ بعض العوامل في الاعتبار ، أولاً يبدو أن التأريخ لم يكن ذا أهمية كبيرة لدى إيراني ما قبل الإسلام . ولا نعلم أي عمل حقيقي عن هذه الفترة ، وتروي نقوش بستون الشهيرة ، وأماكن أخرى في إيران أعمال مختلف الملوك في نوع من التقارير العامة ، ويمكن أن نفترض أن دفاتر السجلات الرسمية المذكورة في سفر دانيال كانت ذات طبيعة مشابهة ، وإضافة لذلك كانت تحوي قوائم بسيطة لحقائق وتواريخ إلى جانب نسخ لملاحظات رسمية ، ورسائل لمساعدة موظفي الدولة في عملهم الوظيفي .

ونشأت في فترات لاحقة خاصة خلال حكم الساسانيين (من القرن الثالث إلى السابع) أساطير تغطي كامل التأريخ الفارسي المعروف ، ولكنها تستبعد معظم الأحداث الهامة ، وتقدم الأحداث السياسية كفعل شخصيات رئيسة قليلة ،

أبطال وزوجاتهم يمثلون تقرير الذات الأسطوري للطبقات القيادية لهذا الشعب ، وتمثل هذه الأساطير قليلاً من التاريخ الفعلي مثلما على سبيل المثال يمثل نشيد رولاوند(*) والنبلوغينليد NibelugenLid ، وهكذا يجب أن نقرر كما يبدو أنه لم توجد كتابات تاريخية حقيقية في فارس ما قبل الإسلام ، وتؤيد هذا القرار حقيقة أنه لم يوجد بين الكتابات الزرادشتية لطوائف ما بعد الإسلام في فارس ، ولا بين البارسيين في الهند (أي اللاجئين الزرادشت في عام ٧١٧) مؤلف تاريخي حقيقي سواء من قبل الإسلام أو من منشأ متأخر .

وعليه يجب أن نفترض أنه لم يكن هناك أنموذج أصلي للتاريخ الفارسي عندما فتح العرب الهضبة الإيرانية ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، كان لدى العرب نوع من التقاليد التاريخية حتى قبل قيام الإسلام ، تلك التي دعيت باسم أيام العرب (أي أخبار معارك وحروب العرب) التي وصفت في تفصيل حقيقي الحملات بين قبيلتين أو أكثر ، مع الأعمال البطولية لقادتهم ، وللتأكد كان هذا النوع من التاريخ أسطورياً أيضاً إلى درجة كبيرة ، مثل ذلك ما هو موجود في كتب الملوك الإيرانية ، ولكن قربه من الحياة ، واهتمامه بمشاعر الجماهير ، والإحساس بالتفاصيل الممكنة والحقيقية (بدون مبالغة أسطورية) جعله مناسباً لأن يكون نواة للروايات التاريخية الحقيقية ، ويبدو أكثر أهمية بالنسبة لي أن الإسلام كدين لم يقم فقط على كتاب مقدس ، بل أيضاً على أقوال النبي (ﷺ) وأفعاله ، مشكلاً قاعدة معيارية بالغة الأهمية في حياة المسلمين ، وكان لا بد من جمع هذه الأحاديث والأفعال ، وفحصها نقدياً ، وإنها لحقيقة شهيرة أنه من هذا الفحص نشأ علم الحديث ، مع علومه المساعدة: السيرة ، الطبقات ، وأخيراً التأريخ العام ، بمعنى

★ ـ رولاند شخصية نصف أسطورية ، قيل كان قائد ساقة جيش شارلمان الذي غزا الأندلس أيام عبدالرحمن الداخل وقتل رولاند في طريق العودة ، وعنه وعن الحضارة العربية في الأندلس نسجت ملحمة نشيد رولاند ، أما النبلوغينليد فهي أقدم ملحمة لدى الألمان ، لا بل أعظمها بقيت منها أجزاء تعود إلى القرن الثالث عشر ، وهي مثل نشيد رولاند غير معروفة المؤلف ، صنعت من الحكايا الشعرية ثم تطورت مع الأيام حتى أخذت شكلها النهائي .

وصف أعمال الله مع شعبه المختار ، تاريخ عام بمثابة تاريخ لتحرير جماعة الله المقدسة : المسلمين .

ولا حاجة لنا للدخول في تفاصيل هذا التطور ، بل يجب فقط تأكيد أنه كان هناك أصل للتأريخ في اللغة العربية ، ولكن لا شيء في الفارسية ، ويبدو لي ، وهذا سبب هام ، أن كل الايرانيين المهتمين بالتاريخ تقريباً قد كتبوا ـ وكان عليهم أن يكتبوا ـ أعمالهم بالعربية : الطبري ، الدينوري ، والبيروني مع آخرين . وقد تبنوا نمط التاريخ العربي إلى حد أن الطبري قد أعلن من قبل رينان Renan ، ونولدكه Noldeke ، وكولسكي Koulski على أنه مثال للنوع السامي(*) من كتابة التاريخ في صورة حكم وأقوال مأثورة . (الطبري . إيراني من طبرستان) أضف إلى هذا أنني أفترض سبباً آخر دفع بالمؤرخين المسلمين الأوائل إلى كتابة أعمالهم بالعربية ، هو رغبتهم في تقوية صلاتهم بكامل العالم العربي (أعني كامل العالم الإسلامي) وكان تأثير العربية في العالم الإسلامي بثقافتها المتطورة جداً عظيماً إلى درجة أنه كان مجانباً للحكمة كتابة التاريخ بأية لغة أخرى غير العربية .

لقد كان مجانباً للحكمة كتابة التأريخ الفارسي(**) بأية لغة أخرى سوى العربية بالنسبة لأولئك الذين اهتموا بالعلاقات الإسلامية المشتركة ، وكانت العربية مستخدمة بينهم بالطريقة نفسها مثل اللاتينية في أوربا خلال العصور الوسطى ، ولكن هل كان كل الإيرانيين مهتمين حقاً بالصلات مع العالم الإسلامي ؟ يجب أن يكون الجواب : لا بأي شكل ، إننا على علم تام بحقيقة أن كثيراً من أعضاء النخبة الفارسية قد تبنت الإسلام في وقت مبكر جداً ، لقد أدركوا أنهم بفعل ذلك فقط يمكنهم المحافظة على قيمهم الاجتماعية ، وقد حافظوا

★ ـ بات من المقرر علمياً أنه ليس هناك شعوب أو لغات سامية ، وبما أن سام شخصية توراتية أسطورية ، وحيث أن العرب منذ الأزل أبناء وطن واحد ، واللغات القديمة انتمت جميعاً إلى أسرة واحدة ، العربية هي الأم والأب لها : هناك شعب عربي ولهجات عربية .

★★ ـ لم تكن شعوب الامبراطورية الساسانية تشكل أمة واحدة ذات لغة واحدة ، وبعد الفتح الإسلامي بقرون امتلكت شعوب الهضبة الإيرانية نواة لغة جديدة معتمدة على العربية إلى أبعد الحدود ، وقد تطورت هذه النواة إلى لغة انتشرت واعتمدت في الكتابة والآداب .

عليها حقاً مثلما فعل البوشناق خلال القرن الرابع عشر حين أصبحوا مسلمين ، وبذلك استطاعوا المحافظة على مشاعرهم الاجتماعية ، وقد نأخذ هذا كبرهان نضيفه للأسباب الاقتصادية التي تحكمت بتحولهم إلى الإسلام ، وقد لا يفهم هذا الإحساس الاجتماعي في أي مكان بمثل الوضوح الذي في أساطير الملوك القدماء وأبطالهم ، وإن هذا الطراز من الأدب بقي بعد الفتح الإسلامي بسبب حقيقة أنه كان ما يزال هناك طبقة تعيش حسب هذه التقاليد التاريخية ، وبالنسبة للسمات الاجتماعية الموصوفة في الأدب كمثل خاصة بهم ، لم تكن هذه الطبقة مما عرف باسم الدهاقين بأي حال مهتمة بتاريخ إيران الإسلامية : لقد قرأوا ـ أو بالأحرى ـ غالباً ما استمعوا إلى تلاوة كتاب الملوك مع وصف الأعمال البطولية لأسلافهم المزعومين ، الذين أحسوا ، وتكلموا ، وعملوا بالطريقة نفسها ، كما فعلوا هم ، وكان بلا طائل وصف تاريخ فارس المسلمة لهم حتى بالفارسية .

وفي تناظر مع الحالة بين اللغات اللاتينية واللغات العامية المختلفة في أوربا ، كانت الفارسية لغة كبيرة التطور مع تقاليد محكمة جيدة التنظيم ، وأنا مقتنع أن الفارسية كانت مهملة في الأعمال التاريخية والعلمية الأخرى ، لا لأنها كانت غير موائمة ، بل بالأحرى لأسباب اجتماعية كما ذكر في وقت متقدم .

ولكن الزمن تغير وبدأت الأسر الحاكمة في حكم أجزاء كبيرة في إيران ، وكان هناك ثلاثة أنماط لمثل هذه الأسر : عدد مثل الزياريين ، وأمراء مازندران (شمال إيران) الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد ، كان هؤلاء ممثلين للإحياء الساساني ، أو للتقاليد الزرادشتية الحقيقية ، وبالتالي كل الحقائق المذكورة أعلاه يمكن أن تنطبق عليهم ، وتمثل نمط ثان في الحكام الزيود في جيلان مع الصفاريين ، فهؤلاء لم يكونوا تابعين لجماعة السنة أتباع الخلفاء الحاكمين بل للشيعة أو الطوائف الأخرى المختلفة ، وكان لهذه الطوائف نفوذ هائل على جماهير الشعب الايراني ولها وللطوائف الصوفية يجب أن تعزى بواعث دخول عدد كبير في الإسلام ، مع محرضات دينية (وليس اجتماعية) ينبغي أن توصف ، وقد وصفت هذه الحقيقة وبرهن على صحتها من خلال نقول من المصادر أودعتها بعض منشوراتي ، ولا أريد أن أدخل في تفاصيل أكثر عن هذه النقطة الآن ، وعلى أي حال لم تكن الطوائف الشيعية هذه التي عدت خارجية من وجهة نظر الحكومة

مهمة بالمفهوم الرسمي للتاريخ الإسلامي ، وبالنسبة لهم كانت المفاهيم الدينية التي لم تعكس مذهب الخلفاء ، أكثر أهمية من التطور التاريخي الحقيقي .

لقد كان النمط الثالث من الأسر الحاكمة هو الذي أصبح هاماً من أجل تطور أعمال التاريخ لاعتمادها الفارسية في كلامها ، وبين هؤلاء يعد السامانيون في شمالي شرقي فارس (خراسان) ، وما وراء النهر (القرنان التاسع والعاشر) هم الأكثر أهمية ، لقد كانوا فريقاً من السنة الأصوليين ، وتظاهروا ـ بناء على ذلك ـ بأنهم فقط ولاة للخليفة وفي الحقيقة : لقد كانوا حكاماً مستقلين ، لقد اعترفوا بالديانة الرسمية ، والنظرية الحكومية للخلافة ، وأمكنهم بناء على قوتهم السياسية والعسكرية في أقاليمهم ، أن يدعموا إرسال بعثات خارجية تدعو للإسلام ، وعاش على طول الحدود لكامل العالم الإسلامي ـ في فارس كما في كل مكان ـ طوائف من مرابطي الثغور من المتطوعة ، والغزاة وبما أن غالبية هؤلاء كانوا من السنة ، فقد نالوا تأييد الحكام السنة ودعمهم ، وكان السامانيون هم الحكام في خراسان والسند ، وأصبحت القبائل التركية في آسية الوسطى هدفاً لهؤلاء الدعاة ، ومنذ نحو سنة ٩٦٠ أي ما يزيد على ألف سنة مضت أسلم الأتراك تقريباً ، وانتمى الأتراك إلى أكثر أتباع الإسلام حماساً وغيرة ، ومع أن السامانيون كانوا يستخدمون في دواوينهم وإداراتهم العربية حصراً كان لديهم شعور بأهمية الفارسية كلغة ثقافية للإسلام ، وهكذا رعوا تطور الشعر الفارسي الجديد بالفارسية الجديدة ، وتعود بداية أعمال التاريخ باللغة الفارسية إلى هذا التطور الثقافي إضافة إلى الحاجة لجعل الرعية على معرفة بالمفهوم الإسلامي للدولة ، وغالباً ما كان بين التدابير الأخرى التي بذلوها لبلوغ هذا الهدف نشر نسخ فارسية مختصرة من كتاب الطبري «تاريخ الرسل والملوك» ، وكان الطبري مؤلفاً سنياً من أصل إيراني ، وكان في الوقت نفسه واحداً من أكثر مفسري القرآن ثقة ، وكان عالماً عدّ مؤلفه التاريخي سنياً ، اهتم بشدة بالأحداث الفارسية ، وبالعلاقات بين فارس والخلافة ، وقد بينت هذه الترجمة للفرس من السنة ، المخلصين للخلفاء وضعهم ضمن العالم الإسلامي بطريقة إيجابية تماماً ، وبالنسبة للسامانيين لم تكن ترجمة الطبري إلى الفارسية عملاً ثقافياً فقط بل سياسياً أيضاً ،

فقد كان مصير الأمة الفارسية كما وصفه الطبري مقدراً له أن يحتل مكاناً بين الرعايا السنة المخلصين للخليفة .

وبعد ترجمة تاريخ الطبري مباشرة إلى الفارسية (حوالي ٩٦٣) أصبحت الأسر التركية حاكمة على معظم الأقاليم الفارسية ، ولكونهم من السنة المتحمسين كما تقدم وصفهم أصبحوا الورثة الثقافيين للسامانيين الإيرانيين : فأعظم الغزنويين ، محمود كان حامي الفردوسي، إضافة إلى كونه المشجع الحقيقي للاسلام (السني) في وادي الهندوس .

ومع ذلك فإن عصراً جديداً قد بدأ في الأجزاء الآسيوية من الشرق الأوسط مع هيمنة الشعوب الغُزية التركية في القرن الحادي عشر ، في السياسات إضافة إلى طبيعة الزمان وحركته (حسب تعبير ، غ غرونباوم) وتميزت فترات السلام الداخلي التي ضمنها الغزنويون ، والسلاجقة والخورازمشاه في مناطق واسعة من غرب آسيا بمشاعر سنية أصولية ومعادية للأوربيين ، نتيجة الحروب الصليبية ، وقمع أو على الأقل كبح للنفوذ الهلنستي في الفلسفة ، والدين ، والعلوم .

وأحد البراهين الهامة على عظمة وعمق الثقافة الفارسية ، هو السرعة التي كيّف بها الأتراك أنفسهم معها ، وأصبحوا من أتباعها المتحمسين ، وبالنسبة للأتراك ، كانت فارس هي المثالية في الحياة : وكان العالم العربي واللغة العربية دائماً يأخذان الموقع الثاني بالنسبة لهم ، وقد أكمل الأتراك انتصار الفارسية كلغة ثقافية ثانية للعالم الإسلامي ، وفي الوقت نفسه ، تم إدخال عدد كبير من التعابير العربية الخاصة فيها ، وقد شجعوا استعمال الفارسية أكثر مما فعلت الأسرة الحاكمة الإيرانية المتقدمة .

وبالنسبة لهم أصبح تاريخ الطبري المترجم المصدر الرئيس لمعلوماتهم التاريخية ، وقد برهنت النسخ العديدة منه وأعمال محاكاته ، وحتى الترجمات التركية فيما بعد شعبيته ، ومن الواضح أن هذا الكتاب كان كافياً لاهتمامهم ، وكانوا كداخلين جدد في الإسلام قد أهملوا تاريخهم لما قبل الإسلام الذي ـ للتأكيد ـ كان معروفاً بشكل طفيف فقط ، ومن المؤكد أنه لم يزعجهم ، إهمال أسلافهم الوثنيين في ترجمة البلعمي لتاريخ الطبري ، وبهذه الطريقة يبدو أن المؤلفين من الفرس لم يشجعوا على نشر الإسهامات الفارسية الجديدة في حقل التاريخ ، وهكذا فإن

إنتاج الشروح التاريخية الفارسية طفيف جداً تحت الحكم السلجوقي والخوارزمي .

ومن جانب آخر بقيت طائفة الدهاقين قوية بعد الغزو التركي ، وكانت مثلها ما تزال حية ، وأصبح شعر الفردوسي بسرعة كبيرة إنجيلاً ، وقانوناً تاريخياً ، أعني المرشد إلى طريق الحياة لهذه الطائفة ، وفتنت نكهته ، التي لا تقارن ، الأمة بأكملها ، وصنعت شخصيات الأبطال الذين بدا أنهم الممثلون الحقيقيون للطبيعة الفارسية ، وهكذا أصبحت الشاهنامة بسرعة بعد تأليفها الملحمة الوطنية للفرس ، وتعايش الكتابان معاً : ترجمة الطبري والشاهنامة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر كممثلين للمظهرين الثابتين حقاً للطريقة الفارسية للحياة .

وحاول السلاجقة في لهفتهم التي كانوا عليها لتبني الثقافة الفارسية أن يسلموا إلى النسيان حتى أصلهم الطوراني ، وأن يحولوا أنفسهم إلى إيرانيين ـ إذا استعملنا تعابير الفردوسي ـ وحقاً لم يسم الجيل الثاني بل حتى الثالث من الأمراء السلاجقة أطفالهم بأسماء تركية فقط ، بل في الوقت نفسه ، بأسماء إيرانية فردوسية ، وجميع الأسماء التالية : كيكاوس ، وكيقباذ ، وتهتمن ، ورستم ، وزال ، كانت تركية بالأصل (وغالباً ما أظهر الاسم الثاني لهم مثل : قلج أرسلان ومثله كثير ، تبنيها بوضوح) ولكن إيرانية بالثقافة (آسيا الصغرى مستثناة إلى درجة معينة) ، لا بل حتى بالنسبة للغتهم .

وللتأكيد إنهم لم يتابعوا الخط القديم للتقاليد الدهقانية بقدر ما كان الفردوسي يرمز للمجد العسكري ، ولكن ليس بالنسبة لكل طريقتهم في الحياة لأنهم تبنوا الإسلام ليس فقط لأسباب إجتماعية ، بل لأسباب دينية حقاً ، وبقدر ما مجد الفردوسي الماضي الزرادشتي لإيران ، كان السلاجقة خصومه العنيدين ، وسمح للأدب الإيراني لفترتهم بوصف وقائع تاريخ ما قبل الإسلام وفتراته ، كما فعل النظامي ، لكن لم يسمح لهم بأن يكونوا معادين للإسلام ، أو مهملين لوجهات النظر الإسلامية ، وهكذا فإن تركيبة بين الفارسية التقليدية ، التي كانت تقريباً لغة هندو ـ أوربية كلية ، واللغة العربية لغة الدين والعلوم أوجدت خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر بإدخال كثير من الكلمات العربية المستعارة : ويبدو أن هذا كان الثمن النفسي الذي كان على اللغة الفارسية أن تدفعه حتى

تكون مقبولة كلغة ثقافية إسلامية ، وسمح خلال هذين القرنين نوع من التعايش بين الحكام الأتراك والمجتمع الدهقاني غير المهتز بشكل جوهري باستمرار التقاليد القديمة بين دوائر معينة من الشعوب الفارسية ، وأفرز العمل بالتاريخ عدداً متزايداً من التراجم من أصول عربية ، وبشكل خاص الحكايات حول ظروف المعيشة الإيرانية ، ولكن بدون الاهتمام الحقيقي بالطبقة الحاكمة ، وعلى هذا كانت المؤلفات التاريخية التي كتبت أولاً مباشرة بالفارسية ، نادرة نسبياً .

ولم يأت التغيير الكبير أبكر من الغزو المغولي حوالي (١٢٢٠) ومرة أخرى نحو (١٢٥٦) . ولا سيما أن أولى هاتين الحملتين كانت مفجعة حقاً للأمة الفارسية ، وخاصة لسكان ماوراء النهر ، وخراسان ، ومن حينه فصاعداً أبيدت غالبية الأسر الدهقانية القديمة التي كانت في البداية مستقرة في تلك المناطق أو على الأقل ، شتتت وجردت من ممتلكاتها ، ومنذ الغزو المغولي ، فقدت هذه الطبقة نفوذها وتحكمها في المجتمع الفارسي واختفت مثلها ، وتوقف كتاب الفردوسي عن أن يكون كتاباً مرشداً لطرق الحياة الاجتماعية وحتى العقائدية ، وقدّره الناس منذ ذلك الحين لمظهره الشعري .

وتغيرت البنية الاجتماعية للشعب الايراني خلال بضعة قرون : ولم تعد سلالة العائلات القديمة (حتى حيث استمروا بالعيش وحافظوا على واجباتهم الرسمية) بل البكوات الأتراك هم الذين غدوا القادة الحقيقيين للأمة .

وفي حين كان السلاجقة قد اعتنقوا الإسلام قبل الاستيلاء على إيران ، وظلوا دائماً أتباعه المخلصين ، غزا المغول إيران (والبلاد الأخرى التي أخضعوها) كوثنيين أو كمسيحيين نساطره ، وقد حافظوا لبضع عقود من الزمن على تقاليدهم الوطنية والثقافية وظلوالنحو قرن فخورين بأصلهم ، ولم يكونوا بأي شكل متلهفين لأن يُعدوا إيرانيين ، وعلى العكس رغبوا في أن يروا مجدهم ومجد أسلافهم موصوفاً بلغة رعاياهم ، وفي الفترة التي لم تعد فيها قراءة الكتب العربية شعبية في إيران ، كانت الفارسية اللغة الوحيدة الممكنة لتأليف مثل هذه الكتب ، وما لبث حكام إيران المغول الايلخانيين أن هيمنوا على اللغة الجديدة بسرعة كبيرة .

وجاءت لهذا التحدي في غضون جيل واحد استجابة طاغية تماماً في الكتابات التاريخية الفارسية ـ إذا استعملنا مصطلح كتاب أرنولد توينبي الذي

كثيراًما نوقش ـ ونشر عدد من وزراء المغول أوصافاً تاريخية للفترة الإيلخانية ، ولما قبل التاريخ المغولي : واستخدم الجويني نمطاً بالغ التعقيد ، تطور وصدر عن لغة عمال الدواوين ، وكتب رشيد الدين ـ وكان من قبل طبيباً يهودياً ثم تحول إلى الإسلام ، ومن الواضح أنه لم يكن مطلعاً بما فيه الكفاية على التقاليد اللغوية لعمال الدواوين الإسلامية ـ بأسلوب بالغ الوضوح والبساطة ، قارب بدرجة عالية الكلام الشعبي لعصره ، حيث كان مختلطاً بالتعابير المغولية(*) .

لقد ورث الجويني ورشيد طرائق التأريخ عند العرب حسبما تطورت حتى القرن الثالث عشر ، ومثلها كتاب ابن الأثير أفضل تمثيل ، ولكنهما تجاوزا هذا المثال وتفوقا عليه بعمق فهمهما التاريخي وبتمعنهما في أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية في تطور الجنس البشري ، وأخيراً وبحسن اخراجهما الكتابين ، علاوة على هذا تفوق رشيد الدين وتميز باتساع نظرته التاريخية التي شملت الصين والهند إضافة إلى تاريخ القبائل المغولية قبل جنكيزخان وتطور أوروبا طبقا لموجز مار تينوس بولونس Martinus Polonus المشهور في حينه .

ولسوء الحظ أصبحت البلاغة والصنعة عاملاً مسيطراً على الكتابات التاريخية الفارسية في مطلع القرن الرابع عشر ، وارتأى وصاف وهو مؤرخ ذو بصيرة نافذة عميقة في التطور التاريخي ، ضرورة زخرفة كتابه الهام بعبارات بليغة ، وهكذا بات الفرس أنفسهم بحاجة إلى معجم لقراءة هذا الكتاب ، ولهذا أضافت الطبعات الحجرية الفارسية له دوماً قائمة بالكلمات النادرة .

وأثرت طريقة وصاف على الكتابات التاريخية الفارسية لقرون ، وهو مصدر تاريخي هام بقدر ما هو معقد الأسلوب بالنسبة للقراء الأوربين والإيرايين المحدثين ، وقد هيمن الأسلوب على الإحساس بالحقائق التاريخية ، والاستمتاع بهذا الأسلوب ممكن فقط لفئة صغيرة جداً من العلماء المدربين جيداً ، ولرجال

★-حامت شكوك كبيرة حول صحة إسلامه ، وكتابه في التاريخ هو جامع التواريخ ويعتقد أنه كتب تحت إشرافه من قبل لجنة من العلماء ، كتب أولاً بالفارسية وزين بالصور الملونة ثم ترجم مباشرة إلى العربية ، ولدي نسخة مصورة عن الترجمة العربية جمعتها من عدة مكتبات .

الأدب ، وقد طمس الهدف الحقيقي للتاريخ لعدة قرون ، وحول هذا الأدب - على الرغم من قيمته العالية كمصدر - إلى بديل مشابه للقصة التاريخية الأوربية الحديثة : الأسلوب وترتيب الوقائع ، كان غالبا أعظم أهمية من الحقيقة التاريخية .

واستمر هذا عدة قرون حتى تغلب الأدب التاريخي الفارسي على هذه النزعة ، وفي الوقت نفسه تبنى هذا الأدب عقيدة الوصف العربية التي عدت تاريخ العالم هو تاريخ هداية الله لشعبه المسلم عن طريق الوحي ، وقد استجابت لهذه العقيدة الأمة الإيرانية جمعاء ، حيث غدت الآن كلها مسلمة ، وفيها بعد متشيعة ، وبالنتيجة بقيت هذه النزعة الفارسية في التاريخ متحكمة حتى تدخل التفكير العلماني الأوروبي الحديث ؛ إننا بهذه المقولة نتخطى عقبة العصر الحديث الذي لا ننوي وصفه في هذه المقالة .

١١ـ الجويني ورشيد الدين كمصدرين لتاريخ المغول
ج . أ . بويل . أستاذ الدراسات الفارسية في جامعة مانشستر

من الصعب التفكير في مؤرخين أكثر تبايناً ، سواء في الأسلوب أو في طريقة فهمهما لموضوعهما من الجويني ورشيد الدين ، أما الجويني فكان متمكناً من النثر المتقن الذي كان في أيامه الواسطة الطبيعية للكتابة التاريخية ، ولم يكن لدى رشيد الدين ادعاءات أدبية من أي نوع ، وقد استعمل أبسط اللغات وأكثرها استقامة ، ويحتمل أنه أملى عمله مثل نظام الملك قبله ، وكانت قدماً الجويني مزروعتين بثبات ، في ماضي ما قبل المغول ، لهذا ما برح معنياً بتسويغ الكوارث الرهيبة التي ألمت بالإسلام لنفسه ولقرائه معاً بالقدر نفسه ، وأما رشيد الدين فكان يكتب في زمن كانت فيه هذه الكوارث ذكريات بعيدة وباهتة ، وقد تقبل السلام المغولي على علاته على أنه الترتيب الطبيعي للأشياء[1] ، ومع ذلك ، كمصادر عن المغول ، يفترض عموماً أن المؤرخين متفقين تقريباً ، ولكون الجويني ببساطة هو الأقدم ، ورشيد الدين هو الأكثر مصداقية ، ومثل هذا الافتراض مؤيد بمقارنة مفصلة بين المؤلفين ، وصحيح أن رشيد الدين اعتمد في أجزاء معينة من تاريخه ، وبشكل بارز في روايته عن الحملة في الغرب على الجويني ، ونقل عنه كلمة كلمة تقريباً ، ولكن حتى هنا ، كما سنرى ، هناك إقحام لمصدر شرق أقصوي وليس صحيحاً الإقرار مع بارثولد[2] أن هذا الجانب من تاريخه قائم حصراً على الجويني .

ومرد الانطباع بأن كلا المصدرين في حالة انسجام عام يعود جزئياً إلى اعتماد مؤرخي المغول على عمل (دواوهسون d'Ohsson) الذي لا يوضح دائماً من أي مصدر يقتبس .

وعدم اليقين هذا هو الذي أدى «بغروسيه»[٣] لأن ينسب إلى الجويني ، ورشيد الدين مجتمعين معاً ، كذلك أدى بمارتن[٤] لأن ينسب إلى الجويني وحده كلاماً قاله جنكيزخان وهوعلى فراش الموت ، وهذا الكلام منقول بالفعل من رشيد الدين ، وهو لا يتماشى مع الحقائق التي أعطاها الجويني ، ونقلاً عن الجويني كان هناك إلى جوار فراش جنكيزخان ليس فقط جغتاي ، وأوكتاي ، وتولي ، بل رجل غير معروف اسمه كلكان ، لقي بعد ذلك مصرعه في روسيا ، وابنان لم يرد ذكرهما في مصادر الشرق الأقصى الباقية ، وكانا تبعاً لرشيد الدين قد توفيا في طفولتهما ، وفي رواية رشيد الدين عن مشهد فراش الموت كان اوكتاي وتولي فقط حاضرين ، وقد أشار جنكيزخان في حديثه بشكل خاص إلى غياب جغتاي ؛ إن هذا هو الآن الحديث الذي ينسب إلى الجويني . الذي ادعى حضور جميع أبناء جنكيزخان بمن فيهم الاثنان المذكوران طبقاً لرشيد الدين كانا قد توفيا منذ زمن بعيد[٥] .

وهناك في الواقع نقاط خلاف كثيرة بين المؤرخين ، والتفسير المحتمل لذلك أنهما قد استمدا معلوماتهما حول المغول من مصادر مختلفة ، وبالنسبة لرشيد الدين كان مصدره واسع الشهرة ، وفي الحقيقة سماه رشيد وحدده بنفسه ، وهو (الكتاب الذهبي) (التان دبتر) ، الذي كان محفوظاً دائماً في خزانة الخان في أيدي أكبر الأمراء سناً ، ولم يكن لدى رشيد الدين طريق مباشر إلى ذلك التاريخ الرسمي للمغول الذي عد مقدساً ، لقد ترجم له شفوياً من قبل بولاد جنكانغ أو بولاند جنك سيانغ أو الوزير ، ممثل الخان العظيم القاآن في البلاط الفارسي وكذلك أيضاً من قبل الخان غازان الذي عد مرجعاً للآثار المغولية وترتيبه الثاني بعد بولاد[٦] ولم تصلنا الأصول المغولية للكتاب الذهبي لكن رواية صينية منه بقيت في كتاب «وصف الحملات الشخصية للمحارب المقدس جنكيزخان» ، وقد كتبت هذه الرواية في وقت ما قبل (١٢٨٥)[٧] ، وقد استعملت أيضاً في (يونان شيه Yunan Shih) تاريخ الأسرة المغولية التي حكمت في الصين وقد تم تأليفه في (١٣٦٩) ، وفي القسم الأول من تاريخ رشيد الدين كان الكتاب الذهبي هو المصدر الوحيد ، وفي روايته عن الحملة في الغرب كرر في الجزء الأعظم ما كتبه الجويني ، انما في تلك الاثناء قام باستخدام متكرر للكتاب المغولي ، لا بل تبنى ترتيبه المغلوط

للأحداث ، الذي تبعاله وقعت أحداث الحملة في سنة متأخرة عن الواقع ، وتعطي المقارنات التالية بعض الأفكار عن دينه للمصدر المغولي :

حصار الجرجانية

الجويني	رشيد الدين
يعرض توشي وهو يرسل التعزيزات من جند[٨]	يتبع الجويني (تقريباً) كلمة كلمة في روايته عن الحصار ولكنه يصور نوشي على أنه يشارك شخصياً[٩] ، (وفي هذا يتفق ليس فقط مع مصادر الشرق الأقصى بل أيضاً مع المصادر الإسلامية المعاصرة) .

٢ ـ تقاجار

لا يذكر هذا القائد المغولي ما لم يطابق مع تغاجار ، صهر جنكيزخان ، الذي سقط قبل نيشابور	يصوره على أنه أرسل في أعقاب سويتاي وجي Jehe لملاحقة السلطان محمد خوارزم شاه وكعاص لأمر جنكيزخان بأن لا ينهب في أراضي خان ملك أعني أمين الملك ، ملك هراة الذي إستسلم للمغول[١١] (لم يذكر الجويني ولا النسوي استسلام أمين الملك ، وهو ظرف يلقي شكا خطيراً على كامل الحدث)

٣ ـ بلا الجلائري

الجويني	رشيد الدين
يذكر فقط ترباي تقشي (وليس بلا) على أنه أرسل عبر نهر السند ليطارد السلطان جلال الدين[١٢] .	يضع ترباي تقشي مع بلا في قيادة مشتركة للحملة وهكذا يوائم رواية الجويني مع رواية الشرق الأقصى للحدث التي يذكر فيها بلا فقط[١٣] .

٤ ـ جنكيز خان على نهر السند

يقول إنه فقط بعد هزيمة السلطان جلال الدين ، تقدم على طول شواطىء النهر[١٤] .	يضيف من المعلومات (أيضاً في وصف الحملات الشخصية للمحارب المقدس) أنه سار ضد مجرى النهر بينما أرسل أوكتاي مع مجرى النهر[١٥] .

ويبدو أن مصادر الجويني كانت شفوية صرف على الأقل بالنسبة للتاريخ الأقدم للمغول ، وبعض معلوماته علي أي حال يمكن أن توجد في كتاب (التاريخ السري للمغول)[*] الذي في مثل هذه الحالات يمكن أن يعد المستند الأساس لمعلوماته ، وقد لفت بارثولد[١٦] الانتباه إلى صورة يبدو أن الجويني ، قد استعارها من مصدره ، وفيما يلي أمثلة للمعلومات المستمدة ربما من وسيط ثان أو ثالث للتاريخ السري .

(١) رواية الجويني حول موت الشامان[**] تب تنكري (غير مروية من قبل رشيد الدين) في توافق واسع مع الرواية الأكثر تفصيلاً في المصدر المغولي[١٧] .

(٢) قصة جنكيز خان وحزمة السهام توجد أيضاً في التاريخ السري ، ولكنها هناك مروية عن جده الأسطوري ألان قوآ Alan Qo'a[١٨] .

(٣) يتفق الجويني مع التاريخ السري في جعل الطبري مبعوث أيدي قوت أو حاكم الأويغور إلى جنكيز خان وليس العكس كما في رشيد الدين[١٩] .

(٤) وطبقاً للتاريخ السري فإن انتخاب أوكتاي للخانية حدث في ربيع (١٢٢٨) (وليس ١٢٢٩ كما في رشيد الدين) وهذا ما يتفق فيه مع الجويني[٢٠] ، واستخدام الجويني الظاهر للتاريخ السري للمغول ذو أهمية خاصة من ناحية احتمال أن يكون هذا الكتاب الشفوي قد صنف كتابة قبل زيارته لمنغوليا بنحو عام ، وقد استكمل التاريخ السري ، طبقاً لما جاء في الفقرة الأخيرة (فقرة ٢٨٢)

★ـ ترجمت هذا الكتاب إلى العربية وأنا على نيه نشره مع نصوص أخرى هامة قريباً ان شاء الله .

★★ ـ الشامان لدى شعوب المغول البدوية هو الكاهن والساحر والطبيب بالوقت نفسه وكان لمكانته يمارس بعض الأدوار السياسية ، والشامانية هي إحدي الديانات البدائية محور العمل الديني فيها شخصية الشامان ، وكان معنى اسم شامان جنكيزخان «كاهن السماء»

في كودارال في الكيرولين Kerulen في الشهر السابع من سنة الجرذان في أيام الاجتماع من أجل القوريلتاي (مجمع انتخاب الخان) العظيم ، وحيث أن هذا التاريخ ينتهي في فترة حياة أوكتاي فقد عدت سنة الجرذان على أنها السنة المقابلة تقريباً لعام (١٢٤٠) ، وهناك ، على أي حال كما أشار غروسيه[٢١] ، دلالات معينة على تاريخ تال ، ففي الفقرة (٢٥٥) صور جنكيز خان ، وكأنه يتنبأ بأن أسرة أوكتاي سيثبت عجزها عن الحكم ، وأن حكم الامبراطورية سينتقل إلى سلالة ولد آخر من أولاده ، وفي الفقرة (٢٨١) جُعل أوكتاي ـ يخضع نفسه لبحث عن الضمير ، له كثير من مظاهر حكم تال للوفاة أصدر على هذا الأمير الذي توفي في ١١ كانون أول ١٢٤١ ، وقدأدت هذه الاعتبارات (بغروسيه) إلى وضع السؤال (الذي أجيب عليه بالنفي من قبل بلليوث) عما إذا كان هذا الكتاب ربما لم يكتمل خلال سنة جرذان تاليه ، أي في سنة ١٢٥٢ عندها تحققت نبوءة جنكيز خان وانتقلت الخانية إلى فرع آخر من أسرته ، وهناك جدل آخر ، لم يذكره غروسيه في صالح التاريخ المتأخر ، هو تحديد الظرف ، ذلك أن الكتاب استكمل في زمن القوريلتاي العظيم ، وليس هناك سجل لمثل هذا الاجتماع للأمراء المغول في أو نحو سنة (١٢٤٠) ، في حين أننا إذا افترضنا التاريخ المتأخر لاستكمال التاريخ السري ، فإن الإشارة هي بوضوح إلى القوريلتاي الذي رفع فيه منكو إلى الخانية ، وهذا حدث في الواقع في سنة أبكر ، في سنة (١٢٥١) ولكن التاريخ السري لم يكن مطلقاً دقيقاً جداً في ترتيبه الزمني .

واذا قبلنا التاريخ المتأخر ، الذي يوجد أيضاً دليل آخر عليه ،[٢٢] فإنه يمكننا بسهولة أن نفهم كيف ان الجويني ، الذي كان مقيماً في منغوليا في (١٢٥٢ ـ ١٢٥٣) كان لديه نوع ما من وسيلة الوصول غير المباشر إلى كتاب كان في ذلك الوقت يمثل وجهة النظر الرسمية وربما قد ترجم له من قبل هؤلاء المغول الموثوقين أنفسهم الذين زودوه بالتفاصيل حول (تب ـ تنكري)[٢٣] ، وهكذا فان عدم التوافق بين الجويني ورشيد الدين كمؤرخين للمغول مرده إلى مصادرهما المختلفة التي اعتمداها ، وواضح ان أحد مصادر الجويني كان التاريخ السري للمغول ، الذي كما يقول همبز ، لايعد كتابا تاريخياً واحداً بل بالأحرى مجموعة

من النصوص التاريخية ، «فهو فضلاً عن ذلك خليط قليل التجانس نجد فيه مصادفة بعض الأنساب مع قطع ملحمية متجانسة صوتياً فقط» .

وإذا كان ـ كما يبدو الاحتمال أنه قد كتب في (١٢٥١ او ١٢٥٢) فإنه يجب ايضاً أن يعد كنوع من انواع المنشورات السياسية ، كتب لتسويغ التغيير في خط الأسرة الحاكمة ، هذا وتقوم معلومات رشيد الدين من جانب آخر على ما كان في زمانه يعد التاريخ الرسمي للأسرة الامبراطورية[٢٥] .

ويبدو أن القسم الأول من كتابه هو ترجمة حرفية للكتاب الذهبي المفقود وكما رأينا فإن روايته عن الحملة في الغرب ، مع أنها تعتمد في الجزء الأغلب على الجويني ، تحتوي أيضاً تفاصيل من المصدر المغولي ، ولو ان هذا المصدر قد بقي في صورته الأصلية فإن قيمة رشيد الدين كمصدر موثوق حول قيام الامبراطورية المغولية كان بالإمكان أن تقل بدرجة كبيرة إلّا أن أهمية كتاب الجويني المؤسس على مصادر إسلامية معاصرة ، وعلى تحريات شخصية في موقع الحدث لم تكن لتتأثر .

هوامش البحث

١ ـ من اجل مقارنة مفصلة بين المؤرخين انظر مينورسكي ـ القوقاز : ٣ ، عاصمة اللان والحملة المغولية . دورية معهد الدراسات الشرقية والافريقية (١٩٥٢) ١٤/٢/٢٢١ ـ ٢٢٢ .

(٢) تركستان حتى الغزو المغولي ص ٤٥ . (* ترجم هذا الكتاب إلى العربية وطبع في الكويت عام ١٩٨١ بعنوان «تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي») .

٣ ـ امبراطورية المغول ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

٤ ـ ارتقاء جنكيزخان وغزوه لشمال الصين : ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣

٥ ـ انظر تاريخ فاتح العالم للجويني ، ترجمة ج ، أ. بويل ص ١٨٠ ـ ١٨٢ (ترجم هذا الكتاب من الفارسية مباشرة وعورض نصه بالترجمة الانكليزية من قبل د . محمد ألتونجي وطبع في دمشق ١٩٨٥)

٦ ـ بارثولد ـ المرجع نفسه ص ٤٤ ـ ٤٥

٧ ـ انظر مقدمة همبزHambis لكتاب بتحقيقه مع بلليوث ، وقد ترجما هذا الكتاب بعنوان «تاريخ حملات جنكيزخان» ص ١٢ ـ ١٣ ، وظهر منه فقط الجزء الأول . وهناك أيضاً ترجمة مجزوءة للحملات الشخصية للمحارب المقدس تولاهابرتشندر Bretschneider نشرت في كتاب «أبحاث

وسيطة من مصادر شرقي آسيا» ١/٢٩١ - ٢٩٤ ، وهنش Haenisch «حملات جنكيزخان» آسية الكبرى (١٩٣٣) ٩ .

٨ - تاريخ قاهر العالم ص ١٢٤

٩ - Sbornik Letopisei: ١ - ٢ ترجمة . و . إ . سمير نوفا ص ٢١٤ - ٢١٧

١٠ - المصدر نفسه ص ١٧٤ - ١٧٥ والحاشية ١١

١١ - المصدر نفسه ص ٢١٨

١٢ - المصدر نفسه ص ١٤١ - ١٤٢ ص ٤١٣

١٣ - المصدر نفسه ص ٢٥٥ - ٢٥٦ انظر أيضاً بويل «إيرو ومارو في التاريخ السري للمغول» دورية جامعة هارفرد للدراسات الآسيوية : ١٧ (١٩٥٤)(ص ٤٠٦ - ٤٠٩

١٤ - المصدر نفسه ص ١٣٥

١٥ - المصدر نفسه ص ٢٢٥ هنش ص ٥٢٩

١٦ - المصدر نفسه ص ٤١ وحاشية ٣

١٧ - المصدر نفسه ص ٣٩ وحاشية ١٧

١٨ -المصدر نفسه ص ٤١ وحاشية ٧

١٩ المصدر نفسه ص ٤٥ وحاشية ٩

٢٠ - المصدر نفسه ص ١٨٧ وحاشية ٢٦

٢١ - في مقدمة لكتاب فالدميراستوف Vladimirtsov «جنكيز خان» ترجمة مشيل كارسوف Michel Carsow ص ٥ - ٦

٢٢ - يظهر مثلاً ان هناك إشارات إلى المؤامرات ضد منكو

٢٣ - تاريخ فاتح العالم ص ٣٩

٢٤ - المصدر نفسه ص ١٣

٢٥ - المصدر نفسه ص ١٥

١٢ـ المؤرخ الفارسي البيهقي
مجتبي مينوي
الملحق الثقافي الايراني ـ أنقرة

تاريخ البيهقي فريد بين المصنفات التاريخية الفارسية في كثير من النواحي . وكان المؤلف أبو الفضل محمد بن الحسين البيهقي من أهالي بيهق من الأرض القديمة ، المعروفة في الوقت الراهن باسم سبزوار ، أحد العمال المدنيين في بلاط الحكام الغزنويين . محمد ، ومسعود ومودود . وعبد الرشيد ، وعندما (خلال حكم محمود ومسعود) كان أبونصر مشكان رئيساً لديوان المراسلات في بلاط الملك ، كان البيهقي صديقه الحميم الموثوق ، وإضافة إلى ما رآه . قرأ وكتب بصفته الرسمية ككاتب رئيس مسؤول عن الرسائل الهامة ، لاسيما الرسائل الموجهة إلى بلاط ملوك آخرين ، وسمع (من أبي نصر ، وفيما بعد من أحمد بن محمد بن عبدالصمد وزير مودود) روايات عن محادثات حدثت سراً بين أشخاص مهمين ، وأحداث حجبت عن الجمهور ، ويبدو أنه قبل ان يبدأ بزمان طويل بكتابة تاريخيه ، حمل في ذهنه مشروعه ، وشرع في تدوين ملاحظات على السجلات اليومية وعلى قطع متفرقة من الورق ، وجمع نسخاً عن الوثائق بالعربية ، والفارسية مما وقع بين يديه . واكتنز جميع المواد الضرورية لمثل هذا التاريخ ، كما كتبه .

إننا نعرف القليل جداً حول حياته الخاصة ، لأنه لا يقدم روايات عما حدث له شخصياً ، إلا كإشارة إلى أنه في حادثة كذا كان حاضراً وشاهداً ، وأنه ذكر في كتابين أو ثلاثة كتب تراجم مشاهير رجال الأدب دون إعطاء كثير من المعلومات ،

ويبدو أنه قد ولد في (٣٨٥/٩٩٥) أو (٣٨٦/١٩٩٦) وتعلم في بيهق ونيسابور ، وعندما كان في السادسة عشرة من عمره شهد في نيسابور الاحتفالات المرتبطة بخطبة ابنة السلطان إلى منوجهر بن قابوس الجرجاني في (٤٠٢/١٠١١) (ص ٢٠٩)[1] ويقول إنه عندما كان شاباً يعيش في نيشابور ، سمع قصصاً كثيرة حول أعمال السلطان مسعود ، وقوته وشجاعته وحياته الخاصة في شبابه .

وليس معروفاً في أي سن ومتى دخل في خدمة البلاط ولكن يمكن أن نفترض أن ذلك كان في حوالي سنة (٤٠٦ / ١٠١٥) عندما كان في العشرين ، وفي عام (٤٢٦/١٠٣٤) صحب السلطان مسعود وجيشه والحاشية إلى جرجان ، ومازندران ، وفي (٤٣١ / ١٠٤٠) كان معهم في معركة دندانقان(*). ورأى الجيش يهزم ، ويستأصل ، ويشتت ، والملك يهرب . وبعد وفاة أبي نصر مشكان في عام (٤٣١/١٠٣٩) عين ابوسهل الزوزني رئيساً لديوان المراسلات ، وقال السلطان لولا أن أبا الفضل ما زال صغيراً لعينته في هذا المنصب ، وكان أبو الفضل في ذلك الوقت في الخامسة والأربعين او في السادسة والأربعين من عمره . وفي إحدى المرات عندما أرسل الزوزني في مهمة عين أبو الفضل نائباً له من قبل الزوزني نفسه بموافقة الملك .

وبعد ارتقاء السلطان (عبد الرشيد) (٤٤١/١٠٤٩) كان لبعض الوقت شاغلاً لهذا المنصب ، ولكنه تورط في مؤامرات البلاط للفترة التالية ، وقبض عليه ، وصودرت أملاكه ، ووضع هو نفسه في السجن ، ويروى أيضاً أنه قد وضع في السجن لعجزه عن دفع حصة النفقة لإحدى زوجاته ، وحول من السجن إلى سجن القلعة بعد ان قتل «طغرل» «عبد الرشيد» في عام (٤٤٤/١٠٥٣) ، ولم يقبل أي منصب بعد اطلاق سراحه بل تقاعد في (غزنين) ، وانهمك عام (٤٤٨/١٠٥٦) في كتابة تاريخه ، وقد أشير الى الأعوام (٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٥) في تاريخه ، ورروي أن وفاته ، بشكل مشكوك فيه ، قد

★-المعركة الفاصلة التي هزم فيها السلاجقة مسعوداً الغزنوي وانتزعوا إثرها خراسان ليؤسسوا سلطنتهم . انظر تفاصيلها في كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ط دمشق ١٩٧٣ ص ٥٨ ـ ٦٠

حدثت في (٤٧٠ ١٠٧٧) ، ويعود اعتزامه كتابة تاريخ ملوك الغزنويين ، إلى الوقت الذي كان ما يزال فيه في البلاط ، فهو يقول مثلاً : «طلبت في عام أربعمائة واثنان وثلاثون من الوزير أحمد بن عبد الصمد أن يخبرني بدقة أكبر ، وبصدق بالاحداث المرتبطة بقتل منجوق قائد جيش الحامية التي ارسلها السلطان محمود ، إلى خوارزم . لأني كنت أريد أن أكتب هذا التاريخ ، وتعلقت بأي تفصيل أمكنني أن أعلم به من أي مصدر» .

ولم يكن أبو الفضل عملياً فخوراً بعمله لسببين : «أولاً كان هناك رجالاً عظاماً آخرين في عاصمة ملوك الغزنوين مؤهلين أكثر مني بما هو ضروري لكتابة هذا التاريخ ، ولأنه كان لديهم عمل آخر . أكثر أهمية ، ولم يكن لديهم وقت لعمل مثل هذا ، عملت ما استطعت عمله حوله» ، ثانياً كان بعض الناس ممن لم يسمهم في كتابه ، ولكنه أشار اليهم عدة مرات ، قد أتلفوا عمدا القسم الأعظم من الوثائق ، مع نسخ من الرسائل الرسمية ، والملاحظات التي كان قد دونها من أجل كتابه ، وبناء عليه كان عليه أن يرضى بما بقي ، وبما تذكره ، وبينما كان منشغلا بكتابة الكتاب توفرت له بعض المصادر ، من ذلك رواية طويلة حول حياة (مسعود) في شبابه كتبت في (٤٥١/ ١٠٥٩) من قبل أبي سعيد ، عبد الغفار الذي كان رفيقاً لمسعود لعدد كبير من السنوات ، وكان البيهقي على معرفة به من (٤٢١/ ١٠٣٠) وما بعدها ، وتاريخ خوارزم للإمام الكبير والعالم الشهير أبي الريحان ، البيروني وما سمعه من الشريف ابي المظفر في عام (٤٥٠/ ١٠٥٨) .

ويتعلق القسم الموجود الآن في تاريخ البيهقي ، والذي طبع أربع مرات بأحداث السنوات (٤٢١ إلى ٤٣٢) أعنى من وفاه محمود مباشرة الى اللحظة التي قرر فيها مسعود ، بعد هزيمته على أيدي السلاجقة ، الإغارة على الهند ، ويتضمن هذا القسم المجلدات من السادس إلى التاسع ، وأجزاء من المجلدين الخامس والعاشر ، وبقية الكتاب مفقودة ، ولا يوجد له أثر في أي من المكتبات التي تم التعرف على محتوياتها ، ومع ذلك ، ومن المؤكد أنه قد كتب أكثر مما هو موجود لأن فقرات مطولة من الأجزاء المفقودة موجودة في كتب مختلفة[٢] ، وهناك فصول حتى من القسم الموجود تتعامل مع تاريخ الحكام الغزنويين الأوائل ، ولكن هذه عبارة عن استطرادات أدخلت هنا وهناك عمداً لجعل التاريخ أكثر متعة ، وفي الحقيقة ،

إن هذه إحدى سمات تاريخ البيهقي : قصص طويلة ، روايات تاريخية قصائد ومقتطفات شعربة بالعربية والفارسية ، وهكذا ، مقحمة في مسار تاريخ حكم مسعود ، وبقدر ما كان المؤلف موضعاً للثقة في وصف الأحداث التي جرت في زمانه ، والتي كان شاهداً لها ، لايمكن الاعتماد عليه في الروايات التي قرأها وسمعها عن الأحداث التي تخص فترات أقدم ، مثل زمن كسرى ، وهارون ، والمأمون . لا بل حتى زمن الحكام السامانيين ، وعلى مايبدو إنه لم يرجع قبيل وضع هذه القصص إلى كتاب أو الكتاب الذي سجلت فيه القصة ، ولكن بالنسبة لتاريخ حكم السلطان مسعود . كانت مصادره كما قلت من قبل ، تقاويم السنوات المعينة التي كان يضع عليها ملاحظاته يوماً بيوم حول أي شيء يقع ، ونسخاً من الوثائق التي كانت تمر بين يديه ، والملاحظات التي كان يدونها عما سمعه من شهود العيان ، وهذا كله بالاضافة لما اختزنه في ذاكرته .

لقد كان مهتماً عاطفياً بعمله ، وذكيا بدرجة كافية موضوعياً ، وكان تاريخه مليئاً بالحيوية ، تضم صفحة منه بعض الروايات بالغة الأهمية ، ربما عن بعض المؤامرات السياسية . وبعض الظروف الادارية ، وبعض المعلومات الاجتماعية والاقتصادية ، وبعض الأحداث الدبلوماسية أو الحوادث السرية ، ومن جهة الأسلوب ، واللغة كان كتابه أيضاً مهماً جداً ، فهو مليء بالكلمات الخاصة ، والتعابير ، والتلاعب بالعبارات بشكل يضفي الحيوية على كتاباته ويضع أنموذجاً للإنشاء بلغة موجزة محكمة ، وهذه الكلمات تغني المفردات الفارسية ، وتساعدنا بشكل أفضل على فهم كتب أخرى كتبت في تلك القرون .

وكان حكمه على أفعال الرجال الذين كان يتعامل معهم وعلى أعمالهم منصفاً جداً فقد كان لا ينسى الجوانب الجيدة لأي شخص حتى لوكان عدوه الشخصي ، وحتى وهو يروي للحقيقة الأعمال السيئة ، والسلوك القابل للإدانة لشخص ، كان يترك الحكم الأخير عليه لله .

١٣ـ أدب التراجم الفارسي
آن ك . س . لامبتون
أستاذة الفارسية في جامعة لندن

سأحضر ملاحظاتي في هذه المقالة بشكل رئيس في الأعمال المكتوبة بالفارسية فيما يتعلق بالمنطقة الجغرافية لفارس والعراق ، وهكذا سأستبعد ، في القسم الغالب ، كلاً من الأعمال الفارسية المكتوبة في الهند أو تركيا ، والأعمال المكتوبة بالعربية من قبل الفرس ، على أنني سأقوم باستثناء في حالة الأعمال المكتوبة بالعربية بانحياز فارسي محلي واضح ، والأعمال التي سأذكرها تتراوح في التاريخ بين القرن الرابع/العاشر والقرن الثالث عشر/التاسع عشر ضمناً ، ولكن سأناقش من أعمال القرن التاسع عشر فقط ما يمكن اعتباره وثيق الانتماء إلى الخط الرئيس لتقاليد القرون الوسطى .

لعل أدب التراجم في الفارسية اكثر محدودية في مجاله من نظيره العربي ، فليس هناك شيء في اللغة الفارسية يمكن مقارنته ، على سبيل المثال ، بوفيات الأعيان لابن خلكان ، والوفيات في تاريخ ابن الحوزي أو في تاريخ الاسلام للذهبي ، ومع ذلك إن هناك استمراراً مدهشاً في رعاية صور معينة من أدب التراجم في فارس ، وإذا قبلنا مع السير هاملتون جب الذي يعد كل نوع من أنواع الانتاج الأدبي الذي تنم رعايته بانتظام في مجتمع ما عن بعض العناصر الثابتة في كل من البواعث الواعية والتوجه اللاواعي للمجتمع ككل ، أو لأنصاره من العامة ، لربما يكون ممكناً أن نستمد من هذه الحقيقة بعض النتائج بالنسبة للخصائص والمواقف الفكرية للمجتمع الفارسي ، وهدف هذه المقالة اقتراح ما يمكن أن تشكله :

تقع مادة التراجم الفارسية في الزمر التالية :
١ ـ معاجم تراجم .
٢ ـ مادة تراجم في تواريخ محلية .
٣ ـ مادة تراجم في معاجم جغرافية .
٤ ـ تراجم مفصلة في التواريخ العامة ، وتواريخ الأسر الحاكمة .
٥ ـ تراجم للأفراد .
٦ ـ تراجم الاسر أو القبائل .
٧ ـ التراجم الذاتية المكتوبة من قبل أصحابها .

ولن أضع في قوائم أو أحلل جميع الأعمال التي تقع في هذه الزمر المختلفة ، ولكن سأكتفي بمجرد الإشارة الى بعضها على سبيل المثال .

١ ـ معاجم التراجم

يوحي السير هاملتون جب في مقالته المعنوية «أدب التراجم الاسلامي» بأن المفهوم الذي رست عليه المعاجم القديمة للتراجم العربية هو ان تاريخ المجتمع الاسلامي في الأساس إسهام الرجال والنساء في بنائه ونقل ثقافته النوعية ، إن اولئك الأشخاص (بدلاً من الحكام السياسيين) هم الذين يمثلون أو يعكسون القوى الفاعلة في المجتمع الإسلامي في المجالات المتعلقة بهم ، وإن اسهاماتهم الفردية تستحق التسجيل من أجل الأجيال المقبلة . وهذا أيضاً صحيح بالنسبة لكثير من أدب التراجم الفارسي ، ولكن هذا لا يعني القول بأن مؤلفي معاجم التراجم بالضرورة قد فكروا في هذه الإعمال على أنها تاريخ ، حيث أن هذا منذ القرن الثالث / التاسع على الاقل قد تجسد بشكل نموذجي في التواريخ .

ويندر أن تكون معاجم التراجم الفارسية عامة أو شاملة ، وهي بالأحرى تميل لأن تكون محصورة في طبقات أو جماعات خاصة ، وأكثر التراجم هي المتعلقة بعلماء الدين من الشيعة ، والسادة ، والصوفية ، والشعراء ، ويأتي ذكر أفراد الفئات الأخرى أقل تردداً ، والسبب في كون معاجم التراجم الفارسية نادراً ما كانت شاملة ، ربما يعود الى الظروف الخاصة لفارس في العالم الاسلامي الأوسع ، إن ذكرى الدولة الفارسية القديمة قد بقيت إلى حدما بعد الفتح

الاسلامي ، حتى ان مفهوم الامبراطورية (القومية) قد عاشت إلى جانب مفهوم دولة الاسلام الشامل ، ومرة اخرى ، إن عدداً كبيراً من معاجم التراجم يجب أن تكرس للشيعة (من نوع واحد أو آخر في فارس كما في أي مكان آخر) ، ليس أمراً مدهشاً ، حتى قبل أن يصبح المذهب الشيعي عقيدة الغالبية في فارس ، وبالتالي فان سير علماء الشيعة كانت شائعة دائماً على الأقل بالدرجة نفسها التي شاعت فيها تراجم علماء السنة ، وكان الأولياء أيضاً مواضيع لعدد كبير من المعاجم المتعلقة بالتراجم ، مثل «تذكرة الأولياء» . . لمحمد ابراهيم فريد الدين العطار (قبل ١١١٩/٣١٣ ـ ١١٢٠)و«نفحات الأنس» «لجامي» (كتب في ١٤٧٦/٨٨١) ويحتوي الكتاب الأخير على ملحوظات مرتبة زمنياً لنحو خمسمائة وسبع وستين من الأولياء من الذكور ـ وأربع وثلاثين من النساء ، وثلاثة عشر شاعراً صوفياً ، وهو تنقيح مجدد لطبقات عبد الله الأنصاري الذي كان نسخة موسعة لطبقات الصوفية لمحمد بن الحسين السُلمي ، وكانت مختلف الطرق الصوفية ، وبشكل خاص الطريقة النقشبندية ، بدورها أيضاً مواضيع لمعاجم التراجم وينتمي كثير من هذه الكتب حول الأولياء والصوفية إلى أدب تقديس الأولياء أكثر من انتمائه إلى أدب التراجم ، ويعد هذا الميل لإيقاف معاجم تراجم على فئات خاصة ، ليست بأي حال محصورة ببلاد فارس من البلاد الاسلامية إلى حد ما ، إنعكاساً للطبيعة الاندماجية للمجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، وفي تصنيف الفلاسفة توجد عادة أربع مراتب :

١ ـ رجال القلم : بمن فيهم الطبقات الدينية ، والنساخون ، والعلماء من كل الأنواع والشعراء .
٢ ـ رجال السيف .
٣ ـ التجار والحرفيون .
٤ ـ المزارعون .

كما تقدم بيانه أعلاه لا توجد ندرة في معاجم التراجم بالنسبة للطبقات الدينية ، ومما يثير الدهشة حقاً أنه ، تقريباً لا شيء منها بالنسبة لأعضاء الطبقات التي عملت بالإدارات والدواوين ، وهناك استثناء بارز هو «دستور الوزراء» لخواندمير (الذي ربما توفي في ١٥٣٥/٩٤٢) ، وتدعم القلة النسبية لهذه المصنفات

فكرة ان ما عدّ هاماً بهذه الدرجة هو إسهام الفرد المسلم وليس إسهام الدولة (أو موظفيها) ، ويلاحظ أن معاجم تراجم الشعراء كانت شائعة ولها شعبية بشكل خاص في فارس ، ومع ذلك إن هذه المعاجم ، مع أنها كثيراً ما تحوي إشارات مختصرة عن حياة الشعراء مع رواية عينات من شعرهم ، مع أسماء الحكام الذين عاش الشعراء في عهودهم ، ليس هناك ادعاء باعتبارها كتابات تاريخية ، وأهميتها ، إذا وجدت بالنسبة للمؤرخ ، هي في الشهادة التي تحملها الميول الأدبية الخاصة بالشعب الفارسي ، ومكانه الشاعر في المجتمع ؛ ولقي رجال الفئة الثانية من الفلاسفة ، ورجال السيف أيضاً ذكراً طفيفاً في معاجم التراجم ، وربما يفسر هذا جزئياً بحقيقة أن هؤلاء كانوا قبل ظهورهم كفئة متميزة كانت أعمالهم تدون في الحوليات ، وفي تواريخ الأسر الحاكمة ، أما الطبقة الثالثة التي ضمت التجار والحرفيين فكانت في الواقع مهملة في معاجم التراجم ، وبالنسبة لهذا الأمر ورد ذكرهم كثيراً في وفيات التواريخ من آن لآخر وفي التواريخ المحلية ، وأما بالنسبة للفئة الرابعة (المزارعون) فربما كان طبيعياً إهمالها في كتابة التراجم الفارسية ، وواضح أن معاجم التراجم الفارسية تتطابق تقريباً مع نمط نماذجها الأصلية في العربية . وتميل موادها إلى القصر نوعاً ما ، وبعض ، أو كلّ الموضوعات التالية تعطى عادة : تواريخ الميلاد ، والوفاة ، أسماء الذين درست عليهم الشخصية المترجم لها ، عناوين مؤلفاتها أو بعضها ، والرحلات التي قامت بها ، وملاحظات عابرة ، وكثيراً من آن لآخر الأحداث السياسية التي أسهمت فيها ، وكان كاتب التراجم مثله مثل المؤرخ يعنى بالتسجيل أكثر من الإبداع والتجديد ، وهكذا فإن تفصيل الخصائص الشخصية ، والحياة الخاصة لهؤلاء المترجم لهم أمر نادر ، وهناك سبب آخر لهذا النقص في التفصيلات لعل مرده أن الفرد نفسه كان قليل الأهمية إلّا كمساهم في بناء الثقافة الاسلامية أو نقلها ، ومن ثم فإن الحقائق الأساسية المتعلقة ، كانت في : متى وأين عاش ؟ وموقعه في خط النقل (أعني من أين حصل على معلوماته) ، وماذا كتب وكانت رحلاته أيضاً ذات علاقة لأنها يحتمل أن تكون قد جرت سعياً إلى المعرفة الدينية أو في مجرى الحج ، أما شخصيته وحياته الخاصة إلا إلى الحد الذي تساعد فيه (أو تعوق) إسهامه الإيجابي في الثقافة الإسلامية ونقلها ـ فهي غير ذات علاقة ، ويحتمل أن هذا هو السبب في أنه عندما

نذكر السمات والشخصية فانها تعني بالأساس : العلم والتقوى ورصيد الفضائل الإسلامية مثل الإحسان ، والعدل ، والملاحظات أعلاه بالنسبة للتراجم الفردية هي أيضاً صحيحة ، تقريباً بالنسبة لمواد التراجم في الزمر (٢) ، (٣) ، (٤) أعلاه .

٢ ـ مادة التراجم في التواريخ المحلية : ومع أن الاهتمام الرئيس للمسلم كان مركزاً على الجماعة الاسلامية فإن ولاءه هذا كان يتوافق أيضاً مع ولائه لمدينته المحلية أو إقليمية وكانت المدن في كثير من الحالات في الواقع وحدات نصف ـ ذاتية الحكم يمكن أن تتصرف في أوقات الأزمات والاضطرابات بصورة مستقلة ، وكثيراً ما يكون ذلك تحت قيادة القاضي أو الشيخ المحلي ، وشكلت هذه الجماعات المحلية إحتياطياً ، أمكن لفارس أن تسحب منه لتعويض نفسها بعد فترات الكوارث ، وكثيراً ما كانت مترابطة بإحكام ، وشغلت في فترات كثيرة دوراً هاماً في تحول الحضارة الاسلامية .

وتفسر هذه الظروف ، عوامل رعاية التواريخ المحلية ، التي تألفت في كثير من الحالات من مادة التراجم بشكل رئيس ، وحوى بعضها مثل كتاب «محاسن اصفهان» ، «للمافروخي» (كتبه بالعربية في ١٠٣٠/٤٢١) وتنقيحات الفارسية المختلفة ، مواد عن مشاهير الرجال الذين حكموا ، وزاروا أو عاشوا في الموقع ، واقتصرت كتب مثل كتاب «شيزار نامة» ، لابن زركوب ، (اكمل في ١٣٤٣/٧٤٤ ـ ٤) بشكل رئيس على ذكر الفئات الدينية ، في حين اقتصرت مواد التراجم في كتب أخرى على فئة خاصة أو أسرة ، مثل تاريخ قم (كتب أصله بالعربية من قبل حسن بن محمد بن حسن القمي في ٩٨٨/٣٧٨ ـ ٩٨٩ وترجم إلى الفارسية من قبل حسن بن علي بن حسن بن عبد الملك القمي في ١٤٢٢/٨٢٥) . وفيه فصول عن السادة الذين جاؤوا إلى قم ، والمستوطنين العرب في قم ممن انتسب إلى أسرة مالك بن عامر الأشعري .

وقصر بعض الكتاب مثل جنيد الشيرازي في كتابه «شد الازار» (كتب في ١٢٨٩/٧٩١) أنفسهم على تراجم المدفونين في موضع معين ، وإضافة الى التاريخ المحلي الصرف حوت التواريخ العامة أيضاً ، أحياناً ، مقاطع خاصة حول مدينة

مسقط رأس أو اقليم المؤلف ، وأعطى حمد الله مستوفي على سبيل المثال في تاريخ كزيدة (اكمل في ١٢٢٩/٧٣٠ ـ ٣٠) رواية مع بعض التفاصيل المهمة عن العائلات الكبيرة في قزوين . وكما في حالة معاجم تراجم علماء الشيعة والأولياء ، والصوفية ، هناك مثابرة استثنائية في رعاية التاريخ المحلي في فارس) .

من ذلك مثلاً ما جاء في «تاريخ بيهق» لابن فندق (صنف في ١١٦٧/٥٦٣ ـ ١١٦٨) و«الجامع المفيد» لمحمد مفيد (أكمل في ١٦٧٩/١٠٩٠) و«تاريخ تبريز» لنادر ميرزا (كتب نحو ١٨٨٤/١٣٠٢ ـ ٥) حيث بناؤها متشابه تقريباً ، وعلى أية حال يلاحظ أن ترتيب تاريخ تبريز جاء في الواقع كيفما اتفق اكثر من الكتابين الآخرين ، ويمضي ابن فندق في تاريخ بيهق ، بعد مادة المدخل ، التي تتضمن مناقشة في علم التاريخ ، ووصفاً جغرافياً موجزاً لبيهق ـ ليذكر أسر الأعيان القديمة في تلك الناحية ، ونلاحظ هنا أن الترتيب والمسافة المعطاة لمختلف المواد مهمة ، فقد أتى أولاً على ذكر أسر الأسياد ، (١١ صفحة من النصوص المطبوعة) ثم الطاهريين (نصف صفحة فقط) ، ويتبعهم الصفاريون (صفحة وربع) ، ثم السامانيون (صفحتان ونصف) ، ثم الغزنويون (صفحة) ، والسلاجقة (صفحة ونصف) وما أن فرغ ابن فندق من عرض أخبار الحكام على هذه الشاكلة حتى التفت للحديث عن مختلف العائلات المحلية ، بما فيهم عائلته ، وعائلة نظام الملك ، والفصل التالي الذي يشغل معظم ما تبقى من الكتاب ، عنوانه : «ذكر العلماء والأئمة ، ورجال القلم والثقافة الذين جاؤوا من هذه المنطقة أو استقروا فيها» ويشمل القسم التالي والأخير بعض المعلومات الإضافية المتعلقة بالتراجم وموضوعات متنوعة .

ويعكس «الجامع المفيد» ، إلى الحد الذي تعنيه مادة التراجم (وهي كبيرة) ، الطبيعة المشتركة للمجتمع الفارسي المعاصر له ، وتشير المادة في مقاطع إلى الفئات التالية : السادة والوزراء ، والكلانتر(*) ، والمستوفون ، واليوزباشي والعلماء ، والفضلاء ، والقضاة ، والمحتسبون ، والواعظون ، والخطباء ، والمنجمون ، والخطاطون والأطباء ، والشعراء ، وذوو المراتب والغنى ، والنساك ،

★ـالكلانتر ، رئيس الشرطة ، رئيس القرية أو كبيرها .

والمهندسون ، والحرفيون ، وبالإضافة إلى ذلك هناك مواد تراجم تعلقت بالأئمة والشيوخ في مدينة يزد ومريدوهم ، ويحتوي هذا الكتاب أيضاً رواية حول حياة المؤلف .

وجاءت مادة التراجم مبعثرة كيفما اتفق في تاريخ تبريز ، وعلى سبيل المثال يحتوي القسم عن القناة (العصابات ؟) تفاصيل تراجم مؤسسيها ـ وبشكل مماثل قدمت تحت قائمة أحياء المدينة ، تفاصيل عن تراجم الكد خدا (مختار ـ عمدة) فيها ، وهناك أيضاً قوائم منفصلة عن الفئات المختلفة ، والعلماء ورجال الأدب ، والحكام والأسياد ، لكن التفاصيل المتعلقة بالأفراد تظهر هنا وهناك في الكتاب .

٣ ـ مادة التراجم في المعاجم الجغرافية : لم تكن هذه المعاجم معنية حقاً بالجغرافية في حد ذاتها ، ولكن جاءت في الواقع مزيجاً من مفاهيم التراجم والتاريخ المحلي ، وعرضت فيها مادة الترجمة تحت أسماء المدن ، والمناطق عادة مع بعض الوصف لجغرافية المدينة أو الناحية موضوع البحث ، وهناك مثالان شهيران ولكن مختلفان من هذا الطراز من الكتب وهما : **«هفت إقليم»** لأمين بن أحمد رازي (أكمل في ١٠٠٣/١٥٩٣ ـ ١٥٩٤) و**«ومجالس المؤمنين»** لنور الله ششتري (أكمل في ١٠١٠/١٦٠٢) وأتت محتويات الكتاب الأول على ذكر نحو ١٥٦٠ شاعراً ، ووليّاً ، وعالماً ، وآخرين ، وتألف الكتاب الأخير من اثني عشر قسماً تعلقت بالموضوعات التالية : أماكن فيها بعض المجموعات الشيعية ، بعض قبائل الشيعة وعائلاتها ، بعض الشيعة من معاصري النبي (ص) (كذا) ، الشيعة من الجيل التالي (تابعين) ، علماء الشيعة من الأجيال التالية ، صوفية ، فلاسفة ، حكام شيعة ، الأسر الشيعية الحاكمة ، الأمراء ، والقادة العسكريون الخ . . . . الوزراء ، والكتاب الفرس ، شعراء عرب ، وشعراء فرس .

٤ ـ مادة التراجم في التواريخ العامة وتواريخ الأسر الحاكمة :

تحتوي بعض التواريخ الفارسية وليس كلها مادة تراجم ، في صورة وفيات ذكرت في نهاية كل سنة أوحكم ، أو في صورة ملحق حول العلماء ومشاهير الرجال في الفترة التي تعامل معها المؤلف ، وهناك في اختيار مادة التراجم في هذه

الزمرة انحياز قوي ، كما في الزمر التي سلف ذكرها ، حول الطبقات الدينية ، والى الحد الذي يعني التواريخ العامة ، فإن بعض الروايات عن حياة الحكام ، والرسميين وارد في جسم العمل وربما يكون طبيعياً ان غالبية الروايات المسجلة في الوفيات أو في الملحقات يجب أن تتبع فئات أخرى ، وهذا على أي حال لا ينطبق على الاهتمام الساحق المعطى للفئات الدينية في معاجم التراجم المذكورة أعلاه ، أو على الأهمية الأكبر المعطاة لها بالنسبة لعلاقاتها بالفئات الاخرى من السكان (باستثناء الحكام الرسميين ، في الوفيات ، والتواريخ المحلية وقد بين السيد هاملتون جب أحد الأسباب في أن اختيار صاحب الترجمة قد حدد كقاعدة بموجب اهتماماته الخاصة ودراسته ، وبما أن أقدم فروع العلم المنظمة في الإسلام كانت الفروع الدينية والفقهية لدراسة الحديث ، فإن أقدم كتب التراجم وجهت نحو تلبية متطلباتها في التواريخ العامة و(تواريخ) مدن معينة وأقاليم على السواء .

وما أن وضع النمط حتى بات على النزعة العامة أن تتبعه ، وعلاوة على ذلك فان المدارس تمتعت في فارس العصور الوسطى باحتكار التعليم ، وكان التعليم المقدم فيها سواء لأعضاء الطبقات الدينية ، أو لرجال الأدب أو لموظفي الحكومة ، تعليماً في علوم الدين ، ومن المحتمل أيضاً أنه بين الفئات الدينية ، حفظت المعلومات المتعلقة بالتراجم حول أسلافهم بالشكل الأفضل ، وبالتالي عزز كل من تدريب الكتاب والمادة التي توفرت بسهولة أكثر التأثير الذي أحدثه منهج كتاب التراجم الأوائل ، والسبب الجوهري على أي حال ـ للميل للتركيز على الطبقات الدينية يمكن العثور عليه في كل الاحتمالات في الموقف الاسلامي من التاريخ ، الذي تمحور بافتراض أن قضية الله تنتصر في الاسلام ، وعلى هذا الأساس إن أهمية أي حدث فردي أو فرد لا مندوحة من قياسه بالمدى الذي أسهم فيه الحدث أو الشخص في بناء الجماعة الإسلامية وحفظها ، وشغلت الفئات الدينية ـ ظاهرياً على الأقل ـ دوراً كبير الأهمية في هذا المضمار أكثر من أي فئة أخرى وبناء عليه هناك روايات عنهم في أدب التراجم أكثر مما جاء عن الفئات الأخرى .

ومع أن هناك كمية كبيرة من مادة التراجم يمكن جمعها من التواريخ الفارسية وتواريخ الأسر الحاكمة ، فإن الوفيات لا تشكل بشكل عام جزءاً هاماً في التواريخ

الفارسية ، ويعطي البنداري وتاريخه عن سلاجقة العراق (القائم جزئياً على كتاب انو شروان بن خالد ، الذي اختلف حول تاريخ موته فقيل إنه حدث في ٥٣٢/١١٣٧ - ١١٣٨ و٥٣٣/١١٣٨ - ١١٣٩ و٥٣٤/١١٣٩ - ١١٤٠ وترجمة عماد الدين له واضافاته عليه) يعطي بعض التفاصيل في نهاية كل سنة أو مجموعة من السنوات عن الذين ماتوا خلال تلك الفترة ، وتنحصر الاهتمامات بشكل رئيس في أعضاء مهمين من الفئات الدينية ورجالات الدواوين والحكم ، وإذا صح أن هذه الاهتمامات قد شكلت جزءاً من كتاب أنو شروان بن خالد فانها أحد الأمثلة القديمة جداً عن الوفيات الفارسية ، وهي مع ذلك مختصرة للغاية ، ولا تحتوي التواريخ المغولية في القسم الأعظم منها على وفيات ، من هذا القبيل ، وفي تاريخ كزيدة فصل خاص ، يحتوي على تفاصيل متعلقة بتراجم بعض أعضاء الطبقات الدينية ، جاء توزيعها كمايلي : ثلاثة عشر اماماً ، ومجتهداً ، وعشرة قراء وسبعة محدثين ومائتان وسبعة وثمانون شيخاً (بعضهم بدون أية تفاصيل عن حياته) وعدد كبير من الرواة (بدون أية تفاصيل عن حياتهم) ، ومائة وخمسة من العلماء في جميع الأنواع بما فيهم الأطباء ، والفلاسفة والفلكيون ، والفئة المتبقية ، الوحيدة التي يجب ضمها هي فئة الشعراء ، حيث أتى على ذكر أربعة عرب وثلاثة وستين فارسياً ، ومما هو جدير بالذكر أيضاً حول الأهمية النسبية المرتبطة بالفئات المختلفة هو الترتيب الذي وضع فيه حمد الله مستوفي الرجال الذين زاروا قزوين : وضع أولاً صحابة النبي (ﷺ) ، ثم التابعين ، فالأئمة والخلفاء ، ثم الشيوخ والعلماء ، ثم الحكام والوزراء ، وأخيراً الخاقانات ، والأمراء .

ولا يوجد في التاريخ التيموري ، **«مطلع السعدين»** ، وفيات ، ومن جانب آخر يحتوي المجمل وهو تاريخ يمتد من ١ - ٨٤٥/٦٢٢ - ١٤٤٢ ألفه فصيح الخواف ، الذي كان موظفاً مالياً في عهد شاه رخ وبايسنقر ، يحتوي على وفيات الأشخاص البارزين تحت كل سنة ، والقسم الأعظم منهم شعراء ، ورجال أدب في خراسان ، وما وراء النهر[1] ، ويحتوي كتاب خواند مير (حبيب السير ، وهو تاريخ عام يمتد حتى (٩٣٠/١٥٢٤) قدراً معيناً من مادة التراجم ، رتبت لدى نهاية كل حكم ، والغالبية العظمى من المواد هي عن السادة ، والعلماء ، والفضلاء ، والمشايخ ، ويحتوي التاريخ الصفوي **«أحسن التواريخ»** الذي يمتد

من ١٤٠٥/٨٠٧ الى ١٥٧٧/٩٨٥ ـ ١٥٧٨ ، والذي طبع فيه فقط القسم من ١٤٩٤/٩٠٠ إلى ١٥٧٧/٩٨٥ ـ ١٥٧٨ في نهايته ثلاثة أرباع السنوات في النص المطبوع يحتوي قائمة بالذين ماتوا خلال العام ، وتحتوي هذه القوائم نسبة جيدة من الأمراء ، وعمال الدولة ، لكن الأغلبية هم من أعضاء الطبقات الدينية ، خاصة القضاة ، والتفاصيل المعطاة ضئيلة ونادراً ما تظهر أي صورة عن الأشخاص الذين سجلت وفياتهم هناك ، ومن حين لآخر بعض الاشارات إلى منافسات شخصية ومؤامرات كما على سبيل المثال ـ في حالة الملاحظات حول الأمير جمال الدين محمد الأسدأبادي والأمير نعمة الله ، وهو سيد من الحلة في السنوات (١٥٢٤/٩٣١ ـ ١٥٢٥ و١٥٣٣/٩٤٠ ـ ١٥٣٤) كل على حدة .

ومادة التراجم في تاريخ «عالم آراي ـ عباسي» لاسكندر بك ، (استكمل في ١٦٢٨/١٠٣٨ ـ ١٦٢٩) ذات نظام مختلف بعض الشيء ، ولعلها تظهر أن المؤلف كان معنياً بالدولة ، كما وجدت في الواقع (ظاهرة غير عادية إطلاقاً) وليس بالجماعة الاسلامية ، ولا يوجد في المادة المتعلقة بالتراجم المتوفرة فيه تحيز مهيمن نحو الفئات الدينية ، وعلى العكس تمت المحافظة على التوازن بين الفئات العسكرية والبيروقراطية ، الأمر الذي يبدو مرده من بعض الجوانب إلى التوزع الفعلي للسلطة في الدولة ، وهناك مجموعتان من مادة التراجم في «عالم آراي» واحدة في نهاية حكم (شاه طهماسب) وثانية عند نهاية حكم شاه عباس ، وورد في القسم الأول ذكر مختصر للأمراء العظام (أي زعماء قبائل التركمان) ، والموظفين العسكريين ، والسادة ، والمشايخ ، والعلماء ، والوزراء ، والمستوفين ورجالات الإدارة ، والأطباء والحرفيين ، وشعراء الفترة ، وزاد في القسم الذي جاء عند نهاية حكم الشاه عباس إلى الذين جرت ترجمتهم : الأمراء العظام والصدور (الذين كانوا رؤساء المراتب الدينية) والوزراء ، والمستوفين ورجالات الادارة في تلك الفترة وتختلف مبادىء الاختيار التي تتضمن كتاب إسكندر بك سواء بوعي أو بلا وعي ، بوضوح عن تلك التي اتبعها الكتاب الأوائل ، فقد أولى عنايته بشكل عام ، للذين كان عملهم مهماً فقط بمعيار الدولة ، فترجم لهم ، وهنا نجد أن المعلومات المعطاة تعلقت بالواقع بالتعيينات والتسريحات ، بدلاً من تواريخ المواليد والوفيات[٢] وانه لأمر مُغرٍ أن يُرى في هذا تبدلاً بالاهتمامات لو أن الأمر حقاً

كان كذلك لجاء انعكاساً للتقيد بالنظرية ، المتعلقة بدور وموقف الحاكم التي تطورت تدريجياً على مدى فترة طويلة ، ولكنها أصبحت أكثر وضوحاً في ظل الصفويين ، فلقرون عدة سلفت كان الحاكم يعتبر ظل الله على الأرض ، ولكن إلى جانب هذا بقي ـ ولو أنه في صورة مخففة ـ مفهوم الحاكم الراعي لشعبه ، الذي هو وديعة من الله ، ولهذا هو مسؤول عنه أمام الله ، وتعزز في ظل الصفويين مفهوم **«الحاكم ظل الله على الأرض»** بالحتمية الشيعية مع اعتبار الشاه الصفوي ممثلاً للإمام المختفي ، وإذا لم يكن هو نفسه الرجل الكامل ، فإنه على الأقل أقرب إلى امتلاك الحقيقة المطلقة ، أكثر من أي من أتباعه ، وفي مثل هذه الظروف ان الوظيفة الوحيدة الباقية للجماعة ، كانت فضيلة الصلاة من أجل سعادة الشاه ، ومن هذا تبع صرف الاهتمام الرئيس في مواد التراجم لتوقف على حياة الرسميين من رجال الدولة ، وليس على ممثل الجماعة ، ومع ذلك من الصعب الحكم فيما إذا كانت الأقسام المتعلقة بالتراجم في (عالم آراي) مثلت بالفعل ميلاً جديداً من كتاب التواريخ ، لأن قليلاً من التواريخ العامة أو تواريخ الأسر الحاكمة لهذه الفترة أو تلك التي تلي مباشرة هي التي تحتوي وفيات أو مادة تراجم[٣] .

٥ ـ سير الأفراد .

إن أكثر الأنماط شيوعاً هو ما تعلق بشيخ الطريقة الدينية ، وغالباً ما كانت هذه الكتب مشابهة لمعاجم تراجم الأولياء والصوفية ، موادها قصصية بقدر كبير ، وتميل للتركيز على ممارسة الكرامات من قبل الشيخ ، ومن أقدم الأمثلة على هذا النمط من الكتب كتاب **«أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد»** المكتوب ربما في ٥٤٧/١١٧٨ ـ ١١٧٩ وهو يلقي قدراً كبيراً من الضوء على حياة الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير وأيامه (٣٥٧ ـ ٤٤٠) (٩٦٨ ـ ١٠٤٨ ـ ١٠٤٩) ومن متأخر الأمثلة كتاب **«صفوة الصفا»** وهو تهذيب صنعه أبو الفتح الحسيني لكتاب أقدم ألفه ابن البزاز (يحتمل أنه كتب حوالي ٧٠٠/١٣٤٩ ـ ١٣٥٠) وهو كتاب مطول يهتم بشكل رئيس بالمعجزات ، والأحاديث النبوية ، وبكرامات الشيخ صفي الدين مؤسس الطريقة الصفوية وبمريديه[٤] .

٦ ـ تراجم الأسر والقبائل :

إن هذا النوع من الكتب نادر نسبياً ، وبالنسبة لتراجم القبائل فان شبهها بتاريخ الأسر الحاكمة أكبر في الواقع منه بمعاجم التراجم ، هذا وان من أقدم تواريخ الأسر في الفارسية كتاب **«تاريخ البرامكة»** ، الذي يعتقد أنه يعود الى القرن الرابع أو الخامس للهجرة . ويتألف بشكل رئيس من حكايات حول الأعضاء البارزين في الأسرة بدلاً من عرض رواية مفصلة عن حياتهم .

٧ ـ السير الذاتية :

إن السير الذاتية المكتوبة بأقلام أصحابها والتي هي أبكر من التي كتبت في القرن العشرين (التي لم تؤخذ بالاعتبار في هذه المقالة نظراً لاختلافها عن المتعلقة بتقاليد العصور الوسطى) قليلة وغير مهمة نسبياً ، لأنها نادراً ما تقدم للمؤرخ صورة مفصلة عن حياة المؤلف وأيامه ومن بينها : السيرة الذاتية للشيخ محمد علي حزين الأصفهاني ، وعنوانها **«تاريخ أحوال بتذكره حال خود»**ورزنامة ميرزا محمد كلانتر الفارسي ، وهي مذكراته التي بدأ بكتابتها (في ١٢٠٠/١٧٨٥ ـ ١٧٨٦) و**«تجربة الأحرار وتسلية الأبرار»** لعبد الرزاق بك مفتون بن نجف قلي خان دُنبلي (المتوفى في ١٢٤٣/١٨٢٧ ـ ١٨٢٨) التي تتألف بشكل رئيس من مذكرات شخصية ، وكتب شاه طهماسب (٩٣٠ ـ ٨٤/١٨٢٤ ـ ٧٦) أيضاً سيرة ذاتية ، ولكنها لا تتشابه ـ على سبيل المثال ـ مع **«بابُرنامة»** ، ولم تكن دوافع هؤلاء الذين صنعوا مواد السير الذاتية ممن جاء ذكرهم أعلاه من حيث المنطلق ، مختلفة كثيراً عن دوافع المؤرخين ، فكلا الفئتين كانت من المسلمين وعدتا أمراً مسلماً به صورة النظام الاجتماعي والسياسي الذي عاشتا في ظله ،ولقدارتئي بشكل ثنائي ، أن وظيفة الدولة كانت إيجاد الظروف التي يمكن فيها أن يحيا المرء حياة طيبة ، وكانت التواريخ إلى حد ما تؤلف من أجل توضيح هذه الفكرة ، وكتبت التراجم في الواقع من أجل تسجيل حياة الذين عاشوا ـ أو تقريباً عاشوا ـ الحياة الطيبة ، علاوة على ذلك ، بما ان أوج التاريخ كان الوحي الالهي إلى النبي محمد(ﷺ) ، وانتصاره المتجلي في حياة الجماعة الاسلامية ، تبع ذلك أن التأكيد الرئيس في ادب التراجم ، وقع على المسلمين الذين يجب عدهم ، المستأمنين على الحكمة الالهية

بسبب سعيهم للمعرفة ، أعني العلماء ، أو بسبب قرابتهم الخاصة للنبي أعني الأسياد ، وعلى هذا كان عمل كاتب التراجم عمل تقوى وديانة ، وكان هو والمؤرخ معنيين بالعلاقة بالحقيقة (أو بما اعتقداه حقيقة) ولكن علاقاتهما تكيفت بفكرتهم عن العالم كمسلمين ، ولعله ، من المفيد التأكيد أنه لم يوجد لدى المسلم مسألة «كنيسة» ، و«دولة» . فهو لم يكن داعياً لانتمائه لأكثر من مجتمع واحد ، وكان اتجاهه هكذا نحو التفسير الديني للتاريخ ، وهذا واضح ومشروع في تاريخ كزيده «لحمد الله مستوفي» فقد جاء في الفصل الخامس الذي أوقفه على الأئمة ، والمشايخ ، والعلماء (الذين يتبعون الحولية خاصة) قوله : إنهم (العلماء) في عقيدة الاسلام بمنزلة الأنبياء ، في الديانات الاخرى ، وقد جاء ذكر الأنبياء في القسم المتعلق بالأنبياء [في بداية الكتاب] ، وسيأتي ذكرهم (العلماء) عند نهاية [الكتاب] وهكذا تتزين بدايته ونهايته بذكر رجال الدين[٥] ، وقد روى عن واحد من المشايخ الكبار في مرو أنه في أيام الاسلام هناك دائماً ثلاثمائة من أولياء الله على الأرض ، يبلغ أربعون منهم أعلى الدرجات ، ويصل سبعة منهم إلى عليين ، ويصل واحد منهم إلى المرتبة الأسمى ، فيصبح قطب العصر ، وبرهان الله لمخلوقاته ، ومحور العالم ، وفي أي وقت يموت فيه أحدهم يخلفه واحد من المرتبة الأدنى ، وهكذا تبقى السلسلة غير مقطوعة[٦] .

إنه الاعتناء بالعلماء كورثة للنبي والاعتقاد الشائع على نطاق واسع على الاقل في فارس بوجود مراتب من الأولياء ، قد ضمن للفئات ، الدينية مركزاً مهيمناً في أدب التراجم في فارس .

وكان هدف كاتب التراجم ، مثل هدف المؤرخ قد حوى أيضاً تذكيراً وتثقيفاً ، وذكر محمد بن محمود آملي في كتابه «نفائس الفنون» (صنف في ٧٣٥/١٣٣٤ ـ ١٣٣٥) أن قيمة التاريخ وكتابة التراجم لا تكمن في جمع القصص والأحاديث في التذكير والتحذير كي لا تتعلق قلوب غفلاء الرجال بهذه الدنيا . بل ليشغلوا أنفسهم باحراز السعادة الأبدية[٧] ، وهذا الباعث مشترك بدرجة كافية بين المؤرخين . وهو على أي حال نادر نسبياً بين كتاب التراجم ، الذين يبدو أنه شاع بينهم دافع الرغبة في التقوى ، وهذه بشكل خاص حالة كتاب تراجم الأولياء والصوفية الذين كثيراً ما كانوا أقل تعلقاً بالحقائق المجردة منهم بالحكايات التي

تصور كرامات الذين يكتبون عنهم ، وهكذا ذكر «العطار» في مقدمته لكتاب «تذكرة الأولياء» البواعث التي حرضته على تصنيف كتابه هي : الرغبة في علاج حالة الأمور القائمة عندما صار أفضل الناس أشراراً ، والرجال الصالحون منسيين ، والاعتقاد بأن أقوال الأولياء تقنع الناس بأن يعتزلوا الدنيا ، وان يتأملوا في الحياة المقبلة ، وان يحبوا الله ، وأن يبدؤوا بالاستعداد لرحلتهم الأخيرة ، وأنه قد دفع أيضاً ، بأمل أن يبارك الذين يقرؤون هذا الكتاب ، المؤلِّف ، وهكذا يحتمل أن يضمن الخير بعد القبر ، وأن يجلب له نفوذ الأولياء السعادة قبل موته ، وأن تجلب له شفاعتهم العفو فيما بعد[٨] .

وكانت اهتمامات كتاب التراجم وموادهم في التواريخ المحلية إلى جانب تأثرهم ببعض البواعث المذكورة أعلاه ، كانت أيضاً في الواقع ربما مستلهمة من الوطنية المحلية ، وهنا أيضاً يأتي عنصر البحث عن الحقيقة ، وعلى أي حال كان كتاب كثير من الأعمال المتعلقة بالتراجم كانوا ببساطة ، شعبيين عاديين (وهكذا كانوا ينقلون بحرية بإقرار أو بلا إقرار من كتب أسلافهم) ، لقد كتبوا للتقى والإرشاد والتوجيه .

ومن هذه الزمرة مثل «هفت اقليم» و «تذاكر» الشعراء ، وأما الذين كتبوا سيراً ذاتية فقد فعلوا ذلك من أجل أسباب مختلفة ، فبعضهم مثل ميرزا محمد صاحب كلانتر فارس كتبوا من أجل التسلية واللهو ، وكتب آخرون ربما لمجرد أنهم رغبوا في تسجيل الأحداث التي اشتركوا فيها شخصياً .

وما من واحد من كتب الزمر المختلفة لأدب التراجم ، التي نوقشت أعلاه غريب عن فارس ، وإن خصائصها جميعاً مشتركة بدرجات متفاوتة بين الكتابات المتشابهة في الأقسام الأخرى من العالم الاسلامي ، ومع ذلك هناك شكلان أكثر تميزاً عن غيرهم في أدب التراجم الفارسي هما : معجم تراجم الطائفة الدينية أو الطريقة ، والتاريخ المحلي بتأكيده الرئيس على تراجم العائلات المحلية والرسميين ، وأرى أن هذا ليس صدفة ، ولكنه مستمد من حقيقة أن اثنين من أكثر الميول المميزة في حياة العصور الوسطى الفارسية كانت علاقة المريد بشيخ الطريقة والخصائص الاقليمية ، ومن الواضح أن هاتين الزمرتين في أدب التراجم للمؤرخ غير موحدة ، فكتّاب الزمرة الأولى يميلون لأن يكونوا غير ناقدين بدرجة

عالية ، وكثير من مادتهم قصصي ، وله قيمة قليلة بالنسبة للمؤرخين ، مع أن غالبية الروايات غير الناقدة قد تلقي الضوء على الظروف المعاصرة لها أو تملأ الثغرات ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر إن المعلومات في التواريخ المحلية على الرغم من مجالها المحدود ، ذات قيمة لا تقدر بالنسبة لمؤرخ الحضارة الإسلامية ، وبالنسبة لبقية أدب التراجم الفارسي فهو مثل نظيره العربي - إلاّ حيث يكون الكتّاب مجرد شعبين - يردف معلوماتنا المستقاة من مصادر أخرى ، ويقدم مادة للتاريخ الاجتماعي والإداري .

هوامش البحث

١ - الأشارات المعطاه بين قوسين إلى الصفحات من تاريخ البيهقي تحقيق د . أكبر فياض (طهران ١٣٢٣)

٢ - معظم هذه الفقرات قد جمع ونشر من قبل سعيد نفيس .

١ - إنظر ي . غ . براون E.G.Browne تاريخ الأدب ٤٢٦/٣٠ - ٤٢٨ .

٢ - إن تضمين القائمة الأولى الأطباء ، والحرفيين الخ أمر يمكن تفسيره بأن الأطباء أسهموا في المحافظة على الملك ، وأسهم الحرفيون في تمجيده وعظمته .

٣ - في كتاب محمد يوسف «ذيل تاريخ . عالم آراي عباسي» ، الذي يؤرخ لحكم الشاه وصافي ١٠٣٨ - ١٦٢٩/٥٢ -٤٢ هناك ملاحظات موجزة في نهاية الكتاب حول الرسميين في تلك الفترة .

٤ - برأي أحمد كروي قام مريدو الأسرة الصفوية بإحداث تغيير في نسخ هذا الكتاب الذي وصل إلينا (نزاد وتباري صفوية في ايند ١٩٢٧ - ١٩٢٨ : ٣٦١/٢) اقتبسه ر . م سوري في أطروحته لنيل الدكتوراه (لندن ، ١٩٥٨) بعنوان تطور الدولة الصفوية المبكرة .

٥ - ي . ع براون E.G Browne النص الفارسي ص ٧٥٥ .

٦ - المصدر نفسه ص ٧٩٦ - ٧٩٧ .

٧ - طبعة طهران : ٢١١/٢ .

٨ - ر . أ نيكلسون - المقدمة ص ١٣ - ١٥ .

١٤ـ نشأة حركة التأريخ العثماني

خليل ايناجك
أستاذ التاريخ في جامعة أنقرة

يبدو أنه كانت هناك أسباب وراء إنتاج حركة التاريخ العثماني لأول مصنفاتها العامة في وقت مبكر من القرن الخامس عشر بعد انهيار امبراطورية بايزيد ثم إثر وفاة محمد الفاتح في نهاية القرن نفسه ، وقد بين ط . سيف Th. eif من قبل أن تواريخ آل عثمان قد كتبت حوالي نهاية القرن الخامس عشر كنتيجة للوعي بإقامة امبراطورية عظيمة ، ويمكن لمحاولة ربط المراحل التي مرت بها حركة التأريخ العثماني بتطور التاريخ العثماني نفسه ان تلقي ضوءاً جديداً على المشكلات المختلفة .

-١-

كان المعتقد مع أول الدراسات الجادة للمصادر العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى أن أقدم المصنفات عن التاريخ العثماني لابد أنها «مناقب» يخشي فقيه ، مع فصل أحمدي عن العثمانين من كتابة «اسكندرنامة» ، وقد ورد ذكر كتاب يخشي فقيه ، «مناقب آل عثمان» الذي أرخ حتى زمن بايزيد الصاعقة من قبل عاشق باشازاده . فقد قابل يخشي فقيه في جيف geyve في ١٤١٣ ، وكان قد منح أرضاً من قبل محمد الأول الذي يبدو أنه دعمه في صراعه من أجل السلطنة ، ويبدو أن النقد المرّ لدى عاشق باشازاده ضد جندرلي علي باشا ، الذي انضم إلى جانب الأمير سليمان مصدره يخشي فقيه ، ويبدو انه صنف كتابه في ظل محمد الأول ، وقد بين غيسه

Giese بحق انه بالنسبة للقرن الأول من التاريخ العثماني لابد أن عاشق باشازاده والمؤلف المجهول صاحب كتاب «تاريخ آل عثمان» قد استفادا معاً من مصدر مشترك يبدو أنه كتاب يخشي فقيه ، وأوصى غيسه أيضاً أن هذا المصدر يمكن إعادة بنائه من هذين الكتابين ومن كتاب نشري الذي اعتقد غيسه أنه ضم جزءاً كبيراً من كتاب عاشق باشازاده ، وعندما اكتشفت تاريخ عروج Uruj ارتئي على الفور أنه مرتبط بالمصدر نفسه ، وقد رأى بابنغير Baibinger الذي تولى تحقيقه أنه قد صنف في زمن الفاتح ، وأن كتاب «تواريخ» لمؤلف مجهول ليس إلاّ نسخة جديدة منه ، بيد أننا نجد في المقام الأول أن تاريخ عروج كان قد أهدي لبايزيد الثاني ، كما هو واضح في مقدمة مخطوط مانساManisa ، ونجد في المقام الثاني أن عروج وتواريخ المؤلف المجهول هما نسختان مستقلتان عن المصدر الأصلي في عاشق باشازاده (قارن مثلاً ، معركة قيون حصار في النصوص الثلاثة) ويمكن البرهنة منهما على أساس مصدر مشترك من ظهور عثمان غازي إلى القضاء على مصطفى ، الأخ الثائر لمراد الثاني ، في ١٤٢٢ ، والآن يبدو ان المصدر المشترك كان كتاب يخشي فقيه مع تتمة حتى ١٤٢٢ ودعونا نلقي نظرة أدق على تواريخنا .

في الفصول الأولى كان الموضوع التالي مشتركاً بين المصادر الثلاثة : هاجرت مجموعة الأغز إلى آسية الصغرى ، بقيادة سليمان شاه الذي غرق في الفرات ، وعاد ابنه ارطغرل واخوته إلى سورملي ـ جكور ، (سمي ثلاثة من الاخوة في نشري وكمال باشازاده ، واثنان فقط في عاشق باشازاده وعروج ، وتواريخ المؤلف المجهول ، ومنح السلطان السلجوقي ، علاء الدين ارطغرل ، واتباعه منطقة سوغود ـ تملج داغي Soghoud - Tamalich - daghi ، وإرمني ـ بلي Ermeni - beli ، وقد وسع هذا الموضوع في عروج وفي تواريخ المؤلف المجهول مع إضافات من مصادر مختلفة ، ولكن من خطبة طورسون فقيه باسم عثمان غازي وما بعد ، فان نصوصنا الثلاثة تتفق بدقة أكثر ، وهنا فقط تحوي التواريخ المجهولة المؤلف رواية أصيلة عن القتال في يلك ـ أوا بين قوات عثمان وجيش الامبراطور الذي أرسله لنجدة نيقيه ، وبالمصادفة فان تلك المعركة وليست قيون ـ حصار هي التي تتفق مع الرواية حول المعركة في بافيون التي يصفها بجميرز وتربط بافيون خطأ بقيون حصار من قبل هامر وكل الذين كتبوا بعده ، وهناك نسخة من الرواية

نفسها في نشري ترتبط بتلقي عثمان شعارات سلطة الامارات كمكافأة على هذا النجاح ، وإن انتصار عثمان على القوات التي أرسلها تكفور القسطنطينية بقيادة ابنه يمكن أن تكون عند عروج صورة اخرى مختلفة للرواية نفسها ، وربما كان مدهشاً جداً لو لم يكن هناك ذكر في المصادر العثمانية لهذه الحادثة التي حثت بجميرز على ان يذكر عثمان في تاريخه للمرة الأولى ، وفي الواقع ذكرت من قبل عروج والتواريخ مجهولة المؤلف ولكن لم تذكر لدى عاشق باشازاده .

إن القصة الشهيرة حول التنين والدرويش المرتبطة بحصار نيقية موجودة فقط في التواريخ مجهولة المؤلف ، وهي قصة واسعة الانتشار ، وهي موجودة ايضاً في «السلجوق نامة» ، وقد أدخل «عروج» قصة حول بابا إلياس ، ذاكراً مصدره على أنه «المناقبنامة» لعلوان جلبي ، والى هذه الاضافات من المناقبنامة تعطي التواريخ مجهولة المؤلف أو عروج روايتين عن معركة مريزا ضد الصرب ، واحدة تتفق مع رواية عاشق باشازاده ، والثانية مختلفة تماماً .

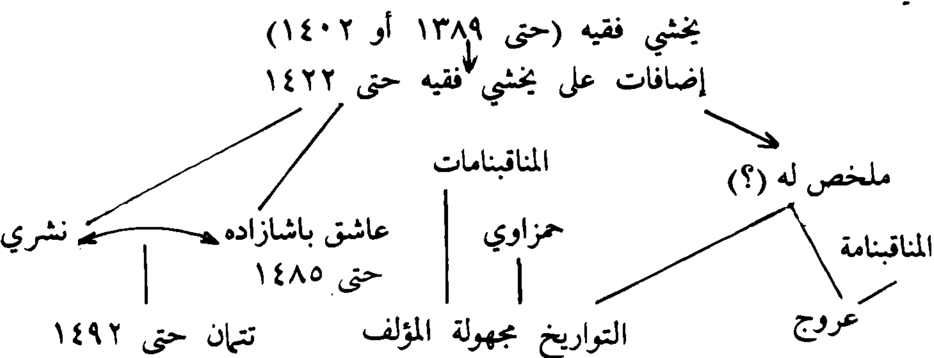
ورواية عروج عن المعركة ضد مرسيا Mircea في ١٣٩٥ ، أصلية تماماً ، وتتفق مع ما نعرفة الآن من وثيقة تركية عنها [1] ، وليس هناك ذكر لهذا الحدث الهام لدى عاشق باشازاده ، في حين أن رواية ثانية لها موجودة في «بودليان روحي» «ونشري» ، «وبهشتي» ، وواضح أنها من المصدر نفسه ، ومن جانب آخر لدى عاشق باشازاده فصول كاملة ليست لدى عروج والتواريخ مجهولة المؤلف معاً ، مثل تلك المتعلقة بعمليات أورخان في وادي سقاريا Sakarya وإضافات عاشق باشازاده الأخرى من مصادره الشفهية بالطبع غير واردة في النصين الآخرين ، وفيما يتعلق بزمن بايزيد نجد عدداً أكبر من الإضافات والتواريخ مجهولة المؤلف هي وحدها التي تحوي رواية مفصلة حول استيلاء تيمور على سيواي ومعاملته لبايزيد في الأسر إضافة إلى القصص حول السلطان أحمد الجلائري ، وقد كرر علي هذه القصص بعد نحو مائتي سنة ، وقال إنه حصل عليها من حمزاوي ، ويبدو من جانب آخر في التواريخ مجهولة المؤلف أن الأجزاء الشعرية من هذه القصص جاءت من المصدر نفسه ، ومن المأمون القول أن الإضافات الهامة على تلك الفترة من التواريخ مجهولة المؤلف لابد أنها جاءت من مصدر مستقل .

والرواية حول معاملة بايزيد للقضاة الفاسدين والمهرج موجودة بشكل مشترك في نصوصنا بفارق أن التواريخ مجهولة المؤلف وعروج يعيدان تمثيل رواية المصدر الأصلي باكتمال أكبر ، وبشكل عام إن التواريخ مجهولة المؤلف أكبر تفصيلاً من الأجزاء التي تنتقد الإدارة أكثر من المصادر الأخرى ، ويقع عروج وعاشق باشازاده في الأخطاء نفسها لدى رسمها لاسم ميدان معركة مرج دابق ويكتبانها (مجنون طابق) ، في حين أن التواريخ مجهولة المؤلف تعطي الصورة الصحيحة ، وأعتقد أن هذه دلالة أخرى على أن عروج لا يمكن أن يعتبر كمصدر للتواريخ مجهولة المؤلف .

وخلاصة الأمر ، استعمل عاشق باشازاده وعروج التواريخ مجهولة المؤلف ، كل بطريقته ، مصدراً مشتركاً منذ ظهور عثمان حتى ١٤٢٢ ، وبشكل عام إن نسخة عاشق باشازاده هي الأكثر تفصيلاً ، مع أن عروج يبدو أنه يعطي في بعض المواضع معالجة أكمل للنص الأصلي ، ويضيف الثلاثة معاً إلى النص المشترك معلومات جديدة من مصادر مختلفة مثل الروايات الشفهية والمناقبنامات ، وعلى أي حال لابد أن التواريخ مجهولة المؤلف قد استعملت أيضاً الكتاب المسجوع (من ١٤٠٢ حتى ١٤٢٤) ولعله كتاب حمزاوي ، ولهذا فإن كل هذه النصوص يجب أن تعتبر مصادر منفصلة ، كما ويجب عد كمال باشازاده ونشري ، وكلاهما قد يكون مرتبطاً بمجموعة مصادر عاشق باشازاده أيضاً نسخاً منفصلة ، لأنه ، حتى في الروايات التي من الواضح أنها في المصدر المشترك ، يحوي كليهما تفاصيل لا يمكن أن توجد في أي مصدر آخر ، ومن جانب آخر فإن نسخاً فردية من كل هذه التواريخ ربما تكون بأهمية النصوص المختلفة نفسها لأن مؤلفيها أجروا مراجعات في تواريخ وقائع مختلفة مع إضافات أو اختصارات ، وعلى سبيل المثال ، إن مخطوط كمبردج من كتاب عروج يختتم بأحداث (٨٩٩) هجرية ، ولكن طبقاً للمدخل في مخطوط مانسا فان هذه النسخة منقحة تمضي بالاحداث إلى ٩٠٦ هـ ، وفيها نجد على سبيل المثال إضافات مفصلة ، عن القبائل في «جكور - أوا» التي جاءت مع سليمان شاه الذي يعتقد أنه جد عثمان ، وهذه الإضافة قد أجريت ، كما يبدو ، بسبب الصراع الذي كان جاريا ضد المماليك لإحراز اليد العليا في هذه المنطقة وليس هناك من شك ان عاشق باشازاده ، قد قام بمثل هذه

المراجعة مع التكملات ، وعليه فإن نظرية الأستاذ وتلك Wittek حول نص عاشق الأكثر تفصيلاً من ذلك والذي لدينا اليوم ، ماتزال صالحة حتى لو اعترفنا ، بالإضافات الكثيرة التي أجراها نشري على نصص عاشق باشازاده على انها أتت من مصدر روحي والتقاويم .

وفيما يلي تلخيص لما قلناه حول النصوص الأولى المرتبطة بما يدعى يخشي فقيه



وهكذا يجب أن ندرك أن التصنيف الأول قد تأصل في فترة الصراع على البقاء للدولة العثمانية بعد الهزيمة المصيرية في ١٤٠٢ ، ويمكن للمرء ان يرى بسهولة في هذه الرواية التاريخية الجهد المبذول لتفسير الكارثة كعقاب إلهي بسبب الآثام المرتكبة في عهد بايزيد الأول . وقد اتهم هو ووزيره علي باشا بتجاوزهم وتحديهم لأحكام الشريعة ، وإحداث بدع في الحكومة ، وعندما يصف المؤرخ عثمان غازي بأنه لم يكن يملك ذهباً ولا فضة عند وفاته ، ورفضه فرض ضرائب جديدة على المعاملات في الأسواق باعتباره انتهاكاً للشريعة ، يبدو أن مصدرنا كان يقصد انتقاد فترته بجعل الحاكم العثماني الأول مثلاً يحتذى ، ويمكن أيضاً أن يفسر التأكيد على الاحترام ، الذي أظهره الحكام العثمانيون الأوائل للدراويش بمنحهم بكرم رقعا من الأرض ، على انه شجب لسياسة بايزيد في إبطال الحقوق على اراضي الملك والوقف ، وهكذا فان هذا الكتاب عن القرن الأول من التاريخ العثماني يحمل علامات خيبة الأمل الكبيرة من إنهيار امبراطورية بايزيد ، فقد شعر العثمانيون في حينه بالحاجة لأن يكون لهم إطلالة عامة على وجودهم التاريخي ، وبحثوا في الوقت نفسه عن فائدة تاريخية لمطالبهم المقبلة ، ويبدو أن سياسة اللين

والاسترضاء لدى محمد الأول ومراد الثاني المضادة لزخم حكومة بايزيد تنعكس أيضاً في هذه الأفكار الارتكاسية ، وقد اعتبر خلفاء تيمور أي عمل جديد من جانب العثمانيين فيه تغيير للحالة التي أوجدها تيمور في أواسط الأناضول كانتهاك للوضع القائم ، وبعثوا بكلمات التهديد إلى مراد الثاني بسبب عملياته ضد القرمانيين وما هو أكثر ، كان التيموريون يحاولون الابقاء على العثمانيين كأتباع لهم قانونياً على الأقل ، والآن إن ما نجده في التواريخ العثمانية إضافة الى ما في رسالة مراد الى شاه رخ هو أنه من أجل متابعة التزاماتهم الجهادية في الروملي ادعى العثمانيون كزعماء للغزاة أنه كان عليهم أن يصدوا الهجمات القرمانية من خلفهم ، ويبدو أن سلاسل الأنساب في التواريخ حيث ربطتها بتقاليد الأُغز قد صيغت ببساطة لتجعل العثمانيين يظهرون معادلين للخانات في الشرق ، وبذلك يمكنهم الافلات من التبعية للتيموريين وادعاء التفوق على الإمارات التركية في الأناضول ، وقد ادعى بايزيد من قبل لقب سلطان الروم مما جعله وريثاً للسلاجقة في جميع الأناضول ، ويضع تاريخنا الكلمات التالية في فم عثمان : إذا كان الله قد أعطى السلاطين السلاجقة السلطنة ، فان الله نفسه أعطاني الخانية بسبب الجهاد (الغزو) ، واذا قال أنه من البيت السلجوقي ، فإني أقول إني أنحدر من «قاي كالب»[٣] ، وأضاف يازجي زاده عن زمن مراد الثاني قولاً مشابهاً في كتابه تاريخ آل سلجوق الذي أخذه فيما بعد روحي أو مصدره ، وجعل أثر آخر في تاريخنا ، من عثمان الوريث الشرعي للسلطان السلجوقي الأخير ، وبين الاستاذ وتك جيدا أن هذه الادعاءات قد أضيفت إلى المصادر في الفترة بعد بايزيد الأول .

وباختصار تشكّل مصدرنا الأصلي تحت التأثير القوي للأفكار التي كانت قائمة في دولة العثمانيين في العقود الأولى للقرن الخامس عشر ، وهكذا قدم شكلاً خاصاً للتاريخ العثماني ، وجده مؤرخو المستقبل ، عثمانيين وغربيين ، جاهزاً للاستعمال دون فهم الكثير من معناه الحقيقي ، ويبدو أن مصنف هذا التاريخ قد استخدم كمادة له «مناقبنامات» و«غزواتنامة» كانت مكتوبة حول الحوادث الفردية والأشخاص .

وبعد ١٤٢٢ ، على أي حال ، فان عاشق باشازاده من جانب والتواريخ مجهولة المؤلف وعروج من الجانب الآخر تبعا مصادر مختلفة تماماً ، وكثيراً ما أضاف

عاشق باشازاده تجاربه الشخصية الخاصة ، ومعلوماته الشفوية إلى المناقبنامة التي يقول إنه لخصها في كتابه ، فعند نهاية حكم مراد الثاني قال : انا عاشق درويش أحمد ، قد رأيت وعرفت الغزوات التي قام بها هذا السلطان ، وكذلك الأحوال التي ألمت به ، وأقواله وأفعاله وكتبتها بإيجاز في هذه المناقبنامة ، أما بالنسبة للتواريخ مجهولة المؤلف وعروج فإنهم اتبعوا بشكل اساسي مصدراً مشتركاً من ١٤٢٢ إلى ١٤٨٤ ، ومن المهم بدرجة كافية أن عروج أعطى روايتين مختلفتين عن ثورة مصطفى في ١٤٢٢ أولاهما كما يبدو نفسها في التواريخ مجهولة المؤلف ، وعاشق باشازاده ، وتتحول التواريخ مجهولة المؤلف إلى المصدر الجديد بالصيغة المعتادة «راوي لرشولي ادورلركيم» عن الأحداث بعد ١٤٢٢ ، ويبدو ان المصدر المشترك لعروج والتواريخ مجهولة المؤلف للفترة التي بعد هذا التاريخ ، التقاويم التي سنتعامل معها بعد قليل ، ولكن لنتفحص أولا المناقبنامات التي على ما يبدو ، هي المصادر الأصلية للتأريخ العثماني في الفترة الأولى .

إن أصل هذا الأدب البطولي الديني قد التمس من جانب في الملاحم الشعبية التركية ، ومن جانب آخر في التقاليد الإسلامية لأدب المغازي ، والسير ومناقب الأولياء ، وقد اقترح فؤاد كوبرولو أن إنجازات أتراك الأناضول في مناطق الروملي غازي قد ولدت حلقة ثالثة من هذه الملاحم الشعبية بعد تلك الممثلة في «البطال نامة» و«الدانشمندنامة» وفي رأيه أن الحلقة الثالثة ممثلة من قبل السلتوقنامة ، وهي مجموعة من المناقب الشعبية ، والقصص الملحمية الدينية ، أي الغزوات والنشاطات الداعية للإسلام للولي الشهيد سري سلتوق في الروملي .

ونجد في كتب عاشق باشازاده والتواريخ مجهولة المؤلف أو عروج في الواقع نوعين من المناقبنامة : واحدة تتألف من قصص شعبية شائعة كما في حالة حلم عثمان غازي حول مستقبل بيته وأعمال مراد الأول المعجزة ، وتتألف الثانية من المناقبنامة أو غزوات نامة ذات المعلومات التاريخية الحقيقية ، والأمثلة النموذجية للزمرة الأخيرة هي الروايات المفصلة عن معركة قصووه الأولى ، ونشاطات محمد الأول ، بين ١٤٠٢ و١٤١٥ حسبما هي مروية في روحي (مخطوطة البودليان) ونشري ، ومن الممكن عدّ قصة الاستيلاء على بورصة في عاشق باشا زاده ، من نمط المناقبنامة نفسه ، وكمثال أصيل على هذا النمط نملك الآن «غزوات نامة»

منفصلة ، غزوات مراد خان في معركة فارنا في ١٤٤٤ ، ومع أنها مناقبنامة من الفترة الأخيرة ، فان هذا الكتاب المفصل يعطي فكرة جيدة عن هذا النوع من المناقبنامة . كما يمكن تصنيف ملحمة الغازي عمر في كتاب أنوري «دستور نامة» أيضاً على أنها تتبع هذا النمط من المناقبنامة أو غزواتنامة ، وبالمناسبة تستخدم نصوصنا كلا التعبيرين دون تمييز ، وهي حقيقة طبيعية ، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه في أراضي الجبهة العثمانية كثيراً ما أصبح الدراويش ، والغزاة متماثلين ، وعلى أي حال يبدو أن هذه المناقبنامة التاريخية المكتوبة حول الأفراد والأحداث والاشخاص ، وحول السلاطين أو بكوات الجبهة تعطي عموماً معلومات تاريخية يمكن الاعتماد عليها تماماً ،

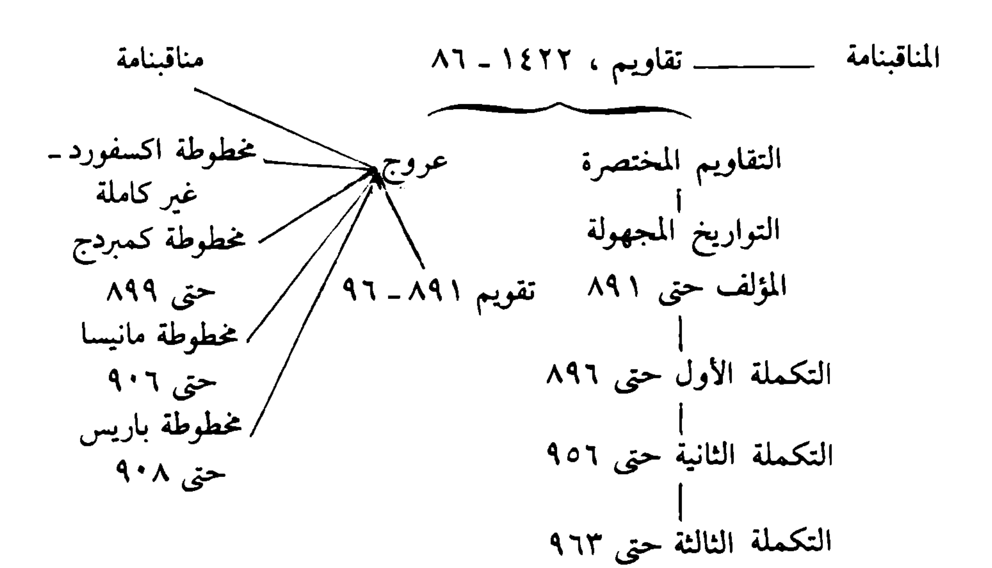
وفي مجتمع مشبع بروح الغزو كانت المناقبنامة عادة تميل إلى أن تقرأ بصوت مرتفع في التجمعات ، في الجيش أو في الأسواق حيث نجد كما يروي سجل أحد القضاة في بورصة ان التجار كانوا يجهزون الجنود على حسابهم الخاص ، ويعكس نوع المناقبنامة الباقي في كثير من الغزواتنامة المشاعر الشعبية بلغة بسيطة ، كما تنعكس في أعمال شعبية كما في عاشق باشازاده ، والتواريخ مجهولة المؤلف في الفروق التالية ، وفي الواقع ، يتوجه عاشق باشازاده إلى مستمعيه قائلاً «أيها الغزاة» ، ويختم كما يلي : كل من يقرأ أو يسمع مناقب البيت العثماني هذه ويرسل بالدعاء لأرواحهم ليمنحه الله رضوانه .

وبالنسبة للتقاويم التي أصبحت المصدر الرئيس لعروج والتواريخ مجهولة المؤلف والتي وجدت في الأعمال المتعلقة بالفلك ، التي تحمل عنوان جداول التقويم ، وجداول الاختيارات أو أحكام الاختيارات تتبع فرعاً قديماً من علم الفلك الإسلامي ، وكان منجمو القرون الأولى للإسلام قد ضمنوا كتبهم قوائم تاريخية حول الأحداث الهامة ، سياسية كانت أو طبيعية . واتخذوها أساساً لتنبؤاتهم عن المستقبل وإشارة إلى المشروع الذي اقترحه اخوان الصفا من أجل الأعمال التنجيمية في القرن العاشر نجد فرانز روزنتال يعتبرها قريبة من التاريخ الحولي ويبدو أن أتراك الأناضول كانوا مهتمين بهذا العلم منذ وقت مبكر نوعاً ما ، ولدينا نسخة أصلية من كتاب جدول الاختيارات تصنيف زين المنجم بن سليمان القوني الذي كتب في سيواس في أواخر صيف ١٣٧١ فهو يحتوي قائمة حولية حول

السلاجقة والايلخانيين ، وقد دونت الملاحظات التالية على غلاف المخطوط مشيرة إلى احداث مثل لقاء بايزيد بك وتاج الدين بك وحاجي شاد ـ جلدي في جال ـ داغ في ٦ محرم ٧٨٠ ، وهي مهمة جداً لانها تبين كيف كان المنجمون يسجلون بياناتهم وفق الترتيب الزمني في موقع الأحداث ، وتم مؤخراً فقط إدراك أهمية الكتب العثمانية العديدة حول «أحكام واختيارات» التي يحوي كثير منها قوائم أحداث مرتبة زمنياً ، وتعود أقدم الأعمال العثمانية التي بقيت إلى سنوات (٨٤٩ ، ٨٥١ هـ) ومن الواضح أنها أسست على كتب أقدم ، ويبدو أنه جرت العادة في بداية كل سنة جديدة استخراج تقويم مع (أحكام واختيارات) من أجل استعمال السلطان ، وفي الواقع هناك تقويم آخر من أجل سنة ٨٥٦هـ ، لحضت فيه قوائم الأحداث المرتبة زمنياً في النصوص المذكورة أعلاه ، وهكذا يمكن عد المنجمين في البلاط بمثابة أول «وقائع نويس» (محرر للأحداث) والآن دعوني أعطيكم مثالاً حول كيفية أن عروج والتواريخ المجهولة المؤلف قد استمدت معلوماتها من هذه التقاويم ، نقرأ في تقويم ٨٤٩هـ مايلي : «مضت أربع سنوات منذ أن أخذت قلعة نوڤابيري Novabiri ومدينتها وبعض أراضيها من الكفار ، من قبل شهاب الدين باشا . أمير أمراء الروملي وبعض الأماكن من قبل اسحق بك ، بك أوج ـ ايلي في زمن مراد خان» ، ونقرأ في التواريخ مجهولة المؤلف «انقض في سنة ٨٤٣ هـ السلطان مراد على بلغراد ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها ثم عاد وغزا قلعة نوڤابرادا Novaberda وافتتح شهاب الدين باشا ، أمير أمراء الروملي ، واسحق بك ، بك أوجي بعض أراضيها ، ونقرأ في عروج كما يلي : «في عام ٨٤٣ هـ ، انتزع شهاب الدين باشا قلعة نوڤابرادا والأراضي التي على هذا الجانب ، وكان معه اسحق بك ، بك أوجي» ، وأخيراً أعطى نشري الرواية نفسها بهذه الطريقة : «في عام (٨٤٤) انتزعت قلعة نوڤابيري مع بعض الأقاليم العائدة للكفار من قبل شهاب الدين ، وبعض القلاع من قبل اسحق بك ، بك أوج ، وقد لوحظ أن نسخ عروج خارجة عن مصادرها كثيراً ، ولكن التواريخ مجهولة المؤلف تترك شرف الاستيلاء على نوڤابيري للسلطان ، هذا ولابد أن التقاويم قد استعملت ترتيباً زمنياً للحكام العثمانيين الأوائل طالما أنه من غير المحتمل أن يكون أي تقويم قد كتب في تلك الفترة المبكرة ، وفي الواقع تعطي التقاويم معلومات

قليلة جداً حتى السنوات الأخيرة لحكم مراد الأول ، ويبدو أن التاريخ الذي ربما استخدموه هو نفسه الذي استخدمه «كرماني محمد» في ١٤٨٠ ، ورويت بعض الأحداث الهامة المعاصرة عادة ببعض التفصيل كما كانت الحالة مع معركة ڤارنا في تقويم ٨٤٩ هـ ، وقد اختصرت هذه الرواية الصفحة الواحدة إلى بضع سطور في تقويم ٨٤٦ هـ ، ولكن يجب ملاحظة أن وصف عروج لهذه المعركة أكثر تفصيلاً حتى من وصف تقويم ٨٤٩ ، ومن الواضح ان عروج مثله مثل التواريخ مجهولة المؤلف قد استفاد من الغزواتنامة من أجل الأحداث العظيمة مثل معارك ڤارنا ، وقوصووه .

ويمكن للمرء أن يرى انقطاعات في تدوين الحوليات في التقاويم كلما استخدمت (الغزواتنامة) ، وتحوي نصوصنا روايات كثيرة ـ بشكل غريب ـ أخذت من التقاويم ، تتعلق بالهزات الأرضية والظواهر الفلكية والحرائق والآفات ، وان التقاويم والتواريخ مجهولة المؤلف وبشكل خاص عروج أفضل بما لا يقارن في الروايات الحولية للأحداث ، من التصانيف المتأخرة مثل نشري ، وإحدى الخصائص الهامة في عروج انه سجل اسماء باشوات الديوان كلما حدث تغيير ، على سبيل المثال كان محمد باشا أول وزير في ٨٣٢ وقد ذكر فقط في عروج وهي حقيقة أكدها أيضاً في وقفياته ، ومن أجل هذه التفاصيل فان مخطوطات مانيسا وباريس لعروج افضل من تلك التي نشرها بابنجر Babinger وعروج أيضاً أكثر تفصيلاً بكثير في أجزاء حولياته حتى السنوات الأولى لبايزيد الثاني من التواريخ مجهولة المؤلف ، والأكثر احتمالاً أن التواريخ استخدمت تقويماً أو تقاويم ذات تاريخ أحدث مع مواد مختصرة كثيراً ، ومن أجل الفترة الأولى من حكم بايزيد الثاني حتى ٨٩١ هـ يبدو ان التواريخ استخدمت تقويماً أكثر تفصيلاً من عروج في حين أنه من ٨٩١ ، ومابعدها اتبع كلاهما تقويماً واحداً حوى التواريخ الدقيقة لكل الأحداث الهامة ، ونأمل ان يؤدي التقصي التصنيفي في مجموعات مكتبتنا إلى كشف التقاويم الأصلية التي استخدمها عروج ، والتواريخ مجهولة المؤلف ، وفي الوقت الراهن يمكننا رسم المخطط التالي :



ـ ٢ ـ

وكان يعتقد أنه مع يخشي فقيه يأتي ما كتبه أحمدي في كتابه «اسكندرنامة» بعنوان «داستان تواريخ ملوك آل عثمان» الثاني في القدم بين الروايات التاريخية المتعلقة بالقرن الأول من التاريخ العثماني ، ونحن نعلم أن الداستان هذا كان قد أهدي لسليمان الأول ١٤٠٣ ـ ١٤١٠ ، وهنا سنحاول أن نبين أن مصدر أحمدي هو نفسه ذلك الذي استعمل من قبل شكر الله كرماني محمد باشا ومحمد قونوي ، وروحي وساريجا كمال ، ونشري ، ويعيد روحي ونشري رواية المعلومات بصورة أكمل من الآخرين ، وهكذا فإن هذه النصوص معاً تمثل مجموعة ثانية من المصادر تتميز عن مجموعة عاشق باشازاده وعروج والتواريخ مجهولة المؤلف .

وحاول نشري أن يوحد هاتين المجموعتين المختلفتين ، مختاراً من رواية حول حدث معين من واحد من هذين المصدرين ، ورتب اختياره حولياً ، وبدون إجراء أي تغيير هام في الرواية نفسها كما يبدو ، ولكن مخطوط بودليان من كتاب روحي يبدو أنه ينسخ الروايات دون إضافات أو حذف كما كتبها نشري ، حتى أنها تحوي المصدر الأصلي باكتمال أكثر ، وعلى سبيل المثال نجد في فصل «حكاية مرور

سليمان باشا إلى روملي» يتبع نشري المصدر المشترك مع روحي إلى : «كرسي ولا يتي تمردي هيمن فتح أو لندونوجبي أنا ورشدي» ، ثم مع كلمة «القصة» يتحول إلى نص عاشق باشازاده : وفي هذا القسم ترك نشري بقية الرواية التي أعطاها روحي ولكن في أحد المواضع أضاف ، مع تعبير «درتر ـ كي» اسم قلعتين فتحهما سليمان باشا هكذا : «أودكو كللك Odukukluk واكسملي Eksamilye» بديلاً لاسمي «جبني وايا سكونا» اللذين أعطاهما عاشق باشازاده ولكن في روايتهما من المصدر المشترك ، اعطى نشري نصاً اكثر تفصيلاً من روحي البودليان ونجد «اودكوكلوك واكسملي» في شكر الله ، ومحمد قونوي وساريجا وكرماني محمد ، ولكن ليس في أحمدي ، الذي وإن كان كتابه هو الأقدم لكنه أقصر تنقيح للمصدر المشترك ، وفي هذه المجموعة الثانية للمصادر التي تختلف عن بعضها فقط بإضافاتها أو حذفها ، هناك آثار مختلفة تماماً حول أصل العثمانيين وهجرتهم إلى الأناضول ، والنقاط ، المميزة في هذه الآثار هي كمايلي :

ذكرت أخلاط على أنها أول منطقة استيطان لمجموعة من الأغز تألفت من «٣٤٠» أسرة مهاجرة ، وسلسلة النسب المدونة هي كالتالي : (ارطغرل بن غوندوز ألب بن غوك ألب بن سركوك ألب بن كوبوك ألب» واستقرت هذه المجموعة أخيراً في «قراجاداغ» قرب انقرة ، واتى علاء الدين الحاكم السلجوقي إلى سلطان أويوغو وجعل من أرطغرل مقدم الغزاة هناك ، ويبدو أن روحي البودليان جمع بين هذه الآثار وآثار عاشق باشا زاده ، في حين أعطى نشري كلا الأثرين جنباً إلى جنب ، وأضاف روحي أيضاً رواية مهمة عن يازجي زاده حول انتخاب عثمان من قبل قبائل الأغز في «أوج» (منطقة الجبهة) وأيضاً عن الظروف العامة في الأناضول في ذلك الوقت ، ونجد في كرماني أخلاط وسلسلة نسب «كوبوك الب» ولكن بدون رقم ، وفي السلاطينامة لساريجا كمال ، كان عدد المهاجرين ١٣٤٠ فقط ، ويحتوي أحمدي ، وهو أقدم رواية للمصدر الرواية حول علاء الدين كما في جميع النصوص الأخرى ، ولبيان درجة علاقتهم بالمصدر الأصلي ، إن المثال التالي هام : ذكر أحمدي «شيخ أفندي» دون أن يوضح اسمه ، وقدم شكر الله اسم رمضان ولكن روحي وساريجا كمال ونشري بينوا بوضوح أن الشيخ رمضان قد عين قاضي عسكر من قبل بايزيد الأول ، وفي ترجمة رمضان

يقدم صاحب شقائق النعمان المعلومات نقلاً عنهم ، وذكر عقوبة القضاة الفاسدين من قبل بايزيد الأول كل من احمدي وشكر الله وروحي ، كما أن هناك رواية أخرى أعطتها مجموعة عاشق باشازاده ، ولكن نقلاً عن مصدر آخر .

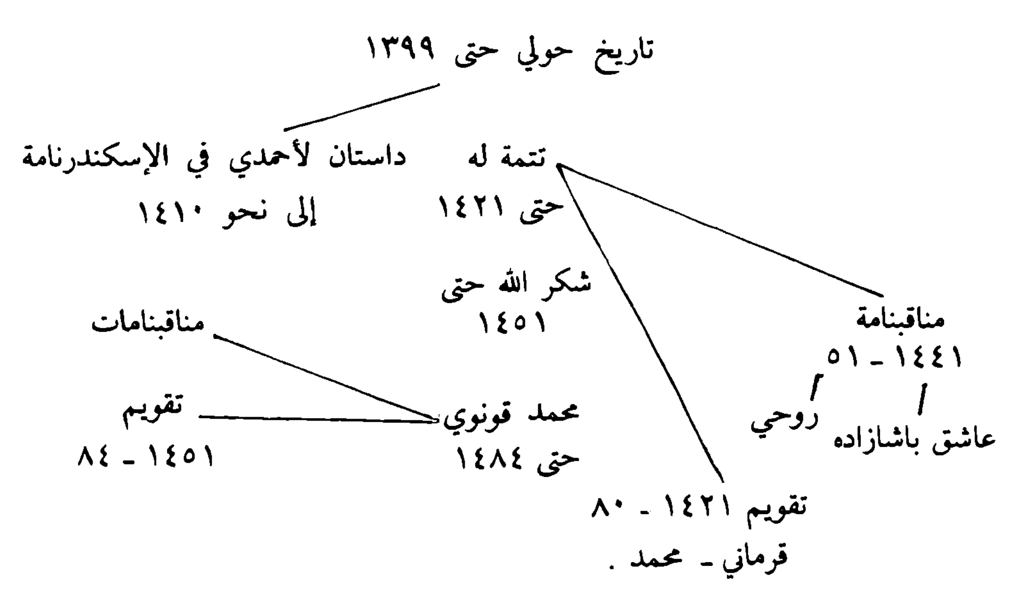
ويمكننا أن نستنتج أن مصدر أحمدي قد استعمل من قبل آخرين بشكل منفصل وأكمل ، وهذا المصدر لابد أنه قد استمر إلى فتح ملطية في (١٣٩٩) ، والآن من الواضح أن لدينا روايات مختلفة منه أعدت في القرن الخامس عشر : أحمدي : نحو ١٤٠٠ ، شكر الله في ١٤٥٦ ـ ١٤٥٩ ، قدماني محمد ، ومحمد قونوي حوالي ١٤٨٠ ، وروحي ونشري وساريجا كمال نحو ١٤٩٠ ، وهذا المصدر المنفصل واضح أنه أقدم من ذلك الموجود في المجموعة الأولى من الحوليات ، وهو بلا شك بالغ الأهمية من أجل دراسة نقدية للقرن الأول من التاريخ العثماني ، وعلى سبيل المثال ، يمكننا أن نذكر بالإيجاب أنه في زمن بايزيد الأول كان هناك إصلاح جذري للقضاة ، وهو حدث له مظهر الأسطورة بالشكل الذي روي فيه ، لدى عاشق باشازاده ، ويخشي ، وتبدو السمة الطبقية في آثار أحمدي ـ وروحي ، في التأكيد على الغزاة وسلسلة النسب المتواضعة فيهما للبيت العثماني ، والمنزلة العليا المعطاة لسليمان باشا أخو مراد الأول ، وحقيقة أنه ذكر أسماء مثل سنان باشا ، وقاضي عسكر شيخ رمضان اللذين كانا مجهولين بالنسبة لعاشق باشازاده .

ويبدو أن شكر الله ، وروحي ، ونشري ، قد استخدموا أيضاً روايات مصدر أحمدي بدقة أكثر من أحمدي نفسه ، وأنهم أتموه حتى نهاية زمن محمد الأول وفي الحقيقة إن شكر الله وروحي ، ونشري ـ مرتبطون ببعضهم بإحكام حتى ١٤٢١ ، ويبدي القسم الذي يغطي الفترة من ١٣٩٩ إلى ١٤٢٠ في تلك النصوص مرة أخرى سمة مختلفة تماماً عن آثار عاشق زاده ـ عروج ، وهي تتعامل مع ثورة الصوفية في قرابورن والاضطرابات في مناطق اماسيه وتوكات Tokat التي سببها تدخل القراقونيلو وتحصين الحصون الثلاثة : سلجي ويني سال ويرغوغي على الدانوب ، والاستيلاء على سورين Severin ، هذا ولم ترد هذه الروايات مطلقاً في مجموعة التواريخ الأولى ، وأضاف روحي إضافتين طويلتين لمصدره تعلقت واحدة بحملة مراد إلى قرملي ومعركة قوصووه ، وتعلقت الثانية بصراع

محمد الأول من أجل التفوق خلال فترة الحرب الأهلية ، وكما سلف بنا القول لابد أن هاتين الاضافتين قد أخذت من مناقبنامتين مختلفتين ، ونجدهما في نشري أيضاً وجاءت الإضافة الأولى بتفصيل أكبر من روحي والثانية متماثلة في كلا النصين .

ومن أجل أيام مراد الثاني ، إن روحي مصدر مستقل مع روايات أصلية فيما عدا بالنسبة لفترة الحكم الثانية لهذا السلطان من ١٤٤٦ - ١٤٥١ حيث بدا وقد استخدم المصدر نفسه مثل عاشق باشازاده ، ويحتمل أن هذا المصدر كان مناقبنامه مستقلة ، وهذا هو الجزء الوحيد الذي يتفق فيه النصان ، ويعطي عاشق زاده المصدر المشترك بتفصيل أكبر عدا حملة محمد الثاني في القرمنلي في ١٤٥١ ، وقد رويت مظاهرة الانكشارية ضد هذا السلطان خلال هذه الحملة في روحي فقط - وأعطى شكر الله صورة سطحية جداً لعصر مراد الثاني ، ويبدو أن محمد قونوي نسخ ، عنه بكل بساطة ، وأما من أجل حكم محمد الفاتح فيبدو أن قونوي محمد قد استخدم تقويماً جعله قريباً جداً من عروج والتواريخ مجهولة المؤلف ، وأن يكون القرماني لم يستخدم شكر الله مباشرة كمصدر أمر يمكن رؤيته بمقارنة روايتهما عن حكم مراد الثاني ، أما بالنسبة لعصر الفاتح فيبدو أن القرماني قد استفاد من تقويم ، من التقاويم وبالنسبة لروحي فإنه أعطى نصاً أصلياً عن حكمي محمد الثاني وبايزيد الثاني إلى غزو أقفرمان وقلي Kili في ١٤٨٤ (إنه يميز حملتين للفاتح في الحرب في ١٤٥٤ و١٤٥٥ ، ويذكر جرح محمود باشا خلال الحملة ضد طرابزون وإرسال أحمد بكريجي من قبل أوزون حسن للمصالحة).

والعمل الأصلي الكامل حول حكم الفاتح هو تاريخ أبو الفتح لطورسون بك المبني على مشاهداته الشخصية ، وبالنسبة للشاهنامات المكتوبة في عهد الفاتح فإننا سنتعامل معها فيما بعد ، وفيما يلي مخطط لما قلناه عن المجموعة الثانية من المصادر .



ـ ٣ ـ

كان لكل من قراء التاريخ «تاريخ خوان» والشعراء الشعبيين من قراء المناقبنامه حضورهم في بلاط سلاطين السلاجقة وبكوات التركمان في الأناضول ، واستمر العثمانيون بالأخذ بهذا التقليد ، ويبدو أن المؤلفات التاريخية في صورة الغزواتنامات قد كتبت لتقرأ بصوت مسموع للسلطان وهو في خلوته لإرضاء عظمته وذوقه الأدبي .

ومع مرور الوقت أصبح البلاط والطبقات العليا مهتمين بطراز معقد من المناقبنامه والغزواتنامه المكتوبة بأسلوب أدبي رفيع ، وعلى الأغلب بالفارسية ويمكن عدّ داستان لأحمدي بالتركية أحد أول الأمثلة عليها ، وفي نحو ١٤٥٦ كتب كاشفي وهو شاعر فارسي «غزانامة الروم» وهو كتاب نظم شعراً بالفارسية مجد فيه غزوات الفاتح ، وكان قد أوقفه على هذا السلطان ، وهو كمصدر تاريخي يحتوي قدراً كبيراً من المعلومات الأصيلة ، ويبدو أن هذا النوع من الأدب ، الذي بات يقع تحت الاسم العام شاهنامه قد ازدهر في عهد محمد الثاني ، وكان هناك تنافس حاد بين عدد من الشعراء الفرس الذين غزوا في حينه العاصمة العثمانية ليس فقط مع الكتاب العثمانيين بل أيضاً فيما بينهم في سبيل نيل استحسان السلطان ، وكانت أسماء كاشفي ، وحميدي ، ومعالي ، وشهدي مما بقي لنا من أسماء الذين

صنفوا هذا النوع من الكتب خلال تلك الفترة ، ونقرأ في تذكره لطفي : «جرى منح ثلاثين شاعراً رواتب شهرية وأعطيات سنوية من قبل الفاتح ، لأنهم كانوا يكتبون تاريخاً مسجوعاً له أو ينظمون شعراً في مدحه» . وقد اكتشف مؤخراً كتاب خونكارنامه لمعالي في طوب قبي ـ سراي ولكن كتابي حميدي وشهدي مفقودان ، ومن المأمون القول أن كتابة الشاهنامه كنمط قديم من التاريخ للبلاط قد نشأ في منتصف القرن الخامس عشر ، وكانت وظيفته الرئيسة تمجيد السلطان الحاكم بأسلوب أدبي رفيع ولكن من حين لآخر كان كتّاب الشاهنامه يصنفون أيضاً تواريخ عامة عن البيت العثماني ، ومن أجل أيامهم أنتجوا بشكل عام كتباً أصيلة قامت على معلومات مباشرة ، ويرتبط بكتب المناقبنامه القديمة نوع خاص من الغزواتنامه صنعت لرؤساء الغزاة المشهورين ، منها : غزواتنامه ميخال أو غلو علي بك تأليف سوزي جلبي ، وقد نشرت مؤخراً من قبل أ . س . لاوند ، وغزوات داود باشا لخير الدين جلبي التي لم يعثر على نسخة منها بعد ، وكانت في الواقع قد استعيرت من قبل كمال باشازاده في تواريخه ، وذلك في نهاية المجلد السابع ، ويبدو أن نوع المناقبنامه الشعبية القديمة قد استمر أيضاً في البلاط من جانب جماعة «قصة خوان» الذين صنفوا في منزلة أدنى من كتاب الشاهنامه وفي جانب آخر : بتعيين منشئين كانوا من أصحاب الأسلوب المشهور لتأليف تواريخ آل عثمان وفقاً لنمط التاريخ الفارسي الدارج ، ونجد في عهد بايزيد الثاني ـ الذي رغب في أن يكتب تاريخ بيته بالتركية ـ كتابات صنفت وفق أسلوب الشاهنامه مثل فتحنامه لقوامي وهو حول غزوات الفاتح وسلاطينامه لكمال وهو تاريخ عام للعثمانيين وقطبنامه للفردوسي وهو حول الحملة البحرية إلى ملطين والغزواتنامه لصفايي عن مآثر كمال ريس ، وقد نشر كتاب قوامي مؤخراً من قبل ببنجر ، وهناك نسخ مخطوطة من الكتب الأخرى باتت الآن معروفة[٥] ، واستمرت في القرون التالية نوعية الشاهنامه مع مؤلفات أخرى عديدة لبعضها قيمة فنية حقيقية من حسن الخط ، والمنمنمات والزخرفة ، وما هو جدير بالذكر أن بعض كتاب ـ الشاهنامه كانوا متضلعين ليس فقط في ذلك بل في علم التنجيم أيضاً ، هذا ويمكن عدّ السورنامه التي وصفت أعياد الزواج الملكية فرعاً من جنس الشاهنامه .

هل كانت مجرد مصادفة أن كثيراً من التواريخ العامة للبيت العثماني قد تم تأليفها في زمن بايزيد الثاني ، وأن معظمها قد اختتم بأحداث ١٤٨٤ - ١٤٨٥ ؟ لقد أنهى عاشق باشازاده وروحي ، والتأليف الأول للتواريخ مجهولة المؤلف ، ومخطوط منزل من كتاب نشري ، ومحمد قونوي وقوامي وساريجا كمال وطورسون بك كتبهم بأحداث ١٤٨٤ أو ١٤٨٥ ، ومن أجل هذا النشاط غير العادي في إنتاج المصنفات في التاريخ العام للعثمانيين لا شك أن السبب الأول والرئيس كان رغبة بايزيد الثاني أن يرى مثل هذه المصنفات مكتوبة ، فقد استجاب العلماء في زمانه لها ، وأراد بايزيد الثاني في حينه أن يستخدم هذه الوسيلة لتشكيل الرأي العام لصالحه ، وكان بايزيد يمثل سياسة ارتكاسية في جميع الحقول السياسية ، والاجتماعية ، والقانونية لسياسات الفاتح ، في حين أنه عندما كان السلطان جم ما يزال حياً ، كان يعد رمزاً للنظام المتقدم ، فقد صور بايزيد في كل الأعمال المذكورة أعلاه في المقام الأول على أنه حاكم عادل ، ملتزم بالقانون مع مهمة تثبيت الفتوحات الكبيرة التي قام بها سلفه (انظر بشكل خاص المقدمات في طورسون بك ، وكمال باشازاده ، وادريس) وأعدم كدلك أحمد الذي كان محبوباً جداً من الانكشارية والذي استولى فعلاً على كل السلطة في الدولة ، في ١٤٨٢ ، وصرف ختنه اسحاق باشا من الصدارة العظمى في السنة التالية وأصبح الانكشارية بلا استقرار ، واشتركت جميع عناصر الغزاة في الأخذ بموقف كدلك أحمد المعارض لتقديم تنازلات للنصرانية ، وفي ظل هذه الظروف اختير داود باشا المشهور بإنجازاته في الغزوات في البوسنة صدراً أعظم ، وشعر السلطان بأن من المحتم عليه قيادة الجيش إلى مولدافيا بنفسه ، حيث سلف للفاتح أن أخفق ، ومن أجل التأثير على الرأي العام كان لا بد من أن يجري عمل إعلامي واسع بقدر الإمكان للنصر الذي تحقق ، وتعليقاً على النصر في مولدافيا قال محمد قونوي بشكل انفعالي مؤكداً ما يلي : «لم يكن أحد من أسلافه قادراً على الاستيلاء على هذين المعقلين» وأكد طورسون بك أن السلطان محمد لم يكن قادراً على فرض الحصار على كيلي[٦] ، وإذا ما قرىء نص عاشق باشازاده في ضوء سياسة با يزيد الارتكاسية ، فإن طبيعته الجدلية ستصبح واضحة خلاله ، ويمكن إضافة أنه في

نشري وقع اللوم على كدك أحمد بسبب نصيحته الفاسدة لبايزيد خلال معركة أوتلوك ـ بلي في ١٤٧٣ ، في حين امتدح إبراهيم جندرلي على جهوده ، وهذا كله ببساطة إضافة على المصدر الأصلي من قبل نشري نفسه ، وبولغ أيضاً كثيراً في معظم هذه الكتب في دور داود باشا في زمن الفاتح ، والدراسة الدقيقة لمقدماتهم في الواقع مفصحة تماماً ، ففي روحي نقرأ : «قال السلطان بايزيد ، تعد تواريخ الأنبياء الأحسن والأكثر تفضيلاً ، وهكذا ، فإن العلماء يفضلون الكتابة في هذا النوع من التواريخ ، ولكن تاريخ السلاطين العثمانيين الأكثر تميزاً وشرفاً بين الآخرين لم يكن يعد موضوعاً لمصنف مكتوب بلغة مفيدة لكل إنسان ، إن هذا أمر مرغوب فيه أن يكون كذلك ، وجعلتني مقولة السلطان هذه أقرر جمع التواريخ (عن العثمانيين) بالتركية المتداولة في الولايات العثمانية» وقدم نشري عرضاً مماثلاً في مقدمته : «وجدت كثيراً من الكتب قد كتبت حول مختلف العلوم ولكن المكتوبة عن التاريخ ما زالت مبعثرة وخاصة بالتركية» ، ولا شك أن إصرار بايزيد على كتابة مثل هذا التاريخ في تركية سهلة بدرجة تكفي لكي تفهم من قبل كل إنسان أمر هام وله دلالته .

إن المصنفات المكتوبة في السنوات الأولى لبايزيد والمرتبطة مباشرة بالانتصار في مولدافيا بالغة الأهمية للتاريخ العثماني ، لأن تلك التآليف هي التي أصبحت قاعدة لكل ما كتب مؤخراً عن القرنين الأولين من التاريخ العثماني ، ومصادرها الرئيسة على الأغلب غير متوفرة لدينا ، ومن الواضح أن عاشق باشازاده قد قام بمراجعات عديدة لكتابه مع تكملات ، ويبدو أن المراجعة الأخيرة كانت في ١٤٨٤ ـ ١٤٨٥ ، وبدأ قونوي الكتابة في عهد محمد الفاتح ، وأكمل كتابه في عهد بايزيد الثاني ، ويشهد سجل رسمي أن مولانا روحي قد أعطي جوائز من قبل بايزيد في نحو سنة ١٥٠٣ وأكمل ساريجا كمال كتابه «سلاطينامه» في حزيران ١٤٩٠ ، وبالنسبة لعمل نشري وجد الأستاذ تسشنر Taeschner أنه بالنسبة لمخطوط منزل لعام ١٤٨٥ ، «قد أنهي بعد جم» ومخطوط ١٤٩٥ «مضاد لجم» وهذا التاريخ تاريخ تأليفه ، والنصوص الموجودة في بهشي وعروج والتواريخ مجهولة المؤلف ، واضحة بدرجة كافية لتبين أنها جميعاً كتبت في عهد بايزيد الثاني .

لقد بذلت محاولة في الصحفحات السالفة لاكتشاف أي نوع من المصادر قد استعمل في هذه المصنفات ، وقد استنتجنا أن عاشق باشازاده من جانب ، وروحي من الجانب الآخر ، يعطيان أثرين مختلفين في أكثر صورهما تفصيلاً ، ونشري في الواقع هو أقدم مصنف عمل على مزج الأثرين من عاشق باشازاده ، وروحي ، ولكن مرة أخرى عما إذا ما كان نشري قد استخدم مصدراً مألوفاً لروحي أو نسخة مفصلة من كتاب روحي ، لأن نشري يروي الروايات نفسها كما هي في مخطوطة البودليان من كتاب روحي ، لكن كثيراً ما كان ذلك مع تفاصيل أكثر ، حتى في الحوادث التي جرت في وقت متأخر يعود إلى ١٤٨٤ ، ويجب أن نعيد إلى الذاكرة أن نشري استثمر أيضاً تقاويم كانت مصدراً لعروج ، والتواريخ مجهولة المؤلف أيضاً ، ومن الممكن الآن استخراج قائمة تبين أي الأجزاء في نشري أتت من أي المصادر ، وذلك يبدو أنه قد أضاف قليلاً من المعلومات الشخصية .

وليس ردود الفعل لسياسات الفاتح فقط هي التي تميز سمات التآليف التي صنفت في عهد بايزيد الثاني ، بل أيضاً الوعي بترسيخ امبراطورية إسلامية شاملة تنافس في تفوقها دولتي المماليك ، والفرس في الشرق ، مما تطلب تقويماً جديداً للتاريخ العثماني في ذلك الوقت ، ففي الخطوط العامة السالفة للتاريخ العالمي ـ على سبيل المثال في مؤلفات شكر الله وأنوري ، شغل التاريخ العثماني مكاناً متواضعاً كاستمرار للتاريخ الإسلامي ، وجرى عرض سلاطين العثمانيين وصوروا كغزاة على جبهات العالم الإسلامي ، ولكن بايزيد الثاني الآن إدعى أنه أشرف السلاطين ، والأكثر تميزاً وتشريفاً بين الحكام المسلمين ، وقال واحد من هؤلاء المؤلفين : إنه باستثناء محمد (ﷺ) نفسه وخلفائه الأربعة من بعده لم يكن لأي حاكم مسلم آخر إنجازات أكثر من إنجازات السلاطين العثمانيين ، ويجب التذكر أنه في حينه كان العثمانيون قد دخلوا حرباً طويلة ضد المماليك من أجل جنوب الأناضول ، ورغبوا في أن يظهروا أنفسهم أسمى من خصومهم في كل النواحي ، ومع ذلك ظل العثمانيون يلحون على مهمتهم كغزاة ، وادعوا أنهم احتلوا الموقع الأكثر أهمية في الإسلام . وفي نحو ١٥٠٢ قال كمال باشازاده في مقدمة كتابه : «بيّن السلطان أن التواريخ والقصص والحكايات إذا لم تدون ، ولم تخلد أمجاد الحكام العظام وانجازاتهم ، للعصور القادمة ستنسى ، وبناء عليه طلب أن تدون

انجازاته وإنجازات أسلافه ، ووجب من أجل أن تكون مفيدة للناس جميعاً من أعيان وعامة كتابتها بالتركية بأسلوب واضح ، وقد عينت من قبله للقيام بذلك» .

وفي الوقت نفسه تقريباً أعطيت الأوامر إلى إدريس البدليسي ـ وهو «منشي» ، فارسي مشهور ـ من قبل السلطان لكتابة تاريخ عظيم بالفارسية يكون جدبراً بالبيت العثماني ، ويروي إدريس بنفسه هذا كما يلي : «أمر السلطان بايزيد فأن يكتب تاريخ لهذه الأسرة الحاكمة العظيمة منذ بداياتها في عام ٧١٠ حتى السنة الحالية ٩٠٨ في أسلوب محبب إلى الأعيان والعامة ، مع التصحيح والتوضيح للروايات المتعلقة بهذه الأسرة ، وصحيح أنه يوجد بالتركية عدد من المصنفات حول الموضوع ولكن قصصها تفتقر إلى الأناقة في الأسلوب والصدق في رواية الأحداث» .

ويروي صاحب الشقائق(٧) بكل وضوح أن قاضي عسكر مؤيد زاده قد اقترح على بايزيد الثاني أنه قد طلب من المولى إدريس أن يكتب تاريخاً للبيت العثماني بالفارسية وأنه من المناسب ، أو ربما من الضروري أن يكون هناك كتاب بالتركية حول الموضوع نفسه ، وهذا يمكن أن ينجز فقط إذا وافق مولانا كمال باشازاده على إنجازه ، ومن الواضح أنه لعدم رضا بايزيد الثاني عن التواريخ الجاري تأليفها عن بيته ، أعطى أوامره لاثنين من كبار المنشئين في زمانه : إدريس بالفارسية وابن كمال بالتركية بكتابة هذا التاريخ مرة أخرى ، وقد عالجا الموضوع بخطة متشابهة حيث أوقفا كتاباً منفصلاً لكل سلطان عثماني ، وصاغ إدريس في كتابه «هشت بهشت» ، الذي هو أكثر كتبه إحكاماً ، صاغ التاريخ العثماني في أكثر الصور تعقيداً في الكتابات التاريخية الفارسية ، وفي وقت تال اتخذ الخوجا سعد الدين هذا الكتاب أنموذجاً لكتابة مصنفه ، تاج التواريخ بالتركية ، الذي أصبح تقليدياً ، ويبدو أن إدريس قد اعتمد بشكل رئيس على أثر روحي هذا ، ونجد لدى إدريس بعض الروايات الشخصية عن طورسون بك أيضاً ، وأعطى إدريس بعض المعلومات الأصيلة عن الأحداث المتعلقة بوسط الأناضول وشرقيه ، ومنح وصفه للبلاط العثماني والحكومة ، في فصل مستقل ، كتابه مكاناً فريداً بين التواريخ العثمانية ، والنظير التركي لهشت بهشت هو كتاب تواريخ آل عثمان لابن كمال ، لأنه أكبر التآليف وأكثرها أهمية في هذه الفترة ، وهو أيضاً إنتاج أدبي هام

عكس الرغبة في إيجاد نثر تركي عالٍ يتنافس مع الفارسية ، وقد استخدم ابن كمال كما يبدو نسخة مفصلة من نشري ، وأضاف رواية القرماني عن الفترة الأولى ، وبالنسبة لأيام الفاتح اتبع بشكل رئيس طورسون بك ، ونشري ، وهناك دلالات على أنه كان على معرفة أيضاً بروحي أو مصدره ، ونسخة مفصلة من عروج مثل مخطوطة باريس أو مخطوطة مانيسا ، وكما سلف القول ، حوى عمله هنا : غزوات داود باشا لخير الدين جلبي ، علاوة على أن ابن كمال قد أضاف كثيراً من التفاصيل الهامة من معارفه الشخصية ، وكذلك من علاقاته بالآخرين ، وقد أظهر مهارة كبيرة في اختيار مصادره حول الأحداث الفردية وكيفية استغلالها ، ويمكن اعتباره أعظم المؤرخين العثمانيين على الإطلاق بما فيهم الخوجا سعد الدين ، وعلي نعيمة وجودت باشا .

هوامش البحث

(١) انظر ما تقدم عن المؤتمر الدولي العاشر عن البيزنطيين (استانبول ١٩٥٧) من ٢٢٠ - ٢٢٢ .

(٢) مجلد ٥ ص ٩٤ .

(٣) عاشق زاده تحقيق غيسه ص ٢٠ .

(٤) انظر كتابي فاتح دوري (انقره ١٩٥٤) .

٥ - انظر أ . س . لاوند غزواتنا ملر (أنقرة ١٩٥٦) .

٦ - طبعة توم ص ٨٨٦ .

٧ - ترجمة تركية من قبل مجدي ص ٣٨٤ .

١٥ـ بدايات أعمال التأريخ العثماني

ف . ل . ميناج
محاضر بالتركية ـ معهد الدراسات الشرقية والأفريقية
لنـــدن

مع بداية القرن العاشر/السادس عشر خضعت جميع فروع الأدب العثماني تقريباً للتأثير الفارسي . وقد درست النماذج وتطورت اللغة إلى نقطة بات فيها بإمكان الكتاب أن يطمحوا إلى اخراج أعمال يمكن أن تنافس في تفصيلها وبراعتها أعمال الشعراء وكتاب النثر في فارس وتتمثل نقطة التحول في كتابة التاريخ بأعمال إدريس البدليسي وكمال باشازاده ، وقد بين الأول أن التاريخ العثماني يمكن أن يدون بالفارسية بالأناقة نفسها والتفخيم مثل تواريخ الأسر الحاكمة الأخرى ، وأظهر الثاني أن اللغة التركية قد أصبحت الآن واسطة مناسبة من أجل الوسائل البلاغية نفسها .

وبالنسبة للنصوص التاريخية للقرن المتقدم كمنت جاذبيتها كأدب في الأسلوب القوي المباشر ، الذي كتب به معظمها ، وهو أسلوب لم يغب مع تغير الذوق ، ولكنه اختفى ليستمر بالاستعمال في الأدب الشعبي ، ولكنه كان مكروهاً من المؤرخين المحترفين ، الذين كتبوا للبلاط والدوائر العلمية ، ولمن أصبح طراز التعبير عندهم غاية في حد ذاتها .

إن أهمية هذه النصوص القديمة للمؤرخ واضحة ، ولكنها ذات أهمية أيضاً للباحث في التأريخ لأنها المادة الخام التي اعتمد عليها الكتاب المتأخرون ـ مباشرة ، أو عبر مرحلة أو أكثر ـ للتأريخ للقرنين الأولين للدولة العثمانية ، وقد بقيت نسبة

مرتفعة من هذه النصوص ، حتى أنه امكن تتبع مختلف الخيوط ـ الأسطورة أو الآثار أو التاريخ أو المديح ـ وقد حيكت معاً من قبل المصنفين المتعاقبين ، وأخيراً وهي مطرزة في تواريخ المحترفين .

وكان لتغيير الأسلوب منافع بالنسبة للمؤرخ الحديث ، حتى أن النص المكتوب في نثر منمق مال لأن يكون أكثر أمانة في نقله ، وكثيراً ما كانت الكلمة المسجوعة أو اللقب الملتوي يمنع تشويه حتى الاسم الأصلي غير المألوف ، وشعر ناسخ مثل هذه النصوص أنه إذا ما حرف أو حور أفسد الجوانب الفنية ، ولهذا تردد في التلاعب فيها ، ولم يكن ناسخ التواريخ السالفة الأكثر شعبية يشعر بمثل هذا الاحترام ، وشعر أنه حر في تصحيح ، أو توسيع أو اختصار أو إتمام النموذج ، حتى أنه كثيراً ما يتعذر تقرير ما إذا كان نص معين يمثل عمل المؤلف الأصلي ، أو أنه تعرض لتنقيح متأخر من قبل المؤلف (الكثير من النصوص كان يتم تنقيحها من قبل مؤلفيها أكثر من مرة) ، أو أن تنقيحه الجديد قد جرى من قبل ناسخ استحق لحجم إضافاته أن يحتل منزلة مؤلف بحقه الذاتي ، وهذه الحقيقة وحدها ـ دون الكلام عن التردي الذي كان يلحق بأي نص تعرض للمخاطر العادية للنقل ـ تجعل من الصعوبة بمكان تحقيق مرض تماماً لأي تاريخ من القرن الخامس عشر ، إن الممارسة المتزايدة لنشر مثل هذه النصوص بتصوير أصل لمخطوط واحد ، لها ما يسوغها ، ومفيد الأخذ بها بدلاً من الاستهانة بها ، فقد يتلقى القارىء توجهاً أكثر سلامة من المخطوط الواحد مما يتلقاه من نص يحقق امتزجت قراءاته بخليط عجيب من التنقيحات المختلفة .

ولا يمكن للعرض التالي الإدعاء ، أنه كامل شامل : إنه لا يغطي جميع الأعمال المعروف أنها موجودة ، ولا حتى كل ما هو منشور ، وبعض الكتاب مستبعدون (وأبرزهم يازجي ـ اوغلو وعلي وطورسون بك) ، الذين في حين أنهم لم يكتبوا تواريخ عامة عن العثمانيين ، مارسوا نفوذاً هاماً على من تلاهم ، إنه ليس أكثر من عرض مختصر عن طبيعة بعض تواريخ القرن الخامس عشر وطرائق مؤلفيها .

ولم يكن أحمدي ، وهو أول كاتب سيدرس ، مؤرخاً بل شاعراً ، ولد في الأناضول حوالي ١٣٣٠ ، ودرس في مصر ، حيث أصبح متضلعاً في جميع فروع

العلوم الإسلامية ، وعاش زمناً طويلاً في كوتاهيه مقر حاكم قرميان وكانت واحدة من أقوى الدويلات التي خلفت سلطنة سلاجقة الروم ، وأكثرها حضارة ، وارتبط في مرحلة ما ، ربما حوالي سنة ١٣٨٠ ، عندما أدمج قسم من قرميان بالدولة العثمانية ، بالبيت العثماني الصاعد ، وبعد انسحاب تيمور من الأناضول تمتع برعاية الأمير سليمان في بلاطه في أدرنة ، ومن المؤكد أنه عاش حكم محمد الأول ، وعمله الكبير هو اسكندر نامه ، وهو شعر مثنوي طويل يصل إلى ماينوف على ٨٠٠٠ «مزدوجة» ، استخدم فيه أحداث أسطورة الاسكندر كأساس علق عليه سلسلة من المقالات في الفلسفة ، وعلوم الدين ، والطب والتاريخ (وصف هامر Hammer الشعر بشكل واف جداً على أنه مثل شعر : لوكان ولوكرشيز)[*] ويتألف نحو ربع شعره كله من رواية لتاريخ العالم منذ زمن كيومرت الاسطوري . وقد أدخل أحمدي هذا ببراعة وذكاء بطريقة جعل فيها الاسكندر يطلب من معلمه أرسطو أن يروي له تاريخ العالم حتى زمانه ، ثم تابع الرواية بعد ذلك بصورة تنبؤية عما سيقع فيما بعد . وينتهي هذا القسم التنبؤي في بعض المخطوطات بنهب بغداد من قبل هولاكو واستمر في أخرى حتى زمن أحمدي نفسه ، حيث روى في الفصل الأخير المؤلف من نحو ٣٤٠ «مزدوجة» أخبار العثمانيين من أرطغرل حتى الأمير سليمان وانتهى بمدحه .

لقد كان الشعر شعبياً إلى أبعد الدرجات ، بفضل أسلوبه البسيط الشائع ونغمته التعليمية الورعة ، وتوجد مخطوطات عدة تمثل تنقيحات عديدة ، ومن الواضح أن الشعر قد أعيدت كتابته أكثر من مرة من قبل الشاعر نفسه ، من أجل إرضاء سادته المتتابعين معدلاً الإهداء ، ومجدداً القسم التاريخي ، وهذه مهمة تطلبت جهداً كبيراً ـ وربما هائلاً ـ للقيام بالمراحل المتتابعة من المراجعة ، ولا بد أن الفصل حول التاريخ العثماني كما وصل إلينا قد أضيف عندما أصبح أحمدي تحت رعاية الأمير سليمان ، ويوحي الأسلوب الذي كتب به أنه كمن وراء الأبيات تاريخ من النثر الجاف ، نظمه (أحمدي) شعراً وزينه باستطرادات مختلفة ، وليس من

★ ـ لوكان (ماركوس) شاعر روماني ٣٩ ـ ٦٥ م ، وأما لوكرشيز (تيتوس) فشاعر روماني وفيلسوف ٩٦ ـ ٥٥ ق . م .

السهل تحديد النقطة التي انتهى عندها هذا المصدر : ويحتمل أنها كانت في نحو منتصف حكم بايزيد الأول ، لأنه لا ذكر في نص أحمدي لنصر بايزيد المدوي في نيقوبولس ، وهنا فقط ذكر مختصر غير مفصل لغزو تيمور .

ولم يبق أي عمل تاريخي من الأربعين عاماً التالية أو نحوها ، مع أن الحوليات التي ألفت خلال هذه الفترة (والتي ربما تحوي قطعاً من التاريخ الذي استخدمه أحمدي) قد اندمجت في أعمال تالية ، ويحتوي المصدر الثاني بعد أحمدي ، وهو أبكر مصدر باق في صورته الأصلية عمل مجموعة من النصوص القصيرة يمكن أن تدعى بشكل موائم التقاويم الملكية ، لأن الثلاثة المعروفة منها[1] قد تم تأليفها بالتأكيد من أجل القصر ، وظهر الاثنان القديمان في تقاويم قد كتبت في ١٤٤٤/٨٤٨ و ١٤٤٦/٨٥٠ لمراد الثاني ، وتبدأ التقاويم بقوائم مرتبة زمنياً للأنبياء الكرام من آدم ، وللخلفاء ، وللأحداث الرئيسة للسلاجقة ، والأسرتان العثمانية ، والقرمانية ، أعقبتها أقسام فلكية وتنجيمية ، مع تكهنات للسنة الجارية ، وقواعد تفسير الأحلام ، إلخ . وكتب التقويم الثالث بمحتوياته المماثلة ، من أجل محمد الثاني ، قبل الاستيلاء على القسطنطينية بعام واحد ، وأقسام التقويم قصيرة وبليغة ، ولكنها تحتوي هنا وهناك تفاصيل هامة ، ويوضح التقويم الثالث على سبيل المثال تماماً أن الدعيّ دوزمه مصطفى ، الذي تحدى مطالبة مراد الثاني بالعرش اعترف به على أنه في الحقيقة ابن بايزيد الأول ، الذي اختفى بعد معركة أنقرة ، وبالقدر نفسه من الأهمية لمحتواه ، يظل الدليل الذي يقدمه حول كيفية حفظ هذه السجلات القديمة ، ولم تؤرخ الأحداث بالسنة الهجرية التي وقعت فيها فحسب بل أوضح أيضاً عدد السنوات التي مرت قبل كتابة التقويم ، وجاءت صياغة بداية كل سنة على النحو التالي : «منذ . . . كانت . . . سنوات» (الدنبيرو . . . بيلدر) وجاء بدايات القسم الثاني قصيرة ، سجل فقط ولادة وتبوؤ السلاطين العرش والفتوحات الجديدة بالذكر ، ولكن بدايات السنوات الأخيرة أكثر امتلاءاً بكثير ، وتحوي كل سنة أحداثاً عديدة روي بعضها بتفصيل جيد ، وذكر بعضها فقط «واقعة كذا ، وكذا» وعند هذه المرحلة حوت أيضاً الأحداث الكبيرة في الدول الإسلامية الأخرى .

ومحتويات التقاويم الثلاثة المعروفة متشابهة جداً (مع أنها غير متطابقة) ومن الواضح أنه قد أعد لكل سنة ، تقويم من قبل منجم البلاط ، وكان يتم التخلص من الأقدم إما بإيداعه في أحد المخازن أو بإخراجه من القصر ، ومن حيث المبدأ كل ما كان على المؤلف أن يفعله هو أن يفسخ التقويم القديم ، مضيفاً رقم «واحد» إلى الرقم الذي ينهي كل بداية ، وأن يلحق فقرة أخيرة يذكر فيها أحداث السنة الفارطة تنتهي بعبارة منذ سنة مضت ، وعليه لا بد أنه أمر سهل جدولة الأحداث المدرجة في التقاويم ، وإجراء الطروحات المناسبة من السنوات التي تتبعها التقاويم ، والوصول إلى مجموعة متماسكة من التواريخ بالسنوات الهجرية ، وفي الحقيقة بالطبع هذا ليس بهذه السهولة فإذا ما نسي كل مؤلف أن يضيف سنة هنا وهناك ، وتجمعت التناقضات ، تبيت بدايات السنوات الأخيرة غالباً ما يصعب توفيقها ،

وبصرف النظر عن قيمتها بحد ذاتها إن هذه التقاويم الملكية والتقاويم الشعبية الأخرى ، التي حسبت في الأصل بالطريقة نفسها ، تواريخ نسبية ، وهي ذات أهمية للمؤرخ طالما أنها دمجت بالمصادر الأدبية المتأخرة ، التي تؤخذ عادة حرفياً ، ولكن تحدث من حين لآخر تأثيراً على المؤلف ليعيد صياغة مادته وليجعلها تتوافق مع حولياتها ، وهكذا يجب أن تقبل التواريخ المعطاة في تلك الأعمال التالية بتحفظ ، لأنه بصرف النظر عن احتمال وجود خطأ في الترتيب الزمني في مصدر التقويم ، علينا أن نقدر أن خطأً أبعد قد وقع من قبل الناسخ أو المؤلف الذي أعاد حساب الأرقام في السنوات الهجرية .

وينصبق هذا الاعتبار بشكل خاص على التواريخ الحولية الشعبية مجهولة المؤلفين ، التي توجد عنها مخطوطات كثيرة جداً في المكتبات الأوروبية والتركية ، تحمل عادة العنوان البسيط (تواريخ آل عثمان) ، والتي على الرغم من التنوع الكبير في محتوياتها ، كلها مترابطة في النهاية ، وتبدأ جميع هذه التواريخ من المنطق نفسه تقريباً بالحديث عن هجرة سليمان شاه ، الى الروم ، ولكنها تصل إلى نقاط مختلفة : تروي احدى مجموعات المخطوطات التي في نصوصها دلالات توحي بأنها بلغت صورتها النهائية في حكم بايزيد الثاني ، أخبار أحداث تصل فيها إلى نحو سنة ١٤٩٤/٩٠٠ ، ولمجموعة أخرى تتمة تصل بها إلى نحو ١٥٥٠/٩٥٧ ، في

حين تمتد مخطوطات قليلة إلى القرن الحادي عشر/السابع عشر ، ومع ذلك لا بد أن نواة هذه الأحداث نص أقدم بكثير ، تم تأليفه في السنوات الأولى من حكم مراد الثاني ، وكتبت هذه النواه بأسلوب استطرادي تماماً : إنها مجموعة من القصص الكثير منها أسطوري في نغمته ، وقد أتى بعضها على ذكر بعض التواريخ ، لكن هذا لا يغير شيئاً ، هو كتاب قصص أكثر منه تاريخ حولي جاف ، ثم ومع اعتلاء مراد الثاني العرش ، أتى تغير مقتضب في الأسلوب : سجلت أحداث السنوات العشرين التالية أو نحوها بسلسلة من البدايات القصيرة البليغة ، المشابهة جداً في الأسلوب لبدايات التقاويم الملكية باستثناء التواريخ مجهولة المؤلف حيث ختمت بداية كل سنة بتاريخ هجري ، ومع ذلك هناك بقايا في النص تدل على أنه في هذا القسم الحولي استعمل نظام التاريخ النسبي أولاً : على سبيل المثال تختتم بداية سنة ٨٣٦ بعبارة تاريخية «منذ ان انهزم المسلمون في عام ٨٣٦» ومن الواضح أن المصدر المدموج هنا كان تقويماً شبيهاً في الشكل (ولكنه مختلف تماماً في المحتوى من) بالتقاويم الملكية ، وأصبح النص مع وصف معركة ڤارنا أكثر تفصيلاً ، ولكنه عاد فيما بعد إلى سجل حولي مختصر مع ذكر أخبار بضع أحداث كبيرة فقط بالتفصيل .

ان مشكلة تنقيحات هذه التواريخ المجهولة المؤلفين معقدة جداً ، وتمثل النسخ المحررة في عهد بايزيد الثاني نصوصاً اكثر اكتمالاً من الفقرات المثيلة لها في النسخ التي اكملت وأعيد تحريرها في عهد سليمان ، والأولى لا تحوي فقط قصصاً إضافية بل أيضاً اقتباسات مطولة من اسكندرنامة أحمدي ، وعندما حقق ف . غيزF. Giese التواريخ اعتمد على أربعة عشر مخطوطاً كان عليه أن يقرر فيما إذا كانت نسخة بايزيد الثاني هي النص الأصلي ، وأن نسخة سليمان هي اختصار لها أضيفت اليها تتمة ، أم أن نسخة بايزيد الثاني كانت توسيعاً لنص أصلي موجز ، بقي فقط في النسخة الأخيرة ، وقد اختار البديل الأول ، ولسوء الحظ إن اكتشاف مخطوطات نص مرتبط بأحكام بتلك التواريخ أوحى بأن غيز قد وقع في الخيار الخاطىء وأن المخطوط الذي اختاره كأساس لطبعته هو نسخة معالجة لنص أقدم حفظ بأمانة في التنقيح الأخير ، ولكن بفضل قدرات غيز النافذة ، وجهوده المضنية أمكن إعادة بناء النص الآخر بالتفصيل . والنص الذي أوضح بعض

الشيء مسألة علاقة تلك التواريخ وما يزال من بعض الجوانب يشوشها قد نشر من مخطوطين في مكتبتي البودليان وجامعة كمبردج ، وبصرف النظر عن الاختلافات الطفيفة ـ لكن كثيراً ما تكون هامة في التفاصيل إنه يختلف عن النصوص مجهولة المؤلف بشكل رئيس في أن له مقدمة سمي فيها المؤلف أو المصنف عروج بن عادل ، ويبدو أن نص أكسفورد أفضل وأكمل ولكنه ناقص ، ويتوقف مع أحداث (١٤٦٧/٨٧٢ ـ ٨) بينما ينتهي نص كمبردج بأحداث (١٤٩٤/٨٩٩) ، وإن أهمية تاريخ عروج في أنه يعطي ـ إذا صح القول ـ نص نسخة سليمان دون تكملة ، أعني النص الذي عده غيز اختصاراً لنسخة بايزيد الثاني . وعلاوة على ذلك يحوي هذا التاريخ دلالات على أنه قد وضع بالأصل في حكم محمد الثاني وكان بناء عليه أقرب إلى النص الأساسي الذي استخدمت فيه كل مخطوطات غيز ، ومع ذلك ، لعل تشويشاً كثيراً قد وقع على أساس حقيقة أن مخطوط اكسفورد انقطع ليتوقف عند (٨٧٢) : ليس هناك من سبب للشك في أن كلا المخطوطين في الأصل قد وصل إلى (٨٩٠) ، وأن عروج (الذي لا يعرف عنه شيء) كان يعمل في أيام حكم بايزيد الثاني ، معيداً صياغة ، ومضخماً المادة مجهولة المؤلف ، ففي مخطوطتين في المكتبة الوطنية نصوص قريبة جداً من نصوص عروج ولكنها أكملت حتى سنة ٩٠٨ ، وفي الحقيقة أن مزيداً من مثل هذه النصوص باق ينتظر التعريف والوصف ، فقد كانت جميع مواد هذه التواريخ تعد ملكية مشتركة وشعر كل ناسخ أو منقح (التعابير ، في هذه العلاقة كثيراً ما تكون مترادفة) أنه حر لديه الخيار في التغيير أو التوسيع كما يريد ، وعلى هذا يتطلب انتزاع الحقائق التاريخية من مثل هذه النصوص حذراً كبيراً ودقة بالغة .

وبقيت ثلاثة تواريخ من حكم محمد الثاني ، ليس بينها واحد واسع التفاصيل ، والثالث منها فقط ، هو بشكل خاص ، تاريخ للعثمانيين ، لكون الآخرين ـ مثل كتاب أحمدي ـ تاريخين شاملين أضاف إليهما المؤلفان أقساماً عن البيت العثماني ليصلا بالقصة إلى أيامهم ، والثلاثة مختلفة جداً في الأسلوب ، لكون أحدها كتب بنثر فارسي مباشر تماماً ، وكتب الثاني بشعر تركي شائع جداً ، وكتب الثالث بنثر عربي محكم .

ولد شكر الله مؤلف الكتاب الأول حوالي نهاية حكم مراد الأول ، ودخل في خدمة العثمانيين وهو في الثانية والعشرين من عمره ، وكان عضواً في هيئة العلماء ، وقد استخدم من قبل مراد الثاني في بعثات دبلوماسية مختلفة ، وقد كتب تاريخه «بهجة التواريخ» في تقاعده في بورصة (٨٦١ ـ٩/١٤٦٥/٨) وقدمه إلى الصدر الأعظم محمود باشا ، وفقط آخر الفصول الثلاثين منه هو الذي يتعامل مع العثمانيين ، وعلى الرغم من مجاله الكبير فإن تاريخه هو كتاب مختصر تماماً ويتألف كثير منه فقط من قوائم من الحكام إلى جانب تواريخ تسلمهم السلطة ، ووفياتهم واحصاء لأطوال سني حكمهم ، وأعطى شكرالله في مقدمته قائمة طويلة من الوثائق التي استخدمها ، ولكنه لم يذكر أي مصدر لمعلوماته عن فترة العثمانيين ، ويحوي الفصل العثماني رواية كاملة تماماً حتى تسلم مراد الثاني ، ولكن من هذه النقطة وما بعدها هناك بعض التفصيل الواقعي ، وخصائص تاريخ شكرالله الرئيسة هي اهتمامه بالترتيب الزمني وسرد فضائل السلاطين مع أسماء المؤسسات الدينية التي أقاموها .

ولاشيء معروف عن أنوري سوى أنه صحب محمود باشا في حملات مختلفة ، وأنه أنهى تاريخه الشامل دستور نامة في (١٤٦٥/٨٦٩) وهو مقسم إلى اثنين وعشرين كتاباً قصيراً ، تألفت السبع عشرة الأولى منها أساساً من ترجمة متنوعة من كتاب البيضاوي «نظام التواريخ» وحكى الكتاب الثامن عشر قصة مآثر عمر بك الأيدني ، ويروي الكتاب التاسع عشر تاريخ العثمانيين من البدايات الأسطورية للأسرة الحاكمة حتى تسلم محمد الثاني ، أما الكتاب العشرون فقد أوقف على حكم محمد الثاني حتى ٨٦٨ ، وغطى الكتاب الحادي والعشرون موضوعاً مماثلاً إذ روى انتصارات محمود باشا الذي عاش أنوري في كنفه وعدد الكتاب الثاني والعشرون أعمال محمود باشا الورعة ، وتبعاً لأنوري لم يستغرق تأليف كامل الكتاب أكثر من شهر ، مما يدل على أنه ، بالنسبة للأقسام العثمانية وغيرها ، لم يتعد جهده أكثر من القيام بنظم نص كان أمامه ، وواضح من أسلوب روايته أنه كان يعتمد بقدر كبير على تقويم من النوع نفسه الذي سلف وصفه ، ولكنه أضاف من خبرته الخاصة تفاصيل إلى أخبار بعض الحملات التي اشترك فيها .

وترك محمد باشا قرماني ، الصدر الأعظم الذي قتل في حوادث الشغب في استانبول بعد وفاة محمد الثاني تاريخاً موجزاً بالنثر العربي ، وهو في جزأين ، روى الأول منهما تاريخ العثمانيين حتى وفاة مراد الثاني ، وروى الثاني أحداث حكم محمد الثاني ، ويبدو أيضاً أن معظم مادة هذا التاريخ مجرد إعادة صياغة بالعربية لتقويم بسيط أضيف إليه كثيرمن تاريخ «الجمل» ، وبعض الفقرات التجميلية المسجوعة .

وتظهر جميع التواريخ التي ذكرت حتى الآن أنها في أساسها تجميع من قصص شعبية وتقاويم ، والأسلوب مهما كان مفصلاً يخفق في إخفاء النقل من فهرس أسماء وتواريخ وقصة ، ثم العودة مرة أخرى ، ومن جديد عالج ثلاثة من هؤلاء الكتاب : «أحمدي ، وشكرالله ، وأنوري» التاريخ العثماني كمجرد ملحق لتاريخ شامل ، وأول عمل بقي لنا ، وهو كل متماسك موقوف حصراً على العثمانيين ، ومعترف بأنه متميز بطابع شخصي هو تاريخ عاشق باشا زاده ، الذي كان من سلالة الشاعر الصوفي عاشق باشا كما يتبين من اسمه ، وقد ولد في نحو سنة ١٤٠٠ ، ويحتمل أنه عمّر حتى المائة ، لهذا فإن مدى حياته التي امتدت تقريباً على كامل القرن موضع اعتبار ، فقد كان خلال حكم مراد الثاني ، وفي السنوات الأولى من حكم محمد الثاني في الروملي يشارك القادة الغزاة في الغارات على الأراضي المسيحية ، وفي الحملات الكبيرة ، وكتب تاريخه في أواخر حياته وهو يعيش متقاعداً في استانبول ، وبعد هذه الحياة الطويلة والنشيطة كان مؤهلاً لأن يكتب مارآه وسمعه وخبره ، مضيفاً إلى ذلك موهبته في الرواية ، مما جعل كتابه قوياً ينبض بالحياة ، ومن الواضح أنه كتب ليقرأ بصوت مرتفع ، وقد صيغ معظم الكتاب بصيغة الخطاب المباشر ، وهناك ، في نهاية كثير من الفصول القصيرة ، تبادل بين الأسئلة والأجوبة عندما يكون علينا أن نتخيل دائرة من المستمعين يقاطعون بسؤال أو اعتراض ، وقيام المؤلف بالتوضيح قبل متابعة القراءة ، وهكذا فالكتاب إلى حد كبير تاريخ شعبي لم يحاول المؤلف ، دون مبالاة بالأشخاص ، إخفاء هواه من تحيز وتحامل ، ولكن السلاطين عادة فوق اللوم ، بيد أن رجال الدولة وقادة الجيوش تلقوا نقداً قاسياً عندما اعتقد أنهم كانوا يستحقونه ، ولا بد أن النصف الثاني من تاريخ عاشق باشازاده مستمد من خبراته الخاصة ، أو من

روايات من الدرجة الأولى تلقاها من رفاقه في السلاح ، ومع أنه قال إنه قد وجه اهتمامه وجهده لكتابة كتابه وهو في سن السادسة والثمانين ، فلا بد أنه كان يجمع مواده منذ زمن طويل قبل ذلك ، منقحاً وموسعاً إياها مع مرور السنين ، ويحتوي النصف الأول من الكتاب مادة كثيرة تكاد تتفق حرفياً مع ما أشير إليه من قبل على أنه «النواة» للتواريخ مجهولة المؤلف ، ويتوقف التوافق بين النصوص عند النقطة التي يبدو أن النواة قد انتهت عندها ، وهنا روى «عاشق باشازاده» أنه حدث مرة ، عندما كان صبيا أن وقع مريضاً في بيت «يخشي فقيه» ابن امام «أورخان» «اسحق فقيه» ، وأنه على عهدة «يخشى فقيه» دوّن قصص مناقب البيت العثماني حتى زمان «بايزيد الأول» وقد دفع هذا القول بعض الشراح إلى الاعتقاد أن المادة المشتركة بين «التواريخ مجهولة المؤلف» و «عاشق باشازاده» هي المستمدة من «يخشى فقيه» والاحتمال الأكبر هو أن العكس هو الصحيح ، أي أن المادة المشتركة مستمدة من مصدر مكتوب وصل إلى نحو سنة ١٤٢٠ ، وبعض المادة الغريبة ـ أو كلها ـ على «عاشق باشازاده» تمثل القصص التي تلقاها من «يخشى فقيه» قبل ذلك ببضع سنوات ، وعلى أي حال جدير بالذكر أنه نص من نهاية القرن الخامس عشر حوى قصصاً وأثاراً عن زمن أورخان قبل ذلك ببايزيد عن مائة وخمسين سنة ، رويت كلها من قبل طبقتين من الشهود المعاصرين .

أما بالنسبة «لنشري» الذي كان يكتب بعد عاشق باشازاده بوقت قصير فلا شيء معروف عنه عملياً ويقال إنه كان مدرساً في بورصة ، وأنه توفي فيها في حكم سليم الأول ، والحقيقة الوحيدة الواضحة التي لدينا عن مصداقيته هي أنه كان في المعسكر العثماني عندما توفي محمد الثاني ، حيث أعطانا صورة حية عن الذعر بين الوزراء ، والاضطرابات التي تلت ذلك في استانبول ، والتاريخ الذي لدينا هو الكتاب السادس والأخير من التاريخ الشامل الموسوم «جيهان نامة» الذي صنفه «نشري» وكان قد قدم هذا الكتاب الأخير كمصنف منفصل لبايزيد الثاني ، وقد جاء في ثلاثة أقسام عن سلالة «أوغزخان» وعن السلاجقة وعن العثمانيين ، والقسم الأخير هذا أطول بكثير ، وفي نصه بعض الأشارات العرضية يمكن استغلالها باتخاذها مفاتيح لمحتويات الكتب الخمسة الأولى التي ، على أي حال ، لا يعرف أنها موجودة .

ومما يزيد من قيمة تاريخ «نشري» عن العثمانيين هو أن المؤلف ، وأن لم يذكر اسم مصدر من المصادر المكتوبة التي عاد إليها ، يمكن التعرف على ثلاثة من مصادره التي استعملها ، وبمقارنة هذه المصادر مع نصه يمكن رؤية الطريق الذي سلكه في عمله ، وأن مصدره الرئيسي هو تاريخ عاشق باشازاده ، فقد تبع هذا النص فصلا بعد فصل بتوافق حرفي كبير ، مع تغيير كلمة أو عبارة هنا وهناك ، وأبيات الشعر التي جزّأ بها «عاشق باشازاده» نصه أما محذوفة أو أعيد سبكها نثراً ، ووجدت الأسئلة والأجوبة طريقها بكل يسر إلى داخل الرواية ، وحذفت جميع الأشارات إلى السيرة الذاتية للمؤلف ، ولكن قوة الأصل ومباشرته وحيويته لم تخمد ، والتغيير الأكثر لفتاً للنظر الذي أجراه نشري أنه كثيراً ما أقدم على حذف ، أو تلطيف أحكام «عاشق باشازاده» الصريحة على أعيان الناس ، فبالنسبة لعاشق باشازادة كانت أسرة جندرلي مثلاً ، التي كانت لنحو قرن على رأس الأمور ، ملعونة وبغيضة ، ولكن نشري خفف من هذه الانتقادات ، فهو قد كتب من أجل جمهور أكثر رزانة ، وكان يطلب رعاية بايزيد الثاني ، الذي كان «ابراهيم» وهو أخر عضو متميز من أسرة جندرلي ، ذا خطوة كبيرة لديه .

وكان أحد التقاويم الملكية مصدراً آخر استخدمه «نشري» ، وكان النص الذي استخدمه مشابها ولكن ليس مطابقاً لنص التقويم الثالث المشار إليه أعلاه أعني تقويم سنة ٨٥٦) وجرت العادة أن ينتهي كل فصل من فصول «عاشق باشازاده» بتاريخ محدد ، وكان عمل نشري المعتاد أن يلحق بالفصل المادة التي احتواها تقويمه لتلك السنة ، وعدل نشري بعض النقاط المفصلة ، وأبرزها تلك التي تعلقت بصحة نسب الدعي «مصطفى» ، وجاء تعديله هذا لنص «عاشق باشازاده» ليجعله متفقاً مع شهادة التقويم .

وكان المصدر الثالث الذي استعمله نشري قريباً جداً من التاريخ العثماني المدون بالتركية الذي حفظ منه مخطوط في مكتبة البودليان[٢] والذي تم تأليفه لبايزيد الثاني بواسطة كاتب مجهول ، لعله شوقي الذي ورد ذكره في كتب التراجم ، ومقدمة هذا التاريخ مكتوبة بالأسلوب الانشائي الأكثر إتقانا ، ولكن التاريخ نفسه عبارة عن حكاية مباشرة وصريحة وقد أخذ نشري كثيراً من هذا النص ليردف رواية عاشق باشازاده ، إنه لم يأخذ منه فقط روايته الطويلة عن الحروب الأهلية

بعد معركة أنقرة ، والعديد من الفصول المبعثرة فحسب ، بل أخذ أيضاً عبارات وجملاً وحتى أسماء مفردة ، نسجها بمهارة كبيرة في نص «عاشق باشازاده» ، ومن أجل روايته حول حكم بايزيد الأول مضى إلى أبعد من مجرد الجمع ، لقد أعاد تماما ترتيب رواية «عاشق باشازادة» ليجعلها تتفق مع الترتيب الحولى للأحداث حسبما جاءت الرواية في نص مخطوط البودليان ، وفعل هذا بعناية ودقة حتى إن التحليل الدقيق فقط هو الذي يكشف التناقضات ، ولكن بينما نعجب بالبراعة التي واءم بها بين الروايات التاريخية المتباينة لمصادره الثلاثة ، فإن على المرء أن يقر أنه ربما فعل ذلك على حساب الحقيقة التاريخية ، وهو العيب الأكثر خطورة ، سيما وأن كتابه اعتمد كمصدر رئيس للعديد من المؤرخين المتأخرين .

ومع ذلك كان نشري ـ على الرغم من جميع أخطائه المنهجية ـ مؤرخاً حقيقياً لأنه ملك فضيلة المؤرخ الأساسية وهي الرغبة في أن يثبت حقيقة الأحداث ، ومن المشكوك فيه إذا ما كان الشيء نفسه يمكن قوله عن ادريس البدليسي الذي صنف كتابه «هشت بهشت» وفق نمط تاريخي : «وصاف والجويني» ، وقد كتب بناء على أمر بايزيد الثاني منوها بصراحة أنه استهدف تمجيد أعمال البيت العثماني ، وصحيح أن ادريس حفظ هنا وهناك المعلومات التى اختارها من مصادر أقدم فقدت الآن ، ولكن يحتمل أن تحليلاً شاملاً لمحتويات تاريخه (واجب تأخر كثيراً) سيظهر أنه قد بولغ في تقديره كمصدر تاريخي ، وأنه إذا نزعت الصنعة البلاغية من الرواية الأساسية فلن يبقى أكثر من مجرد تكرار لقصة رواها نشري مع بعض التحريفات الإضافية التي سببتها محاولات المواءمة بين الآثار المتصارعة .

وعرفت الآن فقط أهمية مؤرخ معاصر لادريس هو «كمال باشازاده» لأنه تمّ مؤخراً الكشف عن مخطوطات تحتوي الجزء الأعظم من تاريخه ، والتحقق من صحة انتسابها له ، لقد كتب بالتركية لكن بالأسلوب المنمق نفسه مثل إدريس ، وفي محاكاة لكتاب إدريس هشت بهشت ، والكتب الثمانية الأولى من تاريخه الطويل جداً والمفصل بأمر من بايزيد الثاني ، لقد كان رجلاً ذا شأن ، بدأ حياته جنديا ، ثم تحول إلى دراسة علوم الدين ، وارتقى إلى أن أصبح شيخ الاسلام في عهد سليمان الكبير ، وللحكم على محتوى كتابه حول حكم محمد الثاني ، الذي نشر

حديثاً بالتصوير ، ثم منسوخاً عن الأصل ، نجده قد أعطى حركة التاريخ العثماني مظهراً جديداً ، وذلك أنه حاول أن يروي أحداث الماضي ، لا كسلسلة من الوقائع غير المترابطة الأمر الذي هو منهج التواريخ مجهولة المؤلف ، وعاشق باشازاده ، ونشري ، وحتى إدريس ، على الرغم من التباين في الأسلوب ، بل كسلسلة من الأحداث المترابطة ، فقد كان معنيا جداً بإثبات أسباب الأحداث ، ناظراً إلى أبعد من ذريعة الحرب ، معيداً القارىء إلى أحداث أقدم سببت الحالة التي تناولها بالدرس لاحقاً ، وهو لم يرض مثلما رضي جميع أسلافه تقريباً بوصم القوى المسيحية معاً بـ «كفرة ملاعين» بل قدم لكل موضوع جديد بوصف قصير للأرض التي قدر لها أن تكون مسرحاً للعمل [٣] ، وقد أظهر تمييزا في اختيار مصادره واعتمد إلى حد كبير على روايات شهود العيان الذين كان بينهم العديد من الرجال العظام في زمانه ، وباختصار لقد أظهر ميول رجل دولة سعى لرؤية قاعدة في الأحداث تتخذ مرشداً لسياسة المستقبل .

وتكرر الادعاء بانتظام أن كتاباته لها قيمة عملية لرجال الدولة والحكام لا سيما من قبل علماء الدين المؤرخين مثل «شكرالله» و «نشري» اللذين كانا وهما يكتبان من أجل الدوائر العلمية عامة ، يسعيان ايضاً وراء رعاية العظماء لهما ، فقد كان للتاريخ عندهما فضيلتان : فهو ما صنعه الدين بيديه ، وهو المرشد الذي سيساعد الحكام في أداء واجبهم كحكام عادلين ، والجديد في كتاب كمال باشازاده هو أنه خدم في الواقع ، وبشكل يمكن تصوره ، الغاية الثانية التي صرح بعض أسلافه بشكل عفوي ، وغير واقعي ، أنهم أخذوها بعين الاعتبار ، وكانت البواعث الحقيقية التي دفعت بمؤرخي القرن الخامس عشر للكتابة قد عبر عنها بصراحة أقل ، ولكنها قد تدرك بصدق ، وكان الباعث الأول هو الورع ، وهو باعث يتمثل في الفقرة الشهيرة في «اسكندر نامة» «لأحمدي» حيث انتقل بعد الكلام عن أعمال المغول السيئة وطغيانهم بكل يسر إلى اعادة سرد أعمال بكوات العثمانيين الذين كانوا «مسلمين طيبين وعادلين» والذين كانت لديهم فضيلة متابعة الجهاد بلا انقطاع ، ويجري هذا الموضوع عبر كل التواريخ التالية ، ولم تكن حقيقة أن كثيراً من الحملات وجهت ضد دول إسلامية ذات موضوع ، لأن أولئك المسلمين عدّوا معوقين للغزو ، سواء بالغارات التافهة على الأراضي العثمانية ، أو

بتحالفهم مع العدو المسيحي ، ومن ثم فإن السلطان اضطر لقمعهم حتى يمضي العمل القوي إلى أوربا قدماً دون إعاقة ، وبالضبط ، كما أن المعركة مع الكفار هى عمل الله والسلاطين والمقاتلين الذين انشغلوا بها فأحرزوا القدسية ، فإن تسجيل أعمالهم عمل مقدس ، والمؤلف يستحق مثلهم قراءة الفاتحة على روحه .

وارتبط بإحكام مع هذا الباعث الرغبة الصريحة في التكريم ، فقد أكد «عروج» في مقدمته بالروح نفسها مثل «أحمدي» فضائل الحكام العثمانيين ، لكنه بدأ ببيان أن قصص هؤلاء السلاطين تحتاج أن تسجل لتأخذ مكانها مع قصص الأولياء والشاهنامات وقصص العجائب ، وقصص أفراسياب ورستم ، وقد أعلن تنقيح واحد للتواريخ مجهولة المؤلف في المقدمة على أنه يحتوي «حوليات البيت العثماني ، وأيضاً قصصاً عجيبة عما حدث في الماضي» وإنها في الواقع مفارقة تاريخية بالنسبة لنا تصنيف مثل هذه الكتب على أنها «نصوص تاريخية» : إنها شكلت جزءاً من الأدب الشعبي للتسلية والتثقيف اليومي ، ويعبر عن قيمة مثل هذا السجل البادي العقم مثل التواريخ مجهولة المؤلف ، يعبر عنها جيداً بالكلمات المستعملة في نص مشابه جداً «للحوليات الأنغلوسكسونية» : إن الاستخدام البدائي «للحوليات» «كان يسم سلسلة السنوات البعيدة كل منها بعلامة خاصة بها ، حتى لا تتشوش السنوات وتتداخل باستعادة ذكريات الذين عاشوا فيها وعملوا بها ، لقد قدموا للأجيال المقبلة مجرد اسم أو اسمين ، مثل ميدان معركة ، أما بالنسسبة لرجال اليوم فقد اقترحوا ألفاً من الأمور الجديرة بالذكر ، كانوا طوال حياتهم قد اعتادوا جمعها وتصنيفها معا ، والذي يبدو بالنسبة لنا عبارة عقيمة هزيلة كان بالنسبة لهم نصاً للتسلية في أمسيات الشتاء[٤]»

وفي الختام جدير بالتنوية تذكر أن الآثار التاريخية المسجلة في نصوص القرن الخامس عشر التي درست هنا ، كانت معروفة في أوربا منذ زمن طويل ومستعملة ، فقد أحضر هرنيموس بل إلى فينا في عام ١٥٥١ مخطوطاً من أحدث نشرة للتواريخ مجهولة المؤلف (مع تتمتها إلى ٩٥٦/١٥٤٩) والتي طبعت ترجمة لها إلى الألمانية قام بها ج . غودير في فرانكفورت في ١٥٦٧ وترجمة لاتينية بوساطة هانز لو نكلو (لونكلافيوس) في ١٥٨٨ ، ولقد كان لونكلافيوس مترجما قديراً ، ولم يكن

المخطوط الذي استخدمه (والذي اختفى من حينه) أقدم بكثير من المخطوطات الباقية فحسب بل إن هناك علامات تدل على أنه على الرغم من التنقيح المتأخر ، احتفظ هنا وهناك بخصائص نسخة أقدم من أي مما قدم في نصوصنا ، وتاريخ لونكلافيوس «تاريخ المسلمين الأتراك» (فرانكفورت ١٥٩١) هو جمع ومزج لنصين تركيين : أحدهما تنقيح آخر «للتواريخ مجهولة المؤلف» والثاني مصنف يحوي الجزء الأعظم من القسم العثماني لتاريخ نشري ، وتظهر مقارنة الأجزاء ذات العلاقة في هذا «التاريخ» مع النصوص المنشورة مؤخراً لنشري أن المخطوط المقدم هناك يعود إلى التنقيح الأول لكتاب نشري ، وكان متحرراً من كثير من الأخطاء التي أدخلها الناسخون المنقحون في وقت لاحق ، وفي الواقع إن الطلاب من غير المستشرقين ، في أيامنا هذه ، مزودون بشكل أفضل قليلاً بتراجم لنصوص عثمانية من القرن الخامس عشر أكثر مما كان لدى نولس Knolles وهو يعمل عام ١٦٠٠ في كتابه «تاريخ عام للترك» .

هوامش البحث

١ ـ عددهم الآن خمسة إلى جانب تقويمين عن أيام مراد الثاني (مخطوطات في باريس وأكسفورد) نشرا من قبل عثمان توران (أنقرة ١٩٥٤ ، وقد استخدم تقويم ١٤٥٢/٨٥٦ مخطوطة طوب قبي سراي ـ بغدت كوصكو ٣٠٩) أولاً من قبل خليل إينالج في بحثه (فاتح دوري أوزرند تنكلكر وسلكر ـ أنقرة ١٩٥٤ : ١) وقد نشر الآن بكامله من قبل ج . ن اتسز في دورية معهد استانبول : ٣ ، ويوجد في نور عثمانية مخطوطة برقم ٣٠٨٠ وهي تقويم لسنة ٨٥٨ ونصه قريب جداً من نص مخطوطة تقويم بغدت كوصكو ، وهناك مخطوطة في مكتبة تشستربيتي رقم (٤٠٢) تحتوي على تقويم عثماني مختصر ، يبدو أنه أقدم من هذه التقاويم جميعاً لكنه أدنى بالتفاصيل (راجع فهرس المخطوطات والمنمنمات التركية إعداد ف . مينورسكي [دبلن ١٩٥٨] ص ٣ .

٢ ـ مارش ٣١٣ ، وينسب هذا النص عادة إلى روحي الذي لتاريخه قدر كبير مشترك معه لكنه يتوقف عند نقطة أبكر (٨٨٩ ـ ١٤٨٤) ويبدو أنه مصدر روحي الرئيس وليس كتابه .

٣ ـ وهذه الخاصة ـ على الأقل ـ استعارها من تاريخ أبي الفتح «لطورسون بك» ويبقى أن يرى إلى أي مدى تبدي الكتب الأخرى لتاريخ «كمال باشازاده» (التي تولى نشرها «ترك تاريخ كورمو» النفاذ نفسه .

٤ ـ شارل بلمو ـ مقتبس في الحولية الأنغلوسكسونية ، ترجمة غ . ن غامنسوي (سلسلة كل رجل ـ لندن ١٩٥٣) ص ١٨ .

١٦ ـ استخدام المؤرخين المسلمين لمصادر غير إسلامية
برنارد لويس
أستاذ تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط في جامعة لندن

كتب هيرودوت ـ أبو التاريخ ـ عن «عن الأعمال العظيمة العجيبة لكل من الإغريق والبربر» ، وتابع دراسته في ماضي الأراضي الأجنبية والأزمنة البعيدة ، وعلى الرغم من صده وحرمانه ، بفعل الأسرار الكهنوتية ، من الوصول إلى الكتابات الشرقية ، حاول سد العجز بالسفر والتقصي شخصياً في الأراضي الشرقية ، وبعد نحو من خمسة عشر قرناً كتب أوربي آخر هو وليم رئيس أساقفة صور ، وكان يعيش في دول ما وراء البحار ، تاريخاً للدول الإسلامية ، والتمس هو أيضاً معلوماته من المصادر الشرقية ، ونظراً لوضعه الأفضل من وضع هيرودوت ، كان قادراً على الاطلاع على أصولها[1] .

ومهما يكن من أمر فقد شكل هذان الأوربيان ، الأول من تلاميذ الشرق ، حالة استثنائية ، وعلى الرغم من المناداة بهيرودوت أبا التاريخ فإنه لم يحظ باحترام المؤرخين الكلاسيكيين الذين فضل معظمهم اتباع مبدأ توسيدس وممارساته ، وقد حصروا اهتمامهم بأعمال معاصريهم وأبناء وطنهم ، وكان مؤرخو أوربا في العصور الوسطى قانعين باتباع مثلهم ، وليس مصادفة أنه بينما كان تاريخ وليم عن الحروب الصليبية في الشرق «تاريخ الأعمال المنجزة وراء البحار» يقرأ على نطاق واسع ، لا بل ترجم إلى الفرنسية ، نجد كتابه الآخر «أعمال أمراء المشرق» بقي على حد ما هو معروف في مخطوط واحد ، ولم يكن قبل أن توقظ النهضة شخصية فضولية أوربية جديدة شحذتها الاكتشافات برؤية شعوب بعيدة وغريبة ، أن بدأ

المؤرخون الأوربيون في إبداء الاهتمام بالأراضي والمجتمعات الأخرى واستخراج المعلومات والآراء وتناقلها حولهم[٢] . وما زال هذا الفضول التاريخي الشامل خاصية مميزة تقريباً مقتصرة على أوربا وبناتها ، وتدرس المجتمعات الشرقية تاريخها الخاص ، وبحكم الحاجة والظروف تدرس أيضاً تاريخ الغرب الذي أثر أو هيمن عليها ، وهي ما تزال تبدي اهتماماً قليلاً ببعضها[٣] .

وكان مسلمو العصور الوسطى ، مثل رعايا معظم المجتمعات الأخرى التي ظهرت بين الناس ، قانعين بعمق بالسرمدية والاكتمال والاكتفاء الذاتي الأساسي لحضارتهم ، وكان الإسلام هو العقيدة الحقيقية الوحيدة وفيما وراءه كان فقط الكفار ، وكان هذا هو المعادل الإسلامي للتعبير الإغريقي(*) «البرابرة» وكانت الدولة الإسلامية هي النظام الإلهي الوحيد المقدر ، والذي وراءه فقط الطغيان والفوضى ، والتاريخ الشامل كان تاريخ الجماعة الإسلامية ، الذي كانت خارجه أراض وشعوب انحصرت اهتماماتها في أوضاع العمل الإسلامي وأهدافه .

ولم تكن السلالات الأقل شأناً مجهولة بالنسبة للأدب التاريخي الإسلامي ، فقد كان هناك أحياناً بعض الرحالة الجسورين الذين غامروا بينهم ، ومع الأكثرية كان هناك التبادل الطبيعي للتجارة والحرب والدبلوماسية ، ومن بعضهم كانت هناك الاستعارات المعترف بها للمعارف المفيدة والحرف ، ولكن شيئاً من هذا لم يؤد إلى أي اهتمام بتاريخ غير المؤمنين من الشعوب .

وللنجاح في الحرب ضد الروم كان من الضروري توفر الاستخبارات السياسية والعسكرية ، وللتعلم من الروم كان مفيداً الحصول على التدريب الفلسفي والعلمي ، ولم يكن للحصول على أي من هذين الأمرين أدنى حاجة للتحري في ماضي التاريخ الرومي ، فلقرون وقفت الخلافة الإسلامية وجهاً لوجه مع الامبراطورية البيزنطية : دار الحرب بلا منازع لإسلام العصور الوسطى ، وكان لدى المؤرخين المسلمين الكثير ليقولوه عن الحرب على الجبهات ، وكان

★ـ هذه المقارنة مغلوطة ، لأن التميز الإسلامي أساسه عقائدي ، بينما كان التميز الاغريقي أساسه عرقي ، وكان الأليق المقارنة بين التميز في اليهودية والتميز الإغريقي ، فالإغريق جعلوا الناس : إغريقاً وبرابرة ، واليهود جعلوهم شعب الله المختار ثم الهمل .

لدى جغرافيي المسلمين معلومات وفيرة ، يحتمل أنها استمدت في النهاية بشكل أساسي من ملفات الخدمات السرية ، حول وصف طبيعة الأراضي والإدارة وقوة الامبراطورية المعادية ، وحتى حول فضائح بلاطها وعاصمتها ، ولكن لم يحاولوا في أي وقت استشارة المصادر التاريخية البيزنطية الإغريقية ، أو التعامل بصورة متصلة مع تاريخ الامبراطورية البيزنطية .

وما هو أكثر إثارة للدهشة هو حالة الحروب الصليبية ، فلقرنين كان مسلمو الشرق الأوسط في مواجهة واحتكاك صريح معاد لجماعات الفرنج القائمة بينهم ، ومع ذلك لم يحدث في أي وقت أن أبدوا أدنى اهتمام بهم ، وكما بين الاستاذ غبريللي[4] ، لم يعد المسلمون ، خلافاً للمسيحيين ، الحروب الصليبية شيئاً منفصلاً ومتميزاً ، ولا هم أفردوا الصليبيين من بين السلسلة الطويلة من الأعداء الكفار الذين كانوا يحاربونهم من وقت لآخر ، وقد روى المؤرخون بالتفصيل أخبار أصغر المناوشات بين المسلمين وقوات الفرنجة ، ولكن لم يكن لديهم سوى القليل لقوله حول الشؤون الداخلية للدول الفرنجية في المشرق ، وأقل منه عن بلادهم التي جاءوا منها، واللامبالاة هي الأمر الملاحظ أكثر في أن الجغرافيين وعلماء الهيئة كان لديهم بعض المعلومات المستمدة في معظمها من مصادر إسلامية غربية حول الفرنجة وبلادهم ، ومع ذلك ـ مع استثنائين صغيرين أوثلاثة ـ لم يقم المؤرخون المسلمون بأية محاولة ليربطواقصتهمعن الحروب الشامية بهذه المعلومات ، لتعقب الغزاة رجوعاً إلى بلادهم الأصلية ، أو للتحري عن الحركة الهائلة ـ وإن تكن غير مرئية ـ التي أطلقتهم[5] .

لقد شق الصليبيون الطريق إلى علاقات دبلوماسية وتجارية أوثق بين الدول الإسلامية والمسيحية في منطقة حوض البحر المتوسط ، وانعكست هذه العلاقات في كتب الإدارة التي صنفت للعمل في الدواوين في عصر المماليك ، ففي كتاب صبح الأعشى للقلقشندي ـ وهو موسوعة إدارية هامة ـ وفي مصنفات أخرى مماثلة نجد قوائم للحكام الأوربيين الذين راسلهم سلاطين مصر مع الأسماء الصحيحة والألقاب ، وصيغ العناوين لكل واحد منهم ، وبعض الإشارات إلى تبادل سالف للرسائل أو السفارات ، ولا نجد شيئاً عن تاريخ تلك البلاد .

وهذا لا يعني أن المؤرخين المسلمين لم يشغلوا أنفسهم مطلقاً بالتاريخ غير الإسلامي ، وبالنسبة للمسلم ، إن الوحي الإسلامي ليس بداية بل تتمة ، هو الحلقة الأخيرة في سلسلة الوحي ، والجماعة الإسلامية ، على هذا ، ليست وجوداً جديداً ، وإنما هي إحياء وتحسين لشيء ما وجد من قبل ، منذ زمن بعيد ، وتاريخ الإسلام ، بناء عليه ، لم يبدأ بمحمد (ﷺ) إنه يشمل تاريخ الأنبياء الأقدم وبعثاتهم ، وشيئاً أيضاً عن الشعوب التي أرسلوا إليها ، وهذا التاريخ الأقدم هو بشكل رئيس توراتي وعربي ، ضمن إطار حددته الإشارات التاريخية في القرآن ، وسلف أن نوقشت مسألة تطور هذا التاريخ ، والفائدة المستمدة من المصادر التوراتية ، ومن الرواة اليهود والمسيحيين ، نوقشت في مقالة الأستاذ روزنتال ، وقد تحدث النبي (ﷺ) أيضاً عن قيصر وكسرى ، وهنا نجد أيضاً أن بعض التفصيل التاريخي كان مسموحاً به ، لا بل كان ، مطلوباً لشرح الآثار المقدسة ، وللوصول إلى هذه الغاية كان هناك أيضاً المهتدون من الفرس إلى الإسلام ، مع ذكريات عن ، مع إمكانية الوصول إلى الكتابات التاريخية الفارسية ، والمسيحيون الشرقيون ذوو المعرفة بتواريخ الامبراطوريات الوثنية والمسيحية الرومانية ، ومن خلالهم وجدت بعض الروايات حول التاريخ الفارسي والروماني طريقها إلى اللغة العربية ، وذلك مع المادة اليهودية المسيحية التوراتية بحيث أصبح الجميع جزءاً من المادة العامة للتواريخ الإسلامية العامة .

وأحرزت هذه المادة في الأيام الأولى ، عندما كانت الجماعة الإسلامية ما تزال ساذجة وسريعة التقبل ، ثم تلقت بضع إضافات قليلة فيما بعد ، وهذا واضح في مواد المداخل العامة التي تقود إلى الحديث عن تأسيس الأمة الإسلامية ، ومن المهم ملاحظته أنه لم يردف عادة بأية مناقشة للظروف في أي بلد محدد قبل الفتح الإسلامي ، ولقد كان للجماعة الإسلامية ككل بعض التاريخ المبكر ، لكن المناطق الإسلامية بدأ تاريخ كل منها بحلول الإسلام[٦] .

على هذا كانت الاهتمامات الخارجية لعلم التاريخ الإسلامي مقصورة على تاريخ ما قبل الإسلام للجماعة الإسلامية نفسها ، وكانت علاوة على ذلك محصورة بالفترة الأقدم ، ومع استثناءات قليلة ونادرة لم تمتد إلى تاريخ الشعوب الأجنبية أو الثقافات ، أو حتى إلى تاريخ ما قبل الإسلام للشعوب والبلاد التي دخلت

الإسلام ، وبكلمات أخرى كان المؤرخون المسلمون معنيين فقط بحضارتهم الخاصة وبأسلافهم المباشرين - وفي هذا كانوا يشبهون مؤرخي معظم المجتمعات البشرية ، بما فيهم - حتى أزمنة حديثة نسبياً - مؤرخينا .

ولقد كانت هناك بعض الاستثناءات ، فقد قاد الفضول الشامل للمسعودي صاحبه حتى إلى تاريخ الفرنجة ، ومكنه من أن يعطي قائمة بملوك الفرنجة من «كلوفس حتى لويس الرابع» وصدرت هذه المعلومات كما أخبرنا عن كتاب أعده أسقف خرنجي للخليفة الأندلسي «الحكم» في ٩٣٩/٣٢٨[٧] وحملت العبقرية الفائقة للبيروني صاحبها عبر الحاجز الديني غير القابل للاختراق لنصول دينية أجنبية ولدراسة السنسكريتية ، ومعرفة شيء عن الهند مع أن اهتماماته كانت فلسفية وعلمية أكثر منها تاريخية ، وكان هذان المثلان ، على أي حال ، قليلين ولم يتكررا حتى مع مؤرخ كبير بقدر ابن خلدون في تاريخه الشامل ، فهو لم يمض أبعد من شمال الأندلس أو شرقي فارس[٨] ، وضمن هذه المنطقة حاول جاهداً أن يتعامل مع غير المسلمين كتعامله مع التاريخ الإسلامي أيضاً ، وأفاد من المصادر غير الإسلامية بقدر ما توفرت له مثل أوروسيوس[★] عن روما ويوسف عن اليهود[٩] ، ولكنه لم يمض أبعد من حدود حضارته الخاصة وأسلافه المعروفين والمعترف بهم ، مثله في ذلك مثل مؤلفي أغلب ما يعرف بالتواريخ الشاملة المكتوبة في أوربا حتى فترة متأخرة جداً .

وإن أول تاريخ حقيقي شامل في الإسلام - ويحتمل في العالم - هو تاريخ رشيد الدين ، فقد أوجدت غزوات المغول ، بتوحيدها للمرة الأولى تحت حكم أسرة حاكمة واحدة ، مدنيات جنوبي غربي آسيا والشرق الأقصى ، أوجدت فرصاً جديدة للاتصالات الاجتماعية والثقافية بين مجتمعات كانت منفصلة من قبل بفعل الحواجز السياسية والدينية ، وفتحت بالوقت نفسه الباب لاتصالات جديدة مع أوروبا حيث أفاد عدد من الأوروبين من الفرصة التي أتيحت بوجود حكام غير مسلمين في الشرق الأوسط لاكتشاف الطرق البرية إلى الصين .

★- نشرت الترجمة العربية لهذا الكتاب - بيروت ١٩٨٢ بعنوان «تاريخ العالم» .

وكان جامع التواريخ وهو تاريخ شامل أعده رشيد الدين لغازان خان المغولي نتاج هذه الاتصالات الجديدة ، ولتنفيذ هذه المهمة جمع فريقاً من المعاونين بينهم عالمان صينيان ، وناسك بوذي من كشمير ، ومغولي مختص بالتقاليد القبلية ، ورحالة فرنجي يحتمل أنه راهب كان قد جاء كمبعوث من الإدارة البابوية ، فمن خلاله تعرف رشيد الدين على تاريخ أوروبي ، عرف مؤخراً على أنه تصنيف مارتن تروبوا Troppau المعروف أيضاً باسم مارتن بولونس Polonus وهو مؤرخ من القرن الثالث عشر ، ومن هذا المصدر الذي أكمل من قبل هذا الراوية حتى أيامه ، كان رشيد الدين قادراً على تضمين تاريخ مختصر عن أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة حتى ألبرت الأول ، وعن البابوات حتى بندكت الحادي عشر ، وقد وُصف كلاهما بشكل صحيح كما كانا يعيشان في ذلك الوقت[١٠] .

ووجدت مغامرة رشيد الدين في الثقافة الغربية والشرقية ، التي توفرت الفرص لتنفيذها بقيام فترة الاحتلال المغولي القصيرة ، مقلدين قلائل ، وكانت روايته عن التاريخ الأوروبي هي الأولى منذ قائمة ملوك المسعودي ، وكانت الأخيرة حتى القرن السادس عشر عندما بدأت حاجة العثمانيين للاستخبارات السياسية حول أوروبا تنمو إلى اهتمام ـ وإن يكن ضعيفاً ومثيراً للإزدراء ـ بالتاريخ الأوربي ، وفي مكتبة درسدن الوطنية الساكسونية مخطوط تركي يحوي تاريخاً لفرنسا من فرامند الأسطوري إلى سنة ١٥٦٠ وقد كتب بأمر من فريدون بك ، مؤلف «منشآت السلاطين» الشهيرة وريس أفندي من ١٥٧٠ إلى ١٥٧٣ ، وكان عمل رجلين : الترجمان حسن بن حمزة ، والكاتب علي بن سنان ، وأكمل الكتاب في ١٥٧٢/٩٨٠[١١] .

وربما كان هذا الكتاب أول ترجمة لكتاب تاريخي أوربي إلى التركية ، وقد أتبع برواية عن اكتشاف العالم الجديد ، اقتبست من مصادر أوربية ، وعكست القلق التركي المتزايد من التوسع الكبير للقوة البحرية الغربية[١٢] .

وأبدى خلال القرن السابع عشر عدد كبير آخر من المؤرخين الأتراك أمارات الاهتمام بالتاريخ الأوربي والمعرفة بالمصادر الأوربية ، ويقال إن إبراهيم ملهمي

(ت : ١٦٥٠) كتب «تاريخ ملوك الروم والفرنج» ، ولسوء الحظ لا توجد أية نسخة منه[١٣] ، وكان معاصره الأكثر شهرة «حاجي خليفة» (ت : ١٦٥٧) أيضاً مهتماً بأوروبا ، وأبحاث حاجي خليفة بالجغرافيا الأوربية مشهورة ، وتبعت خطاً من التحري المفتوح لأسباب عملية من قبل صانعي الخرائط العثمانيين والملاحين في القرن السالف ، وقد دمج حاجي خليفة المادة الأوربية في جغرافيته العالمية «جيهان نامه» فقد أعد ـ بمساعدة كاهن فرنسي دخل الإسلام ، عرف باسم الشيخ محمد اخلاصي ـ نسخة تركية عن الأطلس الصغير لميركاتور Mercator وهنديوس Hondius ، وربما بمساعدة هذا الرجل الفرنسي نفسه أعد حاجي خليفة أيضاً ترجمة تركية لكتاب «تاريخ الفرنجة» وخمن موردتمان Mordtmann ـ الذي أعتقد أن هذا الكتاب قد فقد ـ بأنه كان ترجمة للتاريخ البيزنطي لكالكوندليس Calcocondyles[١٤] ، وعلى أي حال بقيت نسخة واحدة منه في ملكية خاصة بتركية ، ونشرت أجزاء منها فعلاً ، في صورة متسلسلة ، في صحيفة «تصوير أفكار» في ١٢٧٩/١٨٦٢ ـ ١٨٦٣[١٥] ، وطبقاً للتمهيد الذي قدم به محررو الصحيفة تلك المقتطفات ، يتعامل البحث مع التاريخ الأوربي ، وقد ترجم عن كتاب المؤرخ الألماني جوهان كاريون Johann Carion (١٤٩٩ ـ ١٥٣٧) وروجع هذا العمل الذي انتهى في ١٥٣٢، أو بالحري أعيدت كتابته بوساطة فيليب ميلانكتون Philip Melanchthon (١٤٩٧ ـ ١٥٦٠) وأتم من قبل كاسبار بيوسر Caspar Peucer أو بيوتزر Beutzer (١٥٢٥ ـ ١٦٠٢) وترجم إلى الفرنسية من قبل سيمون غولارت Simon Goulart (١٥٤٣ ـ ١٦٢٨)[١٦] .

ومن المحتمل أن إحدى هذه النسخ المتأخرة هي التي شكلت الأساس لنص حاجي خليفة التركي ، ويبدو أن اختيار عمل لوثري كثيراً ماكان يستعمل في الدعوة البروتستنتية يوحي أن معاون حاجي خليفة الفرنسي ـ مع وصفه أنه كاهن ـ كانت له خلفية بروتستنتية ، وليست كاثوليكية .

وكان استخدام المصادر الأوربية من قبل مؤرخ عثماني آخر من أوائل القرن السابع عشر هو «ابراهيم بجوي» (١٥٧٢ ـ ١٦٥٠) ، ولم يكن بجوي معنيا بالتاريخ الشامل ، وكان اهتمامه أقل بكتابة تاريخ ملوك الكفار أو تراجمهم ، وكان

اهتمامه مثل معظم المؤرخين العثمانيين بتاريخ الامبراطورية التي كان من رعاياها ، لا بل أكثر وبشكل خاص بالحروب التي خاضتها الجيوش العثمانية في أوربا ، ويغطي تاريخه أحداث السنوات ١٥٢٠ ـ ١٦٣٩ ، ومن أجل الفترة الأخيرة اعتمد إلى حد بعيد على معرفته الخاصة ، أو على روايات الجنود القدامى ، ومن أجل الفترة الأولى يبدو أنه قد أفاد من كتابات أسلافه في التاريخ العثماني ، ولكن ، إضافة لتلك المصادر ، كانت لدى بجوي فكرة ثورية بالرجوع إلى مؤرخي العدو ، وكان مهتماً فوق كل شيء بالتاريخ العسكري ، ويبدو أنه انبهر بقصص المعارك الكبيرة التي خاضها السلاطين العثمانيون والحكام المسلمون الآخرون ، وقد أمعن النظر باهتمام محب في كل التفاصيل ، ولكن الحوليات الإسلامية كانت تفتقر أحياناً بشكل محزن إلى التفاصيل ، وهكذا كان بجوي يلجأ إلى الروايات التي كتبها العدو ، فقد قال : «في بلادنا رجال بلا عدد ، قادرون على القراءة والكتابة بالهنغارية»[١٧] ، وعليه لقد كان أمراً سهلاً قراءة الحوليات الهنغارية له ، وترجمة بعضها إلى التركية[١٨] ، وأوضح بجوي قائلاً : «انه اعتقد أن عدداً من الفقرات تصلح للدمج في تاريخه الذي قام بتصنيفه ، وشملت هذه الفقرات رواية عن معركة موهاكس ، وروايات أخرى عن الحروب في هنغاريا ، ومع أن بجوي لم يسم مصادره الهنغارية فإن اثنين منها قد عرفا من قبل كريلتز Kreletz على أنهما كاسبر هلتي Kaspar Heltai و ن . و . استفانفي N.V.Istvanfy اللذان نشرت تواريخهما في ١٥٧٥ و١٦٢٣ على التوالي[١٩] .

ولم يكن بجوي ، كما ذكر أحياناً ، أول مؤرخ عثماني يستخدم المصادر الغربية ، ويبدو مع ذلك أنه أول من قام بمقارنة الروايات الأجنبية مع الروايات المحلية عن الأحداث نفسها ونسجها في رواية واحدة ، وفي هذا المجال لم يكن له في أي مكان إلا أسلاف قلائل ، ولكن كان له بالتأكيد بعض الخلفاء .

وعلى أي حال استمر في الوقت نفسه الاهتمام الأكثر عمومية بالتاريخ الغربي وكان حسين هزارفن (ت : ١٦٩١) مؤرخاً بارزاً في أواخر القرن السابع عشر ، ومعظم أعماله ، لسوء الحظ ما تزال غير منشورة ، وهو مثل حاجي خليفة ، الذي ينقل عنه بإعجاب ، كان رجلاً واسع الفضول ، ويبدو أنه كان مهتماً بشكل

خاص بجغرافية البلاد النائية وتاريخها ، إضافة إلى تاريخه الأبكر ، وسعى إلى مدى نادر ، إن لم يكن وحيداً بين مسلمي أيامه ، إلى التعرف بالدارسين الأوربيين ورجال الأدب ، ولم يكن قليلاً من زار منهم استانبول ، ويعرف عنه أنه تعرف على الكونت فرديناند مارسغلي Marsigli وأنطون غالاند Galland ومن المرجح أنه تعرف أيضاً إلى دمتروس كانتمير Demetrius Cantemir ، وبلا شك أنه ، من خلال المناصب الرفيعة لهؤلاء والأصدقاء الأوربيين الآخرين ، كان حسين هزارفن قادراً على تأمين الوصول إلى محتويات الكتب الأوربية ودمجها في كتبه الخاصة .

وأهم تلك الكتب بالنسبة لهدفنا كتابه «تنقيح التواريخ» الذي أكمله في ١٦٧٣ ، وهو مقسم إلى تسعة أجزاء عالج في السادس والسابع والثامن والتاسع منها تاريخ ما وراء إطار العالم الإسلامي وأسلافه المقبولين ، فقد عالج في الجزء السادس تاريخ الإغريق والرومان بما في ذلك بعض الروايات عن الفلاسفة الإغريق ، وبحث الجزء السابع في تاريخ القسطنطينية منذ تأسيسها ، بما في ذلك الفترة البيزنطية ، وأرخ في الجزء الثامن لآسية والصين والفليبين وجزائر الهند الشرقية والهندوسيلان ، وحكى في الجزء التاسع أخبار اكتشاف أمريكا ، ومن الغريب حقاً أن حسين هزارفن لا يبدو أنه شمل أوربا بعرضه ولكن رواياته عن كل من آسية وأمريكا قائمة كلياً تقريباً على المصادر الأوربية ، وربما على أدب الرحلات الفرنسي ، وصدرت رواياته حول التاريخ الإغريقي والروماني والبيزنطي أيضاً عن مؤلفات أوروبية، ولعلها كانت المرة الأولى التي استعملت فيها هذه الكتب لزيادة الرصيد الهزيل للمعارف الإسلامية حول العصور القديمة الكلاسيكية(٢٠) .

وبكتاب أحمد بن لطف الله ، المعروف باسم منجم باشي (ت : ١٧٠٢) نعود إلى التاريخ الشامل بدرجة كبيرة ، وكتابه العظيم «جامع الدول» ـ والعنوان صدى واضح لكتاب رشيد الدين «جامع التواريخ» ـ هو تاريخ شامل للجنس البشري من آدم حتى ١٠٨٣/١٦٧٢ ، وقد اعتمد ـ كما أخبرنا المؤلف نفسه ـ على سبعين مصدراً ، وما يزال الأصل العربي لهذا الكتاب غير منشور ، ولكن ترجمة تركية(٢١) أعدت تحت توجيه الشاعر نديم قد طبعت ، وكتلة الكتاب ـ كما يمكن أن يتوقع المرء ـ معنية بالتاريخ الإسلامي ، والقسم الأكبر من المجلد الأول ، مع

ذلك وقف على تاريخ ما قبل الإسلام ، وتاريخ الدول غير المسلمة ، وشملت هذه الدولة كالعادة : الفرس والعرب من جانب ، وبني اسرائيل والمصريين من جانب آخر ، حيث أرخ لهم وفق الخطوط التقليدية تقريباً ، ويمضي تاريخ منجم باشي القديم على أي حال إلى أبعد من الرصيد الإسلامي الشائع ، فمن الواضح أن رواياته عن الرومان واليهود مستمدة من مصادر رومانية ويهودية توفر جزء منها عن طريق نقول ابن خلدون ، وكان لدى منجم باشي مع ذلك معلومات أكمل بكثير من معلومات ابن خلدون ، وقادرة على التعامل مع تواريخ شعوب مثل : الآشوريين والبابليين والسلوقيين والبطالسة ، وهي تواريخ لم تكن بالكاد معروفة للمؤرخين الإسلاميين ، وهنا لا بد أن مصدراً أوربياً قد استخدم بالنسبة لها ، وأصبح هذا مؤكداً عندما نأتي إلى فصل منجم باشي عن أوربا الذي يضم أقساماً عن الأجزاء المتعلقة بشعوب الفرنجة وعن ملوك فرنسا وألمانيا واسبانيا وانكلترا ، ويبدو أن مصدره عن هذه الدول كان الترجمة التركية لتاريخ جوهان كاريون Johann Carion مع أنه منذ أن أكمل منجم باشي روايته حتى حكم لويس الثالث عشر في فرنسة والامبراطور ليوبولد في المانيا وشارل الأول في انكلترا ، لا بد أنه كان لديه مواد إضافية تالية تحت تصرفه ، فقد تحدث عن الحرب الأهلية الانكليزية وإعدام الملك شارل : «وبعده لم يعين شعب انكلترا (أنغلياً) ملكاً آخر له ، وليس لدينا معلومات أكثر حول شؤونهم» (١/٦٨٢) .

ولم تكن اهتمامات منجم باشي الخارجية محصورة بأوربا ، ومن أجل روايته عن ملوك أرمينية ، أخبرنا أنه استفاد من ترجمات للتواريخ الأرمنية (١/٦٥٢) ولجأ من أجل التاريخ القديم لليهود إلى المصادر العبرية ، التي وفرها الرواة اليهود (١/٦٨٤) ، ومن رواياته عن تعامله مع هؤلاء الرواة ، ثم عن محاولاته الجاهدة للتحقق ومقارنة المادة في لغات غير معروفة له ، ربما نحصل على فكرة ما عن الفضول الواسع والثقافة المدققة لمنجم باشي ، ذلك أنه حتى الصين والهند الهندوسية مشمولة في هذا التاريخ مع أن معلومات منجم باشي هنا هزيلة وفقيرة .

وخلال القرن الثامن عشر كانت طبيعة الاهتمام العثماني بأوربا قد اجتازت تغييراً جذرياً ، فقد ميزت معاهدة لا كارلولتز للسلام الموقعة في ٢٦ كانون الثاني ١٦٨٩ نهاية حقبة وبداية أخرى ، فلزمان طويل كانت الأزمة الداخلية المتزايدة

للحضارة الإسلامية قد تقنعت بالواجهة العسكرية المهيبة للامبراطورية العثمانية التي حمت قلب الأراضي الإسلامية من كل من الهجوم الأجنبي ومن إدراك الذات في الداخل .

والآن كانت هذه الوجهة تهتز للمرة الأولى بخطورة ، لقد كانت هناك حملات غير ناجحة ، وحروب غير حاسمة قبل الآن ، ولكن التراجع المفجع الذي أعقب الإخفاق العثماني الثاني في فينا في ١٦٨٣ كان أول هزيمة واضحة لا تخطأ ، وفي كارلولتز اضطر السلطان العثماني للمرة الأولى منذ تأسيس السلطنة لقبول الشروط التي أملاها العدو الكافر المنتصر .

وتروي وثيقة تركية كتبت قبيل معاهدة باسارويتز Passarowitz (١٧١٨) مناقشة متخيلة بين ضابطين مسيحي وعثماني ، بحثا فيها الحالة العسكرية والسياسية ، ويبدو أن هدف الكاتب كان تحضير الدوائر العثمانية الحاكمة لقبول الهزيمة بتصوير الأحوال غير المواتية للسلطنة بأحلك ما يمكن ، وقامت المناقشة أيضاً بعقد مقارنة بين الجيوش النمساوية والعثمانية ، وكانت النتيجة لغير صالح الجيوش العثمانية ، ويبدو أن المناقشة تضمنت نداء بضرورة الإصلاح العسكري[٢٢] .

وفتح زخم تأثير الهزيمة العسكرية ، والرغبة الناتجة بالتماس ، ثم استخدام السر الخفي الذي جلب النصر للعدو ، مرحلة جديدة في العلاقات بين الإسلام والعالم الغربي ، وهي حالة استمرت مع بعض التعديلات الهامة إلى اليوم ، وكان الاهتمام الجديد في البداية مقصوراً على الأسلحة والعلم العسكري لدى أوربا ، ولكن لم يكن هناك مفر من حتمية توسع على الأقل بقدر ما بدت الثقافة الأوربية ضرورية للتطبيق الفعال ، ففي عام ١٧٢١ ، عندما أرسل يرمي سكز محمد سعيد أفندي الشهير كسفير إلى باريس كانت تعليماته إجراء دراسة شاملة لوسائل الحضارة والتعليم ، وأن يقدم تقريراً عما هو قابل للتطبيق في تركيا[٢٣] ، وكانت إحدى وسائل الحضارة الطباعة التي يدين إدخالها بين الأتراك بالكثير إلى مبادرة ابن السفير سعيد جبلي وحماسه ، ويرتبط به بإحكام في هذا العمل إبراهيم متفرقة ، وهو هنغاري اهتدى إلى الإسلام .

وظهر الكتاب الأول في شباط ١٧٢٩ ، وفي الوقت الذي أغلقت فيه المطبعة في ١٧٤٢ كان قد جرى طبع سبعة عشر كتاباً تعلق معظمها بالتاريخ والجغرافيا واللغة ، واحتوت رواية لمحمد سعيد أفندي عن سفارته إلى فرنسا ، ورسالة لابراهيم متفرقة عن علم التكتيك كما كان يطبق في الجيوش الأوربية ، وترجمة لرواية أوروبيةعن الحروب في إيران ، وضمت طبعات محققة لمؤلفات أقدم ، بما في ذلك تاريخ من القرن السادس عشر عن كشف العالم الجديد ـ تاريخ الهند الغربية ـ وقسماً من البحث الجغرافي لحاجي خليفة .

وكان الاهتمام الجديد بأوروبا معنياً بالمقام الأول بالشؤون العسكرية ، ولكن ما أن اخترقت الحواجز التي كانت تفصل بين الحضارتين ، لم يعد ممكناً الاحتفاظ بتحكم صارم بحركة السير عبرها ، وقادها الاهتمام بالعلم العسكري من جانب ، والحاجة للاستخبارات السياسية والعسكرية من جانب آخر إلى اهتمام بالتاريخ الأوروبي الحديث الذي بعدما كان مفككاً ومتقطعاً في البداية أصبح أكثر إلحاحاً مع انتشار لإدراك بأن بقاء السلطنة بالذات قد يعتمد على فهم دقيق للتطورات الأوروبية .

ويشهد إلى جانب الكتب المطبوعة في مطبعة متفرقة عدد صغير من المخطوطات في مجموعات استنابول بهذا الاهتمام الجديد بالتاريخ الأوروبي ، ويعطي مخطوط تاريخه ١١٣٥/١٧٢٢ بعنوان «نمجي تاريخي» تاريخاً موجزاً للنمسا من ٨٠٠ إلى ١٦٢٢ م ، وكان قد ترجم من الألمانية من قبل المترجم عثمان بن أحمد وكان من نوع آخر مختلف ، عرض الأحوال التاريخية لدول أوربا ـ «أوربا دول أحوال تاريخي» ـ وهذا بالواقع تقرير مؤرخ في ١١٤٦/١٧٣٣ ـ ١٧٣٤ ، أعده أحمد باشا بونوال الشهير ، وهو نبيل فرنسي التحق بخدمة العثمانيين واهتدى إلى الإسلام ، وقد بحث بعض الأحداث في النمسا ، وهنغاريا ، واسبانيا ، وفرنسا وقد ترجم إلى التركية من الأصل الفرنسي ـ المفترض ـ للمؤلف ، وشمل عرض إجمالي للأسر الحاكمة الكبيرة ـ فهرس الدول لعبد الرحمن منيف أفندي (ت : ١٧٤٢) ـ الأباطرة الوثنيين والمسيحيين الرومان ، وأباطرة البيزنطيين ، وملوك فرنسا في باريس ، وملوك النمسا في فينا ، ومع نهاية القرن تناول عرض للشؤون الأوروبية ـ «اجمال أحوال أوروبا» ـ بروسيا في عهد فريدريك الثاني ،

وفرنسا في فترة الثورة ، وفي ١٧٩٩ أعد مسيحي من استانبول يدعى كوزمو كوميداس بالتركية قائمة بالحكام الأوروبيين ، مع تواريخ مولدهم وتسلمهم العرش وعواصمهم ، وألقابهم ، وورثتهم ، ومعلومات مفيدة أخرى(٢٤) .

وغدت هذه الكتب أو أخرى من النوع نفسه ، معروفة للمؤرخين العثمانيين ، ووجدت بعض المعلومات التي احتوتها طريقها إلى التيار الرئيس للتاريخ العثماني ، وكان أول المؤرخين الامبراطوريين ، ممن تعلم لغة غربية وآفاد من المصادر الغربية عطا الله محمد ، المعروف باسم شانيزاده (١٧٦٩ ـ ١٨٢٦) ، وغدا بالتعليم أحد العلماء ، وبالفعل كان رجلاً ذا معرفة موسوعية ، وقد أصبح مؤرخاً امبراطورياً في (١٨١٩) ويبدو أنه تعلم عدة لغات أوربية ، وقام بدراسة للطب الأوربي والعلوم الأخرى ، وكان عمله الرئيس الترجمة إلى التركية ، وقد ترجم كتاباً طبياً مدرسياً نمساوياً ، ولعل هذه الترجمة كانت من الإيطالية ، وقام أيضاً في ١٨٠٥/١٢٢٠ بترجمة (تعليمات فريدريك الكبير إلى قادته ـ وصية ناما سفريه ـ وبناء عليه كان طبيعياً عندما دعي لكتابة تاريخ الأمبراطورية للسنوات (١٨٠٨ ـ ١٨٢٠) وجد أنه لا بد من استخدام بعض المصادر الأوربية .

ودفعت الحملات الكبيرة والسريعة للحروب الثورية ، والنابليونية بالدروس عن الأعمال الحربية الجديدة بعمق إلى أراضي الإسلام ، في حين أتيح للأفكار العلمانية الجديدة للثورة ، غير الملوثة في عيون المسلمين بأي أصل مسيحي يمكن معرفته لأول مرة ، أن تخترق الحواجز التي كانت حتى الآن تستبعد كل حركة للأفكار من أوربا ، وهكذا تزودت الشعوب الإسلامية ، في حركات تحررها الجديدة ، وقوميتها بالأسس العقائدية ، وفق النمط الغربي .

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان هناك مركزان رئيسان للإصلاح وفق النمط الغربي في الشرق الأوسط : تركيا ومصر ، وفي كليهما شغل إعداد ونشر تراجم الكتب الغربية ، دوراً هاماً ، فقد كان في مصر في عهد محمد علي باشا ، برنامج منظم بتمويل من الدولة للترجمة الذي من أجل إيجاد مثيل له يجب العودة إلى العصور الإسلامية الأولى ، فبين (١٨٢٢ و ١٨٤٢) طبع «٢٤٣» كتاباً في مطبعة بولاق ، كان القسم الأعظم منها عبارة عن ترجمات .

وكان أكثر من نصف هذه الكتب تقريباً بالتركية ، وما تبقى بالعربية ، ففي عهد حكم محمد علي كانت اللغة التركية ما زالت لغة النخبة الحاكمة في مصر ، ونحن ، بناء على ذلك ، غير مندهشين عندما نجد أن الأبحاث في الموضوعات العسكرية والبحرية هي على الأغلب بالتركية ، والشيء نفسه صحيح إلى حد بعيد بالنسبة للرياضيات الحرة والتطبيقية ، التي كانت الحاجة إليها بشكل رئيس للأغراض العسكرية ، وكانت من جانب آخر البحوث في الطب والعلوم البيطرية ، والزراعة ، والنحو في أغلبها بالعربية ، ويبدو أن التاريخ ، كان مسألة تخص الحكام الناطقين بالتركية ، حيث كانت الكتب التاريخية القليلة التي صدرت عن المطابع في الفترة المبكرة جميعاً بالتركية ، وكان الكتاب الأول ترجمة لكتاب غاسترا Gastera «تاريخ امبراطورة روسيا كاترين الثانية» ترجمة اليوناني ياكوواكي أرجيروبولو Yakovaki Argyropoulo ونشر في ١٢٤٤/١٨٢٩ ، ثم أعيد طبعه في استانبول في ١٢٨٧/١٨٧٠ ، وترجمة مبكرة أخرى وكانت «مختارات من مذكرات القديسة هيلين» ونشرت في ١٢٤٧/١٨٣٢ تحت عنوان «تاريخ نابليون بونابرت» وهو معروف أيضاً باسم «نابليون قائد الجيوش» ثم جاءت نسخ مختلفة من كتاب بوتا Botta «تاريخ ايطالي» و«مذكرات دوق دو روڤيغو» Duc de rovigo ، وقد نشرا في ١٢٤٩/١٨٣٤ وتكمل هذه الكتب الأربع التراجم التاريخية من اللغات الغربية في الفترة المبكرة ، مع أنه كان هناك أيضاً ترجمة أو ترجمتان من العربية إلى التركية ، وبعد ذلك كان هناك فترة فاصلة من عدة سنوات ، حتى ظهرت الترجمة التاريخية التالية ـ ترجمة لكتاب ڤولتير «تاريخ شارل الثاني عشر» نشر في ١٢٥٧/١٨٤١ ، وكان هذه المرة بالعربية ، كما كان هناك أيضاً عدد من الترجمات التالية للبحوث التاريخية لڤولتير وروبرتسون Robertson وآخرين[٢٥] .

وبدأت الحركة في تركيا ببطيء أكثر ، ويبدو أن الترجمات التي جرت في مصر عرفت ، ودرست ، ولكن ليس قبل منتصف القرن كما بدء ظهور ترجمات للكتابات التاريخية الأوربية في استانبول ، ففي سنة ١٨٦٦ ظهرت ترجمة تركية قام بها أحمد حلمي لكتاب للتاريخ شامل بالانكليزية ، يحتمل أنه كان أول تاريخ للعالم في الأدب التركي الحديث ، وتطورت حركة الترجمة بعد ذلك بسرعة خاصة

في تركيا ومصر ، وغيرت بسرعة صورة العالم كما بدت للطلاب المسلمين والقراء[٢٦] .

هوامش البحث

١ ـ «ونضيف إلى هذه المحرضات أوامر الملك عموري صاحب الذكر الرائع ، والأثر المتميز في الرب (لتنعم روحه المقدسة بالراحة والسكون) لقد أقنعني هذا الأمر مع أسباب أخرى ملحة بالإقدام على تولي هذا العمل ، وعلاوة على ذلك لقد كتبنا تاريخاً آخر أيضاً تنفيذاً لأوامر الملك ، الذي زودنا بنفسه بالوثائق العربية اللازمة ، ولقد كان المصدر الرئيس الذي اعتمدناه هو الأثر الأدبي الذي خلفه بطريرك الاسكندرية المبجل المعروف باسم سعيد بن البطريق ، ويبدأ هذا التاريخ من أيام النبي (ﷺ) ويمتد عبر خمسمائة وسبعين عاماً ، أي حتى العام الحالي ، وهو عام ١١٨٤ لتجسيد الرب» وليم الصوري ـ المقدمة (★ انظر ص ١٣٦ من الجزء الأول لترجمتي لهذا الكتاب) .

٢ ـ انظر ا . مومغليانو A.Momigliano «مكانة هيرودوت في تاريخ علم التاريخ» مجلة تاريخ (١٩٥٨) ٦٣/١ ـ ١٣ وذلك من أجل مناقشة موضحة لهذه المسائل .

٣ ـ من الجدير بالذكر أن الجهود الأولى لتطوير الدراسات السنسكريتية والصينية في الشرق الأوسط قد جرت في أنقرة والقدس .

٤ ـ انظر أعلاه ص ٩٨ .

٥ ـ ان الاستثناء الممكن هو سيرة المسيحيين الأوربيين الذين جاؤوا في تلك السنوات إلى البلاد الإسلامية والذين ذكرهم«ابن ميسر»(ص٧٠)ونقل ذلك فرانز روزنتال في«علم التاريخ عند المسلمين» (ليدن ١٩٤٥) ص ٥٥ ، وهذا على أي حال عرضي في النقص العام بالاهتمام ، ولعله يفسر السبب في أن هذا المصنف لم يبق حتى ولو على سبيل الاقتباس . انظر المزيد في ب . لويس «الكشف الإسلامي لأوربا» دورية معهد الدراسات الشرقية والأفريقية (١٩٥٧) ٢٠/٤٠٩ ـ ٤١٦ .

٦ ـ تبرز قصص البطولة الفارسية للأباطرة الخرافيين لايران القديمة والأساطير المصرية المنسوجة حول البقايا المحطمة الضخمة للفراعنة بجلاء نقص المعرفة التاريخية الحقيقية حول ماضي ما قبل الإسلام .

٧ ـ مروج : ٦٦/٣ ـ ٦٧ ، ٦٩ ـ ٧٢ . انظر أيضاً برنارد لورس ـ المسعودي عن ملوك الفرنجة (مجلد ذكرى المسعودي الألفية ، عليكرة ١٩٦٠) ص ٧ ـ ١٠ .

٨ ـ في الحقيقة درس ابن خلدون المغول بشيء من الطول ، ولكن كمقدمة لرواياته عن غزواتهم للأراضي الإسلامية ، راجع و . ج فيشل : مصادر ابن خلدون عن جنكيز خان والتتر ، دورية الجمعية الآسيوية الأفريقية (١٩٥٦) ٧٦ : ٩١ ـ ٩٩ .

٩ ـ غ . ليفي دلافيدا : الآثار العربية عن تاريخ أوروسيوس . الأندلس (١٩٥٤) ٢٥٧/١٩ ـ ٢٩٣ . وج . فيشل : ابن خلدون ويوسف (برشلونة ١٩٥٤) ٥٨٧/١ ـ ٥٩٨ . مادة ابن خلدون حول التوراة واليهودية واليهود ـ مجلد ذكرى ايجانس غولدزيهر (القدس ١٩٥٦) ١٤٧/٢ ـ ١٧١ .

١٠ ـ ك جان : أسطورة الغرب لدى رشيد الدين ـ مجلد فؤاد كوبرلو (استابول ١٩٥٣) ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧ . مادة جامع التواريخ لرشيد الدين . . . . ١ ـ تاريخ الفرنجة (ليدن ١٩٥١) .

١١ ـ راجع ف . بابنغير : علم التاريخ العثماني (لايبزغ ١٩٢٧) ص ١٠٧ .

١٢ ـ تاريخ الهند الغربي ـ كتب نحو سنة ١٥٨٠ لمراد الثالث وطبع في مطبعة المتطرقة في ١٧٢٩/١١٤٢ ، وينعكس الاهتمام نفسه في كتابات تاريخية أخرى ، وبشكل بارز في القسم الجغرافي من كتاب «كنه الأخبار» لعلي .

١٣ ـ بابنغير ص ١٧٠ .

١٤ ـ انظر مادة حاجي خليفة في الموسوعة الإسلامية ثم بابنغير ص ٢٠٠ .

١٥ ـ عدنان عدوار «العلم التركي العثماني» (باريس ١٩٣٩) ص ١١٨ . أعيد بعد شيء من التعديل في مادة «العلم العثماني التركي» (استانبول ١٩٤٣) ص ١٢٩ . وبالنسبة لأحسن بحث حول الموضوع وأحدثه انظر أورهان صيق في كتاب جلبي «حياتي وأسرلاري هاكنده انسلملو» (أنقرة ١٩٥٧) ص ٥٤ ـ ٥٦ .

١٦ ـ أنا مدين بالشكر للأستاذ أ . ت هاتو بالنسبة لهذه المعلومات .

١٧ ـ تاريخ بجوي : ١٠٦/١ .

١٨ ـ «اكتول ونكسن تركي ترجمة اتك» ويبدو أن بجوي وجد من كان يقرأ التاريخ له ويترجمه ، ومن ثم قام هو بإدخال بعض ما أراده في كتابة تركية ، وتشابه هذه الطريقة طريقة مدرسة طليطلة للترجمة ، وأنا مدين بهذه الملاحظة للأستاذ ب . ونك .

١٩ ـ ف . ف . كريلتز : المؤرخ العثماني ابراهيم بجوي ـ در إسلام (١٩١٨) ٢٥٢/٨ ـ ٢٦٠ .

٢٠ ـ ورد ذكر المخطوطات في بابنغير ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، وقد استطعت الرجوع إلى واحدة تخص متحف هنترين في غلاسكو (راجع دوربة الجمعية الملكية الآسيوية ١٩٠٦

ص ٦٠٢ . . .) وكانت قد نسخت في السفارة الفرنسية في القسطنطينية من قبل دروغومان فرانسس صليبي وكانت في وقت ما ملكاً لبتي دى لاكروا .

٢١ ـ عن منجم باشي انظر بابنغير ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ، وبروكلمان ـ تاريخ الأدب العربي : ٢/٤٤٣ والذيل ٢/٦٣٧ والنسخة التركية معنونة «صحائف الأخبار» نشر في ثلاثة مجلدات في استانبول في ١٢٨٥/١٨٦٨/١٨٦٩ ، والإحالة هنا على الطبعة التركية .

٢٢ ـ فايق رشيد عونت ـ اصلاحات أحمد الثالث ، تاريخ وسكلري (١٩٤١) ١/١٠٧ .

٢٣ ـ مقتبس من قبل سليم نزهت غرجك ـ ترك مكتبجي (استانبول ١٩٣٩) ١/٤٤ .

٢٤ ـ من أجل وصف هذه الكتب ، انظر فهرس مطبوعات استانبول في التاريخ والجغرافية ١ ـ تاريخ تركي أممي تاريخ (استانبول ١٩٤٣) ٣ ـ عرب تاريخ : ايران تاريخ ، تاريخ عسكري (استانبول ١٩٤٥) وعن عثمان بن أحمد انظر ر . ف كروتل وأنوسبايس . . عثمان آغا (بون ١٩٥٤) خاصة ص ٢٥ .

٢٥ ـ انظر عن انتاج مطبعة بولاق : ا . بيرون و . م . مهل «حركة التعليم أيام باشا مصر» دورية آسيـة ـ الحلقة الرابعة (١٨٤٣) ٢/٥ ـ ٢٣ ، ج . هـ . دونه : الطبعة والترجمة في ظل محمد علي ـ دورية الجمعية الملكية الأسيوية (١٩٤٠) ص ٣٢٥ ص ٣٤٩ . وأفضل دراسة صدرت مؤخراً عن الموضوع وأكثرها تفصيلاً تلك التي أعدها الأستاذ جمال الدين الشيال بعنوان «تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي» القاهرة ١٩٥١ مع قائمة كاملة بأسماء المنشورات . . انظر أيضاً ما سيأتي ص ٤٠٣ .

٢٦ ـ انظر أيضاً ب . لويس «كتابة التاريخ ، والإحياء الوطني في تركيا» الشرق الأوسط(١٩٥٣) ٤/٢١٨ ـ ٢٢٧ وبحث د . كوران المقبل ص ٤٢٢ .

١٧ـ منافع الفتح نامه العثمانية

غ . ل . لويس
محاضر رئيس في الدراسات الاسلامية في جامعة اكسفورد

عرفت «الفتحنامه» بأنها رواية حول نصر ما ، في حين كانت «الغزانامه» رواية عن عمل مفرد و«الغزواتنامه» رواية حول سلسلة من الأعمال . وعرف وصف معركة ظافرة «بالظفرنامه» وكانت الاصطلاحات مشوشة على أي حال ، حيث كان اصطلاح «غزواتنامه» يطبق على ما يعبر عنه بالضبط «بالفتحنامه» أو «ظفرنامه» في حين أصبحت أوصاف المعارك تعرف بالظفرنامه[1] .

وكمصادر للتفاصيل العسكرية للانتصارات التي تصفها تعد كتب «الفتحنامه» للإمبراطورية العثمانية غير أهل للإعتماد عليها شأنها شأن ، البيانات الدعائية المعدة للتوزيع على الصحف لأية دولة محاربة قديمة أو حديثة ، وهناك على سبيل المثال ، عينة فتحنامه حول معركة جالدريان في كتاب لطائف الإنشاء[2] الذي يروي كيف أن السلطان سليم هزم جماعة المتهتكين الذين يدعون الصوفية ، مع أنه ما من شيء صفي حولهم سوى الصوف ، ولم تعط أية تفاصيل عن المعركة ، وأخبرنا ببساطة أنه في النهاية «نزل الملائكة المقربون الجالسون حول العرش وجاؤوا يداً بيد عبر طريق المجرة . . . عندها أصبح العدو حائراً . . . وتبعثر كالجراد فوق الأراضي والأقاليم» ولا تفتقر الفتحنامه الأصيلة ، إلى ذكر الحقائق كهذه ، لكنها بالغالب ليست أغنى بالمعلومات بكثير ، وكانت الحادثة الجديرة بالذكر في فتح محمد الثالث لحصن أورلو في تشرين أول ١٥٩٦ مذبحة الحامية بكاملها بعد أن استسلمت على وعد بالإبقاء على حياتها ، ويمكن أن نجد

أصداء التسويغ الساحر لها في أغنية شعبية كانت دارجة بين قوات ـ الجبهة العثمانية يمكن بحرية ترجمة كلماتها كما يلي :

معكم يا ديدان أرلو

لن نصل إلى تفاهم[٣]

لهذا كان يجب أن يكون لدى الحامية إدراك أكبر من توقع الوفاء بالوعد ، وفي الفتحنامه على أي حال ، لا ذكر للاستسلام ، أو المذبحة أو تسويغها[٤] ويبني المرء بالطبع ، على أسس مهتزة عندما يستخدم «منشآت فريدون» ، كمصدر للمادة ، فإلى جانب أخطائه الفاضحة أحياناً وإهماله ، من المعروف أنه كان قادراً على التزييف المقصود ، عندما كان يريد أن يملأ فراغاً في مصنفه[٥] ، ويذكر نعيمه[٦] أن نيشانجي لام علي جلبي قد صرف من الخدمة بسبب مبالغته في خدمات جغاله زاده سنان باشا ، في فتحنامات أيغر والطابور ، ولم يذكر نص فريدون حول فتحنامه ايغر فرداً بالاسم (مع أن وجود اسمه بالطبع قد يمثل نشرة ثانية منقحة) وهو لا يعطي الطابور فتحنامه بالمرة .

ومع ذلك وعلى الرغم من معايب فريدون ، يمكننا أن نعطيه فضل معرفة لماذا كانت الفتحنامه تؤلف ، وفيما وصفه كفتحنامه من أيام السلطان أورخان إلى جانك خان بمناسبة الفتح العثماني لنيقيه عبر عن الأمل بأن تنتشر الأخبار في الخارج حتى يبتهج أصدقاء الدولة ، ويرتبك أعداء الإيمان ودين النبي[٧] .

لقد كانت الوظيفة الرئيسة للفتحنامه هي الدعاية ، والفحص الوجيز لبعض فتحنامات معركة جالدريان يصور هذا[٨] . فقد كتب سليم لابنه وخليفته سليمان ما يلي :

«وبعدما انشق المفسد والزنديق والمرتد المعروف باسم ابن أردبيل ، وأكثر من الخلاف ، واستبطن الفساد وظاهر بالفكر والردة ، وزاد من ابتلاء عباد الله ، وطغيانه ، وبات العيث في الأرض فساداً زينته ، فإني أستعد للاتجاه نحو المشرق لملاقاته فقط من أجل مساعدة المكروبين وإسعاف ، وإحياء شعائر العقيدة ، واستعادة سلطة الشريعة الغراء . . . لقد استشرت المشايخ والعلماء الذين أعلنوا أنه كافر ، وأعطوا فتوى بقتله ، وبالتالي أصبح هدفي الأسمى محو اللطخة الدنسة لوجوده من صفحة الزمن ، بحد السكين والنصل المشحوذ» ثم أخبرنا كيف أن

السلطان كتب للشاه ، يدعوه إلى تقويم سبله ، وأن يصبح مسلماً ، ولكن لم يكن هناك جواب ، ثم جاء الجيش إلى تبريز ، ثم إلى سهل يسمى جالدريان ، وهناك قدّر الشاه أن رجاله لم يعد لديهم قدرة على مقاومة العثمانيين «فألبسهم الدروع من الرأس إلى القدم» ، ولم يعط سوى القليل من التفصيل عن الاشتباك ، ونخبر أن الصراع قد طال ، وأن كثيراً من القادة سقطوا على كلا الجانبين ، وفي النهاية عمد العدو إلى الهرب ، «وقد تأكد أنه هو نفسه قد جرح ، ونحن الآن نتجه نحو تبريز ، وبمشيئة الله سنحرز نصراً تاماً» .

ولا يختلف «فتحنامه خان القرم» كثيراً عنه ، ولم يرد في أي منهما ذكر لافتقار الفرس للأسلحة النارية أو الاستخدام البارع للتكتيك الذي استفاد منه سليم ، والاستنتاج هو أن العثمانيين أرادوا أن يكون انتصارهم معزوا إلى بسالتهم الفائقة ، وعدالة قضيتهم ، وأنهم لذلك حولوا الانتباه عن شعورهم بالخجل وذنبهم باستخدام سلاح جديد ضد الفرس بتسليط الأضواء على الاستخدام المخجل للفرس بارتداء كل منهم درعاً كاملة .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر لا نجد في الفتحنامات لبكوات الأراضي الشرقية ، وأمراء الكرد وشيوخ القبائل ، وللبارزين في تبريز ، خبر استخدام الفرس للدروع ، افتراضاً أن هؤلاء الناس ، خلافاً لسكان استانبول والقرم كانوا يعرفون جيداً أن ميزة الدرع الفارسي كانت أدنى من أن تعادل قوة المدفع العثماني .

ولم يكن محتوى هاتين الرسالتين الفتحناميتين الأخيرتين دعائياً فقط ، بل كان إعلاناً للخطوة التالية التي توجب أخذها ، فقد أعطي البكوات والأمراء والشيوخ التسويغ بشكل روتيني مع وصف للمعركة ، وبعدها جاءت التعليمات الصادرة إليهم :

«لقد قابلني اسماعيل الكافر ، مقترف الفساد ، وبفضل الله هزم في طرفة عين هزيمة منكرة ، وحيث أنه لا يُعرف أين ذهب ، ومن أجل أن لا تفقد هذه الفرصة في إظهار إخلاصك وخضوعك لعرشي ، أرسلت هذا الأمر الذي يجب إطاعته : عند وصوله انسخه على قطع عديدة من الورق وعممه ، وأعلمني عن مكان صاحب الرأس الأحمر هذا وما هي حالته الصحية» .

وكانت رسالة فتحنامه المرسلة إلى أعيان تبريز مصقولة جداً : «هزم زعيم الملاعين وقائد عصابات الشياطين ، شر هزيمة ، إننا في طريقنا إلى تبريز وإذا لم يلتزم أي فرد بالسلوك الحسن فدمه سيكون على رأسه» . وتحدث سليم برسالته إلى الشاه رستم حاكم لورستان ببراعة أكثر من الإقناع : «إن هدفي من إزالة الهرطقة ، واقتلاع صانع الفساد هذا ليس إلا تمجيد كلمة الله ، وإعادة النظام إلى أمور الناس في الدين والدولة» . وقد أمكن ملاحظة انحراف ظاهر عن الهدف المعتاد للفتحنامات بالوثيقة التي وصفها فريدون على أنها فتحنامه أرسلت إلى سندق خان (حاكم المنطقة المحيطة بأرضروم) وكان من قبل نصيراً للصفويين ، والتي لا يخفى فيها عدم استقرار الوضع العثماني ، ومن الواضح على أي حال من الصياغة أنها لم تكن فتحنامه[٩] :

«وعندما وردت الأنباء الطيبة عن النصر ، وهرب اسماعيل ، وبغيه إفراح ، وإبهاج ، وإسعاد الذين . . . يمسكون بنظام الدولة العثمانية ألحقت ملاحظة تقول إن الجيش سيقضي الشتاء في تلك الأجزاء ، والأمر بجمع المؤن . . . وأعقب هذا حكم شريف للغاية نفسها ، ولكن بما أن المنطقة المحيطة بتبريز ، حيث كان يعسكر الجيش في حينه ، كانت كلها غير مأمونة ، بسبب شرور وعصيان ذلك الطاغية الشرس ، كان من الصعب تقديم الطعام ، والمأوى لمثل هذا الجيش الكبير ، بدا مستحيلاً تمضية الشتاء هناك ، وكان الانسحاب ضرورياً ، وسيكون من الممكن التعامل معه في السنة التالية ، ولن نستسلم لضعفه وهزيمته . . . ونظراً لإخلاصكم الموروث والمكتسب للباب ستتخذون الترتيبات من أجل المواد الغذائية التي تكفي الجيش كله ، وأن يتم إحضارها إلى جوبان كوبرسو ، وأرضروم مع أصحابها حتى يمكنهم بيعها» .

ويعطي فريدون نص ثلاثة فتحنامات حول الاستيلاء على حصن كماخ وهزيمة علاء الدولة «ذو القدر» في معركة طرنداغ (أيار - حزيران ١٥١٥) ، وقد وجهت إلى الأمير سليمان ومنجلي جبري ، والغوري ، ولا تختلف الأخرى والثانية منهما عن بعضهما ماديا ، سوى أنه أكد في الثانية على قوة الحصن ، ولم يكن سليمان في حاجة إلى التأثير عليه بقدر حاجة خان التتر : «إن إرتفاع الحصن كان يصعب تصوره وعمق الخندق لا يدرك ، ومع ذلك فإن جيشي لم يبال . . .» ، وهناك لمسة

من الدعاية غير الواعية فيما يمكن أن نسميه بشكل غير دقيق وصفاً لبراعة الرمي لدى الانكشارية : «لقد أفرغوا بنادقهم كلها معاً ، وأرسلوا بطلقاتهم تطير بعيداً إلى ما وراء كوكب الجوزاء» ، ويروى أن ثالثة هذه الرسائل تركت الغوري عاجزاً عن النطق ، ولا شك أن هذا الأثر يعود جزئياً إلى أن الرسالة كانت مصحوبة برأس علاء الدولة ، الذي كان مثل الغوري على تفاهم مع الصفويين وتبدأ :

«بحمد الله الماحق لمن يسفك دم البشر ظلماً وطغياناً ، والصلاة على النبي الذي دعا البحر إلى الصراط المستقيم ، حيث كانوا من قبل يتعثرون في مهاوي الجهالة وعلى حافة الخطيئة ، ويساعدون الرافضة والمتمردين العاقين» ، وخوطب الغوري بعد هذا التشبيه التاريخي الخاطىء ، لكن المؤثر ، خوطب بأكثر التعابير أدباً :

«عون الغزاة والموحدين ، ومساعد أمير المؤمنين ، من تقصر عقول الأذكياء عن محاسنه ، وتعجز ألسنة الفصحاء عن تعداد فضائله ، الذي يزين بسلطانه وجلاله عرش القاهرة ، ويمسك بصفوف حشوده بنيان السلطنة» .

ثم جاء المتن حيث شدد فيه التهديد والوعيد ببساطة لغته : «بين انتصارات شهرين من السنة الحالية . . . كان أن ذهبنا في مطلع الربيع مع جيشنا المنتصر أولاً إلى حصن (كماخ) يوم الخميس الخامس من شهر ربيع الأول ، وبعد الظهر هبت بشائر النصر ، ورياح الفتح ، ثم عزمنا على المضي ضد أرض «ذو القدر» ، وفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر نفسه خرج وزيري الأكبر «سنان باشا» للقاء العدو . . . وفي يوم الأربعاء أول جمادى الأولى ، جاء رسول منه يعلن أن العدو قد هزم وأحضر معه رأس علاء الدولة ، مع رؤوس أبنائه وقادته ، وهم قرابة الخمسين ـ مثل رؤوس الشياطين ـ وقد أرسلنا بدافع السرور المطلق والبهجة الطيبة رأس ذلك الأمير المنبوذ من الله إلى بلاط القاهرة . . . فقد يكون هذا مبعث سعادة لكم أيضاً» .

ثم تبع ذلك طلب إعلان الأنباء الطيبة «في أراضي ومدن الموحدين» ، «في السنة التالية قررنا أن نخضع الأراضي الشرقية وأن نستأصل مثل هؤلاء الرافضين ذوي الرؤوس الحمراء ، فمن نجا من السيف . . . وآمل أن لا تبالي باستغاثتهم . . . وأن تعيد رسولنا سالماً» .

وبعد عام ، توقف الغوري عن أن يكون «مساعداً لأمير المؤمنين» ففي فتحنامه مرج دابق كان هو الذي قدر له الهلاك ، والمنبوذ من الله ، لقد كان جيش المسلمين منصوراً وهزمت حشود الشراكسة ـ مثل صحيح على توافق الأمة مع الدولة .

لقد كان الهدف من هذه المقالة الموجزة الإيحاء بأن الخط المثمر من التقصي بالبحث في الفتحنامات عن روايات دقيقة جداً للأحداث تؤخذ كمفاتيح للتعرف إلى شخصية السلطنة العثمانية (باستعمال تعبير جنغ Jung : للصورة التي نصنعها عن أنفسنا في خيالنا لأهداف السلوك) وإلى صورة تبين كيف أرادت هذه السلطنة أن تؤخذ بعين الاعتبار من قبل أصدقائها وأعدائها ، قد لا يكون ممكناً .

هوامش البحث

١ ـ أ . س لاوند «غزوات ناملر» (أنقرة ت . ت .ك ١٩٥٦) ص١ .

٢ ـ مخطوطة البودليان ـ سيل ١ ـ تاريخها ١٠٦٢/١٦٥٢ .

٣ ـ Yakdursizunle Vivemus

Egvili Yidi Eqrili

٤ ـ فريدون بك «مجموعة منشآت السلاطين» (استانبول ١٢٦٥) ٢/٢ ـ ٣ .

٥ ـ انظر سلسلة مقالات مكرمين خليل في Toem (الأرقام ٧٧ ، ٧٩ ، ٨١) التي تبين زيف الوثائق التي توهم بأنها تعود إلى حكام عثمان الأول وأورخان ومراد الأول .

٦ ـ تاريخ (استانبول ١٢٨٣) .

٧ ـ منشآت : ٦٧/١ .

٨ ـ المصدر نفسه ص ٣٨٦ ـ ٣٩٦ .

٩ ـ المصدر نفسه ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ .

١٠ ـ المصدر نفسه ص ٤٠٩ ـ ٤١٣ .

١٨ـ أعمال التأريخ للعلاقات العثمانية الصفوية في القرنين السادس عشر والسابع عشر

ج . .ر . والش
محاضر في التركية في جامعة أدنبرة

التاريخ نتيجة بقدر ما هو سجل للأحداث ، وعليه يجب أن يتوقع أنه يتفاعل بصور مختلفة مع الظروف التي ينتج فيها ، طبقاً لطبيعة زمانه ، وهو في تميزه وافتراضاته وفي إهماله ليس أقل من محتوياته ، هو انعكاس للحالة البشرية المتقلبة ، وحتى عندما يكون أقل إخباراً يزودنا بمواد لا يمكن لأي بيان واضح أن يصرح بها بشكل مقنع ، مواد ربما تكون ثمينة لفهم الماضي بدرجة التواريخ والأفعال نفسها ، ومن هذا يتبع أنه لا يمكن لأية قطعة واحدة من الكتابة التاريخية أن تقدر تماماً إلا من خلال علاقتها بتقاليدها الأدبية وطبيعة ودرجة التمايز التي تترسخ بها فرديتها ، وتظهر خاصيتها ، لأن أي تقويم للتأريخ في النهاية يجب أن نعتبره صورة أدبية ، مقدراً أن تمييزه بين فروع الأدب غير منطقية ، وبها ربما يمكن قياس تطوره ، علاوة على ذلك يمكن عادة ملاحظتها من زوايا عديدة من خلال الكتابات التاريخية للشعوب الأخرى ، وبناء على ذلك كل عمل من هذا القبيل ، حتى لو كان غير تام وغير دقيق ، ربما بالتفاصيل هو نفسه ، حقيقة تاريخية ذات أهمية فريدة ، تفهم بشكل أفضل عندما تدرس مع أترابها في علاقاتهم المتنامة المتفاهمة خلال كامل الأوضاع ، بدلاً من أن تواجه بهم بخصوصياتها .

ومهما كانت درجة قبول هذا الرأي كمبدأ عام ينطبق على جميع أنواع الكتابات التاريخية : فإن له ارتباطاً لا ينكر بالكتابات التاريخية الفارسية والعثمانية

التي كثير منها له طبيعة التكرار والتقليد بشكل كلي تقريباً ، فالمجتمع الذي لا يرسم صوراً ، أو ينحت تماثيل لا يخترع قصصاً ، وهكذا إن القصص الشعبية ، والقصص الشعرية الإسلامية كلها إما من قبل الإسلام ، أو استعيرت من شعوب أخرى ، ومثل اللوحات والتماثيل المنهوبة والتي طمست ملامحها البشرية ، وجدت الحاجة البشرية للتحريف التي يتم إشباعها في مجتمعات أخرى بوساطة القدرة على خلق الأساطير ، وجدت استجابة لها في الإسلام في التاريخ ، الذي تطور - من العادي إلى المقدس ومن العلوم الجدية للحديث والتفسير - بين الفرس ثم بين الترك إلى نوع أدبي مميز ، وفي الواقع أصبح الوساطة الوحيدة المبجلة للكتابة الخلاقة بالنثر[1] ، ومثل أي وسط أدبي أصبح بناءً على ذلك موضوعاً لأعراف وتقاليد متصلبة فرضها مزاج المستمعين أكثر مما اقتضته مطالب مواده[*] ، وصدرت أناقة ادريس البدليسي المتطرفة في كتاب هشت بهشت الذي كتب بالفارسية ، وفق - كما أخبرنا - نمط من كتب التاريخ منها كتاب جهانكشاري للجويني[2] ، عن الفكرة الشرقية للفخامة غير المجدية كشرط لازم للعظمة ، في حين نجد من الطرف الآخر الأقصى أن «جهان نامه» لنشري القصة المجردة التي رويت على مستوى الفهم العام ، ولكن التعارض أدبي كلي ، ففي المفهوم ، والموقف والمادة هناك القليل مما يميز بين الاثنين ، وبالقدر نفسه بالضبط كما أن الشعر التركي الشعبي أدب ديواني مبسط فقط[3] ، وهكذا أيضاً التواريخ ذات الطبيعة الشعبية المنتشر، مثل «التواريخ مجهولة المؤلف» ، و«عروج» و«عاشق

★ - من الواضح أن المقصد من هذه المقدمة كان النيل بنظرة عنصرية بغيضة من الحضارة الإسلامية ، حيث من المقرر أن علم التاريخ لدى المسلمين نشأ نشأة مستقلة إلى أبعد الحدود ، وتطور داخل دار الإسلام من قبل علماء المسلمين الذي تخلوا عن جاهلية آبائهم ، واتخذوا العربية لغة لهم فكتبوا بها ودونوا كمسلمين ، وثورة الإسلام والأجواء الحضارية الجديدة هي التي أوجدت العلماء ، وجاءت بهم من أوساط لم تعرف العلم من قبل ، فالطبري إمام المؤرخين وشيخهم جاء من طبرستان حيث لم يكن للتاريخ قبل الإسلام من يهتم به أو يدونه ، وللعربية من سمع بها ، وأصبح الطبري إماماً كبيراً نتيجة لما حصله من معارف إسلامية عربية في بلده والعراق والشام ومصر ، فالعلم بالتعلم ، وبالأجواء الحضارية لا بالغريزة والعرق والنسب .

باشازاده» و «روحي» فكلهم تقليد لافرازات البلاط[4] ، وقد يرى فيهم جميعاً الانشغال نفسه بالأحداث في حد ذاتها ، وقد أعطت هذه الأحداث بشكل لا يختلف دافعاً فردياً بشرياً ، والتناقض الظاهري هنا هو أن الأفراد نادراً ما صوروا على أنهم شخصيات ، بل بالأحرى ظلوا غامضين وغير واضحين خلف صيغة المديح أو اللوم المبتذلة ، وهو تناقض أكثر ما يكون إثارة للدهشة في أدب التراجم حيث يسود الانطباع بأن الانسان يعد حصيلة خبراته ووظائفه ، ولا يحتاج المرء لأن يبين الأصول الإسلامية الأساسية لتلك الخصائص ويجب فقط أن يلاحظ أن طبيعة الرتابة للمجتمع الإسلامي لم تسمح بتطورها حتى بين الشعوب التي من عروق مختلفة وفي ظروف مختلفة ، وتجد شخصية المؤرخ نفسها ، بعملها المقيد بمثل هذه التقاليد والأعراف ، والمقيدة بفهم رعاتها وتوقعاتها ، وسط متاهة من التناقضات لا يمكن كشفها ، وهذه هي إحدى صلاتنا البشرية الرئيسة مع مشاكل تلك الفترة ومتاعبها[5] .

ويمكن نقص مثل هذه البيانات البشرية من زيادة القبضة الخيالية التي حشدت كثيراً من الكتابات التاريخية حول الشرق الإسلامي : فالأحداث في المصادر تحتوي ذاتها بشكل لا متغير ، ويندر أن تهرب من الإطار القصصي الذي جعلته الاعتبارات الأدبية انتقائياً ومصطنعاً إلى نقطة التجريد ، وجاءت الأمور ذات الأهمية الاجتماعية والاقتصادية ، أو ما تعلق بالمؤسسات حيثما وجدت إطلاقاً ، عرضية ومتقطعة حتى أن الاستدلال من ذلك يجب أن يكون محدوداً بالتحفظات من أنواع تجعلها عديمة القيمة ، والتفسير محصور في استخلاص حقيقة أخلاقية أو تأكيد حقيقة موحى بها ، وعلى أي حال باعتبار هؤلاء المؤرخين شخصيات أدبية ـ وهذا في الواقع ما قصدوه[6] ـ يمكن الإحساس بشيء من مزاج زمانهم ، ومن أجل جمع الفروق النفسية بين ـ على سبيل المثال ـ المؤرخين المعاصرين مثل «كمال باشازاده» و «سعد الدين أفندي» و «علي خوجانيشانجي» و «قرا جلبي زاده» و «عبد العزيز أفندي» نجدها بدرجة متساوية مع حجم نقاط التشابه في موادهم ، وهي على أي حال ـ عندما تؤخذ في الحساب النهائي ـ توحي بشكل نهائي غير مثالي بحال البيئة الروحية التي عاشوا فيها وكتبوا ، علاوة على ذلك إنه فقط بمثل هذا التناقض في التطبيق الفعلي للتأريخ يمكننا أن نكون انطباعاً

عن المفاهيم التاريخية لكل عصر ، والوعي الذاتي ، والأقوال الدفاعية عادة عن أهداف التاريخ ومنافعه التي هي جزء لا ينفصل عن المقدمة في جميع هذه الكتب ، هي في القسم الأغلب دراسة للتفاهات ، تعوزها الحماسة ، ويندر أن تظهر أي دليل على فكر مستقل(٧) .

ولا يمكن معالجة مثل هذه الأعمال التاريخية افرادياً ، لأن ردود فعلنا بالنسبة لها تتكيف بعلمنا بالتركيب الذي تشكل جزءاً منه ، وهذا يجب أن يؤثر أيضاً في حكمنا على مصداقيتها ، وكان التكرار الآلي المعيب الماثل في الأدب التاريخي الإسلامي كله ، إن لفظاً أو بعد إعادة السبك للكتابات الأقدم ، متوطناً بين المؤرخين العثمانيين لتلك الفترة(٨) . في حين أن الكتاب الصادقين مثل «علي وبجوي» ممن أمكنهم أن يستخدموا مصادرهم مع التمييز مضيفين تماماً المقدار نفسه من التفسير أو التعليق لما كانوا يأخذونه في الواقع ، قد عدّهم كاتب جلبي في فذلكته ـ التي يمكن اتخاذها مثلاً كبيراً ـ ليسوا أكثر من مرد نساخ عاديين ، وشاعت مفاهيم الفذلكة هذه وممارساتها إلى درجة أنها أصبحت في النهاية تعدّ طبيعية ، وكان بإمكان «نعيمة» أن يمتدح بالفعل الفذلكة مع أنه لابد أنه عرف ، بصرف النظر عن بعض الذكريات الشخصية ، أن أغلبها نسخ أو أختصار من شارح «المنارزاده» وعطائي (نعيمة : ١/٦) ولكن باستبعاد أولئك المنتجين ما يزال هناك كتلة كبيرة من المادة الموثوقة ذات الخاصية الوافية والتماسك الأدبي ، مما يجيز اعتبارها ممثلةللمزاج التاريخي ، وما دام المنهج بإمكانه ، في الغالب ، أن يميز ، والحقائق بالإمكان دوماً استخلاصها ، إنها بالدرجة التي تعبر فيها عن مشاعر الأحداث ما تزال تمتلك قيمتها الرئيسة كممثل للماضي ، إن الافتراض ، بناء عليه ، هو أنه على الرغم من العوامل الكثيرة التي تميل إلى امتصاص التواريخ العثمانية والفارسية الموثوقة للقرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتحويلها إلى نمط تقليدي ، يظهر كل منها استجابة فردية مميزة للشؤون والأنشطة لزمانها ، وبالنسبة للاعتباطية التي قد يبدو أنها توحي بها ، إنه يجب إعطاء النغمة ، إلى جانب محتوى بحوثها ، اهتماماً في تشكيل حكمنا التاريخي ، وتبدو مثل هذه المعالجة للمصادر مفيدة بشكل خاص في دراسة مسار العلاقات العثمانية الصفوية في هذين القرنين ، لأن هذه القضية التي كانت خلف كل ما دون في حينه عن الثورات والقمع

والحملات والسفارات ليست أقل من الهيمنة الروحية والسياسية للعالم الإسلامي ، وهو موضوع أخذ في نهاية القرن السادس عشر طابع الإلحاح الناجم عن المعرفة المتزايدة التي بلغها الإسلام وحدود توسعه ، وأن أمنه وبقاءه كان يعتمد بدرجة كبيرة على وحدة المشاعر المعنوية التي يمكن إبداؤها تجاه أوربا المسيحية ، ولا يمكن في أي مكان على وجه الاحتمال أن يوجد بيان واضح لهذه الغايات ، ولا شك أنها لم تكن في أي وقت مصاغة بوعي كسياسة(٩) ، وإنه فقط من خلال التمثل المتحول للتواريخ يظهر الميل التاريخي لحقيقة بشرية واضحة ، وهذا لسوء الحظ هو بالذات مظهر الأعمال التي تتحدى الوصف الموضوعي ، لا بل تمتنع حتى على الترجمة ، إنه ، في الواقع ، الاستجابة الذاتية الكاملة للمصادر التي تلون مناظر وأشكال نظرية التاريخ لكل من يستعمل مثل هذه المواد في دراسته للماضي .

ومثل جميع الفترات التاريخية ، إن المصادر المتعلقة بالصراع العثماني الصفوي مصطنعة للغاية ، وصالحة فقط في أنها تسمح لنا بعزل مرحلة واحدة لمشكلة يجب أن تلتمس أصولها قبل فترة طويلة من قيام الشاه إسماعيل في الشرق ، وفي الحقيقة حتى قبل تأسيس الدولة العثمانية ، فمع فتح القسطنطينية في (١٤٥٣) بدأ العثمانيون أولاً باعتبار وجودهم في أوربا على أنه شيء ليس أكثر من تطفل طويل الأمد ، لأن الفتح في كل التجربة الشرقية كان دائماً يتطلب الاستحواذ على جميع الرموز المرئية للحكم ، وتدمير الرأس المعترف به ، وحتى اليوم كانوا قوة آسيوية لها مخافر أمامية في أراضٍ معادية ، ولا شيء أكثر تعبيراً عن هذا الشعور من أن المتوفى من سلاطين بني عثمان كان يؤخذ ـ دائماً تقريباً ـ إلى بورصة(١٠) ليدفن فيها ، ولكنهم الآن كانوا الخلفاء ـ وكانوا بحق الفتح الخلفاء الشرعيين ـ للامبراطور يتصدون لمشكلات الامبراطورية ، ويباشرون مسؤولياتها ، إضافة إلى الحقوق والامتيازات وممارساتها ، ومع أنها كانت دولة إسلامية ، فإن جبهات الكنيسة الأرثوذكسية جعلت الحدود الطبيعية لها ، وللعجز عن الامتداد على المستوى الديني ، فإن كل الفتوحات خارج هذه الخطوط كما في هنغاريا ، وولشيا ، ومولدافيا ، لم يمكن امتصاصها ، بل توجب إعطاؤها منزلة التابع غير المحددة ، ولكن كان هناك أيضاً قوة أخرى تحد من توسعها في أوربا ، هي فكرة

أوروبا نفسها ، التي جعل منها مضامين سقوط القسطنطينية ، والحضور المتعارض لعقيدة غريبة لا تعرف الاستسلام ، التعبير الجغرافي للمسيحية اللاتينية ، الذي سرعان ما وجد تعبيراً سياسياً في طموحات هابسبرغ ، وكانت الاستجابة العثمانية لهذا الحاجز المعنوي في تقوية أساساتها الروحية باستيراد الحضارة التقليدية للإسلام وثقافته ودعمها ، وبإظهار التقوى الزائدة والواضحة للمساجد والمدارس والمستشفيات ، وبإعادة تأكيد وحدتها مع دار العقيدة وموطنها الآسيوي .

وعلى أي حال ، ومع تدهور تجارة البحر المتوسط نتيجة للملاحة البرتغالية حول رأس الرجاء الصالح ، وفيما بعد النمو السريع لتجارة الأطلسي أصبحت أراضي الشرق الأوسط الإسلامي بشكل تصاعدي منحرفة عن المسار المركزي بالنسبة للتطورات الاقتصادي العالمية ، واختزلت إلى منطقة مستهلكة بشكل كامل تقريباً ، وغدت منذ ذلك الوقت فصاعداً محطة تسويق أخيرة ليس أكثر في نظام البحر المتوسط ، وكانت من الناحية الإنتاجية تتراجع أكثر فأكثر إلى اقتصاديات محلية منحطة وضيقة ، وكانت المناطق الاستراتيجية الداخلية في الأناضول تحس بشكل خاص بهذه التغيرات ، وكانت أيضاً تعاني من نتائج الركود في تجارة البحر الأسود بسبب التخلي عن طرق القوافل الآسيوية المركزية والإقليمية التي شجع عليها تغير الملامح الجغرافية للأرض خلال جميع فترات تاريخها كلها ، والتي أظهرت الآن نفسها في ثورة متقطعة وغير متماسكة ، ومن الخطأ عدّ أعمال العصيان المحلي المختلفة من نتائج إثارة من قبل الدعاة الصفويين لها ، أما وقد صوروا هكذا من قبل العثمانيين فهذا أمر نجم عن القلق من إعطاء تدابيرهم القمعية ضد المسلمين فظهر النشاط المضاد للهرطقة ، وكان التحول الصفوي إلى معتقد جديد في المنطقة ، في أفضل الأحوال ، مختلاً وشاذاً ، وقد بوشر بمبادرة من المشايخ المحليين الذين نادراً ما كانت أفكارهم الدينية قابلة للتجديد ، وفي الواقع يجب أن يدرك أن دور الدين ، ومراتب الصوفية في هذه الاضطرابات قد أعطي اهتماماً لا يتناسب مع حقائق الوضع[١١] .

ويجب أيضاً أن نذكر أن بكوات الأتراك ورؤساء القبائل في الأناضول لم يكونوا في الظروف نفسها من عدم الاستقلال مثل أولئك في البلقان الذين كان بقاؤهم بالذات في وجه خصومة قوية راجعاً فقط إلى الدعم الفعلي أو المحتمل

للعثمانيين ، مع أن وضعهم المعرض والقابل للضرر قد أجبرهم على تعاون غير طبيعي تماماً بالنسبة لتقاليدهم وميولهم ، لقد كانوا ما يزالون مجرد مجموعات صغيرة منعزلة في أراضي معادية ، ولم يكن هناك من شيء سوى التهديد بالثأر العثماني الذي أمكن أن يمنع المسيحين من تدميرهم شيئاً فشيئاً ، وفي الأناضول من جانب آخر لم يكن هناك مثل هذا الخوف ، وهنا إن العناصر القبلية التركية أمكنها أن تحتفظ باستقلالها الطبيعي عن بعضها بعضاً وعن السلطة المركزية ، مع أن الإمارات الهزيلة كانت تمتص بالتدريج ، هذه الاستقلالية الغريزية التي مزقت من قبل دولة سلاجقة الروم وحولتها إلى بكويات غير فعالة ، كانت أيضاً متأصلة في تلك الشعوب الرعوية لتجعلها دائماً قابلة للاستجابة بسهولة إلى أي قسر أو جدل ، خاصة عندما رسى الى الشرق الملاذ المضمون والمفر .

وكان التشيع الصفوي سياسياً في طبيعته ، ومثّل آخر وانجح مطلب للسلطة من قبل المناطق القزوينية التي كانت دائماً تقاوم السلطة المركزية للاسلام[١٢] ، بتبني الشاه اسماعيل للتشيع وبتزويده بسلسلة النسب العلوي ، عملوا على كسب المناطق الأذربيجانية الى جانبهم ، حيث كانت هيبة العائلة بين العناصر التركية ستضمن لهم مزيداً من الدعم العسكري الإضافي في محاولتهم للحصول على السلطة ، هذا ومن المحتمل أن أي ميول شيعية وكما اظهرها من قبل دراويش أدربيل لم تكن أكثر من مجرد توافق صوفي ، وقد تصرف القزلباشي الأتراك البعيدين عن ان يكونوا متعصبين مخلصين تصرفوا دائماً بلا مبالاة دينية تامة حيث لم يسمح لكيانهم القبلي أن يختفي في كيان الدولة .

وظلت مصالح القبيلة هي فقط المثل الأعلى الذي كانوا يشاهدونه دائماً وهم يحترمونه ، ويندرج هذا أيضاً على القبائل التي شاركت في العصيان الأناضولي[١٣] الذي عندما هزم أمكنه فقط ان يتحول باتجاه الشرق حيث رُحب به ، واستوعب في الجيوش الصفوية ، وبعد ما نجح الصفويون في مغامرتهم ورثوا المسؤولية العسكرية الإيرانية التقليدية في المحافظة على جبهة نهر جيحون ضد الضغط المتفجر بعنف لقبائل ماوراء النهر ، وتطلبت هذه السياسة منهم رعاية السلام مع العثمانيين ، وهو ما نشدوه دوماً بثبات وإصرار[١٤] وكان العثمانيون دوماً هم المعتدين ، وفقط كان الإحساس بعدم الأمن في أوروبا ، والخوف من الانفصال

عن النسيج الإسلامي ، هو الذي ربما قد يكرههم على الاستمرار في هذه الحملات غير المفيدة وغير الحاسمة في المناطق المتعذر احتلالها في أذربيجان وعلى طول الفرات[١٥] ، وكانت الحرب في السلطنة العثمانية مشروع الدولة ، وسلعة التصدير الرئيسية ، وكان ريعها يعوض الميزان التجاري المفجع ، ويضمن الاستقرار الاقتصادي ، وكانت الحرب في أوروبا فقط التي يمكنها أن تؤمن مثل هذه العائدات ، لقد كان هذا الانشغال العثماني مع الجبهة الأوروبية هو الذي أدى بالأقاليم الآسيوية إلى اعتبارهم قوة أجنبية واللجوء إلى الشرق التماساً للحماية من الاستغلال المنظم الذي خضعوا له لصالح استانبول ، وان كثيراً من هذه الثورات كانت بزعامة الدراويش ، ويمكن أن يعزى هذا إلى الإيمان بالغيبيات الذي سمح لهم بالحقوق والامتيازات ، وبمنعة لا ينالها الآخرون ، وذلك بالإضافة إلى الثقة التي تمتعوا بها بين جميع قطاعات الناس ، ولكن في معظم الحالات ينبغي ألا ينظر إليهم على أنهم أكثر من واجهات عبرت عن صور السخط العميق الاستقرار بين العناصر الحضرية والقبلية ايضاً .

وفي القرن السادس عشر شهدت أوروبا الغربية ، وبشكل بارز اسبانيا وفرنسا وانكلترا تطور الدولة الوطنية التي تم تصورها باصطلاحات وحدة العقيدة وكان هذا يتوازى بشكل مدهش مع التطورات في الشرق الإسلامي ، وكان التشيع كما كانت الزرادشتية من قبل المبدأ الذي أمكن للشعوب الإيرانية أن تقيم عليه وحدتها الوطنية ضمن حدودها التقليدية ، مستبعدة حتى الشعوب غير الإيرانية التي كانت من قبل موجودة في ذلك المكان ، وانه لهذا السبب لم يجر إستيعاب قبائل القزلباشي حتى عندما كانت تحاول ان تتكيف وتطيع ، وكان وجودها الغريب مثيراً دائماً للازعاج بالنسبة للاستقرار الداخلي للدولة حتى حكم الشاه عباس الأول عندما تم إبعادها نهائياً واعادتها إلى أوضاع الموائمة[١٦] . وأخفت المفارقة المألوفة لهذه الدولة الفارسية بحكمها من قبل أسرة من أصل تركي المدى الذي جعلت فيه هذه الأسرة الأداة لسياسة صيغت ووجهت من قبل آخرين ، وهذه السياسة نفسها اعتبرت فيها بعد سياسة لها ، وأن نرى أكثر من هذا فيها ، في مزج التطلعات الوطنية بالاهداف العسكرية ، ولم يكن للعثمانيين في الجانب المقابل مثل هذه القاعدة الوطنية ، أو أي سابقة أو ذكريات وحدةٍ ما ،

ولهذا كانوا مضطرين للعمل في إطار مفهوم دولة كبرى انتمت فقط للإسلام وبه تجددت هويتها ، وعليه لم يكن مجرد تفاخر عندما كان السلطان يصف في رسائله إلى الأمراء الأجانب امتداد سلطانه على أنه يضم عملياً سائر بقاع العالم الإسلامي ، ونظر إلى هذا الأمر ضمن نطاق الاحتمالات السياسية ، ورؤي في تكوبنه الوسيلة التي كان بإمكانها موازنة الحركة المتنامية لأوروبا المسيحية وكانت فارس الصفوية في هذه المنطقة العالمية حالة شاذة ومتنافرة بكل تأكيد .

وبناء عليه لا يمكن النظر إلى سلسلة الحروب غير المثمرة التي أعطتها التواريخ مختلف الأسباب التافهة التي لا تتناسب مع تكاليفها المادية والبشرية والمالية واعتبارها أكثر من نتيجة لعدم الشعور بالأمن الذي لازم السلطنة العثمانية .

- ٢ -

يحتمل أن أغلب التضارب بروزاً بين التواريخ الفارسية والعثمانية لتلك الفترة موجود في التعابير واللهجة التي استعملها كل طرف في حديثه عن الطرف الآخر ، وعلى العموم أظهر المؤرخون الفرس احتراماً مناسباً لجيرانهم الغربيين على أساس أنهم كانوا حصناً للإسلام ضد أوروبا الكافرة[١٧] ، وقد تقبلوا الحملات التي كانت تحدث أحياناً ضد أراضيهم كشيء طبيعي تماماً بين الدول العسكرية ذات الحدود غير واضحة المعالم ، وأياً كانت شراسة الاشتباكات لم تكن يائسة في وقت الهزيمة كما لم تكن صامتة متشفية في نصرها وفي الواقع لم يعد العثمانيون ، خلافا لأوزبك ما وراء النهر ، مطلقاً خطراً فعلياً ، فبعد ما نزل بالشاه اسماعيل في جالدريان بات من سياستهم عدم مجابهتهم في معركة ، بل الانتظار حتى نهاية فصل الحملات حيث كانوا يضطرون إلى العودة إلى أراضيهم وترك الأراضي المنتزعة لتسترد بلا ألم[١٨] .

ولكن سواء أكان العثمانيون أم الأوزبك أم المغول اصدقاء أو أعداء فإن علاقاتهم مع جيرانهم كانت دائماً ثانوية ولا قيمة لها بالنسبة للإنشغال الشديد بالنزاعات الداخلية التي كانت الدولة من خلالها تتطور ببطء وجهد[١٩] ، وقد تركز الانتباه دون تردد على البلاط وعلى الأحداث التي كان مركزاً لها ، وخلال كامل القرنين ، قيد الدراسة ، كان الشقاق والمؤامرات الموضوعات الرئيسة لكل

حكاياتهم ، وهو موقف شبيه بذلك الذي بدأ يلاحظ في التواريخ العثمانية بعد الربع الأول من القرن السابع عشر ، وأفرطت ، من الجانب الآخر ، التواريخ العثمانية كثيراً ، إلى حد الاسفاف ، في شتم الشاه والنيل منه ومن الموالين له وفق الطرائق والتعابير القديمة المهجورة ، وكان هذا يظهر دوما كلما سمحت الفرصة[20] وبعيداً تماماً عن الجدل الذي كان يلح عليه ، وفي سبيل دعم الاستمرار في تلك الحملات الباهظة التكاليف ، يظهر الانفعال والقدح أن الصراع كان يعدّ حرباً دينية ، وفي العادة قامت الاتهامات بالفسق والوحشية ضد أهل السنة ، وتدنيس المصاحف والمساجد والأشياء المقدسة الأخرى الكثيرة على تهمة الهرطقة دون أي محاولة للتثبت ، وفي غياب أي سبب مباشر ، كثيراً ما كانت تعرض على أنها بواعث موائمة لشن هجوم ضد الأراضي الصفوية .

ولا مفر من الانطباع أن أيا من الجانبين لم يكن لديه معلومات كثيرة جداً حول الجانب الأخر ، وبالطبع بالنسبة للأحداث المعاصرة ، كان لكل جانب أن يعتمد على روايات المسافرين والسفراء والتجار[21] وقد عرف كاتب جلبي في كشف الظنون (استانبول ١٩٤١ - ١٩٤٣) . صفوة الصفا (١٠٧٩/٢) فقط من خلال ذكره من قبل خواندمير في حبيب السير ، وقد انتقد هذا الكتاب لتخصيصه حيزاً كبيراً جداً للحديث عن الشاه اسماعيل (٦٢٩/١) ويبدو انه عرف من المصادر الفارسية التي عالجت أوائل التاريخ الصفوي : نسخ جيهان آراء لغفاري (٦٢٢/١) وشاهنامة لقاسمي (١٠٢٦/٢) ولب التواريخ لمير يحيى (١٥٤٧/٢) ولم يعرف العثمانيون عمليا شيئا عن الأنشطة الصفوية سوى ما كان على جبهاتهم الخاصة ، ولا يوجد في اي من التواريخ الفارسية أي ذكر للمصادر العثمانية المكتوبة ، مع أن سلسلة النسب الذي يعود إلى قراخان من خلال أوغز التي أعطاها حسن روملو عن السلطان سليم الثاني (نص ٤٥٩ ، ترجمة ١٩٩) لا بد أنها مستمدة من واحد من التواريخ العثمانية القديمة ، ومثل ذلك يبدو أن الرواية التي أعطاها اسكندر بك للإسباب التي كمنت خلف ثورة شاهزاده بايزيد في سنة ٩٦٦ ، وحربه مع شاهزاده سليم تعكس رواية عثمانية (ص ٧٦) وغالبا ما عزا اسكندر بك أخباره حول العثمانين إلى الشائعات أو الروايات الجارية ، ومن المحتمل كثيراً ان التجديف وانتهاك الحرمات الذي اتهم به العثمانيون الصفويين

استنتج من سلوك العناصر القبلية في الأناضول خلال ما عرف باسم ثورات الدراويش(٢٢) .

وكان صدور هذه المبالغات سمة معروفة من سمات تلك الفئات التي لم يبتعد مفهومها للإسلام حتى في هذا الوقت ، كثيراً عن شامانية أجدادهم ، وبشكل جوهري كانت هذه الثورات في طبيعة الهجرات إلى الأجواء الأكثر مواءمة في الأراضي الصفوية ، حيث توقعت القبائل ان تشغل دوراً فاعلاً في جيوش القزل باشي ، ونيل مكانة لم تعد ممكنة في الارستقراطية العسكرية للسلطنة العثمانية(٢٣) ، ويجب ألا يؤخذ ترحيب الصفويين بتأييد مثل هذه الفرق ، بل في بعض الأوقات بتشجيعها لهجرتها(٢٤) ، على أنها تعني أن دعايتهم الطائفية هي التي سببت عدم الرضا الذي كمن خلف الثورات ، ويمكن رؤية تطور ذلك في وقت يعود إلى غزو تيمور في نهاية القرن الرابع عشر وحتى في الواقع إلى وقت أبكر ، ونظراً لعجزهم عن إدراك نمط الحوادث لم يتمكن المؤرخون العثمانون من إيجاد صلة بين غزو تيمور ، وثورة سمونا قاضيسي ـ أوغلي ، وحروب الوراثة بين بايزيد الثاني والسلطان جم ، وفيما بعد الحروب بين سليم الأول والسلطان أحمد ، فكل حدث ، وعامله محدد ومقرر ، لكن بما أن وجود مشايخ الصفويين هو التفسير المناسب لأي اضطراب قبلي ، فان مذهبهم لا بد أن يبين بمثل هذه البشاعة من أجل تسويغ عدم الرأفة في قمعهم(٢٥) . وتعزى مذاهب الطائفة ، بلا اختلاف إلى الشاه إسماعيل بدلاً من عزوها إلى مشايخ أردبيل ، وتقول نصرتنامة لعلي أنه قد اختار بارادته بدعاً وممارسات من جميع الاحدى والسبعين فرقة المنشقة عن الاسلام لتكوين هذه العقيدة الجديدة ، ويشير أبو الفضل بن إدريس البدليسي في السليمنامة إلى القزلباشي على أنهم اسماعيلية «رافضي اسماعيلي» (٥١ ـ و) «منتسبان ومريدان اسماعيلية» (٦٤ ـ و) وأكثر من هذا جعل صاحب الرواية مجهولة المؤلف في حديثه عن حملة سليمان في ٩٥٥ المعنونة «بجامع الجواهر» جعل طهماسب ابنا للشيخ اسماعيل (١٣ ـ ظ) وتحدث عنه هكذا ، وفقط «عاشق باشازاده» هو الذي أعطى «الشيخ حيدر» بعض الذكر (ص ٢٦٧) ولكن هنا أيضاً إن ابنه هو الذي يقدم كقطب للتبجيل لدى الصوفية ، وفي الرواية المجهولة المؤلف قيل سجد لاجؤو ثورة شاه كل عند وصولهم إلى تبريز أمامه متعبدين ، ونادراً ما أشير إلى

ادعاء الصوفيين أنهم من سلالة «علي» وتصف إحدى الفتاوى في النصرتنامة كيف أنه عندما أجبر اسماعيل سادات مشهد على ضمه إلى بحر الأنساب أعطوه سلسلة نسب من سيد كان معروفا أن خطه قد انقرض ، ومع ذلك بدت خاتمة الفتوى وكأنها سمحت بصحة الادعاء ، لأنها حاولت أن تبين أنه حتى بالسماح بمثل هذا التحدر ، فإن سلوكهم يضعهم في الزمرة نفسها ككفار[٢٦] .

ولا شك أن الاحترام السالف الذي أبداه العثمانيون لصوفية أردبيل[٢٧] جعل من الضروري نسبة كل هذه الانحرافات والبدع إلى اسماعيل ، وكان هذا التبجيل هو كل ما بقي من الأيام القبلية الأولى للدولة ، حيث كان في تركيبه ومُثله تركياً تماماً ، وعندما كان الإسلام ، حسبما كان يبشر به الدراويش ، أعطى دفعاً معنوياً لمجتمع عناصره لم تمتلك تماسكا طبيعيا ، وإنما دفعت فقط للتعاون بفضل الغنائم الوفيرة التي كانت تنبىء بها الفتوحات الأوروبية ، وعندما تطور تدريجياً مفهوم السلطنة ، وبذل جهد لتولى المسؤوليات التي أوحى بها ذلك ، كان لا بد للارستقراطية القبلية المتغطرسة من أن تستبدل بواحد من رجالات السلطان ، اختير من بين شعوبه ورعاياه ،[٢٨] وعلاوة على ذلك تطلب التنظيم والترتيب الجيد لهذه السلطنة تبني الاسلام وهو في أكثر مظاهره الحضارية ، وهكذا إن الانقسام بين آل عثمان والأتراك القبليين أخذ شكل الصراع بين «المدرس» و «التقي» ، وكان لهذا الصراع وزنه الثقيل لصالح المدرس بفضل نفوذ العرش[٢٩] ، وكان المطمح هو الابقاء على هذا العنصر المحروم من الامتيازات داخل الأناضول ، ومن ثم جاء استقطاب هذه المنطقة نحو الشرق حيث كانت دولة الصفويين الصغيرة تنهض إلى القوة بدعم عسكري من هذه العناصر فقط ، وذكر اسماعيل في كتابه إلى بايزيد الثاني إخلاص الروم الخاص لأسرته (فريدون بك : ١/٣٤٥) وجاء في أخبار حملة سليم في ٩٢٠ ما يوحي أن الشاه اسماعيل دخل معركة جالدريان وهو يتوقع فرار أعداد كبيرة من قوات السلطان وانضمامها إلى جانبه (فريدون بك : ١/٤٦١) .

وبينما كان العثمانيون لا يريدون تورط هذه العناصر القبلية بشدة في العمليات العسكرية لدولتهم ، لم يخاطروا بفقدانهم لصالح الصفويين ، حيث كانوا سينقلبون عليهم في جيوشهم ، بكل تأكيد ضد سادتهم السالفين ، وكان

هذا هو الذي جعل حملة ٩٢٠ ضرورية ، فقد كان لابد من معادلة الاستقطاب بإنزال هزيمة واحدة بالشاه ، وتشويه سمعته في أعين كل الذين كانوا ينظرون بترقب إلى تلك الجهة ، وكان قلق سليم الأكبر أن يرفض الشاه القتال (فريدون بك ـ المصدر نفسه) الأمر الذي كان سيفعله حقاً لو أنه لم يعتمد على عدم ولاء القوات العثمانية ، ولكن هذا النصر لم يفعل بالطبع شيئاً لحل المشكلة الأساسية في عدم الاستقرار الأناضولي ، بل إنه قدم السابقة ليس أكثر والعقيدة لمحاولات غير مثمرة مماثلة خلال القرن التالي ، ويحتمل أن الإحساس نفسه بعدم الأمن في مواجهة أوروبا ـ والعكس صحيح ـ الذي سلف ذكره ، أجبر العثمانيين على الإبقاء على هذا الصراع مع الصفويين على المستوى الديني ، وأعماهم عن الأسباب الاجتماعية والاقتصادية الأكثر قرباً لمتاعبهم ، وتساءل مراد الثالث : لماذا كانت الأشياء بهذا الرخص ، وكان كل امرىء ناجحاً مزدهراً في الأيام الخوالي عندما لم يكن العدل [العدالات ـ بالتأكيد هنا مجازا أراد الاسلام][٣٠] واسع الانتشار هكذا ، في حين تتزايد الصعوبات الآن يوميا ، وتسير الأمور بشكل مغلوط إلى الأبد ؟ (فريدون بك : ٥٧٦/٢) وبصرف النظر عن السذاجة الاقتصادية إن المسألة تخون الافتراض بأن الإسلام سيكون الحل لجميع الصعوبات ، وهذا الافتراض يفسر السلسلة الجديدة من الحملات الشرقية التي بدأت في أيام حكمه ، تلك الحملات التي عزاها المراقبون الأجانب إلى مجرد الانتهازية وغرور السلطان ، والتي بذل سكلو محمد باشا غاية جهده ، بحكم تجاربه ، لمنعها[٣١] ، وبقيت المشكلة نفسها التي أقلقت السلطان سليم وسليمان ، ولكن على مدى نصف قرن من أعمال الحرب العقائدية التي شبهت «بالغزوات الكبرى» وقد رؤي أن النصر في هذه الغزوات يقدم الحل الشامل والنهائي الوحيد ، ولا حاجة بعد ، لذكر البواعث ، ولا أن تنتظر المناسبات ، فالرضا الطاغي ينفخ الحياة في كل التواريخ .

وبعد حكم محمد الثالث ـ على أي حال ـ وعندما اتخذت سياسة الصفويين في إيران ، تجاه القبائل التركية ، كثيراً من الملامح نفسها لسياسة العثمانيين في أواخر القرن الخامس عشر ، بدأ التقدير ببطء أن أعمال العصيان المستمرة في الأناضول لم يعد بالإمكان ـ بشكل معقول ـ نسبتها إلى التحريض من الخارج ،

وحيث كان يصور ، فيما مضى في التواريخ ، الطائفيون المتعصبون بقيادة مشايخهم ، نجد الآن أن العصابات والخارجين على القانون (أشقيا ـ جلاليلر) هم الذين يخدمون بعض المغامرين العسكريين ، وإن عدم الاستقرار في الجبهة الشرقية قد أصبح الآن يعد طبيعياً ، وأوحت ردات الفعل المعادية التي وقعت على أيدي الصفويين باحترام جديد للشاه ، وقبول بغيض بحقائق العصر السياسية ، وتؤكد معاهدة قصر شيرين في ١٠٤٩ ، الانهاك الكلي لكلا الطرفين ، والإدراك النهائي للعثمانيين أنهم قد نسوا أهداف الأعمال الحربية على هذه الجبهة التي دامت أكثر من ثلاثة أرباع القرن ، وظلت قائمة على شعارات ولدت من وهم عالم إسلامي موحد ، وأظهر من قبل في سنة ١٠٣٨ أحمد أفندي شارح المنار زاده في نص منصف تفهما كبيراً لتشيع الشاه عباس الأول ، موحيا أنه لم يكن إيمانا دينيا بقدر ما كان إذعانا وتماشيا مع تقاليد الأسرة الحاكمة ومواقف شعبه وتحيزه[٣٢] .

ولكن المظهر التاريخي مصطنع تماما ، مثله مثل فكرة الفترة التاريخية ، ولعرض أحداث هذه القرنين كلية من وجهة نظر النشاط الديني السياسي سيكون العمل متحيزاً كليا كما لو عرضت وفق منطق تفسير اقتصادي أو عسكري محض ، وهي على كل حال فترة يمكن للأدب التاريخي ، وليس الوثائق ، أن يقدم خدمة فريدة ، فلربما ، فقط من خلال هذه المصادر ، يمكننا أن نشكل انطباعاتنا حول الحياة الروحية للعصر ، بانين أحكامنا على القيم الأدبية المطلقة ، فخير وصف للتاريخ هو بالمفاهيم التي يعطيها ، وفي الواقع لا يمكن للمرء أن يقول شيئاً عن أي تاريخ أكثر من كتاب تراجم مفيد حتى يشكل فكرة عن العصر الذي تعود إليه ، فهذا ما أرادته هذه المقالة ، هذا وإن التاريخ العثماني ، مغطى اليوم بكليته بأحكام مسبقة بسبب توقع كشف الوثائق ، بيد أنه لن يكون من الممكن في أي وقت من الأوقات الاستغناء عن هذه المادة التي بدونها تصبح الوثائق والإحصاءات عديمة الحياة كالأيدي التي كتبتها ، لأنه أيا كانت إمكانية اقتراب الحقائق من المثل التي تلتزم بها الجماهير ، ينبغي أن تبقى مسؤولية ضمير كل مؤرخ في أن الانحراف في رواياته سيكون صحيحاً وراسخ البنيان بقدر قواعده .

كتب ورد ذكرها في النص

- علي : كنه الاخبار - الركن الرابع (السليمانية - أسعد أفندي ٢١٦٢) . نصرتنامه (السليمانية - أسعد أفندي ٢٤٣٣) .
- عاشق باشا زاده - تواريخ آل عثمان . تحقيق علي بك (استانبول ١٣٣٢) .
- مجهول - المؤرخ العثماني المجهول - تحقيق ف . غييس (لا يبزغ ١٩٢٩) .
- جامع الجواهر (ملة رشيد أفندي ٦٥٥)
- جلال زاده نيشانجي - طبقات المالك (المتحف البريطاني Add ٧٨) . معاصر سليم خان (المتحف البريطاني Add ٧٨٤٨) .
- فريدون بك - منشآت السلاطين (استانبول ١٢٧٥) .
- حسن روملو - أحسن التواريخ ، تحقيق وترجمة س . ن سيدون (بارودا - ١٩٣١ - ١٩٣٤) .
- حسن بك زاده - تاريخ ٩٢٦ - ١٠٣٢ (نور عثمانية ٣١٣٤) .
- اسكندر بك - عالم أراي عباسي (عصر الشاه عباس) (طهران ١٣١٣ - ١٣١٤) .
- ادريس البدليسي - هشت بهشت (المتحف البريطاني ٧٦٤٦ - Add ٧٦٤٧) .
- ادريس بدليسي وأبي الفضل - سليمنامه (المتحف البريطاني Add ٢٤٩٦٠) .
- اسحق جلبي - سليمنامه (المكتبة الوطنية باريس - مخطوطات تركية AF ١٤١) .
- كاتب جلبي - فذلكة (استانبول ١٢٨٦ - ١٢٨٧) .
- قرا جلبي زاده - سليمنامه (بولاق ١٢٤٨) .
- لطفي باشا - تواريخ آل عثمان ، تحقيق علي بك (استانبول ١٣٤١) .
- نيازي - ظفر نامه علي باشا (مله - علي أميري ٣٦٩) .
- نعيمه - تاريخ (٦ مجلدات ، استانبول ١٢٨٠) .
- بجوي - تاريخ (استانبول ١٢٨٣) .
- روحي - تاريخ آل عثمان (بودليان Marsh ٣١٣) .
- سيلانيكي - تاريخ (استانبول ١٢٨١) .

- سعد الدين أفندي - تاج التواريخ (استانبول ١٢٧٩) .
- تعليق زاده محمد جلبي ، تبريزي (طوب قبي سراي ، روان قصقو ١٢٩٩) .

هوامش البحث

١ - انظر أحمد حمدي تامينار : الأدب التاريخي العثماني في القرن الخامس عشر (استانبول ١٩٤٢) ص ٦٢ . ووصف ادريس البدليسي في مقدمة «الهشت بهشت» التاريخ كفرع من علم المحاضرات ، وهو بشكل عام معرفة القول في المجتمع المهذب ، ولكن بشكل خاص فن الحكاية (انظر طاشكبري زاده : مفتاح السعادة [حيدر أباد ١٣٢٨] ١٨٢/١) .

٢ - المصدر نفسه ٤ ب . ذكرت ثلاثة تواريخ أخرى : تاريخ وصاف ، تاريخ العيني ، وظفرنامه لشرف الدين علي يزدي ، وهذه الفقرة قد اقتبست بشكل غير صحيح من قبل محمد شكري : هشت بهشت لادريس البدليسي ، دار سلام : ١٩ (١٩٣٠ - ١٩٣١) ١٤٣ .

٣ - وهذه الملاحظة على مايبدو يمكن أن تعمم على معظم الآداب - انظر و . إ . هاليداي : دراسات للتراث الشعبي القديم والحديث (لندن ١٩٢٤) مقدمة ص ١٠ - ١١

٤ - بشكل أصلي تلك المتعلقة بالبلاط السلجوقي ، لأنه بين العثمانيين تتقدم التواريخ الشعبية الأعمال الأكثر انطباعاً على أسلوب معين ، وهي في الحقيقة المصدر الوحيد والأخير للأصول والعهود القديمة للأسر الحاكمة ، ولكنها لم تؤخذ بجدية ، لقد استعمل الهشت بهشت لأن التواريخ الموجودة كانت مصاغة بالعامية الفجة ، ومكتوبة بأسلوب الخرافات (المصدر نفسه : ٤ ب) وفي الواقع بدأ روحي عمله باستعادة ذكرى دادا قرقت(قرقت عطا) يعني الخانلك من الأوغزخان الذي سيمر في خط قبل الذين منهم يفترض أن العثمانيين قد تحدروا ، وادريس الذي بدا اعتماده على «عاشق باشا زاده» كما بين م . هوكرو (المصدر نفسه ص ١٤٢ - ١٤٨) لم يذكره كمصدر ، في حين أن سعد الدين لم يجدهم جديرين بالذكر ، ويقول إنه كتب عمله لأن معظم التواريخ الموجودة كانت بالفارسية (يعني مرآة الأدوار للاري وادريس) ومع أنه يعترف خلالها عموماً بمصادره الشعبية إن العلاقات المتبادلة لتلك التواريخ القديمة قد درسها «ب . وتيل» «بعض مشاكل العلاقات بين المؤرخين العثمانيين» (نشري وأسزوجين» MOG (١٩٢١ - ١٩٢٢) ٧٧/١ - ١٥٠ . وانظر أيضاً مقدمة ف . تسنجر لجيهان نامة لنشري (لايبزغ ١٩٥١) ج ١ .

٥ - وبهذا المعنى فقط يكون قيماً أن يكون لدينا على سبيل المثال طبعة من «هشت بهشت» التي برغم بابنجر (ص ٤٧ G O W) لن تكون أكثر من إعادة بحث عقيم للمواد المألوفة ، ولا

ينكر أن العمل كان مقدراً تقديراً عالياً ، ومدحه كثيراً ما تم بلغة مغالى فيها لا تقل عن غلو لغته (مثل «جلال زاده نيشانجي» معاصر سليم خان ص ١١٩ ب) ولكن معانيها ملحوظة أيضاً والرثاء والمديح المتوهج للعمل الذي ينسبه ريو «لسعد الدين» (المتحف البريطاني : ١٢٧/١ و) في حقيقة المدى الذي أمكن أن يمضي إليه النقد المعادي دون أن يسمح بحدوث انطباع بأنه وجد أن من الصعب فهمه (سعد الدين نفسه) .

٦ ـ «علي» على سبيل المثال لا يتعب من بيان مكتسباته الأدبية ، انظر نقد «ابن الأمين محمود كمال» لهذا الأثر في مقدمته لمناقب هنروان (استانبول ١٩٢٦) ص ١٠٣ ، ويروي «تنش بن مير محمد» الموقف بصخب تقريباً في مقدمته للشرفنامه حيث يقول : «إنه منذ أن كان شاباً كان طموحه في معرفة فن التاريخ وكتابة الإنشاء وصنعة البديع بغاية التكلف والتزيين» (مخطوطات المتحف البريطاني : OR ٣٤٩٧ ـ ٥ ظ . المكتب الهندي ٥٧٤ Ethe ـ عبد الله نامه : ٣ ظ) ورغم الانكار الكبير فإن الموقف ملح بين «وقائع نواسان» وواصيف أفندي في أواخر القرن الثامن عشر حيث يقول متفاخراً (بكثير من العدالة) : إنه بسبب «مناسبات لفظية ومعنوية» في تاريخه القديم ليس كتاريخ واصيف بل كتاريخ وصاف (تاريخ : ١٢٠٣ ـ ١٢٠٩ . ملّة علي أميري ٦٠٨ : ٧ ـ ظ) ويوجد تبجح مماثل بقابليته الأدبية في نهاية القسم المطبوع من كتابه (استانبول ١٢١٩) ٣١٤/٢ . وحول قصور هذه التواريخ ، انظر : «جودت باشا» «تاريخ» (ترتيب جديد ـ استانبول ١٩٠٢) ٤/١ .

٧ ـ ولهذا السبب إن كتاب ف . روزنتال «علم التاريخ عند المسلمين» (ليدن ١٩٥٢) لكونه يقوم على مثل هذه الأقوال مضلل بالدرجة نفسها مثل الماوردي كمصدر للإدارة الإسلامية ، أو «أبي يوسف» للنظام الضريبي الإسلامي .

٨ ـ انظر ملاحظات «جمال الدين أفندي» عين الظرفا (استانبول ١٣١٤) ص ٥ . والتواريخ الصفوية المعاصرة قليلة لدرجة أن الملاحظة تنطبق بالكاد هناك ، وعلاوة على ذلك إن إنتاج هذين القرنين يهيمن عليه كثيراً «عالم آرا» لاسكندر بك ، حتى أن المقارنة بينهما تبدو بشكل غريب غير متناسقة ، لأن الأخير واحد من أعظم الأعمال التاريخية الإسلامية جميعاً ، وهو في الواقع تام ، ضمن قيود تقاليده ، ومما يؤسف له أننا ما نزال لا نملك طبعة يمكن الاعتماد عليها من هذا الكتاب ، وأحدث مجلدين من هذه الطبعة بفهرسيهما القيمين تأليف ايراج أفشر هما مجرد إعادة إخراج للطبعة الحجرية غير التامة لعام ١٣١٤ ، ويجب التحكم في المادة المقروءة في المخطوط .

٩ ـ يجب أن لا يؤخذ هذا على أنه يعني لـم تكن توجد هيئة صانعة للسياسة في الامبراطورية : إن التماسك في سلوك الأمور خلال تلك الفترة يدل على نفوذ هيئة مسؤولة من المستشارين تعمل خلف الآراء المتقلبة وتفاهات العرش والحريم والديوان .

١٠ ـ أن الموقف تجاه الموت الملكي هو من بقايا تقديس الأسلاف في الإسلام ، وبين العثمانين ان زيارة الترب الملكية كان أحد أول المراسيم للسلطان الجديد ، وورد ذكر تدنيس قبور أسرة حاكمة مقهورة في وقت يعود في القدم إلى الثورة العباسية ، ونواجه أمثلة منه حتى وقت متأخر من زمن الصفويين ، وعن قلق بعض السلاطين بشأن اخفاء أماكن دفنهم . انظر ياديغار : ٢/٣ ص٩ .

١١ ـ إن الأهمية التبشيرية يجب أن لا ترتبط بالعلاقة بين الشاه والمتعاطفين معه في الأراضي العثمانية مثل الرسائل التي اعترضت من قبل سليمان ، خلال حملة ٩٥٥ ، والموجهة إلى هراطقة معينين في أماسيا (قراجلبي زاده : سليمان نامه ص ١٥٠) وكان العثمانيون أيضاً على صلة مع المتعاطفين معهم بين رعايا الشاه ، انظر تعليقي زاده تبريزي (طوب قبي سراي ـ روان كصكو ١٢٩٩) ورقة ٢٤ و ، حيث يسجل المؤلف مناقشة جرت بينه وبين أعيان تبريز ، بعد أن أستولى عثمان باشا على المدينة في ٩٣٣ ، ثم حديثه عن كرم السلطان وحسن معاملته .

١٢ ـ في دراسة حديثه عن الشخصيات المرتبطة بقيام الشاه اسماعيل بين جان أوبين Jean Aubin الدور الهام الذي شغلته أيضاً الارستقراطية الإيرانية لعراق العجم ، في توجيه أمور الدولة . المبكرة انظر الدراسات الصفوية : ١ ـ مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق (١٩٥٩) ٢/٣٧ ـ ٨١ .

١٣ ـ ويفيدنا علماً بك تكلو كمثال حيث هرب إلى الشاه بعد هزيمة شاه كل ، وجعل أميراً على أذربيجان وفي (٩٣٧) ثار ضد الشاه بسبب خيبة أمله لعدم حصوله على ترقية (نص من روملو ٢٣٧ ، مترجم ١٠٩) ثم اتخذ موقفا جديداً مرة أخرى مع قواته في الجانب العثماني ، ولصالحه استولى على بدليس من الزعيم الكردي الثائر شريف خان (علي : كنه ، الحادث السابع والعشرين في حكم سليمان . قرا جلبي زاده ١١٤ بجوي ١٠/١٧٥ ، جلال زاده نيشانجي : طبقات ١٨٠ ظ ، الذي يشك في صدق عودته إلى السنة) .

١٤ ـ ولابد أن العثمانيين كانوا مدركين تماما لذلك ، انظر علي كنة (الحادث الثامن في حكم سليمان) حديثه عن شاه طهماسب .

١٥ ـ ومرة حتى في خوزستان (٩٩١), في محاولة للاشتباك مع الصفويين على جبهة أوسع ، وإكراههم على نشر قواتهم الواند أوغلي ، وقاد علي باشا حملة ضد عرب «على اللهي» في ششتر وديزفول ، وهكذا كان هدف الحملة كما ذكره نيازي ورقة ٦ ـ ظ .

١٦ ـ من الممتع دراسة ما إذا كان اضطهاد الصوفية من قبل الصفويون والهجوم الذي شن ضدهم من قبل علماء الشيعة ما كان في الواقع إلا توجيهاً لهذا النشاط ضد العناصر القبلية التركية على مستوى مذهبي .

١٧ ـ يتحدث حسن روملو واسكندر بك دائماً عن انتصاراتهم على المسيحيين بتعابير مرضية جداً ، وكان من المعتاد توجيه النقد اليهم في مناسبات تقاعسهم عن احترام المعاهدات ، وحتى فاقد العقل السلطان مصطفى منح المجاملات المستحقة (انظر التقرير . في اسكندر بك أنه عارض الحرب ضد فارس ص ٦٥٢) الذي يتعارض بشكل مدهش مع القصة المشكوك في صحة نسبتها للمؤلف في سلكزادة إن والدة الشاه اسماعيل ابنة أوزون حسن كانت مجنونة (ص ٣١٥) ويشمل سام ميرزا فى التحفة (طهران ١٣١٤) سليم الأول وسليمان بين شعراء العصر (ص ١٩) .

١٨ ـ لهذا السبب كان العثمانيون دائماً يوبخون طهماسب ، لأنه مخنث جبان ، عارفين أنه لا يمكنم أن يحتفظوا بفتوحاتهم في الأراضي الصفوية ، وقد جعلوها ممارسة أن يسلبوا ويدمروا المناطق التي كانوا يمرون عبرها أخذين الناس عبيداً . انظر على سبيل المثال لطفي باشا ص ٤٥٥ . عن حملة سليمان لعام (٩٦١) وعلي : نصرتنامنة ٨ و١٠ ، ومن أجل الفتاوى التي أصدرها الصوفية ، مصدقين على مثل هذا النشاط ضد المسلمين المهرطقين في تعليق زاده تبريزي : ٢٠ ظ ، وهنا ورد شعر ضد الرافضة ، وأنب اسكندر بك بأسى أكثر منه بحقد السلطان مراد الثالث لا ستعباد المسلمين وبيعهم لليهود والمسيحيين ، وأنه مخطىء وبظنه أن ما من سلطان سالف فعل هذا (ص ٣٤٥) .

١٩ ـ هناك ملاحظة لا تخطىء للاعتزار في عنوان فصل إسكندر بك لسنة (١٠٣٣) «ذكر وقائعي روم كي جون موقوف على مقصداست أزيراوي آن جارنست» (ص ٧١٣) .

٢٠ ـ ولكن الموقف تجاه الصفويين يمكن كثيرا أن يتعارض : وينهي سيلانيكي بعد وصف مفصل للاستقبال الحار لسفير الشاه طهماسب في ٩٧٥ ، الفقرة بعودة مقتضبة باللوم المعتاد لعقيدتهم وممارساتهم ، ويدعو الله أن يوقع أراضيهم في أيدي العثمانيين ليسكنها السنة (ص ٨٨ ـ ٩٥) ويصبح النعت المرير جزءاً لا ينفصل تقريباً عن أسماء الشاهات وحتى في قرننا ، يشير علي أميري إلى اسماعيل على أنه شاه كمراه (تاريخ وأدبيات مجموعسي» (إستانبول ١٣٣٤) ص ٢٤ .

٢١ ـ وكيف يمكن مثل هذه المعلومات أن يعتمد عليها ، يمكن أن يرى من التقرير الذي أرسله سليمان باشا إلى الصدر الأعظم في بداية حملة (٩٤٠) ، انظر م . طيب كبلكين «فتوحات إبراهيم باشا في العراق» دورية علم التاريخ التركي (١٩٥٧) ٤٦٣/٢١ .

٢٢ ـ نشرت بعض الوثائق للشاه كل الصادرة في (٩١٧) من قبل جغتاي أولجي «ياوز سلطان سليم نسيل بادشاه أولدو ؟» جامعة إستانبول ـ دورية التاريخ لكلية الآداب (١٩٥٤) ٦ ، ٥٣ ـ ٩٠ (١٩٥٤) ١١٧/٧ ـ ١٤٢ ، وواضح من هذه أن الحركة كانت أيضاً من جانب ثورة للسباهية في الأناضول ، انظر سعد الدين : ١٦٣/٢ واسحق جلبي سليمنامه وهناك

عدم رضى مباشر يستبطن ثورات ٩٣٢ ـ ٩٣٣ ، والأكثر أهمية فيها كان «شيخ قلندر» وهو من سلالة (حاجي بكناش) انظر علي كنة (وقائع ٥ ـ ١٦ في حكم سليمان) بجوي : ١/١٢٠ ـ ١٢٢ . قرا جلبي زاده ، سليمان نامه ص ٩٨

٢٣ ـ قال بسبك ، الذي كتب في ١٥٥٥ ، إن حصن أماسيا كان يعدّ معقلا في وجه التركمان من سكان آسيا (لايبزغ ١٥٨٩) ص ١٠٦ ، وروى فيها بعد قصة تصور الحماس الديني لدى القبائل الآسيوية وأثره على العثمانين : ص ١٢٠ .

٢٤ ـ ويقول حسن روملو بوضوح تام إن ثورة شاه كل في (٩١٧) كانت هجرة لأذربيجان (نص ١٢٥ ترجمة ٥٧) وفي السنة التالية يقال إن نور علي خليف قد أرسل إلى روم لمجرد جمع الأنصار من هذه المنطقة المضطربة (نص ١٣٤ ، ترجمة ٦٢) ، وحاجة شاه اسماعيل للمجندين من هذه الناحية قدم كسبب لانتهاكه الأراضي العثمانية في ٩٠٨ (سعد الدين ١٢٦/٢) ، وأنه لم يكن هناك أي قصد عدائي ضد جارته القوية ، ويمكن الحكم على هذا من كلمات عاشق باشازاده المعزوة في ص ٢٦٩ ؛ انظر أيضاً لطفي باشا ص ٢٠١ حيث على أي حال ، إن هذا الحدث مسجل في عام ٩١٣ ، والمعاهدات التالية للسلام ، سوف تتضمن مواداً تمنع مثل هذه الهجرات في أراضي بعضهم بعضاً ، مثل اسكندر بك ص ٧٨ ، ويعتبر علي نصر تنامه : ٧ ـ ظ هذا واحداً من إساءات اسماعيل الثاني التي سوغت حملة لالا مصطفى باشا في ٩٨٥ حتى أنه قبل في أراضية قبائل كردية من شهر زور ووان .

٢٥ ـ في التحضير لحملته الفارسية في ٩٢٠ يروي أن السلطان سليم الأول كان له ٤٠,٠٠٠ من الأتباع الأناضوليين يشك بتعاطفهم مع الشاه وأنه سجنهم أو أعدمهم (سعد الدين : ٢٤٧/٢ على : كنه ٢٣٨ ب) وكانت شعائر الصفويين وممارساتهم تفهم على أنها شبيهة بذكر الدراويش ، ويقول تعليقي زاده تبريزي أن مسجد أوزون حسن في تبريز عند الاستيلاء على المدينة من قبل العثمانيين في ٩٣٣ سمع منه مرة أخرى تلاوة القرآن .

٢٦ ـ ركزت الفتاوى لحملة ١١٣٥ على اضطهاد السنة في أراضي الصفويين ، ولكنها في النغمة العامة واللغة تحمل شبها مذهلاً مع ما تقدمها . انظر كجك جلبي زاده تاريخ (ط . ١٢٨٢) ص ٦٤ ـ ٦٦ .

٢٧ ـ انظر المراسلات بين بايزيد الأول وشاه اسماعيل في فريدون بك : ٣٤٥/١ ـ ٣٤٧ ـ وهنا يظهر بايزيد نفسه أنه عالم بالأهمية الاقتصادية للأناضول أكثر من هؤلاء المهاجرين الشرقيين .

٢٨ ـ انظر تفسير مثل هذه العمليات في ابن خلدون ـ المقدمة (ترجمة دوسلان : ٣١٩/١) .

٢٩ ـ أن الحادثة المعروفة جيداً في سيرة «كمال باشازاده» حول قراره دخول مهنة مكتسبة بالعلم ،

بعد رؤية لطفي أفندي ، وهو مجرد مدرس في فيلبي منح شرفاً أكبر من أورنيوس أو غلي أحمد بك ، من قبل الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، هو مثال على موقفه (انظر طاشكبري زاده ـ شقائق النعمان ، ترجمة مجدي ، استانبول ١٢٦٩) ص ٣٨١ .

٣٠ ـ فريدون بك : ١٢/٢ ، على سبيل المثال .

٣١ ـ ر . نولز ـ التاريخ العام للأتراك (لندن ١٦٢١) ص ٩٢٥ . غ . ت مينادو (في ب بيزارو : تاريخ الفرس [فرانكفورت ١٦٠١] ص ٥٥٣) تصريح جيوفاني ميشلي (في إ . البيري علاقات السفير فنتي ال سانتو : ٢/٣ ص ٢٥٩) وحول موقف سكلو انظر بجوي : ٣٦/٢ . ويذكر حسن بك زاده بجرأة أن الحملة كانت انتهازية سعت للاستفادة من الاضطرابات التي أعقبت قتل اسماعيل الثاني وارتقاء محمد خودا باندا الأعمى (ورقة ٤٥ ـ و) وكل من بجوي ـ المصدر نفسه ، وعلي ـ الحادث العاشر في حكم مراد الثالث ، يبدو أنهما كانا متزامنين .

٣٢ ـ اني أفترض أن الروايات في كاتب جلبي ـ فذلكه : ١١٢/٢ ، ونعيمة : ٤٤٨/٢ كلها تعود إلى هذا المصدر المشترك . انظر أيضاً الصور المشرفة للأسلوب الحديث الذي وصف أنه استخدم في الرسائل الموجهة للشاه عباس في فريدون بك : ٨/١ (الأرقام ١ ، ٢ ، ١٠) .

١٩ـ تقاليد أعمال التأريخ لدى الموارنة
كمال صليبي
أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية ببيروت

تحير تغيرات الزمان عقل الانسان . ما من أحد روى أخبار العصور الماضية غير التواريخ المكتوبة . هذه هي التواريخ التي تروي حكاية ديارنا ، والذين سكنوا قبلنا في جبل لبنان .

ابن القلاعي (بتصرف)

للكتابات التاريخية المارونية أهمية مزدوجة لطالب دراسة تاريخ الشرق الأوسط ، ففي الوقت الذي تسهم فيه كمصدر هام لتاريخ لبنان منذ القرن الثاني عشر ، إنها أيضاً تعكس التطور الداخلي للطائفة المارونية ، وارتقاء علاقاتها مع روما ، وتكاملها التدريجي في السياسة اللبنانية ، وعلى الرغم من حقيقة أن معظم أعمال المؤرخين الموارنة قد ظهرت مطبوعة ، فإن الدراسات اللبنانية المعاصرة قد أبدت اهتماماً صغيراً بالمعالجة النقدية لتلك الأعمال ، وبينما تميل هذه المصادر لاستخدامها كمعايير مطلقة للمصادر تركت مصداقيتها بدون مراجعة وتفحص تقريباً[1] .

في الواقع إن الكتابات التاريخية اللبنانية التي تشكل الكتابات التاريخية المارونية القسم الأكبر منها ، تقدم الجسم الرئيس لمادة المصادر لتاريخ لبنان من القرن الثاني عشر إلى التاسع عشر ، ومن أجل الفترة العثمانية من الممكن رفد التواريخ اللبنانية والحوليات بقدر كبير بأعمال الأوروبيين والرحالة ، والمراقبين العثمانيين ، وبالمواد الموجودة أو التي لم تكتشف بعد في الوثائق الأوروبية والعثمانية،

ولكن هذه بالتأكيد ليست الحالة نفسها بالنسبة للفترات الصليبية والمملوكية ، وفي الحقيقة إن ما وجد في المصادر غير اللبنانية حول تاريخ لبنان في العصور الوسطى المتأخرة يدعم الوقائع الموجودة في المصادر اللبنانية ، ولا يضيف إليها إلا القليل ، وبالنسبة للمؤرخين العرب للفترات الزنكية والأيوبية والمملوكية كان لبنان مهما فقط كاقليم حدودي لسورية المسلمة ، مع سكان غير مسلمين وهراطقة ، مراسهم صعب ؛ وكان هذا الإقليم عرضة للهجمات من البحر والطريق الساحلي ، وبناء عليه أولوا قليلاً من الاهتمام لتاريخه الداخلي ، ونادراً ما ذكر المؤرخون المسيحيون الشرقيون لبنان ، مع أن نسبة كبيرة من سكانه كانوا مسيحيين من البلدان الشرقية المختلفة ، وحتى مؤرخو الحروب الصليبية ، والمؤرخون الذين بدا أنهم كانوا متأثرين بدرجة كبيرة بسمات الموارنة كمقاتلين ، وبإخلاصهم للقضية الفرنجية ، كتبوا عنهم فقط بتعابير عامة متجاهلين في الواقع التاريخ الداخلي لبلد سقط تحت حكم الفرنجة القسم الأعظم منه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، واهتم عدد من الحجاج والبعثات التبشرية التي زارت الأرض المقدسة خلال ـ وبعد ـ الفترة الصليبية طويلاً بالظروف الدينية للموارنة ، وأسهمت بتقديم بعض المعلومات المتعلقة بتاريخ لبنان في تلك الفترة ، ولكن الحجاج والبعثات التبشيرية التالية مالت إلى تكرار ما أورده الرحالة المتقدمون ، ولم يسجلوا دوما ملاحظاتهم الخاصة ، وبناء عليه تتمتع التواريخ اللبنانية التي تعالج فترة ما قبل العثمانيين بوضع فريد ، وهي لا يستغنى عنها لمؤرخ لبنان العصور الوسطى .

إن هذه المقالة معنية بالكتابات التاريخية التقليدية للموارنة ، وهي قطاع هام من الكتابات التاريخية اللبنانية تشمل أعمال المؤرخين الموارنة الذين عاشوا وكتبوا في لبنان ، والذين حاولوا دراسة تفسير تاريخ طائفتهم مع جبل لبنان ، وهي لن تعالج التواريخ المحلية ، أوحكايات أحداث خاصة أو موضوعات تستحق الدراسة لوحدها ، أو أعمال العلماء الموارنةالذين عاشوا وكتبوا في أوروبا ، ومع ذلك إن اطلالة عامة قصيرة على تاريخ الكتابات التاريخية المارونية قد تكون مفيدة كخلفية للموضوع .

ولا يعرف سوى القليل عن الكتابات التاريخية المارونية قبل القرن الخامس عشر ، ويحتمل أن بعض التواريخ المارونية قد كتب خلال فترة الحروب الصليبية ، وهي فترة ذات أهمية جوهرية في تاريخ الطائفة المارونية ، ولكن إذا كان قد كتب شيء فهو قد فقد ، وقد يفترض المرء أن الكنيسة المارونية الموحدة المنتصرة في القرن الخامس عشر قد دمرت الأدب الأقدم في محاولة لمحو ذكرى أزمان ماقبل الوحدة ، والنزاعات العنيفة التي جزأت الموارنة حول قضية الوحدة أربعة قرون[٢] ، وقد أدرج جورج غراف في كتابة «تاريخ آداب العرب المسيحيين» أسماء تاريخين مارونيين فقط قد كتبا قبل القرن الخامس عشر : تاريخ كنسي كتب في القرن الثالث عشر من قبل يوحنا الراهب الماروني ، وتاريخ من أوائل القرن الرابع عشر حول دير مار شليطا مقبس (١١٩٤ ـ ١٣٠٧) ألفه تادرس رئيس أساقفة حماة ، وهو عرض تاريخي موجز لابد أنه قد شكل جزءاً من مصنف أكبر[٣] .

وأقدم مؤرخ ماروني بقي عدد من مؤلفاته في متناول أيدينا هو جبرائيل بن القلاعي (ت ١٥١٦) وهو أول ممثل معروف للمدرسة التقليدية للكتابة التاريخية المارونية ، ويبدو أن الياس المعادي وهو معاصر لابن القلاعي كان مؤرخاً له بعض الأهمية ، ولكن مصنفه فقد ، وهو معروف فقط من خلال إشارات من الكتاب المتأخرين ، ولقد شهد القرنان السادس عشر والسابع عشر تطوراً يسيرا في الكتابة التاريخية المارونية ، وقد كتب ابن القلاعي تاريخية بشعر عامي (زجل) وقلده في هذا المجال الكتاب الموارنة الأكثر أهمية لتلك الفترة ، وتبعه بعضهم أيضاً في معالجة التاريخ الماروني ككل ، حسب طريقته نفسها ، في حين تعامل آخرون مع أحداث خاصة فقط ، وكتبت أيضاً كتب قليلة أصغر حجماً نثرا عالجت التاريخ الماروني ، وسجلت سلاسل نسب للأسر اللبنانية من قبل القس جرجس مارون[٤] ، وحاول الموارنة اللاتين مثل غابرييل سيونيتا (ت ١٦٤٨) وابراهام أكجلنس (ت ١٦٦٤) وفاوست نيرونس (ت ١٧١٢) الذين عاشوا وكتبوا في أوروبا ،أن يتحروا عن أصول الموارنة ، ونشر الأخير كتابه : «الموارنة ـ اسمهم ، أصلهم وعقيدتهم» في روما سنة ١٦٧٩ ، وعلى كل حال حظيت الكتابات التاريخية المارونية ببدايات متهاسكة للمرة الأولى على يدي البطريرك اسطفان الدويهي

(١٦٢٩ ـ ١٧٠٤) الذي سمي بحق بأبي التاريخ الماروني ، لقد كان أول ماروني يحاول كتابة تاريخ جدي لطائفته من أصولها حتى يومه .

وكان المؤرخون الموارنة من ابن القلاعي إلى الدويهي من رجال الدين الذين تلقوا تعليمهم وتدريبهم في روما ، وباستثناء الدويهي الذي كان مجال اهتمامه بالتصنيف التاريخي كبيراً ، كانوا معنيين بشكل رئيس بتاريخ الكنيسة المارونية والطائفة ؛ وتوبع العمل في مجال تقاليد رجال الدين للكتابة التاريخية المارونية من قبل عدد من المؤرخين الذين ساروا على طريق الدويهي مثل جبرائيل جرمانوس فرحات (١٦٧٠ ـ ١٧٣٢) وأرسانيوس أروتين (١٧٠٧ ـ ١٧٨٦) وكتب كل منهما حول تاريخ الرهبانية المارونية ، كما توبعت من قبل يوسف مارون الدويهي (ت ١٧٨٠) وأسطفان عواد السمعاني (١٧١١ ـ ١٧٨٢) ومعاصره أنطوان قيال[٥] ، ويوسف الدبس (١٨٣٢ ـ ١٩٠٧) ويوسف دريان (ت ١٩٢٠)[٦] ومع بداية القرن التاسع عشر ظهر مؤرخون موارنة لم يكونوا من غير رجال الدين فحسب ولكنهم كانوا أيضاً مهتمين بالنواحي غير اللاهوتية في التاريخ الماروني ، وفي التاريخ العام لجبل لبنان ، وقد تعامل مثلا أنطونيوس أبوخطار العينطوريني (ت ١٨٢١) وحيدر أحمد شهاب (١٧٦٠ ـ ١٨٣٥) وطنوس الشدياق (نحو ١٧٩٤ ـ ١٨٦١) بشكل رئيس مع تاريخ لبنان الإقطاعي ، وترك المؤرخون الذين جاؤوا بعدهم ، وعملوا ، في هذا المجال العام ، القليل مما يستحق اهتماماً جدياً ، عدا بعض المختصرات القيمة والروايات حول التاريخ المحلي والعائلي أو أحداث معينة .

ويبدو أن الكتابة التاريخية المارونية التقليدية ظهرت إلى الوجود كتعبير عن الاعتزاز بالشخصية المارونية ، ومال الموارنة كطائفة صغيرة محكمة التراص ، محاطة بالخصوم ، وتتميز بعدم شعبية ملحوظة بين الطوائف المسيحية الأخرى في الشرق ، مالوا نحو الاهتمام العميق بتاريخهم[٧] ، مفتخرين أنهم قد احتفظوا بكيانهم خلال قرون من عدم الاستقرار ، وربما كانت الكنيسة المارونية هي الأصغر بين الطوائف النصرانية الشرقية ، ومع أنها ليست الأقدم ، فقد كانت من بين أول من بدأ تقاليد الارتباط ، وفي النهاية ، الاتحاد مع روما ، ونظرا لتمركزها وتوضعها بقوة على السفوح الشمالية من جبل لبنان ، التي كان من الصعب تقريبا الوصول

إليها ، لم تكن مطلقاً عرضة للسلطة السياسية المباشرة للإسلام ، إلى المدى نفسه الذي تعرضت له الكنائس الشرقية الأخرى ، ولقد بقي الموارنة خلال قرون من الحكم الإسلامي في سورية متحررين نسبياً من الوصاية الإسلامية ، وقد أسهمت بلا شك معرفتهم بهذه الحقائق في هذا الاعتزاز الوطني الشديد الذي ألهمهم ، وعبروا عنه في كتاباتهم التاريخية .

وفي حين بدا هذا الوعي الشديد بالكيان الوطني كقوة دافعة وراء الأدب التاريخي التقليدي للموارنة ، معطياً إياه لوناً مميزاً ، فإن تطور هذا الأدب التاريخي قد تكيف بالتأكيد مع الظروف التي أحاطت بتطور الطائفة المارونية ، فقد كان الموارنة عبر تاريخهم في موقف الدفاع سواء كطائفة أو ككنيسة ، وكانت السمة السائدة في تاريخهم السياسي مقاومة الحكم الإسلامي ، كما قاوم الموارنة بقوة أيضاً هجرة اليعاقبة الملكانيين إلى جبل لبنان نتيجة للاضطهادات المتقطعة ولا سيما خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكانوا حذرين من الامتصاص من قبل المهاجرين الأكثر غنى ، والأفضل تنظيماً ، وعازفين عن مشاطرة الغرباء أراضيهم المبعثرة القابلة للزراعة ، ولم تكن نبرة التاريخ الديني للموارنة أقل دفاعية ، وبدءاً من القرن الخامس عشر كانت الكنيسة المارونية تحاول بثبات ترسيخ تفوقها على الكنائس الاتحادية بتأكيد أرثوذكسيتها الأصلية السرمدية ، واتحادها مع روما في وجه الاتهامات الصحيحة والكاذبة من قبل الكتاب الكاثوليك الاتحاديين والغربيين على السواء ، وكان تردد روما في إعطاء اعتراف رسمي واضح بدعواهم الأرثوذكسية السرمدية السبب في توتر باطني دائم[٨] ، وعليه فإن الطبيعة الجدلية اللاهوتية للكتابات التاريخية المارونية هي انعكاس لكل هذا ، ولقد كتب المؤرخون الموارنة مدافعين عن طائفتهم ، مؤكدين أهميتها ، ومفندين الانتقاص الحقيقي والمتخيل منها ، ولم يكن هدفهم في معظم الحالات ترسيخ تاريخهم بقدر ما كان تسويغاً لا دعاءاتهم .

ومثل هذا انعكس انشغال الموارنة بتاريخ جبل لبنان في التوسع التدريجي في حقل الاهتمام بالكتابات التاريخية للموارنة ، وحتى الغزو العثماني كان الموارنة معزولين عن الدروز ، وكان شمال لبنان الماروني داخلاً في المقاطعة الفرنجية ، وفيما بعد في مملكة طرابلس المملوكية ، واشترك قليلاً مع جنوب لبنان الدرزي

الذي كون جزءاً من مملكة القدس اللاتينية ، وفيما بعد من مملكة دمشق ، وجمع توطيد سيطرة المعنيين على كل جبل لبنان خلال أواخر القرن السادس عشر ، وأوائل القرن السابع عشر ، الموارنة والدروز مع الطوائف اللبنانية الأخرى في اتحاد سياسي وثيق ، واحتفظ تنظيم المتصرفية في أواخر القرن التاسع عشر بوحدة جبل لبنان حتى أدخل في لبنان الكبير تحت الانتداب الفرنسي ، وهكذا بينما كانت التواريخ المارونية ما قبل الدولة العثمانية ، والمارونية أيام الدولة العثمانية معنية حصراً بالشؤون الداخلية للطائفة المارونية ومشكلاتها اللاهوتية ، أصبح المؤرخون الموارنة المتأخرون واعين بصورة متزايدة لوجود الطوائف اللبنانية الأخرى ولاسيما الدروز ، واتسع اهتمامهم تدريجيا ليشمل كل جبل لبنان كوحدة ، وأسهم انعزال تقاليد الكتابات التاريخية المارونية أيضاً في تطورها الغريب بطرق مختلفة ، ومع أن الدويهي وخلفاءه لم يكونوا غير عالمين بالتاريخ العام للمنطقة التي يكون لبنان جزءاً منها ، فإنه لم يكن لديهم مطلقاً فهم واضح لعلاقة التاريخ الماروني واللبناني بتاريخ سورية المسلمة والإسلام ، وإن الميل للمبالغة في التاريخ الأساسي للطائفة على حساب وضعها هو بالتأكيد ميزة بارزة للكتابة التاريخية المارونية ، وكانت الخلافة الأموية ثم العباسية ، وبعدها الفاطمية والسلطنة السلجوقية ، والدول التي تلتها ، والدول الفرنجية في سورية ، والسلطنة المملوكية وحتى السلطنة العثمانية ، كيانات لم تفهم مطلقاً أو تحدد من قبل المؤرخين الموارنة ، وهذا صحيح بشكل خاص بالنسبة للمؤرخين الأقدم : روى ابن القلاعي تاريخ الموارنة تحت حكم الفرنجة والمماليك دون أن يجري أدنى تمييز بين الموارنة والفرنجة وأشار إلى المماليك ببساطة على أنهم «المسلمون» ، وكانت الحصيلة الأخرى لهذه العزلة في الأدب التاريخي هي الميل بين المؤرخين الموارنة المتأخرين للاعتماد حصراً على أسلافهم لتكرار ما قالوه ، وكان للقبول والبناء على أقوالهم نتائج كثيراً ما كان يصعب الدفاع عنها ، وإضافة إلى ذلك بقيت تقاليد الكتابة التأريخية المارونية بحكم عزلتها ، غير معرضة للنقد ، مما يفسر أكثر عيوبها خطورة ، ومع أن المؤرخين الموارنة التقليديين كثيراً ما كانوا رجالاً على قدر كبير من العلم ممن درسوا في روما ، وتلقوا منافع المبادىء العلمية الغربية ، فقد كتبوا في لبنان من أجل شعبهم المحدود ، وبالتالي مالت الكتابات التاريخية المارونية إلى السذاجة العقائدية في

تأكيداتها ونفيها للحقائق التاريخية ، وفي أخطائها التي تكررت وتضخمت عبر الأجيال والتي استمرت دون مراجعة تقريباً .

وولدت التقاليد اللاهوتية في الكتابات التأريخية المارونية في أثناء الصراع العنيف والخلافات حول مسألة الاتحاد مع روما ، وقد طورت أولاً خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر والعقد الأول من القرن السادس عشر على يد الكاهن الشاعر ابن القلاعي الذي كان المنشقون الموارنة في أيامه تحت قيادة عدد من السادة الإقطاعيين ، وبعض رجال الدين . يؤيدهم بعض المهاجرين من اليعاقبة ، يبذلون جهودهم الأخيرة ضد الاتحاد .

وكتب ابن القلاعي ، وهو موال متحمس لروما ، تاريخ شعبه ليبين مزايا الاتحاد مع روما ، وكان قد ولد في شمال لبنان في حوالي منتصف القرن الخامس عشر ، وانضم إلى فرقة الفرنسيسكان في القدس في عمر مبكر ، وأرسل إلى إيطاليا في ١٤٧٠ حيث رسم كاهنا وبقي مدة ثلاثة وعشرين عاماً يدرس في روما ومدن ايطالية أخرى[٩] ، وعاد إلى لبنان في ١٤٩٣ مثقفاً فاتر الهمة محدود الخيال[١٠] ، وعمل مبشراً رومانيا لدى شعبه ، وقاد حرباً مقدسة ضد المنشقين الموارنة ، وفي ١٥٠٧ عين أسقفا مارونيا في قبرص ، وهي أبرشية كانت تضم بعض المناطق اللبنانية ، ومات وهو يشغل هذا المنصب بنيقوسيا في سنة الغزو العثماني لسورية .

وفي محاولة منه لتعليم شعبه الأرثوذكسية الرومانية ، وتسوية الخلاف بينهم للتوحد مع روما ، بسّط ابن القلاعي العقيدة الكاثوليكية وتاريخ الكنيسة المارونية في شعر عامي ، وبقيت كمية كبيرة من الشعر الواقعي في مفهومه ، والوعظي في اتجاهه ، لتشهد للحملة القوية التي شنها ابن القلاعي ضد معارضي الاتحاد ، وقد كتب أيضاً نثراً ، وترجم إلى العربية عدداً من الأعمال اللاتينية من علوم الدين ، ونظام الكنيسة ، وطقوس تعلم الاكليروس الماروني في العقيدة الكاثوليكية ، كل هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الرسائل الموجهة إلى الاكليروس والأعيان ، أنب فيها المنشقين وحذر المنقلبين ، وعلّم وأرشد المؤمنين[١١] .

ولم يحاول ابن القلاعي في تاريخه للموارنة والكنيسة أن ينقل لقرائه صورة واقعية للماضي الماروني ، وبالأحرى حاول أن يلقي موعظة ، وعمل بوساطة المادة التاريخية التي حرفها ومزجها في كثير من الأحوال بالأساطير ليثبت لشعبه أن العقيدة

الرومانية كانت المذهب الأرثوذكسي ، وأن الموارنة كانوا أرثوذكسيين في أصلهم ، وأن الاحتفاظ بوحدتهم الأصلية مع روما لم يكن فقط مفيداً ، بل كان ضرورة مطلقة ، وحاول ابن القلاعي أن يجعل قضية الوحدة جذابة ، وأن يتفادى معارضة المحافظين بإظهار أن الأرثوذكسية والاتحاد مع روما لم يكونا بدعاً ، بل الحالة الأصلية للكنيسة المارونية منذ بداية تأسيسها في لبنان من قبل يوحنا مارون[١٢] ، وحاول أيضاً أن يظهر أن الموارنة كانوا أسعد عندما كانوا على اتفاق تام مع الكنيسة الأم ، وأن الكارثة لا شك واقعة عقب سقوطهم في الهرطقة ، وذهب إلى القول إن مثل هذا الإنحدار والزلات مردها دوماً راجع لتأثير اليعاقبة والملكانيين عليهم، وهكذا كان ، حسب تفسيره ، سقوط طرابلس الفرنجية في أيدي المماليك وخضوع الموارنة بالنتيجة للحكم الإسلامي جزاء لها لسقوط أمير ماروني اسمه سالم بشري في الهرطقة .

وكان عمل ابن القلاعي التاريخي الرئيس شعراً طويلاً بالعامية اللبنانية بعنوان «مديحة على جبل لبنان»[١٣] ، وروى في هذه الملحمة المصغرة أخبار صراع الموارنة الأحرار في جبل لبنان ضد الغزوات الإسلامية المتتابعة ، ثم قدم موضوعه المحبب المتعلق بالأرثوذكسية المارونية والاتحاد مع روما في فواصل زمنية متعددة ليبين مزاياها ، وفي مقابل ذلك يظهر مساوىء الانشقاق والهرطقة ، وجاء في مواضع كثيرة ترتيب الأحداث الزمني خاطئاً ، وهناك الكثير من المفارقات التاريخية غير المصقولة ، وبصرف النظر تماماً عن حقيقة أنه لا يوجد تمييز في الشعر بين التاريخ الحقيقي واختلافات الشاعر أو تكرار التقاليد الشعبية ، فإن المديحة غنية باللون الشعبي ، وهي واحدة من المصادر القليلة المعروفة لتاريخ الموارنة تحت الحكمين الصليبي والمملوكي . وهناك تاريخ شعري آخر عنوانه «تبكيت كل من زاغ عن الإيمان»[١٤] ، تعامل مع الأحداث المعاصرة لابن القلاعي ، وآخر شغل فيه ابن القلاعي نفسه دوراً ، وعمل ثالث شبه تاريخي في محتواه وهو خطاب وجّه إلى شمعون البطريرك الماروني مؤرخ في ٦ تشرين الثاني (١٤٩٤)[١٥] وروت الرسالة المناسبات التي جدد فيها الموارنة ولاءهم لروما ثم اهتمت من نواح أخرى بالطقوس الرومانية .

وكان اهتمام ابن القلاعي كمؤرخ محصوراً في الكنيسة والطائفة المارونية ، وقد قدم إشارات عرضية فقط إلى الطوائف اللبنانية الأخرى ، وأعطى بضع تواريخ ، والترتيب الزمني لمعظم الأحداث المذكورة يجب أن يخمن ، أما من أجل مصادره ، فقد استخدم المراسلات البابوية مع بطاركة الموارنة المحفوظة في الفاتيكان (التي أخذ عنها ترجمات عربية غير دقيقة) ويحتمل أيضاً أنه استخدم بعض مواد محفوظات البطركية المارونية المتاحة في ذلك الوقت ، وأشار أيضاً في تاريخه إلى حوليات تاريخية ، لابد أنها قد وجدت في وقته وفقدت الآن ، ربما كان بعض هذه التواريخ مجرد هوامش وجدت على نسخ من الأناجيل والأعمال الدينية الأخرى ، مثل تلك التي استخدمها الدويهي فيما بعد .

ولم يكن تاريخ ابن القلاعي أكثر من مجرد دعاية رومانية مع ملاحظات تاريخية وتاريخية كاذبة ، ومع ذلك فهو شخصية بارزة في تاريخ الحركة التأريخية المارونية ، لقد وضع نغمة التقاليد الاكليروسية في الكتابات التاريخية المارونية ، وأشار المؤرخون المتأخرون إليه كأصل ، ولقد كان أول نصير لنظرية الأرثوذكسية السرمدية للموارنة ، وهو الموضوع الذي هيمن على الجدل اللاهوتي الماروني التالي ، وقد جرى تقليد نمطه الشعري العامي في كتابة التاريخ الشعبي من قبل المؤرخين الموارنة الذين جاؤوا بعده ، وكان من بين من قلدوه الأسقف «الياس بن حنا الدويهي» (ت : ١٦٥٩ ، وهو عم البطريرك اسطفان)(١٦) ، والبطريرك يوسف العاقوري (ت : ١٦٤٨) (١٧) وترك الدويهي تاريخاً للطائفة المارونية بالشعر شبيهاً في تركيبه بشعر ابن القلاعي ، والعاقوري زجلية عن الحروب بين الموارنة والملكانيين في نهاية القرن السابع .

ولم يكن ، قبل أواخر القرن السابع عشر ، قد ظهر الشارح الكبير التالي للتقاليد الاكليروسية : البطريرك الماروني اسطفان الدويهي ، وكان حفيد كاهن وابن أخ لرئيس أساقفة ، وقد كرس الدويهي للكنيسة ، وأرسل إلى الكلية المارونية في روما في عمر مبكر ، في الثانية عشرة للدراسة الكهنوتية ، وقد أظهر الدويهي ـ جدارة استثنائية كطالب ، وعن تخرجه في ١٦٥٥ انتخب من قبل كلية التبشير كمبشر وأعيد ليخدم في وطنه لبنان . وفي (١٦٦٨) بعد ثلاث عشرة سنة من الخدمة المخلصة لكنيسته في لبنان وحلب ، عُين أسقفاً في قبرص ، وبعد

عامين في ١٦٧٠ انتخب بطريركاً مارونياً ، ولم يكن الدويهي كاهناً قديراً في إدارة الكنيسة ، كسب لنفسه بعد وفاته لقب الكبير فحسب ، بل كان عالماً لا يتعب ، وباحثاً عن المعرفة ، كان رجلاً ذا ذكاء حاد ، صقله تعليم شامل ، وكان مزوداً بقدرات طبيعية عالية ، وتدريب لترسيخ حقائق التاريخ الماروني من فتات المعلومات شبه الأسطورية المتوفرة ، وبدأ بجمع المادة عندما كان طالباً في روما ، وأفاد من وقته خلال رحلاته في لبنان وفي منطقة حلب ، وقبل تعيينه بطريركاً قام بفحص التواريخ والدوريات والكتب الكنسية بحثاً عن المعلومات ، والحواشي المتعلقة بتاريخ شعبه ، وكان حجم المعلومات التي جمعها الدويهي حول التاريخ الماروني هائلاً ، كما كانت المصادر التي استخدمها ، وأتى على ذكرها جميعها ، وغالباً ما نقل عنها ، متنوعة كثيراً ، وبين تلك المصادر توجد أعمال مؤرخين موارنة وكتّاب أقدم مثل ابن القلاعي (الذي أشار إليه تكراراً واقتبس منه بكثرة) وجبرائيل الأدنيتي(١٨) ، وغابريل سونيتا ، وابراهام اكجلنسس ، وتوما الكفرطابي(١٩) . والياس المعاد ، وذلك بالإضافة إلى أجزاء من تواريخ مارونية ذكرها ، وغالباً ما اقتبس الدويهي منها ومن أصولها السريانية . أما بالنسبة لتواريخ الصليبيين فقد اعترف باستخدام أعمال وليم الصوري ، وجاك ده فيرتي ، وأشار أيضاً إلى كتاب وحجاج ورحالة مثل بوركار دمونت سيون وآخرين ، وقد استخدم أيضاً وثائق الفاتكيان ، وجمع مواد قيمة من الكتابات والحواشي المارونية ، وعلاوة على ذلك استخدم أعمال مؤرخين عرب مشهورين مثل : ابن الأثير وأبي الفداء ، واعتمد على تاريخ الدروز لابن سباط ، وذلك أثناء الكتابة عن لبنان غير الماروني(٢٠) وهناك مؤرخ عربي آخر اقتبس الدويهي منه من حين لآخر هو ابن الحريري ، الذي يجري حالياً نشر تاريخه(٢١) ، وحذا الدويهي حذو ابن القلاعي فانطلق نحو اثبات الارثوذكسية المارونية السرمدية بتفنيد كل الأدلة التي تشير إلى أصلهم المرتبط بعقيدة الإرادة الواحدة ، وكل التهم الموجهة ضد اتحادهم الذي لا ينفصم مع روما منذ القرن الثاني عشر ، وأشهر أعماله تاريخ الطائفة المارونية(٢٢) وكان قد كتبه لهذه الغاية ، وفي الوقت الذي انطلق فيه ابن القلاعي لإثبات الإدعاء الماروني بالأرثوذكسية السرمدية ليجتذب الموارنة المنشقين إلى قضية الوحدة ، دافع الدويهي ، الذي في أيامه أصبح الاتحاد بلا ريب راسخاً ، عن هذا

الادعاء لزيادة فخر الموارنة بأرثوذكسيتهم السرمدية ، ولإسكات الاتهامات ضدهم من قبل الكتاب المسيحيين الشرقيين والغربيين ، وهكذا بينما كان تاريخ ابن القلاعي غير علمي ودعائياً في اللون ، فإن تاريخ الدويهي مكتوب بالأسلوب التأملي للجدل اللاهوتي المبجل ، وبينما استعمل الأول مادة غير مؤكدة ، وكثيراً ما كانت أسطورية كي يجسد ويثبت موعظته حول ضرورة الوحدة مع روما ، قام الأخير بمحاولة أكثر نقداً للأدلة غير المؤيدة منه للمؤيدة ، وحاول في أثناء عمله لترتيب تاريخ البطاركة الموارنة بعنوان «سلسلة بطاركة الطائفية المارونية»[٢٣] ، تثبيت الأسماء والتواريخ للبطاركة الذين تقدموه في كرسي أنطاكية منذ أيام يوحنا مارون ، وقد أسهم بعمله هذا في إرساء قاعدة العطاء للدراسات التالية عن تاريخ الموارنة .

وكان الدويهي ناجحاً في إثبات الوحدة غير المنقطعة للكنيسة المارونية مع روما منذ القرن الثاني عشر ، وهي حقيقة لا نزاع حولها بين المؤرخين المحدثين ، ولا شك أن أن هيكل المادة التي استخدمها فيجدله ،الذي يكشف في ذاته عن فطنة جديرة بالاعتبار،مؤثر بالتأكيد ، ويقابل هذا أن تفنيده لارتباط أصل الموارنة بعقيدة الإرادة الواحدة غير راسخ ، وساذج أحياناً ، لأنه قام على أسس ابن القلاعي التي يصعب الدفاع عنها ، ونقلاً عن الدويهي كان يوحنا مارون من أصل فرنجي[٢٤] وبعيداً عن أن يكون مهرطقاً ، وكان في الواقع مدافعاً متحمساً عن الأرثوذكسية الرومانية ضد ادعاءات الإرادة الواحدة للأباطرة البيزنطيين وبطاركتهم المهرطقين ، وجعل الدويهي بتجميعه لحشد من الأدلة الزائفة يوحنا مارون يسافر إلى روما ، ويتلقى تعيينه لكرسي بطريركية أنطاكية من البابا نفسه ، وهو تعيين لم يصبح نافذاً ، إلا في جبل لبنان بسبب الاضطهاد على يدي الامبراطور جستينيان الثاني ، وفي جبل لبنان التمس البطريرك الأرثوذكسي الحقيقي ملجأ ، ومن المدهش أن عالماً مدققاً مثل الدويهي كان يكتب ويؤمن بصحة مثل هذه الكتابات المشكوك في مصداقيتها .

ولم يتغير موقف المؤرخين التقليديين الموارنة تجاه الأرثوذكسية السرمدية كثيراً منذ الدويهي ، وقد كيَّف المؤرخون الموارنة المتأخرون مثل السمعاني والقيال والدبس[٢٥] ودريان[٢٦] وديب[٢٧] جدلهم اللاهوتي على الجدل اللاهوتي للدويهي ،

معلقين أو موسعين ما جاء في أطروحته ، وقله من هؤلاء المؤرخين اقتربوا من مستواه العلمي ، فقد حال نفوذه المهيمن على التقاليد الإكليروسية دون الإنحراف عن الأصل .

ولم ينحصر اهتمام الدويهي بالتاريخ الديني لطائفته ، ففي كتابه «تاريخ الطائفة المارونية» حاول أن يتحرى الأصل الدنيوي اللموارنة ، وسلم بتحدرهم من المردة . ولا تعوز هذا الإدعاء الأدلة أبداً[٢٨] . وجمع الدويهي مواد كثيرة لتأييده ، ولكن تأكيده على الأصل المردي للموارنة قد تمت المجادلة فيه على أسس مختلفة جديرة بالاعتبار ، ويبقى الادعاء مدعاة للجدل[٢٩] .

وشبه الدويهي الموارنة الأصليين ، الذين يفترض أنهم دخلوا جبل لبنان تحت قيادة حنا مارون في أواخر القرن السابع بالمردة في مناطق الأمانوس وطوروس ،الذين أغاروا على سورية الأموية ، وتوغلوا إلى جبل لبنان مرتين بين ٦٦٦ و ٦٨٩ م ، لا بل وصل به الأمر إلى القول ، إن يوحنا مارون ، كان عم ابراهيم المفترض ، أنه كان الأمير المردي الأصلي لجبل لبنان . وقد قبل المؤرخون الموارنة المتأخرون مثل الدبس ودريان[٣٠] أطروحة الدويهي دون أية محاولة للنقد أو التحسين .

ولعيشهم في عصر كان الموارنة والدروز في جبل لبنان فيه ، قد بدأوا يتقاسمون تاريخاً سياسياً مشتركاً ، لم يبق الدويهي غير مهتم بتاريخ الدروز الذي أولاه اهتماماً كبيراً . وإلى جانب هذا كان الدويهي واسع الأسفار عالماً جيد الإطلاع ، زار أجزاء مختلفة من سورية ، وأصبح مطلعاً على الحوليات العربية والتواريخ العربية المشهورة . ويبدو أنه كان متأثراً بحقيقة أن تاريخ طائفته ، وتاريخ جبل لبنان ، كانا غير منفصلين عن التاريخ العام لسورية المسلمة ، وقد انعكس هذا الانطباع في تاريخه ، وفي حولية بعنوان «تاريخ المسلمين» أو «تاريخ الأزمنة»[٣١] الذي يغطي تاريخ سورية المسلمة من الهجرة حتى يومه ، واهتم الدويهي اهتماماً خاصاً بتاريخ الدروز وموارنة لبنان في إطار التاريخ العام للمنطقة ، الذي يكون جبل لبنان جزءاً منها ، ولم يشرح الدويهي العلاقات المتبادلة بين تاريخ الموارنة وتاريخ الدروز وتاريخ سورية المسلمة ، ولكن حقيقة أنه

حشد معلومات حول الموضوعات الثلاثة في صورة حوليات ، يعكس ميلاً جديداً في حركة التأريخ لدى الموارنة ، الذي كان أول ممثل لها .

وفي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، تبع أنطونيوس العينطوريني ، وحيدر أحمد شهاب ، اللذان لم يكونا من رجال الدين الاتجاه الجديد ، الذي بدأه الدويهي ، وكان الأول شيخاً إقطاعياً بارزاً في شمال لبنان (ناحية عينطورين) وأدى به طموحه السياسي إلى اعتقاله وتعذيبه وإعدامه بأمر من الأمير بشير شهاب الثاني حاكم لبنان ، وكتابه «مختصر تاريخ لبنان»[٣٢] خليط من الأنساب ، ومختصرات تعالج بشكل رئيس جبل لبنان الإقطاعي مع بعض التركيز على تاريخ الكنيسة المارونية ، وقدم العينطوريني خليطه هذا مع نظرة استوحاها من التاريخ التوراتي والقديم والإسلامي مبتدئاً بآدم ، وأدخل ملاحظات جديدة على التاريخ العام لسورية ليشرح ظروفاً خاصة . وكتب معاصره حيدر أحمد شهاب ، وهو عضو في الأسرة الشهابية الحاكمة وابن عم بشير الثاني ، حولية مشابهة لحولية الدويهي ألح فيها على التاريخ العام لسورية ، مع تأكيد خاص على جبل لبنان[٣٣] . وقد استعمل كل من العينطوريني وشهاب مصادر مختلفة ، بما في ذلك تواريخ مارونية ودرزية أقدم ، وسلاسل نسب ، وآثار مكتوبة . واعتمد كلاهما بدرجة كبيرة على الدويهي ، واستخدم شهاب وهو أكثرهما علماً ، عدداً من الحوليات العربية ، ولاحظ الأحداث الأكثر أهمية في التاريخ الأوروبي[٣٤] .

وتلقت التقاليد العلمانية في كتابة التاريخ المارونية ، التي كانت قد بدأت مع الدويهي ، وطورها العنيطوريني وشهاب ، أول تعبير ناضج عنها في عمل طنوس الشدياق ، أول مؤرخ ماروني (ولبناني) ، عالج تاريخ جبل لبنان كوحدة ، ولم يكن تاريخه «أخبار الأعيان في جبل لبنان»[٣٥] حولية ، مع أن أقسامه التاريخية مرتبطة بترتيب زمني ، إنه عرض وصفي منظم للأجزاء المكونة للبنان الإقطاعي .

ولم يكن الشدياق سيداً كنسياً أو إقطاعياً ، وكان أسلافه وأقرباؤه من الكتاب والمعلمين الخصوصيين في البيوت في خدمة العائلات الإقطاعية اللبنانية منذ أوائل القرن السابع عشر[٣٦] وبصرف النظر عن التعليم الخاص ، والتحاقه سنة بكلية عين ورقة ، الكلية المارونية الشهيرة في أيامه ، علّم الشدياق نفسه بنفسه ، وقد دخل في الخدمة الكتابية للشهابيين في وقت مبكر ، يعود إلى سنة

١٨١٠ ، عندما كان بالكاد في السادسة عشرة واستمر في خدمة ستة أعضاء مختلفين من الأسرة الشهابية ، ككاتب أو معلم منزلي لسنوات عديدة ، بينما كان يكسب دخلاً إضافياً كتاجر .

وكان الشدياق كخادم للشهابيين ضليعاً بالمؤامرات السياسية في أيامه ، خاصة وأنه استخدم من آنٍ لآخر كعميل وجاسوس ، وقد صعد ارتباطه بالأسرة الحاكمة ، وبعلاقاته مع عائلات إقطاعية أخرى ، اهتمامه بتاريخ الحكم الأقطاعي في جبل لبنان . وقد اعترف الشدياق بعدم اهتمامه بتاريخ الكنائس والرهبان ، ورآه غير جدير بالاهتمام ، واهتم الشدياق كثيراً بتاريخ القادة العلمانيين والأعيان من أسر لبنان الإقطاعية ، التي كان تاريخها ، إلى حد كبير ، تاريخ جبل لبنان(٣٧) ، وأوقف الشدياق الفصول الخمسة الأولى من كتابه «أخبار الأعيان» على الجغرافية الطبيعية والسياسية لجبل لبنان ، وأعطى تفاصيل قيمة عن التقسيمات الإقطاعية للبلاد في أوائل القرن التاسع عشر ، وتتبع الشدياق في القسم الثاني من الكتاب سلاسل النسب لثلاث وعشرين عائلة لبنانية ، تسع من الموارنة بينها أسرة (المردة) الحاكمة ، التي افترضها الدويهي(٣٨) وثمان من الدروز ، وست من المسلمين (من الشيعة والسنة) . واستعرض الشدياق في القسم الثالث والأخير من كتابه «أخبار الأعيان» تاريخ جبل لبنان في عهد الأسر الإقطاعية المتعاقبة من الفتح العربي لبلاد الشام حتى أيام المؤلف .

وكان المؤلف مصنفاً أنيقاً ، ولكنه خلافاً للدويهي ، لم يكن عالماً ، فكتابه جيد التصنيف (العرض) لكنه ليس عرضاً نقدياً للحقائق التاريخية ، فقد جاء في أجزاء منه مشوشاً بشكل بائس في التفاصيل ، وقد اعترف باستخدام عدد من المصادر ، شملت مصنفات ابن القلاعي ، والدويهي ، وابن سباط وشهاب ، وإلى جانب ذلك ، توصل الشدياق إلى سلاسل نسب ، بعضها قد لا يكون أصيلاً ، ومكنه احتكاكه مع الأعيان اللبنانيين من الإعتماد على الروايات الشفوية والمحفوظات ، ومن المحتمل على روايات شهود عيان أيضاً(٣٩) ويُعد تاريخه بكل عيوبه مصدراً عظيم القيمة لتاريخ لبنان الإقطاعي ، وبشكل خاص لفترة حكم الشهابيين ، وبالتأكيد يتطلب طبعة نقدية محققة .

ومع الأيام تطورت تقاليد الكتابة التاريخية للموارنة من ابن القلاعي إلى الشدياق . وقد اتسعت آفاقه بالتماسك المتزايد للطائفة المارونية بعد اتحادها الكامل مع روما ، وانشغالها التدريجي بشؤون جبل لبنان . وزود تأسيس الكلية المارونية في روما سنة ١٥٨٤ ، والتدريب على أيدي الإكليروس الماروني ، التقاليد الإكليروسية في حركة التاريخ الماروني بعلماء قادرين ، مثل الدويهي . وأفرز انتشار التعليم العلماني في جبل لبنان بوساطة خريجي الكلية ، شروعاً من أواخر القرن الثامن عشر ، المؤرخين العلمانيين لأوائل القرن التاسع عشر ، ومع أنهم لم يعادلوا المؤرخين الإكليروس في علومهم وثقافتهم ، فإن نظرتهم العلمانية للأمور ، كانت تحسيناً في مجال ضيق من الاهتمام الأقدم بالكتابة التاريخية .

وكان المؤرخون من الإكليروس ، الذين جاؤوا بعد الدويهي ، تنقصهم الأصالة وأسهموا قليلاً في تحسين التقاليد الإكليروسية ، وحدَّ موقفهم المتصلب بالنسبة للأرثوذكسية السرمدية لكنيستهم وطائفتهم من إمكانات ثقافتهم ، وشبيه بهذا ، نجد أن المؤرخين العلمانيين ، الذين جاؤوا بعد الشدياق ، قد أدخلوا تحسيناً طفيفاً على التقاليد العلمانية .

ويبدو أن انتشار التعليم من خلال مدارس البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستنتية والكليات بدءاً من القرن التاسع عشر ، والتطورات التعليمية في لبنان في القرن العشرين ، لم يكن لها تأثير يذكر على الكتابات التاريخية المارونية ، فيما عدا تطوير فن كتابة الروايات ، والزيادة المنذرة بالخطر في إقبال غير المختصين على كتابة التاريخ والبحث فيه .

واستمر الميل الجدلي اللاهوتي في الكتابات التاريخية التقليدية للموارنة في إرباك الثقافة والبحث العلمي لدى الموارنة . ومؤرخو الموارنة اليوم ، لا يقلون عن أسلافهم في متابعة الكتابة دفاعاً عن طائفتهم ، ويبالغون في أهميتها ، وأضافت الميول المتصارعة وموضوعاته المتعلقة في السياسة اللبنانية الحديثة إساءات إلى تقاليد الجدل اللاهوتي وموضوعاته المتعلقة بالأصول ، مثل الأصل المردي للموارنة ، ووحدة جبل لبنان الإقطاعي ، وقد استخدم الأصل الفينيقي للتاريخ اللبناني من قبل الكتاب الموارنة ، طالما أن المؤرخين الموارنة المعاصرين ، أخفقوا

في القيام بثورة شاملة داخل تقاليد الكتابة التاريخية للموارنة في معطيات البحث العلمي الحديثة .

هوامش البحث

١ ـ لقد حاولت القيام بمعالجة نقدية لبعض التواريخ المارونية في كتابي «المؤرخون الموارنة في لبنان خلال العصور الوسطى» (بيروت ١٩٥٩) حيث درست أعمال ثلاثة مؤرخين موارنة : جبرائيل بن القلاعي وأسطفان الدويهي ، وطنوس الشدياق ، وقد قام جورج غراف بدراسة وافية عن الأدب التاريخي لدى الموارنة في كتابه «تاريخ آداب العرب المسيحيين» (روما ١٩٤٤ ـ ١٩٥٣) وسيشار إليه باسم «غراف» .

٢ ـ ان اتحاد الكنيسة المارونية مع روما أبعد من أن يكون حدثاً مفرداً ، لقد كان عملية بدأت في القرن الثاني عشر ، بعد فترة قصيرة من مجيء الفرنجة إلى سورية ، والذي استمر خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر مسبباً نزاعات كبيرة كثيراً ما كانت دموية بين الموارنة حتى قام اتحاد أساسي فعال في أوائل القرن السادس عشر ، وقد عالجت هذا الموضوع مطولاً في مقال : «الكنيسة المارونية في العصور الوسطى واتحادها مع روما» المشرق المسيحي : ٤٢ (١٩٥٨) ص ٩٢ ـ ١٠٤ ، ويوحي التأكيد الذي بذله المؤرخون الموارنة المتأخرون على الارثوذكسية السرمدية المفترضة لكنيستهم أن أدب الموارنة القديم قد دمر في محاولة للتخلص من كل دليل يشير إلى الهرطقة الأصلية للكنيسة .

٣ ـ غراف : ١٠٠/٢ ـ ١٠١ ، ونشر بولس قرعلي كتاب كملحق لكتاب «حروب المقدمين» ١٠٧٥ ـ ١٤٣٠ (بيت شباب ١٩٣٧) . ص ٨٥ ـ ٨٨ .

٤ ـ من أجل دراسة كاملة للنشاط التاريخي الماروني في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر انظر غراف : ٣٣٣/٣ ـ ٣٦١ .

٥ ـ نشرت كتابات السمعاني والقيال في الدفاع عن الأرثوذكسية المارونية السرمدية معاً في كتاب أفرام الديراني كتاب «المحاماة عن الموارنة وقديسهم» (١٨٩٩) بدون ذكر مكان النشر .

٦ ـ إن الممثل الأكثر علماً بهذه التقاليد هو الموسنيور بيير ديب ، رئيس الأساقفة الماروني في القاهرة ، الذي كتب بالفرنسية .

٧ ـ رأى غراف (٣٠٦/٣) أن الموارنة قد أنتجوا أفضل أدب تاريخي بين الطوائف المسيحية الشرقية .

٨ ـ لم تعترف روما مطلقاً بيوحنا مارون ، المؤسس شبه الأسطوري للكنيسة المارونية في لبنان

كقديس ، حيث أنه كان يشك في أنه كان هرطقياً يقول بالإرادة الواحدة ، ولم تعترف روما بأي قديس ماروني آخر .

٩ ـ سافر ابن القلاعي مع اثنين من رفاقه لا يعرف عنهما سوى القليل جداً إلى إيطاليا ، ودرسوا هناك قبل تأسيس الكلية المارونية في روما في ١٥٨٤ ، وهم أول الموارنة الذين عرف أنهم درسوا في إيطاليا .

١٠ ـ ومع أن ابن القلاعي عاش في إيطاليا في ذروة النهضة الإيطالية ، يبدو أنه بقي تماماً غير متأثر بتلك الحركة الثقافية العظيمة .

١١ ـ كتب ابن القلاعي في أعماله الأصلية والنثرية المترجمة كما في رسائله باللغة العربية التقليدية . وهي لغة لم يكن لديه معرفة واقعية بها ، وبصرف النظر من أخطائه الإملائية ، وبنائه للجمل ، كان أسلوبه غريباً عن العربية ، لقد كان مزيجاً من عاميته اللبناني برواسبها السريانية ومؤثراتها اللاتينية الوسيطة .

١٢ ـ انظر رقم ٨ ـ أعلاه .

١٣ ـ نشره بولس القرعلي ، مع ملاحظات وملاحق مثل حروب المقدمين (١٠٧٥ ـ ١٤٥٠) (بيت شباب ١٩٣٧) وفي هذه الطبعة المنشورة يتألف الشعر من ٢٩٤ رباعية وملاحظات القرعلي تساعد أحياناً ، وكثيراً ما تكون مضللة .

١٤ ـ نشره ابراهيم حرفوش في المنارة (١٩٣١) ٢/٧٤٨ ـ ٧٥٨ ـ ٨٠٥ ـ ٨١٣ ـ ٩٠١ ـ ٩٠٧ من مخطوط بكركي الوحيد . والصفحات السبعة المفقودة من المخطوط قد استبدلت في هذه الطبقة بصياغة جديدة للأبيات المفقودة التي نظمها الدويهي .

١٥ ـ نشره ابرهيم حرفوش في المنارة (١٩٣٢) ٣/٩٩ ـ ١٠٦ ، ١٧٦ ـ ١٨٣ و ٢٦٠ ـ ٢٦٣ .

١٦ ـ غ . غراف المرجع نفسه ص ٣٣٥ . لم ينشر عمله .

١٧ ـ المصدر نفسه ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ ، ونقل الدويهي من زجليته عن الحروب بين الموارنة والروم في كتابه «تاريخ الطائفة المارونية» (بيروت ١٨٩٠) ص ٨٢ .

١٨ ـ ناقش جبرائيل الأدنيتي تبعاً للدويهي أصل الموارنة في نقده كتاب «القداس السرياني» وهو مما لم يذكره غراف ولم يكن أيضاً قادراً على تتبع أي من أعماله .

١٩ ـ توما الكفرطابي (انظر غراف : ٢/٩٨ ـ ١٠٠) الأسقف الماروني لكفرطاب ، وهي بلدة سورية صغيرة إلى الشمال الغربي من حماه ـ وهو مؤلف كتاب في اللاهوت الجدلي اسمه المقالات العشر أيد فيه فكرة الإرادة الواحدة (نشره فيليب سمراني في المنارة (١٩٣٦) ٧/٣٤٧ . . . وقد عاش توما في فترة التحول بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر قبل توحد الكنيسة المارونية مع روما ، ويبدو أن رسالته في الإرادة الواحدة وهي العمل الوحيد

الباقي من أدب ما قبل التوحيد ، تشكل ارباكاً مستمراً لأنصار نظرية الأرثوذكسية المارونية السرمدية .

٢٠ ـ تاريخ صالح بن يحيى أمير الدروز (البحتري : ١٤٣٦) ولم يصبح معروفاً لدى المؤرخين الموارنة حتى نهاية القرن التاسع عشر ، واستخدم ابن سباط (ت : ١٥٢٠) وكان في خدمة البحتريين تاريخ صالح بن يحيى في كتابه (مخطوط المجلد الثاني فقط ، في مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت) ومن خلاله أصبح المؤرخون الموارنة عارفين بتاريخ دروز لبنان في أواخر العصور الوسطى .

٢١ ـ أحمد بن علي بن أحمد بن الحريري مؤلف «منتخب الزمان من تاريخ الخلفاء والعلماء والأعيان» كتب في ٩٢٩ هجرية / ١٥٢٠ ميلادية . أنظر بروكلمان : الذيل ٢/٤٠٦ ، وتولى طباعته ي . ا . خليفة .

٢٢ ـ نشره رشيد الخوري الشرتوني (بيروت ١٨٩٠) .

٢٣ ـ نشره رشيد الخوري الشرتوني في المشرق (١٨٩٨) ١/٢٤٧ ـ ٢٥٢ ، ٣٠٨ ـ ٣١٣ ، ٣٤٧ ـ ٣٥٣ . وتم تحسين الترتيب الزمَني للبطاركة الموارنة فيما بعد من قبل طوبية العنسي في سلسلة تاريخية لبطاركة أنطاكية الموارنة (روما ١٩٢٧) .

٢٤ ـ راجع مع نظرية تحدر دروز لبنان من الكونت الفرنجي دي دروز De Dreux التي تطورت أيضاً في القرن السابع عشر .

٢٥ ـ يوسف الدبس ـ الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل ـ بيروت ١٩٠٥ بالعربية . وأيضاً بالفرنسية ـ الأرثوذكسية السرمدية للموارنة ـ آرانس ١٨٩٦ .

٢٦ ـ يوسف دريان ـ ألباب البراهين الجلية عن حقيقة أمر الطائفة المارونية ـ بيروت ١٩١١ .

٢٧ ـ بيير ديب ـ الكنيسة المارونية ج١ ـ الكنيسة المارونية حتى نهاية العصور الوسطى . باريس ١٩٣٠ وأيضاً موضوع الموارنة في معجم اللاهوت الكاثوليكي . ولاحظ ديب ضعف حجج الدويهي ، وحاول ترسيخ الأرثوذكسية المارونية السرمدية على أسس أخرى بنجاح قليل أكثر .

٢٨ ـ هنري لامنس ـ المردة ـ في دائرة المعارف الإسلامية ٣/٢٧٢ ـ ٢٧٣ من الطبعة الأولى .

٢٩ ـ الدويهي ـ المصدر نفسه ص ٦٨ ـ ٧٠ .

٣٠ ـ ي ـ دبس ـ المصدر نفسه ، ا . ي دريان ـ نبضة تاريخية في أصل الطائفة المارونية واستقلالها بجبل لبنان من قديم الدهر حتى الآن بيروت ١٩١٦ . وموقف الأخير غير واضح منذ جادل في الأصل الفينيقي للموارنة في حين يقبل أصلهم المردي .

٣١ ـ نشره فرديناند توتال (S.J) وذلك بمثابة الجزء ٤٤ للمشرق تحت عنوان تاريخ الأزمنة

١٠٩٥ ـ ١٦٩٩ م بيروت ١٩٥١ وبعض مخطوطات التاريخ تبدأ بسنة الهجرة (٦٢٢ م) في حين أن أخرى تبدأ بالحملة الصليبية الأولى .

٣٢ ـ نشره مع مقدمته ملاحظات أغناطيوس طنوس الخوري (بيروت ١٩٥٣) ج٣ ص ٤٧٧ ـ ٣٧٨ حيث يدرج العينطوريني بين الكتاب من إكليروس الموارنة . ولم يكن العينطوريني من الإكليروس . وكان يحمل لقب شماس شرفي بفضل كونه شيخاً قيادياً طبقاً لعادة مارونية قديمة .

٣٣ ـ طبع في القاهرة (١٩٠٠ ـ ١) تحت عنوان تاريخ الامير حيدر الشهابي . والدورية في ثلاثة أجزاء وعنوان الأول ، «الغر الحسان في تاريخ حوادث الزمان» ويغطي الفترة (٦٢٢ ـ ١٦٩٧) والثاني عنوانه «نزهة الزمان في تاريخ جبل لبنان» ، ويعالج الفترة (١٦٩٧ ـ ١٨٠٠) والثالث بعنوان «الروض الناضر في ولاية الأمير بشير قاسم الكبير» ، ويصل بالدورية إلى ١٨٤١ (أكملت بعد وفاته) .

٣٤ ـ ذكر من حين لآخر تفاصيل في التاريخ الأوروبي تعكس معرفة جيدة بالموضوع . فتحت سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م ذكر طباعة أول كتاب للصلاة الشائعة في انكلترا بأمر من ادوارد السادس وموافقة البرلمان عليها . انظر المصدر نفسه ١/٦١٢ .

٣٥ ـ طبع تحت اشراف مشترك من مؤلفه وبطرس البستاني العالم اللبناني الرائد للقرن التاسع عشر في المطبعة الأمريكية ببيروت ١٨٥٥ ـ ١٨٥٩ .

٣٦ ـ شكل آل الشدياق ، مثلهم مثل آل اليازجي ، وبعض أسر أخرى أرستقراطية إدارية في جبل لبنان ، كان لها الحق في لقب شيخ .

٣٧ ـ أخذت النقول من مقدمة الشدياق الملخصة لكتاب الدويهي تاريخ الأزمنة الموجود في مخطوط في مجموعة خاصة .

٣٨ ـ أعدت قائمة حكام المردة لشمال لبنان في وقت سالف من قبل يوسف مارون الدويهي . أنظر الدويهي ، تاريخ الطائفة المارونية ص٢٩٧ . ويبدو أن الشدياق اعتمد على هذه القائمة .

٣٩ ـ أدرج الشدياق مصادره في بداية كتابه ، أخبار الأعيان ، وقد اعترف باستخدام سلاسل النسب العائلية والروايات الشفوية إضافة إلى المحفوظات الشخصية .

٢٠. مؤرخو لبنان
ألبرت حوراني
محاضر في التاريخ الحديث للشرق الأوسط في جامعة أكسفورد.

دوّن تاريخ لبنان في السنوات الثلاثمائة الأخيرة بالتفصيل من قبل سلسلة من اللبنانيين ، الذين اختلفوا في براعتهم ، ولكنهم جميعاً ملكوا شيئاً من الحس التاريخي ، بمعنى أنه كان لديهم بعض الإدراك لنتائج السبب ومؤثراته ، وأهمية بناء رواياتهم على الأدلة ، ولعله لا توجد منطقة أخرى في المشرق العربي ينطبق هذا عليها بدرجة الصحة نفسها ، فمعظم معرفتنا عن مصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر قائمة على حولية واحدة ، ومعرفتنا عن دمشق وحلب وبغداد في تلك الفترة ناقصة ، وفي جبال كردستان ، حيث التطورات السياسية ومجرياتها ليست عديمة الشبه بتلك ، التي تعلقت بلبنان ، وجدت القليل من الكتاب المحليين لتسجيلها ، وهناك سببان لهذا الإزدهار في حركة التاريخ اللبنانية ، أولها وجود فئة متعلمةٍ على معرفة جيدة بالعربية ، وبعض الاهتمامات الفكرية للعصر الحديث ، وثانيها وجود قضايا متميزة جديرة بالاهتمام ، وليس مجرد عملية تاريخية تتطلب الشرح ، بل أطروحة تطلبت الدفاع .

إن المجموعة الهامة الأولى من المؤرخين اللبنانيين المحدثين ، كانوا موارنة وبعض الكهنة الكاثوليك المشارقة الذين تعلموا في معاهد اللاهوت في روما حيث كان موضوعهم المحدد الطائفة الدينية ، التي كانوا ينتسبون إليها . وكان الاهتمام الخاص للموارنة الدفاع ضد الكتاب الكاثوليك الآخرين والادعاء أن كنيستهم كانت دوماً كاثوليكية مخلصة ، وأنها لم تقبل هرطقة الإرادة الواحدة التي كان

الاتهام بها ، حتى بعد ألف سنة ، يبدو قذفاً لا يمكن تحمله ، فلقد كانوا يكتبون في وقت كانت الكتلة الدينية فيه ، هي المجتمع السياسي أيضاً ، ولم يمجدوا فقط الطريقة التي دافع بها أسلافهم عن العقيدة ، بل أيضاً عن الطريقة ، التي حافظوا بها على استقلالهم في أودية شمال لبنان ضد الحكام المسلمين في الأراضي المحيطة بهم ، وأقاموا هناك وجوداً سياسياً منفصلاً ، وإن كان هشاً ، وقد تقارب هذان الخطان الفكريان في عمل البطريرك أسطفان الدويهي (١٦٣٠ - ١٧٠٤) الذي كان أعظم المؤرخين الإكليركيين الموارنة ، فلقد كتب عدداً من الأبحاث التاريخية : قائمة البطاركة الموارنة ، تاريخ الطائفة المارونية وتاريخاً عاماً (تاريخ الأزمنة)[1] ومن بين هذه الكتب آخرها يُعد أهمها ، وهو كتاب على شكل تاريخ عام ، يبدأ في بعض المخطوطات في ٦٢٢م وفي أخرى بالحملة الصليبية الأولى ، وينتهي في ١٦٩٩ ، وقد تركز بشكل رئيس على تاريخ لبنان وعلاقاته بالحكام المتتابعين في المناطق المحيطة ، من الصليبيين ، فالمماليك ، فالعثمانيين ، وهو هام وكامل بشكل خاص بالنسبة للقرنين الأخيرين .

وكان الدويهي أشبه بمؤرخ حديث منه بأسلافه ، وقد أسس عمله على أوسع مجموعة مركبة من المصادر ، لا بل إنه ذكرها ، فقد ذكر في نسخته المخطوطة من التاريخ بعض المؤرخين الأقدم ، الذين استخدم أعمالهم ، مثل ابن سباط للتنوخيين ، والصفدي لفخر الدين ، ووليم الصوري للصليبيين ، وجمع المواد أيضاً من الكتب الكنسية المارونية ووثائق الفاتيكان ، وبذل بعض الجهود ليقدر قيمة مصادره ، مع أن حسه الناقد ، قد انهار عندما عالج التاريخ القديم للموارنة ، علاوة على ذلك اهتم بالحقائق ، لا لقدمها ، بل لذاتها ، وتكمن خلف عمله رؤية تاريخية ، وكان معنياً بالموارنة ليس فقط كمجموعة سياسية واحدة ، تتفاعل مع بعضها ، ولكن كحملة مذاهب معينة وثقافة ، صدرت عنها ، وكان اليعاقبة الذين تسللوا إلى لبنان في القرن الخامس عشر في نظره أعداءً للموارنة ، مثلهم في درجة العداء ، مثل جيوش المماليك من حولهم .

ولم يكتب الدويهي ونظراؤه من الكتاب التاريخ من أجل التاريخ وحده ، وكان اهتمامهم بالكنيسة المارونية وماضيها تعبيراً واحداً فقط من تعابير حركة الكاثوليك الفكرية الجديدة ، والتقوى بين الكهنوت الشرقي الكاثوليكي ، وحتى

ضمن محيط التاريخ نظر الموارنة خلفهم ، واحتضن اهتمامهم كامل التاريخ العربي والثقافي ، وتاريخ النصرانية الشرقية وأدبها بأجمعها ، ومن بين العدد الكبير من الدارسين الموارنة في زمانه . كانت أسرة السمعاني ، هي الأشهر ، وهي أسرة من الكهنة والعلماء تدربوا في الكلية المارونية في روما ، وجاءت معظم كتاباتهم باللاتينية للعالم الأوروبي المتعلم ، وليس بالعربية لشعبهم الخاص ، وكتبوا بشكل رئيس حول فكر وحياة النصرانية المشرقية ، التي جاؤوا منها ، وكان أعظمهم جوزيف السمعاني مدير مكتبة الفاتيكان (١٩٨٧ ـ ١٧٦٨) وقد قام بكتابة أربعة مجلدات . ضمنها مسحاً (للمصادر الشرقية) للأدب اللاهوتي للموارنة والنساطرة واليعاقبة ، وكتب ابن أخيه جوزيف ألوسيوس تاريخاً لبطاركة الكلدانيين والنساطرة[٣] وكتب ثالث من أعضاء العائلة ، هو سيمون ، بحثاً علمياً في تأثير العربية على الأدب الأوروبي الحديث[٤] .

وعندما كتب الدويهي التاريخ المحلي ، كتب بشكل رئيس عن شمالي لبنان . وفي الحقيقة بالنسبة لمعظم الفترة ، التي غطاها ، لم يكن الشمال والجنوب موحدين سياسياً . وكان الجنوب محكوماً بشكل رئيس من قبل عائلة رئيسة من الدروز ، في حين كان الشمال محكوماً جزئياً من قبل مقدمين من أعيان الموارنة ، وجزئياً من قبل السادة المسلمين ، الذين وطنهم المماليك والعثمانيون هناك لمراقبة سكان يُشك في ولائهم ، ولكن خلال أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، توحد الجبل كله على يد إحدى العائلات الدرزية الكبيرة ، وأعني بذلك الأسرة المعنية . ومنذ فخر الدين الثاني (١٥٨٦ ـ ١٦٣٥) ولما يزيد عن مائتي عام ، كان لبنان إمارة وراثية ، وكان الأمير ينحدر من الأسرة المعنية حتى (١٦٩٧) ثم من الشهابيين المسلمين من (١٦٩٧ ـ ١٨٤١) ، ومن حيث المبدأ ، كان يستمد شرعيته من ولاة العثمانيين في صيدا وطرابلس ، الذين كانوا يعطونه رتبة سنوية كضامن جباية رئيس من الفلاحين من كامل الجبل ، ولكنه كان في الواقع مستقلاً ، وكان يحكم من خلال هيئة من العائلات الكبيرة من دروز وموارنة ، وإلى حد أدنى من المسلمين ، الذين أوفد إليهم قوات من جامعي الضرائب ، الذين كان لهم حقوق تملك الأراضي ، وتطورت ضمن هذا الإطار حياة سياسية استمرت إلى حد ما حتى اليوم ، وكان الحاكم يناضل للحفاظ على

وقد أعطى تفاصيل قيمة على سبيل المثال حول طرد العائلة الشيعية ، آل حمادة من الشمال الماروني ، وكان عندما يتعامل مع التاريخ اللبناني العام ، لأنه خلافاً لمعظم المؤرخين الآخرين في تلك الأيام ، دعم الجانب الخاسر في الصراعات السياسية في ذلك الوقت ، ووقف في صف أبناء الأمير يوسف ضد الأمير بشير ، الذي أعدم من قبله في الواقع في ١٨٢١ .

وبين هذه المجموعة من الأعمال ، التي كتبها مؤلفون مسيحيون في خدمة حكام من الدروز أو المسلمين في الجنوب ، قد نذكر تلك التي كتبها أعضاء من أسرة الصباغ حول الحاكم ، الذي خدموه ، وأعني به ظاهر العمر ، الذي أقام دولة صغيرة في شمالي فلسطين وجنوب لبنان ، وأقام الرخاء في عكا . وهناك سيرة له كتبها عبود صباغ[٩] وأخرى كتبها ميخائيل[١٠] الذي عمل في إدارة نابليون في مصر ، وهرب مع الجيش الفرنسي إلى فرنسا ١٨٠١ ، وعمل هناك مع المستشرقين في أيامه حتى وفاته ١٨١٦ . ومما له أهمية أعظم ، تاريخ ابراهيم العورة عن حكم سليمان باشا ، الذي خلف الجزار في صيدا[١١] وكان العورة كاتباً في ديوان حكومة صيدا الإقليمية ، التي انتقلت عاصمتها الآن إلى عكا ، وعضواً في عائلة من الكتبة ، وكان قريباً بدرجة كافية من قلب الأمور ، ليعرف كيف كانت تتخذ القرارات ، وأعطى وصفاً مهماً لمجموعة الحكم الإقليمي ، التي أسسها الجزار ، التي حكمت حتى الحملة المصرية في ١٨٣١ : كيف شكلت والتوازن بين العناصر المملوكية والمحلية والدينية والمدنية المسلمة ، والمسيحية واليهودية في تكوينها ، والإجراء الذي استخدم من قبل الموظفين ، والطريقة التي كانوا يأخذون بها أجورهم ، والعلاقات المالية وسواها بين الإقليم والحكومة المركزية في استانبول .

وكتب عورة هذا الكتاب بعد نحو نصف قرن (قال إنه أتمه في سنة ١٨٥٣) لكنه استرجع حيوية الأحداث ، وجو شبابه ، وعمله هو واحد من الأعمال القليلة في التاريخ اللبناني ، التي يمكن أن تسمع فيها أصوات الرجال وهم يتحدثون ، وكتبت غالبية هذه الأعمال من التاريخ العلماني من قبل كهنة ، أو كتاب كانوا في خدمة الأمراء الشهابيين ، أو أوقفت على مصالحهم .

وتجمع حول الشهابيين ، وبشكل خاص حول بشير الشهابي (١٧٨٨ - ١٨٤٠) ، غالبية الكتاب - باستثناء واحد فقط - وأعظم رجال الأدب في

أيامه ، حيث وجدوا بخدمة الأمير عملاً جديراً بمؤهلاتهم تماماً ، كما حدث فيما بعد عندما توجب على المثقفين اللبنانيين ، أن يجدوا عملاً في خدمة الخديوي والبريطانيين في مصر ، والبريطانيين في السودان .

وكانت كتابة التاريخ بالنسبة لهذه المجموعة من الرجال تمثل مظهراً واحداً فقط من مظاهر نشاط أدبي متعدد ، وقد أنتجت هذه العشيرة من الكتاب ليس فقط مؤرخي عصرهم ، بل آباء الحركات الشعرية واللغوية للبنان في القرن التاسع عشر . وكان بين الشخصيات البارزة من هذه المجموعة ، الراهب الكاثوليكي اليوناني حنانيا المنير (١٧٥٦ ـ ١٨٣٢ ؟) الذي كتب تاريخاً خاصاً بطائفته الدينية والشويرية[١٢] وهو كتاب عن عقائد الدروز ، استعمله غويس Guys وامتدحه ساسي ، وتاريخاً عاماً للبنان أو بالأحرى لعائلة شهاب ومنطقة الشوف ، التي كانت مركزاً لسلطتهم وحمل هذا الكتاب اسم (الدر الموصوف في تاريخ الشوف)[١٣] وهو تاريخ سياسي من (١٦٩٧ ـ ١٨٠٧) أُقيم جزئياً على الآثار العامة ، وجزئياً على ملاحظاته الخاصة ، وجزئياً على يوميات ووثائق أخرى ، خاصة طائفته من الرهبان ، وكتب بأسلوب صحيح وواضح ، ويقال إنه قد روجع من قبل الكاتب الشهير الشيخ ناصيف اليازجي ، وهو في القسم الأعظم حكاية مباشرة . ولكن ليس من الصعب رؤية تعاطف المؤلف مع بشير في صراعه ضد انتهاكات الجزار ، وضد المعارضة الداخلية ، التي قادها أقاربه أبناء الأمير يوسف . ومع ذلك ، لم يكن أهم عضو من المجموعة ، كاهناً ولا موظفاً ، بل عضواً في الأسرة الحاكمة نفسها ، إنه الأمير حيدر أحمد شهاب (١٧٦١ ـ ١٨٣٥) وكان ابن عم بشير الثاني ، وخلافاً لبشير الذي بقي ولاؤه الديني موضع شك طيلة حياته ، مع أنه مات ودفن ككاثوليكي .

انتمي حيدر إلى ذلك القسم من عائلة شهاب ، الذي تخلى عن الإسلام وأصبح علناً مارونياً خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وقد استخدمه بشير في المهام السياسية السرية ، التي كان لها بعض الأهمية . ولكن القسم الأكبر من وقته ، أعطي للأعمال الورعة والعلمية ، وليجمع حوله مجموعة من الدارسين ، ويكتب بمساعدتهم تاريخ لبنان وأسرته تحت عنوان «الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان» وهو مقسم إلى ثلاثة أجزاء ، أُعطي كل منها عنواناً مستقلاً من

قبل الناسخين المتأخرين ، ولكن ليس ، كما هو واضح ، من قبل المؤلف نفسه ، ويمتد القسم الأول من ٦٢٢ إلى نهاية حكم الأسرة المعنية في ١٦٩٧ ، والثاني من ١٦٩٧ إلى ١٨١٨ ، والثالث من ١٨١٩ إلى ١٨٢٧ . ويبدو أن حيدراً أيضاً ، قد كتب عملاً آخر أوجز في وقت متأخر من حياته ، تعامل بشكل خاص مع الأمير بشير ، وتابع القصة تقريباً حتى وفاة المؤرخ[١٤] . ووفقاً للعادة في عصره ، لم يشر حيدر إلى مصادره في مسار العمل ، ولكن يمكن تكوين فكرة ما عنها من أدلة داخلية وخارجية على السواء ، وبالنسبة للقسم الأول ، استخدم التواريخ الإسلامية العامة ، وبشكل خاص الطبري ، وبعض المصادر الأوروبية (وليم الصوري وبارونيوس) والتواريخ القديمة للبنان ، وبالنسبة للجزأين الثاني والثالث ، اعتمد أيضاً على الحوليات المتقدمة ، ولكن مع مصادر أخرى كثيرة إلى جانب ذلك ، وكان تحت تصرفه عدد كبير من الوثائق الرسمية ـ فرمانات عثمانية ، ومراسلات بين بشير والرسميين الأتراك ، وقد نقل بعضها بكامله .

وأولى إدارة بشير المالية والعامة عناية توثيقية خاصة وفقاً للقواعد الصارمة للإجراءات . ولا بد أن نسبة كبيرة من الوثائق ، قد وقعت تحت أنظار حيدر خلال عمله الرسمي ، ولعل أهم شيء كان ملاحظاته الخاصة ، وملاحظات الآخرين ، الذين كان على تماس معهم . وفي مجتمع ريفي حيث كان التعليم نادراً ، وحيث الأفاق المحدودة وسيطرة العادة ، كان من المهم تذكر ما حدث بالضبط . وقد تعود الذاكرة المتراكمة المفصلة والدقيقة إلى أجيال عديدة ، ولكون حيدر قد ولد في ١٧٦١ ، فلا بد أنه كان قادراً على أن يستمد من مذكرات تعود بشكل خاص إلى بداية القرن الثامن عشر .

والموضوع الرئيس لكتابه هو سياسة الأمراء الشهابيين ، وتتحكم بالجزء الأخير منه شخصية بشير ، وحيث أن حيدراً كان عضواً في الأسرة الحاكمة فقد كتب تاريخه لا من وجهة نظر الإدارة المدنية ، بل من وجهة نظر القوم الذين كانوا يصنعون السياسة ، ويتخذون القرارات ، وندر إدخال التفاصيل على أية رواية بغرض تبيان البواعث ، ولكن من الواضح ، أن حيدراً كانت لديه الثقافة السياسية ، والقدرة على فهم الأهداف ، والطرق ، وحدود العمل السياسي الذي طورته الأسر الحاكمة ونفذته ، ومن الواضح أيضاً ، أنه كان في جميع المنازعات

التي تعامل معها إلى جانب بشير وعائلته ، وقد وقف مع الشهابيين ضد الجزار ، ومع بشير ضد الأمير يوسف ، ومع بشير أيضاً ضد تحدي عائلة جنبلاط الدرزية الكبيرة .

وقد أعطى أيضاً قدراً معيناً من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي (إن قوائم أسعاره من حين لآخر قد تكون ذات أهمية لمؤرخ اقتصادي) وبعض التاريخ العام لسورية ، مع أنه مصنف لدمشق وجنوبي فلسطين أكثر منه لمناطق أكثر بعداً ، وهناك في القسم الأقدم إشارات ، من حين لآخر ، إلى التاريخ الأوروبي ، وفي القسم الثاني هناك رواية مطولة عن الحملة الفرنسية على مصر ، قدم لها برواية أقصر عن الثورة الفرنسية ، وخلع لويس السادس عشر واعدامه وارتقاء نابليون سدة الحكم ، وشغل هذا تقريباً ربع الجزء الثاني ـ (١٣٠ صفحة من أحدث طبعة) . وكان إعطاء مثل هذه المساحة الكبيرة للاحتلال الفرنسي لمصر ، يعود في المقام الأول للمادة الكبيرة المتوفرة ، وقامت رواية حيدر في الحقيقة على تاريخ مفصل للاحتلال الفرنسي ، كتبه نقولا الترك ، وكان شاعراً وعضواً في بلاط بشير أرسله بشير إلى مصر ، ليعد تقارير عن الاحتلال الفرنسي ، وكان الذي كتبه فيما بعد ، ما علمه ورآه ، أودعه في كتاب متماسك ، توجد منه روايتان مختلفتان [٥] .

وكان حيدر مؤرخاً واعياً لذاته وفطناً ، اختار مادته ، وألح عليها من منطلق مارآه هاماً ، وعندما قرر استعمال كل مادة نقولا الترك ، لا بد أنه فعل ذلك بسبب أن الثورة الفرنسية والحملة على مصر ، بدت له أحداثاً ذات دلالات غير عادية .

ولدينا بعض المعلومات حول الطريقة ، التي كتب بها حيدر كتابه لقد كان لديه ورشة من الكتاب تنتج المادة والمسودات ، وقد ضمت معظم الكتاب البارزين في ذلك الوقت ، فارس وأسعد الشدياق ، وبطرس كرامة ، ونقولا الترك ، وناصيف اليازجي . ولعل بعض المادة ، التي أنتجوها ، قد دمجت بدون تغيير ، ولكن بالنسبة للجزء الأعظم ، كتب حيدر نفسه النسخة النهائية ، وأعطى للعمل شكله النهائي . وتوضح هذه الطريقة من التصنيف سبب مجيء الكتاب بأكثر من صورة ، وتوجد مخطوطات عديدة منه ، بعضها ينتهي أبكر من الآخر ،

ويبدو أنها تقع في مجموعتين متميزتين ، مجموعة مبنية على رواية المؤلف الخاصة ، وأخرى استمدت من نسخة وضعت ، وعدلت بحرية من قبل ناصيف اليازجي . وللسبب نفسه يوجد عدد من الأعمال الأخرى القائمة بوضوح على المادة نفسها ، ولها الارتباط نفسه بالتاريخ الرئيسي . ويعزى بعض هذه الأعمال إلى حيدر نفسه ، وأخرى مجهولة المؤلف ، أو معزوة لأحد مساعديه ، وهي تضم تاريخاً لأحمد باشا الجزار[١٦] ، حقق مؤخراً ، وينسبه المحقق إلى حيدر ، وكتاباً صغيراً في الجغرافية السياسية والأجراءات الإدارية في لبنان في عهد بشير[١٧] .

وكان من بين الذين عملوا عن قرب مع حيدر ، وأُتيح لهم الوصول إلى المادة نفسها واحد ، قدّر له ، أن يصبح مؤرخاً بارزاً ، إنه طنوس الشدياق (١٧٩١ - ١٨٦١) أخو فارس وأسعد ، الذي نشر في ١٨٥٩ مع بعض المساعدة من بطرس البستاني ، كتاباً كبيراً عن العائلات النبيلة في لبنان اسمه «أخبار الأعيان في جبل لبنان»[١٨] وهو مقسم إلى ثلاثة أقسام عالجت على التوالى جغرافية لبنان ، فسلاسل الأنساب لعائلاته الكبيرة ، وأخيراً تاريخه السياسي الحديث ، وأعطى المؤلف في المقدمة قائمة بالمصادر ، التي استخدمها ، وهي تشمل الحوليات الأقدم ، والمذكرات الشخصية لشيوخ الدروز وآخرين ، وبعض الوثائق الرسمية ، ومحفوظاته ، كما ذكر ، منذ ١٨٢٠ ، وأجزاء رواياته التي تغطي الأرضية نفسها لحيدر الشهابي مع إضافات يسيرة ، ولكن بالنسبة للأحداث المتأخرة (السنوات الأخيرة لبشير والاحتلال المصري وتزايد التوتر في ١٨٤٠ و١٨٥٠) فالكتاب هام ، فيه تفاصيل حول أصل العائلات ، وقيامها، يندر وجودها في أي مكان آخر ، مع أننا قد نشك أحياناً في أنه كان شديد الكرم واللين في قبول دعاوى العائلات القديمة بشأن أصولها القديمة ، علاوة على أن تصورها بالذات أصيل ، ولم يكن موضوعه المحدد ، كما الحال مع حيدر ، حاكم أو أسرة حاكمة ، بل هو مجتمع ، إنه لبنان نفسه : وعنوان الكتاب نفسه هام ، وهو لم ير لبنان ببساطة إقليماً موحداً ، تحكمه عائلة أميرية واحدة ، بل رآه ككل تركيباً من العائلات ، لكل منها فلكه الخاص من السلطة . أو كلها متوازنة بصورة معقدة ومرتبطة مع بعضها بعضاً . وهذه العائلات قد تكون من الدروز ، أو الموارنة ، أو من السنة ، أو الشيعة من المسلمين ، ولكن سلطتها مستمدة من قوة إقليمية

أكثر من الولاء الديني ، وتعطي مصالحها المشتركة لبنان وحدة تسمو على الفروق الدينية . وهكذا أسهم طنوس الشدياق بشيء أساسي في فهمنا للبنان الإقطاعي .

- ٣ -

اختفى لبنان الأقطاعي في اضطرابات الأجيال ، التي امتدت من ١٨٣١ إلى ١٨٦٠ ، وبدأ بشير من أجل فرض نزع السلاح والتجنيد ، إطاعة لأوامر ابراهيم باشا ، بالإيقاع بين المسيحيين والدروز ، وعندما اضطر ابراهيم للجلاء عن سورية ، خُلع بشير ، وفي عهد خليفته الضعيف ، سرعان ما فقد الأمراء الشهابيون نفوذهم وعرشهم ، وبدأ الأتراك بالتدخل أكثر فأكثر لتدمير استقلال لبنان كما دمروا استقلال مناطق أخرى من الأمبراطورية ، ودفع الصراع بين بريطانيا وفرنسا على النفوذ ، بالأولى إلى إقامة علاقة مع قسم من الدروز ، في حين قوت الثانية من علاقاتها القديمة مع الموارنة ، وأدى تزايد الطائفة المارونية في عدد الأفراد والثروة والثقافة والتضامن إلى جعلها أقل رغبة في تقبل الزعامة الاجتماعية التقليدية للنبالة التي أغلبها درزي .

وكان مزيج من هذه العوامل ، هو الذي قاد إلى الحرب الأهلية في ١٨٦٠ وسبب اتخاذها لخاصية الصراع الديني ، وبعد الحرب وتدخل القوى الكبرى جُعل من لبنان سنجقا مستقلا في الأمبراطورية تحت حماية القوى الكبرى مع بنية سياسية أرسيت قواعدها في قانون تنظيمي أساسي (١٨٦١-١٨٦٤) قام على الطوائف الدينية ، وبعد نصف قرن في ١٩٢٠ ، اتسع السنجق ، وتحول إلى دولة لبنان الكبير ، التي تحولت بموجب دستور ١٩٢٦ إلى جمهورية قائمة على المبدأ نفسه في التعاون المتكافىء بين طوائف دينية متميزة ، وقد أعطت هذه التطورات أصلاً ثالثا من التاريخ إضافة إلى الإثنين الآخرين .

وصحيح أن هذين الأصلين ، ما زالا مستمرين ، فقد كُتب الكثير من التاريخ الطائفي وكان ما يزال في غالبيته مارونياً معنياً بالدفاع عن الأرثوذكسية السرمدية للموارنة ودورها في المحافظة على العقيدة الكاثوليكية ونشرها في المشرق ، وإن أعمال الخوري دريان [دريان][١٩] وأفرام الدايراني[٢٠] والخوري ديب[٢١] والأب رافائيل[٢٢] هي في خط مستقيم من التحدر من خطوط الدويهي ،

واستعان الخوري ديب للدفاع عن الموارنة بمهارات مؤرخ ولاهوتي كنسي تام التدريب ، واستمر وجود عنصر دفاعي حول هذه الكتابة المارونية ، تلا الاتهام بالهرطقة ، وكان أكثر ما أثار استياءهم تواني الكنيسة عن الاعتراف بقديسي الموارنة الشعبيين وهناك عنصر فخر طائفي في طائفة مارشربل الجديدة ، الذي أصبح قبره محجا ، وبدت الحساسية المفرطة لدى الموارنة بشأن ماضيهم البعيد ، عندما نشر الفيكومت فيليب الطرزي كتاباً بعنوان «أصدق ما كان عن تاريخ لبنان»[٢٣] استهدف أن يثبت فيه ، أن اليعاقبة وليس الموارنة ، كانوا سكان لبنان الأصليين ، وأدى هذا إلى نشر رد حاد من عالم ماروني هو الأب بولس قرألي[٢٤] ، وقد اهتمت طوائف دينية أخرى أيضاً بماضيها الخاص ، وبشكل خاص الروم الكاثوليك ، الذين هم الأكثر ازدهاراً ووعياً لذاتهم بين الطوائف المسيحية الناطقة بالعربية ، وقد كتب عنها الأب ق . باشا[٢٥] ، والأب شماس[٢٦] مؤلّفين تاريخيين كبيرين ، ويجب أن نذكر أيضاً حبيب زيات ، الذي ألقى الضوء في عدد من الأعمال العلمية العميقة على نواح معينة من تاريخ المسيحية في ظل الحكم الاسلامي[٢٧] وكتب الشيخ عارف الزين عن تاريخ المسلمين الشيعة في جنوب لبنان[٢٨] .

وليس مدهشاً أنه لم يكتب شيئاً حول السنة أو الأرثوذكس في لبنان ، لأنه بالنسبة لهم ، لم يكن لبنان ، مطلقاً كياناً هاماً ، بل أقل من أن يعد مركزاً لحياتهم الثقافيه والسياسية ، ولكن غياب الكتابات التاريخية الدرزية (إلا بالنسبة لعمل سليمان أبو عز الدين) يصعب تفسيره[٢٩] .

وما زال يوجد أيضاً ، بلا انقطاع ، تقليد كتابة تواريخ العائلات القوية والمدن والأقاليم ، مثل تاريخ صيدا لعارف الزين[٣٠] وتاريخ منطقة كسروان[٣١] لمنصور طنوس الحتوني ، وهو هام من أجل الاضطرابات الاجتماعية لكسروان في سنة ١٨٥٠ كنذير للحرب الأهلية في ١٨٦٠ ، وكتاب «كشف اللثام» لنوفل الطرابلسي[٣٢] ، وهو وحده تقريباً بين التواريخ اللبنانية ، الذي يبدو أنه قد أفاد من المؤرخين الأتراك ، وتاريخ ميخائيل الدمشقي ، الذي يعالج الأحداث في سورية من سنة ١٧٨٢ ـ ١٨٤١ ، وفي الحقيقة قام بكتابة هذا التاريخ موظف رسمي ، لم تتأكد هويته[٣٣]،وربما كان عيسى اسكندر المعلوف هو الأكثر أهمية بين أفراد هذا الطراز من المؤرخين ، فقد كتب تاريخ مدينته زحلة[٣٤] وأمضى أغلب

أيام حياته ، يجمع المواد من أجل تاريخ واسع للعائلات اللبنانية والشرق أوسطية . ويبدو أنه قد أعد نوعاً من أنواع المسودات له ، ولكنها لم تنشر ككل مطلقاً ، وربما لم تكتمل بصورة قابلة للنشر ، وعلى أي حال ، ا ستلمت بعض الأجزاء منها ونشرت منفصلة حول تاريخ عائلة اليازجي[٣٥] وكتاب أطول حول آل معلوف نفسهم بعنوان «دواني القطوف في تاريخ بني معلوف»[٣٦] وهو أبعد بكثير مما يوحي به الاسم ، ذلك أن بني معلوف عائلة كبيرة ومبعثرة ، وعلى مشجب تاريخ العائلة ، تمكن المؤلف من تعليق عدد من الشخصيات العلمية ، وعلى سبيل المثال ، جاءت العائلة بالأصل من حوران ، وهذا يجعل من الممكن الكتابة مطولاً عن تاريخ حوران .

وما يعطي أهمية لعمل المعلوف كله ، هو سيطرته التامة على مصادره ، وقد بحث هو نفسه ، ودرس ، في بعض الحالات ، نسخ المخطوطات من الحوليات الأقدم ، وكان لديه معرفة ، تكاد تكون فريدة ، بنصوصها ، وقد تفحص الحجج والصكوك في الأديرة ، وسجل التقاليد المحلية راجعاً بتوسع إلى الوراء حتى القرن الثامن عشر ، وألقى تاريخه لزحلة فيضاً من الضوء على نمو (الفئة الوسطي) للمدن التجارية ، التي كان رفضها للتواؤم مع البنية الإقطاعية أحد أسباب الحرب الأهلية في ١٨٦٠ .

- ٤ -

ونما النمط الثالث من التاريخ إلى جانب هذين النمطين بتأثير مشكلة جديدة . فأكثر من أي وقت مضي ، يوجد الآن كيان مستقل ، يدعى لبنان ، وقد ترسخ وجوده بوثائق دولية ، ووضع تحت حماية القوى الكبرى ، وبناء عليه نشأ الآن نوع جديد من الوعي السياسي ، وأدى هذا إلى قيام فكرة جديدة ، فكرة مجتمع ذي تقاليد تاريخية مستمرة ، تستحق الحفظ ، وطرحت أسئلة ، لماذا ينبغي وجود مثل هذه التقاليد ، وكيف يمكن حفظها ، فكان أن أنتجت نوعاً جديداً من الكتابة التاريخية بهدف خاص ، هو الآن ، ليس الدفاع عن كنيسة أو تمجيد أمير ، بل صياغة وعي شعب .

وتمحور الفكر التاريخي ، الذي عبرت عنه هذه الكتابة حول صورتين ، إحداهما للبنان سيداً وموحداً ، والأخرى للبنان منهاراً ، وأوقفت أجزاء كبيرة من

الكتابات على فترات السعادة والرخاء بغية شحذ المعنويات منها . وهكذا جاءت المناداة بالحاجة إلى التسامح الديني ، وإلى سلطة تنفيذية قوية ، تمسك بالتوازن بين الطوائف المختلفة ، وتوجد روابط من المصالح المشتركة بينها ، وشملت هذه دراسة وتحليل مؤسسة الإمارة ، التي أعطت للبنان وحدته وطبيعته الخاصة ، وخاصة في عصري الأميرين الأعظمين ، فخر الدين في القرن السابع عشر ، وبشير في القرن التاسع عشر .

وكان المصدر الرئيسي للتأريخ لفخر الدين ، تاريخ الصفدي ، الذي نشر في عام ١٩٣٦(٣٧) وفي حوالي الوقت نفسه ، نشر الأب بولس قرألي مجلدين ، قاما على وثائق من محفوظات أسرة المدتشي في فلورنسا (حيث أمضى فخر الدين فترة من النفي) ومحفوظات الفاتيكان والتبشير في روما (٣٨) وقد قدم للوثائق بتحليل طويل لخصائص فخر الدين وسياسته ، وقدمه كواحد بعيد النظر ، أرسى قواعد الإستقلال اللبناني ، وكان قد قام قبله في سنة ١٩٣٤ عيسى اسكندر المعلوف ، فكتب كتاباً يمدح الأمير المعني ، الذي ناضل بكل قوته من أجل الاستقلال والتوسع والحضارة لبلاده (٣٩) ، تلاه آخرون منذ ذلك الحين .

وكان أقل ضرورة تخليد إنجازات بشير ، لأنها كانت ما تزال حية جداً في الذاكرة الجماعية للقرى الجبلية ، ولكنه مع ذلك درس كثيراً ، وهناك تحليل حديث لسياسته من قبل أسد رستم(٤٠) وكان بشير خلافاً لزمانه قد شد انتباه كثير من الكتاب الأوروبيين ، وتقع كتاباتهم خارج مجالنا ، ولكن يجب أن نشير إلى المجلدات الثلاثة للعقيد تشرشل (٤١) وكان عضواً في فرع صغير من العائلة الانكليزية الكبيرة ، واستطاع بفضل إقامته الطويلة في لبنان ، أن يقيم علاقات وثيقة جداً بالشهابيين ، الذين ارتبط بهم في الواقع بالزواج ، وكذلك بأعيان الدروز ، وحصل على معارف دقيقة عن لبنان ، حتى إنه ليعتبر تقريباً مؤرخاً لبنانيا ، وقد استقى معظم معلوماته عن العقيدة الدرزية من ساسي ، واستندت رواياته عن التاريخ الأقدم ، جزئياً على الأقل ، على حيدر ، ولكنه ادعى أنه رأى سجلات مخطوطة ، كانت ما تزال في حوزة العائلات الكبيرة الدرزية والمسيحية ، وأن روايته عن حكم بشير قائمة على معرفة شخصية .

وسلطت الأضواء ، من خلال مثل هذه الكتابات ، على الأمراء المعنيين والشهابيين كموحدين ، وكتجسيد رمزي للبنان الحر ، ولكن في السنوات الأخيرة ، كانت هناك محاولة من قبل كتاب ذوي أفكار اشتراكية لإيجاد صورة أخرى للبنان شعبي يناضل ضد روابطه الإقطاعية ، وعدت ثورتان ضد الضرائب الباهظة في حكم بشير (العامية في أنطلياس ولهفد) كتعبير عن الإرادة الشعبية ، وصرف المزيد من الاهتمام ، وشد الانتباه إلى ثورة الفلاحين الموارنة في كسروان ضد سادتهم من عائلة الخازن (وهم أيضاً موارنة) وتأسيس جمهورية فلاحية في سنة ١٨٥٧ . وقد نشر يوسف يزبك حولية معاصرة حول هذا الحدث مع الحواشي ذات التوجيه المعين[٤٢] .

وتوفرت صورة الانهيار في الفترة بين ١٨٤٠ و١٨٦٠ ، وبشكل خاص في الحرب الأهلية ومذابح ١٨٦٠ . وهنا أيضاً لم تكن المعنويات أبعد من أن تلتمس فكانت هناك ، الحاجة الى التسامح المشترك في وجه خطر التدخل الأجنبي الذي يستفيد من النزاعات الطائفية . وقد حركت الأحداث غير العادية والمأساوية كثيراً من الأقلام ، ونشر عدد كبير من التقارير المتنوعة لشهود عيان ، وحيث أن الكثير منها ، قد كتب من قبل مسيحيين ، فإن اهتماماً خاصاً ، يرتبط بالمذكرات الدرزية الوحيدة المنشورة ، وهي التي رواها حسين أبو شقرا ليوسف من الأسرة نفسها[٤٣] ولعل تقرير ميخائيل مشاقة (١٨٠٠ ـ ١٨٨٨) «الجواب على اقتراح الأحباب»[٤٤] هو الأفضل بين هذه التقارير . وكان مشاقة نفسه مسيحيا ، لكنه كان مستخدماًماضياً لبشير ، وبحكم أنه كان رجلاً يخدم السلطة ويحترمها ، فقد أعطي مشاقة تحليلاً غير متحيز لأسباب الانفجار ، ولم يتردد في لوم المسيحيين على نقص احترام السلطة التقليدية للإقطاعيين . وهنا أيضاً يجب أن نذكرالعقيد تشرشل ؛ ففي كتابة «الدروز والموارنة تحت الحكم التركي»[٤٥] الرواية الأكثر حيوية وشمولا لهذه الأحداث ، على الرغم من شدة التحامل في آرائه على البطريرك الماروني .

ـ ٥ ـ

وتحرك بين هذين القطبين قدر كبير من الفكر التاريخي : محاولات لاظهار (بالتحليل التاريخي) لماذا يجب أن يوجد لبنان ، وكيف يمكن أن يبقى ، فحتى سنة

١٩١٤ ، عندما كان لبنان سنجقا عثمانياً مستقلاً بأغلبية مسيحية وتحت حماية القوى الكبرى ، كان الجواب على مثل هذه الأسئلة بسيط جداً ، وقد قدمه «م . جبلين» (الإسم المستعار للماروني ب . نجيم) في كتابه «القضية اللبنانية»[٤٦] .

وكان هذا الكتاب ، جزئياً ، تحليلاً للبنية السياسية والوضع الدولي للبنان المستقل ، وجزئياً تاريخاً مفصلاً لسنوات الأزمة من ١٨٣١ ـ ١٨٦٠ ، قائماً على الوثائق ، التي نشرتها الحكومتان البريطانية والفرنسية ومن قبل دي تستا Detesta في كتاب «مجموعة معاهدات الباب العالي العثماني» . ويظهر من تحليله مفهوماً واضحاً للبنان ، وبالنسبة له ، يشكل لبنان جزءاً من سورية ولكنه جزء متميز ، لقد كانت هناك دولة لبنانية ذات تاريخ مستمر منذ الأزمنة القديمة ، وقد تم احتواؤها في بعض الأوقات من قبل امبراطوريات عظمى ، ومؤخرا من قبل الإمبراطورية العثمانية ، ولكنها لم تمتص ، ومنذ سنة ١٨٦١ اعترف بها رسميا ، ولكن ضمن حدود أصغر من حدودها الطبيعية ، وكانت بشكل أساسي دولة مسيحية ، تطلعت إلى فرنسا من أجل ضمان حدودها الطبيعية .

ولأن لبنان كان لا يزال إقليمياً ضمن امبراطورية غير مقسمة ، ولأن رغبته أن يكون مستقلاً عن الإمبراطورية ، قد وجدت صدى في أقاليم أخرى ، ولأن حركة التاريخ اللبناني ، مثل الوعي الوطني الجديد ، كانت مرتبطة بازدهار الثقافة في العربية ، كان من الممكن للكتاب اللبنانيين أن يروا المبادىء نفسها مجسدة في كل أكبر ، وقد خدمت فكرة (سورية) ككل ، كتطلع بديل للولاء السياسي والفكر التاريخي ، ويمكننا أن نذكر من بين تواريخ سورية بهذا المعنى الواسع ، مما أنتجه اللبنانيون ، تاريخ جرجي يني[٤٧] وهو مسيحي أرثوذكسي من أصل يوناني ، وهذا الكتاب هام بالنسبة لتاريخ طرابلس ، ثم التاريخ الواسع لسورية للمطران يوسف الدبس (١٨٣٣ ـ ١٩٠٧)[٤٨] وهو من حيث الشكل تاريخ عام لسورية من الأزمنة القديمة حتى أيامه ، إنما يلاحظ أن سورية هي موضوعه المحدد لدى البحث في تاريخها المرتبط بالتاريخ الإسلامي العام وتاريخ الثقافة العربية ، لكنه يميل في الفترة الأخيرة ليعني لبنان ، عندما نقول (سورية) ، وهو بشكل خاص ، مفصل ومفيد في موضوع التاريخ اللاهوتي الماروني ، لأن المؤلف كان لديه معرفة شخصية بأدب الكنيسة وبالوثائق .

والكتاب نموذجي كنوع من أنواع الكتابة التاريخية الشائعة في هذا الوقت ، ومن حيث الإطار العام ، وبشكل خاص ، الأقسام الأقدم مستمدة من مصادر أوروبية ، ولكن عندما يصل إلى التاريخ الحديث في لبنان ، يغير طبيعته ، ويصبح تاريخاً محلياً من النوع التقليدي ، يقوم على المصادر المحلية .

ويمكننا أن نذكر في هذا المجال كتاباً آخر ، كتبه أوروبي أقام فترة طويلة في لبنان ، وربط نفسه بعمق مع مشاكله ، إلى حد يمكن أن نعد فيه كتابه منتمياً للتقاليد اللبنانية للكتابة التاريخية ، إنه الأب هنرى لامنس ، وكتابه هو «سورية عرض تاريخي»[٤٩] وهنا مرة أخرى ، سورية كوحدة طبيعية هي الموضوع ، ولكن لبنان صور على أنه ذا وجود منفصل بداخله ، ولم يؤكد لامنس في الحقيقة وجود شيء يدعى سورية كبديل لفكرة (لبنان) ، بل كبديل لفكرة العرب ، وفي نظره ، لم يكن السوريون ، وخاصة اللبنانيون منهم ، عرباً ، وكان معظم الكتاب الموارنة في عصره ، يتفقون معه ، ولكن كانت هناك مجموعة من الكتاب ، صحيح أنها قبلت بوجود كيان منفصل يدعى سورية ، وإنما كانوا يعتبرونها جزءاً من كل أكبر .

وقد حث إحياء الثقافة العربية في لبنان بعض المؤرخين على النظر وراء التخوم الضيقة لجبلهم ، وهكذا كتب الأب لويس شيخو الكثير عن الأدب العربي[٥٠] ونشر جرجي زيدان (١٨٦١ - ١٩٠٤) ، في حياة مثمرة كصحفي ، تواريخ للأدب العربي ، وللحضارة الإسلامية ، ولمصر ، ومجلداً لتراجم شخصيات القرن التاسع عشر ، وعشرين من الروايات التاريخية على نموذج روايات ويفرلي Weverly ولكنها أقرب لهنتي Henty منها لسكوت Scott . وقد فعل الكثير ليبعث ، ليس في لبنان وحده ، صورة رومانتيكية للماضي العربي[٥٢] .

- ٦ -

ومنذ أن أصبح لبنان دولة ، في البداية تحت الانتداب الفرنسي ، ثم مع سيادة واستقلال ، استمر وجود تداخل بين فكرة لبنان وفكرة كل أكبر ، وقبل معظم الذين كتبوا عن تاريخ لبنان أطروحة طنوس الشدياق ، في أنه قد وجد لزمان طويل كيان ، يدعى لبنان ، وهو ليس فقط مجموعة دينية ولا ممتلكات أسر

حاكمة ، بل أنه مجمع ، ولم تكن مشكلتهم السؤال حول حقيقة وجوده ، بل ما نوع هذا الوجود ، وكيف ستكون علاقاته مع العالم المحيط به ؟ ويمكننا أن نميز بين المؤرخين الجدد هؤلاء ، الذين يلحون إلحاحاً أكبر على انفصال لبنان وتميزه ، وأولئك الذين يؤكدون روابطه مع العالم المحيط به ، ويتصل تقريباً بهذا التمييز تمييز آخر بين الذين تكمن أهمية لبنان بالنسبة لهم في أنه كان ملاذاًمسيحياً حراً في عالم إسلامي ، والذين يرون فيه فوق كل شيء ، مجتمعاً متعدداً ، حيث الناس من ذوي العقائد المختلفة قادرين على العيش جنباً إلى جنب بسلام ، ولكن التمييز لم يتعد أكثر من الإلحاح ، لأنه بالنسبة لمعظم المؤرخين ، لبنان هو في الوقت نفسه ، أرض حرم مقدس ، ومكان للالتقاء ، وبين أولئك الذين ألحوا في تأكيدهم على الأول ، قد نذكر ميشيل شبلي ، الذي نشر حياة فخر الدين ، ثم أتبعها بكتاب عن لبنان في عهود الأمراء الذين خلفوه[٥٣] وقد أوقف كتابه على تمجيد الأمراء الذين أعطوا لبنان إدارة عامة جيدة ووحدة بالتسامح ، ولكنه أوقفه ، بدرجة ليست أقل ، على ازدهار الثقافة المسيحية في لبنان في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكان للمؤلف ارتباط وثيق بواضع نظرية الانفصالية اللبنانية ميشيل شيحا ، الذي هو نفسه مشحذ المعنويات بقوله في مقدمة كتابه : «إن تاريخ شهاب هو تاريخ مقاومة ، إنه تاريخ مجتمع وطني مؤلف من طوائف ذات عقائد قائمة على جبل ساحلي ، يشكل ملجأ لا ينتهك لهم ، وهو موحد للدفاع والمحافظة على حرياتهم الروحية والزمانية»[٥٤] .

ومن المهم لتطور لبنان الحديث ، أن مؤرخاً أتى من إحدى الطوائف غير المسيحية ، فكان قادراً على أن يشحذ معنويات مماثلة ، مع أن تأكيده جاء أقل ، على حاجة المسيحيين لحفظ حريتهم الروحية ، وألح على حاجة الذين لديهم معتقدات مختلفة ، ليعيشوا معاً في سلام ، ففي ١٩٥٥ ، نشر عادل اسماعيل المجلد الأول بالفرنسية من تاريخ لبنان من القرن السابع عشر حتى أيامنا[٥٥] وقد خطط لتغطية التاريخ الحديث للبنان في ستة مجلدات وسيكون أكبر مشروع طموح في بابه ، وعالج هذا المجلد الأول لبنان في زمن فخر الدين .

وقد حذا السيد إسماعيل حذو الأب قرأ لي في تخطي المجموعة الصغيرة من التواريخ التقليدية (دويهي ، صفدي ، شهاب ، شدياق) التي اعتمدت عليها

معظم المؤلفات الأساسية ، وحاول أن يجد قاعدة أكثر أمنا في الوثائق المعاصرة ، ففي الوقت الذي استخدم فيه الأب قرأ لي المصادر الإيطالية ، استخدم إسماعيل بشكل شامل الوثائق الفرنسية والمحفوظات الوطنية ، ومحفوظات وزارة الخارجية ، والمحفوظات التجارية الهامة لمرسيليا ، ولهذا كان قادراً على أن يعطي عرضاً أشمل للحياة الإجتماعية والاقتصادية أوفي مما عرف من قبل .

وبالنسبة لإدارة فخر الدين ، لم يضف كثيراً على ما كتبه قرأ لي ، ولكن هناك نظرة شاملة لسياسة فخر الدين الخارجية ، وفي الحقيقة ظهرت أهمية الأمير المعني بوضوح في أنه الرجل الأول الذي أعطى لبنان سياسة خارجية مستقلة ، وليس في هذا المجال فحسب ، بل إن اسماعيل عد فخر الدين موجد الوطن اللبناني الحديث ، وقد مضى إلى أبعد مما مضى إليه الكتاب الأقدمون ، وربما أبعد مما تسمح به البراهين والأدلة في اعتبار فخر الدين وطنياً واعياً ذا فهم واضح للفكرة الحديثة للوطن ، فلقد كان لديه «مفهوم حديث للأمة ، فقد استطاع ـ مع محافظته على درزيته ـ أن يكون مسلماً ومسيحياً ومارونيا وكبوشيا ويسوعيا ، وخلق من هذا الخليط غير المتجانس من الأديان والمعتقدات ، الذي هو لبنان ، خلق أمة ووطناً ، داخل امبراطورية كانت فكرة الوطن فيها غير معروفة» .

ولابد من اعتبار شبلي واسماعيل والآخرين ، الذين كتبوا التاريخ اللبناني في الأزمنة الحديثة ، من بعض الجوانب ، وطنيين لبنانيين ، وهذا ليس شيئاً مدهشاً ، فلو لم يكن لبنان كيانا هاماً بالنسبة لهم ، لما كلفوا أنفسهم عناء الكتابة عنه ، وجنبا إلى جنب معهم ، كان هناك كتاب آخرون أوقفوا أنفسهم على موضوع أوسع ، هو سورية ، مع أن مفهوم سورية ، قد حظي بالإهمال منذ أواخر القرن التاسع عشر[٥٦] ، واستبعد (ليس إلى الأبد) بفعل مسيرة الأحداث ، ولكن مفهوم (العرب) أصبح أكثر تحديداً ، وكتابات فيليب حتي حول التاريخ العربي أشهر من أن تحتاج إلى تعليق ، وقد كتب في أمريكا للقراء الناطقين بالأنكليزية ، وهو خارج عن إطار اهتماماتنا الآن ولكن عمله الأخير «لبنان في التاريخ»[٥٧] ، تقريباً ، المحاولة الأولى لمعالجة كامل تاريخ لبنان من فجر التاريخ حتى اليوم ، وقد وضعه في إطار تاريخ الشرق الأوسط ، وتمثل الفصول حول التاريخ الحديث استمارا آخر للتواريخ والحوليات بدقة أكثر ، وتحكم أوفى من

أسلافه ، مع عدم اختلاف في الجوهر ، بيد أن هناك الكثير حول الفترة من ١٨٦١ ـ ١٩١٤ وحول التغيرات الاجتماعية والفكرية في القرن التاسع أكثر مما هو موجود في أي كتاب آخر .

وتولى كتابة تاريخ الحركات الوطنية العربية «يقظة العرب» مؤرخ لبناني الأصل هو جورج انطونيوس [٥٨] ، ولم يوافق المؤرخون المتأخرون ، الذين طرقوا الموضوع من ناحية أو أخرى على تفسيره [٥٩] ، وألقت سلفيا هيم شكاً على تماسكه وأمانته كمؤرخ[٦٠] ، ولكن جل ما يمكن اتهامه به بحق هو أنه نادراً ما نقل بدقة من مصادره ، أو علل الأسباب ، حين تختلف ، أو بين لماذا رجح رواية على أخرى ، وأنه ألح كثيراً جداً على النقاط ، التي اعتبرها هامة ، ثم إنه أعطى كثيراً من الأهمية لدور المسيحيين اللبنانيين ، والمدارس التبشيرية الأمريكية بلبنان في بناء القومية العربية ، وهو يعتبر أنهم في الحقيقة ، الذين أوجدوا الحركة ، أسمعه يقول : «لقد وجدت الأفكار ، التي زرعت بالأصل من قبل المسحيين تربة متقبلة بشكل متزايد بين المسلمين»[٦١] ، وهو لم يقل شيئاً عن تأثير المجددين المسلمين في مصر ، مع أنه أتى عرضاً على ذكر جمال الدين وفي الوقت الذي ذُكر فيه الأعضاء السوريين من فئة الموظفين والضباط العثمانيين ، وبيَّن أن هؤلاء ، أصبحوا زعماء الجمعيات السورية ، أعطى الانطباع ، أنهم استمدوا أفكارهم من المسيحيين اللبنانيين ، وليس من المدارس المهنية ، والجو السياسي لإستانبول ، وتقاليد عائلاتهم . وكان مفهوم أنطونيوس بالذات عن القومية العربية مفهوماً لبنانياً ، حيث رآها مجرد رابطة مدنية تربط معاً أتباع مختلف الأديان ، وكانت المشكلة السياسية الأولى للبنان هي كيفية إيجاد مثل هذه الرابطة في البلدان العربية الأخرى ، حيث شكل المسيحيون أقلية ، وربما كانت هذه مشكلة هامة ، لكنها لم تكن أولى المشاكل وأهمها ، علماً بأن انطونيوس ، لم يكن بأي حال قومياً لبنانيا ، فلدى الكلام عن لبنان تحت الإنتداب الفرنسي ، كانت وجهة نظره ، هي نفسها لدي القوميين العرب في دمشق ، الذين اعتقدوا : «إن دور القوى الطبيعية كان مغلولاً آنذاك ، لإظهار الإصطناع في الحدود الراهنة ، وأن اليوم سيأتي ، عندما سيسعى اللبنانيون أنفسهم إلى تعديلها ، إن لم يكن بإزالة شاملة للحواجز»[٦٢] .

غير أن أنطونيوس ، كان هنا انموذجا للمسيحيين الأرثوذكس في لبنان من أبناء جيله . لقد أحسوا بجاذبية الفكرة اللبنانية بدرجة أقل بكثير من الكاثوليك ، وكان ولاؤهم ، أما لفكرة سورية أو العرب .

- ٧ -

ملحق نشر المصادر .

نريد هنا أن نلفت الانتباه إلى إحدى الفضائل الرئيسة للمدرسة اللبنانية للمؤرخين ، وهي عنايتهم بإقامة عملهم على مصادر أولية ، واهتمامهم بجعل هذه المصادر متوفرة . ومن الممكن رؤية هذه المزية في وقت أقدم ، يعود إلى زمن الدويهي ، وحيدر شهاب ، اللذين جهدا في سبيل جمع كل ما أمكنهما من المواد ، فقد أقتبس حيدر نصوص الوثائق الرسمية ، ولكنهما بالطبع عاشا قبل أن تتضح أسس التحري التاريخي الحديث . ونحن ندين إلى الكتاب المتأخرين لتجشمهم المتاعب في جمع النصوص والوثائق ونشرها .

فقبل عام ١٩١٤ نشرت ثلاث مجموعات هامة ، ونشر فيليب وفريد الخازن ثلاثة أجزاء من الوثائق الدبلوماسية ، التي تتعامل مع سياسة القوى العظمى ، فيما يتعلق بسورية ولبنان من عام ١٨٤٠ - ١٩١٠[٦٣] وقد استمدا أغلبها من منشورات رسمية بريطانية وفرنسية ، ومن دي تستا ، علماً أن بعضها لم ينشر من قبل . وجمع ت . أنيسي . وثائق لاهوتية هامة في كتابه «وثائق مارونية»[٦٤] . ونشر الأب أ . رباط ست كراسات من وثائق حول تاريخ المسيحية بالمشرق[٦٥] ، وقليل جداً من وثائقه نشر من قبل ، وهي مستمدة بشكل رئيس من محفوظات (جمعية يسوع) ، وأيضاً من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، والفاتيكان ، والبطركيات ، والأبرشيات الشرقية ، ومن أوراق المكتبة الوطنية في باريس ، تغطي فترة التطور في البعثات التبشيرية الكاثوليكية الحديثة من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ، وهي تتعامل فوق كل شيء مع أبهة المبشرين وبؤسهم وكفاحهم مع الكهنوت الأرثوذكسي ، واضطهادهم من قبل السلطات العثمانية ، والحماية التي أعطيت لهم من قبل سفراء فرنسا وقناصلها . ونشرت في السنوات التي مضت منذ الحرب العالمية الأولى تواريخ لبنان ، أو أُعيد نشرها في طبعات محسنة بشكل

رئيس من خلال جهود بعض الأفراد ، وكان بين ما نشره الأب بولس قرألي «تاريخ ابن القلاعي»[٦٦] وتاريخ حيدر القصير عن بشير الثاني وكتابه عن الوثائق الإيطالية ، حول فخر الدين ، وقد سلفت الإشارة إليه[٦٧] ، ويمكننا أن نذكر أيضاً كتابه حول السوريين في مصر[٦٨] المبني على سجلات الكنيسة ، وحرر الأب س . باشا تواريخ ميخائيل صباغ[٦٩] وابراهيم العورة[٧٠] وكان كتاب الصباغ جزءاً من سلسلة من الوثائق المتعلقة بتاريخ البطركية الملكية .

ونشر أ ـ رستم ، و ف ـ أ ـ بستاني تحت رعاية الإدارة اللبنانية ، وفيما بعد وزارة التعليم والفنون الجميلة ، تاريخ الصفدي عن فخر الدين [٧] والجزأين الثاني والثالث من تاريخ حيدر[٧٢] وقد قصد من نشرهما ، أن يكونا المجلدين الأولين في سلسلة أريد لها أن تضم جميع المصادر الأساسية لتاريخ لبنان ، وتدخلت الحرب العالمية الثانية ، ولم تمض السلسلة إلى أبعد من ذلك . ولكن في السنوات القليلة الأخيرة ، شرع بنشر سلسلتين أولاهما ، من قبل الجامعة اللبنانية ، والثانية من قبل مديرية الآثار في وزارة التربية[٧٤] .

وتولى نشر معظم التواريخ وكتب التراجم والمذكرات عدد من الدوريات ، بعضها عاش قصيراً مثل المنارة[٧٥] والمشرق[٧٦] والمجلة السورية[٧٧] وامتدادها المجلة البطريركية[٧٨] ، وفي أوراق لبنانية[٧٩] الحديثة الصدور ، وأخرى ذات تاريخ أطول وسمعة أوثق ، بينها اثنتان لهما أهمية خاصة ، هما العرفان للشيخ عارف الزين[٨٠] التي نشرت كتابات كثيرة حول المذهب الشيعي والآثار في نصف القرن الأخير ، والدورية اليسوعية المشرق[٨١] التي صرفت بالطبع جل جهودها نحو المسيحيين والنصرانية الشرقية عموماً .

وصدرت في السنوات القليلة الماضية طبعة كاملة جديدة من كتاب الدويهي تاريخ الأزمنة[٨٢] وتواريخ العينطوريني [٨٣] والمنبر[٨٤] ، وبنشر هذه الكتب يكون نشر التواريخ الهامة ، أصبح كاملاً في الواقع باستثناء تاريخ ابن سباط .

لقد كان هناك ميل بين المؤرخين اللبنانيين ، لأن يقيموا عملهم ببساطة على ما كتبه مؤرخون آخرون ، وبشكل خاص على التواريخ الرئيسة الأربعة أو الخمسة . وفي السنوات الأخيرة ، مع ذلك ، بات الاهتمام بالمضي إلى ما وراء التواريخ ، إلى الوثائق الرسمية وغيرها ، معروفا وممارساً تماما ، ويلاحظ أن بعض

أنماط الوثائق نادر نسبيا في الكتابات التاريخية اللبنانية ، من ذلك على سبيل المثال ، المذكرات واليوميات والرسائل الخاصة ، التي هي مصادر هامة جداً من أجل التاريخ السياسي الأوروبي الحديث .

والوثائق الرسمية على أي حال موجود بوفرة ، وأول رجل جمعها بصورة منظمة كان أ ـ رستم ، الذي نشر مجموعتين كبيرتين ، تتعلقان بتاريخ لبنان وسورية في عهد إبراهيم باشا ١٨٣١ ـ ١٨٤١ ، وتكونت الأولى من مجموعة من المصادر العربية[٨٥] ، استخرجت من أوراق عائلية ومحفوظات المحاكم الشرعية (المحفوظات الوحيدة الهامة للفترة العثمانية ، التي يبدو أنها موجودة في المدن الإقليمية العربية أو مما له أهمية خاصة الخلاصات الطويلة من سجلات المجلس الذي أقامة ابراهيم باشا في حلب ، وهي تلقي فيضاً من الضوء على طريقة إبراهيم في الإدارة ، وعلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية في سورية في ذلك الوقت ، وتكونت الثانية ،من «تقويم» من الأوراق في المحفوظات المصرية المتعلقة بسورية[٨٦] : قائمة تشتمل على نصوص وخلاصات كاملة من الوثائق الأكثر أهمية .

إن هذين العملين سيكون لهما أهمية أساسية لكل من يرغب في كتابة تاريخ سورية ولبنان خلال تلك السنوات الحرجة ، وإنه لمؤسف أن الأستاذ رستم نفسه ، لم تتوفر لديه الفرصة لكتابة العمل التأليفي الذي كان وحده فقط قادراً على القيام به ، لقد نشر على أي حال أعمالاً قصيرة عديدة حول نقاط خاصة[٨٧] .

ويعود إلى جهوده بعض الفضل ، (وبعضه الآخر إلى جهود مدير الآثار الأمير موريس شهاب ، وهو عضو في الأسرة الحاكمة السالفة) في إيجاد المحفوظات الوطنية اللبنانية في السنوات القليلة الماضية ، وكان الاساس لهذه المحفوظات مجموعتان من الأوراق العائلية ، هي أوراق آل الخازن سادة كسروان الموارنة ، وأوراق آل بيهم ، وهي أسرة إسلامية من أبرز أسر بيروت التجارية .

وقد عثر مؤخراً في قصر بيت الدين على عدد كبير من الوثائق الهامة المتعلقة بفترة بشير الثاني ، وأخرى من السنجق المستقل ١٨٦١ ـ ١٩١٥ ، كما تم تصوير جميع الوثائق الهامة المتعلقة بلبنان في المحفوظات الفرنسية ، ويؤمل الشيء نفسه بالنسبة للمحفوظات البريطانية والعثمانية . ورتبت هذه الأوراق جميعاً ، وصنفت

الآن ، وبعضها بات متوفراً للمؤرخين[٨٨] وستقدم هذه الوثائق الأسس الضرورية لواحد من قطبي الحياة اللبنانية ، أعني الحكومة بصورها المتعاقبة من الإمارة ، فالسنجق المستقل ذاتياً ، فالجمهورية المستقلة ، والقطب الآخر هو البطركية المارونية ، التي حفظت وثائقها بشكل جيد ، لكن يسمح بالعودة إليها من قبل الباحثين بشكل متقطع ، ولعلها بدورها ، ستصبح أيضاً يوماً ما بمتناول اليد .

هوامش البحث

١ ـ «سلسلة بطاركة الطائفة المارونية» ـ تحقيق رشيد شرتوني بيروت ١٩٩٨ الطبعة الثانية موسعة ١٩٠٢» تاريخ الطائفة المارونية» تحقيق رشيد شرتوني بيروت ١٨٩٠» . «تاريخ الأزمنة» ، وهو مشمول جزئياً في الأعلى ، ولكنه كتب كاملاً من قبل ف ـ توتال بيروت ١٩٥١

٢ ـ المجلد الرابع ـ روما ١٧١٩ ـ ١٧٢٨ .

٣ ـ بطاركة الكاثوليك الكلدان والنساطرة عرض تاريخي ـ حولي .

٤ ـ تأثير الأدب العربي على أصول الأدب الأوروبي الحديث ـ بادو ١٨٠٧ .

٥ ـ حمزة بن أحمد بن سباط الغربي ، تاريخ (مخطوطة) في الجامعة الأمريكية في بيروت ٩٥٦ ، ١٣/٦١ .

٦ ـ كتاب تاريخ بيروت والأمراء البحتريين ـ تحقيق لويس شيخو بيروت ١٩٣٦ .

٧ ـ حققه فؤاد البستاني وأسد رستم تحت عنوان «لبنان في عهد الأمير فخر الدين» ـ بيروت ١٩٣٦ .

٨ ـ كتاب مختصر تاريخ جبل لبنان ـ نشره الأب ي ـ ت الخوري في المشرق ٤٦ ـ ٧ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) .

٩ ـ الروض الزاهر في تاريخ ضاهر ، نشرت خلاصات منه في الكتاب التالي :

١٠ ـ تاريخ الشيخ ضاهر العمر الزيداني تحقيق الأب ق . باشا ـ حريصا ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ .

١١ ـ تاريخ ولاية سليمان باشا العادل ـ تحقيق الأب ق . باشا ـ صيدا ١٩٣٦ .

١٢ ـ تاريخ الرهبنة الحنانية الملقبة بالشويرية في كتاب سيذكر في صفحة ٢٣٢ حاشية رقم ١٦ .

١٣ ـ حققه الأب أ . سركيس في المشرق ج ٤٨ ـ ١٥١ (١٩٥٤ ـ ١٩٥٧) «★أعيد نشره من قبل جوزف ليان ونشره في بيروت جروس برس بعنوان (الدر المرصوف في تاريخ الشوف) .

١٤ ـ نشرت الأجزاء الثلاثة من الغرر الحسان في طبعة غير مرضية من قبل أ ـ ن . مغبغب (القاهرة ١٩٠٠) ونشر الأب بولس قرأ لي في المجلة السورية (فيما بعد المجلة البطريركية)

ج ٢ - ٧ (١٩٢٧ - ١٩٣٢) تاريخاً غير معروف المؤلف لبشير الثاني ، قد يجسد عمل حيدر الأقصر ، ونشر أسد رستم وفؤاد البستاني طبعة نهائية للأجزاء ٢ و ٣ للغرر الحسان تحت عنوان لبنان في عهد الأمراء الشهابيين بيروت ١٩٣٣ ، وقد اعتمد على مخطوطة المؤلف التي تنتهي في سنة ١٨٢٧ ، وتمما الرواية للسنوات ١٨٢٨ - ١٩٣٢ من العمل الذي نشره بولس قرألي .

١٥ - أ-د . سغرانفس - تاريخ الحملة الفرنسية على مصر - تأليف نقولا الترك باريس ١٨٣٩ .
١٦ - الأمير حيدر أحمد شهاب «تاريخ أحمد باشا الجزار» تحقيق أنطونيوس شبلي وأغناطيوس عبده خليفة - بيروت ١٩٥٥ .
١٧ - نشر عدة مرات بالعربية واللغات الأوروبية وأكمل رواية ، هي تلك التي نشرها الأب ك . باشا في المسرة ج ٢٢ - ١٩٣٦ .
١٨ - بيروت ١٨٥٩ . هناك طبعة ثانية حديثة .
١٩ - لباب البراهين الجلية عن حقيقة أمر الطائفة المارونية بيروت ١٩١١ .
٢٠ - كتاب المحاماة عن الموارنة وقديسهم . بيروت ١٨٩٩ .
٢١ - الكنيسة المارونية في قاموس اللاهوت الكاثوليكي ج .١ ق ١ باريس ١٩٢٨ .
٢٢ - الكنيسة المارونية بين كنائس المشرق - بيروت ١٩٣٥ ترجمة عربية حلب ١٩٣٦
٢٣ - مجلدان بيروت ١٩٤٨ .
٢٤ - الموارنة في لبنان - جونية ١٩٤٩ صيدا ١٩٤٧ - ١٩٥٢ .
٢٥ - تاريخ طائفة الملكية - صيدا ج ١ ١٩٣٨ ج ٢ ١٩٣٩ -١٩٤٥ .
٢٦ - يوسف شماس - خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية ٣ مجلدات جيدات ١٩٤٧ - ١٩٥٢
٢٧ - وتشمل الصليب في الإسلام - حريصا ١٩٣٥ الروم الملكية في الإسلام حريصا ١٩٥٣
٢٨ - مختصر تاريخ الشيعة . صيدا ١٩٠٤ .
٢٩ - ابراهيم باشا في سوريا بيروت ١٩٢٩ .
٣٠ - صيدا ١٩١٣ .
٣١ - نبضة تاريخية في المقاطعة الكسروانية (يحتمل أنه طبع في بيروت . وكان المؤلف يكتب سنة ١٨٨٤ وهناك طبعة حديثة قيد الإعداد) .
٣٢ - كشف الشام عن محيا الحكومة والأحكام - مخطوطة في الجامعة الأمريكية في بيروت غير مصنفة وكان المؤلف يكتب في ١٨٨٣ .
٣٣ - تاريخ حوادث الشام ولبنان - تحقيق ل . معلوف بيروت ١٩١٢ .
٣٤ - تاريخ مدينة زحلة - زحلة ١٩١٢ .
٣٥ - الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية . مجلدان - صيدا ١٩٤٥

٣٦ ـ بيروت ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ .
٣٧ ـ انظر صفحة ٢٢٩ .
٣٨ ـ ج ١ بولس قرألي ـ فخر الدين الثاني في بلاط توسكانيا (روما ١٩٣٦) ج ٢ ـ يحتوي مقدمة عربية ومصادر ، فخرالدين المعني الثاني (روما وحريصا ١٩٣٨) .
٣٩ ـ تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني ـ جونية ١٩٣٤ .
٤٠ ـ بشير بين السلطان والوزير مجلد ١ بيروت ١٩٥٦ ، ج ٢ (بيروت ١٩٥٧) .
٤١ ـ س . تشرشل جبل لبنان ٣ مجلدات لندن ١٩٥٣ .
٤٢ ـ أنطون ضاهر العقيقي ـ ثورة وفتنه في لبنان تحقيق يوسف يزبك بيروت ١٩٣٨ الترجمة الأنكليزية ـ لمالكولم هـ . كير . لبنان في السنوات الأخيرة للإقطاع ١٨٤٠ ـ ١٨٦٨ بيروت ١٩٥٩ .
٤٣ ـ الحركات في لبنان كما رواها حسين أبوشقرا ليوسف أبوشقرا تحقيق عارف أبوشقرا بيروت بدون تاريخ .
٤٤ ـ ظهرت طبعة غير مرضية من هذا الكتاب تحت عنوان ، مشهد العيان لحوادث سورية ولبنان . تحرير م . ك . عبدو وشخاشيري القاهرة ١٩٠٨ . وهناك طبعة أفضل من قبل أ . رستم و س . أبوشقرا . منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب بيروت ١٩٥٥ وهذه على أي حال تتوقف عند سنة ١٨٤١ . إن مخطوطات من الكتاب الكامل ، تضم الأقسام الأخيرة ، كانت عديدة . وهناك واحدة في الجامعة الأميركية في بيروت (* أعدت تحقيقه وأضفت إليه عدة ملاحق ونشرته بدمشق ١٩٨٢ بعنوان «بلاد الشام في القرن التاسع عشر» .
٤٥ ـ لندن ١٨٦٢ .
٤٦ ـ لندن ١٨٦٢ .
٤٧ ـ تاريخ سورية بيروت ١٨٨١ .
٤٨ ـ تاريخ سورية ٨ مجلدات بيروت ١٨٩٣ ـ ١٩٠٥ . نشرت المادة حول الموارنة أيضاً منفصلة في الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل . بيروت ١٩٠٥ .
٤٩ ـ مجلدان بيروت ١٩٢١ .
٥٠ ـ وشمل الآداب العربية في القرن التاسع عشر . مجلدان ـ طبعة ثانية منقحة بيروت ١٩٢٤ ـ ١٩٢٦ .
٥١ ـ تاريخ الصحافة العربية ٤ مجلدات بيروت ١٩١٣ ـ ٣٣ .
٥٢ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ٣ مجلدات القاهرة ١٩١١ . تاريخ التمدن الإسلامي ٥ مجلدات القاهرة ١٩٠٢ ـ ١٩٠٦ . تاريخ مصر الحديث مجلدان ـ القاهرة ١٩١١ . مشاهير الشرق مجلدان القاهرة ١٩٠٧ .

٥٣ - فخر الدين المعني أمير لبنان - بيروت ١٩٤٦ . تاريخ لبنان في عهد الأمراء (١٦٣٥ - ١٨٤١) بيروت ١٩٥٥ وبين أعمال أخرى كتبت تقريبا من وجهة نظر لبنانية وطنية انظر أ - رستم ف . أ . بستاني تاريخ لبنان بيروت ١٩٣٩ ويوسف مزهر تاريخ لبنان العام مجلدان .

٥٤ - تاريخ لبنان - المقدمة ص ١١ .

٥٥ - لبنان في عهد فخر الدين الثاني (١٥٩٠ - ١٦٣٣) باريس ١٩٥٥ وظهر الآن المجلد الرابع من «ظهور وانهيار الإقطاع اللبناني» بيروت ١٩٥٨ .

٥٦ - ص - ١٦٧ - ١٦٨ .

٥٧ - لندن ١٩٥٧ .

٥٨ - لندن ١٩٥٨ .

٥٩ - إ - خوري : بريطانيا والشرق الأوسط لندن ١٩٥٦ . ز . ن . زين العلاقات التركية العربية وظهور القومية العربية بيروت ١٩٥٨ . زين أيضاً . النضال من أجل الاستقلال العربي بيروت ١٩٦٠ .

٦٠ - يقظة العرب - مصدر للمؤرخ في Die welt des Islam, N.S ج ٢ رقم ٤ (١٩٣٥) .

٦١ - صفحة ٩٥ .

٦٢ - صفحة ٣٨٥ .

٦٣ - مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان ٣ مجلدات . جونية ١٩١٠ - ١١ .

٦٤ - روما ١٩١١

٦٥ - مجلدان ست كراسات - كراس ١ - ٥ باريس ١٩٠٥ - ١٩١١ كراس ٦ تحقيق ف . توزبيز بيروت ١٩٢١ .

٦٦ - حروب المقدمين - بيت شباب ١٩٣٧ .

٦٧ - انظر ص ٢٣٦ حاشية ٣٨ أعلاه .

٦٨ - السوريون في مصر ج ١ القاهرة ١٩٢٨ .

٦٩ - انظر ص ٢٢٩ حاشية ١٠ أعلاه .

٧٠ انظر ص ٢٢٩ الحاشية ١١ أعلاه .

٧١ - انظر ص ٢٢٩ الحاشية ٧ أعلاه .

٧٢ - انظر ص ٢٣١ الحاشية ١٤ أعلاه .

٧٣ - منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات التاريخية .

٧٤ - مديرية الآثار نصوص ووثائق تاريخية .

٧٥ ـ جونية ١٩٣٠ ـ ١٩٥٠

٧٦ ـ حريصا ١٩١٠

٧٧ ـ القاهرة ١٩٢٦ ـ ٩)

٧٨ ـ جونية ثم بيروت ١٩٣٠

٧٩ ـ الحدث ١٩٣٦

٨٠ ـ صيدا ١٩٠٩

٨١ ـ بيروت ١٨٩٨

٨٢ ـ انظر ص٢٢٦ الحاشية ١ أعلاه .

٨٣ ـ انظر ص٢٢٩ حاشية ٨ أعلاه

٨٤ ـ انظر ص٢٣٠ الحاشية ١٣ أعلاه

٨٥ ـ الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ٥ أجزاء في أربع مجلدات بيروت ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣

٨٦ ـ المحفوظات الملكية المصرية ٤ مجلدات بيروت ١٩٤٠ ـ ١٩٤٣ .

٨٧ ـ إنها تتضمن المحفوظات الملكية لمصر وأصول الحملة المصرية على سورية ١٨٣١ ـ ١٨٤١ بيروت ١٩٣٦ المحفوظات الملكية لمصر والاضطرابات في فلسطين ١٨٣٤ بيروت ١٩٣٨ . بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤ ـ ١٨٤١ (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧)

٨٨ ـ ومن أجل التحري الجزئي للمحفوظات قارن دومينيك شيفالييه ، «اصل الإضطرابات في لبنان في ١٨٥٨» في حوليات كانون ثاني ـ آذار ١٩٥٩ ـ ١/٣٥ ـ ٦٤ .

٢١ ـ التواريخ السريانية كمصادر لتاريخ الشعوب الاسلامية

ج. ب. سيغال
أستاذ اللغات السامية في جامعة لندن

كتب وليم رايت منذ ستين عاماً عن الأدب السرياني العبارات التالية : يجب أن نقر . . بأن الأدب السرياني إجمالاً ، أدب جذاب . . . إن خصائص السريان على العموم هي اعتدال مؤكد ، إنهم لم يظهروا لا في الحرب ولا في الفنون ، ولا في العلوم ، وهم بشكل مجمل ، يفتقرون إلى الحماسة الشعرية للقدماء . . . العبريين والعرب . . . ومع ذلك فللسريان يعود فضل نقل معارف اليونان القديمة إلى العرب(*) .

وبناء عليه ، وكأمر يتعلق بالتاريخ ، فإن أدبهم ، لابد وأن يملك دوماً قدراً معيناً من الأهمية في عيون الطالب الحديث . . . وحتى التواريخ السريانية المتواضعة . . . تستحق أن تأخذ حظها من التقريظ ، لأننا نرى أنه لولا

★ ـتثير هذه الملاحظة عدة مغالطات ما زال بعض الباحثين يأخذها كمسلمات تتعلق بالترجمة الى العربية ، أو المواد التي ترجمت خاصة في المراحل الأولى ، حيث ينبغي أن نتذكر أن الفلسفة الإغريقية ، كتب لها الانتشار بعد ما مزجت بالأفكار الشرقية ، فالأفلاطونية أصبحت أفلاطونية محدثة في بلاد الشام ثم مصر ، ومثيلها كثير . ومانقله المترجمون السريان الأوائل ، كان من تراثهم . والسريانية لهجة من لهجات العربية ، وحين تم النقل كان عربياً محضا من لهجة إلى لهجة . وهنا ينبغي اعتبار النقل من السريانية ، لايختلف عن النقل من المسند إلى لغة القرآن ، وعندما أخذ العرب يترجمون عن الإغريقية مباشرة ، بات الوضع يختلف عن ذي قبل .

إرشاداتها ، لكانت معرفتنا أقل بكثير مما هي عليه الآن ، حول تاريخ فرعين هامين من فروع الكنيسة الشرقية ، إلى جانب ضياع كثير من المعلومات الهامة فيما يتعلق بالأحداث السياسية للفترات ، التي اهتمت بها تواريخها» .

ومنذ أيام وليم رايت ، لم ينكر أحد صحة ماذهب إليه ، من أن الكتاب السريان افتقروا في الحقيقة إلى الخيال ، وكان جلهم يفتقر أيضاً إلى المزاح والدعابة ، ومع ذلك جاء حكم رايت على المصادر السريانية وأعمال المؤرخين غير عادل ودون الإنصاف ، فبالنسبة للباحث في التاريخ ، يعد ما رآه منقصة في سمات السريان وسذاجة موادهم وبساطتها ، لأن جميع الكتاب ، الذين سأذكرهم ، كانوا من الرجال ، الذين شغلوا دوراً فعالاً في شؤون زمانهم ، يعد مزية بدلاً من أن يكون عيباً ، فهي أفضل لنا لصدق روايتهم وصحتها ، فلقد كان مؤرخونا من السريان ، رجالاً بسطاء ، ولكنهم كانوا رجالاً ذوي إحساس طيب وأمانه ، وكانوا جميعاً ، كما هو مقرر ، مؤمنين مخلصين ، لا بل رجال لاهوت من أبناء الكنيسة ، وقد جعلوا كل شؤون الجنس البشري ، تتوافق مع نمط كبير معين ، رسمته يد العناية الإلهية المرشدة ، وقد حكوا رواياتهم بدون رياء أو تكلف ، وبدون توهم ، وبلا سخرية ، وكان كارليل قد كتب : «إن الجدارة بالأصولية ، ليست في الحداثة ، بل في الإخلاص» لقد كان هؤلاء المؤرخون السريان مخلصين .

ودعوني الآن أحدد مجال التواريخ السريانية ، وأعني بالسريانية ، ذلك الفرع من اللغة الآرامية ، الذي كتبه ونطق به سكان سورية مع سكان بلاد الجزيرة والمناطق المجاورة خلال القرون الثلاثة عشر الأولى من التاريخ المسيحي ، ويجب أن ندرك ، أن السريانية لم تكن حصراً على سورية نفسها . وعلى العكس كانت أيام انتشارها الواسع شائعة الاستعمال من ساحل البحر الأبيض المتوسط في الغرب إلى إقليم عدبين في الشرق ، ومن بحيرة وان والهضبة الأرمينية في الشمال إلى حدود الجليل في الجنوب ، وكانت المسيحية منذ القرن الثالث حتى ظهور الإسلام تهيمن على هذه المنطقة ، وعندما أصبح المسيحيون أقلية مع انتشار الإسلام ، فإنهم بقوا رغم ذلك مجتمعاً متضافرا بقوة ، وكبير العدد .

وكانت التواريخ السريانية كما أشرت من قبل مسيحية ، سواء في المحتوى أو في التعبير ، لقد تلونت بعمق بالكتاب المقدس وبآباء الكنيسة ، وقد تم تأليف أغلبها في الجزيرة ، والكثير منها في ، أو قرب الرها ، التي كانت لها قدسية خاصة باعتبارها أول مدينة في هذه المنطقة ، وفي الحقيقة ، أول مملكة في العالم تتبنى المسيحية ديناً رسمياً ، وفي الرها كتبت بهذا الشكل ونطقت باللغة التي كانت نمطاً معتمداً في جميع أرجاء العالم السرياني .

هناك سمة مدهشة مشتركة بين المسيحيين المحليين في الجزيرة خلال ألف سنة ، من القرن الثالث حتى الثالث عشر ، التي تغطيها تلك التواريخ ، إنهم لم يتولوا دوراً مباشراً في التحكم بشؤونهم ، ولم يسعوا لفعل ذلك ، لقد كان دورهم المقدر لهم العجز ، وجاء هذا الدور نتيجة لظروفهم ، وخلال القرون الأربعة الأولى من تلك الفترة ، توزعوا بين امبراطوريتين آريتيـن هما : بيزنطة في الغرب ، وفارس في الشرق ، وامتدت حدود الجبهة بين هاتين القوتين فيما بين الفرات والدجلة ، وتخرب الريف بالأعمال الحربية المستمرة ، التي كان للفلاحين المسيحيين مصلحة صغيرة فيها ، وسبب الانقسام السياسي في ما بين النهرين أيضاً الانقسام الديني ، لأن إلانشقاق في الكنيسة السورية في القرن الخامس ، أعطى المسيحيين الفرس استقلالاً لا هوتياً عن إخوتهم في الغرب ، وفقط مع ظهور الإسلام أزيل هذا الحاجز ، هذا الستار الحديدي القديم ، واستأنفت بلاد ما بين النهرين تجانسها الطبيعي للعرق والتقاليد ، ولكن المسيحيين كانوا قد أصبحوا الآن أقلية متضائلة ، بلا سلطة فعالة في حكومة بلدهم .

لن أعتذر لهذا الاستطراد الموجز ، ذلك أن قيمة التواريخ السريانية تكمن بالضبط في الصورة التي تقدمها للمجتمع الذي تم تأليفها فيه ، والخلفية التي عليها تراكبت خطوط السياسات وأعمال قادة الجيوش والدول .

- ٢ -

ومن الممكن التماس أصول الكتابات التاريخية السريانية في الكتابات العديدة للكنيسة القديمة ، وفي الحكايات التي صممت لإثارة وتقوية الولاءات المسيحية ، ونجد بينها الرواية الأسطورية عن وصول أولى البعثات التبشرية إلى

إننا نسمع دمدمة الحشود العظيمة على الأطراف الخارجية لآسيا الغربية ، وزحف الهون على الجزيرة حتى سورية تاركاً وراءه ذيلاً من الدمار . وبصورة متكررة ، خدم المرتزقة في جيوش واحدة أو كلتا الامبراطورتين وقد اجتذبتهم توقعات الغنائم أكثر من الأجور الهزيلة ، وهكذا قامت في سنة ٥٠٢ م قوة من الفرس والعرب والهون بقيادة النعمان بن الأسود بالإغارة على حقول حران والرها ، وهنا رواية يهوا الشهيرة عن تعزيزات قوطية من الجيش البيزنطي ، نزلت على أهالي مدينة الرها ، وأسكنت بينهم :

«ونهبَنا أيضاً الذين جاؤوا لمساعدتنا تحت اسم المنقذين ، نهبونا وهم غادون أو رائحون بقدر ما فعل الأعداء بنا ، لقد قلبوا الكثير من فقراء الناس من فرشهم ، وناموا فيها ، في حين نام أصحابها على الأرض في الطقس البارد ، وطردوا آخرين من بيوتهم ، ودخلوها ليسكنوها ، وانتزعوا مواشي بعض الناس بالقوة ، كما لو كانت غنائم حرب ، ونزعوا عن آخرين ثيابهم وأخذوها ، وضربوا بعضهم بعنف لمجرد أمر تافه ، وتشاجروا مع أخرين في الشوارع ، وكانوا يسبونهم لأصغر سبب . . . وكانوا يهاجمون الناس في الطرق العامة . . . من النساء العجائز إلى الأرامل والفقراء ، وكانوا يمنعونهم من أعمالهم ليخدموهم ، وباختصار ، لقد أزعجوا الناس جميعاً ، كبيرهم وصغيرهم ، ولم يكن هناك انسان لم يعان بعض الأذى منهم» .

لقد كان البدو الرعب الدائم لسكان المدن والقرى في شمال الجزيرة ، ولم يكن هؤلاء ، كما يجب أن يلاحظ الناس ، الذين يدعون العرب (أو عربي) ، بسريانية تلك الفترة ، وقعد العرب هؤلاء في الريف ـ بشكل رئيس بين آمد وثنوريوس ـ الذي وقع خلف القرى ، لقد كانوا نصف مستقرين ، وقد عملت السلطات على تسريع عملية تطويرهم إلى فلاحين مستقرين ، لقد كان عرب الخيام ـ بداة طيء ، كما كانوا يسمون عادة ـ هم الذين تحدوا كل التقاليد والعادات في المجتمع الراسخ ، وكانت الطرق والقرى الآمنة تحت رحمتهم ، وقد انتقل خبر أمير الحيرة ، الذي ضحى بأربعمائة أسيرة من العذارى لربه القمر ـ العزى ـ من فم لفم ، وبدأت المسيحية الحقيقية في إصلاح البدو المتمردين على القانون ، ولكن أيديهم عادة ، كانت ضد جميع الناس ، وكتب يهوا يقول : «إنهم

الرها ، ومآثر الامبراطور قسطنطين العادل وخلفائه ، وكذلك نجد تراجم حياة الشهداء ، الذين كان عددهم كبيراً جداً[1] ، لكن جل ما ورد في مواد هذه التراجم ، يمكن استبعاده على أساس أنه خيال ، وأن استخراج الحقيقة من قصصهم ، ليست عملية سهلة بالنسبة للمؤرخ الجاد .

وهناك مع ذلك جنس آخر من التأليف الأدبي أقدم من المسيحية في الجزيرة ، ومن الأفضل اعتباره السلف المباشر للتواريخ السريانية ، وأشير إلى المحفوظات ، ولعل أعمال حفظ الوثائق وتصنيفها ، يعود في بعض مدن الجزيرة إلى أوائل الفترة السلوقية على الأقل . وقد بقيت سجلات الرها بالسريانية فقط ، وللأسف ، في حالة مفتتة[2] ، ويعود تاريخ أقدم موضوع إلى العام ١٨٠ م ، ولكن الموضوع الأكثر شمولاً ، وربما نسمي هذا أقدم تاريخ سرياني ، هو وصف لطوفان الرها في عام ٢٠١ م ، الذي تقرر تفاصيله الحية بوضوح ، أنه صنف من قبل شاهد عيان ، ولا يمكنني أن اقتبس أكثر من أسطر من المقدمة :

«أصبحت ينابيع الحياة ، التي انبجست من القصر العظيم للملك أبجر ، غزيرة ، وفاضت ، وكما حدث في مناسبة فارطة ، تعاظمت وطافت على جميع الجوانب» .

«وبدأت ساحات الملك وأروقته وبيوته تمتلىء بالماء ، وعندما رأى سيدنا أبجر الملك ذلك ، صعد إلى مكان أمين على تل يشرف على هذا القصر ، حيث كان حرفيو الأشغال الملكية يعيشون ويسكنون» .

إن هذه قصة مباشرة مختصرة ، وهي النموذج لما تلاها ، فتاريخنا التالي هو المعروف بتاريخ يهوا العمودي ، وقد تم تصنيفه بعد مضي فترة تقارب ثلاثة قرون[3] ولا نعرف شيئاً عن الكاتب ، ويبتدىء تاريخه بحوادث حوالي سنة ٣٩٥ ـ ٣٩٦ م ، وينتهي في سنة ٥٠٦ ، ، وبالنظر لجدته ووضوحه ، ربما نفترض أنه قد ألف في الرها في ذلك الوقت ، فهو مكتوب ببساطة وأمانة وحيوية ، وتسلسل تواريخه دقيق بشكل رائع .

وقد أعطينا رواية عن الحروب بين الإمبراطوريتين ، البيزنطية والفارسية ، والإستنزاف البطيء لقوتيهما ، الذي جعل منهما قوة سهلة للعرب بعد ذلك بقرن ونصف القرن ، وهناك وصف حي لطرق الحصار الحربي ، والكمائن والأسلحة ،

عبروا دجلة ، وسلبوا ، وأخذوا أسرى ، ودمروا كل ما وجدوه في الأراضي الفارسية ، يا صاحب القداسة» . ويتابع مخاطباً مراسله : «يجب أن تعرف حقيقة أن الطائيين شكلت الحرب بالنسبة لهم مورداً كثير الربح ، وقد فرضوا إرادتهم على كلتا المملكتين» .

وقد لاحظنا بساطة أسلوب الكاتب وصراحته ، وأبدى يهوا ، مثله مثل جميع مؤرخينا السريان ، حتى بالنسبة لأولئك الذين ، كانوا بفضل وظيفتهم أعظم الأساقفة في الكنيسة السورية ، تعاطفاً وتفهماً للناس العاديين ، الذين كانت رغبتهم العيش في هدوء وراحة ، فهاهو ذا يخبرنا بأسعار القمح والشعير والخضار والنبيذ ، ويكتب عن المحاصيل الجيدة والسيئة ، والضرائب ، والمباهج الشعبية ، وحتى عيد الربيع ، الذي كانت له دلالة وثنية واضحة ، والذي يوافق عليه ، هو نفسه ، قلبياً .

أما تاريخ يحيى العربسوسي (أفسوس) الذي عاش من سنة ٥١٦ الى نحو ٥٨٧ م [٤] فكان ذا طبيعة أكثر حدة وصرامة ، وهو بالأصل من أهالي آمد ، أقام معظم حياته في القسطنطينية ، وكان على صلة وثيقة هناك بالأباطرة ، وبالشخصيات القيادية في العاصمة ، وقد رحل بشكل واسع ، وقام بحملات تبشيرية كبيرة في آسيا الصغرى ، وكان أحد الذين أثاروا ، وطوروا الحملة البيزنطية على النوبة ، وقد أعلن هو نفسه ، بصورة مملة نوعا ما ، أنه :

«لم يكن غريباً عن صراع الأحداث . . . بل كان واحداً من الذين زحفوا الى المعركة ، والذين . . تحملوا المعاناة ، وعانوا بصبر آلام الاضطهاد والسجن . . .» .

وبما ان يحيى كان عضواً قياديا في كنيسة اليعاقبة ، التي كانت قد عدت ، من قبل معظم البيزنطيين ، انشقاقا خطيراً ، فقد كان في موقع استثنائي ، ليصف «ضيق الأفق والتعصب . . والحاجة إلى ضبط النفس والظلم والقسوة» ، التي كانت شائعة في تلك الفترة .

وجعلت مسألة الايمان بالارادة الواحدة للمسيح ، يحيى وثيق الصلة بالمسيحيين العرب ، الذين كانوا أعضاء في الطائفة نفسها . ونقرأ على سبيل المثال ، أنه عندما سجنت جماعة كبيرة من المسيحيين من قبل الفرس في أنطاكية ، نجح

مسيحيان عربيان في الهرب من المدينة ، وشقوا طريقهم إلى القسطنطينية ، وهناك أعلم يحيي بهم البلاط ، وعندما دعا تايبيريوس ـ خوفاً من الانشقاق الديني الذي مزق امبراطوريته ، المنذر بن الحارث إلى عاصمته ، وعمل على التوصل إلى تسوية مع هذا الملك العربي المسيحي ، كان يحيي نفسه موفداً إلى المؤتمر ، ونجد في صفحات تاريخ يحيى صورة حية للمنذر وشهرته في جميع أنحاء الامبراطورية كمحارب ورجل دولة .

وقد ألقى أحد معارف يحيى الآخرين ضوءاً غريباً على التاريخ العربي في ذلك الوقت ، وكان أحد الممثلين القلائل للكنيسة القائلة بالإرادة ـ الواحدة للمسيح (اليعاقبة) في الأراضي الفارسية ، وهو سمعان من بيت أرشم ، وكان مجادلاً فظا ، قام برحلات متكررة إلى فارس ، وراوغ أعداءه النساطرة بالامتناع عن الاعتراف بصحة أصالة الرداء الأرجواني ، وعندما كان بزيارة للحيرة في سنة ٥٢٤ ، قابل سمعان رسل الملك اليهودي ذانواس . وسجل يحيي على صفحات تاريخه أخبار رسل ذي نواس إلى أمير الحيرة ، وروايته عن الهجوم على نجران ومذبحة المسيحيين فيها ، وهي حادثة ذائعة الصيت ، وكان لها صدى واسع في العالم العربي .

إننا يجب أن نقدم التقدير والإجلال لأمانة يحيى كمؤرخ ، فلقد منح ملك فارس ، وهو العدو المقيت لبيزنطة المسيحية ، مديحاً وافراً بقوله :

«وكما أثبتت الحقائق نفسها ، لقد كان رجلاً حصيفاً ، حكيما ، وقد أوقف نفسه طوال حياته باجتهاد على دراسة الأعمال الفلسفية . .

ويبدو أيضاً أن الحرب بين فارس والبيزنطيين ، كانت سبب حزن كبير له ، ويبدو أنه كان مستعداً لتقديم تنازلات كبيرة لأعادة إرساء السلام» .

وبين مؤرخي تلك الفترة ، صدر كتابه برواية أحداث بعيدة ، مع صوت فيه تجديد وإنذار ، وذلك لدى عرضه للخطوط العامة لأحداث بلاد فارس ، اسمعه يقول : «تلك الأحداث ، التي لم نرها أو تدركها معارفنا ، ولايمكن ان نشهد بصحتها بقدر مانحن بعيدون عن البلاد التي وقعت فيها» .

وكتب يحيى إضافة إلى تاريخه تراجم للنساك والزهاد ، الذين كانوا من معاصريه في منطقة آمد ، دار نشأته الأولى[٥] ، وهنا نجد مادة وفيرة للباحث في

تاريخ الجزيرة قبل الإسلام ، وهي مادة حول شعب ورع جاهل يمجد في إنكاره لذاته على الرغم من فقره ، وبالنسبة للزهاد المتجردين ، شابهت معاناتهم طرائق المشائيين ، ولكن هؤلاء الرجال والنساء ، هم الذين ألهموا البدو في زمانهم الإخلاص في الصلاة والصوم وكبح الشهوات ، فالصراحة البدائية لمذهب المؤمنين بالإرادة الواحدة في المسيح ، قد اجتذبت البداة العرب أكثر من الحلول الوسط ، التي تميز بها النساطرة ، وكان في هذا بشائر حركة هداية أكثر عاطفية ، كان مقدراً لها أن تتفجر من الصحراء بعد قرابة جيلين .

وكانت التواريخ التي كتبت عنها من تصنيف سريان الغرب ، أي بيزنطة والجزيرة وقد أنتج سريان الجزيرة ، التي حكمت من قبل فارس خلال تلك الفترة ، كتب تراجم فقط ، متكلفة ومتميزة للقديسين وزعماء الكنيسة ، ولكننا قد نهتم بثلاثة فقط منها ، ألفت في القرن السادس ، لأنها ذات قيمة ، وهي تاريخ مشيحزخا ، مع معلومات قيمة حول قيام الأسرة الساسانية ، وتاريخ كرك بيت سلخ ، مع بيانات طبوغرافية حول فارس قبل الإسلام ، وتاريخ ابن حدبشبّا الحديث النشر(٦) .

- ٣ -

ومن المحتمل أنه عند وفاة يحيى العربسوسي ، كان النبي محمد (ﷺ) في السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمره ، وكان مقدراً للعالم ، أن يتغير بسرعة أكبر مما أمكن لأحد أن يتنبأ بها في ذلك الوقت ، وليس لدينا لسوء الحظ روايات معاصرة مفصلة حول الفتح العربي بالسريانية ، وفي الحقيقة مرت ترجمة واحدة في ذلك الوقت بحملات هرقل والعرب في مالا يزيد عن كلمات قليلة (٧) وعندما ارتفع الستار مرة أخرى ، كانت السيادة الإسلامية قد توطدت .

ولم يعد ، في الفترة الإسلامية ، هؤلاء المؤرخون السريان يُعتمد عليهم في تسجيل الأحداث الكبيرة في زمانهم ، وصحيح أنهم كانوا دائماً بعيدين عن توجيه الأمور ، ولكنهم الآن باستثناء بعض الأفراد ، عاشوا الحياة المنعزلة لأقلية طائفية ، معزولين عن بلاط الملك والأمراء ، بمكانة سياسية سلبية ولا مبالية ، وحتى بلا خيال ، تشهد فقط مرور الأحداث ، وكان بالنسبة للمسيحي ، من

الأسلم أن تكون له صلات صغيرة بسلطات عصره ، وفي سنة ٧٦٥ م ، على سبيل المثال ، اعتقل البطريرك جورج ، وقد قدح فيه أعداؤه ، وجُلد أمام الخليفة المنصور ، وعندما سأله الخليفة بجفاء : لماذا لم يتقدم بطلب (براءة ملكية) تؤكد منصبه في الكنيسة ، أجاب بلطف : لم أرغب في إزعاج أحد .

ويلاحظ مع ذلك ، أن المسيحيين ، مهما كان تحفظهم وبقاؤهم بمنأى عن حروب الحكام المسلمين ومؤامرتهم ، كانوا مع ذلك سيبتلون بتلك المشكلات التي تؤثر في الشعب العادي في كل أرض وفي كل عصر ، ونستطيع أن نستخرج من تواريخنا السريانية معلومات مفيدة حول الظروف الاجتماعية والاقتصادية للناس العاديين ، ونحصل على صورة مشرقة للمشكلات ، التي واجهت أقلية دينية تحت الحكم الإسلامي ، ويجب بالطبع ، أن نطبق على التواريخ الأخيرة مسطرة منزلقة مختلفة في إمكانية الاعتماد عليها تاريخياً .

إن الآراء حول العصر السالف على ظهور الإسلام الواردة لدى المؤرخين السريان هامة ، حتى وهي نصف حوادث سالفة على زمانهم ، لأنهم ربما كانوا ، يكررون آثاراً موثوقة ، خلفها لهم أسلافهم ، لكن المؤرخين المتأخرين ، لم يزيدوا على تأكيد الحقائق ، التي رسخها مؤرخون عرب ، ويمكن فقط تفضيلهم ، عندما يتولون تقديم آراء تختلف عن آراء المؤرخين العرب ، حيث يقومون بوصف أحداث شاهدوها بأنفسهم ، أو حدثت قرب فترة حياتهم .

وألفت النظر هنا بشكل خاص لنقطة واحدة : في هذه التواريخ فقرات ناقدة ، لا بل ناقدة بقسوة للنظام الذي كان قائماً ، ترى هل أعطت السلطات الإسلامية حرية في العمل والاختيار جديرة بالذكر لهؤلاء الكتاب من غير المسلمين ؟(*) ، أو هل شعر هؤلاء الكتاب ، بأنهم أحرار في أن يكتبوا كما يريدون باللسان السرياني الغريب ؟ وأيما فرضية نقبل فهي تعزز قيمة تلك السجلات بدرجة كبيرة .

★ ـ أرجح الحرية ، فهذا واضح في المصادر الإسلامية . ولولا الحرية لأمكن الوشاية بالكتاب إلى السلطات ، وأسباب الوشاية توفرت دوماً للوشاة .

لقد بينت من قبل أن التاريخ السرياني كما نفهم اصطلاح التاريخ ، إنتاج غربي الجزيرة وليس شرقها ، وقد جاء حصيلة تقاليد طويلة ، ولم يكن أبداً ردة فعل عرضية ، أرادت التعبير عن وجودها أدبياً بالتدوين في العصور الإسلامية ، فالجزيرة لم تعد مقسمة إلى منطقتين مختلفتي الثقافة ، إحداهما تحت حماية بيزنطة الناطقة باليونانية ، والثانية تحت رعاية فارس ، وحتى عندما أصبحت كلتا المنطقتين تحت الحكم المشترك للإسلام ، فإن كتابات مؤلفي مشارقة الجزيرة ـ دنحا وابشودنح ، وتوما المرقي والمؤلف المجهول ، والسير الذاتية ، التي كتبت تراجم للشهداء والقديسين ـ لم تكن أكثر من خليط ضعيف التمييز بين الحقيقة والقصص الورعة ، وهناك استثناءان فقط يمكن ملاحظتهما : الأول هو التاريخ ، مجهول المؤلف ، الذي يعطي رواية للأحداث في فارس ، من خلع هرمز الرابع في سنة ٥٩٠ إلى ٦٧٠ ، وقيمته عظيمة ، لأنه ، لا بد ، قد كتب بوقت ليس أبعد بكثير من سنة ٦٨٠ ويحتمل أنه كتب من قبل راهب نسطوري ، والثاني ، هو تاريخ الياس مطران من نصيبين في القرن الحادي عشر ، وهذا الكتاب على أي حال ، ليس أكثر من مجرد قائمة بالأحداث والتواريخ[٨] .

وبالمقابل تتمتع تواريخ مغاربة الجزيرة الموجودة ـ على الرغم من القلة في العدد ـ باحتفاظها باتساع التواريخ السريانية القديمة وتكاملها ، وقد نسب اعتماد الترتيب الحولي في التواريخ أولاً بصورة غير صحيحة إلى البطريرك دانيوس التلمحري ، والذي ينتهي تاريخه بعام ٧٧٤ م ، وهو رواية مملة نوعاً ما ، مليئة باقتباسات مطولة من الكتب الدينية ومناجاة للرب تجاه خطايا الإنسان ، مع الإضفاء الساذج للصفات الأخلاقية ، ومع ذلك ، فهي تعطينا وصفاً إضافياً لبلاد الجزيرة في القرن الثامن ، من مثل قوله : «لقد كانت الأرض كلها . . رائعة بكرومها وحقولها وماشيتها الكثيرة ، ولم يكن هناك فقير في قرية ، لا يملك حقلاً وجملاً وماعزاً ، ولم يكن هناك مكان قابل للزراعة تقريباً ، لم يبذر أو يزرع بالكروم حتى في الجبال ، وحيث يمكن للمحراث أن يمر ، كانت الكروم تزرع . . . وكانت الأرض غاصة بالرعاة فوق طاقة المراعي الكثيرة» .

ولكن مؤلفنا يستغرب ، «فالأرض مليئة أيضاً بالظلم» ، وقد كتب بمرارة عن الصراع المصطنع ضمن الكنيسة ، وضد عدم الاستقرار الداخلي ، أو الثورة

ضد السلطة ، والمجازر التي كانت تعقب ذلك ، وقد ندد بالابتزاز ، الذي قام به الحكام وأتباعهم ، واعترض على مصادرة الملكيات ، ووشم أجسام الرجال لضمان تأدية ضريبة الجزية بكاملها ، والتدخل المستمر في حرية الفرد ، إلى حد أن الصياد لم يكن يسمح له كما قال «بالصيد في النهر بدون تصريح» ، وكان الموظفون يبالغون في تقدير العشور : «وسلف أن وصفنا الحقول على أنها عامرة تماماً ، حتى لو لم يحصد أكثر من خمسة أضعاف البذار ، وقد تحمل العرب محناً أقسى من السريان» .

«ثم أنقض جباة الضرائب عليهم بالضرب والتعذيب من كل الأنواع ، وكان عليهم نظرياً أن يأخذوا العشر ، ولم يكن العرب يستطيعون جمع ما هو مطلوب منهم ، حتى ولو باعوا كل ما يملكون ، وقد حاولوا حثهم على أن يأخذوا من كل واحد حسب مايملك ، قمحاً ممن لديه قمح ، وماشية ممن لديه ماشية ، ولكنهم لم يقبلوا ، وكانوا يصرخون فيهم : اذهبوا وبيعوا سلعكم واعطونا ذهباً» .

ومن الأهمية بمكان ذكر السيرة الذاتية ، التي كتبها البطريرك دانيوس الذي نسب إليه خطأ التاريخ الذي وصفناه لتونا[١١] ، وقد كان دانيوس يمارس بهدوء دراسة التاريخ في أحد الأديرة ، عندما سيم رغماً عنه بطريركاً لليعاقبة في عام ٨١٦ ، وناضل طيلة ممارسته لمهنته دون كلل نيابة عن طائفته ضد الإنشقاق من الداخل والاضطهاد من الخارج ، وسافر إلى الموصل وبغداد ، وحتى إلى مصر يلتمس تدخل من السلطات ، ونرى سيرته الذاتية من خلال أنه كان مراقباً داهية للرجال ، وقد صورت عجز الأقليات واعتمادها على النوايا الطيبة لأفراد بدلاً من مواد القانون المكتوبة ، وفيما يلي كلمات الخليفة المأمون القاسية التي وجهها إلى دانيوس : «إنكم تزعجونا وتضايقوننا كثيراً أيها المسيحيون وخاصة أتباعك اليعاقبة ، ومع ذلك فإننا نتجاهل الشكاوى التي يقدمها أحدكم ضد الآخر ، اذهبوا الآن وعودوا بعد أيام» .

وفي روايته حول زيارته لمصر ، لدينا صورة نابضة بالحياة للطائفة المسيحية هناك : «مدينتنا محاطة بالمياه ، وليس لدينا محاصيل زراعية أو أي موارد أخرى ، ولا يمكننا أن نربي ماشية ، المياه التي نشربها تأتي من بعيد ، ونحن نشتريها بسعر أربعة مثاقيل للراوية ، وعملنا محصور بالصوف الذي تغزله نساؤنا ، ونقوم نحن بنسجه ، والثمن الذي نحصل عليه من تجار القماش ، هو نصف مثقال في اليوم ،

وحيث أن عملنا لا يوفر الخبز الكافي لأفواهنا ، وعندما نطالب بالضريبة ، نضطر إلى دفع خمسة دنانير (أي ثلاثين مثقالاً) عن كل فرد ، ونتعرض للضرب ، ويلقى بنا في السجن ، نكره على تقديم بناتنا وأبنائنا كضمان للعمل كعبيد عامين لقاء دينار واحد . . .» .

وقد حكى دانيوس ووصف بلواهم لحاكم مصر وقد «أعطى أمره بأنهم يجب أن يدفعوا الجزية حسب قانون الجزية ـ ٤٨ مثقالاً من الأغنياء ، و ٢٤ من متوسطي الحال و ١٢ من الفقراء ـ عند جمع الجزية» .

وتعالج حولية أخرى تاريخ الرها ، وما يحيط بها خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر ، إنها رواية دقيقة ، تذكر بقوتها بأسلوب تاريخ يهوا العمودي الأقدم بنحو سبعة قرون ، فتظهر الثروة من التفاصيل الدقيقة ، وإلفة المؤلف مع خطط الرها ، أنه كان معاصراً لتلك الأحداث ، وربما كان شاهد عيان لبعضها ، ولعله كان هو المطران السوري للمدينة في ذلك الوقت ، إننا نقرأ عن تبادل مجاملات الفروسية بين الحاكم المسلم للموصل وأسيره الصليبي جوسلين ، ولكن مثل هذا الكرم ، كان يتناوب مع أعمال القسوة المذهلة ، فهناك مشاهد حية للرعب والدمار في الرها والمدن المجاورة ، خلال فترة السيطرة عليها من قبل الصليبيين ، والاستيلاء على الرها من قبل زنكي سنة ١١٤٤ م ، مما أثار حماس برنارد ، راعي دير كليرفو ، وسبب قيام حملة صليبية جديدة ـ واستردادها من قبل نور الدين بعد ذلك بعامين .

وكانت هناك حادثة سارة أكثر ، تمثلت بزيارة زنكي للمدينة في سنة ١١٤٥ : «وخرج المطران والكهنة والشمامسة وجميع المسيحيين لاستقباله من جهة واحدة ، والمسلمون الذين تجمعوا من كل الأحياء في الجانب الآخر ، وقد حيا المسيحيين بسرور ، وقبل الإنجيل ، وسلم على المطران ، واطمأن على صحته وأحواله وقال إنه جاء من أجلهم لإمدادهم بما ينقصهم . . . لقد زار كنائسنا السورية ، وتأمل في جمالها ، وأمر بوضع ناقوسين عظيمين يعلقان فيها ، كما كانت

العادة في زمن الفرنجة . . . ، وأوصى المطران أن يكون حريصاً على حراسة المدينة ، وأن لا يخون حكومته»(*) .

إن هذه الرواية واردة في تاريخ كان مؤلفه حاضراً عند سقوط القدس في يد صلاح الدين في سنة ١١٨٧ م ، وقد استمر تاريخه حتى سنة ١٢٤٣[١٢] وأشهر منه وأعظم أهمية ، العمل التاريخي للبطريرك ميخائيل ، الذي يسمى عادة ميخائيل السوري[١٣] لقد أصبح رأساً لكنيسة اليعاقبة في سنة ١١٦٦ م واحتفظ بهذا المنصب ثلاثين عاماً ، ولقد كان كاهناً عسكرياً ميالاً للجدل اللاهوتي وهو انضباطي ، لم يحظ بشعبية حتى بين أتباعه ، وكثيراً ما كان تاريخه مثيراً للجدل المذهبي ، وهو لهذا لا يقدر بثمن ، وهو مرتب في ثلاثة أعمدة ، عالج أولها الأحداث العلمانية ، وتعلق الثاني بالشؤون الدينية ، في حين حوى الثالث حكايات متنوعة ، وأموراً ذات أهمية شخصية ومحلية . وبالنسبة لنا ، إن العمود الثالث مع ما فيه من تسجيل للمحاصيل والجفاف والبناء والحرائق ، هو غالباً الأكثر جاذبية وضياء .

وكان الحكام وشيوخ القبائل الصغار في الجزيرة ، قليلي الإهتمام بخير عامة الناس ، أي أولئك الناس البسطاء من أهل المدن ، والفلاحين الذي تكونت منهم رعية ميخائيل . وبالنسبة للمسيحيين ، الذين كانوا بينهم ، كانت القصة مشابهة لما كان في القرون السالفة ، وكانت ثرواتهم خاضعة بشكل خطير لنزوات كل من المرتزقة الأجانب وسادتهم المسلمين ، وفي القتال بين الأكراد والتركمان ، كان كل طرف يصب نقمته على المسيحيين المحليين ، ولقد كانت لنور الدين سمعة في الورع والإحسان بين المسلمين ، ولكن المسيحيين رأوه خلاف ذلك ، وعندما جاء إلى الموصل ، يخبرنا ميخائيل قائلاً : «ضاعف المكوس على المسيحيين ، وزاد الجزية ، وألزمهم بلبس الزنار ، ومنعهم من إطالة شعور رؤوسهم ، حتى يعرفوا ، ويمكن تمييزهم من قبل العرب . وقضى أيضاً أن يحمل اليهود قطعة من مادة حمراء على أكتافهم ، حتى يعرفوا» .

★ ـ ترجمت هذا الكتاب ونشرته ضمن كتابي الحروب الصليبية ط . دمشق ١٩٨٤ ، ج٢ ص ٤٥٣ ـ ٥٣١ .

وعندما ارتقى العرش خليفة جديد في سنة ١١٧٠ ، أعدم الوزير ابن البلدي وأوضح ميخائيل ، أن الوزير الذي ذبح ، كان عدو المسيحيين ، وقد تعهد الخليفة الجديد بمحبة المسيحيين نكاية بالوزير وكراهية له .

ولكن نور الدين ، بقي العدو الرئيس للمسيحيين ، وقد وضعوا أملاً كبيراً في أمالرك الأول ، الذي روعهم موته في سنة ١١٧٤ م ، وفي مثل هذه الظروف ، لم يستطع حتى ميخائيل نفسه ، أن يدين أو يصنف باللاأخلاقية الرشاوى المقدمة للحكام المسلمين من أجل تحرير المسيحيين الذين كانوا تحت سلطتهم . وكان نصيراً مدافعاً قوي الشكيمة عن رعيته ومحافظاً على حقوقها كزعيم لها ، وقد أعلن صراحة لسيف الدين غازي ، الذي اقترح تسمية كاهن منافس له ليكون بطريركاً :

«إذا كنت تريد تغيير ما جعله الملوك من أسلافك ، فلتعلم أنك ستلقى معارضة ليس مني فقط ، بل من الأنبياء ، موسى وعيسى ومحمد لأنك تدمر مشيئة الله . . . أما بالنسبة لي ففقدان رأسي لا قيمة له . . . وها أنا أقدم بحرية رأسي ، فدعهم يقطعوه ، لأني أخالف مبادىء القانون» .

وفي عام ١١٨١ استدعي ميخائيل من قبل قلج أرسلان إلى ملطية ، فذهب مرتعشاً ، ولكن السلطان استقبله بحفاوة وتكريم ومجاملة ، وتناقش البطريرك معه وأصغى إليه (يؤكد لنا) «بسرور ، وتأثر بحكمته إلى درجة جعلت الدموع ، تنهمر من عينيه» (السلطان) .

وتوفرت لميخائيل فرصة لحضور القداسات في جميع أنحاء الجزيرة وسورية واستقبل وفود اليعاقبة من مصر ، وزار القدس ثلاث مرات ، وكانت في حينه في أيدي الفرنجة ، وحصل على براءات من كل من أمالرك الأول وبلدوين الرابع .

وكانت تعليقاته على مجموعات القوى الرئيسة الثلاث في غربي آسيا في تلك الفترة : التركمان والفرنجة والروم البيزنطيين معنية في المقام الأول بالحرية الدينية ، ولكنها ذات أهمية أوسع ، اسمعه يقول : «وفي السنوات التي سنكتب عنها الآن ، سيطر الهدوء والأمن في كنيستنا الأرثوذكسية لهذا السبب . . وكان الروم القساة محتجزين وراء البحار . . . ولم يثر الفرنجة ، الذين كانوا في هذا الوقت يحتلون أماكن في فلسطين وفي سورية أيضاً ، وكان لهم أساقفة في كنائسهم ، صعوبات في

أمور العقيدة ، ولكنهم كانوا يعدون مسيحياً كل من يعبد الصليب بدون فحص أو تحر ، ولم يكن للأتراك من جانبهم ، وكانوا يحتلون معظم البلاد التي يسكنها المسيحيون ، فكرة عن الأسرار المقدسة ، وعليه فقد اعتبروا المسيحية خطأ ، ولم تكن لديهم عادة تعلم أمور العقيدة أواضطهاد أحد لجهره بعقيدته ، كما كان الروم يفعلون ، ذلك أنهم شعب كافر شرير» .

ونأتي مع ابن العبري إلى آخر تواريخنا السريانية . لقد أكمل تاريخ المنطقة منذ وفاة ميخائيل السوري حتى عام وفاته سنة ١٢٨٦ م ، وجاء تاريخه بالسريانية ـ لا أبحث هنا في تاريخه بالعربية ـ في جزأين : تعامل أولهما مع الأحداث العلمانية ، وتعامل الآخر (في قسمين) مع الأحداث اللاهوتية[١٤] وقد غيّر وصول المغول المسرح السياسي ، وقد تولى ابن العبري وصف الظروف الجديدة بشكل واف ، وبشكل خاص أحداث ملطية مسقط رأسه ، وكان هو نفسه حاضراً كمطران عندما سقطت حلب في أيدي المغول في سنة ١٢٥٩ ـ ١٢٩٠ م . وكان على معرفة بأمراء وأميرات من البلاط المغولي .

وقد اتبعت مصائر المسيحيين مساراً ، لا يمكن التنبؤ به ، فمن جهة وحد العرب صفوفهم مع المسيحيين للدفاع عن ملطية ضد الهجوم التتري في سنة ١٢٤٣ م . ومرة أخرى في سنة ١٢٥٦ م . وهكذا أيضاً في العدوان المغولي على بغداد في سنة ١٢٥٨ م . وقد أودع العرب الأغنياء في المدينة ممتلكاتهم للحفظ فى خزائن الجاثليق . ومن جانب آخر ، نهبت الأديرة المسيحية من قبل الجند ورجال القبائل الكردية ، وهوجم المسيحيون من أهل المدن من قبل الغوغاء من المسلمين في بغداد والموصل وإربل .

وكانت الطائفة المسيحية بالتأكيد في وضع شاذ في تلك الفترة ، ولم يتخذ أمراء المغول موقفاً عدائياً تجاههم ، بل إن بعضهم جاهر بالعقيدة المسيحية ، وشغل المسيحيون مناصب عليا في البلاط ، وأعلن ابن العبري : «حازت الكنيسة على الاستقرار والحماية في كل مكان» وقد دعا قبلاي خان باسم «الملك الحكيم العادل وصديق المسيحيين ، الذي أولى رعايته رجال العلم والعلماء والأطباء من جميع الأمم» .

وفي الحقيقة ذبح قادة القوات المصرية جميع المسيحيين في إحدى المدن ، لأنه قيل لهم ، إن التتار قد استعانوا بهؤلاء المسلحين أثناء زحفهم على سورية ، ومع ذلك فإن هذا التحالف ، لم يعط الأمان للمسيحيين من التتار أنفسهم ، ويكتب ابن العبري عن التتار في الحملة نفسها : أنهم في جشعهم ، قتلوا أيضاً كثيراً من المسيحيين وأسروهم ونهبوهم ، مع أن ملك الملوك ، قد أمرهم بأن لا يؤذوا المسيحيين .

وتاريخ ابن العبري بكل ما حواه ، ليس مرضياً ، فمؤلفه لم يعطنا شيئاً من اللمسات الشخصية ، التي جعلتنا مهنته وصلاته الشخصية نتوقعها فقد كانت ولاءاته طائفية ضيقة ، ويبدو أنه كان يفتقر إلى معايير تماسك الذات والأمانة ، التي تميز بها المؤرخون الأقدم ، لأن قوة القائد المغولي سند غاوغدره (ذلك الشاب الرائع) لم تكن لديه موضع لوم ، بيد أنه ينبغي علينا ، أن لا نحكم بقسوة على ابن العبري ، ذلك أن كتابته في التاريخ ، لم تتعد ، بالنسبة له ، كونها تمريناً في الإنشاء السرياني وجزءاً من محاولته العامة لإحياء الإهتمام باللغة القديمة ، وقد حكم على التجربة سلفاً بالإخفاق ، لأن النهضة بالسريانية ، كانت فوق طاقة ابن العبري ، لا بل أعظم من معارفه الواسعة ومثابرته ، وإنه لأمر له دلالته ، أن الكتابة على قبر ابن العبري نقشت بالكرشونية وهي عربية كتبت بأحرف سريانية .

ـ ثبت بالمصادر المختارة ـ

أعمال عامة :

أ ـ أ . بومستارك ـ تاريخ الأدب السرياني ١٩٢٢ ج . لابورت ١٩٠٤ .

و . رايت ـ تاريخ مختصر للأدب السرياني ١٨٥٤ .

ب ـ أعمال فردية (بالترتيب الذي تمت به الإشارة في المقالة) .

١ ـ و . كيورتون ـ وثائق سريانية قديمة ١٨٦٤ .

غ . فيلبس ـ مذهب عداء (١٨٧٦) .

س . جوثيل ـ مختارات من القصص الجولياني السرياني (١٩٠٦) .

ف . س . بوركيت ـ يوفيما والقوط ١٩١٩ .

ب . بدجان ـ أعمال القديسين الشهداء (١٨٩٠ ـ ١٨٩٧) .
٢ ـ دورية الرها ـ الدورية الصغرى ج١ (مجموعة المسيحية الشرقية ج١) تحقيق غويدي ١٩٥٥ .
٣ ـ التاريخ المنسوب إلى داينوس تحقيق ج . ب . شابوث ١٩٥٣ ص ٢٥٣ .
ف . رايت تاريخ يهودا العمودي ١٨٨٢ .
٤ ـ تاريخ يحيى العربسوسي تحقيق إ . و . بروكسن ١٩٥٢ .
٥ ـ يحيى العربسوسي ـ حياة القديسين المشارقة (اللاهوت الشرقي) ١٧/١ ، ٤/١٨ ، ٢/١٩ ، تحقيق بروكسن ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥ .
٦ ـ أ . منغانا ـ مصادر سريانية ١٩٠٨ .
س . ى ـ ساشو ـ تاريخ الإربلي ١٩١٥ .
غ . هوفمان ـ مصادر سريانية عن حياة القديسين والشهداء (١٨٨٠) تاريخ برحدبشبا ـ تحقيق ف . نو ١٩١٣ ـ ١٩٣٢ .
٧ ـ تاريخ المردة (المصادر الشرقية : ١/٣) تحقيق نو ١٩٠٥ .
٨ ـ ث . نولدكه دليل إلى التواريخ السريانية ١٨٩٣ . تاريخ الياس مطران نصيبين تحقيق بروكسن ١٩٥٤ (ج ٦٣ CSCO) .
٩ ـ التاريخ المنسوب إلى داينوس التلمحري . تحقيق شابوت ١٨٩٥ .
١٠ ـ تاريخ ميخائيل السوري . شابوت ١٩٠٥ ـ ١٩١٠ ورقة ٤٩٨ . . .
١١ ـ تاريخ المؤرخ المجهول من ١٢٣٤ م ـ القسم الثاني (CSCO ج ٨٢) تحقيق شابوت (١٩٥٣) ص ٥١ .
هـ . أ . ر . جب وا . س ترتيون ـ الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية من تاريخ مجهول المؤلف ـ دورية الجمعية الملكية الآسيوية (١٩٣٣) ـ ٦٩ ـ ٢٧٣ .
١٢ ـ تاريخ مجهول المؤلف ينتهي بحوادث ١٢٣٤ .
١٣ ـ تاريخ ميخائيل السوري ـ الكتاب ١٨ . (شابوت ـ تاريخ ميخائيل السوري ورقة ٦٦٦ . .) .
١٤ ـ س . أ ـ و . بدج تاريخ ابن العبري (١٩٣٢) .
ج . ب ـ ابيلوس وت . ج لامي تاريخ غريغوري بن العبري القسم اللاهوتي (١٨٧٢ ـ ١٨٧٧) .

٢٢ـ اعمال التأريخ الأرمنية
س . ج . ف د وست
محاضر في الأرمنية في معهد الدراسات الشرقية والافريقية. لندن

لم تشغل أرمينية في أية فترة من فترات تاريخها الطويل دوراً قيادياً في شؤون العالم ، ولقد كانت جبهاتها ، باستثناء فترة قصيرة تحت حكم تيغران الكبير Tegran ضيقة ، وكان شعبها في معظم تاريخها المحدود ، شعباً مسيحياً صغيراً مهرطقاً معزولاً بطرق كثيرة عن جيرانه ، وفي المظهر العام ، كما في المحتوى ، يرتبط التاريخ الوطني لأية أمة بتاريخ الوطن ووجوده ، ولهذا يبحث المرء عبثاً عن مؤلفين أرمن ذوي أفق عالمي واسع مثل توسيدس أو ابن خلدون . ومع ذلك يلاحظ بالمقابل ، أن التاريخ عنصر رئيس في الأدب الأرمني ، وهذه ليست الحالة لدى قوى أعظم بكثير ، كما في الهند وفارس .

وفي الحقيقة عندما يفكر المرء ، في أن موقع أرمينية الجغرافي ، قد مكن سكانها من الحصول على صورة دقيقة لأحداث العالم الكبيرة ، مثل سقوط فارس الساسانية ، وقيام العرب ، وغزوات السلاجقة ، وغزوات تيمورلنك ، ولعله مما يبعث السرور في نفس المرء ، أن يجد أن شؤون هذا العالم ، اعتقد أنها جديرة بالتسجيل من قبل كتاب أرمينية .

وهكذا فإن الحقائق التي تضمها صفحاتهم كثيراً ما تكون ذات أهمية أولى ، وكثيراً ما تشوه تفسيرها بسبب تحامل الناس الذين تورطوا عن كثب وبصورة مؤلمة وغير عادية أيضاً في الاضطرابات السياسية في العالم المحيط بهم ، الى درجة جعلتهم غير موضوعيين تماماً .

وفي الوقت الذي نجد فيه ، أن الكتابات الأرمنية ، التي صنفت في الفترة الكليكية من تاريخ الأدب الأرمني ، تم تأليفها من قبل رجال علمانيين مثل الهيثومان ملك أرمينية ، وأمير كوريكوس ، كل على حدة ، كانت الكتابة التاريخية في أرمينية الكبرى ، التي ستقتصر عليها الصفحات التالية ، في المقام الأول ، في أيدي رجال الدين من المؤرخين الرئيسين . ويبدو أن فاوستوس بيوزانداتزي ، كان من العلمانيين ، وهو ظرف ربما كان مسؤولاً عن بعض الفقرات في تاريخه ، كان يظن من قبل بعض قرائه القدامى ، كما سيرى فيما بعد انها ليست صحيحة تماماً ، أو حتى سخيفة ومنافية للعقل كلية ، وبين المؤرخين الآخرين كان جون دراخنا كرت جاثليقا ، وستيفن أوربليان ، رئيس أساقفة ، وسيبيوس ، وأختانوس أسقفان ، واليزيوس فاروابت ، والزاروس فارب ، وفاردان إيرولتزي وكيراكوس غاندجا من الرهبان .

فقد شكل رجال الدين القسم الأكثر تعليماً في المجتمع الأرمني ، وقبل اختراع الأبجدية الأرمنية في بداية القرن الخامس ، ولبعض الوقت بعد ذلك ، كانوا على اطلاع على اليونانية والسريانية ، ملمين بها ، وشكا كاتب التاريخ الذي حمل اسم موسى خورين «من جهل ملوكنا وبعض أسلافنا ونقص ذكائهم» ، ولعل هذا الحكم كان منطبقاً على النبلاء في زمانه (القرن السابع ؟) وإن محدودية المؤرخ الكاهن مع ذلك واضحة ، ولا يوجد بالكاد كاتب أرمني واحد ، نجح في شرح مختلف الكوارث ، التي ألمت ببلاده ، إلا كعقاب من الله على ذنوب البشر ، أو الانتصارات وفترات الرخاء ، إلا ومردها إلى طيبة الرب ورضاه .

ووجهة النظر الضيقة هذه ، ليست على أي حال من احتكار المؤرخين من الكهان ، والمرء على أي حال محظوظ ، لأن عدداً كبيراً من الكتاب من الكهنة في أرمينية ، كانوا قريبين من البلاط ، مشتركين أحياناً في الأحداث ، التي تولوا وصفها ويدعي على سبيل المثال ، اليزيوس على الأقل ، أنه كان شاهد عيان للحرب ضد يزد جرد الثاني في سنة ٤٥١ م ، في حين شغل ، عند نهاية القرن التاسع ، جون الجاثليق دوراً سياسياً فعالاً كمستشار للملك ، ووسيطاً بين النبلاء المتحاربين وقد عانى هو نفسه من السجن على يدي الحاكم العربي ، ومع ذلك لا يعرف الا القليل عن حياة المؤرخين بشكل عام ، حتى أنه لا يمكن إجراء عرض

مرض لأصولهم الأجتماعية . وقد تربى لازاروس فارب ، كما أخبرنا ، مع الأمير فاهان ماميكونيان في قصر اشوشاي في جورجيا ، وكان على علاقات ودية مع الأميران ، نرسه وهراهات كمساركان ، وتتضح الأصول الأرستقراطية لتوماس أرتسروني ، وشابوه بغراتوني ، وجون ماميكونيان وستيفن أوربليان من ألقابهم النبيلة ، وهناك ثلاثة من المؤرخين ، كانوا يعدون تقليدياً من الأجانب .

وتظهر مقدمة تاريخ أغاثانجيلوس ، المؤلف على أنه رجل من أغاثانجيلوس من مدينة روما ، ضليع في فنونه الوطنية ، وفي الأدب الروماني واليوناني ، وليس جاهلاً في حرفة الكتابة ، وقد روى عن لازوروس الفاربي ، أن فاوستس كان بيزنطياً ، في حين عد زينوب غلاك المخادع أو القاص تقليدياً ، بأنه كان سورياً .

وقد أخذ الأرمن نماذجهم للكتابة التاريخية ، جزئياً ، من الاغريق ويقول موسى خورين : «ولئن كان هناك كتاب من جنسيات عديدة ، فقد تصدرهم الفرس والكلدان ، فهم الذين سجلت من قبلهم أمور أمتنا ، ولايدهش أحد من أننا ، لا نذكر إلا المؤرخين اليونانيين . ولن أتردد في تسمية اليونان بالأم ، ومرضعة الحكمة» .

وكان الكتاب اليونانيون ، الذين ذكرهم موسى هم مع ذلك من الصغار مثل اسكندر بوليهستور بوليكراتس وبواغورث ، وأوليمبيوس الآني ، وأريستون البيلي الخ . . .

ومع أنه أشار بإيجاز الى هيرودوت في فقرة واحدة (٢/٢) فإنه لم يرجع الى كتّاب مثل اكسنفيون ، واسترابو ، الذين كان لديهم شيء يقولونه ، مما يتعلق بأرمينية ، وتصور التبجيل ، الذي أحيط به الكتاب اليونان ، فقرة في كتاب لازاروس الفاربي ، عالجت الاستيفاء المشكوك فيه في كتب فاوستوس ،والذي لايتوافق مع ما يتوقع من عالم بيزنطي ، وبعد تأسيس القسطنطينية كعاصمة قال لازاروس : «إن أنهار المعرفة باتت تتدفق بغزارة من المدينة ، منذ أسرع الدارسون من كل المناطق في اليونان الى هناك ، وحتى اليوم الراهن ، فإن جداول المعرفة هذه ، قد استمرت في الامتداد الى كل المناطق ، وكيف يمكن لرجل قبل فاوستس تعلم في مثل هذه المدينة ، أن يضع في مادة تاريخه ما يزعج قراءه» ؟ ولربما كان للكتابات السريانية بعض التأثير على الأدب الأرمني ، ويدعي موسى خورين ، أن

جزءاً كبيراً من تاريخه هو عمل مار عباس كاتينا وبر ديصانس ، ولكن ليس هناك في أي مكان أية إشارة الى تاريخ قديم واضح الأصالة ، أثر في الكتابة التاريخية للأرمن ، ويذكر موسى خورين أيضاً وجود المؤرخين الفرس ، ولكن ليس من المعروف من كان في ذهنه .

هذا وإن قوائم الاحداث الزمنية المحضة ، مثل أعمال صمويل آني ، ومخيثار إيروانقي المعروفة باسم تواريخ الزمان ، لا أهمية لها في المقالة الراهنة على الرغم من أهميتها كمصدر ، وكما وصفها موسى خورين : «ليس هناك تاريخ حقيقي بلا تواريخ» .

وينطبق أيضاً على اليونان ، الكلمة قليلة الاستعمال للتأريخ (حكايات) وتحتوي الترجمة الأرمنية لكتاب غريغوري النيسي (خلق الإنسان) عبارة التأريخ على أنه فن رواية الكثير من قبل القليل ، وترتبط الكلمة المعتادة للتاريخ (حكايات) بالفعل حكى ، وهي تعطي صوراً مختلفة من الكتابة .

وأعمال أغاثانجلوس وكورين تراجم وسير قديسين . وكان من بين مؤلفي ما يدعى بتواريخ شاملة ، تبدأ بآدم ، موسى خورين ، وفاردان إيرولتزي ، وموسى كالنكا توقي ، وستيفين تاروني ، المدعو أزوليك ، وجون الجاثليق .

وقيد كتاب آخرون على سبيل المثال ، لازاروس فاربي ، وفاوستس بيوزانداتزي ، وزينوب غلاك ، وليوند ، أنفسهم بفترة خاصة ، غالباً ما ادعى بأنها كانت معاصرة ، ويتعامل اليزيوس ، وسيبيوس مع حدث خاص ، وموسى كالانكتوقي ، ودجوانشيو مع منطقة خاصة وتوماس أرتسروني ، وستيفن أوربيليان مع عائلة خاصة . وغالباً ما كتبت مثل هذه التواريخ بتكليف أو توجيه من مسؤول ، ويمكن في كثير من الحالات للمرء أن يكتشف تأثيره على وجهات نظر المؤلف ، وتبعاً لهذا كتب اليزيوس تاريخه بناء على طلب كاهن من أصل نبيل هو دراود ماميكونيان ، وربما كتب لازاروس فاربي تاريخه بنا على طلب من مرزبان أرمينية ، واهان ماميكونيان ، ولاشك أن مرد إضفاء صفات البسالة على الماميكونيانيين لدفاعهم عن بلادهم ، وللتحيز المأجور ، لأن الماميكونيانيين ، كانوا العائلة الأميرية الأكثرية نشاطاً في الفترة .

التي اهتمت بها هذه التواريخ ، وكان الباغراتونيس المنافسون المتأخرون للماميكونيانيين رعاة لثلاثة مؤرخين وكتب ليوند الكاهن تأريخه للخلفاء بناء على طلب من شابو باغراتوني ، (أشار الى تاريخه جون الجاثليق ، وأسوليك ، وأختانوس ، وكيراكوس وسواهم ، وهو الآن مفقود) وتحيزه واضح تماماً وقد وقف علنا في صف محدد في الصراع بين غريغوري ماميكونيان وأشوت بارغاتوني في منتصف القرن الثامن ، عندما عين الأخير حاكماً لأرمينية من قبل مروان الثاني ، وقام بمداولات لتبني قضية مشتركة مع العرب خلال ثورة للنبلاء بقيادة غريغوري ، واعتقل غريغوري ، وسملت عيناه من قبله ، ويطلق ليوند على ماميكونيان اسم الأرمني الخائن ، وعلى حلفائه الأمراء المخادعين بعدما قبل موسى خورين التكليف بالرعاية ادعى أنه أصبح المزربان ، وأخبره اسحق باغراتوني (نحو ٤٨٠) أنه سيقدم هذا الكتاب للحفاظ على ذكراه ، «وليكون ذكرى للأجيال المقبلة في عائلتك ، لأنك من أرومة خصبة قديمة باسلة ، ليس بفضل المشورة المفيدة فحسب ، بل أيضاً بفضل أعمال عديدة ، فذة جداً وباهرة ، سوف نسجلها في هذا التاريخ» ، لا يعطي جون الجاثليق اسم راعي تاريخه ، ولكنه يبين أنه كتبه بناء على أمر ملكي ، وربما كان بأمر أشوت الأول (٨٨٥ ـ ٨٩٠) أوسمباط الأول باغراتوني (٨٩٠ ـ ٩١٤) ، ولم يكن للباغراتونيين في ذلك الوقت منافسون في قيادة أرمنية ، وكان دعم جون متوقعاً ، والولاء على أي حال انحياز للمؤرخ ، ويبدو أحياناً ، أنه قد أثر على أحكام جون ، وعندما عين أشوت (سيكون أشوت الأول المقبل لعام ٨٨٥) في ٨٦٢ أميراً للأمراء من قبل الحاكم العربي . كتب جون «قرر جميع الامراء ، أن عائلته يجب أن تعد عائلة ملكية ، واعترفوا بأنها جديرة بتميز خاص ، وتستحق أن ترفع إلى مقام عائلة ملكية وأن تنفرد عن جميع العائلات الأميرية الأخرى» .

ومن الممكن أن يكون المؤرخ هنا قد توقع التتويج الذي تم بعد عشرين سنة تلت ، وكلف توماس ارتسروني بكتابة تاريخ عائلته ، البيت النبيل العظيم ، الثالث في أرمينية ، كلف من قبل قريبه غريغوري أمير وسبوراكان ، وقد تضمن مشروع كتابه درجة كبيرة من الانحياز ، لأنه وضع الأتسرونيين دوماً في المقدمة ، وجعلهم يغطون بظلالهم العائلات النبيلة الأخرى ، التي شغلت دوراً بالأهمية

نفسها في ذلك الوقت ، ومع ذلك لم يموه توماس أخطاء الأعضاء السالفين في عائلته ، وقدم روايات مفصلة وكاملة ، على سبيل المثال ، عن أعمال الخائن مرزهان أرتسروني خلال حكم أرشاك الثاني ، ومع ذلك نجده لدى تدوينه الخبر المأثور الذي نقله عن موت مزرهان على يدي القائد العام سمباط باغراتوني لم يتملق عائلة سمباط ، بل قال : «غالباً ما سعت الثعالب وراء الملك ولكن الكلاب منعوها» .

وعلى الرغم من هذه الأمثلة على التحيز ، كان هناك بعض الشعور (ونادراً ما استغل ، هكذا يشعر المرء) لدى المؤرخين الأرمن ، أن الراعي يجب أن يصور بكل نتوء فيه ، ويروي أغاثانجلوس ، أنه قد كلف تردت الثاني بكتابة تاريخه ، ويقول : «إنه أُمر بأن لا يكتب قصصاً كاذبة حول بسالته ، أو خرافات مصاغه بعبارات مزخرفة بإسراف حول مزايا الملك ، وأن يصف الأشياء كما حدثت في مجر تغيير مصائر الحرب» .

وفي الحقيقة استخدمت بالطبع أعمال تردت السيئة قبل المسيحية كنظير مقابل لورعه بعد دخوله في المسيحية ، وقد تم التكليف بالتواريخ من قبل الجاثليق ، فقد كلف جوزيف الأول (٤٢١ ـ ٤٥٢) بكتابة تاريخ كوروين ، وكلف نورسيس الثالث (٦٤٠ ـ ٦٦١) بتاريخ جون ماميكونيان ، وقد اعتبر تقليدياً ـ لكن خطأ ـ أن القديس غريغوري المنير ، قد كلف بتاريخ زينوب غلاك .

فما الذي جذب المؤرخين الأرمن ورعاتهم للكتابة التاريخية ، لقد كانت الوطنية أحد العوامل ، فقد كتب موسى خورين يقول : «ومع أننا نعيش على قطعة صغيرة من الأرض ، وشعبنا قليل العدد ، وحدودنا ضيقة ، وبلدنا ضعيف ، كثيراً ما كان خاضعاً لأمم أخرى ، كانت هناك أعمال شجاعة كثيرة ، جرت في هذه البلاد تستحق تسجيلاً كتابياً» .

وفي حالة كتاب مثل توماس أرتسروني وستيفين أوربليان وموسى كالانكا توني ، وجون ماميكونيان الخ . . . لقد كان ذلك مسألة فخر عائلي أو إقليمي أكثر منه فخر وطني ، وكان هناك عادة باعث وطني أيضاً . لتأليف التواريخ الأرمنية ، ويذكر اليزيوس أنه كتب تاريخه لا لإشباع حاجة الروح لقدر وافر من المعرفة

الأرضية ، ولكن من أجل أن يتأمل المرء ويفكر ملياً في العناية الإلهية التي تعلن عن غير المنظور بالمنظور .

ولم يتردد في الإشارة إلى المعنويات في القصة التي يرويها مثل قوله : «وكما قال بعض المؤرخين الجيدين : الوئام أم الخير ، والخلاف هو الشر» ولم يكن لازاروس فاربي ، الذي عالج بشكل أكثر إيجابية الأحداث التي حكاها خوروين وأليزيوس أيضاً بدون هدف معنوي ، اسمعه يقول : «خلف كثير من الرجال البواسل بعدما سمعوا بأفعال الآخرين الذين قاموا بمآثر فذة من البسالة قبلهم ، اسماً شهيراً من أجل مجدهم ومجد أمتهم ، في حين أن الكسالى والجبناء ، عندما ينظرون إلى أنفسهم ، ويسمعون تأنيب الآخرين ، قد يتنبهون للبحث عن الفضيلة ، وربما يحاولون تحسين طرائقهم» .

وقال أريستاكس لاستيورت وهو يكتب عن انهيار أرمينية أمام الغزو السلجوقي ، إنه قد سجل ما حدث «من أجل أن يعرف أن الخطيئة هي المسؤولة عن كل ما حدث لنا ، وأنه برؤيتهم ـ السلاجقة ـ بيننا . ربما نرجو من وجهه تعالى ، أن يوقف الابتلاء بالعقوبة بالاعتراف والتوبة ، وهكذا نقاومهم» .

ومثلما كتب اليزيوس ملحمته النثرية في موضوع تاريخي ، ليؤثر على رفاقه بضرورة التوحد خلف المسيح ضد الساسانيين ، ألف أريستاكس مراثيه التاريخية ، حتى يتمثل شعبه بها من أجل طرد السلاجقة ، وبناء عليه كانت أعمالهم مثل عمل ليوند ذات باعث سياسي ، وكانت أهداف توماس أرتسروني علنية وغير مخفية حيث قال : «إننا لسوف نلقي الضوء من البقايا القليلة الموجزة من مذكرات المؤرخين السالفين على شؤون السادة من أبناء الأمة من عائلة أرتسروني وملكهم بالأسماء والأماكن والتواريخ ، حتى تصبح بسالتهم وفضائلهم واضحة للجميع» .

وكان المؤرخين الأرمن الآخرون معنيين أكثر بالتاريخ كمجموعة من القصص الجميلة ، فها هوذا موسى كالانكتوقي يقول : «وكما أن السموات متألقة بالنجوم والأرض بالزهور ، ينبغي أن تتألف كتابات المؤرخين وتتزين بالأحداث المختلفة . . . . أي قصص رائعة تلك التي أعددتها للنشر من أجل تنبيه العالم بعيده وقريبه ، روايات العصور الأقدم . . . التي لا يمكن مقارنتها» .

وكان غالبية المؤرخين الأرمن مدركين ، أن التاريخ يجب أن يكون موضوعياً وهادفاً وعلمياً ، مع أن فحوى كثير من الكتب تتغير بعد المقدمة ، فأعمالهم لا تتوافق دوماً مع مقاصدهم ، ولأغلبهم مخطط محدد في فكره ، وهو يتبعه بطريقة منهجية تقريباً .

وعلى سبيل المثال تكشف مقدمة اليزيوس بشكل منظم تقسيم عمله الى سبعة فصول ، تتصل بالمراحل التي حلل فيها الحرب الأرمنية في عام ٤٥١ ، كما لم يكن لدى جون الجاثليق ، أي شكوك حول كيفية كتابة تاريخ لقوله : «يجب على المرء أن لا يربط نفسه برواية يمكن أن تكون تعاقباً لحقائق مختصرة ، والمرء يجب أن يؤلف تاريخاً قائماً على بيانات لاتدحض ، وتكون غير قابلة للوم في مادة الموضوع والأسلوب» ، وكثيراً ما يكون المرء مدركاً للإحساس بخلود التاريخ ، واعياً ، لأن المؤرخ يشكل حلقة واحدة في سلسلة لا منتهية ، وهكذا عدّ لازاروس فاربي ، أن عمله تكلمة لعمل أغاثانجيلوس وفاوستس ، في حين التمس جون ماميكونيان ، الذي أجيز تاريخه على أنه تكملة لذلك المنسوب لزينوب غلاك ، من الأجيال المقبلة من الرهبان ، «أن يضيفوا الى هذا الكتاب ما حدث في أيامهم في هذا البيت ، فنحن وجدناه هكذا موصوفاً من قبل أسلافنا» وذكر فاوستوس ، أن أحداثاً معنية موصوفة في كتبه ، قد تمت كتابتها من قبل آخرين ، بيد أنه أضاف بأنه ، مع ذلك ، قد أدخلها من أجل توالي الأحداث ، «لأن جزءاً من تاريخنا ، يتعلق بالأحداث الأولى ، وجزءاً بالمتأخر منها ، وتلك التي حدثت بينهما كتبت من قبل آخرين ، وحتى لا يشبه تاريخنا جسداً محطماً ، أدخلنا هذه الأحداث المتوسطة ، كما لو كانت لبنة في بناء جدار من أجل اكتمال الكل» ويقول توماس أرتسروني إن الكتّاب المتقدمين ، قد ألفوا تواريخهم ، حتى يجد الذين جاءوا بعدهم تشجيعاً في تعهد الدراسات نفسها ، واكتشاف المعاني [فضلاً عن] أن الأبرع والمجدين من الرجال ، قد يتابعون أبحاثهم بجهد أقل» .

وكانت المصادر الصحيحة ، التي استمد منها المؤرخون الأرمن مايلزم لتأليف أعمالهم ، في القسم الأعظم منها ، مجهولة ، ولم يقبل موسى خورين في هجومه على قدماء الأرمن ، الذين بدوا له «جهله غير أذكياء وبرابرة» ، كعذر للنقص في التواريخ ، غياب الأبجدية الأرمنية قبل القرن الخامس ، مبيناً أنه «كان

هناك وثائق فارسية ويونانية مازالت باقية في أرمينية في سجلات عديدة ، تتعلق بشؤون كل قرية وكل إقليم ، وحتى كل بيت ، وكتب لا حصر لها من الأساطير ، وفوق كل شيء ، تلك التي تتعلق بسلاسل النسب لنبالتنا» . وينبغي التعامل مع ادعاء موسى ، بأنه قد راجع محفوظات وثائق الرها بتشكك ، ولكن من الممكن ، أنه كان يوجد في السريانية معلومات تتعلق بأرمينية ، قد فقدت بالنسبة لنا الآن ، وكان توماس أرتسروني يشكو من صعوبة تعقب تاريخ عائلته بسبب مرور الوقت ، وفقد المحفوظات والوثائق في أرمينية ، وذكر بين مصادره كتباً تاريخية قديمة ، وقصصاً روائية تاريخية كثيرة ، ولكنه لم يعط أي اسم من الأسماء ، وذكر جون الجاثليق «المؤرخين الأجانب ، الذين رووا تاريخ عرقنا بعناية قصوى» ، ولكنه أيضاً أخفق في أن يكون أكثر تحديداً ، ويمكن أن يكون ستيفن أوربليان في بيانه لطريقته مؤرخاً حديثاً ، يضع بين أقواس التواريخ القديمة والحديثة الأرمنية ، والمخطوطات الكنسية والمحفوظات القديمة ، وشهادات الأشخاص العارفين مع وعد بأن يرضي نفسه فيما يتعلق بمصداقيتها ، وأن يرفض السفاسف وقد استمد الأرمن على وجه التفصيل من الكتب المقدسة ، وأعمال الكتاب المسيحيين ، الذين دعاهم توماس أرتسروني «رجالاً مجدين ومرتفعي الذكاء ، كانوا بالنسبة للذين خلفوهم بمثابة المرضعين ، أعطوهم غذاءً صحياً مهماً ، وقادوا المجدين ، والذين يخافون الله الى الحكمة الناضجة» . وأعلن جميع المؤرخين ، أنهم تعاملوا مع مصادرهم بحذر شديد ، وهكذا كان لازاروس فاربي واثقاً ، من أن الفكر الناقد ، يمكنه أن يميز بين كلمات الرجال المتعلمين وثرثرة الحمقى» .

وجرت العادة أن يكون المؤلفون الوثنيون أكثر عرضة من سواهم لتلقي معظم القدح ، وقد رأى موسى خورين ـ هيرودوت الأرمن ـ أنه من غير الضروري تكرار «خرافات المؤلفين المجدفين» ، مع أنه استثنى أحياناً بعض الأحداث والشخصيات المشار إليها في الكتب المقدسة ، فهو هنا على استعداد لاستخدام «الروايات الوثنية ، مع أننا سنأخذ منها فقط ما نعتقد أنه يمكن الاعتماد عليه» ، ويفيد هذا أن النقد التشكيكي ليس ظاهرة جديدة ، فقد أظهر بعض الكتاب عدم ثقة كبيرة بالمصادر ، حتى الأرمنية الموضوعة تحت تصرفهم ، خاصة عندما كانت لا تتفق مع تصورهم المتقدم ، وأبدوا من حين لآخر شكوكاً في أن

النص الذي بين أيديهم قد جرى العبث به في الماضي ، فقد أشار لازاروس فاربي على سبيل المثال إلى وجود أشياء غير متجانسة في نص فاوستس ، وعدها إضافات من يونانيين وسريان جهلاء وقحين ، وفي الوقت الذي وجد فيه لازاروس الكثير من هذا في مصادره ، لم يجد توماس ما يكفي ، ولهذا عزا انعدام ذكر أي بطل أرتسروني في رواية الحرب الأرمنية في ٤٥١ إلى خبث أحد النساطرة ، الذي طرد من قبل الأمير نرشابوه أرتسروني من أقاليمه ، فأزال بحقد الفقرات المتعلقة بأسرة أرتسروني من مخطوط اليزيوس ، وادعى غالبية الكتاب بتمتعهم بمناعة قوية ضد القصص القديمة والأساطير لأنها حسب رأي جون الجاثليق «أضعف من أن تمتع العقل» ، وأنه لا شأن له بها ولا فائدة من «الآثار غير المؤكدة المنتزعة من أفواه المعمرين من الناس» .

وجاء الشعور بأن البلاغة غير مرغوبة في العمل التاريخي أقوى لدى بعض الكتاب منه لدى بعضهم الآخر ، وقليل منهم الذي تحرر من هذه الاندفاعات من حين لآخر . وأنكر كورون ، أن يكون قد استعان «ببعض البلاغة الخادعة» ، مدركاً أن أميراً ما ، قد يعتقد أنه يستحق إطراء أكثر من ذلك الذي بدده عليه ، والتمس توماس العذر له حيث أن هذا هو وقت التاريخ ، وليس وقت المديح أو التأبين ، وقد ترك مثل هذه الأعمال «لرجال أكثر قدرة وذكاء» ، وكان الأسلوب ـ مع ذلك ـ له بعض الأهمية ، مع أنه لم يقصد به التدخل في الحقائق التاريخية ، واعتبر لازاروس فاربي كتابة التاريخ مهمة تتطلب مواءمة الكلمات وترتيبها ، وفقاً لما يمليه العلم ، وأن على المرء أن لا يتوقع في روايته حول الأشياء ، التي لم تحدث لمجرد غَزْل الكلمات ، وأن لايبتر رواية الأحداث ، التي وقعت بسبب نقص الحماس فالجميع ينبغي أن يقدم بحكمة واعتدال ، ولكن لسوء الحظ ومن أجل الدقة التاريخية ، نجد أن فقرة أرجوانية من مؤلف ما ، قد تنطبق على ظروف مختلفة لدى آخر ، فوصف توماس أرتسروني للمتوكل ـ على سبيل المثال ـ مستعار من وصف اليزيوس ليزدجرد الثاني ، وربما عادت الطريقة الأرمنية المشتركة في توضيح الأهداف والمواقف للشخصيات التاريخية عن طريق وسائل كتابية مخترعة إلى أسباب الأسلوب أكثر منها إلى الرغبة في الخداع بالتزييف .

وبسبب الطبيعة الخاصة لمعتقداتهم الدينية وطموحاتهم الوطنية ، لم يتطلع الأرمن إلى أحد من جيرانهم بأي درجة ملحوظة من التعاطف ، وبعد تحول أرمينيا إلى المسيحية ، أصبحت فارس الساسانية عدوها الأكبر ، وهكذا بقيت أحداث (٦٢٨ ـ ٦٣٧) غير مأسوف عليها في المصادر الأرمنية . وكان أناس مثل الخزر ، يعدون محور ازدراء كبير ودون بني البشر ، حتى يفكر بهم ، وأشار موسى كالانكاتوقي الى بلادتهم الشمالية المعتادة ، وعقولهم التي ينقصها الذكاء ، وذلك على الرغم من أنه كثيراً ما يحسب لهم حساب من الناحية السياسية . والبيزنطيون ، الذين كانوا مثاراً للإعجاب من جانب عدد من المؤرخين الأرمن ، والذين اتجهت إليهم البلاد عادة بنجاح محدود في ساعات الحاجة ، كانوا بعد الإنشقاق بين الكنيستين في بداية القرن لسادس ، مثل الجورجيين ملعونين لايمانهم بطبيعتين للمسيح : ناسوتية ولاهوتية ، وخلقدونيين هراقطة .

ومع هذا لا يمكن للمرء ، أن يقول إن الكتاب الأرمن ، كانوا جميعاً رجالاً أصحاب رسالة ، فقد بالغوا في تملق رجالاتهم ، وبعد كل شيء لقد كانت خطاياهم ، هي التي جلبت الغزو الأجنبي لهم ، وقد أدرك بعضهم ـ وعبر عن هذا الإدراك بفكرة تحقيق الوحدة الأرمنية ـ أن الهياج الداخلي الدائم تقريباً ، الذي قامت به أولاً فئة من الأرمن ثم تابعته فئة أخرى ، ربما دفع جيرانهم إلى الحيرة والعدوان ، وقد وضع سيبيوس على سبيل المثال قسماً من اللوم على انقسام أرمينية بين بيزنطية وفارس في سنة ٥٩٠ على أبناء جلدته أهل البلاد بإعادة استصدار ـ أو ما هو احتمالاً باختراع ـ رسالة من موريس الى كسرى ، سمى فيها الأرمن شعباً متمرداً ضائعاً ، لا يسبب سوى المتاعب لهما .

وكما قد يتوقع المرء ، كان لدى المؤرخين الأرمن ، القليل من القول الحسن عن دين الإسلام ، وعن قاهريهم من العرب ، وكانت نظرتهم متحاملة الى درجة السخف ، وكان العرب بالنسبة لهم (أبناء الشيطان) و(شياطين ملعونين) ذوي ميول طبيعية لفعل الشر ، وسماهم موسى كالانكاتوقي الذي كان يمكنه صياغة سباب لطيف «عرق كافر ، أحمق مطلق العنان لأهدافه» ، وقد مضت المصادر الأرمنية إلى عدد من شائعات القذف حول خصائص النبي (ﷺ) ، فموسى نفسه

اتهمه على سبيل المثال ، بقتل معلمه بحيرا(*) ومن الواضح ، أن معرفة الأرمن بالإسلام في الفترة التي نعالجها ضئيلة جداً وتافهة ، وغير جديرة بكتاب جادين ، وعد توماس أرتسروني أن القرآن من عمل سلمان الفارسي ، مع استيفاء من محمد (ﷺ) الأمي ، في حين أن فردان أرولتزي ، أعطى رواية وهمية حول أصل سورة البقرة ، ورواية ساخرة ، وتفسير للحج إلى مكة .

ولا يمكن للمرء أن يتوقع ، أن يكون لديهم أي حب للفاتحين من سادة البلاد ، وهناك فترات عديدة موقفه على قصص الوحشية والإدخال الجبري في الإسلام .

وربما كان من العدل فقط ، أن نقول ، بأن الكتاب الأرمن ، لم يكونوا بأي حال راضين دائماً عن سلوك أمرائهم وقواتهم ، ونادراً ما كان الخلفاء يمتدحون ، فقد كان هارون الرشيد ، رجلاً جشعاً يحب اكتناز المال ، ونقلاً عن ليووند وعن موسى كالانكاتوقي ، أنه «قام بمثل هذا الاضطهاد الزائد لأرمينيا ، حتى إن كثيراً من الأقاليم ، تحولت الى اليونانيين» ، وهذه الملاحظة ذات دلالة على أن الأرمن كانوا يفضلون في مجرى الأحداث الطبيعي سيادة العرب على الامتصاص اليوناني ، ووجد أحياناً اتفاق بين المصادر العربية والأرمنية ، فيما يتعلق بشخصية أحد الخلفاء . ويقول ليووند : «مات المنصور منهكاً من حبه للفضة ، وهو عيب مشترك لكل جنسه» ، ويعرف توماس أرتسروني أن العرب أنفسهم ، كانوا يدعونه أبا الدوانيق ، وكان لدى ليووند مديح نادر لخليفته المهدي ، الذي قال عنه : «إنه كان أكثر نبلاً وفضلاً من أبيه . . . لقد فتح الخزانة ، التي كان والده يحتفظ بها مقفلة ، ووزع الهدايا على الجيش ، وأبطل المكوس على جبهاته من أجل أن يزود التجار بحرية أكبر ، وينفع الفقراء . . . ومع أنه زاد من نير الضرائب ، فإن البلاد تحررت من حالتها البائسة بالزيادة في إنتاج الفضة ، حيث اكتشفت مناجم فضة جديدة في أرمينيا في أيامه» ، وحسب روايتهم ، كان عبء الضرائب ثقيلاً على الأرمن ، وكان سليمان والي هارون الرشيد ، حسبما قال ليووند ، أشد الناس أذى وخداعاً ، فقد استخدم يونانياً ليحصل ضعف كمية الضرائب من

★ ـ من المقرر علمياً أن شخصية بحيرا ليست شخصية تاريخية وجدت حقيقة .

الأرمن ، «وكان يختم بخاتم من الرصاص عنق كل واحد ، كإيصال لعدد كبير من المثاقيل ، وهكذا حول الناس إلى فقر مدقع ، فما من أحد كان يمكنه التصرف بمملتلكاته» ولكن القليل كانوا ينظرون بتسليم الى جامع الضرائب .

وعلى هذا لم يعامل الإسلام والعرب بأي موضوعية وحياد من قبل المؤرخين الأرمن ، والصفحات المخصصة لهم من الناحية التاريخية فقيرة . ومن الواضح ، أنه كان خارجاً عن قدرة المؤرخين ـ الكهنة من الأرمن أن ينظرون إلى تنامي الإسلام دون تحامل أو ذعر .

وكان المؤرخون الأرمن مشغولين بالأحداث في بلادهم ، وفي هذا المحيط كشفوا عن أنفسهم ، على أنهم كانوا قادرين على تفهم كثير من العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، التي تحكمت بشؤونهم الداخلية : العلاقات بين الكنيسة والدولة ، والملك والبارونات والتنافس بين مختلف العائلات النبيلة والزمر السياسية المعارضة ، والآثار الاقتصادية للغزو الأجنبي ، وتأسيس المؤسسات الاجتماعية مثل المدارس والمشافي ، وكلها تطلبت انتباههم ، ونادراً ما كانوا يظهرون الاتساع في الأفق الأكثر شيوعاً لدى مؤرخي القوى العظمى ، ولكنهم لم يكونوا عمياً عن أهمية أحداث العالم ، وأظهروا أن التاريخ كالفلسفة ، يفضل رقعة أكثر اتساعاً ، ولكنه قد يزدهر داخل حوض ، ويعيش فيه .

القسم الثاني

الكتابات التاريخية الاوروبية (بما فيها الروسية)
حول
الشرقين الادنى والاوسط
من
العصور الوسطى حتى اليوم الحالي

٢٣ـ المؤرخون البيزنطيون والأتراك العثمانيون
السير ستيفان رنسمان

كان التاريخ أحد الفروع القليلة للأدب ، التي تفوق فيها الروم البيزنطيون ، وقد أنتجت بيزنطة عدداً مشرفاً من المؤرخين الجادين ، لقد كانت لهم أخطاؤهم ، وكان لمعظمهم تحيز سياسي قوي ، وكانت الحاجة للتسويغ لأنفسهم ولأصدقائهم عادة ، أكبر من حبهم النزيه للحقيقة ، لقد كانوا ميالين لإهمال الأمور التي لم تحظ باهتمامهم ، وكان كل منهم يرى في نفسه إعادة تجسيد لتوسيدس ، وكانت المحصلة غروراً واعتزازاً بأسلوبهم ، كثيراً ما اجتمع مع المذاق المعتاد للعصور الوسطى في الكتابة المتأنقة ، التي تجعل قراءة الكثير من أعمالهم عملاً شاقاً ، ولكن كان لديهم حس بالأسلوب وبالصورة .

وكانوا يعتقدون ، أن التاريخ يجب أن يحوي نوعاً من الفلسفة الخلقية ، وكانوا مهتمين بتعاقب السبب والأثر ، وكانوا يعرفون أنه من المهم استخدام المصادر ، التي يمكن الاعتماد عليها والاقتباس منها أحيانا ، وبشكل وسطي كانوا متفوقين بدرجة كبيرة على المؤرخين من معاصريهم(*) وكان من بين وجوه الضعف فيهم نقص مؤكد في الاهتمام بالشؤون الخارجية لقد كانت عيونهم مثبتة على القسطنطينية مقر الحكومة ، والبلاطين : الأمبراطوري والبطركي ، اللذين كانت قد دارت حولهما مؤامراتهم ، ولم يلاحظ الأجانب إلا نادراً ، إذا نفذت جيوشهم إلى قلب الأمبراطورية ، أو إذا أدت مغامرات الامبراطور على الجبهات إلى وفاته ، أو إلى ثورة في القصر ، ولم يكن البيزنطيون إجمالاً مفتقرين إلى المعلومات حول

★ ـمن الأوروبيين طبعاً

جيرانهم ، كما يظهر دليل قسطنطين السابع الدبلوماسي (إدارة الأمبراطورية) ، وشعر المؤرخ المصقول بأن البرابرة لهم حيز ضيق في عملهم ، ومال للأعتذار على تسجيل أسماء بربرية قام في الحقيقة كما جرت العادة برسمها بحروف لدى نقلها إلى لغته ، لتأخذ صورة ، يصعب تمييزها ، وكان هناك تقليد من القرن العاشر وما بعده ، بإعطاء الأجانب بعض الأسماء التقليدية ، وكان البلغار ميالين للظهور كموازين Moesians والروس سيثيان Scychians والترك ، بشكل مربك نوعاً ما ، كفرس ، وقد عولجت فترات كاملة من التاريخ البيزنطي الخارجي بشكل متقطع . وهكذا فإن دراسة متتابعة للحروب بين بيزنطة والعرب ، يجب أن تعتمد على مصادر عربية أكثر بكثير منها على مصادر يونانية .

وأوجدت الغزوات التركية من القرن الحادي عشر وما بعده ، مشكلات خارجية لم يمكن تجاهلها . ومن حينه فصاعداً ، بات المؤرخون البيزنطيون مجبرين على الإنتباه إلى الأتراك ، ودراسة شيء من تاريخهم ، ويجب في الحقيقة أن نلجأ إلى الكتاب البيزنطيين من أجل الكثير من معلوماتنا حول سلاجقة الروم ورفاقهم ، وعلى سبيل المثال ، كنا لن نعرف شيئاً عن المغامر الرائع الأمير جكا صاحب أزمير ، لو لم يوجد تاريخ آناكومينا ، مع أنه يجب الإقرار ، بأن بعض معلوماتها عنه متضاربة ، وجعل قيام الأسرة العثمانية الأتراك على علاقة أوثق وأكثر إلحاحاً مع بيزنطة ، ولم يعد هناك مفر ، من أن يعطي الكتاب البيزنطيون اهتماماً أكبر فأكبر لجيرانهم المرعبين ، وقاهريهم المقبلين .

وقد تم حساب أننا إذا دخلنا القرن الذي تلا فتح القسطنطينية ، فإن هناك قرابة الأربعين مؤلفا بيزنطياً أو مجموعة من الوثائق ، تحوي معلومات عن الأتراك العثمانيين ، وكثير منها تواريخ عن السلاطين الأتراك مكتوبة باليونانية في القرن السادس عشر ، أكثرها أهمية ، تاريخ الأتراك من سنة ١٣٧٣ ـ ١٥١٢ باق فقط في مخطوط واحد غير منشور(فاتيكان ـ باربريني ١١١) وهو يحوي معلومات لا توجد في أي مكان آخر ، وعلى سبيل المثال حول حملات نيقوبولس وفارنا ، ويوجد أيضاً مجموعة من التواريخ ، تقوم على ما يدعى خلاصة التواريخ (ينتهي مخطوطه الأصلي في سنة ١٥١٧) ويضم رواية متأخرة لملاكسوس ودورثيوس حول موثما وأسيا ، ورواية شعرية لهيراكس ، وهذه المجموعة مفيدة لبعض التفاصيل التاريخية

المحددة . وهناك تاريخ بطركي ، أو اثنان لهما أهمية بشأن إقامة الفاتحين «للملة الاغريقية» ، وهناك عدد من التواريخ قامت على تواريخ أقدم ، خاصة على تاريخ لا أونيكوس كالكوكونديلس وقد نحتاج إلى وقت طويل لوضع قائمة بهذه الأعمال الصغيرة ، وهناك على أي حال سبعة مؤرخين كبار من القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، أسهموا إسهاماً جاداً في التاريخ العثماني ، أولهم جورج باكمير ، الذي ولد في نيقية في سنة ١٢٤٢ ، وتوفي في القسطنطينية في سنة ١٣١٠ بعد وقت قصير من إتمام تاريخ يغطي الفترة من ١٢٦١ ـ ١٣٠٨ ، والتالي هو جون كانتا كوزينوس ، الذي اغتصب العرش الامبراطوري في سنة ١٣٤١ وتوج أخيراً في سنة ١٣٤٧ ، وأجبر على التنحي في سنة ١٣٥٥ ، وقد تقاعد في مونت آثوس ، وهناك كتب تاريخاً حول أيامه من سنة ١٣٢٠ إلى١٣٥٦ . وكان معاصره نقفورس غريغوراس الذي ولد في بافلاغونيا في سنة ١٢٩٥ ، وتوفي في سنة ١٣٥٩ أو ١٣٦٠ وكان من بين ما كتبه ، وهو كثير ، تاريخ لبيزنطة من سنة ١٢٠٤ حتى ١٣٥٩ ، ثم كان هناك انقطاع ، حتى نصل إلى المؤرخين البيزنطيين الأربعة لسقوط القسطنطينية ، وهؤلاء هم : جورج فرانتزس ، الذي ولد في القسطنطينية في عام ١٤٠١ وتوفي في عام ١٤٧٨ في كورفو ، حيث كتب تاريخاً ، عالج فيه الفترة من سنة ١٢٥٨ إلى ١٤٧٧ . وتوجد أيضاً رواية أقصر منه ، تبدأ في سنة ١٤١٣ ، ودوكاس (اسمه الأول غير معروف وكذلك تاريخ ميلاده ووفاته) وهو يوناني من غير الأناضول ، غطى بتاريخه السنوات من ١٢٠٤ إلى ١٤٦٢ ، ثم لا أونيكوس كالكوكونديلس ، الذي ولد في أثينا في سنة ١٤٣٢ ، وتوفي في كريت في سنة ١٤٩٠ ، والذي يمتد تاريخه من بدء الخليقة ، وبتفصيل أكثر من أواخر القرن الثالث عشر إلى ١٤٧٨ ، وهيرمودوروس ميخائيل كريتوبولس ، الذي ولد في امبروس في حوالي عام ١٤٠٥ ، وتوفي على جبل آثوس بعد عام ١٤٧٠ ، والذي كتب تاريخاً عن حكم السلطان محمد الثاني من سنة ١٤٥١ إلى ١٤٦٧ . وكل هؤلاء المؤرخين السبعة ، لهم أهمية كبيرة بالنسبة للتاريخ العثماني القديم ، وأقدمهم باكمير ، وكان معاصراً لعثمان وهو ليس كاتباً سهل القراءة ، فاسلوبه مطنب ، وهو يحب الكلاسيكية الجديدة ، فهو على سبيل المثال ، يسمي الشهور بأسمائها الأغريقية ، والترك بالفرس : وكانت اهتماماته الرئيسة داخلية ولا هوتيه

بشكل خاص، ولكنه كان يريد أن يعطي صورة كاملة عن حياة الأباطرة ، ميخائيل الثامن ، وأندرونيكوس الثاني ، وكان مضطراً ، لأن يلحظ الحالة بين الأتراك ، وقد قام بمحاولة جدية للتمييز بين أسر الحكم التركية المحلية المختلفة ، وقصته عن حياة عثمان ـ الذي يسمية اتمان ـ واقعية ويمكن الاعتماد عليها ، مع أن روآياته وقف على المناسبات التي اصطدم فيها الأتراك بالسياسة البيزنطية ، إنه مفيد ، ولا يمكن الاستغناء عنه ، وأهم من معظم المؤرخين الأتراك ، الذين اعترف بهم .

•مؤرخنا التالي ، هو الأمبراطور جون كانتاكوزينوس ، الذي كان الرجل المسؤول في الواقع عن توطن الأتراك الأول في أوروبا ، وكان ، بلا شك ، عبور الأتراك في أقرب وقت إلى تراقيا أمراً لا مفر منه ، ولكن من المحقق ، أن جون دعاهم من أجل الحصول على مساعدتهم في حرب أهلية ، وبدا جون خلال مجمل الفترة التي غطاها تاريخه ، أبرز شخصية في بيزنطة ، ومع أنه كتب في المعتزل ، يبدو أنه كان يحتفظ بمذكرات غزيرة . وجاء كتابه بمثابة اعتذار ، وعرض فيه الحقائق بطريقة فيها تسويغ له ولأصدقائه ، وتشويه لسمعة أعدائه ، ولكن الحقائق نفسها تبدو أنها أهل للاعتماد ، غير أن الشروح والتفاصيل عديمة القيمة حول جميع العلاقات العسكرية والدبلوماسية بين بيزنطة والأتراك التي حدثت في زمانه ، ويبدو أنه اعتقد ، أن الأتراك أقل خطراً على الامبراطورية من العرب ، وأنه لم تكن لديه مشاعر قوية ضدهم وضد دينهم ، وبين أعماله الأخرى دفاع عن المسيحية ضد الأسلام ، كتبه لصديق تركي ، كان قد دخل في المسيحية ، وقد حاول فيه بأمانه أن يتفهم وجهة النظر الاسلامية وتأكدت قصة جون بوساطة التاريخ ، وأردفها الرسائل الكثيرة ، التي كتبها نقفورس غريغوراس ، الذي اتخذ نظرة معارضة في السياسة ، وكان لديه الأقل ليخبرنا به عن الأتراك العثمانيين ، مع أنه مثل باكيمر ، حاول أن يرسم في ذهنه صورة الدول التركية المختلفة ، التي كانت ما تزال باقية في الأناضول ، ولكن يبدو أنه كان يعّدهم الخصم الرئيسي على الأمبراطورية وكان يكرههم ، وعندما حكى عن تزويج جون ، لابنته إلى أورخان كثمن لتحالف السلطان ، أشار الى ذلك ، على أنه شيء مخز ، في حين أظهر جون نفسه ، على أنه أمر عظيم ، وأسهب في وصف ولاء ابنته

للمسيحية . وبمقابلة الروايتين ومعارضة احداهما على الأخرى ، نحصل على رواية كاملة عن حكم أورخان ، على الأقل فيما يتعلق بعلاقاته مع القوى المسيحية المختلفة ، وهي قيمة أكثر بسبب نقص المصادر التركية الجيدة عن تلك الفترة .

ومن أجل النصف الثاني للقرن الرابع عشر ، نعتمد في الجانب البيزنطي على فرانتزس ، ودوكاس ، وكالكوكونديلس ، وهم جميعاً كتبوا بعد الفتح العثماني ، وكانوا مهتمين بالتاريخ العثماني ، وكان لثلاثتهم بعض الخبرة ببلاط السلطان قبل الفتح ، ولكن إذا أمكن الاعتماد عليهم ، فيما يتعلق بالشؤون البيزنطية ، حيث كانوا قادرين على مراجعة سجلات المدينة حتى الفتح ، فإنهم ، من أجل الشؤون العثمانية القديمة ، قبلوا بالأساطير الشائعة في زمانهم حول الأسرة الحاكمة ، وأعطوها أصلا مجيداً ، وفخامة أسطورية مختلقة مشكوكاً في مصداقيتها . وفي الحقيقة يمكن لوم كالكوكونديلس أكثر من أي واحد آخر بسبب رواية وهمية حول أصول العثمانيين ، قبلت في الغرب لعدة قرون .

وكان فرانتزس منتمياً إلى النبالة البيزنطية ، وكان متزوجا من قريبة للعائلة الأمبراطورية ، وكشاب كان تحت رعاية الأمبراطور مانويل الثاني وأصبح الصديق الحميم جداً لابن مانويل (قسطنطين) آخر الأباطرة ، وقد مثل كلاً منهما في مناسبات مختلفة في بلاط السلطان ، وذهب أيضاً مرةً كمبعوث خاص للامبراطورة هيلينا زوجة مانويل إلى السلطان مراد الثاني ، التي ادعت وجود قرابة معه على ما يبدو ، لأنها كانت قريبة لدسبينا Despina الصربية ، زوجة جده الأثيرة ، وتعلم فرانتزس في البلاط التركي ، كيف يستعمل الألقاب التركية ، والرواية الطويلة ، التي أدخلها عن التاريخ التركي القديم ، استمدها ، كما قال ، جزئياً من مصادر مكتوبة ، ولكن بشكل رئيس مما أخبر به الحكماء ، المفترض أنهم من الشيوخ في حاشية السلطان ، وكرر الأساطير نفسها كما فعل كالكوندليس ، وأظهر ، على كل حال ، جهلاً كبيراً بالقرآن ، وبالنبي ﷺ .

ويعد فرانتزس من أجل أحداث زمانه دليلاً ثميناً بسبب صلاته الكبيرة بالعائلة الأمبراطورية ، وهو الوحيد بين المؤرخين البيزنطيين الذي كان حاضراً عند حصار القسطنطينية وسقوطها ، وهرب من المدينة حياً ، وتمكن من أن يفتدي زوجته ، ولكن ولديه أسرا ، وأعدما من قبل الأتراك . وروايته حول السنوات

الأخيرة من حياة الأمبراطوررية ونهايتها ، هي رواية شاهد عيان أمين مطلع وذكي ، لكنها ملونة بكراهية مرة للأتراك .

وكان المؤرخ دوكاس أيضاً من عائلة جيدة ، تورط جده في مؤامرة في سنة ١٣٤١ ، وهرب إلى بلاط أمير آيدين Aydin ومن المحتمل جداً أن يكون دوكاس ، قد ولد وترعرع في أراضي كانت واقعة تحت سيطرة الأتراك حيث رفض جده العودة إلى أوروبة ، عندما أمكنه ذلك ، معتقداً أن الأتراك ، سيفتحون سريعاً كامل شبه جزيرة البلقان ، وعليه ، ربما . كان الأفضل له ، البقاء في آسية ، ويبدو أن دوكاس ، قد أمضى بعض الوقت في أزمير . وتضفي معرفته الجغرافية قيمة خاصة على روايته حول الحروب التركية في ذلك الأقليم في القرن الرابع عشر ، ولم يحاول دوكاس في أي مكان ، أن يعطي تاريخاً مترابطاً للاتراك ، ولكنه كثيراً ما وصف المؤسسات التركية ، وقد أعطى بشكل خاص الرواية الكاملة الأولى عن تنظيم فرق الإنكشارية . ومن الممكن وصف أسلوبه ألأدبي بالأسلوب الصحفي ، ذلك ان مباشر ومقروء . ولم يكن منصفاً مع اليونانين الذين لم يشاركوه نظرته في أن التحالف مع الغرب ، يجب أن يلتمس أياً كان الثمن الديني . وفيما عدا ذلك ، إلى الحد الذي يمكننا الحكم فيه ، فهو مؤرخ دقيق بشكل رائع ، ويمكن الاعتماد عليه .

وقد تصور كالكونديلس عمله كتأريخ للإمبراطورية التركية المتنامية أكثر منه لبيزنطة ، وكان مثل دوكاس ، لم يحب الأتراك ، واعتقد أن بيزنطة كان يجب أن تتحالف مع الغرب ، ولكنه لم يكن متعصبا ، وكانت لديه اهتمامات واسعة ، ومع أن الأتراك كانوا يشكلون موضوعه الرئيسي فقد قام باستطرادات حية ، وإن تكن غير دقيقة في التاريخ الأوروبي الغربي ، وأظهر تقليداً غير ناجح لهيرودوت ، حيث أبدى شيئاً من المهارة في ترتيب روايته ، حتى لاتكون فاترة غير واضحة ، مع أن أسلوبه قائم بكل وضوح على تقليد توسيدس ، وينطوي على الغرور ، وهو غير جذاب ، فإن أهميته كمؤرخ تكمن في أنه كان أول من حاول كتابة تاريخ الأتراك .

وبالنسبة للتاريخ العثماني القديم ، يبدو أنه كان يعرف الأساطير نفسها ، مثل فرانتزس ، ويحتمل أنها مستمدة مثله من التقاليد التي كانت شائعة في ذلك

الوقت في البلاط التركي ، الذي كان متلهفاً لإعطاء الأسرة الحاكمة أصلاً أعظم مما كان لها فعلاً ، ويبدو أنه كان أول مؤرخ وصلتنا روايته ، ادعى أن عثمان كان الحفيد العظيم (لدوزالب) زعيم أمة الغُزّ ، وقص أيضاً حكاية الحلم الذي حول أرطغرل إلى مسلم طيب ، وظهرت هذه القصص ، تقريباً في الصورة نفسها ، لدى الكتاب العثمانيين في القرن السادس عشر .

ومن الواضح أنه لايمكننا أن نعده مصدراً موثوقاً في التاريخ العثماني القديم ، خاصة وأن حولياته جاءت غامضة أحيانا ، وأحياناً متضاربة ، ولكنه يحتمل أنه أعاد بدقة إخراج مابدأ الأتراك في القرن الخامس عشر يعتقدونه حول ماضيهم ، ويمكن عد وصفه للتنظيم العثماني المالي والعسكري في زمانه أهلاً للاعتماد عليه .

ومنزلة كريتو بولس أدنى من الثلاثة الآخرين ، ومثل كالكوكوتديلس ، تعمد تقليد أسلوب توسيدس ، مختلقاً خطباً طويلة ، ليضعها في أفواه شخصياته وجاءت لغته ، حتى أكثر تكلفا ، وتعود أهميته لإنتمائه إلى الطرق من بين اليونانيين ، الذي رأى أن السيادة العثمانية ، قد جاءت لتبقى ، والذي اعتقد التكيف بأفضل صورة ممكنة مع الظروف المتغيرة ، وقصد بوضوح أن يرضي عمله السلطان الفاتح ، الذي تميز إجمالاً كملك شهم كريم ، اتخذ موقفاً ودياً من رعاياه المسيحيين . وتأثر في روايته عن حصار المدينة وسقوطها بشجاعة اليونانيين ، غير أنه رأى ، أنها كانت مبددة وفي غير مكانها ، ولكنه كمؤرخ يعد مهملا وغير دقيق ، وهو مفيد بسبب بعض التفصيلات ، التي أمكنه تقديمها حول الحصار من وجهة النظر التركية . وروايته عن حملات السلطان بعد سنة ١٤٥٣ قيمه ، ولكن ، فوق كل شيء تنبع أهميتها من أنها تمثل وجهة نظر المعادين للغرب

ومن بين الأعمال التاريخية البيزنطية الصغرى في زمانه ، هناك رواية لجون كانونز عن حصار مراد الثاني للقسطنطينية في سنة ١٤٢٢ ، إنها رواية مباشرة مكتوبة بلغة شعبية من قبل رجل بسيط ، كان يؤمن بالخرافات ، وكان محور اعتقاده أن العذراء المقدسة لن تسمح بسقوط المدينة في أيدي الكفار، وكانت الرواية الأكثر تعقيداً من هذه ، لأنها كتبت بلغة أقل قابلية للفهم ، وأكثر تفخيماً ، رواية جون أنا غنوستس عن الاستيلاء التركي على سالونيك في سنة

١٤٣٠ ، ومن الناحية التاريخية ، هي رواية رصينة . يمكن الاعتماد عليها حول الأحداث ، التي أدت إلى سقوط المدينة .

وبقي لنا عدد كبير من الخطب والرسائل البيزنطية حول تلك الفترة ، لتعطي بعض الأفكار عن الإمبراطورية في مواجهة الانتهاكات المتزايدة للأتراك ، ونجد بينها خطبة رثاء أدرونيكوس الثاني ، التي أعدها تيودورميتوشيتس في سنة ١٣٢٨ وهي هامة لكونها البيان الواضح الأول من قبل رجل دولة بيزنطي حول خطورة التهديد التركي، وكان أكثر كتاب الرسائل أهمية من الذين أوردوا إشارات دائمة إلى الأتراك : ديتمريوس سيدونس ، ونقفورس غريغوراس في القرن الرابع عشر ، والإمبراطور مانويل الثاني عند انقضاء القرن ، وهناك رسائل كتبت بعيد ١٤٥٣ ، تلقي ضوءاً على مصير البيزنطيين الذين نجوا من الحصار ، منها على سبيل المثال ماكتبه الإنساني فايللغو الذي كتب من فلورنسا ، ليروي أخبار الصعوبات ، التي عاناها لإنقاذ أقارب زوجته من الأسر ، حيث وجد من الضروري ، أن يبعث بقصيدة مدح للسلطان .

ووقعت أيضاً بعض الإشارات إلى الأتراك في مختلف الأعمال الجدلية التي عالجت الشؤون السياسية والدينية في بيزنطة . وعلى سبيل المثال صور الفيلسوف بليثون ، جدالاً بالإشارة إلى إحدى تفصيلات (في الواقع غير دقيقة) سلسلة النسب العثماني ، وفي الحقيقة يحتمل أن نظرياته السياسية كانت متأثرة بمعرفته الشخصية بمنظمة الفتوة ، ولكن يجب الاعتراف بأن أيا من هذه الإشارات ، لايضيف شيئاً هاماً إلى معرفتنا التاريخية .

وتكمن إسهامات البيزنطيين في التاريخ العثماني في أعمال المؤرخين البيزنطيين السبعة الكبار ، والتاريخ العثماني القديم لم يخدم جيداً في مصادره التركية ، وعلى الرغم من جهود الاختصاصيين الأتراك المحدثين المتميزين ، ماتزال هناك رقع غامضة مثيرة للجدل ، وإنه إذا ماعتمد على هؤلاء المؤرخين اليونان بحذر مناسب ، يمكن لكل منهم أن يلقي شيئا من الضوء عليها كلها ، ويجب مع ذلك . أن يضاف أن كلاً منهم باستثناء كالكوكونديلس وإلى حد أقل كريتوبولس ، بأمس الحاجة إلى إعادة تحقيقه .

ولم تفحص المخطوطات الست الأخرى ، ولم تقارن بشكل وافٍ ، وهي مزودة فقط في الطبعات المنشورة في Mignepatrologia وسلسلة بون ، بترجمة لاتينية عديمة الدقة بدرجة هائلة ، هكذا كانت طرق المؤرخين ، غالباً مانسخ الخطأ وخلِّد من قبل الدارسين ، الذين لم يزعجوا أنفسهم بدراسة الأصل اليوناني .

٢٤ـ علاقة الأدبيات التاريخية لعصر النهضة بالشرق الأدنى مع اشارة خاصة الى باولو جيوفيو

ف . ج باري
محاضر في تاريخ الشرق الأدنى والاوسط. معهد الدراسات
الشرقية والافريقية. لندن

أورثتنا النهضة (تفهم هنا على أنها تضم القرنين الخامس عشر والسادس عشر) أدباً تاريخياً واسعاً ومتنوعاً ، يتعلق بالأراضي والشعوب في الشرق الأدنى والأوسط ، ويمكن ان تتجه المحاولة لمراجعة هذا الأدب بالتفصيل ضمن أبعاد هذه المقالة الراهنة ، لأن تصبح بياناً مملًا بالأسماء والألقاب ، لذا سيكون من الأنسب الإشارة إلى بعض الزمر الرئيسة من المادة وفق ماتمليه بداهته . وإن التصنيف المعطى أدناه لايرمي إلى التحديد الكلي ، بل إلى مجرد تصوير تحرينا :[1]

أ ـ تقارير السفراء مثل كونتاريني أوبوسبق

ب ـ روايات الرجال ، الذين كانوا أعضاء في حاشية سفارة ما ، مثل دير نشوام بيغافيتا ووارتسلاو .

جـ ـ تقارير أسرى الحرب ، الذين بقوا مدة طويلة في خدمة السلطان التثماني مثل شلبترجر وأنجيلو ليلو

د ـ «أحوال المعسكر» نمط الأدب الذي يصف المؤسسات السياسية والدينية والاجتماعية في الامبراطورية العثمانية ، مثل كتابات ياكوبودة برومونتوزيودة كامبس ، والراغوسنيوس ، والمينافينو .

هـ ـ مجموعات الرسائل والتقارير والوثائق الخ . . مثل مجموعة روستير ، أو في نشرات مثل الـ Tesoro Politico .

و ـ النشرات والأدبيات الدورية مثل Zeitungen التي كانت تصدر مرتين في السنة في معارض فرانكفورت ، وتحوي آخر الأنباء ، تقارير الاستخبارات ، مراسلات الأسرى ، قوائم الخسائر الخ . . التي كان يتم تلقيها من المبعوثين والموظفين الرسميين ، والجنود حتى من المراسلين الحربيين على الجبهة الهنغارية .

ز ـ الروايات المباشرة عن أحداث خاصة ، أو الحوادث العارضة ، مثل كوزليانوسيبيكو ، أو الإيطالي المجهول ، الذي خدم في سنة ١٥٣٨ في الأسطول العثماني ، الذي أرسل ضد البرتغال في ديو في غرب الهند .

ح ـ تواريخ حروب خاصة ومعارك وأعمال حصار الخ ، كتبت نقلاً عن روايات مباشرة ، ولكن على أسس موثوقة ، كثيراً ماكانت من مادة شهود عيان مثل : بيزاروس وميناداوا .

ط ـ التواريخ الأكثر عمومية الموقفة جزئياً أو كليا على أراضي وشعوب الشرقين الأدنى والأوسط ، مثل تاريخ جيوفيو ، وكنوللس .

ى ـ أدب التعليق السياسي ، والتحليل لمثل المؤلفين بسبك وفوليتا وسورانزو .

ك ـ أدب الحج والرحلات مثل قصص الرجال المختلفين في الأصول[٢] والطبائع مثل ، فابري وفون هارف ، وده بريف ، وساندرسون ، وإنها لحقيقة جديرة بالملاحظة ، أنه في كل هذا الغنى بالمادة ، هناك أعمال قليلة يمكن أن توصف كتواريخ عامة للأراضي العربية وفارس [٣] ، وكان من الممكن الحصول على المعلومات في هذا الوقت حول القرون الأولى للحكم الإسلامي في هذه البلاد ، فقط من المؤرخين البيزنطيين والتواريخ اللاتينية للحروب الصليبية ، أعني من مصادر غير وافية في بياناتها ، وكثيراً ماكان الحصول عليها متعذراً ومعظمها مازال باقياً حتى الآن بصورة مخطوط[٤] وعلاوة على ذلك ، مع سقوط سلطنة المماليك في (١٥١٦ ـ ١٥١٧) لم يبق في العالم العربي دولة مسلمة قادرة على عمل توازن فعال مع سيادة الأتراك أو إثارة الاهتمام الخاص المعزز لدى المسيحيين كما كان ، وبناء عليه أصبحت الأحداث في مصر وسورية بعد ١٥١٧ ، لاينظر

إليها كثيراً في ذاتها ، كما ينظر إليها في إطار المحيط الواسع للشؤون العثمانية ، وصحيح أن فارس بقيت دولة قوية مستقلة ، إلا أنه تأصل في الوعي السياسي الأوروبي اعتقاد مؤداه أن جيوش الأق قونيلو (الشاة البيضاء) ، وفيما بعد جيوش الصفويين ستكون وسيلة موائمة لعرقلة التقدم العثماني ضد المسيحية ، وأدى هذا الموقف الفكري برجال النهضة إلى شغل أنفسهم فوق كل شيء بالحروب المختلفة ، التي تفجرت بين الامبراطورية العثمانية وفارس خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، أعني الكتابة عن فارس كعدو معلن للأتراك ، بدلاً من أن تكون هدفاً للاهتمام بها ، وخلقت صعوبات الاتصال أيضاً مؤثراً مقيداً آخر ، وكان لدى البرتغاليين ، فقط من بين الأمم المسيحية ، اتصال مستمر ووثيق مع فارس قبل ١٦٠٠ ، ولم يكن قبل التغلب على العزلة النسبية لفارس في الفترة ، التي أعقبت وصول الانكليز والهولنديين الى المحيط الهندي ، أن حصلت المعرفة المفصلة والوثيقة بالنظام الصفوي في أوروبا .[٥] .

وكانت الحالة مختلفة الى حد بعيد بالنسبة للأتراك ، فقد كان هناك اتصال وتعامل بين الدول المسيحية والإمبراطورية العثمانية ، وجاء السفراء وبطاناتهم ، والبحارة ، والتجار بصورة متكررة أكثر فأكثر من أوروبا إلى الباب العالي وأسواق المشرق ، ولفترة طويلة منذ تمركزت الجيوش العثمانية على تربة البلقان ، كانت تدق بقوة الأبواب المؤدية إلى الأراضي الألمانية والايطالية ، ولم تكن مثل النصرانية القديمة ، التي تقول بوجوب توحيد جميع الأمم ، التي تعلن العقيدة الحقة ، بصرف النظر عن العرق واللغة ، قد ماتت بعد في أوروبا ، وكانت الدعوة إلى السلاح ضد الكفار المناشدة التي تجتذب العديد من المتطوعين من كل البروتستنت والكاثوليك للخدمة على الجبهة الهنغارية[٦] ، وكانت مقاومة الأتراك في عام ١٥٩٤ توصف كنضال وقتال في سبيل العزة أو في سبيل الدين والوطن[٧] .

لقد كان العثمانيون بالنسبة لمسيحيي ذلك الزمان (أعظم رعب في العالم)[٨] يحجب في السلم وفي الحرب على السواء كامل أفق الشرق ، وجاء كل ماعرفته أوروبا النهضة عن أراضي الاسلام مصطبغا ومرشحا عبر الوساطة العثمانية ، وأصبح تعبير مسلم مرادفاً للتركي ، وحتى القرآن قد تحول إلى القرآن التركي ، وكان زخم العثمانيين ملحوظاً ومنتشراً في الفكر المسيحي[٩] . . وليس مدهشاً ،

بناء عليه ، أن نجد في أدب النهضة اهتماماً أكبر بكثير بالأتراك ، بدلاً من العرب او الفرس .

وتألف أدب النهضة الموقف على أراضي وشعوب الشرقين ، الأدنى والأوسط إلى حد كبير من مذكرات ، ارتبطت بأحداث أو حوادث خاصة ، وحواش وتفاسير وروايات ، تعلقت بالاسفار وماشابه ذلك ، أعني بأعمال لا يمكن أن تعتبر تواريخ حقيقية بأكمل معنى للعبارة ، بل بالأحرى مادة خام للمؤرخ الحقيقي ، ومن بين المؤلفين المتعلقين بموضوعنا الراهن ، هناك قليل ممن كتبوا بسعة في المجال والرؤية ، وبتصميم يكفي في نظرتنا الحديثة لرفعهم من مرتبة كتاب حوليات الى المنزلة الأرفع للمؤرخ .

وبناء عليه لن يكون من غير المناسب تركيز اهتمامنا على واحد فقط من هؤلاء المؤلفين ويعني باولو جيوفو لأنه وحده عالج في عمله الرئيس بتوسع كبير شؤون المسلمين ، وصور أيضاً بشكل جيد بعض الخصائص الجديرة بالملاحظة بالنسبة لحركة التاريخ في عصر النهضة .

وقد درس باولو جيوفيو (١٤٨٩ ـ ١٥٥٢) في بافيا وبادوا ، وذهب فيما بعد إلى روما ، حيث كسب هناك حظوة البابا ليو العاشر ، ومكث في الخدمة البابوية خلال مدة ولاية أدريان السادس ، وكليمنت السابع وبولس الثالث ، ونصب أسقفا على نوسيرادي باغاني ، وأمضى السنة الأخيرة من حياته في فلورنسا تحت حماية الأمير الميدتشي كوسلمو الأول[١٠] .

ويجب ذكر ثلاثة كتب لجيوفيو هنا : ١ ـ ملاحظات حول قضايا الترك[١١] .

٢ ـ Elogia Virorum Bellica Virtute Illastrium[١٢] .

٣ ـ تاريخ عصر التحرر[١٣] ٤٥ .

وبما أن كتاب التاريخ هذا ، هو التحفة الرائعة لجيوفيو ، فإنه لذلك سيكون موضع اهتمامنا الخاص ، وقلة من المؤرخين ، تعرضوا للنقد واستحقوا التقريظ بمعايير مختلفة ، مثلما تعرض له جيوفيو ، وسواء أكان النقد معادياً أو مؤيداً ، فقد استقر بدرجة كبيرة على أي حال على التاريخ ، وضمن هذا الكتاب ، على الرواية المعروضة عن الأحداث في أوروبا الغربية .

وقد لقيت الصفحات العديدة في التاريخ بعد ظهوره لأول مرة في سنة ١٥٥٠ ـ ١٥٥٢ بوقت قصير ، وعده دونا توجيا نوي الفلورنسي ، قد كتب بشكل غير جدي[١٤] وساعد جان بودين أيضاً على تلطيخ سمعته مجادلاً ، بأن جيوفيو ، كتب كثيراً عن الفرس والأحباش والأتراك ، الأمر الذي لا يمكن التأكد معه من معرفة مدى صحته ، طالما أنه صدق مجرد الإشاعات ، وأعلن بودين أيضاً ، أن جيوفيو برفضه تقييد نفسه بهذه الأشياء ، التي لابد أنه عرفها جيداً ، فضل أن يعالج أموراً فوق طاقته ، بالإضافة إلى أنه ارتكب جريمة المتاجرة بجهده من أجل غايات مادية وضيعة ، وأحرز بذلك جزاء بلا جدارة ، أعظم بكثير مما كان للمؤرخين الآخرين ، الذين لم يقدموا سوى الحقيقة البسيطة[١٥] .

وكانت أعمال التأييد المطلق له ، والإدانة من قبل بعض معاصريه ساذجة وفاسدة ، وهناك سبب مع ذلك لعدّ إدانته مجرد شكوك ، ذلك أن جيوفيو ، لم يكن خائفاً من نقد أعمال فلورنسيين أو فرنسيين في أصلهم وولائهم ، وسيكون كافيا أن يذكر هنا ، كثقل موازن لهذه التعليقات المعادية ، نظرة مؤرخ أكثر حداثة ، هو ليوبولد فون رانك ، الذي تفحص القسم الأعظم من التاريخ ببعض التفصيل ، فوجد أن جيوفيو ، لم يزيف حقائقه من أجل أهداف فاسدة ، وأن عمله مع عجزه في القدرة على التحليل ، حوى ، مع ذلك ، مخزوناً من المعلومات الجيدة[١٦]

ويخبرنا جيوفيو ، أنه قرر كتابة التاريخ ، لعله بذلك يكون قادراً على تخليد اسمه من خلال تأليف كتاب ، يمكن أن يذكر ويطرى زماناً طويلاً بعد وفاته ، وفي الواقع لقد تحققت بعض آماله المخلصة ، فنال بعض بشائر مثل هذه الشهرة الباقية في فترة حياته[١٧] .

وهو لم يصف بشكل كامل المعايير التي اتبعها في اختياره ومعالجته المواد التاريخية ، ولكنه اعتمد على التأكيدات العامة . من أنه لكونه صديقا للملوك والباباوات وقادة الحروب البارزين ، قد جمع من محادثاتهم ، تلك الأشياء ، التي أودعها بدون تأييد أو كراهية في التاريخ[١٨] .

ومن الممكن جمع كثير من المعلومات حول طرق جيوفيو ، من مراسلاته الكثيرة ، وأيضاً حول الوسائل ، التي من خلالها حصل على معلوماته عن شؤون

المسلمين ، ومازالت رسائله مع ذلك غير مجموعة وغير مكتوبة ، مع أنه يجب أن يلاحظ ، أن عدداً هائلاً منها قد طبع هنا وهناك في أوقات مختلفة منذ وفاته[١٩] .

إن تأثير الأساليب الكلاسيكية واضح في عمل جيوفيو ، وقد اقترح في المقال الحالي[٢٠] أن مفهومين من مفاهيم التاريخ ، يمكن تمييزها في أدب اليونان وروما ، فقد كانت مهمة المؤرخين ، كما هي ممثلة في توسيدس ، تسجيل الأحداث ، التي كانت متعاصرة معه ، وتحليلها وهي في غالبيتها سياسية وعسكرية في خصائصها ، ونشأت في المجتمع ، الذي انتمى إليه .

وكانت مهمته كما صورها هيرودوت ، ذات مجال أقل تقييداً حيث احتضن تاريخ الماضي ، مع التأكيد على الظواهر الاجتماعية والثقافية للدول والشعوب البعيدة جغرافيا عن عالمه ، ومن الممكن رؤية الأفكار المتباينة لتوسيدس وهيرودوت ، كما حدث أعلاه ، غير منفصلة ، بل مجتمعة معاً في عمل جيوفيو ، وبطريقة تحدد بعض ملامحها الأكثر قابلية للملاحظة ، والمميزة .

ويصف التاريخ في الحقيقة الحوادث العظيمة في زمانه ، وفوق كل شيء في عالم النصرانية ، الذي انتمى إليه ، مع اهتمام خاص بحقول السياسة والحرب[٢١] وهو قد تعامل أيضاً مع عالم لم يكن لجيوفيو أي خبرة شخصية به ، أعني الشؤون المعاصرة ، وإلى حد ما ، العادات والتقاليد للشعوب الإسلامية في الشرقين ، الأدنى والأوسط ، وفي شمالي أفريقية .

إن تأثير المؤرخين اليونان واللاتين منظور أيضاً ، ربما في الدور الكبير ـ مع أنه غير وحيد ـ الذي أعطاه جيوفيو للأدلة الشفهية ، ويتأكد أكثر في الخطب البليغة ، التي نسبها إلى مختلف الشخصيات البارزة في روايته[٢٢] ويمكن أيضاً تمييز بعض عبارات المناسبات في الأسلوب ، فقد دعا الأتراك أحياناً(البربر) والسلطان (الطاغية) ، وهي تعابير ، تعكس هنا مجرد روح الانتقاص الناجم عن التحامل الديني والثقافي ، وتبدو ، وكأنها تحتفظ ببعض الإحساس والنكهة المرتبطة بهما في الاستعمال الكلاسيكي[٢٣] ولم يلتمس جيوفيو في التاريخ التبجح بتفوق القضية المسيحية على الإسلامية ، وكان مقتنعاً ، مع ذلك ، بالحاجة إلى مقاومة موحدة ضد الخطر ، الذي كان يهدد النصرانية من الشرق ، وأبدى أساه تجاه جنون أمراء المسيحيين الذين انشغلوا بحروبهم ومنافساتهم المريرة ، وأخفقوا في سحق قوى

العثمانيين ، عندما كان من الممكن التغلب عليها ، وهكذا سمحوا لها بالازدياد حتى إنه في زمانه ، حاولت بحق أن تكسب السيطرة على العالم كله[٢٤] .

ومن الممكن اتخاذ الحيز الكبير من كتاب التاريخ الموقف على الأتراك دليلاً أكيداً على كيفية شعوره بقرب الخطر وحقيقته ، وعلامة أيضاً على احترامه ، وحتى إعجابه بالإنجازات العثمانية[٢٥]

وهناك فقرات في التاريخ ، تولت أصل التوتر بين العثمانيين والصفويين وثورة شاه كلي في ١٥١١ ، وبداية الصراع الكبير في سنة ١٥١٤ . ويذكر جيوفيو هنا بعض مصادره للمعلومات ، وهو أرمني اسمه ، كاسينوس ، ورسالة من السيد الكبير للفرسان في رودوس إلى البابا ليو العاشر ، ورجال ممن كانوا حاضرين في معركة جالدريان في سنة ١٥١٤ ، وتقارير التجار وبعض الفرس والأرمن[٢٦] وأشار في التعليق الى رجال يستحقون الثقة من الذين شهدوا معركة جالدريان ، وأشار في الألوجيا إلى البطريرك الأرمني ، الذي كان على معرفة جيدة بالشاه اسماعيل[٢٧] .

لقد قرأ جيوفيو وقائع مختلف السفراء ، مثل كاتارينوس زينو وإيزوفاتس باربرس وأمبروزيوس كونتارنيوس ليغاتي في أرمينيا كم اوسو مكسان ، إضافة إلى مذكرات جيوفاني أنجيوللو الذي كان أسيراً محرراً وقع في الحرب ، وعاد إلى أرض موطنه بعد بضع سنوات ، أمضاها في خدمة السلطان العثماني ، وحكى بالتركية والايطالية رواية حملة محمد الفاتح ضد أوزون حسن حاكم الأق قونيلو في بلاد فارس[٢٨] . وكان أيضاً على معرفة بدونادو داليز Donado dalezze المؤلف المفترض لكتاب تاريخ الأتراك ، وقد حصل على مادته ، التي دونها كما يبدو من أنجيوللو نفسه[٢٩] .

ويجب أن يبقى في غياب بحث أكثر تفصيلاً ، أمر تخمين ما إذا ماكان جيوفيو ، أو لم يكن ، قابل أو تكلم مع أنجيوللو عبر داليزي Dalezze ، وهناك ، مع ذلك ، سبب للاعتقاد ، بأنه قد أصبح على تماس مباشر مع إيطالي آخر ، قدم تحت ظل العثمانيين . فقد صرح جيوفيو في التاريخ ، بأن أنتونيوس أوتريوس ليغر (جيوفاني أنتونيودا أوتري جينوفيسي في الترجمة الايطالية للتاريخ) كان واحداً من غلمان بيازيد (١٨٤١ ـ ١٥١٢) ، وهو مؤلف إيضاحات مرتبطة بالشؤون

العثمانية ، وقد أعطاه معلومات حول وفاة السلطان [٣٠] ، والمؤلف المذكور هنا ، في الحقيقة ، هو جيوفاني أنتونيو مينافيني ، الذي كتب بحثاً شهيراً [٣١] طبع في فلورنسا في سنة ١٥٥١ تحت عنوان «عادات وحياة الترك» . ويمكن أيضاً أن نعد بين مصادر معلومات جيوفيو جنوداً مثل جيان جياكوموتر يفلزيو ، وجيوفاني باولو مانفرونو ، والعلماء الذين لديهم معرفة بالوسط العثماني ، مثل إيوانز لاسكارس [٣٢] .

ووصف جيوفيو ببعض التطويل ، الاستيلاء العثماني على سورية ومصر (١٥١٦ ـ ١٥١٧) . لقد تمكن من تحصيل المعلومات من رجال كانوا في معركة الريدانية في سنة (١٥١٧) ، وأيضاً من البندقي لويجي موزنيغو ، سفير السلطان المنتصر سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) في القاهرة [٣٣] ولاحظ جيوفيو أيضاً ، أن سليماً الأول أرسل قبل مسيره إلى سورية كسفراء للسلطان قانصوه الغوري (١٥٠١ ـ ١٥١٦) جندياً وقاضي عسكر ، وكتب الأخير فيهما رواية عن الحرب التي تلت ، قرأها جيوفيو نفسه بالايطالية [٣٤] وجاءت هذه الترجمة ، التي تمت في سنة ١٥١٧ من حاكم جنوة إلى جيان جياكومو تريفلزيو ، ومن ثم إلى رونادو داليز بوساطة كارولدو ، أمين سر الدوقية الى ترو فيلزو [٣٥] .

ويحتوي التاريخ على علامات مختلفة ، تدل على كيف ، ومن أين حصل جيوفيو على معلومات حول الحملات الهنغارية للسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) .

وهناك إشارات إلى رجال وصفوا بخبرتهم الخاصة ، مافعله السلطان في بودا بعد معركة موهاكس ، وإلى رسالة أرسلها سليمان في سنة ١٥٣٢ من جونز إلى الأرشدوق فرناند في النمسا ، والتي رآها جيوفيو في فيينا . في تلك السنة نفسها ، وإلى نيكوليزا ، أعني نيقولا جيور بشتر ، الذي أبدى أعند مقاومة وأروعها للهجوم العثماني على جونز ، ثم أعاد الرواية لجيوفيو حول الحصار ، والرجال الذين قاتلوا في المعركة المفجعة في أسزك سنة ١٥٣٧ . ولكونهم افتدوا من أسر العثمانيين ، أعطوا لجيوفيو البيانات التي أقام عليها بعض أجزاء ، وربما جميع ، روايته الطويلة ، المليئة بالحيوية ، للأحداث ، وأخيراً للمخبرين ، الذين سمعوا السلطان نفسه ، يتحدث عن شؤون معينة مرتبطة بترانسلفانيا [٣٦]

وذكر جيوفيو في مكان آخر أيضاً ، أنه حصل على رواية حول حصار ستريغونيا (غران) في سنة ١٥٤٣ من أربعة خونة إسبان ومجريين هربوا من الصفوف العثمانية أمام الحصن (٣٧) .

وكان جيوفيو قادراً على معرفة الكثير حول الحرب في البحر بشمال أفريقية من الرجال الذين خدموا تحت قيادة خير الدين الشهير ، الذي كان معروفا لدى المسيحيين باسم بربروسا ، وأشار هنا الى اسباني هو فرنسسكوي ميدلينو هيسباني أو بيدو ، وإلى فينسنتيوس كاتاريوس ، وهو خصي من أصل دالماشي ، أعطي الاسم الإسلامي ومنزله جعفر أغا (٣٨) .

وجاء المزيد من المعلومات الى جيوفيو من أسرى الحرب ، الذين وصفوا له خصائص القرصان سنان اليهودي وقدراته ، ومن الامبراطور شارل الخامس ، الذي روى هو نفسه لجيوفيو أحداث الحملة على تونس في سنة ١٥٣٥ ، ومن الأمير المسلم المولى إياس ، الذي طلب منه الامبراطور البقاء كتابع في تونس ، وأيضاً من الأميرال الجنوي أندريا دوريا ، والقباطنة ، الذين حاربوا تحت قيادته في معركة بريفيزا في سنة ١٥٣٨ (٣٩) .

وسيعجب المؤرخ الحديث ، الذي يعي جيداً ، أن الأدلة الشفوية لايعتمد عليها كثيرا ، كيف أن جيوفيو ، كان قادراً على التمييز بين الصحيح والزائف في القصص التي رويت له ، وهناك في الحقيقة تسويغ كبير لموقف إيطالي آخر ، هو غ . ت مينادوا ، الذي ، لفقده الصبر بسبب التناقضات التي وجدت في التقارير التي وصلته من المشرق ، مال إلى عدم تكملة عمله بعد نقطة انتهاء معرفته الشخصية للأمور في الشرق (٤٠) ويمكن لجيوفيو ، أن يدعي مع ذلك ، مع بعض العدل ، أنه قد استعمل أشد الدقة والاجتهاد ، ليجمع معلوماته من الأمراء والجنود والسفراء ، ورجال من مختلف المراتب (٤١) ، وكعضو في البلاط البابوي في روما ، أمكنه أن يواجه الناس ، الذين شهدوا ، أو أحيطوا علماً بالأحداث الكبيرة في عصرهم . علاوة على ذلك ، فإن مراسلاته الكثيرة قد جلبت له أخباراً إضافية ذات خصائص متنوعة ودقيقة كثيراً . وسيكون من الخطأ ، بناء عليه ، فهم عمله بروح التشكك الزائد ، وان مثالاً مستمداً من التاريخ ، سيفيد في تصوير هذه الملاحظة ، فقد حاول جيوفيو ، وهو يصف حملات السلطان سليم

الأول بأن الفرسان من المماليك والفرس ، قد تجاوزوا في البراعة والبسالة السباهية العثمانية ، غير أن استخدام المدفع والمكحلة ، كان جديراً بالازدراء ، وطريقة الحرب بعيدة عن الشهامة ، وأن الأسلحة النارية ، كانت تشكل العامل الحاسم في النجاح الباهر للعثمانيين .

إن التوازي في الموقف والإحساس في كلماته ، والتعابير المماثلة في الحوليات الإسلامية ، التي تتعامل مع هذه الأحداث نفسها وثيقة جداً حتى أننا نقترح ، أن جيوفيو على الأقل في هذه الحالة ، كان قادراً على استشارة المراجع الدقيقة للمعلومات [٤٢]

وقد قيل عن جيوفيو ، أنه كان أول صحفي كبير في حقل الكتابة التاريخية [٤٣] وفكرة أخرى حول حقيقة أنه كان رجلاً مهتما فوق كل شيء بالحروب التي وقعت في زمانه ، وبالظروف السياسية التي أدت إلى قيامها ، وكان قليل الاهتمام بالمؤسسات والشؤون الداخلية للشعوب التي كتب عنها ، وهو واحد ممن كان ينقصهم أيضاً اتساع الرؤية والتبصر العميق بالأحداث التي تميز المؤرخ الكبير[٤٤] .

وقد أثير الإهتمام ، وبتعابير أكثر مناسبة ، الى ادراكه لمدى اتساع أفق العلاقات الدولية ، وكيف أصبحت في زمانه ، وإلى استعماله الكثير للترتيب الزمني والبيانات الطبوغرافية ، لجعل روايته أكثر وضوحا وقابلية للفهم [٤٥] .

وربما يبقى المستشرق ، الذي يضع في فكره المغزى العام لهذه التعليقات نافراً من اعتبار جيوفيو مؤلفاً مهماً ، وإن مثل هذا الموقف ، قد يكون خاطئاً تماماً ، إذا لم يعترف ، بأن التاريخ يحوي ، حتى في أدنى تقدير ، كثيرا من المادة التي يمكن أن تستخدم ، وبشكل مفيد ، لتكملة المصادر الاسلامية . ومع ذلك ، فإن قراراً نهائيا حول جيوفيو ، ليس ممكنا على المدى المنظور في غياب الرغبة في إيجاد مجموعة محققة من رسائله ، مع تحقيق نقدي لصفحات التاريخ ، التي تتعلق بالشرق الأدنى والأوسط .

إن الحاجة قليلة لتأكيد أكثر للمؤهلات التي تجعل جيوفيو مثلاً يحتذى للمؤرخ في عصر النهضة ، وسيكون مع ذلك مناسباً ، أن نغادر باقتباس أخير يصور الحماس الذي لايفتر للمعلومات المباشرة التي يبدو أنها كانت مهيمنة جداً

على شخصيته . فقد أعطى في رسالة كتبت في بيزا خلال السنة الأخيرة من حياته ، صورة مختصرة ، لكنها حية ، لنفسه ، وهو في غرفته المليئة بالمغاربة القادمين من المراكب في الميناء ، حتى يمكنه الحصول على معلومات أفضل . .

هوامش البحث

١ ـ لا توجد دراسة واحدة شاملة للأدب التاريخي لعصر النهضة ، ويمكن العثور على بعض الملاحظات عن بعض الكتاب المشهورين في كتاب «تاريخ التأريخ الحديث» تأليف إ . فيوتر (ميونخ ـ لا يبزغ ١٩١١) وفي كتاب «التأريخ باللاتينية» تأليف ب . ر . رينولد وهو عرض من ١٤٠٠ إلى ١٦٠٠ نشر في دراسات في النهضة (منشورات جمعية النهضة في أمريكا ـ نيويورك ١٩٥٥) ٢/٧ ـ ٦٦ وأيضاً في الاشارات الواردة في كتاب «ميكافيكلي والنهضة» تأليف ف . كابو د (لندن ١٩٥٨) ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ .

2 Cf. in relation to the authors and works mentioned in the above classification: (i) Il Viaggio del Magnifico M. Ambrosio Contarini Ambasciadore della Illustrissima Signoria di Venetia al Gran Signore U-ssuncassan Re di Persia nell'anno MCCCCLXXIII,m in G.B. Ramusio, Delle Navigationi et Viaggi vol. ii; (Venice, 1559), (ii) C.T. Forster and F.H.B. Daniell, The Life and Letters of Ogier Ghiselin de Busbecq (London, 1881); (iii) Hans Demschhwam's Tagebuch einer Reise nach Konstanitinopel und Kleinaien (1553-1555), ed. F. Babinger (München, Leipzig, 1923); (iv) M.A. Pigafetta, Itinerario a Costantinopoli (London, 1585)- text also to be found in Starine na sviet izdaje Jugoslavenska Akademija Znanosti i Umjetnosti, Knjiga XXII (Zagreb, 1890) pp. 70-194; (v) A. H. Wratislaw, The Adventures of Baron Wralislaw of Mitrowitz (London, 1862); (vi) The Bondage and Travels of Johann Schiltberger (1396-1427), Hakluyt Society (London, 1879) see also the edition of V. Langmantel in the Bibliothek des Literarischen Vereins in Stutlgart (Tübingen, 1885), vol. clxxi, based on the Nuremberg MS.); (vii) Breve Narratione della Vita et Fatti del Signor Ussuncassano, fatta per Giovanni Maria Angiolello, in G.B. Ramusio, op. cit., No. (i) above (Venice, 1559), vol. ii; (viii) F. Babinger, Die Aufzeichnungen des Genuesen Iacopo de Promontorio-de Campis über den Osmanenstaat um 1475, in Bayerische Akademie der Wissenschaften: Sitzungsberichte (Phil.-Hist. Klasse), Jahrgang 1956, Heft 8 (München, 1957); (ix) Catalogus Librorum Bibliothecae

Tigurinae (Zürich, 1809), vi, 398: De Origine, Ordine et Militari Discipline Magni Turcae domi forisque habita Libellus (Ragusini Cujusdam, ed. Conradus Adelman ab Adelmansfelden), s.l. et a. (text reprinted in T. Bibliander, Machumetis Sarracenorum Principis Vita ac Doctrina, quae... et Alcoranum dicitur (Basle, 1543, 1550), iii, 100-6); (x) I Costumi et la Vita de Turchi di Gio. Antonio Menavino (Florence, 1551); (xi) N. Reusner, Epistolarum Turcicarum Libri XIV (Frankfurt am Main, 1598-1600); (xii) Thesoro Politico... in cui si contengono Relationi, Istruttioni, Trattati, et varij Discorsi, pertinenti alla... Ragion di Stato (Pts. I and II: Milan, 1600-1; Pt. III: Tournon, 1605); (xiii) F. Stieve, Ueber die ältesten halbjährigen Zeitungen oder Messrelationen (Bayerische Akademie der Wissenschaften: Abhandlungen, Hist. Classe, Bd. XVI (München, 1883), pp. 177-265); (xiv) M.A.H. Fitzler, Die Entstehung der sogenannten Fuggerzeitungen in der Wiener Nationalbibliothek (Veröffentlichungen des Wiener Hofkammerarchivs, (1937), vol. ii); (xv) B. Kertbeny, betreffende deutsche Erstlingsdrucke, 1454-1600 (Budapest, 1880); (xvi) C. Cippico, De Petri Mocenici Imperatoris Gestis Libri Tres (Basle, 1544) (also in K. Sathas, Documents Inédits relatifs à l'Historie de la Grèce au Moyen Age (Paris, 1888), vii, 262-302); (xvii) Viaggio et Impresa che fece Solyman Bassà... per racquistar la Città di Diu in India (printed in A. Manuzio, Viaggi fatti da Vinetia alla Tana, in Persia, in India, et in Costantinopoli (Venice, 1543), fol. 159r-180r); (xviii) P. Bizarus, Cyprium Bellum (Basle, 1573) (in effect, a translation of G. Sozomeno, Narratione della Guerra di Nicosia (Bologna, 1571), and of N. Martinengo, Relatione di tutto il successo di Famagosta (Venice, 1572); (xix) G.T. Minadio, Historia della Guerra fra Turchi et Persiani (Venice, 1588, 1594); (xx) P. Giovio, Historiarum Sui Temporis Libri XLC (Florence, 1550-2; Paris, 1558-60); (xxi) R. Knolles, The Generall Historie of the Turkes... Together with The Lives and Conquests of the Othoman Kings and Emperours (London, 1603, 1610); (xxii) The De Re Militair contra Turcam instituenda Consilium of A. Busbequius (Leipzig, 1595); (xxiii) the De Gausis Magnitudinis Imperii Turcici, of U. Folieta (Leipzig, 1595); (xxiv) the Turco Vincible in Ungaria, of A. Tarducci (Ferrara, 1597); (xxv) the Ottoanno, of L. Soranzo (Ferrara, 1599); (xxvi) F. Fabri, Evagatorium in Terrae Sanctae, Arabiae et Egypti peregrinationem, ed. C.D. Hassler, in the bibliothek des Literarischen Vereins in Stuttgart (Stuttgart, 1843), vols. ii-iv; (xxvii) The Pilgrimage of Arnold von Harff, 1496-1499

(Hakluyt Society: 1946); (xxviii) Relation des Voyages de M. de Breves, tant en Grece, Terre-Saincte, et Aegypte, qu'aux Royaumes de Tunis et Arger. Le tout recueilly par le Sieur Du Gastel (Paris, 1628, 1630); (xxix) The Travels of John Sanderson in the Levant, 1584-1602 (Hakluyt Society: Lodnon, 1931).

3- Cf. (a) N. Zeno, Trattato dell'Origine et Costumi degli arabi, in F. Sansovino, Historia Universale dell'Origine et Imperio de' Turchi (Venice, 1560-61, 1568, 1573, 1582, 1600); (b) C. Augustinus Curio, Sarracenicae Historiae Libri Tres (Basle, 1567, 1568 and Frankfurt am Main, 1596); and (c) P. Bizarus, Rerum Persicarum Historia (Antwerp, 1583; Frankfurt am Main, 1601).

4- Cf. Z. Gerland, Das Studium der byzantinischen Geschichte vom Humanismus bis zur Jetztzeit (Texte und Forschungen zur byzantinisch-neugriechischen Philologie, No. 12(Athens, 1934). It should also be noted that some of the Latin chronicles relating to the Crusades were in fact available at this time in printed form: e.g., the Historia Belli Sacri, of William of Tyre, ed. H. Pantalcon (Baslc, 1564) and the Chronicon Hierosolymitanum, ed. R. Reineccius (Helmaestadii, 1584). On the growth of Arabic studies in general, sec J. Fück, 'Dic arabischen Studien in Europa vom 12. bis in den Anfang des 19. Jahrhunderts', in Beiräge zur Arabistik, Semitistik und Islamwissenschaft, edd. R. Hartmann and H. Scheel (Leipzig, 1944), and also K.H. Dannenfeldt, 'The Renaissance Humanists and the knowledge of Arabic' (Studies in the Renaissance (cf. note 1 above) (New York, 1955), ii, 96-117).

5- It is not fortuitous that the most detailed Western sources relating to Safavid Persia appeared only after 1660: e.g., the Journal du Voyage du Chevalier Chardin en Perse (London, 166) first complete edition, Amsterdam, 1711).

6- See, e.g., S. Schardius, Historicum Opus (Basle, 1574), iv, 2101: 'Fuere et ex Anglica nobilitate qui suis sumptibus hanc militiam sequerentur' (a reference to English noblemen who, at their own expense, followed the Imperialist forces during the campaign of Szigetvár in 1566).

7- Cf. Briefe und Acten zur Geschichte des Dreissig-Jährigen Krieges in den Zeiten des vorwaltenden Einflusses der Wittelsbacher, IV: F. Stieve, Die Politik Baierns (1591-1607), Erste Hälfte (Mülfte (M̃nchen, 1878), P. 198, n.2.

٨ ـ راجع نولز ـ المصدر نفسه ـ حاشية ٢ رقم (٢١) أعلاه لتحريض القارىء المسيحي (٢) .
٩ ـ انظر مثلاً نولز ـ المصدر نفسه (١٦٠٣) لتحريض القارىء المسيحي (٦) حيث ذكر المؤلف بين مصادره «القرآن التركي» .

10- On the career and works of Giovio, see (a) G. Sanesi, 'Alcune Osservazioni e Notizie intorno a Tre Storici Minori del Cinquecent (Giovio, Nerli, Segni)', in Archivio Storico Italiano, ser. V, Florence, 1899), xxiii, 260-88; (b) E. Fueter, op. cit. note 1 above, pp. 51-5; (c) A. Morel-Fatio, Historiographie de Charles Quint (Paris, 1913), pp. 105-22; (d) L. Rovelli, L'Opera Storica ed Artistica di Paolo Giovio Comasco Vescovo di Nocera (Como, 1928); (e) C. Panigada, Le Vite del Gran Capitano del Marchese di Pescara (Bari, 1931), p. 477 ff.; (f) B. Croce, Scritti di Storia Letteraria e Politica, tol. XXV: Conversazioni Critiche, ser. III (Bari, 1932), pp. 296-308 ('Intorno a Paolo Giovio'); idem, Scritti di Storia Letteraria e Politica, vol. XXXVI: Poeti e Scrittori del Pieno e del Tardo Rinascimento (Bari, 1945), ii, 27-55 ('La Grandiosa Aneddotica Storica di Paolo Giovio'); (g) F. Chabod, Paolo Giovio', in Periodico della Società Storica Comense (1954), vol. xxxviiip an article not available to me for consultation.

١١ ـ نشر أولاً في البندقية في ١٥٣١ .
١٢ ـ نشر أولاً في فلورنسه وظهرت طبعة منه مع صور في بازل في سنة ١٥٧٥ .
١٣ ـ انظر الحاشية ٢٠ المقبلة وسيختصر العنوان من الآن فصاعداً إلى هـ . س . ت ، وتم الاعتماد على طبعة باريس لعام ١٥٥٨ ـ ١٥٦٠ واليها تمت الاشارات .
١٤ ـ انظر غ ـ سانسي ـ المرجع نفسه المشار إليه في الحاشيه ١٠ ص ـ ٢٦٢

15-CF. J. Bodin, Methodus ad Facilem Historiarum Cognitionem (Paris 1566), pp. 62-4 passin:... refert multa de Persarum, Abissionrum ac Turcarum imperio: quae utrum vera sint, ne ipse uidem scire potuit, cum rumoribus fidem habuerit... Quae igiture verissime scribere potuit, noluit puta res in Italia gestas, quae voluit, non potuit... hoc tamen acerbius est ac indignius, quod cum historiam venalem prostituiset, uberiores tulit mendaij fructus, quam quis alius vera scribendo...» (Cf. J. Bodin, Method for the Easy Comprehension of Histroy, trans. B. Reynold Records of Civilization: Sources and Sudies, No. XXXVII) (New York, 1945), pp 61 ff.. passim.)

16 - Cf. L. Von Ranke, Zur Kritik neuerer Geschichtssechreiber (Leipzig, 1874), pp.73, 76, 78.

17 - Cf. Giovio, H.S.T. (1558-60), Praefatio to Tome I («... nihil beatius esse potest, quam nominis famam immortalibus invicti animi monumentis ad non incertam spem sempiternae laudis extendisse...») and Praefatio to Tome II («...in hac vita aliquam mihi aeternitatis spem hoc tanto atque utilissimo labore percipiendam arbitrarer: quam mihi obventuram opto speroque...»)

18 -Cf. Giovio, H.S.T. (1558 -60), Praefatio to Tome I («... Maximorum autem regnum atque pontificum, insigniumque bello ducum familiaritatem ac amicitiam promeriti, ex eorum ore haec hausimus, quae amore vel odio nusquam distracti, fideli literarum memoriae mandavimus...»).

19 -Cf. (a) G. G. Ferrero, «Per una nuova edizione delle lettere di Paobo Giovio», in Giornale Storico della Letteratura Italiana (Turin, 1939), cxiii, 225-55; and (b) idem, «Politica e Vita Morale del «500 nelle lettere di Paolo Giovio», in Memorie della reale Accademia delle scienze di Torino, ser. 2, vol. 70, Pt. 2 (Classe di scienze Morali, Storiche e Filologiche) (Turin, 1942), pp. 57-102.

٢٠ ـ أ ـ موميغليانو Momigliano «مكانه هيرودت في علم التاريخ» مجلة التاريخ (لندن ١٩٥٨) ٦٣/ رقم ١٤٧ ص ١ ـ ١٣.

٢١ ـ انظر مقالات كروس المدرجة في الحاشية ١٠ أعلاه «باولوجيوفو» ص ٣٠٥ وأندوتيكا ص ٣٨ وأيضاً حاشية ١٩ (ب) أعلاه ص ٦٣ من فيررو Ferrero المرجع نفسه .

٢٢ ـ انظر هـ . س. ت (١٥٥٨ ـ ١٥٦٠) ج ١: ١٤٣ و ١٤٤ ظ (خطب منسوبة إلى السلطان بايزيد الثاني وإلى ابنه قرقود)

٢٣ ـ يجب ملاحظة أن الكتب ٥ ـ ١٠ من الجزء الأول والكتب ١٩ ـ ٢٤ في الجزء الثاني من التاريخ مفقودة وقد ترك جيوفو مع ذلك مختصرات منها، مختصر ربما كتبه (انظر حاشية ١ ـ أعلاه ص ٥١) في تقليد واع للملخصات التي حلت لدينا محل الكتب المفقودة من تاريخ المؤرخ الروماني ليفي .

24 -Cf. Giovio, H.S.T (1558-60), tome II, 115r-v: «...nostorum temporum conditionem deller, Christianorumque principum nsaniam detestari lubet, qui dum

inter se bello aut odio dissident, it2 Ottomannis parcunt, ut qui toties superari delerique potuerint, non immerito adaucta in immensum potentia, ad totius orbis imperium aspirent...»

٢٥ ـ من الممكن تلخيص الأوراق الموجودة في التاريخ والمتعلقة بشؤون المسلمين على النحو التالي : ج١/١ و ـ ٢ ظ (ملاحظات حول الشرق) ٢٥ و ـ ٢٦ و (جم سلطان في أيدي مسيحية) ٨٦ ظ ـ٨٨ و (حرب العثمانيين ضد البندقية في ١٤٩٩ ـ ١٥٠٣) ١٣٢ ظ (قيام اسماعيل في فارس بعد ١٤٩٩ والاضطرابات داخل الدولة العثمانية خلال عامي ١٥١١ ـ ١٥١٢) ١٤٥ ـ ١٦٣ و (الحرب بين العثمانيين والفرس ١٥١٤ ـ ١٥١٦) ١٩٤ ظ ـ ٢٠٨ ظ (استيلاء العثمانيين على سورية ١٥١٦) ٢٠٩ و ـ٢٢٣و(الاستيلاء العثماني على مصر ١٥١٧) ٢٣٠ و ـ٢٣٢ و ـ ٢٣٥ و ـ ٢٣٦ و(السنوات الأولى من حكم السلطان سليمان ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) حملات بلغراد ، رودس ، موهاكِس . (ب) الجزء الثاني : ٦١ ظ ـ ٧٠ و (الحملة العثمانية على فينا ١٥٢٩) ١٠٠ و١٠٣ و ـ١٠٣ ظ ـ ١٠٦و ١٠٧ و ـ ١٠ ظ ، ١١٠ ظ ـ ١١١ و(الحملة العثمانية على غونز ١٥٣٢) ١١٤ ظ ـ ١١٩ و ـ ١٢١ و ـ ١٢٣ و (سقوط كورون لأندريا موريا ١٥٣٢) ١٢٦ و ـ ١٢٨ ظ (استعادة العثمانيين لكورون ١٥٣٣) ١٣٠ ظ ـ ١٣٣ ظ (مشاكل ترانسلفانيا ١٥٣٤) ١٣٤ و ـ ١٥١ ظ (خير الدين بربروسا ، الحملة العثمانية ضد ايران ١٥٣٣ ـ ١٥٣٦) ١٥١ ظ ـ ١٦٧ و (حملة الامبراطور شارل الخامس ضد تونس) ١٨٢ ظ ـ ١٩٨ ظ (الحملة العثمانية البحرية ضد ديو في الهند ١٥٣٨ ، الحرب بين العثمانيين والبنادقة ١٥٣٧ ـ ١٥٤٠ ، معركة ايزيك ١٥٣٧) ٢٠٥ و ـ ٢٠٥ظ ، ٢٠٨ و ـ ٢١٥ و(الحملات البحرية في البحر المتوسط والمحيط الهندي ١٥٣٧ ـ ١٥٤٠) ٢٣٩ ظ ـ ٢٤٦ ظ ، ٢٤٧ ظ ـ٢٥٤ ظ (حوادث في هنغاريا ١٥٤٠ ـ ١٥٤١) ٢٥٥ و ـ ٢٦٦ و(حملة عثمانية في هنغاريا ١٥٤١) ٢٦٦ ظ ـ ٢٧٦ ظ (حملة الامبراطور شارل الخامس ضد الجزائر ١٥٤١) ٢٨٤ و ـ ٢٨٦ ظ (العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وفرنسا) ٢٨٨ و ـ ٢٩٦ و (حوادث في هنغاريا ١٥٤١ ـ ١٥٤٣) ٣٠٠ و ـ ٣٠١ و ـ ٣٢١ ظ ـ ٣٢٦ و (خير الدين بربروسا في نيس ، مشاكل في شمالي أفريقة ١٥٤٣ ـ ١٥٤٤) ٣٣٧ و ـ ٣٤٠ ظ (الحرب في البحر المتوسط) وقاس تاريخ العصر الأحداث تماماً ، وضم السنوات ١٤٩٤ ـ ١٥٤٧ ، وسيكون مهماً بعض الشيء ملاحظة أن جيوفو اتهم بسبب اهتمامه الملحوظ بالشؤون العثمانية بتلقي الهدايا من السلطان سليمان ومن الصدر الأعظم رستم باشا ، وبناء عليه امتدح شجاعة الجند الأتراك وحكمتهم وسماتهم الذين جعلوا المسيحيين ييأسون من نجاح جهودهم في إيقاف مدّ الفتح العثماني :

«... che ancor da Solimano, et da Rusten Bassa egli havea doni per mezo del Capitan Polino, et di Mons. d'Aramon, Ambasciatori presso al Turco per il Re di Francia, et che pero si veggia in quelle sue istorie essere stato cosi soverchiamente profuso nelle minutissime narrationi de» fatti Turcheschi, et cosi (com'essi dicono) affettatamente prender per tutto occasione di lodar tanto il valore, le forze, la prudenza, et ogn'altra virtù de' Turchi, che quasi ne venga in un certo modo a mettere in disperatione i Cristiani di potersi al lungo andare difender da essi che non occupino tutta la Cristianià...» (cf. Istorie del suo Tempo di Mons. Paolo Giovio.., tradotta per M. Lodovico Domenichi (Venice, 1560): Sopplimento di Girolamo Russelli nell» Istorie di Monsignor Giovio, I, and also 5 - 6 (arguments in defence of Giovio)).

26 - Cf. Giovi, H.S.T. (1558-60), Tome I, 154r-v («... Cassinus natione Armenius qui huic bello interfuit... nobis indicavit...»), 156r («... scripsit ad leonem pontificem Fabritius Carrectus Rhodiae militiae magister, ad quem omnia haec diligentissime perferebantur...»), 156v («... retulere qui huic praelio interfuerunt...»), 159v («... non fabulosa... sed certa et explorata undiquee mercatoribus ac variis legationum commentariis illustrata...») and 222v («... nos autem quum a Persis Armenisque hominibus talia quaereremus...»).

27 - Cf. Giovi, Commentario (Venice, 1540), 20r («...ho odito dire da uomini degni di fede quali i trovorno in questa battaglia...») and Elogia (Florence, 1551), 227 («... tradunt autem persae (ut ab Armenio Patriarcha qui Hismaelis familiaris fuit audivimus...) ...»).

28 -Cf. Giovio, H.S.T. (1558-60), Tome I, 136v («... Catarinus Zenus, Iosaphates Barbarus, et Ambrosius Contarenus legati in Armenia cum Ussumcassane... li enim diversa via totum Orientem pervagati, officiorum suorum ac itinerum commentarios posteris reliquerunt...»); Commentario (1540), 9r (Sultan Mehemmed II (1451-81) «... fece gran careze a Gio. Maria Vicentino schiavo di Mustafa

suo primogenito, il quale havea scritto in Turchesco, et in Italiano la vittoria havuta contra Usuncassano Re di Persia, qual noi havemo letta...»); and Elogia (1551), 149 («... name et commentaria rerum ab ipso gestarum a Liberto eius conscripta legimus...»). The «relaioni» of the three ambassadors «in Armenia» can be found in Manuio, op. cit., note 2 above, No. (XVII) (this collection does not include the narrative of Zeno) and in Ramusio, op. cit., note 2 above, No. (i), vol. ii. The second volume of Ramusio also contains the Breve Naratione della Vita et Fatti del Signor Ussuncassano, fatta per Giovanni Maria Angiolello. Giovio seems to have been well acquainted with the historical literatue available in his own time to a scholar interested in Muslim affairs — e.g., ith such authors as William of Tyre and Marinus Barletius (cf. Giovio, Elogia (1551), 26 and 130), Sagundino, Pus II and Callimachus (cf. Giovio, Commentario (1540), 6v and 8r) and also Blondus Foroliviensis, SAbellicus and Paulus Aemilius (Cf. Rovellim op. cit, note to above, 74 ff.).

29 - Cf. Giovio, Elogia (1551), 29 («... nobis communicavit Donatus Lectius patritii ordinis Venetus, diu in Cypro, Syriaque gestis Magistratibus, historiae et omnis antiquitatis studio clarus...»). See also Historia Turchesca (1300-1514), ed. I. Ursu (Bucarest, 1909) and, on Donado da Lezze himself, I ursu, «Uno Sconosciuto Storico Veeziano», in Nuovo Archivio Veneto, nuova serie, vol. xix (Venice, 1910), Parte I, 5-24. Da Lezze, in a letter of September 1514 mentions that he had received advice from Angiolello in regard to Ottoman affairs (Cf. M. Sanuto, Diarii, edd. F. Stefani, G. Berchet and N. Barozzi, vol. xix (Venice, 1887), col 57). Information also came to da Lezze from «il vescovo di Armenia, nominato Davit» (Cf. Sanuto, op, cit., ol. xv (Venice, 1886), col. 438 and vol. xx (Venice, 1887), cols. 245 and 268). Ursu («Uno Sconosciuto Storico», 17) suggests that Giovio had access to the Historia «I urchesca of da Lezze 'nell» originale steso» and that his Commentario is in fact and abridged version of that chronicle. CF., on Angiolello, (a) J. Reinhard, Esai sur G.M. Angiolello (Angers, 1913); (b) N. di Lenna, «Ricerche intorno allo storico G. Maria Angiolello», in Archivio Veneto-Tridentino, vol. v (Venice, 1924), 1-56; (c) G. Weil, «Ein unbekannter

turkischer Transkriptionstext aus dem Jahre 1489», in Oriens, vol. vi (Leiden, 1953), 239-65; and (b) G. Weil, «Ein verschollener Wiegendruck von Gio. Maria Angiolello», in the Festschrift fur Rudolf Tschudi: Westostliche Abhandlungen, ed. F. Meier (Wiesbaden, 1954), 304-14.

30 -Cf. Giovio, H.S.T (1558-60), Tome I, 149r-v («... Antonius Utrius Ligur a cubiculo Baiazetis, qui de his rebus commentaria ad Leonem pontificem conscripsit, referebat nobis...») and Domenichi, op. cit., note 25 above, Tome I, 353 («... Fi Giovanni Antonio da Utri Genovese paggio di Baiazet, il quale di queste cose scrisse alcuni commentari a Papa Leone, mi diceva...»).

٣١ - يمكن العثور على ترجمة لاتينية لهذا الكتاب في المجلد الأول من كتاب ب . لونيسروس Lonicerces «تاريخ الترك» (فرانكفورت ومين ١٥٧٥ ، ١٥٨٤) ووصف مينافينو على صفحة العنوان للطبعة الفلورنسية (١٥٥١) كغينوفيس دي فلتري Genovese da Vultri وأشار إليه روفللي في المرجع المشار إليه أعلاه حاشية ١٠ والقادمة ٧٣ باسم «أنطونيو دي فتري»

32 - Cf. Giovio, Commentario (1540), IIr and II v; also Giovio, H.S.T. (1558-60), tome I, 143v.

33 - Cf. Giovio, H.S.T. (1558-60), Tome I, 207v («... narrant qui huic praelio interfuere...»); also Giovio, Commentario. (1540), 25v («... mi diceva... Luigi Mozenigo ... ehe essendo lui al Cayro Ambasciadore, appresso a Soltan Selim, et havendo molto be praticato che nullo huomo era par ad esso in virtù, iustitia, humanità, et grandezza d'animo, et che non haveva punto del Barbaro...»). انظر أيضاً (١٥٤٠) ٢٦ و حيث أشار إلى ما سمعه عن السلطان سليم .

34 - Cf. Giovio, H.S.T. (1558-60), tome I, 197r («... ad Campsonem legatos cum muneribus mittit. Cuius legationis principem locum obtinebant Iachis vir militaris et Cadilescher maiore sacerdotio et sacrarum literarum cognitione insignis, Hic postea huius belli commentaria conscripsit, quae nos Italico sermone donata perlegimus...»). The «commentaria» here mentioned can beread in (a) Ramusio, op. cit., note 2, No. (i) above, vol. ii: Breve Narratione... fatta per Giovanni Maria Angiolello, chaps. XX-XXIII and (b) Sanuto, op. cit., note 29 above, vol. xxv (Venice, 1889), cols. 651-69 (Ramusio gives a somewhat whortened version of the Sanuto text). The Italian translation refers to the ambassadors of Sultan Selim as a «Cadi Lascher» and a certain «Zachaia Bassa». H.Jansky, «Die Eroberung

Syrians durch Sultan Selim I» (in Mitteilungen zur osmanischen Geschichte, vol. ii (Hannover, 1926), 173-241), 190 names the two Ottoman ambassadors as the «Hfleresrichter von Rumelien», «Zirekzade Maulana Rukn eddin» and «Karağa Pasa» (cf. also Ibn Lyâs, Badâ'i' al-Zuhûr, vol. iii (Bûlâq, A.H. 1312), 40, and M. Sureyyâ, Sijill-i 'Osmâni, vol. ii (Istanbul, A.H. 1311), 416).

35 - Cf. Giovio, H.S.T. (1558-60) Tome II, 62v («... sicuti nos ab his qui interfuerunt acceptimus...»), 104v («... ut literas ad Ferdinandum Caesaremque deferrent: eas nos tum vidimus in oblongo et perangusto dentatae chartae volumine aureis atque caeruleis literis Arabice icriptas, obsignatasque aureo sigillo, et saculo purpureo inclusas...»), 105v («... a quo demum obsidioe liberato, Viennae eam rem longa percunctatione didicimus...»), 198r («... sicuti nonnulli viri nobiles, et in his Laurentius Streytpergus et Dietmarus Losenstainus retulerunt, qui redempti reducesque... reversi sunt...») and 294v («...Solymanus in hance sententiam gravissime respondit, sicuti ab his qui sermoni interfuerunt didicimus...»). Further indications can be found in H.S.T. (1558)60), Tome II, 104v and 106r (references to information derived from captives of war) and in Giovio, Commentario (1540), 30r («...ho inteso da huomini degni di fede che spesso dice (i.e., Sultan Süleymân) che a luitocca di raggione l'Imprerio di Roma, et di tutto Ponente per esser legittimo successore di Costantino...»).

37 - Cf. Ferrero, op. cit., note 19 (b) above, 82 («... son venuti qua quattro renegati spagnoli c maiorchini fugiti dal campo turchesco da Strigonia, quali mi hano reso il conto verissimamente ...» —a letter to the Cardinal Farnese, dated 28 August 1543, and now preserved in the State Archives of Parma).

38 - Cf. Giovio, H.S.T. (1558-60), Tome II, 164r («...in his fuere Franciscus e Medelino Hispaniae oppido, et Vincentius Catareus Dalmata, defectae virilitatis eunuchus. Hic Giafferagas vocabatur. Illum a pueritia educatum, et Arabicas edoctum literas, hariadenus in deliciis habuerat, e Memim appellabat...») and 165v («...Medelinum autem et Giafferem... Barbarussae alumnos... a quibus postea multa de Barbarussae consiliis arcanisque moribus didicimus...»). V. Cian, «Gioviana» (in Giornale Storico della Letteratura Italiana, Vol. xvii (Turin, 1891), 277-357), 337 quotes from a letter of the Florentine Marco Bracci, who visited

Giovio at Rome in 1546 and found him engaged in the task of answering a number of letters, amongst them «una di Barbarossa».

39 - Cf.Giovio, H.S.T. (1558-60): (a) Sinân the Jew: Tome II, 156r («... haec in primo congressu dicta fuisse ab his qui sermoni interfuerunt, didicimus...») and 338r («...prudentia vero aequitatequitataeque iudicii facile superior, vel ipso captivorum testimonio, qui eum Barbarussa, uti saepe iracundo atque acerbissimo, mitiorem dominum experti fuissent...»); (b) the Emperor Charles V: Tome II, 162r («... audivi ego postea a Caesare quum apud Neapolim mihi scripturo totius partae victoriae seriem enarraret...»); (c) «Muleasse»: Tome I, 216v («... haec nobis scribentibus Muleasses rex Tunetanus... enarravit...») and Tome II, 158v («...operaepretium eit paucis enarrare quae de Muleassis imperio moribusque Poenorum didicimus; nam multa digna cognitu quae diu solis mercatoribus comperta fuere, nobis scribentibus, victoria Caesaris aperuit...»), 165v («...rex ipse postea me audiente... disserebat...»), 322r («... sed ego postea ab» ipso Muleasse regno pulso orbatoque luminibus. didici...»), 325v («...caeterum Muleasses... ut ipse aiebat...») and 326r («...ab eo demum narrante multa literarum memoriae digna, de recentibus bellis, Punicisque rebus, et institutis didicimus...» and «...memorabant autem familiares eius...»); and (d) «Auria», i.e., Andrea Doria: Tome II, 159v («...ego postea ab ipso Auria accepi ...»), 209v («...Auria, sicuti haec eum postea narrantem audivi...») and 210r uti postea confirmatioe maiorum minorumque ducum, qui aderant, didicimus...»). Cf. also Giovio. Elogia (1551, 315 (on «Muleasses»: «...nobis ex eius humanitate perdiscere licuit, quae ad historiae nostrae fidem pertinebant...») and Giovio, H.S.T. (1558-60), Tome II, 320r (the opinion of the Marchese del Vasto on the military skill of the Ottomans). On the account, given in Giovio, of the Tunis capaign in 1535, cf. Morel-Fatio, op. cit., note 10 above, 108, 113-14 and G. Voigt, «Dic Geschichtsscreibung über den Zug, Karls V gegen Tunis» (Abhandlungen der Königlichen Sächsischen Gesellschaft der Wissenschaften, vol. mvi (Leipzing, 1974), 161-243), ff., 215 ff., 231-8.

40 - Cf. Minadoi, op. cit., note 2 above, No. (xix) (Venice, 1594), 364-5 («... quanto a noi, stanchi delle diversitadi con cui udiamo gli avisi di levante, non habbiamo havuto core di scrivere li successi dell» anno LXXXVII...»).

41 - Cf.Giovio, Commentario (1540), Preface addressed to the Emperor Charles V.

٤٢ ـ انظر المصادر المذكورة في «دورية معهد الدراسات الشرقية والأفريقية» ج ٢١ (١٩٥٨) ١٨٨ ـ ١٩٠ (عرض لبحث د . ايالون «البارود والأسلحة النارية في دولة المماليك» (لندن ١٩٥٦) .

٤٣ ـ انظر فورتر المرجع نفسه المذكور فى حاشية ١ و١٠ و٥٣ وما تلاها .

٤٤ ـ انظر مقالات كروس المذكورة أعلاه في حاشية ١٠ «باولو جيوفو» ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ، وأندوتيكا ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٨ وما تلاها .

٤٥ ـ انظر فيريرو المرجع نفسه المذكور في حاشية ١٩(ب) أعلاه ٦٣ .

—«...io mi trovo spesso la camera piena di Mori, cima d'huomini, di quelli che stanno qui su le galee, per miglior information...».46.

46 - Cf. lettere Facete et Piacevoli, raccolte per M. Dionigi Atanagi (Venice, 1582), 88 (a letter dated «il 18. di Gennaio, 1552»).

٢٥ ـ معالجة التاريخ العربي من قبل بريدو وأوكلي وسيل

ب . م هولت
أستاذ في تاريخ الشرق الأدنى والأوسط
في جامعة لندن

كانت الكتابات حول تاريخ العرب في إنكلترا ، كما في أوروبا عموماً حتى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر ، أكاديمية في أهدافها وصيغها ، وكما بينت في مقالة تقدمت[1] ، لم تكن دراسة التاريخ العربي في تلك الفترة فرعاً متخصصاً ، وتطورت الدراسات الشرقية كملحق لدراسات العهد القديم والتاريخ الكهنوتي ، والجدليات اللاهوتية ، وقلة من الدارسين ، هم الذين كانوا في المقام الأول مهتمين بالتاريخ العربي ، والأقل من ذلك ، من قام بتحريات هامة فيه ، وقام بوكوك ، بالمقارنة مع معاصريه ، بإسهام بارز في المعارف التاريخية . وقد أبدى في كتاباته حساسية المؤرخ ، وهذا إنجاز هام ، كما يبدو بالمقارنة مع من خلفوه . ومع ذلك كان عمل بوكوك محدوداً في كل من مجاله وزخمه المؤثر ، فهو لم ينتج هيكلاً منظماً للتاريخ ، وتكونت منشوراته من نص وترجمة لتاريخين مسيحيين عربيين متأخرين ، ومن الملاحظات الواسعة المعرفة ، غير المحصورة في التاريخ ، بل الممتدة فوق كامل حقل الآثار العربية القديمة والدين الإسلامي ، التي ألحقها بكتابه (لمع من تاريخ العرب) .

وكانت الترجمات والحواشي معاً باللاتينية ، موجهة إلى المهتمين الأكاديميين بدلاً من الجمهور المتعلم العريض .

وكان بوكوك خلال السنوات الثماني والعشرين الأخيرة من حياته الطويلة (١٦٠٤ ـ ١٦٩١)مشغولاً بالعبرية ، وكتابة الشروح عن الأنبياء الصغار ولم يقدم مزيدا من الإسهام لدراسة التاريخ الإسلامي .

همفري بريدو :

ولد همفري بريدو[٢] في سنة ١٦٤٨ في كورنوول ، وكان تلميذاً في مدرسة وستمنستر في ظل إدارة الأستاذ المشهور الدكتور بسبي . وكان لهذا بعض الأهمية ، لأن د . بسبي الذي عاش وسط شهرة شعبية كمدير مدرسة صارم ، كان مهتماً جداً بالاستشراق المعاصر له ، وأضاف العبرية والآرامية والعربية إلى منهاج الدراسات الكلاسيكية المعتادة لمدرسته[٣] .

وفي سنة ١٦٦٨ ذهب بريدو إلى كنيسة المسيح في اكسفورد ، حيث أصبح في سنة ١٦٧٩ محاضراً في العبرية ، وترك اكسفورد في سنة ١٦٨٦ ، عندما عين جيمس الثاني «روماني كاثوليكي» عميداً لكنيسة المسيح ، وقد أمضى بقية حياته في شرق (ايست) أنفليا ، وكان قد عين من قبل كاهناً في نوروتيش سنة ١٦٨١ ، وغدا من سنة ١٦٨٨ إلى ١٦٩٤ رئيس شمامسة سافولك ، وكان من سنة ١٧٠٢ حتى وفاته في ١٧٢٤ عميداً لنوروتيش . وعندما توفي بوكوك سنة ١٦٩١ ، عرض على بريدو كرسي العبرية في اكسفورد ، فرفضه ، وفي سنة ١٦٩٧ ، نشر أشهر أعماله «الطبيعة الحقة للإدعاء الذي ظهر في حياة محمد (ﷺ) مع مقال ملحق حول تبرئة المسيحية من هذه التهمة ، عرض للدراسة والتأمل في ربوبية العصر الحاضر» .

وقد كسب الكتاب نجاحاً فورياً ، وكانت هناك طبعتان منه في سنة ١٦٩٧ ، وطبعات أخرى فيما بعد ، في حين أن ترجمة فرنسية ، قد نشرت في سنة ١٦٩٩[*] .

★ ـ ليس المدهش هنا استمرار النظرة العدوانية لدى رجال الدين في انكلترا تجاه الإسلام بل اللافت للنظر انتشار الكتاب وإقبال الناس عليه ، وفيه دليل على مشاركة الشعب لرجال الدين في التعصب الأعمى ، وهذا ما برح هو الحال حتى يومنا ، وخير دليل بين أيدينا الآن الملابسات التي تلت نشر كتاب آيات شيطانية في انكلترا نفسها .

ويدل العنوان الكامل لكتاب بريدو على أغراضه الجدلية ، ويترابط مظهره بإحكام بالجدل الديني اللاهوتي لأواخر القرن السابع عشر ، وكان بريدو في الأساس ، يرمي إلى نشر عمل أوسع بكثير بعنوان «تاريخ خراب الكنيسة الشرقية» ، يغطي الفترة من سنة ٦٠٢ إلى ٩٣٦ ، وكان يأمل منه أن يصور بالشواهد ، أخطار الخلافات اللاهوتية .

وقد اعتقد بريدو ، أن جدليات الكنيسة الشرقية ، «أنهكت الصبر والمعاناة الطويلة للرب» ، ولهذا «بعث المسلمين ، ليكونوا أداة لغضبه . . . فاستغلوا ضعف القوى وخلافات المجامع ، التي سببتها تلك الإنقسامات بينهم ، وسرعان ما اجتاح الدمار كل الأقاليم الشرقية للإمبراطورية الرومانية»[٤] .

ورأى بريدو في هذا إنذاراً رهيباً للطوائف في إنكلترا بعد ثورة ١٦٨٨ فها هوذا يقول : «ألم يكن لدينا سبب للخوف من أن يبعث الرب بالطريقة نفسها محمداً ما عندنا لإيقاع الإضطراب بيننا . . . وبالسمة التي بدأ المنكرون للتثليث ، والمعارضون المزلزلون ، والموحدون تقدمهم في هذه الأرض ، ربما يكون لدينا سبب للخوف ، لأن الغضب قد تطلب بعض الوقت منذ صدر عن الرب لإنزال العقاب بظلامنا ومنكرينا ، ولأن الوباء قد بدأ بالفعل ينتشر بيننا»[٥] .

وجاء تأليف بريدو لهذه الرسالة في ذلك الزمان ، على أي حال ، بشكل مفاجىء بسبب اندلاع الجدل المتعلق بالتثليث[٦] فلقد خشي من أن روايته حول الخلافات في الكنيسة الشرقية ربما تكون ، بغير قصد ، قد وفرت ذخيرة جديدة لأولئك الأعداء الذين يجوسون خلسة في المؤسسة ، وهم الملحدون والربوبيون والمنكرون للتثليث ، وقد اختار ، بناء عليه ، الفقرات من عمله التي كانت تعالج حياة محمد (ﷺ) ، ونشرها في الصورة التي لدينا اليوم[٧] . وربما كان لدى بريدو نية لتنفيذ الأعمال السالفة عن حياة محمد (ﷺ) والتاريخ القديم للإسلام ، الذي ما برح متداولاً لبضع سنين في صورة مخطوط ، ومؤلفه هنري ستبس (أو الاسم البديل ستوبس أو ستوب) Henry Stubbs ، الذي توفي في ١٦٧٦ ، وقد درس أيضاً في وستمنستر تحت رئاسة بسبي ، وتخرج في أوكسفورد ، وخدم في الجيش البرلماني خلال الحرب الأهلية ، ومارس في أواخر حياته الطب ووجد كتابه الذي لم يطبع حتى ١٩١١[٨] في صيغ مختلفة[٩] ، وهو جدير بالملاحظة لموقفه المتعاطف تجاه

الإسلام ، وفي الجوهر هو رسالة مضادة للتثليث ، وهذا له بعض الأهمية حيث أنها كما يبدو غير متأثرة بالمذهب المنكر للتثليث ، وهكذا يقع خارج التيار الرئيس للاهوت التوحيدي للقرن السابع عشر[10] ، وبالنسبة لمواده المتعلقة بالإسلام ، كان استبس قد اعتمد على ترجمات هوتنغر Hottinger ، واربينوس Erpenius وبوكوك Pococke وكتاباتهم وعلى روايات المسافرين .

إن كتاب بريدو ، بناء عليه ، آلة بذراعين بالنسبة للجدل ، لم يقصد به فقط كشف أخطاء الإسلام (وهي ممارسة تقليدية للمدافعين عن العقيدة المسيحية) ، ولكن أراد أيضاً الإشارة بشكل مباشر إلى التضاد بين أصول الإسلام والمسيحية ، وبذلك شكل دفاعاً للمسيحية ضد الربوبية ، لأن الربوبيين كانوا الهم الخاص لبريدو ، وكجدلي قدم لهم أقل من العدل ، وكان يرى فيهم مجرد أتباع عقيدة حديثة ، ترى أن المسيحية دجل[11] وكانت فضيلتهم الوحيدة أنهم ما يزالون يحتفظون بالمبادىء المشتركة للديانة الطبيعية والعقل مما يسمح بأساس كاف لعدم اللقاء مع الملحد والربوبي (الذي ينكر العناية الإلهية) وبالمقارنة لم يترك اعتماد لأي جدل ، بل اعتماد الجلد والسوط ، لإقناعهم وعدم ورعهم ، وبناء عليه فإنهم لا يستحقون التعامل بأية طريقة أخرى[12] .

يضم كتاب بريدو جزأين ، الأول بعنوان «حياة محمد ﷺ» وهو في ١٢٥ صفحة ويستمر ترقيم الصفحات في الجزء الثاني ، وهو معنون باختصار «رسالة إلى الربوبيين» الخ ، وفيه على أي حال عنوان مستقل للصفحات ، ويحوي القسم الأخير (ص ٢٢٥ ـ ٢٦٠) على «عرض للمؤلفين المنقول عنهم في هذا الكتاب» . وأنا لست معنياً هنا «بالرسالة إلى الروبيين» لأنها كانت الفاتحة التي قادت نحو «حياة محمد ﷺ» وهو لب الموضوع .

إن مصادر بريدو واستعماله لها ، له بعض الأهمية فقد كان متلهفاً لأن يقدم ترجمته كعمل موثق ، «حتى لا يعتقد بأنه رسم عن سابق تصميم «حياة محمد ﷺ» «لينشر ادعاءه في أكره لون يمكن استخدامه كيما يخدم هدفه الراهن» وسجل بريدو في روايته أسماء ستة وثلاثين مؤلفاً عربياً أو كتاباً ، واهتم كثيراً بعرض أسمائهم في الحواشي ، ولدى التدقيق أصبح واضحاً أن معرفته بهم صدرت بشكل غير مباشر عن ترجمات أو اقتباسات من أعمال المستشرقين .

وقد استعمل ثلاثة كتب رئيسة كانت في طبعات (مع ترجمة لاتينية) هي تاريخ المكين بن العميد ترجمة اربينوس ، وابن العبري ترجمة بوكوك ويوتيكيوس Eutychius ترجمة بوكوك أيضاً[13] وبالنسبة للقرآن يبدو أنه قد اعتمد بشكل رئيس على الترجمة اللاتينية للقرن الثاني عشر التي قام بها الإنكليزي روبرت ، والتي طبعت من قبل بيبلايندر Bibliander في ١٥٤٣[14] ، وهو ينتقد بقوة هذه الترجمة لأنها «تلخيص سخيف له . . حيث أن الأساس بالأصل سيء العرض ، حتى أنه يندر أن يتمكن أحد في أي مكان أن يفهم ما هو المقصود حقاً من قبل الآخر» . مع أن قرآناً عربياً مطبوعاً كان قد أصبح متوفراً مؤخراً[15] وقد ذكره بريدو ، ويبدو أنه كان عاجزاً عن استعماله ، إذ قال لو أنه [أي المحقق] أضاف ترجمة لاتينية ، لجعله أكثر فائدة ، ويتحدث بريدو أيضاً عن ترجمة دي رير Du Ryer الفرنسية[16] (التي علق عليها بقوله : يجب القول بأنها قد تمت بأفضل ما يمكن توقعه من واحد لم يكن سوى تاجر) ، والترجمة الانكليزية الخاطئة التي قام بها عنها الكنسدر روس Alexander Ross[17] ، وهناك ترجمة هامة أخرى استخدمها بريدو وهي التي دعيت خطأ «جغرافية النوبة» ، وهي اختصار لكتاب الإدريسي الجغرافي العظيم «نزهة المشتاق» وقد تمت الترجمة إلى اللاتينية من قبل المارونيين : جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني ، وقد نشرت في ١٦١٩ .

ويبدو أن بريدو قد عرف الغالبية العظمى من مصادره العربية فقط من خلال النقول والإشارات التي وردت لدى كتاب مسيحيين وفوق كل شيء زوده بوكوك بمنجم من المعلومات في كتابه «لمع من تاريخ العرب»[18] وتوضح مقارنة بين حواشي مصادر بريدو وتلك التي ألحقها بوكوك بكتابه «لمع» (ص ٣٥٩ ـ ٣٨٥) مدى اتكاله عليه ، ونادراً ما أضاف شيئاً إلى رواية بوكوك عن المؤلفين ، وغالباً ما اكتفى بترجمة ، وربما باقتضاب ، فقرات بوكوك ، وبتحويل السنوات الهجرية إلى سنوات ميلادية ، ويلاحظ أن جميع الحشد المدهش لأسماء المصادر العربية في الحواشي وتلك التي أقحمها في المادة قد أخذها من ملاحظات بوكوك في «اللمع» ، واعتمد في حالات قليلة جداً على مستشرقين آخرين من القرن السابع عشر ، وخاصة كتاب «تاريخ المشارقة» للعالم السويسري هوتنغر Hottinger[19] ، وتاريخ العرب للماروني ابراهيم الحقلاني[20] .

واستخدم بريدو جنباً إلى جنب ، مع هذه المعلومات المستمدة ، وإن يكن بصورة غير مباشرة من مؤلفين عرب ، كتابات الجدليين المعادين للمسلمين ، خاصة كتاب «النقض المسيحي لاعتقاد السراسنة المحمديين» وهو كتاب اشتهر أنه قد ترجم من العربية إلى اللاتينية في أوائل القرن الثاني عشر ، وكتاب «نقض عقيدة السراسنة» الذي ألفه ريتشارد وهو دومينكاني ، من القرن الثالث عشر ، وقد طبعا مع «قرآن ببلياندر» وكتاب آخر قدره بريدو بشكل خاص هو «عقيدة طائفة المحمديين» كتبه جوانس اندرياس Joannes Andreas وهو مسلم ارتد في بلنسيه في ١٤٨٧ ، وكانت الطبعة التي استخدمها بريدو طبعة معادّة نشرت في اوترخت في ١٦٥٦ عن ترجمة لاتينية أخذت عن ترجمة إيطالية بتصرف عن أصل إسباني[٢١] ، واعتقد بريدو أن كتابي رتشارد وجوانس اندرياس هما الأفضل بين كل ما نشر فيما مضى من الكتّاب الغربيين في ميدان الجدل هذا ، وأفضل ما يتواءم مع ما يعلمه المحمديون أنفسهم حول ديانتهم[٢٢] .

واستخدم بريدو مصادره دونما تمييز ، فقد عامل المواد المنقولة من كتاب مسلمين وجدليين مسيحيين على قدم والمساواة ، ويمكن بمساعدة حواشي صفحاته ـ وهذا غير مريح ـ تفريق المعلومات المستمدة من كل من المجموعتين من المصادر ، وجاءت السيرة المنتجة مجرد جمع غير بارع للآثار الإسلامية والأساطير المسيحية ، أوحت بها عداوة مريرة تجاه موضوعها ، ومع ذلك يمكن أن نميز فيها تقدماً حقيقياً وإن كان محدوداً عندما تقارن بالروايات التي كانت شائعة حول حياة محمد (ﷺ) في وقت مبكر من ذلك القرن مثل تلك المعطاة في رحلة سانديِ Sandy ، أو تلك الملحقة بترجمة الكسندر روس للقرآن ، وهي شبه أسطورية تماماً ، ويوجد في عمل بريدو على الأقل إطار تاريخي ، على الرغم مما أثقله به من مواد أسطورية (مسيحية وإسلامية على السواء) وشوهه به من تحيزات الجدلية الدينية .

سيمون آوكلي :

شكل كتاب«تاريخ السراسنة» الذي ألفه سيمون أوكلي، وهو عالم من خريجي كمبردج إسهاماً أكثر متانة في المعرفة التاريخية ، ولد آولكي في اكسيتر Exeter في (١٦٧٨)[٢٤] ودخل في ١٦٩٣ كلية الملكة في كمبردج ، وأصبح في عام ١٧٠٥ ،

بعدما دخل في سلك الكهنوت ، قسيساً لسوافساي Swavesey في كمبردج شير ، حيث توفي في ١٧٢٠ ، وكان قد جرى تعيينه في ١٧١١ لكرسي السير توماس ادامس Thomas Adams للغة العربية في كمبردج ، وقد أعد تاريخه وكتبه في ظروف صعبة جداً ، نشر الجزء الأول المعنون «فتح سورية وفارس ومصر من قبل العرب المسلمين» في لندن في ١٧٠٨ ، وظهر الجزء الثاني الذي أعطي أولاً عنوان «تاريخ السراسنة» بعد ذلك بعشر سنوات ، وأعيد إصدار المجموع بهذا العنوان في ١٧٥٧ بناء على اقتراح الدكتور لونغ وكان في حينه عميد كلية بامبروك كمبردج ، ويعتقد أن لونغ هو مؤلف «حياة النبي» الذي أضيف إلى بداية هذه الطبعة ، وجرت إعادة طباعة لطبعة ١٧٥٧ من قبل بوهن Bohn في ١٨٤٧ .

ويعد تاريخ أوكلي نقطة علّامة من ناحيتين ، فهو أول محاولة لكتابة تاريخ مستمر للعرب في الإنكليزية ، اعتمد إلى أبعد الحدود على مصادر مخطوطة غير منشورة ، ويلاحظ أن أفق العمل من ناحية الترتيب الزمني غريب ، فقد بدأ المجلد الأول باختيار أبي بكر للخلافة ، وعالج بشكل كامل فترة حكمه ثم فترة حكم عمر . وانتهى المجلد برواية قصيرة حول حكم عثمان ، وحسب ما أشار عنوان الكتاب الأصلي انصب اهتمام أوكلي الأساسي على حروب الفتوحات مع تركيز خاص على فتح سورية ، وتولى المجلد الثاني تغطية لفترة من خلافة علي إلى خلافة عبد الملك (٣٥ ـ ٨٦ هـ) .

ويمكن تفسير حذف جميع الروايات عن حياة النبي على أساس الشعبية الشائعة لكتاب بريدو ، ونسمع من مقدمة مجلده الثاني نغمة خافتة من النقد له في قوله : لقد ذكرت حياة محمد (ﷺ) لأنها الأساس لكتاب تاريخنا كله ، ومع أن ما كتب عنه من قبل العالم المبجل الدكتور بريدو يكفي لإعطاء فكرة عامة عن الرجل وما أعطاه ، وهي تتوافق بشكل مثير للإعجاب مع تصميمه الرئيس لإظهار طبيعة الرجل ، ومع ذلك فإن هناك مواد كثيرة جداً وشديدة النفع له قد أهملت ، وكانت ستفيد كثيراً في تصوير تعاقب أحداث التاريخ ، إضافة إلى عادات تلك الأيام التي ازدهرت فيها[٢٥] .

إن الانتهاء المفاجىء للتاريخ بموت عبد الملك قد جرى تفسيره بصورة كافية بالمتاعب والخلافات التي أزعجت أوكلي في حياته اليومية ، إن فقره في سنواته

الأخيرة مشهور ومذكور في مقدمته للمجلد الثاني حيث قال : «لقد اضطررت لاستغلال هجوع اهتماماتي التي لم تنم قط عندما أكون مستيقظاً ، وهي إن لم تقاطع باستمرار دراساتي كانت بالتأكيد تأتي بعدها بثبات لا يقل عما يفعل الليل بالنهار»[٢٦] وكما هو معروف جيداً ، قدم المجلد الثاني للتاريخ إلى العالم من قلعة كمبردج . حيث سجن أوكلي من أجل دين بلغ مائتي ليرة استرلينية .

وتزايدت صعوبات أوكلي بسبب الحاجة إلى البحث عن مواد مخطوطة في مكتبة البودليان . وكانت المصادر الشرقية من مكتبة جامعة كمبردج في هذا الوقت أدنى من مصادر اكسفورد التي حازت في نهاية القرن السابع عشر على المجموعات الكبيرة من مخطوطات لود Laud ، وبوكوك Pococke وهاتنغتون Huntington . وبدأ أوكلي بعمل مسودة من التواريخ المطبوعة المتوفرة له : المكين ، وابن العبري ، ويوتيكيوس ، وفي أول زيارة له للبولديان وجد مصادفة ما اعتقد أنه تاريخ موثوق لفتح سورية ، وهو كتاب فتوح الشام المنسوب للواقدي ، وكان أن استمد من هذا المخطوط[٢٨] كتلة مادته للمجلد الأول من تاريخه ، ونجد في صفحات العمل الأصلي الـ (٨٩١) صفحات ٢١ إلى ١١٥ و ١٣١ إلى ٢٣٧ ، و ٢٦٥ إلى ٣٤٢ قائمة بشكل مؤكد على الفتوح ، ولم يستخدم أوكلي أي مؤلف آخر بهذه الكثافة من أجل المجلد الأول ، ولكن إشاراته الهامشية تظهر معرفة بمخطوطات «أبي الفداء» «المختصر في أخبار البشر» ، وابن دقماق «الجوهر الثمين في سيرة الخلفاء والسلاطين» ، وابن عبد ربه «العقد» وعملين عن القدس أحدهما لمحمد بن ابراهيم السيوطي ، والثاني بعنوان «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل»[٢٩] .

يعالج مجلد أوكلي الثاني التاريخ السياسي للخلافة بعد وفاة عثمان ، ولم يكن في كتابة هذا الجزء معتمداً بشكل رئيس على مصدر واحد ، كما في جزئه الأول ، ومرة أخرى استعان بالبودليان ، وقد أمضى في هذه المناسبة خمسة شهور في اكسفورد . (احتاج مجلده الأول زيارتين ، كل منهما لنحو ستة أسابيع) وسمح له أمين مكتبة البودليان بأخذ الكتب التي احتاج إليها خارج المكتبة ، وهو إحسان جاء خرقاً للقانون ، ولم تتم الموافقة عليه للملك شارل الأول ! وتظهر إشارات أوكلي الهامشية وجدول في مقدمة المجلد الثاني أنه قد أفاد من مخطوطات أبي

الفداء ، وابن الأثير ، والطبري ، إضافة إلى مؤرخ مجهول قدره كثيراً[٣٠] وبالإضافة لذلك فقد حصل على قدر كبير من المعلومات ، خاصة حول «علي» من كتاب هيربيلوت «المكتبة الشرقية»[٣١] وهو معجم دائرة معارف رائد حول الاستشراق ، نشر للمرة الأولى في ١٦٩٧ ، وتمت معرفة أوكلي بالكتاب الفرس من خلال هيربوليت ، ومع هذا الاستثناء استفاد أوكلي قليلاً من مصادر ثانوية ، وبات واضحاً مما تقدم أن أوكلي ، خلافاً لبيرو كان مؤرخاً مثقفاً أقام عمله على تحري المصادر الأصلية ، ولم يكن تمييزه بلا أخطاء ، مع أنه يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار ، أن أكثر أخطائه خطورة هو قبوله بفتوح الشام كعمل حقيقي للواقدي ، وهذا أمر لم يكشف حتى القرن التاسع عشر ، واجمالاً فإن موهبته كانت أكثر رسوخاً من موهبة بوكوك ، في تفضيله للمصادر القديمة على المتأخرة ، والكتاب المسلمين بدلاً من المسيحيين ، والافتقار إلى المعايير التي جمعتها الثقافة التاريخية في القرنين الأخيرين نجده قد قنع برسم صورة كاملة بدلاً من تحري التفاصيل ، ويظهر قصوره في هذا المجال في الملاحظات التي أبداها على مؤلف فتوح الشام ، الذي اعتقد من أدلة داخلية أنه عاش بعد مائتي سنة من وقائع الأحداث التي رواها ثم تابع يقول :

«وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الشيء نفسه كما لو أنه عاش بعد ذلك بستمائة سنة ، لأن هذا المؤلف الذي عاش بعد ألف سنة إثر أية واقعة بدا وكأنه شاهد عليها بالقدر نفسه ، بالنسبة لذلك الذي عاش بعدها بمائتي عام ، فكلاهما جدير بالثقة ، وإذا لم يفقد المؤلفون الجيدون خلال تلك الفترة ، فإن ذلك الذي كتب آخراً هو مؤرخ مصدق مثل الأول»[٣٢] .

ومن فضائله كمؤرخ ومزاياه التي أبداها بشكل كامل في الجزء الثاني خاصة أنه كان شديد التدقيق في التواريخ ، فقد وضع لكل مجلد جدولاً زمنياً في المقدمة ، وأضاف للمجلد الثاني عناوين (ترويسات) هامشية مؤرخة لكل صفحة ، ولقد لفت الانتباه إلى التناقض كلما جاء الترتيب الزمني لمصادره غامضاً أو مشوشاً[٣٣] ، وتتضح السمات العلمية لكتاب أوكلي في موقفه تجاه الناس الذين تعامل معهم ، ولم يتوان عن اتباع الصورة الشائعة في وصم محمد (ﷺ) في خطه الأول «بالمدعي الكبير» ووصف الفتوحات العربية «بالكوارث المفجعة» ولكن

هيكل عمله يفتقر تماماً إلى الخبث الذي أبداه بريدو ، وهناك صدى لبريدو في مقدمة مجلد أوكلي الأول ، حيث تكلم عن الرغبة في معرفة تاريخ العرب :

«ليس فقط لأنه كان لديهم رجال عظام قاموا بمثل هذه الأعمال الهائلة ، شأنهم شأن أية أمة أخرى تحت قبة السماء ، ولكن ما هو أكثر أهمية لنا نحن المسيحيين هو أنهم أول دمار لكنيستنا الشرقية»[٣٤] .

ومهما يكن من أمر فإن الانطباع الذي يحصل عليه المرء من قراءة أوكلي أنه اهتم بالرجال العظام وبالأعمال الكبيرة للعرب أكثر من اهتمامه بتدمير الكنيسة الشرقية ، وفي الحقيقة أخبرنا أن هدفه الأصلي «كان القيام بسلسلة كاملة عن شؤون المسيحيين خلال الفترة ، ولكن بعد إمعان الفكر ظهر لي أنها غريبة عن هدفي»[٣٥] ولعل التحول في الاهتمام ، من دراسة التاريخ العربي كملحق للتاريخ الكهنوتي ، إلى التاريخ العربي كموضوع يستحق في ذاته أن يبحث ، كان أهم مظهر من مظاهر عمل أوكلي .

جورج سيل :

كان جورج سيل (١٦٩٧ ـ ١٧٣٦)[٣٦] أبرز مستعرب انكليزي ممن لم يكن ذا مرتبة دينية ، وكان أبوه تاجراً لندنياً ، وكان هو نفسه طالباً في المعبد الداخلي في ١٧٢٠ ، وبالتالي تدرب كمحام ،وقد أثير اهتمامه بالعربية عندما تلقى منحة تعليمية من مسيحي سوري اسمه داديشي Dadichi وكان في لندن في ١٧٢٣ ، ولعله درس أيضاً على يد سوري آخر ، هو نجري(*) Negri[٣٧] الذي كان أيضاً في لندن نحو هذا الوقت ، وكلف من قبل جمعيـة تنمية المعرفة المسيحية بانتاج ترجمة عربية لسفر المزامير ، والعهد الجديد ، وكان سيل مصححاً للعهد الجديد العربي ومن (١٧٢٦ إلى ١٧٣٤) كان وثيق الصلة بجمعية تنمية المعرفة المسيحية التي خدمها بقدراته القانونية ، وفي الوقت نفسه كان يعمل على ترجمة القرآن ،

★ ـ يعتقد أن اسمه سليمان السادي أرسله بطريرك أنطاكية إلى لندن عام ١٩٢٠ لدعوة جمعية تنمية المعرفة المسيحية إلى إصدار ترجمة عربية من العهد الجديد ليقرأها النصارى السوريون . موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي ـ ط بيروت ١٩٨٤ ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

وجاء نشره في (١٧٣٤) نقطة علاّمة في تاريخ الدراسات القرآنية ، ولم تكن ترجمته فقط أكثر دقة بكثير من سالفتها الانكليزية ، أي ترجمة القرن السابع عشر من قبل روس ، بل وضعت لها حـواش من قبل مفسرين مسلمين (خاصة البيضاوي والسيوطي) ومصادر أخرى ، وقدم لها (بمقالة تمهيدية طويلة) شكلت خلاصة للمعلومات التي كانت متوفرة في حينه حول أصول طوائف الإسلام ومذاهبهم وممارساتهم ، ولعل المواقف والأهداف المتنورة التي أبداها سيل هي السبب في تحلله التدريجي من نشاطاته في (جمعية تنمية المعرفة المسيحية) بعد ١٧٣٤ ، وقد توفي سيل في ١٧٣٦ تاركاً زوجته وأسرته في صعوبات مالية ، وقد انتقلت مجموعة مخطوطاته نهائياً إلى البودليان .

وليس الهدف من العرض الحالي إعطاء تقريظ لترجمة سيل الأمر الذي قام به الاستاذ فوك Fuk [٣٨] ، ولاتحليل مصادر معلوماته بشكل عام ، فمنذ ثلاثين سنة مضت أشار دنيسون روس Denuson Rocs إلى اعتماد سيل على ماراكس ، [٣٩] في حين بيّن في ١٩٣١ س . أ . نالينو S.A.Nallino أن ماراكس نفسه قد نقل عن عدد كبير من المؤلفين العرب عن طريق غير مباشر من كتاب بوكوك «لمع من تاريخ العرب» [٤٠] وسأقتصر على القسمين الأولين من المقالة التمهيدية ، ومادة موضوعهما تاريخية بشكل خاص ، وأتفحص باختصار مصادرهما ومظاهرهما .

وتعامل أول هذين القسمين مع الجاهلية . والثاني مع حياة النبي (ﷺ) وأعماله ، وبأخذهما معا فإنهما يتفوقان على بريدو ، فقد ظهر على الفور عدم كفاية عمل بريدو على الرغم من شعبيته وقد تصادف نشره تقريباً مع نشر كتاب دي هيربيلوت «المكتبة الشرقية» (١٦٩٧) وكتاب ماراكس «نص القرآن» ، مع ترجمته اللاتينية (١٦٩٨) [٤١] وجاء النشر الهام التالي المتعلق بالموضوع في ١٧٢٣ عندما نشر جاجينر Jagnier في اكسفورد نص أبي الفداء الذي عالج فيه حياة النبي (ﷺ) ، وكانت هذه أول رواية عربية عن حياة النبي (ﷺ) تطبع كاملة ، وكانت مصحوبة بترجمة لاتينية .[٤٢] وأنتج تغير المناخ الفكري في اوروبا الغربية في اواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر على أي حال ، موقفاً جديداً تجاه الإسلام ونبيه ، الأمر الذي جعل لهجة بريدو بالية بقدر ماكانت مصادره غير كافية ، والدلالة على ذلك كتاب حياة محمد بالفرنسية للكونت هنري دي بولينفير

Henry de Boulainvilliers (١٦٥٨ ـ ١٧٢٢) [٤٣] الذي نشر بعد وفاة مؤلفه في لندن في ١٧٣٠ [٤٤] ومثل بريدوكس استعمل بولينڤير أصول الإسلام كمطية لتحيزه الديني الذي كان بشكل ملحوظ مضاداً للكهنوت ، وقد قاده هذا إلى النظر بتعاطف الى موضوعه ، ومن ثم إلى رفض المسلمات التقليدية للجدل اللاهوتي المسيحي مع المسلمين ولنسمعه يقول : «مع أنه ليس هناك أي باعث عقلاني منطقي في كل مايعتقدون أو يمارسون ؛ إلى درجة أن الفكر السليم يجب ان يطرح من أجا احتضان نظامهم» .

«وأن محمداً (ﷺ) كان خشنا جدا ودعي بربريا ، حتى أنه ليس الرجل الذي لايدرك ، أولا يمكنه أن يدرك بوضوح خداعه وفساده» .

وكان بولينڤير مايزال يدعي تفوق المسيحية ، ولكن لاتوجد فظاظة في نبرته من ذلك قوله : «وفيما يتعلق بالأركان الاساسية للدين ، كل ما أرساه محمد (ﷺ) حق ، ولكنه لم يرس ذلك كله بصدق ، وهذا هو الخلاف الكامل بين ديانته وديننا» .

ومرة أخرى لم يكن كتاب «حياة محمد» (ﷺ) مثله مثل كتاب بريدو عملاً ثقافياً علمياً ، فقد أقر المؤلف أنه لم يفهم العربية ، وأنه كان مديناً لكتاب هيربيلوت «المكتبة الشرقية» وإلى الترجمات ، وفي الواقع كان كتابه أسلم من كتاب بريدوس الذي وجه إليه النقد ، ولكن هناك بعض الأخطاء ، وهناك قدر جيد من الزخرفة ، وقد ترك بولينڤير عمله ناقصاً عن العام الخامس الهجري ، ودعا الناشر الانكليزي جاجينر لكتابة الفصل الختامي . وتبعاً لجاجينر توقفت المفاوضات وهكذا جاءت التكملة كما هي بين أيدينا مجهولة المؤلف [٤٥] وفي ١٧٣٢ خرج جاجينر في الواقع بكتابه «حياة محمد» [٤٦] وهو عمل ثقافي جاد جعل موقفه واضحا تماما في مقدمة مطولة من أجل نقد عمل بريدو من قبل السيد بولينفير في كتابه «حياة محمد» (ﷺ) ، وقد انتقد بشكل خاص الصورة الإيجابية التي أعطاها بولينڤير عن النبي (ص) وأسلوب العمل الذي قال إنه خيال أكثر من كونه تاريخاً .

وينبغي رؤية رواية سيل مرتبطة مع هاتين السيرتين المتأخرتين ، فقد تعامل في القسم الأول من بحثه التمهيدي مع خمسة موضوعات رئيسة : جغرافية شبه

جزيرة العرب ، والقبائل العربية ، وتاريخ الجاهلية ، وديانات ماقبل الاسلام في شبه جزيرة العرب ، وثقافة العرب ، واستند في دراسته الجغرافية جزئياً على مصادر يونانية ، وجزئياً على مصادر عربية ، وأبرزها الإدريسي (المعروف من خلال بوكوك «جغرافية النوبة») وابن العبري ، وأبو الفداء الذي نشر جزء من كتابه «تقويم البلدان» من قبل جاجينر في اكسفورد في ١٧٢٦ ـ ١٧٢٧ وقد أسهم في إغناء معلوماته ملاحظات بوكوك في «اللمع» ، مع ملاحظات غوليوس في طبعته للغرغاني . [٤٧] ومن المهم ذكره أن سيل قد استعمل أيضاً رواية جوزيف بتسى ، وهو أول انكليزي عرف أنه زار مكة . [٤٨]

واستمد في بقية هذا القسم قدراً كبيراً جداً من المعلومات من ـ أو من خلال ـ بوكوك ، وهذا واضح من حواشي صفحات سيل ، ولكن هذه الحواشي تخفي المدى الكامل لاستعارته ، حيث أنها أتت أحياناً على ذكر المؤلف الذي استخدمه بوكوك ، وتظهر مقارنة بين نص سيل ونص بوكوك بكل وضوح أن الرواية الإنكليزية لم تتعد في الغالب كونها ترجمة أو موجزاً لفقرات من «اللمع» ، وهذا واضح وبديهي في رواية سيل عن ديانات ماقبل الإسلام في شبه جزيرة العرب ، حيث أشارة حواشي سيل إلى المستطرف ، والشهر ستاني والجنابي ، والبيضاوي ، والجوهري ، ونظم الدر ، مع استثنائين مشكوك فيهما ـ تعقبها رجوعاً إلى«اللمع» ،وتظهر مصادر سيل الأخرى معرفة بالمادة المطبوعة بدلاً من المخطوطة المتوفرة في ذلك الوقت في كتاب دي هيربلوت «المكتبة الشرقية» ونصوص جاجينر عن أبي الفداء ، والمكين ، وابن العبري ، وقد ذكر كتاب بريدو «حياة محمد» خمس مرات ، مرة ليصحح خطأ ، وأشار مرة واحدة إلى المجلد الأول لتاريخ أوكلي .

وجاءت الطبعة الثانية من عرض سيل التمهيدية في جزأين ، وصف أولاً حالة المسيحية ، واليهودية ، والامبراطورية الفارسية عشية الفتوحات الإسلامية ، وهنا طبعاً استمد معلومات قليلة من مصادر عربية ، بصرف النظر عن الرجوع إلى القرآن ، ثم إلى رواية بكوك عن المزدكية المستمدة من أبي الفداء والشهرستاني ، وذكر فقط الكاتبين المسيحيين العربيين : المكين وابن العبري ، ذكرهما في نقطة واحدة فقط ، وبالنسبة للبقية اعتمد بقدر كبير على مصادر بيزنطية ومراجع

حديثة ، وقد أشار إلى بريدو ، وأوكلي ، وبولينفيير عندما وصف الأخطاء والانشقاقات في النصرانية ، واتبع سنن من تقدمه بقوله : «يبدو أن العرب قد بعثوا قصداً من قبل الرب ليكونوا سوط عذاب على الكنيسة المسيحية لعدم معيشتها بشكل متجاوب مع هذا الدين بالغ القدسية الذي تلقونه ، »(٤٩) ولكن صفحاته خلافاً لصفحات بريدو لم تكن مشربة بمعنى التحذير والعقاب ، وجاء ذكر نظرية القضاء الإلهي بشكل غير انفعالي ، وربما لم تكن موضع تفكير جدي» .

وكان مصدر سيل الرئيس عن حياة النبي (ﷺ) طبعة «جاجينر» عن أبي الفداء التي كانت هناك اشارات عديدة أليها في حواشي صفحاته ، وقد صحح رواية بولنفيير في نقطتين ، وقام في معرض عشر إشارات إلى بريد وبسبعة تعلقيات ناقدة ذات أهمية صغيرة أو كبيرة ، ومما يميز الخلاف في النظرة بين الكاتبين قول سيل : «يحتمل أني لم أكن أستطيع أن أقر تأكيد كاتب واسع العلم متأخر [أي بريدو ـ المصدر نفسه : ٧٦] حتى إنه جعل الأمة تستبدل وثنيتها بدين آخر على درجة السوء نفسها إجمالاً» (٥٠) وسبب اعتماد سيل على المصادر المتأخرة ونقص المعايير التاريخية لتقويم مواده ، بعض المصاعب ، وهكذا قبل مثل الذين تقدموه قصة المعراج كجزء أصيل من تعاليم النبي (ﷺ) وبالنسبة لبريدو كانت هذه قطعة رائعة من الأدلة لدعم فكرته عن الإسلام ، ووجد سيل أنها متناقضة منذئذ لأنه كما قال : «لا أرى أن محمداً (ﷺ) نفسه قد توقع مطلقاً أن يلقى هذا التقدير العظيم لأقواله ، بالقدر الذي فعله أتباعه منذ ذلك الحين ، وأنه . . على طول الخط قد أنكر أي قدرة على فعل المعجزات» (٥١) ، وهو مع ذلك لم يستنتج أن القصة ربما كانت إضافة متأخرة ، ولكنه قال بشيء من الضعف إن ذلك كما يبدو «جاء اصطناعا لسياسة تعلي سمعته» .

وبناء عليه إن صورة شبه جزيرة العرب القديمة وأصول الاسلام التي رسمها سيل ماتزال غير صحيحة بشكل جدي بالمعايير الحديثة للكتابات التاريخية . وواضح أن مجال سيل في المصادر كان أكثر محدودية ، وربما كانت ثقافته العربية أقل عمقاً مما بدت لمعاصريه ، ومع ذلك كان عمله عظيم الأهمية ، ويبين تحرره من التحيز الديني (الناحية التي يتميز فيها بشكل ايجابي عن كثير من خلفائه في القرنين التاسع عشر والعشرين) وتبين قناعته الواضحة أن الكتاب العرب كانوا

أفضل المصادر للتاريخ العربي ، وأن المفسرين المسلمين هم أنسب من يفسر القرآن ، تقدماً هائلاً على تخليط المستندات والأصول التي قدمها بريدو ، وتمم عمله عمل أوكلي وشغل الاثنان لمدة تزيد على القرن في تكوين صورة فهم النبي (ﷺ) والعرب التي يحملها المتعلمون من الرجال الانكليز .

هوامش البحث

١ ـ ب .م هولت ـ دراسة للمؤرخين العرب في انكلترا القرن السابع عشر ـ الخلفية وعمل أدوارد بوكوك ، دورية معهد الدراسات الشرقية والأفريقية (١٩٥٧) ١٩/٣ ٤٤٤ ـ ٤٥٥ .

٢ ـ معجم التراجم الوطنية : ٣٥٢/٤٦ ـ ٣٥٤ ، مقال الأب الكسندر كوردون .

٣ ـ يوميات جون ايفلين . ط . كل رجل (لندن ١٩٤٥) ٣٥٧/١ ، مادة ١٣ أيار ١٦٦١ «لقد سمعت ورأيت مثل هذه الممارسات عند انتخاب الدارسين في مدرسة وستمنستر ليرسلوا إلى الجامعة لدراسة اللاتينية واليونانية والعبرية والعربية في موضوعات وأشعار مرتجلة بصورة مدهشة لي ، لدى مثل هؤلاء اليافعين ممن لديهم هذا الاستعداد والذكاء ، وكان بعضهم لا يتجاوز الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر» ، وجاء في رسالة من أدموند كاستل إلى صموئيل كلارك في ١٦٦٧ ـ مخطوطات بيكر ـ مكتبة جامعة كمبردج : ٤٧/١ ص ٣٤٧ : «وأرسل لك بعض الأوراق من د . بسببي الذي . . . يرغب في نظرة من عينيك ومن نقدك الكامل الدقة والتغيير والتنقيح للعبرية والكلدانية والعربية . . . والأوراق التي يرسلها لك كما سنفعل أيضاً مع خدماته قدمها إلى الدكتور بروك . . . وطلبنا هو أنه سيكون مسروراً أيضاً أن يفعل المثل معك ، أن يقرأ وينقد بالشدة نفسها التي يجب أن تكون» .

٤ ـ بريدو ـ حياة محمد ، الطبعة الثامنة (لندن ١٧٢٣) للقارى ص ٧ ـ ٨ .

٥ ـ المصدر نفسه ص ١١ ـ ١٢ .

٦ ـ من أجل الجدل المتعلق بالتثليث انظر إ . م . ولبر «تاريخ التوحيد في ترانسلفانيا وانكلترا وأمريكا» (مطبعة جامعة هارفرد ـ مخطوطات كمبردج ١٩٥٢) ص ٢٢٦ ـ ٢٣١ .

٧ ـ بريدو ص ١٣ ـ ١٤ .

٨ ـ هنري ستوب ، رواية حول قيام وتقدم المحمدية مع حياة محمد (ﷺ) والدفاع عنه ، وعن ديانته من افتراءات المسيحيين (لندن ١٩١١) وقد دعمت المنشورات بموارد إسلامية ، طبعة ثانية حققت مع مقدمة وملحق لحافظ خان شرباني (لاهور ١٩٥٤) وأنا ممتن للبروفسور فوك Fuk للفته انتباهي إلى هذا العمل .

٩ ـ المخطوطات مندرجة في مقدمة الطبعة الثانية للنص المطبوع . وهي تضم ما يلي في المتحف البريطاني :

(١) سلون Sloane ١٧٠٩ ، ١٧٨٦ قطعتان من مخطوط واحد .

(٢) هارلي Harley ١٨٧٦ ، ٦١٨٩ مخطوطان كاملان .

١٠ ـ ستوب غير مذكور في أي من في التاريخين القياسيين للوحدوية ، هـ . ج ماكلاكلان Machachlan «إنكار التثليث في انكلترا القرن السابع عشر» (OUP لندن ١٩٥١).
ا ـ م : ولبر ـ المصدر نفسه .

١١ ـ من أجل الربوبيين انظر غ . ر . كراغ R.Cregg «من النقاء إلى عصر العقل» (كمبردج ١٩٥٠) ص ١٣٦ ـ ١٥٥ .

١٢ ـ بريدو ص ١٥ .

١٣ ـ (أ) توماس أربنيوس «تاريخ السراسنة» (ليدن ١٦٢٥) . (ب) ادوارك بوكوك Historice compendiosa dynastiarum (اكسفورد ١٦٦٣) . (جـ) ادوارد بوكوك Contextio gemmarum (اكسفورد ١٦٥١ ـ ١٦٥٩) .

١٤ ـ انظر ج . فوك J.Fuk «الدراسات العربية في أوروبا» (لايبزغ ١٩٥٥) ص ٣ ـ ٩ .

١٥ ـ ابراهام هنكلمان Abraham Hinkelman «القرآن ـ الإسلام المحمدي» (هامبورغ ١٦٩٤) انظر فوك ص ٩٤ ـ ٩٥ .

١٦ ـ اندريه دي رير «قرآن محمد» (١٦٤٧) .

١٧ ـ الكسندر روس «قرآن محمد» (لندن ١٦٤٩) .

١٨ ـ ادوارد بوكوك «لمع من تاريخ العرب» (اكسفورد ١٦٥٠) .

١٩ ـ ا .ج . هـ . هوتنغر «تاريخ المشارقة» (زيورخ ١٦٥١ و ١٦٦٠) .

٢٠ ـ ابراهام الحقلاني «تاريخ العرب» ذيل لكتاب «تاريخ المشارقة» (باريس ١٦٥١) .

٢١ ـ بريدو ص ٢٥٧ .

٢٢ ـ المصدر نفسه ص ٢٥٩ .

٢٣ ـ جورج ساندي ، برواية رحلة بدأت في ١٦١٠ ، طبعة خامسة (لندن ١٦٥٢) ص ٤١ ـ ٤٢ .

٢٤ ـ انظر المقال حول «أوكلي تالين» ستينلي لين ـ بول في ٤١/٣٦٢ ـ ٣٦٥ DNB ، وأيضاً مذكرات أوكلي في مقدمة طبعة تاريخ السراسنة لبوهن (لندن ١٨٤٧) أ . ج اربرى «مدرسة كمبردج للغة العربية» (كمبردج ١٩٤٨) ص ١٣ ـ ١٦ وأجريت دراسة مفصلة لأوكلي كمستشرق من قبل الدكتورة أ . م . ا . هـ . كرارة في أطروحتها غير المنشورة «سيمون أوكلي اسهاماته في الدراسات العربية وتأثيرها على الفكر الغربي» (كمبردج دكتوراه

فلسفة ١٩٥٥) . وأنا ممتن للدكتور اربرى للفت نظري إلى هذا العمل ، وهناك خلاصة له في خلاصات المقالات . . . في جامعة كمبردج (١٩٥٥ ـ ١٩٥٦) كمبردج ١٩٥٧ ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

٢٥ ـ اوكلي تاريخ السراسنة كمبردج ١٧٥٧

٢٦ ـ المصدر نفسه ص٣٩

٢٧ ـ انظر هولت «دراسة المؤرخين العرب» ص٤٥٠ ـ ٤٥١

٢٨ ـ ج . أوري J.uri فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة البودليان (أكسفورد ١٧٨٧) ص ١٥٠ رقم ٦٥٥ مخطوط لاود ١١٨ ـ أ .

ويذكر أوكلي أيضا مخطوطا آخر منسوباً للواقدي . مخطوط بركوك ٣٢٦ . أوري ـ ١٥٤ ، رقم ٦٨٤ .

٢٩ ـ المخطوطات موصوفة في فهرس اوري .

١ ـ أبو الفداء المختصر مخطوط (بوكوك) ٣٠٣ ـ أوري ص١٥٥ رقم ٦٨٦ . ويحوي المخطوط الجزء الأول من الكتاب الذي يمضي إلى ٤٥٤ هـ ، إشارة اوكلي الهامشية (ص٩) رقم المخطوط بوكوك ٣٣٠

٢ ـ إبراهيم بن محمد بن دقماق الجوهر ، مخطوط لاود ـ ب ١٢٩ . أوري ١٤٨ ٦٤٨ . ملاحظة اوكلي الهامشية (ص٨) هي ترقيم مخطوط لاود ٢/٨٠٦ .

٣ ـ أحمد بن محمد بن عبد ربه «العقد» مخطوط هنتغتون ٥٥٤ ، أوري ١٧٢ ، ٧٨٢ .

٤ ـ محمد بن ابراهيم محمد السيوطي ، اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ، مخطوط هنتغتون ـ ٥١٠ ـ أوري ١٧٩ ، ٨٢١

٥ ـ محيي الدين بن عبد الرحمن الأنس ، مخطوط بوكوك ٣٦٢ ـ أوري ١٥٤ ، ٦٨٠ ، وهو كتاب مجهول المؤلف في اوكلي يدعوه أحيانا باسم تاريخ الأرض المقدسة . أو تاريخ القدس .

٣٠ ـ من أجل أبي الفداء ـ المصدر نفسه ص١٠ رقم ٤ (١) . (٢) ابن الاثير الكامل مخطوط بوكوك ١٣٧ ، ١٠٣ ، أوري . ١٥٦ ، ٦٩٤ و٦٩٦ ويغطى هذان المخطوطان الفترة من عام ٧ ـ ٦١هـ . هـ ٧٦ ـ ١٣٠ .

٣١ ـ إن استخدام اوكلي للطبري فيه بعص التعقيد (؟) بعد التخلي عن الرواية العربية لفقدها يذكر (التاريخ : ٣٩/٢ ـ ٤٠) أنه لحسن الحظ وجد قطعة فيه في اوراق بين مخطوطات رئيس الأساقفة لاود ، وذكر هذا في ثبت مخطوطاته ومؤلفيها مثل المجلد الثاني للطبري ـ التاريخ الكبير ، وأعطى رقمه في مخطوطات لاود رقم ٥٥ ـ ١٢٤ولايوجد أوراق مخطوط

تاريخي في لاود يمثل هذا الرقم في فهرس أوري الذي يعطي الأرقام الأقدم ، والمخطوط اللاودي الوحيد الذي يحمل اسم الطبري هو لاود (أ) ١٢٤ ، المكين . مختصر تاريخ الامام (كذا) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، أوري ١٦٠ ، ٧١٥ وربما كان في ذهن اوكلي الجزء الثاني من خلاصة المكين وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فلعله من المفيد أن نذكر أن مخطوطاً آخر برقم مماثل ، مارش ١٢٤ أورى ١٦١ ، ٧٢٢ هو في الحقيقة يوصف كجزء ثان من الطبري ، ومخطوط مارش كان قد منح للبودليان سنة ١٧١٣ ، وهكذا كان متوفرا لاوكلي ، لمجلده الثاني . (ب) . يدرج أوكلي أيضاً لاود١٦١ (أ) .(من أجل لاود (أ) ١٦١ - أوري ١٤٩ ، ٦٥٠) على أنه

«تاريخ غير كامل ؛وهو لهذا مجهول المؤلف) . . وله استعمال مفرد في هذا التاريخ » وهذا أيضا هو المؤشر على المخطوط نفسه مثل لاود ٢٦٥ ، وعرفه دي خويه كقسم من الطبري يغطي سنوات ٦١-٦٢هـ وهو موصوف في رسالة ZDNIG(١٨٦٢) ٧٥٩/١٦-٧٦٢ وفي ملاحظة جويدي المطبوعة في مقدمته ص٥٥ - ٥٦ لطبعة دي خويه لتاريخ الطبري (ليدن ١٩٠١)

(جـ) جزء من الطبري أمكن معرفته في اوري يغطي السنوات ٧٧ - ٧٩هـ ويشكل جزءاً من مخطوط هنتغتون ١٩٨٠ - أوري ١٥٩ ، ٧١١ ، الذي يبدو أنه فات اوكلي ، وقد يلاحظ أن إشارات أوري حول مخطوطات هنتغتون ١٨٩ مارش ١٢٤ قد ترجمت في رسائل دي خويه المذكورة اعلاه (٤) والجزء الأخر الذي أدرج على أساس أنه مجهول المؤلف من قبل أوكلى هو مخطوط هتنغتون ٤٩٥ ، أورى ١٨٥ ، ٨٥٧ ويغطي الفترة الأموية الأولى .

٣١ - فوك Fuk ص ٩٨ - ١٠٠ .

٣٢ - اوكلي التاريخ : ٢٠/١ .

٣٣ - مثل ، تاريخ ١٥٩/١٠ ، ٣٧١ ، ٧٧/٢ - ٧٨ ، ٢٩٦ .

٣٤ - تاريخ : ٩/١ .

٣٥ - تاريخ : ٥/١ .

٣٦ - انظر D.N.B.L ١٧٩ - ١٨١ . مقالة بقلم هـ .تومسون ليون .

٣٧ - انظر فوك ص ٩٥ - ٩٧ من أجل نجري ودادشي .

٣٨ - فوك - ص ١٥٤ - ١٠٥ .

٣٩ - ب . دنيسون روس «لوديوفيكو ماراكسي - دورية معهد الدراسات الشرقية والأفريقية (١٩٢١) ١١٨/٢ - ١٢٣ .

قارن أيضاً مقدمته لطبعة وارن لسيل (١٩٢١) التي يقول فيها : وقد اضطررت بناء عليه إلى استنتاج أنه باستثناء البيضاوي ، فإن مصادر سيل قد روجعت كلها بصورة غير

مباشرة . . . وقد تحقق الكثير جداً من قبل ماراكس حتى ان عمل سيل ربما تم أيضاً أداؤه بمعرفة اللاتينية وحدها ، وذلك في حدود ما تعلق بالنقول من المصادر العربية .

٤٠ ـ س . أ . نالينو ـ المصادر العربية المخطوطة لترجمة لودوفيكو ماراكسي للقرآن (١٩٣٢) أعيد طبعه في «مجموعات المخطوطات» (١٩٥٠) ٢/ ٩٠ ـ ١٣٤ .

٤١ ـ طبع في ١٦٩١ بشكل منفرد كتاب ماراكسي الجدلي «نقض القرآن» .

٤٢ ـ ج . جاجينر ، اسماعيل أبو الفداء «حياة محمد» (اكسفورد ١٧٢٣) . ومن أجل جاجينر الكاهن الفرنسي الذي أصبح كاهناً انجيلياً ، واستوطن في اكسفورد ، وأصبح أستاذاً للغة العربية لكرسي اللورد المونير Almoner . انظر مقال ع : غودوين في DNB : ٢/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

٤٣ ـ كان الاهتمام الرئيس لبولنڤير بأسلافه المشهورين الأمر الذي أثر على علماء النسب الفرنسيين الآخرين أقل مما أثر عليهم ، وقد أدى به هذا إلى أن يكتب عن تاريخ وآثار فرنسا .

٤٤ ـ فوك ، ص ١٠٣ ، وحاشية ٢٦٩ . ترجمة انكليزية (المترجم مجهول) نشر في السنة التالية : «حياة محمد» ـ ترجم عن الأصل الفرنسي تأليف الكونت «بولينڤير» . . . (لندن طبع من أجل و . هينكليف W.Hinchliffe ١٧٥١) والاقتباس التالي مأخوذ من هذه الترجمة ص ٢٤٣ .

٤٥ ـ ذكر صاحب المقالة عن جاجينر في DNB أنه كان بالفعل مسؤولاً عن التكملة مجهولة المؤلف ، ويناقض هذا ما جاء على لسان جاجينر في مقدمته ونقده اللاذع لكتاب بولينڤير .

٤٦ ـ ج . جاجينر «حياة محمد» مجلدان (أمستردام ١٣٧٢) .

٤٧ ـ فوك ص ٨٢ والحاشية ٢٢٤ ويشار إلى هذا المصدر الذي استخدم من قبل آخرين إلى جانب سيل عادة باسم Golices ad Alfroganum .

٤٨ ـ جويف بتز «رواية صادقة عن ديانة وخلق المحمدية . . .» (لندن ـ ط . ثالثة ١٧٣١) أعيدت طباعتها جزئياً وتم تحقيقها من قبل السير وليم فوستر في «البحر الأحمر والبلدان المتاخمة» (لندن جمعية هكلويت ـ سلسلة : ٢ س ١٩٤٩) .

٤٩ ـ ج . سيل «القرآن المدعو بشكل شائع» «قرآن محمد» (لندن ١٧٦٤) ١/ ٤٧ .

٥٠ ـ المصدر نفسه ص ٥١ .

٥١ ـ المصدر نفسه ص ٦١ .

٢٦ ـ الاسلام كمشكلة تاريخية في الكتابات التاريخية الاوروبية منذ ١٨٠٠

ج . و . فوك
أستاذ فقه اللغات الشرقية والدراسات الاسلامية في جامعة مارتن لوثر ـ هال

إن أدب التاريخ الإسلامي الذي ظهر خلال القرن ونصف القرن الأخير في اللغات الأوروبية خارج أمريكا والاتحاد السوفييتي واسع جداً ومتنوع إلى حد أن عملية مسح مجرد ستكون أوسع بكثير من مجال مقالة موجزة ، ويستحيل بالقدر نفسه أن نذكر في حيز صغير الخطوات الكبيرة التي قطعت في البحث التاريخي الإسلامي منذ سنة (١٨٠٠) ، ومع ذلك إنه لجدير بالاهتمام إعطاء مسح عام للتغييرات التي مرت بها صورة الإسلام وتاريخه في الكتابات الغربية منذ ١٨٠٠ ، وفي الوقت نفسه قد نحاول تبيان الميول والبواعث التي أثرت على المستشرقين الأوروبيين ، والمؤرخين من غير المستشرقين في تقديم وتفسير التاريخ الإسلامي ، وفي هذه الدراسة سأحصر نفسي في أدب تاريخ العرب المسلمين دون دراسة للأدب الواسع الذي هيمن عليه الإلهام السياسي لما يدعى بالمسألة الشرقية وتاريخ فارس وتركيا .

لقد تحدد الموقف الذي تبناه المؤرخ الأوروبي في القرن الأخير تجاه الإسلام جزئياً بشكل طبيعي بالمفاهيم والآراء عن الإسلام التي تشكلت في القرون الماضية ، لا بل إنه حتى بعد سنة ١٨٠٠ ما برحت هناك آثار للتناقض الديني الذي حدد الحكم الأوروبي على «محمد» (ﷺ) وأعماله ، والذي وجد أقوى تعبير له في الشعارات المتعلقة بمحمد «النبي المزيف» أو «عدو المسيح» والإسلام «كهرطقة

انتشرت بالسيف والنار» ، وكان من الطبيعي أن ينظر كل مؤرخ ذي تطلعات مسيحية إلى الإسلام من وجهة نظر مسيحية ، زد على هذا إنه ، حيث لم تطبق أية معايير مسيحية ، أدت ازدواجية الكنيسة والدولة في الغرب المسيحي بالطالب إلى إساءة فهم المؤسسات الإسلامية .

وفي تضاد حاد مع وجهة نظر العصور الوسطى هذه رأى تيار التنور الشرق بفضول صريح ، رأى فيه تلك الخلفية للأحداث الغريبة التي أصبحنا نألفها منذ طفولتنا من ألف ليلة وليلة ، وأخذت تلك الصورة للشرق الذي لا يتغير من قبل الحركة الرومانسية ، واستمر تأثيرها أيضاً في القرن التاسع عشر ، وهكذا نظر لفترة طويلة إلى الحكم الإسلامي المديد في شبه الجزيرة الايبيرية بالضوء المتحول للرومانسية ، ولهذا نجد كتاب «تاريخ الحكم العربي في اسبانيا» لجوزيه أنتونيو كوند المنشور في ١٨٢٠ ، والذي ترجم أيضاً إلى الفرنسية والإنكليزية قد سيطر على الميدان حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وقد قادر . دوزي تقدم الدراسة النقدية للتاريخ في هذا الإطار ، ويندرج الشيء نفسه حول مفهوم عصر الحروب الصليبية ، كما شهدها الحماس الرومانسي للعصور الوسطى الذي يملأ صفحات كتاب «تاريخ الحروب الصليبية» تأليف ج . ف ميكود J.F.Michaud (١٨١٢ ـ ١٨٢٢) ، وفي الوقت نفسه كان لا بد للصورة الرومانسية للشرق من أن تبهت ، وتواءم هذا مع استمرار الخرق الاقتصادي والسياسي للامبراطورية العثمانية من قبل القوى الأوربية العظمى لتعطي ظهور زيادة ثابتة في المعرفة بالظروف الحقيقية التي كانت سائدة هناك ، وقد ميزت حملة نابليون على مصر في عام ١٧٩٨ نقطة تحول حاسمة في هذا المجال ، وجعلت المسلمين يعون حقيقة تفوق إحدى دول أوربا الحديثة ، وبشرت بدخول فترة الحداثة الإسلامية ، وكان التنافس بين القوى العظمى وحده الذي مكن الامبراطورية العثمانية من البقاء ، وتكونت المسألة الشرقية بشكل رئيس من المنازعات المتكررة التي أثارها تحطم الامبراطورية العثمانية ، وقد انضم إلى موقفي أوربا الرئيسين تجاه الإسلام موقف ثالث قام على الإقناع بأن التفوق المهيمن لأوربا على الشرق كان بديهياً ومطلقاً ، وقد أرست هذه النبرة كامل الإسهام الأوربي في التاريخ الإسلامي حتى الحرب العالمية الأولى وصبغته .

وكان للاتصالات مع الشرق التي أصبحت وثيقة بصورة متزايدة منذ ١٨٠٠ نتيجة أبعد من أن كميات متزايدة من مواد تاريخ الإسلام قد وجدت طريقها إلى أوربا ، وفي الوقت نفسه تحررت الدراسات الشرقية منذ الثورة الفرنسية من القيود اللاهوتية ، واستقرت دراسة اللغة العربية على قواعد نحوية صلبة ، وأسس فقه لغوية من قبل سلفستر دي ساسي عندما ظهرت الدراسات النقدية التاريخية في الحقل الذي تطلب ذلك بوساطة التحليل النقدي للمصادر لكل حدث يجب أن يفهم بفرديته قبل أن تجري أية محاولة لتقويم أهميته كحلقة في التطور التاريخي ، وكان المستشرقون مستعدين تماماً لتطبيق هذه الطريقة على التاريخ الإسلامي .

وولدت الثمار الأولى للتحليل النقدي للمصادر التاريخية في دراسة فجر الإسلام ، وقد حاول ابراهام غيجر Geiger في مقالته الممتازة المكتوبة في ١٨٣٣ أن يجيب على السؤال التالي : «ما الذي تبناه محمد من اليهودية» ؟ وقد أثار سلسلة من النظريات تعاملت كلها مع موضوع الصلات بين الإسلام والديانات الموحدة الأقدم من وجهة النظر وحيدة الجانب التي ادعت أن تعاليم «محمد» (ﷺ) كانت مستمدة كلية إما من اليهودية أو المسيحية ، ولم يكن قبل ١٩٣٠ أن استبدلت هذه النظريات بخط من البحث اعترف بأصالة النبي (ﷺ) العربي ، هذا من جانب ومن جانب آخر استفادت دراسة حياة محمد (ﷺ) بالأساس من مواد مصدرية متنامية متزايدة (ابن هشام وأجزاء من الواقدي وابن سعد والطبري إلى جانب تراجم صحابة النبي وتفاسير القرآن ومجموعات الحديث) واتبع كل واحد من مختلف كتّاب السير لدى تعامله مع هذه المواد طريقاً خاصاً به ، وقد حاول ـ على سبيل المثال ـ أوليزشبرنغر Alyosprenger بعدما تأثر بدراسة ابن خلدون ، حاول في كتابه «حياة محمد وأعماله» (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) أن يعين القوانين العامة التي تحكم أصل الإسلام وفسرها بتعابير منطقية صافية نبعت من روح الزمن وذلك على خلاف مع الفلسفة المثالية للحركة الرومانسية للتاريخ ، ومع عبادة البطل لدى كارليل ، ولئن كان قد قلل بشكل كبير تثمين البواعث الدينية للنبي محمد (ﷺ) والدور الذي شغله ، لكنه لم يسيء فهم أهمية الإسلام في تاريخ العالم ، والتأثير العميق للثقافة الإسلامية على العصور الوسطى الأوربية ، لا بل تصور أن الإسلام المعاصر سيجدد نفسه تحت تأثير أوربا ، هذا ويلاحظ من جانب آخر أن الكاتب

الاسكوتلندي السير وليم موير Muir ، مع أنه قد استمد مادة كتابه «حياة محمد وتاريخ الأسلام» (١٨٥٦ ـ ١٨٦١) من مصادر شبرنغر نفسها ، وأعاد إخراجها بموضوعية رصينة ، كان مقتنعاً (كمسيحي أرثوذكسي) أن محمداً كانَ «أداة للـ . . . . » وقد أكد أيضاً على أهمية الثقافة الإسلامية بصورة مختلفة ، كما كان يأمل أنه سيجيء الوقت الذي يتحول فيه المسلمون إلى المسيحية .

وأعطى غوستاف فيل Gustav Weil في كتابيه «تاريخ الخلافة» و «تاريخ الخلافة العباسية في مصر» (١٨٤٦ ـ ١٨٥١) (١٨٦٠ ـ ١٨٦٢) عرضاً شاملاً للتاريخ الإسلامي من سنة ٦٣٢ إلى ١٥١٧ ، قام على مصادر أصيلة ، ولكن حجم المهمة وغنى المادة (لم تمحص تماماً من ناحية فقه اللغة في حينه ولا منذ ذلك التاريخ) حال بينه وبين المعنى إلى أبعد من إعادة سرد جافة نوعاً ما لأخبار الأحداث المدونة في مادة الأصل .

وأعطى السير وليم موير ، الذي ذكر آنفاً ، دراسة لم تكن أقل اكتمالاً ورصانة عن الفترة نفسها ، أقامها على تواريخ الطبري وابن الأثير ، وتاريخ الخلفاء لفيل ، وتمثلت في كتابيه : «الخلافة ـ قيامها وتدهورها وسقوطها» (١٨٩١) و «المماليك أو أسر العبيد في مصر ١٢٦٠ ـ ١٥١٧» (١٨٩٦) وكشف الكتابان ، بنمط متحفظ ، وجهة نظر المؤلف المسيحية ، وقد حظي كلاهما بشعبية كبيرة في العالم الناطق بالإنكليزية .

وطبقت طريقة الدراسة الناقدة للمصادر التاريخية للمرة الأولى على التاريخ الأندلسي من قبل المستشرق الليدني ر . دوزي ، وكان مؤرخاً ليبرالياً معادياً لرجال الدين ، ولغوياً متمكناً لا نظير له ، وقد فند في كتابه «أبحاث في التاريخ السياسي والأدبي لاسبانيا خلال العصور الوسطى» (١٨٤٩) الجهود التي بذلها أسلافه بنقد لاذع ، ورسم فيما بعد في كتابه «تاريخ اسبانيا المسلمة» (١٨٦١) صورة لاسبانيا الأندلسية في السنوات من ٧١١ إلى ١١٢٠ ، وكسب هذا الكتاب القبول حتى في اسبانيا ، واحتل الساحة بلا منازع حتى نهاية القرن عندما بدأ المستعربون المختصون بتاريخ الأندلس والاسبان بنقد كثير من آرائه واستنتاجاته (حول دور المستعربين وانتشار اللغة الرومانسية الوطنية ، وخصائص السيد ، الخ . .) .

وكان ميكيله اماري الباحث في تاريخ صقلية المسلمة مؤرخاً ذا مرتبة أعظم حتى من دوزي ، وقد درس العربية فقط من أجل أن يصبح هو نفسه قادراً على قراءة المصادر العربية لتاريخ موطنه في المصادر ، وأفاد من الوثائق والمنحوتات والنقود والنقوش إضافة إلى النصوص الأدبية ، وقد ترعرع بروح تحررية ثورية ، فكان خصماً عنيداً للكاثوليكية السياسية ، وحقق تفهماً كبيراً لدراسة الإسلام ، الذي قدر تأثيره على الحضارة الأوربية تقديراً عالياً ، ولم يشارك الذين تنبؤوا بنهاية مبكرة للإسلام .

وحمل المؤرخون السالف ذكرهم تاريخ الإسلام السياسي إلى الطليعة ، أو على الأقل إلى مدى بعيد يمكن أخذه بعين الاعتبار ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر اهتم الدبلوماسي النمساوي فون كريمر بحضارة الإسلام فقط ، وأولاها عنايته ، واتبع في فلسفته المثالية للتاريخ ابن خلدون في عدّه الدولة ظاهرة اجتماعية تأتي إلى الوجود ، وتنمو ، وتتفسخ تبعاً لقوانينها الخاصة ، ووجد في عقائد الفرد القوى التي تعمل في السياسة والقانون والإدارة والتشريع والدين ، وفي الثقافة ، وتعقب آثار تنامي الحضارة عائداً إلى تصادم الأفكار المتعارضة ، وعزا انحطاط الحضارة (كما يمكن أن يلاحظ في العالم الإسلامي المعاصر) إلى نقص الأفكار المتصارعة ، ورسم في كتابه «تاريخ حضارة الإسلام» (١٨٦٨) لا بل أبعد كثيراً في كتابه «الثقافة الشرقية في ظل الخلفاء» (١٨٧٥ ـ ١٨٧٧) صورة للثقافة والمدنية لإسلام العصور الوسطى في زمن أوج سيطرته ، وهي صورة كانت غنية بالملاحظات الدقيقة والآراء المثيرة .

وكانت الأعمال التي درست حتى الآن قيمة فيما يتعلق بفترات خاصة ، ولكنها لم تكن وافية تماماً لتعطي أي شيء يقترب من الصورة الكاملة لتاريخ الإسلام على مدى اثني عشر قرناً ، وثلاث قارات ، وقد أصبحت هذه الحقيقة واضحة عندما حاول أوغست موللر أن يقدم التاريخ السياسي للإسلام إلى القارىء العام في مجموعة و . أونكن W.Oncken بكتاب حمل عنوان «الإسلام في الشرق والغرب» ، وسرعان ما اكتشف موللر أن ما غطي بصورة وافية في كتابات أسلافه لا يتجاوز ربع الساحة ، وأدت محاولته لملء الفراغ إلى نتيجة غير مرضية كما هو متوقع .

ولكن ما من واحد من المؤرخين المستشرقين توفرت لديه الرغبة أثناء عمله لصرف الاهتمام إلى الإسلام أو على الأقل إلى صراعاته المسلحة مع الغرب ، ولعدم إمكانية الوصول إلى المصادر العربية كانوا مقيدين بالأعداد المحدودة جداً من المنشورات السالفة آلتي قدم فيها المستعربون القلائل نتائج دراساتهم إلى دائرة أوسع من القراء ، وهكذا كان أنه حتى اليوم الحالي لا تحمل دراسة الإسلام من قبل غير المستشرقين (مع أنها ليست غلطتهم) أية علاقة بالحالة الراهنة للبحث الإسلامي ، وتقوم بقدر كبير على مواد عتيقة ، علاوة على ذلك يظهر هذا النقص بشكل أكثر وضوحاً الميول والبواعث التي عرضت في تلك الروايات ، وعلى سبيل المثال عالج ل . فون رانك L.Von Ranke ، وهو أحد آباء الدراسة النقدية للتاريخ ، الإسلام في كتابه Weltgeschichte (١٨٨١ ـ ١٨٨٨) على أنه الخصم الأعظم لأوربا المسيحية ، وقد أحبطت هجماته بوساطة مقاومة الشعوب الجرمانية الرومانية ، فهي التي حاربت الإسلام وصدت هجماته خلال الحروب الصليبية ، وأعطت رانك دراسته لعلاقـات البندقية تبصراً عميقاً في حالة الامبراطورية العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وكمؤرخ كان معنياً فقط بترسيخ الوقائع كما حدثت ، ولكن توقعاته للحياة التي اصطبغت بشدة بالبروتستانتية جعلته يرى في التفاصيل النقدية المتجمعة عمل أفكار معينة تميز كل حقبة ، وهكذا توصل ، بنظرته إلى الخلف وتفحصه لتفسخ قوى الامبراطورية العثمانية ، إلى استنتاج أن سقوط القسطنطينية كان فقط نصراً باهظ الثمن للإسلام لأن أتباعه قد عجزوا عن تحطيم روابط العصور الوسطى والتطور إلى أمم حرة .

ويعد يعقوب بوخاردت Yacob Burkdardt من أوائل من أدركوا مشكلة الانحطاط ، ولم يتفق مطلقاً مع رانك في نظرته إلى الأمور الأخرى ، ولكنه قاسمه الرأي السلبي في الإسلام ، وقد أعطى في كتابه «مقطوعات تاريخية» الذي تم تحريره من أوراقه غير المنشورة ، أو أسس على محاضراته في بازل بين (١٨٤٤ و١٨٩٣) ، تفسيراً واضحاً لكراهيته لمحمد (ﷺ) وقد أقر أولاً أن محمداً كان شخصاً أميناً ، ولكنه خلص فيما بعد إلى أنه لم يلتزم بالصدق أحياناً ، وألصق بالإسلام صفات تنقص من قدره مثل «البائس» و«الضئيل» وأعلن أن أية روحية

فيه قد استمدت فيما بعد من مصادر أخرى ، واستنتج من حظر الصور أن الإسلام معاد لجميع الفنون الجميلة ، وبالمقابل أقر بحرية أن لدى المسلمين دعامة أساسية لا تنازع في دينهم ، وهي أنهم يتمتعون بمناعة تامة ضد التحول عن دينهم مهما كانت المغريات ، ولكن بينما استنتج بشكل طبيعي أن الإنجازات العظيمة لا بد أن تصدر عن أسباب عظيمة ، رأى في حالة الإسلام فقط انتصاراً للتفاهات . وأخيراً فإن ما يستحق الملاحظة رأيه (وهو رأي يتضارب مع الأفكار التي كانت سائدة في ذلك الوقت) أن الإسلام أنقذ حياة بيزنطة ، وأن بيزنطة خضعت للإسلام فقط بعد أن أضعفها الغرب ، وأنه بهذا الانتصار أنقذ الإسلام أوربا من خطر المغول .

وكانت هناك آراء أدنى في الإسلام تمسك بها كتاب حاولوا تفسير تفوق الغرب على أسس عرقية ، وقد عاد الكونت غوبينو في كتابه «بحث في إمكانات شعوب البشرية» (١٨٥٣ ـ ١٨٥٥) إلى عمل علماء ومؤرخين فرنسيين سالفين للتأكيد أن العروق تختلف في صفاتها العقلية ، وأن أي عرق متفوق يمتزج بعرق أدنى لا بد أن يهلك ، وكان غوبينو مصدر الرأي الذي تكرر كثيراً في الكتابات الشعبية من أن الشيعة كانوا ناتج ردة فعل من الفرس «الهندو ـ أوربيين» ضد السنة بين أوساط العرب الساميين ، ومع أن هذه النظرية لم تقبل من فلهاوزن فإنها قد استمرت لتجد المؤيدين في القرن الحالي وبينهم كارادة فو Carra Vaux مؤلف Les Penseurs de L'Islam .

وتمسك ارنست رينان Ernst Renan بأفكار مشابهة لأفكار غوبينو مع أنها كانت أقل تطرفاً ، وقد عزا ، على سبيل المثال ، إلى العرب ، لا بل في الواقع إلى جميع الساميين عامة ، ميولاً خاصة تجاه الدين ، ولكنها لم تكسبهم مزية أية موهبة في الفلسفة أو علم المنطق ، وهو لم ينكر حقيقة أنه على مدى نصف الألف (تقريباً ٧٧٥ ـ ١٢٥٠ م) كان الشرق في عربة التقدم العلمي ، ولكنه نسب هذا الإنجاز إلى العلماء من غير العرب في البلاد الإسلامية التي كان العرب المسلمون الأصوليون فيها ، في هذا الوقت ، غير أقوياء بدرجة كافية لقمعهم ، وما أن أحرزت الأصولية الإسلامية قوة متفوقة في القرن الثالث عشر حتى جعلت كل تفكير مستقل متعذراً ، وهكذا سببت حالة التخلف التي سادت منذ ذلك الحين في البلاد

الإسلامية ، وجاء الرد الفوري من جمال الدين الأفغاني على رينان ، وكان الأفغاني يعيش في باريس في ذلك الوقت ، وخاطبه بأن المسلمين يجب أن لا يحرموا من الأمل في التقدم في الحضارة مثلما تحقق من قبل الأمم المسيحية في أوروبا ، وفند ودحض أيضاً تأكيد رينان أن غير العرب فقط هم الذين أسهموا في الحضارة الإسلامية ، ولكن رينان نظر إلى حقيقة أن ناقده كان منتسباً إلى أمة هندو ـ أوروبية على أنه جاء بمثابة تأكيد لنظريته العنصرية .

وكان هناك بالطبع كثير من المؤرخين الذين اتبعوا التقاليد المناهضة لرجال الدين في عهد التنور والإيمان بالمعتقدات السياسية الليبرالية ، فاعترفوا بالتفوق الثقافي والحضاري للإسلام على الغرب المسيحي في العصور الوسطى . وبين أنصار هذه الفكرة مفيد أن نذكر هانس برونز مؤرخ الـ Konigsberg الذي مضى في كتابه «تاريخ الآداب الصليبية» (١٨٩٣) إلى حد الادعاء أنه فقط بالاحتكاك مع عالم الإسلام وحضارته تعلم الغرب كيف يحرر نفسه من عبودية الكنيسة ومن عقائدها التعليمية الرومانية وحيدة الجانب ، وأصر على أن خبرات الحروب الصليبية قد احتوت على بذرة الإصلاح والنهضة للإنسانية وإيجاد الدول القومية .

وظهر مثل هذا التقدير العالي للإسلام الذي لم يكن متعارضاً مع النظرية العرقية واضحاً في مثال غوستاف لوبون الذي كان تدريبه علمياً ، إذ كان طبيباً ، وكان معنياً بشكل خاص بعلم النفس الاجتماعي ، وكان ينتمي إلى مدرسة الفكر التي كانت تعتقد بوجود خلافات عقلية بين العروق ، ولكنه كان ينظر إلى الإنسانية بعين غير منحازة للعالم الطبيعي الذي يلاحظ الفروق لكنه لا يقومّها ، والذي يعتقد ببقاء الأصلح ، فقد رسم كتابه «حضارة العرب» (١٨٨٤) صورة للحضارة الإسلامية ، وقد مرّ مرور الكرام بالتاريخ العسكري والسياسي ، وكانت لديه فكرة عالية عن أصالة وخصب الشعوب الإسلامية في الحقول العلمية والحرفية ، وأقر صراحة بأن جامعات الغرب قد عاشت لما يزيد على خمسمائة سنة على كتب جيرانهم العرب ، ورفض اتهامات العصور الوسطى ، بأن الإسلام قد انتشر بالنار والسيف ، واتخذ الموقف المعاكس بإطراء التسامح الذي عامل به العرب رعاياهم من الشعوب في الأراضي التي ضمت إلى الدولة العربية الكبرى ، وليس

مثيراً للدهشة أن كتابه وجد قبولاً واسعاً في العالم الإسلامي ، واقتبس كثيراً من قبل المسلمين المجددين ، بل إنه ترجم حتى إلى الأوردية من قبل أ . بيلغرامي A.Bilgrami .

ولم يهمل لوبون في عرضه الواسع المجال للحضارة الإسلامية قرون الانحطاط ، وظروف العالم الإسلامي المعاصر ، ولكن موجهي الدراسات الشرقية في جامعات أوروبا حولوا ، تحت لواء البحث التاريخي النقدي ، الانتباه بشكل متزايد إلى الدراسة المقتصرة على أصول الإسلام وتاريخه المبكر ، وأولت أعمال التحقيق النموذجية للمدرسة الهولندية اهتمامها في المقام الأول لنصوص عن أكثر الفترات سطوعاً للخلافة في بغداد ، وقد قدمت طبعة ليدن للطبري (١٨٧٩ ـ ١٩٠١) والأجزاء من طبعة برلين لابن سعد التي تتعلق بسيرة النبي (ﷺ) مادة غنية عن التاريخ المبكر للإسلام ، وأعطت نظرة داخلية إلى الميول والبواعث لدى مؤرخيه القدامى ، وأدت طبعة ليدن للطبري إلى عمل فلهاوزن الرائد حول التاريخ السياسي للإسلام حتى سقوط الدولة العربية في ٧٥٠ م ، وهو عمل شكل فيه نخل المصادر الوثائقية وتحليل الميول في القوى السياسية وحدة كاملة ، وكان لنقد فلهاوزن التاريخي أصول في إعجابه بالدولة القومية ، ثم إنه من جانب آخر لم يكن متعاطفاً مع الأسرة العباسية ، وفي محاضرة (انظر غ . ف أدناه Vierteljahresschrift F. Sozial - und Wirtschafts geschichte 1922) قدم رأياً مدروساً دراسة جيدة خلص فيه إلى أن أية مقارنة بين حضارة القرون الوسطى للإسلام والغرب (بخلاف الحقل التقني) لا مفر من أنها تؤيد الأخير ، وكان هذا الرأي عنده ينطبق خاصة على المحيط السياسي ، وقد ذكر عرضاً أنه لا يمكن للخلفاء المشهورين بالتأكيد الوقوف ، بالمقارنة ، في موازاة الحكام العظام في الغرب المسيحي مثل الأباطرة الألمان .

وشارك فلهاوزن رأيه في الحط من مكانة الشعوب الشرقية نولدكه ، وقد ترعرع نولدكه في تقاليد الإنسانية الجديدة بتأليهها للعصور اليونانية ـ الرومانية ، وأدى به اهتمامه بالتفاعل في العلاقات بين العالم الكلاسيكي والشرق إلى حقل الدراسات الفارسية ، ولهذا حقق من تاريخ الطبري القسم الذي تعلق بتاريخ الفرس والعرب في زمن الساسانيين ، وكان الوحيد من بين المشتركين في هذا

العمل الذي جعل قسمه من النص في متناول غير المستشرقين بترجمته ، وأدت به هذه المهمة إلى كتابة كتابه : Aufsatze Sur Persischen Geschichte (1887) وأقر في المقدمة بأن الحكم على الشعوب الشرقية - والفرس بشكل خاص - لم يكن ، مطلقاً ، إيجابياً منصفاً ، وقال : «كانت دراساتي كمستشرق بالضبط الوسيلة لزيادة إعجابي بالإغريق ، واعتقد أن الخبرة نفسها ستصيب كل من يبذل محاولة جادة بفكر مفتوح ليتعرف على طبيعة الشعوب الشرقية ، ووجد أيضاً ، أن التجديد الإسلامي غير مغر بالدرجة نفسها ، وبدا له كتاب أمير علي «روح الإسلام» الذي أثار ضجة كبيرة جداً في ١٨٩١ ضحلاً نوعاً ما ، وشعر بأنه ينبغي ألا تعلق أهمية على كتب من هذه النوعية ، وألا يتوقع أنها يمكن أن تحقق أية نتيجة عملية (انظر رسالته إلى س . هـ . بيكر C.H.Becker في كتاب الأخير دراسات إسلامية ٢/ ٥٢٠) .

وقد وجدت الطريقة النقدية التي طبقها دوزي من قبل على الفترة الأندلسية حَوَارياً بارزاً في إسبانيا في شخص فرانسسكو كوديرا - ي زيدين Francesco Codera - Y Zaidin ، وقد تولى تحقيق كتب المصادر ، ووطد أسس دراسات النميات العربية الاسبانية على قواعد منظمة ، ونشر أبحاثاً عالج فيها كثيراً من المشكلات المتعلقة بالفترة الأندلسية في اسبانيا ، دراسات اسبانية عربية استمدت طبيعتها الخاصة من موقف اسبانيا الاستثنائي على أنها البلد الأوربي الوحيد الذي واجه المشكلات التي تؤكد طبيعة السيادة الإسلامية التي دامت ثمانمائة عام وقيمتها ، وحسب قول تلميذ كوديرا وخيلفته جوليان ريبيرا - ي تاراغوا Julian Ribera - Y Tarago ، كان لاسبانيا المسيحية مهمة حضارية كبيرة أدتها في الفترة الأندلسية ، كوسيط بين أوروبا والشرق . وقد قدم نظرية أن الأندلسي كان يحب نظم الشعر الغنائي الذي شكل الأساس للزجل العربي ، وحوى مفتاح شعر التروبادور البروفنسالي ، وهي نظرية أوجدت حساسية لم تقل عن الحساسية التي أوجدها تلميذه وخليفته مغويل اسن بلاكيوس Miguel Asin Palacios في بحثه المعنون «الأثر الإسلامي على الكوميديا الإلهية» (١٩١٩) ونشأ عن كلتا النظريتين مناقشة حية بقيت واستمرت حتى اليوم الراهن ، وهي تظهر مدى قوة ردود الفعل

لدى اختصاصيي العصور الوسطى الأوروبية عندما تمس الدراسات العربية مسائل أساسية في تاريخ الفكر الغربي .

وفي حقل الدراسات الإسلامية طبق أغنز غولدزيهر Ignaz Goldziher الطرق نفسها في دراسة التاريخ ، ومثل أ . ف كريمر تجاهل النواحي السياسية ، وأوقف نفسه بشكل رئيس على التأثير الذي أحدثته الأفكار الدينية في تطوير الفكر الإسلامي ، ولكونه نشأ في الجو الليبرالي للتحرر اليهودي رفض كلاً من النظرية العرقية والفكرة الشائعة أن الإسلام كان عاجزاً عن المزيد من التطور ، وترتب على أعماله إمكان النظر في الإسلام المعاصر ، وإعلان التحديث .

ومع ظهور علم الاجتماع أحرزت دراسة الشؤون المعاصرة وضعاً مقبولاً ضمن الحقل العام للدراسات الإسلامية ، وقد بدأت هذه العملية في فرنسا ، وسرعان ما انتشرت إلى بلدان أخرى كان لها مصالح سياسية واقتصادية في الشرق الإسلامي .

ويجب الإقرار مع ذلك أنه حتى الخبراء كثيراً ما أساؤوا فهم قدرة القوى التي كانت تتحرك في التجديد والقومية الشرقية ، أو أنهم كانوا ميالين إلى المبالغة في تقدير الدور الذي يجب القيام به من قبل بلادهم في إعادة تنظيم وشيك للشرق الأدنى ، وشكل وضعاً استثنائياً بين المستشرقين الدور الذي تولاه ليون كاتياني الذي أظهر تمتعه بالنظرة الثاقبة للمؤرخ المفطور على التقويم الصحيح لعلاقة القوة بين أوروبا والشرق ، وكان قد أظهر في شبابه عبقرية في البحث التاريخي بتصميمه على إصدار حوليات الإسلام ، وهو ترجمة لغوية دقيقة للمادة المصدرية الكاملة لتاريخ الشعوب المسلمة من ٦١٢ إلى ١٥١٧ م من كل الوثائق المطبوعة والمخطوطة ، أراد أن يشكل منها صورة موحدة . ولو أن هذه المهمة التي كانت فوق استطاعة فرد واحد قد نفذت لكان لدى المستشرقين فهرس كامل لمصادر تاريخ إسلام العصور الوسطى ، زد على هذا أنه أيضاً بإمكان غير المؤرخين المستشرقين امتلاك القدرة على قراءة هذه الوثائق في ترجمة يمكن الاعتماد عليها ، ومقارنة أرائهم الخاصة مع نظريات كايتاني ، وتشكل الجزء الأعظم من هذا العمل غير المكتمل من المادة التي انتجت بالفعل من رواية عن أيام النبي (ﷺ) ، والخلفاء الأربعة الراشدين ، مع تعداد التقويم الزمني للأحداث حتى مطلع الخلافة العباسية (١٤٤ هـ) . وفي

المجلد الثالث من كتابه «دراسة في تاريخ الشرق» ، رسم صورة لمحمد (ﷺ) كرجل دولة ، وأكد على العوامل السياسية والاقتصادية على حساب (يجب الإقرار بهذا) البواعث الدينية ، وقادته بصيرته العميقة في تفاعل العلاقات بين الغرب والشرق إلى إدانة الاستعمار ، وعندما ضمت ايطاليا إليها طرابلس وبرقة أصدر تحذيراً في اطروحة بعنوان «دور الإسلام في تطور الحضارة» ضد جميع محاولات أوروبة (فرنجة) الشعوب الشرقية ، في دراسة مثيرة للصراع الذي دام قرنا بين الشرق والغرب دافع عن حق المسلمين في العيش المستقل وفق تقاليدهم الخاصة .

وكانت نتائج الحرب العالمية الأولى في أوروبا ، والتغيرات التي حدثت في البلدان الإسلامية من العمق لدرجة أن الأفكار التي كانت سائدة في أوروبا عن الإسلام قد أصبح من الضروري مراجعتها ، وقد عكست الدراسات الإسلامية في الجامعات الأوروبية هذا التغيير في بذل الاهتمام (إلى حد أكبر أو أصغر) بالعالم الإسلامي المعاصر ، وأدبه ومشكلاته الراهنة ، وتماشى هذا التحول في الاهتمامات مع الخط المتغير للتطور في الدراسات الإسلامية ، ولكن التغيرات التي مرت بها صورة الإسلام في الفكر العام خارج دوائر المستشرقين كانت أكثر جوهرية ، وكثيراً ما اقتربت من إحداث انقطاع مع المفاهيم السالفة ، وفي الختام ، إذا نظرنا إلى محاولات التفكير في الإسلام بمنظور تاريخي فربما يمكننا أن نذكر محاولات هـ . ج ويلز H.G.Wells ، وشبنغلر Spengler ، وتوينبي Toynbee .

وظل هـ . غ . ويلز في كتابه «خطوط التاريخ العامة» أقرب ما يمكن من المفاهيم القديمة للإسلام ، فوضعه ضمن نظام يتعامل مع التاريخ البشري في وحدة وراثية تاريخية ، وينتهي بحكومة عالمية فاضلة تتشكل من الأرستقراطية الفكرية للمستقبل .

وتختلف فلسفة التاريخ التي صورها أوزولد شبنغلر في كتابه Untergang des Abendlandes ، بشكل جوهري ، فهو لا يعترف بحضارة إسلامية منفصلة ، وقام تحت تأثير ميل (واسع الانتشار في البحوث الإسلامية الألمانية في ذلك الوقت) بمحاولة لاستخلاص الحضارة الإسلامية من الهيلينية الشرقية ، فجمع بين العصر الكلاسيكي المتأخر والهيلينية ، واليهودية ، والمسيحية الأولى والإيرانية مع القرون الأولى للإسلام ، أعني الفترة من نحو ٣٠٠ ق . م تقريباً إلى نحو ١٠٠٠ م وعدها

حقبة واحدة للمدنية العالية ، وسماها الفترة العربية أو عصر الحكمة ، وذلك بسبب غياب تسمية أفضل ، ووضعها في مصاف مدنية مصر القديمة ، وبابل القديمة ، والصين القديمة إلى جانب المدنيات القديمة (الحضارة الإغريقية الرومانية) ، والمدنيات الغربية (الحضارة البيزنطية) ، واتهم شبنغلر الاختصاصيين الشرقيين ببذل اهتمام زائد جداً بالحدود اللغوية ، والإخفاق في الاعتراف بأن الإحساس بحياة الحكمة (Jebensge Fubl) الذي وجد في جميع الديانات ، سواء كانت صورتها الخارجية يونانية ، أو آرامية ، أو إيرانية أو عربية ، ونسب شبنغلر إلى هذه الحكمة صورة خاصة للعالم ، وبالنسبة للرجل الحكيم : الحياة كهف ، سقفه السماء ، وقاعه الأرض ، والأرض بيت الروح ، والسماء مقر النفس ، وقد ترك الإنسان فقط مع الاسلام ، وهو التسليم لمشيئة الله ، وتتحكم خطة الله للخلاص بالتاريخ البشري بأنبيائه ومخلصيه ، ومع هذا أضاف شبنغلر إلى هذا التحليل السيكولوجي النظرية الحيوية (البيولوجية) التي ترى أن كل المدنيات تتبع المسار النموذجي نفسه الذي ينطلق من البدايات الأولى عبر مراحل النمو حتى النضج ، ثم يمر في النهاية عبر التحللٍ إلى التفسخ النهائي الذي يحمل بداخله بذور مدنية جديدة ، وحاول شبنغلر أيضاً أن يشرح حقائق التفاعل بين مدنيتين (وهي حقائق لا تتطابق مع النمو ، والازدهار ، والموت) باستعارة علمية تتحدث عن الاستحالة ، والانسلاخ الكاذب ، ويفترض أن الحكمة لمدنية حديثة تصب في القوالب المجوفة لسابقاتها الميتة كمادة معدنية تملأ قالب الزجاج (الكريستال) الغريب عنها .

وفي تضاد تام مع شبنغلر ، ولكن تحت تأثير نظريته حول تحلل المدنيات ، قام أ . ج توينبي بعد ذلك بوقت قصير بمحاولة لشرح طبيعة تاريخ العالم ، وفي حين ارتبط شكل مدنية شبنغلر بمصير الشعب الألماني ، اعتمدت نظرة توينبي للتاريخ على مصير الامبراطورية البريطانية ، فقد رفض الفكرة التي شاعت في القرن التاسع عشر وجعلت من الدولة القومية النمط الطبيعي التاريخي ، وجعل عبارة القومية والعسكرية في الدولة ـ القومية مسؤولة عن الازمات في المدنية الغربية ، وعدّ المعايير التاريخية الحاسمة هي المجتمعات الحضارية ، وإحداها الحضارة الغربية في أوروبا الغربية المسيحية ، ومستعمراتها ، ولكن في حين عدّ

شبنغلر الحضارة بنية بيولوجية (حيوية) يمكن أن تتميز بحكمة خاصة ، بها ازدهار ونضج وتحلل حسب قوانين طبيعية ثابتة ، اعتقد توينبي أن كل حضارة قائمة على إنجازات مجتمع توحد من أجل العمل العمل المشترك، وأنه لا تقرر الميلاد والنمو والاختفاء للمدنية القوانين البيولوجية ، أو العرق ، أو المحيط بل تتقرر في النهاية نتيجة للعمل الحر للإرادة والأفراد الذين يكون فيهم الاندفاع المفعم بالحيوية هو العامل الأقوى ، والذين بمواهبهم العظيمة يكونون قادرين على إنقاذ المجتمع من زمن الأزمة ، وإن مجتمعاً حضارياً له هذه الطبيعة لا يزدهر من خلال مجرد التوسع الجغرافي ، أو من خلال التقدم التقني ، وفي أوقات الأزمات التكثيف هو فقط الذي يعطي القوة والتماسك ورباطة الجأش من أجل التغلب على الصعوبات الخارجية ، وبدون ذلك تؤدي الأزمة للانهيار والتفسخ والى الصراع بين الأقلية الحاكمة ورعاياها الذين يدعون في الوطن : البروليتاريا الداخلية ، وفي الخارج البروليتاريا الخارجية ، من الناس البدائيين ضمن إطار السيطرة الحضارية ، ويعقب هذا الفوضى ، تتخللها فترات من العنف ، وفترات من الهدوء ، وكثيراً ما تسعى الأقلية الحاكمة لإيجاد دولة عالمية ذات فلسفة سياسية محددة مع العناصر الإدارية الضرورية ، أو أن يبني جند البروليتاريا الخارجية دولة عالمية ، أو أن تستولي البروليتاريا الداخلية على ديانة مدنية أجنبية وتحولها إلى ديانة عالمية ، لقد ألح توينبي بشكل يتعارض مع شبنغلر على حقيقة أن المجتمعات الحضارية تنسج معاً بديانات متفوقة ، وبكنائس عالمية ، وبفلسفات وبدول عالمية ، وأولى في تحليل تفسخ الحضارة اهتماماً خاصاً للصراعات ضمن المجتمع نفسه في أيام الأزمات ، واستنتج أن التحرر يلتمس دوماً من خلال مخلّص ، وفي الأزمة الراهنة للحضارة الغربية علق آماله على الكنيسة الكاثوليكية ، التي ، خلافاً للكنيسة البروتستنتية ، ليس لها روابط قومية .

ولم يعدّ توينبي الإسلام حضارة مستقلة ، وبالنسبة له ، كانت شبه جزيرة العرب في القرنين السادس والسابع ماتزال إقليمياً في الإمبراطورية الرومانية سياسياً وثقافياً ، ومن ثم فإنه عامل عرب ما قبل الإسلام على أنهم تابعون للبروليتاريا الخارجية ، التي ، طبقاً لنظريته عن تفسخ الحضارات ، وقعت بشكل لا يمكن تفاديه في صراع مع الامبراطورية الرومانية ، والصورة التي كان على هذا التفاعل

أن يتخذها قد قررها محمد (ﷺ) الذي رأى توينبي في حياته ـ التقدم من التفكير في الدوافع إلى العمل النشيط ـ مثالاً كلاسيكياً لنظريته في أن الفرد الخلاق يجمع قواه في موقع منعزل قبل أن يدخل الحياة العامة ، واعتقد توينبي أن أساس أركان رسالة محمد (ﷺ) يقوم على التوحيد ، والنظرية الاسلامية للدولة ، وقد عزا أصولهما معاً إلى المثل أو النموذج الذي قدمته الامبراطورية الرومانية إلى مراقب عربي ، في ديانتها ومؤسساتها السياسية ، واعتبر توينبي انتشار الإسلام من المحيط الأطلسي إلى وسط آسيا هجوماً على المسيحية نجح فقط إلى الحد الذي تعلق ببيزنطة ، وأدى في شبه الجزيرة الايبيرية الى قيام هجوم مضاد لم يقذف فقط بالمسلمين إلى شمالي أفريقيا ، بل أدى أيضاً إلى قيام الإسبان والبرتغاليين برحلات الاكتشاف لكل أجزاء الدنيا ، ومثله مثل النقاد المسيحيين الآخرين ، صادف توينبي صعوبة في إيجاد نقاط ارتكاز له في النظرية الإسلامية ، وحين اقترض من خبرات الكنيسة المسيحية مبدأ أن الدين الذي يبحث عن حماية الدولة أو يخضع نفسه للدولة سوف يفقد في المقابل أكثر بكثير مما يمكنه أن يكسبه ، وجد نفسه مضطراً إلى الإقرار مع ذلك بأن تاريخ الإسلام يتعارض مع هذا المبدأ ، وكنتيجة طبيعية لهذه النظرية الأساسية وصف الخلافة العباسية بأنها إعادة بناء للدولة العالمية للشرق الأدنى التي دمرها الاسكندر الاكبر ، (وخلافاً لشبنغلر) اعتبر انتصار الإسلام قد دمر الهيلينية نهائياً ، ومحصلة أخرى تكلم عن «الكنيسة الشاملة للإسلام» التي استمدت منها في رأيه الحضارتان العربية والإيرانية ، وسيكون من الظلم ، لوم توينبي على نظريته ، لأن العلاقة بين السياسة والدين في الإسلام هي في الحقيقة مشكلة لم يصل الدارسون الإسلاميون أنفسهم إلى اتفاق حولها بعد .

وهكذا لابد لعرضنا من أن يتوقف مع محصلة محزنة هي إن عدم وجود ما يكفي من الأعمال التمهيدية فيما قام به المستشرقون مسؤول بشكل رئيس عن حقيقة أنه مايزال تصوير الإسلام في الكتابات التاريخية الغربية كظاهرة تاريخية ، بعيداً عن الكمال الذي يرغب فيه المستشرقون بحماس أكبر بكثير مما لدى الآخرين .

٢٧ـ بعض الملاحظات حول تاريخ الخلفاء لڤيل
د . م . دنلوب
محاضر في التاريخ الاسلامي في جامعة كمبردج

لقد حدث في هيدلبرغ في منتصف شباط ١٨٤٦ أن كتب ڤيل Weil مقدمة المجلد الأول من تاريخه عن الخلفاء : فمن هو الدكتور ڤيل الذي حاول للمرة الأولى ، أن يتولى المهمة الهائلة لعرض تاريخ خلفاء محمد (ﷺ) وتاريخ الخلافة ، وهي مؤسسة حجمها الهائل في التاريخ الهام يساوي حجم أية كتلة أخرى ، والتي يمكن أن يقارن بها في الزمن الذي ازدهرت فيها الامبراطورية الرومانية فقط ، وربما البابوية ، وكان الدكتور ڤيل قد عاش قبل أن يبدأ بكتابة تاريخه عن الخلفاء حياة هامة ورائعة وفريدة من بعض النواحي ، وضعته بلا شك في الموضع الذي مكّنه من كتابته ، ويمكن الوقوف على تفاصيل هذه الحياة في دائرة المعارف اليهودية ، لأن ڤيل انحدر من أسرة يهودية ، وربما يمكن القول باطمئنان إن قصة صعوباته القديمة ونجاحه النهائي لم يكن الأقل أهمية بين التراجم التي تقدم على صفحات هذا العمل الرائع ، وكان ڤيل أيضاً معروفاً لمعاصرنا نجيب العقيقي ، عندما ألف كتابه الهام حول المستشرقين الأوروبيين ، (القاهرة ١٩٤٧) ، ولكن من أجل رواية كاملة عن حياة مؤلف تاريخ الخلفاء من الطبيعي أن يتحول المرء أكثر إلى كتاب آخر ، ولقد استخرجت ما يلي عن جوستاف ڤيل من دائرة المعارف اليهودية : ولد في سلزبورغ بادن Baden Sulzburg في ٢٥ نيسان ١٨٠٨ ، وتوفي في فريبورغ ـ امبرسغو Freiburg – um – Breisgau في ٢٩ آب ١٨٨٩ ، عن سن عالية بلغت واحداً وثمانين عاماً ، ولأنه كان مكرساً للحاخامية فقد تعلم العبرية

إضافة إلى الألمانية والفرنسية ، وتلقى تعليماً في اللاتينية من كاهن من مدينة مسقط رأسه ، وذهب وهو في الثانية عشر من عمره ، إلى متز حيث كان جده حبراً في دراسة التلمود وأولى هذا العمل أهمية ضئيلة ، وهجر مقصده الأصلي وهو دخول مهنة لاهوتية فدخل في جامعة هيدلبرغ ، وأوقف نفسه على دراسة فقه اللغة والتاريخ ، وفي الوقت نفسه درس العربية على أمبريت Umbreit ، ومع أنه كان بلا موارد ، ذهب مع ذلك للدراسة على دي ساسي De Saey في باريس في ١٨٣٠ ، ومن هناك تبع الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر ، وعمل كمراسل في الجزائر لمجلة أوغسبورغ العالمية ، وقد استقال من وظيفته هذه في كانون الثاني ١٨٣١ ، ورحل إلى القاهرة حيث عين معلماً للغة الفرنسية في مدرسة الطب المصرية في أبي زعبل (وإلى هذا يمكن أن يضاف من قبل نجيب العقيقي الذي من الواضح أنه كانت له مصادره الخاصة حول ڤيل ، أنه عندما كان في باريس درس السريانية على كاتريمير Cuatremere ، وتبادل دروس الألمانية مع دروس العربية من العالم الطبيب الدكتور بيرون Perron ، وفي القاهرة أفاد من الفرصة ليدرس فقه اللغة العربية مع محمد إياد الطنطاوي وأحمد التونسي ، وهناك أيضاً تعلم الفارسية الحديثة والتركية ، وباستثناء انقطاع قصير نجم عن زيارة إلى أوروبا ، بقي في مصر حتى آذار ١٨٣٥ . وعاد ڤيل إلى أوروبا عن طريق القسطنطينية حيث بقي لبعض الوقت متابعاً الدراسات التركية . وفي ألمانيا التمس الإذن لتثبيت نفسه كخبير إداري خاص في جامعة هايدلبرغ ، وحصل على مطلبه هذا بعد صعوبات كبيرة ، وهاجم ڤيل جوزيف ڤون هامر- برغستول في ترجمة أطواق الذهب للزمخشري ، التي نشرت في شتوتغارت في (١٨٣٦) ، ولأن كلية هايدلبرغ كانت عاجزة عن الحكم في الأمر ، ترددت في تعيينه خبيراً بسبب سمعة هامر برغستول الرفيعة ، وقد فتحت توصيات دي ساسي الطريق أمامه ، الذي كان مع ذلك مقدراً له أن يبقى وعراً قاسياً ، وكان يكسب معيشته كمساعد أمين المكتبة ، وعين أميناً للمكتبة في ١٨٥٨ وهو المنصب الذي احتفظ به حتى ١٨٦١ ، وفي تلك السنة أصبح أستاذاً .

إن عمل ڤيل الأكثر شمولاً هو تاريخ الخلفاء في خمسة مجلدات (١٨٤٦ ـ ١٨٦٢) ، وفي الواقع تدبر محكم للمواد الأصيلة للمؤرخين المسلمين ،

وكان قد درس القسم الأعظم منها في المخطوطات ، وعالج أيضاً شؤون الخلافتين المصرية والأندلسية . وقد تبع ذلك كتاب : «موجز تاريخ الإسلام في عصر النبي (ﷺ) حتى السلطان سليم الأول» الذي نشر في شتوتغارت في ١٨٦٦ كمدخل لتاريخ العصور الوسطى للشرق ، وقد ظهر عدد من أعماله في وقت أبكر ، وأبرزها «محمد النبي» في ١٨٤٣ ، وبعد ١٨٦٦ قصر ڤيل نشاطه الأدبي على نشر مراجعاته في «مجلة هايدلبرغ» و«مجلة دراسات أدبية» . وقد منح أوسمة من دول مختلفة ، بما في ذلك بادن وبروسيا ، وذهبت مجموعته من المخطوطات العربية بعد وفاته إلى جامعة هايدلبرغ منحة من أولاده . وفي زمانه كانت جامعة هايدلبرغ عملياً بدون مخطوطات شرقية ، كما لوحظ فيما سلف من قبل مراجع فرنسي لتاريخ الخلفاء .

وأود أن ألفت انتباهكم الآن إلى بعض المراجعات المعاصرة لكتاب ڤيل ، وهنا على الأقل نحصل على نوع ما من الانطباع عن الكيفية التي أدهش بها تاريخ الخلفاء الأشخاص المطلعين عند أول ظهور له ، وفي فرنسا خاصة ، على ما يبدو جذب الكتاب الانتباه ، ويبدو أن السبب هو أن الرأي العام المثقف في فرنسا ، الذي ما زال تحت تأثير دي ساسي - أول ، وفي بعض النواحي ، أعظم أوروبي مستعرب حديث - كان متحفزاً من قبل لاستقبال عمل من هذا النوع ، ودعوني أولاً اقتبس كلمات جولز موهل Jules Mohl البليغة ، وهو مثل ڤيل من أصل ألماني جذبته إلى فرنسا سمعة المستشرقين الباريسيين في ذلك الوقت ، واستوطن في فرنسا ، وأصبح سكرتيراً للجمعية الآسيوية ، وقد كتب موهل في تموز ١٨٤٦ بعد ظهور المجلد الأول من تاريخ ڤيل خطاباً إلى الجمعية جاء فيه :

«نشر السيد ڤيل الأستاذ في هايدلبرغ لتوه المجلد الأول لتاريخ الخلفاء ، الذي يشكل استمراراً لكتابه عن حياة محمد (ﷺ) ويعد هذا الموضوع أحد المواضيع الأكثر أهمية التي يمكن أن يختارها مؤرخ ، لأنه يتناول امتداد الامبراطورية العربية ، وتدمير الحضارات القديمة ، وتغيير الظروف الاجتماعية للقسم الأكثر صقلاً في العالم ، الأمر الذي جعل من تشكيل الخلافة واحداً من أعظم الأحداث في التاريخ ، وقد توقفت الخلافة نفسها عن الوجود منذ ستة قرون ، ولكن القوى الحضارية التي احتوتها كانت قوية إلى حد أن نتائج هذه الحركة التي أثرت على

الشرق ما زالت باقية ، وهكذا فإن المهمة التي أخذها مؤرخ الخلافة على عاتقه صعبة في الواقع بالنسبة لضخامة موضوعه ، لأن المسألة بالنسبة له ليست قاصرة على إعطاء وصف للفتوحات العربية ، ورواية تاريخ أمرائهم خلال ستة قرون ، لقد كان عليه أيضاً أن يتعامل مع أصل مدنية كاملة وتطورها ، ومع التغيرات التي أفرزتها هذه الحضارة بين أمم عديدة مختلفة في العرق والخصائص ، والتي تجاوبت بدورها بطرق مختلفة مع فاتحيها ، وكان عليه أن يتعامل مع النفوذ الذي مارسته مبادىء تصنيف الإدارة الجديدة على ظروف الأقاليم ، وتكوين الممتلكات ، والحكومات المحلية ، والتشريع ، وفي الواقع ، على كل مصالح الجنس البشري . إن الخلافة حقيقة فريدة في التاريخ ، ويمكن مقارنتها ، فقط من وجهة نظر القوى الروحية ، بالبابوية .

وليس هناك بالتأكيد نقص في المواد لكتابه تاريخها ، هناك التواريخ العامة ، وتواريخ الأقاليم والمدن وتراجم الرجال اللامعين ، ودواوين الشعراء وشروحها ومجموعات القوانين والقرارات القانونية ، والبحوث الدينية والعلمية ، وباختصار أسهمت ما زخرت به أطراف الأدب العربي والفارسي من أخبار الوقائع ، مباشرة أو بشكل غير مباشر ، في هذا التاريخ ، وقد عولج من قبل عدد معين من أهم النقاط بالتفصيل ، وربما لا يمضي شهر دون أن يظهر في أوروبا عمل يضيف شيئاً إلى المواد التي جرى تصنيفها ، ولكن على الرغم من كل هذه الجهود ، فإن جزءاً صغيراً فقط من مصادر تاريخ الخلفاء قد سلط عليه الضوء ، والباقي مبعثر في مكتبات أوروبا والشرق ، وفي هذه الحالة وجد السيد ڤيل موضوعه وكانت لديه الشجاعة لمواجهته . . . . .

ويحتوي المجلد الأول من كتابه تاريخ الخلافة من وفاة محمد (ﷺ) حتى نهاية حكم الأسرة الأموية ، ويضم هذا المجلد التاريخ السياسي فقط بالمعنى الكامل ، حول الفترة ، واحتفظ المؤلف بشروح تالية من كل نوع فيما يتعلق بالحالة الاجتماعية للبلاد ، وسرده بسيط ، فلقد حفظ بعناية الكلمات الفعلية للأشخاص الذين روى أعمالهم ، وبين في حواشي الصفحات المناقشات النقدية ، التي تثيرها النقاط التي يداخلها الشك ، وستظهر المتابعة فيما إذا كان العلم في مرحلته الحالية متقدماً إلى درجة كافية بالفعل ليسمح بتألف تاريخ للخلافة مثلما يريد المرء ، وعلى

أي حال يمكن للمرء أن يرى مما ظهر بالفعل أن عمل السيد ڤيل هو عمل جدير بالتقدير بدون شك» .

وعندما نشر في ١٨٤٨ المجلد الثاني من تاريخ الخلفاء تمّ الترحيب به من قبل موهل كما يلي (آب من العام نفسه) ، بالكلام عن الأعمال الجديدة في التاريخ العربي في ظل الإسلام :

«يجب أن يذكر أولاً في مجال تكملة تاريخ الخلفاء من قبل السيد ڤيل من هايدلبرغ الذي ظهر مجلده الثاني لتوه أن ڤيل قد استمد المواد لعمله إلى مدى بعيد من مخطوطات المكتبات العامة في باريس ، وليدن ، وغوطا التي عهد بها إليه بأكثر الطرق حرية ، وكان الاتصال بها متعذراً منذ عشرين عاماً ، وهذا يشهد بقوة على التقدم الذي أحرزته دولة الأدب في زماننا ، ويعرف المرء الحرص الغريب الذي كانت تحفظ به المخطوطات في المكتبات العامة من قبل ، لقد كانت تثبت بالسلاسل ، كما في فلورنسا ، وكانت الفهارس تخبأ ، أو ينكر مجرد وجودها ، كما في روما والاسكوريال ، وتقريباً في كل مكان كانت الإعارة خارج البلاد مرفوضة ، وكانت تعامل تقريباً كما لو كانت مخلفات أثرية بدلاً من أن تكون وسائل للبحث ، أما اليوم فإن معظم هذه الحواجز قد سقطت ، وحتى في المكتبات التي كانت الاستعارات الخارجية فيها لم تحدث بعد كما تقريباً في كل مكتبات انكلترا ، لم تعد تلك المخاوف غير المعقولة والمقيتة هي التي تمنعها ، بل القوانين القديمة التي سوف تختفي أمام روح العصر .

إن موضوع بحث السيد ڤيل هو التاريخ السياسي للخلافة في الشرق ، ويمتد المجلد الثاني من سقوط الأمويين إلى وفاة الخليفة الثاني والعشرين للأسرة العباسية ، لقد كانت الحقبة الأعظم روعة وأبهة خارجية للدولة العربية ، عندما كان سلطانهم ، وفي الوقت نفسه ، أدبهم وثقافتهم الفكرية قد بلغت نقطة الأوج فيها ، ولكن عندما كانت أسباب الانحدار السرية بالفعل قد بدأت تكشف عن نفسها ، وتؤدي إلى الارتداد في الأقاليم البعيدة عن بغداد ، وتتبع السيد ڤيل بشكل مفصل تاريخ كل واحدة من هذه الثورات ، ولكن بعد ذلك ، لضمان وحدة مخططه ، ترك فوراً تلك الدول الجديدة لنفسها ، بعد أن نالت حريتها ، وشغل نفسه فقط بها مرة أخرى في علاقتها بالخلافة ، وحكمه في هذا راسخ

بشكل تام ، لأن معظم هذه الدول كانت تشارك خلافة بغداد أصولها فقط ، مع تماثل أساسي في تركيبها ، ولكن مصيرها واستمرارها توقف تماماً على ظروف بعيدة عن الخلافة» .

وبالإضافة إلى هذا التقدير من قبل جولز موهل ظهر أيضاً في المجلة الآسيوية لعام ١٨٤٨ ملاحظة أخرى على مجلد ڤيل الثاني ، بلا توقيع ، حوت نقداً أكثر حدة نوعاً ما ، وتركزت الملاحظات الناقدة مجهولة الكاتب حول ما فات انتباه موهل ، من أن ڤيل قد أفاد من المخطوطات العربية للطبري في المكتبة الملكية في برلين ، وكلمات الناقد المترجمة إلى الانكليزية هي كما يلي :

«لقد أفاده النص العربي للطبري كمرشد رئيس حتى حكم المهدي ، وهو مدين لمؤلفه بالكشف الذي يبحث المرء عنه عبثاً في التواريخ المتأخرة ، والذي يلقى ضوءاً جديداً على الوسائل الفاسدة التي استخدمها العباسيون للحصول على السلطة ، وتبرهن مراسلات الخليفة المنصور مع أبي مسلم ومع العلوي محمد بن الحسن أن العباسيين ضحوا في سبيل رغبتهم في الحكم ليس فقط بالقومية العربية ، بل أيضاً بالمبادىء الأساسية للإسلام» .

وبات بالنسبة للمراسلات التي أبرزها ڤيل هكذا ، والتي اختارها موضوعاً في مجلده الثاني ، من الممكن أن تقرأ الآن ، وهي في متناول اليد ، في الأصل ، في طبعة ليدن للطبري ، وامتدح الناقد المجهول الاستخدام النقدي من قبل ڤيل لمصادره ، وأبدى الملاحظة نفسها مثل موهل حول نقص المعلومات المتعلقة بدول معينة بعد تأسيسها ، حتى تعود ثانية لتدور في فلك تلك الخلافة ، ولكنه لاحظ أن المرء يجد هنا تاريخاً كاملاً للطاهريين والصفارين ، والطولونيين ، والاخشيديين ، والساجيين ، والحمدانيين ، مع جزء من دولة السامانيين ، والدولة الديلمية .

ويبدو محتملاً أن كاتب تلك الملاحظات كان المستعرب الفرنسي جوزف رينو ، فلقد كان رينو في كل الأحوال مسؤولاً بشكل واضح عن بعض الملاحظات على مجلد ڤيل الثالث ، التي ظهرت في «المجلة الآسيوية» في حزيران ١٨٥١ ، تحت توقيع ر . د وجاء فيها قوله :

«هنا نهاية العمل الهام الذي شرع بنشره السيد ڤيل منذ بضع سنوات مضت . . . يمتد هذا المجلد حتى الاستيلاء على بغداد من قبل التتار في ١٢٥٨ ،

والانهيار التام للخلافة الشرقية . . . وبما أن السيد ڤيل أراد أن يعطي الوحدة للموضوع في بحثه فإنه كان مضطراً لأن يلخص في خطوط عريضة صورة الأحداث التي وقعت في العصور الوسطى في القسم الغربي للدولة الإسلامية ، الدولة التي ضمت في حينه قسماً عظيماً من العالم المعروف . وتكلم السيد ڤيل في هذا المجلد بشكل خاص عن الأحداث ذات الأهمية في بغداد وفي بلاد الرافدين القديمة ، إضافة إلى ما أشير إليه بهيمنة أمراء البويهيين ، والسلاجقة ، والخوارزميين . والجزء الذي اهتم بعدم نسيانه ، أعني معارك الحروب الصليبية التي شارك فيها أسلافنا في فلسطين وسورية والجزيرة ، والتي تردد صداها في الشرق كما في الغرب . . . وكما وجد المرء من قبل فرصة في ملاحظة أن السيد ڤيل قد استمد من المصادر ، نضيف أنه بأسفاره حاز على معرفة شخصية بمصر وسورية ، ولتأليف كتابه رجع إلى مجموعات المخطوطات الشرقية في باريس ، وليدن ، وغوطا ، وبعض هذه المجلدات قد نقلت إليه حتى إلى هايدلبرغ» .

وقد رحب موهل من جانبه بالمجلد الثالث بأسلوبه المصقول قائلاً :

«لقد نشر السيد ڤيل الأستاذ في هايدلبرغ مجلده الثالث والأخير من تاريخه عن الخلفاء الذي عالج فيه القرون الثلاثة الأخيرة من حياة تلك الدولة العظيمة ، وصراعاتها الداخلية ، وخرابها . إنه أول تاريخ كامل للخلافة ، كتب وفق متطلبات النقد الأوروبية ، وألف من المصادر الأصلية ، لأن عمل برايس العظيم Price (أعني الميجور داڤيد برايس) «التأمل الميقاتي في الأحداث أو مذكرات الأحداث الرئيسية للتاريخ المحمدي» في أربع مجلدات (لندن ١٨٠٠ ـ ١٨٢١) هو جمع فقط ، في حين أن عمل ڤيل هو تاريخ سياسي للخلافة ، حيث عورضت روايات المؤلفين ببعضها ، ونوقشت الحقائق ، وذكرت المستندات» .

ثم عاد موهل إلى نقده السالف بقوله :

«إن الحاجة لتركيز تلك الحقائق الكثيرة في حيز ضيق قد أجبرت السيد ڤيل على تقييد نفسه بشكل مقتصر تقريباً على الجانب السياسي من الخلافة ، ألا يجب أن نأمل في أن يتحفنا بالجانب الاجتماعي لتلك الدولة» ؟

لا بد أن تقدير ڤيل لاطراء مواطنه العالم قد تأثر بالملاحظة التي قدم له بها ، لأن موهل قد استهل ملاحظته بقوله : «إنه على الرغم من التقدم الذي أحرزه

التاريخ العربي والذي ربما كان يبدو خياليا منذ عشرين عاماً ، ما يزال بعيد الصلة عن الوفاء بالمتطلبات الفعلية للعلم» ، وقد اجتمع هذا مع الملاحظة المتحفظة حول تاريخ ڤيل للخلفاء بأنه كما يقال كان حصراً تاريخاً سياسياً ، ولا شك أن هذا يوحي بشيء من النقد .

وقبل التقدم إلى الأفكار المتأخرة حول العمل ، التي سنشتغل بها بعد قليل ، لعله من المهم أن نعرف ما رآه ڤيل نفسه حول تاريخه ، وأن نرى إذا أمكن كيف تطورت أفكاره هو بالذات ، وإنه لمن الواضح تماماً أنه عدّ عمله عملاً رائداً ، فقد قال : «لدي هنا ، كما في كل عمل بلا أسلاف نقدية ، ومستمد من مصادر مخطوطة ، روايات لكل الحقائق الجديدة مغطاة بالحواشي» ولم يأبه ڤيل بكتاب برايس «التأمل الميقاتي» وفي الحقيقة ذكر فقط بين كل الأعمال السالفة ، بصورة عرضية كتاب «تاريخ الخلافة في تواريخ عصرها» تأليف غ . فلوجل G.Flugel ، وكانت جدارة فلوجل كمحقق للفهرست وأشياء أخرى مشهورة ، ولكن ڤيل كان ، بلا شك ، محقاً في كلامه عن روايته للتاريخ العربي في ظل الخلافة ، كما لو كان بغير أهمية خاصة ، وحتى لو حوى أخطاء كثيرة .

لقد كانت مصاعب المهمة التي كانت قائمة أمامه حية في فكر ڤيل ، كما قد تكون في فكر أي إنسان يقترح كتابة تاريخ الخلفاء ، وعن هذا كتب يقول : «حتى في الفترة التي تناولها المجلد الأول كثيراً ما كان من الصعب جداً انتقاء المادة نقدياً ونخلها ، لأنها كانت مشوهة بفعل الخيال الشرقي ، والأصولية الإسلامية والانحياز السياسي ، ولانعدام الحقائق التاريخية المجردة ، وحتى لو أن مترجم الطبري (البلعمي) الذي اتخذ نموذجاً يحتذى من قبل جميع المؤرخين الفرس المتأخرين تقريباً ، غامر ، كما يمكن أنه يرى من عدد من الفقرات المبينة في حواشي المجلد الراهن ، ليس فقط بترك الكثير مما بدا له غير أساسي ولا يتوافق مع أسلوبه ، لا بل حتى لو أقدم على اتهام مصدره بالزيف فعلياً ، ما الذي يمكن توقعه من مؤرخين مستقلين ممن لم يقعوا تحت أية سيطرة ؟ لقد ألقى السنة قناعاً كثيفاً على جميع العيوب [كذا] التي التصقت بالخلفاء الأربعة الأوائل وبالصحابة القدامى وأقارب النبي ، وزين الشيعة الإمام علي بشكل خاص مع سلالته بكل الفضائل التي يمكن تخيلها ، وأجهد كل المنتسبين إلى البيت العباسي أنفسهم

لتقديم الأمويين لنا على أنهم أكثر الناس فساداً ، وقدر أتقياء المسلمين من كل طرف الخلفاء فقط حسب درجة ورعهم ، حتى إنه يمكن فقط بالمقارنة بين مختلف المصادر ، والإفادة من الضعف فيها ، ومن عدم البراعة . التي من خلالها كثيراً ما يضللون أنفسهم ، الحصول على قاعدة تاريخية مؤكدة» ، وأكد ڤيل في مقدمة مجلده الثاني النقطة المتعلقة بانفصال الأقاليم النائية عن الخلافة لتكوين دول مستقلة ، وإلى أي مدى سيمضي في التعامل مع تاريخ هذه الدول ، التي كما رأينا ، قد شدت اهتمام النقاد في فرنسا ، ومضى ڤيل بالقول : «إن المجلد الثاني يختلف عن الأول أيضاً بأن الأدب التاريخي قد أخذ بشكل خاص في الحسبان» . وقال : «إن البدايات الأولى للأدب المكتوب في عهد الأمويين نادراً ما اتصلت بالتاريخ السياسي ، الذي شكل الموضوع الرئيس للمجلد الأول ، وفي عصر العباسيين من جانب آخر ، وبمساعدة المعارف اليونانية والفارسية ، اتخذت دراسات العرب صفة علمية ، وأدبية بالمعنى الكلي للكلمة ، وبدأت تتطور وتتسع بقدر اهتمامات الناس ، زد على أنها تطورت في ارتباط وثيق مع الأحداث السياسية وكثيراً ما عكست سياسة الخلفاء أنفسهم» ، ولم يكن ڤيل ، كما نرى ، راغباً أو قادراً على تتبع اقتراح أحد نقاده ، والتعامل بتوسع مع الظروف الاجتماعية ، ولكنه لطف على الأقل الصبغة المحصورة تقريباً في السياسية شبه التامة للتاريخ في المجلد الأول ، ليسمح بقدر هام حول الأدب ، وقدم في مجلده الثالث ، ملحقاً من عشرين صفحة حول تقدم الأدب العربي منذ منتصف القرن الرابع للهجرة ، أي منذ وفاة المتوكل وما بعد ، «عندما» ، كما قال : «أصبح النشاط الأدبي منفصلاً أكثر فأكثر عن السلطة المركزية» ومن الواضح أن أهمية ذلك تكمن في أن تاريخه تابع بعد المجلد الثاني خاصته الأصلية كسجل للأحداث السياسية الأساسية في جوهره ، وكان ڤيل كعالم حي الضمير ، دقيقاً في تسمية مصادره المخطوطة ، وفحص تلك المصادر المخطوطة هو عمل بنّاء :

(١) تبدأ القائمة التي في مجلده الأول لعام ١٨٤٦ «بذخيرة العلوم وبنتيجة الفهوم» للبكري ، الصوفي (بروكلمان ، ٢/٣٣٤) وهو كاتب متأخر (توفي في ٩٣٢/١٥٤٧) ومن غير المحتمل أن يذكره أحد في وقتنا الحاضر كمصدر معتمد للأيام الأولى للخلافة ، وقد استخدم ڤيل مخطوط غوطا (١٥٧٨) ، وهو على

ما يبدو الوحيد ، وقد يقارن المرء بهذا العمل «محاضرات الأبرار» ، لصوفي آخر ، هو محيي الدين بن العربي الشهير (توفي ٦٣٨/١٢٤٠) ، الذي يحتوي على قدر هام من التاريخ ، بما في ذلك روايات قصيرة حول حكم معظم الخلفاء ومواد أخرى تتعلق بالتاريخ المبكر للإسلام ، ولكن من المشكوك فيه جداً إذا كانت «محاضرات الأبرار» مما يعتمد عليه ، وربما يغامر المرء بتخمين أن الشيء نفسه ينطبق على ذخيرة العلوم .

(٢) وكان المصدر الثاني المعتمد في قائمة مخطوطات ڤيل هو «تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس» لحسين بن محمد بن الحسن الدياربكري الذي يفاد منه في صورة مخطوط غوطا (٣٢٦) ، وهناك نسخ عديدة في المتحف البريطاني وواحدة في كمبردج ، ورأيت بنفسي نسخة أخرى في مسجد الفاتح في استانبول(*)، والدياربكري (بروكلمان ٢/٣٨١) ما يزال متأخراً عن البكري المصدر الأول تسمية من قبل ڤيل ، حيث أنه توفي في ٩٩٠/١٥٨٢ وكتابه «تاريخ الخميس» الذي يعطي رواية مفصلة عن حياة محمد (ﷺ) اعتماداً على ابن هشام ، ورواية عن الخلفاء حتى السلطان العثماني مراد ليس بأية وسيلة الأصل الذي نريد أن نعتمده اليوم .

٣ ـ ومخطوط ڤيل الثالث الذي ذكره هو «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ، الذي يوجد منه الآن طبعات مختلفة وترجمة انكليزية للميجر هـ .س . جاريت H.S.Jarret (كلكتا ١٨٨١) والسيوطي أيضا متأخر جداً (٨٤٩/١٤٤٥ ـ ٩١١/١٥٠٥) ، ومع أنه كان حسن الاطلاع ، يندر أن يعد أكثر من مستند فرعي ، وقد استخدم ڤيل مخطوط غوطا(٣٢١) .

٤ ـ وكان مرجعه الرابع مخطوط باريس للمسعودي ، «مروج الذهب» (وكان يحمل في حينه رقم ١٨١٥) .

٥ ـ ومخطوطه الخامس كان . «تاريخ الإسلام» للذهبي مجلد واحد من المكتبة الملكية في باريس ، وربما كان هو الذي يحمل الآن رقم ١٨٨٠ . ولكن رقمه في حينه كان ٦٢٦ ، وان أهمية مؤلفات التراجم العظيمة للذهبي مشهورة

★ ـ طبع هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٢٨٣ هـ/١٨٦٦م .

الآن ، وقد يكون ڤيل الأول أو أحد الأوائل ممن استخدم تاريخ الذهبي الذي رتب من قبل مؤلفه الى عقود زمنية (طبقات) أعطيت ضمنها تراجم الشخصيات البارزة التي توفيت خلال الفترة ، وقد امتد حتى عام ٧٠٠هـ ، أي حوى سبعين طبقة ، وقد بقي هذا الكتاب لسوء الحظ في حالة مبعثرة ، وربما كان غير مكتمل ، ويمكن مشاهدة التفاصيل في بروكلمان «تاريخ الأدب العربي» : ٢/٤٦ ـ ٤٧ . ودرست مؤخراً مخطوطات الكتاب من قبل جوزيف دي سموغي Joseph de smogyi في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ١٩٣٢ .

٦ ـ سادساً نقل ڤيل من مخطوط باريس لأبي المحاسن بن تغري بردي (بروكلمان ٢/٤٢) وهو أصل محترم وإن كان متأخراً (توفي في ٨١٥/١٤٠٢) ورقمه الآن بباريس ١٥٥١ ، وهو يحتوي على جزء من كتاب ابن تغري بردي المسمى «البحر الزاخر في علم الأول والآخر» وهذا بالتأكيد عنوان رائع يتعامل مع التاريخ من ٣٢هـ . إلى ٧١هـ .

٧ ـ سابعاً : كتاب محمد بن شاكر الدمشقي الكتبي «عيون التواريخ» .

(بروكلمان ٢/٤٨) ، أعني العمل الذي قام به مكمل ابن خلكان الذي يوصف بأنه «تاريخ الخلفاء والعلماء ، مع إشارة خاصة إلى دمشق»(**) . ويبدو أن ڤيل قد استعار واحداً من ثلاثة مجلدات من هذا الكتاب المحفوظ في باريس .

٨ ـ وكان لديه أيضا المجلدات ١٠ إلى ١٢ من النص الأصلي للطبري من برلين ، وكان لهذا أهمية خاصة ، وقد كان كوزغارتن Cusegarten بدأ عمله من قبل على الطبري ، ولكن مجلد كوزغارتن الثالث والأخير عندما ظهر في ١٨٥٣ قدم نص الطبري العربي مع ترجمة لاتينية ، وصلت فقط حتى عام ٢٣هـ ، والفائدة التي حصل عليها ڤيل من الطبري كانت بلاشك أحد الأسباب التي أدت إلى ظهور طبعة ليدن ، التي نشرت محققة تحت الاشراف العام لدى غويه من ١٨٧٩ ومابعد .

★ ـ هناك الآن أكثر من جهة في مصر ولبنان تسعى لطباعته ، وخرج منه حتى الآن أكثر من خمسة عشر مجلداً .

★★ ـ كتاب ابن خلكان هو «وفيات الأعيان» وكتاب ابن شاكر هو «فوات الوفيات» .

٩ ـ والتاسع في القائمة هو «فتوح مصر» لابن عبد الحكم ، الذي استعاره ڤيل من اوالد Ewald .

١٠ ـ وكان العاشر «كتاب المعارف» لابن قتيبة ، ووسم ڤيل هنا كتاب المعارف ـ وهو مخطوط كان قد تسلمه من ج . هـ . موللر ، ثم قام بتحقيقه بعد ذلك بوقت قصير ، وستنفيلد ، في غوتنجن في ١٨٥٠ ـ بأنه عمل لم يجد فيه «شيئا كبيراً حول الفترة التي عولجت في المجلد (الأول) الراهن ، والذي لم يكن معروفا من قبلي بين المصادر الأخرى» وقدر لهذا التقويم الاختصاصي نوعا ما أن يعدله فيما بعد بدرجة كبيرة حتى أنه كتب في ١٨٤٦ .

«إن اقتراحي الذي صرحت به عدة مرات من أن كثيراً من المؤرخين كانوا يميلون إلى نسبة أعمال متأخرة الى خلفاء سلفوا وجدت بعض مايؤكده فيما يتعلق بفتح فارس الذي ـ حتى بالنسبة للطبري ـ وضع الى حد بعيد في خلافة عمر ، في حين أنه طبقا لابن قتيبة (أعني في كتاب المعارف) كان فتح الري وهو جزء من فارس ، وكرمان ، وخراسان ، وسجتان وطبرستان ، قد تم فقط في عهد عثمان ، ومثل هذا ، قال هذا الكاتب بكل وضوح ، إن الحجاج قد ذهب مباشرة من المدينة إلى العراق ، وهو يتفق مع رأيي عندما يقول بإيجاز : حكم الحجاج العراق مدة عشرين عاماً ، وجلب إليه الهدوء وأذل خصومه» .

وفي ١٨٤٦ عرف ڤيل المؤرخ العربي البلاذري إنما فقط من خلال مقتطفات تلقاها من رينو في باريس ، وبحلول ١٨٤٨ ، لابل في الحقيقة في وقت سلف في تشرين أول ١٨٤٧ ، عندما كتبت مقدمة مجلده الثاني ، تلقى في هايدلبرغ من ليدن المخطوط رقم ١٩٠٣ الذي كان نسخة من كتاب البلاذري «فتوح البلدان» وتكلم ڤيل عن البلاذري وعمله هذا ، بطريقة هامة جدا ، وكتب عنه في الملحق حول الأدب الذي سلف ذكره على أنه شكل جزءاً من المجلد الثالث من تاريخ الخلفاء (١٨٥١) في تلك السنة ، يقول : «ما قيمة هذا الكتاب مستقلاً ؟ لايمكننا أن نقدر مباشرة ، ولايمكننا حتى أن نقارن هذا العمل مع أعمال أسلافه الذين كثيراً مايذكرهم ، مثل الواقدي ، والمدائني ، وابن الكلبي وآخرين» ثم مضى يقول ؛

«ماهو أكثر أهمية مع أنه تألف إلى درجة كبيرة فقط من إشارات قصيرة ، وكتب بأسلوب تأريخي جاف ، كتاب ابن قتيبة ، المعروف باسم كتاب المعارف ،

لأنه يحوي في الوقت نفسه شروحا قيمة حول سلاسل نسب القبائل العربية ، إضافة إلى كثير من القطع الثمينة من المعلومات التي تتعلق بثقافة القرنين الأولين من الهجرة وعلومهما» .

وأضاف ڤيل يقول :

«لقد أمضى ابن قتيبة القسم الأعظم من حياته في بغداد ، وعلم الحديث هناك ، ومع ذلك كان متحفظاً جدا تجاه وقائع تاريخ بغداد التي جرت أمام ناظريه ، فمنذ ارتقاء الواثق حتى وفاة المهتدي(٢٥٦هـ) الذي ينتهي به لايجد المرء بشكل خاص أكثر من تواريخ تولي الخلافة ، والولادة والوفاة للخلفاء» .

والأفضلية المعطاة هنا لكتاب «المعارف» على كتاب البلاذري «فتوح البلدان» هامة ، وربما لها مايسوغها . فلم يقلل ڤيل من قيمة البلاذري الذي خصص له ملحقاً آخر في المجلد الثالث ، الذي وضعت فيه للمرة الأولى محتويات «فتوح البلدان» الذي جرى تحقيقه فيما بعد من قبل دي ـ غويه (١٨٧٠) وأصبح بشكل عام متوفراً للقراء الأوروبيين ، وتمت بعد وقت متأخر جداً ترجمة الكتاب كاملاً تحت عنوان «أصل الدولة الإسلامية» لفيليب ك . حتي ، وف.س. مرغوتن F.C.Murgotten (نيويورك ، ١٩١٦ ـ ١٩٢٤) .

وليس من الممكن تسمية جميع الأصول المخطوطة الجديدة التي اعتمدها ڤيل في مقدمة مجلده الثاني ، سوى بشكل بالغ السطحية ، وقد أصبح لديه الآن إضافة إلى البلاذري الذي سلف ذكره ، المجلد الثالث من تاريخ ابن خلدون ، وكتاب العيون والحدائق (مجهول المؤلف) . وقد حقق بعضه فيما بعد من قبل دي ـ غويه ، وابن الأثير من ١٥٥ ـ ٢٧١هـ . ومجلد آخر من «عيون التواريخ» لمحمد ابن شاكر ، «ومرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي من ١٩٠ ـ ٢٨١ ، «ومرآة الجنان» لليافعي ، وهو مؤلف آخر متأخر توفي في ١٣٦٧/٧٦٨ والمجلد الثاني من كتاب ابن تغري بردى «النجوم الزاهرة» وأخيرا ، كتابان لم يكن تحديد هويتهما واضحاً بالمرة لڤيل وهما كتاب «الدول المنقطعة» للأزدي (بروكلمان . ٣٢١/١) ، ومجموع مخطوط في غوتا (رقم٢٦١) وتم التعرف عليه مؤخراً من قبل دوزي Dozy على أنه صلة عريب للطبري ، ويتعامل جزء من هذا المخطوط مع تاريخ الفاطميين في إفريقية من ٢٩٠ إلى ٣٢٠هـ ، وترجم إلى الانكليزية في وقت مضى يعود إلى

١٨٤٠ من قل جون نكلسون

وكانت هذه بلاشك قائمة أفضل ، وزاد عمل أرفع مما توفر من قبل ، وبات ڤيل في هذا الوقت على معرفة بمعظم الكتب التي يمكن أن يعدها ضرورية كل من يحاول اليوم كتابة تاريخ الخلفاء ، وفي الوقت الذي كان تحت تصرفه في بعض الحالات مجلدات فقط من بعض المؤلفات العربية ، بات الآن بإمكانه تفحصها كاملة والاستفادة منها فيها لو أراد ، وطبعاً يتوقع المرء في هذه الأيام استخدامها جميعاً إذا ما توفرت الرغبة في تحقيق كتابه وطبعه طبعة نقدية .

واستمر ڤيل في دراسة هذه المؤلفات التاريخية ، فقد وضع في الملحق حول الأدب في المجلد الثالث الذي سلفت الاشارة اليه مرات عديدة بعض الاستنتاجات والانطباعات ، وبمعارضة الطبري مع كل من البلاذري وابن قتيبة اللذين قال عنهما (مشيراً إلى حاجي خليفة وربما ليس بدقة تامة) : «لقد كانا قانعين بإعطاء خلاصات قصيرة من المصنفات السالفة ، ولقد نقل البلاذري ـ على الأقل ـ كثيرا من الروايات المحلية حول الفتوح العربية ، أكثر مما نقله من الكتب ، مع أنه بلاشك كثيراً ماحصل منها على أجوبة مكتوبة بدلاً من الآثار الحقيقية» ، وعلى أي حال تكلم ڤيل عن المجلدات العربية الثلاثة للطبري ، أعني الأصل بالطبع ، التي حصل عليها من برلين ، ودرسها في هايد لبرغ ، وقد احتوت الثلاثة على السنوات من ٧٠ ـ ١٣٩ للهجرة ، أعني حتى وفاة المنصور ، ووجد ڤيل من المهم بدرجة كافية أن الطبري في تعامله مع حياة محمد (ﷺ) (في القسم الأول من عمله) قد مضى أبعد بعض الشيء مما مضى إليه ابن هشام بالنسبة للمعجزات والأعمال الخارقة التي أوردها الأخير في سيرة الرسول وهي الأقدم ، وهنا نرى مرة أخرى أن ڤيل كان يعرف المصدر الجيد كلما صادفه ، ويحتمل أنه لو كان حيا لاهتم جداً بالتنقيح القديم لابن اسحق من قبل يونس بن بكير ـ (توفي في ١٩٩/٨١٤) ، في حين ان ابن هشام توفي في ٢١٨/٨٣٤ الذي قام بالتنقيح قد درس عادة بعد ما ظهر إلى الضوء الآن(*) .

ومضى ڤيل وهو مايزال يتحدث عن الطبري قائلاً :

★ ـ نشرت القطعة التي رواها يونس بن بكير مع قطعة أخرى في بيروت ١٩٧٧ .

«بالنسبة لقيمة الترجمة الفارسية ، التي تمت في سنة ٣٥٢ بناء على اقتراح منصور بن نوح الساماني ، والترجمة التركية التي اعتمدت عليها فقد تكرر ذكر ذلك في هذا الكتاب ، وحين أعطى المترجم (أي البلعمي) اسم الطبري لعمله مع أن الحوليات ضمت الكثير الذي ـ بدا له أنه إما شديد التفصيل أو لايتوافق مع أسلوبه ـ فعل ذلك بسبب السمعة التي حظي بها الطبري بعد وفاته . بوقت قصير ، وبصرف النظر عن الحذف الكثير والتبديل فإن الترجمات مختلفة بقدر كبير عن النص الأصلي ، في أنها لم تعد مجموعة من الروايات والأحاديث المجزأة ، بل تشكل روايات مترابطة مستمدة من تلك الآثار ، مع حذف الأسانيد ، دون اعتبار للفروق في الروايات ، وقد تم فعل الشيء نفسه ليس فقط من قبل المترجمين للطبري ، بل أيضا من قبل مؤرخين عرب فيما بعد ، مثل ابن الأثير الذي ترك جانبا الأسانيد التي ذكرها الطبري ، وبفعل ذلك اختصر الكتاب الى نحو النصف تقريباً ، وبات هذا المتبقي أصدق وأدق في تقديم الحقائق ، وكانت هذه الكتب أيضاً كبيرة جداً وعديدة المجلدات بالنسبة لجماعة الدارسين ، ولهذا فضل هؤلاء الخلاصات الوافية التي صنعها أمثال أبي الفداء ، والمكين ، وآخرون ، ولم يقتصر الكلام على القيمة العظيمة لتاريخ الطبري على الذين ترجموه ، بل قدره أكثر الذين ذيلوا عليه من المؤرخين المتأخرين ، خاصة ماكتبه ثابت بن سنان الصابىء(*) ، وعبدالله بن محمد (بروكلمان : أحمد) الفرغاني ، وذكر ڤيل في حينه كتتمة للطبري . . » الأعمال المجهولة حتى الآن لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور وابنه أبي الحسين عبيد الله» ، والأول كما يقول ڤيل يصل إلى نحو نهاية خلافة المهتدي ، والأخير حتى وفاة المقتدر ، ويحوي مخطوط البودليان في الحقيقة تاريخ بغداد لابن أبي طاهر ، المجلد السادس ، من (٢٠٤/٢١٨ ـ ٨٨٣) (وفاة المأمون) . وقد حقق هذا وترجم إلى الألمانية من قبل هـ . كيللر H.Keller (لايبزغ ، ١٩٠٨) . وقد وصف (كمصدر رئيس للطبري»

ومرة أخرى أشار ڤيل سلفاً إلى شيء سيشغل اهتمام الناس فيما بعد ، وهو كتاب الكامل للمبرد ، حيث أدرك ڤيل مدى أهميته ، وقدر لهذا الكتاب أن يحقق

★ ـ وصلنا مختصر لتاريخه نشرته في كتابي الجامع في أخبار القرامطة دمشق ١٩٨٨ .

بشكل بارع من قبل وليم رايت William Wright في لايبزغ في ١٨٦٤ .(*)

إن المجلدين الباقيين (الرابع والخامس) في تاريخ ڤيل ، اللذين أخرجا في ستوتغارت في ١٨٦٠ و ١٨٦٢ بعنوان جديد ، هما بلاشك أقل أهمية ، وبالنسبة لموضوعهما ، الذي لم يعد الخلفاء الذين كانوا مرة مجيدين رائعين في بغداد ، بل خلفاءهم التعساء ، الخلفاء العباسيين في مصر ، الذين تمتعوا بأقل من ظل الحكم ، ولا أدري إذا ماكان من قبيل الصدفة ، أو أن موظفي التسجيل قد فقدوا الاهتمام ، أن هناك مجموعتين من تاريخ ڤيل في مكتبة جامعة كمبردج تمضيان فقط إلى المجلد الرابع ، وفي ١٨٦٦ قدم ڤيل مرة أخرى للجمهور إنتاجاً له بعنوان سلف ذكره «موجز تاريخ شعوب الإسلام» ولم يكتب بعد ذلك أي أعمال كبيرة .

وانطباع المرء هو أن سلسله المجلدات حول التاريخ الإسلامي كانت أقل نجاحاً مما كان المؤلف يأمل ، ولم يكن هناك على حد ما أعرف طبعة ثانية ، ولايبدو أن السلسلة ، ولاحتى المجلدات الثلاثة الأولى الأكثر أهمية بشكل عام قد ترجمت إلى أي لغة أجنبية ، إن العمل بالطبع واسع جدا ، وبالتالي لم يتواءم جيداً مع الترجمة ، ويحتمل أن معظم الناس الذين رغبوا في استعماله كانوا من الدارسين ممن يستطيعون قراءة الألمانية ، وربما كانت هناك أسباب أخرى حالت دون أن يكون شعبياً على الأقل لدى المستعربين ، ولايبدو أنه كان بينهم ف . ف اربثنوت F.F.Arbathnot ، عضو الجمعية الملكية الآسيوية ، وهو مؤلف كتاب ضعيف نوعا ما يدعى «المؤلفون العرب» ، عكس فيه مجال الاهتمام الشائع انذاك بين المستشرقين البريطانيين ، أي في الوقت الذي كتب فيه ١٨٩٠ ، وقد تحدث عن ڤيل على أنه المترجم ، مع الإشارة إلى عمله حول ابن هشام ، وألف ليلة وليلة ، ولكنه لم يذكر تاريخ الخلفاء ، ولو بكلمة واحدة ، وكان كتاب ڤيل . «الأساطير الكتابية عند المسلمين» الذي نشر في ١٨٤٥ قد ترجم إلى الإنكليزية في السنة التالية ، ١٨٤٦ ، ولكن لم تكن هناك ترجمة إنكليزية «لتاريخ الخلفاء» . ولعله من المسموح لنا أن نشير أنه قد ارتكب بعض الأخطاء أحياناً ، وقد لاحظت أنه في المجلد الثاني في الحديث عن عهد هارون الرشيد أعطى باعثاً خاطئاً (قتل خاقان الخزر من قبل

★ ـ تعد طبعة كتاب الكامل للمبرد التي حققها زكي مبارك مع أحمد شاكر ونشرت في القاهرة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ في ثلاثة أجزاء أفضل طبعات هذا الكتاب الهام .

عربي) لحملة الخزر (عبر القوقاز إلى أرض الإسلام) لعام ١٨٣/ ٧٩٩، ومثل ذلك في المجلد الأول أيام عثمان حيث أنكر أن يكون لدى الطبري أي علم بهزيمة عبد الرحمن الباهلي في بلنجر بينما في الواقـع لديه صفحات عديدة ، وعلى أي حال إن مثل هذه الأخطاء لامفر منها عمليا في التعامل مع الحشد الهائل من المواد التي تكون منها تاريخ الخلفاء ، وقدر أنه لم يقترح أحد أنه يجب أن نتوقف عن قراءة جيبون بسبب الاخطاء التي أعلن عنها في كتاباته ج . ب . بوري J.B.Bury ، لكن الواقع هنا هو أن ڤيل نادراً ماشابه ماكان عليه جيبون ، لقد كان باهتاً بعض الشيء ، ولم ينجح في إثارة أي من قرائه الأجانب لترجمته إلى لغاتهم ، وإنه لأمر مدهش حقاً أنه لم يذكر في كتاب الأستاذ رينولد نكلسون Reynold Nicholson «تاريخ الآداب العربية» ويبقى أمر عدم ذكره في كتاب الأستاذ نكلسون أقل إثارة للدهشة من اغفاله كلية في الكتابات الأكثر حداثة للأستاذ حتي . وهناك استثناء واحد واضح للإهمال العام لڤيل بين الشعوب الناطقة بالأنكليزية ، وأعني به السير وليم موير ، ومع موقع موير في مواجهة ڤيل أقترح المعالجة الآن .

نشر موير ، كما هو معروف جيداً ، قبل ڤيل أولاً حياة محمد «ﷺ» ، ثم كتاباً عن تاريخ الفترات التالية للإسلام أطلق عليه في النهاية اسم «الخلافة : قيامها وتدهورها وسقوطها» . (طبعات منذ ١٨٨٣) ولم يكن بسهولة أن موير وسلفه من هايدلبرغ قد أنتجا كتابين لهما عنوانان متماثلان لقد كتب البروفسوركارل بروكلمان خلال السنوات الأخيرة كتابه «تاريخ الشعوب الاسلامية» ولم يتأكد ، رغم تشابه العنوان ، أنه قد خضع لتأثير ڤيل ، ولقد كانت الحالة مختلفة مع موير ، الذي كتب في مقدمة طبعته الثانية من كتاب الخلافة (ايلول ١٨٩١) :

«نحو النهاية ، وخاصة بالنسبة للفصل المختصر عن الخلافة في عصر الأسر المملوكية ، نهلت بقدر كبير من كتاب ڤيل الرائع «تاريخ الخلافة» ، الذي كان في الحقيقة رفيقي الدائم في كل مكان ، وأعترف بامتنان بأني مدين للمرحوم الدكتور ڤيل ، فكلما درس تاريخه العظيم مقروناً بالمستندات الأصلية ، كلما تأثر المرء أكثر بالبحث الواسع والدقة التي لاتخطىء ، والحكم النزيه للمؤلف» .

لقد كان هذا في الحقيقة مقدمة جميلة من جانب موير ، وكانت في موضعها ، وإنه من الصعب أن يقدر بالضبط إلى أي حد كان عمل موير قائما على كتاب «تاريخ الخلافة» ، ولم يقتبس موير من ڤيل أكثر من ست مرات ، أحياناً بالنص ، ولكن عادة في الحواشي ، ودائماً في النصف الثاني من كتاب الخلافة ، ويبدو أن موير قد استخدم عمل سلفه بحرية تامة ، ولكن هذا لم يكن خضوعاً بأي حال ، وعلى سبيل المثال اختلف في مسألة انتاج نقود إسلامية دقيقة ، عن ڤيل بشكل حاد تماماً ، وقد انتقد في حالة أخرى حكمه (السلوك البربري من جانب المهدي) . وفي مثال واحد فقط قال بدقة إنه قد اتبع ڤيل ، لقد كانت مجلدات ڤيل الألمانية متوفرة ، ومن الواضح أنها لم تكن معروفة جيداً في هذه البلاد ، ولم يكن هناك من سبب في أن لاتستعمل ، ويبدو أنه ، كما قال موير ، استعملها على نطاق واسع في الواقع .

ولنأخذ الرواية التالية عن الرجل الذي كثيراً ماقيل إنه كان المؤسس الحقيقي للأسرة العباسية ، أعني أبا مسلم الخراساني :

«وكانت طبول أبي مسلم من جلود الكلاب ، فإذا أراد أن يركب ضرب في عسكره بتلك الطبول ، فكان لها صوت هائل ، ودخل قلوب الناس منها رعب عظيم وفزع شديد ، وقتل من لايحصى صبراً من قريش ومضر وربيعة واليمن وأهل البيوتات من العجم والفقهاء والشعراء ، وقيل إن من عرف منهم ستمائة ألف سوى من لم يعرف ممن قتل في الحروب والوقائع ، ويقال إنه كان من العرب ، وقيل من الأكراد ، وقيل بل كان عبداً ، وكان لايطأ في العام إلا مرة او مرتين ، ويرى أن النكاح ضرباً من الجنون ، ويقول يكفي الانسان أن يجن نفسه في السنة مرة ، وكان من أغير الناس ، لا يدخل قصره غيره ، وكان في القصر كوى يطرح لنسائه منها ما يحتجن إليه ، قالوا : وليلة زفت إليه امرأته أمر بالبرذون الذي ركبته فذبح ، وأحرق سرجه لئلا يركبه ذكر بعدها ، وقال له ابن شبرمة : أصلح الله الأمير ، من أشجع الناس ؟ قال : كل قوم في اقبال دولتهم ، وكان أقل الناس طمعا ، وأكثرهم إطعاما ، يخبز كل يوم في مخبزه ثلاثة آلاف فارق ، ويطبخ مائة شاة سوى البقر والطير ، وكان له ألف طباخ ، وآلة المطبخ تحمل على

ألف ومائتي دابة ، ولما حج نادى في الناس : برئت الذمة ممن أوقد ناراً ، فكفى العسكر ومن معه أمر طعامهم وشرابهم في ذهابهم ومنصرفهم ، وهربت الأعراب ، فلم يكن في المناهل منهم أحد لما كانوا يسمعونه من سفكه الدماء ، وولد أبو مسلم سنة مائة واثنتين ، وقتل سنة سبع وثلاثين ومائة وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، وخلف بنتا»(*) ونقلت هذه الصورة المزعجة نوعا ما لأبي مسلم من قبل ڤيل في حاشية من كتاب الدول المنقطعة للأزدي ، وهو تاريخ من أربعة مجلدات لم ينشر مطلقا ، أخذها ڤيل من مخطوط من غوطا ، ومن المرجح أن السير وليم موير لم يره(**) ، وله مع ذلك حاشية في المكان نفسه في كتابه «الخلافة» أعني لدى الحديث عن وفاة أبي مسلم ، كما يلي : «إن ٦٠٠,٠٠٠ كما روى لنا لقوا مصرعهم على يديه غيلة ، إلى جانب الذين قتلوا في المعركة ، وهذا تقدير فج ، بلا شك ، ولكنه دال على ازدرائه للحياة ، وبصرف النظر عن هذا ، فإن شخصيته كانت شعبية ، وقد خولته القيادة العليا للناس ، وكان كريما مضيافاً ، وكان له في خراسان بلاط عظيم الفخامة ، وببساطة ، فيما يتعلق بحريمه ، كان ما يزال غيوراً بصورة غريبة ، فقد ذبح البغل الذي جلب عروسه ، وأحرق السرج ، حتى لا يركب عليه أحد مرة أخرى» . ولم يعط أي مصدر لهذا ، ولكن الدلالة هي بالتأكيد أن موير قد تبناه ببساطة نقلاً عن ڤيل وكأنه كان بالطبع مخولاً تماما بذلك ، ويجب في الوقت الحاضر على الأقل ، ونحن على نية أن نودع تاريخ ڤيل للخلفاء أن نذكر أنه ربما كان من المقبول أن نخمن أن الواقع المبدئي لتأليفه هو أن يكون مرتبطا بالترحيب الذي منح لكتاب ڤون رانك Von Ranke الشهير تاريخ البابوات ، الذي نشر للمرة الأولى في (١٨٣٤ - ١٨٣٧) ، ولم يحظ عمل ڤيل الكبير مطلقا بسمعة مماثلة لعمل ڤون رانك ، ومع ذلك قد يعتقد إجمالا بأن

★ - اعتمدت مخطوطة غوطا من كتاب أخبار الدول المنقطعة لعلي بن ظافر الأزدي وهي نفسها التي اعتمدها ڤيل ، ولاحظت أن الترجمة لم تكن أمينة ولادقيقة ، حيث حذف المترجم عدة فقرات منها دون أن يشير إلى ذلك ، كما أنه أخطأ في بعض الكلمات .

★★ - في المتحف البريطاني نسخة مخطوطة من أخبار الدول المنقطعة برقم OR3685 لاأدري متى حصل عليها المتحف ، وما إذا كانت فيه أيام موير .

السبب الرئيس لذلك هو الغموض النسبي ، ولانقول الطبيعة الغريبة الدخيلة ، من وجهة النظر الأوروبية ، للموضوع الذي عالجه ، في ناحية واحدة على الأقل ، أعني في أعمال السير وليم موير المؤرخ البريطاني الرئيس للخلافة ، لقد كان عمل ڤيل مؤثراً جدا . ويبدو مؤكداً أن هذا التأثير لم يستهلك بعد .

٢٨ـ الاسلام وسورية في كتابات هنري لامنس

ك . س . صليبي
أستاذ للتاريخ في الجامعة الأمريكية ببيروت

لا يمكن بالنسبة لدراسة سيرة الإسلام المبكر ، والتاريخ الإقليمي لسورية لا يمكن الاستغناء عن أعمال هنري لامنس على الرغم من عيوبها الملحوظة ، ويتفق معظم الدارسين مع بيكر[1] في أن لامنس زود دراسة السيرة بأسس جديدة ، وما من أحد يمكنه أن يقلل من قيمة إسهاماته في تاريخ الأمويين ، وسيظل كتابه «سورية موجز تاريخي» (بيروت ١٩٢١) العرض النموذجي لتاريخ سورية منذ الفتح العربي ، مع أنه بحاجة إلى مراجعة كبيرة . وكان لامنس ، في الحقيقة ، عالماً ذا أصالة لا شك فيها ، وذكاء ومهارة ، ويمثل عمله مرحلة هامة في تطوير تقاليد المستشرقين . وفي حين أن تقدير إسهام لامنس في الدراسات الإسلامية كان تقريباً أمراً مجمعاً عليه ، فإن معرفة تحيزه غير المكبوح ، الواضح حتى لغير المختص لم يكن أقل أيضاً ، وقد اهتم لامنس قليلاً بإخفاء البواعث العدوانية التي حركت اهتمامه بالتاريخ الإسلامي ، واستمدت أفكاره الأساسية من عدوانه ومقته للإسلام ، وتحكمت بأكثر من محصلة من محصلات دراساته[2] ولحسن الحظ ، إن الطبيعة المعلنة لتحامل لامنس وتحيزه يسهل استبعادها من قبل القارىء ، ويجعل من تحقيق أعماله مهمة سهلة نسبياً .

ولد هنري لامنس في غنت Ghent (بلجيكا) ، من أصل كاثوليكي فلمنكي ، في أول تموز ١٨٦٢ ، وعندما كان في الخامسة عشرة من عمره سافر إلى بيروت للالتحاق بالرهبنة اليسوعية هناك[3] ، وجعل لبنان وطناً له بقية حياته ،

وبعد عام واحد من الدراسة التحضيرية في الكلية اليسوعية في بيروت نقل إلى دير الغزير (جبل لبنان) ، حيث سجل كراهب يسوعي مبتدىء في ٢٣ تموز ١٨٧٨ ، وخلال سنواته الثماني الأولى في لبنان كطالب وراهب مبتدىء استحوذ لامنس على تمكن استثنائي من اللغة العربية ، إضافة إلى اللاتينية واليونانية ، ويبدو أنه قد تعلم السريانية أيضاً ، وفي ١٨٨٦ كلف بتدريس اللغة العربية في الكلية اليسوعية ببيروت ، وسرعان ما نشر كتبه المدرسية لهذه الغاية ، وأول عمل له في الثقافة الاستشراقية ظهر في ١٨٨٩ ، وهو معجم للاستعمال العربي «كتاب الفرائد في الفروق» وحوى «١٦٣٩» مادة ، وقام على التأليف المعجمي العربي التقليدي . وترك لامنس التدريس في (١٨٩١) وخصص السنوات التالية للدرس والترحال مع بعض الانقطاعات ، فزار انكلترا ، وبلجيكا ، والنمسا ومصر ، وأضاف معرفة بالإنكليزية والألمانية إلى مؤهلاته العقلية (التي تشمل الفرنسية لغته الأم ، والإيطالية) . وفي الوقت نفسه تولى تحرير «البشير» ، صحيفة اليسوعيين في بيروت لعام واحد (في ١٨٩٤) ، وعند عودته النهائية من أسفاره في ١٨٩٧ ، تولى الإدارة والمنهاج في الكلية اليسوعية لمدة ثلاث سنوات ، حتى كلف مرة أخرى بتحرير «البشير» في ١٩٠٠ . وعاود العمل الأكاديمي في الكلية في ١٩٠٣ ، وكان يدرس الجغرافية والتاريخ ، ونشرت بعض ملاحظاته ومحاضراته حول التاريخ الإسلامي ، فيما بعد ، في دراساته عن شبه الجزيرة العربية لما قبل الإسلام وعن الأمويين[٤] .

ومع تأسيس مدرسة الدراسات الشرقية في الكلية اليسوعية في ١٩٠٧ بدأ لامنس مهنته كمستشرق بشكل جدي ، وقد مكنه تعيينه كأستاذ في المدرسة الحديثة التأسيس من وقف كامل جهده على الدرس والبحث . وظهرت أعماله الشهيرة حول السيرة[٥] خلال السنوات السبع الأولى التي تلت تعيينه .

ومع قيام الانتداب الفرنسي على لبنان وسورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى أصبح لامنس مؤيداً للسياسة الفرنسية في المشرق ، وأحد أحسن أعماله «سورية» كتبه بناء على طلب المندوب السامي ، الجنرال غورو[٦] ، وأمكنه التقدير الذي منحته إياه السلطات الفرنسية من ممارسة نفوذ ملموس على السياسة

اللبنانية ، وهو نفوذ استخدمه أيضاً من خلال تلاميذه القدماء الذين كانوا بين القادة السياسين اللبنانيين الأوائل .

وأصبح لامنس في أعقاب وفاة لويس شيخو في ١٩٢٧ محرراً للمجلة الثقافية الدورية اليسوعية المشرق . التي ظهرت فيها ترجمات منقولة لأعماله في العربية ، واستمرت تظهر طيلة السنوات الباقية من حياته ، وتوفي في ٢٣ نيسان ١٩٣٧ عقب إصابته بالشلل ، وكان من بين من نعاه واحد من الصحفيين المسلمين القياديين في بيروت[٧] .

لقد كان هنري لامنس كاثوليكياً عسكرياً ، ومحباً حقيقياً لسورية ، وقد درس جغرافية بلده بالتبني وتاريخه بدقة ساوت تقريباً مقته للإسلام ، وربما كان حبه لسورية في الحقيقة إسقاطاً لعدائه للإسلام والعرب[٨] ، وأمضى معظم إجازاته في أسفار دراسية للبنان وسورية ، وفلسطين ، وترك كثيراً من الملاحظات حول جغرافية المنطقة وآثارها ومجتمعها[٩] . وكتابه «سورية» ، علاوة على أنه تعبير عن اعتقاده بمهمة فرنسا في المشرق ، عكس أيضاً إخلاصه لسورية ، وقد تعقب لامنس تاريخ البلاد منذ الفتح العربي إلى قيام الانتداب الفرنسي ، مع لمحة سريعة عن تاريخها القديم كمقدمة ، وبحث لامنس أيضا في سيرة محمد (ﷺ) ، ولكن هذا بقي غير منشور ، ويحتمل أن ذلك كان بأوامر واضحة من روما[١٠] ، وبالحكم من نبرة مقالاته العديدة العدائية والساخرة حول الموضوع لا بد أن نشر هذه السيرة كان سيسبب إرباكاً هائلاً للكرسي المقدس .

لقد عدّ لامنس الإسلام حادثة تاريخية تعيسة تورطت فيها الأمة السورية[١١] ، فقد كان على سورية بمواجهة الزخم الذي لا يقاوم للدين الغريب أن تمتصه ، وأن تعدله إلى صورة أقل إثارة للاعتراض ، في حين أنها احتفظت بشخصيتها المسيحية الأقدم في ملجأ جبل لبنان ، وأمام هذه المهمة الصعبة التي أعدها التاريخ لسورية كانت أوروبا اللاتينية حليفها التقليدي ضد المسلمين من الغرب والأتراك ، وصور لامنس الحملات الصليبية على أنها قطع مرحب به للحكم الجائر في سورية ، وأنها بشرت بالانتداب الفرنسي كوسيلة جوهرية لتحقيق الوحدة المحتملة والتضامن في الأمة السورية ، «الأمة الملكانية» ، الأمة المارونية . . . وهي مصطلحات ظلت حية ومعروفة حتى خلال الحكم التركي»[١٢] .

وكان لامنس كمؤرخ معنياً بالمقام الأول بلغز شخصية محمد (ﷺ) وبعثته النبوية ، وهي المشكلة الرئيسة للتاريخ الإسلامي : كيف ظهر الإسلام ؟ وتحت أي ظروف حقق النبي دعوته الروحية ؟ ومن أين استمد أفكاره الدينية ؟ إن مثل هذه الأسئلة قد واجهت (وما زالت تواجه) المؤرخ غير المؤثر للإسلام ، إضافة إلى المبشرين المسيحيين الذين صدموا بالمناعة التامة تقريباً للإسلام ضد نشاطاتهم ، وكان لامنس مؤرخاً ومبشراً ، وكان محمد (ﷺ) بالنسبة له مشكلة تاريخية إلى جانب كونه رمزاً للعناد الإسلامي ، وعدم الحساسية تجاه التأثير التبشيري ، وفي حين نجد أنه بشكل عام عالج المشكلة التاريخية ببراعة العالم ، فإنه قام بهجمات وحشية على «الرمز» أيضاً ، وضحى بالثقافة والعلم في طريقه .

وقد طور لامنس تقنيته الخاصة حول دراسة السيرة بتطبيق طريقة غولدزيهر بدراسة الحديث لنقد تحليلي للسيرة ، وكان نولدكه قد تخلى ليأسه من السيرة كمصدر تاريخي عن محاولة فهم الشخصية التاريخية لمحمد (ﷺ)[13] ، وتابع لامنس العمل المهجور ، وباستخدام القرآن كضابط بيَّن إمكانية التحليل النقدي للسيرة بنتائج هامة .

وكان غولدزيهر بكتابه «دراسات إسلامية» الذي ظهر في (١٨٨٩ ـ ١٨٩٠) متشككاً جداً بإمكانية استعمال الحديث كمصدر لتاريخ الإسلام المبكر ، وقد عده مصدراً صحيحاً حقاً لفترة التطورات المتأخرة في الإسلام : الفترة التي كان فيها الحديث في الواقع قد وجد ، وقد رأى أن تجميع الحديث ، إضافة إلى تزييفه ، قد بدأ خلال الفترة الأموية من قبل العلماء الأتقياء ، الذين أهملتهم الاسرة الحاكمة التي كان اعتمادها على الدين قليلاً ، وقد تطور علم الحديث بشكل كامل في ظل العباسيين ، الذين رعوا علماء السنة الورعين ، واستغلوا بحوثهم للدعاية السياسية ، وهكذا ، طبقاً لغولدزيهر ، كان الحديث بشكل أساس مضاداً للأمويين ، وبقي القليل من الأحاديث التي تدعم الادعاءات الأموية السياسية بعد التطهير العباسي .

لقد عدّ العباسيون خلافتهم مؤسسة دينية أساسية (في تضاد مع الملك الأموي ، أو السيادة الدنيوية) وتمسكوا بالتقدير السامي للحديث ، لكل من الأغراض السياسية والتشريعية ، طالما أن المدرسة المهيمنة للقانون كانت تعدّ

القرآن والحديث حصراً أساس الفقه ، وطالما أن المواد القرآنية ومواد الحديث كانت محدودة ، وفي حد ذاتها غير وافية لتزويد هيكل الشريعة الإسلامية ، كان لا بد من تصنيع قدر كبير من الحديث لهذه الغاية ، وإن تزييف الأحاديث والآثار المؤيدة كان ضرورياً حتى لأولئك الفقهاء الذين تمسكوا بأن الإجماع كان صالحاً كأساس إضافي للفقه ، وهكذا أنقصوا من أهمية الحديث كمصدر للتشريع .

ولقد عكس نمط الحديث الذي تطور خلال الفترة المبكرة في خلافة العباسيين الخلافات السياسية ضمن الجماعة الإسلامية ، فجمعت كل زمرة سياسية ، وكثيراً ما حورت أو اخترعت ، هيكلاً للسنة والحديث يوائم موقفها ، وقد حلل غولدزيهر الأحاديث الموالية للعلويين والموالية للعباسيين ، ملاحظاً الطريقة التي عكس بها كل نمط بواعثه السياسية[١٤] الغريبة ، وتبنى لامنس طريقته ، وطبقها على أحاديث السيرة والأحاديث التاريخية ، التي تمسك بأنها القاعدة الرئيسة للسيرة .

وفي الوقت الذي تبنى فيه لامنس فكرة تحليل الحديث استعارة من غولد زيهر ، كان استخدامه للقرآن كضابط لدراسة السيرة مثل ذلك استعاره بدلاً من أن يكون اختراعا ، فقد حدث قبل سنة ١٨٩٤ أن لاحظ س . سنوك ـ هارغرونج C.Snoack - Hurgronje ، الذي أشار لامنس إلى أبحاثه مرات كثيرة بكل تقدير ، أن المستشرقين كانوا متفقين على حقيقة أن القرآن إلى جانب الحديث القديم (الأخير عرضة للنقد الشديد) . كانا المصدرين الرئيسين لحياة النبي (ﷺ)[١٥] ، وقد أسف سنوك هارغرونج لعدم وجود طبعة نقدية للقرآن للمساعدة في دراسة الحديث[١٦] وهي ملاحظة رددها لامنس قائلاً :

«في الوضع الحالي لمعلوماتنا هناك العديد من الإشارات التاريخية في القرآن التي يفوتنا معرفة أجزاء كبيرة منها ولذلك فنحن لازلنا بانتظار طبعة نقدية (كذا) ذلك أن تسلسل الأحداث تاريخيا للنص يبقى مسألة مفتوحة ، وكان يمكن للسنة ، على الرغم من كل تدابيرها ـ التي يعتبر مجرد ظهورها مفيدا بكونها أكثر قرباً من الأحداث معرفة نوايا المعلم والأشخاص والأحداث التي كان يقصدها ، ويمكننا بالاعتماد على الممارسة الطويلة لهذا الأدب ، وسلوك طريقة ذكية التوصل إلى

العثور على النواة الأولية واستخلاص القصص التاريخية من كل الشوائب الغريبة»[١٧] .

وأكد لامنس في كتاب «القرآن والحديث » . . أن السيرة العربية التقليدية ، مثل سير المستشرقين الجدد للنبي ، اعتمدت بشكل رئيسي على الحديث ، في حين أن القرآن وحده يمكن أن يفيد كأساس تاريخي صالح لمعرفة حياة النبي (ﷺ) وبعثته ، والحديث التاريخي وحديث السيرة ، أبعد عن أن يكون ضابطاً للسيرة أو مصدراً للمعلومات الإضافية ، وهو مجرد تفسير مشكوك في صحته للإشارات الضمنية للقرآن فيما يتعلق بالسيرة ، وتكمن قيمة الحديث فيما يتعلق بحياة النبي وبعثته ـ كما جادل في استقلاله عن القرآن عندها يمكن بيان مثل هذا الاستقلال بوضوح ، وأضاف : كقاعدة ، إن الحديث الذي يبدو بوضوح مفسرا للقرآن يجب أن يهمل .

وقبل لامنس بحديث شفهي غامض بالنسبة للفترة المدنية من بعثة النبي ، زوّر من خلال المحاولات المتأخرة لتكييفه مع القرآن ، وقال سيعاد تثبيت أصالته وصحته من خلال النقد كما وافق لامنس أيضا على أن الحديث الأقدم كان له قيمة عامة مطلقة ، حيث أنه سبق تفسير القرآن ، وبين أن هذا الحديث القديم يجب أن ينظر إليه بشك عظيم .

ومع أن أطروحة السيرة لدى لامنس لم تبق دون أن تفند ، فإنها استمرت يفاد منها كمثل يحتذى للعمل ، وعدّل رد الفعل الحديث المؤيد لمصداقية السيرة ، الذي يمثله غليوم و . مونتغمري وات ، مبدأ البحث هذا في بعض التفاصيل دون أن يؤثر بشكل خطير في جوهره ، ومن المؤكد أن لامنس قد زود علم السيرة بمفتاح هام للغز محمد (ﷺ) ، وقد تم تبني كثير من استنتاجاته ، إضافة إلى تقنياته ، وتطويرها من قبل العلماء المتأخرين ، وقد وجه النقد إلى لامنس لبعض استناجاته أكثر منه إلى تقنيته .

وبسبب استحواذ تحيزه ضد الاسلام وكراهيته له وتحامله عليه ، طبق طريقته النقدية ببراعة عندما انعكست مادة المصدر بشكلٍ مؤيد وإيجابي على النبي (ﷺ) أو علي أو العباس ، أو على أكثر الصحابة تبجيلاً ، أو بشكل سلبي على الأمويين ، ومن جانب آخر ، قبل بصورة غير ناقدة أي مادة تنتقص من قدر النبي

(على الأقل بالمعايير الحديثة للأخلاقيات) ، أو تؤيد الأمويين ، ويقال إنه قد تمسك بفكرة أن علماء الحديث الورعين ، وكتاب السيرة لم يكن لهم أن يخترعوا المعلومات التي تنعكس بشكل سيء على محمد (ﷺ) ، وأن أياً من مثل هذه المعلومات التي ربما تكون قد تسربت لابد أن تكون صحيحة ، وعلى كل حال لم يعمل لامنس دوما وفق هذا المبدأ ، حيث أنه تمسك أيضا (عندما يكون ذلك أكثر مواءمة له) بأن معايير الفضيلة والأخلاقيات في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وفي فجر الإسلام كانت تختلف عن المعايير الأوروبية الحديثة ، حتى إن مايعد بغيضا بالنسبة للأوروبي الحديث ربما كان عالي التقدير لدى المسلمين الأوائل ، وهكذا قبل الروايات التقليدية حول فحولة النبي المذهلة (التي بالنسبة لمعايير اليوم تعد مبالغة مدحية) على أنها براهين مؤكدة على انغماس النبي في الشهوات . ولكن عندما كان يواجه بالحاجة لتفسير لقب الأمين الذي كان محمد (ﷺ) يعرف به لدى معاصريه ، كان يعلق :

«وقد تبدو لنا اللفظة القرشية «أمين» نحن أبناء القرن العشرين كلمة «شاذة» فألف سنة من المسيحية ومن الفلسفة في حضارتنا المصفاة حتى آخر درجة أظهرت بيننا مفهوم الاستقامة الانسانية . . إن الأستقامة تكون أولا تكون ، ولكنها لايمكن أن تتحد مع قدر ضئيل ، ولو ضئيل جداً من الرياء أو من الانتهازية ، هذا ولم يرتق العرب أبداً إلى هذا المستوى»[١٨] .

ولم يكن التحامل والتناقض في التعامل مع مادة الأصل خطيئتي لامنس الوحيدتين ، إن ميله لأن يعتبر كحقيقة مؤكدة مايكون قد أقنع نفسه به بالإيحاء كان شيئاً آخر ، ففي لهفته على تشويه سمعة محمد (ﷺ) وعائلته وصحابته ، لم يكتف بالتشكيك في صلاحية السيرة ، بل ذهب إلى حد معارضتها على أساس ضعيف ، أو بلا أساس وهكذا في كتابه «هل كان محمد أمينا» رفض بشكل حاسم تراجع محمد (ﷺ) إلى جبل حراء عشية بعثته النبوية ، مقيماً رفضه على الأسس غير القاطعة التالية :

«ليس هناك مايضمن صدق أو صحة حدوث الخلوة ، فهي تتنافى وكراهية محمد (ﷺ) للعزلة[١٩] ، ونفوره الكبير من التنسك ، فعلى الأصح إننا نعتقد أنها تقليد لتلك التي قام بها موسى في سيناء أو المسيح في الصحراء قبل حياته العلنية .

والجبال المقدسة كثيرة حول مكة ، فلقد حاولت السنة من خلال وصفها العزلة في الجبال حول مكة وهي كثيرة ، أن تضفي القداسة الإسلامية على هذه الجبال ، لذلك نعتبر أنفسنا مخولين بشطب جبل حراء من تاريخ الوحي الرباني الأول»[٢٠] .

وورد مثال آخر للطريقة الاعتباطية التي انتزع بها لامنس استنتاجاته في كتابه «فاطمة وبنات محمد . . .» ففي هذه الترجمة التي تحوي بعضا من حديثه البالغ الأهمية وتحليل «السيرة» شرع لامنس في إثبات أن فاطمة لم تكن الابنة الأثيرة لمحمد (ﷺ) ، وأن محمداً (ﷺ) لم يخطط مطلقاً لخلافته من خلال ذريتها ، وأخضع كل الحديث ومادة السيرة المؤيدة لفاطمة وعلي وولديهما ، الحسن والحسين لنقد بحثي بنتائج هامة ، وكثيرا ماكانت صالحة ، ومع ذلك فقد مضى لامنس أبعد في بيان أن فاطمة كانت في الواقع أقل أعضاء أسرة محمد (ﷺ) تفضيلاً في آل محمد (ﷺ) ، وأن محمداً (ﷺ) الذي اهتم قليلاً بخير ابنته المادي والروحي كان له الرأي الأدنى الممكن في ذكاء زوجها وإمكاناته العامة .

وصوّر فاطمة على أنها امرأة بسيطة رقيقة الصحة كثيرة التذمر ، ولم يوفر ذما ممكناً لها ولزوجها وابنيها ، وبنى هذه النتائج القاسية جزئياً على قبول مطلق وغير متوافق مع قواعد النقد للمادة المضادة للعلويين (وهي المواد نفسها التي نظر إليها في مناسبات بشك عظيم) وجزئياً على ذكر عكس المادة الموالية للعلويين ، على أنها حقيقة مقررة ، ومن جانب آخر استخدم في كتابه «دراسات عن حكم الخليفة الأموي معاوية الأول» التقنية نفسها ليضفي على الأموي الأثير لديه كل فضيلة ونعمة ، إلى حد وصفه بأنه الابن المحب الحنون ، والأب النموذجي ، وابن العم المخلص[٢١] .

إنه ليس من أهداف هذه المقالة الدخول في تحليل تفصيلي للأعمال الفردية لهنري لامنس حول «السيرة» أو الأمويين ، وسيكون من المهم مع ذلك ، تلخيص أطروحته حول الحركة الإسلامية : وهي أطروحة كان أول من طورها بشكل مفصل ، وهي التي مارست تأثيراً مهيمناً على الأبحاث التالية المتعلقة بالموضوع .

كان الإسلام كما رآه لامنس ، ناتج المجتمع المدني والتجاري لمكة في القرن السابع ، وقد ولد في جو مالي رفيع ، وليس في محيط بدوي ، ورسم لامنس في

كتابه «جمهورية مكة التجارية» صورة حية ، وإن كان مبالغاً فيها ، نوعا ما للسياسة والاقتصاد المكيين ، وتعقب نهضة هذه المدينة إلى الأهمية الاقتصادية عشية قيام الإسلام[٢٢] وطور في كتابه «مهد الإسلام» هذه الفكرة أكثر ببيان أن الإسلام كان في الواقع الوسيلة التي يمكن بها في النهاية ضمان السيطرة القرشية على شبه الجزيرة البدوية والزراعية ، وخلال الفتوح العربية زودت مكة الإسلام بالقياديين السياسيين والعسكريين في حين قدمت القبائل الطاقة البشرية العسكرية .

وفي معالجته لبعثة النبي (ﷺ) رفض لامنس كليا روايات الآثار عن الفترة المكية ، وشعر العلماء المتأخرون أنه قد ذهب إلى أبعد مما ينبغي[٢٣] ، وبصرف النظر عن ذلك نجد أنه في حين أن شكوكه المتحاملة حول صدق محمد (ﷺ) قد استبعدت عادة ، فإن محاولته لفهم بعثة النبي من منظور مكة قبل الإسلام كانت مقبولة بالأساس من قبل العلماء المحدثين ، وقد لخص لامنس فكرته عن بعثة محمد الأصلية في كتابه «هل كان محمد أمينا» ؟

بقوله :

«اقتصرت رسالة محمد (ﷺ) في البداية على إجراء اصلاحات نصف اجتماعية ونصف دينية لأنظمة مكة ، أو لكي يكون الكلام أكثر دقة ، لم يفرق محمد (ص) أبداً بين المدنس والمقدس : العقيدة هي مجموعة شروط بالارشاد والوصايا ، فكل الأشياء كانت بالنسبة له من المستوى نفسه»[٢٤]

وكان لامنس قد لاحظ في كتابه «جمهورية مكة» . . الحاجة التي شعرت بها مكة من أجل مثل هذا الاصلاح وقيادة شخص ما مثل محمد (ص) الذي يمكنه أن يدمج القبائل مع الحجاز ذي الحياة المستقرة «وقد تمت لديه القدرة والبرنامج للتوحيد»[٢٥] ، ولكنه انتقد الكتابات الأقدم عن سيرة محمد (ﷺ) التي بالغت في ناحية الاصلاح الاجتماعي في بعثته على حساب الناحية الروحية ، مثل كتاب هيوبرت غريم Hubert Grimme «محمد» (ﷺ) (مونستر ١٨٩٢)[٢٦] دون اتفاق مع بيكر Becker في أن الاسلام قد بدأ كحركة دينية صرف[٢٧] ، وأكد على حقيقة أن محمداً (ﷺ) لم يكن ليكسب للإسلام فئات مثل الأنصار في المدينة الذين لم يكونوا

معنيين بعمق بالاصلاح الاجتماعي المكي دون عقيدة روحية ،[٢٨] ،وأقر لامنس ، لكن ليس بدون تردد بصدق محمد (ﷺ) وإخلاصه الديني خلال الفترة المكية .

اسمعه يقول : «هل بمقدورنا أن ننكر على محمد مزية الإيمان ولو بشكله الأولي»[٢٩] وانتقدت أيضاً النظرية التي كانت رائجة مرة من أن محمداً كان «مدعيا» والتي كانت مقبولة من قبل مستشرق لايقل عن نولدكه[٣٠] ورفضت من قبل لامنس في قوله :

«ولدى وصف الظواهر التي رافقت الوحي عند النبي (ﷺ) هناك بعض التفاصيل التي تسيء إلى النظام العصبي ، ولكن أي مصداقية تستحق هذه الأوصاف أوليست المبالغة لدى الكاتب تبدي الجهد المبدد في الفرار الى الغيبيات ؟ أوليس ذلك لايخرج عن إطار محاولات ساذجة لتفسير صيغ التدخل العلوي» .[٣١]

وكانت الفكرة التي تمسك بها لامنس أن محمداً (ﷺ) (الحاكم الأكبر) كما سماه ، كان يحلم بالوحي وكانت دعوته النبوية نتيجة للايحاء الذاتي الطويل .

ورفض لامنس ، الذي عدّ أن النبي كان أولا وفي المقام الأول سياسياً مكياً خبيراً ، إخلاص محمد (ﷺ) خلال الفترة المدنية ، وقال إنه مع النجاح السياسي اللامتناهي للإسلام في ذلك الوقت ، تناقص صدق محمد(ﷺ) الروحي مع تزايد طموحه الدنيوي : «مع كل تقدم كان يحرزه ، كانت شخصية القرشي الماهر في التخطيط تبرز أكثر حتى تنتهي بابتلاع الرسول»[٣٢] .

وسار اهتمام لامنس بتاريخ الأسرة الأموية في خط مواز لاهتمامه بالسيرة ، وقد اتبع طريقة التفهم ذاتها في كلتا الحالتين ،[٣٣] وتمسك بحق بأن معظم المصادر المتوفرة لتاريخ الأمويين كانت كتابات من فترة العباسيين ، وكانت لهذا متميزة تجاه الأسرة الحاكمة ومعادية للأمويين الفارطين ولهذا رفض معظم المادة التي لاتؤيد الأمويين ، التي عدّها مزورة من خلال التحامل ، وتقبل جميع المواد المؤيدة بشكل خارج عن القواعد النقدية النزيهة ، على أساس أنها قد تسربت عن غير قصد ، وقد مشط أيضا المقتطفات الشعرية من أجل إشارات عرضية ، وكان واحداً من أوائل المستشرقين الذين يستخدمون هذا النمط من المواد المصدرية بهذه الكثافة ، وبهذه الفعالية ، وقد أسهم تمكنه الاستثنائي من العربية بدرجة عظيمة في نجاحه هناك .

ويبدو أن لامنس قد أعجب بالأمويين بشكل رئيس لأنهم كانوا يعدون بصورة تقليدية جبابرة الإسلام ، والحقيقة أن تقواهم وإخلاصهم لعقيدة محمد ﷺ كانت موضع شك ، ولإن جدهم أبا سفيان كان زعيم قريش في صراعها مع النبي ، لهذا كله زاد من تقديرهم ، وهذا ما مكنه من جعلهم سوريين .

ورأى لامنس في حياة معاوية الأول وإنجازاته نصراً معنويا للقومية السورية على الإسلام الفاتح اسمعه يقول :

«كانت الخدمة الجليلة التي أسداها عمر لسورية هي تعيينه لمعاوية عليها في المنصب الذي كان شاغراً منذ موت أخيه يزيد . . . وسعى معاوية لجعل حكومته ولاية نموذجية وإلى إرضاء الأهالي ، وكانت شخصيته كوالٍ تنم عن العاهل المقبل الذي سيجعل من سورية مركزا للخلافة ، فقد بدأ بالاعتماد على القبائل السورية وعلى أتباع الغساسنة القدامى وعلى حلفائهم ، واختار سورية زوجة له هي ميسون أم وريثه يزيد ، الذي أراد له أن يتلقي تربية سورية ، واعتمد على مساعدة السوريين في إتمام التدريبات السياسية للبداة الذين قدموا إلى سورية مع الفتح ، وذلك بهدف تعليمهم النظريات التي يدين بها العرب السوريين بحكم تكوينهم المسيحي ولما ورثوه من مرحلة حكم الامبراطورية البيزنطية ، وشكل هؤلاء البداة أطر الجيش السوري ، وتولوا ترسيخ النظام السوري المعظم من قبل كل مؤرخي الوقائع والذي كان مجهولاً بالنسبة لقدماء العرب ، وعمل الخليفة معاوية على تعميق الروابط بينه وبين السوريين ، وسخر جميع طاقاته لينسيهم نفسه كحاكم ، فهو لم يرد إظهار ذاته أكثر من ممثل لهم أو واحدا منهم تقريبا»[٣٤] .

وشرح لامنس في كتابه «سورية» . . .[٣٥] مفهومه عن القومية السورية التي كانت بالنسبة له تقوم على وحدة الأرض والعرق[٣٦] ، فلقد رأى سورية على أنها اقليم واضح التحديد ، تحيط به حدود طبيعية رائعة : البحر وجبال طوروس والصحراء العربية ، وأدرك من جانب آخر أن الطبوغرافيا الوعرة للبلاد كانت حاجزاً ضد الوحدة السياسية وتطور الوعي الوطني ، اسمعه يقول : «أعد الله هذا البلد برسمه لحدوده ، ليصبح مهداً لشعب ، وبالمقابل أثرت التضاريس الجغرافية لوقت مديد على يقظة الفكرة القومية»[٣٧]

وأصر على أن السوريين كانوا ، حسب اعتقاده ، عرقاً ذا تجانس رائع ، وذا حيوية مدهشة بالقدر نفسه ، وبين مقدرة هذا العرق على امتصاص التسرب المستمر للأجانب ، وبشكلٍ خاص عرب الصحراء ، وبرؤيته للفتوحات العربية من هذا المنظور علق قائلاً . «تجلت قوة الإبداع لدي العرق الآرامي القديم بشكل واضحٍ بعد موت النبي ﷺ بأقل من ربع قرن من الزمن ، حيث شهدت سورية تدفقاً لقبائل كاملة من البداة ، ويمكن تقديرهم بمائة ألف ، وكان هذا العدد يمكن أن يكون ضعفه لولا أن النصف كان قد قتل خلال حروب الفتوحات ، إنما هل كان لكامل العدد أن يغير من التركيبة العرقية لهذا الشعب ويقلل من قدرته على التفاعل ؟ فلقد قادت الفتوحات العربية وأعمال التوسع بعد محمد ﷺ إلى تأسيس دولة الخلافة العالمية التي سميت بالدولة العربية ، ولدى دراسة عصر الأمويين سنرى أن دولتهم كانت في الواقع دولة سورية عظمى»[٣٨]

ولم يكن كتاب سورية . . . . مجرد عرض للأحداث التي وقعت في سورية الجغرافية بل كان محاولة لمطابقة قسرية لتاريخ المنطقة مع مفهوم القومية السورية ، إنه عرض تأويلي ، ومثل بقية الأعمال التي من النوعية نفسها مال إلى التضحية بالدقة المطلقة من أجل الأفكار[*]، ومع أن لامنس قد أقر أن الوعي بالقومية السورية لم يكن فعالاً ، فقد فهم التاريخ الكامل للبلاد وفق تعابير هذا المفهوم ،

★ـ أتى د . عبد الرحمن بدوي في كتابه «موسوعة المستشرقين» ص ٣٤٨ على ذكر بعض مزايا الخبث والزيف والحقد والتضليل لدى لامنس الدجال ، ومما قاله كان : «لا يسوق أي دليل نقلي أو عقلي ولا يرجع إلى مصادر . . . بل هو يلقي الكلام جزافاً ، ويعتمد على تحكمات ذهنية استقرت حسب معان ذهنية سابقة ، ولم يكن لديه اطلاع باحث . . . وأبشع ما فعله خصوصاً في كتابه «فاطمة وبنات محمد» هو أنه كان يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحاتها ، وقد راجعت معظم هذه الإشارات في الكتب التي أحال إليها ، فوجدت أنه إما يشير إلى مواضع غير موجودة اطلاقاً في هذه الكتب . أو يفهم النص فهماً ملتوياً خبيثا ، أو يستخرج الزامات بتعسف شديد يدل على فساد الذهن وخبث النية ، ولهذا ينبغي ألا يعتمد القارىء على إشاراته إلى مراجع فإن معظمها تمويه وكذب وتعسف في فهم النصوص ، ولا أعرف باحثاً من بين المستشرقين قد بلغ هذه المرتبة من التضليل وفساد النية» .

ويبدو أن الكتاب في ذاته قد عكس جهد لامنس لخلق قومية سورية تتوافق مع أفكاره .

وفي نطاق مفهومه للقومية السورية ، احتفظ لامنس بمكان للبنان الكبير الذي تتبع أصوله في المجلد الثاني من كتاب «سورية . . .»[39] منذ أن كان مقراً لقيادة المردة في القرن السابع ، ثم موطناً للموارنة ، وفيما بعد أرض استيطان لبعض القبائل السورية[40] ، ورأى لامنس أن لبنان تطور إلى ملجأ لأولئك السوريين الذين قدروا حريتهم ، وقد بقي كذلك بوضوح بعد الغزو العثماني ، ولنسمعه يقول : «ومن وجهة أخرى كان الجبل يفتح ذراعيه لكل الذين كانوا يثيرون غضب الباشوات الطغاة ، وبذلك أصبح الملجأ الأخير للاستقلال السوري ، فلقد أقام فيه بعض الأمراء شكلاً من أشكال الاستقلال الذاتي بالنسبة للسلطة المركزية ، وتذكر أساليب حكمهم وسياساتهم بالأساليب التي كانت متبعة من قبل النظام التركي ، والتي كانت عبارة عن مزيج من الخداع والعنف ، ولكنهم كانوا يولون اهتماماً بالغاً لحماية مرؤوسيهم ، وبفضل مرونتهم حافظت سورية حتى القرن التاسع عشر على ما يشبه حياة وطنية وتاريخ ، وكان ذلك إرثاً استفادت منه في العصر اللاحق»[41] .

وكان لمفهوم «الملجأ اللبناني» هذا الذي يمكن العثور على آثاره قبل لامنس تأثير مهيمن على الدارسين التالين الذين كتبوا عن تاريخ لبنان ، وعلى الرغم من أن كتاب «تاريخ سورية . . .» يحوي عدداً من الأخطاء وكثيراً من التأكيدات غير الضرورية ، وأنه من بعض النواحي قد مضى زمانه ، يبقى أفضل عرض متوفر لتاريخ سورية ، ويستحق بالتأكيد طبعة جديدة ، وهو يمثل فهماً ذكياً وفعالاً للموضوع ، ويضع الأحداث المختلفة والتطورات في منظور هام ، ورافع لامنس بشكل جيد عن قضية «القومية السورية» ورفع من شأنها ، ولعله كان من بعض النواحي مصيباً .

وعموماً لقيت أعمال لامنس كثيراً من الانتقادات وبشكل رئيس على أسس التحامل والتحيز ، ولكنه من المهم ملاحظة أن العلماء المتأخرين كانوا على القدر نفسه من التحامل في قبولهم أو رفضهم لأفكاره واستنتاجاته مثلما كان في تعامله مع

المصادر ، ولا يجادل أي دارس في حقيقة أن لامنس كان متحاملاً ، ولكن التحامل ليس بالضرورة خطأ(*).

هوامش البحث

١ ـ س . بيكر «أسس دراسات لامنس للسيرة» في درإسلام (١٩١٣) ٢٦٣/٤ .

٢ ـ من أجل نقد حديث لهنري لامنس انظر و . مونتغمري وات «محمد في مكة» (اكسفورد ، ١٩٥٣) «إن هناك الكثير مما هو صحيح في قول لامنس ، إنه يقر . . . (ولكن) معالجته الاعتباطيةللمصادرغير علمية ، وهو يرفض هذا ويقبل ذلك من الروايات حسب أفكاره الخاصة وآرائه السالفة وتحيزه ، وليس حسب مبدأ موضوعي ويبدو أن السبب أن لامنس [يدعي] صحة النظرية التي يحاول إثباتها» . المصدر نفسه ١٥٤ وعلى الرغم من نقده المتكرر لهنري لامنس ، الذي يقترب أحياناً من الشجب ، أشار مونتغمري وات كثيراً إلى استنتاجاته ، وكثيراً ما ذكره كمستنير ، فقد يكون العلماء المتأخرون ربما مذنبين بالقدر نفسه لتضاربهم في رفضهم وقبولهم لاستنتاجات لامنس مثلما كان لامنس مذنباً في معالجته لمصادره ، ومن جانب آخر إن أكثر المؤيدين حماساً للامنس يقر بتحيزه ، وهكذا فإن ج . م . بنويلا J.M.Penuela وهو راهب يسوعي اعتاد أن يدافع عنه ببلاغة كبيرة (فصلة أربور تموز ـ آب ١٩٥٤ ص ١٧ ـ ١٨) أقر أن حكم لامنس على محمد (ﷺ) كان معيباً نوعاً ما لأنه صدر من جانب واحد . انظر ص ٧٥ من المصدر نفسه .

٣ ـ أصبح أخ آخر لهنري لامنس يسوعياً أيضاً ، ولكنه بقي في أوروبا .

٤ ـ انظر مقدمات : دراسات عن حكم الخليفة الأموي معاوية الأول (لايبزغ ١٩٠٨) و «مهد الإسلام» و «غربي الجزيرة العربية قبل الهجرة» (روما ١٩١٤) .

٥ ـ وقصد بالسيرة كتب السيرة لحياة النبي (ﷺ) ، ويبدو أن لامنس قد استعمل الاصطلاح بتساهل نوعاً ما ليشمل الحديث في كتب التراجم والتاريخ الذي له علاقة بالسيرة ، ولم يحاول مطلقاً القيام بدراسة نصيه منظمة للسيرة ذاتها ، ولكنه بالأحرى استعمل مادة السيرة في مقالته النقدية حول حياة النبي (ﷺ) وبعثته ، وعن التاريخ المبكر للحركة المحمدية . وأول دراسة منشورة له حول الموضوع كانت مقالة تقديمية بعنوان «القرآن والسنة ـ كيف

★ ـ إنه أكثر من ذلك لأنه يقود إلى الزيف والبعد عن النزاهة والحياد ، وكل من بحث في التاريخ واتسمت أبحاثه بمثل هذه الصفات مرفوض حتى ولو قدسته الجمعيات اليسوعية ودعمته الأحقاد والمواريث الطائفية المقيتة مع مدافع غورو .

ألفت حياة محمد (ﷺ)» في مجلة أبحاث علوم الدين ج١ باريس ١٩١١ «عصر محمد وتاريخ السيرة» في المجلة الآسيوية ١٩١١ : ١٧/٢٠٩ - ٢٥٠ . «فاطمة وبنات محمد» - تعليقات نقدية لدراسة السيرة - روما ١٩١٢ .
ونشر أيضاً خلال تلك الفترة سلسلة دراساته الأولى حول الأمويين (انظر الحاشية السالفة) وعدداً من الدراسات عن شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بما في ذلك «جمهورية مكة التجارية في ٦٠٠» في دورية المعهد المصري - السلسلة ٥ ج ٤ ص ٢٣ - ٥٤ الذي سأعلق عليها فيما بعد في هذه المقالة ، ومن أعماله المبكرة في ميدان السيرة «الحكومية الثلاثية من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة» وهو مقال قرأه في المؤتمر العالمي للعلوم التاريخية في برلين في آب ١٩٠٨ وهي تعالج السيرة بصورة غير مباشرة .

٦ - أنظر سورية ... ١/١ والتعليق عليه أدناه .

٧ - أنيس نصولي في بيروت (١ - أيار ١٩٣٧) رقم ١٨١ ، اقتباس توتال في ترجمته للامنس (المشرق ١٩٣٧) ١٥/١٧٢ .

٨ - انظر أدناه ، في الملاحظات على دراساته الأموية .

٩ - ظهرت معظم هذه الملاحظات في الأعداد المختلفة للمشرق .

١٠ - هذا هو افتراض زكي محمد حسن في مقاله عن لامنس في المقتطف (كانون أول ١٩٣٧) ص ص ٥٥٥ - ٥٦١ .

١١ - طورت فكرة القومية السورية من قبل لامنس في كتابه «سورية» . . . «انظر أدناه» مع أن فكرة القومية السورية قد وجدت من قبل .

١٢ - سورية . . . . : ١/٥ . النقاط في الأصل .

١٣ - Weilich mich reiferen Alter nicht mehrandie charakteristik Muhammeds wagte في WZKM xxi,298,No.3. اقتبسه لامنس في القرآن والسنة . . . ص ٥ .

١٤ - ا . غولدزيهر «دراسات حول الحديث الاسلامي» (نقل وترجمة من المجلد الثاني من دراسات محمدية قام بها ليون بيرشير - باريس ١٩٥٢) ثم عرض ملخص عن الجدل الذي جاء في الفصول المختلفة .

١٥ - س . سنوك هاغرونج «سيرة جديدة لمحمد ﷺ في أعمال مختارة (ليدن ، ١٩٥٧) ص ١١٧ - ١١٨ . «تاريخ الحديث» ج ١ ص ٣٢٩ - ٣٣٠ (بون ولايبزغ ١٩٥٨)

١٦ - أعمال مختارة ص ١٢٧ «تاريخ الحديث» ص ٣٤١ .

١٧ - القرآن والحديث . . . ص ٧ .

١٨ - «هل كان محمد أميناً» ص ٤ .

١٩ ـ اعتمد لامنس هنا على مسند الدارمي (طبعة حجرية ص ٣٥٩) مع أنه من غير الواضح على أي أسس قبل شهادة حديث الدارمي ورفض كل الشهادات الأخرى حول الموضوع .

٢٠ ـ «هل كان محمد أميناً» ص ١ .

٢١ ـ معاوية الأول ص ٢٣ «الابن الأكثر حنانا ، وسيبدو أيضاً أباً نموذجيا وقريباً مخلصاً»

٢٢ ـ قبل هذا الجزء من أطروحة لامنس العلماء المتأخرين ، مع بعض التحفظات فيما يتعلق بالتفصيلات قال مونتغمري وات في «محمد في مكة» ص ١/٢٩ وقد لا يكون العلماء ككل واثقين جداً من التفاصيل ، كما بدا لامنس واثق منها ، ولكن من الواضح أن العمليات الحالية ذات التعقيد الكبير كانت تنفذ في مكة ، وكان الرجال القياديون في مكة في زمن محمد ﷺ فوق كل شيء رجال مال بارعين في معالجة رؤوس الأموال ، دهاة في مضارباتهم ويهتمون بكل احتمالات الاستثمارات المربحة من عدن الى غزة أو دمشق . وفي الشبكة المالية التي نسجوها لم تكن مكة وحدها عالقة بها بل الكثير من القبائل المحيطة بها أيضا ، إن القرآن لم يظهر في محيط الصحراء بل في ذلك المحيط المالي الرفيع»

٢٣ ـ المصدر نفسه ص ١٣ .

٢٤ ـ هل كان محمد أميناً ص ٤٤ .

٢٥ ـ جمهورية مكة ص ٥٤ . ومرة أخرى عكس العلماء المتأخرون استنتاجات لامنس «في نهوض مكة للثروة والسلطة ، لدينا تحول من الاقتصاد البدوي إلى اقتصاد تجاري ورأسمالي ، وفي زمان محمد لم يكن على أي حال هناك أي إعادة توفيق للمواقف الاجتماعية والأخلاقية والعقلية والدينية للمجتمع ، لقد كان ما يزال هناك المواقف الموائمة للمجتمع القبلي ، في الجانب الأعظم ، وعاد التوتر الذي شعر به محمد ﷺ وبعض صحابته ، بلا شك في النهاية ، إلى التضاد بين ضمير الناس والقاعدة الاقتصادية لحياتهم» . و . مونتغمري وات ـ المرجع نفسه ص ١٩ ـ ٢٠ .

٢٦ ـ هذا هو العمل الذي انتقده سنوك هـرغرونج في كتابه «سيرة جديدة لمحمد» ﷺ . انظر لامنس ـ محمد ص ٢٢ .

٢٧ ـ المصدر نفسه ص ٣٥ تعليقاً على س بيكر Der Islam ols Problem «ومع ذلك أنا لا أتجرأ أن أصل مع المؤلف إلى القول إن بدايات (dr I slaim, 1,5) الإسلام كانت حصراً دينية» .

٢٨ ـ «محمد» ص ٢٢ .

٢٩ ـ المرجع نفسه ص ١ .

٣٠ ـ نولدكه خلاصات من التاريخ الشرقي ترجمة ج . س . بلاك (لندن ١٨٩٢) ص ٢٥ .

٣١ ـ «محمد . . .» ص ١١ .

٣٢ ـ المرجع نفسه ص ٢٤ . علق غ . ليفي ديلافيدا (G.levi Della vida) ببعض التطويل على

دراسة السيرة من قبل لامنس في كتابه ,(Storia e religione nell' Orinete semitico (rome, 1924 P.127 ff. He warns the readers of Lammens against his seductive arguments while tressing the importance of his contribution: 'Occore dunque al lettore delle numerose e svariate pubblicazioni che il Lammens ha dedicate a Maometto e alle origini dell' Islam stare sempre in guardia contro le seduzioni di un'argomentazione cosi sottilmente abile da sembrare talvolta persino capzionsa e di uno stile cosi brioso ed effceace da fare spesso seambiare per una narrazione desunta da fonti esplicite e continuative ciò che non è se non un' ingegnosa maipotetca combinazione costruita sull' interpretazione soggetiva di centinaia di passi framentari, dispersi oscuri. Thuttavia la cautela con la quale la grandiosa attività del Lammens va adoperata non deve far dimenticare nè attenuare i meriti eminenti che egli si è acquisati in un ramo di studi in quale apparetanto più irto di dificoltà quanto più profondamente e minutamente lo si esamina: col Lammens polemista si può non andar d'accord, ma non si puo non inchinarsi, con respetto e con riconoscenza, dinnanzi al Lammens erudito e critico.' Ibid., pp. 128-&.

٣٣ ـ لقد سلف ذكر كتاب لامنس عن معاوية وتتضمن الأعمال الأخرى حول الموضوع «دراسات عن عصر الأمويين» (بيروت ١٩٣٠) «زياد بن أبيه والي العراق ونائب معاوية الأول» (روما ١٩١٢) «شاعر من البيت الأموي في دمشق» في الدورية الشرقية (١٩٠٣) ص ٣٢٥ ـ ٣٥٥ (١٩٠٤) ص ٣٢ ـ ٦٤ . « قرة بن شريك الوالي الأموي لمصر حسب أوراق البردي العربية» في دورية المعهد المصري ـ السلسلة الخامسة ج ٢ ص ٩٩ ـ ١١٥ .

٣٤ ـ «سورية . . . » ص ٦٣ ـ ٦٩ .

٣٥ ـ أوضح لامنس في المقدمة أن الكتاب قد كتب بناء على طلب الجنرال غورو ، المندوب السامي في أعقاب هزيمة أنصار فيصل في ميسلون في ١٩٢٠ ، وكان القصد استعماله في مدرسة خطط لها لتكون أساساً لتدريب الموظفين الأداريين لأراضي الانتداب ، وهي مدرسة لم يباشر العمل بها مطلقاً .

٣٦ ـ المصدر نفسه ص ١ ـ ٨ .

٣٧ ـ المصدر نفسه ص ٢ .

٣٨ ـ المصدر نفسه ص ٧ ـ ٨ .

٣٩ ـ المصدر نفسه : ٢/٦٦ . انظر أيضاً هـ . ليفانتين H.Levantin «ضمانات دولة لبنان» (باريس ـ بدون تاريخ) .

٤٠ ـ سورية . . . ١/٨١ ـ ٨٣ ، ١٣١ ـ ١٣٢ ، ٢/٨ ـ ١١ ، ومن أجل المردة أنظر أيضاً :
معاوية الأول ص ١٤ ـ ٢٢ ، وفي افتراضاته بالنسبة لهذين الموضوعين وبشكل خاص لحالة المردة ، وضع لامنس قدمه على أرض خطرة ، إذ أن المادة المتوفرة بعيدة عن أن تكون باته ، ومع ذلك نشر لامنس نتائجه بثقته المعتادة بالنفس .

٤١ ـ سورية . . . . ٢/٦٣ .

٢٩ - مؤرخان بريطانيان لإيران
م . ى . ياب
محاضر في تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط
مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية . لندن

لتقويم مؤرخ ، هناك أربعة أسئلة يجب الإجابة عنها ، وتتوزع هذه الأسئلة في مجموعتين ، وأول شيء ، نريد أن نعرفه هو أية معلومات كانت متوفرة للمؤرخ ، والفائدة التي حصل عليها منها ، أعني مصادره ومعداته التقنية . ثانياً نريد أن نعرف بأية أفكار مسبقة وبأي هدف تفهم مهمته ، أعني انحيازه وتحامله ، وضمن الإطار العام لهذه الأسئلة ، فإن هذه المقالة ستعالج أمر مؤرخين بريطانيين لفارس ، هما : السير جون مالكولم Sir John Malcolm والسير بيرسي سايكس Sir Percy Sykes . ووقع الاختيار على مالوكلم وسايكس لسببين ، فمن وجهة نظر التاريخ ، فإنهما يمثلان أول وأحدث محاولات للمؤرخين البريطانيين لكتابة تواريخ شاملة لفارس ، وإن المقارنة بين عمليهما تمتد مائة سنة في دراسة فارس من العهد النابليوني إلى الحرب العالمية الأولى ، عندما هيمنت على الأفكار البريطانية حول فارس ، موقفها فيما يتعلق بالحدود الشمالية الغربية للهند .

وقد نشر تاريخ السير جون مالكولم حول فارس في سنة ١٨١٥ في مجلدين كبيرين ، وكان حافز مالكولم الأول لكتابته رسمياً ، وهو تقديم معلومات حول منطقة بدأت تصبح هامة في الدبلوماسية البريطانية[٢] فقد أدى توفر خطر فرنسي بغزو الهند خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر بحكومة الهند البريطانية إلى إرسال عدد من الوكلاء للتفاوض على معاهدات ، أو جمع معلومات حول

الدول الواقعة وراء الجبهة الشمالية الغربية للهند . وكان من الواضح ، أن المعلومات المجموعة تتطلب مزيداً من المعرفة الواسعة ، وطبقاً لذلك ، قسّم الوكلاء المنطقة بينهم ، وأخرج كل منهم كتاباً . وكتب مونتستورت الفنستون حول أفغانستان[٣] ، وكتب هنري بوتنغر حول السند وبلوخستان[٤] ومالكولم حول فارس . وقاد مالكولم في العقد الأول من القرن التاسع عشر ثلاث بعثات إلى فارس وكتب : إن مواصلة واجباتي العامة ، قد أدى في البداية إلى الشعور بالحاجة إلى تاريخ لفارس[٥] . وكان باعث مالكولم الثاني أكثر دنيوية . لقد كانت كتابة التاريخ نوعاً من الإجازة المأجورة لمالكولم ، وقد بدأه مالكولم في الواقع على الأقل في ١٨٠٨ . وفي كانون الثاني ١٨٠٩ أعلن أنه قد أحرز بعض التقدم[٦] .

وعلى أي حال ، اضطر في صيف ١٨٠٩ إلى أن ينحيه جانباً من أجل عمل دبلوماسي وأدبي آخر ، ولم يعد إليه حتى ١٨١١ بعد عودته من مهمته الثالثة إلى فارس ، وفي الواقع لقد أمضى عام ١٨١١ بأكمله ، يكتب تاريخه في بومباي ، ويحصل على أجرته وعلاواته كمبعوث دبلوماسي ، وكان قد زود بعدة أمناء سر ، وكتّاب ، ومسكن على حساب الحكومة[٧] . وقد عدّ الحاكم العام لورد منتو هذا ، جزئياً ، خدمة نافعة ، ولكنه أيضاً مكافأة لمالكولم[٨] .

وفي نهاية ١٨١١ استأذن مالكولم للسفر إلى انكلترا ، ليشرف على طباعة الكتاب ، أما الهدف والباعث الثالث فقد كان الشهرة ، وقبل ذلك ببضع سنوات ، لم تكن الكتب عن آسيا شائعة ، ولكن في أوائل القرن التاسع عشر ، أثار مزيج من الاهتمام السياسي ، الذي أثارته الأحداث في الهند وحملة نابليون على مصر ، والمصالح التجارية ، والاهتمام الفكري والرومانسي العام رغبة في إنتاج كتب أفضل . وقد نجم عنها أيضاً طلب أعظم بكثير للكتب حول المواضيع الشرقية[٩] وطبقاً لذلك ، لم تجتذب كتب مالكولم فقط السياسيين والتجار الذي يحتاجون إلى معلومات عملية ، بل أيضاً الاهتمام الرومانسي في التعايش الخرافي لأسماء فارس وبخارى وسمرقند ، زد على هذا انضم تاريخ مالكولم بذلك إلى أعمال جيمس ميل James Mill والسير وولتر سكوت Walter Scott وجيمس موريير James Morier ، وقد لقي مالكولم نفسه شهرة أوروبية واسعة ، وشرِّف بمنحه درجة دكتوراه في الحقوق من اكسفورد[١٠] .

ويجب أن يعود معظم الفضل في هذه الحركة لجعل الشرق محترماً فكرياً إلى مفكر طموح نوعاً ما يدعى جيمس ماكنتوش James Mackintosh ، فلقد شغل ماكنتوش دوراً بارزاً جداً في فكر ويغ Whig في ١٧٩٠ ، وأصبح صديقاً لمالتوس بنتام malthus Bentham وسدني سميث Sydney Smith واللورد جيفري Jeffrey ، وبسبب الحاجة إلى المال ، قبل وظيفة مسجل في بومباي ، وفي بومباي ـ مع ذلك ـ شعر أنه في غير مكانه فيما بدا له أنه في وضع منعزل راكد ، وما أن جمع قدراً كافياً من المال ، حتى عاد إلى إنكلترا ، وبينما كان في بومباي ، على أي حال ، عمل كرابطة بين العالم الفكري في لندن والكتاب الناشئين في بومباي ، ومن خلال المنتدى الأدبي ، الذي أسسه كان لديه نفوذ مفيد وكبير عليهم ، وكتب :

«لقد عملت على إثارة الروح العامة وتوجيهها للتحري بين أولئك الذين كان إسهامهم الوحيد في زيادة المعرفة يجب أن يستمد من المخازن الشرقية ، ولقد حاولت أن أنشر المبادىء العامة للنقد التاريخي ، التي بدت أنها كانت منسية في حينه في التحريات الهندية»[١٢] .

وكتب ابنه : «لم يتول أي عمل ذي قيمة خلال إقامته في بومباي لم يستقل فيه بنصيحته أو أية مساعدة أخرى»[١٣] .

وواضح أن الشواهد تؤيد هذا الإدعاء ، لقد كان وليم أرسكين William Erskine و س . ج . ريتش C.J.Rich صهرين له ، وقدحث ويلكس Wilks على كتابة تاريخ ميزور ، وبريغز Briggs على ترجمة الفهرست[١٤]وقد عالجه مالكولم للمرة الأولى في ١٨٠٨ ، وأصبحا صديقين حميمين جداً[١٥] وبناء على إلحاح ماكنتوش الكبير ، بدأ مالكولم في الكتابة ، وقرأ ماكنتوش وصحح مخطوطاته[١٦] .

ويبدو معقولاً أن يفترض في حينه ، أن كتاب مالكولم كان متأثراً بقدر كبير بمناقشات المنتدى الأدبي ، ومن خلال ماكنتوش ، بالعالم الفكري «لدورية أدنبرة» وأن هذا لا بد أنه ، وسّع أفق مالكولم الفكري .

ويقع تاريخ مالكولم في أربعة أقسام رئيسة ، الأول في ٢٧٤ صفحة ، يعالج تاريخ فارس حتى الفتح العربي ، وهذا القسم مفهوم بتفصيل كبير ، ولكن بتحديد مميز . وأوقفت الفصول الستة الأولى منه على رواية التاريخ الفارسي القائم على الفردوسي وبعض كتاب العرب والفرس . وكان لا بد لمثل هذه الرواية ، من

أن تضم قدراً كبيراً من طبيعة خرافية ، وأن تستعيد قدراً كبيراً من الأهمية ، وقد عرف مالكولم هذا تماماً ، ولكنه دافع عن قراره بتضييق المجال لتاريخه على ثلاثة أسس رئيسة : في المقام **الأول** ، كان الكتاب اليونانيون واللاتينيون متوفرين من قبل في أوروبا ، وأنه كان يرغب في تقديم معلومات جديدة[١٧] وقد لاحظ **ثانياً** بذهنه المرهف ، أن الأسطورة الوطنية تشكل مثل الأمة وتعكسها[١٨] ، **ثالثاً** ، جادل مالكولم في أنه كانت هناك حقائق كثيرة مدفونة في الأساطير ، وأن هذه يمكن فقط أن تكشف بمقارنة الروايات لحدث معين بعناية وصبر ، وأن لا نحجم بسبب وجود مواد خرافية واضحة[١٩] وجادل خلافاً لأفكار ريتشارد سون[٢٠] بأنه كان هناك توافق ملحوظ بين الروايات الفارسية واليونانية ، وقام في فصله السابع بعدد من المحاولات التعسة نوعاً ما ، لايجاد التماثل ، وغطى الجزء الثاني من تاريخ مالكولم الفترة من الفتح العربي إلى قيام نادر شاه ، وشغل هذا ٣٦٩ صفحة ، وبذلك كمل المجلد الأول . ولم يعالج هذا القسم بالتفصيل نفسه كالقسم السالف ، والسبب الذي يعطيه مالكولم ، هو أن هناك معلومات وافية كانت متوفرة من قبل ، وكل ما احتاجه هو إعطاء رواية عامة ودقيقة عن الأسر الحاكمة المتتابعة ، التي حكمت فارس في تلك الفترة[٢١] . وشغل القسم الثالث الصفحات الـ٣١٨ الأولى من المجلد الثالث ، وقد أوقفها على تاريخ فارس من نادر شاه إلى قيام القاجاريين ، حيث ينتهي التاريخ ، قبل وصول مالكولم إلى فارس ، وهذا القسم أعظم تفصيلاً من سلفه ، والسبب الذي أعطاه مالكولم ، أنه منذ ارتقاء نادر شاه ، كان كل حدث يستمد الأهمية من ارتباطه بالحالة القائمة للمملكة[٢٢] .

والقسم الرابع ليس تاريخاً حقيقياً بالمرة ، بل رواية عامة للحياة الفارسية ، ويشغل النصف الباقي من المجلد الثاني .

ومع أن كتاب مالكولم ، قد صنف ليشكل رواية شاملة لتاريخ فارس ، فإنه مع ذلك يعاني من محدودية معينة ، فهو ضخم أساساً ليقدم معلومات عملية حول فارس في الزمن الذي كان مالكولم يكتب فيه ، ولهذا السبب كان لدينا القسم الكبير عن حياة فارس ، وتفاصيل إضافية عن فارس القرن الثامن عشر مع التأكيد على التاريخ الأسطوري بسبب كشفه المزعوم للخصائص الفارسية . وثانياً ، إنه

كتب من قبل دبلوماسي ، وتبعاً لذلك فإنه ينقطع عن النقطة التي عندها قد تؤدي تكملة التاريخ إلى كشوف دبلوماسية مربكة .

وقد استمد مالكولم معلوماته من مصادر رئيسة ، وأولها كانت هناك الأعمال العامة للثقافة الأوروبية ، وقد قال بكل تواضع : لقد راجعت بدقة كل مستند أوروبي بارز تحرى تاريخ الأمم الشرقية وآدابها[٢٣] ، وثانياً ، لقد كان يملك مجموعة من المخطوطات الفارسية ، وكان قد حازها خلال أسفاره في فارس . وثالثاً : سافر مساعدوه في مهمتيه الثانية والثالثة بشكل واسع ، وجمعوا قدراً كبيراً من المعلومات المباشرة ، ولبيان بعض المصادر التي اعتمدها مالكولم والفائدة التي حصل عليها منها ، أريد أن أناقش باختصار روايته حول التاريخ القديم الفارسي .

هناك تقريباً سبع مجموعات من المصادر لتاريخ فارس القديم : من أجل الفترة ما قبل الإخمينية ، هناك بينات أثرية مستمدة من وادي الفرات ، وقد اكتشفت هذه بعد زمن مالكولم ، ومن أجل الفترة الإخمينية ، كان هناك عدد من النقود والمنحوتات بالكتابة ذات الطبيعة المسمارية ، ولم تكن هذه الرموز قد حلت في الوقت الذي كان مالكولم يكتب فيه ، وثالثاً هناك الأجزاء من الكتابة الزرادشتية المعروفة باسم البستاه ، وكان لدى مالكولم معرفة غير مباشرة بهذا ، وقد رأى في بومباي نسخة من وثيقة تزعم أنها رواية دقيقة لمذاهب زرادشت المعروفة بالدساتير[٢٤] وكانت هذه الوثيقة في الواقع مزيفة ، ولكن مالكولم أخذها على أنها حقيقية ، علماً بأنه اعتقد بأنها ذات قيمة تاريخية صغيرة ، ورأى أيضاً كتاباً قائماً على هذه الوثيقة يدعى (دابستان مذاهب)[٢٥] . وقد حظي هذا الكتاب بتقريظ كبير من المستشرق الرئيس للجيل الأسبق ، السير وليم جونز William Jones[٢٦] . ولكن مالكولم أبدى تشككاً فيه له ما يسوغه ، أو رفض قسمه التاريخي بناء على بينات داخلية[٢٧] وأخيراً استعمل مرة أخرى في تعارض مع جونز عمل أنغوتيل دي بيرون Anguetil Du Perron[٢٨] الذي اعتقد بحق أنه أكثر المصادر ثقة عن الزرادشتية كان موجوداً في حينه[٢٩] . وكانت المجموعة الرابعة من المصادر ، هي المنحوتات والأختام والنقود ، والكمية الصغيرة من الكتابات التاريخية في البهلوية . وكانت البهلوية ما تزال غير مقروءة بشكل عام من قبل الأوروبيين على

الرغم من جهود بيرون ، مع أن سيلفستر دي ساسي كان قد ترجم مؤخراً بعض النقوش ، وأفاد مالكولم من ذلك[٣٠] .

والمجموعة الخامسة من المصادر كانت الكتابات العربية حول فارس ، ولم يتمكن مالكولم نفسه من قراءة العربية ، ولكنه كان قد حصل على تراجم فارسية لبعضها ، وأردفها بتواريخ فارسية مكتوبة باللغتين الفارسية أو الهندية ، وليس من الواضح دائماً أي كتاب منها رآه بنفسه ، وأي كتاب منها كان يقتبس منه بصورة غير مباشرة مثل تاريخ جزيدة لحمد الله مستوفي ، ومن الواضح مع ذلك ، أنه قد استعمل (روضة الصفا) لميرخوند ، واستعمل الطبري . ويمكن تمييز الطبري في حواشي الصفحات مثل (تاريخ طبري) ولكن المعلومات ، التي تنسب إلى هذا العمل في النص ربما استقيت من الطبري ، فقد كان مالكولم ، بلا شك ، يستعمل ترجمة البلعمي ، والشيء الغريب أن مالكولم ، لم يدرك هنا أن المصدر الأكثر قابلية للاعتماد عليه مفتوح أمامه ، وغريب لأنه بصرف النظر عن البينة الداخلية ، هناك مستند جيمس فريزر James Fraser الذي قال : يعتقد أنه التاريخ الأكثر ثقة لديهم ، وهو يحظى بتقدير كبير في الشرق[٣١] وقد فضل مالكولم على أي حال ، أن يعتمد على مخطوط نادر بعنوان (زينة التواريخ) لعزيز الله ، ووصف اليوت Elliot ودوسون Dowson هذا الكتاب بأنه تجميع بلا قيمة[٣٢] . ولا يمكنني أن أجد مزيداً من المعلومات حول عزيز الله ولكن يبدو أنه من غير المحتمل ، أنه كان عربياً كما قال مالكولم ، ومن المفترض أن النسخة التي كانت لدى مالكولم بالفارسية ، وهذا يلقي ، في هذه الحالة ، بعض الشك ، ليس فقط على حكم مالكولم بالنسبة لمصادره ، بل أيضاً على مقدرته على قراءة الفارسية ، لأنه يذكر أنه لقي مساعدة في قراءة ذلك من أمين سره الفارسي[٣٣] سادساً ، هناك الملحمة الحكومية الفارسية ، التي تجد تعبيراً عنها في الفردوسي . ويذكر مالكولم أنه كان لديه نسخ عديدة من الشاهنامه ولكن تلك التي استعملها هي طبعة كلكتا ١٨١١ . وكانت المجموعة المتقدمة والأخيرة من المصادر لتاريخ فارس القديم ، الكتابات الأجنبية المختلفة ، وشملت هذه اليونانية ، والبيزنطية ، والسريانية ، والأرمنية ، واليهودية ، ولم يتوصل مالكولم إلى أي من هذه سوى اليونانية ، وقد

استبعد تلك متعمداً من روايته ، مع أنه ذكر المؤرخين اليونانيين في الفصل السابع من أجل المقارنة .

والواقع أنه من بين هذه المجموعات السبع من المصادر ، لم يتوصل مالكولم في الحقيقة إلى شيء منها أو فعلاً لم يتوصل إلا إلى ثلاثة منها ، لقد استعمل ثلاثة منها بشكل هامشي شديد وكان اعتماده الرئيس على الفردوسي ، وجاء مرد هذا الانتقاء من بعض الجوانب نتيجة لحالة المعرفة في ذلك الوقت ، وجاء من جوانب أخرى أيضاً انتقاء متعمداً من قبل مالكولم ، أضف إلى هذا أن استعماله لهذا الانتقاء المحدود من المصادر لا يوحي بالثقة .

لم تكن نظرة مالكولم للتاريخ الفارسي عقائدية ضيقة ، وقد كتب : «علينا أن نتذكر أن الناس تشكلوا بواسطة العادة ، وأن كل معاناتنا ومسراتنا نسبية . . . تجردنا الاحساسات التي نتلقاها من المعيشة في حالة واحدة من المجتمع من أهلية الحكم على مشاعر الآخرين . . . إنه لأمر حقيقي وعادل أن نكون ممتنين لنعمة الحضارة ، ولكن يجب أن لا ندعي تفوقاً عظيماً على الذين استمروا على حالة أكثر بربرية»[٣٤] .

ومع ذلك وجد مالكولم التاريخ الفارسي محزناً ، وتبقى فارس بشكل أساس بربرية ، فليس هناك تقدم ، والكآبة المهيمنة تزول من حين لآخر بواسطة ملوك مثل أنوشروان العادل وأول السلاجقة ، ولكن الرخاء سريع الزوال ، فيظهر حاكم ضعيف، وتعود حالة البلاد إلى وضعها الطبيعي من الفوضى والبؤس، وكان مالكولم نفسه مؤمناً عاطفياً بالحرية ، ولكنه جادل بأن الآسيويين لا يعرفون قيمتها ، وكان مستعداً لقبول أنهم يفضلون الأمن ، وأن هذا يحتمل الحصول عليه تحت ظل امبراطور قوي أكثر منه في ظل واحد ضعيف ، وأدى هذا بمالكولم إلى إصدار بعض الأحكام الأخلاقية من معايير لم يكن ليطبقها على الأمم الأوروبية ، فعلى سبيل المثال كتب دفاعاً عن أعمال آغا محمد في توصله إلى العرش على أساس أن سياسة الإرهاب ربما كانت النمط الوحيد الذي يمكن به للأمم غير المتحضرة أن تبقى في سلام[٣٥] .

ووجدت معاملة عباس الكبير لأبنائه ما يسوغها على أساس الافتراض أنها كانت ضرورية لإنقاذ الدولة من الفوضى ، ولقد كان هذا معياراً للأحكام ، ومع

ذلك لم يمض مالكولم به بعيداً ، لقد احتاج أن يرى بعض المزايا الإيجابية لأعمال القسوة ، وسقط تيمور دون هذا المعيار إلى حد ما ، أما السلطان محمد ، فكان مداناً تماماً[٣٧] . وبشكل عام ، كان لا يدين الحكم المطلق في حد ذاته ، ورآه عرضاً أكثر منه سبباً ، وآثاره المعنوية أسوأ من مادته ، وبالنسبة لمالكولم ، إن أسوأ عرض للتفسخ الفارسي هو المعنويات والأخلاقيات المنحطة للناس ، فالفرس جهلة غشاشون ومتقلبون ، وفوق كل شيء إنهم مغرورون تافهون والسمة الغالبة ، هي الغرور المسيطر ، الذي يميز الأمة بكاملها[٣٨]

وسأل مالكولم نفسه ما هو السبب في هذا النقص في التقدم ، وهذه المعنويات الهابطة ، وهذا التعاقب الدائم للحروب الدموية الحمقاء ، وأعطى للأخيرة جواباً ساذجاً ، في الأمم المتمدنة يأتي الجيش من جماهير السكان ، ويمكن دعمه بشكل أفضل في زمن السلم ، عندما تكون الموارد أكبر مما هي عليه في زمن الحرب ، وفي الأمم البربرية ، مع ذلك ، يُجند أفراد الجيش من طبقة منفصلة عن تلك التي ينتمي إليها غالبية السكان ، وهم غير مأجورين بشكل متواصل ، وبالتالي فإن الحرب جوهرية لإبقاء الجيش منتظماً ، ولجعله يطعم ويؤجر ، ولتفادي الخطر على السلام الداخلي من تسريحه[٣٩] .

وبالنسبة للسؤال الأساس حول نقص التقدم أعطى جواباً ، بأنه بسبب الإسلام ، وخاصة بسبب وضع النساء ، ولم يكن مالكولم يحب الإسلام ، وكان يقول إن سماته الطيبة مأخوذة من المسيحية . وبالنسبة للباقي إنه «دين معادٍ لكل تحسين ، لأنه ترك اتباعه مقيدين بسلاسل التعصب والخرافات ، وماذا يمكن أن يكون نتيجة لمثل هذه العقيدة غير البربرية[٤٠] ولا يوجد مثال عن أمة محمدية أحرزت منزلة عالية في ميزان المدنية» .

ولِمَ هذا ؟ هناك سببان ، أول كل شيء هناك مثل النبي وخصائص بعض العقائد المحمدية التي تشجع على الحرب والعنف[٤١] وثانياً هناك عادة تعدد الزوجات ، وعزلة النساء التي ، بلا شك ، كان لها تأثير ، نادراً ما كان ثانوياً بالنسبة للأسباب الأخرى المتعلقة بتأخر تقدم المدنية بين تلك الأمم التي تبنت هذه العقيدة[٤٢] .

وكتب مالكولم في مكان آخر : «لا توجد حالة لها نتيجة أكثر ارتباطاً بالأحوال وبخصائص الناس من القوانين والعادات التي تتحكم بأوضاع القرابة وتزاوج الأجناس ، وعليها ، ربما أكثر من جميع الأسباب الأخرى ، تعتمد الحالة المعنوية لبلد ما وتقدمه والتحسين العام فيه ، وكثير من الأمم التي سمحت لنسائها بأن يشاهدن علناً ما زالت باقية في حالة بربرية ، ولكن ليس هناك شاهد على أن سكان أي بلد كانت فيه عادة وضعهن داخل الأسوار وحرمانهن من مزايا التعليم ، قد توصلوا قط إلى أية مرتبة متقدمة في حياة مدنية»(٤٣) .

ومضى مالكولم في أحكام هذه النظرة وفي وصف شرور الحريم : «ترى أمم فارس ، مثلها مثل جميع الأمم المحمدية ، نفسها مخولة بالانغماس غير المحدود في مباهج الحريم ، وهذا يؤدي إلى الضعف ، وقد أعطى مالكولم نظرية جديرة بالاعتبار ، وهي أن خصي آغا محمد وحرمانه من شهواته الجنسية وصرفه لطاقاته عن هذا السبيل ، كان السبب المباشر لكسبه العرش . وعلى هذا يؤدي الولع بالنساء ، بالمقام الأول ، إلى إفراط جنسي وإلى ضعف يتبع ذلك ، وفي المقام الثاني يشجع وضع النساء على الاستبداد ، فالمسلم طاغية في البيت ، وعليه فهو طاغية في الحكومة» .

«إنه[الإسلام] بإنزاله نصف الجنس البشري إلى حالة العبيد ، جعل النصف الثاني طغاة ، وبذلك وضع عقبة لا تقهر تقريباً في طريق التقدم نحو التحسين والمدنية»(٤٤) .

وفي المقام الثالث يعد هذا الموقف أحد البواعث الرئيسة للأعمال الجيدة والعظيمة . و«لم ينظر إلى تأثير النساء وهن يتمتعن بموقعهن الحق في المجتمع ، بأنه أكثر من مجرد القيام بتليين الطباع الخشنة وتلطيف انفعالات الغضب لدى الرجل بدلاً من أنه يبعث على القيام بالأعمال الخيرة الجريئة ، وغالباً ما أعطي الإعجاب بالسيدات العاليات النشأة وللجمال الشخصي بدلاً من الشجاعة والفضيلة والموهبة ، ويمنح الأمل في إحرازها الانسان الطهارة والنقاوة وأعلى الحوافز لصنع الأفعال العظيمة والرائعة» .

«وقد ذكر من قبل ، أن دين محمد (ﷺ) يقر ، إن لم يكن يطور ، الاستعمالات التي تبقي الجنس الأنثوي في حالة التبعية ، وأتباع هذه العقيدة بناء

عليه ، يجب أن ينادى بأنهم غرباء عن هذا الباعث النقي ، ولكنه القوي في العمل الإنساني»[٤٥] .

ومن الواضح إذن أن مالكولم ، عدّ العلاقات الجنسية أساسية في فهم التاريخ الفارسي . وفي الحقيقة يبدو أن هذا كان هاجساً قد تلبسه ، فهو كان مهيئاً تماماً لتسويغ سياسة آغا محمد الإرهابية ، ولكن كان هناك ناحية واحدة لم يقبلها ، وهي ممارسة نادرة ، ألا وهي وهب زوجات وبنات النبلاء الثائرين للطبقة الأدنى : «ما من تسويغ يمكن أن يرضي عقولنا حول ممارسة هي في الوقت نفسه شائنة وغير إنسانية وظالمة ، وتتميز ربما فوق كل شيء آخر من الأمور التي ذكرت بالوحشية المطلقة للسلطة البربرية الطاغية»[٤٦] .

إن نجاح الفرس القدامى الأسطوريين منسوب بشكل رئيس إلى الاحترام العظيم ، الذي حظي به الجنس الأنثوي[٤٧] .

ماهو الأصل في هذه الأفكار ؟ إن المشكلة حتماً تحل نفسها بسؤالين ، هل لاحظ مالكولم الأعراض وعرفها بشكل صحيح ؟ وهل حدد السبب بشكل مباشر ؟

وبالنسبة للسؤال الأول ، يجب أن نلاحظ أولاً رواية مالكولم الخاصة لطريقته في النظر للأمور : «لقد درست بوضوح وإمعان والتمست الحقيقة ، وآرائي التي عبرت عنها بحرية ثابتة ، ربما كان لها بعض القيمة لكونها لرجل كانت دروسه الوحيدة التي تعلمها في مدرسة الخبرة»[٤٨] .

وبكلمات أخرى كان مالكولم ينتمي إلى المجموعة الخاملة من الرجال البسطاء العلميين ، الذين كانوا هناك ، وكانت صلات مالكولم مع فارس صلات موظف دبلوماسي ، وكانت وظيفته هي ضمان ولاء فارس ، وقد ورطته في بعض المساومات الصعبة والإنفاق الكريم ، ويقال إنه وزع المال بدرجة جعلت الفرس يعتقدون أنه ، كان يحصل على نسبة من كل ما ينفق ، وعلاوة على ذلك ، لم يحصل مالكولم بالإجمال سوى على نجاح صغير ، وليس مدهشاً بناء على ذلك أنه وجد الخلق الفارسي منحطاً ، وثانياً كانت فكرة مالكولم عن أسباب عدم التقدم متفقة مع نظرته العامة إلى الأشياء ، لقد أبحر إلى الهند في الثالثة عشر من عمره . ومنذ ذلك الوقت عاش في العالم الرومانسي للجندي الهندي ، وفي عالم الفروسية

الأكثر تهذيباً للمجتمع الأنكلو ـ هندي ، حيث كانت المرأة الأوروبية من الندرة بمكان ، لذلك حظيت بالدلال والحماية ، وكان هو نفسه قد تزوج لتوه قبل رحيله في مهمته الثانية إلى فارس ، وكتب إلى زوجته :

«أحس بفخر واع أنني بامتلاكك ، أملك أقوى حافز يمكن أن يكون لدى أي رجل للقيام بعمل مشرف»[٤٩] .

ومن الواضح أن هذه الفكرة ، كانت نتيجة خبرة محدودة نوعاً ما ، حولت رجلاً مغامراً بطبيعته إلى نصير للفروسية الرومانسية ، ومع ذلك فإن هذه الفكرة بالضبط ، هي التي توجد جذور تفسير مالكولم للبواعث في التاريخ الفارسي ، لقد وضع أفكاره الخاصة حول العلاقـات الزوجية كعامل حاسم ، ولأنه وجدها غائبة في فارس ، فقد جعل من غيابها المؤثر الأقوى في التاريخ الفارسي .

وكان السيد بيرس سايكس مثل مالكولم موظفاً ، وقد نقل من الجيش الهندي إلى الخدمة القنصلية في كرمان وسجستان في شرقي فارس ، وهي منطقة حدودية ، كانت شديدة الحساسية في تلك الفترة،وقد انحصر القسم الأعظم من سنوات خبرته الكثيرة في فارس ، في الأجزاء الجنوبية والشرقية . وكان لدى سايكس بواعث كثيرة لكتابة كتابه ، وكان الأول فكرياً ، حيث لم يكن قد كتب أي تاريخ شامل لفارس منذ تاريخ مالكولم الذي جسد نتائج البحث الحديث ، ولم يشعر سايكس مع ذلك بأن هذا مسوغ كاف لكتابة التاريخ لفارس من أجل التاريخ وحده ، بل لأن فارس قد مارست نفوذاً كبيراً على كثير من بلدان آسيا ومن خلال الإغريق على أوروبا نفسها[٥٠] وهذا الإحساس مصور في الكتاب في كثير من المناسبات التي يتابع فيها سايكس موضوعات لم تتعلق حقاً بموضوعه ، ولكنها ربما تجتذب القارىء الإنكليزي ، وعلى سبيل المثال أعطى روايات مطولة حول حياة الإسكندر الأكبر والحروب الصليبية ، ولديه فقرة غير ضرورية حول الحاج البريطاني الأول الذي وصل فارس[٥١] وربما كان الأكثر أهمية ، أن الكتاب كان يراد له أن يكون دليلاً حديثاً للناس الذين لهم ارتباط بالحكومة ، واتضح ترتيب سايكس الظاهر للأهمية من قائمته للأهداف ، التي أريد لتاريخه أن يحققها ، فهو أمل ، أول كل شيء ، أن يكون مفيداً للحكومة البريطانية ، ولصانعي الرأي العام في بريطانيا ، وأمل ثانياً في أن يكون مفيداً لطلاب التاريخين

اليوناني والروماني ، ممن أرادوا معرفة وجهة النظر الفارسية التي ادعى سايكس أنه قد أدركها إلى حد ما ، وأمل ثالثاً أن يساعد الفرس على أن يدركوا بشكل أكمل روعة تاريخهم[٥٢] ورابعاً يبدو أن سايكس ، كان يقصد أن يثير الكتاب للإصلاح في فارس وقبول الاتفاقية ، وقد ختم كتابه بقوله : أرفض أن أتخلى عن الأمل ، مع أنني غير واثق مما قد تنجلي عنه الأوضاع الآن ، وإنني أناشد فارس أن تدرك الصدق كما هو مطروح الآن من قبل صديق قديم مخلص في هذه الحقبة الحديثة التي بدأ يبزغ فجرها ، لتشغل دوراً يليق بماضيها العظيم[٥٣] وأخيراً استلهم سايكس سحر إيران الرومانسية ، الذي دفعه حينما كان يخدم في الهند للسفر إلى فارس .

وجاء كتاب سايكس في مجلدين ، غطى الأول الفترة حتى أوائل العصر العباسي ، وامتد الثاني من حوالي سنة ٨٠٠ م إلى الفترة التي كان سايكس يكتب فيها ، وأعطيت في هذا المجلد كمية كبيرة ، لا بل كبيرة جداً غير متكافئة للقرنين التاسع عشر والعشرين ، وهذا يتعارض تماماً مع ما جاء لدى مالكولم ، ومرده إلى نشاط سايكس في جنوبي فارس خلال الحرب العالمية الأولى ، فقد اختلف الميزان آنئذ عن ميزان مالكولم ، بيد أنه كانت هناك المعالجة الروتينية نفسها للفترة من الفتح العربي حتى نادر شاه .

وجاءت أخبار القرن الثامن عشر مع ذلك مضغوطة بشدة ، بالمقارنة مع مالكولم ، ولكن الفترة الأكثر حداثة جرى توسيعها نسبياً ، ويفترض للغاية نفسها كما عند مالكولم في وصف الوضع الراهن آنذاك في فارس ، وعلى كل حال عالج سايكس ، خلافاً لمالكولم ، الفترة الأكثر حداثة بشكل شامل ، وهذا بلا شك يعكس الموقف الدبلوماسي المتغير جداً لفارس بعد الحرب العالمية الأولى بالمقارنة مع موقفها أيام نهاية الحرب النابليونية ، حيث لم يعد هناك أية حاجة للقلق حول إغضاب روسيا ، وأعظم تغيير على أي حال كان في التاريخ القديم لفارس ، فقد اكتفى مالكولم بكتابة الروايات الأسطورية للمؤرخين العرب والفرس حول فارس وقارنها باختصار مع روايات المؤرخين اليونانيين ، في حين عاد سايكس مباشرة إلى بدايات المدنية في دلتا الفرات ، وبيّن النهوض التدريجي لفارس ، معطياً انتباهاً

عظيماً إلى حكم قورش وداريوس ، وهي فترة مهملة تماماً من قبل مالكولم ، وقد عدها سايكس أعظم فترة في التاريخ الفارسي .

والشيء الأكثر إدهاشاً بشكل مباشر حول مصادر سايكس ، أنها لم تشمل كتاباً واحداً بلغة غير أوروبية ، وكان سايكس نفسه يعرف الفارسية ، وفي تاريخه حول كرمان . وفي كتابه «عشرة آلاف ميل في فارس» ، استخدم مخطوطات فارسية ، ولكن في تاريخه الشامل وفي تعارض أكثر إثارة للدهشة مع التاريخ الأدبي ، لبراون ، اعتمد كلياً على الترجمات والمراجع الثانوية ، ففي القسم الأول من القرن التاسع عشر على سبيل المثال ، استمد ، في الواقع ، بشكل كامل من تاريخ واتسون Watson ، والشيء البارز الثاني حول مصادر سايكس ، هو أنها بدت وكأنها تروي قصة فارس من الخارج ، وكان مالكولم قد انطلق متعمداً إلى كتابة التاريخ الفارسي من الداخل ، أي كما رآه الفارسي ، ومع سايكس ، على أي حال ، جاءت الصورة معكوسة كلياً . فمصادره من أجل فارس القديمة كانت ، مع بعض الاستثناءات البارزة ، آشورية ، وبابلية ، ويونانية ومن أجل فارس العصور الوسطى عربية ، ومن أجل فارس الحديثة أوروبية . ولا شك أن هذا الترتيب فيه تطرف بالصنعة ، وخاصة ما يتعلق بالعصور الوسطى ، عندما كتب المؤرخون الفرس بالعربية ، ولكنه ما يزال ـ كما يبدو ـ يحتفظ بصدق كبير .

ولمقارنة كتاب سايكس بكتاب مالكولم ، يمكن أن نبحث في مصادره عن التاريخ القديم لفارس ، ففي حين اعتمد مالكولم إلى حد جيد على الكتابات الفارسية ـ العربية ، وسع سايكس مجاله ليغطي في الحقيقة مجمل المجموعات السبع من المصادر المدرجة ، ومرد هذا من بعض الجوانب ، إلى حقيقة أن البحث قد تقدم في جميع الفروع خلال القرن التاسع عشر ، ومن جوانب أخرى إلى استبعاد مالكولم المتعمد للمصادر الكلاسيكية حول الاخمينيين والفرثيين والساسانيين ، وبالنسبة للفترتين الاخمينية وما قبل الاخمينية ، أمكن لسايكس أن يستعمل الأدلة الأثرية المستمدة من الحفريات ، التي أجراها الفرنسيون في سوسة ، ووولي Woolley في أور ، وبينات الكتابات المسمارية التي قام بحلها روالنسون Rawlinson وغروتفند Grotefend ولارسن Larsen . وبالنسبة للساسانيين أمكنه أن يستمد من المصادر البهلوية ، وحتى من البعثات الصينية ،

وكان تأثير هذا هو إنتاج صورة موسعة كثيراً ، وأكثر شمولاً للأنشطة التي كانت تؤثر في الحياة على الهضبة الإيرانية ، حتى ولو أن هذا قد يسمى فقط بالتاريخ الفارسي مع توسع في الخيال ، ويبين هذا القسم الذي يصور بأعظم قوة تأثير التقدم في المعرفة والتقنية منذ زمن مالكولم ، واختياره كمثال لا يشوه الفروق بين التاريخين ، لكن مقارنة الفترة الأخيرة لن تكشف بالمرة الفروق نفسها .

وفي الحقيقة إن قسم سايكس حول التاريخ القديم لفارس هو إلى حد كبير القسم الأكثر قابلية للقراءة من كتابه ، وإن الفترة من ٦٠٠ ـ ١٥٠٠ م هي سلسلة طويلة من المعارك الموصوفة بتفصيل كبير ، وعن أحداث مشوشة معقدة دون محاولة لإعطاء حياة أو معنى لها ، إنه حقاً تاريخ عسكري مع أضواء سياسية جانبية ، فكثيراً ما كان سايكس ضحية عاداته واهتماماته كجندي ، لقدكان يقدم ، عندما لا تكون المادة سياسية في المقام الأول ، صورة أكثر توازناً للحياة في فارس ، ولكن عندما سمحت المادة بذلك ، أرضى نفسه بحبل من المعارك[٥٥] ، وتملص من عرض التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بطريقة مثل قوله : «يمكن التقاط القليل عن تاريخ الجماهير في تلك الفترة [العباسية إلى المغولية] ولكن من المعقول افتراض أنه اعتمد إلى أبعد الحدود على القوة أو الضعف ، العدل أو الظلم لدى الملك وولاته ، وليس هناك من شك أنه كقاعدة كان هناك قمع رهيب ، لأن هذه هي الحالة الطبيعية للشرق في ظل حكومة آسيوية»[٥٦] .

وأبسط طريقة يمكن بها تصوير طبيعة تحامل سايكس وانحيازه ، هي التحول مباشرة إلى الطريقة التي فسر بها البواعث في التاريخ الفارسي ، وتقع تفسيراته في مجموعتين : اهتم سايكس في المقام الأول بدرجة كبيرة ـ افتراضاً نتيجة لاهتمامه الخاص ـ بالجغرافية والأسفار ، ومن كتابات السورث هانتنغتون Elsworth Huntington في تأثير الجغرافية على التاريخ ، وأثر الجفاف في وسط آسيا والهجرات التالية ، والحروب والغزوات . وثانياً هيمنت عليه فكرة «الخصوبة» وبالنظر في مجلداته يمكن للمرء أن يجد الكثير من الأمثلة على هذا ، إن الترف هو الذي سبب سقوط اليونانيين ، وسبب فقدان الخصوبة انهيار الأمويين ، وأدى الجبن والتخنث والفساد إلى هزيمة الصفويين أمام الأفغان[٥٧] وأدان على الوجه

الآخر «للمدالية» السمة الأكثر بروزاً للاخمينيين والفرثيين في نقص تخنثهم ، وغدت الخصوبة هي المعيار ، الذي يحكم به التاريخ على الأمم والأفراد .

لقد توقفت الأمة الفارسية في ١٧٢٢ عن أن تكون خصبة ، وكان حكم التاريخ أنها عندما سقطت ، سقطت بحق من خلال جبنها[٥٨] ولم يلصق باتهامه هذا جريمة كبيرة ، ولكن طالما أن فقدان الخصوبة أو الشجاعة في الملكيات الأوتوقراطية هو عيب أسوأ من كثير من الجرائم ، فإن يزدجرد الثالث يقف مداناً ، ومداناً بحق أمام التاريخ[٥٩] .

واستمد سايكس من التاريخ الفارسي دروساً عامة ، حول أهمية الخصوبة يمكن أن تنطبق على أوروبا : «أن تكون أباً لأبناء كثر ، كان وما يزال يوصف برهاناً على حسن الحظ ، وفي هذا إن موقفهم بالتأكيد أكثر تعقلاً من الأوروبي الحديث ، الذي يتهرب من واجبات الأسرة[٦٠] .

إن الخصوبة معبر عنها بالبسالة والطاقة ، وهي أفضل أصل يمكن أن تطعم عليه الفضائل الأخرى»[٦١] .

ليس من الواضح مطلقاً ما هو المقصود من الخصوبة بكل دقة ، وحدد معنى الترف والخصوبة عادة على أن كلاً منهما مناف للآخر ، وليس من السهل دائماً ربط الأعراض بدقة ، أحدها بالآخر ، وهكذا فإن الولع بالنساء لدى محمد شاه هو علامة على الترف ، ولدى نادر شاه علامة على الخصوبة ، ومع ذلك فإن هناك زمراً معينة يمكن تمييزها ، إن البدوي خصب ، وساكن المدينة مخنث ، والعرض الرئيس للترف هو الحريم ، وغالباً ما يظهر أن غياب المدنية هو قوة وخصب وخير ، وأن بركات المدنية في الواقع من مفاسد الترف . وبعدما فرغ من وضع هذه المعايير انتقل سايكس إلى إصدار حكمه الأخلاقي على أساسها ، وتسير الصيغة هكذا :

١ ـ ناجح = خصب = عادل = جيد .

٢ ـ غير ناجح = ضعيف = ظالم = سيء .

لقد كان تيمور صانعاً عظيماً للتاريخ[٦٢] وبالتالي تصبح جميع أعماله جيدة ومسوغة بالسياسة ، وتسوغ معاملة هارون الرشيد للبرامكة[٦٣] ، ومعاملة عباس

الكبير لأبنائه[٦٤] على الأسس نفسها ، ومن جانب آخر ان الرجل الجيد الذي يخفق مدان .

ويبقى علي «خارجاً» باعتباره الخليفة الذي كان نبيلاً جداً ، ورفيع الفكر بالنسبة للمحيطين به[٦٥] .

لقد كان في قفر أحكام سايكس ، عبادة النجاح وعقيدة سبارطة ، وتقوم المشكلة: من أين جاءت هذه الأفكار؟ إنها لم تكن دينية ، لقد كانت ديانة سايكس فقط مجموعة من القوانين الأخلاقية ، أفكار طيبة ، وكلمات طيبة ، وأعمال طيبة ، وأصولها بالتأكيد من المدرسة الفكتورية الشعبية العامة ، وعقيدة جندي . وقد ذهب سايكس نفسه إلى رغبي Rugby وساند هيرست Sand harst وربما كانت الجريمتان الكبيرتان في قانون الدكتور إرنولد Arnold الجبن والكذب ، وعلى هاتين النقطتين أدان سايكس الأخلاق الفارسية ، فقد أخذ من سعدي عن طريق براون مسألتين : أولاهما أن الفرار من ميدان المعركة يمكن أن يقبل التسويغ في ظل بعض الظروف ، وثانيتهما أن كذبة موائمة أفضل من حقيقة مؤذية ، وهاتان تظهران كما قال كيف أن الأخلاق الشرقية بعيدة عن أخلاقنا ، ولعل اتجاه تفكير سايكس بدا أكثر وضوحا في فقرة قارن فيها الأمبراطورية الهلنستية بالبريطانية ، وقال: «جاء إداريو الامبراطورية من المدارس العامة ، حيث دربوا على إعطاء نمط رفيع ، يشبه في كثير من النواحي أفضل المثل اليونانية بشكل أقرب من أي شيء آخر منذ سقوط بلاد الأغريق»[٦٥] وأخيراً لمحاولة إجراء بعض المقارنة بين هذين الكاتبين: بالنسبة للمصادر إن أول مايتضح هو التقدم الكبير في المعارف في مائة عام ، مع أن هذا مبالغ فيه في الأمثلة المستخدمة ، ثانياً ربما يلاحظ أن كلا الكاتبين حصر نفسه في الإفادة فقط من المصادر المتاحة ، وهذا بدوره يؤدي إلى مقارنة بين مواقفهما ، لقد كان هناك بعض التشابه ، فكلاهما لم يكونا مؤرخين محترفين ، لقد كان ما حولهما محصوراً ، في كلتا الحالتين ، في خبرتهما بالبلد ، وكانا

★ ـ رغبي مدينة إنكليزية شهرت بمدرستها التي تأسست في ١٥٦٧ والتي طارت شهرتها في ظل إدارة د . توماس أرنولد ١٧٩٥ ـ ١٨٤٢ . وساند هيرست أيضا بلدة إنكليزية شهرت لكونها مقراً للأكاديمية الملكية العسكرية التي تأسست في ١٧٩٩ .

موظفين يكتبان في المقام الأول للموظفين ، ومن هذه النقطة وما بعدها هناك مع ذلك فروق هامة ، لقد تعلم مالكولم بنفسه ، وكان فارساً رومانسياً ، وكان سايكس من خريجي المدرسة الفيكتورية العامة ، وبالنسبة لسايكس ، استبدلت الحرية بالنظام والقوة ، ووقع كلا الرجلين في الخطأ المشترك وهو الكتابة حول الشرقيات والأمم الشرقية ، عندما كانا يعنيان الفرس وفارس ، ولكن هناك فرقاً واحداً في موقفهما واضحاً تمام الوضوح . هو أن مالكولم ، الذي كان تماسه مع فارس إجمالاً مذلاً نوعاً ما ، كره الفرس ووجد تاريخهم محزناً في حين كان لدى سايكس الذي أمضى أسعد سنواته في فارس حباً هائلاً للناس في تلك البلاد ، وقد وجد ماضيهم رائعاً[٦٦] .

وفي الختام قد يكون حسناً أن نقول شيئاً عن الأفكار ، التي تقف وراء هذه المقالة : لقد بالغت في تبسيط موضوع معقد ، وهذا لا مفر منه في مقالة بهذا الحجم ، وكان الباعث الرئيس عليها ، على أي حال ، محاولة الكشف عن الأفكار التي تحكمت في هذين الكاتبين ، لأن أفكارهما حظيت بالرواج التاريخي ، وقد مثل أول كل شيء الموقف الروحي الذي هيمن على الكتابة البريطانية عن فارس حتى سايكس ، وتجد تعبيراً حتى أكثر تميزاً في عمل واتسون Watson وكرزون Gurzon ، وهذه ظاهرة مميزة للكتابة البريطانية عن الهند في الفترة نفسها ، ولكن ليس بشكل عام في الكتابة عن الشرق الأوسط ، هذا لأن فارس ، مثل أفغانستان ، كانت ذات أهمية رئيسة لبريطانيا كمشكلة للدفاع الهندي ، وثانياً لقد أكدت على أثر العوامل الشخصية التي أثرت في التفسير والتبيان ، وفي حالة سايكس ، لم يكن هذا أمراً فردياً صرفاً ، أن عقيدة عبادة البدائيات التي وجدت في عمله ، قد عبر عنها العديد من الكتاب حول الشرق الأوسط ، وهي المسؤولة عن أسطورة العربي النبيل في الصحراء ، وكان لها تأثيرها على السياسة البريطانية الخارجية ، وقد اقترحت هنا أنها تجد أصولها في المدرسة الفيكتورية العامة ، ولكنه اقتراح مؤقت .

هوامش البحث

١ ـ لقد استخدمت طبعة ١٨١٥ ، وقد نشرت طبعة أخرى في ١٩٠٩ .

٢ ـ C.P.Edmonstone to Malcolm من س . ب . ادمنستون إلى مالكولم . وقد اقتبس السير ج . و . كاي J.W.Kay حياة مالكولم . مجلدان . لندن ١٨٣٦ ٢/٦٠ ـ ٦١ .

٣ ـ مونتستورت الفنستون Mountstuart Elphinstone رواية حول مملكة كابل . مجلدان لندن ١٨٠٥ .

٤ ـ هـ . بوتنغر H.Potenger رحلات في بلوخستان والسند ـ لندن ١٨١٦ .

٥ ـ مالكولم ـ التاريخ ١/٩ .

٦ ـ كاي ـ حاشية ١ ص ٤٥٠ .

٧ ـ كاي : ٢/٥٩ ـ ٦٠ .

٨ ـ كاي : ٢/٦٠ .

٩ ـ من الكابتن C.P.Elphinstone س . ب الفنستون إلى و . إرسكين W.Erskine ٢٨ آذار ١٩١٣ في سيوت . ي . كولبروك T.E.Colebrooke . حياة ألفنستون (لندن ١٨٨٤) . ١/٢٦١ ـ ٢٦٢ .

١٠ ـ كراي : ٢/١٤١ .

١١ ـ من أجل السير جيمس ماكنتوش انظر س . ج . ماكنتوش (طبعة) مذكرات سير جيمس ماكنتوش طبعة ثانية مجلدان (لندن ١٨٣٦) .

١٢ ـ ماكنتوش ١/٤٤٤ .

١٣ ـ ماكنتوس ١/٢٤٢ .

١٤ ـ ماكنتوش ١/٢٤٢ .

١٥ ـ كاي ١/٤٠٨ .

١٦ ـ ماكنتوش ١/١١٨ .

١٧ ـ مالكولم : ١/١٠ .

١٨ ـ مالكولم : ١/٧ .

١٩ ـ مالكولم : ٢/٧٤ .

٢٠ ـ ريتشاردسون ـ أطروحة حول لغات وآداب وأخلاق الأمم الشرقية لندن ١٧٧٨ .

٢١ ـ مالكولم : ١/٢٧٥ .

٢٢ ـ مالكولم : ١/٢٧٥ .

٢٣ ـ مالكولم : ١/١٠ .

٢٤ ـ نشر فيما بعد ـ بومباي ١٨١٨ .

٢٥ - كتب في القرن السابع ترجمة إنكليزية (باريس ١٨٤٣) انظر الموسوعة الإسلامية الطبعة الأولى - مادة دابستان المذاهب .
٢٦ - انظر براون - التاريخ الأدبي لفارس ١/٥٤ - ٥٥ .
٢٧ - مالكولم : ١/١٨٣ - ١٨٤ .
٢٨ - أنغوتيل دي بيرون - البستاه ٣ مجلدات (باريس ١٧٧١) .
٢٩ - مالكولم: ١/١٩٣ .
٣٠ - استعمل أنغوتيل دي بيرون البهلوية وبحث سلفستر دي ساسي في كتابه في مختلف مراحل تاريخ فارس القديم (باريس ١٧٩٣) وهو مستمد من معجم بيرون .
٣١ - جيمس فريزر - نادر شاه ، لندن (١٧٤٤) طبعة ثانية الفهرس ص ٤ .
٣٢ - اليوت وداونسن تاريخ الهند ٧/١٦٦ - ١٦٧ .
٣٣ - مالكولم : ١/٣٩ .
٣٤ - مالكولم : ٢/٦١٩ - ٦٢٠ .
٣٥ - مالكولم : ٢/٢٧٢ - ٢٧٥ .
٣٦ - مالكولم : ١/٥٦٥ - ٥٦٦ .
٣٧ - مالكولم : ٢/٢٠ .
٣٨ - مالكولم : ١/٦٢٢ - ٦٢٣ .
٣٩ - مالكولم : ٢/١٣٩ .
٤٠ - كاي حاشية ١ ص ١١٠ .
٤١ - مالكولم : ١/١٦٩ - ١٧٠ .
٤٢ - مالكولم : ٢/٦٢٢ .
٤٣ - مالكولم : ٢/٥٨٧ .
٤٤ - مالكولم : ١/١٦٩ - ١٧٠ .
٤٥ - مالكولم : ٢/٥٨٧ - ٥٨٨ .
٤٦ - مالكولم : ٢/٤٥٥ .
٤٧ - مالكولم : ١/٢٧٠ .
٤٨ - مالكولم : ١/٩ .
٤٩ - كاي : ١/٤١٤ .
٥٠ - السير ب . سايكس - تاريخ فارس طبعة ثالثة مجلدان (لندن ١٩٣٠) ١/١١ .
٥١ - سايكس : ٢/٤٢ .
٥٢ - سايكس : ١/١٢ هناك رواية مشابهة في مقدمة سايكس لتاريخه عن أفغانستان (لندن

١٩٤٠) مجلدان : ١٣/٢ والترتيب هنا من الطبعة الأولى . وفي مقدمة الطبعة الثالثة يعكس هذاالترتيب ، ووضع أمله في أن يكون فيه بعض النفع لأهل فارس أولاً ١٣/١ ولم يترجم تاريخه على أي حال إلى الفارسية حتى ١٩٤٤ قارن أيضاً سايكس «عشرة آلاف ميل في فارس» (لندن ١٩٠٢) ص ١٠ .

٥٣ ـ سايكس : ٥٤٠/٢ .

٥٤ ـ سايكس «عشرة آلاف ميل» ص ١ .

٥٥ ـ يجب أن ينسب بعض العجز في هذا القسم من كتاب سايكس إلى إخفاقه في الإفادة من الطبعات العديدة للتواريخ العربية والفارسية التي ظهرت في ذلك الوقت بشكل خاص في سلسلة جب التذكارية .

٥٦ ـ سايكس : ٥٦/٢ .

٥٧ ـ سايكس : ٢٣٦/٢ ـ ٢٣٧ .

٥٨ ـ سايكس : ٢٢٦/٢ .

٥٩ ـ سايكس : ٥٠٢/١ .

٦٠ ـ سايكس : ١٧٢/١ .

٦١ ـ سايكس : ١٧١/٢ .

٦٢ ـ سايكس : ١٣٤/٢ ـ ١٣٥ .

٦٣ ـ سايكس : ٣/٢ .

٦٤ ـ سايكس : ٥٧٥/١ .

٦٥ ـ سايكس : ٢٨١/١ .

٦٦ ـ سايكس : ٥٤٠/٢ .

٣٠ ـ الكتابة التاريخية عن السودان منذ ١٨٢٠

ر . ل . هل
محاضر في التاريخ الحديث للشرق الأدنى
في جامعة درم

مدخل

من أجل أهداف هذه المقالة المعنية بالسودان ، السودان ضمن حدود الاحتلال المصري والاحتلال الأنكلو ـ مصري التالي .

لم يجذب السودان منذ ١٨٢٠ ، وهو أول عام للغزو التركي المصري انتباه أي مؤرخ بارز ، وفي المقابل لم يهيمن أي مؤرخ بارز أو عادي على أي جزء من هذه الفترة ، ولم يكن هناك أي نظير للشيخ ميل Mill الذي قدم تاريخه للهند ١٩١٩ دفاعاً عن جيلين من الإداريين البريطانيين ، وانتسالي Auntsally عن الثالث ، ولم يكن السودان أرض معركة للتنافس بين المؤرخين ، مع أن أصل الفنج حكام سنار الأسلاف المباشرين للمصريين ، كانوا لزمان طويل في نزاع خفيف ، وكانت الغالبية العظمى من الكتاب الأوروبيين الذين أن فكروا مطلقاً بالسودان ، شغلوا ذهنهم حول جميع القضايا البارزة في التاريخ السوداني خلال المائة والثلاثين سنة الأخيرة : اهتموا بالجنرال غوردن ، والرق ، والسيادة المشتركة الأنلكو ـ مصرية دون أية معارضة تقريباً ، على الأقل فيما هو مطبوع ، للفكرة المهيمنة .

وهناك ثلاث مراحل يمكن تمييزها في الكتابة التاريخية حول السودان من ١٨٢٠ وترتبط زمنياً بفترات الحكم الثلاث التي وجدت خلال تلك السنوات من :

١ ـ الفترة المصرية ١٨٢٠ ـ ١٨٨١ اثنتان وستون سنة فقيرة في النشاط التاريخي سواء باللغات الأوروبية أو في العربية .

٢ ـ الفترة المهدية ١٨٨١ ـ ١٨٩٨ التي سببت قيام كتابات شعبية سطحية جداً ، خاصة حول موضوع حياة غوردن الأفريقية ووفاته ولكنها لم تدرس ، مؤخراً ، من قبل مؤرخين مؤهلين للتحري الناقد .

٣ ـ فترة السيادة المشتركة ١٨٩٩ ـ ١٩٥٦ وهي مجال مغر للكتابة التاريخية في المستقبل لم يتم ارتياده بشكل كامل تقريباً في الوقت الراهن . وقد قصر بعض المؤرخين أنفسهم بشدة على الاهتمام بفترات الحكم ، لكن الذين كتبوا عن المهدية على سبيل المثال ، لم يستطيعوا تجاهل الحكم المصري السالف .

الفترة المصرية ١٨٢٠ ـ ١٨٨١

لم تشجع عدة ظروف البحث التاريخي في تلك الفترة ، وكان أولها الصعوبة التي واجهت الطلاب الغربيين في فحص البينات ، ذلك أن الوثائق الرئيسة الأولية بالتركية والعربية مودعة في القاهرة في دار المحفوظات وفي محفوظات قصر عابدين (القصر الجمهوري الآن) ، وقد أغلقت دار المحفوظات في عابدين أمام البحث العلمي منذ حزيران ١٩٥٥ مع أنها ربما أعيد فتحها مؤخراً دون أن أعلم .

ولم يردع حاجز اللغة في الماضي المؤرخين من الكتابة عن الشعوب التي لم يفهموا لغتها ، وعن الحكام الذين لم يستطيعوا قراءة أوامرهم ومراسلاتهم الرسمية ، وإن الحاجة للقراءة والكتابة بالعربية والتركية لم تقع لأغلبية الكتاب حول السودان المصري أكثر مما أقلق الجهل باللغات الهندية جيمس ميل James Mill واليوم مع تنامي الموقف الأكثر علمية نحو طرق التحري التاريخية يبدو الحاجز اللغوي أكثر منعاً .

والرادع النهائي للمؤرخين هو الكتابة التامة ، ونقص الأهمية النسبية للموضوع كما تبدو لهم ، لقد كان السودان فقط تابعا لإقليم مصر العثماني ، ومع أن نواب قناصل الدول الكبرى في الخرطوم ، قد كتبوا أحياناً تقارير ذكية عن حالة البلاد ، فإن القناصل العامين في مكاتبهم النائية في الإسكندرية بالكاد كانوا يعرفون بوجود السودان .

وكما هو متوقع ، هناك فقر كبير في الوثائق السودانية ، ولكن إمكانية الكشوف المستقبلية ، يجب أن لا تستبعد ، لقد كتب المؤرخون الأهليون تواريخ

وحوليات ، وكتب تراجم ، وسلاسل نسب هامة بالنسبة لفترة الفنج ، ولكنها أقل أهمية للفترة المصرية ، إن الوثيقة الرئيسة هي تاريخ مصنف من قبل إبراهيم عبد الدافع وثلاثة آخرين تحقيق مكي شبيكا ويروي «تاريخ ملوك السودان» (الخرطوم ١٩٤٧) الأخبار إلى زمن الحاكم العام (المدير العام) أحمد مختار باشا (١٨٧١ ـ ١٨٧٢) ، وكان المؤلفون حذرين من نقد الحكومة ، وكان نطاق نشاطهم الطبوغرافي محدوداً بوادي النيل ، ولم يبق أية وثائق دولة تعود بتاريخها إلى فترة الاحتلال المصري للسودان فكل ما لم ينقل إلى القاهرة في ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤ دمر من قبل المهديين ، أو ترك للتلف .

لقد اقترب الرحالة البريطاني مانسفيلد باركنز Mansfield Parkyns من كتابة تاريخ السودان ، وعندما كان في البلاد في ١٨٤٥ ـ ١٨٤٨ جمع مخطوطات بالإيطالية والفرنسية يبدو أنها قد كتبت له من قبل مقيمين أوروبيين ، ونحصل من هذه التواريخ مجهولة المؤلفين على الإنطباعات الأقل تلونا عن السنوات الخمس والعشرين الأولى للحكم المصري ، وكتب المخطوط الأول والأطول والأكثر تثقيفاً باللغة الأيطالية لوسط إيطاليا ، وحمل الثاني ، وهو قطعة بالفرنسية الأخبار إلى أواخر أربعينات القرن الثامن عشر ، وكلاهما بين أوراق باركينز Parkyns في مكتبة الجمعية الجغرافية في لندن .

وقد ظهرت ترجمات إنكليزية لأجزاء من هذه المخطوطات في دورية «السودان ملاحظات وبيانات ٣٦ ، ١٩٣٥ و٣٧ ـ ٣٨ ، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧» .
والوثيقة الثالثة بعنوان «رحلة إلى سنار والحجاز» ١٨٣٧ ـ ١٨٤٠ ، وهي موجودة في «مكتبة الدولة» بميونيخ ، ومخطوط أدولف لينانت Adolpho Linant رحلة إلى أثيوبيا ١٨٢١ ـ ١٨٢٢ في معهد غريفث Griffith ومتحف أشموليان Ashmolean باكسفورد ، وهي شاهد أساس لردود الفعل السودانية على فرض الحكم المصري ،

وإنها لتجربة مهينة النزول من هذه الوثائق الداخلية ، وتقارير المعلومات والرحلات والتواريخ إلى مستوى رواية الرحالة العاديين خلال النصف الثاني من الفترة المصرية ، وأفضل الرحالة خلال السنوات الأولى من الاحتلال هم : غ . ب . انغلش G. B. English وف . كاليود F. Cailliond و أ . لينانت A. Linant .

وغ . ب . بروكشي G. B. Brocchi ، وهم نماذج لنوعهم ، وهم متواضعون ، حريصون على التقيد بالقواعد والقوانين ، متسامحون ولكن في مكان ما حوالي ١٨٧٠ (تاريخ أكثر دقة يجتذبني) تغيرت نغمة الكتابة بين جميع الرحالة الأجانب تقريباً ، لقد تخلى الرجال الجدد من الغرب عن ارتداء ثوب «النظام» التركي ، وجاءووا وقد ارتدوا أزياء غريبة من الأنماط الأوروبية ، ولم يعودوا يتزودون من البلد ، بل يحضرون معلبات مخزونة معهم ، وقد جلبوا أيضاً مواقف فكرية جديدة ، لأنهم كانوا قد خضعوا لتأثير عقائد جديدة في أوطانهم .

وحتى ذلك الوقت كان الرق والمؤسسات الممقوتة مقبولة من الزوار الأجانب مع اعتراضات هنا وهناك عندما يبدو ظلم بيِّن ، ويبدو ان الظلم والتميز من نمط الرق الذي كان يمارسه المسيحيون في الأمريكيتين قد استنفد أرصدة سخط الصالحين ذوي الآراء المعارضة للرق في بريطانيا ، وعلى أي حال وحتى ١٨٦٥ لم يكن ، كما يبدو ، قد لفت الانتباه في أنحاء العالم للرق وتجارته في إفريقيا ، ولم يتهيأ هذا إلا بعد إبطال الرق في الولايات المتحدة ، ومن نحو هذا التاريخ بات الرأي العام البريطاني حساساً بصورة متزايدة لمشكلة تجارة العبيد في وادي النيل ، وتغيرت وزارة الخارجية ، وعين جون بيتريك John Petherick نائباً للقنصل البريطاني في الخرطوم في ١٨٥٨ ، ثم تحول هذا التعيين ليكون فألاً سيئاً ، ومع ذلك فإن كتاب بيتريك «مصر والسودان ووسط افريقية» ١٨٦٠ ربما كان له بعض التأثير على الرأي العام في بريطانيا ، كما فعلت كتابات ف . سكويلشر V. schoelcher و إ . ف . بيرليو E. F. Berlioux على القارة الأوروبية ، وجاءت الذروة مع نشر كتاب «باشا الاسماعيلية» للسيد صمويل بيكر Semuel Baker في ١٨٧٤ والذي كان عنوانه الفرعي «حملة على وسط افريقيا للقضاء على تجارة الرقيق» . وشوه هذا العنوان الفرعي إضافة إلى نص الكتاب بعض التشويه التوجيهات المعطاة لبيكر من الخديوي اسماعيل ، الذي أصدر لبيكر تعليمات إدارية مختلفة ، كان أحدها أمراً بالقضاء على تجارة العبيد في المناطق الاستوائية ، وربما كان بيكر قد خاف من مجموعات الضغط المعادية للرق في بريطانيا ليسمح بهذا التحريف بأن يظهر في كتابه ، وكانت الجمعية البريطانية والأجنبية المضادة للرق هي الأقوى في تأمين العنصر الفعال وشبه العسكري ، والأكثر إثارة في لجنتها

وذلك بشخصي ادموند ستورج Edmund Sturge وجوزف كوبر Joseph Cooper فقد ساق هذان المجادلان الفظان بيكر ، وكانا سيسوقان غوردن خليفة بيكر في المناطق الاستوائية ، لو لم يكتشف كوبر في غوردن رفيقاً محارباً ضد تلك التجارة .

وعلى الرغم من عدالة المقاصد ، فإن الاهتمام بمقاومة الرق أضر بالكتابة البريطانية للتاريخ حول السودان بتسميمها للأخوة الضعيفة بين المؤرخين الذين قبلوا تأكيدات بيكر حول هدف مهمته ، والتي قد أساءت بالمثل تفسير المهمات المتأخرة لغوردن ، واستحوذ على ذهن غوردن تجارة الرقيق ، وامتزج عنفه في محاولة القضاء عليها مع جهله بمكانة ممارسة الرق في الاقتصاد السوداني ، وعجل هذا ، إن لم يكن قد سبب الثورة المهدية .

وحتى يومنا لم ير المستشرقون شيئاً يجذبهم إلى السودان المصري ، وكتبت تواريخ الحكم المصري كلية من مواد غريبة المصدر ، وهكذا كان كتاب هـ . ديهيرانH. Deherain «السودان المصري أيام محمد علي» (باريس ١٩٩٨) وكتاب و . أباتي باشا O. Abbateh «السودان أيام الخديوي اسماعيل» (باريس ١٩٠٥) ، ولم يتمكن هذان المؤرخان ـ وكان هناك آخرون ـ من التوصل إلى المواد التي كانت في متناول أيدي موظفي الحكومة السودانية ، وكان كتاب نعوم بك شقير «تاريخ السودان» (القاهرة ١٩٠٣) أول تاريخ شامل ينشر للبلد ـ . والأول الذي استفاد بشكل مكثف من الوثائق السودانية الأصلية ، والآثار الشفهية للفترة المصرية ، وأخر عدم وجود ترجمة لهذا العمل إلى اللغات الأوربية لسنوات عديدة قيام تقويم غربي متوازن للتاريخ السوداني ، لأن هذا كان هو الوقت الذي كان فيه المؤرخون الأوروبيون أنفسهم يعيشون في عملية انتقال فكري جوهري .

وفي وقت قريب من يومنا اتبع غ . دوان G. Douin مدير حركة المرور في شركة قناة السويس طريق نعوم شقير ، فبدأ بدراسة للسودان في عهد الخديوي اسماعيل ، ثم بالعودة إلى تتبع خطاه ، كتب ما أراد له أن يكون أول مجلد لتاريخ مفصل للفترة الأولى من الاحتلال المصري .

وقد توقف هذا العمل بوفاته في ١٩٤٤ ، وكان دوان قد حصل على ترجمة لمصادره التركية والعربية بواسطة موظفي محفوظات عابدين ، ويمثل حقيقة استخدام مؤرخ غربي للسودان مواد أصلية ، حتى ولو كانت مترجمة ، تقدماً متميزاً

في كتابة التاريخ ، وقام الأستاذ مكي شبيكا باستخدام وثائق عربية في أوراق الدولة المصرية وترجمات عربية للوثائق التركية في دار المحفوظات نفسها ، فكان بذلك أول مؤرخ محترف يضع يده في مثل هذا النوع من العمل ، وقد أصدر كتاب «السودان في قرن ١٨١٩ ـ ١٩١٩» (القاهرة ١٩٤٧) وهذا تاريخ قصير للبلد يحوي الفترتين المصرية والمهدية معاً مع العشرين سنة الأولى للسيادة المشتركة .

وأولى عطاء الدارسين المصريين ، من الدراسات التاريخية حول إدارتهم بالسودان ، بالغ الاهتمام بإثبات قوة الادعاءات المصرية بالسيادة على الملحق الفارط للولاية العثمانية المصرية ، واعتنى بدرجة غير كافية بالتطور الداخلي للمنطقة ، فهو بناء عليه أدب تأييد متميز ، وهو يستحق اهتماماً مباشراً ، لأنه جعل العالم الناطق بالعربية مطلعاً على الشرعية الغامضة للحماية البريطانية على أوغندا ، وأعطى دعاية للاهتمام السياسي المصري بالسودان ، وقد نشأت هذه في مصر مصطفى كامل ، وبلغت مداها الأقصى في ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ عندما عرضت شؤون السودان على مجلس الأمن الدولي للأمم المتحدة ، وكتاب الدكتور محمد صبري «السودان المصري ١٨٢١ ـ ١٨٩٦» (القاهرة ١٩٤٧) وترجمته العربية «الامبراطورية السودانية» (القاهرة ١٩٤٨) مثل لما كان يدعى بشكل دائم المدرسة الوفدية للكتابة التاريخية حول السودان ، والمنطق لا عيب فيه ، إنه الكتاب الأزرق المنطقي للتأييد السياسي ، ولكن محتويات العمل لا تنطوي على أية علاقة بسودان الناس ، والماعز ، والجمال ، وتكثر في النص السذاجة والانحراف فيما يتعلق بالتاريخ الداخلي السوداني ، ولدينا في كتاب عبد الرحمن الرافعي «مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال» (القاهرة ١٩٤٨) رسالة دعائية سياسية مشحونة بصور عاطفية جداً ، حتى أنه من الصعب إن لم يكن من الظلم بالنسبة للمؤلف ، تصنيفها على أنها كتابة تاريخية ، وحتى الأستاذ محمد فؤاد شكري ، الذي تقوم معرفته العميقة بسودان الخديوي اسماعيل على التوثيق الأوروبي ، إضافة إلى المصري ، لا يدعنا ننسى في كتابه «الحكم المصري في السودان» (القاهرة ١٩٤٥) أنه مصري لديه قضية في قلبه ، وفي التركيز على النواحي الخارجية للحكم

المصري ، وتجاهل الأحداث والعادات والأعراف داخل السودان ، أسهم المؤرخون المصريون بشكل عام بأقل من نصيبهم المنتظر في تفهم نظام الحكم .

إن الثورة المصرية ما تزال غضة العود لتسمح لنا بالبحث بين مؤرخيها عن ظهور ميول جديدة واضحة التمايز في كتابة التاريخ بالنسبة للسودان ، وليس من غير المحتمل أن يكون هناك تركيز متناقض على النواحي الشرعية للسيادة المصرية والمؤسسات المصرية ، وسنرى بشكل مؤكد تقريباً بدايات إعادة تقويم لمنجزات محمد علي باشا في السودان . وفي النواحي المتعلقة بالتراجم وإدارة الاحتلال المصري ، يعرقل عمل المؤرخين المصريين عدم توفر كتاب للتراجم المصرية يمكن مقارنته في المجال والموضوعية بأفضل مجموعات التراجم الوطنية في أوروبا وأمريكا ، فكثير من الجنود والموظفين المصريين ، والعلماء الذين خدموا في السودان ، قد نسوا الآن تماماً ، وأي شيء يمكن أن نفعله لتشجيع زملائنا المصريين للمحافظة على تراجمهم الوطنية سيكون نافعاً لهم ولنا .

والمصريون لديهم فراغ تاريخي كبير يعترض طريقهم وعليهم كشفه ، ومع وجود المحفوظات السودانية عند بابهم ، فإنهم يملكون مزايا للبحث يفتقر إليها العدد الأكبر من الباحثين الأجانب في التاريخ السوداني ، ولم يقصر جميع المؤرخين المصريين بحوثهم على الحقل الجاف للاتهام العالمي المضاد ، فقد كتب الدكتور عبد الرحمن زكي تواريخ قصيرة للوحدات العسكرية التي تشكل منها الجيش المصري والتي كانت لها خدمات طويلة في السودان ، وتلاها كتاب «أعلام الجيش والبحرية في مصر أثناء القرن التاسع عشر» (القاهرة ١٩٤٧) وهي مجموعة من التراجم البحرية والعسكرية ، في حين قام الدكتور عبد العزيز عبد المجيد في كتاب «التربية في السودان» (القاهرة ١٩٤٩) بتحقيق وثائق تتعلق بتطوير التعليم بمعناه الواسع تحت الرعاية المصرية في السودان . وفي كتابي «مصر في السودان ١٨٢٠ ـ ١٨٨١» (اكسفورد ١٩٥٩) محاولة في اتجاه دراسة عامة للنظام الحاكم .

الفترة المهدية ١٨٨١ ـ ١٨٩٨ :

إن العمل التاريخي الأصيل حول الفترة المهدية ـ استعمال كلمة أصيل هو بالمعنى التقني وليس بالمعنى الأخلاقي ـ صغير في حجمه ، ومتأخر للغاية في

ظهوره ، وقد كتب الكولونيل ف . ر . وينغيت F.R.Wingate السردار المقبل والحاكم العام «المهدية والسودان المصري ١٨٩١» ، وهو رواية جندي مؤسسة على تقارير الاستخبارات العسكرية ، وعلى نوع من قصاصات المعلومات بقدر ما استطاع أن يجمعها معاً ، ومثل الكتاب بحكم الظروف نظرة غريب ، وكانت المهدية ، بالنسبة للكاتب ، هي العدو ، ولم تكن أعمال الثقافة المستقلة لتكتب في ذلك الوقت ، وحتى أقل من ذلك كان يمكن لكتابات السجناء الهاربين من معسكرات الأبيض وأم درمان أن يحكم عليها بمعزل عن المحيط الدرامي لذلك الزمان ، ومضى ب . م هولت في مقالته «المادة المصدرية للمهدية السودانية» (أوراق القديس أنتوني Stantony رقم ٤ ، ١٩٥٨) إلى حد وصف عمل وينغيت كمؤلف ومحقق ، بأنه كان دعاية حربية صممت لتحضير الرأي العام في بريطانيا لإعادة الغزو النهائي للسودان ، وهو استنتاج يبدو أنه لا يمكن مهاجمته ، ولكن ربما يتطلب إعادة تفحص لأنه عندما قدمت أوراق وينغيت الضخمة في ١٩٥٨ إلى جامعة درم من قبل ابنه وكاتب سيرته السير رونالد وينغيت ، أصبحت في متناول البحث .

وكان ي . ل . ديتريش E.L.Dietrich أول مستعرب في الغرب ينظر في المصادر العربية للحركة المهدية ، ومع ذلك كان مقاله «المهدي محمد أحمد والسودان العربي» الذي نشر في در اسلام : ١٤/١٩٢٥ تصنيفاً استمد بشكل رئيس من نعوم شقير ، ولكن هذا كان مقالة مستقلة ، ولم يتعد كونه أكثر من تمرين أكاديمي ، وكان هناك كثير جداً من الموضوعات المثيرة التي تتطلب الكشف في قلب الإسلام ، لذا يمكن أن نلتمس العذر للطلاب الغربيين وكذلك العرب من نفورهم من فقدان أنفسهم في التيه الإفريقي ، ولسنوات عديدة كانت هناك وديعة كبيرة من وثائق الدولة المهدية ترقد مهملة في محفوظات أمانة سر السيادة المشتركة في الخرطوم ، وكان علينا أن ننتظر ن . م . هولت للإفادة منها في كتابه «الدولة المهدية في السودان ١٨٨١ ـ ١٨٩٨» (اكسفورد ١٩٥٨) وكتاب أ . ب . ثيبولد A.B.Theobuld «المهدية تاريخ للسودان الأنكلو مصري ـ ١٨٨١ ـ ١٨٩٩» (لندن ١٩٥١) وهو كتاب لم يقصد مؤلفه منه أن يكون أكثر من عمل شعبي يهيء تفهماً أكثر تعاطفاً مع المهدية .

وإنه لمن العبث إصدار أحكام أخلاقية على المعاصرين الغربيين للمهدي ، لقد توصلوا إلى استنتاجات بناء على الشواهد التي كانت بين أيديهم ، وكانوا مثلنا أبناء محيطهم ، وإذا كانت الكتابات التاريخية حول السودان خلال فترة الحكم المصري ، تعطي بعض الدلالات حول ما كانت الطبقات الوسطى في أوروبا تفكر فيه في حينه ، فقد قدمنا العمل التاريخي حول الحكم المهدي الذي نشر خلال ، أو بعيد قيام النظام «المهدي» للجمهور الجديد من القراء الذي ولده التعليم الشعبي الإلزامي ، ففي بريطانيا كانت الحشود التي تقرأ عن انتصار اللورد كتشنر Lord Kitchener في أم درمان في ١٨٩٨ مختلفة جداً عن الحشود التي كانت تتدافع نحو العرض الكبير لعام ١٨٥١ ، فعلى الأقل لا بد أن نصف الأولى بأنها قد تلقت الهيكل المجرد للتعليم الابتدائي ، وأنها كانت قادرة على قراءة النوع الجديد من الصحف الشعبية التي كانت هارمثورث Harmthworths تصدرها لهم ، إنهم أصبحوا الآن يحصلون على أخبارهم ساخنة ، أخبار مع قصة إنسانية ، وكان المهدي اللقب الأصلي للإمام («النبي الزائف» الذي تم تذوقه بشكل مرضٍ في الكتاب المقدس) والخليفة عبد الله ، يذكران كوحشين قاسيين ، وكانت أسباب وجود المهدية لا تفسر لهم مطلقاً ، فلم يكن ضرورياً أن يعرفوا ، ولم يكونوا يفهمون الشرح على أي حال . ولم يأخذ الجمهور البريطاني في ١٨٨١ ـ ١٨٩٨ تاريخ السودان المعاصر من مؤرخين رسميين لأنهم لم يكونوا موجودين ، لقد ذهب إلى المراسلين الحربيين ، وكتاب القصص الذين تركوا الفترة المصرية وحدها ، ودخلوا الآن إلى مصادر تاريخ السودان ببعض من استخدام القوة ، إن كاتب الرواية هو المؤرخ الشعبي ، لأن الجمهور العام ، وإن لم يكن لديه ميل للتاريخ النقدي الهادىء ، يمكنه استيعاب التفاصيل البسيطة النابضة بالحياة القائمة على ما هو حقيقي تقريباً إلى الحد الذي يمكن تأكيده ، وهذا ما كان يفعله غ . م . هنتي G.A.Henty وكونان دويل Conan Doyle ونات غولد Nat Guold و ا . ي . و . ماسون A.E.W.Mason للجمهور الناطق بالإنكليزية ، وجرجي زيدان بكتابه أسير المتمهدي (القاهرة ١٨٩٢) للجمهور الأصغر كثيراً في الأراضي الناطقة بالعربية .

لقد حقق كاتب الرواية بهذا الدور الشعبي غاية لا يمكن بلوغها بواسطة المؤرخ الرسمي ، بيع بلا تردد ، ولم يكن كاتب الرواية بحاجة لأن يدقق في جمال الحقيقة ، وكان على المؤرخ بحكم اختصاصه مسؤولية ليس فقط تجاه قرائه الحاليين ، بل أيضاً تجاه الأجيال المقبلة ، وهو مقيد بالبينات المتوفرة له ، وأن يكتب ما يعتقد أنه حق ، ويجب أن يكتب واثقاً من أن الأجيال المقبلة لن تكتشف أنه كاذب ، إن كاتب الرواية التاريخية لا يكتب تحت مثل هذا التحديد ، ولم يحفل ا . ي . و . ماسون ، الذي أوجد الغول المتعصب وأسماه «الخليفة» ، ولم يقلق بشأن مشاعر أبناء الخليفة وبناته وهم أعضاء محترمون في المجتمع السوداني الحديث . وكان ما قام به ماسون أنه زخرف كتاب سلتين باشا «النار والسيف» (١٨٩٦) ورسائل المراسلين الحربيين .

وفي الوقت نفسه قد نخرج بانطباع خاطىء عن جمهور القراء في بريطانيا إذا أغفلنا العنصر الانفعالي القوي في القراءة التاريخية الشعبية ، إنه التأثير المزدوج للحركة المضادة للرق ، مع ما يمكننا أن ندعوه ـ بتساهل نوعاً ما ـ «الإمبريالية الإنجيلية البروتستانتية» ، التي استمرت في توجيه التفكير البريطاني حول السودان ، وظهرت قوة هذا الاهتمام المشترك في أقصى شدتها في ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ بسيل الكتابة حول الجنرال غوردن .

فترة السيادة المشتركة ١٨٩٩ ـ ١٩٥٦ :

يميز تأسيس السيادة المشتركة الأنكلو مصرية في ١٨٩٩ نهاية السنوات الخمس عشرة من الكتابة المثيرة والمنحازة أحياناً ، وبداية فترة أدبية أخرى تماماً ، كتب أغلب نتاجها من قبل أناس بريطانيون من المستخدمين في السودان ، وقد أعطت خبرتهم لإسهاماتهم سمة روايات شهود العيان ، وكانت مجرد تقارير واقعية في بعض أجزائها تنطوي عن غير قصد على مدح للذات ، لم يكن قط تفاخراً مقصوداً ، ومن وجهة نظر المستشرق ، إن هذا النتاج محدود نوعاً ما كما لو أن الكتاب قد فهموا أن السودان معزول عن جيرانه ، وما هو أكثر أهمية إنه أدب ما زال في دور التطور .

ومكنت صحيفة «ملاحظات السودان وتقاريره» التي أسسها مجموعة من موظفي الحكومة السودانية في الخرطوم في ١٩١٨ ، الموظفين السياسيين والتقنيين والمختصين بالآثار ، والمعلمين والمبشرين المسيحيين من نشر المعلومات حول مختلف الموضوعات المتصلة بعملهم وهواياتهم ، وتزود هذه الصحيفة المؤرخ بثروة من المادة ، ولكن حتى هنا يؤكد القارىء انطباعه بشعور العزلة عن بقية الشرق الأدنى ، ويعود هذا إلى حقيقة أن معظم المساهمين ، لم يكن لديهم معرفة بالماضي الإسلامي ، ولم يكن لديهم اهتمام بالحاضر العربي ، بصرف النظر عن الناحية التي عمل فيها الكتاب ، ولكن سيكون أمراً غير علمي الحكم على كتاباتهم بمعايير غير متعلقة بالموضوع ، لقد كانوا أولاً وأخيراً رجالاً عاملين عمليين ، ونساء ، شغلوا بالمشكلات المباشرة ، إنما ليست العربية بل السودانية .

ولقد تأخر مجيء العمل التاريخي حول فترة السيادة المشتركة بسبب أنه أياً كان الاهتمام لدى المختصين في الإدارات المشتركة بمختلف فروعها لا بد أن جمهور القراء كان صغيراً ، ولم تكن هناك فضائح ولا أزمات كبيرة كي تعقد السير المنظم للحكومة ، وتضيف التوابل للتحري التاريخي ، ولم يعتد الضباط والموظفون العاملون الإفضاء بهمومهم في العلن ، وكانت العناصر العاملة في الحكومة السودانية مثالاً لهذه الآداب الخاصة ، ومع مرور الزمان نشر السير هارولد ماكميكل Sir Harold MacMichal كتابه «السودان الإنكليزي المصري» (١٩٣٤) وذلك في نهاية مدة خدمته كسكرتير مدني ، وهو رواية واضحة لمنجزات السيادة المشتركة منذ بدايتها ، وتبعه كتاب للكاتب نفسه اسمه «السودان» وهو دفاع عن الحكم البريطاني في ١٩٥٤ .

وتصادفت النهاية المقتربة للصلة البريطانية مع نشر كتب عديدة لموظفين سياسيين متقاعدين وأطباء ، فقد حقق ك . د . د . هندرسون K.D.D. Henderson أوراق المرحوم السير دوغلاس نيوبولد Newbold السكرتير المدني خلال المراحل المتأخرة من التحول السياسي في كتاب «بناء السودان الحديث» (١٩٥٣) .

ونجد نموذج النظرة البريطانية السائدة في كتاب ج . س . ر دنكان J.S.R.Duncan «السودان سجل الإنجاز» (١٩٥٣) و«طريق السودان إلى

الاستقلال» (١٩٥٧) . والنغمة هنا ودية نحو السودانيين ، وبعيدة عن المصريين ، وبدون شك ، حول منافع حكم السيادة المشتركة للسودانيين ، ووقف في أقصى اليمين هـ . س . جاكسون H.C.Jakson الذي كان متشائماً بالنسبة لمستقبل استقلال السودان ، لا بسبب ضعف السودانيين بل بسبب عداء المصريين ، ونسمع في كتابيه اللذين هما من بعض الجوانب سيرة ذاتية «السودان أيام وطرق» (١٩٥٤) و «خلف السودان الحديث» (١٩٥٦) إعادة ترديد لصدى المشاعر التي نجدها في أدب عصر غوردن : الإخلاص نفسه للسودانيين ، والكراهية عينها للمصريين ، وما من أحد من قراء كتابي جاكسون المختصين ـ كتب أيضاً تاريخاً صغيراً عن قوات الدفاع السودانية في مسحة بطولية ـ يمكن أن يخفق في ملاحظة أن حلف اكستر هول Exeter Hull القديم مع الكهنوت البروتستنتي حي في الكتابة البريطانية التاريخية حول السودان .

وفي الوقت نفسه تظل الفجوة بين المؤرخين البريطانيين والمصريين للسودان الحديث غير مغلقة ، ويرفض كل جانب الاعتراف بوجود الآخر ، ويمكن عرض الأطروحة المصرية هكذا :

١ ـ كان مرد الثورة المهدية كلياً إلى التدخل الخارجي في الإدارة الداخلية للسودان .

٢ ـ كانت الحركة المهدية وما تزال منطوية على مفارقة تاريخية .

٣ ـ أخرجت مصر من السودان بالخديعة في ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ .

٤ ـ لقد فرضت السيادة المشتركة في السودان على مصر بالقوة الجبرية .

٥ ـ إن وحدة وادي النيل أساسية لمصر والسودان . والسودان المستقل ليس دولة قابلة للحياة .

وكان الموقف البريطاني المعبر عنه بشكل واسع في أدب السودان كما يلي :

١ ـ كان الحكم المصري في السودان غير كفء ، وفاسداً وقاسياً .

٢ ـ لقد كانت الثورة المهدية ثورة شعب مضطهد ، مع تحول في المواقف منذ إعادة الغزو في ١٨٩٦ ـ ١٨٩٨ ، وكان الاحتكاك مع السودانيين الممتزج بعدم الثقة في المقاصد قد أسهم في هذا التغيير .

٣ ـ لقد كان الجنرال غوردن يمثل المفهوم البريطاني للعدالة والإنسانية .

٤ ـ لقد كان الحكم البريطاني ضرورياً لحماية السودانيين من أجل مزيد من الاستقلال ، والمؤرخون الأصلاء فقط ـ هذه المرة نستعمل كلمة أصيل بالمعنى الأخلاقي ـ سيكونون قادرين على إيجاد تفسير مفهوم لهذه الكتلة المشوشة المظلمة من التناقضات .

لم تلق فترة السيادة المشتركة ما يكفي من العناية من مؤرخين قد تحرروا من القيود المربكة للولاءات الشخصية والقومية ، وبالتأكيد إن النقد التاريخي لن يحتجب طويلاً جداً ، مع أنه ما يزال متكاسلاً ليتولى النظر الجدي في الاتجاهات التي ستأخذها ، وقد يرغب المؤرخ في تفحص الأسباب التي دفعت بالحكومة السودانية إلى فصل السودان الجنوبي عن السودان الشمالي المسلم ، بنظام تعليمي من الواضح أنه قد صمم لهذا الغرض . ومن المحتمل أن يكون حصر اللغات التي تدرس في المدارس الحكومية في العربية والإنكليزية (لاستبعاد ، على سبيل المثال ، اللغات الشرقية غير العربية) موضوع النقد ، وقد يستفسر طلاب التاريخ حول الحكومة المحلية عن سبب أن بنية الحكومة المحلية في كثير من مناطق السودان يقوم على التكيف مع التطبيق الإنكليزي في وقت امتلك فيه المستشرقون في الخرطوم خبرة طويلة بالشرق الأدنى وبالنظام العثماني ، وبالأنماط الأصلية العربية ليأخذوا عنها ، وقد يوجه المؤرخون الاجتماعيون فضولهم إلى المؤثرات المختلفة التي صاغت موقف رجال الإدارة البريطانية ، السياسية والطبية والتعليمية ، والتقنية بشكل عام ، تجاه عملهم ، وحول كل هذه الأمور ، عدا الأخير ، لم يكن لدى الحكومة السودانية ، سياسة فحسب ، بل إنها تولت شرحها ، إن نوعية البحث المستقبلي في هذه الحقول يجب ، بناء عليه ، أن يمثل التحري في أقصى درجة من الحصافة وحسن التمييز والتقدير وإلا فإنه سيخفق .

الخاتمة :

من بين الحاجات الملحة في السودان ، كما في الدراسات التاريخية المصرية الحديثة ، التوسع في نوع البحث الذي سيؤدي إلى وضع معجم للتراجم الوطنية ، وهو عمل سيعمل كمدرسة لتدريب فريق من كتاب التراجم السودانيين بقيادة عالم مدرب بكفاءة الأستاذ شبيكة ، ومستلهمين روح ذلك الأب لكتاب التراجم

السودانية ، الشيخ محمد النور واد (أي ولد) ضيف الله ، ويبدو أن الوطنية السودانية الجديدة لم يكن لها الأثر الفوري المثبط للبحث التاريخي ، الذي كان واضحاً في تركيا أثناء إقامة الجمهورية ، عندما شعر الناس وقتها بمتاعب الماضي .
ومن الخرطوم تأتي أخبار حماس تلقائي ظاهر لدراسة التاريخ السوداني دون أية إشارة ، حتى الوقت الراهن ، إلى نمو أسطورة وطنية ، وقد طبعت بعض دواوين الشعر ، وأعيد طبعها ، مثل ديوان (الشيخ) السلطان شكري الحردلو ، ووضعت الخطط أخيراً ، كما يقال ، من أجل مسح شامل لمئات القبور ذات القباب التي تغطي المناطق الشمالية والوسطى في محاولة لتكملة القليل المعروف الآن عن البلاد في عصر سيادة الفنج ، ويعتقد أن في بريطانيا محققين يعملان على إخراج «طبقات واد ضيف الله» محققة بصورة نقدية ، وفي الحقل الأكثر حداثة يستحق كتاب سعد الدين فوزي «الحركات العمالية في السودان ١٩٤٦ ـ ١٩٥٥» (اكسفورد ١٩٥٧) تشبيهه بدراسات أخرى في الطرق الفرعية للحركة الوطنية السودانية . وبعض هذه الأعمال قد سبقت فترة هذه المقالة ، ولكنها سجلت دون اعتذار للتأكيد بأن المؤرخين ليسوا كسالى .

٣١ ـ أعمال التأريخ السوفييتية حول الشرق الاسلامي

س . ن .فراي
أستاذ كرسي الآغا خان للايرانيات . جامعة هارفارد

ليس قصدي من هذه المقالة تكرار ذكر المادة التي ظهرت في عرض الدراسات الشرقية السوفييتية بالروسية في السنوات الأخيرة(١) ، وقد جرى تلخيص بعض هذه المنشورات السوفييتية بالإنكليزية ، أو الفرنسية أو الالمانية ، وهي جاهزة ، وفي متناول اليد(٢) ، ولا الغاية هنا مناقشة النظرية الماركسية كما طبقت على الكتابات التاريخية السوفيتية ، إن هذا على الأكثر هو مهمة طالب الثقافة السوفييتية ، الذي يكون ملماً تماماً بالتغيرات في السياسة السوفييتية ، والفروق في التطبيق ، وفي تفسير الماركسية أو اللينينية في مختلف حقول المعرفة ، وبالأحرى إن أملي أن أتحرى حقلاً واحداً من التاريخ الإسلامي كان العلماء السوفييت قد قاموا فيه بإسهام مهم في المعرفة ، وللوصول إلى بعض النتائج العامة من دراسة محدودة ، أريد أن أناقش باختصار تاريخ آسيا الوسطى في القرنين التاسع والعاشر للميلاد كما رآه المستشرقون السوفييت ، إنهم يسمون هذه الفترة «بداية الإقطاع المتطور» في آسياالوسطى ، وضروري أن نقدم أولاً بعض الملاحظات العامة المختصرة حول الافتراضات التاريخية والمنهجية لدى العلماء السوفييت فهي ضرورية قبل البدء بالمتابعة .

وفي البداية يجب أن يعترف المرء بأن المستشرقين السوفييت ، كانوا حتى وقت قريب ، قليلي الاهتمام بتاريخ الأراضي والشعوب خارج الإتحاد السوفييتي ، ولقد تركزت تواريخ أي شعوب إسلامية ظهرت على بلاد ما وراء النهر وآسية

الوسطى وإني لا أعلم عن أي تاريخ للخلافة الأموية أو العباسية ، وأقل بكثير حول الفاطميين ، أو الإسلام في اسبانيا أو ما شابه ، ويمكن أن نرى أفضل مصدر للأفكار السوفييتية حول مثل هذه الموضوعات في تواريخ عالمية عامة ، أو مقالات في دوائر المعارف المنشورة في الإتحاد السوفييتي ، ولسوء الحظ أن هذا قليل الأهمية بالنسبة للمؤرخ الدارس للعالم الإسلامي ، ومن جانب آخر يمكن للمرء أن يعرف منها الأمور الهامة والجدل بين المؤرخين السوفييت حول الشرق ، وعلى سبيل المثال حول واحد من أكثر الأمور أهمية في الجدال في السنوات الأخيرة بين العلماء السوفييت المعنيين بالعالم الإسلامي ، وهو السؤال حول ما إذا كان النبي (ﷺ) قد ترعرع في مجتمع كان يحتفظ بالعبيد أو مجتمع إقطاعي ، وتعلم الماركسية أن تاريخ أي شعب ومجتمع يجب أن يحلل إلى خمس فترات عامة مترابطة : المجتمع البدائي ، ومجتمع الاسترقاق /العبودية/ ثم الإقطاع فالرأسمالية ، والخامس بالطبع هو المجتمع الإشتراكي ـ الماركسي ، وقد تأجج التيار مؤخراً في الاتحاد السوفييتي إلى موقع أن محمداً قد ارتقى إلى السلطة في الفترة الإقطاعية من التاريخ العربي ، ولكن بالضبط في الوقت الذي تم فيه التحول من فترة الاسترقاق .

وعندما نتحول إلى التاريخ السوفييتي الداخلي ، تكون لدينا كمية كبيرة من الكتابة ، وحتى فيما يتعلق بتاريخ السامانيين والقراخانيين في آسيا الوسطى . وربما يمكننا تقسيم هذه الكتابات إلى أربع مجموعات :

١ ـ التواريخ العامة الواسعة للإتحاد السوفييتي ، أو للمناطق الكبيرة من العالم .

٢ ـ التواريخ المحلية لأوزبكستان ، وتاجكستان ، والكتب المدرسية المماثلة .

٣ ـ مقالات ودراسات تاريخية حول فترات محدودة من تاريخ جمهورية ، أو إقليم ، أو حتى قرية .

٤ ـ مقالات مفصلة أو كتب عن الفن وعلم الآثار والنميّات ودراسة النقوش .

وتعطي الكتب في الزمرة الأولى ـ مثل عرض لتاريخ الإتحاد السوفييتي المنشور في ١٩٥٦ ـ التوجيه الشامل لكتابة التاريخ ، وتكشف عن التغير في

الخط ، ومنشورات المجموعة الثانية هامة جداً ، لأن فيها يمكن أن يوجد كل من آخر النتائج للعمل في الزمرتين الثالثة والرابعة ، إضافة إلى تطبيق الأفكار العامة من الزمرة الأولى على المناطق المحلية .

وقد يجد المرء في هذه المجموعة ، التي تتميز بكتب مثل «تاريخ الأوزبك السوفييت» (طبعة ثانية طشقند ١٩٥٥) ، وكتاب ب . غ . غافوروف B.G.Gafurov «تاريخ شعب التاجيك» (موسكو ١٩٥٢) بعض التوثيق والمصادر المعدومة في التاريخ العام ، وهذه المنشورات هي عادة نتاج عمل جماعي وتستخدم كمراجع لكتب جامعية في موضوعاتها ، والمجموعة الثالثة أعلاه ، ذات أهمية بالغة للمؤرخين عن العالم الإسلامي ، لأن لدينا ها هنا بحوث حول مخطوطات ومحفوظات تقدم دراسات خاصة ، وخير ممثل لمثل هذا النوع من العمل هو كتب ن . ف . بتروشفسكي N.V.Petrushevskii : «عرض عام لتاريخ العلاقات الإقطاعية في أذربيجان وأرمينيا من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر» (لينينغراد ١٩٤٩) و أ . ك علي زادة «التاريخ الإقتصادي الاجتماعي والسياسي لأذربيحان في القرنين الثالث عشر والرابع عشر» (باكو ١٩٥٦) . وفي الزمرة نفسها ، ولكن بأهمية محدودة مع أنها مع ذلك هامة ، كتب مثل س . أ عظيم زانوفا حول «تاريخ فرغانة في القرن الخامس عشر» (طشقند ١٩٥٧) و م . س أندريف «تاجيك وادي خوف» (ستالين أباد ١٩٥٣) ، ونجد في الزمرة الرابعة مواد كثيرة لهذه المقالة ، ويوجد هنا حد أدنى من التماسك ضمن نموذج كبير من العقائدية الماركسية التاريخية ، وهنا مجدداً البحث ذو أهمية عظيمة للمستشرق ولمؤرخ الإسلام ، والشعور بالاهتمام من أجل إيجاد تسويغ مبرمج للأعمال المنتجة ضمن إطار التفسير الماركسي بقوة أقل بكثير من الزمرة الرابعة ، وأكثر منه في الثالثة ، وتحوي منشورات مثل «مجلة النقوش الشرقية» و «الدراسات السوفييتية الشرقية» كثيراً من المقالات ذات الأهمية الرئيسة للمؤرخين ، ولإيضاح هذه المجموعة ، نجد في ميدان الفن مثلاً ، يمكن للمرء أن يشير إلى كتاب أ . يوياكوبوفسكي A.Yu.Yakubovskii «رسوم الباند جيكنت القدامى» (موسكو ١٩٥٠) الذي هو تاريخ فني للصغد في زمن الفتح العربي ، بدون إشارة واضحة إلى العقائد الماركسية ، وفي علم الآثار ، على سبيل المثال أيضاً ، إن الكتاب حول

مدرسة علم الفلك «في أولوغ بغ» تأليف ت . ن . كاري نيازوف T.N.Kary Niyazov (موسكو ١٩٥٠) هو إسهام هام في تاريخ العلم إضافة إلى التاريخ الثقافي لسمرقند في عهد التيموريين ، وعلم النميّات هو محيط آخر ، حيث أجرى العلماء السوفييت دراسات هامة فيه سوف نتدبرها فيما يلي ، وقد شرح العمل في النميات تاريخ السامانيين والقراخانيين ، وهذا ما نراه في كتابات أ.أ. بايكوف A.A.Bykov و ف . داڤيدوفيتش F.Davidovich والمرحوم ف . فاسمر F.Vasmer وهو صحيح بشكل خاص بالنسبة للحكام القراخانيين ، لأن تحديد تاريخهم الزمني ، ومناطق حكمهم يعتمد إلى حد بعيد على نقودهم ، طالما أن المصادر المكتوبة قليلة ، وكثيراً ما هي متضاربة ، والإتحاد السوفييتي بمجموعاته النقدية الواسعة في متحف الأرميتاج ، وفي المتحف التاريخي في موسكو ، وفي طشقند ، هو البلد الوحيد الذي يمكن فيه دراسة نقود القراخانيين بدقة وافية ، وليست مراجعة قائمة الحكام ، والترتيب الزمني للقراخانيين في ذاتها أهمية كبيرة للمجموعة العامة للمؤرخين ، والذي له أهمية ، على أي حال ، هو أولاً الطرق الجديدة في تاريخ النميات ، وثانياً المضامين الاقتصادية والاجتماعية ، وكان الروس أول من درس بالتفصيل النقود الإسلامية النحاسية ، والأسباب مفهومة ، وفي المتاحف الغربية كانت النقود الفضية والذهبية فقط هي التي تستحق الجمع فنياً ، وكان علماء الآثار الميدانيون قليلي الاهتمام بالنقود النحاسية التي كانت عادة سيئة الحفظ ، وعلماء النميات الغربيون قلة ، وتكون لديهم عادة مهمات ضخمة ، هي ببساطة تنسيق فهارس النقود ، مع وقت محدود للتفسير الاقتصادي والتاريخي ، وبين المقالات القليلة في الدوريات الغربية الشبيهة نوعاً ما بالعمل السوفييتي في هذا الحقل مقال ر . ب بلاك R.B.Blake «تداول الفضة في الشرق الإسلامي حتى حقبة المغول» دورية جامعة هارفرد للدراسات الآسيوية ٢ (١٩٣٧) مع أن بلاك أشار إشارة محدودة إلى النقود الفعلية ، وأثارت النقود النحاسية في الاتحاد السوفييتي «نقود الجماهير» علماء الآثار الميدانيين للحفظ ، والاختصاصيين فيما بعد لدراسة العدد الكبير للنقود النحاسية ، التي وجدت في الحفريات ، وعلاوة على ذلك يجب أن يتذكر المرء أن العلماء ماركسيي التوجيه مهتمون بمثل هذه المادة المصدرية للتاريخ الاقتصادي .

فما الذي تقوله لنا دراسات النميات حول التاريخ الساماني[٤] ؟ من الواضح تماماً الآن من العملات أن بلاد ما وراء النهر كانت حقيقة في الطرف الآخر من النهر من دار الخلافة خلال معظم الفترة العباسية والأموية أيضاً ، ولم تعد مطلقاً جزءاً مكملاً للولايات المركزية ، ونجد في القرن العاشر أن السياسة النقدية للسامانيين كانت موجهة نحو تأسيس منطقة مستقلة للصناعة والتجارة في آسيا الوسطى ، بصرف النظر عن الخلافة ، وإن صرح الحكام بولائهم للخليفة ، ومن كنوز النقود التي وجدت في الاتحاد السوفييتي ، كان اختصاصيو النميات قادرين على تتبع مناطق ضرب العملة والنقود المتداولة في مختلف الأنواع مثل الدرهم الغطريفي والمحمدي والمسيبي ، والخفض المستمر لعيار تلك النقود .

وأظهر علماء النميات السوفييت في دراساتهم الاستمرار الأطول للعملات النحاسية أو السكة المحلية في صورة ما قبل الإسلام في آسيا الوسطى ، في حين أن الفضة التي كانت تستخدم في التجارة العالمية كانت تضرب وفق قاعدة الخلافة ، وطبعاً شدّ ضرب النقود المتأخر انتباه المؤلفين المسلمين أكثر مما مضى[٥] ومن المهم أن الدراسات السوفييتية مؤسسة في المقام الأول على دراسات إحصائية للتوزيع وفق مناطق العثور وسنوات الضرب ، وفي آسيا الوسطى السوفييتية فقط سمحت الظروف بدراسات موسعة لمناطق العثور ، وبمعلومات كاملة عن كنوز النقود ، وبالتالي فإن النتائج قائمة على تحليل جديد لمادة جديدة هامة بالتأكيد لخبراء النميات في كل مكان .

وغالباً ما جرى تفسير هذه المادة المتخصصة في إطار عام ، وأريد أن أركز هنا على الخلفية والتفسير للتاريخ الساماني . يقول كتاب «دراسة تاريخ الإتحاد السوفييتي العام» (ص ١٣) : «لقد حاول المؤلفون بقدر الإمكان تصوير تاريخ شعوب الاتحاد السوفييتي (معطين لكل منها ملامحه الخاصة وإسهامه في التاريخ العام) فقسموا هذه المادة إلى أقسام مستقلة ، وجهدوا في الوقت نفسه لإظهار التوافق المشترك مع قوانين التاريخ للشعب الروسي والشعوب الأخرى لبلادنا ، وحاولوا أيضاً أن يظهروا العلاقات التاريخية (اقتصادية ، سياسية ، ثقافية) بين الشعوب والحد الذي بلغته العلاقات التي كانت قائمة في فترة أوائل العصور الوسطى . . . إن تاريخ شعوب آسيا الوسطى والقوقاز من القرن التاسع إلى أوائل

القرن الثالث عشر ، هو فترة تطور الظروف الاقتصادية وتفاقم الفروق الطبقية ، وتشكيل سلسلة من الدول الإقطاعية ، إضافة إلى النضال الطويل للاستقلال» ، وأكثر من هذا نقرأ (ص ٤٩٧) : «لا يوجد في المصادر حول تاريخ آسيا الوسطى في تلك الفترة تقريباً معلومات محفوظة حول الثورات الفلاحية ضد رجالات الإقطاع المدنيين والدينيين» وفي (ص ٤٩٨) : «اهتم المؤرخون ، الذين كانوا يكتبون بناء على أوامر الحكام ، والذين هم أنفسهم كانوا ينتمون إلى أعلى مرتبة في المجتمع الإقطاعي ، قليلاً بحركات الفلاحين ، ولم يسجلوا الحقائق حول هذه المرحلة من التاريخ ، مع أنه كان هناك ، بلا شك ، الكثير منها» (ثورات فلاحية) واتبع مؤلفو الطبعة الأولى من كتاب «تاريخ الأوزبك في الاتحاد السوفييتي» (نشر تحت اسم تاريخ شعوب أوزبكستان في ١٩٥٠) المصادر المكتوبة بدقة كبيرة ، حيث أننا نقرأ في مقدمة الطبعة الثانية أن مؤلفي الطبعة الأولى ، «لم يحكموا بدرجة كافية كتابة حوليات تاريخ آسيا الوسطى ، وأنهم قد أعطوا صورة مثالية لأحداث معينة ، وأعطوا روايات تفصيلية غير ضرورية لصراع جماعات إقطاعية معينة على حساب التاريخ الحقيقي للجماهير» ، وبعد مناقشة الفتوح العربية وسياسة العرب الاستيطانية تمت قيادة النضال من أجل الاستقلال من قبل الحارث بن سريج في ٧٣٤ م ، وأعطيت سياسة نصر بن سيار آخر حاكم أموي لخراسان مساحة واسعة واهتماماً خاصاً ، فقد حاول نصر ، وقد رأى ضعف القضية الأموية ، أن ينتصر على الأرستقراطية المحلية ، ولكن كان الوقت قد فات ، وكانت حركة جماهيرية قد بدأت ضد الأمويين ، وقد استخدمها العباسيون لتوطيد سلطتهم ، وموقف أبي مسلم موقف مبهم بالنسبة للعلماء السوفييت ، حيث أنه كان رجلاً عادياً ، ولكن لم يكن معنياً بمصالح الجماهير ، وهو مع ذلك لم يتمسك بالسياسة الأرستقراطية للسفاح أو حزب الشعب ـ المزدكيون الجدد ، أو الحزمية ـ (بالعربية المحمرّة) وعلى أي حال أضعف مجيء العباسيين الحكم العربي في آسيا الوسطى ، وتكشفت الطبيعة اللاشعبية للحكم العباسي في قمع ثورة الشيعة الشعبية في بخارى ضد أبي مسلم ، وكان يقودها شريك بن شيخ المهري ، وترتبط الثورة الشعبية الأخرى للمقنع بالحركة المزدكية لما قبل الإسلام مع إضفاء حذر للمثالية على كليهما ، وأنهى قمع الثورات المضادة للعرب أو الخلافة الفترة الإقطاعية المبكرة في تاريخ

آسيا الوسطى ، ومع تكوين الممالك الإقطاعية المستقلة للطاهريين ، والسامانيين ، نكون قد أصبحنا في المرحلة التاريخية التي تتميز من قبل المؤلفين السوفييت على أنها انتصار للأرستقراطية المحلية على العرب والخلافة .

وبالعودة إلى النقود ، نجد أن السامانيين قد ضربوا نقوداً نحاسية /فلوس/ عندما كانوا تابعين اسمياً للطاهريين ، وكان للأخيرين فقط الحق في ضرب الدراهم الفضية ، وتعود أول الدراهم السامانية (المسجلة إلى ٨٨٧ م) وقد ضربها نصر بن أحمد في سمرقند ، وهي محفوظة في المتحف التاريخي في طشقند ، واستنتج العلماء السوفييت من دراسة النقود النحاسية ، أن مملكة السامانيين لم تكن ، بأي حال ، دولة مركزية قوية ، لأن النقود تكشف أنه حتى المؤسس القوي للأسرة الحاكمة اسماعيل بن أحمد لم يعترف به سيداً أعلى من قبل أخيه اسحق في فرغانة ، وبالوقت نفسه ، كان الولاء في كل مكان آخر في آسيا الوسطى لإسماعيل اسمياً فقط ، ولقد تأصل أسلاف إقطاعيي وأتابكة السلاجقة في الدولة السامانية[6] .

وبالمقارنة بين النقوش والنقود النحاسية التي جرى ضربها في مدن مثل أخسيكث وشاش واسفيجاب ، وفي كل مكان من الولايات السامانية ، يمكن تتبع ثروات مختلف فروع العائلة السامانية ، ومنذ بداية الحكم الساماني ، عندما تحدثنا المصادر المكتوبة عن النزاع بين اسماعيل وأخيه نصر ، نجد هنا إشارة وحيدة حول الانقسامات العائلية تساعدنا النقود الآن على توضيحها ، ولسوء الحظ تخبرنا المصادر المكتوبة القليل جداً عن النتائج التالية .

وفي الأساس كانت هناك زمرتان في العائلة السامانية منذ البداية : المجموعة التي كانت تدعم إسماعيل ، وأولئك الذين تبعوا نصراً ، وكان لهذا الإنقسام أهمية كبيرة في توزيع الأقطاع وإدارته ، وشغلت دورها عندما ثار إسحق ضد حفيده نصر بن أحمد بن اسماعيل بعد أن أصبح الأخير أميراً في بخارى في ٩١٤ م ، وكانت كثير من الأقاليم في الدولة السامانية تكتفي بمجرد دفع جزية إسمية إلى الحاكم في بخارى ، في حين كانت فيه ما تزال تحكم من قبل أمراء أهليين مثل خوارزم ، ختلان ، وأسفيجاب ، ونصر أباد ، حيث بقيت عائلة تركية تحتفظ بالسلطة .

وفي تلك الحالات كانت العلاقات بين الأفراد المحليين والسيد الأعظم في بخارى شبيهة بتلك التي تربط الأمراء السامانيين ببغداد .

وهذا ليس مكان المضي في التفاصيل حول سلاسل نسب السامانيين ، الذين حكموا في فرغانة ، أو أصحاب الإقطاعات المستقلة في أسفيجاب ، وإنه يكفي القول ، إن ضرب الدراهم الفضية وفق النموذج الخلافي كان علامة على الثورة ضد السلطات المركزية ، التي كان لها وحدها الحق في ضرب النقود ، وقد جرى مزيد من البحوث والدراسات المفصلة من قبل اختصاصيي النميات السوفييت لفرضية أن الدراهم السامانية الفضية كانت تستعمل كنقد ، إضافة إلى كونها سلعة بسبب محتواها من الفضة في أوربا الشرقية (منطقة الغولغا) وعلى العكس لم تكن الفضة مرغوبة في الصين وشرقي تركستان ، وإن الإتجار مع تجار من الولايات السامانية كان يتم على قاعدة المقايضة .

وهناك بالطبع الكثير جداً ليقال حول السامانيين ، ودور الدعاية القرمطية في آسيا الوسطى ، والفن ، والهندسة ، والحكومة ، والبيروقراطية ، وحشد من المسائل الأخرى التي درست من قبل العلماء السوفييت ، وبالنسبة للأدب ، لا يمكنني أن أحجم عن الإقتباس من غافروف Gafurov /ص ١٦٢/ ، فيما يتعلق بتشكيل اللغة الفارسية الجديدة في الأراضي السامانية ، «وكنتيجة [لميل مختلف الناس في بلاد ما وراء النهر للتوحد اقتصادياً وسياسياً] تم تطور اللهجات الإيرانية الشرقية واللغات بجلاء على أساس أن إحدى اللهجات المحلية في الإقليم الذي تتجاور فيه بلاد الصغد مع طخارستان وخراسان ، تهيأ لها أن تشكل اللغة المشتركة للتاجيك ، والتي كانت تسمى في ذلك الزمان الدري»[٧] .

وزالت دولة التاجيك الاقطاعية ، وحل محلها الدولة التركية القراخانية مع نظام مدروس للإقطاع مع «إقطاع دار» واستسلمت الأرستقراطية ـ الدهاقين ـ ذات الجذور العميقة في الأراضي للمقطعين من الالك خانية أو القراخانية ، ولم يعن هنا ، مع ذلك ، استبدال الارستقراطية الإيرانية بالتركية ، لأن الاثنتين كانتا ممتزجتين ، وكما يقول مؤلفو تاريخ أوزبكستان (ص ٢٣٨) : «إنه سيكون من الخطأ كما حدث كثيراً في الكتابات لآسيا الوسطى وضع بلاد ما وراء النهر بمثابة عالم المستوطنين الصغد في مواجهة تركستان الذين هم بمثابة عالم البدو

الأتراك ، ومن الممكن تعقب العناصر التركية في آسيا الوسطى السوفييتية رجوعاً إلى الأزمنة ما قبل الإسلامية ، والرجحان المتزايد للكلام التركي لم يكن يعني كبت اللغة التاجكية ، بل كان يعني بالأحرى مزج الاثنتين لتشكيل أصول اللهجات الأزبكية والتاجكية الحديثة ، وكان قد تم التنبؤ بذلك في نهاية الحكم الساماني عندما اقتسم الدهاقنة والقادة الأتراك السلطة في الولاية» .

وتجد الدولة الغزنوية لنفسها حيزاً صغيراً في التحريات السوفييتية ، وفي عملية العرض الدراسي (أعلاه ص ٥٠٦) نجد ما يلي : «كتب ف . إنجلز في رسالة إلى ك . ماركس ٦ حزيران ١٨٥٣ ما يلي ، مبيناً ملامح الدولة الشرقية : لقد كان للدولة في الشرق دائماً ثلاثة أقسام فقط : ١ ـ مالي لسلب سكانها . ٢ ـ عسكري للنهب من الخارج إضافة إلى السبي داخل البلد . ٣ ـ الأشغال العامة (للبناء) » ، وقد استهدف بهذه الكلمات بكل وضوح «الدولة الغزنوية» ، وتلقى القراخانيون معالجة أوفى بكثير من الغزنويين أقول : إنهم تلقوا معالجة أكمل مما يتوقع المرء من المعلومات التي في المصادر ، ولكن ما زلنا نعرف القليل حول الأسرة القراخانية ، ويخبرنا العلماء السوفييت حول حكم الأسرة القراخانية ، حيث حكم أفراد الأسرة أجزاء مختلفة من مجموع الولايات ، وهم يخبروننا أيضاً (تاريخ أوزبكستان ص ٢٥٦) أن الايلك خانية والأرستقراطية المحاربة التركية ، تابعت الأخذ بمقاليد الاتحاد التي تم التوصل إليها بين الحرس التركي في عهد السامانيين والقسم الأكثر رجعية من رجال الدين الإسلامي ، وفي عهد القراخانيين كانت سلطة الأئمة ، والسادة ، والمشايخ والصدور في أعلى نقطة بلغتها مطلقاً ، وكان موضوع الأزمة الاقتصادية تحت حكم القراخانية (تدهور سعر الفضة وهبوط قيمة النقود وسقوط الأسعار مع الانهيار في المزارع الكبيرة) موضوعاً هاماً ناقشه العلماء السوفييت ، ومرة أخرى تأتي المادة الجديدة من كنز الأغنياء للعملة ، ولكن أضيف مصدر آخر ، وقدر لهذا المصدر أن يصبح فائق الأهمية بعد التيموريين ، ولكن كان له أيضاً علاقة بالأزمنة القديمة ، وهذا المصدر هو محفوظات المدن ، والأوقاف المحلية أو ما يشبهها ، وأفضل الأمثلة لمثل هذه الدراسات ، كتاب ب . ب . إيفانوف P.P.Ivanov «اقتصاد شيوخ الجويبار في بخارى» (موسكو ١٩٥٤) ومقالات و . د . شيكوفيتش O.D.Chekovich في

«تاريخ أوزبكستان» ، «مجموعة جديدة من الوثائق حول تاريخ أوزبكستان» (١٩٥١) «ما يتعلق بمادة المحفوظات حول تاريخ بخارى» (١٩٤٥) وعدد آخر ، ومع أن هذه الوثائق كلها من الفترة ما بعد التيمورية ، فإنها تشير لأحداث يعود قدمها إلى أوائل حكم السامانيين ، ومن بين هذه المقالات ـ ما كتبه أ . أ . سمينوف A.A.Semenov في مقالته «حول مسألة أصول السامانيين» Trudy Rkad Nauk Tadzhikskoi, SSR ، مجلد ٢٧ (ستالين أباد ١٩٥٤) وكان قادراً على أن يبين أن السامانيين جاؤوا من قرية قرب ترمذ ، وعمله الآخر في المحفوظات المحلية كان مثمراً بالدرجة نفسها .

ويمكن للمرء أن يستمد من هذه الدراسة العامة المختصرة بالضرورة من بعض المنشورات السوفييتية حول التاريخ الآسيوي الأوسطي بعض النتائج العامة ، خاصة بعد المقارنة مع كتابات عن موضوعات مرتبطة بها في مكان آخر من العالم ، وأعتقد أن المرء قد يقول بشكل عام : إن المنافسة التقنية بين العلماء السوفييت ، ولا سيما عندما توجه نحو مشكلات خاصة ، رائعة ، فقد جلبت مقالات حول معاني مصطلحات من مثل «إقطاع» و«شاكر» و«دهقان» ، وما أشبه ، مواد مصدرية جديدة لتفسر من قبلهم ، وهكذا قدمت إسهامات مميزة لمعرفتنا . وتمت معالجة المشكلات التي فرضها علم الآثار في الحفريات الجارية في الواقع بطريقة وافية من قبل حشد من الاختصاصيين في الخزف والنميات ، والهندسة المعمارية الخ . وعدد الاختصاصيين المدربين في الاتحاد السوفييتي الذين يعملون في مثل هذه المشكلات ، دون ذكر مشكلات أخرى ، من لغويات ، وعلم أصل الإنسان الوصفي ، هو حتماً فوق تقديرات معظم العلماء من غير العلماء السوفييت في الحقل الشرقي ، والدراسات اللغوية في مختلف اللهجات لكثير من اللغات في الاتحاد السوفييتي هي ذات كفاءة عالية ، وهذا صحيح بشكل خاص بالنسبة للغتين التركية والإيرانية .

ومهما يكن من أمر فقد تعامل العلماء السوفييت مع قلب الشرق الأوسط أي الهلال الخصيب ومصر في الأزمنة القديمة ، والعالم العربي مع الإسلام في العصور الوسطى ، بشكل طفيف ، وأحد الأسباب لذلك بالطبع هو الجغرافية ، ولكن السبب الثاني والأكثر أهمية هو الاهتمام الذي أظهره الناس دوماً في الشرق الأدنى

بأجمعه بالدين ، والمصادر المكتوبة لما قبل الإسلام إضافة إلى الإسلامية ، مشربة بالمشاعر الدينية ، وفي الحقيقة إن المرء يمكنه بالكاد أن يدرس هذا الجزء من العالم دون تعاطف مع الدين طالما أنه موجود في كل مكان ، وبالتالي يتساءل المرء عما إذا كانت الاسهامات السوفييتية في تاريخ هذا الجزء من العالم ـ بما في ذلك آسيا الوسطى والقوقاز ، وذلك فضلاً عن العمل المتخصص تقنياً الذي سلف ذكره تواً ـ يمكن أن يكون لها قيمة للبحث العلمي والثقافي ، وحتى الآن تبدي الدراسات المنشورة في الاتحاد السوفييتي المذكورة أعلاه نقصاً في فهم ، ليس فقط التطور الروحي ، بل الثقافي ، بالتالي ، والاجتماعي للإنسان في هذا الجزء من العالم ، ويجب أن ينظر إلى التقسيم الزمني المتصلب للتاريخ كما يعلمه الماركسيون من قبل المؤرخين بشك أكبر من الأقوال المتنبئة لشبنغلر أو توينبي ، وعلى الرغم من ذلك جعلت الدراسات اللغوية والأثرية والنميات وما شابهها في الاتحاد السوفييتي من اللغة الروسية أداة علمية ضرورية للعلماء العاملين في التاريخ الشرقي .

هوامش البحث

١ ـ إلى جانب كثير من المقالات كان هناك ثلاثة مجلدات تلخص الأعمال في المنطقة الشرقية (موسكو ١٩٥٠) I.Yu. Kratchkovskii Ocherki Poistorii russkoi arabistiki العمل الذي يشغل مجلدين هو (موسكو ١٩٥٣ ـ ١٩٥٦) Ocherki Poistorü russ kogo Vostokavedenijd و (موسكو ١٩٥٤) N.A. Smirnov Ocherki istorii Izucheniya Islama Vsssr .

٢ ـ لخص عمل سميرنوف في مجلة آسيا الوسطى ١٩٥٦ ومن قبل ن . اليسيف N.Elisseéff في ذكرى ماسينون بيروت ١٩٥٦ وهنا كرواية عامة عن المستشرقين السوفييت موجودة في هـ . جابلونوسكي : «تاريخ آسية» في الدراسات التاريخية السوفييتية في سكليوم (١٩٥٧) ٨/٢٩٨ ـ ٣١١ .

٣ ـ على سبيل المثال س . فاسمر ١٩٣٠ «نقود القراخانيين» ١/٣٣/٨٣ ـ ١٠٤ أ . أ . بايكوف «كنز جديد للعملات الكوفية النحاسية من طاجكستان» في Trudy Otdela numismatiki Gos, Ermitazha . (لينتغراد ١٩٥٤) ص ١ . ى . أ . دافيدوفيتش «مواد نميات لتاريخ تطور الظروف الإقطاعية في آسية الوسطى في ظل السامانيين» في (ستالين أباد) ٢٧/٦٩ ـ ١١٧ . Trudy Instituta Istorii Akad, Nauk Tadzhi Kskoi SSR .

٤ ـ م . إ . ماسون M.E.Masson حول مسألة المسيبي (الدرهم الأسود) في (طشقند ١٩٥٩)
٧/١٧٤ ـ ١٩٦ Trudy Instituta Istorii Akad. Nouk Uzbekskoi SSR .

٥ ـ ذكر النرشخي أن كثيراً من النقود النحاسية قد ضربت في بخارى من قبل كل من أفراد الأسرة السامانية ، وحكام آخرين بعد السامانيين ، ولكن هذا لم يذكر لأنه لا شيء ذا أهمية فيه «أنظر تاريخ بخارى» ـ ترجمة س . ن . فراي كمبردج ١٩٥٤ ص ٣٧ .

٦ ـ ربما يجد المرء أيضاً أسلاف الصغد في النظرية النموذجية للحكم من قبل المماليك أو العبيد .

٧ ـ إن آرائي حول هذا الموضوع قد عبرت عنها في محاضرة في الفارسية ألقيت في مسرح البوهاني في كابل تحت رعاية جامعة كابل في ١٧ كانون الثاني ١٩٥٨ ، وقد نشرت في صحف الأنيس والاصلاح ، ومع ترجمة إنكليزية في صحيفة أفغانستان . انظر أيضاً مقالتي في در إسلام : ٣٥ (١٩٧٠) ١٤٢ : Die Wieder geburt Persiens .

٨ ـ وهناك سبب آخر لقراءة البحوث السوفييتية أعطاه غافوروف Gafurov (ص ٤٥٨) بقوله :
إن المؤلفين البرجوازيين المقيدين بمقاصد طبقتهم والعجز المنهجي ، لم يكونوا قادرين على تصوير مجرى التطور التاريخي للشعوب في آسيا الوسطى ، وكان عدد كبير من هؤلاء المؤلفين منهمكاً في التزوير المباشر للتاريخ ، وفي هذا إشارة ليس فقط للعلماء الغربيين ، بل للروس مثل و . بارتولد و ف . روزنبرغ F.Rosenberg كما قال غافوروف .

٣٢ـ كتابات تاريخية سوفيتية عن إيران
من ١٩٠٦ـ الى ١٩٤٦

غ . ي . ويلر .
مدير مركز بحوث آسيا الوسطى

نشرت خلال السنوات الأربعين الماضية كمية كبيرة جداً من المادة حول التاريخ الإيراني في الإتحاد السوفيتي ، وعلى أي حال ، لم يحظ معظم هذه المادة حتى الآن باهتمام جدي في الغرب ، ومرد هذا جزئياً لسبب إن الدارسين الغربيين للتاريخ الشرقي نادراً مايضيفون اللغة الروسية إلى إعدادهم اللغوي ، وبشكل رئيس بسبب القيود السياسية والعقائدية التي يعتقد أن الكتابات التاريخية السوفييتية خاضعة بشكل عام لها ، ولا يسوغ أي من هذين السببن إهمال التاريخ الفارسي الذي كتب في بلد مرتبط بمثل هذه الشدة بإيران ، وأعني الإتحاد السوفييتي المجاور لها .

ولم ينشر حتى الآن أي تاريخ شامل لإيران في الإتحاد السوفييتي ، وتضم المادة المتوفرة بشكل رئيس مقالات في المجلات الأكاديمية والدوريات الأخرى ، إلى جانب عدد من الكتب الصغيرة ، وحتى الآن فإن القسم الأكبر حجماً ، والأكثر علمية ، والأحسن توثيقاً ، والأغنى بالمادة هو المتعلق بالتاريخ القديم ، وهناك كمية هائلة منه ، ولكن التأكيد السوفييتي الرئيس هو على التاريخ الحديث ، وعلى سبيل المثال ، إن أكثر من ثلاثة أرباع العرض العام والهام للتاريخ الفارسي الذي قام به إيفانوف قد استغرقه تاريخ القرنين التاسع عشر والعشرين . وستعالج هذه المقالة فقط الكتابات السوفييتية حول الأحداث التاريخية الإيرانية

خلال السنوات الأربعين التي تبدأ بالثورة الفارسية في ١٩٠٦ ، وتتباين القيود السياسية والمذهبية التي أشرنا إليها تواً حسب خط الحزب الشيوعي في وقت ما ، وسياسة اليوم أيضاً، والتغير الأهم هو الذي يستحسن التنبه عليه في البداية ، هو الموقف السوفييتي تجاه السياسة القيصرية ، وهذا واضح بشكل خاص في المعالجة المتنوعة التي توافقت مع الثورة الفارسية ، ومرة أخرى ، كان لزاماً دائماً على جميع المؤرخين أن يعتبروا العالم الغربي الرأسمالي مسؤولاً كلياً عن جميع العلل والمساوىء في إيران ، ولكن حتى في هذه النقطة كانت هناك تبدلات معينة في التأكيد وتسليط الأضواء ، وكان النقد السوفييتي القديم للسياسة البريطانية في إيران معتدلاً بالمقارنة مع الاتهامات التي شنت ضدها خلال السنوات العشر أو الاثنتي عشرة الماضية ، وبينما كان الكتاب الأقدم ، إمايتجاهلون، أو أنهم يتخذون موقفاً ودياً تجاه المصالح الأمريكية في إيران ، نجد الميل الأكثر حداثة هو تتبع المخططات الأمبريالية الأمريكية لإيران رجوعاً حتى قيام الثورة الأيرانية ، وبصرف النظر عن فترة استراحة أو فترتين مختصرتين جداً ، كان المؤرخون السوفييت ناقدين عنيدين لجميع الحكومات الإيرانية التي تولت السلطة خلال الفترة موضوع المراجعة .

إن هدف المقالة الموجزة الراهنة هو مجرد بيان الطبيعة العامة للكتابة التاريخية السوفييتية حول فترة محدودة من التاريخ الإيراني . ولتحقيق هذا الهدف فإن أحداثاً ممثلة معنية ، ومراحل خلال الفترة ، قد اختيرت وتم تفحص أعمال معنية حولها للكتاب السوفييت الرئيسين ، وعلى هذا فإن المواضيع التي أختيرت هي : الثورة الإيرانية عام ١٩٠٦ ، إقامة جمهورية جيلان ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ ، إيران من ١٩٢١ ـ ١٩٤١ ، والحركة الانفصالية في أذربيجان ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ .

وقد أعطيت تفاصيل كاملة عن المصادر المستعملة في النص ، ويؤمل أن تكون هذه المصادر ممثلة ، ولكنها بعيدة جداً عن أن تستنفد كل المادة المنشورة التي لم يكن الكثير منها متوفراً .

الثورة الإيرانية عام ١٩٠٦

تختلف معالجة الثورة الإيرانية من قبل المؤرخين السوفييت تمام الاختلاف عن تلك المستخدمة من قبل الآخرين ، بمن فيهم المؤرخون الإيرانيون ، وهناك

أيضاً فرق ملحوظ بين المعالجات السوفييتية المتقدمة والمتأخرة : المادة القديمة نقدية عنيدة للسياسة والأعمال القيصرية ، والميل الآخر الأكثر حداثة هو لإظهار هذه على أنها عارضة بالمقارنة مع تلك البريطانية والأمريكية ، ومن حين لآخر على أنها حقة وبعيدة النظر ، وبدأ الميل المتأخر في الظهور في ١٩٣٧ ، عندما ضعفت الثقة بالمؤرخ الماركسي الأول بوكروفسكي Pokrovisky ، ولم ينشر الكثير من المادة التاريخية خلال الحرب ، ولكن الميل نفسه كان واضحاً مرة أخرى في ١٩٤٥ ، وتزايدت شدته من ١٩٥١ وما بعدها ، ومن الممكن الوقوف على المادة المصدرية الرئيسة عن الثورة الإيرانية في الأعمال التالية: كتاب م . س . إيفانوف M. S.. Ivanov «عرض عام لتاريخ إيران» (موسكو ١٩٥٢) «وتاريخ جديد لبلدان الشرق غير السوفييتية» مجلدان (موسكو ١٩٥٢) ومقالة بور رامنسكي Bor-Ramenskiy عن «دور البولشفيك ماوراء القوقاز في الثورة الإيرانية ١٩٠٥ ـ ١٩١١» ، التي ظهرت في التاريخ الماركسي رقم ١١ لعام ١٩٤٠ ، وإضافة إلى ذلك عدد كبير من المقالات حول التاريخ الإيراني يمكن أن توجد في الدوريات والنشرات الأكاديمية ، وأيضاً في طبعتي «دائرة المعارف السوفييتية الكبرى» .

إن بين الأعمال الرئيسة القديمة التي تعاملت مع الثورة «إيران الحديثة» تأليف أ . سلطان زادة (موسكو ١٩٢٢) و «تاريخ مختصر لإيران» تأليف ف . غوركو كريازين V. Gurko- Kryazhin (موسكو ١٩٢٥) «وايران في قتالها من أجل الاستقلال» تأليف م . بافلوفيش M. Pavlovich و س . إيرانسكي S. Iranskiy (موسكو ١٩٢٥) .

عرضت الثورة الإيرانية في الكتابات التاريخية السوفييتية على أنها المرحلة الأولى من حركة إيرانية للتحرير القومي ، وقد وضع تأكيد كبير على الحقيقة المقبولة بشكل عام أن الثورة الروسية ١٩٠٥ قد عجلت إلى حدٍ ما ، بما يوصف عادة لدى المؤرخين الإيرانيين والغربيين بأنه الحركة الدستورية ، وقد أعطي وصف مفصل للدور الذي شغله الثوار من عبر القوقاز ، في حين أن هذا قد جاء ذكره بالكاد في الروايات الإيرانية والغربية ، وجرى التأكيد بشكل عام على العداء القيصري للحركة ولكن الكتابات الحديثة تميل إلى صرف الانتباه عن هذا بإظهار التعاطف البريطاني مع الحركة على أنه «نفاق» ، ولتأييد نظرية العداء الأساسي لدي

البريطانيين للثورة الإيرانية كتب إيفانوف : «لجأ الإمبرياليون البريطانيون إلى التدخل المسلح ضد الثورة الإيرانية في وقت أبكر من روسيا القيصرية ، ولكن بقصد إخفاء سياستهم الإمبريالية نفذ البريطانيون نفاقاً ديماغوجياً ، ودعاية زائفة ، حول كيفية أنهم كانوا يساعدون شعب إيران للنضال من أجل الدستور ضد الشاه ، الذي ، طبقاً لهم ، كان تحت حماية الروس ، والمثل على هذا الموقف الديماغوجي الزائف كتاب الخبير البريطاني الفارسي ي . براون E. Browne «الثورة الإيرانية ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩» ولم يكشف القناع بعد عن هذا الزيف الفج في موقف بريطانيا من الثورة الفارسية بشكل صحيح ، وحاول الإمبرياليون البريطانيون . . . في ذلك الوقت أن يقيموا دعاية واسعة لروايتهم الديماغوجية الزائفة التي تغلغلت حتى في الأدب الروسي ، وتفند الحقائق بشكل قاطع . . . هذه الرواية»[1] ومما يجدر ذكره أن كلاً من بالوفيش وغوركو كريازين استعمل أبحاث أدوارد براون ، على ما يبدو ، كمصادر جديرة بالاعتماد عليها .

وفسر إيفانوف حقيقة أنه بعد الانقلاب الرجعي في حزيران ١٩٠٨ لجأ العديد من المؤيدين للمبادىء الدستورية إلى السفارة البريطانية كما يلي : «لجأ أعضاء عديدون من المجلس ، بينهم تقي زادة ، إلى البعثة البريطانية وقد حماهم البريطانيون ولكن ليس من منطلق التعاطف مع مؤيدي الدستور كما أكدت كذباً ونفاقاً الدعاية البريطانية ، لقد كان الإمبرياليون البريطانيون ببساطة ، يحاولون إنقاذ عملائهم الذين كان بينهم أعضاء عديدون في المجلس»[2] .

ومما يجد ذكره أن هذه هي الإشارة الوحيدة إلى تقي زادة الشخصية البارزه في المجلس والثورة في مجملٍ كتاب إيفانوف ، وما هو أكثر جدارة حقيقة أنه في رواية إيفانوف المفصلة جداً حول الشهور الأولى للمجلس الأول : «دعوة أول مجلس إيراني ، والنضال من أجل إصدار القانون الأساسي» (تشرين أول ـ كانون أول ـ كانون أول ١٩٠٦) الذي ظهر في Uchenyye Zapiski Instita Vostokovedeniya رقم ٨ ، ١٩٥٣ ، لم يذكر تقي زادة بالمرة ، ويختلف الكتاب الأوائل عن إيفانوف في تفسيرهم للموقف البريطاني تجاه الثورة الإيرانية فقد كتب بافلوفيش : «في حين أنه في الفترة الأولى للحركة الدستورية كانت المعارضة الجماهيرية واللجوء السياسي الكبير عاملين قويين في النضال ضد الشاه . . . ليس أقل أهمية كعامل في هذا

الانتصار الشعبي الدعم الجدي الذي أعطته بريطانيا العظمى للحزب الدستوري في إيران في ذلك الوقت . . . إنه لم يكن الخوف من الله ، أو الاحترام للعادات المقدسة ، بل مجرد الخوف من بريطانيا هو الذي جعل حكومة الشاه عاجزة أمام لجوء ١٥,٠٠٠ إنسان إلى السفارة البريطانية»[٣] وخلافاً لإيفانوف ، ذكر غوركو كريازين وبافلوفيش تقي زادة بشكل إيجابي كقائد للثورة ، وكشخصية بارزة في أول مجلس ، وواضح أن كلاً من إيفانوف ورايسنرReysner [٤] افترضا أن كل من القوقازيين وعبر القوقازيين ، الذين جاؤوا إلى فارس أثناء الثورة الإيرانية كانوا ثواراً ، وأن كل هؤلاء الثوار ، إن لم يكونوا أعضاء في الحزب الاجتماعي الديمقراطي (أي الشيوعي) فقد كانوا على الأقل مؤيدين له ويميل الكتاب السوفييت الحديثون إلى إعطاء تفسير أكثر جدة وبلورة في تعريف حركات المجاهد والفدائي ، مما هو مقبول عادة، وفي الحقيقة لم يعد المجاهدون عموماً حزباً سياسياً منظما بالمرة، وحول هذه النقطة يقول مالك الشعرا في كتابه : «تاريخ مختصر للأحزاب السياسية»: « في عام ١٩٠٨ كان هناك حزبان سياسيان في إيران ، أحدهما ثوري ، والثاني معتدل ، وفي السنة نفسها بعد افتتاح المجلس الثاني ، أعطي هذان الحزبان صفة رسمية تحت اسمي : «ديمقراطيون عامون» وإجتماعيون اعتداليون» ، وقدما إلى المجلس» (ص ٨) وأضاف بهار فيما بعد (ص ١٢) أن «الحزب الديمقراطي كان على علاقة طيبة مع البريطانيين ، وأن الموظفين الرسميين البريطانيين في الأقاليم كانوا يتخذون موقفاً ودياً منه ، وكان الحزب المعتدل على علاقة طيبة مع الروس» ، ولم يذكر المجاهدين كحزب ، وتعامل إيفانوف على أي حال مع المجاهدين على أنهم حزب راسخ حتى أنه أعطى بشكل كامل منهاجهم على أنه تقرر في مؤتمر المجاهدين في أيلول ١٩٠٧ ، وذكر إيفانوف وكتاب سوفييت حديثون آخرون الحزبين الذين وصفهما بهار ، ولكنهم نسبوا إليهما أهمية أقل ، وهكذا قال إيفانوف في مقالة حديثة[٦] : «لقد كانت هناك زمرتان أساسيتان في المجلس الثاني : المعتدلون . . . والديموقراطيون . . . وفي حقل السياسة الخارجية ، تحول المعتدلون إلى بريطانيا وروسيا القيصرية في حين حاول الديموقراطيون . . . بالاعتماد على ألمانيا الإمبريالية والولايات المتحدة الأمريكية

الحد من وضع القوى المذكورة أعلاه وبشكل خاص روسيا القيصرية» وهذا يختلف جذرياً عن وصف بهار للانتساب الحزبي .

وأقام كل من إيفانوف ورايسنر معلوماتها حول المجاهدين والثوار وعبر القوقازيين على مقال بعنوان «دور البولشفيك في الثورة الفارسية لعام ١٩٠٥ ـ ١٩١١» بقلم ي . بور . رامنسكي Ye. Bor. Ramenskiy ولعل المعنى الأساسي لكلمة مجاهد قد أغفل من قبل الكتاب السوفييت ، وبالتأكيد من الممكن الوقوف على وجود عبر القوقازيين في الثورة الإيرانية ، وبشكل خاص في حصار تبريز في مصادر عدة غير سوفييتية ، فعلى سبيل المثال يقول كسروي تبريزي في كتابه « ثمانية عشر عاماً من تاريخ أذربيجان» (طهران ١٩٣٨) . «وما هو أشد إيلاماً من كل شيء للناس في تبريز ، كان حالة المجاهدين القوقازيين ، وحالة الفدائيين الجورجيين والأرمن ، فقد جاء هؤلاء الرجال البواسل بأشد عزم لعون تبريز ، وفقد العديد منهم حياته من أجل حرية إيران ، واختفي الذين بقوا أحياء عن الأنظار في ذلك الوقت (أعني في وقت وصول القوات الروسية ١٩٠٩) لأن الروس عدوهم رعايا لهم وعاملوهم بشكل أسوأ من أي واحد آخر ، وقد شنقوا كل من وجدوه فوراً . والواقع أنه من اليوم الذي وصل فيه الروس إلى تبريز فانهم (القوقازيون) تشتتوا وتواروا عن الأنظار متى استطاعوا ذلك وقد عانى أهل تبريز من ذلك كثيراً» .

وكان الرعايا الروس عبر القوقازيين الذين تسللوا بصورة غير مشروعة إلىٰ إيران أيضاً موضوع تقارير من السفير الروسي في طهران ، هارتوغ أرسلها إلىٰ سانت بطرسبرغ .

والإنطباع العام الذي يحصل من الكتابات السوڤييتية الحديثة حول الثورة الإيرانية هو تأثير الثوار الروس ، وبشكل خاص الحزب الديمقراطي الإجتماعي في إيران ، الذي بولغ فيه نوعاً ما ، ومن جانب آخر ، يجب تذكر أن المؤرخين السوڤييت وحدهم ، كان بإمكانهم الوصول إلىٰ المصادر القيصرية ، وعلى سبيل المثال مخطوطات دولة جورجيا التي استعمله بور ـ رامنسكي والمثال الجيد على التغيير في الكتابات السوڤييتية في السنوات الخمس عشرة الماضية يمكن أن يرى بمقارنة الروايات في كل من الطبعة القديمة والجديدة لدائرة المعارف السوڤييتية ،

للأحداث في إيران في الفترة من ١٩١٠ ـ ١٩١٢ وتقول الطبعة القديمة من دائرة المعارف السوفييتية : «وفي ١٩١٠ ـ ١٩١١ حاولت روسيا عدة مرات بعث الحركة في الجماعات المختلفة المناهضة للثورة لإعادة محمد علي (أي شاه فارس المخلوع) إلىٰ السلطة حتى أنه نظم في ١٩١١ أمر نزوله على شاطىء بحر قزوين . وبعد إخفاق هذا التحريض قدمت الحكومة القيصرية في كانون أول ١٩١١ ، باستعمالها كمسوغ نشاط الخبير المالي الأمريكي شوستر الذي كان المجلس قد دعاه ، قدمت لإيران سلسلة من الإنذارات وسحقت بالقوة المسلحة المعاقل المتبقية للحركة الثورية في تبريز ، ورشت ، وأنزلي ، وفي ١٩١٢ في مشهد» .

وفي الطبعة الجديدة لدائرة المعارف السوفييتية لم يذكر المقال المقابل[٨] في معالجته للفترة ١٩١٠ ـ ١٩١٢ أيا من نزول محمد علي ، أو الإنذارات الروسية ، ووازن العمل العسكري من قبل الحكومة القيصرية بعمل مماثل من قبل البريطانيين ، ولم يعط أية بينة على هذا الاتهام ، ووصفت بعثة مورغان شوستر والأحداث التالية علىٰ النحو التالي :

«ولا يهدف استغلال التناقضات بين القوىٰ الإمبريالية لمصلحتهم ، ولكن في الواقع في استجابة لطموح الإمبرياليين في الولايات المتحدة الأمريكية لإحراز السيطرة علىٰ إيران ، أعطى المجلس سلطان واسعة ، وحق الرقابة على الدخل والإنفاق للخبير الأمريكي م . شوستر ومساعديه ، الذين أرسلوا إلىٰ فارس ١٩١١ من قبل وزارة الخارجية الأمريكية» .

وهذه الرواية الأخيرة نموذج للكتابة السوفييتية الحديثة ، وكرر إيفانوف في مقال حديث[٩] التهمة بأن شوستر قد أرسل ، ولم يدع إلىٰ فارس مع الشرح التالي :

«اقترح وزير خارجية ايران في ٢٥ كانون أول ١٩٠٠ على البعثة الإيرانية في واشنطن أنهم يجب أن يتحولوا إلىٰ وزارة الخارجية الأمريكية حول مسألة دعوة مستشارين ماليين إلىٰ إيران . . . وفي كانون الثاني ١٩٠١ ، أوصت وزارة الخارجية الأمريكية بإرسال خمسة خبراء ماليين إلىٰ ايران برئاسة مورغان شوستر ، ولم تشترك الحكومة الأمريكية رسمياً في المناقشات الأخيرة حول الظروف التي سيدعى فيها المستشارون الماليون إلىٰ إيران ، ولكن في الواقع أرسل شوستر

ومساعدوه إلىٰ إيران من قبل الشركات الرأسمالية ووزارة الخارجية الأمريكية ، التي عمل شوستر وفق تعليماتها فيما بعد» .

ومن الملامح الجديرة بالملاحظة لكتابي سلطان زاده وغوركو كريازين Kurko-Kryaz hin أن كليهما تكلم مقراً باستحسان بعثة مورغان شوستر إلىٰ إيران في ١٩١١ ، وكتب سلطان زاده : «قدمت الحكومة الروسية بموافقة من لندن إنذاراً ، وأجبرت إيران على صرف المستشارين الأمريكيين الذين جرى استدعاؤهم من قبلها لتوجيه ماليتها ، والذين نفذوا واجباتهم بوعي كبير وإخلاص»[١٠] وما برح غوركو كريازين أكثر تأكيداً في صالح شوستر :

«في تلك الأزمنة الصعبة . . . ظهر منقذ أدبي في شخص المستشار المالي الأمريكي مورغان شوستر (أيار ١٩١١) ، وخلافاً لكل الأجانب الذين كانوا قبله وبعده في خدمة إيران ، كان وحده ، في الواقع ، الذي فكر في احتياجات البلاد ، وليس بمصالح السلطة التي أرسلته ، أو أي جماعة مالية أو صناعية أخرى»[١١] .

وفي وصف الإنذار ، نقد غوركو- كريازين بالدرجة نفسها كلاً من الحكومتين القيصرية والبريطانية بقوله :

«وأثار نشاط شوستر الذي ميع الثورة المضادة ، وبشر بالنجاة الحقيقية لإيران بشكل طبيعي غضب بريطانيا وروسيا خاصة» .

جمهورية جيلان السوفييتية ١٩٢٠-١٩٢١

هناك القليل من الأمثلة في التاريخ الإيراني الحديث الذي يختلف الكتاب السوفييت كثيراً حوله أكثر من خلافهم حول قيام جمهورية جيلان التي خرجت مما دعي بثورة جنغلي jangali التي بدأها كوجك خان في ١٩١٨ ، والرواية الأحدث والأكثر تفصيلاً حول هذه الحادثة هي رواية م.ن إيفانوفا M.N.Ivanova التي ظهرت في :

Sovetskoye vosto Kovedeniye, no.3 لعام ١٩٥٥ ، والروايات الأقدم ، هي لإحسان الله التي نشرت في Novy vostok رقم ٢٩ لعام ١٩٣٠[١٢] .

ولإيرأندوست في «تاريخ الماركسية» رقم ٥ لعام ١٩٢٧ ، و «إيران الحديثة» لـ ـ P . سلطان زادة (موسكو ١٩٢٢) . وتختلف كل هذه الروايات في تقويمها للأهداف والمفاصل من ثورة كوجك خان ، وفي تقديرها لنتائج الحركة ، وربما أكثر من كل شيء بالنسبة للدور الذي شغلته القوات السوفييتية العسكرية ، وصور حلّ الروايات السوفييتية المتصارعة ، بأنه صعب بشكل خاص لغياب أي مادة مصدرية مفصله مكتملة ، وقد عوملت الحادثة بإيجاز فقط من قبل جورج لنروسكي george lenczowski في كتابه «روسيا والغرب في إيران» (نيويورك ١٩٤٩) وبشكل أكثر اكتمالاً نوعاً ما من وجهة النظر الإيرانية في كتاب «منشور جرجاني ـ السياسة السوفييتية في إيران» (طهران ١٣٢٦ ـ السنة الفارسية الشمسية) وتعامل إيفانوف مع المادة ببعض التطويل في كتابه «عرض عام لتاريخ إيران» وباستعمال هذه المصادر يمكن الوصول إلىٰ رواية موضوعية تماماً ، ولكن هنا فقط يمكن ملاحظة بعض الفوارق في الروايات السوفييتية .

إن السمات البارزة في رواية السيدة إيفانوفا ـ التي تكونها الأحدث ، يجب أن تعد الأكثر مصداقية من وجهة النظر السوفييتية ـ هو الاستبعاد التام لأي ذكر لنزول القوات المسلحة السوفييتية بقيادة راسكو لنيكوف Rasko lnikov في أنزلي Anzali في ١٨ أيار ١٩٢٠ ، أو في الحقيقة لأية صلة بين قوات كوجك خان والبلشفيك . ومن جانب آخر وصف إحسان الله كيف أنه وكوجك خان توصلا إلىٰ نتيجة أن الإحياء والنجاح الأكثر لثورة جيلان سوف يعتمد على روسيا السوفييتية ، وباتباع هذا الخط ذهب كوجك لنكسران ، وهو إقليم من أذربيجان الروسية ، «وهناك علم أن كولومتسيف Kolomiytsev الممثل السوفييتي غير الرسمي في طهران ، والذي كان مضطراً للهرب من إيران ، كان يحاول بمبادرة منه ، أن يتصل مع الجنغلي . . . في الربيع المبكر من عام ١٩٢٠ تلقى الجنغلي رسالة من قائد بلشفيكي في القوقاز ، يعلمهم بأن البلشفيك سيستولون قريبا على باكو ، ومن الواضح أن القوات السوفييتية كانت تبحث عن تلاحم أوثق مع الثوار الإيرانيين في توقع لغزوهم لإيران . . .»[١٣] .

ووصفت هذه المراجع السوفييتية الحديثه مثل إيفانوف[١٤] و «تاريخ جديد لبلدان الشرق غير السوفييتية»[١٥] نزول القوات السوفييتية في أنزلي ، (مع أن هذا

تمّ دون ذكر راسكو لنيكوف بالاسم) وأثر هذا النزول على ثورة جيلان ، وهكذا قال «تاريخ جديد»(١٦) .

«في سبيل إعادة السفن التي أبعدت بالتدخل ولإزالة التهديد الصادر عن البريطانيين وقوات الحرس الأبيض المتمركزة في أنزلي ، ورشت ، وصلت القوات السوفييتية والأسطول في ١٨ أيار ١٩٢٠ إلىٰ أنزلي ، وأنزلت قوات استولت على الميناء والبلدة ، وهربت قوات الاحتلال البريطانية وبقايا الحرس الأبيض التي كانت متمركزة في شمالي إيران ورفضت أن تقاتل الجيش الأحمر ، ونتيجة لهذه العملية الناجحة تمكن جنود البحرية السوفييت بضربة واحدة من تحرير سفن أسطول بحر قزوين ، وإزالة القاعدة التي كان الإمبرياليون البريطانيون وبقايا عصابات الحرس الأبيض ، يعدون العدة فيها لغزو الجمهورية السوفييتية . . . وأعطى النجاح الرائع للأسطول السوفييتي مع فريق الإنزال في أنزلي ، وقرار قوات الإحتلال البريطاني وقد استبد بها الرعب ، روح دفع قوية جديدة لجماهير الشعب الإيراني المناضل ضد الإمبرياليين البريطانيين ، وتطورت حركة التحرر الوطني في جيلان بقوة جديدة» .

وأخذ ايراندست الخط نفسه ، وإن يكن بتعابير ألطف نوعاً ما ، ولم يذكر أي كاتب سوفييتي التاريخ الذي انسحبت فيه القوات السوفييتية ولكن ايرانسكي قال : بدأ انسحاب «القوات الأذربيجانية السوفييتية من جيلان في ٢٦ أيار ١٩٢١»(١٧) وأعطى لنزوسكي التاريخ الفعلي علىٰ أنه ٢١ أيلول ١٩٢١ .

وتلخص مدام إيفانوفا مقالتها كما يلي :

«يمكن باستعراض صحيفة توازن حركة التحرير الوطني في جيلان ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ القول إن هذه الحركة كانت موجهة ضد الإمبرياليين البريطانية والزمرة الإقطاعية ، وفي الوقت نفسه جعلت من الممكن تصفية المعاهدة الأنكلو-إيرانية لعام ١٩١٩ ، وفي النهاية قلب الملكية القاجارية ، وأظهرت حركة التحرير الوطني في جيلان ، خلافاً للطبقة المناهضة للثورة من الإقطاعيين الأقوياء والمقاولين الذين كان يدعمهم الإمبرياليون الخارجيون ، أن جماهير الشعب العريضة قد طالبت بالتحالف مع روسيا السوفييتية ، حيث أنهم رأوا في مثل الحلف ضمانا لحريتهم واستقلالهم»(١٨) .

وتختلف «صحيفة توازن» عن إيراندست نوعاً ما [١٩] فهو أولاً أعطى ثورة جيلان دلالة أوسع مما فعلت مدام إيفانوفا ، ففي حين أنها رأت الحركة فقط علىٰ أنها ، مثلاً ، موجهة ضد الإمبريالية البريطانية والزمرة الإقطاعية ، ميز ايراندست ثلاثة أنماط فيها : أولها حركة تحرير وطني موجهة ضد الإمبرياليين ، ثانيا حركة بورجوازية وديمقراطية موجهة ضد الإقطاع ، وثالثاً حركة بروليتاريا شيوعية موجهة ضد البورجوازية ، ومن المهم ، علاوة علىٰ ذلك ، أن ايراندست كتب خلال كتابه عن ثورة جيلانية ، في حين أن مدام إيفانوفا سمتها حركة التحرر الوطني في جيلان .

وتختلف رواية سلطان زادة حول نهاية جمهورية جيلان عن ذلك الذي جاء في أي مصدر سوفييتي منظور ، فبعدما وصف الصراعات الخطيرة بين كوجك واللجنة المركزية للحزب الشيوعي وبعض الجنغل كتب (٢٠) :

«أججت هذه الاضطرابات الداخلية ببراعة من قبل عملاء الشاه ، وكان لها تأثير مصيري علىٰ الأحداث التالية ، وعندما عاد كوجك إلىٰ السلطة للمرة الثانية (أي في أيار ١٩٢١) كان الوقت قد فات ، فقد أوجدت مؤامرة عملاء الشاه وملاك الأراضي المحليين جواً من الخيانة المستمرة ، التي أدت بهالي قربان ، وهو أحد رفاق السلاح المقربين من كوجك إلىٰ أن ينتقل إلىٰ جانب جيش الشاه ، وختمت هذه الخيانة التي لم يسمع بمثلها مصير ثورة جيلان ، فلقد كان هالي قربان كجنغلي ، يعرف بشكل وافٍ جميع مداخل الغابات العذراء ومخارجها ، وبعد ذلك بوقت قصير ألحقت الهزيمة بقوات كوجك ، وتم الاستيلاء مرة أخرى على كامل جيلان من قبل جيوش الشاه» .

ولم يذكر هالي قربان مطلقاً من قبل السيدة إيفانوفا التي ألقت ، في الحقيقة ، بكل اللوم بالنسبة للهزيمة النهائية على كوجك نفسه ، ومن المهم أن سلطان زادة لم يذكر حيدر خان القائد الشيوعي الذي كان بطل رواية السيدة إيفانوفا .

ولإسهام سلطان زادة أهمية خاصة ، لأنه قد هوجم بعنف من قبل السيدة إيفانوفا ، كخائن وكمنظم لمجموعة ثورة مضادة ، دخل فيها عملاء للبريطانيين والشاه ، وطبقاً لـِ لنيزوسكي [٢١] فإن سلطان زادة الذي كان وزيراً للداخلية في

جمهورية جيلان ، كان رجلاً مثله مثل جعفر بيشاوري ، الذي قاد فيما بعد الحركة الانفصالية في أذربيجان في ١٩٤٥ - ١٩٤٦ ، ولكن المصادر الإيرانية تنفي صحة ذلك .

إيران ١٩٢١ - ١٩٤١

اعطى المؤرخون السوفييت اهتماماً قليلاً نسبياً للشؤون السوفييتية الإيرانية في تلك الفترة ، وأوقف إيفانوف فصلين قصيرين عليها ، الأول بعنوان «قلب حكم أسرة قاجار» ، والثاني بعنوان «فارس في عهد رضا شاه»[٢٢]

وأوقف كتاب «تاريخ جديد» سبعاً وعشرين صفحة للفترة من ١٩١٨ - ١٩٢١[٢٣] واحدى عشرة صفحة فقط للفترة من ١٩٢٢ - ١٩٢٨[٢٤] وخمساً وعشرين صفحة للفترة من ١٩٢٩ - ١٩٣٠[٢٥]» وهناك فقط إشارات موجزة في المنشورات السوفييتية إلى انقلاب ١٩٢١ الذي ينسب بشكل واسع إلى المكائد البريطانية ، وهذا اتهام لا يوجد فقط في الأعمال الحديثة ، بل أيضا في دراسات معاصرة مثل مقالة إيرانسكي التي ظهرت في ١٩٢٣[٢٦] ، ووصف السيد ضياء الدين ، الشخصية الرئيسة في الانقلاب بصورة مستمرة من قبل إيفانوف على أنه عميل بريطاني ، وهو وخصمه السياسي طيلة فترة حياته «قوام» ، قد أصبحا الموضوع الخاص للكتابات التاريخية السوفييتية الناقدة المحرجة .

وهناك روايات عن الثورات في أذربيجان وخراسان خلال ١٩٢٦ ، وهي لا تتوافق مع الروايات الإيرانية والغربية ، ويبدو أن الروايات عن عصيان سالارجنك في بجنرد بشكل خاص ، قامت على الإشاعات الأولى المبالغ فيها التي وصلت إلى مشهد في حزيران ١٩٢٦ ، وتسرب فيما بعد أن ضابطاً واحداً فقط وأربعين رجلاً قد تولوا العصيان فعلا وعبروا الحدود السوفييتية ، وتحدث إيفانوف في وصف[٢٧] الإضراب في منشآت شركة البترول الأنكلو - إيرانية في ١٩٢٩ عن أن القوات البريطانية قد استخدمت ضد المضربين ، علماً بأنه لم يكن هناك في الواقع قوات بريطانية في فارس بين ١٩٢١ - ١٩٤١ .ولم يستطع الكتاب السوفييت رؤية أية سمة للإصلاح في حكم رضا شاه ، وصورت إصلاحاته في

مجال الإنفاق ، على أنه كان لها باعث خفي وليست بدافع التنور والتقدم ، ونسب كل من إيفانوف «التاريخ الجديد» التحرير القسري للنساء إلى خطة للحصول على عمالة أنثوية رخيصة للمعامل ، وحتى تقليص رضا شاه من سلطة رجال الدين ، ذكر باستهجان[٢٨] ، ونظر إلى إنشاء الطرق وإعادة تنظيم الجيش ، والدفع المنظم له ، كمجرد خطوات اتخذها الشاه لتركيز السلطة في يديه .

وكتب «تاريخ جديد»[٢٩] باستخفاف عن إصلاحات رضا شاه اللغوية ، وبشكل خاص عن المحاولات لاستبعاد الكلمات غير الفارسية من المعجم ، وشكا إيفانوف[٣٠] من أن كثيراً من الكلمات «العربية والتركية والأوروبية المستبدلة ، قد أقرت لزمان طويل بالاستعمال ، وكانت تشكل جزءاً من بنية اللغة» ، وسجل «التاريخ الجديد»[٣١] أنه في ١٩٣٥ تم رسمياً قبول اسم «إيران» الجديد بدلاً من الكلمة القديمة «فارس» وأغفل على كل حال أن يبين ، أن هذا إشارة فقط إلى لغات أجنبية ، مع أن كلمة إيران قد استخدمت بالفارسية منذ زمن ممعن في القدم ، وأشار إيفانوف إشارة عرضية فقط إلى وجود الحزب الشيوعي خلال حكم رضاشاه ، وتولى من جانب آخر «التاريخ الجديد» وصف الأنشطة الشيوعية الإيرانية السرية ببعض التفصيل[٣٢] .

الحركة الانفصالية في أذربيجان ١٩٤٥-١٩٤٦

عد المؤرخون الإيرانيون والغربيون الحركة التي نجم عنها فصل إقليم أذربيجان الإيراني عن سلطة حكومة طهران منذ كانون أول ١٩٤٥ إلى كانون أول ١٩٤٦ بأنها قامت بتحريض من الحكومة السوفييتية ، وأنها قد دعمت بفعالية من قبل الجيش السوفييتي ، وتعامل معها الكتاب السوفييت من جانب آخر على أنها حركة عفوية من جانب الشعب لم تشغل فيها الحكومة السوفييتية دوراً من أي نوع ، ولا يمكن العثور في أي من المنشورات السوفييتية على أي ذكر للدور الفاعل للقوات السوفييتية في دعم الحركة ، أو عن التواني في سحب تلك القوات بحلول ٢ آذار ١٩٤٦ ، كما اشترط في الاتفاقية الثلاثية لعام ١٩٤٤ ، أو عن تعزيزاتهم القوية بعد هذا التاريخ ، لا بل أكثر من هذا ، حتى وجود القوات السوفييتية في

أذربيجان أثناء الحركة لم يشر إليه مطلقاً وبصرف النظر عن كتاب إيفانوف «عرض عام لتاريخ إيران» فإن الروايات السوفييتية عن الحركة يمكن أن توجد في مقالة لسيرجييف Sergeyev بعنوان «نضال الديمقراطية ضد الرجعية في إيران» ، التي ظهرت في البولشفيك في عددي ١١ ـ١٢ لعام ١٩٤٦ ، وفي نشرة شتينبرغ Shteynberg «العلاقات السوفييتية الإيرانية ومؤامرات الأمبريالية الأنكلو ـ أمريكية في إيران» التي ظهرت في ١٩٤٧ ، ونشرة حركة الشغيلة ، واتحاد الحرفيين في إيران التي ظهرت ١٩٤٨ ، بقلم بشكيروف Bashkirov وكتاب ميلوف Milov «إيران خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها» (موسكو ١٩٤٩) وأفضل رواية إيرانية للأحداث يمكن ان توجد في «مرج بود برجشت همبود» بقلم نجف قولي باسيان (طهران ١٩٤٨) ، وأعطي الوصف الكامل من وجهة النظر الغربية من قبل لنزوسكي في كتابه «روسيا والغرب في إيران» وفي مقال بعنوان «معركة أذربيجان ١٩٤٦» في مجلة الشرق الأوسط شتاء ١٩٥٦ بقلم روبرت روسوRobert Rossow الذي كان شاهد عيان لهذا الحدث .

وتستحق الروايات السوفييتية عن الأسباب التي أدت إلي إقامة ما سمي بالحكومة الوطنية لأذربيجان الإيرانية مع الإجراءات التي تبنتها تلك الحكومة ، وكان الكثير منها تقدمياً ، الاهتمام الدقيق ، لأن التعامل مع هذه النواحي من الحركة من قبل الكتاب الإيرانيين والأمريكيين موجز ، وإلى حد ما ، وحيد الجانب وبعض الحوادث التي أعيدت روايتها من قبل بشكيروف صادقة حقاً ، ومن جانب آخر أصر بشكيروف على أن الحاميات الفارسية كانت مطوقة بالفدائيين ، وقد أكرهت على إلقاء أسلحتها ، ولكن إيفانوف [٣٣] ذكر أن جميع القوات الإيرانية باستثناء لواء رضا قد استسلمت طواعية ، ووضعت نفسها تحت تصرف الحكومة الأذربيجانية ، ولم يشر أي منهما أبداً إلى الحادثة التي وصفها باسيان عندما جرى إيقاف قوة إيرانية كانت تتقدم لتعزيز حامية أذربيجان عند شريف أباد من قبل القوات السوفييتية التي هدد قائدها بفتح النار إذا تقدمت القوة الإيرانية .

والفرق الرئيس بين الروايتين الغربية والسوفييتية ، هو أنه في حين اتهمت الأولى الحكومة السوفييتية ببدء الحركة ، أقرت بالدعم المعنوي الذي قدمته القوى الغربية للحكومة الإيرانية ، ولم تذكر الأخيرة أي اهتمام سوفييتي مباشر بالأمر ،

ومن جانب آخر أعطي تدخل الإمبرياليين البريطانيين والأمريكيين إلى جانب الرجعيين بروزاً عظيماً ، وضخم إرسال لواء هندي إلى البصرة ، وإرسال مركبين إلى شط العرب في فترة الإضراب الأنكلو- إيراني إلى إرسال عدة فرق إلى الجبهة الإيرانية ، وقوات بحرية إلى عبدان من أجل إرهاب العناصر الديموقراطية ، وتشجيع الرجعية الفارسية في خوزستان[٣٤] .

ويميل الكتاب السوفييت إلى معاملة حركة أذربيجان كجزء من حركة ديمقراطية تطورت في إيران بعد نهاية الحرب الأخيرة ، وهكذا تعامل إيفانوف مع أذربيجان في فصله المسمي «فارس بعد الحرب العالمية الثانية» وربط بينها وبين الثورة القبلية في فارس والإضراب في منشآت شركة البترول الأنكلو-إيرانية في خوزستان ، ورأى الحوادث الثلاثة جملة كجزء من تزايد الصراع بين القوى الديمقراطية والرجعية ، الذي سببه هزيمة الجيش الفاشي الألماني على يد الاتحاد السوفييتي[٣٥] .

وقد يرى مما سلف كم هي أساسية الفروق بين المعالجات السوفييتية والغربية للأحداث التاريخية في إيران خلال الفترة التي تحت المراجعة ، وبشكل خاص فيما يتعلق بالجزء الذي شغلته روسيا والقوات الغربية فيها .

وهناك اتفاق عريض بين الكتاب الغربيين ، الذين كان عدد كبير منهم شاهد عيان للأحداث التي تولى وصفها حول ما حدث فعلاً ، ولكن هناك خلاف كبير في الرأي ، حتى بين الأفراد الذين كانوا يكتبون في الوقت نفسه تقريباً ، حول الأسباب التي أدت إلى هذه الأحداث ، وحول السياسات لمختلف القوى المشمولة بها ، وفي الكتابة السوفييتية من جانب آخر ، لم تنتج الفروق في معالجة الأحداث وفي تشخيص أسبابها عن الاختلافات في الآراء الفردية ، بل عن التبدلات في سياسة الكتابات التاريخية ، لأنه يجب دائما تذكر أنه لا يمكن نشر أي نتاج أدبي في الإتحاد السوفييتي دون موافقة رسمية .

إنه على الرغم من هذه الاعتبارات ، تستحق الكتابة السوفييتية حول التاريخ الإيراني من الدارسين الغربيين للشؤون الإيرانية بشكل عام انتباهاً أكبر بكثير مما لقيته حتى الآن .

هوامش البحث

١ - م . س . إيفانوف «عرض عام لتاريخ إيران» ص ٢١٦ - ٢١٧ .
٢ - المصدر نفسه ص ٢٢٦ .
٣ - بافلوفيش وإيرانسكي - إيران في قتالها من أجل الاستقلال ص ٤٠ .
٤ - ي . م . رايسنر - الثورة الروسية ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ويقظة آسيا في Sovetskoye Vostokovedniye رقم ٢ لعام ١٩٥٥ .
٥ - إيفانوف - المرجع نفسه ص ٢١٠ .
٦ - م . س . إيفانوف - حقبة في تاريخ توسع الأمبريالية الأمريكية في إيران بعثة مورغان شوستر في ١٩١١ Sovetskoye Vostokovedniye رقم ٢ لعام ١٩٥٥ .
٧ - فارس - في دائرة المعارف السوفييتية طبعة أولى مجلد ٤٥ (١٩٤٠) .
٨ - إيران - المصدر نفسه طبعة ثانية مجلد ١٨ (١٩٥٣) .
٩ - المرجع نفسه في الملاحظة رقم ٦ أعلاه .
١٠ - إيران الحديثة ص ٧ .
١١ - تاريخ مختصر لإيران ص ٦٠ - ٦١ .
١٢ - كما اقتبسه لنزوسكي في «روسيا والغرب في إيران» ص ٣٦ .
١٣ - المصدر نفسه .
١٤ - ايفانوف - المصدر نفسه ص ٢٧٩ .
١٥ - المصدر نفسه ٢٥١/١ .
١٦ - المصدر نفسه .
١٧ - ايرانسكي خمس سنوات من العلاقات الروسية الإيرانية في «تاريخ جديد» (١٩٢٣) حاشية ٣ - ٤ .
١٨ - م . ن - إيفانوفا حركة التحرير الوطني في إقليم جيلان في ايران في ١٩٢٠ - ١٩٢١ في Sovet Skoye vostokove deniye رقم ٣ لعام ١٩٥٥ .
١٩ - ايراندست . نواح من ثورة جيلان في «تاريخ الماركسية» رقم ٥ لعام ١٩٢٧ ص ١٣٥ .
٢٠ - سلطان زادة - المرجع نفسه ص ٥٠ .
٢١ - لنزوسكي - المرجع نفسه ص ٢٢٤ .
٢٢ - إيفانوف - المرجع نفسه ص ٣٠١ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣٣٥ .
٢٣ - تاريخ جديد ج ١ انظر الملاحظة ١٥ أعلاه ص ٢٣٥ - ٢٦٢ .
٢٤ - المصدر نفسه ص ٢٦٢ - ٧٣ .

٢٥ ـ المصدر نفسه ص ١٩٠ ـ ٢١٥ .
٢٦ ـ إيراندست في الملاحظة ١٩ .
٢٧ ـ إيفانوف ـ المرجع نفسه ص ٣٢٧ .
٢٨ ـ المصدر نفسه ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ .
٢٩ ـ التاريخ الجديد : ٢/٢٠٢ .
٣٠ ـ إيفانوف المصدر نفسه ص ٣٢٤ .
٣١ ـ التاريخ الجديد : ٢/٢٠٢ .
٣٢ ـ التاريخ الجديد : ٢/٢٠٢ .
٣٣ ـ إيفانوف المرجع نفسه ص ٣٧٠ .
٣٤ ـ المصدر نفسه ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ وأنظر أيضاً ٣٨٧ .
٣٥ ـ المصدر نفسه ص ٣٦٥

القسم الثالث

كتابات تاريخية شرق- أوسطية حديثة

٢٣- المؤرخ الجبرتي[1]
داوود أيالون
أستاذ تاريخ الشعوب الاسلامية في القدس

لغز الجبرتي :

في تضاد واضح مع فترة سلطنة المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) الغنية بالمواد المصدرية الدقيقة والأكثر تفصيلاً ، والتي يصعب أن تتفوق عليها في النوعية أو الكمية أية مادة مصدرية لأية فترة إسلامية أخرى ، إن فترة الحكم العثماني في مصر (١٥١٧ - ١٨١١ تقريباً) واضحة الندرة في مصادرها التاريخية المكتوبة من قبل السكان المعاصرين في البلاد[2] ، وتصبح هذه الحالة من الأمور الكئيبة ، بدرجة كافية في حد ذاتها ، أكثر إثارة للكآبة في ضوء حقيقة أن السبعين سنة الأولى أو نحوها من الحكم العثماني ، تكاد تكون غامضة كلياً ، وتعطي الحوليات المختصرة جداً لابن أبي السرور البكري والإسحاقي التي لا تضم أكثر من مجرد عرض موجز للأحداث ، لمحة باهتة فقط لما حدث في مصر في الفترة المذكورة أعلاه ، وهكذا فإن عملية انتقال مصر من شكلها المملكوي إلى العثماني مجهولة بشكل خاص باستثناء السنوات القليلة الأولى ٩٢٢ - ٩٢٨/ ١٥١٧ - ١٥٢٢ من الحكم العثماني ، التي وصفها ابن إياس ، وبعد أن بلغ هذا الانتقال مرحلة متقدمة جداً ، أمكن رسم صورة واضحة نوعاً ما للتاريخ والمجتمع المصري من الأعمال التاريخية التي ألفها مؤلفون مصريون معاصرون[3] ويجب التأكيد في هذا المجال على أنه كيفما كانت أهمية الأنواع الأخرى من المصادر ، مثل المحفوظات العثمانية ، إلى حد أقل بكثير يوميات الرحالة الأوروبيين ، فإنها بالتأكيد ليست بدائل لأعمال المؤرخين

المحليين ومن بين جميع المؤرخين المحليين لمصر العثمانية يقف عبد الرحمن الجبرتي كعملاق بين الأقزام ، وعلاوة على ذلك إنه باستثناء تاريخه ، تعد تواريخ المؤرخين الآخرين لتلك الفترة ذات قيمة محدودة جداً ، لأنها بشكل رئيس مصادر مكملة لتاريخه ، ولهذا فقط أحرزت بعض الأهمية[٤] ، ولكن في مقارنة الجبرتي فقط بمؤرخي مصر في ظل العثمانيين ظلماً له ، لأن له أهمية تتجاوز إلى حد بعيد الفترة والبلد الذي يتعامل معه تاريخه ، وفي رأيي إن الجبرتي يجب أن يعد واحداً من أعظم المؤرخين في العالم الإسلامي لكل الأزمنة ، وإلى حد بعيد أعظم مؤرخ للعالم العربي في الأزمنة الحديثة .

وفي محاولة لتفسير ظهور مؤرخ بكفاءة الجبرتي في مثل ظروف سوء الطالع كالتي كانت تسود في مصر في ظل العثمانيين ، يواجه دارس التاريخ بلغز لا يقبل الحل حقاً ، ولا بد أنه من الأسهل بكثير إظهار أن عملاً مثل عمل مؤرخنا كان لا يمكن إطلاقاً كتابته تحت هذه الظروف ، وفي دراسة الكتابات التاريخية في مصر العثمانية لا يمكن للمرء أن يتمالك نفسه من الشعور بأن الجبرتي يبدو أنه قد جاء من المجهول ، وعاد إلى المجهول وذلك بقدر ما تعنيه دراسة التاريخ ، إنه لم ينطلق من أية مدرسة للمؤرخين ، وهو لم يوجد مدرسة خاصة به ، وعمله الخالد هو ظاهرة مستقلة تماماً ، وحتى يومنا ما من أحد داخل مصر أو خارجها ، قد عني بمتابعته ، أو حاول اتباع خطوات الجبرتي[٥] ولعل مثل هذه الظاهرة للمؤرخ الفريد الذي لديه مثل هذا الارتقاء العبقري إلى مثل هذه الارتفاعات منطلقاً من محيطه المقفر[٦] تكون فريدة في حوليات الإسلام ، ونادرة في حوليات الجنس البشري .

تدهور الكتابة في زمن الجبرتي :

لم يعط أحد وصفاً لتدني الكتابات التاريخية في زمانه من الجبرتي نفسه ، وذلك لكراهية معاصريه لها ، وبعد ذكر قول الشاعر ، أن «من علم التاريخ زاد عقله»[٧] بين أن أهل الماضي منذ خلق الله الجنس البشري ، عنوا بكتابة التاريخ عصراً بعد عصر ، وجيلاً بعد جيل ، إلى أن ترك الناس في زماننا التاريخ وأهملوه ونبذوه ، وطرحوه ، وعدوه شغل من لا عمل له قائلين : إن التاريخ ليس سوى أساطير الماضين ، «وعدوه من شغل البطالين ، وقالوا أساطير الأولين» ، وبحق

حياتي إن الناس في زماننا معذورون في موقفهم من التاريخ ، إنهم منشغلون بأشياء أكثر أهمية ، وبناء على ذلك إنهم لا يريدون أن يتعبوا أقلامهم بمثل هذا النوع من التدقيق ، لقد انقلبت ظروف الزمان رأساً عل عقب ، وتراجعت ظلاله ، وحطمت أساساته ، وحوادثه لم تسجل بناء على ذلك في سجل أو كتاب ، وشغل وقت المرء دون منفعة فبات مضيعة صريحة ، وأيما حدث مر لن يعود ثانية ، إنه فقط شخصي مثلي ، معزول مثلي في زاوية النسيان والإهمال ، وتقاعد عن العمل خلافاً للناس الآخرين ، وهو الذي يشغل نفسه في عزلته ، وسيخفف من وحدته بذكر الخير والشر في زمانه(٨) .

ومن ا[illegible]كن قياس الأعماق التي غاص إليها علم التاريخ في مصر في عهد العثمانيين أيضاً بحقيقة أنه في التراجم العديدة جداً لرجال العلم ، التي يضمها تاريخ الجبرتي بالكاد يمكن تمييز أي اهتمام بالتاريخ أو الأعمال التاريخية ، وحسب معرفتي فإن قليلا من الناس فقط أشير إليهم في كامل كتابه على أنهم أظهروا اهتماماً بالتاريخ ، وقد تكون هناك إشارات أخرى ، ولكنها فاتتني ، وحتى إذا صح ذلك ، فإنه لن يغير من الصورة العامة شيئاً ، ومن بين جميع التراجم التي أتى على ذكرها ، ما من واحد من المترجم لهم أوقف نفسه على التاريخ ، وإنه لمن المشكوك فيه جداً أن يكون الجبرتي قد عرف شيئاً حتى عن الدمرداشي ومصطفى بن إبراهيم ، المؤرخين اللذين توفيا في الفترة التي غطاها تاريخه .

ويتضح مما أوردناه عن الجبرتي أعلاه ، أنه لو لم يكن الجبرتي محروماً من الحياة النشيطة ، لكانت فرص تأليفه لهذا التاريخ قليلة جداً ، لقد كانت حادثة أخرى سعيدة الحظ للكتابة التاريخية الإسلامية ، أنه تصادف أن يكون التاجر الوحيد من بين جميع أبناء والده ، الذين تجاوز عددهم الأربعين ، وجميعهم توفوا قبل وصول سن البلوغ ، «ومات له نيف وأربعون ولداً ذكوراً ، وإناثاً كلهم دون البلوغ ، ولم يعش له من الأولاد سوى الحقير»(٩) وهكذا عاش الجبرتي ، ووصل عمله إلى الأجيال التالية بمعجزة تقريباً ، ولو لم يكتب كتابه ، فإن احتمال قيام غيره بكتابة شيء مشابه لما كتبه صغيرة .

ويصبح إنجاز الجبرتي التاريخي العظيم أكثر إثارة للحيرة ، عندما يأخذ المرء في الحسبان أن معرفته بأي من التاريخ الإسلامي أو المصري في العصور الوسطى

كما هو واضح كانت محدودة تماماً ، فقد عدد في مستهل كتابه ، بطريقة مشوشة نوعاً ما ، أعمال المؤرخين المسلمين المصريين (بشكل رئيس المماليك) ويضيف على الفور : وقلت : أصبح كل هؤلاء «أسماء من غير مسميات» ، إذ أننا لم نر من كل هذا شيئاً سوى أجزاء قليلة مبعثرة مشوشة (أجزاء مدشوتة) على بعض رفوف وقف المدارس ، وقد تلاعب بها بعض باعة الكتب ، وباعها بعض المفتشين والمشرفين ، ثم نقلت إلى المغرب والسودان ، والقليل الذي بقي (ذهبت بقايا البقايا) ذهب خلال فترة الحرب والاضطرابات ، ثم جاء الفرنسيون وأخذوا كل ما وجدوه إلى بلادهم ، وعندما قررت تصنيف (في صورته النهائية) كل ما كنت قد سودته من قبل ، أردت أن أربطه بشيء مما حدث قبلاً ، ولكني لم أجد بعد التقصي والبحث شيئاً سوى بضع وريقات الخ[١١] .

لهذا القول الواضح لمؤرخنا وزن عظيم ، وهو مؤيد بطرق عديدة ، فمقدمة الجبرتي[١٢] هزيلة وغير متجانسة ، وعنوان تاريخ ابن إياس المشهور نقل بشكل مغلوط «مرج الزهور» بدلاً من «بدائع الزهور»[١٣] وفي كل مكان من الكتاب هناك إلماعات قليلة ، وكلها ذات طبيعة عارضة لتاريخ المماليك أو مؤرخيهم ، وفقط الأعمال التي يمكن بوضوح إثبات أنه قد اطلع عليها ، وحتى هذه لا نعرف بأية درجة من التمكن كافية اطلع عليها : هي للمقريزي ، وعندما قال عن تاريخ العيني ، الذي جاء في أربعين مجلداً : لقد رأيت بعضاً من مجلداته ، وهي واسعة ، ومن حجم كتاب الكامل لابن الأثير نفسه ، (رأيت منه بعض مجلدات ، وهي ضخمة في قالب الكامل)[١٤] واضح أن عباراته توحي بأنه لم يقرأها .

وفي الواقع ورد عدد كبيراً آخر من مؤرخي المماليك في كتاب الجبرتي ، ولكن ذلك ارتبط حصراً ، أو إلى أبعد الحدود ، بكتاباتهم الفقهية ، وليس بكتاباتهم التاريخية ، هذا ولم يكن الجبرتي أيضاً على معرفة جيدة بتاريخ مصر العثمانية قبل ١١٠٠ هـ وهي السنة التي استهل بها تاريخه ، فإلماعاته القليلة إلى الأحداث ، التي وقعت قبل تلك السنة ناقصة جداً .

عظمة الجبرتي

ما الذي جعل الجبرتي مؤرخاً من الطبقة الأولى على الرغم من حقيقة أن معرفته بالتاريخ الإسلامي والمصري كانت محدودة جداً ، وأنه كتب تاريخاً محليا فقط ؟ أن مرد ذلك ليس لموهبته الطبيعية الرائعة فحسب ، ولكن أيضا لاستغراقه الانفعالي العميق في موضوعه ، فقد كان محباً عظيماً لبلاده ، شاطرها أفراحها وأتراحها بشكل كامل ، وبدا كما لو كان يكتب عن لحمه ودمه ، وهذه هي الروح التي تشرب بها الكتاب من البداية للنهاية ، وتاريخه مزيج رائع من الدفء العاطفي ، والتجرد العلمي ، الذي نادراً ما يمكن التغلب عليه من قبل أي انحياز شخصي ، أو من أي نوع آخر[١٥] .

ولا يفقد القارىء مطلقاً الإحساس بأن اصبعه على نبض الحياة ، والمشاركة في الجو الحقيقي للبلد وللفترة ، وإلى هذه يجب إضافة طريقة مؤرخنا الموجزة ، والمركزة والواقعية في الكتابة ، إلى جانب بصيرته وقدرته على المضي مباشرة إلى قلب الأشياء ، ورسم صورة كاملة ببضع ضربات عريضة من فرشاته[١٦] .

كيف كان الجبرتي يختار رواياته ومواده

يزودنا الجبرتي بلمحة عن الطرق التي استخدمها في جمع مواده وفرزها فيقول في نهاية روايته لعام ١٢٢٥/ ١٨١٠ ـ ١٨١١ «وانقضت السنة بحوادثها التي قصصنا بعضها ، فإني لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور ، وعدم تحققها على الصحة أو تحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم في الرواية ، فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار . . . وغالباً من الأمور الكلية التي لا تقبل الكثير من التحريف ، وربما أخرت قيد حادثة حتى أثبتها ويحدث غيرها وأنساها فأكتبها في طيارة حتى أقيدها في محلها إن شاء الله تعالى عند تهذيب هذه الكتابة[١٧] وذكر مؤلفنا في وقت مبكر من تاريخه أنه قد ضمنه المعلومات التي امكنه التحقق منها فقط ، وأنه لم يخترع شيئاً من عقله ، وأن الله شاهد على صدق كلماته ، لأنه لا يستطيع أن يخفي شيئاً عن عينه المطلعة « . . . ما وصل إليَّ علمه ، وثبت خبره لدي ، . . . ولم أخترع شيئاً من تلقاء نفسي ، والله مطلع على أمري وحدْسي»[١٨] وتؤكد دراسة تاريخ الجبرتي تماماً رواياته المبينة أعلاه ، ومن أجل إثبات ذلك سوف ننتخب جزأين منفصلين من الكتاب : يتعامل الأول مع العقود

العشرة الأولى أو نحوها من الفترة التي يغطيها التاريخ ، ويصف الثاني الاحتلال الفرنسي :

تاريخ الجبرتي لأوائل القرن الثاني عشر الهجري :

في إعادة تنظيمية للنصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري ، وهي الفترة التي لم يتمكن شخصياً من أن يشهدها ، كانت لديه مصادر قليلة ، من الدرجة الثانية ، توجب عليه أن ينسخ عنها ، بينها أحمد جلبي بن عبد الغني ، الذي استفاد منه جزئياً فقط ، وإمكانية الاعتماد الآن على رواية الجبرتي حول تلك الفترة يمكن إثباتها بطريقتين ، . أولاها أن الحدث نفسه يكرر عدة مرات في التاريخ وفي التراجم ، ولا يوجد عادة تعارض في الملاحظات بين الروايات المختلفة ، وثانيتها أن لدينا تاريخ شاهد عيان ، هو الدمرداشي الذي يتعامل مع السنوات ١١٠٠ ـ ١١٦٩/١٦٨٨ ـ ١٧٥٦ ويدعى كتاب «الدرة المصانة في أخبار الكنانة»[١٩] .

وهذا التاريخ ، على الرغم من ضعف أسلوبه ورداءة بنائه ، منجم للمعلومات الدقيقة ، ورواية الجبرتي مدعمة كلياً في جوهرها برواية الدمرداشي ، ويضيف الدمرداشي فقط تفاصيل عديدة ووقائع بعضها هام للغاية إلى رواية الجبرتي الموجزة[٢٠] .

الجبرتي ومؤرخو المماليك

ولعل من المفيد في هذه الآونة أن نعمد إلى مقارنة الجبرتي مع أسلافه من مؤرخي السلطنة المملوكية ، فقد تولى هؤلاء المؤرخون ـ الذين يمكن تصنيف بعضهم مع أعظم المؤرخين المسلمين ـ وصف الفترات التي تقدمت على عصرهم ، وأدخلوها في تواريخهم ، وحين فعلوا ذلك كان تحت تصرفهم مؤلفات المؤرخين الكبار الذين تقدموهم ، والتي كان بإمكانهم النهل منها بكل بساطة ، ومع هذا فقد نهلوا منها في حالات كثيرة بشكل سيء ، فقد قاموا متعمدين أو دون أن يشعروا بتشويه ، أو بالقاء الظلال على المؤلفات التي نقلوا منها عندما اختصروا ما نقلوه أو قسموه إلي فقرات ، وتظهر دراسة مصادر عصر المماليك البحرية ، التي

ما زال معظمها مخطوطاً ، بكل وضوح كم هو خطير أن يكتب تاريخ هذه الفترة من مصنفات مؤرخي عصر المماليك الجراكس .

وهناك جانب إخر لصالح الجبرتي في مقارنته مع المؤرخين المماليك : صحيح أن عدداً قليلاً من عصور تاريخ الإسلام ، يمكن إعادة بنائها ، ومنها العصر المملوكي ، ولكن ذلك يمكن القيام به بسبب وجود كميات هائلة وغنية من الأدب التاريخي الذي يتساوى غناه مع تنوعه ، فهناك تواريخ ، وكتب جغرافية ، وخطط ، وموسوعات ، ومعاجم وتراجم ، ونقوش ، صفوف مرعبة ، لا يمكن بسهولة استيعابها وتخطيها ، بيد أنني أعتقد أنه لا يوجد مصدر مملوكي هو غني ومتماسك ومختصر ومغط لموضوعه مثل تاريخ الجبرتي بمجلداته الأربعة وصفحاته الـ ١٣٧٢ .

تاريخ الجبرتي كمصدر للاحتلال الفرنسي

أما بالنسبة للاحتلال الفرنسي لمصر ، فإن هذه المدة القصيرة التي دامت ثلاث سنوات فقط ، فهي على خلاف مع القرون التي تقدمتها ، موثقة بشكل جيد جداً ، والأدب المعاصر والقريب من المعاصر ، الذي يتعامل معها وفير ، وهو يشتمل على عدد كبير من روائع المؤلفات التاريخية ، كتبها علماء أوروبيون معظمهم فرنسيون ، ووصف الجبرتي للاحتلال ، لا يقل عن أي من هذه الروائع ، ويبقى أحد المصادر الرئيسة ، والتي يمكن الاعتماد عليها اعتماداً كبيراً في هذا الحدث الكبير في كل من التاريخين الإسلامي والأوروبي .

ومنح المؤرخون الفرنسيون المعاصرون الذين درسوا الاحتلال الفرنسي ، والفترة التي تلته مباشرة ، ثقة استثنائية للجبرتي . وتنعكس هذه الثقة في الحد الذي اعتمدوا فيه على تاريخه ، ومقرر أن كتاب «التاريخ العلمي والعسكري للحملة الفرنسية على مصر مع المذكرات والروايات والمواد المتعلقة» في عشر مجلدات (باريس ١٨٣٠ ـ ١٨٣٤) الذي أهدي للويس ـ فيليب الأول ، والذي كتبه مؤرخون من المرتبة العليا ، بعضهم كانوا أعضاء في حملة نابليون ، قد بني على وثائق من الدرجة الأولى ، هو ، بلا شك واحد من أهم الكتب وأشهرها حول مصر في الفترة المذكورة أعلاه ، ويوجد في الصفحة العاشرة من المجلد

التاسع البيان التالي : «رسم لنا المؤرخ العربي عبد الرحمن الذي غالباً ما ذكرناه من قبل ، لوحة وصف فيها أوضاع الشعب المصري بعد رحيل الفرنسيين مباشرة ، وتجعل هذه اللوحة غير ذي قيمة كل التفاصيل التي نستطيع أن نأخذها من مصادر أخرى ، حتى إن تفحصاً سريعاً للتاريخ العلمي يرينا أن مؤلفه قد استعار من مخطوطة الجبرتي وحمل مواده أكثر مما تحتمل»[٢١] .

والآن يظهر الفحص السريع لكتاب «التاريخ العلمي» أن مؤلفيه قد استعاروا من مخطوط الجبرتي أكثر بكثير مما أقروا به في اقتباساتهم ، ويبدو أنهم غالباً ما وجدوا أن رواية الجبرتي كانت تتفوق إلى حد بيّن على رواية أي مصدر آخر تحت تصرفهم . ووحدها المقارنة الشاملة بين النصين يمكن أن تظهر المدى الكامل ، لما كانوا يدينون به لمؤلفنا[٢١] .

تاريخ الجبرتي كمصدر لحكم محمد علي

ويتضح المستوى العالي للكتابة التاريخية لمؤلفنا ، ليس في روايته حول النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري والاحتلال الفرنسي فحسب بل يتضح عملياً في أي جزء آخر من كتابه أيضاً ، وللجزء الأخير من هذا الكتاب ، الذي يتعامل مع حكم محمد علي والإصلاحات ، قيمة إضافية وأهمية ، فقد اجتذب أشخاص قلائل في العالم الإسلامي في الأزمنة الحديثة الاهتمام الكبير ، وهلل لهم مثل ما حدث لمحمد علي ، وكتلة الأدب الواسع الذي كتب حول هذا الرجل العظيم وحول فترته ، هي بالإجمال إيجابية بالنسبة له .

وهذا الأدب متميز إلى حدٍ بعيد بقصد أو عن غير قصد ، لصالحه لأسباب رئيسة ثلاثة : جعل البيت الحاكم لمحمد علي منه ، ومن بعض خلفائه موضوعاً لتمجيد منظم . ثانياً ذهل كثير من الأوروبيين الذين زاروا مصر في زمانه من عملية التغيير السريع ، وفق الخطوط الغربية ، وكانت هذه البلاد هي الوحيدة في العالمين الإسلامي والشرقي التي تنفذها بحماس وحيوية وتصميم ، وكانت غير معروفة حتى الآن خارج المدنية الغربية ، وثالثاً حقق محمد علي نجاحاً عسكريا رائعاً ، وقد تساءل بعض الناس في ذلك الوقت عما إذا كان النمط والسرعة في الإصلاحات ، والتوسع العسكري ، الخ . . . كانت كل ما احتاجته مصر حقاً في

النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقد شهد بعضهم الطرق الشديدة القسوة والبربرية ، التي استخدمها محمد علي في إنجاز مخططاته العملاقة ، ومن الإنصاف السؤال عما إذا كانت مصر هي أسعد حالاً وأكثر ازدهاراً في الوقت الراهن ، لو أن الإصلاحات والتغييرات في القرن التاسع عشر ، قد نفذت ببطء أكثر ، وحذر أكبر . وبناء عليه يجب على دارس التاريخ أن يعد نفسه محظوظاً عندما يحصل على الجانب الآخر من الصورة ، كما صورها شاهد عيان مثل الجبرتي الذي وصف حكم محمد علي بأكثر الألوان قتامة ، فرأيه وحكمه لا يمكن وضعه على الرف ، ولمقارنة نظام هذا الحكم الجديد بالنظام القديم الذي خربه ، والذي عرفه مؤلفنا عن كثب كبير ، وليس معنى هذا القول أن فكرة الجبرتي عن محمد علي ونظامه يجب أن تؤخذ بقيمتها الظاهرية ، وبعيداً عنها يجب قطعاً أن لا يعد حكماً موضوعياً تماماً ، فقد منعته كراهيته الشديدة للحاكم الجديد من إبداء كثير من التفهم لمصاعبه ، ومن رؤية النواحي الإيجابية في حكمه وإصلاحاته ، ولم يسمح له جهله بالشؤون الدولية بإدراك المشكلات التي كانت تواجه محمد علي في علاقاته مع العالم الخارجي . ومع ذلك فإن حوليته تخدم كقوة توازن رائعة لمصادر عديدة أخرى ، منحازة للغاية إلى الاتجاه المضاد(٢٢) .

وليست أهمية تاريخ الجبرتي لدراسة فترة محمد علي بأي حال مقصورة على حقيقة أنها تعطينا الجانب الآخر من الصورة ، ثم ليس أقل أهمية المعلومات الغنية للغاية والمتنوعة والدفينة التي تحويها بالنسبة لكثير من النواحي في الجزء الأول من حكم هذا الحاكم ، وعلى الرغم من الدراسات العديدة ، التي كتبت عن محمد علي فإنه سيكون صحيحاً القول أن هذه المعلومات لم تستثمر بعد بالاكتمال الذي تستحقه .

لم يكن التاريخ عملاً جيد التناسق .

يجب أن لا يستنتج مما قلناه أعلاه أن تاريخ الجبرتي بكل جدارة العظمة ، يمكن أن يعدّ عملاً متناسقاً منسجماً ، فالموضوعات المختلفة التي تعامل معها لقيت اهتماماً غير متساو ، ولا يمكن ، بناء عليه ، أن يعاد بناؤها بالدرجة نفسها من النجاح ، كان مجتمع المماليك يهيمن على كامل المشهد ، ويمكن أن ترسم صورة

بالغة التفصيل والحيوية له من كتابنا حين خرج قادة المماليك ، الذين أصبحوا معروفين في الغرب ، مثل علي بك الكبير ، ومحمد أبوالذهب ، ومراد وابراهيم ، ومحمد بك الألفي وآخرين في تاريخ الجبرتي من خلفيتهم الحقيقية ، فبدوا أكثر بشرية وطبيعية مما في أوصاف المعاصرين الأوروبيين ، (بمن فيهم فولني Volney) الذين كانت العلاقات المملوكية الداخلية والمبادىء المملوكية كتاباً مغلقاً كلياً أو تقريباً بشكل كامل بالنسبة لهم ، والبيانات المقدمة حول العنصر العثماني في مصر جيدة جداً وغنية ، وكذلك حول علاقات هذا البلد بالحكومة العثمانية المركزية ، وقد تجعل المحفوظات العثمانية مع ذلك من تاريخ الجبرتي مصدراً ذا أهمية ثانوية حول هذا الموضوع بالذات ، وربما حول موضوعات هامة أخرى أيضا ، والمعلومات المبعثرة في كل أنحاء الكتاب حول البدو وأنصاف البدو ، الذين كانوا أقوياء في حينه ، والذين كانت لهم ارتباطات خاصة مع المماليك بالغة القيمة ، وتراجم الحبائبه الذين ترأسوا «اتحاد نصف سعد» في مصر السفلى والشيخ همام ، رئيس هوارة في مصر العليا ، هذه المعلومات من أفضل النوعيات ، والاهتمام الذي أولاه الجبرتي للعلماء معظمه الاهتمام نفسه الذي أولاه للمماليك ، وكأمر واقع فإن عدد تراجمهم في تاريخه يتجاوز بقدر كبير عدد المماليك ، ومع ذلك فالمعلومات حول العلماء أكثر «قولبة» بكثير في طبيعتها[٢٣] .

وعلى ذلك إن صورة هذه الفئة المنقولة إلينا أكثر غموضاً من مجتمع المماليك[٢٤] ، ولم يتم تمثيل السكان المدنيين (بخلاف الفئة الحاكمة والعلماء ، بكل جيد في الكتاب .

والمعلومات حول المسيحيين واليهود قليلة نسبياً مع أنها ليست بأي حال عديمة الأهمية ، كما أن المعلومات حول الاقتصاد والتجارة في البلد حتى قيام محمد علي ، تترك كثيراً من الثغرات في الصورة العامة ، ولكن مع ذلك يمكنها أن تعمل كرديف هام جداً لما نعرفه من «وصف مصر» ومن يوميات الرحالة الأوروبيين[٢٥] ولا تتضمن هذه الرواية مع ذلك مسألة ضرب النقود والعملات والأسعار التي يقدم مؤلفنا عنها بيانات قيمة وغير عادية ، وذات أهمية خاصة لحقيقة أنه على خلاف مع معظم المؤرخين المسلمين ، أتىٰ بصورة متكررة على ذكر الأسعار العادية ، وليس على الأسعار في أزمنة العجز أو الرخاء البالغ فقط .

وبالنسبة للفلاحين فقدر ذكرهم الجبرتي عرضاً فقط ، ويبقى وصفهم غامضاً مثلما هو في كثير من التواريخ الإسلامية الأخرى ، وأُلقي مزيد من الضوء مع ذلك علىٰ هذه الطائفة في هذا القسم من التاريخ الذي تعامل مع إصلاح الأراضي من قبل محمد علي .

وفيما يتعلق بالبلدان المجاورة هناك ثروة من المعلومات حول الحجاز وعلاقاته بمصر ، والمعلومات حول الوهابيين ، مع أنها ليست غنية بشكل خاص ، فإنها بالغة الأهمية ، وتبقى سورية بقدر كبير في الظل خلال كامل التاريخ ، إلا فيما يتعلق بعلاقاتها مع مصر ، ولا سيما غزوها من قبل علي بك الكبير ومحمد أبو الذهب ، وهناك بعض المعلومات القيمة حول المغرب ، ولا سيما حول قافلة الحج المغربية .

المزيج السعيد الحظ :

علىٰ هذا صنف أثر الجبرتي العظيم من قبل رجل كانت معرفته ودربته بالتاريخ الإسلامي المصري بالتأكيد محدودة تماماً ، وقد ظهرت للوجود نتيجة لاجتماع محظوظ بين العبقرية العظيمة والإنشغال العميق بالموضوع ووضع مناسب للغاية للحصول علىٰ معلومات مباشرة وغير مباشرة حول التاريخ المصري المعاصر .

طريقة للدراسة التصنيفية :

بقي الآن أن نناقش بإيجاز مسألة كيف يمكن إجراء دراسة تصنيفية لتاريخ الجبرتي ، وهذا يؤدي بنا إلىٰ أن نشير أولاً إلىٰ واحدة من أكثر الخصائص وضوحاً في كتاب مؤلفنا ، وأعني العجز النسبي في التاريخ من جانب ، والإطالة الكبيرة للتراجم من جانب آخر ، لا سيما في الأجزاء الأولىٰ (انظر أيضاً أعلاه) والرواية بناء على ذلك ، كثيراً ما تكون قصيرةٍ جداً وحتى مبتورة ، إني أعتقد أن أول ـ وإلىٰ حد كبير ـ أكثر المهام إلحاحا في دراسة الجبرتي ، هو تطوير روايته بدمج البيانات التاريخية الغنية للتراجم بالقسم المرتب زمنياً في كلٍ واحد ، وعند ذلك ستخرج صورة الفترة بالغة الوضوح ، مليئة بالحيوية وقوية ، وستعمل كقاعدة

راسخة لدراسة مختلف النواحي في الحياة المصرية ، علاوة على أن الدارس لأي من هذه النواحي سيعفى من متاعب إثبات كثير من حججه ، لأن البراهين ستكون قد وجدت سلفاً في الرواية الصحيحة المتوازنة ، وأن تأخذ إعادة كتابة الرواية الأولوية على كل الدراسات الأخرى المتعلقة بتاريخنا ، قد يمكن عرضها وفق الطريقة التالية ، ويمكن أن يثبت بدون أي شك أن المفتاح إلى مجتمع المماليك ، وهو الموضوع الرئيس للجبرتي موجود في الصفحات ٢١ ـ ١٤٣ من المجلد الأول التي تضم السنوات ١١٠٠ ـ ١١٤٢ / ١٦٨٨ ـ ١٧٢٩ ، أعني حتى إبادة القاسمية من قبل الفقارية ، وأنه فقط بعد كتابة الرواية كاملة ، يمكن لمجتمع المماليك في تلك الفترة أن يعاد بناؤه ، ولكن ما أن يتم ذلك حتى يصبح من السهل تماماً اتباع التعاقب والعلاقات الداخلية في هذا «المجتمع» حتى إبادته من قبل محمد علي[٢٦] .

هوامش البحث

١ ـ إن هذه المقالة هي اختصار لبحث منقح كثيراً للمقالة المتعلقة بالجبرتي التي قدمت في الأصل إلى المؤتمر وقد نشرت النسخة المنقحة في دورية معهد الدراسات الشرقية والإفريقية : ٢٣/٢/٢١٧ ـ ٢٤٩ .

٢ ـ إن مثل هذا الانحدار المفاجىء ، ومثل هذا التضاد المروع في حالة الكتابة التاريخية لفترتين متتابعتين هو في رأيي ظاهرة فريدة في التاريخ الإسلامي ولا يمكنني أن أجد تفسيراً كاملاً لهذه الظاهرة . ومن أجل تفسير جزئي انظر ص ٣٩٢ حاشية ٤ .

٣ ـ يعود هذا إلى إحياء عرضي للكتابة التاريخية المصرية في نهاية القرن السادس عشر ، وبداية القرن السابع عشر ،وكان مداه في رأيي محدوداً للغاية ، وإجمالاً يمكن الاعتماد على كتابات المؤرخين المحليين لمصر العثمانية كمصادر للمعلومات ، وبعضها مفصل جداً ، وسويتها جميعاً تقريباً هابطة مع ذلك ، ويجب ألا يستنتج مما يقال في هذا المقال بأي حال بأن تاريخ مصر العثمانية لا يمكن إعادة بنائه إذا أمكن استثمار جميع أنواع المواد المصدرية المتعلقة به .

٤ ـ يكمن أحد الأسباب الرئيسة لتدهور الكتابة التاريخية في مصر في عهد العثمانيين في حقيقة أن مصر التي كانت حتى زمن الغزو العثماني مركزاً لأمبراطورية كبيرة وقوية أصبحت بعد هذا الغزو إقليماً فقط في امبراطورية أكبر ، وسبب هام آخر لا بد أنه كان في التحول الكبير للأعمال التاريخية من القاهرة إلى استانبول ، وما زال عدد كبير منها باقياً هناك ، وبالنظر

لحقيقة أن مثل هذه الأعمال متوفرة عادة في نسخ قليلة جداً فقط ، فإن الأثر المخرب لنقلها الإجمالي واضح ، وليس لدي أية معلومات فيما يتعلق بأي انتقال للمؤرخين من مصر إلى العاصمة العثمانية ، ولقد كانت الكتابة التاريخية العثمانية من القرن السادس عشر إلى أوائل التاسع عشر أغنى بكثير ، وعلى مستوى أعلى بكثير من الكتابات التاريخية المصرية في الفترة المتعلقة انظر ب . لويس «بعض الانعكاسات على تدهور الإمبراطورية العثمانية» «دراسات إسلامية» (١٩٥٨) ٩/١٢٦ - ١٢٧ وبحث المؤلف نفسه أعلاه المعنون : «استخدام المؤرخين المسلمين للمصادر غير الإسلامية» ص ١٨٤ ، و ف . باينجر : «تاريخ الآداب العثمانية» ومع ذلك يبدو أنه لم يؤثر في ، أو يثر الأخير إلى أية درجة يمكن تقديرها ، ويجب عد أعمال المؤرخين العثمانيين والرحالة أيضاً كمصادر ذات أهمية كبيرة لتاريخ مصر في القرون المذكورة أعلاه . انظر أيضاً هـ . جانسكي H.Jansky . Beitrage Zurosmabiscgen Gescgichtsschreibug uber Agypten, Der Islam (1933) XXI, 269–78 .

٥ - جعلت عملية التغريب التي بدأت في مصر أوائل القرن التاسع عشر والبدايات التي كان مؤلفنا ما يزال يشهدها ، الأمر أكثر صعوبة للجيل الجديد من المؤرخين المصريين كي يصبحوا استمراراً للجبرتي ، الذي كتب بالأسلوب التاريخي الإسلامي التقليدي . وفي محاولة كتابة التاريخ ، فإن هذا الجيل الجديد ، عانى من إضعاف روابطه مع المدنية الإسلامية القديمة من جانب ،ومن الصعوبةفي تبني المدنية الأوروبية الجديدة من جانب آخر ، وبصرف النظر عن الجبرتي ، كان علي مبارك الشخص الوحيد في مصر القرن التاسع عشر ، الذي كتب عملاً تاريخياً بارزاً (وحتى نكون أكثر دقة : كتب خططاً) «الخطط التوفيقية» ومع أنه ذكر الجبرتي كثيراً فإنه لا يمكن عده خلفاً له ، ويختلف «عجائب الآثار» عن «الخطط التوفيقية» كثيراً في تركيبه ومحتوياته وأهدافه إلى جانب أن قوة الجبرتي الخلاقة ، كانت متفوقة كثيراً على قوة مبارك الذي كان بشكل رئيس جامعاً .

وحول علي مبارك . انظر ج . هيورث دون J.Heyworth Dunne «مدخل إلى تاريخ التعليم في مصر الحديثة» (لندن ١٩٣٨) ص ٢٥٣ - ٢٥٤ والفهرس . وانظر أيضاً مقال جمال الدين الشيال أدناه ص ٤٠٣ - «أعمال التاريخ في مصر في القرن التاسع عشر» .

٦ - تشير عبارة الوسط المقفر فقط إلى درجة الاهتمام بالتاريخ الذي ظهر في مصر ، في عهد العثمانيين وفي الحقول الثقافية الإسلامية الأخرى كان هناك الكثير من الثورة والفعالية الحية ، ولولا هذه الخلفية الثقافية الغنية ، التي ترعرع فيها الجبرتي لما كتب حتى ما هو أدنى بكثير من تاريخه .

٧ - ١/٥ ، ٢/ ١ - ٢ .

٨ - ١/٥/٢/٦ - ١٣ .

٩ - ٣٩٦/١ ، ٦/٢ ـ ٧ .
١٠ - ٥/١ ، ٢٥/٢ ـ ٢٦ ، ١٥/١ .
١١ - ٦/١ ، ١٦/٢ ـ ٢٠ كان عدد الأعمال التاريخية الباقية في مصر في زمن الجبرتي بلا شك أكبر من تقديره ، ولكن بقدر ما كانت هذه الأعمال غير متوفرة له أو للآخرين ، فإن وجودها لم يغير من الوضع .
١٢ - ١٣/١ ، ١٧/٢ ـ ٢١ ، ٢٦/١ .
١٣ - ٢٠/١ ، ٢٧/١ .
١٤ - ٦/١ ، ١٠/٢ ـ ١١ .
١٥ ـ يمكن أن تتخذ الموضوعية التي يروي بها تاريخ الاحتلال الفرنسي كنموذج لأي مؤرخ أوروبي حديث ، ومن جانب آخر ، يجب أن لاينسى أنه كان من نتاج زمانه ومحيطه ، وعليه فإن هناك مجالاً صغيراً لينقد ـ على سبيل المثال ـ موقفه غير المتعاطف تجاه الأقلية غير المسلمة ، أو نظرته المحابيه للغزو الإنكليزي لمصر في ١٩٠٧ ، أو في رؤية كل ما هو إيجابي في إصلاحات محمد علي ، أما بالنسبة لتعاونه مع الفرنسيين فمن الصعب إظهار مجاله ، إلى جانب أن حقيقة : تعاونه مع الفرنسيين كانت شيئاً مشتركاً مع قطاع كبير جداً من العلماء المصريين ، أو حول محاولته بعد جلاء الفرنسيين مباشرة أن يكسب الرضا العثماني بإهدائهم تاريخاً منقحاً عن فترة الإحتلال الفرنسي «مظهر التقديس» انظر دورية معهد الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن ١٩٦٠ ـ ص ـ٢٤٤ ـ٢٤٦ . ومع ذلك يبقى ادعاؤه أنه في جمعه لتاريخه ، لم يقصد خدمة أي شخص جانبي أو تملق أية حكومة (٦٨ ، ٢/ ٣١/ ٣٣) إجمالا صحيحاً ويفيد شجبه العنيد لرجل قوي مثل محمد علي الذي سحق خصومه دون رحمة برهاناً صاعق على شجاعته الشخصية .
١٦ ـ وأما بالنسبة للغة الجبرتي ، فلا شك أنه في حالات كثيرة ، كان يجهل قواعد اللغة العربية ، فهو لم يستعمل لغة الحياة اليومية فحسب ، بل استعمل أيضاً كلمات عامية (انظر اعتذاره في ٧/١ ، ٤/٢ ـ٧) وملاحظات شيبوب ص ١٠١ ومحمود الشرقاوي (٢٧/١ ـ ٢٨ ، ٨٣ ـ ٨٤) ولكن يجب ملاحظة أنه في هذا المجال تبع الجبرتي العديد من المؤرخين المصريين الماضين الذين كانوا بشكل رئيس من فترة المماليك وما بعدها ، والذين أظهروا ميلا متزايداً لاستعمال لغة أدبية حية كانت أكثر تسامحاً مع التصحيف في القواعد ولغة المعاجم أكثر من استعمال الأدب العربي في فروع المعرفة الأخرى ، ولغة مؤلفنا مع ذلك يمكن أن تقرن بلغة مؤرخين آخرين من مصر العثمانية ، وبالنسبة لمؤلفي المعاجم إن تاريخ الجبرتي منجم للمعلومات ، ومما يؤسف له أنه باستثناء معجم غ . فييت Wiet بشرح نقولوس الترك ص ـ ٢٨٩ ـ ٣١٤ ، لم تكن هناك أي محاولة جادة لجمع ودراسة معجم مفردات الجبرتي منذ البدايات التي قام بها فون كريمر في «معجم الاصطلاحات العربية» (وين ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤) .

١٧ ـ ١٢٤/٤ ، ٢/٢٠ ـ ٢٥ وعند انتهاء روايته لأحداث ١٢١٧ هـ أكد مؤرخنا مرة أخرى أنه يكتب فقط عن أشياء ذات طبيعة عامة ، وشرح لماذا فعل ذلك (٢٣٦/٣ ، ٢/٣٠ ـ ٣٣) وحقيقة أننا نجد هنا وهناك في الكتاب بعض التفاصيل التي قد تبدو تافهة نوعا ما بالنسبة لنا يجب ألا تتخذ كدليل على العكس ، إن وعي مؤرخنا ودقته ظاهرة بين أمور أخرى في نسخه للوثائق العديدة باللغة العربية المروعة لبعض القرارات والبلاغات التي أصدرتها السلطات الفرنسية المحتلة ، فإنه أعاد إخراجها في تاريخه حرفياً .

١٨ ـ ٩٠/١ ، ٥/٢ ـ ١٠ .

١٩ ـ لقد استخدمت مخطوط المتحف البريطاني في ١٠٧٣ ـ ١٠٧٤ OR .

٢٠ ـ لم أقارن بعد بشكل منظم تاريخ الجبرتي بتاريخ مصطفى بن ابراهيم المداح القينلي ، وهو أيضاً شاهد عيان ، كتب تاريخ مصر في السنوات (١١٠٠ ـ ١١٣٢/١٦٨٨ ـ ١٧٣٩) أو بتاريخ ابن عبد الغني .

٢١ ـ بالنسبة لبعض الفقرات ـ بين كثير ـ التي يذكر فيها مؤلفو التاريخ العلمي الجبرتي انظر : ٩٠/٤ ، ٤١٢/٧ ـ ٤٤٢ ، ٢٤٢/٨ ـ ٢٤٣ وأنا مدين لطلابي هـ . هراري و س . ماغن S. Magen ، د . فارهي D. Farhi لمساعدتي في تعقب تأثير الجبرتي الهائل في كتاب التاريخ العلمي ، وأنا مدين أيضاً لطالبي س . موريه S. Moreh ، لتوجيه انتباهي إلي فقرات عديدة تتعلق بكتابات الجبرتي . والمصدر العربي المهم الوحيد الآخر حول الاحتلال الفرنسي كتبه نقولا الترك ، ونشره غ ـ فييت بعنوان «تاريخ مصر ١٧٩٨ ـ ١٨٠٤» (القاهرة ١٩٥٠) يؤيد اجمالاً تاريخ الجبرتي ويردفه ، وستلقي مقارنة منظمة للكتابين ، بلا شك ، مزيداً من الضوء على كتابة مؤلفنا التاريخية ، وإنها لخطوة جديرة بالانتباه في هذا الاتجاه ، وقد سلف اتخاذها من قبل غ . فييت في ملاحظاته على ترجمته الفرنسية لتاريخ نقولا الترك ، وتاريخ كوستا Costa غير المنشور بالعربية حول الحملة الفرنسية غير معروف بالنسبة لي (فييت ـ المصدر نفسه ص ـ٩) .

٢٢ ـ يجب أن يلاحظ في هذا المجال أن بعض المعاصرين الأوروبيين المهمين جداً كانوا يتمسكون باراء سلبية تماماً حول إصلاحات محمد علي . انظر على سبيل المثال لين Lane «أخلاق وعادات» (مكتبة كل إنسان) ص ٢٥ ـ ١١٣ ـ ١٣٢ ـ ١٣٥ ـ ٥ ـ ٥١٤ لقد أصبحت نظرة لين لمحمد علي أكثر إيجابة بعد الجلاء المصري عن سورية ، لأن لين كان يعتقد أنه سوف يستعمل عندئذ مواهبه في تطوير مصر بدلاً من تبديدها في التوسع . انظر أيضاً رأي كمبل campbell القنصل الريطاني العام في مصر ١٨٣٣ (صبري ـ الأمبراطورية المصرية أيام محمد علي ــ باريس ١٩٣٠ ص ١١٥ ـ ١١٦) وخاصة رأي كتاب «التاريخ العلمي» في وصفهم للحالة في مصر سنة ١٨٣٤ (٤٧٧/١٠ ـ ٤٩٠) وكان موقف عدد كبير من الممثلين القنصليين في مصر وسورية أيضاً ناقداً لحكم محمد علي .

٢٣ ـ أوقف قدر كبير من أية ترجمة لأي عالم على تعداد أسماء شيوخه وكتب علوم الدين ، والموضوعات التي درسها ، والبحوث التي ألفها الخ . . . والقليل جداً منها يمكن الإفادة منه بهذه القوائم المقبولة ، وليس هذا العيب صفة مميزة للجبرتي وحده ، بل هو صفة مشتركة بين العديد من المؤرخين المسلمين ، وهي حقيقة تجعل دراسة هذه الفئة البالغة الأهمية في المجتمع الإسلامي بالغة الصعوبة .

٢٤ ـ وصفت مع ذلك بعض النواحي عن هذه الفئة مثل مؤسسة الأزهر وعلاقة العلماء مع السلطات المدنية والصوفية ومراتب الدواوين بدرجة جيدة للغاية من قبل الجبرتي وكان هيوورث دون ، محقاً في قوله : أوقف العلماء شطراً كبيراً من وقتهم ونشاطهم على قراءة الأدب الصوفي (المقدمة ص ١٠) وتنعكس هذه الحقيقة بقوة في تاريخنا . انظر هيوورث دون Heyworth- Dunne المقدمة ص ١٠ ـ ١٠١ ، وجيب وبوون Bowen «المجتمع الإسلامي والغرب» مجلد ١ج ٢ فصل ٨ ـ ١٣ .

٢٥ ـ وهنا مرة أخرى يمكن للمحفوظات العثمانية أن تغير الصورة بدرجة كبيرة ، ومعظم هذه الأجزاء من وصف مصر التي تتعامل مع مصر كما وجدها جيش الاحتلال الفرنسي ، هي من نوعية عالية جداً ، ومن جانب آخر ، فإن الأقسام التي تتعامل مع تاريخ مصر في عصر العثمانيين فقيرة جداً .

٢٦ ـ يشمل النص الكامل المقالة الراهنة كما هو منشور في دورية معهد الدراسات الشرقية الإفريقية أيضاً الأقسام التالية :

كيف تم تأليف التاريخ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٨ .

تداول التاريخ قبل نشره ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

نشر وترجمة التاريخ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

المحيط المباشر للجبرتي ص ٢٣٧ ـ ٢٤٤ .

تاريخ الجبرتي الثاني «مظهر التقديس» ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦ .

الأعمال غير التاريخية لمؤلفنا ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

الملحق آ : مذكرة حول تاريخ وفاة الجبرتي ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

الملحق ب : الجبرتي وعبدالله الشرقاوي ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

٣٤- أعمال التاريخ في مصر في القرن التاسع عشر
جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ في جامعة الاسكندرية

الهدف من هذه الدراسة التعامل مع ثلاثة جوانب من حركة الكتابة التاريخية في مصر في القرن التاسع عشر ، وسأقوم أولاً بتعقب المراحل المتتابعة لتطورها ، ثم سأبين الاتجاهات والتيارات المختلفة ، وبعدها سأحاول أن أعطي فكرة واضحة عن الموضوعات المختلفة التي عالجها المؤرخون المصريون خلال ذلك القرن ، والخلفية الثقافية التي أثرت في طريقتهم وأسلوبهم ، وأخيراً سأناقش أهداف الحركة وآثارها على المجتمع المصري .

١ - بداية الإحياء الثقافي الداخلي نحو نهاية القرن الثامن عشر :

من الممكن أن نرى في نهاية القرن الثامن عشر العلامات الأولى للإحياء الثقافي التلقائي ، لقد كانت حركة داخلية ظهرت من داخل مصر بعيداً عن أي تأثير خارجي سواء من الشرق أو من الغرب ، وقد استهلها مجموعة من الكتاب المصريين الذين ظهروا على المسرح الثقافي ، والذين لم يكن لهم معادل خلال القرون الثلاثة السالفة سواء في عددهم أو في كمية المادة التي أنتجوها ، فلقد تفوق حسن الجبرتي في دراسات الرياضيات والفلك ، وفي حقل الأدب كان هناك رجال مثل محمد الشبراوي ، وحسن العطار (الذي شغل بين حين وآخر منصب شيخ الأزهر) ، واسماعيل الخشاب ،وفي الحقل اللغوي والدراسات في العلوم الدينية ، كان هناك محمد مرتضى الزبيدي . وفي التاريخ كان هناك عبد الرحمن الجبرتي .

والأكثر احتمالاً أن هذه اليقظة ، ربما كانت ستتخذ صورة إحياء قومي معيدة إلىٰ الحياة الأمجاد القديمة والتراث الماضي ، ولكن هذه اليقظة العفوية انقطعت بمجيء الحملة الفرنسية ، وقد صحب تلك الحملة عدد من العلماء ورجال المعرفة والعلم الذين أحضروا في ركابهم كثيراً من مظاهر حضارة مختلفة تماماً عن أي شيء عرفه المصريون ، وقد احتك عدد من العلماء المصريين مع هؤلاء العلماء ، وزاروا المعهد الذي أسسوه في القاهرة ، وترددوا على المكتبة والمطبعة التي أحضروها معهم ، وقد طغى عليهم مارأوه ، وبدؤوا بمقارنة ثقافتهم بالثقافة التي جلبها الفرنسيون معهم .

وبعد ذلك حدثت تطورات عديدة على المسرح المصري ، ثم جلا الفرنسيون عن البلاد ، وحدثت بعض الاضطرابات الداخلية ، وأصبح محمد علي حاكماً لمصر ، وأدخل نظاماً جديداً ، وأدرك الحاكم الجديد من البداية أن عليه أن ينسخ عن الغرب إذا كان هدفه الإحياء الحقيقي ، وإذا كان لمصر أن لا تتخلف علىٰ طريق التقدم ؟ وفتحت مدارس جديدة ، وأرسل الطلاب في بعثات تعليمية إلىٰ أوروبا ، وفي تلك الظروف توقفت حركة الكتابة ، في حين أخذت مكانها حركة الترجمة ، واحتفظت به خلال مجمل فترة حكم محمد علي .

٢ ـ تطور الدراسات التاريخية في مصر في القرن التاسع عشر :

إن ما يعنينا في هذا التطور هو أولاً تقويم الوضع الذي شغله التاريخ كموضوع ، وثانياً تعقب حركة التأليف التاريخي ، وفي رأيي إنه كان من الممكن لحركة الإحياء التي بدأها الجبرتي ، أن تستمر ، وأن يتبع المؤرخون الآخرون خطاه ، وقد أبدى اسماعيل الخشاب ، وحسن العطار وهما صديقان له اهتماماً بالتاريخ وميلاً نحو الكتابة التاريخية ، وقد قام الأول بمحاولة عندما كتب بحثاً في التاريخ لم يكمله ، والذي فقد على أي حال ، وكان الآخر مغرماً بقراءة كتب التاريخ والجغرافية ، وعبر عن حبه للموضوع بالإرشاد الذي اعتاد أن يقدمه لطلابه .

ولا بد أيضاً أنه كان ممكناً لبعض طلاب العطار ، مثل رفاعة رافع الطهطاوي ، ومحمد إياد الطنطاوي ، ومحمد عمر التونسي[1] أن يصبحوا مؤرخين .

وقد أظهر كل من هؤلاء ميلاً نحو الدراسات التاريخية بطريقة أو بأخرى ، وقام رفاعة برحلته إلىٰ باريس وهي موضوع تاريخه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» . وترجم بمعاونة طلابه في مدرسة اللغات كثيراً من كتب التاريخ ، وقد تأثر الطنطاوي بهذا الميل في اختياره للكتب التي قرأها مع طلابه في الحلقات الدراسية الأدبية في الأزهر ، وكان واضحاً أيضاً في كتب التاريخ التي وضعها خلال فترة وجوده في روسيا ، وأظهر التونسي الميل نفسه عندما كتب حول رحلتيه إلىٰ السودان : الأولىٰ إلىٰ دارفور ، والثانية إلىٰ ودي ، التي تعامل فيها للمرة الأولىٰ مع تاريخ السودان .

ولكن كلاً من مجيء الحملة الفرنسية وحركة الترجمة في زمن محمد علي قد أوقف حركة الكتابة التاريخية التي بدأها الجبرتي ، ووجهت كل الجهود نحو الترجمة . وفي البداية كان هذا مقصوراً على الكتب في المواضيع العلمية والعسكرية ، ولكن عندما افتتحت مدرسة اللغات بدأ رفاعة يخطط لترجمة عدد من الكتب لتغطية تاريخ العالم .

وخلال حكم محمد علي كان رفاعة وطلابه مستغرقين تماماً في حركة الترجمة ، وكان المأمول أنهم سيأخذون قريباً الخطوة الطبيعية التالية ، بدلاً من تقييد أنفسهم بالترجمة ، بالبدء بتأليف كتبهم الخاصة في التاريخ بعد أن قرؤوا وهضموا عدداً كبيراً من الكتب التاريخية الأوروبية .

وقد أخرت ، علىٰ أي حال ، الضربة التي تلقتها الحركة الثقافية عامة على يدي عباس الأول هذه الخطوة الطبيعية لفترة ، وعندما خلفه اسماعيل على العرش الخديوي استأنف رفاعة وطلابه جهودهم ، هذه المرة بالكتابة لا بالترجمة ، ولكنهم لم يعودوا وحيدين ، لقد كانت هناك مجموعة جديدة يرأسها علي مبارك ، وتتألف من أعضاء من البعثات التعليمية الذين أتموا دراستهم في أوروبا ، والذين كان حقل تخصصهم الهندسة أو علم الآثار القديمة وآثار حضارة الشعوب .

ولقد كان لدى مجموعة رفاعة خلفية ثقافية إسلامية في الأزهر ، وقد امتزجت فيها بعد مع التعليم الفرنسي الذي تلقاه بعضهم في باريس ، وتلقاه آخرون في مدرسة اللغات ، ولكن مجموعة مبارك كانت لها خلفية ثقافية مختلفة .

لقد كان تعليمهم علمياً ، لقد درسوا الهندسة والفلك أو علم الآثار ، وفيها بعد خالط تعليمهم أيضاً عنصر فرنسي ، ولهذا السبب نلاحظ أن أعضاء هاتين المدرستين للفكر ، كانوا متأثرين في كتاباتهم التاريخية بالجوانب الأدبية والعلمية للثقافة الفرنسية ، ولقد ظهر هذا المزيج بين الثقافتين بوضوح في كتاباتهم ، وقد أشاروا إلىٰ الطبري وابن عبد الحكم ، والمسعودي ، وابن خلدون ، والمقريزي والسيوطي وأيضاً إلىٰ فولتير ، وروسو ، ومونتسكيو ، وإلىٰ المستشرق كاترمير ، وفي الواقع أصبح هذا سمة مميزة للمؤرخين المصريين في القرن التاسع عشر ، ولكن في الوقت الذي نادوا فيه بالثقافة المختلطة ، لم ينسوا بلادهم وتاريخها ، وعلىٰ العكس ، فإن تعليمهم في أوروبا دفعهم إلىٰ بذل مزيد من الاهتمام بتاريخ بلادهم ، وجعلهم يدركون الحاجة إلىٰ إعادة كتابته في ضوء آخر المكتشفات في البحوث التاريخية والحضارية القديمة ، وهكذا عندما بدؤوا الكتابة ، فإنهم لم يبدؤوا بتاريخ أوروبا أو العالم ، بل بتاريخ مصر ، وفي هذا المجال خصص رفاعة كتابه الأول لتغطية تاريخ مصر من الأزمنة القديمة جداً حتى أيامه ، مع أنه كان قادراً فقط على إتمام المجلدين الأولين ، وأما بالنسبة لمبارك ، وهو رئيس المدرسة الثانية ، فإننا نجد أن كتابه البالغ القيمة قد كتب عن التاريخ الطبوغرافي (خطط) لمصر .

٣ ـ التيارات والمؤثرات التي أثرت في الكتابة التاريخية في ذلك القرن :

آ ـ الحركات الوطنية :

كان المؤثر الرئيسي التالي حركة الإصلاح نحو نهاية حكم اسماعيل . وقد أعقب ذلك ثورة عرابي في زمن توفيق ، التي انتهت بتدخل البريطانيين واحتلالهم لمصر ، وولدت المرارة والسخط اللذين أحس بهما المصريون نحو الاحتلال

البريطاني حركة وطنية أخرىٰ ، قادها في البداية مصطفى كامل ، وكان لهذه الحركة الوطنية بفرعيها أثر واضح على كتابة التاريخ نحو نهاية القرن التاسع عشر .

وقد وجد الكتاب جهودهم نحو التعامل مع الشؤون المصرية المعاصرة ومع الحركة الوطنية نفسها ، وقد كتبوا أيضاً عن أنفسهم وعن أسرة محمد علي الحاكمة ، ومع ذلك فإنهم لم يكونوا مشغولين فقط بأنفسهم وبلادهم ، بل إنهم أبقوا في الوقت نفسه عيناً علىٰ العالم الخارجي الذي كان يسير أمامهم على طريق التقدم ، وخاصة أوروبا التي نجحت في الهيمنة علىٰ بلادهم إضافة إلىٰ بلاد أخرى في الشرق ، وظهر هذا في كتاباتهم ، ونحو نهاية القرن التاسع عشر نجد كتباً كتبت في تاريخ مصر ، وأخرىٰ كتبت عن تاريخ العالم مثل «البحر الزاخر» لمحمود فهمي ، و «الكافي» لشروبيم .

ب ـ البحوث في الحضارات القديمة :

وفي الوقت نفسه لم تخفق الجهود التي وجهها الأوروبيون نحو بحوث الحضارة القديمة منذ فجر القرن ، في إحداث تأثير على المؤرخين المصريين الذين كتبوا في نصفه الثاني .

كانت هذه هي التيارات العامة والمؤثرات التي أثرت في حركة الكتابة التاريخية في مصر في القرن التاسع عشر ، ولكن بصرف النظر عن تلك التيارات كانت هناك مؤثرات خاصة تركت أيضاً بصمتها على تطور الكتابة التاريخية في مصر خلال ذلك القرن .

جـ ـ الاعتراف بالتاريخ كعلم يجب أن يدرس في المدارس :

وكان أحد هذه المؤثرات الاعتراف بالتاريخ كعلم مستقل ، فلأول مرة شكلت دروس التاريخ جزءاً من المنهاج في المدارس ، وعين مدرسون خاصون لتدريسه ، وألفت الكتب المدرسية ، أو ترجمت للاستعمال المدرسي ، وكل هذا يعود إلىٰ جهود رفاعة الطهطاوي ، لقد بدأ يدرس التاريخ في مدرسة اللغات ، وبعد ذلك درس هذا التاريخ في المدارس الإعدادية (المتوسطة) ثم في مدرسة اللغة المصرية القديمة ، وفي دار العلوم ، وأخيراً في كلية التدريب العليا (دار

المعلمين) ، وقد اختير بعض الخريجين من هذه الكلية الأخيرة ليرسلوا إلىٰ أوروبا للتخصص في التاريخ ، وفيما بعد أرسل بعض الخريجين من الجامعة المصرية إلىٰ أوروبا للغرض نفسه ، وشغل معظم هؤلاء الأعضاء كراسي التاريخ في الجامعات المصرية بعد عودتهم إلىٰ ، مصر ، ـ وبفضلهم وفضل طلابهم ـ أخذت الدراسات التاريخية في مصر تتحول إلىٰ مسار جديد في كل من الطريقة وأسلوب الكتابة ، وفي مادة الموضوع الفعلية .

د ـ الطباعة :

وكان هناك عاملاً آخر كان له تأثير إيجابي على الكتابة التاريخية ، هو ظهور الطباعة وانتشارها في مصر في ذلك القرن ، وكانت أول مطبعة عربية تدخل إلىٰ مصر ، هي تلك التي أحضرتها الحملة الفرنسية في ١٧٩٨ ، وعند جلائهم أخذوها معهم ، وتركت مصر بلا مطبعة حتى أسس محمد علي مطبعة بولاق حوالي ١٨٢٢ ، وأعقب ذلك تأسيس مطابع أخرى كثيرة ، كانت ملحقة بالوزارات والمدارس العليا ، وفي هذه المطابع طبعت كتب التاريخ سواء المكتوبة أو المترجمة ، وأمكن لها ، بناء على ذلك ، أن يكون لها تداول بمقدار كان حتى يومها غير معروف في مصر ، وكقاعدة كانت تطبع ألف نسخة من كل كتاب ، ولا سيما في حالة الكتب المدرسية ، فإذا أخذنا في الاعتبار أنه قبل هذا الوقت كان تداول الكتب يتم فقط عن طريق نسخ مكتوبة ، فستكون لدينا فكرة واضحة عن الفرق في تأثير الكتاب الذي يقرأ من قبل ألف أو أكثر ، والآخر الذي كان يمكن أن يقرأ من قبل عشرة أو عشرين على الأكثر .

هـ ـ الصحافة :

وعامل هام آخر ، كان له تأثير ملحوظ ، وهو الصحافة ، لقد عرفت مصر الصحافة للمرة الأولىٰ في ذلك القرن ، وبذل المزيد من الاهتمام في صحافة القرن التاسع عشرٍ للمقالات أكثر من الأخبار ، وهكذا فإن كثيراً من المقالات ، وكتباً كاملة مكتوبة أو مترجمة ، كانت تنشر أحياناً في الصحف المصرية والمجلات ، ونشر كتاب رفاعة «منتهىٰ الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» ، وهو سيرة النبي (ﷺ)

بهذه الطريقة في مجلة «روضة المدارس» ، والكتب الأخرى التي نشرت بالطريقة نفسها كانت بحوثاً حول تنظيم الشرطة عند العرب ، والترك ، والفرس ، ترجمت من الفرنسية[٢] وكتاب مبارك «حقائق الأخبار لوصف البحار» الذي ظهر على صورة سلسلة من المقالات في المجلة نفسها ، ثم جمع فيها بعد وطبع في صورة كتاب ، وكثير من الكتب الأخرى والمقالات نشرت بالطريقة نفسها في صحف «وادي النيل» ، و«اللواء» ، و«المؤيد» ، وفي مجلات «روضة المدارس» ، و«المقتطف» ، و«الهلال» الخ . . .

و ـ تحقيق المخطوطات التاريخية القديمة :

أعطى العدد الكبير من المطابع التي أنشئت سواء من قبل الحكومة أو من قبل الأفراد المصريين فرصة المعرفة الأفضل لتراثهم التاريخي القديم ، وكانت البداية في تحقيق الكتب القديمة ونشرها ، التي حوت ذلك التراث ، وكان مرة أخرىٰ يعود الفضل لجهود رفاعة ، التي لم تتوقف إلىٰ أن تم إنجاز ذلك ، ولقد نجح في حث سعيد باشا للموافقة علىٰ هذه الخطوة ، وكما يخبرنا علي مبارك ، أعطيت الأوامر بطبع عدد من الكتب العربية القديمة على حساب الحكومة ، وكانت عظيمة الفائدة في الأزهر وكل مكان ، وقد شملت «التفسير» للفخر الرازي و«معاهد التنصيص» و«خزانة الأدب» و«مقامات الحريري» ، وكتباً أخرىٰ لم تكن متوفرة في ذلك الوقت . واتخذت خطوة مماثلة في تاريخ تالٍ من قبل محمد عبده . ومع ذلك فإنه لم يعتمد على دعم الحكومة ، بل شكل في ١٩٠٠ جمعية دعاها جمعية بعث الدراسات العربية[٣] ، وقد نشرت هذه الجمعية عدداً كبيراً من المخطوطات العربية القديمة في علوم اللغة والفقه والأدب والتاريخ .

وقد تلا ذلك خطوات أخرى في الاتجاه نفسه ، وبدأ عدد من الناشرين والصحفيين ورجال الأدب بشكل عام بنشر كتب أخرى ، وبهذه الطريقة طبعت كتب كثيرة للمؤلفين القدامى ، وبينها كانت كتب ابن الأثير ، وابن خلدون ، وأبي شامة ، وابن الجوزي ، وابن حجر ، وابن بطوطة ، وابن إياس ، وابن مماتي ، والبلاذري ، والمقريزي ، والسخاوي ، والسيوطي ، وابن دقماق ، والجبرتي .

وسرعان ما بدأ المصريون بقراءة هذه الكتب ، ليصبحوا عارفين بتاريخهم المنسي ، وليعرفوا أنه كان لديهم الكثير من الأمجاد القديمة في حقول الحرب والثقافة والمدنية ، وكنتيجة لكل ذلك تطور وعي تاريخي جديد بينهم ألهب روحهم الوطنية .

ز ـ الجمعيات العلمية والتاريخية :

وساعد عامل آخر على نشر الوعي التاريخي ، وترقية الدراسات التاريخية ، وكان هذا العامل هو تشكيل الجمعيات العلمية ، وهذا أيضاً كان غير معروف في مصر قبل القرن التاسع عشر ، وكانت البحوث التي جرت تحت رعاية هذه الجمعيات ، كما كانت الكتب والرسائل التي طبعت من قبلها ، تتعامل في الغالب مع التاريخ المصري في عصوره المختلفة .

وكان أول هذه الجمعيات «المجمع المصري» ، الذي أسسه نابليون في ١٧٩٨ ، واختير معظم أعضاء هذا المجمع من بين العلماء الفرنسيين ورجال المعرفة الذين صحبوا الحملة ، وأودعت نتائج بحوثهم العلمية في كتاب «وصف مصر» الضخم ، والذي لا تقدر قيمته ، وعندما جلا الفرنسيون عن مصر أغلق المجمع ، وقد أعيد فتحه في الإسكندرية في ١٨٥٩ خلال حكم سعيد تحت اسم «مجمع مصر» ثم نقل فيما بعد إلىٰ القاهرة ، وكان أعضاؤه هذه المرة مختارين من العلماء المصريين والأوروبيين ، وكانت له هوية علمية ، إضافة إلىٰ تقرير سنوي ، وفي كليهما نشر كثير من الأبحاث والمقالات عن التاريخ عامة ، وعن التاريخ المصري بشكل خاص ، وهذا المجمع ما يزال مفتوحاً ، وتنشر دوريته بانتظام .

وأسس عدد من المستشرقين والعلماء الأوروبيين في مصر في زمن محمد علي جمعية أخرى دعيت «الجمعية المصرية»[٤] وكثيراً ما ذكرت هذه الجمعية في رسائل الدكتور بيرون DR. Perron إلىٰ صديقه جولز موهل ، وفي تلك الرسائل ذكر أنها قد أسست في ١٨٣٥ ، بهدف بناء مكتبة تحوي أكبر عدد ممكن من الكتب ، ولا سيما كتب عن الشرق ، وتاريخه وجغرافيته ، وآدابه ، وعاداته الخ . . . .

وبعد تأسيسها بست سنوات أو سبع تطورت أهداف هذه الجمعية ، وسرعان ما ضمت طبع ونشر الكتب المتصلة بالشرق ، وفيما بعد انضم عدد من

المصريين الذين حصلوا على تعليم أوروبي إلىٰ الجمعية ، وقد انحلت على أي حال في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وأعطيت مكتبتها لدار الكتب في ١٨٧٤ ، بناء على توصية من آخر أعضائها حككيان بك وكاتى بك و م . ثوبورن M. Thuborn .

وأسست جمعية أخرى في ١٨٦٨ خلال حكم اسماعيل ودعيت جمعية المعارف[٥] وكان مؤسسوها ، وهم من رجال الثقافة من المصريين ، يريدون لها أن تكون جمعية مصرية صرف ، وكانت ترمي إلىٰ نشر الثقافة من خلال الكتابة والطبع والنشر ، وقد تولت نشر عدد عظيم من المخطوطات العربية القديمة في التاريخ والفقه والأدب ، وبينها «أسد الغابة» الابن الأثير و «الفتح الوهبي» و «المختصر» لأبي الفداء ، و «تاريخ ابن الوردي» .

٤ ـ أثر هذه المؤثرات على الكتابة التاريخية :

كانت المدارس الجديدة ، والاعتراف بالتاريخ كمادة جديرة بأن تدرّس مستقلة في تلك المدارس ، وانتشار الطباعة ، والجمعيات الثقافية والتاريخية ، وتحقيق المخطوطات التاريخية القديمة ، والاهتمام المعطى لعلم الآثار القديمة وبحوث الحضارة القديمة ، واليقظة الوطنية ، كانت كلها العوامل التي تركت أثراً عميقاً في كتابة التاريخ ، وأوجدت ما قد ندعوه وعياً تاريخياً في مصر في القرن التاسع عشر ، وتمت كتابة أعداد كبيرة من الكتب والبحوث التاريخية التي تناولت مجالاً واسعاً من الموضوعات ، ولم يعد المؤرخون يتقيدون بتاريخ مصر والإسلام ، بل عالجوا مشكلات أخرى لم تكن معروفة في الفترة الإسلامية .

وسأحاول أن أعطي هنا فكرة عامة عن مختلف الموضوعات التاريخية التي عالجها المؤرخون المصريون في ذلك الوقت .

أ ـ تاريخ العالم :

لقد كان تاريخ العالم أحد هذه المواضيع ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي كتب فيها مؤرخون مصريون في هذا الحقل ، ولقد كان هذا التطور حصيلة طبيعية للظروف الجديدة ، التي وجدت مصر نفسها فيها خلال ذلك القرن ، ولم تعد

مصر منفصلة عن بقية العالم ، كما كانت خلال كامل الفترة العثمانية ، وفي حين لا نسمع بمصري واحد زار أوروبا في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فإن لدينا صورة مختلفة في القرن التاسع عشر ، لقد أرسل عدد كبير من المصريين خلال الشطر الأول من ذلك القرن للدراسة في إيطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإنكلترا ، وذهب عدد آخر لزيارة المتاحف ، والمكتبات ، وحضور المؤتمرات ، لعرض قضية بلدهم والدفاع عنها ، وببساطة كسواح ، وقد درس هؤلاء المصريون تاريخ العالم في مدارس أوروبية وجامعات ، ورأوا أيضاً عن كثب الحركات النشطة في الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر ، وقرؤوا كتابات المؤرخين الأوروبيين في ذلك القرن ، وبناء عليه كان طبيعياً بالنسبة لهم تطوير اهتمامهم بهذا الفرع من التاريخ .

وفي هذا الحقل ترجم رفاعة بالتعاون مع بعض تلاميذه عدداً من الكتب الفرنسية ، التي كانت تغطي تاريخ العالم في عصوره المختلفة ، وكان أحد هذه الكتب المترجمة ، «تاريخ شارل الخامس» ، الذي كان قد كتبه مؤرخ اسكوتلندي هو وليام روبرتسون William Robertson (١٧٢١ ـ ١٧٩٣) ، وحول نهاية القرن كتب مصريان آخران حول تاريخ العالم ، أحدهما محمود فهمي ، وكان واحداً من زعماء ثورة عرابي ، كتب «البحر الزاخر» في أربعة مجلدات ، خلال فترة نفيه في سيلان ، وكان الآن ميخائيل شروبيم ، وهو قبطي ، وقد كتب كتاباً مماثلاً أسماه «الكافي في التاريخ» وقد اعتمد كلا الكاتبين على مصادر أوروبية .

وصحيح أن المؤرخين المصريين والمسلمين الأوائل قد كتبوا عن تاريخ العالم ، ولكن حدود عالمهم كانت حدود الإسلام ، إنهم لما يحاولوا الكتابة عن الأمم التي تقع خارج ذلك العالم باستثناء بعض الإلماعات حول تلك التي كانت تتاخم مباشرة العالم الإسلامي ، مثل الهنود والأتراك والبيزنطيين ، وبالنسبة للبلدان الأوروبية وسكانها ، كان لدى المؤرخين المسلمين فكرة سيئة ومشوهة عنهم ، وكانوا بشكل عام ينظرون إليهم بازدراء ، لقد كانوا يعتقدون بأنهم يعيشون في عالم يكتنفه الجهل والتخلف ، يقع على مسافة مأمونة من العالم الإسلامي بمدنيته المزدهرة ، وليس لديه شيء يقدمه للمسلمين ، وقد انعكس هذا الرأي في كتابات بعض المؤرخين العرب وجغرافيي العصور الوسطى ، وفي هذا

المجال يقول المسعودي وهو من جغرافيي القرن العاشر : «وأما أهل الربع الشمالي ، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة ، والإفرنجية ، ومن جاورهم من الأمم ، فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها ، فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة ، وتواترت الثلوج عندهم والجليد ، فقل مزاج الحرارة فيهم ، فعظمت أجسامهم ، وجفت طبائعهم ، وتوعرت أخلاقهم ، وتبلدت أفهامهم ، وثقلت ألسنتهم . . . ولم يكن في مذاهبهم متانة . . . ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية ، وتزايد ذلك فيهم» .

وبعد قرن وصف صاعد الأندلسي وهو قاضٍ من طليطلة ، في كتابه طبقات الأمم «الطبقة التي عنيت بالعلوم فثمانية : أمم الهند والفرس والكلدانيين والعبرانيين واليونانيين والروم وأهل مصر والعرب ، وأما الطبقة التي لم تعن بالعلوم فبقية الأمم بعد من ذكرنا من الصينيين . . . والترك» وأما بالنسبة للأمم الأخرى ، فقد ذكرها بطريقة مليئة بالازدراء بقوله : «فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذه دقة الافهام وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم العمى والغباوة»[٧] .

وكان هذا الوصف صحيحاً عندما كانت أوروبا تعيش في ظلام العصور الوسطى ، والحالة قد تغيرت تماماً على أي حال في بداية القرن السادس عشر ، وأصبحت مصر والشرق الأدنى المسلم يعيشان بعزلة عن بقية العالم ، وعاشا في ظلام مشابـه للذي عرفته أوروبا في العصور الوسطى ، وبالمقابل تقدمت بلدان غربي أوروبا بقفزات ووثبات في حقول العلم والحرب والاقتصاد وكان طبيعياً ، بناء عليه ، بالنسبة للمصريين في زمان نهضتهم في اِلقرن التاسع عشر أن ينظروا نحو الغرب ، لقد نسخوا علوم أوروبا ، وتعلموا لغاتها ، في حين ترجم المؤرخون المصريون وكتبوا كتباً عن تاريخ العالم ، وبشكل خاص عن تاريخ تلك الأجزاء في أوروبا ، التي لم يكونوا يعرفون شيئاً عنها من قبل ، وكانت هذه أول الكتب حول التاريخ الأوروبي التي تظهر باللغة العربية .

ب ـ تاريخ البلدان المتاخمة :

وإلى جانب تلك الكتب عن التاريخ العام للعالم ، أبدى عدد من المؤرخين المصريين اهتماماً نشيطاً بكتابة كتب مستقلة عن تاريخ بعض البلدان المجاورة التي كان لها بعض العلاقات مع مصر ، فكتب اسماعيل سرهنك باشا مثلاً كتابه : «حقائق الأخبار عن دول البحار» عن تاريخ القوى البحرية معتبراً مصر واحدة منها ، وأسهم محمد فريد أيضاً في هذا الحقل ، وكان كتابه حول تاريخ الدولة العثمانية الكتاب الوحيد ، الذي يكتب بالعربية حول هذا الموضوع في ذلك الوقت .

ومرة أخرى كتب مصطفى كامل كتابين ، أحدهما عن تاريخ المسألة الشرقية ، والآخر عن تاريخ اليابان ، في حين ألف جرجي زيدان كتاباً عن تاريخ بريطانيا ، وكان تاريخ السودان أحد الموضوعات ، التي تعامل معها المؤرخون المصريون في هذا الوقت ، وتمت كتابة كتابين ظهرا في هذا الوقت من قبل التونسي ، وأخذا شكل كتب الرحلات الأول يصف الرحلة إلى دارفور والثاني يصف الرحلة إلى وداي .

وتم كتابة المزيد من الكتب عن السودان من قبل نعوم شقير وابراهيم فوزي .

وكتب المؤرخون المصريون حول التاريخ العربي والإسلامي ، وفي هذا الحقل كتب رفاعة السيرة النبوية ، في حين كتب جرجي زيدان عن العرب قبل الإسلام ، وتاريخ الحضارة الإسلامية ، وتاريخ الأدب العربي .

وقد تم التعامل مع بعض هذه الموضوعات بالعربية للمرة الأولى ، وكان الفضل للمؤرخين المصريين ، بتزويد القارىء العربي بكتبه الأولى عنها ، وهكذا كانت الحالة في الكتب التي تتعامل مع تواريخ الامبراطورية العثمانية ، والمسألة الشرقية ، واليابان ، وإنكلترا ، والسودان .

جـ ـ المذكرات الشخصية :

وقد ظهرت صورة أخرى من الكتابة التاريخية في مصر للمرة الأولى وهي المذكرات الشخصية ، ويعود ذلك إلى حقيقة أن المصريين قد خبروا للمرة الأولى

الصورة الحديثة للحياة السياسية ، وشاركوا في الأحداث السياسية وحملوا مسؤولية الحكم أو قيادة الرأي العام ، وفي ظل هذه الظروف كان كتاب المذكرات عادة من رجال الحكومة ، أو قادة الرأي العام مثل عرابي ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، ومحمود فهمي .

د ـ تاريخ مصر والشام :

وبصرف النظر عن هذه الموضوعات الجديدة ، التي تم التعامل معها للمرة الأولى ، كتب المؤرخون في موضوعات أخرى كانت معروفة قبل القرن التاسع عشر ، وكتب بعضهم عن التاريخ العام لمصر من الأزمنة القديمة جداً ، أو منذ الفتح العربي حتى زمانهم ، وفي هذه الزمرة يمكن أن نضع كتب رفاعة ، التي قصد بها تغطية تاريخ مصر عبر العصور ، ولكنه استطاع فقط أن يكمل اثنين من مجلداته قبل وفاته ، يبدأ الأول بزمن الفراعنة وينتهي بالفتح العربي ، ويتعامل الثاني مع سيرة النبي محمد (ﷺ) ، ويقع تاريخ الجبرتي أيضاً في هذه الزمرة من الكتب ، لأنه يعطي رواية موجزة للتاريخ المصري منذ الفتح العربي ، ثم يتحدث بالتفصيل عن تاريخه في القرن الثامن عشر ، والربع الأول من القرن التاسع عشر ، ويمكن أن نضيف أيضاً إلى هذه القائمة كتاب زيدان عن تاريخ مصر منذ الفتح العربي حتى زمانه ، والكتاب في مجلدين ويدعى تاريخ مصر الحديث .

هـ ـ التاريخ الطبوغرافي (الخطط) وتاريخ المدن الصغيرة والكبيرة :

وهنا فرع آخر تعامل معه المؤرخون المصريون لذلك القرن وهو التاريخ الطبوغرافي وتاريخ المدن الصغيرة والكبيرة ، وهذا واحد من أقدم الأنماط في الكتابة التاريخية التي استهلها المؤرخون المصريون الأقدم ، والتي كتبوا فيها سلسلة طويلة من الكتب ، وكان أول المؤرخين الذين يكتبون حول التاريخ الطبوغرافي أو الخطط أبو عمر الكندي ، وآخرهم تقي الدين المقريزي ، وقد تبعوا بعضهم بعضاً عبر القرون باستثناء القرون الثلاثة من الحكم العثماني ، وتجدد هذا النمط من الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر من قبل علي مبارك ، ففي كتابه القيِّم «الخطط التوفيقية الجديدة» الذي جاء في عشرين مجلداً ، كتب تاريخ القاهرة وجميع المدن الأخرى في مصر ، وقد اتخذ خطط المقريزي قاعدة ، وتابعها حتى

زمانه ، أعني : حتى القسم الأخير من القرن التاسع عشر مستفيداً بشكل جيد من البحوث الحضارية القديمة ، التي تمت خلال ذلك القرن ، وكتب بعض معاصريه تواريخ المدن الفردية سواء كانت ما تزال موجودة أو اختفت منذ زمان طويل ، وفي هذا الحقل كتب أحمد كمال «تاريخ ممفيس وعين شمس» (هليوبوليس) وكتب علي بهجت في كتابه «تاريخ الفسطاط» عن الحفريات التي كانت جارية هناك ، وكتب محمد مسعود تاريخاً قصيراً للإسكندرية سماه «المنحة الدهرية في تخطيط مدينة الإسكندرية» .

و ـ تاريخ مصر في القرن التاسع عشر تحت حكم أسرة محمد علي :

وكان الموضوع الآخر الذي تعامل معه المؤرخون المصريون في ذلك الوقت هو تاريخ مصر في القرن التاسع عشر ، وتاريخ الأسرة الحاكمة في تلك الفترة ، وقد بدأ الجبرتي السلسلة الطويلة من الكتب التي كتبت حول هذا الموضوع بكتابيه «عجائب الآثار» و «مظهر التقديس» واتبع عدد من المؤرخين خطواته ، فكتب خليل الرجبي تاريخاً لمحمد علي ما يزال مخطوطاً ، وتبعه سليم نقاش بكتابه «مصر للمصريين» ويضم هذا الكتاب تسعة مجلدات ، كانت الثلاثة الأولى منها التي فقدت ، تتعامل مع تاريخ أسرة محمد علي حتى زمن اسماعيل ، في حين تعاملت المجلدات الستة الأخرى مع حكم توفيق وثورة عرابي ، والكتاب الآخرون ، الذين كتبوا في الموضوع نفسه ، هم محمد فريد، الذي ألف كتابه «البهجة التوفيقية» عن تاريخ محمد علي ، وجرجي زيدان الذي تعامل كتابه «تاريخ مصر الحديث» في مجلده الثاني مع التاريخ المصري الحديث .

ز ـ السير الذاتية :

كانت كتابة السير الذاتية أيضاً إحدى المهام ، التي شغل المؤرخون المصريون بها أنفسهم في القرن التاسع عشر ، وكانت ، أولاً ، هناك كتب التراجم العامة ، وقد حوى كل منها تراجم عدد من مشاهير الرجال ، سواء كانوا معاصرين أو ينتمون إلى الماضي ، ومن هذه كانت كتب : «أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة» ، وهو عن مشاهير زعماء الإسلام لرفيق العظم ، و «حماة الإسلام» لمصطفى نجيب .

وتعامل كل من هذين الكتابين مع أبطال الإسلام في الأزمنة القديمة ، والكتب الأخرى التي تقع في الزمرة نفسها هي «مشاهير الشرق» لجرجي زيدان و «نوابغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر» لتوفيق أسكاروس و «تراجم أعيان القرن الثالث عشر» ، لأحمد تيمور .

وتعاملت زمرة أخرى من هذه الكتب مع السير الذاتية الفردية ، حيث أخذ المؤلف السير الذاتية لشخص واحد فقط ، وجعلها موضوع دراسة كتابه ، وبين هذه الكتب التي تعاملت مع سير مشاهير المصريين في القرن التاسع عشر كانت سيرة رفاعة المسماة «حلية الزمان»(٨) التي كتبها تلميذه صالح مجدي و «سيرة محمود باشا الفلكي» ، لأحمد زكي واسماعيل الفلكي ، و «سيرة كلوت بك» مؤسس المدرسة الطبية في مصر لمحمد لبيب و «سيرة أبي السعود» بقلم ابنه محمد أنسي .

والزمرة الأخيرة من هذه الكتب كانت سيرة المؤلفين الذاتية ، وأحد أفضل الأمثلة في هذا المجال ، هو السيرة الذاتية لعلي مبارك ، التي ضمنها في كتابه الخطط ، وفي وصفه لابيار ، مسقط رأسه ، وهناك مثلان آخران رائعان هما السيرة الذاتية لمحمد عمر التونسي التي أوردها في كتابه «تشحيذ الآذان» والسيرة الذاتية لعبد الله النديم ، التي كتبها في كتابه «كان ويكون» .

ح ـ الرواية التاريخية :

وأخيراً كانت هناك الرواية التاريخية ، وهي نمط عرفه الكتاب المصريون للمرة الأولى نحو نهاية القرن التاسع عشر ، والخطوة الأولى في هذا الحقل اتخذها جرجي زيدان ، الذي كتب ثماني عشرة رواية حاول فيها أن يروي تاريخ الإسلام والمسلمين من زمن النبي (ﷺ) حتى القرن التاسع عشر ، وصحيح أن الرواية كفرع من الأدب بشكل عام ، قد بدأت في وقت أبكر على يد محمد المويلحي في روايته «عيسى بن هشام» ولكن زيدان كان أول من استخدم الأحداث التاريخية كموضوع لرواياته ، وقد تطور هذا الفن بسرعة في القرن العشرين ، وتميز به عدد من الكتاب مثل محمد فريد أبو حديد ، ونجيب محفوظ ، وعلي أحمد باكثير ، ومحمد سعيد العريان .

الكتابة التاريخية باللغات الأجنبية :

وسمة أخيرة صبغت الحركة التاريخية في مصر في القرن التاسع عشر هي أن كثيراً من المصريين كتبوا كتبهم ومقالاتهم بلغات أوروبية ، وخاصة الفرنسية ، ولم يكن لهذه الحقيقة سلف بين المؤرخين المصريين للفترات الإسلامية، ويصبح هذا أكثر وضوحاً عندما نأخذ في الاعتبار أن هؤلاء المؤرخين الإسلاميين والمفكرين قد عرفوا ، وحتى تفوقوا في بعض اللغات الأجنبية وخاصة الفارسية والتركية ، وبين المؤرخين الذين كانوا يعرفون التركية ابن دقماق والعيني ، وابن تغري بردي ، وابن إياس ، وبين المفكرين ورجال الأدب ، كان حسن الجبرتي ، يعرف التركية والفارسية جيداً ، في حين أن المرتضى الزبيدي برع بالتركية والفارسية والجورجانية ومع ذلك فإننا لا نعرف مثلاً واحداً لأحد هؤلاء الكتاب ، أو في الواقع لأي كاتب آخر ، استعمل أية لغة غير العربية لكتاباته ، ومرد هذا لحقيقة أن العربية كانت تعد لغة العلم والأدب في العصور الوسطى .

والسبب وراء هذا الميل الجديد بين المؤرخين المصريين في القرن التاسع عشر ، هو أن اللغة الفرنسية قد أصبحت لغة مخالطة للعصر سواء في حقل الأدب ، أو في حقل السياسة ، وكان المصريون الذين استخدموها في كتاباتهم أعضاء في بعثات تعليمية ممن أكملوا دراستهم في فرنسا ، أو ممن درسوا الفرنسية في مدرسة اللغات (الألسن) ، والأكثر بروزاً بين هذه المجموعة من الكتاب كان يعقوب أرتين الذي تحدر من أسرة أمريكية الأصل ، وقد تلقى تعليماً أوروبياً ، وشغل مناصب كثيرة في الحكومة ، وأصبح معلماً خاصاً لبعض أولاد الخديوي اسماعيل في ١٨٧٣ ، وسكرتيراً للشؤون الأوروبية للبيت الخديوي في ١٨٧٩ ، ونائباً لوزير التعليم في ١٨٨٤ ، وقد أولى اهتماماً كبيراً للحركة الثقافية بشكل عام ، وللتاريخ بشكل خاص ،ومن مقالاته وأطروحاته المكتوبة بالفرنسية «القول التام في التعليم العام» (باريس ١٨٩٠) وقد ترجم إلى العربية من قبل علي بهجت ، وطبع في بولاق في ١٨٩٤ . و«الأحكام المرعية في شأن الأراضي المصرية» (القاهرة ١٨٨٣) . وقد ترجم إلى العربية من قبل سعيد عمون ، وطبع في بولاق في ١٣٠٧ هـ .

وبصرف النظر عن هذين الكتابين ، فقد كتب عدداً كبيراً من المقالات حول موضوعات تاريخية نشرت في «دورية المعهد المصري» وكان محمود الفلكي مصرياً آخر كتب بالفرنسية ، ومن كتبه ومقالاته :

١ ـ «نتائج الإفهام في تقويم العرب قبل الإسلام ، وفي تحقيق مولد النبي وعمره عليه الصلاة والسلام» .

وقد نشر في المجلة الآسيوية في ١٨٥٨ . وترجمت هذه الرسالة فيما بعد إلى اللغة العربية من قبل أحمد زكي ، مترجم محافظة الإسماعيلية ، وطبعت في بولاق .

٢ ـ رسالة «في الإسكندرية القديمة» (كوبنهاجن ١٨٧٢) ، ونشر أيضاً عدة رسائل بالفرنسية في مختلف الدوريات العلمية في مصر وفي أوروبا مثل «دورية المعهد المصري» و«دورية الجمعية الجغرافية الخديوية» و«المجلة الآسيوية» ، ونشرات المجمع الملكي البلجيكي .

وكانت إحدى الرسائل المنشورة من قبل المجمع البلجيكي حول عصر الاهرامات والهدف من بنائها ، وكان عنوانها «عمر أهرام مصر» .

ومن المصريين الذين كانوا يكتبون بالفرنسية قدري باشا ، الذي نشر كتابه «ملاحظات جغرافية» في القاهرة (١٨٦٩) ، وعلي بهجت الذي ترجم كتابه إلى اللغة العربية ، وساهم أيضاً ببضع مقالات حول موضوعات تاريخية وحضارية قديمة في «دورية المعهد المصري» ، ومحمد مختار الذي كان حاكم هرر لبعض الوقت عندما كانت من الممتلكات المصرية ، وقد صنفت مقالاته ورسائله حتى اليوم الراهن بين أكثر الأعمال المرجعية أهمية حول تاريخ تلك المدنية ، وقد نشرت في دورية «الجمعية الجغرافية الخديوية في القاهرة» . وقد نشر أحد مقالاته الرئيسة في هذا الموضوع في ١٨٧٦ تحت عنوان «ملاحظات حول ميناء هرر» .

ومن الذين كتبوا بالفرنسية أحمد كمال الذي نشر ، بصرف النظر عن كتبه العربية ، كثيراً من المقالات في دورية «المعهد المصري» ، وأحمد شفيق الذي ترجم كتابه «الرق في الإسلام» من قبل أحمد زكي ، الذي أضاف إليه تعليقات تاريخية ، وطبعت الترجمة في بولاق في ١٣٠٩ هـ .

وهكذا فإن البحث التاريخي على أسس علمية حديثة لم يعد مقصوراً على الكتاب الأوروبيين أو المستشرقين ، لقد بدأ المصريون الآن يأخذون دوراً فعالاً في هذا الحقل ، وظهرت رسائل قيمة من كتابتهم بالفرنسية في صحف تاريخية في كل من مصر والخارج ، فإلى جانب أسماء كازانوفا Casanova وهرتز Hertz وماربيت Mariette وبروغش Brugsch ظهرت أسماء محمود الفلكي ، ومحمد مختار ، ويعقوب أرتين ، وأحمد كمال ، وعلي بهجت وآخرين على صفحات تلك الصحف .

٥ ـ طريقة المؤرخين المصريين في القرن التاسع عشر وأسلوبهم :

اختلفت كتابات المؤرخين المصريين في القرن التاسع عشر كثيراً عمن تقدمهم في الفترة الإسلامية للقرون الوسطى ، سواء في المنهج أو الأسلوب ، وكقاعدة لقد اعتاد مؤرخو القرون الوسطى الاعتماد على النسخ ، كلمة كلمة ، عن الكتاب الأقدم عندما كانوا يتعاملون مع فترة تقدمتهم ، وكان الجزء الأصلي الوحيد من كتاباتهم ، ذلك الذي كانوا يعالجون فيه عصرهم ، وقليل جداً فقط بينهم من كان يحاول النقد والتحليل أو المقارنة ، وأقل منهم من كانت لديه الشجاعة لإعطاء رأيه في كتاباتهم .

وكتب معظمهم أيضاً تواريخهم عن مصر أو العالم الإسلامي في صورة حوليات مغطين الأحداث عاماً بعد عام ، وهكذا كانت الوقائع التي شكلت مادة كتبهم مفككة للغاية وتفتقر إلى الوحدة والاستمرار ، والقليل جداً منهم من كان يحاول كتابة التاريخ لبلدان منفصلة ، أو معالجة موضوعات منفصلة كما فعل ابن خلدون في تاريخه .

ولكن المؤرخين المصريين في القرن التاسع عشر كانوا مختلفين ، لقد كانوا متأثرين بالطريقة العلمية الجديدة التي كانت متبعة في كتب التاريخ الأوروبية التي قرؤوها ، أو درسوها ، أو ترجموها ، ونتيجة لذلك تخلوا عن طريقة الحوليات ، وتعاطوا في كتبهم مع موضوعات أو فترات أو قرون ، كل في فصل مستقل ، وهذا واضح في كتاب رفاعة «أنوار توفيق الجليل» وفي الكتب التي كتبها شروبيم ، ومحمود فهمي ، وسرهنك ، وجرجي زيدان وآخرون .

وحاول مؤرخو القرن التاسع عشر أيضاً النقد والتحليل والمقارنة مع إعطاء آرائهم وأحكامهم على ما كتبوا ، وبهذا حرروا أنفسهم من طريقة النسخ القديمة ، وكانت إحدى السمات الرئيسة لطريقتهم العلمية استخدام العلوم المساعدة كقاعدة لتفسير التاريخ وفهمه ، مثل الوثائق والنميات ، وعلم الآثار ، والكتابات ، والنقوش ، والكشوف الجغرافية .

وكان يندر استخدام هذه الطريقة من قبل المؤرخين الأقدم ، وصحيح أن بعض المؤرخين المصريين للفترة الإسلامية قد أفادوا في كتاباتهم من النقوش والوثائق ، مثل المقريزي في خططه ،والقلقشندي في كتابه صبح الأعشى . ولكن مؤرخي القرن التاسع عشر أحرزوا تقدماً عظيماً في هذا الاتجاه ، فالجبرتي مثلاً ضمن كتاب «عجائب الآثار» العديد من الوثائق والمراسيم التي أصدرها حكام مصر ، سواء كانوا من الفرنسيين أو الأتراك أو المماليك ، وأشار إلى هذه الحقيقة في مقدمة كتابه عندما أوضح أنه قد راجع الكثير من الكتابات والنقوش التي وجدها على شواهد القبور إلى جانب السجلات التي كان يحتفظ بها الموظفون والكتبة ، وقد اتبعت الطريقة نفسها من قبل علي مبارك في خططه .

ومرة أخرى احتوى كتاب سليم نقاش «مصر للمصريين» على عدد كبير من الوثائق المتعلقة بثورة عرابي ، وبينها المحاضر الكاملة لمحاكمة العرابيين ، وينطبق الوصف نفسه على «القاموس العام للإدارة والقضاء» الذي جمع فيه المؤلف فيليب جلاد عدداً كبيراً من القوانين ، والتعليمات والفرمانات والمعاهدات التي أصدرتها الحكومة في منشوراتها الرسمية بين ١٨٤٠ والسنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وكان أول كاتب يعتمد بشكل جدي على الوثائق كأحد المصادر الهامة للتاريخ ، هو أمين سامي في كتابيه «تاريخ التعليم في مصر» و«تقويم النيل» .

وشكلت النميات بين العلوم المساعدة الأخرى التي اعتمد عليها كتاب ذلك القرن موضوع مجلد كامل من خطط علي مبارك ، في حين كان علم الآثار والمكتشفات الجغرافية ذا فائدة عظيمة لمثل هؤلاء المؤرخين المصريين من الجزء الثاني من القرن التاسع عشر كرفاعة ، وعلي مبارك ، وأحمد كمال ، وعلي بهجت وآخرين .

ولكن التغيرات التي مرت بها الكتابة التاريخية في ذلك القرن لم تكن مفيدة بالطريقة ، فالأسلوب أيضاً اختلف بدرجة كبيرة عن أسلوب المؤرخين القديم ، وكان هذا واضحاً في العناوين ذات الإيقاع (المسجوعة) التي استعملوها لكتبهم ، وفيما يتعلق بالنصوص الفعلية كانت تكتب أحياناً بالنثر المسجوع ، وفي أحيان أخرى بأسلوب بسيط سلس ، وأفضل مثال على هذا التردد بين الأسلوبين ، قد يكون في كتابات رفاعة ، ففي المجلد الأول من كتابه المسمى «أنوار التوفيق» التزم السجع إلى حد كبير ، في حين استخدم في المجلد الثاني الأسلوب البسيط المتدفق ، ونحو نهاية القرن ترك المؤرخون والكتاب في الواقع بشكل عام الأسلوب المنمق القديم ، واستعملوا أسلوباً بسيطاً خالياً من جميع العوائق التي شوهت كتابات الفترة العثمانية التالية ، وفي هذا المجال ، يمكن إجراء مقارنة مفيدة بين أسلوبي الجبرتي ورفاعة من جانب وعبد الله النديم ومحمد عبده من الجانب الآخر .

ومرة أخرى نجد فرقاً كبيراً بين المؤرخين المصريين في القرن التاسع عشر وأسلافهم في الفترة الإسلامية في الموضوعات التي عالجوها ، فغالبية المؤرخين القدامى أوقفوا كتاباتهم على التاريخ السياسي ، ونادراً ما نجد أياً منهم قد تعامل مع الأمور الثقافية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو مع المؤسسات السياسية ، ولكن مؤرخي القرن التاسع عشر كتبوا في كل فروع التاريخ ، فإلى جانب التاريخ السياسي لمصر والعالم كتبوا عن الأنظمة المالية للأرض ، وعن مختلف نظم التعليم ، وعالجوا أيضاً موضوعات مثل المؤسسات والأعراف السياسية في زمن النبي (ﷺ) ، والرق في الإسلام ، وتاريخ الحضارة الإسلامية ، ومشكلات المجتمع المصري في القرن التاسع عشر ، والثورة العرابية الخ .

٦ ـ حركة الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر وتأثيرها على المجتمع المصري :

ظهرت علامة الاهتمام الأولى بالتاريخ في القرن التاسع عشر في زمن محمد علي ، وأخذت صورة ترجمة عدد من كتب التاريخ إلى اللغة التركية بناء على أوامر محمد عليه وابنه ابراهيم ، ومع ذلك فإن نفع هذه التراجم كان محدوداً لنائبه وابنه في الوقت نفسه وبعض كبار موظفي الدولة الذين كانوا يعرفون اللغة التركية .

وبعد هذه ترجم عدد كبير من الكتب إلى العربية أغلبها في العلوم والطب والموضوعات العسكرية ، وكان أثر هذه الكتب محدوداً أيضاً لأنه كان مقتصراً على الطلاب الذين كانوا يدرسون هذه المجموعات في المدارس المفتتحة حديثاً ، ولكن الكتب التي تركت أعمق الأثر على الحركة الثقافية في ذلك الوقت كانت تلك التي كانت تتعامل مع الإنسانيات مثل التاريخ ، والجغرافية ، والفلسفة والمنطق التي ترجمت من قبل رفاعة وتلاميذه في مدرسة اللغات ، وكان نفعها ملموساً بالقدر نفسه لدى خريجي المدارس الحديثة ، وطلاب الأزهر وأساتذته .

ومع ذلك نجد محمد عبده يحاول أن يقلل من الفائدة المستمدة من الترجمة التي جرت في زمن محمد علي بناء على أوامره ، بالقول إن أثرها كان مقتصراً على المدارس التي كانت هذه الكتب تدرس فيها ، وأن معظمها كان يخزن بعد طبعه ثم يباع فيما بعد إلى تجار الورق ، وقد عبر عن هذا الرأي في مقال نشر في ١٩٠٢ في مجلة المنار[٩] بمناسبة الاحتفالات بمرور قرن على ارتقاء محمد علي سدة الحكم في مصر ، وقال محمد عبده : لقد ترجم عدد كبير من الكتب في مختلف الموضوعات مثل التاريخ ، والفلسفة ، والأدب ، ولكنها خزنت خلف أبواب مغلقة من يوم طباعتها حتى السنوات الأخيرة من حكم اسماعيل ، ولقد أرادت الحكومة في حينه تفريغ هذه المخازن وإعطاء الكتب لمن يريدها ، ذلك أن عدداً منها كان قد قرىء من قبل بعض الناس ، وهذا يظهر أنها قد ترجمت لإرضاء رغبات الموظفين الأوروبيين الكبار الذين أرادوا نشر ثقافتهم في البلاد ، ولكنهم أخفقوا في تحقيق أغراضهم لأن حكومة محمد علي لم توجد طبقة من القراء المثقفين للإفادة من هذه الكتاب إلخ .

وواضح مع ذلك أن محمد عبده كان يعطي فكرة مبالغاً فيها للحالة وحكماً قاسياً عليها ، وإذا صح حكمه في حالة الكتب ذات الموضوعات العلمية والعسكرية ، فإنه بالتأكيد لم يكن كذلك في حالة الكتب التي ترجمت في مدرسة اللغات لأن المصريين المتعلمين استمروا في قراءتها طوال كامل القرن التاسع عشر ، وخلال الجزء الأول من القرن العشرين ، وهناك قدر طيب من الأدلة التي تثبت هذه الحقيقة ، فبين الكتب التي طلبها عبد الله النديم ليقرأها خلال عزلته الإجبارية في مكان اختبائه ، ترجمة رفاعة لجغرافية مالت برن Malte Brun ، ومرة

أخرى في مقال كتب في مطلع القرن العشرين انتقد فيه مصطفى عبد الرازق ترجمة كتاب (Devoer) لجولز سيمون Jules Simon من قبل طه حسين ومحمد رمضان ، وذكر أنه قرأ الكتب التي ترجمها رفاعة وأفاد منها .

وفي إشارة إلى طريقة رفاعة في الترجمة الحرفية كلمة بكلمة قال : في ترجمة رفاعة التي قرأتها ، وجدته دقيقاً جداً في تطبيق هذه الطريقة ، وهي حقيقة تبرهن على تبصره في العلوم الحديثة[10] .

وأما بالنسبة للكتب التي تؤلف أصلاً بالعربية فإن هذا الأثر واضح بشكل خاص بطريقتين : الأولى في إيجاد وعي تاريخي أدى إلى اهتمام المصريين بالتاريخ عموماً ، وتاريخ مصر في العصور المختلفة بشكل خاص ، والثاني هو إلهاب المشاعر الوطنية وتقوية الروح القومية .

وكما ذكر من قبل ، امتزجت عوامل كثيرة لإعطاء هذين المؤثرين ، والأهم بينهما علي أي حال في رأيي هو الفهم الجديد للتاريخ المصري القديم وللحضارة المصرية ككيان مستمر ، وارتبط بهذا الفخر الذي توفر لدى المؤرخين الجدد حول أمجاد ذلك التاريخ والحضارة الاهتمام الذي أبدوه نحو علم الآثار والحضارة القديمة وحفظ المكتشفات الأثرية كنماذج لتلك المدنية في عصورها المختلفة .

لقد بدأ هذا الفهم والتفسير الجديد ، كما ذكرت ، في وقت أبكر من وقت رفاعة الطهطاوي ، وتردد صداه ، وتوبع من قبل المؤرخين الذين جاءوا بعده .
وفي هذا المجال كان للتراجم التي كتبت في القرن التاسع عشر أيضاً تأثير كبير على المجتمع المصري ، ومرد هذا إلى حقيقة أن مؤلفيها لم يعودوا يكتبون عن فئات معينة من الناس مثل الأطباء ، والنحويين أو رجال القانون ، ومرة أخرى لم يكتبوا تراجم جميع الأعيان في قرن كامل كما كانت الحالة مع المؤرخين الأقدم في الفترة الإسلامية ، لقد اتبع المؤرخ الحديث طريقة مختلفة ، فكل كاتب أخذ ينتقي مجموعة خاصة من الأبطال وعظماء الرجال ، ثم كتب تراجمهم مبيناً صفات البطولة والعظمة في حياتهم وأفعالهم ، وقد فعل هذا رفيق العظم في كتابه «أشهر مشاهير الإسلام» ومصطفى نجيب في كتابه «حماة الإسلام» وجرجي زيدان في كتابه «مشاهير الشرق» وقد ألهمت هذه التراجم بدون شك الشباب المصري بلمحات

البطولة ، ووضعت أمام عيونهم عدداً من الأنماط من الرجال العظام الذين آمنوا بمثلهم ، والذين ضحوا كثيراً لتحقيقها .

وينطبق الشيء نفسه على التراجم الفردية ، التي كتبت في ذلك الوقت ، فقد أعطت تراجم علي مبارك ، وأبو السعود ، ومحمود الفلكي وآخرون تاريخ أولئك المصريين الذين كـونوا أنفسهم ، والذين جاؤوا من أصل قروي فلاحي أو كانوا قادرين من خلال عملهم الشاق على بلوغ أعلى المناصب في الدولة ، وقدموا لبلادهم أعظم الخدمات .

ومرة أخرى تركت الكتب والرسائل التي كتبت حول الإحياء الوطني ، وعن المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي ، مثل كتابي الجبرتي ، وتلك التي كتبت عن الثورة العرابية ، أسبابها وأهدافها ، ومثل «مصر للمصريين» والمذكرات الشخصية التي كتبها قادة تلك الثورة ، تركت هذه كلها تأثيراً عميقاً على المصريين ، وكانت عاملاً قوياً خلف الحركات الوطنية ، التي ميزت القرن العشرين ، وفي هذا الحقل لا يمكن لأحد أن ينكر تأثير تلك الكتابات على حركات مصطفى كامل ، وسعد زغلول ، وحتى على حركة جمال عبد الناصر .

ومرة أخرى عرَّف الاهتمام بتراث الماضي ، وطباعة عدد عظيم من المخطوطات التاريخية القديمة ، المصريين بأمجادهم في الفترات الإسلامية وجعلهم هذا واعين لماضيهم ، وأدى بهم إلى محاولة تحقيق إحيائه ، وكانت العقبة الوحيدة على أي حال في طريق حركة الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر ، أنها لم تتم من قبل مؤرخين محترفين أعدوا أنفسهم منذ البداية لدراسة التاريخ ، وتعليمه وكتابته ، ونستثني من ذلك الجبرتي ، الذي أوقف جهوده كلها على كتابة التاريخ ، ورفاعة الذي كيف نفسه بطريقة أو بأخرى لكتابة التاريخ ، أما بقية المؤرخين المصريين في القرن التاسع عشر ، فكانوا هواة لهم خلفيتهم التعليمية الخاصة التي اختلفت عن حقل اختصاصهم ، سواء أكان القانون أو الأدب ، أو الدين أو الحرب ، ثم تطور لديهم الاهتمام بالتاريخ فكتبوا فيه .

وتغيرت هذه الحالة في القرن العشرين ، ففي العقد الثاني منه أرسل بعض الخريجين من كلية التدريب العليا (دار المعلمين) في بعثات تعليمية إلى أوروبا للتخصص في التاريخ ، وفي ١٩٢٥ افتتحت الجامعة المصرية ، وتم تأسيس قسم

خاص فيها لدراسة جميع فروع التاريخ ، وفي البداية كانت مهمة التدريس موضوعة في أيدي بعض الأساتذة الأوروبيين وعدد من المصريين الذي أتموا دراساتهم في أوروبا ، وأرسل بعض الخريجين من هذه الجامعة والجامعات الأخرى التي تم تأسيسها فيما بعد بدورهم في بعثات تعليمية للتخصص في التاريخ ، في حين افتتحت فروع خاصة بالدراسات العليا في أقسام التاريخ فيها ، وأعضاء هذه البعثات التعليمية وخريجو تلك الأقسام للدراسات العليا التاريخية ، هم الذين يشغلون حالياً كراسي التاريخ في الجامعات المصرية ، ولجهودهم وجهود تلاميذهم في الكتابة والترجمة والتحقيق أسلوب جديد وخاص ممتزج مع الأسس العلمية للمعالجة المتوازنة .

هوامش البحث

١ ـ الشيال «الدكتور بيرون Dr Perron والشيخان : محمد إياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي نشرة كلية الأدب ، جامعة الإسكندرية مجلد ٢ (١٩٤٤) .

٢ ـ إن هذه ترجمة عربية لبهرانور Behranour «مؤسسة الشرطة عند العرب والفرس والترك» . المجلة الآسيوية سلسلة ١٨٦٦/٥ ١٥/٤٦١ ـ ٥٠٩ ، ١٦/١١٤ ـ ١٩٠ .

٣ ـ كتاب آدامس Adams «الإسلام والحداثة في مصر» (الترجمة العربية) ص ٨٠ ـ ٨١ . ومحمد رشيد رضا «تاريخ الأستاذ الإمام» : ٢٤٧/٣ ، ٧٥٣/١ . وعثمان أمين «رائد الفكر المصري» ص ٣٨ .

٤ ـ كتاب يعقوب آرتين رسائل د . بيرون من القاهرة والإسكندرية إلى جولز موهل في باريس ١٨٣٨ ـ ١٨٥٤ (القاهرة ١٩١١) الشيال ـ الدكتور بيرون والشيخان : ١٧٩ ـ ٢٢١ .

٥ ـ عبد الرحمن الرافعي ـ عصر اسماعيل : ٢٤١/١ ـ ٢٤٤ .

٦ ـ لقد ترجم هذا الاقتباس من قبل ب . لويس . العرب في التاريخ لندن ١٩٥٠ ص ١٨٤* ولم يسم لويس كتاب المسعودي الذي نقل عنه وهو التنبيه والإشراف ـ انظر ص ٢٢ ط . القاهرة ١٩٣٨ .

٧ ـ المصدر نفسه ص ١٦٥ وقارن أعلاه ص ١٢٠* انظر طبقات الأمم ط . القاهرة مطبعة التقدم ص ٨ ـ ٩ .

٨ ـ طبعة (مع مقدمة وحواشي) جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٩ .

٩ ـ المنار ٥ ق ٥ (١٩٠٢) ، وقد أعيد طبع هذه المقالة في المجلد الثاني لمحمد رشيد رضا من كتاب «تاريخ الأستاذ الإمام» .

١٠ ـ الجريدة ـ الأربعاء ٢٩ تموز ١٩١٤ وقد أعيد طبع المقالة في كتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق» تحقيق علي عبد الرازق .

٣٥ ـ أعمال التاريخ العثمانية لعصر التنظيمات .

أركومنت كوران
أستاذ التاريخ المساعد ـ كلية روبرت ـ استانبول

اعترف لزمن طويل بالطبيعة المزدوجة لعصر التنظيمات الذي امتد بحدوده الواسعة من ١٨٣٩ إلى ١٩٠٨ على أنها أكثر سماته تمييزاً ، فعلى مدى تلك السنوات السبعين ازدهرت المؤسسات التقليدية جنباً إلى جنب مع تلك التي أقيمت تحت التأثير الأوروبي ، وكتابة التاريخ في هذه الفترة ليست استثناء من القاعدة ، إننا نرى أعمالاً من التاريخ صنفت وفق الطرق العتيقة الطراز ، في حين بدأت في الوقت نفسه أعمال بإسهام من الطرق الأوروبية في الظهور والتطور إلى نمط حديث تماماً ، وسأحاول في هذه الدراسة أن أبين كيف تطور هذان النوعان المتميزان ، وسنحاول فوق كل شيء تحديد المؤثرات التي عملت في كل منهما ، وحتى بينهما ، ولاحاجة لأن أذكر كل الأعمال المنشورة خلال ذلك الوقت ، وسأتقيد بتلك التي أعدها ذات بعض الأهمية [١] .

لقد كان وراء الكتابات التاريخية التقليدية ماض نبيل ، ربما كان قد تعرض لتأثير عربي وفارسي ، ولكنه حقق أصالة خاصة به ، ويشهد نتاج المؤرخين الأتراك في القرنين السادس عشر والسابع عشر بالمستوى العالي الذي تم بلوغه في هذا الفرع من الدراسة [٢] ولم يكن أفول الإمبراطورية في القرن التالي بلا تأثير على الكتابات التاريخية العثمانية ، ومع ذلك فقد بقي النوع التقليدي حياً ، ولاخلاف في أن أهم عمل تاريخي في فترة التنظيمات هو «تاريخ الدولة العلية» لأحمد جودت باشا (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) (١٢ مجلداً ، استانبول ١٢٧١ ـ ١٣٠٩هـ) وهو تاريخ

للأحداث بين ١٧٧٤ و١٨٢٦ ، وقد عين المؤلف مؤرخاً رسمياً بعد أن أعد المجلد الأول من تاريخه ، فأوقف ثلاثين سنة من حياته على تأليفه ، وتنتزع وفرة مصادره ، وحسه الناقد ، ومنطقه الذي لايخطىء ، إعجابنا ، ويبقى هذا العمل موالياً للتقاليد ، لكتابته على شكل حوليات ، فقد سجلت الترفيعات الرسمية والارتقاء في المراتب ، والوفيات التي حدثت في كل سنة بالطريقة التقليدية ومع ذلك كان جودت باشا عندما تسمح الفرصة يتخلى عن نظام الترتيب الزمني للأحداث ، ويعطي موضوعه المعالجة الواقعية التي كان يتطلبها . وهكذا أخذ تاريخه صورة مجموعة من التواريخ ، وإلى حد ماصورة تاريخ مواضيع منفردة .

وموقف جودت باشا تجاه أوروبا شديد الأهمية ، فمع أنه تلقى تعليمه في المدرسة فإنه لم يكن متعصبا بأي حال مثل المؤرخ واللغوي عاصم (ت ١٨١٩) ، ومن أجل تاريخه استعمل حتى بعض المصادر الغربية المترجمة إلى التركية ، والمنشورة في مصر في عهد محمد علي باشا[٣] ، ومع ذلك بقي محافظاً ، يلتمس علاجا لتدهور الإمبراطورية في تحسين المؤسسات القديمة ، دون لجوء للمدنية الأوروبية ، وطبقاً لكاتب معاصر ، ربما يمكن عدّ جودت باشا الحواري الأخير لابن خلدون[٤] ، وكما يبدو من مقدمة تاريخه التي شكلت في النهاية مجلداً كاملا من الطبعة الأخيرة (١٨٩٠) ترسو أفكاره عن التاريخ والمجتمع الإنساني بشكل أساسي على أفكار ذلك المؤرخ الفيلسوف المسلم العظيم ، لقد كان هو في الواقع الذي ترجم القسم السادس والأخير من مقدمة ابن خلدون[٥] .

وكان أحمد لطفي (١٨١٥ ـ ١٩٠٧) خليفة جودت باشا كمؤرخ رسمي ، وهو الذي ترك تاريخا يغطي الفترة من ١٨٢٦ إلى ١٨٦١ باسم «تاريخي لطفي» في ٨ مجلدات ، صدر في استانبول (١٢٩٠ ـ ١٣٢٨هـ) وهذا عمل شاحب إذا ماقورن مع السلف ، وهو في الأساس ملخص لمقالات صحفية .

وباستثناء تاريخ جودت باشا صيغ أفضل التواريخ المكتوبة بالطريقة التقليدية خلال فترة التنظيمات في صورة تراجم ، وفي تسويغ لهذا يمكن أن نذكر «تاريخ عطا» لطيار زادة عطاء الله (١٨١٠ ـ ١٨٧٧) و«سجل عثماني» لمحمد ثريا (١٨١٠ ـ ١٨٧٧) . ونعامل الأول (٥ مجلدات استانبول ١٢٩١ ؟ ـ ١٢٩٣هـ) بعد مقدمة طويلة عن الأندرون (مدرسة القصر الامبراطوري) مع الأفراد الذين تعلموا هناك ، في حين ضم الثاني (٤ مجلدات استانبول ١٣٠٨ ـ ١٣١٥) تراجم

قصيرة لحياة كل الناس الجديرين بالذكر في التاريخ العثماني ، وهذان كتابان واسعان جداً ، غير أن المعلومات التي يحتويان عليها ـ مع أنها مفيدة ـ لاتتماشى دائماً مع الحقيقة .

وحتى بعد عصر التنظيمات كان هناك أولئك الذين تابعوا كتابة التاريخ وفق الطريقة القديمة ، وكان آخرهم ابن الأمين محمود كمال إينال (١٨٧٠ ـ ١٩٥٧) وهو مؤلف عمل قصصي حول حياة رؤساء الوزارات بدءاً من علي باشا (١٨١٥ ـ ١٨٧١) .

وكان تطور حركة التاريخ الحديثة في تركيا بطيئاً ، ولكنه كان مؤكداً ، فقد فتح إعلان التنظيمات من قبل مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠ ـ ١٨٥٨) الإمبراطورية بعد ١٨٣٩ للنفوذ الغربي ، وفي البداية كان المضمون الفعلي للكتابات الأوروبية هو الذي جعلها موضع هذا الترحيب من المؤرخين الأتراك .

وصدر القسم الأول من «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لخير الله أفندي (١٨١٧ ـ ١٨٧٦) في ١٨٥٤ ، وكان قد عزم على مهمة كتابة تاريخ عثماني ، مع قسم خاص بكل سلطان ، لكنه لم يمض إلى أبعد من أحمد الأول (١٦٠٣ ـ ١٦١٧) (١٨ جزءاً نشر أخرها في ١٨٧٥) ولم يكن هناك شيء أصيل في هذا المشروع ، لأن إدريس البدليسي (ت ١٥٢٠) قد حاول القيام بمثله في القرن السادس عشر في كتابه «هشت بهشت» ، وقد نهل خير الله أفندي ـ بصرف النظر عن المراجع الشرقية ـ بمقدار كبير من تاريخ هامر Hammer الشهير ، ومن التاريخ الأقل أهمية لِ دولاكروا Delacroix ومع أنه كانه عملاً تصنيفياً نوعاً ما ، وضعيفاً في هذا ، يمكننا مع ذلك أن ننظر إليه كجسر بين الكتابة التاريخية التقليدية والحديث .

وتعمق الاهتمام بالمدنية الغربية الذي تعاظم الشعور به في الدوائر الفكرية ـ التركية عاماً بعد عام ، وتزايد عدد الأتراك الذين تعلموا اللغات الغربية على التوالي ، وكان أحدهم أحمد حلمي (ت ١٨٧٨) الذي نشر تاريخا عاماً في ١٨٦٦ «تاريخ الأمم» في مجلدين (استانبول ١٢٨٥ هـ) ، وكان هذا ترجمة واقتباساً لتاريخ شامبر Chamber الشامل (٦)

وأصبح الآن الطريق مفتوحاً ، فخلال السنوات التالية ترجم عدد من الكتب الأوروبية ونشر ،[٧] والأكثر عدداً كانت الكتب التي شكلت قاعدة الاقتباس والتقليد ، فقد بدأ أحمد مدحت (١٨٤١ ـ ١٩١٢) بسلسلة تقليد للتواريخ الفرنسية العالمية ، ويستحق هذا الكتاب أن يذكر لاستقباله المرضي من قبل الناس (كائنات ، ١٥ مجلداً ، استانبول ١٢٨٨ ـ ١٢٩٨هـ) ولخص المؤلف ، أو بالأحرى المقتبس ، تاريخ كل بلد في مجلد صغير ، وخصص الأخير منها للإمبراطورية العثمانية .

وكانت الخطوة التالية في تطور الكتابة التاريخية إدخال الطرق الأوروبية ، فقد أجبرت الحاجة إلى كتب مدرسية للمدارس الجديدة المفكرين الأتراك على تحضير كتيبات واضحة ومنظمة ، وكانت المحاولة الناجحة الأولى في ١٨٦٧ ، قام بها أحمد وفيق باشا (١٨٢٩ ـ ١٨٩١) في كتابه «فذلكة تاريخية عثمانية» .

وكان الكاتب ابناً لدبلوماسي تركي ، درس لبضع سنوات في مدرسة (ليسيه) باريسية ، وهو ظرف مكنه من إعداد مخطط وفق المنحى الفرنسي حيث قسم التاريخ العثماني إلى ستة فصول ، يتعلق كل فصل بمرحلة خاصة من تاريخ الإمبراطورية خلال فترات التوسع والعظمة والتدهور ، منذ بداية الإمبراطورية حتى زمن المؤلف نفسه .

وتبنى الكتاب الذين خلفوا أحمد وفيق باشا في إنتاج الكتب المدرسية تصنيفه ، وكتب آخر مؤرخ رسمي ، وهو عبد الرحمن شريف (١٨٣٣ ـ ١٩٢٥) تاريخاً عثمانياً للمدارس الثانوية «تاريخ الدولة العثمانية» ـ مجلدان (استانبول ١٣٠٩ ـ ١٣١٢هـ) وكان لهذا الكتاب مقلدوه حتى بعد إعلان الجمهورية التركية .

وكان الإحساس بتأثير الحركة التاريخية الغربية بدرجة متساوية في الكتب الموجهة للجمهور العام ، وظهر كتاب «نتائج الوقوعات» لمصطفى نوري باشا (١٨٢٤ ـ ١٨٩٠) في ١٨٧٧ ، وهو عمل متماسك هادف عن التاريخ العثماني ، سعى إلى تحديد أسباب الأحداث ونتائجها (٤ مجلدات استانبول ١٢٩٤ ـ ١٣٢٧هـ) ، وأبرز المؤلف المؤسسات الإمبراطورية والمشكلات الاقتصادية ، ومن الصعب حقاً تقرير كيف توصل الكاتب الذي لم يزر أوروبا مطلقا ، ولم يعرف أية

لغة أوروبية [٨] ، إلى تبني طريقة علمية من هذا القبيل ، لعله امتلك الفكرة السعيدة لمزج تصنيف أحمد وفيق باشا مع طريقة جودت باشا الحولية .

ومهما يكن من أمر ، فقد ميزت كتابات مصطفى نوري باشا ، مع أخطائها الكثيرة ، بداية مرحلة في الكتابة التاريخية التركية الحديثة .

وقد شجعت المنهجية الأوروبية على تطوير فروع للتاريخ التي لم تكن حتى الآن مرعية ، وأصبح التاريخ المحلي الذي كان من قبل مقصوراً على حياة مشاهير الرجال المحليين يوقف أكثر فأكثر على دراسة أحداث الماضي لمنطقة أو مدينة ، من ذلك «تاريخ طرابزون» لشاكر شوكت (مجلدان ـ استانبول ١٢٩٤هـ) وتاريخ مكة والمدينة لأيوب صبري باشا (ت١٨٩٠) ، «ومرآة الحرمين» (٣ مجلدات استانبول ١٣١٤ هـ) لمحمد رئيف (ت ١٩١٦) ، وهي بعض الأمثلة للنوع الذي أدى إلى ماهو أفضل من الأعمال بعد عصر التنظيمات .

وكانت المذكرات غير معروفة تقريبا في التاريخ التقليدي ، وكيفت المحاولات في هذا الاتجاه في تركيا بالتأكيد وفق النماذج المكتوبة من قبل أوروبيين بارزين ، ويبدو أن ظريف باشا كان أول رجل دولة عثماني يكتب مذكراته ، مع أنها لم تكن بقصد النشر [٩] وربما كانت لدى المؤرخ ورجل الدولة أحمد جودت باشا فكرة دمج مذكراته في «التذاكير» الموجه إلى خليفته كمؤرخ رسمي «لطفي أفندي» [١٠] ، وكانت الحرب الروسية ـ التركية في ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ مناسبة لظهور العديد من المذكرات ، وفي الواقع حصل الجنرالات العثمانيون الذين تولوا القيادات في حرب أخذت شكلا مفجعاً بالنسبة للإمبراطورية ، على فرصة لتبرئة انفسهم بالإدلاء برواياتهم حول الأحداث التي شاركوا فيها ، والأمثلة على ذلك «مذكرات أحمد مختار باشا» (١٨٣٢ ـ ١٩١٩) ، وقد نشرت فيما بعد تحت عنوان «سرجيوش حياة من جلد شاني» (استانبول ١٣٢٨ هـ) ، وجاءت إفرازات البحث التاريخي الأوروبي مثل النميات ونقوش الأختام إلى تركيا خلال التنظيمات ، وكان «الكناش» عن العملات اليونانية والرومانية والإسلامية المنشور في استانبول ١٢٧٩ هـ بقلم عبد اللطيف صبحي باشا (١٨١٨ ـ ١٨٨٦) الإسهام الوحيد من نوعه[١١] .

وأعطى التنظيم النهائي للمتحف الإمبراطوري للآثار في استانبول في ١٨٨١ زخماً لمتابعة تلك الدراسات المساعدة ، وتولى اسماعيل غالب (١٨٤٧ ـ ١٨٩٥) ، ومحمد مبارك ، وأحمد توحيد الألوسي (١٨٦٨ ـ ١٩٤٠) إعداد الفهارس للعملات الإسلامية والتركية التي نشرت في ستة مجلدات [فهرس المسكوكات القديمة والإسلامية ـ استانبول ١٣٠٩ ـ ١٣٢٢هـ] ، ومثله نشرت فهارس الأختام الرصاصية المحفوظة في المتحف الإمبراطوري من قبل خليل أدهم الدم (١٨٦١ ـ ١٩٣٨) «فهرس كرشون مهور عرب وعجم وبيزنطي وعثماني كرشون مهورلارن مخصوص» (استانبول ١٣٢١هـ) :

وامتدت المنهجية الأوروبية إلى أعمال مرجعية ، وفي الحقيقة إن «دائرة المعارف التاريخية ـ الجغرافية» لشمس الدين ساحي (١٨٥٠ ـ ١٩٠٤) قد كتبت كمثيلاتها الأوروبيات (قاموس العالم ٦ مجلدات ، استانبول ١٣٠٦ ـ ١٣١٦هـ) ومايزال هذا الكتاب بمادة موضوعه المستمدة من مصادر مشرقية وغربية حتى الآن أداة عملية كثيرة الفائدة ، وأعطي المكان المعلى للموضوعات المتعلقة بالإسلام ، وخاصة المتعلقة بالإمبراطورية العثمانية ، وأكمل ظهور الكتب التي تدين بإلهامها إلى المذاهب والمثل الأوروبية تطور الكتابة التاريخية الحديثة في عصر التنظيمات ، وبعد ١٨٦٠توصلت مجموعة من المفكرين الأتراك إلى نتيجة مفادها أن إيجاد قومية عثمانية بات أمراً ملحاً حتى تنقذ الإمبراطورية من دمار تام .

وكانوا يهدفون إلى توحيد كل الجماعات الإسلامية تحت درع الأمة العثمانية وبذلك يردون على ميل الجماعات المسيحية إلى الانفصال عن الإمبراطورية ، وقد أخذ هؤلاء المفكرون الشباب العثمانيون الفكرة الأوروبية للقومية وقاوموا الإمبريالية الغربية في جميع أشكالها .

وقد انعكست هذه الميول العقائدية في كتاب نامق كمال (١٨٤٠ ـ ١٨٨٨) «أوراق بيرشان» الذي ظهر الجزء الأول منه في ١٨٧١ حيث كتب سلسلة تراجم لحياة الأبطال المسلمين (استانبول ١٢٨٨ ـ ١٣٠٥هـ) ، وهنا جرى تقديم صلاح الدين والسلطان محمد الثاني ، والسلطان سليم الأول والأمير نوروز ، كرموز للعقيدة الإسلامية ، التي كانت أجمل أزهارها القومية العثمانية .

وكان أكبر مدافعين لديه عن الإسلام هما : صلاح الدين والأمير نوروز ، الأول ضد المسيحية والثاني ضد المغول الكفار[١٢] وفي نظرة كان محمد الثاني مؤسسا لدولة إسلامية على قاعدة قومية حقيقية ، وهي دولة تقوت عندما تولى سليم الأول الخلافة ، وعلى هذا كان تفسير نامق كمال للتاريخ متوائما مع المشاعر في زمانه ، وقد عزا إلى الأبطال نوايا سياسية واجتماعية كانت لاتصدق قبل الزمان الذي كان يكتب فيه ، ومهما يك من أمر لعله كان أول مؤرخ سعى لإبراز الدور الحضاري لمحمد الثاني [١٣] .

كانت أفكار نامق كمال مقتصرة على التاريخ العثماني الذي كان ينوي إكماله في أربعة مجلدات ، وقد وصل فيه حتى عام ١٤٧٩ ، ولكن طباعة العمل بدأت في ١٨٨٨ ،وأوقفت من قبل رقابة عبد الحميد الثاني (طبعة جديدة : تاريخ آل عثمان ٤ مجلدات استانبول ١٣٢٦ ـ ١٣٢٨) واندفعت في هذا العمل الأخير عبادة الأبطال إلى حدود أصبحت المبالغة فيها أمراً لايمكن تجنبه[١٤] ، ومرة أخرى جهد الكاتب في تفنيد آراء «هامر» عن الأشخاص والأحداث في التاريخ العثماني ، الذي قام به على اسس منطقية أكثر منها وثائقية [١٥] وقد أحرز العمل بذلك سمة جدلية ، وهذا يجب أن يلقي بعض الشك على موضوعيته .

ولم تلهم هذه العقائدية العثمانية إلا بعض الأعمال التاريخية ، ولم تتمكن من منع انحلال الإمبراطورية ، وقد اختفى كلاهما مع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، وكتب لعقائدية مختلفة هي «تركيا للترك» أن تكون ذات تأثير أكبر على حركة التاريخ للتنظيمات الحديثة للعصر .

وبعد ١٨٦٠ ، وجه غزو روسيا لآسيا الوسطى انتباه بعض المفكرين العثمانيين نحو أولئك السكان الأتراك الذين كانوا يرزحون تحت نير العدو المشترك ، وكانت هذه الشعوب مسلمة ، علاوة على أنها كانت مشتركة في الأصل العرقي نفسه ، الذي يعتبر العنصر المهيمن في الإمبراطورية ، وكشفت دراسة تاريخ هؤلاء الأتراك للمفكرين العثمانيين ماضيا مجيداً كان مدفونا تحت تقاليد الإسلام .

وبالتدريج قام هناك وعي قومي ، انصب على التاريخ والثقافة التركية ، وكان متميزاً عن العقائدية العثمانية ، والتقت الأفكار القومية التركية المستمدة منه

مع كارثة نهاية الحرب العالمية الأولى ، ولكن ليس أقل تأكيداً أن الدولة التركية الجديدة التي قامت على أطلال الإمبراطورية العثمانية قد استمدت قوتها من العقائدية القومية التركية المعتدلة .

وهناك ترابط وثيق بين التطلعات القومية للمفكرين العثمانيين والأعمال المنشورة في التاريخ التركي خلال فترة التنظيمات ، حيث هيأت الفرص أمام المثقفين في الامبراطورية العثمانية للتعرف على تاريخ تركستان ، وهكذا ترجم في سنة ١٨٦٤ أحمد وفيق باشا بعض كتابات عبد الغازي بهادور (١٦٠٣ ـ ١٦٦٣) من الجاغاتي إلى اللهجة التركية الغربية في ظل أسلوب «شجري اوشال تركي» «مقالات في صحيفة تصوير أفكار أرقام ١٥١ . . . .» ونشرت فيها بعد منفصلة (استانبول ـ طبعة جديدة) [١٦] .

وقد تعلم المفكرون العثمانيون الكثير من هذا العمل عن التاريخ المتأخر للأتراك الشرقيين ، لأنه بالنسبة للتاريخ التركي القديم كان لديهم فقط أن يرجعوا إلى الكتابات الأوربية التي تعاملت معه ، وبذلك أصبحوا عارفين بالتراث الوطني الذي عدوه جديراً بالاحترام ، وكتب أحدهم ، وهو علي سوعاوي (١٨٣٩ ـ ١٨٧٨) (عندما كان في فرنسا لاجئاً عثمانياً شاباً) مقالة صحفية ، عمل فيها على إظهار القيمة العالية للمدنية التي أوجدها الأتراك من أقدم الأزمنة ، «مادة ترك» في العدد الأول من «علوم» ، المنشور في باريس في ١٨٦٩ ، وكان مصدره الوحيد المقدمة التاريخية لكتاب لوملي دافيد «قواعد اللغة التركية» [١٧] وقد نهل من هذا المصدر بحرية ، وغيّر بسرور الأفكار التي لم تتفق مع حججه[١٨] .

ومع ذلك أضفى المؤرخون العثمانيون مزيداً من الأهمية على التاريخ العسكري والسياسي للأتراك القدامى أكثر مما أضفوه على مدنيتهم ، وبالنسبة لهم كان الجوهر في إبراز قوة الدول التركية التي أنشئت قبل الأمبراطورية العثمانية بزمن طويل وقد وضع سليمان باشا (ت ١٨٩٢) روايته عن أتراك ماقبل الإسلام في إطار التاريخ العالمي ، وصدر عمله في ١٩٧٦ (تاريخ العالم ـ ج١ ، العصور القديمة ، استانبول ١٢٩٣هـ) وهو يشمل إشارة مصدرية إلى كتاب ألفه دي غويني Deguignes حيث اعتمده اعتماداً كبيراً ، وأفاد منه إفادة تامة في الفصل المخصص للتاريخ التركي .[١٩] .

وظلت العقائدية التركية ظاهرة بوضوح في الكتاب الذي نشره نجيب عاصم يزكسيني (١٨٦١ ـ ١٩٣٥) في ١٨٩٩عن التاريخ التركي العام «تاريخ الترك» (استانبول ١٣١٦هـ) ، وقد اقتبس هذا الكتاب وكيّف وأعيدت صياغته عن كتاب فرنسي تباهى ببطولة البدو الأتراك في آسيا الوسطى[٢٠] .

وكانت فترة الحرب التي أعقبت التنظيمات اختباراً قاسياً للعقائدية التركية ، فلقد خرجت منتصرة ، ولكن بعدما هذبت نوعاً ما ، وحذا مؤرخو الجمهورية الفتية حذو فؤاد كوبرولو (ت ١٨٩٠) فركزوا على دراسة المدينة التركية القديمة .

ويتضح من العرض المقدم أعلاه أن فترة التنظيمات كانت فترة انتقالية في الكتابة التاريخية العثمانية ، حيث توقف النوع التقليدي عن إنتاج أعمال ملحوظة ، ولكن المؤرخين العثمانيين أصبحوا متأثرين أكثر فأكثر بوجهات النظر الحديثة ، وتحولت أعينهم نحو أوروبا ، وفي الحقيقة ليس هناك أي عمل جدي منشور عن التاريخ الإسلامي ، في حين شغلت كتب التاريخ العالمي بماضي الدول الغربية ، وكان هذا تغييراً مواتياً للكتابة العثمانية ، فقد اغتنت بأنواع النظم الجديدة مثل المذكرات ، والفروع المساعدة للتاريخ ، علاوة على أن أفقها قد اتسع بالعقائدية التركية .

ومع ذلك إن العجز في النقد التاريخي كان دائماً شائبة مشتركة بين جميع مؤرخي فترة التنظيمات ، فجودت باشا نفسه لم يتحرر من هذا العيب ، فعمله البارع يفتقر الى النقد الداخلي ، وكانت طبعات النصوص القديمة التي تم إعدادها في تلك الأيام معيبة جداً أيضا ، ولم يكن يتوقع إسهام متفوق من كتاب لم يتلقوا تدريباً خاصا ، لأن القسم الأعظم منهم كان من رجال الدولة ، أو الجنرالات أو الصحفيين .

ومع تأسيس الـ «تاريخ عثماني أنجماني» في ١٩١١ ، بزغ عصر جديد في الكتابة التاريخية العثمانية ، وتمّ ملء الفراغات التي كانت في العصر المتقدم ، وحدثت استفادة تامة من المحفوظات ، ومن حينه فصاعداً ، كان على البحث التاريخي ان يدرج في قائمته مساعدة المحترفين الذين تلقى بعضهم تدريبه في كلية الآداب في جامعة استانبول التي تم تأسيسها في ١٩٠٠ .

هوامش البحث

١ ـ جرى عرض معظم الأعمال المنشورة خلال فترة التنظيمات في الدراسة التالية : لمكرمين خليل إينالجك «الكتابات التاريخية أيام التنظيمات» (تنظيمات ١ ـ استانبول ١٩٤٠ طبعته نافدة) .

٢ ـ انظر برنارد لويس «كتابة التاريخ والأحياء الوطني في تركيا» ـ شؤون شرق اوسطية (حزيران/تموز١٩٥٣) ٤/٢١٩ .

٣ ـ على سبيل المثال ، استعمل ملخصاً لمذكرات نابليون المطبوعة في ١٨٣١ «تاريخ بونابرت» ـ بولاق ـ ١٢٤٧هـ . ولم يكن جودت باشا أول من يتمكن من المصادر الغربية . وقبله كان شانيزادة عطا الله ت١٨٢٦ الذي تعلم الفرنسية ، واستمد من أعمال بهذه اللغة في تاريخه .

٤ ـ أحمد حمدي ـ ثانبينار «الأدب التركي التاريخي في القرن الثالث عشر» طبعة ثانية (استانبول ١٩٥٦) : ١/١٤١ .

٥ ـ ترجم بيرزادة محمد صائب (ت ١٧٤٩) الأجزاء الخمسة الأولى . وطبعت في بولاق في ١٨٥٧ ، وقد عمل جودت باشا على إعادة طبعها في السنة التالية في مجلدين ، وأضاف لمجلد ثالث الجزء الذي ترجمه (مقدمة ابن خلدون ـ ٣ مجلدات ، استانبول ١٢٧٥ ـ ١٢٧٧)

٦ ـ بعد بعض الوقت وسع الكاتب نفسه عمله ، فطور الفصول التي تتعامل مع الإسلام (تاريخ الأمم ٦ مجلدات استانبول ١٢٩٣ ـ ١٢٩٤هـ) وهذه الفصول هي ملخص فقط لكتاب «صحائف الأخبار» لمنجم باشي أحمد (ت ١٧٠٢) .

٧ ـ أمرت أكاديمية أنجمان دانش (تأسست في استانبول في ١٨٥١) بترجمة العديد من الأعمال التاريخية بما في ذلك تاريخ فوليتر/تاريخ شارل الثاني ، باستثناء واحد ـ وهذا ليس جديراً بالذكر ـ لم يتجاوز أي من هذه الترجمات مطلقاً مرحلة المخطوط ، ولم تكن الأكاديمية مطلقاً شديدة الفعالية ، وقد حلت في ١٨٦٣ (انظر الموسوعة الإسلامية ـ ط . ثانية ، مادة أنجمان .

٨ ـ علي فؤاد «منصوري زاده مصطفى باشا ونيتاكولوكوا» ـ «مجلة التاريخ الاقتصادي التركي» (كانون الثاني ـ آب ١٩٢٩) سلسلة جديدة ١/٤٧ .

٩ ـ نشرها أنور ضيا قرال مع مقدمة في ١٩٤٠ «خواطر ظريف باشا» ـ دورية ٤/٤٤٣ ـ ٤٩٤ .

١٠ ـ انظر . م . جاويد بيسون ـ «تذاكير جودت باشا» : ١ ـ ١٢ (أنقرة ١٩٥٣) مقدمة : ١٠

١١ ـ نشر صبحي باشا عملاً تاريخاً قصيراً يقوم على العملات السلوقية والساسانية «تكملة العبر» (استانبول ١٢٦٨هـ) ، وأريد لهذا الكتاب أن يكمل المجلدين الأولين لكتاب ابن خلدون ـ «كتاب العبر» ، الذي سلفت ترجمته من قبل الكاتب الى التركية (مفتاح العبر ـ استانبول ١٢٧٦هـ) .

١٢ ـ ذكر نامق كمال في مقدمته أنه كتب حياة صلاح الدين ليبين عدم صحة التهم الموجهة ضد البطل المسلم في كتاب ميشود Michoud «تاريخ الحروب الصليبية» الذي بدأت ترجمته لتوها ، وقد تولى هذه الترجمة حمد عريفي وأدهم برتو وعلي فؤاد كمشروع مشترك لم يكتمل مطلقاً ، ولم ير النور سوى جزء من المجلد الأول بعنوان «الأمر العجيب في تاريخ أهل الصليب» (استانبول بلاتاريخ) .

١٣ ـ قارن محمد قبلان «نامق كمال والفاتح» مجلة كلية الآداب في جامعة استانبول (كانون أول ١٩٥٤) ٦/٨٠ ـ ٨١ .

١٤ ـ ادعى نامق كمال صحة الأساطير التي ، طبقاً لها ، يفترض أن أرطغرل بك قد تغلب على الجيش المغولي برجاله الأربعمائة (محمد قبلان ـ نامق كمال حياتي وأسرلاري ، اطروحة ـ استانبول ١٩٤٨) ص ١٥٧ .

١٥ ـ قبلان ـ نامق والفاتح ص ٨١ ـ ٨٢ .

١٦ ـ لم يتح السبيل لنشر عمل بهادور خان بكليته حتى ما بعد فترة التنظيمات «ترك شجرسي» تحقيق الدكتور رضا نور ـ استانبول ١٩٢٥ .

١٧ ـ لم يكن المفكرون العثمانيون على غير معرفة بهذا العمل ، لأن فؤاد باشا وجودت باشا في كتاب « قواعد العثمانية» المنشور في ١٨٥١ قد أفادا من الترجمة الفرنسية التي صدرت في ١٨٣٦ ، ومع ذلك لقيت مقدمته التاريخية اللامبالاة حتى ١٩٦٩ .

١٨ ـ ضرب مثل في «تنبينار Tanpinar» المصدر نفسه ص ٢٢٠ .

١٩ ـ نشرت أعمال دي غويني حول الترك والمغول في باريس بين ١٧٥٦ ـ ١٧٥٨ ثم ترجمت إلى التركية من قبل حسن جاهد يلسن بعنوان تاريخ عموم الترك والمغول والتتر ٨ مجلدات استانبول ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥ .

٢٠ ـ كان هذا كتاب ليون كاهون ، الذي نشره في باريس في ١٨٩٦ وكان بعنوان «مدخل إلى تاريخ آسية» .

٣٦ـ أعمال التاريخ الإيرانية
فيروز كاظم زاده
أستاذ التاريخ في جامعة ـ بيل

لن يكون مبالغة إذا قلنا إنه على مدى الجيل الماضي غير تأثير الغرب كلية طبيعة الكتابات التاريخية الإيرانية ، وكان الانتقال عظيماً من الصور التقليدية إلى حد بدت فيه الأعمال التي أنتجت فقط منذ نحو ثلاثين أو أربعين سنة مضت ، وكأنها تعود إلى أناس آخرين أو عصر آخر .

ويجب أن يقر المرء في البداية ، أن الكتابة التاريخية الإيرانية الحديثة غير متميزة ، وقد أسهمت بقدر صغير بما له أهمية علمية ، ومع ذلك فإن الهدف من هذه الدراسة الموجزة ليس إصدار حكم ناقد ، بل هو بالأحرى محاولة لإظهار كيف وإلى أي مدى امتص الإيرانيون كلاً من التقنية والأفكار العائدة لزملائهم من المؤرخين الغربيين .

وتتضح صورة التخلي عن الأشكال التقليدية مع المحتوى بشكل درامي عندما يبدأ المرء بمقارنة أي من أعمال القرن التاسع عشر بأي من المنشورات الحديثة . لقد كان مؤرخو فترة القاجار كتاب تواريخ حولية بشكل أساسي ، فقد وصفوا يوماً بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، إما باختصار أو بتفصيل كبير ، أنشطة الشاه ، وأعطوا روايات درامية ، وإن تكن مما لايعتمد عليه ، عن المعارك ، وتعقبوا تعقيدات مؤامرات البلاط ، وكانت فلسفتهم بسيطة جداً ، وكانت الانتصارات في الحرب ، والرخاء ، والأمن ، والنظام ، تنسب لمشيئة الله وحكمة الحاكم ، في حين ألقي اللوم في حالات الهزيمة والمجاعة ، وغزو الأعداء ،

والكوارث الطبيعية على الحظ السيء ، أو على بعض القوى الخفية . لقد امتلك المؤرخون في فترة القاجار القدرة على الكتابة بأسلوب بسيط ممتع ، وحتى متميز أحيانا ، وكانت كتابة التاريخ في حينه فرعاً من فروع الأدب ، فإذا كانت القصة مما يحسن المرء قراءته فيها إرشاد وتوجيه ، وأهم من ذلك كله أنها تسر الشاه ، فإن المؤلف يمكنه أن يفخر بحق بجهوده .

لقد اضطلع المؤرخون المعاصرون بمهمة مختلفة ، فهم مابرحوا يرغبون في أن يكونوا موجهين ، ويقرون بذلك علنا ، ويسوغون عملهم في ضوء قيمته الإرشادية ، ولكن التماثل ينتهي هناك ، فعلم المؤرخين المعاصرين أكثر تعقيداً بشكل رئيس لأنه قد غزي بموارد غربية مثل العلمانية ، والقومية ، والشكوكية ، والديمقراطية ، ومؤخراً جداً الماركسية ،

وظهر تأثير الغرب بوضوح في الروح النقدية التي يعالج بها المؤرخون الحديثون الكتابات التاريخية الإيرانية القديمة ، فقد نقد حسين بيرنيّا في بحوثه حول إيران القديمة ، الشاهنامة ، ومصادر أخرى مثلها ، ورفضها مدعيا أنها مشوشة ومليئة بالأخطاء ، وهذا يذكر المرء بمواقف بعض المؤرخين الأوربية العلمية في القرن التاسع عشر ، وقد امتدح بيرنيا العلم الغربي لأنه زود التاريخ بأدوات مثل فقه اللغة ، وعلم الآثار ، وهي أدوات جعلت ، لأول مرة ، بالإمكان تمييز الخرافة من الحقيقة ، وألقت الضوء على ماضي ايران البعيد[١]

وتنعكس التأكيدات الأوروبية في القرن التاسع عشر على الأجواء المحيطة بكل قوة في العمل المذكور أعلاه ، فقد أوقف بيرنيا مساحة كبيرة من كتابه لمناقشة العوامل الجغرافية التي أنتجت أقدم المدنيات في العالم ، في وادي النيل وفي مابين النهرين [٢] وبالنسبة له لا تفسر الجغرافية فقط الطبيعة القومية للايرانيين القدامى فحسب بل تمثل أيضاً ثقافتهم العالمية ، لقد كان عليهم أن يصارعوا محيطهم الطبيعي القاسي ، وأضاف بيرنيا : «وأصبح النضال والمجاهدة ضرورة حياتية للآريين الإيرانيين ، وهما من الأهمية بمكان أنهما دخلا في ديانتهم القديمة ، وهكذا فإن الفوارق في ديانات الآريين في إيران والهند تفسر باصطلاحات الجغرافية والأطر المحيطة» [٣]

ويمكن أن يرى تأثير الغرب أيضا في الموقف المتشكك الذي أبداه عدد من المؤرخين الإيرانيين تجاه الإسلام ، حيث لم يهاجم بشكل مباشر ، بل تلميحاً ، فقد بات الفتح الإسلامي لإيران عادة موضع تفجع ، وكثيراً مااتهم العرب بأنهم ضربوا الحضارة الرائعة لفترة الساسانيين ، أو جرى تمجيد الماضي الزرادشتي أيضا بصورة غير مختلفة ، وفي العادة لم توجه الهجمات إلى أصل الدين ، بل وجهت إلى رجال الدين المسلمين ، الذين كثيراً مايصورون بأكثر الصور سلبية ، وهكذا كتب ابراهيم تيموري مشيراً إلى رجال الدين بالجهلة المتعصبين ، وقال : لقد عارضت هذه الجماعة كل جديد ، وعدوا كل المكتشفات الأوروبية ضارة بايران ، ولمصالحهم الخاصة أبقوا شعب إيران غارقاً في الجهل والخرافات (٤) ، وتعاطف التيموري ، وهو الشديد النقد لناصر الدين شاه ، مع ذلك مع جهوده ـ ناصر الدين شاه ـ لإضعاف سلطة رجال الدين «الملات» ونفوذهم وتولاه الأسى لإخفاقه في الوصول إلى هذه الغاية .

ومضى أحمد كسروي ، وهو مفكر مثير ، مع أنه مشوش وغير منظم ، إلى أبعد بكثير من هذه الغاية في هجومه على الدين ، حتى إنه قد بدأ يشكك في بعض أسس الإسلام ، وكسب بذلك كراهية المتعصبين الدينيين الذين تمكنوا من اغتياله .

ويفترض عادة أن القومية الإيرانية المعاصرة هي من أصل غربي ، ويمكن أن يكون هناك قليل من الشك في أن المؤثرات الغربية كانت فعالة في صياغة نمط القومية الموجودة في إيران اليوم ، ولكنه يكون من السذاجة أن يغلق المرء عينيه عن جذورها الأصلية ، والإحساس بالمواطنة والفخر بماضي إيران ، والأمل في مستقبلها ، ومحبة اللغة الفارسية ، وإدراك أنهم شعب مستقل عن العرب والترك ، والاقتناع بالتفوق الحضاري فهذه هي المشاعر التي تقدمت ميلاد قومية أوروبية ، وقد عمل استيراد الأخيرة إلى إيران فقط على دعم المواقف وتقوية أنماط الفكر التي شكلت من قبل جزءاً من الثقافة الإيرانية لعدة قرون ، وجعلت قراءة هردر أو فخت ـ اللذان عرفا أفكار بسمارك أوغاريبا لدي ـ المفكر الإيراني لايجد صعوبة في توفيق أفكاره مع تراثه ، وحتى الضلال والإنحراف القومي مثل محاولة

تنقية اللغة الفارسية من الكلمات العربية المستعارة بات من الممكن أن يسوغ ، وقد سوغ بالاستشهاد باسم الفردوسي وليس بأي أوروبي آخر[٥] .

وأدى مزج العثرات المحلية والأجنبية للقومية إلى إيجاد فيروس ذا عدوى استثنائية لم يفلت منها كلية أي إيراني معاصر .

واقترب كسروي من أن يكون قوميا متطرفاً ، ومضى بعيدا إلى حد محاولة إيجاد الفارسي النقي ، وحقق فقط نمطاً مصطنعا ، وبالأحرى ، غير سار ، ومع أن عبد الله رازي ، وهو مؤلف التاريخ العام الشهير لإيرانِ ، كان معتدلاً ، فقد ادعى أن القومية الإيرانية عامل دائم فعال في تاريخ إيران[٦] وكان معيار تيموري في حكمه على شخصياته التاريخية البارزة وطنياً متزمتاً ، وهكذا نال الخصي المتوحش آغا محمد خالد قاجار الثناء لتوحيده إيران واستعادته لقوتها ، ووحشيته في كرمان وتفليس ، والجروح العميقة التي أوقعها بشعبه ، غفرت له وعفي عنها ، ومضى فريدون آداميات حتى إلى أبعد من ذلك في ترجمته لميرزا تقي خان الأمير الكبير ، موجداً اسطورة ترضي الرغبات القومية في بطل أكثر حداثة من أنوشروان أو شاه عباس ، وبسبب قوة شخصيته والخوف منه ، أعلن ميرزا تقي خان رجلاً عظيماً ، في حين ان صداقته للروس تم التغاضي عنها وتجاوزها بهدوء[٧] .

ويمكن أن يرى المثل الجيد على القومية المتطرفة في السيرة التي كتبها نور الله لارودي لنادر شاه البدوي قاطع الطريق ، الذي حرر بلاده من الهيمنة الأفغانية ، وارتقى بها إلى القوة ، ثم انتقل إلى تدميرها باستنزافها في سلسلة من الحروب التي لاطائل منها ، والكتاب عديم القيمة العلمية ، ولكن وجهة نظره القومية العنيفة أكسبته إعجاب كثير من المفكرين الإيرانيين[٨] ، فقد خرج نادر من بين صحائفه بطلاً عظيماً يجب أن تفخر به أيران ، لقد استثيرت العواطف ، ولوح بالأعلام ، ولمعت السيوف ، وسارت القوات ، وقال : «إن مشيئة الله والبطولة الموروثة أثارت نادر ليطهر الأرض المقدسة من الوجود المدنّس للأفغان البرابرة ، واستطرد يقول : الايرانيون لاينسون أننا أبناء الجنود الذين بإطاعتهم لأوامر ملك الملوك ، وبقيادة قادة مثل كسرى قد زرعوا رايات النصر على أبواب أثينا عاصمة اليونان ، إننا أبناء الجنود الذين صرعوا الملوك والأباطرة ومرغوهم في التراب تحت أقدام ملكهم ، ملك الملوك»[٩]

ويجب أن يذكر على الفور أن مثل هذا الغلو والتطرف القومي ، لم يكن سمة عامة للكتابة التاريخية الإيرانية المعاصرة ، إنه ، بالأحرى ، يمثل التطرف الذي وصل إليه بعض المؤرخين ، مع التشجيع الرسمي ، وفي ظل الزخم الفكري والعاطفي التي بدت في حينه ، انتصارات القومية الألمانية والإيطالية ، وكان معظم الإيرانيين ريفيين إلى حد بعيد جداً ، بعيدي الادراك ومتزمتين جداً حتى يتبنوا مثل هذه النغمة ، ويجب أيضا أن يضاف : لم يضمر أي مؤرخ إيراني جاد أبداً أفكاراً عرقية كالتي غالباً ماصاحبت القومية الأوروبية ، وربما يأمل المرء في أن تكون التقاليد الحضارية الإيرانية أكثر شمولاً وسخاء من أن تسمح للعرقية بأن تجد مكاناً لها حيثما ينطق بالفارسية .

وفي حين توافقت القومية الأوروبية بسهولة مع الثقافة الايرانية ، كانت الديمقراطية غريبة تماماً عنها ، وقد اهتم قلة من المؤرخين الايرانيين بالديمقراطية ، وهذا ربما يعود الى طبيعة تدريباتهم ، لكون التاريخ عملية غوص في الماضي ، وليس محاولة لإمعان النظر في المستقبل ، وكانت الفترة الوحيدة في تاريخ إيران الطويل ، عندما أصبحت الديمقراطية ، أو على الأقل بعض العادات والأعراف المرتبطة بالسيادة الشعبية قضية سياسية حية في عصر الحركة الدستورية التي بدأت في ١٩٠٦ ، وقد امتزج الصراع ضد القاجار الذين كانوا مدعومين بقوة من قبل روسيا القيصرية ، والهياج ، والتغيرات الهامة في نظام الحكومة ، والأمل في مستقبل أكثر سطوعاً ، والإحساس بالقدر الذي تغلب على الأمة عندما أصبحت إتفاقية ١٩٠٧ علنية ، وخلع محمد علي شاه ، والتدخل الروسي الوحشي في الشمال ، امتزج كله ليضفي على العقد الذي تقدم الحرب العالمية الأولى أهمية استثنائية للمؤرخ ، وفي الحقيقة كانت قد ظهرت من قبل أعمال كبيرة عديدة تغطي الثورة [١٠]

وكسروي وهو نفسه مشارك بها أوقف عليها قطعة كبيرة من كتاباته كانت هي الأفضل لديه [١١] ، وكتب مهدي مالكزاده تاريخاً في سبعة مجلدات عن الثورة الإيرانية والدستورية ، وهو جهد قيم ومعقول بشكل جدير بالملاحظة ، وموثق بشكل جيد وغير عادي [١٢] ، ومع ذلك لم يكن كسروي كثير الاهتمام بالديمقراطية بقدر ماكان مهتما باستقلال إيران ، وبالنسبة له كانت الثورة مسوغة بهدفها ، وهو

تحرير ايران وجعلها قوية مزدهرة مرة أخرى ، وظهرت الحقوق الفردية والبرلمانات ، وحتى الصحافة الحرة الأقل تلميحا لتلتمس فقط كوسائل للقومية ، وأبدى مالكزاده اهتماماً أكبر نسبياً بالممارسات الديمقراطية وبالاعراف ، وعلى أي حال ، من الواضح تماماً أن زخم الأفكار الديمقراطية على المؤرخين الإيرانيين كان أقل بالمقارنة من زخم القومية .

ولم تكن الماركسية ـ التي بدأت مؤخراً فقط تثير اهتمام مفكرين ايرانيين معينين ـ قد انعكست في أي تواريخ معروفة لديّ .

وربما كان التأكيد على المصالح الاقتصادية الروسية والبريطانية في ايران في «تاريخ تيموري» حول الامتيازات في إيران ، يمكن أن يعزى إلى التأثير الماركسي ، ولكن على المرء إذن أن يقر بأنه لم يمكن عميقاً ولا واضحاً ، ويحتمل أن غياب التواريخ الماركسية الصريحة يعود أكثر إلى الظروف السياسية في البلاد ، أكثر منه إلى أي شيء آخر .

ويمكن تعقب النفوذ الغربي ليس فقط في عالم الأفكار التي يفسر بها المؤرخون الإيرانيون الماضي ، بل أيضا في اختيارهم للموضوعات التي يجب تحريها ، والقليل ، إن وجد ، استمر في التأريخ لأعمال الملوك حوليا ، ونظر أغلبهم إلى مشهد اوسع ، وقد بذل كسروي ومالكزاده وآخرون ، ممن تعاملوا مع تاريخ الثورة على الأقل ، بعض المحاولات للتغلغل تحت سطح الأحداث ، واكتشاف الأسباب الخفية ، وتحرى بعضهم التاريخ العسكري ، في حين قام آخرون بأبحاث في التاريخ المحلي ، وقد حظي التاريخ الدبلوماسي بنصيبه من الإهتمام ، وكتب محمود محمود تاريخا تذكارياً للعلاقات الدبلوماسية الأنكلو ـ ايرانية في القرن التاسع عشر[١٤] . والتقنيات الحديثة في البحث التاريخي والكتابة هي بضاعة أخرى مستوردة من الغرب ، ومع أن بعض المؤرخين الإيرانيين على مايبدو لم يقتنعوا بعد بالرغبة الملحة في توثيق رواياتهم ، فإن كثيراً منهم قد بدؤوا بتبني أدوات الثقافة الغربية ، وقد زودت أعمال بيرنيا ، وتيموري ، ومحمود وآخرين بحواش دقيقة ، وزودت بمعلومات عن المصادر والمراجع ، وباعتراف بالمصادر ، ومضى كل من تيموري ومحمود بعيداً جداً في تحريهم للمصداقيه الى حد نسخ صور فوتوغرافية لعدد كبير من الوثائق على صفحات كتبهم ، ولامفر من أن يؤدي

كل هذا إلى دقة أكبر ، وثقة يعول عليها ، وقد يوجد في النهاية احتراماً صحياً للحقائق ، وهنا يكون التأثير الغربي إيجابياً تماماً .

ويتردد المرء في لوم الغرب على التردي الواضح الذي ألم بالأسلوب الفارسي ، فربما كانت المدارس لاتعلم الكلاسيكيات كما كانت تفعل منذ مائة سنة خلت ، أو ربما كان للرطانة الغامضة لعلماء الاجتماع الغربيين الحديثين ، علاقة بذلك ، ولكن مامن واحد من الكتب التي ذكرت في هذه المقالة ، يمكن أن يقارن في صنعته الأدبية بكتاب «ناسخ التواريخ» لأنه قديم ، ومتحيز وغير دقيق ، وليس علمياً ، كل ذلك على الرغم من صقله ولمعانه ، والنثر المعاصر رتيب وغير أنيق ، وهو أحيانا من مخلفات ترجمات من الدرجة الثانية عن لغات أجنبية ، ربما وجد بعضها فعلاً .

هوامش البحث :

١ - حسين برينيا «ماضي ايران» - طبعة ثانية (طهران ١٣١٧)١/٥ ص٦٢
٢ - المرجع نفسه ص٢٤ - ٢٥
٣ - المرجع نفسه ص١٥٣
٤ - إبراهيم تيموري - بدايات عصر الامتيازات في إيران طهران ١٣٣٢ ص٢٢ .
٥ - من المشكوك فيه أن يكون رضا شاه أو أي من مستشاريه قد سمعوا مطلقاً عن أشياء مثل العصبة القومية الألمانية وتأييدها لأمنة اللغة الألمانية في وقت مبكر يعود إلى ١٨٩٨ .
٦ - عبد الله الرازي همداني «تاريخ ايران» (اقبال ١٣١٧ طهران)
٧ - فريدون آداميات «أمير إيراني كبير وأوراق في تاريخ ايران وسياستها» (طهران)
٨ - نور الله لارودي «حياة نادر شاه» (طهران ١٣٨٩) وقد أطري من قبل كتاب مثل ياسمي ونفيسي وشفق .
٩ - لارودي - المرجع نفسه .
١٠ - كتب كتاب إ . غ . براون بتعاطف كبير مع إيران إلى حد يمكن للإنسان أن يضعه بين المؤرخين الايرانيين للثورة .
١١ - أحمد خسروي «تاريخ مشروطية إيران» ط . ثانية (طهران ١٣٣٣) .
١٢ - مهدي مالكزاده «تاريخ انقلاب ومشروطية ايران» (طهران بلا تاريخ) ص٧ .
١٣ - انظر الحاشية ٤ .
١٤ - محمود محمود «تاريخ العلاقات السياسية الإيرانية في القرن التاسع عشر ميلادي» (طهران من ١٣٢٨ ومابعد) ١٠ .

٣٧ ـ تطور الكتابات التاريخية العربية حسبما انعكست على معالجة موضوع الصراع بين علي ومعاوية

نبيه أمين فارس
أستاذ التاريخ العربي في الجامعة الأمريكية في بيروت

مابرح الصراع المفجع بين علي ومعاوية يهيج عقول المسلمين من العلماء وغير العلماء على السواء ، وقد تركز الانتباه في القسم الأعظم على حادثة التحكيم الأكثر إثارة للجدل ، والأكثر تشويشا في الواقع ، فقد شطر ماحدث الجماعة الى الأبد إلى الزمرتين الرئيستين للإسلام : السنة والشيعة ، وكذلك قسم المؤرخين العرب ، ولحسن الحظ أو لسوئه لم يصلنا سجل واضح يقيني للموقف الأموي ، فقد عكس المؤرخون الرئيسون القدامى ميولاً شيعية بدرجات مختلفة ، فالدينوري كان (ت ٢٨٢ / ٩٨٥) فارسي الفكر ، وكان اليعقوبي (ت ٢٨٤/٨٩٧) شيعياً بشكل علني ، وكان الطبري (ت ٣١٠/٩٢٣) أكثر اعتدالاً . وكان المسعودي (ت ٣٤٥/٩٥٦) ، ربما بسبب صلاته المعتزلية ،غير متحرر من التحيز ضد الشيعة .

وقد ازدهر هؤلاء الكتاب جميعاً خلال فترة أوج العباسيين ، ومن الواضح أنه ماكان بامكانهم مطلقاً الوقوف بشكل معلن إلى جانب الأمويين ، وفي الوقت نفسه سنبرهن أنه كان من المربك بالقدر نفسه الدفاع عن ادعاءات العلويين ، وكان لابد من إيجاد كبش فداء دون أن يطعن ، مع ذلك ، في شرعية الخلافة الأموية ، حيث أن التشكيك في موقف الأمويين سيؤدي بالتأكيد الى التشكيك في موقف البعاسيين أيضا ، وبناء عليه فمن الأفضل قبول شرعية وضع كل من علي ومعاوية ، وإلقاء اللوم في كل المأساة على مكر عمرو بن العاص ودهائه ، واتهام

معاوية فقط بتغيير الخلافة من دولة دينية إلى دولة مدنية ، بالضبط كما فعل صموئيل في حال شاؤول [1] ، والتبسيط الزائد في هذا المثال واضح .

وتظهر دراسة هذه المصادر [2] الاتفاق على سبب الصراع : إنه امتناع معاوية عن بيعة علي الخليفة الجديد ، الذي اتهمه معاوية بتشجيع الثوار على قتل عثمان ، وإيواء القتلة بعد القيام بفعلتهم الدموية ، وإصرار علي على انتزاع ولاء معاوية بحد السيف ، وتتفق أيضاً على أنه عندما تحول مد المعركة في النهاية ضد الشاميين ، تم إنقاذ الوضع لصالح معاوية باقتراح عمرو رفع نسخ من القرآن على أسنة الرماح والدعوة لتحكيم كلام الله ، ويجب أن لايؤخذ رفع القرآن بالضرورة حرفيا ، ولكن ، ربما ، مجازاً ، ليعني الدعوة إلى التحكيم باللجوء إلى كلام الله . ولم تكن النقطة التي قدر لها أن تكون موضوعاً للتحكيم حول أي من الرجلين يجب أن يكون الخليفة بحق ، بل بالأحرى : ماذا كان قرار القرآن فيما يتعلق بتسليم قتلة عثمان ، ومع ذلك واضح أن جميع المصادر دفنت هذه النقطة بالغة الأهمية بين قدر كبير من الكلمات ، ثم تابعت لتذكر أن أبا موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص قد سميا حكمين مع تخويل باختيار الخليفة التالي ، كيف حدث هذا التحول المفاجىء هذا مايصعب تحديده ، وتصديقه أكثر صعوبة ، ومن المحتمل جداً ألا يكون شيء من ذلك قد حدث مطلقاً ، ومايحتمل أن يكون قد حدث ، هو أن الهدنة التي تم التوصل إليها للتحكيم حول السبب الرئيس للخلاف ، أعني اعتقال قتلة عثمان وتسليمهم مزقت صفوف أتباع علي ، وكانت النتيجة أنه لم يعد قادراً مطلقاً على استئناف القتال ضد معاوية ، وكل الروايات التالية حول الحادثة ليست سوى محاولة لتبرئة علي وتفسير اخفاقه غير المتوقع ، والذي كان موضع أسف شديد لديهم .

وتروي المصادر أن عمرو بن العاص كان مدركا تماما للفخ الذي نصبه لعلي باقتراح أن النزاع يجب أن يسوى بالتحكيم استناداً للقرآن ، ويروي أنه قال : إذا قبل علي بالتحكيم فإن أتباعه سيتشتتون ، وإذا رفضه فإنهم سيتهمونه بعدم الإيمان . وفي كلتا الحالتين كان واثقا من أنه سيخسر ، وكان الخطأ الثاني الذي وقع فيه علي ، والذي كان الأكثر إضراراً بقضيته ، إخفاقه في الإصرار على التمسك بلقبه الحق في وثيقة التحكيم ، والسماح بإسقاطه ، على الرغم من

التحذيرات الواضحة من مستشاريه ، كوسيلة لإنقاذ ماء الوجه ، والتي ثبت أنها كانت عديمة النفع ـ ضرب المثل بما فعله النبي (ﷺ) في ميثاق الحديبية ـ وهذا إن لم يكن قد ذكر من قبل علي ، فإنه ذكر من قبل أنصاره فيما بعد ، ومن قبل المدافعين عن قضيته ، وبذلك أنزل موقفه من خليفة منتخب بشكل صحيح إلى مجرد طرف في الادعاء ، وهنا يكمن السر في التحول المفاجىء من التحكيم فيما يتعلق باعتقال قتلة عثمان وتسليمهم إلى تحكيم يهدف بشكل ضمني إلى تحديد من من المتخاصمين يجب أن يكون خليفة[٣]

وأعطى جميع المؤرخين العرب التالين ، بصورة أو بأخرى ، ماسجله المؤرخون المتقدمون عليهم ، مع أسف الجماعة السنية على الحيلة المزعومة لعمرو ابن العاص ، ولكنها لم تلق بأي ظل من الشك على شرعية خلافة معاوية ، في حين اتبعت المجموعة الشيعية بشكل رئيس مدرستين فكريتين : مدرسة معتدلة تمثل كتلة الشيعة ، ومدرسة متطرفة تمثل الغلاة أو الرافضة ، وجهت المدرسة الأولى اللوم إلى عمرو بن العاص على الخديعة عند التحكيم ، ولكنها قبلت بشرعية خلافة معاوية الذي يفترض أن الحسن قد تنازل له عن الخلافة[٤] ولم تكتف المدرسة الثانية برفض شرعية خلافة معاوية بل رفضت أيضا شرعية خلافة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان .

وقد استمرت الكتابات التاريخية العربية تردد صدى هذه المواقف حتى أيامنا ، وفي الوقت نفسه تابع الانشقاق السني ـ الشيعي تجزئة الجماعة المسلمة ، ومنذ القرن العاشر للميلاد حتى منتصف العشرين ، أسهمت العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية في توسيع الصدع المذهبي والعاطفي الذي يفصل بين المجموعتين ، وساعدت على بقاء الجدال ، ففي عام ١٩٥٧ فقد محمد الخالصي ، وهو زعيم ديني شيعي واسع الشهرة في بغداد ، القسم الأعظم من أتباعه ونفوذه ببساطة ، لأنه أيد عودة الشيعة في أذانهم للصلاة إلى ماكان يمارسه النبي (ﷺ) ، وأن يحذف ، بناء عليه ، من الأذان كلمات «وأن علياً ولي الله» .

ومع أن مناقشة هذه العوامل على أي حال خارج مجال هذه المقالة ، مع ذلك تبقى هذه العوامل هامة في تحديد موقف المؤرخين العرب الحديثين وطريقة فهمهم لهذه القضية المحيرة الطويلة بين علي ومعاوية ، وقد وجد كاتب سني حكيم

كان يقيم وقت الكتابة في بغداد ، أن الأنسب هو إغفال جميع هذه الأحداث البغيضة ، مع بضع فقرات سريعة ، لضمان بيع الكتاب في العراق ، وتفادي الأسهام في أي شيء يمكن أن يضعف تماسك الأمة(٥)

ومع ذلك لايزال المؤرخون القياديون العرب الحديثون الذين يكتبون بالعربية ، يتبعون آثار الطبري والمؤرخين القدامى الآخرين ، ويظهر تفحص كتاب الخضري «محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية»(٦) ابتعاداً صغيراً عن المؤرخين العرب القدامى ، وقبل الخضري رواية المسعودي التي تقول ، إن أبا موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص قد اتفقا على خلع كل من علي ومعاوية ، وأنهما قد جسدا قرارهما في وثيقة موقعة ، ولكنه رفض الخديعة المزعومة من قبل عمرو ، على أساس أن موضوع التحكيم . اشترط أن تكون الأمة ملتزمة فقط بالقرار الذي يتفق عليه كلا الحكمين ، لأن عودة عمرو عن الاتفاق وتأييد معاوية كان لابد أنه سيشجب ، لأنه خديعة ولم يكن ليلزم المؤمنين بأي حال ، وفي الوقت نفسه كان يمكن أن يجعلنا نقبل قولاً يفترض فيه أن علياً ذكر فيه أن الحكمين اختلفا وأخفقا في الوصول إلى اتفاق(٧) ومثله مثل المؤرخين العرب القدامى ، جسد الصراع بين علي ومعاوية وشرحه جميعه على أساس الكراهية الشخصية والطموح لدى كل من المتنازعين الرئيسين(٨)

وتمسك مؤرخ بارز آخر هو حسن ابراهيم حسن(٩) إلى ابعد الحدود بالرواية التقليدية للمؤرخين القدامى دون محاولة لتفسير بعض الصعوبات الواضحة ، ودافع مع ذلك عن أبي موسى ضد المنتقصين من قدره من القدامى والمحدثين الذين وجهوا له تهمة السذاجة وقصر النظر ، واعتقدوا أن أبا موسى تصرف بإيمان طيب وبشكل متعمد عندما وافق على قرار غير محاب لعلي والهاشميين(١٠) ولعله لن يكون خطأ كبيراً مع ذلك القول أن هذا الاستعداد من جانب المؤرخين العرب لتبرئة أبي موسى ، يقوم على ميل أكبر مشترك عملياً بين كل المؤرخين العرب المتأخرين ، لتمجيد السلف الصالح وتبجيلهم بشكل عام والصحابة بشكل خاص ، ببساطة فقط لأنهم كانوا صحابة ، وخلافاً لحواريي يسوع ، فإن صحابة النبي ، اذا كان لنا أن نصدق المؤرخين العرب ، لم يخرجوا أي اسخاريوطي .

وعلى مدى السنوات المائة والستين الماضية أحس المشرق العربي بالتغريب يقتحم كل مسالك الحياة لديه تقريبا ، والكتاب المحدثون مغرمون بالوقوف على النواحي المادية لهذا التقحم ، وكثيراً مايغفلون النواحي الفكرية الأكثر عمقاً وأهمية للمشكلات ، وهذا من بعض الجوانب نتيجة لعاملين على الأقل : ففي المقام الأول من الأسهل أن نلاحظ وأن نعدد التقحمات المادية والطبيعية ، وأن نقوم آثارها البعيدة على القيم العربية والسلوك ، وفي المقام الثاني كثيراً ماقاوم العرب أنفسهم ، وحاولوا رفض المبادىء الفكرية التي تكمن عند قاعدة المادة .

ومازال الكثيرون يعتقدون أن العرب يمكن أن يقبلوا نتائج العلم دون أن يقبلوا بالضرورة مضامينه الفكرية ، ومع ذلك تمكنت المبادىء الغربية ، وطرائق النقد التاريخي من شق طريقها إلى كتابات بعض المؤرخين العرب والدارسين ، ويبذل هؤلاء العلماء العرب المحدثون انتباهاً إضافيا أكثر فأكثر إلى العوامل الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تحيط بالمجتمع المسلم القديم ، والتي كانت مهملة حتى الآن ، ويمكن كشف اتجاهين رئيسين على الأقل : الأول ، أكد أن الأسرة الأموية هي نموذج أصلي كدولة قومية عربية ، وكان هذا شائعاً بشكل خاص في الثلاثينات من هذا القرن ، ومثل الجهد الواعي للمفكرين العرب لإرساء الأسس الفكرية للقومية العربية [١١] وحاول الثاني ، وهو أكثر حداثة ، تمجيد القادة المسلمين الأوائل ، وبشكل خاص ، عمر ، وعلي ، والصحابة الآخرين المعروفين بورعهم ، وأن يروا في حياتهم البواعث الرئيسة وإجمالي المثل التحررية الحديثة للعدالة الاجتماعية والديمقراطية [١٢]

وكان بين أفضل الممثلين لهذه الحركة التحررية الحديثة العالم المصري الشهير والأديب ، طه حسين ، وعالم اجتماع عراقي شيعي اسمه علي الوردي ، وتقدم محاولة معالجتهما وفهمهما للصراع بين علي ومعاوية مثلاً جيداً على تطور التأريخ العربي خلال العقود القليلة الماضية .

وطه حسين رجل يصعب جداً تقويمه ، ففي بعض النواحي بولغ في تقديره ، وفي نواح أخرى لم يعترف بإسهامه بما فيه الكفاية بعد ، وعلى مدى العقود الثلاثة الأخيرة ، شعر بتأثيره في كل أنحاء الوطن العربي ، لقد كان رائداً في حقل النقد التاريخي ، ومطوراً للدراسات التقليدية والأوروبية ، وبطلاً للتعليم

الإلزامي ، ومدافعاً متحمساً عن الحرية الأكاديمية ، ومازالت سيرة علي الوردي غير منشورة ، ولكن ، على الرغم من كونه ممن يمكن أن يدعى مبتدئا ، سلف له أن كون لنفسه سمعة معادٍ للدين وأثار عداوة القراء المحافظين من الشيعة والسنة على السواء ، فقد انتزع كل واحد من كتبه الخمسة [١٣] من منتقصيه متوسط ثلاثة أضعافه من النقد ، ولسوء الحظ ، إن ملاحظاته الدقيقة وتبصره قد شوهت باستخدامه غير المتوقع للسخرية وبافتقاره إلى الدقة في تنظيم مادته ، ومع ذلك فإن أعماله تمنح قراءة مفيدة ومسلية .

وتمت مناقشة الصراع بين علي ومعاوية من قبل طه حسين في المجلدين الأولين من كتابه «الفتنة الكبرى» [١٤] وخاصة في الثاني ، ولكن المادة المقدمة في الأول فقيرة لاتكفي من أجل الفهم الشامل للبحث ، ويتعامل الوردي مع الصراع أولاً في كتابه «وعاظ السلاطين» [١٥] ثم في كتابه «مهزلة العقل البشري» [١٦] .

وبين الرجلين يجب أن يكون طه حسين السلف ، ولكن أسلوبه العلمي المنمق يقود أحيانا إلى إخفاء أطروحته ، ولعل هذا لم يكن غير مقصود تماما ، والوردي ، من جانب آخر ، أكثر مباشرة ، ولكونه اختصاصياً اجتماعيا مدربا ، طرح للمناقشة بعض الاعتبارات القيمة .

قد رأى كلاهما أن الصراع بين علي ومعاوية ، لا يمكن أن يفهم بالشكل الصحيح دون العودة إلى الأسباب الأكثر عمقاً للصراع ، ومقتل عثمان في حد ذاته تفسير غير كاف ، لأنه هو نفسه يحتاج إلى تفسير ، ويجب أن يعود المرء إلى أيام الجاهلية ، وإلى الدور الذي شغله الأمويون في المجتمع المكي ، فلقد تمتعت قريش بهيمنة تجارية على القبائل ، ولكن الأمويين كانوا متفوقين بين قريش ، ولقد سارت تعاليم الأسلام بشكل مضاد لمصالحهم الاقتصادية ، وهددت مستقبلهم بكارثة ، وكان طبيعياً ، فقط بالنسبة لهم ، أن يكونوا أول من يحارب محمداً ، وآخر من يقبل به ، على الرغم من القرابة الوثيقة التي كانت تربطهم به ، ومن جانب آخر بدا أنه لا فرصة لدى الإسلام ليبقى دون حمل قريش على قبوله بطريقة أو بأخرى ، وكان لا بد أن يتم كسبها في النظام الجديد سواء كأتباع أو كشركاء ، وقد حل النبي ﷺ المشكلة باستمالة قلوب بعض أكثر أعداء الأسلام عناداً [١٧] .

وكان ابرزهم أبو سفيان سيد بني أمية ، وبأن أدخل في الإسلام كل الأعراف والعادات الأكثر تقديراً لدى السادة المكيين بعدما أضفي عليها أهمية إسلامية(*) ، وقد أفاد الخليفتان الأولان من العبقرية الأموية في الأدارة والقيادة العسكرية ، حيث إنهم كانوا المكيين الوحيدين الذين لديهم مثل هذه الخبرة ، وطالما أن أبابكر وعمر كانا على قيد الحياة ، لم يكن الأمويون ، على أي حال ، قادرين على استعادة مكانتهم السالفة ، ولم يكن قد أعاقهم الخليفتان الأولان فحسب ، بل الأرستقراطية الأسلامية الجديدة أيضاً ، وكان شرفها يرتكز على كفاءتها وورعها وخدماتها المخلصة للعقيدة الجديدة ، ومعرفتها الشخصية بالنبي ﷺ ومعاملته ، وكان الداخلون في الإسلام عامة ، ومن مختلف القبائل العربية بشكل خاص ، مترددين في الإعتراف بأية شرف سوى شرف الإسلام ، والمسلمون العرب كانوا أيضاً واعين لدورهم الضروري في الفتوحات ، وحسبما روي عن عمر : لقد كانوا الدعامة الرئيسة للإسلام ولكن مع موت عمر ، وانتخاب عثمان أصبح الطريق مفتوحاً، لإحياء الارستقراطية الوثنية القديمة ، وبعث معاييرها . وكانت خلافة عثمان مشغولة بشكل رئيسي بصراع هذه الأرستقراطيات القديمة لمكة الوثنية والأرستقراطية الجديدة للإسلام ، ولقد كانت الأرستقراطية القديمة ضارية ورأت في الدولة الجديدة والأراضي المفتوحة بقرة حلوباً لها ، ونظرت الأرستقراطية الجديدة إلى الدولة على أنها دولة الجماعة ، كل عضو منها كان مخولاً بالحصول من مواردها على ما يكفي لتغطية احتياجاته ، لقد كانت الأرستقراطية القديمة مصممة على إحياء النظام القديم ، وكانت الأرستقراطية الجديدة مستميتة لتحقيق اخوة الإسلام ، والمساواة بين جميع المسلمين ، والتمييز الوحيد هو في التقوى ، وفي الحقيقة لقد كان الصراع بين الأصولية وبين ردة حقيقية ، وكانت يد عمر القوية قادرة على كبح الأرستقراطية القديمة ، وإبقاء معظم زعامة قريش في الحقيقة تحت الإقامة الجبرية في المدينة لإحباط كل إساءة محتملة تستعملها لصالح سلطتها

★ـ ليت الكاتب بيّن لنا الأعراف والعادات التي أضفى عليها النبي ﷺ صبغة إسلامية حتى لا نتهمه بالدس .

الاقتصادية على الأراضي المفتوحة ، وحول عثمان «الهيكل إلى مكان لصرافي المال»(*) ولو اقتصر الإسلام على مكة والمدينة ، فإن الأرستقراطية الأموية ، في كل الاحتمالات ، كانت ستسود ، ولكن مع اعتناق حشود العامة للعقيدة الجديدة ، وتوقعها نيل حقوق متساوية ضمن الشريعة ، لم يترك لعثمان ومجموعته الأموية أية فرصة ، وكي تكون الأمور أصعب آلت قيادة الأرستقراطية الجديدة إلى علي وآخرين مثل أبي ذر النصير الواضح للمساواة الاقتصادية ، وعمار بن ياسر المؤيد المتشدد للمساواة ضمن العقيدة ، مع التفضيل بالتقوى ، ويجب أن نوضح أيضاً أن الزعامة في العراق ، كانت في القسم الأكبر منها مستمدة من بين صفوف الفئات الدينية «قراء القرآن» في حين كان قد مضى على ولاية معاوية في بلاد الشام وحكمه للبلاد عشرون عاماً ، بنى خلالها شبكة متينة من الأتباع الذين قبلوا الهيمنة الأموية ، وكان انتصار علي وأنصاره المتدينين قد يعني عودة الحكم الصارم القاسي لعمر .

وكان عثمان يتقدم في السن ، وكان علي خليفته الأكثر احتمالاً ، وكان على الأمويين أن يبتكروا طريقة لإحباط هذا الحدث المروع بأي ثمن ، لماذا لايغتال عثمان ، وتنسب الجريمة إلى الشخص الذي يمكن أن يكون أكثر الناس استفادة من موته ، أعني علياً ؟ . وطبقاً للوردي ، لقد كان الأمويون ، هم الذين خططوا لمقتل عثمان ، ومعاوية هو المحرض على القتل ، في حين يتولى مروان إخراج التفاصيل (١٨) وكحافظ لخاتم الخلافة فإنه لا يمكن لأي واحد آخر أن يكتب تلك الرسالة التي أمرت حاكم مصر بالإيعاز بقتل قادة الثورة ، وهم القادة أنفسهم الذين كان الخليفة قد وعدهم من قبل بالإنصاف والعفو .

وأستؤنف الصراع بين الإرستقراطية القديمة والجديدة بعد وفاة عثمان ، وفي حين كانت الأصولية مشغولة بالجدل حول النقاط الدينية ، كان الأمويون يستميلون القلوب لقضيتهم ، بما في ذلك قلب ابن علي نفسه ، وحتى ذلك الوقت كان علي قادراً على استدراجهم للمعركة وهزيمتهم تقريباً ، ومرة أخرى كانت الأرستقراطية القديمة قادرة على انقاذ جلدها بإعطاء الأصوليين أيضاً قضية أخرى

★ ـ هنا استعادة من قصة موقف السيد المسيح من اليهود الذين كانوا قد حولوا الهيكل إلى مكان لصرافي المال والمرابين ، وهي والحق يقال لا تنطبق مطلقاً على الخليفة عثمان ، وتدعو للاثارة .

لمناقشتها ، جد إخر يختلفون فيه ، وكان هذا هو الدعوة للتحكيم ، وقد نجحت خدعتهم .

ومع انقسام أتباعه حول الأمور الدينية والقانونية الدقيقة ، لم يعد علي قادراً أبداً مرة أخرى على استئناف قتاله ضد الأمويين ، وقد جعل اغتياله نصرهم العسكري والسياسي تاماً ، ولكسب النصر المذهبي أيضاً تابعوا عملية تشويه سمعة علي وذكره ، وتأكيد الفروق المزعومة بينه وبين عمر ، ولأجل تشويه سمعته أكثر جعلوا من الحركة الشيعية مؤامرة ضد الإسلام ، صممها اليهودي الداخل في الإسلام عبد الله بن سبأ ، الذي رغم أنه تابع متحمس لعلي ، وكان كل من طه حسين والوردي قد حشد قدراً كبيراً من البينات التاريخة المؤثرة لإنكار وجود ابن سبأ ، وجعلوه من إبداع الدعاية الأموية ، ولقد امتطت الأرستقراطية القديمة الصهوة ثانية ، وجاء نصرهم بمثابة الهزيمة النهائية للأرسقراطية الجديدة للإسلام .

وهذا فوق كل شيء ما تعنيه التهمة المكررة كثيراً للمطرودين بأن الأمويين قد غيروا خلافة النبوة إلى دولة مدنية ، وهذا ما يجب أن تعنيه ، وقد قال إرنولد تويني : إن الإسلام قد أنتهى مع الهجرة ، وربما يكون أدق منه قول الوردي : إن الإسلام قد انتهى مع عثمان ، وقد حاول علي استعادته ، ولكنه أخفق ، وقد بنى معاوية دولته العربية على أطلال الإسلام وجماجم أرستقراطيته الجديدة(*) .

★ ـ لم ينته الإسلام مطلقاً ، بل حدثت بعض الانتكاسات السياسية ، ولكن هذا لم يؤثر مطلقاً على بنية العقيدة مع نص القرآن الكريم والسنة ، ثم إن الدولة الأموية ، وأن كانت عربية الحكام ، فهي اسلامية من جميع الجوانب ، والعرب كانوا حملة الإسلام يعملون في سبيل نشره ، وهم الذين أوصلوه في العصر الأموي الى أطراف الصين في آسية ومصب السنغال في أفريقيا وقلب الجنوب الفرنسي ، والحديث عن الخلافات السياسية بين الصحابة لا يجوز مطلقاً أن يقود إلي التشكيك بعقيدة وأخلاص أي منهم .

هوامش البحث

١ ـ صمويل ١٢/١٢/١

٢ ـ الدنيوري ـ الأخبار الطوال تحقيق ف . غوير غاس (ليدن ١٨٨٨) ص ١٤٩ ـ ٢٣٢ :

اليعقوبي «تاريخ» تحقيق م . ت . هوتسما (ليدن ١٨٨٥) ٢١٨/٢ الطبري «تاريخ الرسل والملوك» تحقيق م . ح . ده غويه (ليدن ١٨٩٨) ٣١٣٨/٦ - ٣١٧٦ المسعودي «مروج الذهب» تحقيق س . بربيردي مينارد وبافت دي كورتيل (باريس ١٩١٤) ٣٠٤/٤ - ٣٤١ .

٣ - الطبري : ٣٣٢٩/٦ - ٣٣٣٥

٤ - ابن الطقطقى «الفخري في الآداب السلطانية (القاهرة ١٣٣٩) ص ٧٣ .

٥ - درويش المقدادي - تاريخ الأمة العربية (بغداد ١٩٣١) ص ٢٥٧ - ٢٦٠ .

٦ - القاهرة ١٣٥٤- ٧٩٦٦/٣ .

٧ - المصدر نفسه ص ٧٤ .

٨ - المصدر نفسه ص ٨٢ .

٩ - تاريخ الإسلام السياسي ، طبعة ثانية . (القاهرة ١٩٤٨) ٢٨٦/١ - ٢٨٩ .

١٠ - المصدر نفسه ص ٢٨٩ .

١١ - انظر عبد العزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام بغداد ١٩٤٩ . درويش المقدادي - المرجع نفسه .

١٢ - انظر عباس محمود العقاد - عبقرية الصديق (القاهرة ١٩٤٣) عبقرية عمر (القاهرة ١٩٤٢) ، عبقرية الإمام علي (القاهرة ١٩٤٣) مصطفى صادق الرافعي وحي القلم (القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٤١) سيد قطب - «العدالة الاجتماعية في الإسلام» (القاهرة بلا تاريخ) . جورج جرداق «الإمام علي صوت العدالة الاجتماعية» (بيروت ١٩٥٦) .

١٣ - شخصيات الفرد العراقي (بغداد ١٩٥١) «خوارق اللاشعور (بغداد ١٩٥٢) «وعاظ السلاطين» (بغداد ١٩٥٤) - «مهزلة العقل البشري» (بغداد ١٩٥٥) ، « أسطورة الأدب الرفيع» (بغداد ١٩٥٧) .

١٤ - ا - عثمان (القاهرة ١٩٤٧) - ٢ - علي (القاهرة ١٩٥٣) .

١٥ - المرجع نفسه ص ٥١ - ٥٣ ، ١١٢ - ٢٤١ .

١٦ - المرجع نفسه ص ٣٦٨ ، ٤٣٢ .

١٧ - سورة ٦٠/٩ .

١٨ - وعاظ السلاطين ص ٢١٧ .

٣٨ ـ ردود الفعل على المؤثرات السياسية الغربية في دراما علي أحمد باكثير

امبرتوريزيتانو
أستاذ اللغة العربية والأدب في جامعة بالرمو

إن قصدي من تقديم هذه المقالة عن ردود الفعل تجاه المؤثرات السياسية الغربية في دراما علي أحمد باكثير ، هو تزويد مؤرخي الشرق الأدنى والأوسط بتوثيق يحتمل أنهم لا يعرفونه ، لكون هذه البيانات مضافة على المنشورات السياسية والتاريخية التي يشيرون إليها بشكل عام ، وكل هذه في الواقع لم تسمح لأحد أبداً باختراق روح شعب ، لسبر ما في القاع من حركة من أجل الاستقلال أوسخط وطني ، أو حتى التنبؤ بردود فعل الجماهير تجاه السياسة الغربية فيما يتعلق بواحد أو آخر من بلدان الشرق الأدنى ، مع أن هذا بالغ الأهمية للسياسيين الغربيين .

ولا يمكن لأي بحث في التاريخ القديم والحديث للشعوب العربية ، ولا لأي دراسة حول السياسة الغربية في الشرق الأدنى أن تدعي أنها كاملة وشاملة ، إذا أهمل مؤلفها معرفة نفسية تلك الشعوب ، وحدود ونواحي ما يعرف «بوعي الجماهير» . والذي يحاول الكتاب أن يقدموه لنا من خلال رواياتهم ، وأشعارهم ، وأدبهم المسرحي «الدرامي» ، وهذا الإنتاج الأدبي هو المساعد الحقيقي والثمين للتاريخ ، وإذا كان عاجزاً عن تفسير كل شيء واظهاره ، فإنه ، مع ذلك ، ينير في كثير من الحالات الحقائق التي بدونها تبدو غامضة ، وهو أحياناً يكشف لنا ردات الفعل النفسية التي تغفلها التواريخ تماماً . كم مرة يغير المحاضر ، وبلا شك ، بعض المستمعين أيضاً رأياً حول مسائل السياسة العربية

والدولية بعد أن يحضر عرضاً مسرحياً من مثل «كفاح الشعب» أو «البيرق النبوي» أو كوميديا باكثير المسلية «مسمار جحا»[1] .

والحقل المختار من قبل الكتاب العرب في مصر ، في الماضي القريب كما في الأزمنة الحديثة ، لتطور أفكارهم عن المطالب الوطنية ، هو القصة والمسرحية والدراما ، ويعود تاريخ مولد الدراما العربية إلى النصف الثاني من القرن الماضي ، وفي الحقبة نفسها بدأ الممثلون العرب من لبنان يتقدمهم منذ ١٨٤٧ مارون النقاش بتعريف الجمهور اللبناني بهذا النمط من العروض ، وقد تشجعوا على الحضور إلى القاهرة ، وفي البداية كان عليهم بالضرورة أن يقصروا نشاطهم على تقليد الإنتاج الفرنسي ، ولكن ما أن أدرك الكتاب العرب أهمية المسرح حتى مالوا نحو الأحداث التاريخية والسياسية مثل الحروب الصليبية ، وحملة بونابرت ، وثورة عرابي في مصر ، وما إلى ذلك ، ومنذ ذلك الحين بدأ المسرح يشكل حلقة أكثر قابلية للتكيف بين الجماهير وماضيها وحاضرها ، واليوم يستمر أفضل كتاب المسرح المصريين في هذا الخط ، وإذا كان محمود تيمور وعزيز أباظة قد أوقفا نفسيهما على إعادة بناء الماضي وتنظيمه : الأول من خلال الدراما الواقعية ، والثاني من خلال المأساة في الشعر ، فإن توفيق الحكيم فكر في الميل إلى المشاهد المسرحية المسلية ، لمراحل معينة من الحياة المصرية والسياسية المعاصرة ، وما يزال بعضهم مثل باكثير يحاول ترجمة ردود فعل الشعب العربي تجاه النفوذ الأجنبي في الشرق الأدنى . إن تحليل بعض مسرحيات هؤلاء المؤلفين الشبان هو هدفنا هنا ، ولكن لكون هدفي محدوداً بالمحتويات التاريخية للمسرحية وبالهدف التعليمي للمؤلف ، سأتجنب إعطاء رأيي الشخصي من وجهة نظرتقنية وأخلاقية ، لأن هذا لن يكون في صالح المؤلف .

ففي تلك السنوات القليلة الماضية ، كانت جهود أكثر الكتاب العرب حساسية في مصر قد تركزت حول المشكلة الفلسطينية ، التي كان يمكن أن تحل في ضوء التوثيق المعنوي والأخلاقي الأكثر وفرة ، لو أن ممثلي السياسة الدولية أمكنهم أن يروا مسرحيات مثل «العائدون من فلسطين» أو «الصهيوني» أو «الفلوجة» المركز الشهير للمقاومة العربية غير المجدية ، والتي بصرف النظر عن قيمتها الهامة ، هي مصادر التوثيق المحفوظ ، لسوء الحظ ، لنخبة المستعربين

والذي ، على العكس ، يجب أن يشكل دائماً جزءاً من التقارير التي تصل إلى مختلف وزارات الخارجية .

وفي مصر الحديثة كان المؤلف الذي استطاع من خلال الدراما أن يعبر ، كما أتصور ، عن أفكاره وأفكار رفاقه من المواطنين فيما يتعلق بالسياسة الغربية ، أو هل يجب أن أقول ، السياسة البريطانية نحو الشرق الأدنى بشكل عام ، هو باكثير ، وهو مسلم (حضرموتي الأب ، وأندنوسي الأم) هاجر أولاً إلى أندنوسيا ثم إلى الحجاز ، وأخيراً إلى مصر ، حيث هو الآن موظف حكومي .

إنه الدرامي الذي جاء إلى حقل الدراما ، والذي يمكن تصنيفه كباعث للذكريات ، ومجادل جاء بعدما أمضى فترة تدريس في أقسام مسرحية أخرى كملقن في «شهرزاد» ، ومصير الناس في «الملك أوديب» وإعادة البناء والتنظيم في «أخناتون ونفرتيتي» وهزلية الأخلاق وهلم جراً ، فقد تأثر فوق كل شيء بجو السخط الذي أوجده النفوذ الغربي في الشرق الأدنى والأوسط ، فهو الذي حرك قلمه وزاد من خصوبته ، مُظهراً مشاعره التي تصدر عن عروبته البارزة بشكل جيد ، والحارة والمكثفة نوعاً ما .

ومع ذلك ، وقبل تولي تحليل الأعمال الدرامية الثلاثة موضوع البحث ، ومن أجل توضيح موقفي تجاهها ، عليَّ أن أؤكد على حقيقة أني سأحدد جميع إشاراتي إلى الأعمال الدرامية لباكثير بالتمسك بدقة بوصفه للأحداث السياسية وللسياسيين دون أن أنحرف مطلقاً عن القول اللاتيني المشهور : «الالتزام أفضل» .

إن نتاج باكثير كبير جداً في حقل المسرحيات التي سلفت الإشارة إليها ، ولكن الكمية لا تتساوى دائماً مع النوعية ، وهذا هو السبب في أني سأختار ثلاثة أعمال فقط من إنتاجه ، وقد أعطي شرف الأسبقية «لمسمار جحا» وهو شخصية استقرت في المركز من المزاج الشرقي الضاحك ، وقد ترك له باكثير في ترتيب المشاهد حصافته المشهورة المميزة ، وأعطاه مزية إضافية هي تنظيم ثورة سوف تصل الأوج في إجلاء الجيوش الأجنبية عن العراق ، وخلف العراق تختبىء دون تنكر كثير «مصر» ، وخلف القوات الأجنبية ، الجنود البريطانيون الذين احتلوا

القناة منذ ١٨٨٢ ، ولكن من أجل فهم إشارته إلى «المسمار» لا مفر من قول شيء .

وقدم جحا الذي كان في المقام الأول إماماً لجامع في الكوفة ، ثم أصبح فيما بعد كبير القضاة في بغداد ، قدم إلينا وهو يخفي في دخيلة نفسه الرغبة في أن يكون نافعاً لبلده ولرفاقه المواطنين الذين تحملوا لسنوات المعاناة التي سببها الاحتلال البريطاني ، وليس له بالطبع أن يتولى قيادة شعب ، بل عليه بالأحرى ، أن يفكر في طريقة لطيفة تشرف سمعته ، ولا شيء أسهل لشخصية تقدم في إطار التقاليد الشرقية كرمز للخداع والمكر من أن تجد طريقاً لإثارة الناس ، أو بالأحرى أن تريهم بلا تمويه الفواجع التي ترجع إلى الإحتلال الأجنبي ، ولكون جحا كان عاجزاً نظراً لمنصبه الرسمي عن العمل بطريقة مباشرة ، جعل من ابن أخيه حماد مخلب القط ، وحماد هذا نفسه ، بعد استقالة جحا من الإمامة ، أشار عليه بالتفرغ للزراعة بشراء قطعة أرض بحصيلة بيعه لبيته ، وقد وافق فوراً ، ولكن كان على جحا أولاً أن يعطي البيت لحماد لجعله ، بدلاً من القاضي ، مسؤولاً عن الفخ الذي يختفي وراء هذا البيع ، وكان من المفروض بيع ذلك البيت إلى شخص اسمه غانم ، شريطة أن يدق مسمار في الجدار ، معطياً لصاحب المسمار الحق في الدخول في أي وقت ، ولم يبد أن لهذا أهمية كبيرة للشاري الذي لم يفكر لدقيقة واحدة أن مثل هذا المسمار الصغير يمكن أن يضع بيته الذي اشتراه مؤخراً تحت التصرف الكلي لحماد ، وقد أصبح الأخير زائراً شديد الانتظام ، مما أزعج الشاري كثيراً ، وسرعان ما لجأ للقضاء ، حيث اضطروا للإذعان لحكمة جحا قاضي قضاة بغداد ، وقد ترأس المحاكمة الحاكم العسكري الأجنبي الذي قال : إن المخطىء هو جحا لأنه سمح لقضيته بأن تتسكع في كسل سبعين يوماً ، وبذلك سمح لمثل هذا الأمر التافه أن يتطور إلى مثل هذا الحجم الكبير ، مقسماً البلاد إلى قسمين ، وجاءت اللحظة المناسبة لهجوم جحا الأول ، فصرخ في وجه الحاكم بأن مثل هذه القضايا ترقد في كسل دون حل منذ سبعين عاماً ، وصرخ في وجه الجمهور الذي كان يصر على أن حماداً يجب أن يقتلع المسمار ، وعبر القاضي عن الدهشة وخيبة الأمل حين رأى رفاقه المواطنين يصرون على أمر تافه مثل هذا المسمار الصغير ، ويغفلون تماماً عن المسمار الكبير الذي بقي لسنوات كثيرة جداً ملتصقاً ببلادهم ،

ثم يصيح فيهم ، مروا هذا السيد الأجنبي أن ينتزع هذا المسمار فوراً ، أو عجلوا باقتلاعه بأنفسكم ، وهنا يدرك الحاكم أنه وسط ثورة أثارها جحا فأمر بإلقاء القبض عليه ، وغادر جحا المحكمة وهو يردد :

يا صاحب المسمار ، انزع هذا المسمار
من بيت الشعب الحر . . . .
لأنه ليس بيتك

وبعد بضعة أيام زاره الحاكم في السجن ، وكان بحاجة إلى هيبة جحا وسمعته لقمع الثورة ، وإلا سيفقد وظيفته ، وينتهز جحا هذه الفرصة ، ليملي شروطه التي طالبت إجمالاً بالجلاء الفوري للقوات الأجنبية عن البلاد ، ولا بد أن رضا باكثير كان مزدوجاً ، لأنه أعطانا مسرحية ناجحة من وجهة نظر المسرح والأبطال (عرضت عدة مرات على المسرح في مصر واختيرت لعمل سينمائي موائم) وتنبأ في الوقت نفسه بوضع سياسي قبل أن يتحقق ببعض الوقت ، وكخبير بمسرحيات شكسبير (ترجم روميو وجوليت إلى العربية) استلهم باكثير مسرحيته الثانية من «تاجر البندقية» ، وكانت الشروط المفروضة من قبل شيلوك اليهودي على أنطونيو التاجر ، ضامن القرض بالفائدة ، هي التي أعطت بشكل رئيس لكاتب الدراما الفكرة لعنوان مسرحيته الجديد «شيلوك الجديد» ومحتواها ، ولنتذكر هذه الشروط :

وفي لعبة مرحة
إذا لم تفني في مثل هذا اليوم
ومثل هذا المكان ، مثل هذا المبلغ أو
المبالغ التي صرح بها في الشروط
لتكن الغرامة مساة برطل مساو
من لحمك الحي ، يقتطع ويؤخذ ، من
أي جزء يعجبني من جسمك . . .(*)

★ - لم تتوفر لي نسخة من هذه المسرحية حتى أنقل كلمات باكثير حرفياً .

ويمثل جسد أنطونيو في ترتيب باكثير الفني ، «الدول العربية» جميعاً ، ورطل اللحم هذا فلسطين ، والاتفاق بين كلتا الشخصيتين هو إعلان وعد بلفور في عام ١٩١٧ ، الذي على أساسه قامت فكرة منح وطن لليهود ، ووقعت حوادث مسرحية المؤلف العربي في فلسطين ، وهي مثل مسرحية شكسبير مقسمة إلى جزأين ، في الأول المعنون «المشكلة» كان شيلوك على قمة الفعاليات الصهيونية الفلسطينية ، التي تجمع حولها عدد من الشخصيات مثل ، راشيل المخادعة ، وكوقيت ، عشيقة عبد الله الفياض (ابن أخ لكاظم بك ، وهو قومي عربي متحمس) وكوهين وكان واحداً من أشهر المحامين في زمانه ، وجاك رئيس لجنة الشراء المسؤول عن شراء الأراضي العربية ، وبنيامين ، وكان على رأس الدعاية الصهيونية ، وفي الجانب العربي لدينا ممثلون عن أكثر أعداء الصهيونية واليهود من العرب الأشد حماساً ، وتقع حوادث العمل في جزئه الأول بين الأنشطة الصهيونية المسعورة التي كانت ترمي إلى مصادرة الأراضي العربية ، وقد ساعدتهم في صفقاتهم راشيل جاسوستهم التي تستخدم صفقاتها لتجعل عبد الله يبيع أراضيه الواسعة ، وعلينا في هذه المرحلة أن نذكر أن عبد الله قد خطب للزواج ناديا ، التي كانت تعيش في القاهرة حيث كانت تدرس ، والتي سوف نلتقي بها مرة أخرى في الفصل النهائي كمحامية عن القضية العربية ، وليس هناك شيء جدير بالاهتمام لإضافته إلى هذه المشاهد الأولى ، التي تتميز بالفعاليات المختلفة لكلا الطرفين الذين يعدان العدة للقاء ، أو بالأحرى ، للصدام في الجزء الثاني من المسرحية ، الذي عنون بطريقة شديدة التفاؤل «الحل» .

ويأخذنا باكثير الآن إلى فلسطين ، وفي محكمة فلسطينية (لاحظ أن المؤلف لا يثبت عصر القضية ، وقد ربط نفسه بالمستقبل) حيث الأعضاء الاثنا عشر للجنة الدولية للتحكيم مجتمعون ، وقد دعتهم سلطة الانتداب لإيجاد حل للمشكلة الفلسطينية ، والشخصيات الأخرى هي تلك التي ذكرتها من قبل ، إننا نراقب الآن أحد الفصول الأخيرة في المحكمة ، في جو شكسبيري كامل ، وفي الحقيقة ، ركز ممثل سلطة الانتداب جداله على واحدة من عبارات شيلوك الجديد : «أنتم أيها الإنكليز وعدتمونا برطل من اللحم البشري ، أعطونا إياه» ، ويمكن للمرء أن يتصور بسهولة ردود فعل المندوبين العرب وهجومهم الغاضب من

ممثلي البعثة الدولية ، التي وجهت بوحشية من قبل ميخائيل الجد الذي أعطى في خطاب طويل ـ أطول من اللازم في رأيي في عرض مسرحي ـ تاريخاً لميلاد مسألة الوطن اليهودي وتطوره مؤكداً على الأسباب السياسية والعسكرية ، التي وجدت في أساس السلوك الغريب لسلطة الانتداب نحو العرب .

لقد وصلنا الآن إلى الفصل الأخير من القسم الثاني من المسرحية الذي يظهر اشتراك عرابي باشا في لجنة التحكيم المجتمعة هذه المرة بدعوة يائسة من الإسرائيليين الذين وصلوا إلى نهاية مقاومتهم الاقتصادية ، وفي الواقع ، إن المقاطعة القاسية للشعوب العربية الموحدة اضطرتهم ، طبقاً لخطة المؤلف للإصلاح ، إلى التماس مساعدة القوى الأجنبية ، التي أخذت تناقش فكرة تصفية إسرائيل ، وفيما يتعلق بعقاب المذنب تعود المحكمة مرة أخرى إلى شكسبير وإلى العقوبات التي أوقعها على بطله شيلوك ، وعرابي باشا فوق كل شيء هو الذي دعا إلى عقد هذا النظام التناظري ، ولم يقيد باكثير نفسه بهذه التفاصيل في محاكاة دراما شكسبير ، ولكنه دفع بالتماثل بين مسرحيته والمسرحية الإنكليزية حتى الفصل الأخير ، حيث أدخل ناديا ، تماماً مثل بورتيا شكسبير في «تاجر البندقية» ، وقررت المحكمة إنزال العقوبات ضد الصهيونية ، ولكن شيلوك الذي يتابع مختلف الاقتراحات العربية لا يمكنه النجاة ، ويقوم بالانتحار ، والمناقشات في المحكمة مملة إلى حد ما ، ولكن المرء مع ذلك يهتم بمختلف الاقتراحات التي عبرت عنها مختلف العناصر في المجتمع العربي اليوم ، كما قدمها باكثير ، ورمت مسرحيته في الحقيقة إلى جعلنا نفهم أن الحل للمشكلات الخطيرة للشرق الأدنى والأوسط يتطلب الاستماع إلى كثير من الأصوات : صوت الطبقات العربية القيادية القديمة «عرابي باشا» وللجيل الجديد «ناديا عبد الله ، وفيصل» وللسخط الوطني ، وأخيراً للأقليات المسيحية واليهودية التي تعيش في الشرق الأدنى ، وكل هؤلاء يجب أن لا ينسوا من قبل الغرب إذا كانوا يرغبون في التعاون مع الشرق العربي ، هكذا كانت رغبات باكثير ، التي عبر عنها بكل عروبته المتحمسة ، التي تسمح له هذه المرة كما في «مسمار جحا» بالتنبؤ بالحالة الفلسطينية التي مرت بتطور مخالف لتوقعاته ، والرموز ليست محكمة الإغلاق إلى حد بعيد في مسرحيات باكثير ، وهذا هو السبب في أن عناوين مسرحيته ، تدل بشكل عام على القصة ، ولكون هذه

بالضبط هي الحالة مع «امبراطوية في المزاد» التي استلهمها من قبل مؤتمر دلهي في ١٩٤٨ ، عرض المشهد الأول الصراع الذي يحدث في إنكلترا بين حزبي العمال والمحافظين ، وشخصيات المسرحية ، منطقياً ، هم السياسيون من الإنكليز المعاصرين ، وهم مموهون بالتحريف الخفيف لأسمائهم الحقيقية ، وأخذنا المشهد الثاني إلى زعيم من المحافظين ، حيث يتم إعلان انتصار الحزب في الانتخابات . وكان المستر سيركل (تشرشل) الضيف الأكثر تميزاً هو الشخصية التي ركز باكثير عليها انتباهه ، ولم يضع فرصة لوصف رجل الدولة بلمسات واقعية ، وهكذا كشف لنا عن سخطه على السياسة البريطانية للشرق الأدنى ، وفي لحظة يقطع البهجة الوحشية والفاسقة للضيوف اقتحام الدار من قبل القائد الأعلى للجيش البريطاني في الشرق الأدنى ، الذي كان يصحبه وزير الدفاع الوطني : إن الحالة في مصر منذرة بالخطر : الفدائيون المصريون يهاجمون القوات البريطانية في منطقة قناة السويس ، دون إعطائهم فرصة للراحة ، والأمم الأفرو- آسيوية مجتمعة في دلهي ، وباختصار ، إن الجو الذي أوجده باكثير هو سقوط الامبراطورية البريطانية ، والمستر سيركل ، وقد احمر وجهه من الغضب ، يستجيب على الفور ، ويأمرهم بإرسال الأسطول ، والقوات الجوية لتدمير المدن والقرى المصرية ، ليمحو مصر من على سطح الأرض ، وهكذا يعطي إسرائيل وجوداً هادئاً ، وبهذه الطريقة أرضى رغبات برنارد باروخ ، وضمن في هذا الوقت نفسه المساعدة الأمريكية للمملكة المتحدة ، وبعد مجهوده العظيم ، ينهار وهو يصيح : باروخ ، باروخ ، باروخ .

ويقع المشهد الثالث في الدار نفسها ، ولكن في جو مختلف ، يتابع المحتلون بقلق متشنج الأخبار التي يعطيها الراديو ، لمعرفة تطورات الثورة التي تفجرت في لندن ، الثوار يلاحقون جميع ممثلي الحزب ، ويظهر المستر سيركل في الدار متنكراً في زي امرأة ويختبىء في السقيفة ، ولكن الثوار يدخلون الدار ويلقى القبض على الجميع ، ويرمى بهم في السجن .

إن السخرية يمكن إدراكها بسهولة في مشاهد باكثير ، والمرء قد يفقد الصبر لمعرفة المصير الذي يحتفظ به المؤلف للامبراطورية ، لقد عرضها في المزاد العلني ، والمشترين الأوفر حظاً هما : الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا ، ولكن قوة

ثالثة ، لحسن الحظ ، تولد في دلهي ، وهي القوة الأفرو ـ آسيوية ، التي رمت إلى تفادي المزاد ، لأن هذه القوة أخذت تقاتل من أجل حرية جميع الشعوب التي تشكل جزءاً من الامبراطورية البريطانية ، وبالنسبة للإنكليز أنفسهم ، فإنهم أيضاً سيكونون أحراراً ، ولكنهم سيتراجعون إلى داخل حدود جزيرتهم ، والمشكلة الآن هي مشكلة تدمير حرية سيركل ، ومنعه من الفعالية ، واقترح أحدهم بيعه في البورصة لأنه قد أصبح قطعة أثرية ، ولكن في النهاية اتفق الجميع على إحالته إلى محكمة نورمبرغ .

مسرحيات باكثير هي اتهام موجه للأجيال المقبلة ، اتهام للسياسة الغربية بشكل عام ، والسياسة البريطانية بشكل خاص ، في الشرق الأدنى والأوسط ، ولكن كاتب الدراما ، مع أنه كان أحياناً يثور بسبب حماسه للعروبة ، عرف دائماً كيف يميز بين الشعوب أو جماهير الناس ، وبين الرجال الذين على رأسها ، فالعيب موجود دوماً في القمة ، ويجعلنا المؤلف نفهم أن السخط لدى الشعوب العربية تجاه الغرب لم يكن أبداً مرده إلى صراع ذي طبيعة عرقية أو دينية ، بل إنه كان دائماً نتيجة لسياسة لم تأخذ مطلقاً في اعتبارها وجهة النظر العربية .

ولكن هل هناك وجهة نظر عربية واحدة يمكن رؤيتها ، تعبر اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً عن العروبة التي قيل عنها الكثير في السنوات القليلة الماضية ، والتي أثارها عدد كبير جداً من الكتاب العرب ؟

هوامش البحث

١ ـ لقد تم التعبير عن الرأي نفسه فيما مضى من قبل زملاء مثل برنارد لويس «الاستشراق والتاريخ» تحقيق سنور (كمبردج ١٩٥٤) ص ٣٠ ـ ٣١.كاهن في كتابه «تاريخ اقتصادي واجتماعي للمشرق الإسلامي في العصور الوسطى» . دراسات إسلامية (١٩٥٥) ٩٣/٣ ـ ١١٥ . و ف . غابريلي «تاريخ الشعب العربي الحديث» في مقالات المؤتمر العالمي العاشر للعلوم (روما ٤ ـ ١١ جلسات ١٩٥٥ فلورنسا ١٩٥٥) ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧

القسم الرابع

موضوعات عامة

٣٩ـ ملاحظات تمهيدية
البرت حوراني
محاضر في التاريخ الحديث للشرق الأدنى في جامعة اكسفورد

هاتان المقالتان متشابهتان في أنهما تتعاملان مع أفكار عامة جداً حول كيف ينبغي أن يكتب التاريخ ، وبشكل خاص التاريخ الإسلامي ، وهما أيضاً تعبير عن فكر غني ومركب لا يعطي أسراره ، إن فعل إلا بعد عدد من القراءات الدقيقة ، والمعارك الضارية ، وهما على أي حال مختلفان جداً في الموضوع والمعالجة ، وقد يبدو من الأفضل التعامل معهما منفصلتين بدلاً من التعامل معهما مجتمعتين ، ولكن من الممكن رؤية مقالة الأستاذ كانتويل سميث من بعض الجوانب مطعمة ببعض أفكار الأستاذ فون غرونوباوم . وسأبدأ ، بناء عليه ، بمقالة فون غرونوباوم وسأتعامل معها بشيء من الطول أكثر من الأخرى .

بالنسبة للأستاذ فون غرونوباوم تبدأ كتابة التاريخ بصورة معينة في فكر المؤرخ ، وهي صورة لنفسه وللعالم ، وربما تكون انعكاساً لما هو عليه ، أو لما يكون عالمه عليه ، أو ربما تكون انعكاساً لما يرغب أن يكون هو والعالم عليه ، لأن صورة الذات هذه ، وهذه التطلعات هي التي تدير عينيه إلى الماضي ، حيث يمكن أن يقرأ تسويغاً للحاضر أو المستقبل .

والصورة هي القوة الحافزة التي تدفعه إلى إعادة خلق ما هو ميت ، بل إنها تساعد أيضاً على تقرير ما الذي سيجده عندما ينظر إلى الماضي ، وهي تحدد خياره من الظلال التي سيستدعيها من الماضي ، والضوء الذي سيراه فيه ، ولكن

الاختيار هو في بعض المقاييس تشويه ، إن آجلاً أو عاجلاً ستفرض كل أشباح الماضي ، تلك التي رفضها ، نفسها على اهتمامه ، وتجبره على تغيير صورته إلا إذا كان يريد لها أن تصبح مبتذلة وعقيمة ، وبعض الصور ، على أي حال ، تشوه الماضي أقل من غيرها ، ويتمسك الأستاذ فوق غرونوباوم بأن صورة الذات لدى الرجل الغربي الحديث تمكن ، أكثر من سواها ، الماضي من كشف ذاته بواقعية أكثر مما يفعل غيره ، فلقد كان البحث الغربي للأجيال الأخيرة سعيد الحظ لتصادف حوافزه الدافعة . . . **مع مطالب الواقعية نفسها .**

ما الذي يعنيه فون غرونوباوم بصورة الذات لدى المؤرخ الغربي الحديث ؟ إنها كما يؤكد صورة الإنسان ووعيه ، وهو واقف في مركز عالمه الخاص ، الإنسان المحدد بتعابير العقل المستقل المطيع لمداركه ، فهذا فقط يسمح للرجل الغربي بأن يعيش في توافق وفي سلام مع نفسه ، ولا يهدف بهذا «العقل السليم» إلى التحكم في العالم الداخلي والخارجي فحسب بل يهدف أيضاً إلى الفهم العام له ، ولفكرة فلسفة المعرفة الشاملة فيما يتعلق بشمولية الوجود كمعيار لهذا الفهم ، والشرط الضروري لهذا الفهم العام ، وبناء عليه لمعرفة الرجل الغربي لنفسه ، هو **التبصر التاريخي ، والقدرة على رؤية نفسه في العملية التاريخية ، ومعرفة أن بصيرته شرطية مؤقتة ، وأن يرى أيضاً أن كامل مدنيته مؤقت ، وأن ينظر إليها في مواجهة إجمالي المنجزات الثقافية للجنس البشري .**

فالمدنية الغربية الحديثة هي الوحيدة التي أدركت تمام الإدراك وجود الثقافات الجماعية لبني البشر ، ووجود عدد من الحضارات اليائسة .

ويقابل الأستاذ فون غرونوباوم خصب هذه الصورة كباعث على الدراسات التاريخية بالعقم النسبي لصورة الذات ، لدى بعض المؤرخين المسلمين الحديثين الذين لم يتأثروا بعد ـ كما يؤكد ـ «بالإنسانية الجديدة للغرب» ، ويعطي أربعة أو خمسة أمثلة لصورة الذات لدى المؤرخين المسلمين ، وهنا يقوم شكي الأول : لماذا اختار هذه الأمثلة دون غيرها ؟ وبعضها يبدو كحالات متطرفة ، وليست كلها تستحق كثيراً من التحليل ، ولا تشمل جميع المواقف الرئيسة الشائعة بين المؤرخين المسلمين اليوم ، وإذا كان له أن يثبت فكرته ، فإن ما هو مطلوب هو دراسة

للرموز والنماذج الشخصية ، مع بحث منظم لجميع أنماط المواقف الإسلامية نحو الماضي في اليوم الحاضر .

إن دراسة الرموز والنماذج الشخصية ، ونقد مختلف المواقف الغربية مطلوب أيضاً ، وأشك فيما إذا كانت صورة الذات لدى الإنسانيين الجدد ، كما يحددها الأستاذ فون غرونوباوم ، هي في الحقيقة القوة الباعثة الوحيدة أو الرئيسة للدراسة الغربية التاريخية اليوم ، ففكرة الثقافة الجماعية على سبيل المثال تبدو لي فكرة جديدة نسبياً ، وهي فكرة لم تستوعب بعد تماماً في الوعي التاريخي للغرب .

وربما في ألمانيا فقط جرى استيعابها في وقت أبكر ، ولكن في العالم الناطق بالإنكليزية لم تدرس فلسفة هيغل للتاريخ بعد بتوسع أبداً ، ونادراً ما تم الإحساس بتأثير ديلثي Dilthey ، وأفكار ماكس ويبر Max Weber لم يتم هضمها تماماً بعد ، وفكرة الثقافة الجماعية ، كما هي موجودة حتى الآن بين المؤرخين الناطقين بالإنكليزية ، مستمدة بقدر كبير من المجلدات الأولى من كتاب توينبي ، وفي حين كان لتوينبي تأثير عميق على الوعي التاريخي للرجل المتعلم العادي ، فإن زخمه المؤثر على المؤرخين العاملين محدود ، بيد أنه ليس محدوداً جداً كما يحلو لبعضهم أن يعتقد ، وبشكل عام ، يبدو لي أن الكتابة التاريخية الغربية «أكثر غرابية» في تمركزها مما يوحي به الأستاذ فون غرونوباوم ، وكما يقر هو نفسه ، لقد كان لديه وما يزال إلى حد ما فكرة اليونان القديم كمعيار للمجتمع البشري و «المدينة الفاضلة» جنباً إلى جنب مع التأريخية الجماعية ، ومما يتحدث عنه ، هناك صور ذاتية أخرى ، وأفكار معيارية قيد العمل بين المؤرخين الغربيين ، ويجب أن نأخذ الماركسية بالحسبان ، فلها أثر عميق على كتابتنا للتاريخ على هذا الجانب من الستار الحديدي ، إلى جانب مالها من أثر على الجانب الآخر ، وبالطبع يجب أن نأخذ في الحسبان المسيحية أيضاً ، لأن الصورة المسيحية تشمل صورة الإنسانيين التي يتكلهم عنها الأستاذ فون غرونوباوم ، ولكنها تضمها في كل أكثر تعقيداً .

وترى أطروحة الأستاذ فون غرونوباوم ، أن «كل صورة ذات» تختلف بطريقة ما ، مع كامل الحقيقة التاريخية ، وليس هناك واحدة منها تمكننا من الإمساك بكامل الماضي ككل ، فإذا كان الأمر كذلك فإن هناك مجالاً للنقد ، الذي آمل أن يعطينا إياه الأستاذ فون غرونوباوم ، وهذا النقد سيحدد الحدود التي تمكننا

صورة خاصة أو طريقة لفهم التاريخ ، من فهم مدنية خاصة ، أو مرحلة من التاريخ ، أو التاريخ ككل ، وبكلمات أخرى سيحدد شروط الموضوعية للمؤرخين من كل نمط ، لأن هناك بعض الإحساس الصالح ، الذي به يمكننا القول : إن فلاناً أو فلاناً مؤرخ ماركسي جيد أو مؤرخ مسيحي جيد ، في حين أن شخصاً ما آخر مؤرخ سيء ، وهذا لا يعني ببساطة ، أن المؤرخ الجيد قد توقف عن أن يكون ماركسياً أو مسيحياً وأصبح شيئاً آخر ، إنه يعني ، بالأحرى ، أنه كان قادراً على أن يجد في كونه ماركسياً أو مسيحياً شيئاً ذا قيمة إيجابية لفهمه للتاريخ ، والمؤرخ الماركسي الجيد هو ذلك الذي عرف كيف يستخدم المفاهيم الماركسية ، مثل تلك التي في الحرب الطبقية، كي يغير، لا أن يشوه تاريخ المدنيات الأخرى عدا مدنيتنا، والمؤرخ المسيحي الجيد هو ذلك الذي تجعله عقيدته وإيمانه يتمكن من أن يتبين الديانات الأخرى والحضارات التي استمدت منها ، وليس هذا ببساطة رفضاً للحقيقة ، ولكنه تماسك داخلي ، وقيم خاصة بها .

وهناك مخاطر وقيود موروثة في كل طريقة للمعالجة التاريخية ، ومثل هذا النقد قد يجعلنا عارفين بها ، ويساعدنا على تفاديها ، وحتى التاريخية الإنسانية التي هي بالنسبة للأستاذ فون غرونوباوم ، نموذجية للإنسان الغربي الحديث ، لها مخاطرها ، إنه هو نفسه يلمح إليها عندما يقول ، إن عالم الإنسان الغربي الحديث «هو العالم الذي تأخذ فيه الحقيقة النفسية الجاهزة للعمل محل الحقيقة المطلقة» . إن هناك مشكلات ضمنية صعبة كثيرة في مثل هذا القول ، وبالمثل ، في مناقشتنا للمؤرخين الروس الحديثين ، أخبرنا بأنهم يستعملون لغة خاصة ، يجب أن تترجم بدقة ، إذا كان لنا أن نفهم ماذا يحاولون قوله حقاً ، وباختراع هذه اللغة ، فإنهم لا يراوغون ببساطة الرقابة أو الشرطة فقط ، بل يتعاملون مع هذه المشكلة التالية : كيف يكونون موضوعيين ؟ كيف يكون للمرء وجهة نظر محدودة ، أو نظام من المعتقدات ، ويبقى صادقاً مع الحقيقة ، ويحترم المعطيات كما تكشف عن نفسها ؟ ومرة أخرى لقد كان لدينا مقالة ومناقشة هامة حول لامنس اليسوعي ، وقد خرجت من هذه المقالة بشكوك معينة حول ما إذا كان لنا أي حق لنفعل ما فعلناه جميعاً ، أي أن نتهم لامنس بأنه كان متحاملاً ، وأنا لست متأكداً من أن

قولنا هذا مسوغ ، لأنه كان يحكم مسبقاً على الأمور ، ويصل إلى الاستنتاجات قبل أن يدرس المادة حقاً ، وربما كانت صراحته في تبيان وجهات نظره الخاصة ورفضه لوجهات نظر الآخرين ، هي الصفة التي تملكت من لامنس ، وأثارت هذا الاتهام ، ومرد هذه الصراحة إلى مشكلة المؤرخ ، كيف يمكن أن يكون مخلصاً في وقت واحد للقناعات الخاصة أو لصورة الذات ، وللمعطيات في إجمالها .

وتقوم هذه المشكلة نفسها «كيف ينبغي للباحث المسيحي أن يتفهم الإسلام» في أساس أعمال لويس ماسينيون ، فربما لسنا جميعاً على استعداد لتقبل فكرته بمجملها عن العلاقة بين المسيحية والإسلام ، ولكننا شعرنا جميعاً عندما قرأنا ماكتبه بالتأثير المزعج لرجل ذي عبقرية ، فقد أعطى عمله وعمل علماء كاثوليك فرنسيين آخرين منبهاً جديداً لفكرتنا عن الموقف العقلي لمسيحي غربي تجاه مدنيات غير مدنيته ، وفي زماننا لقد رأينا في الحقيقة تطوراً جديداً في عقيدة الكنيسة ومكانها في العالم ، والمنزلة الروحية للذين ليسوا مسيحيين ، وفكرة «تعميد الرغبة» أو التركيب الداخلي ، وقيم المدنيات غير المسيحية ، مع السؤال الأخير ، وهو : لماذا ما برحت هذه المدنيات قائمة ؟ ويرتبط بهذا السؤال الأخير سؤال آخر أثارته الأستاذة لامبتون فيما يتعلق بالمذهب الشيعي ، ولكنه قائم بالنسبة لكل مؤمن بأي نوع من الإلهام النهائي في التاريخ : ما هي أهمية الامتداد التاريخي الواقع بين الإلهام ويوم الحساب ؟ وتنعكس مثل هذه الأفكار في كتابات رجال مثل المونسيور جورنيت والأب دانييلو ، ويمكن أن نرى كيف يمكن أن تكون مؤثرة في كتابة التاريخ في أعمال لويس غارديت Louis Gardit ، وهو إنتاج رجل عميق الجذور في نظامه التوماسي(*) للفكر ، والذي يمكن ، مع ذلك ، أن يكون موضوعياً بالنسبة للمدنيات والأديان المعاصرة لما يخصه منها .

★ ـ نسبة إلى توماس الاكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) وكان فيلسوفاً ولاهوتياً إيطالياً ، وبلا شك كان من أشهر ممثلي الفكر الكاثوليكي وأهمهم ، كتب كثيراً من ذلك الخلاصة اللاهوتية دافع فيها عن المسيحية ضد العقائد الأخرى ، وخاصة الإسلام على أساس التفريق بين العقل واللاهوت .

من هذا المنظور يبدو لي أنه بإمكاننا أن نتفحص مقالة الأستاذ كانتويل سميث ، إنها محاولة لفهم ما هي حقيقة الإسلام ، وفي الحقيقة ما هي حقيقة الدين بتوضيح ما يعنيه المسلمون ، أو عنوه عندما يستعملون كلمة «الإسلام» وهو يدعي بأنه اكتشف ميلاً نحو الكلمة لتغيير معناها ، وهو يؤكد أن هناك أربع طرق مختلفة كانت هذه الكلمة تستعمل فيها ، وكان هناك تغير ملموس من أحد هذه المعاني إلى الآخر في مسار التاريخ الإسلامي ، وأول كل شيء ، لقد كان الإسلام يستعمل بمعنى التقوى الشخصية ، والإذعان «التسليم» وهو علاقة مباشرة بين الإنسان والله ، وكانت هذه هي الطريقة الطبيعية ، التي كانت هذه الكلمة تستعمل فيها من قبل أقدم الكتاب ، ولكن فيما بعد كانت تستعمل للإشارة إلى نظام ديني مثالي ، نظام من المذاهب أو ما يدعوه الأستاذ كانتويل سميث «الفكرة الأفلاطونية» للإسلام ، وفيما بعد أصبحت أيضاً تشير إلى النظام الذي كما تطور في التاريخ ، والتطبيق الفعلي للإسلام كما نما مع الزمن ، واستخدمت أخيراً في العصر الحديث بالشكل الأكثر شيوعاً لتعني المدنية التي كانت التعبير التاريخي عن الإسلام ولتصوير هذا الاستعمال الحديث اقتبس الأستاذ كانتويل سميث عنوان كتاب لعبد الرحمن بدوي ، كتبه عن الإلحاد في الإسلام ، ونحن نعد هذا العنوان هاماً ، مع أنه كان عديم المعنى أو متناقضاً بالنسبة للمسلمين في الماضي .

ويلمح الأستاذ كانتويل سميث أيضاً إلى معنى خامس ، يمكن إيجاده في الاستعمال العامي اللبناني ، إن كلمة إسلام تستخدم في الإشارة إلى أية مجموعة من المسلمين ، حتى إن العائلة المسيحية في بيروت قد تقول : «جيراننا إسلام» .

وهناك سؤالان يثيرهما بحث الأستاذ كانتويل سميث : الأول هل حدث هذا التطور بالطريقة التي يصفها بها ؟ والثاني لو أنه حدث ، ما هي الاستنتاجات التي يمكن أن نستمدها منه ؟ ولن أتعامل مع السؤال الثاني لأنه قدم مقالته كطرح مؤقت فقط ، ولم يحاول أن يستنتج منه نتائج كثيرة ، مع أنه ، في الفقرة الأخيرة منه ، ألمح إلى نتيجة ، وسأل عما إذا كان ميل الكلمة إلى التغير في معناها ليس أيضاً ميلاً «إلى فقدان علاقتها مع الرب» ، وبالنسبة للسؤال الأول أريد أن أثير نقطة واحدة فقط : هل هذا التقسيم ، إلى أربع مراحل ، يخرج من دراسة تجريبية مبنية على الملاحظة للمادة ، أم أنها قد حددت بتأثير صورة الذات الخاصة بالأستاذ

كانتويل ؟ ويجب أن يعتذر لوضع سؤال بهذه التعابير ، وإني أحقن في هذا التعايش بين العلماء فكرة للجدل ، ربما تكون لاهوتية أكثر منها تاريخية ، ولكن عندما أعطانا الأستاذ كانتويل سميث شرف نقل أفكاره الخاصة إلينا حول أمر هام جداً ، فإنه أقل ما يمكن أن نعمله هو أن نأخذه بجدية ، وهذا يعني التساؤل عما إذا كنا نتفق أو لا نتفق معه ، ولقد قرأت مقالته ، تقريباً ، في الوقت نفسه الذي قرأت فيه كتابه الجديد «الإسلام في التاريخ الحديث» .

ومن قراءتي لكليهما قامت لدي شكوك معينة حول ما إذا كانت استنتاجاته يمكن تسويغها بدراسة تجريبية لتاريخ الإسلام ، أو ما إذا كان ما يدعوه الأستاذ فون غرونوباوم «بصورته الذاتية» لم تؤد إلى اختيار ما يتفق مع فكرته عن الدين الصحيح وتأكيدها ، ذلك إن المبدأ الذي ينطلق منه في كل من مقالته وكتابه ، هو أن صحة الدين يمكن إجمالها في دعوة مباشرة من الرب إلى قلب الفرد ، واستجابة بشرية مباشرة لها ، وكل شيء آخر ليس فقط طقوساً وعادات ومؤسسات ، بل هو أيضاً أنظمة للعقيدة ، وهي من بناء بشري وترجمة عامة لهذه التجربة الخاصة ، وهي تتغير لأن الكائنات البشرية تتغير ، وإذا لم تتغير قد تكون خطرة ، لأنها قد تطمس ، أو حتى تقطع العلاقة المباشرة .

وقد تكون هذه ـ أو لا تكون ـ نظرة حقيقية للدين ؟ ولكن هل هي ترجمة محتملة لما يفكر فيه المسلمون أو ، في الحقيقة ، المسيحيون حول دينهم في الماضي ؟ إني أتكلم دون أية معرفة بعلوم الدين الإسلامي، ولكن يبدو لي أنه إذا حاول المرء اختزال الإسلام ، الذي آمن به المسلمون على مدى التاريخ إلى حده الأدنى جداً ، فإن المرء لا يصل ـ باستثناء قلة من الصوفية ـ إلى الدعوة المباشرة من الرب للقلب الإنساني في الخلوة ، وطبقاً للعقيدة الإسلامية ، فإن الله لم يكشف عن وجوده فقط بهذه الدعوة ، بل بكلمته ، وليس فقط في سر القلب بل علناً من خلال سلسلة من الأنبياء ، إن الحد الأدنى للمفهوم الإسلامي لا يشمل الرب والإنسان فقط ، بل الله والإنسان والقرآن والنبي ، وبناء عليه ، إذا حاولنا أن نسقط على دين ، مثل الإسلام ، فكرة دين ، مثل دين الأستاذ كانتويل سميث ، ألا نكون في خطر تشويه ما حدث وما يحتمل أن يحدث ؟ ولتكييف عبارة فون غرونوباوم إن الماضي

والمستقبل يرتبطان بشكل أساسي ووثيق ببعضهما ، ويوحي الاعتقاد بدين والانتماء إلى طائفة دينية بنوع ما من المسؤولية تجاه الماضي ، وهل يمكن لدين ببساطة ، بفعل التطور التدريجي ، أن يتغير إلى شيء جوهري غير ذاته ؟ وكما يبدو ، يوحي الأستاذ كانتويل سميث في كتابه بأن التطور المستقبلي للإسلام لن يتم التحكم به ، بالضرورة ، وفق ما كان عليه في الماضي .

٤٠ـ صورة الذات وفهم التاريخ ومعالجته

غ . إ . غرونوباوم

أستاذ التاريخ الشرقي ومدير مركز الشرق الأدنى في جامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجلوس

«الحلم واحد ولكن التأويل مختلف ومتنوع»

/ صائب ـ ت ـ ١٦٧٠ /[١]

في النينكيا(*) يؤدي سفح دم الضحية القربانية إلى السماح بعودة الظلال لفترة ملموسة من قبل الأحياء ، وبالمثل إن طموح الأحياء من خلال وساطة المؤرخ الباحث يمكن من إعادة غرس الحياة أو المعنى ـ أو بديلها الفكري ـ في وقائع وحكايات الماضي ، وحتى كما رد أوديسيوس(**) Odysseus الظلال حتى يمكن لتيرسياس Tiresias أن تشرب ، هكذا حال المؤرخ والجيل الحالي ، حيث من خلاله يجب أن يقوموا باختيارهم من وماذا ينبغي إحياؤه ؟ أو ومن يسمح له بأن يبقي طي النسيان ؟ وقد يجادل المرء حول ما مقدار حرية القرار التي يملكها المؤرخ ، وسلاحه في القتال ضد الذين يرغب في إبعادهم وطردهم خارج وعيه هو المحيط (المحيطات) الذي ربما يوائم حقائق الماضي ، وهذه المحيطات التي هي في المعنى مثل أوتار مختلفة الأطوال والمجالات ، أو مثل مغناطيس ، يمكن بواسطتها التمييز أو الإمساك ببيانات حساسة تكمن مدفونة في المصادر ، يمكن أن تعدّ لكشف الماضي ، ولكن المحيطات التي يتسلح بها المؤرخ ، حسبما تعكس

★ ـ قد تكون نسبة إلى زعيم سياسي أثيني كان يؤمن بالخرافات .

★★ ـ بطل الأوديسا التي تشكل أحد أقسام ملحمة هوميروس .

طموحات زمانه ، أو ربما طموحاته فقط ، والقيود الضمنية في هذه الطموحات ، تحدد حرية المؤرخ ونجاحه حتى قبل أن يبدأ عمله .

وإن اكتمال الأدلة قد يكون طموح زمان ـ كما هو زماننا ـ واكتمال فهم الأحداث الماضية يبقى مميزاً أيضاً ، لأن الظلال كثيرة جداً ، وإن مطالبنا المنهجية لاستكمال إيجاد الحقائق لا يلغي سلسلة الارتباط الوثيقة بين الظلال التي لابد منها أخيراً ، وسوف تحدد الاختيار .

ومع ذلك فإنه من الواضح أن فترتنا فترة تاريخية نموذجية ، فترة تلتمس ذرائع مشجعة ذات فعالية قصوى ، فترة تحاول توفيق ذرائعها مع الظلال التي تتوقع مجابهتها ، أو هل ستجابهها ؟ إنها كما يبدو تفعل ذلك فقط في مناطق معينة ، ودوائر فكرية في كوكبنا ، دوائر أكثر بساطة وأكثر تشابهاً وتقارباً من الحديث عن الغرب والاستغراب ، وخارج هذا المحيط الجغرافي والفكري ، يملي الطموح السائد ، وصورة الذات التي توازيه شيئاً مغايراً ، والحاجة الأساسية إلى إثبات رأي الذات للمرء من خلال التاريخ وإيجاد التسويغ لمستقبل المرء في الماضي عالمية تقريباً ، ولكن الحاجة لمختلف الآراء الذاتية والطموحات للمستقبل تختلف في أنماطها ، وهي تتطفل على الحقائق المعروفة ، والتنبيه الذي تعطيه لكشف الحقائق غير معروفة حتى الآن ، وكان البحث الغربي للأجيال الأخيرة محظوظاً لتصادف بواعثه الدافعة أولاً وبشكل رئيس مع إرادة الفهم الذاتي عن طريق فهم جميع الحلول الثقافية لمشكلة الحياة مع مطالب الواقعية نفسها ، لأن الظلال غير المنبعثة قد أبعدت عن الدم ، وهي لم تستأصل كظلال .

إننا قد نوجه في كهف ما ضوء مصباحنا إلى هذا الركن أو ذاك ، ونأخذ في حسابنا تركيبه متجاهلين عن عمد تركيب الأقسام التي نختار أن نبقيها دون إضاءة ، ولكن هذه الأقسام ما تزال باقية هناك ، وإذا لم نبال بها فإننا ، إن آجلاً أو عاجلاً ، سنعاني من إهمالنا لها ، أو أننا سنضطر إلى إعادة توجيه إضاءتنا إليها ، إن التشويه المتعمد ، والحذف للبينات التاريخية سوف يوجد بسرعة كبيرة الأطر ، مع الطموح الدافع الذي يبدو راكداً وعقيماً ، والتحرر من الوهم هو النظير الانفعالي لهذا النوع من الإخفاق الفكري ، ويرغم الطموح النقطة التي تنجح أو تخفق عندها البراعة الفكرية للماضي ، وإنه في هذا المنحى ، تحدد صورة الذات

للمؤرخ أو مجتمعه تحديداً تتحكم مسبقاً ـ كأن تقول ـ ليس فقط بنتائج جهوده ، بل بالسبب النوعي لبقائها أو بنمط عدم بقائها .

ـ ٢ ـ

ويتحكم ، من الجانب الأول ، المضمون «المادة» بأية دراسة تاريخية ، مع فعالية (المادة داخل الإطار المدروس) وبناء (المادة جاعلاً إياها قابلة للمعالجة داخل الإطار) ويتحكم من الجانب الثاني ، المحرض ، أو الهدف (الإستخدام) ومذهب العرض وأسلوبه ، وينبغي مقاومة الإغراء بمعارضة مجموعتي المفاهيم كموضوعية واستهداف ، لأن الأطر التي يمكن أن يقال إن المواد تحقق دورها فيها[٢] لا تملك وجوداً حقيقياً مستقلاً عن المراقب البشري ، ويجب أن يقال الشيء نفسه عن التركيب (أعني الترابط الذي يمكن تحديده في الترتيب المنظم للأجزاء)[٣] ، الذي تبديه المواد ضمن الإطار ، وبالكاد يمكن فصل هدف الباحث من وجهة النظر النفسية على الأقل عن باعثه الذي يحدد محيط التحري ، وبكلمات أخرى ، مبادىء اختيار المواد ، ومن ثم إدراك وفهم المواد نفسها[٤] ولسوف يتقارب (البحث) الهدف والمواد في أحسن الأحوال مثلما تتقارب المنحنيات ، وذلك فقط في بعض الحالات مثل وصف العملات وما شابه ، وهي صدفة تامة قد تدعى ـ بالنسبة لكل النوايا والأهداف العملية ـ أنها قادرة على الإنجاز .

ليس القبول الموضوعي لنتائج البحث على أي حال متناسباً بشكل مباشر مع التقارب الذي يتم الوصول إليه من قبل «تقارب المنحنيات» هذه ، وبالأحرى فإنه متقارب من ناحية من الأفكار المنهجية للفترة ، ومن ناحية أخرى من قوة الباعث ، ذلك أن الاقتناع النهائي الحاسم بالهدف قد تحدد ، ويجب أن لا تفهم الطريقة ببساطة على أنها تقنيات إيجاد الحقيقة ، التي يقدرها الباحث ، بل إن هذه التقنيات نفسها تتطلب التحديد على أن توائم ، أو بالأحرى ، تستمد من معايير إمكانية التقبل التي يعترف الباحث ومجتمعه بأنها ملزمة[٥] وليست المصداقية (أو التشكك في هذا الأمر) في كثير من الأحوال سوى تعبير عن عدم اهتمام مجتمع ، أو عدم عناية أساسية بالمنطقة التي يسمح لها بأن تسود فيها إذا لم تضلل نفسها ، كجزء من الآلية النفسية المطلوبة لمساندة قيمة طموح منظم وزيادته .

ويجب أن نعرف نحن ، ويجب أن يعرف أسلوب العرض التاريخي على أنه أداة أخرى لتحقيق هدف البحث ، والأنماط الأسلوبية مثل الحولية والتصريحية الاعلانية (لبعض المراسيم الملكية مثلاً) هي في ذاتها مفيدة ، واستبدالها ينم عن هدف متحول بقدر ما يعني التحري في (أو بوساطة) أطر جديدة .

ودراسة هذا النظام تجعل من الواضح أنه من حوافز مجتمع ما لدعم كتابة تاريخية ، هي بالعادة من نمط واضح التحديد ، وصورة الذات لديها توجد رابطة واضحة سواء كانت الكتابة وصفية (Kanstatiened) أو معيارية (Pedagogical) ، تنعكس صورة الذات في الباعث والهدف للبحث والعرض ، وتميل الصلة إلى أن تصبح مؤلمة في وضوحها عندما يكون الاستخدام الذي يوضع من أجله التاريخ توفيقاً لصورة الذات الجماعية مع تلك التي يحملها المراقب والأقلية في مجتمعه ، والتي يقوم بدور الناطق باسمها ، إن الأحكام المختلفة على مدن اليونان ، أو الجدارة النسبية لإسبارطة وأثينا ، أو على الأشكال الوحدوية أو الفيدرالية من التنظيم في العالم الهلنستي ، مياله لعكس وجهة نظر المؤلف على مجتمعه وطموحاته بالنسبة لمستقبله ، وفي أي حدث ، إن الاهتمامات التي تعكس أهداف مجتمعه (تفهم بشكل عام على أنها مشكلاته) ، وتعني الموضوعية في هذا الإطار ، في المقام الأول ، الوعي الذاتي بطبيعة البحث التاريخي ، وإرادة متزايدة دائماً ، ولكنها لا تكتمل بوضوح مطلقاً ، للخوض في الأحوال التاريخية ، التي أثبت فحص المصادر (بالمعنى الأوسع للكلمة) عدم مواءمتها للهدف ، ومن ملف الحجج المنظمة لتأييد طموحات المرء ، ربما يقول المرء إن الموضوعية هي استقلال متزايد عن التاريخ كوسيلة للتغيير ، ويبدو أنها جلبت بأكبر سرعة ، بامتلاك البصيرة التاريخية ، ودمجت كسمة هامة بصورة الذات لمجتمع ما ، إلى جانب هذا إنه ليس مجرد بيان للحقيقة أن بعض الاستعمالات المقترحة للتاريخ (أو قسم منه) وبعض الأسئلة حوله أكثر صلة ومناسبة للمادة المعطاة من غيرها ، ومن طبيعة الموضوعية ، كما تم تحديدها للتو ، أنها توحي بمزيد من الأسئلة (والاستعمالات) أكثر مما يمكن أن يسعى إليه ، ويتحقق دون أية معالجة واضحة اعتباطية التحكم بالمواد التي تم الرجوع إليها ، وبكلمات أخرى : سوف تحمي وجهات النظر الذاتية التي تقبل تاريخية المرء تأريخية الأموات ، وتوسع مناطق الاستجابة النفسية التي تجعل دائماً

أجزاء أوسع من تجربة الماضي الإنساني ذات معنى ، أعني قابلة للاستعمال في خدمة الطموحات الفعالة الراهنة ، وفي هذا المنحى قد يلاحظ أن الموضوعية التاريخية تعني التألق المحسوس بوضعها في أوسع منظور مميز ممكن ، يميل لتحرير ، أو إذا شئت ، لتطهير صورة الذات من طموحات ليست عقلانية بشكل صحيح(٦) ، وهي تساعد على صنع تنظيم عقلاني للأهداف حيث لا يمكن لغير التنظيم العقلاني (لفهم غير عقلاني) أن يكون ممكناً(٧) .

فإذا كانت الحالة كذلك ، فإن المرء قد يفترض أن التحريفات في تلك الحقيقة ، وكتابة تاريخية لفترة ما (وليس بالطبع خطأً بسيطاً أو إهمالاً أو معلومات ناقصة) هي أعمال من خصوصيات صورة الذات للمجتمع ، حيث أن هذه بالغة السهولة في الفهم بتحليل لتطلعاتها وسيحدد الطموح أي جزء من الذات الإجمالي يحرك العواطف يحتمل أن يكون تحت تصرف مجتمع ما ، وقد لاحظ طه حسين (المولود في ١٨٨٩) هذه الصلة بأفكاره لقيمة القدماء ، عندما يتوقفون عن إلهام الجيل الحي ، وهكذا وضع بنفسه هدف إعادة إحياء التاريخ القديم كإلهام للمعاصرين(٨) . وعندما يتحدث المغربي م . ا . لهبب (في إطار مختلف جداً قد يكون صحيحاً) عن حقيقة القرنين التاسع عشر والعشرين ، ثم يذكر أنه «بتحليل الحياة ، وفي شرحنا ، ثم في وضعنا لما هو كائن ، وما يجب أن نفعله يُسرّع الفيلسوف حركة تحرر الإنسان في نضاله ضد المادة وضد طبيعته» ، ويأخذ في الحسبان التحولات التي لا تنقطع في ما سيقبله الفكر البشري على أنه حاسم ، ويؤكد كما فعلنا ، ولكن من نقطة أفضلية مختلفة ، بالقوة المحررة لصورة ذاتية مفتوحة «عقلانية بشكل صحيح» ، وموجهة ، لأنه كما ذكر لهبب في فقرة أخرى ، أنه لدى الإنسان على عكس الحيوان ، صوراً مبهمة لنفسه ، عليه أن يدركها(٩) ، إن هذا التأكيد الفلسفي لأولوية النظرة الذاتية هو في الوقت نفسه (أو بمعنى غير مقصود من قبل الفيلسوف) مفتاح لفهم الاهتمام بالتاريخ في العالم العربي المعاصر(١٠) .

فإذا تساءلنا : لماذا لا ينتج التعارض ، الذي تكثر ملاحظاته ولا نقول التناقض أو التكذيب للغايات وللوقائع لوجهة نظر ذاتية لمجتمع ما ، التوافق أو التخريب المتبادل لها ؟ ويجب أن يقال إنه على المدى الطويل تحدث مثل هذه العملية

التوافقية أو التدميرية في الحقيقة نتيجة استبدال طموحات جارية بطموحات جديدة ، ولكن ما هو أكثر أهمية ، مطلوب أن يلاحظ أن التناقضات وسوء التوافق لهذا النظام تدرك كقاعدة بدرجة ضعيفة فقط . أو دعني أضعها بصورة أكثر دقة : سيكونون الأقل إدراكاً والأكثر تملكاً لإثارة الإلهامات ، الأمر الذي يخلق المصاعب .

وفترات النقد الذاتي هي فترات انكماش الالهامات ، وكأمر واقعي سيعطي الالهام ذاته ، الذي ربما ، على مستوى التحليل المنطقي ، يسبب عدم التوافق في زمن سيادته المؤثرة ، التماسك النفسي الضروري «لتمثل الفرد» لصورة الذات ، ويجعل الصدع بين حقائق الحالة التاريخية ، وافتراضات سوء «تفسيرها الخلاق» في خدمة الأهداف التي يعتقد المجتمع أنه يعيش من أجلها ، ولقد مضى أكثر من خمسين عاماً منذ قال ث . ريبوت Th.Ribot إن المبدأ الذي يمنح الوحدة في محيط منطق مؤثر ، والذي يرفض كلياً منطق العواطف ، هو مبدأ النهائية المطلقة ، ومن الناحية النفسية يمكن تفسير تعايش التأكيدات المتضاربة منطقياً على أساس أن كل واحد منها قد جرب على أنه ضروري من قبل الفرد والمجتمع (ومنطقياً بالطبع لا يمكن إخفاء التناقض)[١١] .

- ٣ -

صيغت طبيعة الموقف العربي وتطوره نحو البحث بشكل عام والدراسات الشرقية بشكل خاص ، والتوقعات منها كما بدت للدارسين من الشرق الأدنى ، والقادة الذين يتوافقون معها من قبل عدنان أدوار (ت ١٩٥٥) في مقدمته للطبعة التركية من دائرة المعارف الإسلامية[١٢] فقد ميز فرقاً في الباعث بين الاهتمامات الاستشراقية القديمة والمعاصرة في أوروبا ، وكان المستشرقون عندما نقلوا العلم الشرقي والفلسفة قديماً إلى لغاتهم ، معنيين في المقام الأول ، بتحسين معرفتهم وصقلها بدلاً من القيام بدراسة علمية عن الشرق ، ولم يكونوا يسعون لاكتشاف أي شيء أصيل في اللغات الشرقية والتاريخ ، وفي هذا المجال كان المستشرقون القدامى منشغلين في محاولة تشبه نوعاً ما نشاطنا (أي في تركية الحديثة) في الترجمة ، والأخذ عن الغرب ، وقد يتردد العالم الغربي في عدّ مترجمي القرن الثالث

عشر وما بعده ، كأسلاف له في أي شيء سوى المعنى الرسمي ، ومع ذلك إن الموازي المستولد بالميول التمثلية للشرق المعاصر يستحق الاهتمام ، وبحلول منتصف القرن الثامن عشر ، توسع إطار الاستشراق الحديث ، ووجد أدوار ذلك في العنوان الفرعي لكتاب «المكتبة الشرقية»(١٣) لهيربيلوت ١٦٢٥ ـ ١٦٩٥ ، الذي ، طبقاً لطراز العصر ، وصف محتوياته على أنها كل شيء ضروري لفهم الشعوب الشرقية ، أعني تاريخهم ، وتقاليدهم الحقيقية والأسطورية ، ودياناتهم وطوائفهم ، وحكوماتهم ، وسياساتهم ، والعادات الأكثر حداثة ، وتنظيم دولتهم وإدارتها وسنفقد في هذا «التحديد الكامل» ، إلى حد ما لدراستنا في المقام الأول ، وجود ذكر الهدف ، فهو كما ـ على أي حال ـ اقتبس هنا ليس لكفايته ، بل لعكسه لنظرة شرقية لمساعينا ، ومن ثم فإن وضع دي هيربيلوت في التطور الغربي قد يستغنى عنه(١٤) .

وبدون محاولة منه لتحليل البواعث الغربية وصف خليل ايناجك ، الطريقة التي تتعامل بها الأبحاث الغربية اليوم مع التاريخ الإسلامي بأنها «علمية وموضوعية في الأساس» ، وما هو حاسم قوله : «ليس هناك طريق آخر لأي دارس جاد للماضي الإسلامي ، ولا حاجة لقول المزيد حول هذا ، إن الطريقة العلمية تتعلق فقط بكشف الحقيقة التاريخية وتفسير الأسباب التي أوجدتها» وعلينا أن نقرأ هذه المقولة في ضوء إدراك ايناجك «لمخاطر مطالبة التاريخ بالتوافق مع الأفكار السياسية الراهنة» حيث لم يدرك بعض الكتاب الحديثين ، شرقيين وغربيين «ممن لديهم إخلاص متعصب للتقاليد ، أن الحقائق التاريخية بعيدة المنال بالنسبة لهم . . . لأنهم مقيدون بأخطاء ماضية ، وتحيز سلفي» .

وبعدما رفض التأثير الذي سمح به بعض الدارسين في البلاد الإسلامية لقوميتهم بممارسته على بحوثهم أكد ايناجك أن الدراسات التاريخية في رأيه تشكل أساساً قوياً للحركات الثقافية الحقيقية في البلاد الإسلامية اليوم ، وستحقق الدراسة الموضوعية للتاريخ الإسلامي ، بالمنهجية الغربية ، تقدماً عاماً في جميع المعارف الإسلامية(١٥)

وقد عبر عن هذه الافتراضات المتعلقة بنظرية المعرفة بالنسبة لهذه المقولة التي لم يكن ايناجك مدركاً لها بشكل كامل ، وكذلك هدف الموقف الذي يتكلم عنه ،

عبر عنها آتاتورك بدقته المعتادة نفسها التي لا رحمة فيها بقوله : «سنأخذ العلم والمعرفة حيث وجدا ، وسنضعها في فكر كل عضو في الأمة ، فمن أجل العلم والمعرفة ليست هناك قيود ولا شروط»[١٦] ، «لأنه من أجل أمة تصر على الاحتفاظ بحشد من التقاليد والمعتقدات التي لا تقوم على برهان منطقي سيكون التقدم شديد الصعوبة ، لا بل مستحيلاً»[١٧] .

ووصفت صورة الذات لدى الرجل الذي كما عرف في تاريخه الفكري ، وفي العمل في محاولاته الفكرية الراهنة من قبل ادموند هوسرل Edmund Husserl (١٨٥٩ - ١٩٣٨) «بتعابير الفكرة ذاتها التي تحدده وتكونه كرجل غربي ، وهذه الفكرة ليست سوى فكرة الفلسفة نفسها ، إنها فكرة المعرفة الشاملة فيما يتعلق بالوجود بمجمله ، وهي معرفة تحوي ضمنها كل ما قد تخرجه العلوم الخاصة منها كفروع لها ، وتقوم على أسس نهائية ، وتتقدم بشكل شامل وبطريقة واضحة وذاتية التسويغ وبوعي كامل لذاتها ، ويرتبط بإحكام بهذه الفكرة التي تميز استهلالها الأول في اليونان القديمة في القرنين السادس والسابع ق . م ، البدايات التاريخية للرجل الغربي ، وهي فكرة الإنسان الحق ، أعني الوجود الفلسفي ، وهو وجود موجه نحو الأفكار والمثل ، ومعايير العقل المستقل الذي يسمح وحده للرجل الغربي بأن يعيش في توافق وسلام مع نفسه»[١٨] ويتقدم هوسرل ليطور من تفسيره «للرجل الغربي» تشخيصاً لأزمته الراهنة التي يجدها في تخليه عن الإلهامات الفلسفية التي ولدت من العلوم الغربية ، وهو يقترح معالجة انحرافه بالأخذ بيده ، عائداً إليها من خلال إعادة الفهم الفلسفي ، وفي إطارنا إنها ليست - على أي حال - أزمة الفكر هي التي تهم، بل أزمة هوسرل ، وتوجه رجله الغربي المفترض «نحو فكرته الغائية للفلسفة ، تلك الفكرة بالذات ، هي التي تعطي الوحدة والمعنى للعملية التاريخية ككل ، فهي فكرة غائية لأنها تظهر نفسها في الوسط التاريخي ، وبالضرورة تمر بالتحولات ، ثم تحتفظ مع ذلك بهويتها ومعرفة أنها مهمة غير محدودة ، .... وتكمن الأهمية التاريخية لنظرية فلسفية في إسهامها في المهمة غير المحدودة»[١٩] .

إن المهمة غير المحدود التي أوكلها هوسرل للنظرية الفلسلفية ، قد أوكلها الرجل الغربي لنفسه في الواقع في جميع محيطات الحياة ، ومن ثم فإن رغبته في

الاعتراف بأن بصيرته مؤقته ، وأن توقعاته في عمل حياته قد تنسخ بالتصحيح التالي وبالتفنيد ، ولكن قناعته أيضاً بإمكانية معالجة العالم الاجتماعي والاقتصادي بالواجب الضمني للنضال ، والسعي وراء هذا التحسين الدينوري الذي يعرف مع ذلك أنه بعيد المنال .

وليس التبصر في التاريخ الذي يطالب هوسرل به بلوغ الذروة في معرفة الماضي من أجل خاطر الماضي في حد ذاته ، بل انه مطلوب ليمكننا من أن نرى ونفهم أنفسنا ، ويمثل هذه الرواية Selbstuerstandnis[٢٠] «نجد أن مهمتنا الخاصة ضمن المهمة غير المحدودة» . وصحيح أن هوسرل حصر مطالبه في الفيلسوف حسب مفهومنا اليوم الذي سيتجه بامتلاكه للتاريخ نحو مهمة نوعية مفترضة لتجديد الفكرة الفلسفية وتغيرها ذاتها من خلال الغاية المرئية [٢١] ولكن هذا الحصر مسوغ ، فقط بالهدف من انعكاسات هوسرل ، ومن حيث الجوهر إن فهم الذات غير المؤهل بالتوجيه نحو هدف نوعي هو مقصد انغماس الرجل الغربي في التاريخ ، وللإعلان عن تطبيق هام للحلول الثقافية لمشكلات الحياة الاجتماعية التي توقف جريانها ، ويمكننا اذاً أن نقبل وصف هوسرل للرجل الغربي كنمط انساني : «يعيش منذ الأزل ، ويجنح إلى الحياة إلى الأبد» [٢٢] ذلك أن تاريخه وعطاءاته الثقافية لها مزية البقاء والشمولية [٢٣] ، والعالم الذي يستخدمه الرجل الغربي بمثابة مادة له ومحطة ، هو لتحويل فكرة هوسرل من نظرية المعرفة إلى فلسفة للتاريخ إنه «عالم انجاز موضوعي» [٢٤] .

ويقف هذا العالم مكشوفاً «مترابطاً وناتجاً لوظائف ذاتيه وفعاليات وعمليات» [٢٥] وبناء عليه ، قد نضيف عالماً تأخذ فيه الحقيقة النفسية العملية مكان الحقيقة المطلقة ، وهو مظهر يبدو أنه قد أعد للمؤرخ ، ولكنه ، في الوقت نفسه ، مظهر سيكون من الصعب فيه على المؤرخ المسلم أن يتقبله ولا أن يستعمله من أجل إعادة التشكيل النقدي لصورة ذاتية فاعلة ، لأنه يتضمن التصميم على وضع الإنسان وبنية وعيه في المركز والاعتراف باستقلال العقل كملكية أساسية لفكرة الإنسان [٢٦] .

إن الرابطة الغائية التي يقع ضمنها الإنسان ، والتي تظهر في استعادة الأحداث كسلسلة مترابطة من المسببات ، هي في حالة المجتمع الغربي المعاصر

قابلة للوصف بتعابير تطلعاته المركزية في التحكم الدائم الاتساع والتفهم للعالمين الداخلي والخارجي ، وتعايش هذه المتطلبات مميز بالدرجة نفسها ، مثل المتطلبات المنهجية المصاحبة لاكتمال المعلومات وشمولية التطبيق والتخصص للتحكم ، والتعميم للفهم ، هما في صيغة رائدة التبسيط ، والأهداف التي نندفع نحوها بدوافع داخلية متصارعة نوعاً ما ، ولكن التعميم هو في خدمة الفهم الذاتي ، الذي سيكون وجودياً مرضياً وصحيحاً في الواقع ، ويسمح بتطور التحكم في العالم البشري والفكر المتسع (سياسياً واجتماعياً الخ) [٢٧] والافتراض المسبق للمعرفة التخصيصية ـ وهي حقيقة تؤكد خلود القيم الفكرية المتصارعة والنظم التعليمية ـ والموقف الفكري لمدنيتنا هو ، على أي حال ، غير تام التقويم ما لم ندرك نتيجة واحدة للجمع القريب بين التطلعات والافتراضات في نظرية المعرفة التي اطلعنا عليها ، (أو التي تستحوذ علينا) ، أعني أن فهمنا الذاتي يلزم أن يكون قائما على فهم للثقافات الأخرى ، إننا مضطرون لمراجعة بناء أنفسنا واعادته على خلفية شمولية الإنجازات الحضارية للجنس البشري ، وهذا الفهم ، لكونه مرتبطاً بهدفنا الرسمي والامتداد الذاتي الجماعي أو السمو الذاتي الذي يتطلبه ، يضطرنا للتحرك نحو تلاقي البحث التاريخي والحضاري القديم ليتأوج في «ثقافة» [٢٨] . ونكون عند هذه النقطة فكرياً وعاطفياً في موضع جيد للبحث التاريخي الهادف ، ذلك أن البنائية بتعابير هدفنا الوجودي ، وباستنتاجاتنا بالنسبة لماضينا وماضي «وحاضر» مجتمعات ومدنيات أخرى ، مستقلة عن محتواها المادي .

وفي هذا المعنى قد يتحدث المرء عن أهلية متفوقة للغرب الحديث لتحليل المدنيات ، وقد يذهب المرء إلى أبعد من ذلك ويصفها بالمدنية الوحيدة التي أفادت في المفهوم الإنساني ، من التفوق الثقافي [٢٩] ، أي تفوق (وإلى حد كبير واقعية) ثقافته الجماعية .

وطور الغرب بوضع تفسير للبنية النفسية للإنسان ، وبشكل خاص لصورته الذاتية ، على حقيقة هذا التفوق الثقافي ، طور وسيلة علمانية لاعداد وتوظيف ، وربما للسماح بتعايش عدد من المدنيات اليائسة دون حرمانها (فكريا) من خصائصها النوعية ، ومن وجهة النظر الدينية ، إن هذا الموقف كان يمكن بلوغه من خلال الاعتراف بأن مثل هذه الجماعية كانت قد اقترحت ، إن لم تكن طلبت ،

بحقيقة أن الله قد خلق مختلف الشعوب التي حققت ذواتها في مدنيات مختلفة ، ولكن في حين أن الديانات الكبرى تقبل الحقيقة ، فإن طبيعة الحقيقة الدينية تعرقل (أو تجعل غير ضروري) الإفادة من تجربة الثقافة الجماعية كوسيلة جوهرية للفهم الذاتي الجماعي ، ويمكن ، لا بل يجب أن تنقل الحقيقة الدينية ، وخاصة حقيقة الأديان الموحى بها ، إلى الجميع ، ويمكن أيضاً جعل الخلاف بين المجتمعات متقبلاً لها ، في حين أن لتبيان طرق الرب أهمية قليلة لتعليم المؤمن حول نفسه .

ويتقدم خلاف طرق الفهم المتأصلة في تعاكس التطلعات بشكل مدهش إلى المقدمة في بعض الدراسات المعاصرة لمقارنة الأديان ، حيث يضع الباحث نفسه خارج مدنيته وخارج عظته التاريخية من أجل الحكم من منظور متميز ومدنيات أخرى (وديانات أخرى) والباعث على اختيار النقطة ذات الأفضلية لمثل هذا التمركز يمكن أن يوجد في المشكلات التي عولجت ، ويعتمد اختيارها ، بدوره ، على تطلعات ثقافية أو وجودية . والثقافة مطلوبة للمساعدة . وفي مقالته عن «الرمزية الدينية وتقويم القلق وقف السيد اليادEliade موقف المراقب الذي ينتمي إلى حضارة أخرى ، ويقومها وفق سلم معايير حضارته» [٣٠] .

وسواء أكان هذا التجرد من موقع المرء التاريخي ممكناً أم غير ممكن ، فإن الحاجة إليه ملموسة ، وتلك الحاجة هي التي تكون التفرد في الموقف الغربي .

وغالباً ماجرت العناية بالتاريخ من التعلميات التي تكتسب من التأمل في الماضي ، وخاصة ما يتعلق باخطائه وكوارثه ، وسيعتمد الدرس المستفاد . على أي حال دوماً على السؤال المطروح وهكذا في عالم الإسلام ، على سبيل المثال ، وجد بشكل عام في التأكيد على سرعة زوال كل شيء بشري ، وفي النصيحة التي يجب تبنيها نموذجا واقعيا للسلوك الشخصي وخاصة السياسي ، ولتصوير المألوف بأمثلة غير مألوفة نوعا ما ، فبعد أن تحدث البيهقي (ت ١٠٧٧) عن النهاية المأساوية لأريارق وإلغازي عقب قائلا : «والآن إذ انتهى مصير القائدين ، فقد انتهى جميع هذا ، وصارا أثراً بعد عين ، وإن مرّ الزمان ودوران الفلك يحدثان بأمر الله جل ذكره الكثير من الامور ، كما سيحدثان الكثير من أمثالها بعد ذينيك ايضاً ، والعاقل من لا يغتر بنعمة أو متعة يحصل عليها ، ويكون على حذر دائم خشية

زوالها لأنها تسلب منه بمنتهى القسوة ودون محاباة ، فينبغي بذل الجهد لاصطناع الأحرار ونشر بذور الخير للدنيا والآخرة لتبقى السمعة الطيبة تذكاراً لهم» (٣١) .

وقد انضم الخواجا حسن كتخدا السلطان محمد إلى السلطان مسعود ، بعد أن خلع مسعود محمداً مولى الخواجا حسن فعقب البيهقي قائلاً : «لم يُسلم نفسه للشيطان ، وسلك طريق الصدق والحق ، فقد كان رجلاً كامل العقل ، ذاق الدنيا حلوها ومرها وطالع الكتب وتبصر العواقب ، فلا جرم أن ظلت منزلته ثابتة» (٣٢) .

وقال الهمذاني أيضاً : «والاطلاع في أخبار الناس مرآة الناظر تصدق عن المحاسن والمقابح ، وتهذب ذوي البصائر والقرائح ، وبها يذكر الله تعالى من عباده مايراه أهلاً لذكره ، ومستوجباً لكريم ثوابه وأجره» (٣٣)

وبعد ستة قرون تقريباً سأل جلبي عن الحاكم الذي «مثل أسلافه الجبابرة يجب أن يقرأ التاريخ ، ويستمد المغزى من قصة أعمالهم الشهيرة» (٣٤) . وفي الانعكاس على الواقع الذي سلفت ملاحظته في مكان آخر من قبل الكاتب ، والذي ستثبته مناقشة مختلف الأعمال الحديثة في القسم الأخير من هذه المقالة هو أن التحليل الذاتي في الكتابات التاريخية العربية الحديثة قد أُشبع بفهم نفسي ، فج نوعاً ما لموضوعاته ، وإنه إلى جانب ذلك ، قد قصر اهتمامه كلياً تقريبا على المحيط الإسلامي ، أو بالأحرى ، العربي الإسلامي ، ويتساءل المرء عما إذا كان غياب الجهد الأنساني الجديد (باستعمال تعبير «إ . شبرنغر») عن العقائدية القومية العربية ليس له علاقة بقيوده الثقافية وان التدهور والمآل إلى الزوال للقوميات الأوروبية وخاصة الألمانية في بعض مظاهرها التاريخية ، يجب أن لا يحرض المرء على إغفال صلتها بالحركة الإنسانية ، التي كانت في أوروبا في الفترة الأوغسطينية ، إن لم يكن قبلها ، إنها الرفيق الذي لا يخذل للوطنية القومية ، فقد حركت منجزات فرجيل وهوراس وأوفيد بالتطلع إلى مجاراة التحسين في الأنماط اليونانية ، وكان إدخال أصل أدبي يوناني إلى روما عمل وطني متوجب وكان تعظيم الأمة ، هو أول التزام للشاعر ، واحتاج الفخر الذي يحس به في الماضي العظيم ، والإمكانيات التي كانت لدى شعبهم التسويغ بإنجاز خلاق متفوق ، والتمس المقياس لمثل هذا الإنجاز في الفلك الأوروبي دائماً من الماضي اليوناني ، وإن هذا صحيح بالنسبة

للسيبيوسيين Scipios ودائرتهم والأوغسطينيين ، كما هو بالنسبة للأليزابيين وعصر لويس الرابع عشر ، ومرة أخرى للإنسانيين الإيطاليين والألمان من ونكلمان Winckelman إلى شبرنغر وجيجر ، وبالنسبة لهم إن فردية الأمة وفردية الشخص لا ينفصلان ، وتشكيل الواحد لا يستتبع فقط ، بل يفترض سلفاً تشكل الآخر ، وتعليم الفرد يمكن تحقيقه فقط باشتراكه في حياة الأمة ، وبالمقابل إن تطور الأمة إلى الأعلى لا يمكن التفكير فيه دون النمو الروحي والأخلاقي لمواطنيها ، ولا تحمل السلطة السياسية شرعيتها في ذاتها ، إنها تصبح شرعية عندما يتساوى الحاكم ، أو يفوق ، المحكوم في روح الجميع ، والأمة هي التجسيد الأبدي غير التام للألمنة أو للفرنسة ، والألمنة نفسها هي فكرة ، أو بالحري عملية لا فقهية أو باختصار طموح[٣٥] لقد نهضت كل أمة أوروبية لتصبح «أمة مثقفة» باتباعها مثال روما في محاولة للعثور على تعبير روحي عن تطلعاتها الوطنية بوحي واتباع مثال روما يقتضي قبول اليونان كمعيار ومن ثم «التحرر الكلي والتغيير المطلق» ، الذي لا يمكن مطلقاً أن يوقف عليه أي جزء وفترة من التطور الإسلامي[٣٦] لقد كان من سوء حظ العرب ، أن المصادر الأوروبية لعقائديتهم القومية (أو في بعض الحالات الناقلون العرب) قد مثلت منحى مختلفاً للقومية الغربية[٣٧] .

- ٤ -

ماهو مقدار إبعاد هدف البحث الإسلامي المعاصر ، وقد سمى هكذا خصيصاً ، بناء على التفسير التاريخي الذاتي (المستوحى) من الغرب ، ويمكن توثيق الحالة الثقافية الشاذة من التحديد الذي ورد في بحث صدر مؤخراً لباكستاني بارز هو محمد رافع الدين (مدير أكاديمية إقبال في كراتشي) فقد عرف البحث الإسلامي على أنه ذلك الذي يتمركز حول محتويات القرآن والحديث . ويدخل الدكتور رافع الدين فيه كل ما كتبه العلماء المسلمون في الماضي أو ما قد يكتبونه في المستقبل (أ) عن الكتب المقدسة (ب) حول الكتب التي كتبت عن الكتب المقدسة ، ويستبعد (جـ) كل ما كتبه العلماء المسلمون في الماضي ، أو قد يكتبونه في المستقبل عن أي موضوع آخر غير الإسلام مثل الطب ، الفيزياء ، علم الفلك ، الكيمياء ، تأليف المعاجم ، التاريخ والفن والأدب ، ويستبعد أيضاً (د) كل

أعمال البحث التي قد نقوم بها حول الكتب التي كتبت حول الفقرة /جـ/ أعلاه ، علاوة ذلك ، طالما أن محتويات الكتب المقدسة غير مفهومة من قبل غير المسلمين في حد ذاتها ، فإن غير المسلمين لا يتوقع منهم أن يجعلوها مفهومة للآخرين كمحتويات مقدسة للكتب المقدسة ، أو أنه لديهم النية ليفعلوا ذلك ، وسيستبعد البحث الإسلامي أيضاً /هـ/ كل أعمال البحث التي قام بها علماء غير مسلمين حول الكتب المقدسة ، أو الكتب المكتوبة حول الكتب المقدسة(٣٨) .

ويقسم المؤلف البحث الإسلامي ككل إلى :

١ ـ آلي (٢) وأصلي . ووظيفة البحث الإسلامي مزدوجة (١) أن يدحض مباشرة أو بصورة غير مباشرة الأفكار الفلسفية الخاطئة ، التي أصبحت سائدة في ذلك الوقت ، وبدأ يكون لها أثر غير موات على عقيدة المسلمين . (٢) أن تؤكد صحة الإسلام وتدافع عن المعتقدات والأفكار الإسلامية بالاستفادة من جميع الأفكار الفلسفية والصحيحة المتوفرة في ذلك الوقت(٣٩) .

وجميع البحوث في الأمور المتعلقة بما يمكن أن يدعوه بالمدنية الإسلامية التي لا يغطيها تحديد البحث الإسلامي هي مجرد «بحث استشراقي» ، ذلك الذي كان الغربيون رواداً له ، إنه آلي تماماً ويهتم بترجمة الأعمال القديمة للتاريخ والفلسفة ، والدين والمعاجم ، والعلم ، والأدب ، المكتوبة بلغات شرقية مثل العربية ، والفارسية والسنكسكريتية والصينية والأندونيسية ، والتركية الخ وتحقيقها وشرحها وتلخيصها واعادة صياغتها أو فهرستها(٤٠) .

وبصرف النظر عن البواعث التبشيرية والإدارية والسياسية ، كان العلماء الغربيون في متابعة البحث الشرقي ، دون شك ، مدفوعين أيضاً برغبتهم في «إشباع فضولهم» وتزويد أنفسهم بمتعة كشف الآثار الخبيئة لمدنيات قديمة لم تعد موجودة طبقاً لهم ، والتي نسخت بمدنية متفوقة إلى حد بعيد ، هم أنفسهم حملة مشاعلها ، وموقفهم شبيه بموقفنا من القيام بالحفريات في تكسيلا Taxila التي نتعرى بها أمام الدنيا ، لإمتاعهم أو لإرضاء فضولهم بالكشف عن العلامات الدفينة لمدنية انقطع وجودها إلى الأبد(٤١) .

هل يمكن ذكر سوء فهم تطلعاتنا الثقافية وعدم انتاجيتها بتعابير البحث التاريخي لغيرنا بوضوح أكثر؟(٤٢) لقد ظهر أن هدف المستشرقين المهتمين

بالإسلام ، كان كشف المنجزات الفكرية للعالم القديم في المشرق ، الذي كان الجزء الأكثر تثقيفاً ومدنية في الكون حتى وقت قريب ، وإظهار علاقتها بالمنجزات الفكرية للعصر الراهن[٤٣] ، ويبقى البحث في هذا الاتجاه بحثاً غير إسلامي ، ومن جانب آخر إن «التفسير العلمي للإسلام . . . هو ضرورة حيوية للجماعة الإسلامية اليوم ، ويمكننا أن نغفله فقط تحت طائلة عقوبة الموت»[٤٤] «وكي يبقى الإسلام يجب أن يشن هجوماً عقائدياً»[٤٥] .

إن المشاغل التي توجه البحث الإسلامي «بل والشرقي أيضاً» كما وصفت وخططت من قبل رافع الدين هي من اختصاص الجدليين ، وهي تعكس غياب المذهبية العلمانية الإيجابية في الإسلام المعاصر ، التي تطورت عن التقاليد الإسلامية نفسها ، والتي توازي العلمانية الغربية كنظام إيجابي من القيم قائمة في النهاية على أفكار يونانية عن العدل ، والنظام ، والعقل ، والإنسانية[٤٦] ومع غياب فهم الذات يأتي صدوراً عن الحاجة غياب كامل لأي فهم للفوارق الثقافية بين عالم الإسلام والعالم الغربي وهو نقص لم يلطف بوساطة فهم لمكوناتهما الدينية .

وتثير الحالة الفكرية التي يتكلم عنها رافع الدين في الذهن ، الحكم الذي أعلنه مفكر عربي شاب على شعبه ، الذي قد نسي في نظره أن كل المعرفة الذاتية ، والتاريخ ، والثقافة ، وهي تطلعات العرب قد حددت وتقولبت في ، وارتبطت مع الغرب في المائتي سنة الماضية ، وحتى الآن لا يوجد إنكار لحقيقة أن المفكر العربي يفهم نفسه وحالته بشكل أفضل ، ليس في القاهرة أو دمشق ، أو بيروت ، التي تكتب وتتكلم العربية ، بل بالأحرى في باريس ولندن ، أو نيويورك أيضاً ، التي تكتب وتتكلم بالفرنسية أو الإنكليزية ، إن مهمته الحقيقية في الأزمنة الراهنة ، وللسنوات الخمسين القادمة هي أن يجد طريقه خارج «الأنا» العربية المعوقة ، ليصل في النهاية إلى فهم الآخرين بدلاً من البقاء في حالة العطالة في فهم «الآخرين»[٤٧] ، ولم تكن الحاجة الوظيفية للجماعية الكبيرة لتحقيق التعبير الذاتي من خلال فهم «الآخرين» لتتحقق بفعالية أكثر ، ويبدو أن المرء يشعر بأن الشرابي أدرك أن التحول في الطموح يجب أن يسبق تشكيل صورة ذاتية خلاقة فاعلة ، وتغيرات الطموح هي Umbrüche في التحليل الأخير الذي سيقبل على أنه قفزات غير مستمرة من نوع من أنواع إدراك الذات البشرية إلى آخر ، وربما كانت طبيعتها

سهلة التمييز بسرعة في انعكاسات معينة للمذاق الغني مثل الاختراق المفاجىء للكلاسيكية في ١٧٥٠ و ١٧٦٠[٤٨].

- ٥ -

إن الاعتماد المتبادل لصورة الذات والفعل التاريخي التالي (والشرح التاريخي) ذاته بالطبع ليس مقصوراً على فترة خاصة أو أية مدنية بعينها ، والشمولية في هذا الارتباط هي التي تجعل من المهم استعادتها في الذهن ، ويتألف الإعداد العقائدي - كما كان يتوقع له أن يصبح غزواً إغريقياً مقدونياً للشرق من قبل سقراط ، لا بل أيضاً من قبل أرسطو أيضاً ، كما يعتقد مؤيدو التفوق الجوهري للهلينيين على البرابرة - بشكل متميز من شحذ وغرس للنظرة الذاتية في الذهن ، وهذا يفسر ويسوغ الافتراض المتوقع للسيادة ، وإذا كانت المسافة بين الإغريق والبرابرة بطول المسافة نفسها الإنسان والبهيمة ، فإن السيادة الإغريقية على البرابرة كانت بداهة مطلوبة ، والعناصر التي مضت لتشكيل الصورة الذاتية في حالة الإغريق هي المناخ ، والمدنية في تضاد مع الملكيات عديمة الشكل في الشرق ، بل وسوف أيضاً Dianoia و Paidia تختلف[٤٩] مع العلاقة الوظيفية بين الصورة والفعل والطموح ، والصورة على أي حال ، ثابتة .

ولسوف يجادل كتاب الكراسات السياسية (الذين يجب أن يُعدَّ بينهم سقراط في بعض المراحل من تطوره) كثيراً بفكرتهم على أساس (ما الذى يريدونه أن يقبل) كصورة للذات لأنفسهم أو لمجموعة أخرى ، ويصور تبادل الاعتماد بين الطموح والصورة بشكل ممتع تقريباً من قبل الجاحظ العظيم (ت ٨٦٩ م) حيث رغب في صنع مكانة معترف بها ومحترمة للترك في الخلافة ، لذا طمس المميزات العرقية بينهم وبين الإيرانيين ، وأكد فوق كل شيء ، الأثر التمثلي للولاء الذي يربط الأجنبي الداخل في الإسلام بالقبيلة العربية ، التي يكسب ولاءها ، ويسجل التاريخ أحداثاً موحية لما قد يصبح ممكناً في المستقبل ، ألم يصبح اسماعيل المولود من أبوين غير عربيين ، عربياً بأمر الله ؟ وينبعث الولاء كوسيلة اجتماعية لإزالة الفوارق ، التي يتطلبها الدين ، عندما يعلن المساواة بين المؤمنين أمام عرش الله ، فكان هدف الجاحظ هو بلوغ الوحدة في طاعة الخليفة ، فإذا لم يتحكم اللون

بصورة الذات ، فإنه يقنع المجتمع بالقبول[٥٠] وفي مناسبة أخرى عندما أراد الجاحظ أن يحمي تفوق العرب على الموالي الذين كانوا يطلبون المساواة على أساس موالاتهم للعرب (وتفوقهم كورثة للتقاليد الحضارية لأسلافهم الإيرانيين الذي يمنحهم لقب ذوي الحضارتين) يتعجب قائلاً : «وأي شيء أغيظ من أن يكون عندك من يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقر بأنه صار شريفاً بعتقك إياه»[٥١] .

وقد يبدو أن النقد الذي وجهه ساطع الحصري لحسين مؤنس على السطح في أنه قد أثير بفكرة مؤنس عن عدم استمرارية التاريخ العربي[٥٢] ، ففي مقارنة مع التاريخ الأوروبي نجد أن التاريخ الأوروبي الذي لم يعرف منذ أوائل العصور الوسطى أي انقطاع ، وحيث نمت كل مرحلة عضوياً من السالفة مع نتيجة أن الرجل الإنكليزي على سبيل المثال ، يمارس بوضوح الصلات بالمؤسسات التي يعيش فيها مع الماغناكارتا ، في حين أن المراحل الرئيسة للتاريخ العربي الإسلامي متميزة وغير مترابطة ، فعصر الأمويين مختلف تماماً عن عصر الخلفاء الراشدين ، وأيضاً عن العصر العباسي ، والخليفة العباسي يختلف عن الأموي ، ومجتمع بغداد يختلف عن مجتمع دمشق ، والتغيرات ليس تطورية ، بل هي قفزات ، وتشبه بدايات جديدة ، وهكذا عندما نقصد اليوم إحياء الأجيال الماضية من المسلمين فإننا في الواقع نهدف إلى صناعة ظاهرة غير طبيعية ، ونرمي إلى تشكيل تاريخنا على النموذج الأوروبي ، ولكن بينما يشعر الإنكليزي المعاصر بأن هناك رابطة حقيقة بينه وبين الماغناكارتا ومجموعة الأوامر القضائية ، نشعر حقاً بأنه لا توجد رابطة حقيقية تربطنا ببني أمية أو ببني العباس ، ولهذا السبب ، فإنه من الطبيعي أن العرب من بين جميع الشعوب هم الأقل تأثراً بماضيهم ، والأقل ارتباطاً به ، ولا يجد ساطع الحصري صعوبة كبيرة جداً في عرض قضية حول استمرار التاريخ في العالم العربي الإسلامي ، وفي الحقيقة ، إنه وجد تأييداً في مقال آخر لخصومه أكد فيه مؤنس بقاء ما يمكن للمرء أن يسميه النمط العباسي للإدارة في مصر الحديثة .

وليست الناحية الهامة في هذا النقاش هي مغالاة مؤنس ولا في الـ Misea point إنها في الصراع غير القابل للتسوية التي يعكسها مؤنس والحصري في عرضهما للتاريخ العربي المسلم ، إن مؤنس لا يجد التزاماً في الماضي العربي الإسلامي ، لقد تحرك التاريخ العربي دائماً في مراحل غير مترابطة ، لهذا يمكن

للمرء أن يستنتج أن مستقبل العرب قد يكون بداية جديدة ، ربما مستوحاة من الأفكار الأوروبية وطرزها الاجتماعية ، وعلى أي حال ، يمكن أن يفهم على أنه قابل للفصل عن الماضي الذي اختبر بوضوح على أنه إلهام غير كامل في الحالة الراهنة . والحصري يختلف عنه تماماً ، فبالنسبة له ، التاريخ العربي المسلم طبيعي في مبناه كما يمكن لأي تاريخ أن يكون ، والعرب ملتزمون به بالدرجة نفسها التي يلتزم بها أي أوروبي بتاريخه ، وعلى صانعي المستقبل ـ ربما نستنتج ـ أن يأخذوا الماضي في حسبانهم ، والعباسيون حقيقيون بالنسبة للحصري كالماغناكارتا بالنسبة لرجل مؤنس الإنكليزي[٥٤] .

ولكن الماضي لديه أكثر من درس واحد ليعلمه ، فالتمزق المبكر للدولة الإسلامية وبالإضافة إلى حقيقة أنه للألف الماضي أو ما يزيد ، لم يكن هناك مطلقاً زمان تمتع فيه المسلمون بالوحدة السياسية[*] فيه برهان على أن الطريق نحو مثل هذه الوحدة السياسية للمسلمين ، لم تكن هدفاً جديراً بالتحقيق ، فإن التوحيد السياسي للعرب يجب أن ينجز قبل إمكان القيام بمحاولة جدية للوحدة الإسلامية بمعناها السياسي ، والذين يقدمون وحدة المسلمين على وحدة العرب ، والذين يمضون بعيداً إلى حد اعتبار الوحدة العربية خطراً على الوحدة الإسلامية يخفقون في التمييز بين «أخوة العقيدة» : الاخوة الدينية والرابطة السياسية ، ومع ذلك ، بينما يؤكد الحصري قناعته بالحجج المستمدة من التاريخ ، والجغرافية ، والمنطق ، يدرك أنه لن يكون قادراً على هز معتقدات المغالين في حماسهم الديني ، الذين في مصطلحاتنا ، لا يشعرون بأنهم مرتبطون بالتاريخ ، والذين تحرم تطلعاتهم منطق الوقائع من محصلاتها[٥٥] .

التاريخ أرض معركة الإيحاءات ، وتوحي صورة الذات صورة الماضي ، ومن ثم ، فإن اللمسة التاريخية للمسوغين المسلمين ، ثم الحاجة لعرض أمجاد الماضي من أحداث مختارة ، قبلت كحوادث هامة وعرضية بتعابير تنبؤية ، وفي

★ ـ لم يفقد العرب ولا المسلمون وحدتهم عبر العصور التي تقدمت السيطرة الاستعمارية من مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعقائدية والتشريعية والثقافية ولا يمكن اتخاذ الواقع السياسي معياراً على وجود وحدة أو انعدامها .

وقت مبكر يعود إلى ١٩٢٣ ، تحدث طه حسين (المولود (١٨٨٩) عن الذين يرون في دراسة التاريخ فقط فرصة لتمجيد الأسلاف ، ومع أنه أوضح أنه لم يقبل فهمهم سلّم بأنهم كانوا يمثلون مرحلة ـ ليست كبيرة بعد ـ لكن لا مفر منها في تطوير بلد منبعث من جديد يعزو إلى ماضيه مجداً ينقصه في الحاضر[٥٦] ، وفي ١٩٤٧ أكمل طه حسين ملاحظته بالقول : ما أن كسب العصريون نصراً حاسماً على المحافظين حتى باشروا بإعادة التفكير في التاريخ الإسلامي ، وأنتجوا من ١٩٣٣ فصاعداً أدباً ذا إلهام ديني ، رُحب به في لهفة من جمهور القراء[٥٧] ، وفي هذا السياق يمكن أن نصنف قصة توفيق الحكيم أهل الكهف ١٩٣٣ وسيرة النبي (ﷺ) المتسمة بالتقديس[٥٨] لمحمد حسن هيكل[٥٩] (١٨٨٨ ـ ١٩٥٦) وكتابات عباس محمود العقاد المولود في ١٨٨٩[٦٠] وبالطبع سلسلة طه حسين الروائية «على هامش السيرة» (١٩٣٣ ، ١٩٣٧ ، ١٩٤٦)[٦١] والأكثر تأريخاً «الفتنة الكبرى» (١٩٤٧ ـ ١٩٥٣) .

وتركنا طه حسين في القسم التمهيدي من كتابه «عثمان»[٦٢] نعرف هدفه المزدوج : أبعاد تاريخ الفتنة وأسلافها بصدورها عن ساحة الحزبية الدينية وتحديد الظروف اللاشخصية بدلاً عن ضعف المقاصد ، أو خبث النوايا لدى بعض الشخصيات ، كأسباب للاضطرابات التي أدت إلى اغتيال الخليفة عثمان ، ومن الخطأ أن نقيس عثمان على تطلعات سلفية بالنسبة لإقرار العدل السياسي والاجتماعي ، وهي تطلعات لم يكن لها إلا أن تخفق برؤيته ، إن أبا بكر وعمر كانا سابقان لزمنيهما بكثير ، ويعترف طه حسين بإدراكه المضامين الدينية التي حملتها أحداث الفترة بالنسبة إلى معظم المسلمين إلى هذا اليوم ، ولكنه أعلن بأنه بريء من أي تحيز من هذا النوع ، وأصر على وحدة النظام السياسي الإسلامي[٦٣] ومع ذلك شعر بأن عمر ربما لم يمض بعيداً بدرجة كافية في تطوير الشورى[٦٤] .

ويتساءل المرء عما إذا ما كان طه حسين كان مدركاً للطبيعة السنية النموذجية لموقفه ، عندما قام ، مع تقدم بارز في فلسفة التحليل التاريخي ، بتبرئة الأشخاص ، ووجه اللوم للظروف[٦٥] وقد رسم صورة إطرائية لعلي[٦٦] لم يبتعد فيها مع ذلك عن التقاليد ، وعندما نفذ طه حسين بعمق ، أكثر من معاصريه من المسلمين ، إلى مجرى الأحداث والظروف التي سببتها ، فعل هذا بسبب المجال

الأكبر لنهجه «النفسي» ، ولأن هدفه من عدم تشخيص التتابع المأساوي للأحداث أمده بإلماعات تفتقر إليها الروايات التقليدية التي اقتصرت على ذكر الأبيض والأسود بالضرورة ، ولكن الفهم المتعمق الذي حققه عن الفترة ، لم يعد إلى معالجة تقنية محسنة للمصادر ، أو إلى قوانين أشد صرامة للنقد ، أو إلى حساسية أكبر للمفارقات التاريخية ، وما شابه ذلك حيث أنه لم يتردد في رفض شهادة جميع المؤرخين ، فيما يتعلق بالأسباب التي أدت إلى استدعاء سعد بن أبي وقاص من حكم الكوفة ، وذلك على الأساس البسيط ، بأن تلك الأسباب تنعكس بشكل غير موات على ثالث أقدم الصحابة وبناء عليه ، فإنه لا يمكن أن تكون صحيحة[٦٧] . ولم يتردد في الإفادة من الآثار التي تنطوي على المفارقة عندما كانت توائم هدفه[٦٨] ومع ذلك فإنه انتقد التمجيد الطائش للعقود الأولى للخلافة من قبل الذين يفعلون ذلك على أسس دينية صرف ، وحلل بذكاء البواعث على التفسيرات المختلفة التي يجريها مختلف المسلمين ، للتقارير التاريخية المتعلقة بتورط الصحابة في المعارضة ، وفي الثورة ضد عثمان[٦٩] . ولإبعاد الفتنة عن أسباب الصدع الداخلي بين المسلمين ، ولبيان تفرد النظام الإسلامي النموذجي ، وهذه هي التطلعات القيادية لعمل طه حسين ، والرغبة في إحياء حكايات الماضي لجيله ، وللإيحاء بفهم تحليل أكثر صقلاً ، وقد نضيف ، أكثر حداثة ، حتى بالنسبة للتاريخ شبه المقدس ، مثلاً العناصر الأخرى التي شكلت وحددت عرض طه حسين للأحداث التاريخية[٧٠] وإيجاد الحقيقة التي لم تتوفر لهم ، وكانت إعادة تجميع عناصر الفتنة في وعي المتعلمين كسلسلة ذات معنى دائم من الأحداث ، بالنسبة لطه حسين ، أكثر أهمية بوضوح من توضيح مواضع النقاش في الفتنة ذاتها .

وليس سهلاً استخراج الرؤية الموجهة في كتاب صبحي وحيدة «في أصول المسألة المصرية»[٧١] لأنه ـ أولاً ـ في بعض النواحي كتاب علمي ، أو قصد أن يكون كذلك ، وهو يقدم الهيكل الكامل لتاريخ مصر ، الموجه إلى نواحيه الاقتصادية والاجتماعية ، والعرض قائم في القسم الأعظم على بينات ثانوية مكدسة عشوائياً ، ومع ذلك فهو دقيق ، يتجنب النغمة الطنانة التي نادراً ما تغيب حتى عن الكتابة نصف السياسية في الشرق المعاصر ، إنه كتاب تسويغي ولكن

تنقصه العدوانية ، التي تصاحب عادة التسويغ والدفاع عن العقائد ، وهو أيضاً كتاب بناء مع أنه من الصعب رؤية كيف يمكن لرجل الدولة «الممارسة» أن يستفيد من بصيرته ، لأن الصورة التي يرسمها هذا المسيحي لموضع بلده في العالم معقدة جداً ، وشديدة القرب من الحقائق التاريخية لتسمح بالحصول على نتائج بسيطة منها .

فالفتح الإسلامي لمصر كان في مؤثراته ، أولاً وفي المقام الأعظم ، فتح عربي وإنه لرائع كيف تحقق تعريب هذه البلاد بهذه السرعة ، ومع أن التمييز بين المسيحيين والمسلمين مستمر إلى اليوم ، لكن المجتمع المصري ذي المعسكرين الدينيين قد أصبح معرباً بصورة لا رجعة فيها(٧٢) ، وليس مرد الفروق في طرق التفكير بين المصري والسوري والعراقي إلى أي خلاف في الوعي القومي ، فالدولة الإسلامية لم تكن مبنية على الكيانات القومية ، وأسماء الأسر الحاكمة بالذات والسهولة التي انتقل بها الأمويون من موطنهم في مكة إلى دمشق ، والتأييد الفارسي الذي جنده العباسيون ، وتأسيس الفاطميين العرب لدولتهم في شمالي أفريقيا ثم إعادة غرسها في مصر ، ولو كانت الظروف مواتية لنقل عاصمتها إلى العراق ، دليل على أن قاعدة المجتمع السياسي لم تكن الدولة ، بل كانت من الجانب الأخر الأساس العربي ، الذي كان قوياً في كل مكان بدرجة كافية ليحمل البنى السياسية التحتية للقوى الجغرافية المختلفة(٧٣) وإنه لأمر مفهوم ومسوغ بدرجة كبيرة ، أن وحيدة أكد على استمرار الإدارة المصرية بدلاً من التجريد الذي أدخلته النظم المتعاقبة ، لكن سيكون من غير العدل اتهامه بالتعامي عن المميزات المتغيرة للفترات الكبيرة التي عاشت مصر خلالها ، ومع ذلك فإن استمرارية مصر نفسها التي خبرت تغيراً حاداً واحداً فقط ، أعني تعريبها ، يبقى المحرك السائد ، ويؤثر التجانس فيما ينبغي أن نرغب في تسميته فلك المدنية الإسلامية - في تفضيل مفهوم وحيدة لمنطقة تستمد أي تجانس لديها من تعريبها - في رؤية وحيدة ضد الإحساس القوي بالفردية المصرية والتخفيف من العامل الإسلامي ، الذي يؤثر في مصر كنتيجة للفتح العربي قد يرتبط بميل وحيدة إلى تقرير أن الصراع المسيحي - الإسلامي هو مجرد تمايز اجتماعي ضمن المدنية العربية لبلاده ، وحاول في الوقت نفسه أن يعزل مصر بمناقشة مطولة لتاريخها الخاص قبل وفي ظل الإسلام ، وفي

هذا السياق تنبعث وجهة نظر ثالثة تؤكد نفسها ، وهي التي حثت وحيدة على معارضة أفكار الذين كانوا يشرحون علل مصر في الأيام الراهنة بتعابير المزاج الطبيعي لسكانها باستنتاجها من الحالة العامة للعالم بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، وهو تحليل يؤدي به عرضاً إلى رفض تنحية القوى الفردية على أنها المتهمة في الحالة غير المرضية للشؤون المصرية[٧٤] .

ورأى وحيدة بوضوح النتائج المتعارضة التي توصل إليها معاصروه في تشخيص موقع مصر الثقافي ، حيث تمسكت مجموعة كان يقودها طه حسين بأن قرابتها الفكرية من الغرب تضطرها في الصراع بين المدنية الشرقية والغربية لأن تقف في صف الغرب ، وتمسكت الثانية ـ وأفضل تمثيل لها هو توفيق الحكيم ـ بأن مصر تحتاج إلى التمسك بتقاليدها الشرقية ، لأنها الأقرب للتوافق مع ما هو أفضل لدى الجنس البشري[٧٥] ولكن تنوع التطلعات التي تحفزه ، وقد يضيف المرء ، وقطاعات كبيرة من المجتمع الذي يتكلم عنه تمنعه من أن يؤيد أغراض كلا الطرفين ، ووجهة النظر التي تبدو لوحيدة أكثر سهولة في التوافق مع تلك الطموحات ـ حتى لو كانت عقيدة التعريب كانقطاع كبير ووحيد في تاريخ مصر لم تتواءم ، على الأقل في رأي هذا الكاتب ـ وتماماً معها ـ هي التأكيد على وحدة البحر المتوسط ، وأصر وحيدة على إدراكه للفروق التي تفصل الواحد عن الآخر لدى كل شعب ، ولدى جميع الشعوب التي تسكن شواطىء البحر المتوسط ، ومرة أخرى الفروق التي تفصلها جميعاً عن المصريين ، وهو مع ذلك شعر أن هذه الفروق لا تمس الخطوط الكبرى ، التي انتظمت عليها حياة تلك المجتمعات ، والذين يرغبون أن يخرجوا مصر من محيط البحر المتوسط[٧٦] هم ضحايا سوء فهم بخطورة سوء فهم الذين يعزون الحالة غير المرضية لمصر إلى عيوب نظرية متأصلة في شعبها ، وهكذا يقودون إلى اليأس من مستقبها بالمرة[٧٧].

وهكذا ينتهي التحليل بوضع مصر في شبكة من العلاقات التي تسوغ الميول الثقافية للمتجهين نحو الغرب ، وفصلها عن المناطق الآسيوية المسلمة ، وحين تركوها في منطقة التعريب (بدلاً من المنطقة المسلمة) في سبيل السماح للأقباط ، وهم مجرد مستعربين ، بأن يتوافقوا في الأساسيات مع الأقباط المستعربين الذين كسبهم الإسلام أيضاً .

والمستقبل كما يتصوره محمد عبد القادر العماوي[٧٨] للإسلام ـ الذي رآه مختلفاً وغامضاً كدين ، وكنظام اجتماعي وسياسي وحضارة ـ ذا سمت غير مؤكد جداً ، ويجعله التبني غير المحدود للرسالة القرآنية يبدو ضبابياً ، وسيحرمه التزامه الخاص ببرنامج في التاريخ ، من مؤهلاته الملهمة ، وهي مقصورة تقريباً حسب بيان العماوي على أن الرسالة الإسلامية ليست التي يمكننا إعادة بنائها ، حسبما رآه أنها هي ، وكما كان يتوقع أثار بشكل عنيف معارضة «الرجعية الدينية» مع الملحدين ، والذين يؤيدون نظام الحكم الاستبدادي المطلق ، وهنا قد نفترض أنه كان يدافع عن الديموقراطية الحقيقية ، وحين تقول ديموقراطية ، ليس حسب النمط الغربي[٧٩] بل من نوع يقوم على ما يفهم أنه الطبيعة التقدمية للإسلام الحقيقي ، والميل الذي يتخلل تفكير العماوي بمجمله هو أن يبعد عن الإسلام أية خصوصية أو تحديد ، ربما فرصة التاريخ الفعلي للمسلمين ـ وليس الإسلام نفسه ـ عليه ، وليس لدى التاريخ قوة يلزم بها الأجيال التالية ، ولقد تحقق الإسلام الفعلي فقط خلال فترة حياة النبي ، وحكم الخليفتين الأولين ، والحكم العرضي لعمر الثاني الأموي (٧١٧ ـ ٧٢٠)[٨٠] .

ومع محو لوح الذاكرة ليصبح خالياً من خبرات الماضي (الإدارية ، والسياسية) التاريخية نقوم بعودة نحو توحيد العقيدة ، ومع الإقرار بأن المعتقدات الدينية في حاجة للصياغة ، فإن العقيدة لا يمكن أن يستغنى عنها[٨١] ولكن العقائد ستصبح ، أو على الأقل ستحوي عناصر مثبطة مسؤولة عن انحطاط الإسلام ، مثل الإستعمار من جانب ، ومن جانب آخر عدم مواءمة رجال الدين للحكام الذين يدعون أنهم ممثلو الرب على الأرض[٨٢] وتتضمن الخاصية الناظمة لأي تحديد لطبيعة الإسلام إدانة للحركات الطائفية ، وتحول العماوي ضد محاولات كالتي قام بها غولدزيهر أو ع . م العقاد لتفسير قيام الطوائف والفتن في الإسلام ، كنتائج لقضايا تاريخية كبيرة وفسر العماوي تلك الحركات على أنها مجرد نتائج للدهاء المفرط ، وعدم الإخلاص ، من جانب الذين دخلوا مجدداً في العقيدة ، أو الطموح الشخصي لبعض القادة وما شابه ذلك[٨٣] ، وليس هناك أي صراع بين العقل والدين في ذاته ، وعندما يحدث صراع فإنه يكون بين العقل وعقيدة رجال الدين ، وسلوكهم الشخصي[٨٤] ، وأصر العماوي ، على أنه لا شيء في طبيعة

الإسلام كان يمكن أن يؤدي بالضرورة إلى الانقسام السني ـ الشيعي ، أو إلى أي انقسام طائفي آخر ، والانقسام بين السنة والشيعة يعود حصراً إلى ظروف سياسية(٨٥) ، وفي الحقيقة إن المذهب الشيعي هو «جسم غريب» أدخل إلى الإسلام من قبل أناس مثل عبد الله بن سبأ ، الذي خضع من ناحية ثانية إلى تحول نحو الخارج(٨٦) ، ولا يمكن اتهام الشيعي المعاصر بعدم الإخلاص ، والبعد عن الدين ، أو الرغبة في تخريب الإسلام ، ومحرضو الشيعة هم الذين يجب أن يتهموا بهذه النقائص والنوايا(٨٧) ، ومقتل الحسين هو أشد الأعمال سواداً مما سجله التاريخ(٨٨) وأعداء الإسلام فقط هم الذين وقفوا للكسب منه ، وعليه فإنهم هم الذين يجب أن يعرفوا بأنهم مهندسوه ، وأصر المؤلف مرة أخرى على أن جميع الطوائف الإسلامية مدينون بوجودهم إلى بواعث فوق دينية وفي المقام الأول لرغبة في الإضرار بالإسلام(٩٠) ، لم يعرف الإسلام الذي في ذهن العماوي بوضوح مطلقاً ، ولكن من نقده للطوائف والمعتزلة ، الذين يتهمون بإبعاد العقيدة عن الأساسيات بإدخال التفكير الدقيق للتعليل الفلسفي(٩١) ، تبرز صورة الإسلام على أنه أصغر حجم لما تصورته أية طائفة مسلمة أنه الإسلام(٩٢) ـ مجموعة من المواقف القابلة للتسويغ من القرآن الكريم وعناصر من السنة ، عناصر اختيرت مباشرة وبسذاجة استجابة للأهداف الشائعة إلى حد أن اعتباطية الاختيار بتعابير كل من علم الحديث المسلم والثقافة النقدية الغربية تمر دون أن تلحظ ، وفي التحليل الأخير ، الإسلام بالنسبة للعماوي هو ما يريده أصحاب العقل السليم ، من أية جماعة أو رغبوا أن يكونوا ، وأكثر من أي شيء آخر أنه هوية ، وراية وقضية ، ويمكن تعريفه بالنفي بدلاً من الإثبات ، لأن العماوي يرعبه التثبيت سواء أكان بالتعريف الديني أو الاشتراط الشرعي ، أو الواقعية المجردة للتاريخ ، والأمر المشترك بين جميع الهراطقة ، وفي الواقع الصفة التي تجعلهم منحرفين وخارجين هو بالضبط الإلحاح على تعريف الإسلام ، وتقييد المضامين المذهبية ، والاعتراف بالسابقة التاريخية للرومانتيكية الأبدية لفترة الخلفاء الراشدين التي لم تكن مطلقاً رومانتيكية(٩٣) .

وهناك إيماءة إلى أن عالمية الإسلام ، قد حملت معها مخاطر الانقسام الطائفي ، إذا أخذنا بعين الاعتبار اجتذاب رسالته لشعوب من خلفيات

مختلفة[٩٤] ، وهناك ، إلى جانب ذلك ، إدراك بأن الإسلام من (قطعة واحدة) ، وأن قواعده تدعم الواحدة منها الأخرى ، وأن نواحيه الدينية والسياسية غير قابلة للفصل[٩٥] ، ولكن هذا التبصر غير مفهوم حقاً ، لأن المؤلف نحاه جانباً ليصر أيضاً وأيضاً على أن الاختلافات في وجهات النظر الدينية ضمن الإسلام قد خرجت من العداء الخفي له من جانب العرب وغير العرب[٩٦] ، وقد وقف مطولاً عند التأثيرات الضارة للموالي ، ولكن ثلاثة فقط من الذين ملكوا زمام الجماعة كانوا حكاماً مسلمين ، والآخرون كانوا مجرد حكام باسم الإسلام ، ولكن الإسلام لا يمكن أن يعد مسؤولاً عن ادارتهم[٩٨] ، وهناك عجب صغير أن رعب العماوي لم يؤد به إلى فهم للماضي أو للمسيرة التاريخية في حد ذاتها ، وليس في الملخص عن تاريخ ما قبل الإسلام[٩٩] ، الذي عرضه ليصور فيه التدهور في العالم ، قبل مجيء النبي (ﷺ) ، أدنى جهد من أي نوع لتقديم معلومات دقيقة[١٠٠] وهذا الذي قد نسميه تجاهلاً متعمداً استمر في تقديم الفترة المسلمة ، ومن الصعب فهم أن المسلم المتعلم يمكن أن يكون على هذا القدر من نقص المعلومات حول تاريخ عقيدته أو المؤمن المخلص كما أراد العماوي أن يظهر نفسه ، وأقر الجدل النفسي من ناحية الأوليات رأساً أن «علياً» كما كان (قام الوصف على آثار غير ممحصة) لم يكن ليعارض خلافة أبي بكر[١٠١] ، والرواية حول مقتل عثمان قد أخذت ، بدون تمييز عن ابن سعد ، وابن خلدون[١٠٢] ، وصيغت أحداث القرن التاسع وفق أسلوب يجعلها تتحمل الحكم سلفاً ، بأن الفترة كانت تبتعد عن الإسلام[١٠٣] ، وتستبعد عملية اختزال الإسلام إلى فكرة وردت بشكل غامض في الكتاب المقدس ، وعرضت لكن لفترة قصيرة في مجتمع بشري ، أية علاقة لهذه الفكرة بالتاريخ ، ووصف الإسلام بأنه قادر على أن يخبر عن كل أو أية حالة تاريخية[١٠٤] ، ولكن بالمعنى الدقيق قد تحقق فقط في حدثين وجيزين ، وإذا أخذنا موقف العماوي بجدية نجد أن بإمكان إسلامه أن يصادق على شرعية التاريخ ، لكنه نادراً ما فعل ، كما أن التاريخ لم يصادق على شرعية هذا الإسلام[١٠٥] فإسلام العماوي ـ متطرف ، وفي داخل العالم الإسلامي لا يعدو كونه مثلاً عادياً لإلهام فيه التاريخ ، ومن ثم الكتابة التاريخية عديمة القيمة ـ وقد أفرغ التاريخ من أي معنى بالنسبة للمؤمن ، وحرمه من أي حافز لتحري مساره ، ولكنه مجرداً من أية وظيفة

لتحقيق هدف العماوي - وإعادة بناء مجتمع بوسائل التعريف الذي يسقط التاريخ الماضي على الوحي الموجود سلفاً - طرح التاريخ جانباً ، ويجعل اختفاء الإطار الذي يعطي الحياة المعلومات عن الماضي تغرق تحت عتبة التمييز ، ويبقى المصلح المسلم وحده مع كتاب وقصة عن أصول السعادة القصيرة العمر ، وهو في إعادة صياغة مجتمعه تحت اسم كيان عقائدي سيحول شكله ليوافق تطلعاته ، لكن هذه الحرية تكتسب بالتضحية بالتأريخ ، التأريخ ذاته الذي اعتزم العماوي أن يعيد تشكيل مرحلته التالية .

هوامش البحث

١ - اقتبس الشعر من قبل ف . مونتيل V.Monteil «الشعر الإيراني» شعر التصوف . ذكرى لويس ماسينيون (دمشق ١٩٥٧) ٣/١٦١ ف ص ١٧٥ .

٢ - أعني بتعابير س . ف . نادل S.F.Nadel ، نظرية التركيب الاجتماعي (غلنكو : ١٩٥٧/٣) - لإظهار كفايتها فيما يتعلق ببعض الفعالية المشروطة .

٣ - المصدر نفسه .

٤ - يجتذب قول غير قاطع بشكل خاص عن الطموح يعود إلى ج . ج وينكلمان J.J.Winkelman (ت ١٧٦٨) طالب الفن الكلاسيكي :

(The students) sollen... vorher eingenommen sich den Werken der griechischen Kunst nähern: denn in der Versicherung, viel schönes (sic) zu finden, werden sie dasselbe suchen, und einiges wird sich ihnen entdecken. Man kehre so oft zurück, bis man es gefunden hat; denn es ist vorhanden. 'Geschichte der Kunst des Alterhums (first published in 1764), Buch 5, Kap. 6, 13 (end) in Winckelmann's Werke, edd. H. Meyer and J. Schulze (Dresden, 1808-20), iv, 232) cf. W. Deonna, L'expression des sentiments dans l'art grec (Paris, 1914), pp. 80-3, where at p.80 Winchelmann's advice is quoted from the French edition of 1802 (i, 484), in which the beginning of the passage is formulated more strongly than in the German original. 'Approchezvous d'un esprit prévenu en faveur de l'antiquité.

5- Already J.J. Bachofen (1815-87), Das Mutterrecht (first published Stuttgart, 1861), in Gesammelte Werke (Basel, 1943 eff.), ii, 23, observes: 'Mit den Zeiten wechseln die

Probabilitäten.' The dictum is quoted by E. Howald, Humanismus und Europäertum (Zürich and Stuttgart, 1957), P. 69.

6- For the concept cf. M. Weber, 'Ueber einige Kategorien der verstehenden Soziologie', Logos (1913), iv, 253-94, at pp. 254-63; Weber contrasts subjektive Zweckrationalität and objektive Richtigkeitsrationalität; the idea is taken up by S.F.Nadel, The foundations of social anthropology (London, 1953), esp. P. 271 (where in note I the reference to Weher's study is inexact).

7- The creative primacy of the self-image has been stated by Goethe in the famous lines of the West-Oestliche Divan:

Volk und Knecht und Ueberwinder

Sie gestehn zu jeder Zeit:

Höchstes Gluck des Erdenkinder

Sei nur die Persönlichkeit.

Jedes Leben sei zu führen

Wenn man sich nicht selbst vermisst;

Alles könne man verlieren,

Wenn man bl'ebe, was man ist.

8- 'Alā hāmish al-sīra (Cairo, 1933), i, pp. 8^{16}-9^{2}; P. 9^{3-9}.

9- M.A. Lahbabi, Liberté ou libération? (A partir des libertés bergsoniennges) (Paris, 1956), pp. 20, 21, 81-2. The nature, role, and in some cases, the primacy of the image are examined forcefully if impressionistically by K.E. Boulding, The Image (Ann Arbor, Mich., 1956); cf. e.g., the passage on p. 122: 'The history of the technological revolution must be written largely in terms of the dynamism of the image-the image of change as a good and desirable thing introduced by the various religious reformations, and the image of an orderly universe whose secret relations might be explored by experiment and observation.'

10- Not with regard to historiography but to social and political attitudes the extremely interesting book by A.Memmi, Portrait du colonisé précédé du portrait du colonisateur (Paris, 1957), which deals with the French and the Muslims of Algeria, provides an illustration of the same truth; the analysis of the roles of religion, language, etc., that go into the several self-views, adds to the merits of the study.

١١ ـ منطق العواطف (باريس ١٩٠٥) ص ٤٩ و ٥٨ .

١٢ ـ الموسوعة الإسلامية ـ أنقرة ١٩٤٣ .

١٣ ـ باريس ١٦٩٧ .

١٤ ـ عدنان أدوار دراسة تركيبة عن الاستشراق (ترجمة لمقدمة الطبعة التركية لدائرة المعارف الإسلامية) العالم الإسلامي (١٩٥٣) ٢٦٦/٤٣ ـ ٢٨٢ في ص ٢٦٤ و ٢٦٦ .

١٥ ـ دراسة التاريخ في البلاد الإسلامية ، صحيفة الشرق الأوسط (١٩٥٣) ٤٥١/٧ ـ ٤٥٥ في ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥ .

١٦ ـ تعتبر هذه القابلية للنقل في دراسة الكاتب غير المنشورة «تخصصاً» .

١٧ ـ في خطاب ألقي في اجتماع للمدرسين في ٢٧ تشرين أول ١٩٢٢ ـ تصريحات أتاتورك الشخصية (أنقرة ١٩٥٢) ٤٤/٢ . وقد اقتبست الفقرة في رواية ألمانية من قبل ج . ريتر «حوار أوربي ـ آسيوي» (دوسلدروف ١٩٥٦) ص ٢٠ ـ ٢١ .

١٨ ـ في عرض للأفكار المتعلقة بهوسرل في الكتاب الذي نشر بعد وفاته : krisis der europaischen wissenschaften und die transzendentale phanomenologie تحقيق و . بيمل (الهيغ ١٩٥٤) وقد استفيد بدرجة كبيرة من التحليل الرائع الذي قام به أ . غورروتش A.Gurwitsch لآخر أعمال هوسرل «الفلسفة والبحث المتعلق بالظواهر» (١٩٥٦) ٣٨٠/١٦ ـ ٣٩٩ (١٩٥٧) ٣٧٠/١٧ ـ ٣٩٨ ، وذلك بسبب الطريقة المثيرة للإعجاب التي تغلب فيها غورروتش على مشكلة إيجاد صيغ إنكليزية لأقوال هوسرل ، والفقرة المقتبسة هي من غورروتش ـ المرجع نفسه : ٣٨١/١٦ ـ ٣٨٢ .

١٩ ـ المصدر نفسه : ٣٨٤/١٦ ـ ٣٨٥ .

٢٠ ـ من أجل مفهوم Selbstverstandnis انظر Krisis ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

٢١ ـ غورروتش المرجع نفسه : ٣٨٥/١٦ .

22 - Husserl, Kirisis, p.322 Gurwitsch, op. cit., xvi, 388

23 - Ibid.; Husserl, Krisis, P.325. The joyful realization of the infinity of the task of the searcher and the implied readiness to see one's lifework rendered obsolete by the efforts of one's successors shines through the analysis of his science which the great classicist,August Boeckh, was in the habit of presenting to his students in the University of Berlin. In his Encyclopadie und Metholodogie der philologischen Wissenschaften, which he offered no less than twenty-six times between 1809 and 1866, he observes in discussing philological interpretation: 'Wenn also die fremde Individualitat nie volstandig verstanden werden kann, so kann die Aufgabe der Hermeneutik nur durch unendliche Approximation, das heisst durch allmahliche, Punkt fur Punkt fortschreitende, aber nie vollendete Annaherung gelost werden.' (Quoted by K. Reinhardt, Von Werken und Formen (godesberg, 1948), pp.429-30) An extreme formulation of the Occidental attitude was proposed by Nietzsche when he said: 'Die Grosse des «Fortschritts» bemisst sich sogar nach dem Masse dessen, was ihm alles geopfert werden musste.' (Genealogie der Moral, 2nd Tratise, Section 12.) In the islamic orbit, this sense of the infinity of the human task of the eternally provisional of the human

achievement, that is yet striven for in gladness and ithout hesitation or discouragement, is met with only in the quest of the mystic; cf., e.g., the characteristic passage from the writings of Najm al-Din Kubra (d. 1221) which F. Meier translated on pp.92-3 of his book Die Fawa'ih al-Gamal wa-Fauatih al-Galal des Nagm ad-Din l-Kubra (Wiesbaden, 1957). The attitude to scholarship which Muhammad al-Razi (d.925). professes, Opera philosophica, ed. P. Kraus (Cairo, 1939), i, 300-3, seems to have died with him.

24 - Gurwitsch,op. cit., xvi, 398. Cf. Husserl, Krisis, p.346: 'eine absolut eigenstandige Geistes-wissenschaft .., in Form einer knosequenten Selbstverstadigung und Verstandigung der Welt als geistiger leistung.'

25 - Gurwitsch, ibid. For Husserl it falls to phenomenology 'to account for the world at large as well as mundane existents in particular, and for that matter, for all objective entities whatsoever, in terms of experiences, acts, operations, and productions («Leistungen») of consciousness'; Gurwitsch, op. cit., xvii, 379.

26 - Cf. also Husserl's formulation, Krisis, P,310: 'Unwelt ist reltiveauf eine fur sie fungierende Subjektivitat - die Typik fungierender Subjektivitat ist selbst historisch'.

27 - 'Specialization'.

28 - For more detail cf. the writer's study 'The Analysis of Islamic Civilization and Cultural Anthropology' to republished schortly, especially sections i and ii. Husserl. Krisis, p.352, indicates how the pre-Socratic thinker comes to develop the concept of truth from the contemplation of the 'Manningfaltigkeit der nationen'. Note in this context the Bildungsbegriff developed by W. Schadewaldt, die Anforderungen der Technik an die Geistesuissenschaft (Gottingen, 1957), P.41. 'Auf dem Sich-Auskennen in den einfachsten Dingen, dem Sich-Auskennen in den Sachen und den Sachbereichen, baut sich danach organisch die Bildung aufals ein letztes und hochstes Sich-Auskennen im Ganzen der Welt, eine Orientierung Meines gegenwartigen Orts im Jetzt und Hier, in den grossen Zusammenhangen von Zeit und Raum, Natur und Geschichte.' The philosophical (or anthoropological) assumption underlying our methodological requirement of 'completeness and universality of information' is very clearly brought out in this passage from Claude Levi-Strauss, Tristes trophques (Paris, 1955), P.183: 'L'ensemble des coutumes d'un peuple est toujours marqué par un style; elles forment des systèmes. Je suis persuadè que ces systèmes in'existent pas en nombre illimité, et que les sociétés humaines, comme les individus - dans leurs jeux, leurs rêves ou leurs délires - ne créent jamais de facon absolue, mais se bornent à choisir certaines combinaisons dans un répertoire idéal qu'il serait possible de reconsituer. En faisant l'inventaire de toutes les coutumes observées, de toutes celles imaginées dans les mythes, celles aussi évoquées dans les jeux des enfants et des adultes, les rêves des individus sains ou malades et les conduites psycho-pathologiques, on parviendrait á dresser une sorte de tableau périodique comme celui des éléments chimiques, où toutes les coutumes réelles ou simplement possibles apparaîtraient groupées en familles, et où nous n'aurions plus qu'á reconnaître celles que les sociétés ont effectivement adoptées'.

٢٩ ـ هذا التعبير حول و . إ . موهلمان Muhlmann في دراسته «أزمات ومشاكل في الثقافة الانسانية» هو مو (١٩٥٦) ج ٢ ص ١٥٣ ـ ١٧١ خاصة ص ١٥٥ . جاء توقع «للفهم الغربي الحديث» في مجموعة من المقالات للكاتب التركي «كاتب جلبي» (الأكثر شهرة باسم حاجي خليفة ، ١٦٠٩ ـ ١٦٥٧) نشر تحت عنوان «ميزان الحق» وترجم مؤخراً من قبل غ . ل . لويس باسم ميزان الصدق (لندن ونيويورك ١٩٥٧) حيث نقرأ على الصفحات

٢٩ ـ ٣٠ : «يجب . . . أن يعرف أن الجنس البشري منذ زمن آدم ، قد انقسم ، وأصبح لكل قسم عقيدته ، ومسلكه الخاص . الذي يبدو مختلفا عما هو موجود في الأقسام الأخرى ، . . . والآن إن هدف المدنية والمجتمع وهو أساسي للمتطلبات ، حتى أن الرجال ذوي البصيرة يجب أن يحرزوا المعرفة ، ويصبحوا على معرفة بأقسام الجنس البشري من مختلف العروق ، وحالة وظروف كل قسم ، وبعد اكتساب المعرفة بطبقات أهل المدنية وأخلاق وعادات كل طبقة يجب أن يجاهدوا للحصول على معرفة موجزة بمعاقل السكان في المناطق الصالحة للسكن على الأرض وظروفها ، وبعد ذلك سيكتشف سر هدف المدنية تدريجياً . . . » .

٣٠ ـ طبعة ثانية (باريس ١٩٥٧) ص ٦١٠ Mythes, reves et mysteres

٣١ ـ تاريخ البيهقي . تحقيق سعيد نفيسي (طهران ١٣١٩ ـ ١٣٣٢/ ١٩٤٠ ـ ١٩٥٣) ٢٧٩/١ .

٣٢ ـ المصدر نفسه : ٩٦/١ ، ٨/٢ ـ ٩ .

٣٣ ـ محمد بن عبد الملك الهمذاني (ت ١١٢٧) تكملة تاريخ الطبري ـ تحقيق ألبرت يوسف كنعان في المشرق (١٩٥٥) ـ ٤٩ ، ٢١ ـ ٤٢ ، ١٤٩ ـ ١٧٢ ، في ص ٢٥ سطر ٨ ـ ١٠ وهناك مفهوم واسع بشكل يجدر ذكره لمجال التاريخ نجده لدى اليوسي المغربي (ت ١٦٩١) ولكن وظيفته تبقى محصورة ضمن الثقافة كواحدة من الصور القانونية والأخلاقية ، انظر ح . برك Perque «اليوسي ومشاكل الثقافة المغربية في القرن السابع عشر» (باريس الهيغ ١٩٥٨) ص ٢٦ .

وجرى تحديد العلاقة بين التاريخ والدين بشكل مختلف نوعا ما من قبل مغربي آخر هو أبو عبدالله محمد بن الطيب القادري ، الذي توفي في فاس في ١٧٧٣ في كتابه «نشر المثاني» (فاس ١٣١٠) ـ٢/ ١٤٥ الذي تخصص في كل ما يتعلق بالدين في التاريخ على سبيل المثال : تاريخ العملات والأوزان والمقاييس ووصف المساجد القديمة الخ . . إن التاريخ نفسه قد يتعامل مع أية دولة أو دول ، وتأسيس المدن ، أو حياة مشاهير الناس ، ومع أنه ليس جزءاً من الدين فهو مفيد طالما أنه ينبه السلوك الأخلاقي» وقد أعيد سبك هذه الفقرة في كتاب ى .س . تريتون «مواد حول التعليم الإسلامي في العصور الوسطى» (لندن ١٩٥٧) ص .١٧ ، دون إشارة إلى المؤلف الذي من أجله انظر بروكلمان . تاريخ الأدب العربي (ليدن ١٩٣٧ ـ ١٩٤٢) ٦٨٧/٢ .

٣٤ ـ المرجع نفسه ص . ١٤٧ .

٣٥ ـ من أجل تمييز مفهوم القومية الانسانية الجديدة ـ انظر شبرنغر . «الانسانية الجديدة والقومية الألمانية» (برلين ١٩٢٣) خاصة ص ٤ ـ ٦ و١١ . إ . هوولد E. Howald المرجع نفسه

ص ٣ ـ ٧ و ٢٣ ـ ٤١ . وقدم تصويراً مدهشاً للفهم المتضاد لكثير من أجزاء القومية العربية ، ميشيل عفلق ، وكان قائدا نظرياً لحزب البعث في سورية ، فقد رأى عفلق القومية العربية وجودية أكثر منها حقيقة عقلانية ، فهي موجودة مستقلة عن أي قبول عربي إيجابي لها ، فهي مصير يربط كل من ولد في الحظيرة العربية ، بل أيضاً كل من يمكن تبنيه من قبلها ممن ارتبط بالعرب في التاريخ أصبح واحداً منهم في الشعور والتفكير ، أنظر تحليل ل . بيندر Bender لأفكار عفلق في دراسة «الاصلاح الجذري ـ القومية في سورية ومصر» (العالم الاسلامي ـ١٩٥٩ ـ مجلد ٥٩ ص ١٠١ ـ ١٠٤) .

٣٦ ـ انظر هوولد ـ المرجع نفسه ص٧ والعبارة لشبرنغر اقتبساهج . كريم Die Bildungs-ideale des islams und ihre gege nw artige prolematik in Erzie hung Zur mensch lichkeit.

وأنه ليس مصادفة أن الانسانيين الأوربيين كانوا أول من أثارتهم العلاقة بين الماضي والحاضر ، وأول من مارس العلاقة بين الماضي والحاضر ، ومن ثم ظاهر التغيير والبقاء الحضاري كمشكلات .

٣٧ ـ سيكون من المفيد تذكر أن الوعي الذي بالبنى الحضارية هو نمط جديد نسبياً ، وأنه كان مسبوقاً ، بوعي ساذج نوعاً ما ، بما هو بالنسبة لنا تضاد أصغر في أنماط السلوك والاقتباس الذي قدمه «أ . مالفيزي A.Malvezzi» هو من ص ١٢٥ من كتاب «الإسلام في الثقافة الأوروبية» (فلورنسة ١٩٥٦) .

ومن كتاب ف . سريانو F.Suriano «رحلة إلى الأرض المقدسة» كتب في ١٤٥٠ وهو عينة موحية ، وتشير الاهتمامات المسيحية بالأشياء في ملاحظات ريكولدو ـ دا مونتكروس (ت ١٣٢٠) خلال زيارته للأرض المقدس وخاصة في بغداد (نحو ١٣٠٠)، إلى انفتاح ثقافي ملحوظ بين المسلمين المتعلمين الذين تعامل هذا الأب معهم ، قارن : مالفيزي ص ١١٦ ـ ١١٧ من المصدر نفسه . والأدبية المقتبسة في ص ١٤٧ ، ويجب شد الانتباه إلى ساطع الحصري في كتابه «محاضرات في نشوء الفكرة القومية» (بيروت ١٩٥١) طبعة ثالثة ١٩٣٦ ، كعرض هام حول نهضة الفكر القومي في وسط وغربي أوروبا والبلقان ، وترك وعرب الشرق الأدنى .

٣٨ ـ معنى البحث الإسلامي وهدفه كراتشي ١٩٥٧ ط . جديدة والكتاب في الواقع هو محاضرة ألقيت في كانون أول ١٩٥٦ ص١ ـ ٢ والقلق الذي شعرت به بعض الدوائر الإسلامية «عندما لاحظت أن بعضاً من غير المسلمين يشغلون أنفسهم بالإسلام لأهداف الدراسة والملاحظ» ، قد تم فحصه بوساطة س . أ . و . فان نيوونهوزي Van Nieuwenhuigze «الاحتكاك بين الفرضيات» في دورة معلومات (مركز التعليم ومشاكل المسلمين المعاصرة في بروكسل) آذار ـ نيسان ١٩٥٨ ج ٣٨ ـ ٦٧ في ص ٣٩ ـ ٤٧ وللاحتفاظ بالإسلام كحقل

للدراسة للمسلمين ، وهكذا لفصل مجموعة من الشعوب ، ومجموعة من المعتقدات ، والمدنية ، عن الاهتمام المشترك للثقافة ، هو بالطبع موقف غير إنساني في أساسه ، وهو ليس بالضرورة ، ولكن في الواقع العمل مصحوباً بنقص في الاهتمام بالمعتقدات الأخرى والمدنيات الخ . . مالم يبدو أن تحليلها موجه إلى أسباب مسوغة ، وإذا وصلت إلى نتائجها المنطقية ، أي قد تم تبنيها من جميع المجتمعات الأخرى أيضاً ، فإن هذا الموقف سيعني نهاية أي نوع من التاريخ الشامل ، تاريخ الدين ، علم الحضارة القديمة وما شابه ، ولا حاجة للقول ، إنه يحوي مضامين سياسية أيضاً .

٣٩ ـ المرجع نفسه ص ٢ ـ ٣ .

٤٠ ـ المرجع نفسه ص ٣ .

٤١ ـ المرجع نفسه ص ٤٠ .

٤٢ ـ انظر أيضاً المرجع نفسه ص٥ طالما أن البحث الاستشراقي هو عملية آلية وليس هناك شيء أصلي يعطيه ، فإنه يتميز بتأكيده على الأشياء التافهة .

٤٣ ـ المرجع نفسه ص ٥ ـ ٦ .

٤٤ ـ المرجع نفسه ص ١٦ .

٤٥ ـ إن الأساس الفلسفي لمثل هذا الهجوم ، كما في أي مدخل علمي صالح للإسلام ، يمكن أن يكون فقط في فلسفة النفس لمحمد إقبال (المتوفى في ١٩٣٨) . انظر المرجع نفسه ص ٢٣ ـ ٢٤ . المؤهلات المدرجة على أنها أساسية لعالم البحث الإسلامي المرجع نفسه ص ٢٤ ـ ٢٥ ، تذكر المرء بتلك التي اشترطها الماوردي للمرشح للخلافة أو أبو الأعلى المودودي (المولد في ١٩٠٣) للمجتهد ، انظر رسالة المودودي إلى المؤتمر الدولي الإسلامي في لاهور من ٢٩ كانون أول ١٩٥٧ إلى ٨ كانون ثاني ١٩٥٨ «دور الاجتهاد ومجال التشريع في الإسلام» ص ٥ ـ ٦ .

٤٦ ـ و . س . سميث W.C.Smith «الإسلام في التاريخ الحديث» ، برنستون ١٩٥٧ ص ١٠٩ ، ومضى سميث ليلاحظ أن الترك وحدهم بين الشعوب الإسلامية قد أحرزوا مثل هذه العلمانية .

٤٧ ـ هشام شرابي «أزمة أهل الفكر في الشرق الأوسط» ، العالم الإسلامي (١٩٥٧) ٤٧/١٨٧ ـ ١٩٣ في ص ١٩٣ .

٤٨ ـ انظر أيضاً هوولد ـ المرجع نفسه ص ٢٨ .

٤٩ ـ من أجل إشارة موائمة انظر مثلاً غ . غلوتز Glotz «المدن الإغريقية» طبعة ثانية (باريس ١٩٥٣) ص ٤١٤ ، ولاحظ إصرار سهراب على التفوق الذي يضفي على الإغريق في الموقع المركزي أو المتوسط في مناخهم بين ملكيات المناطق الحارة الخ . . . والشعوب

القبلية في المناطق القطبية ، والمواقع المتوسطة لأراضيهم ، كانت موضع فخار تجاه الفرس الساسانيين ، أيضاً العراق المسلم .

٥٠ ـ انظر رسالة في مناقب الترك في Tria Opuscula تحقيق فان فلوتن ـ ليدن ١٩٠٣ ص ١ ـ ٥٦ والتحليل الحديث للرسالة من قبل ف . غابرييلي (١٩٥٧) RSO ٤٧٧ ـ ٤٨٣ «رسالة الجاحظ عن الترك» خاصة ص ٤٨٠ .

٥١ ـ رسالة في بني أمية في رسائل الجاحظ ـ تحقيق حسن السندوبي (القاهرة ١٣٥٢ ـ ١٩٣٣) ص ٢٩٢ ـ ٣٠٠ وفي صفحة ٣٠٠ سطر ٤ ـ ٥ تعرف الرسالة بشكل أفضل «رسالة في النابتة» وتحت هذا العنوان نوقشت وترجمت من قبل ش ـ بيلا في حولية الدراسات الشرقية لجامعة الجزائر (١٩٥٢) ١٠/٣٠٢ ـ ٣٢٥ وفي سياقنا إن بناء التاريخ الإسلامي وخاصة لفترة الخلفاء الراشدين ، التي يطورها الجاحظ في البداية الأولى من رسالته ، يمكن أن تذكر أيضاً كبينة على التفاعل بين الطموح والصورة ، ونضيف مثالاً من قرينة تاريخية مختلفة ج . غ . بوكوك Pocock «الدستور القديم وقانون الإقطاع» دراسة للفكر التاريخي الإنكليزي في القرن السابع عشر (كمبردج ١٩٥٧) ص ١٦ ـ ١٧ تقول : «مع حوالي ١٦٠٠ أو نحوها ، لم تكن هناك بالكاد أية حركة دستورية في كل أوروبا ، دون أية اسطورة تاريخية مصاحبة ، حيث قيل : لم يمنحنا أحد هذه الحرية ، إنها كانت لنا من قبل ذاكرة الإنسان ، وبالتالي فإنه ما من أحد يمكنه أن يأخذها منا ، وللإجابة فإن الملوك وأنصارهم حاولوا أن يبينوا أن في كلمات جيمس السادس والأول «إن الملوك هم واضعو القوانين وصانعيها وليست القوانين هي التي تصنع الملوك» .

إن الرومانتيكية الهادفة التي مال إنكليز تلك الفترة لأن يغلفوا بها القانون الشائع نتيجة للعادة الممعنة في القدم ، والتي أملت قراءة المصادر التاريخية تقدماً نظيراً هاماً لبعض المعالجات للسنة النبوية ، فإذا كانت أوروبا منذ النهضة تحاول فهم نفسها (من جانب) من خلال فهمها لماضيها فإن مثل هذا الفهم كان ممكناً فقط لأنه كان هناك اتفاق عام على أن هذا الماضي ما يزال باقياً بشكل ما ، وفي أي حدث كان ما يزال ذا معنى ، وأن العالم الإسلامي إجمالاً ، لم يطور وجهة نظر يمكن مقارنتها حول التاريخ بمقياس كبير ولفترته التقليدية لحقيقة أن التاريخ الإسلامي كان يفهم على أنه كل ذو اكتفاء ذاتي ، لم يسهم في تفسيره التشويش الديني والأخلاقي للجاهلية ولا الأحداث التي ملأت حوليات الشعوب بأي شيء هام .

٥٢ ـ حول ماضي العرب في مجموعة مقالاته ، دفاع عن العروبة ـ بيروت ١٩٥٦ ص ٩٣ ـ ١٠٥ .

٥٣ ـ المرجع نفسه ص ٩٦ .

٥٤ ـ عكست المناقشة التي جرت في ١٩٥٢ بين عبد العزيز سامي وساطع الحصري من جانب ومحمد عبد الله عنان من جانب آخر ، حول ما إذا كان المسلمون الذين دخلوا سويسرا في القرن العاشر كانوا عرباً أم من المسلمين (من غير العرب) مرة أخرى اختلافاً في صورة الذات ، التي بدورها انعكست في تفسير المواد التاريخية المصدر نفسه ص ١٠٦ ـ ١١٣ .

٥٥ ـ انظر ساطع الحصري «بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية» في «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية» ـ طبعة ثالثة (بيروت ١٩٥٧) ص ٩٤ ـ ١٠٥ ولا سيما في ص ٩٥ ـ ٩٨ و ١٠١ ، وقد نشر الكتاب للمرة الأولى في (١٩٤٧) .

٥٦ ـ ب . كاشيا P.Cachia : «طه حسين ومكانته في نهضة الأدب المصري» (لندن ١٩٥٦) ص ١٨١ مع إشارة إلى «حديث الأربعاء» : ٢/ ٧٩ ـ ٨٦ .

٥٧ ـ المصدر نفسه ص ١٩٧ مع إشارة إلى دراسة طه حسين ، في «الميول الدينية والأدبية في مصر المعاصرة» ـ «الإسلام والغرب» (١٩٤٧) ٢٣٩ ـ ٢٤١ .

٥٨ ـ إن التعبير هو لكتاب م . رودنسون وديوجين (١٩٥٧) رقم ٢٠ ص ٤٦ رقم ١٧ .

٥٩ ـ حياة محمد (القاهرة ١٩٣٥) طبعة ثانية منقحة وموسعة في السنة نفسها ، وحول الكتاب ونقاده ، انظر بروكلمان تاريخ الأدب العربي الذيل : ٣/ ٢٠٨ ـ ٢٢٠ .

٦٠ ـ «عبقرية محمد» (القاهرة ط جديدة) انظر أيضاً أعماله الموازية ، «عبقرية الصديق» (القاهرة ١٩٥١) ، «عبقرية عمر» طبعة خامسة (القاهرة ١٩٤٨) و «عبقرية الإمام» (أي علي) طبعة ثانية (القاهرة ١٩٤٧) .

٦١ ـ ليس ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ كما ذكر كاشيا المرجع نفسه ص ٣٥٩ . بروكلمان المرجع نفسه : ٣/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠ حيث قدم تحليلاً للمجلدين الأولين .

٦٢ ـ يشكل الكتاب القسم الأول من الفتنة الكبرى .

٦٣ ـ مثلاً ص ٣١ ـ ٣٢ .

٦٤ ـ انظر ص ٤٨ و ٦٠ ـ ٦٣ .

٦٥ ـ انظر ص ٤٩ .

٦٦ ـ ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .

٦٧ ـ ص ٩٠ ـ ٩٥ ملاحظة ر . برونل R.Brunel

Le monachisme errant dans l'Islam. Sidi Heddi et les Heddwa (Paris, 1955), P.24, comes to mind. '... les biographes musulmans se soucient tort peu de a précision historique, leur object principal étnat trop apparemment de mettre leur sujet en concordance étroite avee l'orthodixie, sans s'attacher à suivre la réalité et à la rendre fidélement. Ils s'estiment en régle avec celle-ci lorsque l'épure répond à l'opinion personnelle qu'ils se font du sujet.'

٦٨ ـ ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .
٦٩ ـ على سبيل المثال ص ٧٠ ـ ٧١ .
٧٠ ـ يقدر فهم طه حسين المصقول بشكل أفضل عندما يوضع في مقابل تفسير أحمد أمين التقليدي القاتم للتدهور الإسلامي بالإشارة إلى الأحداث الخارجية المناوئة التي حلت بالعالم الإسلامي ، انظر كتابه «زعماء الإسلام في العصر الحديث» (القاهرة ١٩٤٨) ص ٥ ـ ٦ . عندما لم يمنح المؤلف أي اهتمام للتطور الداخلي الذي حدث ضمن الكتلة السياسية والثقافية الواحدة .
٧١ ـ القاهرة ١٩٥٠ .
٧٢ ـ ص ٣٩ ـ ٤٠ .
٧٣ ـ انظر مثلاً ص ٤٢ ـ ٤٣ .
٧٤ ـ انظر مثلاً ص ٢ ـ ٣ .
٧٥ ـ ص ٢٨٠ .
٧٦ ـ تفسير هذه القرينة الأثر الأصغر نسبياً للحكم الإغريقي ، الذي كان بالنسبة لوحيدة في الواقع حكماً ذا قرابة أجنبية باستعمال اصطلاح يذهب إلى أبعد من موقف وحيدة .
٧٧ ـ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .
٧٨ ـ مستقبل الإسلام طبعة ثانية ـ القاهرة ١٩٥٨ .
٧٩ ـ وصفت الديموقراطية الغربية بسطحية لا تصدق في ص ١٩٣ ـ ١٩٩ . ومن أجل القرابة بين المبادىء الإسلامية والديموقراطية ، انظر ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ وانظر أيضاً ص ٢٠٩ القول ، بأن حكم الإسلام يقوم فقط على الشورى ، الأمر القرآني «وشاورهم في الأمر» (٣/١٣٥) قد استعمل لزمان طويل في مناقشة شؤون الحكم ، وبدا اعتماد النبي (ﷺ) على النصيحة بمثابة حجة ضد الحكم المطلق غير المكبوح لنظام الملك (ت ١٠٩٢) «سياسة نامة» تحقيق س . هـ . شيفر (باريس ١٨٩١ ـ ١٨٩٧) ص ٨٥ ـ ترجمة إنكليزية للفقرة بواسطة أ . ج . آربري «الأدب الكلاسيكي الفارسي» (لندن ١٩٠٨) ص ٧٥ ـ ٧٦ ومرة أخرى في «مرزيان نامة» لسعد الدين وراويني (المكتوب بين ١٢١٠ و ١٢٢٥) تحقيق م . م . قزويني (ليدن ـ لندن ١٩٠٩) ص ١٦٧ . ترجمة إيطالية من قبل ف . غابريللي في RSO (١٩٤١) ١٩/١٣٠ .
٨٠ ـ على سبيل المثال ٢٠٥ أسلاف العماوي التقليديين (من غير الشيعة) مثل الإباضي «أبو حمزة عبد الله» في خطابه الشهير لعام ٧٤٧ هـ ترجمة غ . فان فلوتن «بحث في تاريخ الدولة العربية» (أمستردام ١٨٩٤) ص (٧٦ ـ ٧٨) عن أبي الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني (بولاق ـ ١٢٥٨) ٢٠/١٠٦ ـ ١٠٧ ، والجاحظ نفسه ، المصدر نفسه ص ٢٩٢ سطر

٥ ـ ٦ (ترجمة بيلا ص ٣١٠) امتداد العصر الذهبي خلال السنوات الست الأولى من حكم عثمان ، ولم يذكر الجاحظ عمر الثاني في حين أن أبا حمزة مجده لنواياه ، ولكنه حكم بإخفاقه في تنفيذها ، واعتقد ثابت بن قرة (ت ٩٠١) بأن العرب كانوا يحسدون على شخصيات ثلاثة : عمر بن الخطاب ، والحسن البصري ، والجاحظ ، وقد اقتبس قوله من قبل التوحيدي ، (البصائر) ص ١٩٤ ـ ١٩٨ ، وفي وصف ثابت «لعمر» (ص ١٩٥ ـ ١٩٦) توجد (ص ١٩٥) العبارة الهامة : «ومزج الدنيا بالدين ، وأعان الدين بالدنيا» إن هذه العبارة ناقصة في الرواية الأقصر كثيراً في مقالة ثابت عن عمر في معجم الأدباء لياقوت تحقيق د . س مرغليوس طبعة ثانية (لندن ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦) ٦/٦٩ . (مقتبس من كتاب تقريظ الجاحظ للتوحيدي) .

٨١ ـ مستقبل الإسلام ص ١٧ .

٨٢ ـ المصدر نفسه ص ١٤ ـ ١٦ كراهية التحديد وتوضيح العقيدة في الإسلام هي بقدم البحث المذهبي والجدال ، فقد قارن القاضي الشهير أبو حامد المروروذي (ت ٣٦٥/٩٧٢) مثلاً ، في شعر له حالة المتكلمين في جدالهم مع الرحالة عبر الصحراء ، الذين يجدون تحت توجيه دليل غير كفء أنفسهم في المساء بالضبط حيث بدؤوا في الصباح ، انظر التوحيدي (ت ـ ١٠٢٣) وعبر عن هذا الموقف مضافاً إلى الشكوكية فيما يتعلق بقدرة العقل البشري على التغلب على المشكلات الدينية العلمية كثيراً خلال أول نقاش علمي ديني للإسلام ، وقد دفع ابن عباس إلى الإجابة عندما سئل عن آرائه حول القدر أن هذا المفهوم مثل الشمس : كلما أطال تحديقك فيها كلما إزداد العشي في عينيك ، المصدر نفسه (ص ٤٠) قارن أيضاً ص ١٢٦ ، وعن الموقف المناهض للنظريات والرعب من التحديد الذي توبع في الكتابات القومية في زماننا ، قارن مثلاً فكرة ميشيل عفلق إن القومية يجب أن لا تحتوي في إطار التحديد الضيق ، إن هذه النظرية مخدرة وتؤدي إلى عدم الدقة ، وهو موقف ، يجعل عرضاً جهوده لتطويق طبيعة القومية العربية تبدو موحية بالتناقض نوعاً ما (انظر بندر ـ المرجع نفسه ص ١٠١ ـ ١٠٧) وأعلن المصري أنور السادات في «ثورة على النيل» (لندن ١٩٥٧) ص ٥٣ بالمسحة نفسها أنه كان دائماً لا يثق بالنظريات والنظم العقلية الصرف ، ونوقش الغموض الفكري للإطار المفاهيمي للتطلعات التي عبر عنها بشكل مؤثر في كتاب «أنور السادات» «قصة الوحدة العربية» (القاهرة ١٩٥٧ مع ترجمة للفصل الأول من قيل أ . مكويل A.Miquel «الوطنية المصرية والقومية العربية» الشرق : ١/٢ [رقم ٥ سنة ١٩٥٨] ٩١ ـ ١١٢) . وتعريف القومية العربية الذي قدمه المؤتمر الثالث للكتاب العرب (القاهرة ٩ ـ ١٥ كانون أول ١٩٥٧) ترجمة فرنسية ، المصدر نفسه ص ٤٤ ـ ٤٥ تعكس أيضاً حالة عقلية من أجلها Gefuhlistatles .

٨٣ ـ المصدر نفسه ص ١٣١ ـ ١٣٥ يتابع موقف العماوي الإثارة التي شعر بها الأصولية التقليدية مع المحاولات لتكوين مفهوم فكرة القدر وما شابه ، وابن خلدون أيضاً كان حساساً للأثر الممزق اجتماعياً للجدل العلمي الديني ، ولكنه وجد راحة في الاقتناع بأن النظام التأملي العلمي للدين لم تعد هناك حاجة إليه ، طالما أن الهراطقة والمبتدعين قد استبعدوا ، وأن القادة الأصوليين قد بنوا حاجزاً حول الدين ، انظر المقدمة تحقيق (إ . كواتريمير) (باريس ١٩٥٨) (٣/٣٦ ـ ٤٣) ترجمة ف . روزنتال (نيويورك ١٩٥٨) ٣/٤٤ ـ ٥٤ .

٨٤ ـ المصدر نفسه ص ١٨٨ .

٨٥ ـ المصدر نفسه ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

٨٦ ـ المصدر نفسه ١٥٤ .

٨٧ ـ المصدر نفسه ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

٨٨ ـ المصدر نفسه ص ١٥٩ .

٨٩ ـ المصدر نفسه ص ١٥٨ ـ ١٦١ .

٩٠ ـ مثل المصدر نفسه ص ١٨٥ .

٩١ ـ المصدر نفسه ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

٩٢ ـ تم تناول مسألة ما إذا كان الجهل بالمذهب والممارسة الشاذة تستبعد الطائفة ، أعني إضفاء وصف الكافر على الفرد أو الطائفة الفرعية خلال تاريخ الإسلام كله ، وبالنسبة لمشكلة الفكرة المتحررة ، المتسامحة التي هي أيضاً الوحيدة القابلة للتطبيق في المناطق المتخلفة والقبلية مع عرف مستمر بقوة يتمسك بأن المجاهرة بالعقيدة تكفي لمنح منزلة المؤمن ، انظر مثلاً : ل . غارديت و م . م . أنواتي «مدخل إلى العقيدة الإسلامية» (باريس ١٩٤٨) ص ٣٣٣ ، ٣٤٠ ، ٤٣٣ ـ ٤٣٥ .

٩٣ ـ من أجل هذه الرومانسية ، انظر مثلاً المرجع نفسه ص ١٢٢ . ابن المقفع (ت ٧٥٧) رسالة في الصحابة محمد كرد علي «رسائل البلغاء» طبعة رابعة (القاهرة ١٩٥٤) ص ١٦ حيث صور الخلفاء الأربع الأُوَل على أنهم أئمة الهدى ، وهو تعبير يظهر وضعهم المعياري بقوة كبيرة ، قارن أيضاً تعبير سنن الهداية ، لأحمد بن أبي طاهر في رسالته الشهيرة إلى ابنه التي كتبت في عهد المأمون واقتبسها ف . ي . ج روزنتال «الفكر السياسي في إسلام العصور الوسطى» (كمبردج ١٩٥٨) ص ٧٥ .

٩٤ ـ المرجع نفسه ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

٩٥ ـ المرجع نفسه ص ٥٢ ـ ٥٥ .

٩٦ ـ انظر مثلاً المرجع نفسه ص ١١٧ ـ ١١٨ .

٩٧ - المرجع نفسه ص ٩٧ - ١٠١ الموالي كمزورين للحديث .
٩٨ - المرجع نفسه ص ١١٣ - ١١٤ .
٩٩ - المصدر نفسه ص ٥٢ - ١١٤ .
١٠٠ - إن المواد المستعملة والحقائق المحكية شبيهة جداً بتلك التي قدمها أبو الحسن علي الحسني الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ؟ طبعة ثانية (القاهرة ١٣٧٠/١٩٥١) ص ٢١ - ٦٤ .
١٠١ - مستقبل الإسلام ص ١١٩ - ١٢٢ .
١٠٢ - المصدر نفسه ص ١٠٦ .
١٠٣ - المصدر نفسه ص ١١٠ - ١١٣ .
١٠٤ - المصدر نفسه ص ٩٢ .
١٠٥ - لتغيير التعبير الذي استخدمه (و . إ . سميث W.E.Smith) «الإسلام في التاريخ الحديث» (برنستون ١٩٥٧) ص ٣٢ .

٤١ ـ التطور التاريخي في الاسلام لمفهوم الاسلام كتطور تاريخي

ولفرد كانتول سميث

و.م. بيركس W. M. Birks استاذ مقارنة الأديان ومدير معهد الدراسات الاسلامية في جامعة ماكجيل

مدخل إلى المشكلة

عندما تفكر الكائنات البشرية أو تتحدث عن الدين بشكل عام ، أو عن أي دين خاص تفعل ذلك تحت ثلاثة عناوين كبيرة ، الأول شخصي ، والثاني والثالث تنظيمي مؤسساتي ، ويتعلق الأول الشخصي بحياة الروح ، ونوعية العقيدة ، فبالنسبة لفرد خاص إنها قريبة ، ملموسة ، ووجودية ، إن عقيدتي ملكي بمعنى شخصي عالٍ وخاص ، وهذا يختلف عما يخص أخي وهو في الحقيقة ، مختلف عما كان عليه منذ عشر سنوات ، إن الحياة الدينية لأي رجل هي حقيقة بشرية ديناميكية ، ولكي نجعل منها مفهوماً نجدها غير ثابتة ، وبلا شك إنها دائماً غير تامة ، مع أنها أحياناً هامة والاعتبار الثاني ، والثالث غير شخصيين ، وهما من ممتلكات الجماعة ، أي النظام الديني الذي «تنتمي إليه جماعات كاملة من الناس ، ويمكن وضع النظام في قالب مفاهيمي بطريقتين ، مثالي خيالي ، أو كحقيقة تاريخية ، وبين المثالية والواقعية ، الجوهر والوجود . هناك دائماً فجوة مشهورة ، ويحتمل في حالة الدين أن تنفتح تلك الفجوة إلى أقصى اتساع لها ، ومن هنا تميل المثالية بسبب طبيعة الدين ذاتها ، لأن تكون في أقصى علوها ونقائها ، في حين أن الواقعية (على ما يبدو بسبب طبيعة الإنسان ذاتها ومجتمعه) قد أثبتت أحيانا قابليتها العالية للفساد ، وهي دائماً منشغلة تقريباً بدرجات كبيرة ،

وخاضعة لتأثير ، بل حتى لهيمنة ولتشويه مجموعة منوعة كبيرة من عوامل أخرى ، وعلى هذا وإضافة إلى عقيدتي المسيحية التي هي ملكي تماماً وليست ملكاً لأحد آخر ، وصفة لحياتي الشخصية ولمصيري الأبدي لا يمكن إدراكها مباشرة من قبل الآخرين ، هناك (مسيحية) بشكل عام ، ونظام مجدد بمعنى ما اشارك فيه ملايين آخرين أو بالأحرى هناك مسيحيتان «مسيحية حقيقية» أو مثالية ، وهي التي يحاول عالم اللاهوت صياغتها ، لكنها التي يعرف أنها تسمو عليه ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر «مسيحية التاريخ» التي يقول عنها عالم الاجتماع أو أي مراقب آخر إنها بشرية ، وأحيانا بشرية جداً ، ومعقدة .

إن علاقة مسيحية جون دوJohn Doe (الحقيقة أو النوعية بكونه مسيحياً أو أصبح كذلك) بالمسيحية عامة ، أو بالمسيحية الحقيقية ، مسألة جدية وصعبة بالنسبة له ، والنسبة إلى فيلسوف أو مؤرخ يراقبه وإلى دارس لـ Religionswissen shaft وينطبق النوع نفسه من الاعتبارات في حالة الإسلام ، وبصياغة الأمر بتعابير آخرى استعملت كلمة إسلام على الأقل مثلاً طرق مميزة لتشير إلى ثلاثة أشياء . مترابطة ولكنها مختلفة ، أولا هناك إسلام الالتزام الذاتي «تسليم عملي» للفرد المسلم ، وخضوعه الشخصي لله وفعل الايقاف والاخلاص ، هو كشخص حي خاص في حالته الثابتة عن عمد ، وروحياً مرتبط بحقيقة إلهية سامية يعترف بها ، والى ضرورة كونية ملحة يقبلها ، وثانياً وثالثاً هناك المثالية الأفلاطونية والواقعية التجريبية العملية للنظام الكامل للإسلام ككيان مؤسساتي وهذا نمط تعميمي للدين في حالة واحدة ، كما هو من الناحية المثالية في أفضل حالاته القابلة للفهم وفي الحالة الأخرى كحقيقة ملموسة ، كظاهرة دنيوية تاريخياً واجتماعياً .

وقد نسمي هذه العناوين الثلاثة إسلاماً : العقيدة الشخصية الفعالة ، والإسلام النظام الديني كمثالية سامية ، والإسلام النظام الديني كظاهرة تاريخية ، وفي الحالة الأولى إن تعبير (الإسلام) مصدر اسم فعل بدلاً من أن يكون مؤسسة ، إنه استجابة شخص ، للتحدي ، إن كل كيان هذا الشخص ، منشغل بتفاعل كما لو كان بين روحه واللون ، وحسب قناعته إن مصيره الأبدي هو الموت ، إنه يستلزم قراراً خاصاً وغير قابل للتحويل ، إن خضوعه الشخصي ـ إذا كان لنا أن نستخدم مثل هذا التعبير ـ هو بالطبع متميز تماماً عن خضوع أي شخص آخر ،

وبين هذا الفعل (الاسلام) وحقيقة إيمانه الشخصي (الإيمان) . العلاقة ليست واضحة تماماً ، وكانت موضع نقاش كبير ، ومع ذلك بشكل عام ، فإن الاثنين بشكل عام من نوعية الأفكار ذاتها ، والإسلام هنا قد لا يعني بالضبط ما يعنيه (الإيمان) (ما من أحد مسلم أو مسيحي أو فيلسوف مطلقاً كان قادراً بشكل مرض على ترجمة الإيمان الديني إلى كلمات) ولكنه يعني شيئاً ما يمكن مقارنته . وفي الحالتين الثانية والثالثة (الإسلام) اسم لدين ، وبالاجمال إن هناك ميلاً هنا إلى الاعتقاد بأن المسلمين يستعملون التعبير بالمعنى الثاني ، وكأمر مثالي . وبالنسبة للمراقبين الخارجيين إنهم يستعملونه بالمعنى الثالث كواقع تاريخي . اجتماعي ، لأن الناس يميلون عامة لأن يتكلموا عن ديانات شعب آخر . كما هي ، وعن دينهم كما يجب أن يكون ، فإذا لم تكن لديهم عقيدة خاصة بهم فإنهم عادة يرون كل دين ممارسة يمكن رؤيتها ، وكنتيجة فان الداخلين والخارجين قد يستعملون الكلمات نفسها ، ولكنهم يتكلمون عن أشياء مختلفة .

وعلى أي حال إن هذا التوزيع في المعاني ليس مطلقاً ، فالمؤمنون أيضاً يعرفون إن دينهم كان له في الواقع تاريخ ، وتطبيق دنيوي ، وتطور مؤسساتي محسوس ، ومع أنهم قد لا يعدون هذا غير مجرد انعكاس تافه للمثالية السامية ، فانهم مع ذلك لا يزالون يسمونه إسلاماً بمعناه الأرضي كما هو ، ومثل هذا فإن غير المؤمنين مع أنهم لا يستطيعون أن يشاركوا المؤمنين فكرة أن الاسلام المثالي خالد وعالمي ، وأن فكرة سلفية الوجود في فكر الله حقيقة نهائية ، من الممكن لا بل كثيراً ما يتصورون كيانا مثالياً إسلاماً يسمو بممارسات الجماعة وربما يسمو حتى بمفاهيم الأفراد من المسلمين ، وبناء عليه ، قد نؤكد على فكرة أن كلمة إسلام لها ثلاثة أنواع من المعاني ، وذلك دون أن نتصور ماضي هذه المعاني في أي حالة ، وهناك مجال لاختلاف واسع لما يمكن أن تكون عليه التقوى الشخصية للفرد المسلم ، وما هو المثالي ، لما يجب أن يكون عليه المسلم الحق بشكل أساسي ، وما كانت عليه الصفات الفعلية للإسلام ، الذي كان موجوداً وملحوظاً على مدى قرون عديده من الزمان ، وعلى امتداد مساحات كثيرة متزايدة في المجال الجغرافي ، ومع كثير من التفرعات ، وهي ليست دائماً مشروحة بوضوح في المجتمع البشري ، ونترك أيضاً المسألة الصعبة والدقيقة حول العلاقة بين الأشياء

الثلاثة المترابطة بوضوح ، والمختلفة بوضوح أيضاً نتركها مفتوحة ، وإننا بالتأكيد لا نتوق إلى إقفال المناقشة حول ماهية الإسلام ، في أي من تلك العوالم ، وبالأحرى إن اقتراحنا أن هذا التمييز الثلاثي الذي قدم هنا ، قد يساعد على أن يجعل تلك المناقشة تستمر بشكل أكثر خصوبة ، وهدفنا بشكل خاص في المقالة الراهنة هو إعطاء بعد تاريخي لمثل هذه المناقشة ، واهتمامنا هو بتاريخ الأفكار . وقد يتوسع الفهم كما نشعر ليس فقط إذا أوضحنا المفاهيم التي نستخدمها كخطوة أولى نحو صقلها حتى يمكنها أن تعمل بكفاءة ، بل حتى تمثل في عقولنا ذلك الذي تشير إليه ، وقد يتوسع الفهم أيضاً إذا أمكننا أن نقدر بوضوح أكثر العملية التاريخية التي بها أصبحت المفاهيم المتوفرة لنا الآن تستعمل بالمحتوى الذي نستعمله اليوم .

إن طموحنا على المدى الطويل ، كما يمكننا أن نصرح به ، هو أن نقترب أكثر لفهم حقيقة الإسلام (وفي النهاية حقيقته كدين) ، وفي الوقت نفسه نقنع أنفسنا بالمقدمات النقدية لذلك ، أعني الاهتمام التمهيدي بأمثلة معينة لما اعتقده أناس في أزمنة وأماكن مختلفة أنه هو . وبدا لنا بشكل خاص بالتحري أنه مع أن كلمة «إسلام» ، تستعمل اليوم بالمعاني الثلاثة المذكورة ، فإن الأمر لم يكن كذلك دائماً ، أو على الاقل إن القدر النسبي للاستعمال كان مختلفاً بدرجة كبيرة في الماضي ، وفي الحقيقة إننا مضطرون نوعاً ما إلى استنتاج أن مفهوم الإسلام كنظام ديني ، وخاصة كنظام تاريخي ، وان بات متحكم بدرجة متزايدة ، ولكنه حديث نسبياً .

وقد وجدنا أن هناك تطوراً تاريخياً مشابهاً بشكل واضح في أديان أخرى أيضاً خلال قرون من تدين الإنسان بشكل عام ، وبدا بشكل خاص ، ضمن التطور في كل دين فردي من أديان العالم ، وجود ميل على المدى الطويل يمكن تمييزه هو وعي ذاتي للتنظيم ، وما يبدأ كتطبيق فعلي وايمان يصبح تدريجياً ، أو يظن بأنه قد أصبح قاعدة مميزة ، وتستخلص الخبرة الشخصية أو السلوك أو معتقدات فرد أو مجموعة ، وتعمم ، وتشكل كمفهوم وككيان مستقل .

لقد اجتاز الدين عامة . والأديان الكبيرة خاصة ، عملية تاريخية للتحول المادي وفحصنا تجريدياً في خطاب لم يُنشر بعد حتى الآن [1] ، هذه المسيرة لمفهوم

الدين بشكل عام ولأديان أخرى غير الإسلام ، وتوقفنا أيضاً عند المثل الإسلامي ، مؤكدين على التماثل والاختلاف في مفاهيمه ، وكان استنتاجنا أن الدين الإسلامي ، لأسباب مختلفة قابلة للدراسة ، كان في بعض الأحوال منذ البداية الأكثر تحولاً ، مادياً ، بين جميع أديان الدنيا ، ومع ذلك فمثله مثل الأديان الأخرى بدأ (أعلن هذا في القرآن) كدعوة شخصية رنانة للأفراد من الرجال والنساء ليؤمنوا بالله ، وأن يلتزموا(*) من كل قلوبهم بأوامره ، وكان ناتج ذلك الأيمان والالتزام المؤسسات والنظم المصاغة في مفاهيم ما نسميه الآن الإسلام ، ونقترح أن تلك النتيجة قد دخلت في الوجود التاريخي و ـ من ثم ؟ ـ في الفكر المفاهيمي بشكل تدريجي أكثر ، وفي صيغته الحديثة مؤخراً بدرجة أكبر بكثير مما هو معروف عادة ، ومثل هذه العملية من التحول المادي المتأخر يمكن بيانها بسهولة في المسيحية والهندوسية ، وبقية الأديان ، ولقد أصبحنا نعتقد أن التاريخ الإسلامي يظهر بوضوح شيئاً ما يمكن مقارنته ، والدراسة الحالية هي محاولة لتحري هذا .

والمهمة الناجعة بشكل أساسي هي القيام بدراسة لتاريخ كلمة (إسلام) لكشف تطور استعمالها ، ومعناها على مدى قرون ، والمجموعة المختلفة من الدلالات التي أظهرتها في مسار تطورها التاريخي ، وقد ذكرنا مؤخراً أن تاريخ الأسلام ما زال ينتظر الكتابة(٢) ، ولعل من الوسائل التمهيدية لتحقيق هذه الدراسة التاريخية للدين ، القيام بدراسة تاريخية للكلمة ، ومن الواضح أنها ستكون مهمة هائلة ، وربما عملاً يستغرق العمر كله . وما نحاوله هنا هو أقل طموحاً وهو بقدر كبير خطوة أولى نحو هذا الفهم التمهيدي ، ومع ذلك ، وعلى الرغم من المجال المحدود ، فإن النتائج تبدو موحية سلفاً ، وظهر كونها ذات أهمية أكثر احتمالاً في أن هذه الدراسة الكلامية ستؤكد التطور الموحي بشكل منفصل في دراسات أخرى(٣) .

★ـ في هذا دليل على أن الكاتب لم يطلع مباشرة بعقل شبه مفتوح على أي أصل من أصول التاريخ للإسلام ، من كتب السيرة ، وغيرها كما أنه لم يقرأ القرآن بالعربية ليكون قادراً على فهمه ، لهذا لا عجب أن تصدر عنه هذه المقولات .

وكان تعبير الأسلام في القرآن ذاته هدفاً لدراسات واسعة من قبل العلماء المسلمين ، ومؤخراً من قبل العلماء الغربيين[٤] ، وتختلف المجموعتان ، فقد عدت الأخيرة النص بمثابة معبر عن فكر محمد (ﷺ) ، هدف الى إعادة بناء المعنى التاريخي للقرن السابع ، في حين عده المسلمون معبراً ، إذا كان لنا أن نقول هذا ، عن فكر الله ، وقد يفسر هذا بصورة شرعية في ضوء فهم معاصر مستمر لصلاحيته الأبدية ، ولأهدافنا من دراسة التطور التاريخي لمفهوم الإسلام في أذهان الناس بكل معانية فإن دراسة ناجعة يمكن التحكم فيها ستكون تحرياً لتاريخ التفسير المتعلق بهده الكلمة .

وقد يختلف المسلمون وغير المسلمين حول ماهية الإسلام الحقيقية (وفي طبيعة القضية يجب أن تتساوى كلمة مسلم مع ما هي حقيقة ، وما تعنيه الكلمة في القرآن) . ومع ذلك فقد يلتقيان معاً في مناقشة كيف أن أشخاصاً في أوقات وأماكن ما قد فهموه ، وفي أمر نص القرآن فإن الاعتبارات التاريخية يجب أن تذكر . حول ما يحتمل أنها عنته بالنسبة لعرب القرن السابع الذين سمعوه للمرة الأولى ، ويمكن أن يردف هذا بالطبع ، باعتبارات داخلية لما يجب أن تعنيه الكلمات في محيطهم . وفي حالة عبارة الإسلام في القرآن لدينا ملاحظتان للعرض ، الأولى :

هي أن الكلمة قليلة الاستعمال نسبياً ، فقد وردت ثماني مرات إجمالاً ووردت كلمة «إيمان» خمساً وأربعين / ٤٥/ مرة ، وقبل هذا وردت كلمة «مؤمن» بصورها المختلفة ، وتكررت خمسة أضعاف ورود كلمة «مسلم»[٥] .

الثانية أنها ، في بعض الحالات ، تحمل بشكل لازم المعنى الأول للكلمة كعمل الإيمان الشخصي ، أي بشكل لازم كمصدر[٦] ، وفي حالات أخرى قد تفعل ذلك ، ونحن أنفسنا لا نجد بالضروره معنى منظماً متعارفا عليه حتى في الآيات القرآنية ، حيث مألوف في هذه الأيام أن نرى الدين يحمل إسماً و«إن الدين عند الله الإسلام » (٣ : ١٩) يمكن أن تقرأ على أنها تذكر الحقيقة الدينية

الأساسية ، وهي «إن الطريقة الصحيحة لعبادة الله هي إطاعته»(*) ، ولن نكرر هنا على أي حال الأسباب التي تؤيد هذا التفسير والتفسيرات المماثلة ، وقد نؤكد ، مع ذلك أنه لايوجد مثال في القرآن جاء (كما يحدث كثيراً فيما بعد) فيه المعنى الديناميكي لهذا الاصطلاح كعقيدة شخصية بشكل واضح التناقض أو لا يمكن التسامح فيه نحوياً .

وللقرون التالية لا يمكننا كما قلنا عند هذه المرحلة أن نتحرى كامل تاريخ كلمة «إسلام» وكل ما فعلناه هو أننا أخذنا كتلة من المادة المحدودة جداً ، ولكنها ليست عديمة الأهمية ، أعني عناوين الكتب في العربية ، وحتى هذه زدنا تقييدها بالأخذ بالاعتبار (عدا في الفترة الحديثة) العناوين التي أدخلها بروكلمان فقط حيث

★ ـ يثير هذا التأويل الدهشة لصدوره عن مختص بعلم الأديان ، ذلك أن «الدين» هو النظام الشامل الكامل لشؤون الحياة الدنيا . والآخرة أيضاً بلا أدنى تناقضات أو خلل ، والفارق كبير بين «الدين» والطقس والشعيرة أو الممارسة التعبدية ، وفي تاريخ البشرية الإسلام وحده هو الذي يستحق أن يحمل اسم «الدين» فما نطلق عليه إسم الديانات السماوية لما قبل الإسلام ، نفعل ذلك تجاوزاً خاصة بالنسبة لأوضاعها التي وصلتنا عليها لوجود الخلل والتناقض والانغلاق ، والقصور فيها وهذا ينطبق أيضاً على ما يدعى تجاوزاً أو اصطلاحا باسم « الديانات غير السماوية» فهناك شرك واضح ووثنية وتناقض بين في هذه المجموعة الأخيرة ، أما بالنسبة للسماوية ، فاليهودية عنصرية منغلقة فيها زيف وتحريف بلا حدود ، والمسيحية ليست ديانة ، إنها عقائد «كنائس» كل منها تختلف عن الأخرى حول الأساسيات ، حول جوهر العقيدة والعلاقات اللامنطقية بين الأقانيم بعضها مع بعض ، وبينها مجتمعة وبين فكرة الوحدانية ، عدا عن كونها أنها تفتقر إلى النظام الضابط لشؤون الحياة ، وهكذا دفع المسيح أكثر فأكثر نحو زوايا الإهمال وحل محله رجال اللاهوت ، كل حسب هواه وعصره وبيئته ، وبهذا غدت مجموعات العقائد المسيحية مصنوعة من قبل البشر ومن ثم يمكن لا بل من المتوجب ـ إلحاقها واليهودية بالديانات الوضعية ، ونخلص هنا مجدداً إلى أن الإسلام كما هو ، هو الديانة السماوية الوحيدة ، أضيف إلى هذا مؤكدا من جديد كلمة «دين» يمكن فقط أن تنطبق على الإسلام ، وهذا ما عنته الآية الكريمة بحكم رباني مطلق «إن الدين عند الله الإسلام» ، ويتعزز هذا بشكل علمي لدى استعراض تاريخ العقائد والممارسات الدينية عبر التاريخ ، وهذا ماأنا بصدده حيث لدي الآن موسوعة مكثفة فيها تعريف بجميع ما آمن به البشر في مختلف عصور التاريخ ، وسيرى القارىء المنصف أنه لامراء حول كمال الإسلام وسلامته وتماسكه وشموليته وتفرده باسم «دين» .

يدرج كتابه «تاريخ الأدب العربي» جريدة بأسماء نحو من خمسة وعشرين ألف عنوان ، لأعمال كتبت على مدى كامل التاريخ الإسلامي منذ البداية وحتى نحو ١٩٣٨ ، وقد استعرضنا هذه القائمة ، وانتقينا جميع الأمثلة التي تظهر فيها كلمة إسلام ورتبنا هذه الأمثلة وفق الترتيب الزمني ، وللفترة الحديثة من (١٣٠٠ هـ) أردفنا بروكلمان بمعلومات من مصادر أخرى ، وان لم يكن هذا بتوسع .

والنتائج التي بدالنا أنها تقوم على فحص هذه المواد . ستكون هيكل دراستنا في القسم الثاني ، وقبل أن نختم هذا القسم التمهيدي قد نقوم ببعض الملاحظات العامة حول طريقتنا ، وحول البناء الفعلي لقوائمنا(*) .

ولا شك أن قائمة عناويننا غير مثالية ، وكبداية فإني بلا ريب قد أخطأت المدخل الشاذ في فهرس بروكلمان الذي فات عيني المتعجلة ، علاوة على ذلك فإني وجدت أن بروكلمان ، وهذا يكاد يكون مدهشاً ، قد انزلق إلى الخطأ من حين لآخر في فهرسه وفي غيره من الأمكنة ، علاوة على أن هناك احتمالات ، مثل تلك التي تظهر في مثل هذه الأعمال التي تدرج بين الأعمال المتميزه ، والتي ربما تثبت عند الفحص أنها عناوين مختلفة لمخطوطات متعدده للموضع نفسه ، والخطوة الثانية في هذا التحري ، ولسوء الحظ لم أتمكن بعد من اتخاذها سوى في الأعمال الحديثة ، هي ضبط تلك العناوين على الأعمال التي نشير إليها ، وتنفيذ مثل هذه العملية مع أنها طويلة سيكون مفيداً ، وسيبدل دون شك المادة المقدمة هنا في بعض تفصيلاتها ، وقد أخذت مع اعتذاري الحرية في تقديم نتائجي في هذه المرحلة المؤقته بسبب حدود الوقت التي فرضها المؤتمر ، ولأني لا أرى سبباً للافتراض بأن الاستنتاجات التي سيستدل عليها من النتائج ستكون معدلة بشكل جيد في الأساس ، والميول العامة هي التي قد تظهر بدلاً من التفاصيل التي لها الأهمية ، ونواجه هنا مسألة واسعة القدر هي أن العمل الضخم الذي تولاه معهد

★ ـ محتويات المكتبة العربية حالياً ـ المخطوطات فقط ـ فيها ما يزيد على المليون عنوان وقد يتضاعف العدد إذا قلنا الإسلامية ، لذا فإن محاولة بناء محصلات تأخذ شكل أحكام موجهة ـ على نسبة ضئيلة جداً من العناوين محاولة غير مقبولة علمياً .

المخطوطات الجديد التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة في طريقه للتفوق على بروكلمان ، أو على الأقل اظهار أن فهرسه بات محدوداً ، ومع ذلك تبقى قوائمه مصنفاً كبيراً للعينات وليس غير واف بالنسبة لتمييز الميول .

وهنا اعتراض آخر ممكن إبداؤه ، وهو أن عناوين الكتب العربية الكلاسيكية والعائدة للقرون الوسطى كثيراً ما كانت عالية الأسلوب ، وليست دائماً كاشفة بالنسبة لمادة موضوع العمل ، ولأمر واحد وجدت بالفحص أن هذا ليس صحيحاً على النطاق الواسع الذي يعتقد احياناً ، وعلى أي حال ، ليس هناك سبب قوي لمناقشة الصلاحية على مثل هذا الأساس من التعميم المستخلص من مثل هذا الترداد لاصطلاحاتنا حسبما هي موجودة ، وهذه الممارسة ربما تخذل عند التردد ، ولكن ليس التوزيع النسبي أو المعاني عندما تستخدم التعابير ، إلى جانب أن استعمال ، أونقص استعمال ، مصطلح في عنوان أيا كانت الأسباب الثقافية التقليدية له ، يحمل كما أشعر بعض العلاقة بتثبيت أو نقص تثبيت تلك الفكرة الشائعة .

لقد رتبت المادة في ثلاثة قوائم : الأولى (قائمة أ) لسائر العناوين العربية التي وجدتها حتى عام ١٣٠٠ هجرية . مما حوى كلمة إسلام ، وهي قائمة بشكل كلي على بروكلمان ، ليس فقط بالنسبة للمواد المعجمية ، بل بشكل عام للتواريخ والمصادر ، وقد أضفت موضوعاً واحداً ، ليس في قائمته ، لعمل قديم نشر مؤخراً في القاهرة ، وقد حدث أن وصل هذا إلى علمي ، وربما لن يعطل موضوعية الدراسة ، والموضوعات مرتبه زمنياً حسب تاريخ وفاة المؤلف كلما كان ذلك مناسباً .

والقائمة الثانية (ب) هي لعناوين أحدث من ١٣٠٠ هجرية ، وموضوعاتها مرتبة حتى الآن على أنها مناسبة حسب تاريخ النشر للمرة الأولى ، وكل مداخل المواد المعجمية لبروكلمان مشمولة ، إضافة إلى المعلومات التي تصادف وجودها في مجموعتي الشخصية أو لفتت انتباهي في المكتبتين اللتين قمت فيهما بمعظم تفصيلات العمل لهذه الدراسة ، وقد ضمنتها أعمالاً بالعربية من التي ظهر فيها تعبير «الإسلام» سواء أكانت مترجمة أو أصلية ، وبشكل عام استبعدت النشرات وتمت معارضة عدد جيد من المداخل لدى بروكلمان على الأعمال الأصيلة ، والأمنية

التي تبقى هي أن نجعل هذا المسح أكثر اقتراباً من الاكتمال ، وهي مهمة ليست ذات أبعاد كبيرة جداً .

وتحتوي القائمة الثالثة (جـ) على حفنه من العناوين التي قدمت إلي من أشخاص في القاهرة نتيجة لمناقشاتي ، وقد فصلتها عن القائمة (ب) لأنها وردت كتصوير لفكرة أبديت سلفاً ومواد تخدم بحثاً بدلاً من العكس ، وشعرت أنها ستحرف الهدف والطبيعة المحرضة للدراسة إذا ما أنزلت على قائمة بنيت جزئياً لهذا الغرض ، وبعض هذه العناوين عبارة عن أمثلة لاستعمالات معينة ، وعلى أي حال فإنها بدت مستحقة لأن تلحق بها .

ودعونا الآن نتحول إلى دراسة القوائم[٧] لنرى أي استنتاج سيخرج لنا .

دراسة المعلومات الأولية :

من حيث المبدأ إن عدد المعاجم في قوائمنا كبير ، وبالنسبة للقائمة (أ) فإنها صغيرة نوعاً ما ولكن لا يمكن إهمالها ، وفي الازمنة القديمة الكلاسيكية والوسطى كانت الكتب الدينية عديدة ، ولكن العناوين حول الاسلام مع وقوعها ، كانت أقل شيوعاً بدرجة كبيرة مما عليه اليوم . (في النصرانية القديمة ، ونصرانية العصور الوسطى إلى الحد الذي أمكنني كشفه ، لم يكتب على الإطلاق كتاب عن دين أو مسيحية) ، واجمالاً وجدت في بروكلمان حتى سنة (١٣٠٠ هـ) أربعة وثمانين عنواناً لكلمة اسلام ومعيار هذا التوزيع بالنسبة للعدد الإجمالي للعناوين المدرجة ضئيل جداً[٨] .

ومقدار الحصة بالنسبة إلى العناوين التي وردت فيها كلمة إيمان مهمة أيضاً ، ومن دراسة معارضة مع فهرس بروكلمان لم تدرج هنا[٩] ، وجدت أن كلمة إيمان مستعملة في ستة وخمسين عنواناً حتى (١٣٠٠ هـ) ، وبكلمات أخرى زادت على مر تلك القرون كلمة اسلام على كلمة إيمان في العناوين بنسبة اثنين لثلاثة[١٠] . وقد رأينا من قبل أن النسبة في القرآن كانت واحداً الى خمسة لصالح إيمان .

وفي الأزمنة الحديثة تصعد هذه النسبة الى ما يزيد على ثلاثة عشر إلى واحد[١١]، أي أن كلمة إسلام التي لقيت انتباهاً أقل بكثير من كلمة إيمان في

القرآن حصلت تدريجياً على اهتمام أكبر قليلا مع تقدم التاريخ الإسلامي ، واليوم تؤخذ في الاعتبار أكثر بكثير[١٢] .

ولنتحول بعد ذلك إلى المعاني التي ترتبط بعبارة الإسلام في الأمثلة المختلفة ، وغالبا ما يجعل المضمون واضحاً بشكل معقول أن المؤلف يستعمل الكلمة بمعنى واحد أو بآخر .

ومن حيث المبدأ يجد المرء حالات عديدة العمل فيها ، على ما يبدو ، يشير الى الإسلام بالمعنى الشخصي للالتزام «التسليم» ، وفعل الإيمان ، وفي تلك الحالات إن استعمال تسليم كبديل لكلمة اسلام ، مع انه قد يغير الدلالة قليلاً ، ذو معنى ليس متناقضاً ، وهذا واضح بشكل جيد في كتاب مثل كتاب السلمي «الفرق بين الإيمان والإسلام» الذي يتحرى الفوارق بين الايمان ، والخضوع لله ويجب أن نضيف هنا كتاب الغزالي «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» وكتاب الصوفي ابن العربي «الإعلام فيما بني عليه الإسلام» وكتاب ابن تيمية «رسالة الإسلام والإيمان» .

وفي مثالين صارخين كان الاستعمال ليس فقط بالتحديد شخصياً ، بل كان في الواقع فردياً ، وهذا في كتاب الواعظ البكري البصري «إسلام الطفيل بن عامر الدوسي» وكتاب المرصفي «تنزيه الكون عن اعتقاد إسلام فرعون» حيث المسألة ، حصراً ، مسألة الإسلام كالتزام من قبل رجل واحد .

وحتى إن رأى المرء ، كما يحتمل أن يفعل غير المسلم أو المسلم غير المتدين ، أن الاسلام في هاتين الحالتين مجرد تعبير فني ذي إشارة قانونية بدلاً من أن يكون إشارة دينية ، فإنه ما يزال واضحاً أنه يعني أن «يصبح المرء مسلماً» . وقد يلفت المرء الانتباه الى الفعل «يصبح» ، وحتى وإن كان الأمر كذلك سنشعر أنه في الحالة التي يكون فيها المؤلف أو القارىء تقياً ، سيرى في محتوى مفهوم أن «يصبح مسلماً» ، الذي هو محتوى ديني ، فعل الاستسلام لله .

ومرة أخرى ، في حالة كتاب ابن رجب الهمداني «غربة الاسلام» (القرن ٨/١٤) والذي نشر مؤخراً من قبل شيخ من الأزهر ، إن عنوان العمل ربما لا يكون في ذاته واضحاً على الفور ، وفي الواقع كتب المحقق الحديث مقدمة من ستين صفحة اهتم فيها بقدر كبير بشرح تعابير ليظهر لماذا كانت كلمه إسلام

بمعناها الحقيقي في الواقع «غريبة» أو «نادرة» وفي هذا السياق أوضح أن كلمة إسلام لها معنيان ، الاستسلام الذاتي لله دون عقيدة مفهومه وبها [١٣] (وقد يذكر أيضا أن صفحة عنوان الكتاب تحمل عنواناً آخر هو «كشف الكربة بوصف أهل الغربة» ـ وليس واضحاً بالنسبة لي فيما إذا كان هذا يعني أن عنوان «غربة الإسلام» ليس عنواناً أصلياً في الواقع ، أو ليس قديما قدم النص، وعلى أي حال ، إن الالماع هو إلى حديث يؤكد أن الإسلام بمعناه الحقيقي ، وهو الخضوع الحقيقي لله نادر .

وتنطبق ، بلا شك ، اعتبارات مماثلة نوعاً ما ، على كتاب الصوفي علي الادريسي «بيان غربة الإسلام» ، وعلى كتاب الغزالي «رسالة في منبع الإسلام» .

وتبدأ العناوين مع العبارة المزدوجة «الإيمان والإسلام» (٨ مرات على هذه الشاكلة و ٦ مرات على العكس) في نحو القرن ١٤/٨ ، والكتب الأخرى التي درسناها حتى الآن في هذه المجموعة ، متأخرة جداً ، والكتاب الأقدم هو كتاب ابن عربي المذكور آنفاً (القرن ١٣/٧) مع كتابي الغزالي (المتوفى ١١١١/٥٠٥) ويمكن أن يضاف الى هذه المجموعة ، كما نشعر كتابين من نهاية فترتنا في القرن ١٩/١٣ ، وكلاهما لمؤلف هندي شيعي هو دِلدار : «حسام الإسلام في نقد ما ذكره عبد العزيز في باب النبوة» و«عماد الإسلام في علم الكلام» وعنون الأخير باسم بديل هو «مرآة العقول في علم الأصول» .

وهناك مجموعة أخرى من العناوين تعود إلى وقت أبكر من القرن ٩/٣ ، وتستمر دون انقطاع هام الى القرن ١٩/١٣ مع اصطلاحنا في صورة شرائع الإسلام (٥ مرات بالجمع ومرتان بالمفرد) قواعد الإسلام (٣ مرات بالجمع ومرة بالمفرد) أركان الإسلام (٣ مرات) قواطع الإسلام ، وهكذا دواليك ،وفي هذه الحالة لا يبدو بالنسبة لي ممكناً القول بوضوح من النظرة الأولى بأي معنى استعملت كلمة إسلام ، فقد تعني فعل الخضوع لله ، أو يمكن أن تكون اسماً لدين كمثال منظم بالمعنى الذي نتحراه .

وهناك بعض الدلالات التي توحي بالأول ، على سبيل المثال كتاب (المقدسي) (لوازم الإسلام والايمان) (مخطوط بتاريخ غير مؤكد) ، وهو مرة أخرى من تلك الزمرة التي تربط الإسلام بالإيمان وتجعله حسب حكمي شخصياً بشكل

واضح كما في الأمثلة التي كنا بصدد دراستها (وقد يذكر عرضاً أني لم أجد عنواناً لأي عمل للقرن الحالي يذكر الإسلام والإيمان ، في الوقت نفسه) ومرة أخرى في وقت متأخر يعود إلى القرن ١٢ / ١٨ ، في حالة مؤلف هندي يكتب بالعربية ، بقي لنا مخطوطان من كتبه يحمل أحدهما عنوان «فرائض الإسلام» والثاني (فرائض الإيمان) ، ومرة أخرى ترك مؤلف آخر أحدث قليلا كتاباً بعنوان «فرائض الدين وواجبات الإسلام» حيث الفرائض يمكن أن تكون منطقياً أما فرض كفاية أو فرضاً عاماً ، ويبدو الأمر ، بالنسبة لي ، نوعاً ما ، ان استعمال الواجب هنا بمضمونه من المسؤولية المعنوية ، يقوي حقا الإيحاء بأن المؤلف حمل في ذهنه الشخص الفرد ، الذي هو فوق كل شيء القادر وحده على تولي هذه المسؤولية ، وتتحول المسألة هنا ، مع الفرائض واللوازم إلى موقف المرء من الواجب .

ووجدت في سائر الأحوال التي درست في هذه المجموعة ، بشكل واف لتحديد المعنى الذي قصده المؤلف بالنسبة للكلمة في كل حالة أن على المرء بالطبع أن يقرأ الكتاب بدقة وتفهم ، ولم أكن قادراً على فعل ذلك حتى الآن ، وأحياناً قد لا يكون هناك وسيلة متوفرة ، وعلى سبيل المثال ، إشارة الطبري في تاريخه الى عمل كان قد كتبه بعنوان بسيط هو «القول في أحكام شرائع الإسلام» وأشار في تفسيره إلى «اللطيف من البيان عن أحكام شرائع الإسلام» الذي يحتمل أن يكون عنواناً بديلاً للبحث نفسه ، ولكن ، على أي حال ، لم يبق منه أي مخطوط ، أو على الأقل لم يكتشف حتى ١٩٣٨ أو نحوها شيء من ذلك القبيل ، وعلى أي حال إن التساؤل عما كان في فكر المؤلف ليس القصة كلها ، لأن أي شيء قد عناه الكاتب لا بد لكلماته (كما يتعلم كل من يكتب منا أحيانا وهو آسف) من أن تقف لوحدها ، وسيجد الناس الذين يسمعونها أو يقرؤون فيها معاني خاصة بهم ، وما أن يوجد كتاب سواء أكانت كلماته تعني فعلا أو يبدو أنها تعني شيئاً ما عندها سواء أكان المؤلف قصد أو لم يقصد تسهم رغم ذلك في شيوع تلك الفكرة ، وفي الأمر الذي نناقشه ليس مستحيلاً ، أن نجد عبارات مثل «شرائع الاسلام» ربما انطلقت مع ما عناه الإسلام بالدين في تقديرنا الأول ، كاحترام شخصي أو أخلاقي ، وربما تكون قد أسهمت في الغموض الذي أصبحت فيه في النهاية تعني الدين في معناها الثاني : النظام المؤسساتي ، وهناك كتاب لمؤسس الحركة

الوهابية السلفية الإصلاحية مدرج تحت عنوان «فضل الإسلام» وهذا في محصلات أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين في حقل الدفاع عن العقائد التي حملت عناوين مثل «فضائل الإسلام». ومع ذلك ، ومع أني لم أتوصل الى كتاب ابن عبد الوهاب الذي ، في حدود ما أعرف ، لم ينشر بعد ، فإني مع ذلك أعرف ما يفعله المرء من وجهة نظره العامة ودعوته ، وسأكون مندهشاً إذا كان قد عنى بالإسلام هنا ما يعنيه المدافعون عن الدين الآن ، فبالنسبة له لقد كان التزاماً أخلاقيا أن يطاع بدلا من إضفاء مثالية يعجب بها أو يدافع عنها ، وهذه واحدة من النقاط العديدة حيث يجب أن أقوم بمزيد من البحث .

وفي حالة مشابهة نوعاً ما تحمل العناوين الستة (بدءاً من القرن ١٣/٧) كلمات «أهل الإسلام» ، وآخر باسم «ملة الإسلام» .

وربما يمكن أن تضاف هنا «جمهرة الإسلام» [٤٤] ونجد هنا أيضاً في حالتين معنى العبارة الكاملة «أهل الإسلام والإيمان» التي توحي مرة أخرى بالاستجابة الشخصية لتحد ما ، ومع ذلك قد يبدو لي هناك غموض ما ها هنا ، وان عبارات مثل هذه، والعبارات من المجموعة السالفة قد ساعدت بلا شك على تسهيل الانتقال من الإسلام كالتزام شخصي الى الإسلام كمثل منظمة .

ويصور هذا الانتقال أكثر في لقب «شيخ الإسلام» الذي أطلق ثلاث مرات على ابن تيمية ، ومرتين على ابن حجر ، ومرة على البلقيني ، وثلاث مرات على أشخاص لم يعينوا في المصادر ، وقد يضيف المرء أيضاً «حجة الاسلام للغزالي» (مخطوط تاريخه غير مؤكد) ويفترض أيضاً إضافة «روح الإسلام الشيعية» القرن (١٣/ ١٩) لسلمان ، وبدأ استعمال عبارة «شيخ الإسلام» من النصف الأول من القرن ١٢/٦ في فترة أبكر بكثير جداً من أول إحداث لمنصب رسمي بهذا الاسم من قبل سليمان الفاخر أو الصفويين ، وتقوم هنا بصعوبة أخرى ، تقلقنا فعلاً خلال هذا العمل ، وهي مشكلة عدم التأكد مما إذا كانت العناوين كما هي معطاة في بروكلمان هي في الحقيقة بقدم الأعمال التي تصفها نفسها ، أو إذا لم تكن قد أضيفت تحت ضغط أسلوب متأخر ، ومثال على هذه العملية عمل الواقدي الذي عنون ما كتب في القرن الثاني افتراضاً «فتح بلاد العجم وخراسان» أما ما شابه هذا ، ولكنه نشر في طبعة بالعنوان الجديد «فتوح الإسلام ببلاد العجم

وخراسان» [١٥] وعلى سبيل المثال فان كتاب «ترجمة شيخ الإسلام البلقيني» قد أدرج كما وجد في مخطوطين أحدهما في استانبول . والثاني في الاسكوريال ، لكن الأخير استبعد عبارة «شيخ الاسلام» من العنوان مما يترك المرء حائراً فيما إذا كان هذا الاستعمال هو في الحقيقة بقدم سقوط وسط الأندلس ، ومرة أخرى أدرج عرفان ابن قدامة وثنائه على صور مختلفة مثل «ترجمة تقي الدين ابن تيمية» أو مثل «مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية» [١٦] .

وحتى تكتمل الدقة المعقولة من خلال البحث في هذا الحقل الذي ما يزال بكراً نوعاً ما يجب افتراضاً أن نقبل العناوين المعطاة والتواريخ حول المؤلفين الذين تنسب إليهم الأعمال ، وتشير الأخيرة ، كما في أي حالة ، إلى حد أدنى من التاريخ لإدخال مضمون إضافي ، أو استعمال ، وحتى لو كان هناك احتمال في كونها أبكر بشكل مضلل . وننتقل أخيراً ضمن هذه الزمرة إلى دراسة كتاب لابن تيمية نفسه يدعى «الحسبة في الإسلام» ، ويجب أن نلاحظ أن هذه المرة الأولى ، وعلى ما يبدو ، الوحيدة حتى في العصر الحالي ، التي استعملت فيها عبارة «الإسلام» ، وهذه هي الصياغة الأكثر أهمية ، وقد تطورت كثيراً في يومنا هذا كما سنبين قريباً ، ويجعل استعمال كلمة «في» من الواضح تماماً أن الإسلام كيان ، شيء ما ، له أجزاء ، شيء يمكن أن تكون فيه أو خارجه أشياء ـ ليس بالمعنى الصوفي للباطن والظاهر ، ولكن بالمعنى الراسخ لنمط منظم يمكن ملاحظته ـ وهذا هو المعنى الحديث لمجموعة من الناس ، ومع ذلك من الواضح عندما يمعن المرء فيها يجد أن تعابير «كذا وكذا في الإسلام» لم تكن لتستعمل من قبل أناس كان تعبير الإسلام يعني عندهم معناه القرآني فقط «علاقة شخصية بين النفس والله» .

كل ما استعرضناه حتى الآن ، تقريباً «١٧» من العناوين التي وردت فيها كلمة إسلام خلال القرون الثلاثة عشر الأولى من التاريخ الإسلامي ، فكل ما اكتشفناه هو أن التعبير جاء إما مرتبطاً بالإنسان فعلاً أو احتمالاً ، بمعنى قبول الانسان الشخصي للمسؤولية أمام الله ، أو استعمل أيضاً في إطار غامض ليعني هذا ، أو المثل المثالية ، إلا فيما يتعلق بكتاب ابن تيمية الذي سلف ذكره ، حيث يظهر الشيء المثالي بوضوح ، ومن الناحية التاريخية بدأ استخدام هذه العناوين ، باستثناء الطبري ، في شرائع الإسلام والغزالي .

ونتحول أخيراً نحو فحص العناوين السبعة عشر المتبقية ، وإثنان منها كتبا من قبل غير المسلمين وأحدهما كتاب حديث (قرن ١٢/١٨) وغريب نوعاً ما لمسيحي بعنوان «تحيات الإسلام فيما ورد بالسلام والمصافحة والقيام» ، والآخر قديم ، وفي الواقع انه أول كتاب معروف اطلاقاً ، تظهر في عنوانه كلمة «إسلام» ، انه لم يبق ، ولكن الاسم أشير اليه عرضاً في كتاب للجاحظ ، على أنه كتاب يونس بن فروة الذي كان عضواً في جماعة الزنادقة المستهترة المتجمعة حول بشار بن برد في بلاط المهدي ، وإني أغامر بأن أدعوه غير مسلم بسبب ارتباطاته ، ولأنه يشاع أنه قد أهدى للامبراطور البيزنطي الكتاب التالي «مثالب العرب ، وعيوب الإسلام» .

وهذا يرتبط بالفكرة التي علقنا عليها أعلاه ، والتي فصلناها في أوراقنا التي سلف ذكرها (١٧) ، والتي سنعود اليها من أجل الفترة الحديثة : أعني أهمية الاستعمال من قبل الأجانب لاسم يدل على نظام ديني لا يؤمنون هم أنفسهم به .

ويبقى إذاً «١٥» عنواناً ، وقد نحيتها جانباً من أجل دراسة منفصلة ، لأننا قد نرى فيها انتقالاً نحو تطور معنى جديد أكثر دنيوية للإسلام ، حيث لا يشير هذا المعنى الى ديانة المسلمين بل الى المسلمين أنفسهم ، الجماعة أو ثقافتها التاريخية (١٨) وجاء الانتقال في بعض الحالات جزئياً ، وفي بعضها الآخر تقريباً تاماً (١٩) .

وإذا درست هذه الحالات بدقة ، فإن التفكير قد يؤدي بالمرء ، إلى استنتاج أن كلمة «إسلام» قد أصبحت اسماً ليس لدين بل لثقافة أو جماعة ، وعلى ما يبدو ، أنها لا تدل على علاقة الطاعة والخضوع من قبل الفرد تجاه خالقه ، ولا حتى على النمط المثالي لمثل هذه العلاقة التي أودعت بشكل تصنيفي في مجموعة منظمة حيث يجب أن تتكيف حياة الجماعة ، وهي تعني ، بالأحرى ، حياة الجماعة كما هي في الواقع ، وكما كانت دون اعتبار لما يجب أن تكون .

ويستحق استعمال عبارة «ملوك الإسلام» ، الاهتمام ، وقد نلاحظ بشكل عرضي أنه جرى بعد انقضاء ثلاثة قرون ونيف استخدام عنوان مثل «سلطان الإسلام» ليس في الأدب ، بل في السياسة من أجل أمير ، حاكم بالفعل ، وقد أشير بهذا اللقب إلى السلطان السلجوقي «سنجر» في القسم الأول من القرن

١٢/٦ في «سوجندنامه» كما ودعي باسم «ملك الإسلام» من قبل الغزالي نفسه في رسالة فارسية ، ثم تكرر فيها بعد تسمية الحكام الإيلخانيين والصفويين بملوك الإسلام[٢٠] ، وقد تميز في مثل هذه الحالات أن الإسلام لم يفقد كلية معناه السامي ، وليست الفكرة فقط أن الحاكم هو حاكم المسلمين ، بل إن عليه مسؤوليات معنوية وامتيازات روحية وشرعية رسمية لحكمهم ad dei gloriam كما كانت ، وكانت الفكرة في إعطائه مثل هذا اللقب لتأكيد كونه حاكماً على الرغم من أنه ليس خليفة ، وكان هذا جزءاً من الترتيب الإسلامي الصحيح للأشياء .

ومثل هذا في بعض عناوين الكتب التي ندرسها جاء العنوان الكامل لاثنين من أحدثها (القرن ٩ ـ ١٠/١٥ ـ ١٦) كما يلي ، «نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق إلى آل بيت الكرام» و «تحذير أئمة الإسلام عن تغيير بناء البيت الحرام» .

وفي حالات أقدم هناك ـ كما يبدو ، القليل مما يوحي بذلك ، ولعل الذي عناه كتاب المقريزي «ملوك الإسلام في الحبشة» القليل أو لا شيء أكثر من الملوك المسلمين ، أو ربما بشكل أدق «الملوك المسلمون لجماعة الإسلام» ، وفي «حكماء الإسلام» (وربما في جمهرة الإسلام ؟) هل كان الإسلام يعني كثيراً أكثر من الجماعة المسلمة ، ومثل هذه إشارة البياسي ـ ذات الصوت الحديث الطنان ـ إلى «صدر الإسلام» ويحتمل أنه كان لها في الذهن ظهور الإسلام على الأرض كظاهرة تاريخية ، وإذا فكر المرء في الإسلام بمعناه الديني الدقيق ، وطبقاً للقناعة الإسلامية ، فقد ظهر هذا الدين مع آدم ، وعاود الظهور على الأقل مع كل واحد من الأنبياء .

وتصل هذه الميول العلمية ـ إذا كان لنا أن ندعوها كذلك ـ الذروة في المجموعة الصغيرة من الكتب التاريخية التي تشكل في الواقع سلسلة أصلها في الكتاب الذي يحتوي على بذور التطور (لشمس الدين الذهبي) (القرن ١٤/٨) ولاقى هذا التاريخ الكبير والمؤثر سياسياً وفكرياً . من زمن النبي محمد (ﷺ) حتى يومه انتشاراً على نطاق واسع ، وقلد واختصر ، ونقح ، ولندرس عنوانه «تاريخ الإسلام» ويمكن أن يكون لهذه العبارة معنيان محتملان على حد ما يمكن أن أرى ، أنه لا يمكن أن يعني تاريخ «تاريخ إسلامكم» أو «تاريخ إسلام فلان» ، ولكن هذا

نادر ، ومعناه نوع من أنواع التراجم الروحية ، وما يمكن أن يعنيه تاريخ الإسلام ، يمكن أن يكون أولاً تاريخ الدين كأسلوب منظم ، وثانياً تاريخ الجماعة الإسلامية(*).

ولم يكتب الأول مطلقاً ، وهو موضوع ساحر ، وهو أحد الأعمال التي أحلم بالقيام بها في يوم ما ، أريد كتابة تاريخ الدين الإسلامي ، وتطوره كـ Weltanschauung ديني عبر القرون ، والتغيرات التي مر بها عندما كان يتم تبنيه من قبل شعوب مختلفة في ظروف مختلفة ، وفي أزمنة مختلفة ، والمسلمون إجمالاً ـ ليس فقط ـ لم يكتبوا رواية كهذه ولكنهم ، إلى حد ما ، منعوا أنفسهم فطرياً من كتابتها ، لأن الإسلام بالنسبة للمسلم المؤمن في «المزاج الحديث» يصور كنظام ديني يميل إلى أن يفهم على أنه ثابت ، وربما تصبح عدم مؤامة هذا الاقتراح ـ أو على الأقل الطبيعة المتطرفة ـ أوضح إذا ترجم المرء «تاريخ الإسلام» بالعبارة الكاشفة التالية : «تطور الإسلام» أو «تطور دين الإسلام»(**)،وربما لن يكون من الحمق التنبؤ بأن مثل هذاالكتاب سيكتب أولاً من قبل غير المسلمين (مع أن المرء قد يأمل أن يثبت أن هذا التنبؤ سيكون خاطئاً)[21] .

والمعنى الآخر الذي ربما حملته كلمات «تاريخ الإسلام» هو تاريخ الجماعة الإسلامية ، ومفهوم أن للجماعة تاريخاً مفهوماً دقيقاً بدرجة كافية وهو مقبول عقائدياً تماماً ، وما هو غريب في هذه الحالة هو المعنى الذي أخذته كلمة إسلام

★ ـ يلاحظ أن الكاتب قد تجنب ـ ربما عن اصرار متعمد ـ التعرض الى فكرة دمج المفاهيم في الإسلام ، وانعدام فكرة «الكنيسة والقصر» ففي الإسلام المسجد هو دار الحكم ، وكل عمل أو عبارة أو مفهوم ديني له بالوقت نفسه معنى دنيوي ، ولا شك أن اعتماد هذه الفكرة ينسف من الأساس ما رمى اليه في بحثه هذا ، والدمج هو ما تعلق دوماً في أذهان المسلمين عبر العصور .

★★ ـ الإسلام ثابت بثبات نص القرآن وصحته المطلقة مع السنة الصحيحة المتفق عليها ، ويمكن فقط الحديث عن تطور فهم الإسلام بشكل عام أو في بعض الجوانب ، ومن هذه الزاوية يمكن أن ننظر الى الأبحاث التي أرخت للفقه ، وللقضاء وعلم الكلام ، والفلسفة والتصوف وغير ذلك .

آنئذ ، ألم تعنِ آنذاك ، وكما ذهبنا ، أمراً واقعياً ، وليس مثالياً ، ليس ما طلبه الله من الناس بل ما أراد الناس أن يقدموا(*)له ؟ ونختم عرضنا هذا للفترتين الكلاسيكية والعصور الوسطى(**) ولكن قبل الانتقال إلى القرن الحالي يجب أن نلاحظ أن تلك الطريقة الأخيرة للنظر إلى الإسلام هي الطبيعية بالنسبة لمن هم خارجه ، وهذا هو المعنى المقبول لاصطلاح «إسلام» لغير أبنائه المؤمنين به ، وعلى سبيل المثال إن المعيار الذي مال المستشرق الغربي إلى النظر به إلى الإسلام هو كظاهرة دنيوية وحقيقة تاريخية يتولى دراستها بموضوعية ، وبالنسبة له إنه ليس فكرة في ذهن الله ، بل هو بناء بشري صرف على مسرح التاريخ ، وأنا شخصياً لا أشاطره هذا الرأي ، وفي الحقيقة إن جزءاً من دراستي الراهنة هي محاولة الصراع مع قضية محاولة الأجانب على الإسلام فهم دين ليس دينهم ، ما يدفعني إلى استنتاج أن مثل هذا الفهم يتطلب مراجعة جادة نوعاً ما لكثير من تعابيرنا ، ومفاهيمنا ، وفي الحدود الدنيا يجب أن يتعلم المرء أن ينظر إلى الإسلام ليس فقط كظاهرة تاريخية موضوعية بل أيضاً كمثل تكمن وراءه ، وليس إلى السلوك الظاهر للمسلم ، بل إلى التطلع الداخلي في قلبه ، وحتى هذا أشعر أنه يجب أن ينقح ، إن لم ينسخ ، ويبدو لي أن الإمكانية عالية في أننا سنصل إلى الاعتراف بأن ديناً ما ، وبناء عليه ، التاريخ الديني ، ومن ثم التاريخ البشري لا يمكن أن يفهم

★ ـ هذا دس رخيص مردود على صاحبه إذ فيه تكفير للأمة الإسلامية عبر العصور بعدم التزامها بما أراده الله وتنفيذها ما ارادته هي ، حيث لم يشهد التاريخ البشري أمة تمسكت بدينها مثلما فعلت الأمة الإسلامية ، ولم يحدث قط أن تحول مسلم مؤمن عن دينه الى دين آخر ، في حين دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وما زالوا يفعلون ، يهجرون عقائدهم ومواريثهم ، وأصل الغلط لدى الباحث أنه لم يتحرر من معطيات تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ، ومسألة الدمج في الأبحاث ، وعدم التمييز فيها دلالة على العجز والتزييف .

★★ ـ اذا اعتمدنا المعيار الأوربي للعصور ظهر الاسلام في العصور الوسطى ، وعليه ليس هناك «عصور كلاسيكية» علما انه ليس للإسلام عصور وسطى ، لأن هذا يستدعي وجود عصور قديمة ، وعصور الجاهلية ليست إسلامية ، للإسلام عصوره الخاصة به ، ومرّ تاريخه المديد بمراحل يمكن تقسيمها سياسياً أو حضاريا للمساعدة على البحث والدراسة لباحث ما بمعايير خاصة به لأن تاريخ الإسلام مثل نهر عظيم لم ينضب ، ولم يتحول ، ولم يتوقف أبداً .

بشكل صحيح دون إدراك فعال ، وربما كان لازماً أن الأجانب على الإسلام في المرحلة الأولى ، وقد فهموا الإسلام بهذا الأسلوب غير المثالي ، رأوا أنه شيء يقع بكامله ضمن العالم الحسي المبني على الملاحظة والتجربة ، وكانت النتيجة أن هذا هو المعنى الذي حظي به تعبير الإسلام في اللغات الأوربية .

وبالانتقال إلى قائمتنا (ب) ، ودراسة الاستعمالات التي تبينها نجد أنفسنا نتساءل عما إذا كان قد توفر خلال الأزمنة المعاصرة في العالم الإسلامي ميل متزايد ومنتشر الآن لاستعمال كلمة «الإسلام» بمعنى الحقيقة التاريخية الملموسة التي وجدت بالفعل .

ونجد في القائمة (ب) عدداً صغيراً من الكتب التي تكمل التقاليد الأقدم من فترة العصور الوسطى ، وقد تزايد عدد هذه الاستعمالات بسرعة كبيرة ، واستبدلت الكتب حديثة الطراز بأحدث منها ، ذات معنى أكثر دنيوية .

ويصور الميل مرة أخرى بكثير من الكتب الحديثة التي نشرت وقرئت في قرننا على نطاق واسع تحت عنوان «تاريخ الإسلام» ، وهناك أمثلة كثيرة على هذا ، وقد يضيف المرء السلسلة بالغة الشعبية لأحمد أمين «فجر الإسلام» «ضحى الإسلام» «ظهر الإسلام» «يوم الإسلام» ، ويحصل المرء أيضا على عناوين مثل «تاريخ صدر الاسلام» ، واذا تأمل المرء العنوان «مبادىء الإسلام» يدرك أن هذه العبارة قد تعني «أسس الإسلام» كأسلوب عقائدي منظم ، ولكن ، بدلاً من ذلك ، قصد المؤلف بدايات الإسلام كواقع منظم .

ومثل هذا يقال عندما يكتب رجل كتاباً دعاه «أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة» أو «المستشرقون والإسلام» ، يمكن للمرء بالطبع أن يكون واثقاً تماماً من أنه لا يعني «بإسلام» «التسليم» النهائي ، ألا يمكن للمرء أيضاً أن يخمن، كما في الحالة السالفة بشكل مؤكد وفي الحالة الأخيرة احتمالاً ، أنه لا يفكر حتى في النظام الديني المثالي ، ولكن الأكثر احتمالا في الحضارة التاريخية ؛ ومثل هذا عنوان «الإسلام في الحبشة» ففي هذه الحالة لا بد أن تدل كلمة الإسلام على الحالة الدينية التاريخية كما كانت موجودة ، ويفرض النمط المثالي للإسلام ، بمعناه المنظم ، أنه متماثل في اثيوبيا كما في أي مكان آخر، وإذا كتب المرء ، أو بالنسبة

لهذا الأمر ـ قرأ ـ كتاب «الإسلام في الحبشة» فمن الواضح أنه لا يوجد في ذهنه النمط السامي للإسلام ، بل واحد من تعابيره التاريخية الفعلية .

وتتضح هذه الفكرة أكثر إذا عدنا إلى عبارة ابن تيمية «الحسبة في الإسلام» ، حيث يفترض في عملٍ ابن تيمية أنه على المستوى النظري بحث في الحسبة كما يجب أن تكون ، وطبقاً للوصف الإسلامي المثالي ، ويمكن للمرء أن يتخيل عملاً مختلفا تماما من قبل ـ لنقل ـ مؤرخ اقتصادي غربي ، وقد تكون لدراسته العنوان نفسه ولكنه قد يناقش الحسبة والمحتسب لا كما يجب أن يكون ، بل كما كانت فعلاً في تاريخ مكان أو زمان ما ، وعلى سبيل المثال ستشمل مثل هذه الدراسة أي فساد ممكن الحدوث ، وبمقارنة هذين المفهومين ، يمكن للمرء أن يرى الفرق بين معنيي الإسلام .

ويتضح هذا بدقة عندما تتم دراسة كتاب (بوير) «تاريخ الفلسفة في الإسلام» ومن الواضح أن عبارة «في الإسلام» ، هنا تعني شيئاً مختلفاً عما عنته في كتاب ابن تيمية «الحِسبة في الإسلام» .

ووقع الفرق نفسه في عبارة «في الإسلام» بين عنواني «المجاهدون في الإسلام ١٠٠ ـ ١٣٧٠» و«حقوق النساء في الإسلام» وبهذا الأخير قارن «الرزق في الإسلام» و«الزواج في الإسلام» الخ ، وقارن بالأول «تاريخ القضاء في الإسلام» وقليل آخر «في الإسلام» مما سندرسه حالا ، وقد يشدّ الانتباه إلى فكرة أن العنوان الأول هنا يجسد عصوراً محددة تصور في العقل بوضوح إسلاماً تاريخيا بدلا من إسلام بلا حدود زمنية ، وكان من الممكن لكتاب اقتصادي غربي مفترض للمتصور أعلاه أن يحمل عنوان (وينبغي أن يعنون ولو على الأقل ضمنياً) (الحسبة في الإسلام من عام أ الى عام ب) في حين لا يمكن لكتاب (ابن تيمية) «الحسبة في الإسلام» أن يقبل التواريخ .

وتنقلنا ترجمة دوبوير الى ما بدأت أعتقد أنه ربما كان حاسماً في هذا الأمر ، وهو مسألة الزخم المؤثر من الغرب ، ومن غير المسلمين ، وأن هذا مصطنع ، أو قد اقترح ، بصرف النظر عن احتمال تأصيله بالتفحص الدقيق لبعض الأعمال المنشورة ، فعلى سبيل المثال ، إن الكتابين الوحيدين للشيخ محمد عبده اللذين في عنوانيهما كلمة إسلام قد كتبنا في إجابة واضحة على الهجمات الخارجية على

الإسلام بمعنى هجمات على مااعتقده غير المؤمنين أنه الإسلام ، وكان الكتاب الأقدم رداً على مقالة أوربية ، وأما الأخير «الإسلام والرد على منتقديه ١٩٠٢» فهو رد على العربي غير المسلم فرح أنطون .

وربما يكون مهماً ملاحظة أن كلمة إسلام في المقال الأقدم تعطي مدلول الكلمة المستعملة نفسها للترجمة العربية لمقالة هانوتو Hanotowx الفرنسية الأصل ، وهي ترجمة كانت قد نشرت في الصحيفة القاهرية المؤيد وأثارت هذا الرد [٢٣] .

وثانية إن أول الكتب مكانة وأشدها تأثيرا كتاب نقح كثيرا ، وأعيد نشره مراراً ، لأنه ربما كان الكتاب الأكثر حيوية ، والأكثر عطاء ، والأكثر تميزاً بين الكتب التي قدمت الموقف الجديد ، انه «فريد وجدي» الذي حمل في طبعته الثانية عنوان «المدنية والإسلام» وهذا الكتاب لم يكن فقط عملا دفاعيا عن الإسلام في جداله مع رجلين فرنسيين : ب كونستانسن B. Constans وج . سيمون J. Simon ، ولكنه كتب فعلاً للمرة الأولى بالفرنسية ، ثم ترجم إلى العربية [٢٤] ، وكان الكتاب الآخر من بين الكتب الحديثة التي ظهر فيها «الإسلام» في العنوان بالمعنى التاريخي هو كتاب «الإسلام خواطر وسوانح» وهو ترجمة لكتاب هـ . ده كاستريز H. de. Castries وتكمن الأهمية هنا في حقيقة أن كلمة الإسلام بات من الممكن أن تترجم من لغة غير المؤمنين به الى العربية بوساطة مسلم بدون إزعاج [٢٥] .

وإلى جانب الترجمات هناك كتابة الكتب بالعربية من قبل غير المسلمين ، وأحد الأوائل والأكثر تأثيرا كان كتاب «حضارة الإسلام في دار السلام» وقد كتب من قبل مسيحي عربي (القاهرة ١٨٨٨ وطبعات متتالية) ، وهو عمل يقال انه [٢٦] عمل رائد للكاتب المسيحي جرجي زيدان الذي ما زال الأكثر شعبية وفعالية .

وللوصول الى فترة تالية ، قد يلاحظ المرء كتابا مثل كتاب «تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام . . الحركات الاجتماعية» (القدس ، ١٩٢٨) وهو تاريخ ماركسي ، رأى في الإسلام ظاهرة تاريخية مثلما أوحت مجددا عبارة «في الإسلام» . وفي الحقيقة وجدت أن الأعمال خلال الفترة التقويمية للعقود الثلاثة الأولى للقرن الهجري الحالي (تقريباً من ١٨٨٠ حتى الحرب العالمية الأولى) إما ترجمات عن الفرنسية أو هي كتابات عرب غير مسلمين ، وهي تشكل نسبة هامة ، نوعاً ما ،

من بين العناوين التي تظهر فيها كلمة «إسلام» ، وانهم يستعملون هذا التعبير بشكل رئيس بمعناه التاريخي المنظم ، وإذا أضاف المرء تلك الأمثلة حيث ردّ الكتاب المسلمون بوضوح على هجمات الأجانب عن الاسلام يجد أن نصف الاستعمالات تقريباً خلال تلك الفترة هي بهذا المعنى غير طبيعية (٢٨) ، ومنذ هذه الفترة ـ على أي حال ـ تبنى المسلمون أنفسهم هذا الاستعمال ، وهو في هذه الأيام يتجاوز بقدر كبير أي معنى آخر للاصطلاح في العناوين العربية . وفي الحقيقة إنني غدوت أعتقد أنه يجب تفحص تلك السنوات لرؤية ما إذا كانت لا تحتوي نقطة حاسمة في تطور تفكير المفكرين العرب حول الإسلام ، وما إذا كان الانتقال لم يحدث خلال هذا الوقت ، وأنه حدث بقدر كبير تحت التأثير الغربي على هذه الإشارات غير العُلوية (٢٩) .

وبصورة مماثلة ظهر في ١٩٢٧ في القاهرة كتاب «تاريخ فلسفة الإسلام» لمحمد لطفي جمعة ، وهو لم يقصد تاريخ فلسفة ديانة الإسلام ، ولا حتى تاريخ الفلسفة الإسلامية للدين ، بل ببساطة تاريخ مُثل تلك الفلسفة العامة ، كما حدثت ضمن المدنية الإسلامية ، وانه لأمر بنّاء أن نعرف أن هذا الكتاب قد انتقد لهذا في مقالة محمود الخضري في القاهرة لكونه ليس سوى انتحال لأعمال المستشرق الألماني مونك Munk (٣٠) .

وعلى هذا ترسخت بهذه الطرق المختلفة من خلال كتب بلغات أوربية قرأها المسلمون ، ومن خلال كتب بالعربية ، ولغات إسلامية أخرى كتبت من قبل غير مسلمين ومن خلال الترجمات ، وربما أيضا من خلال ضعف العقائد الشخصية الحية بين بعض أعضاء الجماعة الإسلامية أنفسهم ، كلمة إسلام بمعناها المستورد من عند غير المسلمين ، وأسست نفسها في لغات ، لا بل ربما حتى في ، تفكير العالم الإسلامي المتمدن ، ونجد في ١٩٣٠ كاتباً قد احتج ضد هذا التطور ، وضد القبول به ، فنشر كتاباً بعنوان «الإسلام الصحيح» لكنه عبر دون أن يلفت الانتباه ، في حين أنه ربما قبل ألف سنة مضت ، أو ربما قبل خمسين سنة ، ما كان ليخطر بباله أو ببال قرائه التفكير . مطلقاً أنه كان هناك نوع آخر من الإسلام ليكتبوا حوله، ووصل الميل العلماني الأوج ربما في كتاب نشر في القاهرة منذ بضع

سنوات خلت حوى في عنوانه العبارة المدهشة التالية «الإلحاد في الإسلام» ومجرد التفكير في هذه الكلمات هو إدراك لمدى عمق تغير المعنى .

وقد لفت انتباهي على خط الاصطلاح إلى عناوين أخرى في استخدامها لـ «في الإسلام» تفشي تجدد مماثل في المفهوم .

وفي الختام يمكن القول بدا للأجنبي عن الإسلام ، أنه كان هناك ميل على مر القرون ، ولا سيما في الأزمنة الحديثة لأن تفقد كلمة إسلام تدريجياً مضمون ارتباطها بالله ، أولا بالتحول من التقوى الشخصية الى نظام ديني خارجي ، وأخيراً بتحولها الى أبعد من ذلك الى النظام الديني ، إلى المدنية التي كانت تعبيرها التاريخي .

ملاحظة :

ضمت هذه المقالة كما قدمت إلى المؤتمر بشكل أساسي جزأين كان الأول عرضاً للمواد والثاني شرحاً لها .

والشرح مثبت هنا ولأسباب ضيق المجال ، والتكاليف حذف الجزء الآخر وكان مؤلفاً من قائمة مرتبة ترتيبا زمنياً لمجمل الكتب بالعربية التي أمكن للمؤلف أن يجدها ، مما ظهر فيها كلمة إسلام .

ولقد تم شرح بناء القائمة آنفاً (ص ٤٨٨ ـ ٤٩٠) وكتب الأستاذ كانتول سميث «من بعض الجوانب : إن القائمة التي جمعتها كانت أهم من التفسير الذي حرصت على أن أعطيه لها ، إذ أن الآخرين قد يرغبون في تحري تفسيري ، ولكن من المهم أننا نتكلم عن الوقائع نفسها ، وإذا رغب أحد في تتبع الأمثلة المثارةهنا فإن المؤلف على استعداد لتقديم نسخة مصورة عن القائمة التي تضم (نحو ١٥٠ عنواناً) لكل باحث مهتم يوجه الطلب إليه في جامعة (ماك جيل) في مونتريال .

هوامش البحث

١ ـ هل الأسلام اسم لدين ؟ محاضرة في جامعة برنستون ، كانون ثاني (١٩٥٧) . هل يجب أن يكون للأديان الكبيرة أسماء ؟ محاضرة ألقيت في جامعة طهران والجامعة الأمريكية في القاهرة ، شباط (١٩٥٨) .

٢ ـ برنشفيغ R. Brunschvig في طبعة غ ،ي ، فون غرونوباوم «الوحدة والاختلاف في الحضارة الإسلامية» (شيكاغو ١٩٥٥) ص ٤٧ ، يستشهد بمقال أ .ج . فنسنك «صلاه» في handworterbuch des Islam (ليدن ١٩٤١) .

٣ ـ في دراستنا المذكورة في الحاشية (١) أعلاه .

٤ ـ أبرزهم كتاب (رنغرن Ringgren) (إسلام ، أسلم ، ومسلم) (أوبسالا Uppsala ١٩٤٤) وانظر أيضاً خلاصة مقالة (د . هـ . بانث D. H. Baneth) غير المشورة حتى الآن «المعنى الأصلي للإسلام كتعبير ديني ، تجديد لتفسير من العصور الوسطى» في محاضر المؤتمر الدولي» ٢٣ للمستشرقين كمبردج ١٩٥٤ (لندن بدون تاريخ نحو ١٩٥٥ ؟) وقد كان الاستاذ بانث من اللطف بمكان حيث سمح لي برؤية مخطوط كامل لكتاب جيمس روبسون James Robson «الإسلام كاصطلاح» العالم الاسلامي (هارتفورد ١٩٥٤) ٤٤/١٠١ ـ ١٠٩ وهو لا يضيف شيئاً لرنغرن حول الفترة الكلاسيكية ، كتاب دافيد كونستلنغر Dawid Kunstlinger «أسلام ، مسلم ، أسلم» في القرآن في Rocznik Orjentalis Tyczny «Lwow» ويجب أيضاً الرجوع إليه ١٢٨/٢ ـ ١٣٧ (١٩٥٥) .

٥ ـ تقوم دراستنا على التوافق الرائع بين مواد كتاب عبد الباقي (المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم) (القاهرة ١٣٦٤/١٩٤٥) ومن أجل مناقشة أوفى انظر دراستنا المذكورة في الحاشية (١) أعلاه .

٦ ـ مثلاً «وكفروا بعد إسلامهم» ٩/٧٤ .

٧ ـ وأدخلنا أيضاً في البطاقات جميع العناوين في هذه الجريدة التي تظهر فيها التعابير التالية : أسلامي ـ مسلم ـ إيمان ـ إيماني ، مؤمن ، دين ، ديني ، أديان . ديانة ، ملة ، وفي معان معينة (تلك التي ترتبط بالدين) سوى بالنسبة للاسلام فلم ندرس بعد تلك المجموعات بشكل تنظيمي .

٧ ـ حول القوائم انظر أدناه ص ٥٠٢ .

٨ ـ ليس لدي رقم حول كم من الـ ٢٥٠٠٠ عنوان تقريباً في فهرس بروكلمان التي شكلت فيها هذه القائمة مما يعود الى أعمال قبل (١٣٠٠ هـ) وتخمينا قد يقرب الرقم من ١٥٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠ .

٩ ـ انظر ملاحظة (٧) أعلاه .

١٠ ـ أي ٨٤ إلى ٥٦ .

١١ ـ في فهرس بروكلمان للقرن الحالي ترد كلمة إسلام «٥٢» مرة (قائمتنا ب) إيمان «٤» مرات ، والمعاجم في «ب» التي ليست من بروكلمان لن تدرس هنا حيث أنها جمعت لهذا الغرض .

١٢ ـ من المهم أن نظهر مقدار زيادة بروز الدور الذي شغلته باكستان الحديثة في مثل هذه الحالة في مفهوم الإسلام أكثر من مفهوم الإيمان ، وقد يفترض المرء أن الخطأ الأساسي في الدفاع عن «الدولة الإسلامية» كان في افتراض أن الإسلام يمكن دراسته دون الاهتمام بمسألة الإيمان .

١٣ ـ المصدر نفسه ص ٢٧ ـ ٢٨ .

١٤ ـ انظر ما يلي ١٩ .

١٥ ـ إن العمل قد يكون زائفاً (وهكذا لدى هورفتز Horo,Vitz) في الموسوعة الاسلامية ط ـ أولى ، مادة واقدي ، إن العنوان على الأقل ليس أصلياً ، وهو واضح من عنوانه الآخر كما أعطي في مادة فهرس أو في بروكلمان .

١٦ ـ راجع بروكلمان ـ الذيل : ١٢٨/٢ ، ٤ ب مع ١١٩/٢ ، السطر الأخير .

١٧ ـ حاشية (١) أعلاه .

١٨ ـ وصل هذا في اللهجة البيروتية الحديثة الى القول في العامية «جيراننا الإسلام» للدلالة على أن الجيران مسلمون .

١٩ ـ هناك ثلاثة عناوين تتطلب ذكراً ، خاصاً ، ما ذكره محمد كرد علي (ص ١٠) في طبعته الدمشقية (١٣٦٥/١٩٤٦) لكتاب ظهير الدين البيهقي «تاريخ حكماء الإسلام» حيث ذكر ان هذا العنوان حديث ، وكان العنوان الأصلي «تتمة صيوان الحكمة» وفيما يتعلق بكتاب أدب الاسلام للبلوي القرن (١٢/٦) توحي النقول أن العنوان ، اضافة الى الكتاب نفسه ، من تصنيف أبي عبيد ، وهو كاتب (من القرن ٩/٣) وكلمة إسلام هنا تعارض كتعبير أدبي بالجاهلية ، ويفترض أيضاً ، بكل يسر، شمول الكتاب المسيحيين في عصر ما بعد النبي ﷺ ويمكن للمرء أن يقارن كما يبدو حقيقة أن تعبير «إسلامي» قد استعمل للمرة الأولى (مادة لين) في المناقشات الأدبية بدلاً من الدينية أو حتى التاريخية بالمعنى نفسه ، وكتاب الشيزري «جمهرة الإسلام» مشمول هنا مع أن الأمر موضع نقاش فيما اذا كانت هذه المادة يجب أن تذهب حقاً (أو أيضاً ؟) إلى مجموعة «أهل الإسلام» ، «ملة الإسلام» أعلاه ، انظر حاشية ١٤ ـ أعلاه .

٢٠ ـ انظر أ ـ ك . س . لامبتون ، Quis, Custodiet Custodes بعض الانعكاسات حول النظرية الفارسية للحكومة في دراسات إسلامية (باريس ١٩٥٦ ٥ : ١٢٩) .

٢١ ـ منذ كتابة العبارة أعلاه ، اني سعيد أن أجد أن نبوءتي على ما يبدو تثبت خطؤها إذ أن زميلي دكتور فضل الرحمن سيتولى كتابة مثل هذا التاريخ .

٢٢ ـ كتاب المؤلف الراهن «الإسلام في التاريخ الحديث» (برنستون ، ١٩٥٧) (لندن ١٩٥٩) ص ٨ ص ٩ ، حاشية ٥ وبشكل عام الفصل الأول فيه .

٢٣ ـ تحدث بروكلمان بالذيل : ٣/٣٢٠ عن مقال (هانوتو) كما في تاريخ : ٢ ٩٥/٣٨٢ ، ورد محمد عبده ، كما في ٤١١/٣٩٥ وأعطى في الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٤٤) من المجلد الثاني لرشيد رضا «تاريخ الأستاذ الإمام» صفحات ٤٠١ ـ ٤١٤ وأعطيت للإجابات الست لعبده الصفحات ٤١٥ ـ ٤٦٨ واستشهد بقالة هانوتو هناك على انها ترجمة محمد مسعود بك ، وكان في حينه أحد محرري المؤيد ، ونشرت هناك سنة ١٣١٧ (القاهرة ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠) بعنوان «قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية» ، وكان عنوان الأصل بالفرنسية :

«وجها لوجه مع الإسلام والمسألة الإسلامية» .

٢٤ ـ كان عنوان أول طبعة عربية (القاهرة ١٣١٦/نحو ١٨٩٨) «بروكلمان ـ المرجع نفسه» «تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية» .

٢٥ ـ لعل مما يستحق التحري مسألة لماذا ترجم «وجدي» الكتاب الفرنسي «إسلام» بالعبارة العربية «الديانة الإسلامية» في ١٨٩٨ و«بإسلام» في ١٩٠٤ . راجع الملاحظة المتقدمة .

٢٦ ـ بروكلمان ـ الذيل ١٨٤/٣ .

٢٧ ـ راجع أعلاه .

٢٨ ـ من بين ٢٥ عنوانا في قائمتنا (ب) التي تغطي الفترة الحديثة حتى الحرب العالمية الأولى أربعة منها صنفت من قبل مسيحيين ، وثلاثة هي عبارة عن ترجمات ومن ٥ إلى ٧ هي على الأقل ردود واضحة على غير المسلمين .

وقد تظهر دراسة أكثر شمولا أن المزيد يجب أن يضمن في تلك المجموعة الأخيرة ، وعلى سبيل المثال فإن (بروكلمان) يميز «أبا المحاسن يوسف النبهاني» مؤلف اثنين من هذه الأعمال على أنه مدافع عظيم عن الإسلام ضد الثقافة المسيحية (الذيل : ٢٦٣/٢) . هل مؤلف فتوح الإسلام في بلاد العجم وخراسان غير مسلم ؟ ـ وهكذا .

٢٩ ـ قمت بتحليل وجهة النظر الناتجة حول الاسلام في الفصل (٣) العرب منَ كتابي الحديث «الإسلام في التاريخ الحديث» وقد قادتني الدراسة الراهنة الى مسألة ما إذا كانت العملية التي أوجدت هذا الاتجاه لن يبحث عنها في كتابات الفترة الموجودة هنا تحت الدراسة، ربما بمثابة نقطة تحول هامة ، وإني لأتساءل أيضاً عما إذا كان لا ينبغي تهريب بعض التفسيرات . ولنأخذ مثالا واحداً : الفعالية الكبيرة لكتاب جرجي زيدان «تاريخ التمدن

الإسلامي» ٥ مجلدات (القاهرة : ١٩٠٢ ـ ١٩٠٧) وهو واسع الانتشار بين المسلمين العرب بسبب شعورهم بعظمة الماضي الثقافية ، وقد يتساءل المرء عما إذا كان عنوان كتابه لم يقدم للفكر العربي الحديث مفهوم المدنية الاسلامية في حد ذاته (إني لم أستخرج ما إذا كان الأفغاني قد استخدم هذا المفهوم بدقة) وفي دراستي الحديثة أشرت بالطبع إلى هذا العمل (ص ٥٤ قارن ص ٩٤ حاشية ٢) ولكني تعاملت مع زيدان على انه ، تقريبا ، هامشي لتطور الوعي الديني للعرب المسلمين الحدثيين ، لكونه من غير المسلمين وكنتيجة لتحرياتي الراهنة ـ على أي حال ـ فاني مضطر للتساؤل عما اذا كان من الممكن تصور أن كونه غير مسلم في حد ذاته له أهمية ، أو بالحري ، لكونه كذلك فإن اسهامه بالتحديد كغير مسلم ربما ليس له شأن كبير بل هامشي لأن جدلي مضى الى إظهار أن مفهوم المسلم الحديث للاسلام الممثل في حالة وجدي يقترب من مفهوم غير المؤمن ، وربما أن غير المسلم قد شغل (دون تعمد) دوراً أكثر مركزية في التمزق الحديث للتفكير الديني الإسلامي أكثر مما عرفنا .

٣٠ ـ بروكلمان ـ الذيل ٢٧٦

المحتوى

القسم الثالث

٥٧٣ ـ كتابات تأريخية شرق ـ أوسطية حديثة